فيصل الأول
ملك العراق

طبع الكتاب بمناسبة
مئوية الدولة العراقية 2021

تأليف
علي عبد الأمير علاوي

ترجمة
سيمون أكرم العبّاس   غيث يوسف محفوظ

مراجعة
أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض



فيصل الأول

ملك العراق

طبع الكتاب بمناسبة مئوية الدولة العراقية 2021

فيصل الأول

ملك العراق

طبع الكتاب بمناسبة مئوية الدولة العراقية 2021

تأليف: علي عبد الأمير علاوي

ترجمة: سيمون أكرم العبّاس/غيث يوسف محفوظ

مراجعة: أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض

الطبعة الاولى، بيروت/النجف الاشرف، 2022

First Edition, Beirut/Najaf, 2022



تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77472 - 164 - 3

أيار/مايو 2022

فيصل الأول
ملك العراق

طبع الكتاب بمناسبة مئوية الدولة العراقية 2021

تأليف

علي عبد الأمير علاوي

ترجمة

سيمون أكرم العبّاس غيث يوسف محفوظ

مراجعة

أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض



الفهرس

الجزء الثاني
خرق المواثيق
الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى (1914 ـ 1918)

الجزء الثالث
الحلم المُهشّم
سوريا ومؤتمر باريس للسلام (1918 ـ 1921)

الجزء الرابع
بدايةٌ جديدة
العراق (1921 ـ 1933)

مقدمة المركز

احتل تاريخ العراق المعاصر مساحةً مَنْظُورة من اهتمامات مركز الرافدين للحوار (R.C.D)، انطلاقاً من إيمانه أن دراسة ماضي الأمم والاطلاع على تجاربها الماضية الغنية يُسهم في إضافة خبرات تراكمية للجيل الحاضر، ويجعله أكثر قدرة على تشخيص أخطاء أسلافه واجتناب إعادتها أو تكرارها مستقبلاً، وفرز الأعداء عن الأصدقاء. كما إن الذاكرة لا تُقاس بحجمها وما فيها من زخمٍ حافل من التراث الكمّي، بل بكيفية استحضارها وحُسن استثمارها بأسلوب علمي، لحفظ الحقوق ولتقديم العظة والعبرة، بوصفهما مصدراً للإلهام والحصانة الاجتماعية التي تساعد الأجيال اللاحقة على التطلّع نحو المستقبل الزاهر المبني على النضج والوعي. ومن هنا جاءت ترجمة وطباعة كتاب (ملك العراق فيصل الأول).

إن الكتاب الذي بين أيدينا يُقدّم توثيقاً شاملاً لحياة واحدٍ من أهم حكّام العراق طوال تاريخه على الإطلاق، بل يُعد من بين أبرز شخصيات الشرق الأوسط لحقبة تاريخية حسّاسة، تمثلت في الثلث الأول من القرن العشرين، والتي أدت دوراً محورياً في صنع أحداثه الحاسمة ورسم الخطوط الأساسية للكثير من دوله القائمة اليوم، وفي مقدمتها العراق، إذ يُعد (فيصل) الشخص الأهم في تأسيس المملكة العراقية الحديثة عام 1921، وتشييد دعائهما وبناء أركانها، والكفاح من اجل إعطائها هويتها السياسية، وصولاً إلى تخليصها من براثن الاستعمار والوصاية الأجنبية، وتحقيق الاستقلال الناجز.

استوعب المؤلِّف جهود الملك فيصل في إقَامَة مشروع الدولة في العراق، واجتهاده في مدّها بمقومات النجاح والتعامل مع إشكالاتها المُستَجَدّة، وإيجاد مرتكزاتها الأساسية مثل الدستور والأنظمة والمؤسسات الخدمية والتعليمية والأجهزة التنفيذية واللوائح القانونية وغيرها الكثير الكثير من خطوات بناء الدولة التي نهض بها من نقطة الصفر تقريباً، وفي مرحلة مبكرة من تاريخ بلادنا، كانت مليئة بالصعوبات والمنغصّات. كما سعى بشكلٍ جاد وبخطوات واقعية لتمكين جميع مكونات الشعب العراقي من أخذ استحقاقها الوطني، لكن عبر إقناعهم بذكاء أنهم أبناءُ بلدٍ واحد مهما كان شكل هويَّاتهم الفرعية.

تميّز الكتاب بتقديم دراسة كُلِّية لأبرز محطات حياة شخصية المؤسس «العظيم» فيصل،

فلم يقتصر على دراسة تتويجه كأول ملكٍ في العراق في ظروف عصيبة وأحداثٍ عاصفة، بل بدأت من مولده وأحواله مع أسرته في الحجاز وتواصله مع النخبة العربية القومية، قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، ودوره المرموق في قيادة الثورة العربية الكبرى وانتصارها، وتفاصيل قد ترد لأول مرة عن نشاطاته الميدانية في الحرب على الدولة العثمانية واتصالاته مع الضباط العسكريين والسياسيين البريطانيين والفرنسيين في جبهات القتال، وسفراته إلى العواصم الأوربية مروراً بتأسيس مملكته الأولى في سوريا، ونضاله المخلص من أجل تأسيس كيان عربي موحّد للعرب، يضم معظم بلدان الجزيرة العربية. لكن صراع الإرادات والأطماع الأجنبية المستمرة وقفت بوجهه، لينتهي به المطاف إلى تصدّيه بشجاعة وحكمة لإدارة بلدٍ متعدد الأعراق والمذاهب كالعراق.

اتبع المؤلف منهجاً موضوعياً ومحايداً في تناول موضوعات كتابه، حرصاً منه على عدم الانجرار وراء الميول المذهبية والفكرية، والابتعاد عن كل ما من شأنه التأثر بشخصيةٍ ما، أو المبالغة، سواءً في مدحها أو الإطناب عليها أو نقدها والتحامل عليها سلبياً. كما ركّز على الجانب التحليلي للأحداث، والتعمّق في سردها وتفسيرها، ومناقشة رؤى فيصل وقراراته في كل المفاصل، ومحاولة استحضار حالته النفسية والشعورية آنذاك تجاه هذه القضية أو تلك، ومواقفه المختلفة وطريقة إدارته للأزمات والمنعطفات الدقيقة، وعلاقته مع المحيطين به.

اعتمد المؤلف على عدد ضخم من المصادر الأصيلة والمتنوعة قريبة للأحداث، كتب معظمها مؤرخون وشخصيات رفيعة ووثيقة الصلة بفيصل. منها كتب المذكرات والمدونات اليومية والرسائل الأكاديمية من الجامعات الغربية والمطبوعات الإنكليزية، إلى جانب كمٍ كبير من الوثائق غير المنشورة، والمحفوظة في دور الارشيف البريطانية، كمراسلات فيصل نفسها مع القادة الميدانيين ووالده وأخوته وزعماء العالم. إن هذا الكتاب سوف يكون فرصة للإطلاع على معلومات جديدة وحافزاً لإعادة قراءة الأحداث من منظور عميق ومختلف.

المراجع

أ. د. مقدام عبد الحسن الفياض

شكر وتقدير

تطورت في ذهني فكرة كتابة سيرة ذاتية عن فيصل ملك العراق منذ عام 1998. ففي تلك السنة توفي والدي في لندن، وكنت مسؤولاً عن طباعة كتاباته التي ستُشكل فيما بعد كتاب المذكرات. كان أبي أول من التحق بمدرسة ذات منهج حديث من أبناء جيله، وتخرج فيما بعد ضمن الافواج الأولى من كلية الطب المؤسسة حديثاً في بغداد. حيث أمضى فترة شبابه وثقافته الجامعية في فترة تتويج فيصل ملكاً على العراق في عشرينيات القرن الماضي. كانت ذكرياته عن تلك المرحلة مليئة بالإحساس حول الإمكانيات غير المحدودة والتفاؤل بمستقبل العراق الذي شعر به هو وجيله. فأخذ على عاتقه هو والعديدون من مثله مواجهة التحديات في بناء بلدٍ حديث بكل حماسة والتي كانت في تلك الأيام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقيادة التي قام بها فيصل لهذه المهمة. غالباً ما قادتهم مساراتهم المهنية إلى قمة الهرم الوظيفي وإلى المناصب العامة الرفيعة، والتي لم يكن من الممكن تصورها لولا المؤسسات الحديثة التي دافع عنها فيصل بجدٍ واجتهاد. وانعكس احترام وإعجاب أبي لفيصل من قبل جميع الذين شاركوا معه خبراتهم التأسيسية في العراق في عشرينيات القرن الماضي. لذلك فإني أُدين لوالدي الراحل، الدكتور عبد الأمير علاوي، الذي بفضله أثير اهتمامي أولاً بفيصل.

يتابعني عن كثب اثنان من زملاء والدي وأصدقائه، الذين شكّلوا في منفاهم في لندن فريقاً، سويةً مع والدي، كانوا معروفين بـ«الفرسان الثلاثة»، وهم كبار رجال الدولة في مجتمع المنفى العراقي الذين عاشوا حياة الحذر، والبصيرة، والحكمة، وكانوا أيضاً رجال العصر الفيصلي: وطنيين، بارعين، ومتفانين. كان عبد الغني الدلّي وزير زراعة سابق عراقي وسفير؛ وعبد الكريم الأزري وزير المالية العراقي في النظام الملكي(*) ومرجعاً في تاريخ العراق الحديث. كلاهما تم نفيهما بعد ثورة 1958 التي قضت على النظام الملكي في العراق وعلى مملكة فيصل التي أسسها. تكلم عبد الغني الدلّي دائماً أن العراق مدين لفيصل، وذكر مراراً أن فيصل لم يجد بعد كاتباً لسيرته الذاتية. فوعدت الدلّي أنني سأكتب السيرة الذاتية لفيصل، مع أنني لست مقدّراً حجم المهمة

(*) كان الاثنان يعيشان في أواخر سني حياتهما حين التقاهما المؤلف وأفاد منهما في كتابه، فالأول عبد الغني الدلّي 1913 ـ 2010، والثاني عبد الكريم الأزري 1908 ـ 2008. (المُراجع).

التي حددتها لنفسي. وفي مناقشاتي العديدة مع عبد الكريم الأزري بدأت أدرك بأن فيصل قد احتل موقعاً ذا أهمية بارزة في تشكيل العراق، كما طلب سيرة شاملة عن الملك.

أما آخر هذه المجموعة الذي أُدين له بجزء من الامتنان فهو محمد فاضل الجمالي [1903 ـ 1997] المثقف المعروف دولياً ورئيس الوزراء السابق للعراق. ضمت حكومته الأولى، عدداً من المواهب العراقية الذين تطوروا تحت حكم فيصل في عام 1953. على الرغم من أنه استقر في تونس فيما بعد، فإن زياراته المتكررة إلى لندن كانت مناسبة لأحصل على فرصة بسماع تذكرة عن العهد الفيصلي. وبقي ابنه، صديقي الطيب، أسامة يذكّرني بالحاجة إلى سيرة ذاتية عن فيصل، وعندما بدأت بالعمل عليه كان يسألني دائماً عنه، فأبقاني متيقظاً للمهمة التي بين يدي. بأنني من خلال هذا الكتاب قد حققت وعدي لكل هؤلاء الناس ولذكرياتهم أيضاً.

لم يكن هذا الكتاب ممكناً بدون دعم عدة معاهد أكاديمية وباحثين عن العراق والشرق الأوسط الذين رحّبوا بهذه السيرة الذاتية. فأرغب أن أوسع دائرة شكري وتقديري لمركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنطوني، من جامعة أوكسفورد، ولمديرها يوجين روجان؛ في معهد دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا في جامعة لندن، وأرغب بشكر تشارلز تريب(*)* لرؤيته ولقراءته مخطوطة الكتاب. أما في الولايات المتحدة فإني أقدم شكري وتقديري للبروفسور روجر أوين من جامعة هارفارد فقد كان دعمه ونصيحته لا يقدران بثمن.

وقدّم البروفسور بيتر سلوجليت في جامعة يوتا والآن بروفسور وباحث في معهد الشرق الأوسط بجامعة سنغافورة الوطنية، نصيحته وتعليقاته بلا حدود. إنه بجدارة أحد المراجع الأكاديمية الرائدة عن العراق وخصوصاً للفترة التي تتكلم عنها هذه السيرة الذاتية. أود أن أشكره كثيراً على ملاحظاته التفصيلية وقراءته المتأنية للمسودة. كما أود أن أعبّر عن امتناني للبروفسور ماغنوس بيرن هارسون في كلية ويليامز ماساتشوستس الذي وافق بلطف أن يقرأ ويعلّق على مسودة الكتاب، وقدّم تعليقات لا تُقدّر بثمن على الوضع الاجتماعي والثقافي لعصر فيصل.

وأود أن أشكر أيضاً مركز كار في مدرسة كينيدي للإدارة الحكومية في جامعة هارفارد لمنحي زمالة للعام الدراسي 2008 ـ 2009. وأعطتني الوقت لأفكر وأتأمل على السيرة الذاتية، وأستخدم الخدمات التي لا تصدق لمكتبة وايدنر في هارفارد. يجب أن تصنف هذه المكتبة العظيمة كواحدة من الكنوز الوطنية في الولايات المتحدة. وأوجه شكري أيضاً إلى روري ستيوارت، النائب، وبعدها مدير مركز كار، وتشارلي كليمنت، المدير التنفيذي لمركز كار.

(*) أكاديمي ومؤلف بريطاني متخصص في سياسة وتاريخ الشرقين الأدنى والأوسط، له عدد من المؤلفات في هذا المجال، أبرزها كتابه: صفحات من تاريخ العراق. وتشمل مجالات بحثه الرئيسة دراسة الدولة والمجتمع في الشرق الأوسط، وخاصة العراق. (المُراجع).

في العراق، أُعرب عن تقديري العميق للدكتور سعد اسكندر، رئيس المكتبة الوطنية في العراق. حيث سمح لي بالوصول الكامل إلى المكتبة، وأرشيف البلد، وإلى مجموعة المكتبة الوطنية للجرائد العراقية القديمة.

ساعدني أيضاً عدة أشخاص في البحث في الكتب. إبراهيم المراشي كان مساعدي الأول والباحث الذي ساعدني في البحث في الأرشيف الوطني لبريطانيا. وساعدني مساعدي ألبير باهادير في هارفارد بالكشف عن الوثائق في العصر العثماني في كل من هارفارد والأرشيف العثماني في اسطنبول. ولمياء الكيلاني التي قدّمت لي صوراً نادرة لتلك الفترة تم انتشالها من القصر الملكي السابق في بغداد. وقدّمت لي تمارا الداغستاني صوراً ومعلومات مفصلة عن العشيرة الهاشمية. وقدّم لي أيضاً راسل هاريس صوراً رائعة عن فيصل، وأود أن أشكره لدعمه لي.

كان كُلاً من آن وهنري ويليكس كريمين جداً بمشاركتي المذكرات المكتشفة مؤخراً ورسائل السير هنري دوبس. أحتفظ بشكر خاص لهم، وباتريك كوكبيرن الذي كان لطيفاً للغاية أن عرفني بعائلة ويليكس.

وأخيراً، أقدّم تقديري وشكري للشريف محمد بن الحسين حفيد الملك علي ملك الحجاز. لقد كان الشريف محمـد قارئاً لا يعرف الكلل للسيرة الذاتية في مسوداتها المختلفة، وتعليقاته، وكانت ملاحظاته دائماً بنّاءة وملائمة. لقد أثبتت أنه المرآة الحقيقية والمعلّق الموثوق الذي يحتاجه أي كاتب.

الخرائط

الشخصيات الرئيسة

عائلة الأشراف

1 ـ فيصل بن الحسين ـ ملك سوريا، ملك العراق، الابن الثالث لحسين بن علي.

2 ـ حسين بن علي ـ أمير مكة المكرمة ومفجّر الثورة العربية الكبرى.

3 ـ علي بن الحسين ـ أكبر أبناء حسين بن علي، بعدها ملكاً على الحجاز. تصرف كوصي لفيصل ومحط ثقته.

4 ـ عبد الله بن الحسين ـ ثاني أبناء الحسين بن علي، فيما بعد أمير إمارة شرق الأردن.

5 ـ زيد بن الحسين أصغر أبناء الحسين بن علي. الأخ غير الشقيق لفيصل. ساعد فيصل في الثورة العربية الكبرى، وفي تشكيل الحكومة العربية في سوريا.

العراقيون

1 ـ جعفر العسكري ـ ضابط عثماني سابق؛ قاوم البريطانيين في برقة؛ قائد القوات النظامية للثورة العربية. ووزير لعدة مرات، ورئيس وزراء وسفير تحت حكم فيصل.

2 ـ رشيد عالي الكيلاني ـ وهو من فرع عائلة النقيب. طموح ودؤوب. وآخر رؤساء وزراء فيصل.

3 ـ ياسين الهاشمي ـ نشأ ليصبح جنرالاً عثمانياً وبقي مخلصاً للقضية العثمانية. انضم إلى الحكومة العربية تحت إمرة فيصل في دمشق. وأصبح وزيراً ورئيساً للوزراء في العراق تحت حكم فيصل. غامض وطموح.

4 ـ المرجع آية الله أبو الحسن الأصفهاني أعظم آيات الله في العراق. أصدر فتوى حرّمت المشاركة بانتخابات الجمعية التأسيسية. اختار النفي الذاتي إلى إيران تضامناً مع الخالصي، لكنه عاد في عام 1924 متجنباً الخوض في السياسة الرسمية.

5 ـ علي جودت ـ ضابط عثماني سابق؛ مجنّد مبكر للثورة العربية وقائد للقوات السورية في وادي البقاع؛ حاكم مقاطعة [لواء] ووزير في وقت لاحق تحت حكم فيصل.

6 ـ الشيخ مهدي الخالصي ـ آية الله متنفذ في الكاظمية. معادٍ للبريطانيين ولفيصل غالباً. تم ترحيله إلى إيران في عام 1923 من قبل السعدون.

7 ـ عبد المحسن السعدون ـ محامي متدرب في اسطنبول من قبيلة عراقية جنوبية متنفذة. رئيس الوزراء لكنه بقي بمعزل عن فيصل. حرّض على المواجهة مع القيادة الدينية الشيعية. مفضل من قبل البريطانيين. انتحر عام 1929.

8 ـ عبد الرحمن النقيب ـ رئيس نظام ديني قوي(*).

9 ـ ومن أعيان بغداد. أول رئيس وزراء للعراق. عارض فيصل ثم تصالح معه عندما أصبح ملكاً.

10 ـ نوري السعيد ـ رجل دولة. ضابط عثماني سابق؛ شهد حرب البلقان الأولى، عضو في جمعية العهد السرّية؛ انضم إلى الثورة العربية. مؤسس الجيش العراقي وبعدها أصبح وزيراً ورئيساً للوزراء تحت حكم فيصل.

11 ـ ناجي السويدي ـ من عائلة بغدادية عريقة. وزير ورئيس الوزراء تحت حكم فيصل.

12 ـ جعفر أبو التمن ـ من عائلة بغدادية تجارية بارزة ـ قومي بقوة ومعادٍ للبريطانيين. كانت علاقته متناقضة مع فيصل.

العثمانيون

1 ـ السلطان عبد الحميد ـ سلطان/ خليفة للإمبراطورية العثمانية؛ خُلع عن العرش 1909.

2 ـ أنور باشا ـ واحد من أعضاء الحكم الثلاثي الذين حكموا الإمبراطورية العثمانية في سنواتها الأخيرة.

3 ـ جمال باشا ـ القائد الأعلى للقوات العثمانية في سوريا للقسم الأكبر من فترة الحرب العالمية الأولى.

4 ـ مصطفى كمال ـ قائد القوات العثمانية في سوريا في نهاية مرحلة الحرب. مؤسس الجمهورية التركية الحديثة.

السوريون/ الفلسطينيون/ اللبنانيون

1 ـ عوني عبد الهادي ـ سكرتير الوفد العربي في باريس. أحد أفراد حاشية فيصل ومستشاريه، أصبح فيما بعد شخصية هامة في الحركة الوطنية الفلسطينية.

2 ـ رستم حيدر ـ صديق فيصل وموضع ثقته؛ فيما بعد وزيراً في العراق.

(*) المقصود هنا هو نقيب الأشراف، الذي كان أحد المناصب الدينية المهمة في بغداد على عهد الدولة العثمانية، ويُختار عادةً من عائلة الأشراف التي تعود بنسبها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية الصوفي، ويرجع بنسبه إلى الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب (ع). (المُراجع).

3 ـ تحسين قدري ـ مساعد فيصل ورفيقه.

4 ـ أحمد قدري ـ أخو تحسين. عضو سابق في الجمعية العربية السرّية الفتاة. مستشار فيصل.

5 ـ علي رضا الركابي ـ الحاكم العسكري السوري تحت حكم فيصل.

البريطانيون

1 ـ إدموند أللنبي ـ قائد الحملة المصرية وقوات التحالف في سوريا وفلسطين.

2 ـ غيرترود بيل ـ سكرتيرة بيرسي كوكس للشؤون الشرقية، فيما بعد مؤسسة المتحف العراقي. مناصرة لفيصل كملك على العراق.

3 ـ وينستون تشرشل ـ وزير الدولة لشؤون المستعمرات، ترأس مؤتمر القاهرة 1921، الذي أسس سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط.

4 ـ جيلبرت كلايتون ـ ضابط مخابرات، المفوض السامي في العراق في وقت لاحق.

5 ـ كيناهان كورنواليس ـ مدير المكتب العربي في القاهرة. صديق لفيصل وسفير إلى العراق [مندوب أو مفوض سامي] في وقتٍ لاحق.

6 ـ بيرسي كوكس ـ ضابط سياسي كبير في العراق خلال حرب ما بين النهرين والمندوب المفوض السامي الأول للعراق.

7 ـ جورج، لورد كرزون ـ وزير الخارجية؛ قاوم استقلال سوريا.

8 ـ هنري دوبس ـ صاحب أطول مدة خدمة كمفوضٍ سامٍ في العراق. كانت علاقاته مضطربة مع فيصل.

9 ـ فرنسيس همفريز ـ المندوب السامي الأخير في العراق حتى الاستقلال.

10 ـ ديفيد لويد جورج ـ رئيس الوزراء في الحرب العالمية الأولى؛ أحد الأربعة الكبار في مؤتمر باريس للسلام.

11 ـ ت. إ. لورنس ـ مستشار فيصل ومؤسس قوات حرب العصابات في الثورة العربية الكبرى؛ دافع عن فيصل في مؤتمر باريس للسلام ومؤتمر القاهرة في عام 1921.

12 ـ حاييم وايزمان ـ مفكر وزعيم صهيوني.

الفرنسيون

1 ـ روبير دوكيه ـ [سياسي فرنسي] أثّر على السياسة الفرنسية في بلاد الشام.

2 ـ جورج كليمنصو ـ رئيس الوزراء. دخل في صفقة فاشلة عن سوريا مع فيصل.

3 ـ قدور بن غبريط ـ مترجم مغربي ومحاور مع الوفد العربي بقيادة فيصل في باريس.

4 ـ هنري غورو ـ المندوب السامي في سوريا ولبنان؛ عدو عنيد للاستقلال السوري.

التسلسل الزمني للأحداث

- 1517 تدّعي الإمبراطورية العثمانية السيادة على الحجاز؛ وتقرّ الحكم للاشراف \ أمير مكة المكرمة.
- 1876 إصدار الدستور العثماني. يتسلم السلطان عبد الحميد السلطة.
- 1878 يُعطل عبد الحميد [الثاني] البرلمان العثماني، ويُعلّق الدستور، ويؤسس الحكم الاستبدادي.
- 1883 مولد فيصل، الابن الثالث للحسين بن علي، في الطائف.
- 1883 ـ 1890 يتربى فيصل في القبيلة البدوية لبني العبادلة.
- 1893 ينضم فيصل لعائلته في المنفى في اسطنبول.
- 1900 بدء إنشاء سكة حديد الحجاز، لربط الأقاليم مع بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية.
- 1904 يتزوج فيصل من ابنة عمه حزيمة بنت الشريف ناصر بن علي. تنجب له أربع بنات وابن واحد، غازي، ملك العراق فيما بعد.
- 1908 ثورة تركيا (الفتاة) تستعيد حكم الدستور في الإمبراطورية العثمانية.
- 1908 تنصيب والد فيصل، الحسين بن علي، كشريف لمكة المكرمة بأمر من السلطان عبد الحميد. يعود فيصل إلى الحجاز.
- 1909 خلع السلطان عبد الحميد بعد فشل انقلاب مضاد.
- 1911 ـ 1912 يأمر فيصل القوات الشريفية والعثمانية بمقاتلة الإدريسي في منطقة عسير.
- 1912 انتخاب فيصل لمجلس النواب العثماني كعضو عن جدة.
- 1912 اندلاع حرب البلقان الأولى. تفقد الإمبراطورية العثمانية أغلب الأقاليم البلقانية.
- 1914 تدخل الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب قوى المركز.
- 1914 تنزل القوات الإنكليزية الهندية في جنوب العراق وتستولي على مدينة البصرة.

- 1915 يزور فيصل دمشق وينضم إلى جمعية الفتاة العربية السرّية.
- 1915 يدخل الشريف حسين في مراسلات مع السير هنري مكماهون، المفوض السامي في مصر، بخصوص القيام بالثورة العربية ضد الأتراك.
- 1916 يتسلل فيصل من دمشق إلى المدينة المنورة في الوقت المناسب لاندلاع الثورة في حزيران (يونيو)، ويقود قوات القبائل في محيط المدينة المنورة.
- 1917 يترأس فيصل القوات الميدانية للثورة العربية ويستولي على ميناء الوجه؛ سقوط العقبة لصالح جيش فيصل.
- 1917 استيلاء القوات الإنكليزية الهندية على بغداد بقيادة السير ستانلي مود في آذار (مارس).
- 1917 ـ 1918 تكثيف الثورة؛ والقتال عبر الأردن؛ والهجوم على خط سكة الحديد الحجازية.
- 1918 تدخل قوات فيصل في 1 تشرين الأول (أكتوبر) وسط مشاهد الابتهاج.
- 1918 موافقة الإمبراطورية العثمانية على الهدنة في 30 تشرين الأول (أكتوبر)؛ تأسيس الحكومة العربية بقيادة فيصل في دمشق.
- 1918 يغادر فيصل دمشق في تشرين الثاني (نوفمبر) لأجل حضور مؤتمر باريس للسلام.
- 1919 يقدّم فيصل قضية العرب لأجل الاستقلال لمجلس العشرة في شباط (فبراير).
- 1919 عودة فيصل إلى سوريا في نيسان (أبريل).
- 1919 عقد المؤتمر السوري العام في حزيران (يونيو).
- 1919 وصول لجنة كينغ ـ غرين إلى دمشق في تموز (يوليو).
- 1919 القرار البريطاني لإخلاء القوات من سوريا في تشرين الثاني (نوفمبر).
- 1919 عودة فيصل إلى بريطانيا وفرنسا في أيلول (سبتمبر).
- 1920 عودة فيصل إلى سوريا في كانون الثاني (يناير) باتفاق مخطط تفصيلي مع كليمنصو.
- 1920 اجتماع المؤتمر السوري في آذار (مارس)، ويعلن استقلال سوريا الكبرى ويطالب بفيصل ملكاً على سوريا.
- 1920 إعلان الحلفاء أن العراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني في مؤتمر سان ريمو في نيسان (أبريل).

- 1920 يُصْدِر هنري غورو، المندوب السامي للبنان وسوريا إنذاراً لفيصل والحكومة العربية.
- 1920 تهزم القوات الفرنسية بقيادة غورو جيش حكومة فيصل العربية في معركة ميسلون في 24 تموز (يوليو)؛ أُبعد فيصل إلى المنفى.
- 1920 انتفاضة قبلية كبرى تتحدى الحكم البريطاني في العراق من تموز (يوليو) إلى تشرين الأول (أكتوبر) وقُمعت بتكلفة كبيرة.
- 1920 وصول فيصل إلى لندن في كانون الأول (ديسمبر)، بعد عدة أشهر أمضاها في شمال إيطاليا.
- 1921 طرح المسؤولون البريطانيون موضوع عرش العراق مع فيصل.
- 1921 صياغة مؤتمر القاهرة الذي عُقد في آذار (مارس)، برئاسة وزير المستعمرات ونستون تشرشل، السياسة البريطانية في العراق والشرق الأوسط.
- 1921 يحط فيصل في البصرة في حزيران (يونيو).
- 1921 تولي فيصل منصب ملك العراق بعد الاستفتاء.
- 1922 إصابة فيصل بمرض خطير في آب. تم توقيع معاهدة إنكليزية عراقية في تشرين الأول (أكتوبر) تصوغ الدور البريطاني في العراق.
- 1922 تعيين عبد المحسن السعدون رئيساً للوزراء في تشرين الثاني (نوفمبر).
- 1923 إبعاد آية الله الخالصي في حزيران (يونيو)؛ النفي الذاتي لآيات الله القياديين في العراق إلى إيران.
- 1924 انعقاد الجمعية التأسيسية في آذار (مارس)، والمصادقة على المعاهدة الإنكليزية العراقية، وإصدار دستور العراق.
- 1925 تمنح عصبة الأمم ولاية الموصل للعراق في كانون الأول (ديسمبر).
- 1925 انهيار مملكة الحجاز، وانضمام عائلة فيصل إليه في بغداد.
- 1926 وفاة غيرترود بيل في تموز (يوليو).
- 1926 اندلاع التوترات الطائفية في العراق الذي قضى عليها فيصل جزئياً.
- 1927 تقديم فيصل الأول محاولة للحصول على الاستقلال التام للعراق ورفض بريطانيا له.

- 1929 انتحار عبد المحسن السعدون.
- 1930 تعيين نوري السعيد رئيساً للوزراء؛ توقيع معاهدة إنكليزية عراقية جديدة في تشرين الثاني (نوفمبر)، مما يمهد الطريق للاستقلال.
- 1931 إضراب عام يستهدف حكومة نوري.
- 1931 يؤلف فيصل مذكرة واسعة النطاق بشأن حالة العراق.
- 1932 حصول العراق على الاستقلال وقبوله في عصبة الأمم في تشرين الأول (أكتوبر).
- 1933 تعيين رشيد عالي رئيساً للوزراء في آذار (مارس).
- 1933 سفر فيصل إلى بريطانيا في حزيران (يونيو) في زيارة رسمية.
- 1933 اندلاع الأزمة الآشورية في تموز (يوليو).
- 1933 مغادرة فيصل سويسرا إلى العراق في أواخر تموز (يوليو) للتعامل مع الأزمة الآشورية.
- 1933 عودة فيصل إلى سويسرا في بداية أيلول (سبتمبر) ليكمل علاجه الطبي.
- 1933 وفاة فيصل في بيرن بسويسرا في 8 أيلول (سبتمبر) 1933 بسن الخمسين.

تمهيد

أيلول (سبتمبر) 1933

موت الملك

حينما عاد فيصل الأول، ملك العراق، إلى عطلته التي قطعها من سويسرا في أوائل أيلول (سبتمبر) 1933، كان في حالة إرهاق خطيرة. فقبل أقل من سنة، وفي 3 تشرين الأول (أكتوبر) 1932 تحديداً، حصل العراق على استقلاله الرسمي، وتم قبوله في عصبة الأمم كدولة عضو كاملة العضوية. إن نظام الانتداب المقيت، الذي فرضته دول التحالف المنتصرة على الولايات التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية في اتفاقية سان ريمو عام 1920، تم إنهاؤه أخيراً. إنه الهدف الذي ناضل فيصل لتحقيقه بدون كلل، منذ أن توج كأول ملك للعراق الحديث. وطوال الفترة الفاصلة المضطربة، وخلال التقلبات المضطربة للسياسات المحلية العراقية والإقليمية وعلاقاته المتوترة في كثير من الأحيان مع بريطانيا، القوة المنتدبة على العراق، لم يتزعزع أبداً عن هذه الغاية. سيقطع استقلال العراق شوطاً طويلاً في التخفيف من خيبات الأمل المريرة، وحتى الخيانات التي شعر معظم العرب أنها قد نُسبت إليهم في تعويض غير عادل عن دورهم في مساعدة الحلفاء على تحقيق انتصارهم في الشرق الأوسط.

في وقتٍ سابق من ذلك العام، غادر فيصل إلى بريطانيا في زيارة دولة رسمية وهي المرة الأولى التي يزورها كملك لعراق مستقل. عند وصوله إلى محطة فكتوريا في لندن في 20 حزيران (يونيو) 1933، تلقى استقبالاً بضجة كبيرة. حيث ترأس الملك جورج الخامس [1865 ـ 1936] بنفسه لجنة الاستقبال التي رحبت بفيصل وحاشيته. أقام في قصر بكنغهام، وبعدها زار اسكوتلندا للاستجمام لبضعة أيام التي تضمنت جولة من الجولف في فندق غلين إيغلز، وتناول الشاي مع الأسرة الملكية في قلعة بالمورال. كانت الملكة ماري، زوجة جورج الخامس، مدركة أن فيصل كان ينوي قضاء فترة من الراحة والتعافي في سويسرا بعد أن تنتهي جولته الرسمية في بريطانيا. كانت وتيرة عمله القاسية وأثرها على صحته التي نظر إليها بلا مبالاة في كثير من الأحيان مسألة معروفة للجميع. فاقترحت على فيصل أن يستشير ألبرت كوخر وهو طبيب

مشهور من جبل البرينيز أثناء إقامته في سويسرا. حيث طوّر كوخر عدداً من «العلاجات» لمرضاه المشهورين تتضمن حقناً تحت الجلد وعلاجات غير تقليدية أخرى[1]. فاتبع فيصل نصيحة الملكة ماري ووضع نفسه في رعاية كوخر. احتضن فندق بيلفيو بالاس الكبير في بيرن المرافقين المكونين من أربعين رجل قوي من الذين رافقوا فيصل[2]. كان الفندق ذو موقع مثالي حيث يقع بين القصر الاتحادي السويسري ونهر آر. تم تزيين العاصمة السويسرية الهادئة بحاراتها التاريخية التي تعود للقرون الوسطى بالأضواء للاحتفال «بأسبوع الكهرباء».

ضمّت حاشية فيصل عدة وزراء بالإضافة إلى أخيه الأكبر، المخلوع علي، ملك الحجاز السابق الذي خسر مملكته في عام 1925 بعد بضعة أشهر من اعتلائه العرش، لصالح قوات حاكم نجد المفعم بالنشاط عبد العزيز بن سعود. لكن، قُطع مكوث فيصل في بيرن بسرعة، بسبب حصول أحداث في العراق، حيث انتفضت فئات من الأقليّة المسيحية الآشورية في العراق بتحريض من بطريركهم، مار شمعون، مما هزّ أركان الحكومة الوليدة. ولذلك، قرّع فيصل السياسيين المتحكمين في العراق نتيجة خروج الأوضاع عن السيطرة وعاد لمعالجة الأزمة الناشئة[*].

في اليوم السابق لمغادرته، أسرَّ فيصل لصديقه، الكاتب المشهور والشخصية المناهضة للاستعمار الأمير الدرزي اللبناني شكيب أرسلان [1869 ـ 1946]، الذي كان في المنفى في سويسرا قائلاً: « عليَّ أن أعود إلى بغداد لأنني أخشى من أن الشعب العراقي قد يهاجم الآشوريين الذين تم اتهامهم على أنهم جاحدين. قد يبدأ الآشوريون بقتل أفراد الجيش العراقي والتمثيل بأجسادهم. وسيقوم الأكراد أيضاً بتولي زمام الأمور ويذبحون الآشوريين في قراهم. هذا سيؤكد فقط للحاقدين بأننا نحن العراقيين لا نستحق الاستقلال. وحذرتني الحكومة البريطانية للتو أن تلك الأزمة قد تهدد حكمي. علّي أن أعود إلى بغداد ببساطة «. فقال أرسلان: « حسناً لم لا تستقل سفينة من برينديزي إلى مصر أفضل من الطائرة؟ سيكون أسهل عليك بكثير». أجاب فيصل قائلاً: «سآخذ الطائرة بدلاً من ذلك، سيوفر عليّ عدداً من ايام السفر». رد عليه أرسلان: «أنت تتصرف مثل جنرال أكثر من كونك ملكاً». فأجابه فيصل: «نعم، أنا لست ملكاً؛ أنا مجرد جندي في خدمة هذه الأمة»[3].

استقل فيصل القطار من جنيف إلى ميناء برينديزي في إيطاليا. من هناك صعد على متن الطائرة التي نقلته في رحلته الشاقة إلى بغداد، الرحلة التي مرت به من خلال أثينا، والقاهرة، وأُتبعت برحلة قطار إلى غزة، حيث أمضى ليلة، ومن ثم إلى بغداد على متن طائرة أخرى[4]. وصل إلى بغداد في 2 آب (أغسطس) 1933، وأمضى شهراً هناك، في ظل غليان حرارة الصيف، لإدارة

(*) تمّ بحث الازمة الآشورية وأحداث التمرد بالتفصيل في الفصل السادس والعشرين من هذا الكتاب. (المُراجع).

نتائج التمرد الآشوري، والطريقة العنيفة التي قام الجيش العراقي بقمعه في غياب فيصل. هدّد هذا بتسميم علاقات العراق مع عصبة الأمم التي كانت تحت تأثير القوى الأوروبية الاستعمارية. اهتمت العصبة بأن العراق المستقل، المتجرد من الرقابة التي كانت تمارسها سلطة الانتداب على حكومته في السابق، قد يسيء التعامل مع أقلياته. على أية حال، كان قمع الآشوريين شائعاً على نطاق واسع في العراق، وشعر فيصل بثقة كافية لاستقرار البلاد الداخلي، فعاد إلى إجازته المقطوعة في بيرن يوم الخميس 31 آب (أغسطس).

بعد عودته إلى مقر إقامته في فندق بيلفيو بالاس، بدأ فيصل فوراً باستقبال أفواجاً من الزوار، معظمهم عرباً من فلسطين، وسوريا، ولبنان، مثل الأخوين أرسلان، عادل وشكيب، والسياسي السوري إحسان الجابري الذي عرفه فيصل بشكل تام خلال الحرب العالمية الأولى وخلال حكمه القصير لسوريا، عندما عمّت فكرة المملكة العربية المستقلة معظم عرب الشرق الأوسط، تحت حكم فيصل وأسرته الهاشمية، والتي لم تكن غير متوقعة.

استمر فيصل في إظهار سلطته كشخص دافع عن القضية العربية الكبرى وناور بنجاح في وجه القوى العظمى لتحقيق استقلال بلاده ولا زال متمسكاً بالوعد، مهما كان هذا الوعد بعيداً، بأن يكون الزعيم الذي يمكنه إنقاذهم وغيرهم من العرب من حالة استعباد قوى الانتداب. لكن هناك زوار آخرون وهم الذين ارتبطوا بالعراق فقط من بعيد، أو بالصراع من أجل التحرر العربي. لم يكن فيصل أبداً مؤيداً نشطاً للجامعة الإسلامية ـ الكونفدرالية العالمية للمسلمين تحت سلطة الخليفة ـ لكن وفداً من رجال الدين المسلمين من البوسنة والهرسك طلبوا مقابلته في العاصمة السويسرية، وكان ذلك، بلا شك، لإعلان سخطهم من ظروف المسلمين في بلدانهم وحول العالم. وفيصل، المشهور بسلامه وتسامحه، كان لديه متسعاً من الوقت لهم جميعاً.

أمضى فيصل أيامه في بيرن باستقبال الضيوف، وفي الأمسيات بمشاهدة حاشيته وأصدقائه منخرطين بلعبة بريدج (*) أو شطرنج، أو بينغ بونغ[5]. لم تكن هناك رفقة أنثوية (زوجات أو قريبات رافقوا الحاشية). إذ ليس من عادة رجال الشرق الأوسط آنذاك، أو رجال آخرين أن يسافروا مع نسائهم. يتم توافر الرفقة النسائية إما من قبل السكرتيرة في مفوضية العراق في سويسرا وهي امرأة إنكليزية شقراء فاتنة وطويلة تدعى الآنسة ريد، أو الآنسة نيلسون، المشهورة أنها من سلالة هوراشيو، لورد نيلسون، التي رافقت والدها المريض في الفندق[6]. وهناك سيدة هندية بارسية، تدعى بابسي بافري، ابنة زعيم التجمع البارسي(**) في بومباي، بقيت أيضاً في

(*) البريدج (Bridge) والـ (fer ـ de ـ chemin) هي من ألعاب الورق الشائعة في أوربا ولها إتحاد عالمي. (المُراجع).

(**) البارسيون هم مجموعة عرقية دينية يتركز تواجدها في شبه القارة الهندية، والمعروف أن (البارسي Parsis) هم الزرادشتيون الإيرانيون الذين استوطنوا غرب الهند. (المُراجع).

بيلفيو بالاس مع شقيقها الدكتور جال بافري، وانضموا إلى حاشية فيصل. لم يكونوا غرباء تماماً فقد زاروا بغداد في وقتٍ سابق من العام وقابلوا الملك.

زار شكيب أرسلان الملك بشكل مختصر يوم الأربعاء 6 أيلول (سبتمبر) 1933 الذي أفاد بأنه بدت على الملك علامات الإرهاق المبكرة واضحة على وجهه. عاش فيصل على نظام غذائي غير متغير من البرتقال، والبيض، والقهوة وكمية من السجائر غير محدودة خلال ذلك الشهر في العراق. زار أرسلان فيصلاً في بيلفيو مرة أخرى يوم الخميس في 17 أيلول (سبتمبر)، حيث وجده في حالة مزاجية مبتهجة، وحتى مفعمة بالحيوية، بالرغم من استمرار مظهره الضعيف.

أعلن فيصل عن رغبته في قيادة السيارة إلى إنترلاكن، بقعة جميلة في جبال بيرينيز أوبرلاند تقع بين بحيرتين، حيث سيتناول الغداء في فندق فكتوريا جونغفراو[7]. ترافقه بابسي، وأخوها جال، وعلي، قاد فيصل سيارة من السيارتين في طريق الذهاب إلى إنترلاكن. أما السيارة الأخرى فقد استقلها رئيس مراسم فيصل تحسين قدري، ووزير الخارجية، نوري باشا السعيد، وصديق فيصل القديم اللبناني المولد رستم حيدر الذي خدم (وسيخدم مرة أخرى) كوزير المالية والاقتصاد العراقي[8]. بالعودة إلى بيرن بعد الظهر، توجه فيصل إلى عيادة كوخر حيث رأى هناك مريضة أخرى من مرضى كوخر، وهي السيدة باجيت، ممرضة سابقة على جبهة صربيا خلال الحرب العالمية الأولى. أفادت فيما بعد بأن فيصلاً بدا بحالة جيدة بشكل خاص. عاد فيصل إلى فندق بيلفيو بالاس، وفي حوالي الساعة السادسة مساءً، رأته السيدة باجيت يحتسي شاي بعد الظهر متأخراً. ووفقاً لشهادة السيدة باجيت فإن فيصلاً أصيب فجأة بالمرض في حوالي الساعة السابعة مساءً وأرسل بطلب كوخر الذي يبدو أنه أعطاه إحدى حقنه وشيئاً ما ليشربه. تقيأ فيصل بعنف لكنه بدا مستقراً. على أية حال، استمر بالإقياء وفي النهاية تعرض لنوبة قلبية في وقت متأخر من ذلك المساء. اعتقدت السيدة باجيت أن قيأه العنيف ربما كان ناجماً عن السم بحسب فهمها الطبي[9].

على أية حال، كانت شهادة رئيس مراسم فيصل، تحسين قدري، مخالفة لشهادة السيدة باجيت إلى حد كبير بالإضافة إلى ذكريات بابسي بافري التي أعطتها لصحيفة الديلي إكسبريس التي من شأنها أن تثير مجموعة من التكهنات المروعة حول ظروف وفاة الملك[10]. وفقاً لقدري، أنهكت الرحلة إلى أنترلاكن الملك، قائلاً بأنه كان يعاني من خفقان في قلبه، وانزوى في غرفته في الفندق حالاً بعد عودته من الرحلة. استدعى قدري كوخر الذي تفحص نبض فيصل، وأعطاه إبرة، وأعلن بأنه كان على ما يرام. لكن اعتقد قدري خلاف ذلك وأصّر على إحضار ممرضة لمراقبة الملك. وأقنع الملك بأن يرتاح ويتجنب النزول لتناول الغداء. كان لقدري تحفظات جدية على كوخر وكفاءته، واعتقد فيما بعد بأن علاج كوخر قد أدى إلى تفاقم حالة الملك وسرّعت موته. وأفاد أنه خلال استقبال فيصل من قبل رئيس جمهورية سويسرا قام الرئيس بتحذير الملك من

كوخر الذي اعتقده دجّالاً. وقال له بأنه قد عرف على الأقل ثلاثة أشخاص ماتوا بعد تلقيهم علاجاً من قبل كوخر، ولدى قدري شك قليل بأن علاج كوخر كان مسؤولاً بشكل رئيسي في تدهور حالة الملك[11]. وتماماً قبل منتصف الليل في 8 أيول (سبتمبر) 1933، أرسلت الممرضة خلف قدري، لقد مات الملك للتو بنوبة قلبية بشكل واضح. كان في الخمسين من عمره فقط.

سواءً أكان فيصل قد مات بأسباب طبيعية، أو بالسم، أو مات كنتيجة لعلاج كوخر الخطير، تبقى الحقيقة بأنه عاش حياة أكثر صخباً؛ إذ مرّ بأوقات غير عادية، وعابرة، محفوفة بأخطار رهيبة، ونكسات، ومصائب، وتجارب مريرة، لكن أيضاً ببعض النجاح. ما مرّ به كان يمكن يُرهق أكبر المناصب مناعة، ودائماً ما كان غير مبالٍ بصحته. لكن الآن هو مسجى في سريره مع شحوب أصفر مخضر فظيع، وعيناه مفتوحتان، وفمه فاغراً، وضمادة غريبة ملفوفة حول ذقنه. أو هكذا وُصف المشهد من قبل موسى الشهبندر، وهو مسؤول شاب في المفوضية العراقية في جنيف وعضو في حاشية فيصل في بيرن، والذي كان في الفندق تلك الليلة. (سيصبح الشهبندر وزيراً للخارجية العراقية فيما بعد). أُوقظ الشهبندر في غرفته بطرق عنيف على الباب من قبل الآنسة ريد التي صرخت أن الملك يموت وأنهم يحتاجونه حالاً. بسرعة ارتدى ملابسه واندفع إلى غرفة الملك، إذ وجد أن الملك قد مات للتو. أما شقيق فيصل، علي، كان حزيناً للغاية يضرب رأسه بكفي راحته بشكل مستمر. كان الآخرون يتنقلون في الممرات وهم يغمغمون: «يا لها من كارثة على العرب... يا لها من كارثة على العراق»[12].

في 9 أيلول (سبتمبر) 1933 نُقلت جثة الملك فيصل إلى مستشفى جامعة بيرن لأجل تشريح سريع، والذي قرر بأن سبب الوفاة عائد إلى انتفاخ الشريان الناجم عن تصلب الشرايين الحاد. وعلى أية حال، وبالرغم من أن ثلاثة أطباء ترأسوا تحقيقات ما بعد الوفاة، إلا أن ذلك لم يهدّئ القلق بشأن ظروف وفاة فيصل. فأثيرت الشائعات والمؤامرات التي كثرت واجتاحت فيما بعد العراق، والعالم العربي، وأوروبا بشكل كبير جداً. غُسلت الجثة، ووُضعت في تابوت تم ختمه، وأُعيدت إلى فندق بيلفيو. وُضِع التابوت، ملفوفاً بالعلم العراقي، في أحد صالونات الفندق، مع حرس الشرف من الطلاب العراقيين والعرب في سويسرا[13]. جاء دفعة من الزوار ليقدموا احترامهم، من ضمنهم شخصيات قيادية من العالم العربي والإسلامي من الذين كانوا في سويسرا في ذلك الوقت. ونُقل نعش فيصل عندها بالقطار إلى بريينديزي، ومن ثم تمّ نقله في 11 أيلول (سبتمبر)، مع كامل التكريم العسكري، بسفينة حربية بريطانية (HMS Despatch) للقيام بالرحلة إلى مدينة حيفا في فلسطين. ورافقه ثمانية أشخاص من حاشية فيصل، من ضمنهم أخوه علي، ونوري باشا السعيد، ورستم حيدر، ومساعد فيصل، والمبعوث العراقي إلى بريطانيا جعفر باشا العسكري. وفي 14 أيلول (سبتمبر) رست (HMS Despatch) في ميناء حيفا[14].

بعد مراسم استقبال قصير في الميناء بحضور عدد من الشخصيات العربية بالإضافة إلى المفوض السامي في فلسطين، كان من المفترض أن يشق الموكب طريقه عبر الشوارع الرئيسة لحيفا إلى موقع معين، حيث ستقام مراسماً دينية في ذكرى فيصل. سيتحرك الموكب بعدها إلى المطار المجاور الذي منه سينطلق النعش إلى بغداد. كان لمراسم الميناء حضور محدود، بالدعوة فقط، لكن الطريق الذي مرّ به الموكب كان مفتوحاً للكل. إن أعداد الناس الذين احتشدوا على جانبي الطريق قُدرت تقريباً بحوالي 30 ألف، وضمّت مئات المشيعين الذين اندفعوا إلى الساحل نحو حيفا من لبنان وسوريا[15]. كان هذا أول مؤشر على عمق الشعور في الشرق الأوسط العربي الذي صاحب أنباء وفاة الملك. فالعديد من آلاف المشيعين قد ضغطوا بالفعل على سياج بيت جمارك حيفا قبل أن يتحرك الموكب من المنطقة الضيقة إلى شوارع حيفا. اندفعت الحشود العاطفية حول النعش، لكن استمر تقدم الموكب على قدم وساق حتى وصل موقع المراسم الدينية. واندفعت الجماهير إلى النعش آملين أن يلمسوا التابوت أو يحملوه على أكتافهم، لكن الشرطة تدخلت لمنع اجتياح النعش، وربما قلبه، من قبل الحشود. كان من الصعب للغاية اصطحاب علي وغيره من الشخصيات المرموقة بعيداً عن مشاهد الهرج والمرج. قُرأ التأبين من قبل الزعيم الفلسطيني المسلم، علي التميمي، ومن قبل أسقف الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في حيفا، الأسقف مطر، والذي بالكاد يُسمع وسط ضجيج من نحيب الحشد. مما قاد الى وجوب تجاهل كل التحضيرات الرسمية من ضمنها الشعائر الدينية ومغادرة الموكب. حُمل النعش إلى الطائرة، وفي مساء 14 أيلول (سبتمبر) أقلعت إلى مدينة الرطبة (في الأنبار) غرب العراق، ومن ثم إلى بغداد. شاهدت الحشود، التي وصل عددها الى الآلاف، في مدينة حيفا الطائرة وهي تغادر وبعدها عادوا بصمت[16]. إن مشاهد الحزن والاضطراب التي عصفت بالفلسطينيين في حيفا كانت مؤشراً على ما كان سيُتبع في بغداد.

في حوالي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الجمعة 15 أيلول (سبتمبر) 1923 حطت طائرة شحن من طراز (فيكرز فيكتوريا) من سلاح الجو الملكي في مطار بغداد الغربي، حاملةً تابوت الملك فيصل[17]. بعدها بوقتٍ قصير هبطت طائرة أخرى في المطار، حاملةً على متنها علي (أخ الملك فيصل) وستة من كبار أعضاء حاشية فيصل. رافق الطائرتين سربٌ من تسع طائرات من سلاح الجو العراقي حالما وصلتا إلى المجال الجوي العراقي في الرطبة. ومنذ أن وصلت أخبار موت فيصل إلى بغداد، بدأت التحضيرات لسيل هائل من المعزين، لكن حجم الحشود التي تجمعت من بغداد وخارجها، فضلاً عن البلدان العربية المجاورة كان أكبر بكثير مما توقعه المسؤولون. وصلت أعداد الناس المحتشدة الى مئات الألوف، مع رقم يتكرر باستمرار يبلغ 400,000 شخص. أي ما يقارب من خُمس السكان الذكور في العراق ليخرجوا لاستقبال نعش

فيصل وليشاهدوا مروره في بغداد سائراً نحو مثواه الأخير. كان ذلك أكبر مظهر شعبي شهده العراق منذ مئات السنين، وواحدة من أكبر الأحداث التي تحدث في أي مكان في ثلاثينات القرن الماضي. ولو قورن ذلك بالوقت الحالي، فيعني خروج ما يقارب أربعة ملايين عراقي يخرجون إلى شوارع بغداد. كان مثل الجموع التي حضرت موكب جنازة الرئيس جمال عبد الناصر في القاهرة عام 1971، أو آية الله الخميني في طهران في 1988. إذ كان تشييع الملك فيصل غير عادي بكل المقاييس.

أُنزل التابوت المصنوع من خشب الجوز من الطائرة من قبل مجموعة من الضباط العراقيين واستقبل من قبل ملك العراق الجديد، الابن الوحيد للملك الراحل: الملك غازي. حيّا تابوت أبيه واستدار ليعانق عمه علي، بينما أطلقت الحشود صيحات النحيب والبكاء الهائلة. وُضع النعش على عربة مدفع، يجرها اثنا عشر حصان، لكن قبل أن ينطلق الموكب إلى القصر الملكي، على بُعد أربعة أميال، ثم تُليت صلاة الجنازة المسلمة المعتادة. كان على موكب عربة الدفع، متبوعاً بالملك الجديد والشخصيات المرموقة، أن يمر عبر حشود كبيرة تزاحم الطريق، وعبروا جسر مود، الذي يربط ضفتي نهر دجلة الشرقية بالغربية (سُمي الجسر على اسم السير ستانلي مود قائد الجيش البريطاني الذي طرد الأتراك واحتل بغداد في عام 1917 (*). بعدها عَبَر الموكب شوارع بغداد الرئيسة، منها شارع الرشيد، على الطريق إلى القصر الملكي بمشاهد من مشاعر الأسف والحزن. غطّت الرايات السوداء، علامة المسلمين عن الحزن، الشوارع، وتجمعت النساء على السطوح يبكين بحرقة، مطلقات صرخات الحزن. وتجمع خمسمائة من الشخصيات المرموقة تقريباً لثلاث ساعات منتظرين الموكب. وصل النعش أخيراً، أُحضرت فرس الملك فيصل المفضلة، مغطاةً باللون الأسود، لإضافة المزيد من التأثير إلى الموكب. لقد كان مشهداً حزيناً بشكل ملحوظ بالنسبة للحشود الهائلة التي اندفعت وتعبيرات الحزن بادية على محياها، معبرة عن الحزن لفقدان قائدها(18).

خلال المرحلة الأخيرة من مرور موكب فيصل من القصر الملكي إلى المقبرة الملكية، حدث أمر غير عادي. إذ نظمت جميع نقابات وحرف بغداد نفسها في مجموعات تسير خلف رايات سوداء ضخمة، تُذكّرنا بالمواكب السنوية للمعزين لإحياء ذكرى استشهاد الإمام حسين (ع)، حفيد النبي محمد (ص)، والرمزية هنا ليست بعيدة باعتبار أنّ فيصل يرتبط في نسبه مباشرةً بأسرة الرسول بأسرة نبي الإسلام (ص). كما جاء استشهاده على نهج سلفه كسببٍ إضافيٍّ وقوي لصورة

(*) أقام الجيش البريطاني في عام 1918 جسراً من الحديد بين الكرخ والرصافة في وسط بغداد، وفي عام 1941 تم إنشاء جسر على أعتابه سُمي بجسر فيصل الأول، وبعد ثورة عام 1958 تم تغير الاسم ليصبح حالياً (جسر الأحرار). (المُراجع).

الحشد الحزينة. وفي هذا الصدد، كتب رئيس المفوضية الأميركية في بغداد في ذلك الوقت مذكرة إلى وزارة الخارجية، واصفاً أحداث ذلك اليوم: «ربما كانت المشاهد في الطريق إلى القبر غير مسبوقة في جنازة أي ملك مسلم آخر[19]؛ ربما توقّف عند كلمة «غير مسبوقة» في إفادته.

بدأت المدفعية بالقرب من موقع الدفن بإطلاق 101 قذيفة على فترات منتظمة، مضيفة مزيداً من الجدية والانفعال لهذه المناسبة. حُمل الجثمان من عربة المدفع إلى تابوت، وسط حشود كثيفة. تم تأدية الصلاة الأخيرة على الجنازة، التي اصطف من أجلها ما يقرب من عشرة آلاف شخص. بعدها حمل النعش ستة جنود عراقيون إلى القبر وانحنوا برفق إلى الحفرة. تمّ إطلاق ثلاث رصاصات في الهواء. وانطلق بوق وحيد عازفاً لحناً جنائزياً.

ووضع الملك الجديد، وأفراد من الأسرة المالكة، ووزراء في الحكومة، وكبار المسؤولين، وأعضاء الهيئات الدبلوماسية أكاليل الزهور. واستقبل الملك الجديد أفواجاً من الزوار يقدمون تعازيهم مع المظاهر الرسمية للجنازة دون وقوع حوادث خطيرة وتفرق الحشد الكبير بسلام[20]. انتقل فيصل ـ أمير الحجاز، ملك سوريا السابق، ملك العراق، والرجل الذي وضع عدد لا يُحصى من العرب آمالهم وتطلعاتهم عليه في فترة من الفترات خلال ربع القرن المنصرم ـ انتقل إلى مثواه الأخير.

تقاطعت حياته مع العديد من الأحداث المؤثرة في تلك الفترة، حيث انتشرت بصمته على نطاق واسع. أُقيمت المراسم في جميع أنحاء العالم ولكن لم يكن أي منها مصحوباً بإحساس أكبر بالخسارة من دول الشرق الأوسط العربي (سوريا، ولبنان، وعبر الأردن، وفلسطين) والتي كانت لا تزال تحت الحكم البريطاني والفرنسي[21]. لقد كانت أكثر من مجرد ذكرى، حملت أملاً أكبر للأوقات السابقة، ودفعت الناس إلى التعبير عن تعاطفهم عندما اعتقد العرب أنهم اقتربوا بصورة مثيرة من تحقيق استقلالهم. كما أعربت عن الآمال المتبقية للعديد من العرب في شكل من أشكال الحل النهائي لمآزقهم تحت قيادة فيصل. إن شكل الاستقلال الذي حظي به العراق تحت حكم فيصل كان تذكيراً دائماً بالحكم البريطاني والفرنسي الخانق الذي لا يزال سارياً على الولايات العربية السابقة من الإمبراطورية العثمانية. لقد كانت فكرة قيام العراق بدور محفز لأمة عربية متجددة، فكرة حقيقية للغاية. هذا الشكل من الوطنية الواقعية والهادفة والبناءة ماتت مع فيصل أيضاً، لتحل محلها القومية المضطربة والغاضبة التي اجتاحت العالم العربي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

عبر مدن المنطقة من دمشق إلى حلب، واللاذقية، وبيروت، والقدس، وعمّان، كانت الرايات السود حداداً في كل مكان يمكن رؤيته. أُغلقت الأسواق، والمقاهي، والمطاعم للدلالة على الاحترام؛ واجتمعت الهيئات الرسمية والتجارية للتعبير عن معاناتهم، وعُقدت الصلوات والخدمات

التأبينية. كانت المقالات الافتتاحية في جميع الصحف العربية الرائدة مليئة بالروايات الكاملة عن حياة فيصل، الصراعات والإنجازات، وعبّرت عن إحساس عام بأن وفاته المفاجئة ضربة قاصمة للاستقلال أو مواجهة القوة المتجمعة للحركة الصهيونية في فلسطين[22]. حتى أولئك الذين عارضوا فيصلاً مثل المنافسين من سلالته كابن سعود، أو المعارضة المحلية في العراق شعروا بأن قائداً تاريخياً قد اختفى عن المشهد وتجاوبوا تبعاً لذلك. أما في العراق، فقد قام قادة المعارضة والصحف باستغلال الظروف الغامضة على ما يبدو لوفاته بإلقاء اللوم على البريطانيين لأفعالهم الغادرة، ولمّحوا بشدة أن فيصلاً قد تم تسميمه من قبلهم؛ وهو فيصل نفسه الذي ظهر في وقت سابق بشكل بارز في اتهاماتهم بأنه عميل بريطاني!.

أظهرت بريطانيا العظمى القوة الاستعمارية ذات النفوذ والمصالح الواسعة في العراق الراحل فيصل في عناوين لافتة، وخصصت عناويناً رئيسية لحياته في الصحف الرئيسة، لا سيما صحيفة التايمز، وهي الصحيفة التي تحظى بأكبر عدد من القراء والتأثير، ففي نعيها في 9 أيلول (سبتمبر) 1933 كتبت كلمة «الصاعق» بأسلوب منمّق نوعاً ما، لكنها مع ذلك عميقة، أن «الملك فيصل... له العديد من الصفات العظيمة مع بعض العيوب. فبالإضافة إلى ن سبه الرفيع وشجاعته ومزاجه العصبي فقد امتلك وطنية شديدة وضميراً حيّاً مثابراً. لقد كان أكثر من فارس محظوظ من الخيال الشعبي وكانت إخفاقاته بسبب الصعوبات الهائلة التي لا يمكن التغلب عليها في منصبه. لم يكن بإمكانه دائماً كبح جماح النزعة القومية المتهورة لأتباعه؛ كان حضارياً جداً، وحاكماً دستورياً للغاية، بحيث لا يستطيع التعامل مع المعارضة على أسس صارمة بشكل فاضح كما تتبناها الديكتاتوريات في عصرنا... تُدين له القومية العربية بالكثير لقوة قيادته العسكرية والسياسية؛ إن مملكة العراق تُدين له حتى بالأكثر لاعتداله ومثابرته بالتضحية بنفسه». أُقيمت الخدمات التذكارية لتكريم فيصل، ولاحظ الفيلد مارشال اللورد أللنبي بإيجاز، وهو قائد قوات التحالف في جبهات سوريا وفلسطين في الحرب والذي تحت إمرته خدم جيش فيصل العربي الشمالي اسمياً. قال: «كان جندياً جيداً، وسياسياً قادراً ـ على العكس من الكثير من السياسيين ـ ومخلصاً. كان إحساسه بالواجب عظيماً، وأنا أفترض من أنه قد ضحى بنفسه لأجل بلده. فعلى الملك أن يقوم بهذا النوع من الأمور»[23].

كانت علاقة فرنسا مع فيصل تتراوح ما بين علاقة متوترة يشوبها الشك إلى علاقة كراهية مباشرة. لكنها بدأت تتحسن فقط في أواخر عشرينيات القرن الماضي عندما فشلت سياسات البلد بوضع سوريا تحت انتدابها علناً. كان الرد على وفاة فيصل أكثر صمتاً، مما يعكس المواقف المتناقضة لسلطة الانتداب بإزاء المنافس السابق لحكمهم في الشرق الأوسط: الملك فيصل. ظهر ذلك في مجموعة من الآراء التي تم التعبير عنها في الصحيفة الناطقة بلسان المستعمر الفرنسي

L'Intransigeant إلى الصحيفة التي كانت لهجتها أكثر توازناً Le Temp. لكن لم يكن هناك مفر من أهمية فيصل بالنسبة لأحداث المرحلة. في حين ذهبت إحدى الصحف، Le Journal، بعيداً وأطلقت عليه: «أعظم شخصية معروفة في الشرق»[24]؛ أما في الولايات المتحدة، العالقة في خضم الكساد الكبير وسياستها المستمرة بالانعزالية، فإن صدى الأحداث في الشرق الأوسط عليها كان ضعيفاً. كانت ذاكرتها إزاء فيصل قليلة ومرتبطة بشكل أساس بحضوره الدرامي في مؤتمر باريس للسلام ونقاط [الرئيس الأمريكي] وودرو ويلسون الأربع عشرة المشؤومة التي تعد بتقرير المصير للدول والشعوب النامية. (العرب في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى القوميات الأخرى في المنطقة مثل الأكراد والأرمن، على الرغم من أنه ينبغي تطبيق ذلك بشكل خاص عليهم). الرد الرسمي على موت فيصل كان أكثر صمتاً من قبل الولايات المتحدة. لكن الرئيس روزفلت على أية حال قد أرسل برقية شخصية لمنظمي الخدمة التأبينية حفل التأبين بنيويورك في 22 تشرين الأول (أكتوبر) 1933 في قاعة محاضرات مدرج متحف روريتش. حيث تُليت آيات من القرآن الكريم متبوعة بقراءة قصائد تكريماً لفيصل، وتم تخصيص عزف كمان منفرد إكراماً له.

كان لفيصل رعايا مخلصين كثيرين بين المهاجرين العرب في شمال أمريكا وجنوبها، لا سيما ضمن التجمع الاكبر للمسيحيين العرب (وخاصةً أولئك الذين ينحدرون من خلفية أرثوذكسية شرقية) الذين هاجروا من سوريا ولبنان. لقد رأوا أنفسهم أوصياء على فكرة القومية العربية العلمانية التي كانت الصحف ودور النشر الخاصة بهم، المتواجدة بشكل رئيسي في نيويورك، الناطقة باللغة العربية بمثابة أبواقاً مهمة لها. كان يعتبر فيصلاً متعاطفاً مع مثلهم الأعلى، وله مكانة رفيعة ضمن قطاعات واسعة من هذه الجالية. وأفضل توضيح لمدى عبادة البطل في الشتات العربي هو مثال عن كاتب مسرحي عربي مسيحي، خليل إبراهيم النابوت، الذي عاش في الأرجنتين. بعد وقت قصير من وفاة فيصل كتب النابوت مسرحية من أربع فصول عن فيصل، مُثلت أولاً في بوينس آيريس في 1934. كانت تُدعى **وثبة العرب**، وقُدمت في دمشق خلال الحرب العالمية الأولى في فترة ما بعد الحرب مباشرة، عندما حُكمت سوريا من قبل حكومة فيصل العربية. قدّمت المسرحية فيصل كبطل شجاع للعروبة، يتعدى أي اعتبارات طائفية، أو دينية، أو عرقية. كانت مكرسة لذكرى فيصل، بشكل صادق، لكل أولئك الذين يؤمنون بالأخوة كعقيدة، وبالمساواة كقانون، وبالحرية كدين[25].

كتب كاتب أميركي يُدعى غريس ديكنسون سبيرلينغ، قصيدة ملحمية من خمسة وستين صفحة، بعنوان **فيصل العربي** في عام 1933، تمجّد انتصارات فيصل في حملة الصحراء وفي سوريا. ولا بد أن الشاعر قد تأثّر بالعرض المتنقل ذائع الصيت عن ت. ي. لورنس والثورة العربية، الذي أنتجه الكاتب والمذيع لويل توماس، بالإضافة إلى أفلام هوليود المبكرة عن محارب الصحراء

الرومانسي. هذه المسرحية كُتبت قبل موت فيصل، ولكن أُضيف إليها ملحقاً بعد نبأ وفاته، حمل عنوان: «خلاص انتهى ـ الأمر!»[26].

استمر تراث فيصل يتردد في العراق والعالم العربي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. ففي تلك المرحلة ألقت الأحداث المضطربة التي اجتاحت الشرق الأوسط، ليس أقلها تقسيم فلسطين وخلق الكيان الإسرائيلي، بظلالها على نوع من السياسات التي طرحها فيصل والشكل المعتدل والدقيق من السياسة التي كانت سمته المميزة. كما أنها أضرّت بشكل خطير بالأنظمة التي بدت وكأنها تدين بوجودها فقط للدعم الغربي وتهتم بالنخب الاقتصادية والاجتماعية الصغيرة، ولكن المتميزة. فالطوائف والقبائل، والأعراق، والولاء الإقليمي ـ في الحقيقة فإن أي اعتراف بالتنوع السكاني وتعقيد الولاءات في الشرق الأوسط العربي ـ سوف يتم إزالتها من خلال التسفيه والراديكالية الجوفاء. إنه عصر الثوريين الغاضبين ـ الرافضين للماضي بكل أشكاله، حيث أصبح هناك ترجمة جديدة للتاريخ وهي بضاعة الجيل العربي الجديد وغيره من أصحاب الأفكار التي سادت في فترة ما قبل الحرب.

هؤلاء القوميون في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية جعلوا الحكام السابقين متورطين بشكل ميؤوس منه في المخططات الغربية لإدامة هيمنة الأنظمة الاستعمارية وما بعد الاستعمار وإحباط صعود الدولة العربية المتحدة. إن الأسرة الهاشمية، التي منها نشأ فيصل، وتحديداً عبد الله شقيق فيصل الذي أصبح ملكاً على الأردن، أُعتبر متواطئاً مع الصهيونية بتقسيم فلسطين[27]. لقد تم تحميلهم المسؤولية المباشرة، من خلال خضوعهم للغرب، عن الكارثة التي حلّت بالفلسطينيين، أي النكبة، حيث غادر مئات الآلاف من الفلسطينيين أو دُفعوا للخروج من منازل أسلافهم في عامي 1947 و1948.

وقد اعتبر الشيوعيون والقوميون والاشتراكيون وغيرهم من اليساريين في العراق، الذين أصبحوا متنفذين بعد ثورة عام 1958 التي أطاحت بالملكية في العراق، أن النظام الملكي هو أداة لخدمة مصالح الطبقة الإقطاعية وأصحاب الأراضي، ورؤساء القبائل والأوليغارشية. فضلاً عن ذلك لم يكن منظرو الفكر الإسلامي منحازين لفيصل على الإطلاق. فإن السلطة الروحية للدين الشيعي لن تغفر لفيصل عن الطريقة التي تعامل بها مع تهديدهم لحكمه، عندما دعوا إلى مقاطعة مؤسسات الدولة العراقية الوليدة. لم يستطع الرأي السُنّي الإسلامي أن يتصالح مع الثورة التي ساعدت على تفكيك الدولة الوحيدة التي ادعت أنها مبنية على مبدأ وحدة المسلمين، الإمبراطورية العثمانية. والأسوأ من ذلك من وجهة نظرهم، تم التحريض على الثورة، وتمويلها ثم خيانتها بقوة الغرب المسيحي الذي يشنّ حرباً ضد القوة الإسلامية الشرعية. ظهر بعض قادة المعارضة الليبيرالية أو الديمقراطية الاجتماعية في العراق كمشاركين قصيري العمر في السلطة

مع الضباط الذين حرّضوا على ثورة عام 1958. كان حكمهم الضمني على فيصل هو الإذعان لتدمير النظام الملكي الذي أسسه، وقتل حفيده الملك الشاب فيصل الثاني. أما أولئك الذين لا يزالون يتذكرون أيام فيصل ويقيّمونه بموضوعية فإنهم إما قد تقدموا في السن أو ماتوا. وتم إنشاء نموذج جديد من الحكم، وأصبح تاريخ الحقبة الفيصلية في العراق والشرق الأوسط غائماً بالتحيّزات، والمصالح، والمرارة، والكراهية لأولئك الذين ترأسوا الحكم الجديد.

بالرغم من ذلك، فإن فيصلاً قد نجا بنفسه من الإبهام والازدراء الذي كان ينهال على قادة آخرين من جيل ما قبل الحرب، لكن ذكرى حكمه وإنجازاته بدأت تتلاشى نتيجة اللامبالاة الرسمية والعدائية في بعض الأحيان. كان من الصعب إيقاف الهجمات العنيفة على الفترة الملكية في العراق، التي كانت تُعرف بشكل عام **بالعهد البائد** أو «العصر الهالك» مع الحفاظ على موقف إيجابي تجاه فيصل، أعفاه من تجاوزات تلك الحقبة الحقيقية أو المتخيلة. وبعد ثورة عام 1958 أُزيل تمثال فيصل الفروسي الذي زيّن أحد ساحات بغداد الرئيسة، والذي تم تصميمه وتنفيذه من قبل نحّات إيطالي مشهور من عهد موسوليني، هو بيترو كانونيكا. أما معروضات فيصل التي تم حفظها في غرفة خاصة في المتحف العراقي فقد أُزيلت ووُضعت في القبو، بأمان بعيداً عن الأنظار، وصوره ـ على الطوابع، والعملة، والأوراق النقدية ـ اختفت مع مرور الوقت. القليل من العراقيين في تلك الفترة كلّفوا أنفسهم عناء الخوض في ماضيهم، لتحديد مسار الأحداث والدور الذي أدّاه فيصل في تأسيس بلدهم. أما سورية فقد كان فقدان ذاكرتها التاريخية شبه تام، ولم يكن هناك إلا معلومات قليلة أو أي اهتمام لفترة حكم فيصل، التي كان يُنظر إليها على أنها فاصل قصير وغامض في الغالب بين نهاية الإمبراطورية العثمانية وفرض الانتداب الفرنسي البغيض. وفي الأردن حيث استمر الحكم الهاشمي بقيت ذكرى الملك عبد الله حيّة.

خضعت ذكرى فيصل في الغرب لتغيير كبير بعد سيل من عبارات التأبين عند وفاته. يظهر فيصل، بالطبع، بشكل بارز في واحدة من كلاسيكيات الأدب الحديث العظيمة في كتاب ت. ي. لورنس أعمدة الحكمة السبعة. لقد كان هو البطل الذي يبحث عنه لورنس، ويدور الكتاب إلى حد كبير حول الملك وصفاته كقائد سياسي وعسكري في الثورة العربية الكبرى. تم تصوير فيصل بشكل لا يُنسى في عام 1962 في فيلم مهم، لورنس العرب، للسير أليك غينيس. ورَسَمَ فنان بريطاني رائد، أغسطس يوحنا، لوحتين لفيصل في عام 1919 خلال مؤتمر باريس للسلام، واحدة منهما توجد في متحف أشموليان في أكسفورد. إلا أن المؤرخين الغربيين وكذلك العرب الذين تدربوا على الطريقة الغربية في تدوين التاريخ، قاموا بتطوير فهمهم الخاص عن أهمية فيصل، وفكرة القومية العربية بصورة عامّة.

رفض الكثيرون مدرسة «الرجال العظماء» في التاريخ، ورأوا أن القادة والأبطال مجرد أدوات

للقوى مجهولة، أدت دورها على مدى فترات طويلة من الزمن. لقد زعموا أن السيرة الذاتية قد تجعل القراءة ممتعة، لكنها تؤدي دوراً ضئيلاً في تحديد مسار الأحداث لمثل هؤلاء القادة، وهناك نوع من الحتمية المعينة لتدفق الأحداث، وزعموا أن القادة متفرّدين، مهما كانوا مندفعين، يمكنهم فقط تأدية دورٍ مساعدٍ في صنع التاريخ. وعند استقراء لوحة الشرق الأوسط في بدايات القرن العشرين، فإن القادة اللامعين مثل فيصل، لا بُد أن نُسلّم بدورهم كقوى كبرى في التاريخ، عملت لفترات طويلة وتجاوزت التاريخ من أجل التغيير الاقتصادي أو الفكري، أو على النقيض، عملت كتاريخ مصغر، كجزء من تاريخ النخبة أو المجموعات والمؤسسات والثقافات. في حين رأت مدرسة أخرى، صاحبة النظرية المناهضة للتبعية الاستعمارية، والتي ترى أنّ أنظمة ما قبل الحرب العالمية الأولى الموجودة في الشرق الأوسط ببساطة ما هي إلا أدوات لا يمكن أن تغير ولو ذرة واحدة في العلاقة غير المتكافئة والتابعة للقوى الدولية الكبرى. كان العراق تحت حكم فيصل مجرد دولة محكوم عليها بأنها أكثر بقليل من مجرد ملحق لمخططات سيدها الاستعماري. فتصبح فضائل الحاكم غير ذات صلة في الممارسة العملية ثم تندرج في الطبيعة الشاملة للنموذج.

أخذت الأحداث منعطفاً هاماً لتغيير الرؤية عن فيصل والتي انبثقت، من كل الأماكن، في عراق صدام حسين. فبعد خروج العراق من حرب الثمان سنوات المنهكة مع إيران في عام 1988، ظهرت مجموعة من الكتب من قبل مؤرخين عراقيين جُدد في بغداد[28]. الحقيقة هي أن هذه الكتب قد تم نشرها لاحقاً من قبل الصحافة المملوكة للدولة التي تسيطر عليها بشكل صارم، مما يعني أن الموافقة على نشرها يجب أن تأتي من أعلى المصادر، بكلمات أخرى من صدّام نفسه. وإلى حد ما، استفادوا من فتح الأرشيف المحفوظ في بريطانيا والذي غطّى هذه الفترة من ستينيات القرن الماضي. وبإمكان الدارسون العرب والعراقيون الآن الوصول إلى هذه المحفوظات القيّمة لإعادة تشكيل فهمهم لأحداث تلك الفترة. لكنهم في الواقع أشاروا إلى تقويم أكثر موضوعية للتاريخ الملكي المبكر للعراق وإعادة النظر في دور فيصل نفسه في بناء الدولة، وكذلك في السياق الإقليمي والدولي الذي عمل فيه. كانت الأحداث بعيدة بما فيه الكفاية، بحيث أن إعادة التقييم لم تكن تهدد سيطرة حزب البعث على البلاد. بطريقة أو بأخرى يشبه «إعادة اكتشاف» ماضي روسيا القيصرية من خلال أشخاص، مثل إيفان الرهيب وبطرس الأكبر عند اندلاع الحرب بين ألمانيا وروسيا لدعم مطالب ستالين كزعيم وطني. إن حصوله على عباءة فيصل قد ساعد صدّام في تلميع مزاعمه الوطنية وربطه بشخصية ذات أهمية تاريخية كبيرة. كجزء من عملية استعادة اعتبار مكانة وأهمية فيصل، حيث تم وضع تمثال فيصل الفروسي الذي نحته النحات الإيطالي كانونيكا مرة أخرى، على الرغم من أنه مهم بالقدر نفسه، بموقع

في بغداد. حتى أنه تم تجديد الضريح الملكي أيضاً، بعد مدة طويلة من الإهمال الرسمي، جزئياً بسبب حثّ ملك الأردن الملك حسين الذي كان حليفاً قوياً لصدّام خلال الحرب العراقية الإيرانية.

وإلى جانب إعادة تقييم التراث الملكي المبكر للعراق، أُعيد تقديم الذكريات المهمة التي ألقت ضوءً إيجابياً على حقبة فيصل، وقدّمت العديد من السير الذاتية الجديدة تحليلاً أكثر توازناً لكبار السياسيين في النظام الملكي، مثل نوري السعيد. وتم التخلص من الصفات الملصقة بهم مثل الخونة، والعملاء، والوكلاء الذين تم ربطها بشكل ضيق الأفق بهذه الشخصيات، لصالح تفسيرات أكثر دقة وإيجابية في كثير من الأحيان لسياساتهم وشخصياتهم.

إن الحقبة التي سبقت انتقال فيصل إلى العراق أصبحت أيضاً تحت أضواء جديدة، مدفوعة بشكل أساسي بسياسة متمكنة وأكثر ليبيرالية لدارسي الأرشيف العثماني في اسطنبول. تساءلت عدداً من الدراسات بجدية عن بعض الافتراضات الرئيسة التي تقوم عليها الرواية التقليدية للشرق الأوسط عشية الحرب العالمية الأولى، وبالتحديد العلاقات العربية التركية في العقود الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية، إن مدى وأهمية الحركة القومية العربية في السنوات المبكرة من القرن العشرين، والعوامل التي منعت فيصلاً من تحقيق أهدافه بمؤتمر باريس للسلام في عام 1919 وفي حكمه قصير المدة لمملكته بسوريا[(29)].

أدّت كل هذه العوامل جزءاً من ترسيخ الحاجة لإعادة تقييم شامل للفترة. وأصبحت الحسابات العامة للعصر الحديث الآن بالية بشكل خطير، وبعضها غير ملائم بشكل واضح. وأحد التقارير النموذجية لنهاية الإمبراطورية العثمانية لم يستخدم أي مصادر باللغة العربية[(30)]. إن المشاكل والأزمات التي أفسدت الشرق الأوسط في القرن الماضي لها جذورها في تسويات ما بعد العثمانيين بشكل رئيسي. ويمكن تتبع الصعوبات التي واجهتها دول المنطقة في إرساء الأمن، والاستقرار، والحكومة المسؤولة والمكلفة، إلى طبيعة الأنظمة التي تم إنشاؤها في أعقاب تفكك الإمبراطورية العثمانية. ولم يكن الانتقال سهلاً ولا سعيداً، وتُركت العديد من القضايا التي لم يتم حلّها والتي استمرت في تحديد معالم الشرق الأوسط. فالقائمة لا تنتهي من المواضيع الغامضة والتي ترتبط بالولاءات الأساسية للأشخاص، ولطبيعة الحكومة الشرعية، ومدى تغلغل حدود الدولة التي تم تحديدها في التسوية السلمية، ومعاملة الأقليات، والانقسامات بين الطائفة السنية التقليدية التي كانت مهيمنة ذات يوم والغالبية الشيعية وغيرهم من بقية السكان الخارجة عن الإجماع، وبالطبع، فالمقاومة والعنف الذي رافق أفواج المهاجرين اليهود إلى فلسطين بدعم وعد بلفور للوطن القومي لليهود في ذلك البلد أصبح محققاً.

تمثل حياة فيصل، أكثر من أي شخصية أخرى في زمانه، رمزاً للتعديلات الضخمة التي كان على الناس الخضوع لها للانتقال من نوع واحد من العالم تحكمه معاييره إلى عالم مختلف

تماماً. كان على فيصل أن يتعامل بشكل شبه يومي مع المشاكل الهائلة التي نشأت نتيجة لتفكيك الإمبراطورية العثمانية والمطالبات المتضاربة بشأن الدول التي خلّفتها ـ من قبل القوميين، والقوى الإمبريالية، والجماعات المحلية التي شعرت بأنها مستبعدة عن السلطة. يوجد ثلاثة مبادئ متضاربة وغير قابلة للتوفيق في نهاية المطاف حددت الشرق الأوسط بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، هي: معاهدة سايكس بيكو التي كرّست تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ منحت للقوى الأوروبية: بريطانيا وفرنسا بشكل أساسي؛ وعد بلفور الذي قدّم الدعم البريطاني لفكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين، والذي أصبح فيما بعد الباعث لدولة يهودية؛ والمراسلات المختلفة بين الشريف حسين أمير مكة المكرمة، والد فيصل، والسلطات البريطانية التي بدت أنها تعد بدولة أو دويلات مستقلة بعد الحرب لمعظم الأراضي التي تشملها الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية.

في الحقيقة تم إصدار هذه الاتفاقات والإعلانات في زمن الحرب عندما لم يتم التفكير في عواقب ما اقترحوه بشكل صحيح، ومن ثم لم تستطع أن تكبح مؤيديها سواءً كانوا قوميين عرب يطالبون بالاستقلال التام، أو صهاينة يطالبون بهجرة مفتوحة إلى فلسطين وحكومتي بريطانيا وفرنسا تفرضان الانتداب على الأراضي التي خصصت لها ـ من السعي إلى التنفيذ الصارم لشروطهم لصالحهم الخاص بعد الحرب. كان العراق مسألة أخرى ومسرحاً آخر للحرب، بالإضافة إلى أن ديناميات التسويات في العراق بعد الحرب تدين بالقدر نفسه للثورة عام 1920 تماماً كما فعلت في أي صفقة قبل الحرب. اندفع فيصل ضمن هذه الدوامة وهو يسعى لتوجيه المسار ضمن التيارات، العاتية والمضطربة، مساراً يبدو أنه واعد على الأقل بنتيجة جيدة معقولة لشعبه. وخلال حياته، كانت هذه الانعطافات والالتفاتات المؤلمة، التي كانت ترافق هذا المسار، غالباً ما كان يُساء فهمها، فقد تم الخلط بين الإخفاء والخداع، التعاون مع الاستسلام، الواقعية مع التخلي عن المبدأ. فقط لاحقاً ستتضح نوايا وأهداف فيصل.

من الواضح أن طبيعة الأمور الدوارة للأحداث في الشرق الأوسط، تصدرت بغزو جديد غير كفء وغير متسق للولايات المتحدة وبريطانيا هو احتلال العراق في عام 2003، تُظهر أوجه الشبه مع عصر سابق عندما كانت بريطانيا وليست الولايات المتحدة هي القوة المهيمنة.

إن الاختلافات في النهج والنتائج هي التي تبرز وتتسم بشكل أكبر بالتفاوت الواضح في المساواة في القيادة بين تلك الأوقات السابقة والآن من عدة نواح. لذلك، إن هذه السيرة الذاتية هي محاولة لفهم التفاعل بين القيادة والأحداث، وكيف يمكن لنوعية القيادة المراوغة أن تُحدِث فروقاً بين النجاح والفشل. إنها تتعلق أيضاً بالمُثل والوسائل والغايات؛ حول التصالح مع الأيدي الكادحة التي غالباً ما وجّهت الشعوب والأمم عبر التاريخ؛ وحول التعامل مع الظلم الظاهر

والاكتفاء بما هو متاح. يتعلق الأمر بكيفية إدارة التبدّلات، وكيفية الحفاظ على المسار الوسيط عندما يتم جرّك دائماً إلى التطرّف: وكيفية الدفع من أجل الصالح العام في البيئات المتصدّعة والجدلية. يتعلق الأمر بالتفاوتات في القوة والتأثير مع بناء القدرات ببطئ، بطريقة منهجية، وتوسيع الآفاق. كانت هذه وأكثر من التحديات التي واجهت فيصلاً خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرةً، خلال فترة حكمه القصيرة لسوريا، وختاماً في العراق، حيث حكم أكثر من اثني عشرة سنة فقط، أشرف فيها على بناء دولة جديدة تماماً.

هوامش التمهيد

1 ـ موسى الشابندر، ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال، كتب رياض الرّيس، لندن وقبرص، 1993، ص 132.

2 ـ رسالة من هيث ريغس القائم بأعمال سفارة الولايات المتحدة، من بيرن إلى وزير الخارجية، وزارة الخارجية، واشنطن العاصمة، رقم 3071، 6 أيلول، 1933.

3 ـ محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ديبيان، فيصل بن الحسين: من المهد إلى اللحد، الجزء الأول، المطبعة العصرية، دمشق، 1993، ص 49؛ محمد يونس العبادي، (المُعد)، مذكرات الملك فيصل الأول، ملك العراق، عمّان، 2002، ص ص 83 ـ 89.

4 ـ محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ديبيان، مرجع سابق، ص ص 49 ـ 50.

5 ـ موسى الشابندر، مرجع سابق، ص 132.

6 ـ المرجع نفسه.

7 ـ محمد يونس العبادي، مرجع سابق، ص ص 86 ـ 87.

8 ـ ديلي إكسبريس، لندن، 12 أيلول 1933.

9 ـ وزارة الخارجية (Fo) Fo 371، E 16924/5519، الرسالة رقم 23/7/211، هوارد كينارد، بيرن، إلى جورج ريندل، وزارة الخارجية، 14 أيلول 1933.

10 ـ ديلي إكسبريس، لندن، 12 أيلول (سبتمبر) 1933.

11 ـ وزارة الخارجية 371، E 16924/6202، ف. همفريز، بغداد إلى جورج ريندل، وزارة الخارجية، رسالة، شخصية وسرّية، 5 تشرين الأول 1933.

12 ـ موسى الشابندر، مرجع سابق، ص ص 132 ـ 134.

13 ـ المرجع نفسه، ص 134.

14 ـ كتاب ورسالة من الكابتن دروموند، رقم 68/3009، HMS إيفاد، 12 أيلول 1933 و14 أيلول 1933.

15 ـ محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ديبيان، مرجع سابق، ص ص 56 ـ 59.

16 ـ المرجع نفسه، ي. كيث روتش، مفوض ولاية فلسطين إلى رئيس السكرتارية، المفوضية العليا الفلسطينية، مرور الملك فيصل، 17 أيلول 1933.

17 ـ عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء 3، الطبعة السابعة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988، ص ص 313 ـ 315.

18 ـ المرجع نفسه.

19 ـ ب. كنابينشو، من بغداد إلى وزارة الخارجية، واشنطن العاصمة، رقم 194، دبلوماسي، 19 أيلول 1933.

20 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، ص ص 56 ـ 59.

21 ـ محمد عابدين حمادة ومحمد تيسير ديبيان، مرجع سابق، ص ص 61 ـ 67.

22 ـ المرجع نفسه.

23 ـ إذاعة بي بي سي من قبل المارشال الفيكونت أللنبي، يوم الجمعة، 8 أيلول (سبتمبر) 1933، نقلتها السيدة ستيوارت إرسكين، الملك فيصل ملك العراق، هتشنسون، لندن، 1934، ص ص 3 ـ 4.

24 ـ محمد يونس العبادي، مرجع سابق، ص ص 106 ـ 107.

25 ـ خليل إبراهيم النبّوت، رواية وثبة العرب، أو الأمير فيصل بن الحسين، شركة رستم هنّوس، بيونس آيريس، 1933.

26 ـ غريس ديكينسون سبيرلينغ، فيصل العربي، الناشر رالف فليتشر سيمور، شيكاغو، 1933. السطور الأخيرة: «أبو النبي آدم ـ أو الله، اكتبوا على ورقة بيضاء/ واكتبوا بقلم ذهبي/اسم فيصل ملك العراق / الذي أحب زملاءه».

27 ـ أنظر مثلاً: العمل المؤثر لأنيس صايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، 1966.

28 ـ مثلاً: علاء جاسم محمد، الملك فيصل الأول حياته ودوره السياسي، مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1989؛ عبد المجيد كامل التكريتي، الملك فيصل الأول وتأسيس الدولة العراقية الحديثة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990؛ محمد مظفر الأدهمي، الملك فيصل الأول: حياته السياسية وظروف مماته الغامضة دراسة وثائقية، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2019؛ كاظم نعمة، الملك فيصل الأول والإنكليز والاستقلال، دار الشؤون الثقافية العامية بغداد، 1988.

29 ـ أنظر مثلاً: العمل الكلاسيكي الحالي لـ (سي إرنست داون من العثمانية إلى العروبة): مقالات لأصول القومية العربية، طبعة جامعة إلينوي، يوربانا، 1973. والعمل التحقيقي الممتاز لحسن كيالي، العرب وحركة تركيا الفتاة: العثمانية، والعروبة، والإسلام في الإمبراطورية العثمانية، 1908 ـ 1918، مطبعة جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 1997. عنوان الكتاب الأصلي

Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908 1918 ـ

30 ـ ديفيد فرومكين، سلام لإنهاء كل السلام، آفون للكتب، نيويورك، 1990.

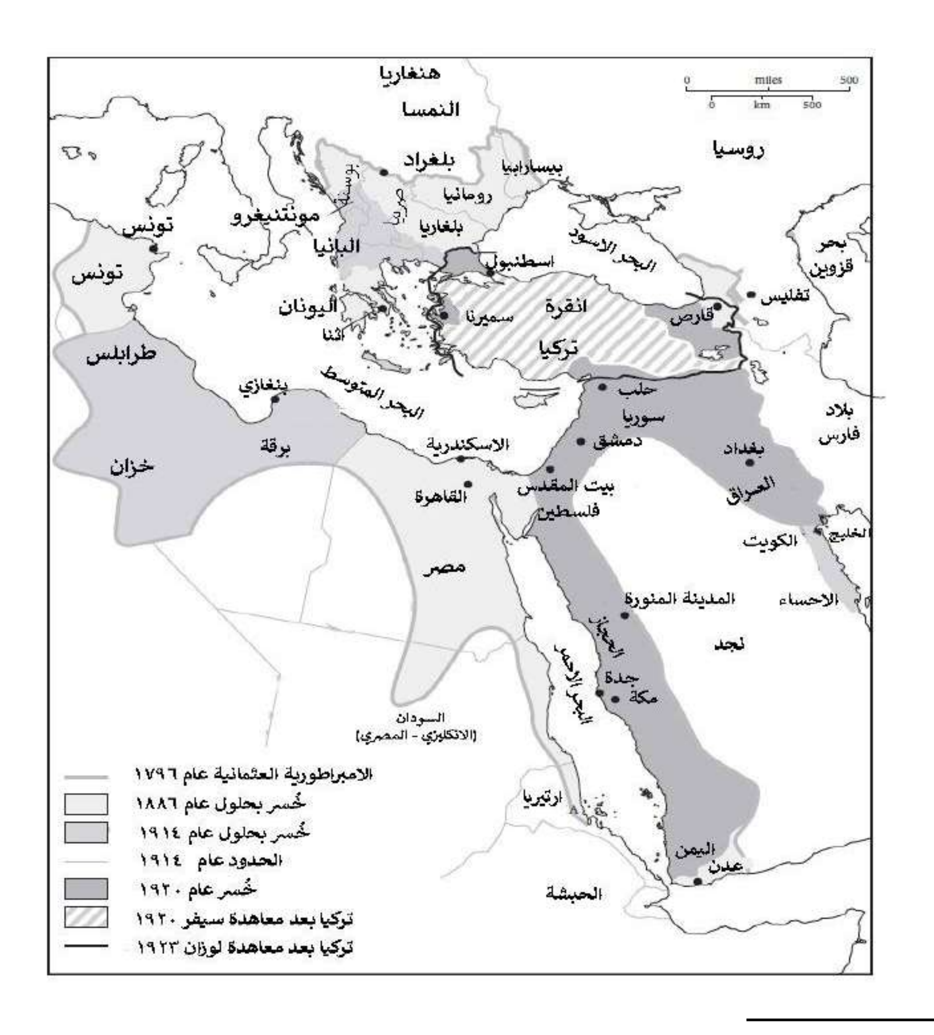
الجزء الأول

إمبراطورية تتفكك

الفترة العثمانية (1883 ـ 1914)

الفصل الأول: من الصحراء إلى الميتروبوليس(*)

خارطة (1) الإمبراطورية العثمانية 1798 ـ 1923



(*) إن الاستخدام اللاتيني لمصطلح (ميتروبوليس) يعني «المدينة الأم» أو المستعمرة القديمة، ويُطلق على المدينة الكبيرة العالمية والجزء الفاعل منها أو قلبها النابض. ويعني كذلك المجتمعات الحضرية ومركز نشاطاتها الثقافية والاقتصادية والسياسية. والقصد هنا من العنوان مدينة اسطنبول. (المُراجع).

كانت نهايات القرن التاسع عشر، والتي ولد فيها فيصل، عالم إمبراطوريات، وأكثر ما ميّز تلك الحقبة بالنسبة له وللعرب كافة هو وجود الإمبراطورية العثمانية. ففي عام 1883، عام مولد فيصل، تقلّصت الإمبراطورية إلى حدٍ كبير، بعد أن كانت في ذروتها لقرون، وسيطرت على ثلاث قارات. وقد ضمّت الإمبراطورية أجزاءً واسعة من أوروبا الشرقية والبلقان وتركيا والقرم والقوقاز والشرق الأدنى (الأقاليم العربية للإمبراطورية العثمانية ومصر)، وكل شمال إفريقيا تقريباً، لكنها تراجعت تحت ضغوط خصوم أكثر قوة وتصميماً وديناميكية: الإمبراطوريات الأوربية التوسعية والقوى الجديدة للقومية العرقية. فتم سنّ سلسلة من الإصلاحات الدستورية والقانونية والاقتصادية في منتصف القرن التاسع عشر، للتحقق من تحول الإمبراطورية وبدء تحديثها. هذه الإصلاحات معروفة إجمالاً بالتنظيمات والتي حولت الدولة العثمانية بشكل مؤثر من سلالة يحكمها مزيجاً انتقائياً من قانون الشريعة للمسلمين، وقانون ديني لغير المسلمين، والقوانين العُرفية والامتيازات والمراسيم الأوتوقراطية إلى شيء يراعي فكرة دولة أوربية حديثة.

بلغت مرحلة الإصلاح هذه ذروتها مع صدور الدستور في عام 1876 المكتوب بشكل رئيسي من قبل مثقفين وبيروقراطيين متعلمين في الغرب ويُعرفون بـ»العثمانيون الشباب»[*]. لقد كانوا مشبّعين بالأفكار الديمقراطية الليبرالية، وعقدوا العزم على تأسيس هوية جديدة، بالتركيز على ترسيخ فكرة العثمانية لدى سكان الإمبراطورية المتنوّعين بشكل كبير. دبر العثمانيون الشباب انقلاباً قاد بشكل نهائي إلى تنصيب سليل الأسرة الحاكمة العثمانية: عبد الحميد، بوصفه سلطاناً للدولة العثمانية. وافق عبد الحميد أن يحكم كملك دستوري حيث ظهر البرلمان الأول المنتخب للحقبة العثمانية إلى حيز الوجود. والتئم شمل البرلمان مرتين، في عامي 1877 و1878، بالتزامن مع الحرب الروسية التركية الكارثية. وفي دورته الثانية في عام 1878 قام عبد الحميد بتعليقها ومن ثم أجّلها بشكل كامل. ثم حكم بعد ذلك باعتباره مستبداً لثلاثة عقود. كان لحكمه الطويل أثراً عميقاً على مسار الإمبراطورية والولايات العربية، وكانت تلوح في الأفق على حياة الشاب فيصل[1]. ومع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر، وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى حالة شبه توازن، حيث وازنت بين مجموعاتها العرقية والدينية المتنوعة، وذلك لدرء التقطيع المستمر لأوصال المناطق غير الأوروبية، ولكن هذا التوازن لم يعمّر طويلاً.

(*) الشباب العثماني أو العثمانيون الجدد Yeni Osmanliir، مجموعة ثقافية منظمة تحولت نحو السياسة فيما بعد، نشطت منذ عام 1865، وضغطت من أجل الأخذ بمعايير الحضارة والمؤسسات الغربية مع الحفاظ المفاهيم الإسلامية لكن بشكلها التقدمي. (المُراجع).

أشراف الحجاز

تقلّصت الولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية في القرون التي تلت عصر الإصلاحات. فقد كانت ممارسة السلطة العثمانية المركزية محدودة، حيث حكمت مجموعة متنوعة من السلالات المحلية أو حكام أقوياء تحت السلطة الاسمية للسلطان. ينطبق هذا الحكم على الحجاز؛ المقاطعة التي وُلد فيها فيصل. والحجاز هو الاسم الذي يطلق على الأجزاء الغربية لشبه الجزيرة العربية، ممتداً من خليج العقبة في الشرق إلى البحر الأحمر في الغرب. وتأتي لفظة الحجاز من كلمة تعني حاجز باللغة العربية وتشير إلى سلسلة من الجبال، تمتد على طول مركز هذه الأرض. إلى الغرب من هذه الجبال تتموضع الأراضي المنخفضة **لتهامة**، حيث تقع المدينتان المقدستان مكة المكرمة والمدينة المنورة. جعلت الحرارة الشديدة وشح الأمطار والتضاريس الوعرة من الحجاز مكاناً لتجمعات سكنية متفرقة. لم تكن الزراعة ممكنة إلا في بضع بلدات في الواحات، وجزء كبير من السكان يتألفون من قبائل بدوية تتنقل دائماً للسعي لتأمين معيشتهم[2].

لم يتجاوز تعداد سكان الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر، على الاغلب، الواحد مليون، حيث بلغ تعداد سكان مكة المكرمة حوالي 100,000 إنسان تتبعها المدينة المنورة بـ 60,000، وميناء جدة بحوالي 50,000. وهناك عددٌ لا بأس به من سكان المدن ومن ولد في الخارج، جاؤوا إلى الحجاز بسبب تجارة الحج ووجود المدينتين المقدستين. في الحقيقة إن حياة وثقافة وتاريخ بلدات الحجاز مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسار الإسلام وأصوله في البلدات والواحات والوديان وصحاري المنطقة ـ حيث الأماكن التي تلقى فيها النبي محمـد (ص) آياته، وأدى رسالته، وعاش حياته. ويوجد في مكة المزار المسلم الأكثر قداسة: الكعبة، حيث أُسست هناك، والتي يوجّه المسلمون حول العالم صلواتهم اليومية إليها. يعتقد المسلمون أنه مفروض عليهم أداء فريضة الحجّ إلها مرة في حياتهم في الأقل، إذا كانوا قادرين. وأسس النبي محمـد (ص) في المدينة المنورة أول تجمع للمسلمين وهناك دُفن.

كانت حركة الحج هي النشاط الاقتصادي الجيد للمنطقة في القرن العشرين، وأصبحت السيطرة، والإدارة، وحماية الحجاج، الاهتمام الرئيس للسلطات التي حكمت الحجاز. كان أساس اقتصاد الحجاز يعتمد على تزويد الحجاج بالطعام، والإقامة، والتنقل، والإرشاد، وكذلك قدمت إعانات سخية من قبل الإمبراطوريات والسلالات الحاكمة التي سيطرت على الحجاز، وذلك لصيانة الأماكن المقدسة ولدعم حركة الحج. أما التجار المولودين في الخارج فقد انجذبوا إلى المنطقة بسبب الحشود الكبيرة للحجاج، حيث بقي الكثير منهم كمقيمين دائمين في مدن المنطقة. يعدّ موضوع السيطرة على الحجاز مسألة ترتبط بالتميز والوجاهة وتوفّر مصدراً عميقا للشرعية

بالنسبة للإمبراطورية العثمانية، وربما كان أكثر أهمية لها من أهميتها للسكان الأصليين. ولكن وقبل أن تصبح هذه السيطرة فعالة، لا بُد أن يقتنع العثمانيون بوجود سلالة محلية ذات نفوذ وهم أشراف مكة فقد استمرت سلطتهم على مكة والقبائل المحيطة بها لعد ة قرون(3).

وشرفاء مكة هم أحفاد للنبي محمـد (ص) بشكل مباشر من خلال ابنته فاطمة (ع)، وزوجها علي بن ابي طالب (ع) (ابن عم النبي وصهره أيضاً) وابنها الأكبر (الحسن) (ع). ويعني لقب الشريف (لفظة مفردة، وجمعها أشراف) «النبيل» أو «المبجل» تقديراً لحامليه لعلاقتهم بآل بيت النبي (ع). فالإمبراطورية الإسلامية التي ازدهرت بعد وفاة النبي محمـد (ص) في عام 632 م قد غطّت مساحات شاسعة من العالم المعروف، حيث تركّزت أولاً في دمشق، لكن عندما جاء حكم السلالة العباسية نُقلت العاصمة إلى بغداد(*).

لا محالة، ضعفت السلطة المركزية على هذه الأراضي الشاسعة، وبهذا ظهرت السلالات الحاكمة وأمراء الحرب. أما في الحجاز، فقد استولى قتادة وهو شريف من منطقة ينبع على السلطة في مكة عام 1200م. وأسس سلالة بني قتادة الذين استمروا بحكم مكة المكرمة وتوابعها حتى القرن العشرين. وتعززت سلطتهم نتيجة فترة الحكم الطويلة لسلالة قتادة، وحفيده العظيم والنشيط والحازم أبو نمي (1254 ـ 1301)(**)، حتى صعود العثمانيين في القرن السادس عشر. كان الحجاز في كثير من الأحيان مركزاً للمناورات المعقدة بين القوى الحاكمة في ذلك الوقت. أما الثابت الوحيد فقد كان الحكم المملوكي في مصر (1250 ـ 1517) الذي كان كثيراً ما يتدخل في الشؤون الداخلية لمكة المكرمة، ليس فقط لدعم طرف من الأشراف ضد آخر، لكن أيضاً ليتأكدوا بأن منافسيهم الإقليميين لن يحصلوا على موطئ قدم في الحجاز. لكن عندما قام العثمانيون بتدمير القوة المملوكية في مصر عام 1517، أخذوا دور الأخير بصفتهم أصحاب سلطة على مكة والحجاز، وقام الأمير الحاكم على مكة المكرمة واسمه بركات بن محمـد (1497 ـ 1525) بالاعتراف بالسيطرة العثمانية على الحجاز(4).

أكد العثمانيون أن الأشراف هم حكام مكة المكرمة، وأعطوهم حرية واسعة في إدارة الشؤون الداخلية. لكن كان الطلبين الرئيسيين هما أن يُذكر اسم السلطان العثماني في صلاة الجماعة يوم الجمعة، والطلب الثاني أن تتمتع حركة الحج السنوية بالحماية الكافية ضد قطاع الطرق والقبائل

(*) حينما تأسست الدولة الإسلامية الجديدة على يد الرسول الكريم ص وخلفائه الأوائل كانت المدينة المنورة هي العاصمة للمدة بين عامي 622 ـ 657م، وانتقلت إلى الكوفة بين عامي 658 ـ 662م، وأصبحت دمشق هي العاصمة 663 ـ 754م، أما بغداد فقد أُتخذت عاصمة بين عامي 762 ـ 1258م. (المُراجع).

(**) المدة الزمنية المذكورة في المتن تخص محمد أبو نوباج، أول شريف مملوكي بعد سقوط الدولة الأيوبية، وهي مدة طويلة، أما (أبو نمي) فهو والده (الحسن أبو سعد) الذي حكم بين عامي (1241–1254م). (المُراجع).

الغازية. قام العثمانيون بمساعدة الأشراف على توسيع نطاق سيطرتهم لتغطي تقريباً كل الحجاز. بالرغم من ذلك، عيّن العثمانيون مفتياً (موظف ديني) إلى مكة المكرمة، وحاكماً على منطقة جدة. وبصرف النظر عن إن هذه الأمور رمزية للوجود العثماني، فعلى أية حال، كان الأشراف شبه مستقلين في حكمهم، إلى درجة أن البدو وسكان مدن الحجاز لم يلاحظوا وجود أية سلطة أخرى. ومع ذلك، فقد انقسمت عائلات الأشراف في كثير من الأحيان إلى فصائل متحاربة، حيث سعت إحداهم لنيل السيطرة، وظهرت نتيجة لذلك ثلاث عشائر، تنافست على السلطة. عرفت هذه العشائر الثلاث ذوي (عشيرة آل زيد) وذوي (عشيرة بني بركات) والعبادلة، والتي تنازعت فيما بينها على السلطة، برغم محافظتها على درجة من الحماية المتبادلة، بحيث لم تخرج الإمارة عن سلطة أحفاد قتادة.

وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت سلطة الأشراف مستقرة وممتدة على طول ساحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر وجنوباً حتى اليمن. كانوا قوة لا يستهان بها، ولكنهم كانوا ما يزالون على علاقة مع الباب العالي ـ مقر الحكومة العثمانية في اسطنبول ـ بشكل كامل. وكان حكمهم منسجماً انسجاماً تاماً مع محيطهم. لم يعيشوا حياة الترف والبذخ، كما فعل القادة الشرقيون الآخرون، وبقوا قريبين من القبائل وسكان المدن في أقاليمهم. حافظوا على الحراسة الشخصية من العبيد، والخدم، والعبيد المحررين، وكتيبة من المرتزقة ليبقوا على السلام، وفرض أمرهم في مكة المكرمة، بينما اعتمدوا أكثر على براعة تعاملهم مع القبائل للحفاظ على النظام في جميع أنحاء البلاد.

على أية حال، شهد منتصف القرن الثامن عشر ظهور الوهابية، وهم أتباع نسخة متشددة للإسلام. ظهروا في نجد، هضبة الصحراء التي غطّت معظم وسط شبه الجزيرة العربية، وهددوا بشكل مباشر حكم الأشراف في مكة المكرمة. في مرحلة بدايات القرن التاسع عشر، وجّه الوهابيون انتباههم إلى الحجاز. ففي عام 1803 احتلوا مكة المكرمة وفي عام 1805 المدينة المنورة. في عام 1807 أمروا كل الممثلين المتبقين للعثمانيين أن يغادروا الحجاز، واستولوا فعلياً على الإقليم بأكمله. كانت الدولة الوهابية التي تأسست في الحجاز مبنية على اعتقاد يُنظر إليه من قبل أغلب المسلمين على أنه هرطقة. امتدت حدودها إلى سوريا، وكانت إحراجاً جاداً وتهديداً محتملاً للعثمانيين. لكن لم يكن لدى الإمبراطورية الوسائل للقيام بالعملية الصعبة والمكلفة اللازمة لطرد الوهابيين من المدن المقدسة، وتدمير قوتهم في معقلهم في نجد. في عام 1809، لجأ السلطان العثماني إلى عامله الإسمي حاكم مصر، محمد علي، ليقوم بالمهمة نيابة عن الدولة العثمانية[5]. أنزل محمـد علي قواته في ميناء ينبع على البحر الأحمر، وفي عام 1818 استولى ابنه إبراهيم على معقل الوهابية في الدرعية. اكتملت سيطرة محمـد علي على الحجاز الآن، وإمارة مكة المكرمة

كانت تحت سيطرته أيضاً. وفي عام 1827 قام محمـــد علـــي بتعييـن محمـــد بن عون، من قبيلة عون، شريفاً. وهذه كانت بداية الأشراف للقبيلة التي انتمى إليها فيصل(6).

في عام 1840، عندما انسحب الجيش المصري ـ عماد قوّة محمد علي ـ لتأدية مهمات أكثر إلحاحاً، انتهى عهد محمد علي كسيّد على الحجاز حينها. حيث تجمع أسطول أنغلو ـ نمساوي لتهديد محمـد علي وطموحه بأن يصبح سلطة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية. وعاد الحجاز مرة أخرى للسيادة العثمانية، لكن هذه المرة كان العثمانيون مصممين ليقلصوا من قوة الأشراف ويمارسوا سلطتهم الخاصة من خلال حكامهم المعينين. تصادف استعادة السيطرة العثمانية والسلطة الرسمية على الحجاز بفترة **التنظيمات**(*).

كان العثمانيون مصممين على إدخال الأنماط الجديدة للإدارة في جميع الأقاليم لجذب هذه الأقاليم بشكل أكثر قرباً من الدولة المركزية. ويمكن للأشراف، على أية حال موازنة السيادة الجديدة للدولة العثمانية في الحجاز باللجوء إلى السلطان ـ الخليفة في اسطنبول والذي يدينون بالولاء الاساسي له. وتأرجح الصراع الناشئ بين الأشراف والحكام خلال العقود التي تلت وصار ظاهرة دائمة في سياسات الحجاز، وأصبح السمة الأساسية لسياسات الحجاز حتى اندلاع الثورة العربية الكبرى في عام 1916.

العرب في الإمبراطورية

صادف تسنم عبد الحميد عرش السلطنة العثمانية في عام 1876 مع نهاية الحرب المدمرة في البلقان والتي خسرت فيها الإمبراطورية العثمانية مساحات شاسعة من الأراضي، لحساب الدول الناشئة الجديدة في رومانيا، وصربيا، ومونتينيغرو [الجبل الاسود]، كما حصلت بلغاريا أيضاً على وضع شبه مستقل. كانت هذه الدول السلافية مدعومة بالقوة العسكرية لروسيا المحاربة والتوسعية، ومصممين على انتزاع اقصى فائدة من الإمبراطورية العثمانية الآخذة في الضعف. في مؤتمر برلين عام 1878 تم تأكيد استقلال دول البلقان الثلاثة. إن خسارة معظم مقاطعات البلقان المسيحية حوّلت التوازن السكاني للإمبراطورية العثمانية أكثر نحو المسلمين، وبُذلت جهود كبيرة من قبل السلطان من أجل العمل على استمرار ولاء المسلمين للهوية الإسلامية في الإمبراطورية. لم يكن لدى السكان المسلمين في الدولة العثمانية نزعات وطنية ذات أهمية في تلك الفترة، وإن وجدت فهي عبارة عن أمر ظاهري لمجموعة صغيرة من الشخصيات المثقفة والمتعلمة. كان ما زال هناك أعداد كبيرة من السكان في مناطق البلقان تحت سيطرة الباب العالي، في كل من ألبانيا، ومقدونيا،

(*) عهد التنظيمات: يُعنى به نضوج حركة الاصلاحات في الدولة العثمانية بتنظيم القوانين والانظمة الاساسية للدولة على أسس جديدة، بهدف تحسين نظم الحكم والادارة، وامتدت بين عامي 1839 ـ 1876م. (المُراجع).

والبوسنة، لكن الجزء الأكبر من السكان المسلمين في الإمبراطورية يقيمون في تركيا أو في البلاد العربية التابعة لها. وجّه السلطان عبد الحميد سياسته الجديدة تجاه هذه المجموعات. لقد كانوا خطوط الدفاع الداخلية ضد المطامع الزاحفة للقوى العظمى.

بنى عبد الحميد سياسته الجديدة على ثلاث دعائم رئيسة. أولاً، دولة مركزية وسلطوية قوية تحت إشرافه المباشر، معززاً هوية الإمبراطورية كقوة إسلامية. ثانياً، حماية اهتمامات المسلمين والتي يمكن تحقيقها ببناء الرمزية الدينية لمهام السلطان كخليفة، وتوسيع فكرة الجامعة الاسلامية أو الوحدة الإسلامية في مواجهة الفكر القومي، وبطرح فكرة عموم الإسلام، أو الوحدة الإسلامية، كثقل موازن للقومية[7]. أما هدفه الثالث فقد كان تعزيز التحديث الاقتصادي والتكنولوجي وتطوير البنية التحتية الرئيسة للنقل والاتصالات التي من شأنها أن تربط الولايات الأساسية للإمبراطورية معاً. لذلك أصبحت الولايات العربية المتبقية للإمبراطورية حاسمة لخطط عبد الحميد. ففي شمال إفريقيا، خسرت أقاليم الجزائر وتونس لصالح فرنسا ـ الجزائر في عام 1832 تونس في عام 1881 عندما فرضت فرنسا بالقوة حمايتها ـ تاركة أراضي الصحراء الشاسعة لليبيا، والمتموضعة بين مصر والسيادة الفرنسية في شمال إفريقيا، كإقليم عثماني متبقٍ فقط في المنطقة. لقد خرجت مصر بالفعل عن نطاق سيطرة الباب العالي مع صعود محمد علي، ومع تأسيس الوجود البريطاني هناك في عام 1882، وأصبحت مستعمرة في كل شيء ما عدا الاسم. كانت مرتبطة بالإمبراطورية بالاسم فقط. أما الأقاليم العربية في الشرق الأدنى وخصوصاً أولئك في الهلال الخصيب ـ سوريا، ولبنان، وفلسطين، والعراق أصبحت، من ثم، محور الاهتمام الجديد للإمبراطورية بالأراضي العربية. وجرى منح الحكام الذين يتم إرسالهم إلى هذه الولايات مرتبة أعلى في السجل البيروقراطي العثماني بصورة تتناسب مع رواتب أعلى متناسبة مع هذه المهام. وتم نشر وحدات عسكرية أكبر في المناطق العربية، وتم تعزيز الحاميات بتحصينات جديدة. وتم التأكيد على الدور العربي في نشر الإسلام، واستولى عبد الحميد على هذا الإرث لتقوية المطالبة العثمانية بالخلافة[8].

لم يكن هناك سوى تحرك خافت جداً للوعي الانفصالي بين العرب المسلمين للإمبراطورية. كانوا، كل حال، يهدفون لتطوير ظروف العرب ضمن الإمبراطورية، وربطوا الحصول على فرص أكبر للعرب بالبيروقراطية والمؤسسات العسكرية للدولة العثمانية. كانت القوة الأكبر والثروة للعائلات البارزة لمدن الولايات العربية في بداية الفترة الحميدية جزئياً تعود إلى ملاك الاراضي، والتي جعلت بعضاً منهم أثرياء للغاية. هذه الطبقة كانت تميل إلى الاندماج في بنية الإمبراطورية، وأرسلت العديد منها أبناءها إلى المدارس الحديثة المتزايدة في اسطنبول وإلى أكاديميات التدريب الإداري المدنية والعسكرية.

خلال هذه الفترة من التوسع الإمبراطوري، (التماسك العثماني اليائس، بدايات ظهور القومية، والوحدة الإسلامية، والإصلاح الديني بالإضافة إلى الاقتصادية الراديكالية، والتغيير الاجتماعي) وُلِد الشريف فيصل بن الحسين بن علي بن محمـد بن عبد المعين بن عون.

الشريف حسين ومولد فيصل

يوجد بعض الالتباس في تاريخ ومكان مولد فيصل بالتحديد. هذا ليس غريباً في ذلك الوقت، حيث لم تكن سجلات تواريخ الميلاد شائعة في تلك الفترة، ولم تكن مناسبة ولادة الشخص موضع اهتمام كبير، فحياة الرجال والنساء المميزين تميزت بذكرى وفاتهم وليس بتاريخ ولادتهم. تفاقم الارتباك بحقيقة وجود ثلاثة تقاويم مختلفة كانت مستخدمة في زمن الإمبراطورية العثمانية قرب نهاية القرن التاسع عشر: التقويم الميلادي، والتقويم الإسلامي الهجري القمري الذي يبدأ بسنة هجرة النبي محمـد (ص) إلى المدينة المنورة (622 م)؛ والتقويم الشمسي المستخدم من قبل الدولة العثمانية، وهو ما يسمى بالتقويم الرومي الذي أُستخدم عندما بدأت فترة الإصلاحات (تنظيمات)، وتم التداول بهذا التقويم عام 1840. ففي التقويم الرومي تُحسب السنين من تاريخ الهجرة، لكن بعد ذلك وفقاً لتقويم جوليان الشمسي. لم يتطرق فيصل لتاريخ ولادته خلال مقابلاته وأحاديثه، ربما لوجود اللامبالاة العامة حول تواريخ الميلاد بين العرب في تلك الفترة. فذكرى الميلاد كانت تُذكر من ناحية أحداث معينة متعاقبة أو تحت حكم أي حاكم حصلت. أحدهم وُلِد في سنة الزلزال الكبير أو في السنة التي مات بها سلطان محدد.

هناك ثلاثة احتمالات لمكان وتاريخ ولادة فيصل. الأولى أنه وُلِد في المدينة الجبلية الطائف والتي تبعد سبعين ميلاً من مكة في 20 آذار (مارس) 1883؛ الثانية أنه وُلِد في الطائف في 20 آذار (مارس) 1885. على أية حال، تستخدم المصادر أيضاً التاريخ الهجري 1300 لتحدد سنة مولد فيصل التي تجعل من تاريخ 1883 أكثر معقولية، فعام 1300 الهجري في الغالب يوافق 1883 ميلادي. واستخدام 20 آذار (مارس) كيوم وشهر محددين لمولده شائع لكل المصادر. وعموماً على هذا الأساس، فإن التاريخ 20 آذار (مارس) 1885 سيحدد مولد فيصل في عام 1302 هجري والذي لا توجد مصادر تدعمه. لذلك على الأرجح حدثت ولادته في يوم 12 من شهر رجب في عام 1300 هجري، وهذا من شأنه أن يوافق تاريخ ميلاده في 19 آذار (مارس) أو 20 آذار (مارس) 1883. وفي الوقت نفسه، من المرجّح أن تكون الطائف مكان ولادته، حيث من المحتمل أن تنتقل العائلة إلى الطائف ذات الطقس الأكثر اعتدالاً قبل قدوم الصيف الحارق لمكة المكرمة. وربما تم إرسال الأم الشريفية الحامل إلى هذا المصيف قبل بداية الصيف بفترة طويلة من أجل ولادة طفلها[9].

تقع بلدة الطائف المسورة على مرتفع عالي في الجنوب الشرقي لمكة المكرمة على طريق القوافل القديمة التي تربط مكة المكرمة بمرتفعات عسير واليمن. المدينة بحد ذاتها غير ملفتة، لكن المنطقة المحيطة بها توفّر مناخاً محلياً فريداً ضمن البيئة الصحراوية القاسية لشبه الجزيرة العربية. إنها تتموضع في منطقة تهبّ فيها الرياح الموسمية، ومع أمطار الشتاء، توفّر درجة معقولة من الخصوبة. ويؤمّن الريف نشاطاً زراعياً كبيراً، بحقول قمح، وبساتين فاكهة، وزراعة الزهور، لا سيما الورد الجوري. وتشكّل الأخيرة أساس تجارة الزيوت العطرية والعطور المشهورة في الحجاز. امتلك أثرياء مكة المكرمة والحجاز، لقرون، منازل ثانية في الطائف ينتقلون إليها مع كل عائلاتهم خلال أشهر الصيف. امتلك أشراف مكة المكرمة قصرهم الصيفي على حدود المدينة، وأصبحت الطائف عاصمتهم خلال هذا الموسم الحار، وفي هذا القصر على الأرجح وُلِد فيصل. وأُعطي اسم فيصل، والذي يعني في العربية «الشخص الذي يفصل»، وتعني أيضاً السيف وبالتحديد ضربة السيف. وعلى الرغم من أن اسم فيصل منتشر بشكل كاف بين القبائل البدوية، لكنه كان في الحقيقة نادراً تماماً عند الأشراف، فقد كان والد فيصل في العائلة الشريفية، الذين كانت أسماؤهم من أسماء آل النبي (ص) أو أسماء تعظم الله العظيم. كان والد فيصل الشريف حسين بن علي، وأمه عابدية، ابنة عم حسين الأولى، هي ابنة الشريف عبد الله، الذي كان أميراً على مكة المكرمة في عام 1858. لذلك يمكن أن يدّعي فيصل النسب الأبوي والأمومي المباشر من النبي محمـد (ص). كان الولد الثالث الذي وُلِد للشريف حسين والشريفة عابدية، يسبقه أخواه الأكبران: علي الذي وُلِد في عام 1879، وعبد الله الذي وُلِد عام 1882.

في وقت مولد فيصل كان عُمر الشريف حسين حوالي الثلاثين عاماً، القليل كان يعرف عن حياته المبكرة. أما والده علي [جد فيصل] فقد كان واحداً من أبناء الشريف محمـد بن عون الخمسة، والشخص الوحيد الذي لم يصبح أميراً على مكة المكرمة. مات قبل الأوان في عام 1861 عندما كان عُمر الشريف حسين سبع أو ثمان سنوات. وُلِد حسين في اسطنبول وأصبحت أمه أرملة وهي من أصل يمني[10]. انتقل والده إلى اسطنبول للهروب من منافسات قبيلة زيد التي كان زعيمها يُدعى عبد المطلب وهو على رأس السلطة في مكة المكرمة. على أية حال، عاد حسين إلى مكة المكرمة عام 1861، بعد وفاة والده، وعاش هناك تحت وصاية عمه، عبد الله، الذي أصبح الآن أميراً على مكة المكرمة[11]. بقي حسين في مكة المكرمة للعشرين سنة القادمة، متعلماً من القبائل، ومطوّراً مهارات اللباقة اللازمة ليصمد في بيئة من المؤامرات والشائعات. كما جاب الريف، لملاحظة وتعلّم حيوانات ونباتات الصحراء العربية، والذي جعله فيما بعد مرجعاً في الموضوع[12].

في عام 1880 عاد حسين مرة أخرى ليعيش في اسطنبول مرافقاً أعمامه. في اسطنبول يبدو

أن حسيناً اصطدم بالسلطان عبد الحميد. وربطته أجهزة استخبارات القصر التي هي في كل مكان بتردد شائعات عن اجتماعات بين أعمامه والمندوبين الأجنبيين في العاصمة. حيث تم الإبلاغ عن تآمر أعمامه مع القوى الأوروبية لاستعادة الشرافة لقبيلتهم تحت الحماية الأوروبية[13]. لم يكترث عبد الحميد لصحة هذه التقارير، والذي أصدر تحذيراً مستتراً للأشراف في اسطنبول للكف عن هذه الاتصالات. كان ذلك كافياً لكي يخاطر حسين ويعود إلى مكة التي كانت تحت حكم منافسيه من آل زيد، بدلاً من أن يغضب منه السلطان. عندها بقي حسين في مكة المكرمة حتى شباط (فبراير) 1892 عندما أُمر بالعودة إلى إسطنبول[14].

كان حسين رجلاً هزيل البنية، متوسط الارتفاع قليلاً، وله بشرة فاتحة، ولحية كثيفة. ويداه حساستان، وأما عيناه فقد كانت واسعتان وحادتان. كان دائماً يرتدي الملابس العربية التقليدية التي تتكون من الجبة (عباءة خارجية) فوق قميص أبيض طويل حتى الكاحل. ويغطي رأسه بعمامة مكيّة [نسبة الى مكة] التي كان يفضلها كغطاء للرأس العربي القبلي، وهي مصنوعة من قطن ومثبتة على الرأس بالعقال وهو عبارة عن اكسسوار [حلقات] مصنوع من حبال. كانت لديه شخصية قوية وكثيراً ما يوصف بأنه عنيد وصلب في النقاش مع إرادة حديدية. شديد التدين وغالباً ما كان يُستشار في القضايا الدينية واللاهوتية، مشبعاً أيضاً بأخلاق رائعة مستقاة من نسبه الشريف ومعرفته برسميات وطقوس البلاط العثماني. وعلى الرغم من أنه غير مهتم بالملذات الدنيوية والتعظيم المادي الشخصي، فقد كان رجلاً طموحاً جداً، مهتماً دائماً بادعاءات المُحقّة بالشرافة، وهذا ما أوقعه كثيراً في المكائد والمناورات السياسية. وتشكلت وجهات نظره، بشكل أساسي، وفق مفهوم ما قبل الحداثة، حتى القرون الوسطى، للسياسة والنظام الاجتماعي، ولم يستطع ربط صخب الأحداث التي رافقت العقود الماضية للإمبراطورية العثمانية حتى ميلاد نظام عالمي جديد. كان هذا المنظور التقليدي للحياة هو الذي دفعه إلى تكليف تربية ابنه الثالث فيصل لقبيلة بني العبادلة المقرّبة من حلف عتيبة [القبلي]. فقط في عمر الثمانية أيام تم إرسال فيصل إلى قبيلة الرحاب في منطقة الطائف، ليُمضي بشكل تقليدي السبع سنوات من عمره في القبيلة[15].

طفولته في الصحراء

إن التقليد العربي بإرسال الرُضّع الحديثي الولادة من سكان المدينة إلى القبائل البدوية ليتم تربيتهم خلال فترة الطفولة المبكرة هو عرف قديم. فالقبيلة المضيفة هي عادة مرتبطة بالدم مع الوالدين أو متصلة بشكل وثيق بطريقة أو بأخرى معها كالتحالف أو التجارة الرسمية. حتى النبي محمـد (ص) أُرسل إلى مضارب قبيلة بني سعد الصحراوية التي انتمت مرضعته، حليمة

بنت أبي ذؤيب، إليها. فالقبيلة المضيفة تقبل أن تُربي الطفل في حماها وتعدّ إسناد مثل هذه المهمة شرفاً عظيماً لها. ولا يترتب على ذلك أي بدل نقدي، رغم أن الأبوين الحقيقين يرسلان الهدايا حسب خيارهم من أجل تسديد نفقات الطفل. ويبقى الوالدان على صلة مع الطفل ويقوم بزيارتهما في المدينة لفترة تمتد عد ة أشهر في كل مرّة[16].

لم تكن ظروف القبائل التي تعيش في الصحراء العربية في زمن فيصل تختلف عما كانت عليه قبل قرون. وهناك تأثير ضئيل لخطوط التلغراف من العالم الحديث والقليل من البضائع المصنعة. كانوا غير مهتمين لأنماط معيشتهم. واستمروا في التجول في الأرض بحثاً عن المرعى لجِمالهم، وخيولهم، وخرافهم ونصبوا خيامهم حيثما كان الرعي جيداً. وعندما ينفد المرعى حزموا أمتعتهم القليلة على ظهور بهائمهم وانتقلوا غير مقيدين بالسلطة أو بأية ارتباطات، فلقد تميزت حياتهم بدورة الفصول. كان لكل قبيلة رقعة اقليمية خاصة بها وطقوساً متقنة تحكم انقسام القبائل نفسها. فالتعاون والتعاضد قد يفسح المجال بسرعة للمنافسة، الصراع، أو الثأر ـ أو العكس. كانت حياة بدائية قاسية لكنها لا تخلو من الشهامة. وفي مثل هذه البيئة أمضى فيصل السنوات المبكرة الحاسمة من حياته. حياة مبهجة، ومتحدية، وأحياناً خطيرة بالنسبة لطفل: يعيش في الخيام، يتنقل مع القوافل عبر الصحراء، يركض مكشوف الرأس ونصف عارٍ تحت أشعة الشمس الحارقة أو في الليالي ذات البرودة القارسة. قد يُسبب أي مرض صغير أو جرح غير معالج بموت مبكر بسهولة، ولكن من الممكن أن يقسّي ويقوي مزاج الطفل أيضاً، ويغرس فضائل الشخصية التي من شأنها أن تخدمه مدى الحياة.

بطبيعة الحال سيتنافس أطفال المضارب ضد بعضهم البعض في الألعاب والمعارك الوهمية، وفي القفز والركض، والفروسية والرماية. في السنوات اللاحقة، لم يُسهب فيصل في الحديث كثيراً عن طفولته، قائلاً في إحدى المقابلات مع كاتب بريطاني؛ «ماذا يمكنني أن أقول عن طفولتي؟ قليل جداً، لقد نشأت في خيمة بدوية في الصحراء. وحين كبرت لعبت مع إخوتي بالتبني والصبيان الآخرين. أتذكر أنني كُسرت ذراعي عندما كنت أصعد على بعض الصخور ولا يزال لدي ندبة في رأسي عندما ضُربت خلال معركة وهمية... لكنني لا أفكر مطلقاً بهذه الأمور الآن»[17]؛ قد يكون تحفظه بسبب افتراض بأن تفاصيل طفولة صحراوية لن تكون ذات اهتمام للجمهور الحديث. على أية حال، عندما تحدث مع أمين ريحاني، وهو كاتب لبناني في، عام 1920، كان أكثر صراحة. تذكّر بالفعل حادثة واحدة محددة والتي يبدو أنها قد أثرت فيه بشكل كبير، حيث انقسم أطفال القبيلة لفريقين لشنّ معركة وهمية. فنجح فيصل بالاستيلاء على غطاء رأس وحزام أخيه بالتبني ومما أدى إلى تباهيه، وبعدها تبادل الشتائم والضربات. فخرج زعيم القبيلة من خيمته بعصا في يده للفصل في النزاع، موجهاً كلامه إلى فيصل، فقال: «اسمع فيصل أنت ابننا

بالتبني وهذا أخوك بالتبني، ولذلك لا يتوجب عليك أن تتباهى من ناحيتك. إذا كنت جيداً معه، سيكون جيداً معك؛ وإذا كنت سيئاً معه فسيكون سيئاً معك»[18].

كسب فيصل فائدة حاسمة من نشأته الصحراوية وهي طلاقته باللغة العربية التي تتكلم بها قبائل الصحراء. فأولئك الذين صادفوه في وقتٍ لاحق من حياته سوف يتعجبون من لغته التي يتكلم بها ومن كمية القصائد والأغاني القديمة التي يحفظها عن ظهر قلب. وهذا لا يأتي إلا من خلال التعمق بثقافة رجال القبائل الصحراوية والاستماع إلى تلاوتهم وهم تحلّقون حول نار المخيم. وهناك مكسب آخر حصل عليه فيصل من حياة الصحراء هذه، تمثّلت في المعرفة الكبيرة لطرق وتفكير القبائل، ومعرفة المشاكل والاهتمامات القبلية، والاحترام الدائم للأزياء والعادات القبلية. إن المعرفة في كيفية كسب وردّ الاحترام والثقة بالقبائل كانت الجزء الحيوي من مهنة فيصل العسكرية والسياسية[19].

بعد فترة السبع سنين بين القبائل الصحراوية، عاد فيصل إلى مكة حيث بدأ تعلّمه الرسمي. وأصبح والده أرملاً بعد أن ماتت أم فيصل، عابدية، في عام 1886. وُصفت هذه الفترة من قبل شقيق فيصل عبد الله، ملك الأردن لاحقاً، في مذكراته. إن الثقافة المبكرة للشباب عنت قبل كل شيء قراءة وحفظ القرآن، وتعلم أساسيات اللغة العربية، وتعلم فنّ الخط. وبصرف النظر عن كونه النص الأساسي في الاسلام، فإنّ الأسلوب الفريد وجمال لغة القرآن العربية، كان يعتبر أفضل بداية لصياغة واستخدام اللغة. تم تعيين الأساتذة نفسهم للأخوة الثلاثة علي، وعبد الله، وفيصل في القصر. كان من المتوقع أن يغرس المعلمون احتراماً وانضباطاً صحيحين كأحد مسؤولياتهم، ويمكنهم اللجوء إلى استخدام العصا بحرية لتحقيق أهدافهم التأديبية والتربوية.

واحد من أساتذة القرآن وهو شيخ عجوز، علي المنصوري من مصر، والذي علّم أبيهم القرآن. أرهب تلاميذه ووظف بكامل الحرية الفلقة المفزعة أو عصا الخيزران، وذلك بضرب باطن القدمين المجتمعتين بقصبة. وكان هناك أيضاً مدرس قرآن أكثر مرونة وفعالية وهو الشيخ اللطيف الطبع ياسين البسيوني من الطائف. حفظ فيصل تقريباً ربع القرآن عندما اقترب من عامه العاشر، وفيما بعد، سوف يحفظ القرآن عن ظهر قلب[20].

ثلاثة معلمين مختلفين علّموا الأولاد فنّ الكتابة وهم متخصصون بنوع أو بآخر من فن الخط، من ضمنها طريقة كتابة اللغة العثمانية التركية. كما التقط فيصل بعض اللغة التركية من العديد من المتحدثين الأتراك في القصر وبين الموظفين الرسميين. وروى عبد الله المعروف بالمخادع الماكر، مقلباً حدث مع أحد أساتذة الخط والتي تورط فيه فيصل ظلماً. اعتاد الأستاذ على تحديد وتيرة العقوبات الكثيرة للغاية، بأن يُطالب بكتابة مئة سطر من الخط العربي. عانى الأستاذ لسوء الحظ من نزيف في اللثة، وكانت لديه عادة مزعجة بلعق رأس قلمه قبل غمسه بالحبرة.

فقرر عبد الله أن يقوم بمزحة مضحكة على الأستاذ، فأخذ بعض مسحوق الفلفل الحار للغاية من مساكن خصي القصر وملأ محبرة فيصل منها. في اليوم التالي، قدم فيصل وظيفته [واجبه الدراسي] للأستاذ الذي غمس قلمه في محبرة فيصل حتى يقوم بوضع العلامة، لكن، بعد لعق رأس القلم كعادته، حينها شعر بتأثير مسحوق الفلفل في فمه وعلى شفتيه. إدّعى الأستاذ بشكل طبيعي أن فيصل هو المذنب وهيأه للفلقة. تم تجنّب العقوبة غير المستحقة عندما اعترف عبد الله لوالده، ونجا فيصل من العقاب الأكثر إيلاماً[21].

شبابه في المنفى

وصل الفاصل المكّي القصير في حياة فيصل المبكرة إلى نهاية مفاجئة، حين أُستدعي الشريف حسين إلى اسطنبول من قبل السلطان عبد الحميد. أما ظروف ما وراء استدعاء حسين إلى اسطنبول فهي غير واضحة. عاش حسين حياة هادئة إلى حد كبير في مكة المكرمة، لكن استمرت الشبهات ضده من قبل السلطان بأنه كان يتآمر على عمه الأمير عون الرفيق، وبأنه حافظ على اتصال سري مع الوكالة البريطانية في جدة. كانت أجهزة مخابرات السلطان قد كتبت في وقتٍ سابق فيما يتعلق بحسين بأنه كان شخصاً عنيداً ومتمرداً كشفت آراؤه عن مقدرات خطيرة نحو تفكير أصيل واستقلالي في المناسبات النادرة التي أفصح فيها عنهم[22].

وإذا ما كان الخلاف بين الأقرباء قد تحول إلى دسيسة فعلية من قبل حسين ضد عمه هو أمر غير مؤكد، لكن مع ذلك، أرسل الباب العالي بعثة على رأسها راتب باشا، الضابط المرافق للسلطان، ليحقق في سبب الخلاف. أوصت البعثة، بأنه على حسين مغادرة الحجاز لنزع فتيل التوتر بين الفريقين. لكن استدعاء حسين إلى اسطنبول خدم أيضاً السياسة العثمانية الطويلة الأمد بالاحتفاظ بمنافس محتمل للشريف تحت المراقبة اللصيقة في اسطنبول[23]. لقد كانت نقطة ضغط مفيدة ضد الأمير الحالي وحفظت، كما لو أنها، أميراً بديلاً كاحتياط. في شباط (فبراير) 1893 غادر حسين بالباخرة إلى اسطنبول، وبعد سنة انضمت إليه عائلته.

في وقت مبكر من شهر آذار (مارس) عام 1893 سافر فيصل، مرافقاً أخويه علي وعبد الله، من جدة على متن الباخرة ذات المجاذيف عز الدين متجهين إلى اسطنبول.

كانت جدتهم لأبيهم على متن الباخرة وتدعى بسمة جيهان، وزوجة عمهم الأكبر عبد الإله، والحاشية المصاحبة التي تتألف من اثنين وثلاثين سيدة وخادم. كانت البحار هائجة إلى حدٍ ما، وعانى كل الطاقم من دوار البحر حتى وصلت الباخرة إلى السويس. عند عبور قناة السويس، رأى الأبناء لأول مرة مشهداً مذهلاً لنساء سافرات. وأصبحت البحار أكثر عنفاً بعد مغادرة بور سعيد، وأُجبرت الباخرة على التوجه إلى ليماسول في قبرص لانتظار تحسّن الأحوال الجوية. وواجهوا

ظروفاً مناخية أقسى قبل أن تصل الباخرة عز الدين أخيراً إلى اسطنبول في 30 من آذار (مارس)، حيث رست السفينة على الرصيف أمام الرويال بالاس[24]. لقد كانت بداية منفى طويلة لفيصل وأخويه والتي انتهت عام 1908.

استقروا مع أبيهم في قصر مريح على البوسفور مقدماً من قبل السلطان، لكن كان عليهم العيش ضمن ميزانية محدودة. إن ميزانية الشريف حسين المخصصة من قبل الباب العالي كانت محدودة ولم يكن لديه إمكانية الحصول على المزيد من الموارد المالية. لاحظ فيصل لاحقاً بأنهم قد عاشوا فقراء جداً، مع القدرة على تناول اللحم المتاح فقط مرة في الأسبوع، أضاف بحزن[25]: «ربما كان ذلك انضباطاً جيداً»؛ على الرغم من أنه تم تعيين أبيهم في مجلس الدولة، وهو مكتب استشاري يتألف من شخصيات ذات شأن في الإمبراطورية، في الواقع كان في الإقامة الجبرية في العاصمة، فكل حركة من حركاته كانت تكتب في تقرير من قبل الشرطة السرية للسلطان المتغلغلة في كل مكان. بعد وصول حسين إلى اسطنبول أعلن السلطان أن استدعاء حسين إلى العاصمة حتى هو، أي السلطان، والدولة يستفيدان من خدماته، لكن هذا لم يغير الواقع[26]. كان الشريف حسين وعائلته رهائناً بشكل كامل لسياسات السلطان عبد الحميد وللأحداث في الحجاز. لكن العاصمة التي نفوا إليها لم تكن مدينة متدهورة ومتخلفة لإمبراطورية متداعية. على الأصح، لقد كانت في خضم التحديث والتوسّع، حيث توسعت أبنيتها وشوارعها التقليدية ببناء حارات وطرق وجادات جديدة، الأمر الذي سيضفي مزيداً من الرونق إلى روعة المساجد، والمدارس، والقصور، ومكاتب الدولة، والأسواق القديمة التي شكّلت طبيعة الميتروبوليس. ظهرت المباني الجديدة الجذابة، الرسمية والخاصة، مصممة بأسلوب انتقائي، وبمزيج ناجح من التصاميم العثمانية القديمة والهندسة الأوروبية المتوسطية. انتشر هذا الأسلوب في المدن الرئيسة للإمبراطورية، خصوصاً بلاد الشام ولا يزال صدى أناقتها يتردد حتى يومنا هذا.

بالنسبة لفيصل وأخويه، فاسطنبول وضواحيها كانت تجربة مختلفة تماماً عن الصحراء، وقلب الحجاز، والحياة في العالم المغلق وبعيداً عن الحياة في مكة. فالطقس هنا، يبدو للمرء، موسمياً بشكل ملحوظ، ففصل الشتاء يمكن أن يكون قارس البرد ومليئاً بالثلوج. في الحقيقة أحضر الأخوة مخزونهم من ملابس الشتاء خلال رحلتهم إلى اسطنبول عندما رست الباخرة عز الدين في عدد من الموانئ في الطريق. يمتد موقع اسطنبول على قارتين، وكان الممر المائي الرائع للبوسفور ذو جمال طبيعي فائق، وتلالها مشجّرة وتنتشر الجزر المحيطة في البحار. لقد كانت اسطنبول عاصمة إمبراطورية متعددة الجنسيات، ازدحمت في شوارعها من مشارب مختلفة: أتراك، ويونانيين، وأرمنيين، وبلغار، وبوسنيين، ويهود، وأوروبيين،

وأكراد، وعرب. رجال يرتدون الزي العسكري، أو لباس الجنسيات المختلفة في الإمبراطورية، بينما ترتدي النساء اليشمك(*) المميز أو النقاب؛ غجريات ومتسولات ـ اعتبر الجميع المدينة كوطنهم. امتلأت مجاريها المائية ومرافئها بأنواع كثيرة من السفن: أما العبّارات فقد عبرت من الجانب الأوروبي إلى الجانب الآسيوي من المدينة وإليها. تقل المراكب الخاصة الركاب إلى جهات مختلفة على طول الممر المائي، قوارب محملة بالمواد للبيع، وتعبر سفن التجار بين البحر المتوسط والبحر الأسود. عندما غابت الشمس أخذت المنارات والقبب حيزاً وسيطرت على أفق المدينة. لقد كان مشهداً رائعاً حقاً. إنه بالفعل منظر رائع، ولا بُد أنه جعل منفى فيصل مقبولاً إلى حدٍ كبير.

بعد خمسة عشر يوماً من وصول المجموعة إلى اسطنبول تم تعيين الملازم الثاني صفوت العوا ـ وهو سوري من دمشق ومدرس مساعد في الأكاديمية العسكرية ـ بمرسوم إمبراطوري كمدرس خاص لفيصل وأخويه. كان صفوت في الثلاثين من عمره، واهتمامه الأول هو أن يعلمهم اللغة التركية، ومنعهم من التحدث بالعربية في حضوره. فعلّمهم التركية وقواعد وعلم النحو العثماني، والجغرافيا، والحساب، والتاريخ الإسلامي والعثماني. وبهدف تطوير كفاءتهم في التركية كان على الأولاد أن يقرؤوا بشكل متواصل وبصوت عالٍ. أصبح فيصل يتقن تلك اللغة، والتي سيستخدمها كشكل من أشكال الشيفرة عندما يخاطب العرب المتكلمين التركية بحضور الذين لا يتكلمون التركية. وأيضاً طوّر فيصل معرفة عملية باللغة الفرنسية وتعلم أساسيات اللغة الإنكليزية. على أية حال، يبدو أنه لم يكن منجزاً كإخوته بتحضيره لدروس صفوت وغالباً ما أهمل وظائفه. فاشتكى صفوت لحسين بأن فيصل كان دائماً متأخراً عن الدروس وكسولاً أيضاً، وأضاف أنه هدد فيصل بالضرب إذا لم يعمل بجد مثل أخيه عبد الله. أجاب حسين: «اضربه ولا تخشى شيئاً!» بعدها دعا فيصل وأخذه إلى مهمة: «أوه فيصل، إذا لم تثابر اليوم في عملك ستندم في المستقبل. لا تعتبره أمراً مفروغاً منه فقط كونك شريف، ووحده كافٍ لك [في الحياة]. فالشريف، يا ولدي، بعلمه وأعماله، وبسبب أخلاقه وسلوكه». هذا على ما يبدو أعاد فيصل إلى المسار الصحيح في دراسته مع صفوت(27).

أخذ أبوهم على عاتقه شخصياً واجب تعليمهم القرآن الكريم. وقد علّمهم العربية شخص سوري من حلب، وهو الشيخ محمد قضيب البان، وهو خرّيج من الأزهر؛ الأكاديمية الإسلامية الدينية المرموقة في القاهرة. هناك رجل دين آخر علّمهم الخط؛ هو محمد توفيق أفندي. كما تولى تدريسهم في وقت لاحق أديب تركي مرموق يُدعى محمد عارف باشا، وشاركت أم عارف

(*) اليشمك YASHMAK: هو نوع من الحجاب أو النقاب، تركي الأصل، ترتديه النساء المسلمات، بغرض تغطية وجوههن في الأماكن العامة. والذي لم يعد يستعمل في تركيا في وقتنا الحاضر إلا نادراً. (المترجمان).

باشا في إرضاع الشريف حسين، فكانت، بحسب عادات العرب، عمة الصبيان بالرضاعة، وكان عارف باشا بمثابة ابن عمتهم[28].

أما الحياة الاجتماعية لأسرة الشريف حسين المحافظة فقد كانت محدودة. وتواجد عدد من الأشراف في اسطنبول، من ضمنهم أولئك الذين من قبيلة زيد، الذين تم إبقاؤهم في الإقامة الجبرية في العاصمة بأمر من السلطان. على أية حال، لم يوقف التنافس بين القبائل من تكوين الصداقات بين الأجيال الشابة من أبناء العمومة البعيدين. ففيصل وأخويه كانوا من الزوار الدائمين مع أبيهم إلى منزل الشريف علي حيدر، مؤسس قبيلة زيد في اسطنبول. علي حيدر، الذي أصبح نائب رئيس المجلس الأعلى للبرلمان العثماني، كان رجلاً كريماً ومنفتحاً. وعلى غير عادة أشراف تلك الفترة، تزوج الشريف علي من إيزابيل دن وهي امرأة أوروبية وابنة كولونيل إيرلندي يخدم في صفوف الجيش العثماني. كانت مزرعة الشريف تقع على البر الآسيوي من إسطنبول وعلى مسافة ساعة تقريباً بالعربة، حيث سيتردد الأشقاء الثلاثة إلى الإسطبلات والتي احتفظت بعدد من الخيول العربية الرائعة، لينغمس فيصل بحبه لركوب الخيل باعتباره فارساً خبيراً. لكن، بقي الأشقاء الثلاثة مع مرافقيهم معظم الأوقات لتتطور علاقات وثيقة بينهم، إلا أنه وفي الوقت نفسه كانت هناك بوادر تنافسية بينهم، لا سيما بين عبد الله وفيصل. سيُظهر عبد الله لاحقاً غِيرة شديدة فيما يتعلق بنبوغ أخيه، حيث اعتبر هذا الأخير نفسه الابن المفضل لدى أبيه ووريثه السياسي. أما علي فقد كبر ليصبح دمثاً وقارئاً نهماً ليتحول بالنتيجة إلى رجل شديد الدقة والملاحظة في أمور الدين أو أقرب ما يكون إلى باحث ديني، لكنه كان ضعيف البنية، حيث عانى من السل. أظهر عبد الله بالفعل مهارات سياسية وطموح هائلين، وحتى انتهازية في بعض الأحيان، ولم يفقد أبداً شخصيته المزعجة. كان داهيةً وأنانياً، لكن جذاباً جداً أيضاً.

نما فيصل، أصغر الأخوة الثلاثة، أطول من المعدل، وأكّد هيكله البارز العظام على جعله يبدو أطول مما كان في الحقيقة. كما أنه نحيف وضيق الأكتاف قليلاً، وأخفى نشاطه وقوته الواضحين بنية حساسة إلى حد ما. وإن لم يكن مثقفاً فقد كان فضولياً، وحريصاً على التعلم، وذاكرته قوية. وطوّر قدرة جيدة على الملاحظة، وكان يتحكم في نفسه بسهولة، وجدياً، ومُجّداً في عمله. ولديه أيضاً شيئاً من الاندفاع الذي تم كبحه بسبب واقعيته. ولديه جاذبية تميزه وتؤهله ليكون قائداً. وتزوج والدهم حسين ثانية من سيدة تركية من النخبة بعد وفاة أمهم عابدية. كانت زوجته الثانية عادلة خانم، حفيدة المصلح العثماني في منتصف القرن التاسع عشر رشيد باشا[29]. أنجبت له ابناً، زيد، في عام 1900 وثلاث بنات. إن زيد، كونه أصغر بجيل من إخوته غير الأشقاء، لم يتربى معهم، لكنه سيخدم فيصل بصفة مساعد، ويوفّر له دعماً مهماً خلال الثورة العربية في العراق وسوريا.

السلطان عبد الحميد

تصادفت السنوات التي قضاها فيصل في اسطنبول مع نهاية حكم السلطان عبد الحميد الطويلة. عزّز السلطان سلطته وحكمه المستبد بلا منازع، لكنه لم يكن طاغية بالمطلق. حيث تم إرفاق ألقاباً رهيبة باسمه: «السلطان الدموي»، «عبد الحميد الملعون»، «ناسك يلدز»، وحكمه كان مصوراً كاريكاتورياً في الصحافة الغربية كمثال للاستبداد الشرقي المنحطّ والعنيف والذي كانت عليه الإمبراطورية العثمانية. ومن وجهة الرأي الفرنسية والبريطانية انتقل النظام العثماني من كونه الحليف المُقدّر في حرب القرم 1853 ـ 1856 (*)، والحصن ضد التوسع الروسي إلى إمبراطورية مهزوزة ومحتقرة على نطاق واسع والتي كانت معادية للتطلعات القومية لمجموعاتها العرقية. إن هذا العداء المتزايد للعثمانيين أصبح مرّكزاً على شخص السلطان عبد الحميد نفسه، الذي لم تساعد خصائصه الشخصية الخاصة، ومكانته، وسلوكه في التقليل من الازدراء الذي كان ينهال على العثمانيين في أوروبا من الصحافة، وحتى أحياناً من قبل السفارات. فحقارته واستبداده المفترضين أصبحا موضوعاً متكرراً في تقاليد القومية العربية. لكن العديد من العرب رأى أيضاً أن سياسات عبد الحميد، وخاصة ما يتعلق بارتباطه، على أقل تقدير فرصة أفضل للإمبراطورية العثمانية لجذب السكان المسلمين إلى ولاء دائم لدولة إسلامية عالمية.

تم تنصيب عبد الحميد كسلطان مفترض على أنه ليبرالي، لكن الأمر لم يستغرق طويلاً حتى تخلى عن الدستوريين وعزل قادتهم الرئيسيين وخصوصاً السياسي الإصلاحي مدحت باشا، أحد مهندسي دستور عام 1876. لكنه لم يكن مجرد طاغية رجعي، بل عاقداً العزم على التمسك بالطرق القديمة بأي ثمن. كان مهتماً بصدق بمصير الإمبراطورية، إذ لم يجد مبدأً تنظيمياً جديداً من شأنه أن يسمح لها بكسب الوقت لإصلاح وتقوية نفسها، ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية العميقة التي تهدد نزاهتها ووجودها. كانت وسيلة الأيديولوجية المختارة هي الجامعة الإسلامية والاستعداد لتوسيع النخبة الحاكمة التركية التقليدية لتتضمن القوميات الإسلامية للإمبراطورية وخصوصاً العرب. كان هو نفسه شخصية متدينة، ولكن مكروهاً بسبب كثرة علامات البذخ الخارجي. وتميزت السنوات التي قضاها في السلطة باعتراف كبير بمركزية الإسلام في هوية وشؤون الدولة.

(*) نشبت الحرب في شهر تموز (يوليو) 1853، بمحاولة روسيا اجتياح البلقان والسيطرة على البحر الأسود والقضاء على السيادة العثمانية على مضائقه، وكان ذلك يعني إصابة المشاريع والمصالح الغربية بخطرٍ كبير والشروع بالتفوق الروسي. لذا اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا لمساعدة العثمانيين في آذار (مارس) 1854م، وانتهت الحرب بهزيمة روسيا. (المُراجع).

على أية حال، كانت شخصيته متشككة تقترب من جنون العظمة. لقد وُصف بأنه «معقد غريب ورجل غير مستقر نفسياً» وكان أيضاً «عنيداً ومجتهداً ومنهجياً»[30]، ولم يدخن أو يشرب الخمر أبداً. وأشرف شخصياً على تحضير وجبات طعامه من مطبخ خاص ليتأكد من أنه لم يتم تسميمه. كما مكث شبه منعزل في قصر يلدز، منغمساً في كل دقيقة بتفاصيل إدارة إمبراطوريته. حيث ركز السلطة في يديه وطور نطاق وصلاحيات أمانة القصر لتعمل تقريباً كحكومة موازية للدولة الرسمية. قدمت الشرطة السرية قائمة يومية من المعلومات الاستخباراتية الخام والتي كانت تدعى جورنالات، إذ كان يقضي ساعات بغربلتها وقراءتها[31]. وبحلول نهاية القرن، تقدّم عبد الحميد في العمر قبل الأوان فأصبح رجلاً ضئيلاً منحنياً بلحية مخضبة وارتدى طربوشاً، سُحب ليغطي أذنيه. ونادراً ما غامر بالخروج خارج جدران القصر، وبنى مسجداً خاصاً بجانب القصر حتى يشرع بصلوات الجمعة، بدلاً من الذهاب إلى مساجد اسطنبول ذات التجمعات الكبيرة. كان معجباً شغوفاً بالتصوير وقام بجمع مجموعة كبيرة من الصور لأماكن، وأشخاص، وأبنية في إمبراطوريته. كما جرت عليه عادة كل السلاطين العثمانيين أن يتقنوا حرفة ما، حتى لا تكون السلطنة همهم، وأن لا يأخذوا مكانتهم السامية كأمر مسلّم به: لذا فقد أصبح عبد الحميد أيضاً نجاراً محترفاً. بإمكان زوار القصر أن يروا بأنفسهم جودة أعماله اليدوية.

فضلاً عن ذلك، كان مولعاً بالقصص البوليسية. ولكن قبل كل هذا كان يعمل بصورة جدية، ويدمن على العمل المتواصل لأنه يعتقد أنّ في ذلك خلاص للدولة. أما رئيس المابين[*]، سكرتير عبد الحميد الشخصي، كان السياسي المحنك كوتشك سعيد باشا، أما الثاني في القيادة فقد كان عربياً من دمشق وهو عزت باشا العبد، والعربي البارز الآخر في حاشية السلطان كان سورياً من حلب وهو الشيخ أبو الهدى الصيادي مستشار عبد الحميد الديني الرئيس.

إن المفارقة في حكم عبد الحميد هي أنها على ما يبدو مزجت سياسات متناقضة: التقليدية الجديدة المتميزة بالتركيز على الهوية الإسلامية في الإمبراطورية، ودولة مركزية وغير ليبيرالية، والرقابة على الصحافة وانتشار شبكة من الشرطة السرية، مع إصلاحات جذرية، وحتى أصولية، شاملة والتي أثّرت في معظم جوانب إدارات، واقتصاد، وميزانية، وثقافة، واستعداد عسكر الإمبراطورية. كان هناك عدداً من الإصلاحات التي غيّرت سمة الإمبراطورية تعود بشكل مباشر إلى كوتشك سعيد باشا[32].

دخلت قوة جديدة إلى حياة الإمبراطورية العثمانية، وقبل مطلع القرن بدا «الرجل المريض

(*) تشير مفردة «المابين» mabeyn إلى القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين جناح الحريم وما بين الدوائر الخارجية. وهو المكان الذي كان يقضي السلطان فيه وقته، إن لم يخرج من القصر. (المترجمان).

الأوروبي»[*] يتعافى. فتمّ شق آلاف الطرق، وازدادت المدارس الابتدائية والإعدادية في كل الولايات، ووسعت المدارس المهنية الرئيسة في اسطنبول في مجالات الطب، والقانون، والتجارة، والهندسة، والإدارة العامة، والعلوم العسكرية.، فُتحت أول جامعة حكومية للإمبراطورية، اسمها دار الفنون، أبوابها في عام 1900. وكانت اسطنبول المركز والتركيز لكل هذا النشاط والتي جذبت أعداداً متزايدة للطلاب والزوار من مختلف الأقاليم. وأيضاً تم افتتاح مدرسة داخلية على المذهب المالكي لتلبية احتياجات هؤلاء الطلاب فقط. وشكّل العرب مكونا واسعا من الطلاب الذين جذبتهم العاصمة بهدف تحصيل المؤهلات اللازمة للعمل في إدارات الدولة والقضاء، وبصورة خاصة الإدارة العسكرية. كان الطلاّب بصورة رئيسية من أبناء الأعيان وأصحاب الأراضي ورجال الدين أو من عائلات متوسطة من الموظفين[33]. لكن فيصل وأخويه احتكوا قليلاً مع هؤلاء العرب. لقد انحدروا من خلفيات اجتماعية مختلفة كلياً، فهم عائلة أميرية لهم الحق الفعلي للحصول على السلطة في أكثر مقاطعات الإمبراطورية أهمية من الناحية الدينية. لم يكسبوا ثقافتهم من المدارس العثمانية الجديدة لكن بالأحرى في المنزل مع مدرسين خاصين. وعلى أي حال لم يكن فيصل يعلم أن حياته ستقترن فعليا فيما بعد مع عدد من العرب الذين كانوا في اسطنبول خلال فترة وجوده.

الزواج والأطفال

إن السنوات الأولى من القرن العشرين مهمة للغاية بالنسبة لحياة فيصل الخاصة. وعندما بلغ سنّ الحادية والعشرين تزوج فيصل من ابنة عمه، حزيمة، وهي ابنة الشريف ناصر بن علي. وُلدت حزيمة في مكة المكرمة 1884. أما شقيقة حزيمة التوأم، مصباح، فقد تزوجت في وقتٍ سابق من أخ فيصل، عبد الله. أما علي فكان متزوجاً من ابنة عمه الآخر أيضاً، وهي ابنة عمه الأكبر، عبد الإله. تم ترتيب مراسم الزيجات الثلاث بالطريقة التقليدية لشرفاء مكة المكرمة، حيث يتم السعي والتشجيع للزيجات بين أولاد العم بتشجيعٍ عالٍ. لم يُعرف إلا القليل بشأن السنوات المبكرة لزوجة فيصل، وبينما أصبح فيصل الفاعل الرئيسي على المسرح الدولي، بقيت حزيمة بعيدة تماماً عن الساحة العامة بالشكل الذي يليق بسيدة نبيلة من سيدات مكة المكرمة. إلى أن انضمت إلى فيصل في العراق وهناك أصبح معروفاً عنها قليلاً، ولم يكن زواجاً عن حب، بل حثّه عليه والده. وبدوره لم يسأل فيصل أو يتردد أو يرفض تعليمات أبيه. وما كانت حزيمة

(*) رجل أوروبا المريض: لقب أُشتهرت به الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر، بسبب تراجعها ونكساتها على جميع الأصعدة، مما أفقدها مهابتها واضطرارها إلى تسليم الكثير من الإمتيازات بداخلها للدول الأوربية القوية، التي بقيت تتحيّن الفرص للإنقضاض على ثرواتها. (المُراجع).

جذّابة بشكل خاص ولا ربّة منزل، حيث فشلت بإغرائه بالتآلف الأُسري. فيما بعد، بدا على الاثنين أنهما قد وصلا إلى درجة من الحميمية والاحترام المتبادل، حيث قام فيصل بالتعويض عن عدم اكتراثه السابق بزوجته بالعطايا والهدايا.

أنجبت حزيمة لفيصل أربعة أولاد: ابناً واحداً، غازي، الملك اللاحق للعراق، وثلاث بنات: عزة، وراجحة، ورافعة. كانت رافعة معاقة بشدة نتيجة لحادث بعمر صغير جداً، ولم تقدر أبداً على الكلام أو الحركة. حيث أسقطت الممرضة عن طريق الخطأ الطفلة من ارتفاع عندما كانت بعمر بضعة شهور فقط. فأصبح فيصل متعلقاً بابنته المعوقة وهي متعلقة به بدورها، فتتعرف عليه كلما اقترب منها وداعبها. ماتت رافعة بعد أشهر من وفاة فيصل في عام 1933، ربما شعرت أن والدها توفي وأنها لن تراه مرة أخرى. شارك فيصل قليلاً في تربية أبنائه الآخرين، تاركاً هذه المهمة لأمهم وللنساء الأخريات في الأسرة، لكن النتائج لم تكن مفيدة تماماً، فلقد نشأ اثنان من الأطفال عنيدين ومدللين. أما غازي فلم يستطع الهروب تماماً من ظل والده الشهير، وعزة كانت مضطربة[34]. تزوجت ابنة فيصل الثالثة، راجحة، من ضابط عراقي في سلاح الجو، وعاشت حياة متواضعة وبسيطة[53].

هوامش الفصل الأول

1 ـ هذا القسم يستمد الكثير من معلوماته من عمل: شريف ماردين، نشأة الفكر لدى الشباب العثماني، طبعة برنستون، برنستون، 1962؛ نيازي بيركيش، تطور العلمانية في تركيا، روتليدج، لندن، 1998.

2 ـ حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1970.

3 ـ صالح محمد العمر، الحجاز تحت الاحتلال العثماني 1869 ـ 1914، منشورات جامعة الرياض، الرياض، آذار 1978.

4 ـ المرجع نفسه، ص ص 460 ـ 468.

5 ـ المرجع نفسه، ص ص 45 ـ 50.

6 ـ المرجع نفسه، ص ص 50 ـ 53.

7 ـ أنظر: الكتاب الممتاز لـ: جاكوب لانداو، سياسة عموم الإسلام: الإيديولوجية والتنظيم، مطبعة جامعة أوكسفورد، نيويورك، 1994.

8 ـ حسن كيالي، مرجع سابق، خصوصاً المقطع 1.

9 ـ يورد: محمد عبد الحسين، ذكرى فيصل الأول، مطبعة الشعب، بغداد، 1933. تاريخ ولادة الملك فيصل بأنها حصلت في الطائف عام 1883. ويذهب أمين الريحاني، فيصل الأول، رحلة وتاريخ، دار الجيل، بيروت، 1988، إن تاريخها في شهر ربيع الأول عام 1301 هجري في مكة المكرمة؛ أما كتاب: المملكة العراقية، مديرية الإعلام، فيصل بن الحسين في خطبته وأقواله، مطبعة الحكمة (مطبعة حكومية)، بغداد، 1945، فيقدّم الواقعة إنها حصلت في 20 أيار 1885؛ وأثبتت السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، التاريخ في 20 أيار 1885، في الطائف.

10 ـ راندال بيكر، الملك حسين ومملكة الحجاز، مطبعة أولياندر، كامبريدج، 1979، ص 6.

11 ـ المرجع نفسه.

12 ـ المرجع نفسه، ص 6؛ ت. ي. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، كتب بنجوين، لندن، 1977، ص 100.

13 ـ راندال بيكر، مرجع سابق، ص 7.

14 ـ صالح محمد العمر، مرجع سابق ص ص 125 ـ 135.

15 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص ص 11 ـ 14؛ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص ص 25 ـ 26.

16 ـ المراسلات الخاصة مع وليد وباسل عبد القادر سعيد، سلطات الجمارك البدوية.

17 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص ص 20 ـ 21.

18 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص ص 12 ـ 14.

19 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص ص 125 ـ 126؛ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص ص 20 ـ 21.

20 ـ عبد الله بن الحسين، مذكراتي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1989، ص ص 10 ـ 12.

21 ـ المرجع نفسه، ص ص 11 ـ 12.

22 ـ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، كتاب كلّية ضباط التعاونية، بيروت، 1955، ص 72؛ حسن كيالي، مرجع سابق، ص 101.

23 ـ صالح محمد العمر، مرجع سابق ص ص 128 ـ 129.

24 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق ص ص 17 ـ 19.

25 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 25.

26 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق ص ص 18 ـ 19.

27 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص 12.

28 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 26 ـ 29.

29 ـ راندال بيكر، مرجع سابق، ص 10.

30 ـ كارتر. في. فيندلي، الإصلاح البيروقراطي في الإمبراطورية العثمانية: مقر الباب العالي 1789 ـ 1922، مطبعة جامعة برنستون، برنستون، 1980، ص 228.

31 ـ المرجع نفسه، ص ص 228 ـ 230.

32 ـ أرجومنت كوران، «كوتشوك سعيد باشا (1840 ـ 1914) الحداثة التركية»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 1، رقم 2، 2 نيسان 1970، ص ص 124 ـ 132.

33 ـ كورين لي بليك، «تدريب المكاتب الإدارية العربية العثمانية: الخريجون السوريون من المكتبة المالكية، 1890 ـ 1920»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة برنستون، 1991.

34 ـ حصلت لها علاقة غرامية بعد بضع سنوات من موت فيصل، مما أدى إلى أن تتبرأ منها عائلتها. هربت مع نادل يوناني الذي سرعان ما هجرها، سارقاً أموالها وجواهرها. وتشرّدت لسنوات في أوروبا مُهانة، وحيدة، مفلسة، عملياً متسولة، حتى أشفق عليها أحد أبناء عمومتها، عبد الإله، ابن علي الذي هيأ لها معيشة بسيطة بشرط أن تترك أوروبا وتنتقل إلى القدس في ولاية فلسطين. تم تخفيف مأساة عزة إلى حدٍ ما في وقت لاحق عندما قام عمها، ملك الأردن عبد الله، الذي وافق على استقبالها وسامحها ضمناً بالنيابة عن العائلة. ماتت في لندن عام 1960 وبالكاد اعترفت بها عائلتها.

35 ـ ماتت راجحة في جنيف في عام 1959، وهي التي نجت من مجزرة العائلة المالكة العراقية في ثورة عام 1958 التي أطاحت بالملكية. أما حفيد فيصل، ملك العراق فيصل الثاني، فقد قُتل في تلك الثورة.

الفصل الثاني: العودة إلى مكة المكرمة

مع بداية صيف عام 1908، استقرّ فيصل وعائلته في منفاهم لأجل غير معلوم، حيث لم تكن الدلائل تشير إلى أن الظروف في الحجاز ستتغير لصالحهم أو أنَّ السلطان سيرخي قبضته أو يحدّ من رقابته على نشاطاتهم. وعلى أية حال، ففي غضون أسابيع قليلة من منتصف صيف تلك السنة ستحصل تغييرات كارثية في الإمبراطورية العثمانية التي ستمهد الطريق ليعودوا إلى موطنهم. كما ستبدأ سلسلة من الأحداث التي ستنتهي في نهاية المطاف بتفكك وزوال دولة استمرت قروناً، وهي التي من شأنها أن تضعه في مسار غير عادي نحو الحرب والملوكية.

ثورة تركيا الفتاة

بدأت المقاومة ضدَّ الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الذي استمر ثلاثين عاماً، من القوى التي كانت تسعى إلى الحد من سلطاته لإعادة الإمبراطورية إلى الحكم الدستوري[1]. لقد ترك تأكيد عبد الحميد، لسلطته الشخصية في عام 1878 وتعليقه للدستور وصلاحية البرلمان، المعارضين في حالة من الفوضى الكاملة. فهرب العديد منهم إلى أوروبا، حيث استمروا بمعارضة غير فعالة للسلطان، وكان من الممكن إيجاد جيوباً للمعارضة في مدن مثل باريس وجنيف. هناك، العديد من هؤلاء المعارضين أصبحوا مشبعين بالأفكار الأوروبية الرائجة حينها مثل الفلسفة الوضعية والداروينية المجتمعية[*] [2]. فظهرت منشورات جديدة والتي عكست آراء هذه المجموعات، وطُبعت في المدن الأوروبية، ووُزعت في الإمبراطورية العثمانية. وتهربوا من قوانين الرقابة على الصحافة في الإمبراطورية والسيطرة على البريد من خلال الاعتماد على السعاة الأجانب والحقائب الدبلوماسية. وفي عام 1889، انتظم مجموعة من الطلاب والمدرسين الشباب في المدرسة الطبيّة العسكرية في إسطنبول في جماعة سريّة

(*) راجت هذه النظرية في أوروبا منذ سبعينات القرن التاسع عشر، وتقوم على أساس التنافس بين الأفراد الأقوياء والضعفاء في «رأسمالية عدم التدخل» والبقاء للأصلح، وتُستخدَم لدعم السلطوية، والعنصرية، والفاشية، والنازية، والصراع بين الجماعات القومية والطبقية. (المُراجع).

تُدعى الاتحاد العثماني على غرار جمعية الكاربوناري(*) الإيطالية السريّة. وقد كان الاتحاد العثماني الأوّل بين الكثير من مثيلاته التي اندمجت لاحقاً في حركة على نطاق الإمبراطورية لتعمل في السر على إنهاء حكم السلطان المطلق. العديد من أعضاء هذه المجموعات السرية اختاروا إما التهرب من الاعتقال أو اختيار المنفى، فوجدوا أنفسهم في أوروبا، حيث انضموا إلى كوادر سابقة من المنفيين.

هذه المجموعة المتماسكة من الكتّاب والمثقفين، والضباط المنشقين، وموظفي الخدمة المدنية ـ وحتى أعضاء من الأسرة الحاكمة ـ كانوا معروفين بشكل جماعي بحركة الشباب الأتراك [أو (تركيا الفتاة)] Les Jeunes Turcs[3]. ومن المؤكد أن أتباعهم لم يكونوا جميعاً من أصل عرقي تركي كما يوحي الاسم، إذ كان لجميع جنسيات الإمبراطورية المتنوعة في معارضة استبداد السلطان تمثيلاً بينهم. وعلى أية حال، إن مشاركة العرب كانت أكثر تحفظاً وحذراً. فسياسات عبد الحميد لعموم الإسلام واعتماده على العرب في بطانته الخاصة لعبت بعض الدور في تبديد الاستياء من حكمه الشخصي[4]. لكن التفسير الأكثر ترجيحاً هو تعاون السلطان مع النخب المحلية والأعيان في الولايات العربية. إضافة لضعف الشعور القومي العربي في تلك الفترة. وحتى أصحاب العقول العربية الإصلاحية كانت ترى مستقبلها ضمن إطار الدولة العثمانية، ولكن ربما بصورة أقل مركزية بعيداً عن القوى الحاكمة[5].

فرضت بعض الوحدة التنظيمية على هذه الجماعات من خلال التأسيس الذي أصبح يُعرف فيما بعد بجمعية الاتحاد والترقي (CUP) بقيادة أحمد رضا، وهو مدير سابق للتعليم في مدينة بورصة. كان رضا متابعاً حريصاً لفيلسوف الفلسفة الوضعية أوغوست كونت[6] الذي آمن بدولة مركزية قوية وإنْ كانت تخضع لقيود وضوابط دستورية. وُضع تيار آخر بقيادة ابن شقيق السلطان المنشق، الأمير صباح الدين، مزيداً من التركيز على اللامركزية الإدارية والنظام الاقتصادي والاجتماعي الليبيرالي[7]. اجتمعت هاتان المجموعتان في مؤتمرين منفصلين في أوروبا، في عامي 1902 و1907، لتسوية خلافاتهم وللموافقة على خطة عمل ضد حكم السلطان عبد الحميد. وبحلول عام 1908، كان من المعروف على نطاق واسع وجود منظمة واسعة النطاق مكرسة لإعادة الحكم الدستوري إلى الإمبراطورية.

أنشأت جمعية الاتحاد والترقي عدداً من الخلايا في جميع أنحاء الإمبراطورية، وكان بالكاد يمكن للشرطة السرية مواكبة الوضع سريع التطور. وأصبحت الظروف ناضجة الآن لتطور

(*) كاربونيريا: أو جمعية مشعلي الفحم، ويسمى أعضاءها الكاربوناريون، جمعية سرية إيطالية تأسست في نابولي خلال بدايات القرن 19، لتحقيق أهداف قومية وتحررية، وأدت دوراً بارزاً في توحيد إيطاليا. (المترجمان).

دراماتيكي والذي بدأ في مقدونيا وهي كانت لا تزال ـ آنذاك ـ ولاية عثمانية[*]. ففي أوائل شهر تموز (يوليو) 1908 حصل تمرد من قبل وحدات فيلق الجيش الثالث العثماني، مع المقرات الرئيسة في سالونيك (مدينة يونانية)، يدعو إلى إعادة الدستور وقد انتشر في أنحاء المقاطعة[8]. وفي 24 تموز (يوليو) استسلمت الحكومة في اسطنبول وأصدر عبد الحميد مرسوماً بإعادة الحكم الدستوري.

على أية حال، لم تقابل ثورة الأتراك الشباب المشاهد نفسها من الابتهاج في كل مدن ومقاطعات الإمبراطورية، وتحديداً في الولايات العربية. فالعديد من العرب الذين استلموا مناصباً عالية في القصر تم طردهم أو اعتقالهم[9]. ومن غير المستغرب بالنسبة للعرب أن لا يرحبوا بحكومة تدين بالولاء لانقلابين غير معروفين من مقدونيا، وكانوا يتوعدون بإضعاف الأسس الإسلامية للإمبراطورية مع وعود طائشة بالمساواة وحريات غير واضحة كبديل للحكم التقليدي للخليفة السلطان، مهما كانت هذه الحكومة مستبدة ومزاجية. كان رد الفعل على الانقلاب في معظم المدن التقليدية للأقاليم العربية إما تحت المراقبة أو معادٍ[10]. أثارت أحداث تموز (يوليو) اضطراب حالة التوازن الاجتماعية والسياسية في الأقاليم العربية وكشفت الانقسامات والتقسيم ضمن المجتمع. كانوا مزعجين بشكل عميق لمجتمع محافظ وتقليدي بشكل رئيسي، فقط جزء صغير منهم تعرضوا لأفكار حديثة عن الحريات السياسية. معظم السكان بعيداً عن المدن الساحلية للشرق والذين لهم احتكاك طويل مع الأوروبيين ولم يكن للطرق الأوروبية معرفة تذكر بمعنى الحكم الدستوري. في الحجاز، الشريف علي، أمير مكة المكرمة كان معادياً بشكل علني[11]، ورفض التصريح علناً استعادة الحكم الدستوري في الإمبراطورية، حتى أنه أمر بالجلد العلني لبعض التُعساء الذين أُلقي القبض عليهم وهم يتكلمون عن الدستور والحريات. هذه التصرفات، بالطبع لم تلق تأييداً من قبل السلطات الجديدة في اسطنبول، وفي أيلول (سبتمبر) 1908 تم استبعاد الشريف علي.

الأمير الجديد لمكة المكرمة

لقد جعلت أحوال الحجاز المضطربة والخوف من استغلال البدو قلاقل الثورة لمهاجمة الخط الحديدي الحجازي المفتتَح حديثاً تعيين شريف جديد للمقاطعة أمراً لازماً. هذا وأُعتبر الخط الحديدي الحجازي محور مخططات عبد الحميد في تقريب الولايات العربية في الإمبراطورية

(*) مقدونيا: تقع في وسط شبه جزيرة البلقان في جنوب شرق أوروبا، وتقع إلى الشمال من اليونان وشرق ألبانيا. أنهت حروب البلقان (الأولى والثانية)، بين عامي 1912 و1913، خمسة قرون من السيطرة العثمانية على مقدونيا. (المُراجع).

من قبضة السلطة المركزية، كما ستبرز أهمية الخط بوضوح أثناء حملات فيصل الصحراوية خلال الحرب العالمية الأولى[13]. بدأ العمل بإنشاء سكة الحديد في عام 1900 ولم يكتمل حتى عام 1908، عندما وصل الخط أخيراً إلى المدينة المنورة، بربطها بسلسلة من المحطات على الطريق إلى دمشق. بدأ بنقل الحجاج حالاً بعد افتتاحه، لكنه كان يُستخدم أيضاً على نطاق واسع من قبل الجيش العثماني ليقوي من سيطرته على الأقاليم التي كان يجتازها. يمكن للقوات أن تتحرك أبعد وأسرع وتتزود بسرعة وكفاءة. وتوسعت التجارة أيضاً في المناطق على طول السكة الحديدية وحسّنت من أحوال البدو الذين جابوا الأرض بالقرب من خطوطها. ما يبدو أن البدو قد فقدوه في التخلي عن قطع الطرق وسلب الحجاج والمسافرين غير المحميين، كسبوه من خلال طرق أكثر أماناً لكسب رزقهم. أما شرفاء مكة المكرمة، على أية حال، فقد رأوا جانباً آخر من افتتاح السكة الحديدية. كانت هناك مخاوفاً حقيقية بتقوية القدرات العسكرية للإمبراطورية في الحجاز الذي من شأنه أن يقوّض الحكم الذاتي للأشراف ويقلّص وضعهم ويحوّلهم إلى مجرد شخصيات محلية لا حول لها ولا قوة، يشغلون مناصباً دينية تقليدية فقط.

متابعة لإقصاء الشريف علي، والموت المفاجئ لخلفه، الشريف عبد الإله، برز مرشحان لإمارة مكة المكرمة: هما والد فيصل الشريف حسين وقريبه البعيد من قبيلة زيد الشريف علي حيدر[14]. كان ترشيح الأخير ضعيفاً منذ البداية، على الرغم من أنه بالظاهر مرشح جمعية الاتحاد والترقي، فقد كانت تنقصه القاعدة الضرورية للدعم من القصر، والتي لا تزال العامل الأكثر أهمية بتعيين الأشراف. فضلاً عن ذلك، لم يكن لديه الباعث الضروري أو التصميم أو المهارات السياسية، ليؤمِّن إمارته لنفسه[15]. لذلك تم استدعاء الشريف حسين إلى القصر، وفي 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1908، وقّع السلطان عبد الحميد المرسوم القاضي بشكل رسمي تقليد الشريف حسين منصب إمارة مكة المكرمة.

ألقت ثورة جمعية الاتحاد والترقي عام 1908 بظلالٍ من الشك على كل علاقات الإمبراطورية مع الجماعات التقليدية: طبقات رجال الدين، ووجهاء الولايات، وزعماء العشائر. إن منصب شريف مكة المكرمة، مبني على العرف وامتلاك قدرٍ كبيرٍ من قوتها لنوعية العلاقة بين الأمير الحاكم والسلطان التي لم يكن بإمكانها التكيّف بسهولة مع هيكلية تحديث الدولة. هل يجب تخفيض سلطات السلطان، إن لم يتم القضاء عليها تماماً، فإذا تمّ تقليص سلطة السلطان، هذا إذا لم يتم إزالتها كلياً، فكيف يمكن لهذا الارتباط ذو الصفة الدينية القوية أن يكرر شروط الولاء مع مجموعة من الضباط المشاكسين والمتآمرين المدنيين العلمانيين الذين يدّعون شرعية نظامهم الجديد في اسطنبول؟ كان حسين يتولى الإمارة في زمن تعرضت فيه قوة السلطان لتهديد خطير. إن مناصرة عبد الحميد للانقلاب المضاد الفاشل ضد جمعية الاتحاد والترقي في تموز (يوليو)

1909 (*)، قادته في النهاية إلى عزله ونفيه[16]، حتى مات مغموراً في 10 شباط (فبراير) 1918، قبل بضعة أشهر من الهزيمة النهائية وتفكك الإمبراطورية التي كان قد ترأسها لمدة ثلاثين عاماً. وتم تقليص سلطات السلطان بشكل كبير، تاركاً حسين بمواجهة حزب الاتحاد والترقي بدون القوة التعويضية الكاملة للسلطان إلى جانبه.

فيصل والإدريسي وحملات عسير

صادفت عودة الشريف حسين إلى مكة المكرمة مع بداية موسم الحج، وحالاً وُضِعت قدرته موضع الاختبار لإدارة واحدة من المهام الرئيسة لمنصبه. نجح في حماية قافلة الحجاج العائدة من مكة إلى محطة السكة الحديدية في المدينة المنورة ضد الفوضى المتفشية بين القبائل البدوية[17]. كانت مهمة حسين الرئيسة الأخرى هي أن يؤمن الأرض من القبائل المتمردة وأن يؤمن أيضاً حدوده الشرقية باتجاه نجد مع تزايد قوة عبد العزيز بن سعود والوهابيين، وباتجاه الجنوب نحو عسير، حيث الزعيم الروحي الملهم، الإدريسي، الذي رسخ نفسه كحاكم مستقل. ضمّ فيصل على رأس القوات المجمعة من قبل أمير مكة المكرمة بشكل رئيسي رجال القبائل المخلصين والجيش الخاص بالأمير، وقاد خمسة عشرة حملة وغارة لقمع التمرد القبلي[18]. تمّ إسناد هذه القوات في بعض الأحيان من خلال المفارز العثمانية المنتظمة المأخوذة من الحاميات العثمانية في الحجاز. ومن الواضح أنه حتى في أواخر العشرينات من عمره تم الاعتراف وإدراك القيادة والمهارات القتالية لفيصل من قبل والده. فتم تعيينه لقيادة وحدة الشؤون القبلية والبدوية التابعة لإدارة والده[19]. كان فيصل ضالعاً في الحملات ضد ابن سعود، لكنه سيكسب الحافز كقائد في ساحة المعركة ومخطط تكتيكي ضد الإدريسي.

كان السيد محمد بن علي بن أحمد بن إدريس المعروف في المصادر العربية باليماني (اليمني) أو الإدريسي، وفي المصادر الأوروبية معروفاً ببساطة بالإدريسي، كان زعيماً لطريقة صوفية أُوجدت من قِبل سلفه، أحمد بن إدريس، من مواليد مدينة فاس في المغرب[20]. وُلِد السيد محمد نفسه في صبياً في عسير عام 1876 لأم هندية[21]. درس مع أبيه وذهب إلى الحج في مكة المكرمة، وفي حوالي عام 1896 أمضى بعض الوقت في الأزهر: الأكاديمية الدينية في القاهرة. وعلى ما يبدو هناك قام ببعض الاتصالات مع السفارة الإيطالية. في المدة 1905 ـ 1906، عاد الإدريسي إلى عسير قبل سنة من وفاة والده. وراعَهَ ما شاهده من إهمال وخراب البلد

(*) تسمى في التاريخ العثماني (الفتنة الارتجاعية) أو الثورة المضادة، وقعت في نيسان (أبريل) 1909، إذ قامت حركة عصيان وتمرد ضد قادة الاتحاديين، أُتهم السلطان عبد الحميد بدعمها، واتخذت ذريعة لعزله عن العرش في تموز (يوليو). (المُراجع).

تحت الحكم العثماني، فقام الإدريسي بتمرد ضد الأتراك، داعياً إلى إقامة دولة عادلة تحكمها الشريعة، وبشكل أوضح، دولة تكون جزءاً من اتحاد عربي (أمة عربية). بدأت تنتشر التقارير عن ظهور المهدي (المُخلّص)، الذي لديه قوى خارقة والذي كان يؤسس حكم الشريعة بين القبائل وفي مدن عسير. هدد ظهور الإدريسي ليس فقط الحكم العثماني، بل أيضاً سيطرة الشريف حسين على قبائل المنطقة، التي قبلت بعضاً منها زعامة حسين، وكانوا جزءاً من منطقة نفوذه. وعقّد أيضاً التنافسات بين القوى الأوروبية في منطقة البحر الأحمر، بشكل رئيسي بين بريطانيا وإيطاليا، حيث تبحث الأخيرة عن طرق لتوسيع نفوذها في أريتيريا واليمن.

قامت ثورة الإدريسي في عسير بطرد الأتراك بشكل فعلي من معظم البلد بنهاية عام 1910. لكن مدينة أبها، على أية حال، صمدت وحوصر الحاكم والحامية التركية. ولم تنجح محاولات القوات العثمانية التي استقدمت من المدينة اليمنية الساحلية (الحُدَيدة) للتخفيف عن أبها، وكان الحصار فرصة حقيقية لتسقط المدينة بأيدي الثوار، ومع عجز العثمانيين لإرسال حملة تخفيف أو لإقناع الإدريسي بقبول شكلٍ ما من الحكم الذاتي تحت السيادة العثمانية. ولم يكن هناك بديل للحكومة في اسطنبول إلا بأن تطلب من الشريف حسين ليقود حملة ضد الإدريسي لاسترداد السلطة العثمانية[22]. فأرسل الباب العالي كتيبتين من القوات العثمانية النظامية مع سلاح المدفعية للانضمام إلى قوات حسين المكونة من خمسة آلاف بدوي مسلح وميليشيا. وفي 15 نيسان (أبريل) 1911 انطلق حسين، مع ابنيه عبد الله وفيصل، من مكة المكرمة لتحرير أبها[23]. وصل أحد الأرتال مكوناً من قوة ما يقارب من ثلاثة آلاف بقيادة عبد الله، وكان فيصل مسؤولاً عن سلاح الفرسان ووحدات الأشراف إلى مدينة القنفذة على الطريق إلى أبها. كان الطقس حاراً جداً والمنطقة قاتمة ومقفرة، فتعرض الرتل لكمين من قبل قوات الإدريسي في مكان يُدعى قوز أبا العير[*]. استمرت المعركة التي تلت ذلك لست ساعات، حيث عانى كُلًا من الطرفين خسائراً فادحة لكن رُجحت الكفة لصالح الإدريسي في النهاية، وأُجبر عبد الله على الانسحاب إلى قنفذة مع انخفاض كبير بعدد أفراد قوته[24]. دُعمت إعادة تجميع القوة الآن بحوالي 1,200 من القوات النظامية العثمانية، وغادرت قنفذة مرة أخرى بعد خمسة عشرة يوماً. وقابلوا الإدريسي بقرب موقع المعركة السابقة. فحصل هناك قتال عنيف حيث قاد فيصل فرقته الخيالة ضد أحد الأرتال الإدريسية محاولاً كسر تشكيلات قوة إمداده ودحرها[25]. وحُسمت نتيجة المعركة الثانية لصالح القوات المشتركة العثمانية والشريفية، لكن ظهر هناك شيئاً آخر أهلكهم: إنه الكوليرا. فانخفض عدد قوات الإغاثة إلى الثلث بسبب المرض الرهيب، والذي أثّر في القوات

(*) القوز هي إحدى قرى محافظة أبين اليمنية، تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الحُديدة، وتتبع مديرية لودر. (المُراجع).

العثمانية بشكل غير متناسب بسبب مناعتها. في وقت لاحق روى فيصل مدى الخسائر التي سببها المرض، فأمر أحد حراسه أن يصيح بأن العدو كان قريباً. فانتقلت الصيحة إلى الخيام، لكن من حوالي سبعة آلاف من القوة فقط خمسمائة كانوا قادرين أن ينهضوا ويستعدوا للمعركة. كان على فيصل أن يشكر الله فقط لأنه لم يكن هناك في الحقيقة عدواً في المناطق المجاورة[26].

أظهرت معركتا (قوز) كل من الشجاعة والقسوة للقوات النظامية العثمانية. فانتقامهم من القرويين الأبرياء الذين ظنوا أنهم يدعمون الإدريسي كان مخيفاً، من حرقهم الناس أحياء، فكانوا يحرقون الناس وهم أحياء ويستخدمون الخازوق والتشويه وقطع الرؤوس، مما أزعج فيصل بشدة. لقد كان تعرضاً مبكراً لأهوال الحرب، وستكرر مثل هذه المشاهد المروعة خلال الثورة العربية الكبرى.

دخلت قوات حسين أخيراً إلى أبها في 16 و17 تموز (يوليو) 1911، وهربت قوات الإدريسي إلى الجبال، لكن ذلك لم يُنِه تمرد عسير. ولم يقل تأثير الإدريسي على القبائل واستمر بالحكم من مركزه الرئيسي في صبيا [إحدى توابع منطقة جازان]، ينتظر الفرصة لانتفاضة أخرى. على أي حال أصبح بإمكان الشريف حسين ادعاء النصر بعد أن فك الحصار عن أبها. فقد ساهمت قواته بجزء كبير من عملية القتال واعترفت حكومة اسطنبول بمساعدته في احتواء تهديد الانفصال في عسير ومنحته الأوسمة. عاد الشريف حسين وعبد الله وفيصل إلى الطائف منتصرين في آب (أغسطس) 1911. حُمل فيصل، على أية حال، على نقالة حيث أصيب بالملاريا قرب نهاية الحملة، مما أضعفه لوقت طويل فيما بعد[27].

أخذت المواجهة مع الإدريسي منعطفاً آخر، عندما أعلن الإيطاليون الحرب على الإمبراطورية العثمانية في 29 أيلول (سبتمبر) عام 1911، إذ طمع هؤلاء بالولايات العثمانية في ليبيا منذ أن حلموا بإمبراطورية إيطالية ما وراء البحار تضاهي إمبراطورية روما ووضعها على قدم المساواة مع القوى الإمبريالية الغربية الأخرى. وبحجة سوء معاملة العثمانيين للمستعمرة الإيطالية في طرابلس[*]، قام الإيطاليون بغزو واحتلال المناطق الساحلية، بينما استمر الداخل بالمقاومة[28]. فاستغل الإدريسي فرصة الإعلان الإيطالي للحرب، كما تلقى وعداً من الإيطاليين بدعمه مالياً وعسكرياً ولوجستياً. وسيطرت البحرية الإيطالية على البحر الأحمر، وهاجمت القواعد العثمانية الساحلية بكلّ حرية. وتمت محاصرة ميناء اللحية من الأسطول الإيطالي من البحر ومن قوات الإدريسي في البر. ومن جهة أخرى، استولى الإدريسي على بلدة جازان المهمة والتي أخلاها

(*) أنشأت إيطاليا مركزين لها في طرابلس وبرقة بعد هجومها الأول على ليبيا العثمانية، وتنازل السلطان عنهما وفق معاهدة لوزان 1912. (المُراجع).

العثمانيون ليركز بعدها على قطع خطوط إمدادهم بين عسير والحجاز. لذلك، ومع انقطاع الطريق البحري، لم يمتلك العثمانيون سوى إمكانيات ضئيلة في مواجهة التحدّي المتجدد للإدريسي، الأمر الذي دفعهم إلى طلب العون من الشريف حسين لمساعدتهم في مأزقهم للمرة الثانية. وافق حسين على ذلك، لكنه عيّن هذه المرة فيصل قائداً للحملة.

انطلق فيصل على رأس قوة تصل إلى 1500 بدوي و400 من قوات غير نظامية من الجيش الخاص للشريف (البيشة) وقوة مرتزقة بتمويل تركي من القبائل العربية من منطقة القاسم (العُقيل)[28]. ركب مقاتلو العقيل إناث الجمال [النياق] فقط خلال حملاتهم، بينما يتألف البيشة بشكل رئيسي من ناس ذوي أصل أفريقي، أي عبيد محرَّرون. كان الشريف هو الذي يدفع لهم من مصادره الخاصة فكانوا مخلصين له بشكل كامل، وكثيراً ما رافقوا قوافل الحجيج.

وصلت قوة فيصل إلى قنفذة وانضمت إلى كتيبتين عثمانيتين تواجدتا بالفعل في المدينة. وجمع الإدريسي جيشه في منطقة قنفذة للتجهيز للمعركة المرتقبة. وأرسلت البحرية الإيطالية سفنها الحربية لتدعم الإدريسي بالبنادق ولإنزال القوات الإيطالية إلى قنفذة. واندلعت معركة شرسة بين فيصل والأتراك وبين الجيش الإدريسي المدعوم من بنادق البحرية الإيطالية. تخلى الإيطاليون عن إنزال قواتهم عندما هُزم الإدريسي على الأرض، وهرب من أرض المعركة مع بقايا قواته[30]، على الرغم من النصر العسكري لفيصل فإن صدام قنفذة لم يقض عملياً على تهديد الإدريسي. فعاد فيصل إلى مكة المكرمة، واستمر الإدريسي بنشاطه ضد العثمانيين. إن اتفاقية السلام التي أنهت الحرب الإيطالية في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1912 تركت الإدريسي بوضعه، وحاول العثمانيون فيما بعد أن يتصالحوا معه، لكن هذه المحاولة لم تجدي نفعاً. وبقي الوضع في عسير عند اندلاع الحرب العالمية الأولى على حاله، ولم يتغير جوهرياً منذ عام 1912. لكن كسب الإيطاليون طرابلس التي كان على العثمانيين التنازل عنها، حتى يواجهوا تهديداً أكبر بكثير اندلع في أيلول (سبتمبر) 1912: حرب البلقان الأولى.

في أوائل عام 1913، قام فيصل بتفتيش ميداني على الظروف العسكرية في عسير واستطلاع تحركات الإدريسي. كتب إلى والده عن الظروف القاسية للقوات المتمركزة هناك، «فقوات الحجاز ليس لديها أية نية للبقاء هناك دقيقة واحدة أخرى. إن ظروفهم محرجة بسبب تحقيرهم المهين ورغبتهم الشديدة في العودة إلى مكة... سيهربون إذا أياً من أرتالهم هوجمت من قبل عشرة محاربين. أما الحامية في أبها فهي غير منضبطة أبداً... وإذا لم يتم اتخاذ أي تدابير فستكون النتائج مروعة... وكل ما اهتم به أكثر هو أبها وسلاح المدفعية ومخبأ الأسلحة فيها إذا سقطت بيد الإدريسي». وأضاف فيصل أن هجمات الملاريا المتكررة أبقته في الفراش لمدة نصف شهر،

وتوقّع بأن الإدريسي سيستغل الضعف الرهيب للوضع العثماني في عسير وسيهاجم أبها. وعن هذه الحالة كتب فيصل بأنه سيقود الوحدات الحجازية عائداً إلى الحجاز، وجاهزاً ليدافع عن السهول الساحلية، مما يعني أنه يمكن للإدريسي أن يسير بسهولة في البلاد[31]. كان من حسن حظ الشريف حسين (والعثمانيين على حد سواء) أن الإدريسي لم ـ أو لم يستطع ـ أن يشنّ هجوماً على أبها ويسيطر على عسير في مثل هذه اللحظة من الضعف، وبذلك يغير الظروف الاستراتيجية في شبه الجزيرة العربية لصالحه.

شخصية فيصل الشاب

في الأيام الأولى لحكمه في مكة المكرمة، سيحافظ الشريف حسين على مستشاريه الخاصين، بينما أبناؤه لم ينضجوا سياسياً بعد، فقد ساعدوه ودعموه، ونفذوا تعليماته. ربما قدّموا النصيحة إذا طلب منهم ذلك، لكنه ليس مؤكداً أن يستمع إليهم. كان الأبناء في رهبة من أبيهم، ولم يكن لديهم لا الخبرة ولا قاعدة دعم مستقلة تسمح لهم بأن يتحدّوا أبيهم بسبب الاختلافات الجوهرية في الرأي. وكان عليهم أن ينغمسوا في حياة الحجاز بعد أن أمضوا جزءً كبيراً من حياتهم السابقة في اسطنبول. كما اعترف فيصل للورنس خلال حملة الصحراء؛ «أنا لست حجازياً بالتربية؛ لكن، أقسم بالله، أنني غيور عليها»؛ ستزداد ثقة فيصل على أية حال، وطمأنينته، ومع اندلاع الحرب العظمى سيعتمد على نفسه بشكل كامل.

عندما عاد فيصل إلى مكة المكرمة من اسطنبول ـ التاريخ المحدد غير معروف لكن من المحتمل في أواخر شهر شباط (فبراير) وبدايات شهر آذار (مارس) 1909 ـ كان متأثراً بسنواته التي أمضاها في اسطنبول. وعلى أية حال، تأكد الشريف حسين بأن فيصل سيخلع ملابسه الأوروبية، والتي أحبّها فيصل، والتخلي عن أي سلوكيات تركية. حتى في الثورة العربية، لن يرتدي فيصل سوى اللباس العربي. كانت لغة فيصل العربية وكتابته لا تشوبها شائبة، لكن والده عيّن له مرافقين مكّيين ليسهلوا إعادة تقديمه إلى المجتمع الحجازي والقبلي. وأمر أيضاً كُلاً من فيصل وأخويه بالانضمام إلى فيلق الإبل[*]، وذكر المناسبات للورنس عندما ذهب بفيلق الإبل في بعثات ممتدة لفترة طويلة في براري البلد للقيام بدوريات في طريق الحج. يمكن أن تستمر هذه لأشهر في كل مرة في كل الفصول وظروف الطقس. لم يحظ فيصل بمعاملة خاصة، كان يتناول هو وأخوته الطعام نفسه، ويأوي إلى الفراش والسروج الصلبة كبقية القوات، تقابلوا وتعاملوا مع جميع أنواع الرجال، وتعلموا طُرقاً جديدة بالركوب والقتال. لقد كانت حياة مصممة لتقويتهم

(*) راكبي الجمال أو ما يُعرف بقوات (الهجّانة) هي الشكل الأولي للقوات العسكرية المكلفة بحفظ الامن في الصحراء المترامية الاطراف، ويُسمون في الكتاب أحياناً بـ«الهجن». (المُراجع).

وجعلهم يعتمدون على أنفسهم، ولغرس فيهم المعرفة والاحترام للناس وللأرض التي عليهم أن يساعدوا والدهم في حكمها.

إن سنوات الطفولة مع البدو في الصحراء، والشباب في ميتروبوليس اسطنبول، وسن الرشد في التنقّل في أراضي الحجاز، كلها أدت دوراً في صقل شخصية فيصل. إنه الآن شخص ناضج، عمره أكثر من خمسة وعشرين سنة عندما عاد من مكة إلى اسطنبول، لكنه بدا أكبر سناً. وقف متألقاً بملابسه البيضاء، والبريم الذهبي مع غطاء الرأس الذي يميز الأشراف. رجل نحيف ومنتصب وممشوق القامة، وبالتأكيد أطول من معظم أقرانه، بوجه شاحب وعينان منسدلتان قليلاً ولحية سوداء مشذبه. إنه شخص مهيب ووسيم جداً. كان مستقيماً... ورشيقاً ونشيطاً، وبأجمل مشية رأس وكتفين منتصبين بجلال ملكي، كما وصفه لورنس. وكعادته يضع يده على خنجره عندما يقف لاستقبال الضيوف والزوار، ويتحدث بنبرة موسيقية وعميقة. استخدم مع القبائل لهجات الصحراء؛ ومع رجال المدينة لغة أكثر دقة ولطفاً؛ ومع العرب الآخرين ـ من سوريا أو العراق أو بلاد الشام ـ لغة عربية دقيقة وكلاسيكية ملقاة بنغمة حجازية مُرضية. ولديه طريقة توقف غريبة في التحدث، وكان يختار كلماته وعباراته بعناية ليكون الانطباع عنه دوماً مؤثر. ودفع حتى أكثر الرؤساء والمحاربين القبليين قوة، والقادة التقليديين، ووجهاء الحضر، بالإضافة إلى العرب العصريين، ليثقوا به غريزياً ويقبلوا قيادته. وهو أستاذ في الذكاء والمزاح حيث استخدمهما بشكل مؤثر لينزع فتيل التوتر والغضب، ومحبوباً، وحتى معبوداً، من قبل أتباعه.

لكن كان فيصل صاخباً، وغالباً ما يكون سريع الغضب ومدفوعاً باستمرار إلى العمل. يمكن للسمة الأخيرة أن تنتهي بسهولة بنكسات، وحتى بكارثة، إذا لم يتم التحقق منها عن طريق التفكير والتخطيط المسبق والدقيق الذي لم يكن مستعداً للقيام به في كثير من الأحيان. لا يوجد شك بأنه شجاع، وسيكون من المستحيل تقريباً قيادة البدو إلى المعارك والغارات إذا لم يُظهر الدرجة المطلوبة من الشجاعة والجرأة. لكن غالباً ما كانت شجاعته ودوافعه في العمل يعيقها ضعفه الجسدي، يضاعفها تدخين السجائر المفرط. وفي مرات عديدة يخرج من أرض المعركة محمولاً، بعد مواجهة انتهت بالنصر، غير واعٍ بسبب الجهد الجسدي لقيادة رجاله إلى المعركة، وتشجيعهم على القتال، وشحنهم ضد الأعداء بشكل مباشر.

فضلاً عن ذلك، كان قاضياً جيداً بين الرجال، وغالباً ما يتعامل مع رؤساء القبائل الذين لا بد من تهدئة كبريائهم، ومع المراوغين السياسيين الذي لا بد من معالجة طموحاتهم، ومع مثيري الشغب من جميع الأنواع الذين لا بد من احتواء أذاهم. لم يكن بطبيعته متشككاً، لكنه حذر بالثقة أو قبول الناس بالظاهر. وأصبح فيما بعد، أكثر تورطاً في عالم مضطرب وغادر في السياسة العالمية والدبلوماسية، وسيظهر سمات الغموض والرياء والخداع التي سيخلطها الآخرون مع

المراوغة. هذه الصفات، كب ذلك كان من أجل إيجاد طريقة للخروج من المواقف والخيارات المستحيلة في كثير من الأحيان. إن معرفته بعلاقات الرجال والعالم تم اكتسابها بسرعة فائقة، فهناك عدد كبير من الأحداث والتجارب قد ازدحمت في حياته خلال فترة قصيرة جداً. إن الحكمة والبصيرة التي تمتع بها خلال الفترة اللاحقة جاءت من خبرته وليس من خلال التأمل والتفكير ملياً.

هوامش الفصل الثاني

1 ـ تم دراسة موضوع معارضة حكم السلطان عبد الحميد بالتفصيل من قبل: م. سوكر وهاني أوغلو، الأتراك الشباب في المعارضة (دراسات في تاريخ الشرق الأوسط)، طبعة جامعة أوكسفورد، أوكسفورد، 1995. أنظر أيضاً: شريف ماردين، مرجع سابق، الذي يغطي الفترة المبكرة من عهد الحكم الحميدي. بالإضافة إلى: نيازي بيركيش، مرجع سابق. وهناك سير ذاتية جيدة (بعضها تُرجمت إلى الإنكليزية والعربية) لبعض الشخصيات القيادية المعارضة لعبد الحميد، خصوصاً مدحت باشا. أنظر مثلاً: علي حيدر مدحت، حياة مدحت باشا، موراي، لندن، 1903.

2 ـ م. سوكر وهاني أوغلو، مرجع سابق، ص 3.

3 ـ تمت صياغة الاسم من قبل الصحافة الباريسية لوصف المعارضين العثمانيين في باريس.

4 ـ وُصفت سياسات عبد الحميد الاسلامية العامة بشكل جيد من قبل: جاكوب لانداو، مرجع سابق. وبحلول نهاية القرن، انجذب العديد من دعاة الوحدة الإسلامية من خارج الإمبراطورية العثمانية إلى اسطنبول، خصوصاً الداعية الشهير السيد جمال الدين أسد أبادي (الأفغاني). أنظر: نيكي كيدي، السيد جمال الدين الأفغاني، طبعة جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 1972.

5 ـ أنظر بشكل خاص حسن كيّالي، مرجع سابق. من المقرر أن يصبح هذا عملاً كلاسيكياً. من خلال الاستخدام الدقيق للأرشيف العثماني، إذ قام كيّالي بتحليل عددٍ من الأساطير حول صعود العروبة في الإمبراطورية العثمانية.

6 ـ أنظر: م. سوكر وهاني أوغلو، مرجع سابق.

7 ـ شخصية الأمير صباح الدين مثيرة للاهتمام بشكل خاص، فقد أضحى هذا الرجل القصير والأنيق زعيماً للمعارضة الليبيرالية لجمعية الاتحاد والترقي، وبقي في اسطنبول لفترة بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وأصبح ذكره مقترناً بالشخصية الغامضة والغريبة لـ G.I. Gurdjieff. أنظر مذكرات ج. بينت، شاهد: قصة بحث، هودرو ستاوتن، لندن 1962. وقد استقر بينت فيما بعد، وهو كيميائي صناعي ومن أتباع Gurdjieff، في اسطنبول بعد الحرب العالمية الأولى كضابط في المخابرات، كما كان يعرف الأمير صباح الدين بصورة جيدة.

8 ـ للاطلاع على وصف أندرو مانجو للخلايا التآمرية في مقدونيا في عمله البارع أنظر: أتاتورك: السيرة الذاتية لمؤسس تركيا الحديثة، مطبعة أوفيرلوك، نيويورك، 2002، ص ص 57 ـ 79.

9 ـ حسن كيالي، مرجع سابق، ص 42.

10 ـ المرجع نفسه، ص ص 44 ـ 51.

11 ـ صالح محمد العمر، مرجع سابق ص ص 123 ـ 133. جاشوا تيتيلبام، نشوء وسقوط المملكة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية، هيرست، لندن، 2001، ص ص 40 ـ 41؛ حسن كيالي، مرجع سابق، المقطع 5.

12 ـ حسن كيالي، مرجع سابق، ص 101.

13 ـ ويليام أوسزينوالد، سكة حديد الحجاز، مطبعة جامعة فرجينيا، شارلوتسفيل، 1980. هذا هو العمل المثالي في موضوع بناء سكة حديد الحجاز.

14 ـ أنظر: جورج سيت، أمير شبه الجزيرة العربية: الأمير الشريف علي حيدر، ألين وأنوين، لندن، 1948، ص 103. إن سيرته الذاتية عن الشريف علي حيدر ليست موثوقة للغاية في تفاصيلها، إذ كان يكرر مزاعمه عن علي حيدر دون مرجع.

15 ـ صالح محمد العمر، مرجع سابق، ص ص 134 ـ 135.

16 ـ أندرو مانجو، مرجع سابق، ص ص، 85 ـ 89.

17 ـ سي. إرنست داون، مرجع سابق، ص 6، عبد الإله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 42 ـ 44؛ جاشوا تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 56.

18 ـ المملكة العراقية، مديرية الإعلام، مرجع سابق، ص 33.

19 ـ أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 12.

20 ـ ر. س. أوفاهي، قديس غامض: أحمد بن إدريس والتراث الإدريسي، مطبعة جامعة نورث وسترن، إيفانستون، 1990.

21 ـ المرجع نفسه، ص 122.

22 ـ حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 110.

23 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص 62.

24 ـ حسن كيالي، مرجع سابق، ص ص 63 ـ 69. وعلى أية حال، قدّم الحاكم العثماني في عسير، سليمان باشا، رواية مختلفة تماماً عن المعركة الأولى في قوز؛ إذ وضع اللوم على هزيمة كتيبة الإمداد لعدم الكفاءة العسكرية من جهة عبد الله. فعبد الله لم تكن لديه معرفة بالتضاريس، وكان غير قادر على تأمين المياه للقوات النظامية العثمانية، حيث مات بعضهم من العطش عند الانسحاب، بل وخلال المعركة نفسها، وادعى سليمان باشا أن القوات تحت إمرة عبد الله قد أصيبت بالذعر وهربت من ميدان المعركة. أنظر: مجلة العرب، السنة

الخامسة، الإصدار رقم10 (حزيران 1971) والسنة 6، الإصدار رقم2 (تشرين الأول 1971)، « في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا».

25 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص 66.

26 ـ أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 13.

27 ـ المرجع نفسه، ص ص 13 ـ 14.

28 ـ ستانفورد. ج. شاو وعزل كورال شاو، تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة؛ المجلد 11، مطبعة جامعة كامبردج، كامبردج، 1995، ص ص 281 ـ 290. وأيضاً: حسن كيّالي، مرجع سابق، ص ص، 73 ـ 74. وأندرو مانجو، مرجع سابق، ص ص، 101 ـ 111.

29 ـ صالح محمد العمر، مرجع سابق، ص 157.

30 ـ المرجع نفسه، ص 157. أيضاً: شرف البركاتي، الرحلة اليمنية، دار النفائس، بيروت، 2005. وقد شهد البركاتي معظم أحداث عسير وقدّم سرداً كاملاً للحملات ضد الإدريسي.

31 ـ رسالة من فيصل إلى الشريف حسين، بتاريخ 21 ربيع الأول، 1331، (28 شباط 1913)، من بارق في عسير. أُعيد نسخ الرسالة من قبل سليمان موسى، طبعة، المراسلات التاريخية 1914 ـ 1918، المجلد 1، نشر ذاتي، عمّان، 1973.

الفصل الثالث: مقدمة للحرب

في الفترة الوجيزة الواقعة بين ثورة عام 1908 واندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، شهدت الإمبراطورية العثمانية تيارات جارفة في قوتها، كانت كفيلة بزعزعة صمود وسلامة أيّ دولة. فضلاً عن ذلك، أدّت قوى تاريخية عظمى دورها ضد هذه الإمبراطورية الآخذة بالانحلال، علاوة عن شروع الإمبراطورية نفسها بتطبيق نظام حكم جديد للغاية. ولربما لم يكن تراكم الضغوط داخلياً وخارجياً في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية ليقود إلى تفكك هذه الأخيرة دونما العامل المحفز الذي لعبته الحرب العالمية الأولى، لكنها كانت ضغوطاً قاسية رغم كل شيء. كما تركزت اهتمامات حزب الاتحاد والترقي على الولايات العربية نتيجة خسارة الإمبراطورية للمقاطعات الليبية ومعظم بقايا مناطق سيطرتها في البلقان. ولذلك، فقد عُرفت الإمبراطورية بشكل متزايد عن طريق أكبر مجموعتين عرقيتين فيها، وهما أتراك الأناضول وعرب الشرق الأدنى(*) وشبه الجزيرة العربية.

على الرغم من أن قادة جمعية الاتحاد والترقي علمانيين بشكل واضح، فإنهم كانوا مرغمين على قبول حقيقة أن أقوى صلة من شأنها أن تربط الإمبراطورية معاً بعد خسارة الولايات المسيحية في البلقان بشكل رئيس هو الإسلام ولا يوجد بكل بساطة هوية موحدة أكثر منها التي ستُبقي سكان الإمبراطورية المسلمون مخلصين للإمبراطورية. والآن أصبح السلطان ـ الخليفة مختزلاً إلى شخصية رمزية تقريباً مع قليل من السلطة الفعّالة؛ حيث اعتقد قادة جمعية الاتحاد والترقي أن المبادئ الدستورية ستُرضي الأقليات المضطربة في الإمبراطورية وتُعيد التأكيد على التزامهم للعثمانية، وعلى الرغم من وضوح ذلك، لكنه غير كافٍ. فإحياء السياسة الإسلامية للسلطان عبد الحميد المثيرة للجدل جزئياً وإعطاء دفعة جديدة جعلت جمعية الاتحاد والترقي والمتعاطفون معها يسعون إلى الحفاظ على ولاء الإمبراطورية من قبل أغلبية مسلمة الآن. هذا كان مثيراً للسخرية بالفعل، فقيادة جمعية الاتحاد والترقي كانت تتألف بشكل إجمالي من

(*) الشرق الأدنى: مصطلح جيوسياسي شائع في المؤلفات الغربية، يشير عمومًا، وليس بالتحديد، إلى منطقة بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية والأناضول والعراق ومصر وإيران، وهو يعاكس الشرق الأقصى. أُستخدم لاحقاً بدلاً عنه مصطلح (الشرق الأوسط). (المراجع).

أعضاء محافل الماسونية(*)، مع التشكيك تجاه جميع أشكال الدين[1]. لذلك دخلت عناصر جديدة في لهجة وتوازن معقد بين الأشراف في مكة المكرمة والنظام الجديد في اسطنبول.

العثمانية والعروبة والمجتمعات السرية

على عكس معظم القوميات العرقية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر، لم تتطور القومية العربية بطريقة حتمية نحو إقامة دولة متجانسة لغوياً وثقافياً، تسعى لتحقيق النموذج الأمثل، بالرغم من جهود الأيديولوجيين القوميين العرب الجديرة بعد الحرب العالمية الأولى، فالسرد الكبير عن القومية العربية كعملية تقدمية تحمل شيئاً من التحدي والتمرد وبالنهاية التحرر من «النير التركي» أمر لا تؤكده الحقائق[2]. كان ظهور الوعي العربي فضفاضاً وغير مؤكد. كما أن فكرة المصير العربي بالانفصال عن الولاء للإمبراطورية القائمة لعدة قرون لم تجد مكاناً لها إلا عندما شارفت الإمبراطورية العثمانية على نهايتها، وكان ذلك من جانب عدد قليل من العرب ولكن لهم أهميتهم[3].

هذه الخيوط المتباينة من الهياج الفكري والثقافي لن تكون في حدّ ذاتها قد أنشأت قواعداً للوعي العربي. كان عليهم أن يندمجوا في بيئة سياسية واجتماعية متقبلة، من شأنها استيعاب هذه الأفكار وتضخيمها إلى شيء يمكن التعرف عليه بوصفه قومي. ذلك «الشيء ما» كان توتراً وخوفاً في الأقاليم العربية لأجل القوة، والمكانة، والمصادر، والسلطة داخل الجماعات المحلية وفيما بينها وبين المركز الإمبراطوري في اسطنبول، لا مكان أكثر من سوريا الكبرى، المنطقة الأكثر تقدماً بين الولايات العربية. إلى حد كبير، لذلك ارتبطت القومية العربية المبكرة بمؤيديها (أو خصومها) في سوريا الكبرى، وبكوادر الطلاب الإداريين والمتدربين وصغار الضباط الذين قدِموا من الولايات العربية للدراسة في الأكاديميات الإمبراطورية المتخصصة في اسطنبول.

سمحت فترة حركة تركيا الفتاة لهذه الاتجاهات بالظهور إلى حدٍ أكبر بكثير من فترة حكم السلطان عبد الحميد الطويلة. أثارت خسائر المناطق الكبيرة للإمبراطورية ما بعد ثورة عام 1908، لا سيما خسارة مقاطعة ليبيا ذات الأغلبية الساحقة من المسلمين للإيطاليين. كل ذلك أثار احتمال تعرض الأراضي السورية للغزو الأجنبي. وقد تفاقم هذا بسبب استمرار تذمر الدوائر الاستعمارية الفرنسية حول أهمية التأكيد على حقوق فرنسا التاريخية بحماية المسيحيين في سوريا في حال تفكك الإمبراطورية العثمانية. وكان هناك قلق حقيقي بأن الإمبراطورية العثمانية

(*) تُعرِّف الماسونية نفسها بأنها «حركة أخوية عالمية أهدافها المساعدة المتبادلة والصداقة وخير الناس». بينما يراها الكثيرون بأنها جمعيات أو (محافل) تعمل على نشر الليبرالية والتعاليم الشيطانية عن طريق الخداع والتضليل لفرض سيطرة عناصرها على العالم. (المُراجع).

قد لا تكون قادرة على حماية العرب في سوريا من السقوط تحت سيطرة القوى الأجنبية. وهذا مما أثار التكهنات حول ما إذا كان الناس في سوريا لن يجدوا من يكون في خدمتهم بشكل أفضل من جراء نقل السلطة إلى المقاطعة حتى تتمكن من تنظيم دفاعها الخاص. كانت فكرة اللامركزية الإدارية وزيادة تفويض السلطات إلى الولايات جزئياً نتيجة ثانوية للقلق فيما يتعلق بقدرة السلطات المركزية على حماية مصالح الولايات بشكل كافٍ[3].

إن الميل الملحوظ لجمعية الاتحاد والترقي، باتجاه المركزية، والتتريك[*]، والصعود التدريجي للمكوِّن العرقي التركي داخل الإمبراطورية العثمانية، دفع عدداً من الناشطين العرب إلى التفكير في إجراءات مضادة من شأنها ـ على الأقل ـ حماية مصالح مجتمعهم في الإمبراطورية.

في آب (أغسطس) 1909 تم تمرير قانون يحرّم تشكيل أي تجمعات سياسية على أساس القومية العرقية، مما يعني منع أي حزب سياسي عربي بشكل علني. لكن هذا لم يوقف تأسيس تجمعات عربية سرية، اثنتان منها، (الفتاة) و(العهد) اللذان سيكون لهما تأثيراً عظيماً على مجرى الحركة القومية العربية المبكرة. حيث سينضم القادة والأعضاء العاديون لكلا الحركتين فيما بعد إلى الثورة العربية الكبرى، وسيشكلون جانباً هاماً من طاقم فيصل السياسي والعسكري الاستشاري.

تشكلت جمعية الفتاة في باريس في تشرين الثاني (نوفمبر) 1911 من قبل مجموعة من الطلاب العرب الذين كانوا يتابعون تعليمهم العالي في العاصمة الفرنسية. ومنذ بدايتها كان التجمع ملزماً ببروتوكولات سرية صارمة، استطاع المؤسسون بسرعة على تجميع شبكة واسعة من الأعضاء في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية. ينحدر معظمهم من عائلات مرموقة من سوريا الكبرى، مع عدد قليل جداً من الأعضاء الأفراد من مقاطعات عربية أقل تطوراً من العراق، والحجاز، واليمن.

أما البرنامج السياسي لجمعية الفتاة في أيامه الأولى فقد اعتمد على المطالبة بحكم ذاتي عربي ضمن الإمبراطورية العثمانية، بهدف جعل الإمبراطورية ملكية مزدوجة مثل الملكية المجرية النمساوية فتصبح إمبراطورية عربية تركية بملكية عثمانية. أكدت الفتاة أن مثل هذه النتيجة لا ينبغي بأي حال من الأحوال المساس بوحدة الإمبراطورية العثمانية وسلامتها. أحد مؤسسي، الفتاة، توفيق الناطور، الذي تذكّر فيما بعد عن سنوات تأسيس الجمعية:

«إن فكرة القومية العربية، أو العروبة، لم تتطور أو تُقوى (عندما تأسست الفتاة). كل ما

(*) التتريك هو مفهوم يُطلق على عملية تحويل أشخاص ومناطق جغرافية من ثقافاتها الأصلية إلى التركية، بطريقة الإكراه والقهر غالبًا. وأُستخدمت في البداية في الأناضول قبيل الحرب العالمية الأولى ضد الأعراق غير التركية. (المُراجع).

كنّا نريده نحن العرب هو أن نتمتع بالحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها الأتراك ضمن الإمبراطورية العربية، وسيتم بناء الإمبراطورية على ركيزتين قويتين ـ السكان العرب والسكان الأتراك»[5]؛ انتقل مدير مكتب الفتاة مع قياداتها أولاً من باريس إلى بيروت، وبعدها إلى دمشق عند اندلاع الحرب العالمية الأولى.

نشأت الجمعية الرئيسة السرية الأخرى، العهد[6]، من قبل الضباط العرب في الجيش العثماني. تأسست عام 1913 من قبل ضابط مصري، عزيز علي المصري، وهو المصري الأول الجدير بالملاحظة في الحركة القومية العربية المبكرة[7]. انخرط المصري في الجمعيات العربية التي نشأت بعد ثورة تموز (يوليو) 1908، بشكل رئيسي القحطانية، وهي جمعية سرية دعت أيضاً إلى دور عربي أكبر في الإمبراطورية، وكان المصري بطل الحرب الليبية دون شكّ عام 1911، عندما تم تكليفه بتنظيم الدفاع عن برقة. حيث أُستخدم رحيله المفاجئ مع قواته من برقة ضده من قبل السلطات العثمانية التي اتهمته بالخيانة وحكمت عليه بالموت. فأصبحت قضية المصري مشهورة بين القوميين العرب في تلك الفترة، وأثارت احتجاجاً قوياً تلا محاكمته وسجنه. وأُطلق سراحه بعد تقديم العديد من الاحتجاجات نيابة عنه من قبل السلطات الأنغلو مصرية، ومن ثم عاد إلى مصر منتصراً تماماً قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى[8]. وسيتقاطع طريق المصري مع طريق فيصل في عام 1916، خلال المراحل الأولى للثورة العربية الكبرى.

واتبعت جمعية العهد برنامجاً مشابهاً لبرنامج الفتاة، وهو الحكم العربي الذاتي ضمن الإمبراطورية. وكان معظم أنصار جمعية العهد من الضباط العراقيين الذين سيستمر عدد منهم في الحصول على وظائف متميزة مع فيصل في الثورة العربية الكبرى، سواءً في سوريا وفي العراق المستقل فيما بعد. وبعد اعتقال المصري، فوضت قيادة جمعية العهد لفترة لنوري السعيد، وهو ضابط عراقي شاب بمهارات سياسية وعسكرية[9]. حينها فقط عندما انتقلت قيادة الفتاة الرئيسة إلى دمشق بدأت الجمعيتان السريتان الاثنتان بتأسيس اتصالات مع بعضهما البعض وتنسيق استجاباتهم لتطوير الأحداث.

كما انبثقت حركات إصلاحية أخرى تدعو للّامركزية والحكم الذاتي في الولايات العربية في فترة الضعف أثناء حرب البلقان، عندما كانت الإمبراطورية في مهددة بخطر الانهيار[10]. وقامت في باريس مجموعة من السوريين، مسلمين ومسيحيين، بالدعوة لمؤتمر عربي عام يُعقد في باريس في حزيران (يونيو) 1913، للنظر في حقوق وتطلعات العرب في الإمبراطورية العثمانية. انعقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس بحضور ثلاثمائة شخص. وأُفتتح المؤتمر برئاسة عبد الحميد الزهراوي وهو عضو برلمان في حمص في سوريا ومؤسس حزب الوفاق الليبيرالي[11]. وفي المجلس العثماني، كان الزهراوي بطلاً لا يعرف الكلل

للقضايا العربية، لكنه لم ينفصل عن العثمانية بعد. وحاولت حكومة الاتحاد والترقي أن تمنع المؤتمر من الانعقاد، لكنها بعد نجاح افتتاحه قررت فتح باب المفاوضات مع قيادة المؤتمر للنظر في تنفيذ بعض مطالبهم[12].

فيصل في البرلمان العثماني

في الأعوام بين ثورة تموز (يوليو) عام 1908 واندلاع الحرب العالمية الأولى، تم عقد ثلاث انتخابات في الإمبراطورية للبرلمان العثماني (مجلس المبعوثان)، في كل من الأعوام 1908، و1912، و1914. اعتمدت كل الانتخابات على نظام انتخابي غير مباشر مع امتياز مقصور على الذكور[13]. الأولى تبعها بعد فترة وجيزة من الثورة نفسها، وبالرغم من أن جمعية الاتحاد والترقي قد بدأت بتنظيم نفسها بشكل رسمي وعلني في أرجاء الإمبراطورية، إلا أنها باتت غير قادرة على تأسيس سيطرة على البرلمان الجديد؛ فهناك الكثير من النواب المستقلين لن يسمحوا لجمعية الاتحاد والترقي بالحصول على أغلبية غير مقيدة.

وفي الحجاز، أُجريت انتخابات 1908 قبل وصول الأمير الشريف حسين. كانت الانتخابات الحجازية غير منتظمة للغاية، مع اهتمام شعبي قليل، سواءً بالعملية أو بالنتائج. حصل نائبان حجازيان من جدة والمدينة على مقعدين في البرلمان الجديد، لكن حتى الاثنان من مكة لم يصلا إلى اسطنبول. (رفض أحدهما مغادرة مكة، والآخر عاد، يُحرقه الحنين إلى الوطن، وكان قد وصل إلى مصر في طريقه إلى اسطنبول. وفي انتخابات خاصة عُقدت في شباط (فبراير) 1910، رتّب حسين الأجواء للأعيان والناخبين في مكة للتصويت لإبنه عبد الله والشيخ حسّان الشيبة، وهو من عائلة دينية محلية بارزة. لكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، الذين تم إبعادهم عن انتخابات الحجاز الخاصة، ناوروا للوقوف بوجههما، لكنهم فشلوا في ذلك[14].

كان مجلس النواب المنتخب عام 1908 هو المكان لمناقشة المواضيع التي تهم العرب، ومنه يمكن ملاحظة البداية لوضع الأولويات العربية. أما المعارضة الليبيرالية التي كان أداؤها سيئاً في انتخابات 1908، فقد نظمت تموضعها تحت لواء حزب التوافق الليبرالي، وبدأت في مناشدة الاهتمامات العربية على وجه التحديد. كان هناك أحزاب أخرى على هذه الشاكلة، كالحزب الليبيرالي المعتدل الذي ضمّ أعداداً كبيرة من الممثلين العرب الذين وقفوا بوجه جمعية الاتحاد والترقي. وانخرط النواب العرب بعمق في العديد من المجالات المثيرة للاهتمام. تضمنت عدم استعداد الإمبراطورية في مواجهة المخططات التجارية والسياسية للإمبريالية الغربية، والتي اعتقد الجميع أنها تستهدف الولايات العربية.

ورغم عدد الأصوات القليل لممثلي الحجاز والذي لا يشكل وزناً في نتائج المناقشات[*]، إلا أن هؤلاء الأعضاء كانوا متأثرين بالنبرة الحادة للمناقشات داخل المجلس. وأحد المواضيع التي سببت قلقاً عظيماً للعديد من المندوبين العرب في البرلمان العثماني كان الصهيونية[15]؛ إذ بدأت هجرة اليهود من كلا الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية المجرية إلى فلسطين العثمانية بشكل جدي بعد المؤتمر الصهيوني الثاني عام 1898، عندما توفر التمويل والتنظيم اللازم لتشجيع ودعم الهجرة.

وأصّر السلطان بأن على اليهود، الذين هاجروا من أوروبا إلى فلسطين، أن يحصلوا على المواطنة العثمانية ليكونوا جزءاً من نظام الملّة العثماني[16]. كان هناك خوفاً حقيقياً من أن هجرة اليهود من أوروبا ستبحث عن الحماية من القوى الأجنبية، بموجب امتيازات الاستسلام، بدلاً من طلب المواطنة العثمانية. فأقامت الحكومة العثمانية سلسلة من الإجراءات لتتبع وتقييد هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين، وحاولت منع بيع الأراضي في فلسطين للصهاينة. مع ذلك، وبحلول عام 1908، كان هناك ما يقارب من 60,000 يهودي في فلسطين، وهذا يساوي ثلاثة أضعاف العدد الذي كان في عام 1882 عندما تم وضع التقييدات على الهجرة اليهودية لأول مرة في مكانها.

قامت جمعية الاتحاد والترقي بتنظيم انتخابات عام 1912 بسرعة بعد تراجع الدعم الشعبي لها بشكل حاد. وأصبحت الحملة على صفيحٍ ساخن بين جمعية الاتحاد والترقي ومعارضيها، الوفاق الليبيرالي بشكل رئيسي، حيث يتنافس كلا الطرفين على الأصوات العربية. وزعمت كل الأحزاب المتصارعة على احترام مبادئ ودور الإسلام في المجتمع، والاعتراف بالمظالم العرقية والأقليات، والاعتراف بضرورة نقل السلطة إلى الولايات. واستخدمت جمعية الاتحاد والترقي أساليباً عادلة وغير عادلة لتأمين مصلحتها. وفي النهاية، أثبتت إجراءات جمعية الاتحاد والترقي التنظيمية الفائقة وسيطرتها على الأجهزة الحكومية أنها حاسمة. وقد انعكست النتائج في البرلمان مع دعم جمعية الاتحاد والترقي غير المتوازن، لا عجب أن تُوصف، انتخابات عام 1912 بانتخابات «القوة المهيمنة»[17].

وكما في الانتخابات السابقة، أثبت الحجاز أنه استثناء عن بقية مقاطعات الإمبراطورية. حيث

(*) كان المجموع الكلي لعدد أعضاء مجلس النواب العثماني (مجلس المبعوثان) هو 281 عضواً. وبدا إن عدد النواب العرب في المجلس قليلاً قياساً بعدد سكانهم؛ إذ كان منهم 5 نواب عن سوريا و2 عن الحجاز و4 نواب عن ولاية حلب و3 نواب عن ولاية بغداد و2 عن ولاية طرابلس الغرب. أما مصر فقد أُستثنيت لأسباب دولية ولمعارضة حزب الاتحاد والترقي ذلك، خوفاً من طغيان عدد النواب المصريين على مجلس المبعوثان في إسطنبول، حيث كان يمكن ان يكون عددهم بالنسبة إلى تعداد سكانهم 120 نائباً. (المُراجع).

حرص الشريف حسين على عودة عبد الله كعضو عن مكة، لكن هذه المرة مع أخيه الذي سيكون عضواً عن جدة. وكتب القنصل البريطاني جيمس هنري موناهان من جدة: «قبل نحو أسبوعين تمّ إرسال برقيتين إلى مكّة تحتوي كل واحدة منها على توقيع وكيل الشريف في جدّة وثلاثين شخصية تعمل بالتجارة وإرشاد الحجاج في المدينة، البرقية الأولى للشريف تقترح أن يكون ابنه الثاني فيصل عضواً في البرلمان، والثانية إلى فيصل لمنحه العضوية، وجاء الرّد بالموافقة. ويبدو أنّ الانطباع العام الشعبي اعتبر أن الانتخابات بحكم المنتهية، إلا أن هناك قسم صغير من أعيان جدّة أصروا على إجراء الانتخابات بموجب القانون، وأن يكون هناك ثلاثة مرشحين يفترض أن يكونوا ممن لا تتوفر لديهم فرصة النجاح»[18]. تمّ انتخاب فيصل حسب الأصول في مجلس النواب العثماني في انتخابات عام 1912 كعضو عن مدينة جدة، وكان تقريباً في الثلاثين من عمره.

احتاج حسين أن يكون كُلاً من عبد الله وفيصل في مجلس النواب العثماني. فيجب أن يكون كلاهما أو واحداً منهما في العاصمة لمراقبة خطط ومكائد الحكومة، ولأجل الحفاظ على شبكة من الأحلاف والداعمين لعائلة الأشراف في إسطنبول. في أية حال، لم تكن الجلسات العادية للبرلمان طويلة، لذلك سمحت للأخوين أن يتواجدا لمساعدة والدهم في الحجاز عند الحاجة. كان حسين ماهراً بما يكفي ليعرف أن أنماط الحياة العثمانية العامة آخذة في التغير، وستنمو أهمية المؤسسات البرلمانية الجديدة في المستقبل. ومن غير المعقول السماح للنواب المتأثرين بجمعية الاتحاد والترقي بالجلوس في البرلمان ممثلين عن الحجاز. وعلى ممثلي الحجاز أن يعكسوا وجهات نظر ومصالح القوة الأكبر في الحجاز، أي أمير مكة المكرمة، للضغط على الحكومة والبرلمان بشكل فعّال لضمان استمرار الامتيازات والوضع الخاص للمقاطعة. وشعر حسين بقلق عميق من عزم جمعية الاتحاد والترقي على بسط سلطة الحكومة في الحجاز، من خلال مخططات خادعة جزئياً، مثل توسيع خط سكة الحديد إلى مكة المكرمة وتنفيذ أحكام قانون الولايات.

إن حضور ولديه في البرلمان من شأنه أن يُظهر بوضوح وبشكل وافٍ الوضع الخاص للحجاز والقوة الراسخة لأمير مكة. وإن طلاقتهم بالتركية، ومعرفتهم بالعاصمة من خلال السنين التي قضوها أثناء إقامتهم هناك وتواصلهم مع النخب الإقليمية التركية والعربية هي عوامل جعلتهم المبعوثين الأكثر أهمية للحجاز.

صادف وصول فيصل إلى اسطنبول لحضور افتتاح البرلمان الجديد في منتصف أيار (مايو) 1912 مع التحولات الجذرية في معادلة القوة في اسطنبول. فالحرب الليبية لا تزال قائمة، والتهديدات الجديدة للإمبراطورية آخذة في الظهور عند ثورة ألبانيا، والغيوم التي تلوح في الأفق أنذرت بحرب البلقان الأولى. كانت هذه الحرب، التي اندلعت في تشرين الأول (أكتوبر) 1912،

كارثة على العثمانيين الذين لم يستعدوا بشكل كافٍ للنزاع. ففي 23 شباط (فبراير) 1913، تم تجويع أدرنة (اسمها السابق أدريانوبل) العاصمة العثمانية السابقة، وإخضاعها لجيش البلقان الذي حاصرها(*). وفي وسط المشاهد المروعة من المذابح والدمار تم طرد الفلاحين الأتراك من أراضيهم باتجاه الجانب الآسيوي التركي. كانت أدرنة هي آخر مدينة عثمانية داخل أوروبا بشكل كامل، وحينها أصبح الطريق إلى اسطنبول مفتوحاً. انتهت حرب البلقان الأولى بمعاهدة لندن والتي وُقعت في 9 حزيران (يونيو)، مع بقاء مدينة أدرنة بيد الأعداء، وبهذا خسرت الإمبراطورية العثمانية كل ولايات البلقان، وكريت، والجزء الأكبر من الجزر الإيجية[19].

وحتى العاصمة نفسها شهدت صراعاً يائساً للسيطرة على الحكومة بين جمعية الاتحاد والترقي وبين أعدائها. وفي حزيران (يونيو) 1913 حصل انقلاب فاشل من قبل حزب الوفاق الليبيرالي لاغتيال وزير الحرب. أعطى هذا الأمر ذريعة لجمعية الاتحاد والترقي التي قادت الإمبراطورية بشكل كارثي للخمس سنوات القادمة ـ إلى الحرب العالمية الأولى وأخيراً إلى دمارها. وعلى أية حال، سرعان ما تمت مكافأة جمعية الاتحاد والترقي على استيلائها على السلطة عندما استغلت انهيار التحالف بين دول البلقان المنتصرة والتي سارعت إلى اقتسام غنائم الحرب.

ففي حرب البلقان الثانية تحرك الجيش العثماني للاستيلاء على أدرنة وشرق تراقيا مرة أخرى. وتلا ذلك عدد من المعاهدات تم بموجبها تحديد الحدود بين دول البلقان المستقلة والدولة العثمانية وشكلت الحدود الغربية للإمبراطورية، عدا بعض المناطق الصغيرة، الحدود الحالية لتركيا. وقوبل استعادة السيطرة على أدرنة بارتياح شعبي هائل في الإمبراطورية وبدأ الفصل الثاني من سلطة جمعية الاتحاد والترقي بدعم جماهيري وحتى بتملق. وهكذا ظهر الثلاثي الذي سيحكم الإمبراطورية وعلى فيصل والعرب أن يجتازوه: طلعت باشا رئيس الحزب، والاستراتيجي والجندي الماهر وعديم الرحمة تماماً مع الأعداء جمال باشا؛ والأكثر تألقاً وشعبية أنور باشا الوطني والحيوي والشجاع. كان أنور بشكل أساسي هو الذي سيخطط لتعاون وثيق مع الإمبراطورية الألمانية.

كافح العديد من الطلاب العرب الذين سينضمون لاحقاً لفيصل في الثورة العربية الكبرى، أو سيؤلفون قلب حكومة فيصل في العراق، كضباط ميدانيين في حرب البلقان الأولى والثانية. كان أبرزهم نوري باشا السعيد الذي سيصبح شخصية رئيسية في حملات الصحراء، وستكون له في وقت لاحق مسيرة طويلة ومليئة بالأحداث كسياسي بارز في العراق حتى وفاته في ثورة تموز

(*) تحالفت دول البقان ضد الدولة العثمانية عام 1912، استغلالًا لظرفها القاهر وانشغالها في مواجهة الغزو الإيطالي. وقد ضم جيشها مئات الآلاف من المقاتلين، جاءوا من دول بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود. (المُراجع).

(يوليو) 1958. وجعفر باشا العسكري وهو نسيب نوري في المستقبل ومقاتل مخلص وقائد في الثورة العربية الكبرى، وجُرح في معركة الانسحاب من جبهة أدرنة. وهناك ضابط شاب آخر والذي تميز في حروب البلقان واسمه ياسين الهاشمي، وزير ورئيس وزراء العراق في المستقبل.

واجه برلمان عام 1912 مشاكلاً مختلفة بشكل كبير عن تلك التي واجهها برلمان عام 1908، إلى حدٍ ما، فالمواضيع التي سيطرت على جدول أعمال بعض الأعضاء العرب أصبحت الآن معطلة أو جانبية إلى حد ما، بسبب الاعتراف المتزايد بأن موت الإمبراطورية يمكن أن يحدث إذا استمر النزاع وضعف الدولة الخطير مما يسمح بانهيارها. وحاول العرب الحصول على نسبة أعلى في الانتخابات البرلمانية وتقاسم المسؤولية باعتبار أن مصير الدولة بدأ يتسرب إلى خطابات وتصرفات الأعضاء العرب.

إن أزمة حروب البلقان وعودة لجنة الاتحاد والترقي إلى السلطة أدى إلى تنحي مجلس النواب الذي كان يراقب بصورة سلبية الصراع على السلطة في العاصمة. وحتى اللجنة نفسها عندما عادت إلى السلطة ثانية اختارت أن تضع المطالب العربية في موقع أفضل في الدولة والحكومة.

ذهبت جمعية الاتحاد والترقي بعيداً لتشجع على انتخابات العرب المعارضين من حزب الوفاق الليبيرالي المهزوم في انتخابات عام 1914. وقد تم استدعاؤهم للتأكد من أن مجلس النواب يعكس بشكل أفضل التركيبة السكانية والعرقية المتغيرة في الإمبراطورية. ازداد التمثيل العربي في البرلمان بشكل درامي، وأصبح عربيان اثنان ووزيران في مجلس الوزراء العثماني. وأقروا أن المعينين في المناصب في الولايات العربية يجب أن يتقنوا اللغة العربية.

حافظ فيصل على حضور منتظم في اسطنبول خلال الأزمة التي أثرت في الإمبراطورية في المدة بين عامي 1912 ـ 1914، على الرغم من أنه لم يُعرف عن مشاركته في النقاشات القليلة للمجلس في جلسات البرلمان القصيرة التي عُقدت في ذلك الوقت. كان مروره من وإلى اسطنبول والحجاز من خلال مصر على الأغلب، حيث خلال توقفه طوّر عدداً من العلاقات مع قادة مصريين وعائلات عربية مقيمة في القاهرة[20].

وحصلت أول زيارة لفيصل إلى دمشق بعد موسم الحج عام 1913. عندما خشيت الحكومة العثمانية من أن يهاجم البدو الغزاة قافلة الحج العائدة إلى سوريا عند نهاية خط سكة الحديد في المدينة المنورة، وطلبوا من فيصل أن يرافق الحجيج مع مفرزة من القوات المسلحة. عادت القافلة إلى دمشق بأمان، واستغل فيصل الفرصة للتعرف على كبار الناس والشخصيات في الحياة السورية الاجتماعية والسياسية. وبقي مع عائلة البكري، وهي العائلة الدمشقية التي استضافت أخيه عبد الله خلال زيارته السابقة إلى دمشق[21]. وأصبحت عائلة البكري متواصلة بشكل قريب

مع أسرة الأشراف التي ينتمي إليها حسين، ومن خلال مكاتبهم تواصل أولاً مع التجمعات العربي السرّية. وكانت انشغالات فيصل في إسطنبول مرتبطة في الغالب بشؤون الحجاز والتأكد من تمثيل مصالح والده بشكل جيد خلال الفترات المضطربة التي كانت تمرّ بها الإمبراطورية. وكان أيضاً منفتحاً لاستقبال كافة طبقات الزوار.

وهناك شخصية قومية عربية عُرفت في السنوات اللاحقة وهو الكاتب أسعد داغر الذي وصف تجربته الأولى مع فيصل في مذكراته في ذلك الوقت: «لم أعرف الشريف فيصل شخصياً في اسطنبول. إنما اعتدت أن أراه مع الممثلين الآخرين من الحجاز في مجلس مبعوثان [مجلس النواب العثماني]. لكن حصل حدث جعلني أُغيّر انطباعي عن هذا الرجل العظيم. حيث تصادف وجود شيخ من منطقة عسير في اسطنبول لعدة أسابيع خلال مطلع عام 1913». لم يلتفت إليه أحد أو يعلّقوا عليه أي أهمية خاصة؛ وبعد ذلك علّق داغر كيف أن أنور فكّر كيف من الممكن أن يكون الشيخ مفيداً له فزوده بسيارة ومرافِق. فبدأ الشيخ بتطوير أجواءه الخاصة، مرتدياً ملابس غربية غير لائقة، ومتصلاً مع السفارات الأجنبية ليقدم الامتيازات في منطقته الخاصة. وهناك سخر السفير الإيطالي من الشيخ بسؤاله أن يقبل عرضه «ببيع» منطقة عسير بتأييد من فيصل. التقط داغر القصة حيث قال: «في اليوم التالي، ذهب الشيخ إلى مجلس النواب العثماني مرتدياً معطفاً رسمياً واسعاً ليقابل الشريف فيصل الذي رأى للتو من نافذته الشيخ يقترب وهو يرتدي المعطف الواسع. فأخبر سكرتيره: «أخبره أنني مشغول». لكن أصرّ الشيخ على المقابلة ليناقش مسألة هامة وطلب، من السكرتير أن يمرر ملاحظة لفيصل مع تفاصيل عرضه «ليبيع» عسير. أعاد فيصل الورقة إلى الشيخ، ولكنه كتب عليها قائلاً: «يا أخي... أليس لباس أسلافنا أكثر ملائمةً وكرامة لنا وسبباً ليحترمونا الناس؟ إكراماً لله، من فضلك اخلع هذه الملابس التي لا تناسبك». كان فيصل مراعياً جداً لكبرياء الشيخ وأخبره أن مخططه سخيف، وأنه كان راضياً عن تشتيت انتباه الشيخ إلى ملابسه غير الملائمة بدلاً من بيع منطقته إلى قوى أجنبية. يختم داغر قصته بالقول: «منذ ذلك الوقت ازداد احترامي لفيصل بشكل كبير. قبل ذلك كنت أُفضّل الآخرين عليه»[22].

هوامش الفصل الثالث

1 ـ أدت قيادة جمعية الاتحاد والترقي غير التقليدية، من حيث الخلفية العرقية والدينية، إلى ظهور عددٍ من نظريات المؤامرة.

2 ـ كانت هذه أطروحة كلاسيكية، ولكنها الآن أحد أعمال جورج انطونيوس، مرجع سابق.

3 ـ تمت تغطية صعود القومية العربية بالتفصيل من قبل: رشيد الخالدي، ليزا أنديرسون، محمد مصلح وريفا. س. سيمون، المحررون، أصول القومية العربية، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 1991. وترك العمل الريادي لـ: سي. إرنست داون، مرجع سابق، أثراً كبيراً على دراسة القومية العربية ونقلها بعيداً عن أطروحة أنطونيوس.

4 ـ أنظر: حسن كيالي، مرجع سابق، ص ص 86 ـ 87.

5 ـ اقتبسها زين. ن. زين، نشأة القومية العربية، الطبعة الرابعة، دار النهار، بيروت، 1986، ص ص 92 ـ 93.

6 ـ تم تغطية قصة نشوء الجمعيات العربية السرّية بشكل كامل من قبل: إليازر تاوبر، ظهور الحركات العربية، روتليدج، لندن، 1993.

7 ـ هناك لمحة عن عزيز علي المصري قدّمها: مجيد خدوري، الشركات العربية: دور الشخصيات في السياسة، مطبعة جامعة جونز هوبكينز، بالتيمور ولندن، 1973. أنظر: أيضاً أسعد داغر، مذكرات على هامش القضية العربية، دار القاهرة للطباعة، القاهرة، مصر، ص ص 37 ـ 39.

8 ـ أنظر: جيمس جانكووسكي، «مصر والقومية العربية المبكرة، 1908 ـ 1922»؛ في الخالدي وآخرون، مرجع سابق، الفصل 12، خصوصاً ص ص 247 ـ 249.

9 ـ أنظر: اللورد بيرد وود، نوري السعيد: دراسة في القيادة العربية، كاسيل، لندن، 1959، ص ص 12 ـ 19.

10 ـ أنظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد 1، مطبعة عيسى البابي، بيروت، ص ص 18 ـ 25؛ حسن الكيّالي، مرجع سابق، ص ص 86 ـ 88.

11 ـ قدم أحمد طربين لمحة موجزة عن الزهراوي في رشيد الخالدي وآخرون، مرجع سابق، ص ص 97 ـ 120.

12 ـ لاقى المؤتمر العربي معارضة من قبل العديد من الوجهاء المحافظين وأنصار القوى التقليدية في الإمبراطورية. ففي الحجاز، أرسل الشريف حسين برقية إلى الصدر الأعظم تُندد بالمؤتمر، ومتهماً إياه بخدمة المصالح الأجنبية حتى حدود الخيانة. نُشر مضمون

البرقية باللغة التركية بجريدة إقدام. أنظر: توفيق السويدي، مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، عمّان، 2010، ص 35.

13 ـ أنظر: خالد. م. البرازي، «مجلس المبعوثان»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية)، 2002، في آليات النظام الانتخابي العثماني.

14 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 54 ـ 55.

15 ـ أنظر: ميم كمال أوكي، الإمبراطورية العثمانية، الصهيونية، ومسألة فلسطين (1888 ـ 1908)، المجلة الدورية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 14، رقم 3 (آب 1982)، ص ص 329 ـ 341.

16 ـ يُقسّم نظام الملّة العثماني الرعايا العثمانيين غير المسلمين إلى مجموعات دينية وليس مجموعات عرقية أو قومية. كان لكل ملّة، أو تجمع، الحكم الذاتي بشكل أساسي وفقاً لقوانينهم الذاتية الدينية، ولديها هياكلاً قيادية خاصة بها معتمدة بشكل رسمي. هؤلاء سيعملون كمحاورين بين التجمع والسلطان.

17 ـ أنظر: حسن كيالي، مرجع سابق، ص ص 81 ـ 84؛ رشيد الخالدي، «حملة انتخابات عام 1912 في مدن بلاد الشام»، المجلة الدورية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد16، رقم4 تشرين الثاني (نوفمبر) 1984، ص ص 461 ـ 474.

18 ـ اقتباس من: خالد. م. البرازي، مرجع سابق، ص ص 32 ـ 33.

19 ـ أنظر: ستانفورد. ج. شاو وعزل كورال شاو، مرجع سابق، ص ص 273 ـ 301.

20 ـ المملكة العراقية، مديرية الإعلام، مرجع سابق، ص 34.

21 ـ المرجع نفسه، ص 39.

22 ـ أسعد داغر، مرجع سابق، ص ص 48 ـ 49.

الجزء الثاني

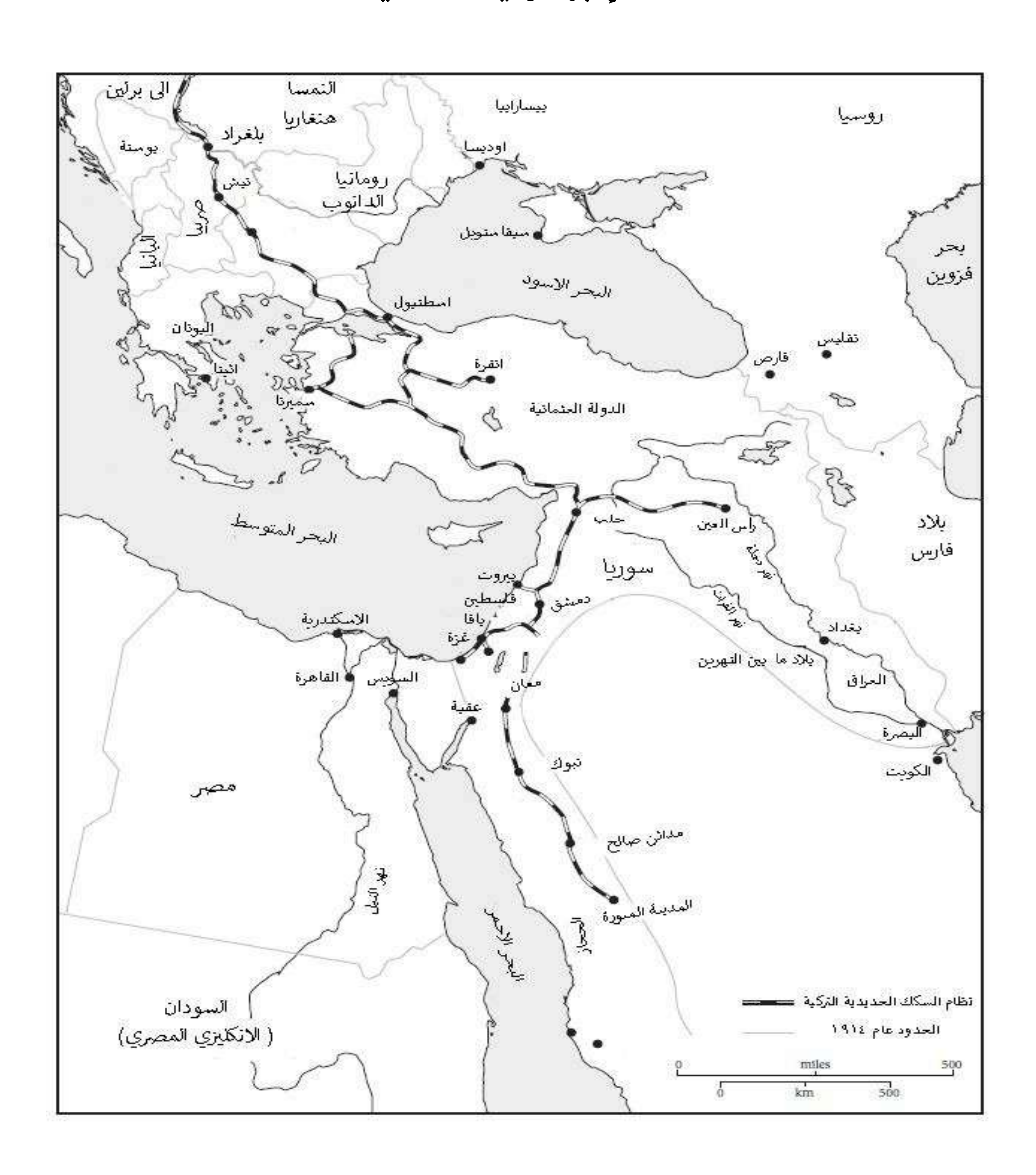
خرق المواثيق

الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى

(1914 ـ 1918)

الفصل الرابع: الطريق نحو الثورة

خارطة [2] الإمبراطورية العثمانية 1914



من خلال منصبه في البرلمان العثماني وسفره المتكرر من وإلى الحجاز، شاهد فيصل بنفسه التحولات الشديدة والدرامية التي حاقت بالإمبراطورية[1]، إذ تركت البلاد التي مرّ بها والأشخاص الذين التقاهم أثراً لا يُمحى لديه حول التغيرات التي عاشتها الإمبراطورية منذ خلع عبد الحميد. لقد تقلّصت أقاليم الإمبراطورية بشكل مريع، نتيجة الاحتلال والهزائم العسكرية، مما جعل حكومتها فعلياً في يد المجلس العسكري، وإنْ يكن تحت ستار دستوري. وقد حصل ما حصل نتيجة التغيرات المحيّرة للسلطة في إسطنبول ـ قامت ثورات وثورات مضادة، وحدثت انتخابات واغتيالات وهزائم عسكرية كارثية.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى، استطاع الحكم الثلاثي القائم والمؤلف من طلعت وأنور وجمال من ترسيخ سلطته، حيث أصروا على مركزية الدولة مع تقديم وعود خاوية تجاه مطالب الأقاليم بالسلطة الذاتية. فكان نمط الحكم مزيجاً من الجمود البيروقراطي، ومحاولات التحديث الإداري والعسكري، والاستبداد المتزايد لقيادة الاتحاد والترقي.

في السنين القليلة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية في حالة أزمة مستمرة. لم يكن أحد متأكداً تماماً كيف ستنتهي الأمور. بالتأكيد، لم يكن هناك أي شخصية عربية من شأنها، على الأقل قبل اندلاع الحرب، مستعدة بنشاط للسعي إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية كشرط ضروري لتصحيح المزاج المتنامي للقلق العربي. كانت للإمبراطورية أيدولوجيتها التاريخية، وأُسست كدولة شرعية للعرب، وبالتالي فإن احتمال سقوطها لا يمكن أن يخدم مصالح الأقاليم العربية. وعندما جاء التحدي الداخلي بسبب الثورة العربية التي تركزت أولاً في الحجاز، فقد حصل ذلك في الأقاليم الأقل تأثراً بتيارات الوعي القومي العربي.

كان فيصل ينتقل بنفسه في هذه الفترة من اهتمام اجتماعي وأسروي بمصير الحجاز إلى تحديد أكبر فيما يتعلق بالمطالب العربية الأوسع. أصبحت ثروات فيصل وعائلة الأشراف متشابكة بطرقٍ لم يكن من الممكن تصورها قبل الحرب نحو هدف تم التعبير عنه بالكاد سابقاً. كانت لقصة الشرق الأوسط الحديث لها بداياتها غير المتوقعة في السنين الحاسمة بين عامي 1908 و1916، ومنذ اندلاع الحرب أصبح فيصل في قلب هذه التغييرات الخطيرة.

الأزمة في الحجاز

إن مسيرة الحكّام، الذين إما تمّت هزيمتهم واستدعائهم أو أصبحوا مرهقين، انتهت بشكل مفاجئ بتعيين جنرالٍ كبيرٍ، وهيب باشا، في بدايات عام 1914. الذي تم تكليفه ببسط سلطة الدولة على جميع الحجاز. وتقليص صلاحيات أمير مكة المكرمة، وإزالة العوائق السياسية لتوسيع خط سكة حديد الحجاز إلى مكة المكرمة. جمع في شخصه منصبين توأمين كحاكم للولاية

وكقائد للقوات العثمانية فيها. لقد كان هذا تطوراً مشؤوماً، يأتي في وقت كانت فيه جمعية الاتحاد والترقي أكثر تخوفاً من المخططات الأجنبية على الأراضي العربية في الإمبراطورية. كما وصل تورط القوى الأجنبية في شؤون الولايات العربية التابعة للإمبراطورية إلى آفاق جديدة. فالألمان كانوا عازمين على بناء علاقة مميزة مع قادة الاتحاد والترقي حتى يوسعوا سكة حديد برلين بغداد؛ أما الفرنسيون فهم منغمسون في استكشاف روابطهم التاريخية مع مجتمعات العنصر المسيحي في سوريا؛ والبريطانيون الذين كانوا مشغولين بتحقيق نجاحات تجارية مع العراق، فضلاً عن فرض وصايتهم على مشايخ الخليج[*].

أدركت جمعية الاتحاد والترقي أيضاً أن عدداً من المثقفين العرب المقيمين في القاهرة، تحت قيادة الفقيه الديني رشيد رضا، كانوا يتباحثون في إمكانية إنشاء اتحاد للمناطق العربية التابعة للإمبراطورية لتشكيل خلافة جديدة. في الحقيقة هي، منظمة سرّية، (جمعية عربية) برئاسة رشيد رضا لتحقيق الوحدة، وأجرت اتصالات مع الشريف حسين لمناقشة هذا المقترح[2].

في الحقيقة جاءت هذه التطورات في وقتٍ زادت فيه أنباء عن إجراء محادثات مباشرة بين السلطات البريطانية والشريف عبد الله في مصر، وعزم جمعية الاتحاد والترقي على ممارسة سلطتها على الحجاز. أدركت الحكومة في اسطنبول، على أية حال، أنه عليها أن تخطو بحذر مع الشريف حسين، على الرغم من تكتيكات وهيب باشا، لقد حثّوه على سياسة تصالحية مع حسين. لكن وهيب ذهب بعيداً في إحدى إرسالياته إلى اسطنبول ليلحّ على الحكومة بمنع عبد الله وفيصل من مغادرة العاصمة بشكل ضروري، ليبقيا كرهينتين ضد تصرف والدهما[3].

أدى تصعيد الخلاف بين حسين ووهيب باشا إلى انقسام الرأي الرسمي في اسطنبول حول كيفية معالجة عناد حسين. أما البدو، فهم جزئياً بتحريض هادئ من قبل حسين، قد انتفضوا ضد إجراءات وهيب المخيفة. فتدهور الوضع بسرعة وأصبح خارج السيطرة، وتم قطع الطرق بين مدن الحجاز الرئيسة وانخفضت مخصصات المدن بشكل كبير، مع التهديد بحصول مجاعة. دبّ الذعر في جميع أنحاء مدن المنطقة وأصبحت الظروف في مدينة جدة فوضوية. أرسل الشريف حسين فيصلاً على رأس سرية من القوات إلى المدينة لقمع الاضطرابات وصدّ البدو المغيرين[4]. الآن كلا الطرفين تراجع عن تصعيد الأزمة، لكن قرر حسين بأنه قد تنشأ مشاكل خطيرة إذا تحالف مع جمعية الاتحاد والترقي. لذا بدأ حسين وعبد الله، وراء الكواليس، بالقيام باتصالات

(*) [الخليج العربي] تعتقد الدول العربية إن التسمية المناسبة تاريخياً وواقعياً هي: (الخليج العربي) وتتداول ذلك في مدوناتها، بينما يُطلَق عليه في المخاطبات الرسمية بين أكثر دول العالم (الخليج)، أما في إيران وبعض المؤلفات وهنا فـ (خليج فارس). (المُراجع).

مع البريطانيين في مصر، باحثين عن حلفاء يمكن الوثوق بهم في حالة نشوب مواجهة أخرى مع الاتحاد والترقي.

في البداية، قابل عبد الله المفوض البريطاني في مصر، اللورد هربرت كيتشنر، في ربيع عام 1912، لكن الزيارة جاءت في المجمل في إطار تبادل المجاملات الدبلوماسية. وعلى أيّة حال، عُقدت الجولة الثانية من لقاءات عبد الله وكيتشنر في ظروف مختلفة تماماً، حيث جرت هذه اللقاءات في يومي 5 و6 شباط (فبراير) عام 1914 في طريق عودة عبد الله إلى إسطنبول مروراً بالقاهرة. أعطى الشريف حسين توجيهاته لعبد الله ليسبر أغوار كيتشنر بخصوص موقف بريطانيا في حال تحرّك جمعية الاتحاد والترقي لخلع حسين، لكنّ كتشنر قدّم إجابة غير ملزمة، وذلك حينما رفع تقريره عن المفاوضات[5]. كانت أهمية هذه المناقشات المبكرة مع البريطانيين محل نقاش ساخن في السنوات اللاحقة بين مؤيدي الثورة العربية ومعارضيها. رأى الأول في هذه الاتصالات تدابيراً احترازية مبررة لفرض امتيازات تاريخية لأمراء مكة المكرمة، واعتبرهم الأخير نذيراً لأفعال الخيانة التي ساعدتهم في تدمير دولة مسلمة عريقة عمرها قرون.

وصل عبد الله إلى اسطنبول بعد إقامته الحافلة بالأحداث في مصر، وتم أخذه لرؤية مختلف كبار المسؤولين في الدولة: الوزير الأعظم، وطلعت، وأنور على التوالي، بعدها وزراء الداخلية والحرب. بدأت المقابلات بشكل ودّي بما فيه الكفاية، لكنها تغيرت بشكل ملحوظ، وأُرسل عائداً إلى الحجاز مع منصب غير قابل للتفاوض لينقله إلى والده. بشكل رئيسي، عُرض على الشريف ثلث عائدات السكة الحديدية الممتدة في الحجاز وبضمان أن يبقى منصب الشرافة في عائلته بعد موته. وإلا..!، قال طلعت بتهديد مبطن أن الباب العالي سيفعل ما يتوجب عليه فعله[6]. عاد عبد الله إلى الحجاز في آذار (مارس) 1914 ليسلّم الرسالة إلى أبيه. وكالعادة، مرّ بمصر، حيث قابل رونالد ستورز وهو سكرتير كيتشنر للشؤون الشرقية. فقد أكد ستورز على موقف بريطانيا الرسمي، القاضي بعدم التدخل في شؤون قوة صديقة، وعدم الرغبة بمساعدة عرب الحجاز للقيام بثورة.

رفض الشريف حسين بغضب الاقتراح المقدم من الباب العالي. وعقدت العائلة ـ حسين وأبناؤه علي، وفيصل، وعبد الله ـ عدداً من الاجتماعات السرّية لتقييم الوضع، وليقرروا الخيارات ومسار العمل المحتمل. كان عبد الله أكثر قوة وطالب بانتفاضة ضد الأتراك وبدعم من الوحدات العربية في الجيش العثماني من سوريا والعراق، وسيكون الهدف تشكيل دولة عربية كبيرة مستقلة. كانت خطة عمل عبد الله خيالية نوعاً ما، والتي دعت إلى حجز الحجاج في العيد بعد

موسم الحج(*). هذا سيُجبر القوى الأجنبية أن تضغط على الباب العالي لإطلاق الحجاج، وعندما يفشل هذا الأمر ستُجبر القوى الأجنبية على التفاوض مباشرةً مع حسين لأجل إطلاق سراحهم[7].

عارض فيصل وعلي بشدة خطة عبد الله بكل حال، على أساس أن الأتراك كانوا أقوياء جداً، وأقنعوا والدهم للنظر في الأمر فقط كحل أخير. علّق فيصل فيما بعد على هذا الجزء، قائلاً: «انقسم المثقفون العرب إلى فريقين. فقد اعتبر طرف واحد أن انفصال البلدان العربية كاملاً من الإمبراطورية العثمانية، أو القيام بحركة ثورية ضد السلطان ستتسبب بانهيار كامل للإمبراطورية من ضمنها البلدان العربية نفسها، ودعا هذا الفريق إلى حلّ تدريجي وتقدمي، أنا وأخي الأكبر علي من دعاة هذا الحل. أما الفريق الآخر فكانوا متطرفين مثل أخي عبد الله الذي تمنّى أن يبدأ بثورة بدون أي تحضير، بدون أن يحسب حساباً للتضحيات الجمّة التي ستترتب عليها. وجد الأمير حسين نفسه في مواجهة اتجاهين سياسيين مختلفين، فحاول أن يكسب الوقت للعمل من أجل الأفضل»[8]. تم وضع خطط عبد الله جانباً في انتظار نتيجة المزيد من المفاوضات مع الباب العالي. فأبرق حسين للباب العالي بأنه سيرسل عبد الله عائداً إلى إسطنبول مرة أخرى ليتابع المناقشات. فيما غادر فيصل إلى إسطنبول للتو ليحضر جلسات البرلمان العثماني.

تصادف وصول عبد الله إلى إسطنبول مع اغتيال الأرشيدوق فيرديناند وزوجته في سراييفو(**). كان فيصل بالفعل في إسطنبول ليحضر جلسات البرلمان واستقبل عبد الله عند وصوله على الرصيف. عبّر فيصل وأعرب له عن تفهمه لتدهور العلاقات بين أبيه والباب العالي، وإن تأخير عودة عبد الله إلى إسطنبول قد أغضب الباب العالي. على أية حال.

إن اندلاع الحرب العالمية الأولى في 1 آب (أغسطس) 1914 قد غيّر خطط وحسابات كل فريق، حتى أن الإمبراطورية العثمانية لم تدخل الحرب بعد، وتراجعت قضايا الحجاز أمام مطالب الحريق العالمي. وتحضّر الوفد الحجازي في البرلمان العثماني (من ضمنهم فيصل) ليغادروا عائدين إلى الوطن على أول باخرة موجودة. وفي 7 آب (أغسطس)، ركب فيصل على السفينة الخديوية الإسماعيلية متوجهاً إلى مصر. وعندما وصلت الباخرة إلى الدردنيل رافقتهم مدمرة عثمانية بين حقول ألغام حتى وصلوا إلى وسط البحر، وبعدها وجّهتهم إلى ميناء أزمير. هناك

(*) تبدأ أيام الحج في يوم التروية 8 من شهر ذي الحجة، وتنتهي في 13 منه أي مع انقضاء ايام عيد الأضحى. ويبدو ان ما ذُكر أعلاه يُعد نوعاً من المضايقة للحجاج، وهي منعهم من العودة إلى ديارهم بعد انتهاء شعائرهم.

(**) يُعد مقتل ولي العهد النمساوي فرانز فرديناند في 28 حزيران (يونيو) 1914 واحداً من الأسباب المباشرة لاندلاع الحرب العالمية الأولى، فقد أسرعت النمسا بعقد تحالفٍ مع الألمان لمقاتلة الصرب المُتهمين بالحادثة، فتحركت روسيا لمساعدة صربيا. وبعدها دخلت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، ومن جانبها اعتقدت الدولة العثمانية إن فرصتها حانت للتخلص من الامتيازات الأوروبية بمساعدة الألمان فانخرطت فيها أيضاً. (المُراجع).

بقيت الإسماعيلية لمدة يوم حتى أُوعز لهم أن يبحروا إلى ميناء بيرايوس في اليونان، وبعدها إلى بلد محايد. بقيت السفينة في ميناء بيرايوس حتى لا تعرقلهم مطاردة سفينتان ألمانيتان، بريسالو وجوبان اللتان كانتا حينها في شرق البحر المتوسط. وفي النهاية، تم الطلب من الركاب على الإسماعيلية للنزول، ظاهرياً، لأن السفينة قد فاتتها رحلتها المقررة للإسكندرية وعليها العودة إلى إسطنبول. اتفق عبد الله وفيصل مع باقي الركاب، ومعظمهم من المصريين الذين يقضون إجازاتهم، لاستئجار سفينة أخرى للرحلة إلى الإسكندرية. لكنهم كانوا مرتبكين عندما اكتشفوا أن الإسماعيلية قد سافرت للتو إلى الإسكندرية[9].

الإمبراطورية العثمانية تدخل الحرب

إن مشاكل الشريف حسين مع الحاكم المحلي وهيب باشا، وشكوكه بل وحتى العداء مع جمعية الاتحاد والترقي وسياساتها لم تجعله بالضرورة محبوباً من قبل القوميين العرب في سوريا. فقد كان هناك حذر عام فيما يتعلق بعواطف حسين المحافظة والتقليدية، وكان هناك عدد قليل من القوميين العرب على استعداد كانوا على استعداد لتسليمه قيادة قضيتهم. فقد تسببت مشاركته بالحملات ضدَّ الإدريسي باتخاذ موقف ضدَّه في الأوساط القومية[10]. كما أن الاتصالات المبكرة التي قام بها الوطنيون مع الأمراء العرب في الدولة العثمانية: الإدريسي، ابن سعود وأمراء الكويت والمحمرة لم تشمل حسين، وهو الأشهر بين الأمراء العرب. وعلى أي حال، حافظ حسين وأولاده على علاقات ممتازة مع عدد من العائلات السورية واللبنانية المعروفة، التي تضم أفراداً ناشطين في الأوساط العربية. وأهم هذه العائلات: عائلة البكري في دمشق، وقد استخدم حسين نفوذه لكي يقوم أحد أفراد هذه الأسرة، وهو فوزي البكري بقضاء خدمته العسكرية في مكتب شريف مكَّة عوضاً عن التحاقه بالتشكيلات النظامية للجيش العثماني[11]. بينما كان أخو فوزي الأصغر (نسيب) فعلياً عضواً في الفتاة، وهذه الصلة هي التي جعلت القوميين العرب في سوريا يتقربون منه ويطالبون بقيادته لحركتهم في بداية الحرب العظمى.

إن دخول الإمبراطورية العثمانية في الحرب مع جانب قوى المحور أصبح أمراً مفروغاً منه بعد هجوم مفاجئ لسفينتين حربيتين ألمانيتين (بيرسالو وجوبان) على ميناء روسي على ساحل البحر الأسود في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1914. ومُنحت هاتان الباخرتان السمة العثمانية، كما منح قادتها الألمان مرتبة عالية في البحرية العثمانية. وبعد أربعة أيام أخرى، قامت روسيا، متبوعة بمجموعة دول الحلفاء، بإعلان الحرب على الإمبراطورية العثمانية. وكانت الحكومة العثمانية بالفعل تحت ضغط قوي من ألمانيا لتدخل الحرب على أساس تحالف سري تم تشكيله في 2 آب (أغسطس) بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية[12]. حيث أصبحت الأخيرة أكثر اعتماداً

على الدعم اللوجستي الألماني وامدادات العتاد والإعانات المالية. كان هناك أعداداً كبيرة من الضباط الألمان المرتبطين بالفعل بالجيش والبحرية العثمانية. حتى أن الجنرال الألماني رئيس البعثة العسكرية الألمانية، ليمان فون ساندرز، أصبح المستشار العسكري للجيش العثماني وقائد قوات الجيش العثماني بأكمله، الجيش الأول.

كان فيصل على دراية جيدة بحجم الدعم الألماني للجيش العثماني، وفي الحقيقة طّور صداقة مع فون ساندرز. حيث كتب الأخير في مذكراته عن فيصل: «عرفت الشريف فيصل جيداً منذ صيف عام 1914. كان مثالاً عن السيد العربي الكبير. فثقافته أوروبية ويتكلم الإنكليزية. وهناك عدة اهتمامات بالرياضة جعلتنا نتواصل مع بعض في عدة أماكن، وزرنا بعضنا البعض في منازلنا. جعلته سياسة الحكومة التركية القاسية تجاه العرب عدوها اللدود»[13].

عاد فيصل وعبد الله إلى الحجاز في أواخر آب (أغسطس)، وتقاريرهم عن أوضاع العاصمة جعلت حسين متخوفاً جداً من معنى التوجّه نحو الحرب وتداعياتها على الإمبراطورية، والولايات العربية، وخصوصاً على الحجاز. فكتب رسالة نصيحة وتحذير للسلطان محمـد رشاد، لكن توسلاته بعدم الانضمام إلى الحرب لم تلق آذاناً صاغية، كما حصل مع مطالبه لتعزيز القوات العثمانية وتوافرها بشكل صحيح في الحجاز، وعسير، واليمن[14]. ترافق الإعلان العثماني للحرب مع دعوة السلطان ـ الخليفة للجهاد، لكن إعلان الجهاد، على أية حال، له تأثير محدود. كان هناك شك كبير في المصداقية الدينية لجمعية الاتحاد والترقي، وظلت هناك حقيقة مزعجة من أن الإمبراطورية العثمانية قد تحالفت بنفسها مع قوتين مسيحيتين: ألمانيا والإمبراطورية النمساوية الهنغارية[15]. مع ذلك وُضع الشريف حسين في مأزق مع مطالب متواصلة من الباب العالي بانضمامه أيضاً إلى نشر الدعوة إلى الجهاد. وخصوصاً أنه ينحدر من مصدر لا تشوبه شائبة دينياً ولا يُخفي اختلافاته عن جمعية الاتحاد والترقي، إن مثل هذا التحرك من جانب حسين سيزيد من سلطة الجهة التي أعلنت الجهاد.

شنّت الإمبراطورية العثمانية حرباً برية من خلال حملة كارثية على الروس في القوقاز في شتاء 1914 ـ 1915. فالجيش الثالث العثماني، بقيادة أنور، تم تدميره بشكل كبير في معركة ساريكاميش[*].

كانت الحملة على جبهة القوقاز جزءاً من جهد ذي شقين لإطلاق هجومٍ مفاجئٍ ضد الحلفاء. أما الجبهة الثانية، فهي تحت إمرة جمال باشا، ومن المقرر أن يتم فتحها بالاعتداء على قناة

(*) وقعت المعركة قرب بلدة (صاري قاميش) التابعة لولاية قارص شمال شرق تركيا حالياً، بين الجيش الروسي والجيش الثالث العثماني للمدة من 22 كانون الأول (ديسمبر) 1914 إلى 17 كانون الثاني (يناير) 1915، مُنيت القوات العثمانية بهزيمة كارثية، وخسرت حوالي 60 ألف من جنودها بين قتيل وجريح وأسير. (المُراجع).

السويس. تم تعيين جمال كقائد لقوات الجيش العثماني الرابع المتموضعة في سوريا، وحصل على صلاحيات نائب السلطان على المقاطعة. ووضعت القوات العثمانية تحت سلطته أيضاً في الحجاز. وشرع جمال في التحضير لهجومه على قناة السويس، متوقعاً أن يكون مجرد وجود القوات العثمانية في منطقة القتال حافزاً للقوميين المصريين على الانتفاضة ضد البريطانيين. ضمت القوات العثمانية التي تم تجميعها وحدات من الحجاز بقيادة الحاكم العثماني وهيب. وطلب جمال الدعم لحملته من أمراء شبه الجزيرة العربية. فأرسل كُلاً من ابن سعود وأمير حائل ابن رشيد(*)، عدداً كبيراً من الجِمال لأجل الحملة[16]. أما حسين فقد طُلب منه أن يؤمّن متطوعين ليرافقوا الكتائب الحجازية المقسّمة تحت إمرة وهيب، ووافق أن يزودهم بمتطوعين ليرافقوا الكتائب العثمانية تحت إمرة ابنه الشريف علي. لكن القوات، على أية حال، لم تصل أبعد من المدينة المنورة مُسببةً الغضب لجمال، فاشتكى بمرارة من تصرف علي في المدينة واتهمه بالتدخل في عمل المسؤولين العثمانيين[17]. انتهى هجوم السويس بالفشل، عندما وقعت القوات العثمانية تحت نيران كثيفة من القوات الإنكليزية الهندية مما جعلها غير قادرة على عبور القناة. ولم تحدث الانتفاضة المصرية المتوقعة، وانسحبت الوحدات العثمانية إلى قواعدها في بئر السبع في فلسطين. كان تجهيز وتصور الحملة بأكملها سيئاً، وعدد القوات المهاجمة صغيراً لتحقيق أي نتيجة[18].

إن مبررات حسين بإبقاء المتطوعين في المدينة المنورة كثيرة. ربما أراد أن يمنع المتطوعين الحجازيين من المشاركة فعلياً في القتال، واستخدامهم بدلاً من ذلك في تقوية سلطة أبنائه في المدينة المنورة ضد قائد الحامية. لكن هناك عامل آخر قد يكون (إن لم يكن أكثر)، بالقدر نفسه من الأهمية. حيث وقعت مجموعة من الوثائق بين يدي الشريف علي أثناء مسيره باتجاه المدينة المنورة[19]. تكشف هذه عن سلسلة من المراسلات السرّية بين وهيب باشا وقادة الاتحاد والترقي، والتي ناقشت اغتيال الشريف حسين وأبناءه والتخلص من الوضع الخاص للحجاز في الإمبراطورية. لكن بدا أن اندلاع الحرب قد أوقف هذه المراسلات.

توقف الشريف علي عن مسيره إلى المدينة المنورة ورفض الانضمام إلى الفرق العثمانية المغادرة إلى جبهة السويس. وعاد إلى مكة المكرمة ومعه وثائق الإدانة التي كان لها تأثيرها المتوقع على حسين. عندها استخدم الشريف حسين معرفته بمحتويات هذه الوثائق ليطالب بعزل وهيب كحاكم للحجاز. كذلك قرر أن يرسل فيصلاً إلى العاصمة ليطالب بتوضيح تصرفات

(*) تمّت الإشارة إلى (ابن سعود) والمقصود به عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي سيطر على نجد وعاصمتها الرياض منذ (1902). أما ابن رشيد فهو الأمير سعود بن عبد العزيز بن متعب آل رشيد أمير حائل (1914 ـ 1920). (المُراجع).

وهيب، وللحصول على اعتذار رسمي وتعويض. تم اختيار فيصل لهذه المهمة، بسبب مشاعره التي لا تزال مؤيدة لتركيا جزئياً[20]. وفيما بعد، ذكر فيصل في مقابلة أنه بالرغم من خطورة الجريمة، فإن الأمير [أبوه]، الذي مازال يتمنى أن يبقى مخلصاً للإمبراطورية، قد اتخذ خطوة بتسليم الوثائق لي متمنياً أن أقدمها للصدر الأعظم [رئيس الوزراء] في القسطنطينية[21]. زار فيصل اسطنبول في الوقت المناسب وقابل الصدر الأعظم، وطلعت، وأنور وعرض قضية أسرة الأشراف ضد وهيب واستيائهم من سلوكه الخطير. وافق كلاً من طلعت وأنور على طلب فيصل وعينوا شخصاً مقبولاً أكثر بكثير من وهيب، وهو غالب باشا. وتم توجيه غالب للتقرب من الشريف حسين، وأن يكون متكيفاً وتصالحياً في تعامله معه[22]. على أية حال، كانت هناك مهمة أخرى أكثر خطراً، إذ عليه أن يستغل فرصة زيارته إلى اسطنبول ليمرّ من دمشق، حيث أُسندت إليه مهمة التواصل المباشر مع حركة القوميين العرب والتجمعات السرّية.

ولاء فيصل للإمبراطورية العثمانية

عندما كانت الحرب مشتعلة في أوروبا بأيلول 1914 يبدو أن الإمبراطورية العثمانية بدأت تميل للدخول في الحرب إلى جانب ألمانيا. وقد أعطى كيتشنر تعليماته إلى المفوضية البريطانية في القاهرة للاستفسار عن آراء الشريف حسين في حال نشوب نزاعات بين الحلفاء والإمبراطورية العثمانية [23]. كان ودوداً للمبادرات ولكنه غير ملتزم وغير مستعد بعد للانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. خلال الفترة القائمة بين النصف الثاني من عام 1914 وبداية عام 1915، استمرّ تبادل الرسائل باضطراد بين لندن والقاهرة من جهة وبين القاهرة ومكة من جهة أخرى. وقد حرصت بريطانيا على اجتذاب أمير مكة نحو الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. على أية حال، كان هناك خوفاً من أن الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية سيقود العرب إلى الوقوع تحت الوصاية الأوروبية، وعمل البريطانيون جهدهم ليظهروا عدم الاهتمام بالأراضي العربية[24]. إن تبادل الرسائل تلك، التي سبقت فتح قناة رسمية للمراسلات بين الشريف حسين والحكومة البريطانية، حاسمة لفهم تطور عقلية الأشراف ومواقفهم في المدة بين اندلاع الحرب مع الإمبراطورية العثمانية والصيف المشؤوم من عام 1915.

كان فيصل مطلعاً كلياً على تبادل الرسائل، ومدركاً لكل الظروف المتدهورة في سوريا والاغتراب السريع لعنصر مهم من المثقفين العرب والطبقات البارزة في القضية العثمانية. ويمكن أن ينعكس هذا التحول الملموس مما نعرفه من تصريحاته العامة والخاصة فيما يتعلق بالإمبراطورية العثمانية، والحرب ومستقبل العرب ضمن الإمبراطورية. من كل النواحي كان فيصل داعماً للإمبراطورية ـ عثمانياً مخلصاً لكن ناقد ـ على الأقل حتى دخول العثمانيين بشكل رسمي

إلى الحرب. كان بمثابة شخصاً موازناً لمواقف أخيه عبد الله الأكثر تهوراً، وكان مدركاً للتوازن غير المتكافئ للقوة بين أمير مكة المكرمة والسلطات المركزية العثمانية. فأية محاولة لتحدي الإمبراطورية العثمانية بدون سبب وجيه لم يكن فقط خطير سياسياً لكن أيضاً محكوماً بالفشل، بالنظر إلى التفاوت الكبير في القوة بين الاثنين. أياً ما كان، فإن فكرة الهوية العربية على وجه التحديد والتي تحتاج إلى تعبير كامل في دولة عربية كانت بعيدة كل البعد عن ذهنه. إن مكانة العرب لأسباب تاريخية، ودينية، وسياسية يجب أن تكون ضمن قلب الإمبراطورية العثمانية. إلا أن مفهومه عن الإمبراطورية هو أنها مجموعة من الجماعات الاثنية والدينية المختلفة، وكل ما يجمعها هو الولاء للسلطنة الشرعية.

كانت الدولة القومية للعرب من حيث تركيز اهتماماته وتطلعاته بعيدة عن الواقع ونظرية جداً، ولا يمكن السماح باستبدالها بجسد الإمبراطورية العثمانية الذي لا يزال حياً بسلطتها الدينية والتاريخية العظيمة. وفي الحقيقة اعتبر فيصل أولئك الذين دافعوا عن التحدي العربي الجدّي ضد الإمبراطورية «كمتطرفين»، وأبقى على مسافة معقولة منهم. أما عبد الله فقد كانت عينه على حركة الوطنيين العرب وانخرط في صفوفها ولو بصورة سطحية ورسمية فقط. قال فيصل مشيراً إلى علاقات أخيه عبد الله مع القوميين العرب قبل الحرب باستنكار إلى حدٍ ما في مقابلة: «مثّل الأمير عبد الله مكة المكرمة في البرلمان التركي وتواصل مع رؤساء الحركات الثورية العرب في القسطنطينية. هو [عبد الله] بنفسه عارض الإدارة التركية بقوة وعندما عاد من رحلاته بين مكة المكرمة والقسطنطينية نقل ليس فقط آرائه الخاصة إلى والده ولكن أيضاً آراء العرب الذين توسلوا إليه لإقناع الأمير بوضع ثقته بقادة الحركة»[25]. لكن فيصل أدرك أيضاً بأنه لأجل أسباب أُسرية عليه أن يكون إلى جانب والده بشكل ثابت، والتأكيد على حقوق وامتيازات الحجاز ضد تجاوزات الدولة المركزية تحت قيادة جمعية الاتحاد والترقي.

وتسببت مجموعة من العوامل المتقاربة في فترة زمنية قصيرة جداً في تغيير دعمه السابق للإمبراطورية. وقوّضت هذه العوامل أسس موقفه السابق ودفعته إلى إعادة تقييم وجهات نظره بشكل جذري حول الرغبة ـ وحتى الإمكانية ـ في استمرار دعم الإمبراطورية العثمانية عندما وقعت تحت حكم الثلاثي المتهور لطلعت، وأنور، وجمال. بالإضافة وإلى التصميم الواضح لهذا الثلاثي لتخريب وحدة الحجاز عندما تنضج الظروف، بالإضافة للوثائق التي أُكتشفت بخصوص وهيب.

على فيصل الآن أن يخاف على حياة أبيه وأخويه وعلى استمرارية سلالة الأشراف. كانت الحجة القائلة بأن الإمبراطورية وحدها هي التي يمكنها الدفاع عن الأراضي العربية ضعيفة إلى حد كبير مع فشل حملة السويس ونزول القوات البريطانية في البصرة في جنوبي بلاد الرافدين.

وقد تسقط الأراضي العربية الآن تحت سيطرة القوى الأجنبية، كما أن القدرات الدفاعية للجيش العثماني قد ضَعُفت بسبب نقل القوات باتجاه الجبهات الروسية والدردنيل. وعلى الرغم من أن البريطانيين قد قاموا بتقديم تأكيدات بعدم اهتمامهم بالسيطرة على الأراضي العربية، لكن لم يتم تضمينها بعد في الاتفاقات الرسمية لتهدئة شكوك فيصل المرتابة بالمقاصد البريطانية. لكن ما ثبت في الواقع أنه كان حاسماً في دفع أسرة فيصل إلى المعسكر الذي ضغط من أجل الثورة ضد الأتراك كان أمراً مختلفاً بشكل كامل؛ إذ، ووفقاً لشهادة فيصل الخاصة، فإن المعاملة الوحشية التي سادت ضد العرب في سوريا وإجراءات جمال باشا القاسية ضد المعارضين العرب، أدى ذلك إلى فتح فجوة مع الإمبراطورية العثمانية.

فيصل والقوميون العرب السوريون

اختار الشريف حسين فيصلاً ليكون رأس الحربة في علاقاته مع القوميين العرب في سوريا، لكن ذلك سيبدو للوهلة الأولى أمراً غير عادي. كان عبد الله هو الذي قام بهذه الاتصالات، ولديه خبرة أكبر في التعامل مع قياداتهم. كان أيضاً أكثر ميلاً، مزاجياً، تجاه أهدافهم وغاياتهم من فيصل. لكن حسين قام بموائمة مهامّاً محددة بعناية مع القدرات الخاصة لأبنائه. وما دام عبد الله كان النقطة المحورية لتبادل الرسائل مع البريطانيين في القاهرة، فقد أصبح فيصل الخيار الأكثر مناسبةً ليطور التواصل مع السوريين. وفي الوقت نفسه، كان قائداً عسكرياً أفضل بكثير من عبد الله، ويمكّنه ذلك من تقييم قدرات كُلاً من القوات العثمانية في سوريا، بالإضافة إلى الحركات العربية المنشقة. وعلى الرغم من أنه كان غالباً عجولاً ومندفعاً في العمل فهو أيضاً متأنٍ وماكر. وستستند نصيحته إلى استعداده الحذر وتقويمه الواقعي للخيارات المتاحة. فضلاً عن ذلك، فمن المعروف أن فيصل متحيز لسوريا، لأن القضية ستجعله يقف في مكانة جيدة بتعامله مع الباب العالي، وقد يُهدئ شكوك قيادة جمعية الاتحاد والترقي حول مقاصد حسين[26].

بعد اكتشاف وثائق وهيب، أبرق حسين إلى الصدر الأعظم مقترحاً أن يرسل فيصلاً إلى اسطنبول ليناقش القضايا العالقة ومن ضمنها، بالطبع، قضية رسائل الإدانة. كان الجواب من الصدر الأعظم مشجعاً، فانطلق فيصل إلى اسطنبول عبر دمشق. وصل إليها في 26 آذار (مارس) 1915، وبقي هناك مدة أربعة أسابيع قبل أن يتجه إلى إسطنبول[27]. كانت عائلة البكري، وربّ أسرتها عطا باشا البكري، مضيفيه خلال تلك الفترة. وفي وقت سابق من العام، وصل فوزي البكري وهو ابن عطا باشا الأكبر إلى مكة المكرمة ليؤدي فترة خدمته الإلزامية في الجيش العثماني ضمن الحرس الشخصي للشريف حسين. وسبق أن علم فوزي من الجمعيات السريّة، باعتباره عضواً في جمعية الفتاة، عن خططهم لتأسيس دولة عربية في حال عدم قدرة أو هزيمة

الإمبراطورية العثمانية، كذلك سأل الشريف حسين إن كان يرغب بقيادة الحركة. أما الرسالة التي حملها فوزي فهي أن كبار الشخصيات في سوريا والعراق، من ضمنهم الضباط العرب في الجيش العثماني، كانوا يخططون لاستقلال العرب في حال عجزت الدولة العثمانية أن تُصلح نفسها فعلياً بطريقة ستمنع الأجانب من انتهاز الفرصة لتحتل وتستعمر هذه الأراضي العربية[28]. وطُلب من حسين إما أن يستقبل وفداً من الجمعيات السرّية، أو يُرسل ممثلاً موثوقاً ليقابلهم في دمشق.

قبل وصول فيصل إلى دمشق، قامت الجمعيتان السرّيتان الرئيسيتان بتوسيع عضويتهما بشكل كبير. فتوسّعت الجمعية العربية الفتاة خارج قاعدة نفوذها المتمثلة في النخبة المثقفة وموظفي الحكومة العرب، ونجحت بجذب شخصيات قبلية بارزة إلى صفوفها. ضمت فيها الشيخ نوري [بن هزّاع] الشعلان زعيم قبيلة الرولة القوية التي سيطرت بشكل كبير على البادية بين سوريا وشبه الجزيرة العربية، وأيضاً الزعيم الدرزي نسيب الأطرش. وجنّدت شخصاً آخر هو الجنرال علي رضا الركابي الضابط العراقي البارز في الجيش العثماني والذي سقط في قبضة جمعية الاتحاد والترقي. في تلك الأثناء، أسست جمعية الفتاة والعهد تواصلاً مع بعضهم البعض يتصرفون من خلال رابط، ياسين الهاشمي، وهو ضابط بغدادي كان قائداً للفرقة العراقية الرئيسة من الجيش الرابع العثماني المتمركز في سوريا[29]. كان ياسين عضواً قديماً في جمعية العهد.

قام فيصل بزيارة ودّية لجمال باشا والذي استقبله بفتور، لكنّ أعيان دمشق البارزين احتفلوا بفيصل، فأتاحت له هذه الظروف الاجتماعية التعرف جيداً على قادة الجمعيات العربية السريّة، لا سيما الجمعية العربية الفتاة. في البداية، كان قادة الفتاة مترددين بالثقة وبإعطاء أسرارهم الداخلية لفيصل، وخصوصاً أن ميوله المؤيدة لتركيا كانت معروفة جيداً. وبدأت الثقة المتبادلة تزداد بمرور الوقت، كما شرح لهم فيصل بأن مواقفه المؤيدة لتركيا تتعلق أكثر بخوفه من أن القوات الأوروبية ستأتي وتسيطر على الأراضي العربية إذا ضعفت الإمبراطورية العثمانية أكثر أو سقطت. فأطلعوه بالتفصيل عن تنظيمهم وخططهم، لا سيما أن فيصلاً أشار إلى أنه سيقبل عضوية الفتاة. وأقسم فيصل يمين الجمعية، وبدوره أعلمهم بمحتوى المراسلات بين كيتشنر وأبيه. حصلت معظم مقابلات فيصل مع الجمعيات السرّية بعد منتصف الليل في منزل البكري، وبعد مغادرة الزوار المعتادون الذين جاؤوا ليسلموا عليه[30]. إن انضمام فيصل إلى جمعية الفتاة فتح له الباب على مصراعيه ليقابل الضباط العرب الذين شكّلوا معظم أعضاء جمعية العهد. تذكّر فيصل قائلاً في مقابلة أُجريت معه عام 1933 تلك الفترة بالعبارات الاتية:

في نيسان (أبريل) عام 1915[31] وصلت إلى دمشق في طريقي إلى القسطنطينية حيث كنت ذاهباً لأنفذ مهمة التي تكلمت عنها [لأقدم وثائق وهيب للباب العالي]. في دمشق قابلت عدداً كبيراً من المثقفين، من بينهم كان هناك بدو [رؤساء العشائر]، ووجهاء دمشق، وعلاّمة

سوري، وضباط فرق عربية تابعة لقوات الجيش السوري [الجيش العثماني الرابع]، أحد رؤساء الأركان ياسين باشا [الهاشمي]، وهو وزير المالية الحالي للعراق. كلهم أكدوا لي أن يبدؤوا الثورة ورجوني أن أرفع مستوى الثورة. فأجبتهم أنني مسؤول من قبل أبي أن أدرس الوضع في سوريا والجانب العام للأمور في القسطنطينية وذلك بدون دعم من بعض التنظيمات القوية لإحدى القوى العظمى. لم أستطع تقبل مسؤولية ثورة (كنت معتدلاً في تلك الأيام!) وعلّي أيضاً أن أذهب إلى القسطنطينية وأعود إلى مكة المكرمة عبر سوريا لأُعطي تقريراً عن تطور الأمور إلى والدي[32].

غادر فيصل دمشق إلى اسطنبول في نهاية نيسان (أبريل) 1915. وقوبل بضجة كبيرة وودٍّ من قبل كل الشخصيات البارزة في الإمبراطورية، وأُستقبل أيضاً من قبل السلطان الذي سمح له أن يكرر ولاؤه للدولة العثمانية وشخص السلطان نفسه[33]. وأجرى عدة مقابلات مع الصدر الأعظم، ومع طلعت، وأنور. ونقل مخاوف والده العميقة عن المؤامرات التي كانت تحاك ضده، وعرض وثائق الإدانة التي اكتشفت في حقائب وهيب. وقد طمأنت فيصل الردود التي تلقاها من القيادة في اسطنبول. وعلى أية حال، على أي حال، فقد كانت الحكومة متلهفة لانتزاع الدعوة إلى الجهاد من الشريف حسين، وكذلك دعمه الفعلي ومشاركته في جهود الحرب.

نقل فيصل هذه الرسائل إلى والده من الصدر الأعظم[*]، وطلعت، وأنور التي تدعو للعمل في هذا الاتجاه. وعاين فيصل أيضاً الضغوط المتزايدة على الإمبراطورية العثمانية والقلق الذي استحوذ على كبار الشخصيات في العاصمة. وأصبحوا حذرين من الاتجاه الخطير الذي كانت الإمبراطورية تنحرف نحوه في ظل سياسات الحكم الثلاثي. قام البريطانيون والفرنسيون والأنزاك[**] بإنزال برمائي على شبه جزيرة غاليبولي[***] في 25 نيسان (أبريل) 1915، وكان الهدف النهائي للهجوم الاستحواذ على إسطنبول نفسها. وعلى الرغم من تنظيم العثمانيين دفاعاً هائلاً قاد في النهاية إلى نصر عظيم للإمبراطورية، بقيت حصيلة المعركة خلال نيسان (أبريل) وأيار (مايو) 1915 غير مؤكدة. وفي مقابلة لاحقة، قال فيصل عن الوقت الذي أمضاه في العاصمة:

(*) كان الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) بين عامي 1913 ـ 1916 هو سعيد حليم باشا (1863–1921) سياسي مصري عثماني، الحفيد المباشر لوالي مصر الشهير محمد علي باشا. أُتهم بالخيانة بعد عام 1918 وتمت تبرئته ونفيه بعدها. أُغتيل في روما سنة 1921. (المُراجع).

(**)الأنزاك: الجنود الذين خدموا في الفيلق الأسترالي النيوزلندي في الحرب العالمية الأولى، تمّ تجنيدهم في مصر. (المُراجع).

(***) تقع شبه جزيرة غاليبولي في الجزء الأوربي من جمهورية تركيا، تطل على بحر إيجة في جهتها الغربية وعلى مضيق الدردنيل من الشرق. (المُراجع).

عندما وصلت إلى القسطنطينية وجدت الوضع مضطرباً بعد هجوم الدردنيل. أنجزت مهمتي بأن أقدم وثائق أبي إلى مقر الباب العالي. ولم يقبل الباب العالي المؤامرة ضد الأمير وبدأوا بالتحقيق في الأمر. في الأثناء، قابلت عدة وزراء ومسؤولين أتراك، كان من بينهم جنرالان اثنان واللذان يُعتبران الضباط القياديين الأكثر خبرة والأبعد نظراً في الجيش التركي. حيث نصحني كل شخص أن أعود حالاً إلى شبه الجزيرة العربية وأُحذر أبي من مغامرات الأتراك الشباب، بحسب قول الجنرالين، الذين كانوا يجرون الإمبراطورية إلى الخراب. حتى أنهما أخبراني صراحة بأن من واجب أبي أن يُبقي البلدان العربية منضمة إلى الحلفاء بسبب سرعة اقتراب النهاية المأساوية للإمبراطورية العثمانية. وكان الأتراك في تلك اللحظة ينقلون أرشيفهم وكنوزهم إلى الأناضول. قررت حينها أن أنضم إلى المتطرفين [أنصار المطالب العربية] وأعود حالاً إلى مكة المكرمة لأساعد أبي في انقاذ شبه الجزيرة العربية[34].

نجحت زيارة فيصل بالإجمال، ولم يقوّض جو التشاؤم والكآبة السائد في العاصمة من هذا النجاح، إذ لم يتم استبدال وهيب ذي السلوك المسيء بشخصية غالب الأكثر استعداد للمساعدة فحسب، بل وبدا الباب العالي أكثر تقبلاً لسلطة الشريف حسين ومكانته[35]. لكن، اقتنع فيصل أخيراً بتهور سياسات الحكم الثلاثي، ولذلك كان من الصعب المحافظة على الولاء تجاه نظام تسيطر عليه جمعية الاتحاد والترقي، في زمنٍ أصبح فيه انهيار الإمبراطورية واحتلال الأراضي العربية احتمالاً حقيقياً، فكانت إسطنبول نفسها المكان المراد احتلاله. لذا أعاد فيصل بجدية شديدة تقييم موقفه المؤيد للعثمانيين[36].

وصل فيصل إلى دمشق في أواخر شهر أيار (مايو) عام 1915، وأُستقبل هذه المرة استقبالاً حافلاً في محطة السكة الحديدية من قبل جمال باشا نفسه. كان تبايناً ملحوظاً من زيارته السابقة إلى دمشق عندما سجّل فيصل برودة ملحوظة تجاهه. في الحقيقة تلقى جمال رسائلاً من طلعت وأنور بأن يكون مهذباً ومجاملاً له بشكل خاص. حيث شجّع أنور جمال أن ينشد نصيحة فيصل في القضايا العربية، بينما ألحّ طلعت على جمال أن يتخلص من تحفظاته على فيصل وان يحصل على صداقته ودعمه[37]. غادر فيصل وجمال إلى القدس حيث توجد مقرات متقدمة للجيش الرابع العثماني، وزارا جبهة سيناء. حيث ألقى خطاباً وطنياً شديد اللهجة على المائدة التي أقيمت على شرفه هناك، مخاطباً كبار الضباط لفيالق الجيش. ما زال بإمكانه الادعاء بشكل علني على دعمه للقضية العثمانية. في مذكراته، ذكر جمال باشا إنّ فيصلاً أقسم للحضور، بروح النبي (ص)، على إخلاصه وولائه للقضية العثمانية[38].

عند عودته إلى دمشق من زيارته إلى جبهة سيناء والقدس مرة أخرى، بقي فيصل في منزل البكري واستمر الزوار والمبعوثون من الجمعيات السرّية على التدفق. وخلال غيابه في

اسطنبول قام قادة جمعيتي العهد والفتاة بصياغة بروتوكول يحدد صيغ وشروط تعاونهم مع البريطانيين في الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية. وطلب من فيصل أن يحمل هذا البيان إلى والده في مكة المكرمة، ويحدد ما إذا كان البرتوكول يمكن أن يشكّل أساساً لخطة عمل منسقة مع البريطانيين. كان هذا البيان الأول الواضح بما يتعلق بالظروف التي أطلقتها الجمعيات السرّية بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء. وحددت صراحة معنى الدولة العربية والتي كانت معادلة تقريباً لكل الأراضي التي تتحدث العربية في غرب آسيا والمناطق التي غالبية سكانها يتحدثون بالعربية مثل الإسكندرونة وكيليكية. وطالب البيان أيضاً بإلغاء الامتيازات الاستثنائية للأجانب باتفاقيات الاستسلام[39]. كما يجب أن تتمتع الدولة العربية بمعاهدة دفاع مع بريطانيا وأن تُمنح وضعاً اقتصادياً مميزاً[40]. فالبروتوكول الذي نوقش مع فيصل (عُرف فيما بعد ببروتوكول دمشق) كان عليه أن يكون بمثابة وثيقة الشريف حسين الأساسية في مفاوضاته معهم لدخوله المحتمل في الحرب.

إن وصول فيصل إلى دمشق عائداً من رحلته إلى مكة المكرمة جاء في وقتٍ مضطربٍ في سوريا. فحكم جمال باشا قد أصبح قمعياً ودموياً؛ حيث تم إلقاء القبض على عدد من الشخصيات البارزة في الحراك العربي في نيسان (أبريل) 1915 بتهمة الخيانة، وكانوا ينتظرون المحاكمة. كما ذكر فيصل فيما بعد قائلاً: «في سوريا [بعد عودته من اسطنبول] وجدت الوضع حرج للغاية. كل الذين قابلتهم توسّلوا لي أن أدخل باتفاق مع رؤساء الحراك حتى أناقش أفضل طريقة لأبدأ بتحرير البلد. غادرت إلى مكة المكرمة بعد أن وعدت أعضاء اللجان السّرية أن أُقنع والدي أن يبرم معاهدة مع الحلفاء وأعود إلى سوريا، حيث كان من المقرر أن تُعلن الثورة»[41].

لاحظ فيصل أن خطط ومطالب القوميين العرب كانت محفوفة بالخطر، وكان قلقاً من أن قادة الحراك لم يقدِّروا بجدية أخطار الثورة؛ فقدراتهم ومصادرهم ـ العسكرية والسياسية والمادية ـ قد كانت غير ملائمة للمهمة الأكبر بإطلاق ثورة في خضم حرب عالمية. ومن بين أعداد الزوار الذين جاؤوا إلى منزل البكري ليقابلوا فيصلاً كان: الدكتور أحمد قدري، سكرتير فرع الفتاة في دمشق وأحد مؤسسي الجمعية؛ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وهو فيما بعد سيكون عضواً بارزاً لحكومة فيصل العربية في سوريا؛ الجنرال علي رضا باشا الركابي؛ والجنرال ياسين باشا الهاشمي. وكان تأكيد ياسين عن قوة وعزم الحركة الوطنية له التأثير الأعظم على فيصل[42]؛ لأن لدى ياسين شخصية قوية توحي بالثقة والطمأنينة. فضلاً عن ذلك، كان لصوته ثقلاً، حيث كان رئيساً لأركان الفرقة العربية الرئيسة التابعة للجيش العثماني في سوريا. كان على أي ثورة ناجمة أن تشمل هذه الفِرق. وبعد فترة طويلة من المداولات سأل فيصل ياسين ماذا توقعوا من دعم الحجاز. أجاب ياسين: «نحن لا نسأل شيئاً ولا نحتاج شيئاً. لدينا كل ما نحتاجه كل ما نسأله إياك

هو أن تقودنا وتكون في الطليعة». فعرض فيصل أن يرسل فِرقاً قبلية حجازية لدعم الثورة في سوريا قائلاً: نحن باتفاق مع قادة قبائل الحجاز، إنهم موالون لنا ومستعدون أن يعملوا معنا. ومن ثم جاء جواب ياسين الواثق: «لا نحتاجهم»[43].

والتقى فيصل مع أعيان آخرين ومع زعماء عشائر بارزين وقادة دروز خلال زيارته الثانية إلى دمشق. وقد أكد كلهم تقريباً له الحاجة إلى الحركة، وعبّروا عن دعمهم للشريف حسين كقائد لهم في حالة الثورة. وكرمزٍ لالتزامهم قام كُلاً من الشيخ بدر الدين الحسني، العلّامة (سلطة دينية) من دمشق، والجنرال علي رضا باشا الركابي رئيس بلدية دمشق في ذلك الوقت بإعطاء فيصل ختميهما. وأضاف الأخيران توقيعهما إلى بيان دعا فيه الشريف حسين ليقودهم كمَلك[44].

أما زيارة فيصل الثانية إلى دمشق فلم تكن عرضية لتطور ثورة العرب، كما إدّعى البعض، بل كان لها دورٌ أساسي، حيث عبّر مجموعة من الشخصيات عن شبه إجماع، غير مسبوق، على العمل. وأصبح هناك اتفاق جماعي أن أعضاء أسرة الأشراف عليهم أن يتصرفوا كرمز وقادة بالفطرة لمثل هذه الثورة. لكن بالقدر نفسه من الأهمية، تم التوصل إلى إجماع على المبادئ التوجيهية ومبررات الثورة، ولأجل الحصول على دعم بريطانيا العظمى، وهي الوثيقة التي أعدتها قيادة جمعية الفتاة. وأصبحت اهتمامات أسرة الأشراف الضيقة والأسرية الآن متشابكة مع أهداف أوسع. إن حقيقة ارتباط هاتين المسألتين في أذهان القوميين وفيصل في هذه المرحلة المبكرة لها أهمية كبيرة في طريق الثورة. فقد كانت بدون شك العامل الرئيسي خلف إعادة تواصل حسين مع البريطانيين بعد توقف المراسلات المبكرة بين كيشتنر، ستورز، وعبد الله.

قبل أن يغادر فيصل دمشق أخيراً، وعد جمال باشا أن يرسل فرقة عسكرية مؤلفة من 1500 رجل من رجال القبائل الحجازية تحت إمرته للانضمام إلى الجيش العثماني على جبهة سيناء. رأى قادة جمعية الاتحاد والترقي في ذلك، وخصوصاً جمال، تأكيداً لدعم الشريف حسين للقضية العثمانية، وطريقة لشبكه في جهود الحرب لإبقائه بعيداً عن الإنزلاق في أذىً محتمل[45]. عاد فيصل إلى مكة المكرمة في منتصف شهر حزيران (يونيو) 1915، ووفقاً لكلامه: «شرحت كل هذه الظروف لأبي وأخبرته برغبات العرب. وأخبرته أيضاً، بعد انضمامي إلى الحزب المعتدل، الأوضاع المتقلبة وطلبات العرب قد أثّرت فيّ لأنضم إليهم وأتوسل إليه أن يقود الجبهة الثوروية[46]». بقي فيصل في مكة المكرمة للستة أشهر القادمة، مراقباً التطورات المهمة في كُلٍ من سوريا وفي علاقة أبيه مع البريطانيين. إن تدهور واقع الوطنيين في سورية خلال تلك الفترة انصّب مباشرة ضمن مباحثات حسين مع البريطانيين للثورة ضدَّ الأتراك.

جمال والمعارضة العربية في سوريا

كان جمال واحداً من قادة جمعية الاتحاد والترقي القلائل الذين يقفون إلى جانب (الجامعة الإسلامية)، ولم يعرف عنه أيّ نزعات تركية متعجرفة. ترافق وصوله إلى سوريا بالاحتفالات والمهرجانات في كل المدن التي مرّ بها. وكتب في مذكراته عن الناس في سوريا: «كل الناس في الأراضي التي مررت بها وطنيون بشكل عالٍ ومخلصين للقضية العثمانية. امتلأت بالفرح عندما رأيت وشعرت بأن غالبية العرب لن يبخلوا بالتضحية بكل ما لديهم في هذه الحرب الكبرى لتحرير الخلافة الإسلامية من السيطرة الغربية»[47]. وحالما تولى منصبه الجديد، ضم إلى مجلسه الاستشاري شخصيات معروفة بميولهم العربية. وأكد في خطابه العام في دمشق في كانون الثاني (يناير) عام 1915 على الحقوق العربية داخل الإمبراطورية العثمانية في سياق التضامن العربي التركي. حيث قال: «اعملوا من أجل إعلاء العرب والعروبة. جددوا حضارتكم... لا شيء يصدّ الشر أكثر من استمرار الوحدة العربية التركية تحت حكم خليفة واحد [ولا شيء أسوأ] من تفرقهما إلى كيانين اثنين مختلفين»[48]. إن سياسات جمال التصالحية والاستيعابية قوبلت بإيجابية من قبل كل مكونات المجتمع السوري الرائدة وبشّر ببداية ممتازة لولايته. على أية حال، فإن فترة شهر العسل هذه لم تدم طويلاً.

حالاً بعد وصوله إلى دمشق أُعطي جمال ملفاً تم ضبطه من القنصلية الفرنسية في بيروت يحتوي وثائقاً، أظهرت تورط عددٍ من السياسيين والشخصيات المرموقة بالتواطؤ مع الفرنسيين للتحضير لإنزال فرنسي محتمل على الساحل السوري. لكن الوثائق كانت قديمة والعديد من هؤلاء المتّهمين صنعوا سلاماً مع الحكومة وخدموا القضية العثمانية بإخلاص[49]. في البداية لم يتحرك جمال ضد هؤلاء الذين ظهرت أسماؤهم في وثائق الإدانة، وتبنّى موقف الانتظار والمراقبة. لكن في نيسان (أبريل) 1915 قرر أن يتصرف، فأمر بإلقاء القبض على عدد من الشخصيات السياسية وشباناً، جميعهم معروفون بمواقفهم العروبية، لكن ليس بالضرورة أن تكون أسماؤهم في الوثائق. ثم قُدّم المعتقلون أمام محكمة عسكرية انعقدت خصيصاً في عالية[*] على سفح الجبل شرق بيروت. وُجد ثلاثة عشر من المدعى عليهم متهمين بالخيانة، فضلاً عن ذلك حُكم على سبعين آخرين بالموت غيابياً. وفي 1 آب (أغسطس) 1915 تم شنق أحد عشر مُدّعى عليهم في ساحة (ستسمى فيما بعد بساحة الشهداء) البرج في بيروت. كان من بينهم أفراداً من عائلات قيادية في لبنان وسوريا (مثل صالح حيدر من بعلبك)، ومحامون (محمد

(*) مقاطعة لبنانية كبيرة، تقع وسط البلاد، مركزها مدينة عاليه، إلى الجنوب الشرقي من بيروت، تتركز فيها الطائفة الدرزية، ويليها الموارنة المسيحيين وطوائف أخرى. (المُراجع).

محمصاني)، ومحررو أخبار (علي الأرمنازي)، وكان عبد الكريم الخليل رئيس نادي الأدب العربي، والمقرب المفترض من جمال باشا واحداً من المعدومين أيضاً.

كتبت الروائية والناشطة النسائية خالدة أديب، التي كانت تزور سوريا ولبنان لتتفقد المدارس بدعوة من جمال باشا، عن التأثير المزعج للغاية للإعدامات، ليس فقط على العرب بل على الضباط الأتراك أيضاً. أخبرها الكولونيل فؤاد باي، الذي دعا أديب بانتظام هي ورفاقها، عن الإعدامات قائلاً: «أتيت إلى بيروت في يوم الإعدام. كان أمام مبنى الحكومة سلسلة من المشانق والبعض قد تم إعدامهم للتو. لكن يوجد واحد من بينهم مشى بين المُدانين. كان ضابطاً احتياطياً وارتدى قلبق [نوع من القبعات]، وهادئاً لا يخشى الموت. جلس على أحد المقاعد ودخن حتى جاء دوره. اختار واحدة من المشانق، ووضع عقدة الحبل حول عنقه وقال: «ولدت كعربي، وخدمت العرب، وأنا أموت إكراماً للعرب». كنت متأثراً جداً لفكرة قتل هذا العربي العظيم الذي لم أسأل حتى عن اسمه. لكن السوريين سيعرفونه[50]. أتبع جمال هذه الإعدامات بتطهير واسع النطاق للضباط العرب من الجيش الرابع وإعادة توزيعهم على جبهات مختلفة بعيداً، عن قلب البلاد العربية.

حصلت موجة ثانية من الاعتقالات للشخصيات القيادية في سوريا ولبنان في خريف عام 1915. كانت حملة التفتيش هذه أشمل من اعتقالات شهر نيسان (أبريل)، وتتركز على رموز الحركة الوطنية، وليس على الأسماء التي وردت في ملف القنصلية الفرنسية. وفي الحقيقة كان هناك فقط ثلاثة أشخاص أُعتقلوا في هذه المجموعة والذين ذُكرت أسماؤهم في الملفات. وجدت المحكمة العسكرية معظم المتهمين مذنبين لكنها تجنبت إصدار أحكام الإعدام[51]. على أية حال، فرض جمال عقوبة الإعدام على واحد وعشرين متهماً. وتم إعدامهم علناً في 6 أيار (مايو) في بيروت ودمشق، وشمل الإعدام: عبد الحميد الزهراوي، عضو في مجلس الأعيان العثماني، شفيق المؤيد؛ شكري العسلي، أمير عمر الجزائري (الثلاثة السابقين كانوا أعضاء في مجلس النواب العثماني)؛ وعدد من الشخصيات السياسية والأدبية مثل عبد الغني العريسي محرر جريدة الفتاة المفيد. في الحقيقة أُعدم الزهراوي بدون محاكمة.

ما هي الأسباب التي دفعته إلى مثل هذا العمل الوحشي بينما بدأ حكمه بتوافق وانسجام؟ عزى جمال هذه التصرفات إلى التخطيط من أجل القيام بثورة في سوريا وبلاد الشام. على الرغم من أنه حاول أن يعمل مع القوميين (أو «الإصلاحيين» كما دعاهم)، لكنهم كانوا غير مخلصين وتآمروا مع العدو باستمرار. وهناك عدة حوادث زادت من شكوكه، ليس أقلّها هجوم البدو على البحارة الذين نجوا من الغرق بسفينة ألمانية في البحر الأحمر. واعتقد جمال أن الشريف حسين هو المسؤول عن التحريض على الهجوم. ووفقاً لجمال، حاول حسين بوضوح أن يرسل إشارة

إلى البريطانيين، مشيراً إلى أنه لن يتسامح مع أي وجود ألماني في الحجاز. إن هزيمة معركة قناة السويس المهينة ودخول الإيطاليين إلى جانب الحلفاء ـ الأمر الذي حاصر الساحل السوري بشكل فعّال منعه من التواصل مع بقية العالم ـ كانت عواملاً إضافية جعلت جمال يشعر بأنه مُحاصَر. لكن جمال شخص صلب، كان يفترض بأن كل المسلمين، وخصوصاً العرب يجب أن يشاركوه مشاعره الإسلامية[52].

إن الدعم الفاتر لجهود الحرب العثمانية، أو أية علامات تردد أو نقد، سوف تتضخم بشكل كبير من قبل هذه الشخصية، ومن ثم ستوصف بالغدر والخيانة. كما يلاحظ جمال بوضوح في مذكراته أن فرض عقوبة صارمة على النخب والشخصيات البارزة هو إرسال رسالة قوية بأن لا أحد يجب أن يشعر بأمان من غضبه إذا وُجدوا مذنبين بذنب الخيانة[53]. اصّر جمال على أمر الإعدامات بينما كانت حاشيته، فضلاً عن الحكومة في اسطنبول ومستشاريه العسكريين الألمان[54]، يلّحون عليه أن يكون حذراً ومعتدلاً، وهذا يُعدّ مؤشراً على إرادة ثابتة وعنيدة، وليست مؤشراً على حسابات هادئة من قبل حاكم عسكري في زمن الحرب.

كان لعهد جمال الرهيب الأثر المنشود، فقد تمّ تحطيم الحركة القومية في سوريا بشكل جلي، وأصبح قادتها إما مقتولين أو في المنفى، والضباط العرب في سوريا، الذين سيكونون فاعلين في أي ثورة في سوريا، قد فُرقوا إلى جبهات بعيدة.

أما النتائج على فيصل وثورته المحتملة فهي مزعجة للغاية. رأى فيصل أن العديد من أصدقائه والمرتبطين به قد أُعتقلوا، أو تم إجبارهم على الصمت، أو نقلهم بعيداً عن سوريا. قال فيصل متذكراً تلك الأوقات: «خلال هذه الثلاثة أشهر [منذ مغادرته دمشق] قامت السلطات التركية بتفريق عددٍ كبيرٍ من القوميين السوريين والعراقيين؛ البعض منهم شُنقوا؛ والبعض الآخر سُجنوا أو تغربوا بعيداً في الأناضول. أما الفرقة الخامسة والعشرين، التي تتألف من الرجال والضباط العرب، ومن المفترض أن تكون نواة جيش الثورة، وأيضاً ضباط الاحتياط وكل القوميين الشباب فقد تم إرسالهم إلى رومانيا وغاليسيا في إسبانيا. لقد انتهت اللحظة الفاعلة للثورة»[55].

مراسلات الشريف حسين ـ مكماهون

قدمت عودة فيصل من دمشق واسطنبول وتقريره عن الظروف في الإمبراطورية والمناطق السورية، معلوماتٍ وتقييماتٍ حيوية جديدة، ودفعت إلى إعادة فتح القنوات من قبل أبيه مع البريطانيين. وعلى الرغم من أن فيصل كان مقتنعاً الآن بفكرة الثورة إذا فشلت كل الخيارات الأخرى، لكنه ما زال غير جاهز ليوجه انتفاضة فورية. وأوصى والده أن أية انتفاضة يجب أن تؤخَّر حتى تصبح الظروف أكثر ملائمة، عندها إما أن يتم ضرب الأتراك أو أن الحلفاء يقومون

بإنزال على الساحل السوري. وخلال إقامة العائلة في قصرهم الصيفي في الطائف، بعيداً عن أعين المتطفلين من المخبرين، تناقش الأخوة مع أبيهم عن خطط وتوقيت الثورة. أخيراً تم وضع نهج فيصل التحذيري جانباً لصالح دعوة عبد الله القوية للالتزام بالثورة. وتم تقرير في اجتماعات الطائف[56] في تموز (يوليو) 1915 تاريخ ثورة محتملة في تموز (يوليو) 1916.

هذا القرار الذي اتُخذ في الطائف بشأن الثورة تمّ في وقت عندما كانت الإجراءات الصارمة التي اتخذها جمال ضدَّ الوطنيين في سورية لم تتضح بعد. وكان الحجاز وسوريا إلى جانب الثورة. وفي هذه المرحلة لم يظهر إقليم العراق ضمن الخطة للانتفاضة، ولا حتى الأقاليم والمناطق العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية تحت حكم الأمراء والحكام المحليين مثل، ابن سعود في نجد، والإدريسي في عسير، أو الإمام يحيى في اليمن.

أعاد حسين فتح التواصل الرسمي مع البريطانيين في مصر بعد توقفه لعدة أشهر. وفي البداية، لم تؤخذ محتويات ملاحظات حسين على محمل الجد من قبل السلطات البريطانية في القاهرة. وأدلى ستورز في مذكراته بتعليقات لاذعة حول مزاعم الشريف حسين من أجل قيادة العرب، وأثار اعتراضات مألوفة حول الفوضى العربية والرفض المتوقع للحكام العرب الآخرين لمطالب حسين[57]. كان جواب السير هنري مكماهون للشريف حسين، بتاريخ 30 آب (أغسطس) 1915، غير مُلزم بما يتعلق بحدود الدولة العربية المستقلة[58]، ورحّب ببساطة بعروض حسين بالصداقة بين العرب والبريطانيين. كان حسين مستاءً بما يتعلق برسالة مكماهون التي بدت مراوغة وباردة اللهجة، وقال الكثير في ردّه، والذي تم استلامه في القاهرة في 17 تشرين الأول (أكتوبر). كرر حسين لمكماهون أهمية الاتفاق بما يتعلق بحدود الدولة العربية الجديدة، بغض النظر عن النزاعات والخلافات داخل الاراضي العربية[59]. كان الطريق مسدوداً، سواءً مع اصرار حسين على ترسيم حدود الدولة العربية الجديدة كشرط مسبق أساسي للانتفاضة، أو مع استمرار مكماهون بعرض موقف بريطانيا غير الملزم والغامض على معنى حجم وسلطات الدولة أو الدول العربية.

على أية حال، فبالتزامن مع هذه التبادلات الأولية، حصل تطورٌ ذا أهمية قصوى، أثّر في السياسة البريطانية بشكل عميق تجاه قضية الثورة العربية. إذ تجاوز شاب عربي وهو ضابط عثماني، الملازم محمد شريف الفاروقي، من عائلة موصلية معروفة، الخطوط الأمامية لجبهة غاليبولي باتجاه القوات البريطانية[60].

أصرّ الفاروقي، وهو عضو في جمعية العهد السرّية، للبريطانيين بأنه لم يكن هارباً بل حاملاً لمعلومات هامة بما يتعلق بالظروف في الولايات العربية. في القاهرة، التقى الفاروقي عدة مرات بالكولونيل غيلبرت كلايتون رئيس المخابرات العسكرية البريطانية. تحدث الفاروقي عن

وجود شبكة عريضة لدعم الجمعيات السرّية في الأراضي العربية، وأنهم مصممون للحصول على استقلال العرب، ويفضّل أن يكون ذلك من خلال التعاون مع البريطانيين، ومع الألمان إذا اقتضت الضرورة. بدا الفاروقي واسع الاطلاع عن تبادل الرسائل بين الشريف حسين والبريطانيين في القاهرة وكان على دراية بمضمون بروتوكول دمشق. إن مقابلات كلايتون مع الفاروقي أقنعته بأن على السلطات البريطانية أن تتجاوب بشكل مشجّع أكثر مع دعوات الشريف حسين لدولة عربية مرسومة إقليمياً، وإلا فإن فرصة التحريض على ثورة عربية، على رأسها الجمعيات السرّية، ستضيع. إن تقويمات كلايتون لتعجيل الوضع دُعمت بقوة من قبل الجنرال السير جون ماكسويل، قائد الجيش البريطاني في مصر، بالإضافة إلى مكماهون. حيث دعا الجميع بريطانيا إلى إعادة النظر في السياسة المحافظة سابقاً تجاه دولة عربية مستقلة وانخراطاً إيجابياً أكثر مع مطالب حسين[61].

سمح ادوارد غراي، وزير الدولة للشؤون الخارجية، لمكماهون بصياغة خطابٍ للشريف حسين، جسّد فيه تقييمات السياسة الجديدة التي دفعتها إيضاحات الفاروقي والمقابلات التي أجراها[62]. حتى أن ريجنالد ونجيت قال بأن الرسالة الموجهة للشريف حسين يجب أن تُلزم الحكومة البريطانية بالاعتراف ودعم مبادئ الاستقلال العربي ضمن الحدود المحددة باسم الشعب العربي من قبل شريف مكة المكرمة[63]؛ إلا أن مكماهون اختار أن يوسع الحرية التي أعطاها له وزير الخارجية وفي الوقت نفسه أن تكون غير واضحة، وقدّم ملاحظته للشريف حسين في 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1915. وهذه هي الوثيقة الأكثر خداعاً في كامل المراسلات بين مكماهون والشريف حسين، حيث حددت الالتزامات البريطانية بما يتعلق بالحدود لدولة عربية مستقلة. وجاء في الوثيقة:

«إن مناطق مرسين والإسكندرون وأجزاء من سورية الواقعة إلى الغرب من دمشق وحمص وحلب، والتي ليست عربية خالصة، يجب أن تستثنى من ترسيم الحدود المقترح. إننا نقبل بترسيم الحدود، الخاضع لهذا التعديل، دون الإضرار بالمعاهدات الموقعة بيننا وبين بعض المسؤولين العرب. أما بالنسبة للمناطق الواقعة ضمن الحدود المقترحة، تستطيع بريطانيا العظمى التصرف ضمنها بحرية دون إلحاق الأذى بمصالح حليفتها فرنسا، وأنا مخوّل لكي أمنحكم الضمانات التالية باسم حكومة بريطانيا العظمى وأن أجيب عن رسالتكم كما يأتي: فيما عدا التعديلات المنصوص عنها أعلاه، فإن بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف ودعم استقلال العرب في كل المناطق الواقعة ضمن الحدود التي اقترحها الشريف حسين»[64].

كان جواب حسين سريعاً، إذ قَبِل، في رسالة في 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915، على إزالة الاسكندرون ومرسين من الدولة العربية المقترحة، لكنه رفض أي تنازلات (لفرنسا) فيما يتعلق

بالساحل السوري والأجزاء المسيحية من جبل لبنان. وأقرّ أيضاً بأنه يمكن استبعاد أجزاء من العراق تحت الاحتلال البريطاني، لكن لفترة قصيرة فقط يُفترض حتى نهاية نشوب الحرب. استمرت المراسلات بين مكماهون وحسين فيما يتعلق بالمسائل الإقليمية البحتة حتى منتصف كانون الثاني (يناير) 1916، وكانت هناك أسباباً كافية ليعتقد الشريف حسين بأن مطالبه بدولة عربية ـ على نطاق واسع في إطار فهمه لمكماهون أحياناً مشجعة وأحياناً تكون تصريحات غامضة ـ سيتم الوفاء بها إذا أطلق الثورة. وخلال الفترة الأولى من تبادل الملاحظات مع مكماهون أبقى حسين عبد الله إلى جانبه كمستشاره الأساسي. بينما ذهب كُلاً من فيصل وعلي إلى المدينة المنورة لتهدئة أية شكوك تركية بما يتعلق بالاتصالات مع البريطانيين، ولتحضير قوة المتطوعين التي وافق عليها فيصل لمرافقة القوات التركية على جبهة السويس.

عودة فيصل إلى دمشق

استبشر جمال خيراً بوعد فيصل أن يجلب له سرية مكونة من 1500 متطوع حجازي إلى جبهة السويس، وأرسل عدة مذكرات بشأن إيفادهم. شعر فيصل بأنه لن يستطيع البقاء لفترة أطول في المدينة المنورة بدون إثارة شكوك جدية من ناحية جمال: «كنت أستقبل يومياً أكثر الأخبار قلقاً من سوريا بخصوص الناس الذين كان مشكوكاً في علاقتهم معي وكانت تصل البرقيات المستعجلة يومياً من جمال باشا تلحّ على عودتي إلى سوريا بالوعد المشروط من قبل أبي كتعزيز للجيش في سيناء» [65]. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) 1916، وصل فيصل إلى دمشق على رأس سرية قوية مؤلفة من أربعين فارسٍ من خيالته الخاصة والتي ضمّت عدداً من أقاربه. كانت هذه الحراسة المتقدمة لقوة المتطوعين الموعودة. وبإمكانها أن تصبح أيضاً كحرسه الشخصي في حال تصرف جمال ضده، وكالعادة بقي فيصل في منزل البكري، وقدّم له جمال مكتباً في مقره العسكري. تم إيواء سرية فرسان فيصل في مزرعة يملكها البكري في ضواحي دمشق.

لم يمض وقت طويل حتى يكتشف فيصل أن الوضع في سوريا قد تغيّر عمّا كان عليه قبل عدة أشهر. فتدابير جمال الشديدة، الموجّهة ضد كل أولئك الذين كان من الممكن أن يشكلوا العمود الفقري للانتفاضة، (إعدامات، اعتقالات، نفي، وإعادة تعيين) أثبتت فعاليتها في استنزاف حيوية المعسكر القومي. ووفقاً لتقرير معاصر فإن ما يقارب من خمسة آلاف عائلة سورية، العديد منهم من الأعيان، تم ترحيلهم إلى الأناضول[66]. كانت هناك حالة من الهمود تسيطر على سورية، أما حركة الوطنيين، التي بقيت، فكانت تعمل سراً. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأوضاع الاقتصادية في سوريا ولبنان مروعة، والبَلَدان على وشك أن يعانيا من مجاعة رهيبة[67]. فتضافرت

كل هذه العوامل لتهيئة الفرص لانتفاضة ناجحة[68]. صادف وصول فيصل إلى دمشق أيضاً مع أخبار انسحاب القوات الإنكليزية والفرنسية من غاليبولي في كانون الثاني (يناير) عام 1916 والتي قدّمت دفعاً كبيراً للثقة في القيادة في اسطنبول.

لعبت تقويمات فيصل للوضع المتدهور في سوريا دوراً في تعديل موقف حسين في مراسلاته اللاحقة مع مكماهون. فلا يمكن إطلاق ثورة ـ تعتمد بشكل رئيسي على الحجاز ـ بدون الدعم البريطاني. وكتب في رسالة غير مؤرخة، من المحتمل أن تكون في آذار (مارس) 1916، إلى أبيه: «إن الناس في دمشق في مشقّة كبيرة ويأس كنتيجة للظروف الحالية». وقد سقطت للتو كُلاً من أرضروم وبدليس [شرق تركيا] في يد الروس، مع خسارة كبيرة في الجيوش العثمانية». وخشي فيصل من أن الروس قد يتقدمون إلى ديار بكر قريباً من قلب البلاد العربية لسوريا والعراق. وبالتالي فإنّ المناطق العربية ستنفصل عن الأراضي التركية ولا يوجد إمكانات عسكرية للدفاع عنها. وبدون قوات عربية قادرة على الوقوف بوجه الهجوم الروسي، فإن البلاد العربية ستكون مفتوحة للغزاة. فألحّ على والده أن ينظِّم جيشاً عربياً كـ«حاجة قصوى» للدفاع عن قلب الأراضي العربية وبوابة المدينتان المقدستان [مكة المكرمة والمدينة المنورة][69].

من الواضح أن فيصلاً كان مدفوعاً بخوف حقيقي من تداعيات الحرب العثمانية، تحت السياسة المضللة والقيادة السيئة لجمعية الاتحاد والترقي، التي كانت تقود الإمبراطورية والعرب إلى كارثة. وحتى في هذه المرحلة المتأخرة فإن الرغبة للقيام بثورة ضدَّ الأتراك بصرف النظر عن نجاحها المؤكد لا تبدو بأنها خطوة متقدمة. وما زال فيصل يأمل أنه يمكن تجاوزها إذا قام الأتراك بتعديل جذري لسياستهم الحربية ومعاملتهم للعرب، وسمحوا بتقاسم حقيقي للسلطة في الإمبراطورية. وسرعان ما أصبح هذا الخيار، على أية حال، غير مقبول.

في شباط (فبراير) 1916، وصل وزير الحرب أنور باشا إلى سوريا للتحقق من انتشار وتشكيل الجيش الرابع، ووافق على اقتراح جمال أن يزور المدينة المنورة مرافقاً جمال باشا وفيصل: كان هناك شخصيات أخرى في المجموعة بما فيها قادة دينيين من عدد من المدن العربية. تم توسيع الدعوة لتشمل الشريف حسين لينضم إلى المجموعة الزائرة، لكنه رفض، ربما من خوفه من الأسوأ، وبقي في مكة المكرمة. على أية حال، قدّم فيصل، نيابة عن أبيه، لأنور باشا وجمال سيفين مطعّمين كهدايا رمزية لولائه[70].

كان التحضير للزيارة لإظهار مدى الدعم العربي للمجهود الحربي العثماني ولعرض المصداقية الدينية لقيادة جمعية الاتحاد والترقي والتي تم الإصاح عنها على نطاق واسع والترحيب بها وأُعتبرت نجاحاً باهراً لهم. أما أنور، الذي كان غارقاً بالعواطف، فقد انهار باكياً عند قبر النبي محمد (ص)، لكن التوترات الخفية كانت ما تزال قائمة. كما قام فيصل، وأنور، وجمال بتفحص

المتطوعين العرب للقوات الحجازية. حيث سأل أنور: «هل كل هؤلاء المتطوعون لأجل الحرب المقدسة؟» أجاب فيصل: «نعم». فأكمل أنور قائلاً: «مستعدون أن يقاتلوا حتى الموت ضد أعداء المؤمنين؟» فأجاب فيصل: «نعم» تاركاً مفردة «المؤمنين» بعيداً عن جوابه. وخلال العرض همس أحد رجال فيصل في أذنه طالباً موافقته ليطلق النار على أنور وجمال تمهيداً للسيطرة على المدينة المنورة، لكن فيصل لم يكن لديه أي نية. رفض الاقتراح بالقول إن الرجلين كانا ضيوفاً وأن خيانة الضيف أمرٌ مهين للعرب، بغض النظر عن مدى العداء بينهم. وفي الحقيقة أبقى فيصل مراقبة لصيقة على الجنرالين العثمانيين ليتأكد بأن لن يصيبهما أي أذى وعاد معهما إلى دمشق[71].

بينما كان حسين لا يزال يتفاوض مع البريطانيين في القاهرة، لم يغلق الباب تماماً في وجه الأتراك. فماطل في مطالبهم بإعلان الجهاد ضد الحلفاء، وامتنع عن إرسال متطوعيه إلى جبهة السويس. وبعد زيارته إلى المدينة المنورة، على أية حال، أصبح أنور أكثر إصراراً على أن يُظهر حسين دعمه الصريح للمجهود الحربي العثماني. وعند عودته إلى اسطنبول أبرق أنور مطالباً الشريف بإعلان الجهاد وإرسال المتطوعين إلى الجبهة، تم بالفعل تكديس الاسلحة للمتطوعين الحجازيين في المدينة المنورة. كان حسين محرجاً الآن ولم يستطع أن يمضي قُدماً أطول دون إثارة شكوك خطيرة.

في 16 آذار (مارس) أبرق حسين إلى الصدر الأعظم للمرة الأولى، رابطاً دعمه للحرب بسلسة من الإجراءات التي توقّع من الحكومة أن تتخذها لاستعادة الثقة العربية والاطمئنان. كانت المطالب جريئة ونزلت كالصاعقة على سلطات اسطنبول وعلى جمال، الذي جعل لهم مخرجاً: إعلان عفو عن كل السجناء السياسيين؛ منح سوريا والعراق نظاماً سياسياً لا مركزياً؛ التأكيد على إمارة مكة المكرمة لسلالة أسرته وأولاده من بعده، واحترام حقوقهم التقليدية التي منحها لهم السلطان سليم. وإذا تمت تلبية هذه المطالب، كتب حسين: «فإن الأمة العربية ستؤدي واجباتها بدافع الولاء [للإمبراطورية العثمانية]، وسألتزم من ناحيتي بتعبئة القبائل العربية لأجل الجهاد، تحت إمرة أبنائي لميادين المعركة في العراق وفلسطين... وإذا لم تتحقق هذه المطالب، عندها أسألكم إلا تتوقعوا مني أن أشارك بحرب نصحتكم بألا تبدؤوها... فإنه سيكفيني أن أصلي لأجل نصر وعظمة الدولة»[72].

إن جواب الصدر الأعظم وأنور كان رافضاً بإيجاز لمطالب حسين ـ أو ادعاءاته كما رأوها ـ وتضمن تحذيراً مبطناً لإبقاء فيصلاً مع الجيش الرابع حتى نهاية الحرب[73]. في الحال أبرق حسين للوزير الأعظم وأنور رافضاً هذه التهديدات، وأضاف بتحدٍ فيما يتعلق بفيصل: «بما يخص ابني فيصل لم أرسله إليكم وأؤمن أنني سأراه ثانية، فافعلوا ما شئتم بعد ذلك»[74]. أجاب الصدر

الأعظم ببرقية أكثر تصالحية وعرض أن جمال باشا سيناقش أمر السجناء السياسيين مباشرة مع فيصل. أصرّ حسين بجوابه أن المتطوعين الحجازيين لن يغادروا إلى الجبهة بدون أن يكون فيصل على رأسهم. وافق الصدر الأعظم أن يسمح لفيصل بالعودة إلى المدينة المنورة ليرافق المتطوعين إلى دمشق، لكنه سأل أيضاً أن يتم استدعاء علي إلى مكة المكرمة بسبب عدم توافقه مع الحاكم. عندها أبرق حسين: «عند عودة الشريف فيصل بك سيغادر الشريف علي بيك المدينة المنورة»[75].

إطلع جمال باشا بدقة على تبادل الرسائل بين حسين والباب العالي. وفي مذكراته بدت رسائل حسين أكثر تحريضاً وتحدياً للسلطة العثمانية مما حدث بالفعل[76]. فاستدعى فيصلاً إلى اجتماع لمناقشة مضمون هذه البرقيات وطلب من الجنرال علي فؤاد، رئيس أركان الجيش الرابع، ليكون حاضراً ليشهد المناقشات. توسّل فيصل إلى جمال لإبداء الرأفة تجاه السجناء السياسيين. بدأ جمال بالشكوى لفيصل عن سلوك أخيه علي في المدينة المنورة، وخرقه للصلاحيات التي كانت مشروعة للحاكم. وقال بأنه لطالما احترم حقوق وصلاحيات أمير مكة المكرمة، ووقف إلى جانبه ضد المؤامرات، ليس أقله من أقربائه أنفسهم (من المحتمل قبيلة آل زيد في اسطنبول). بعدها سلّم فيصل برقية من أنور، التي من المفترض أن تلخص تبادلات الرسائل بين الشريف حسين والباب العالي. ووفقاً لجمال باشا، أصبح فيصل مضطرباً وتغيّر لونه، وصاح بأسف عميق للبرقية وأكد ولاء أبيه ومقاصده الطيبة[77]. بعد هذه النقاشات مع فيصل قام جمال بمبادرة منه بإرسال برقية إلى حسين رافضاً الصفح عن المتآمرين وإيقاف إثارة مسألة الإمارة بالوراثة في الحجاز في وقت تكون فيه الإمبراطورية بحالة حرب، حيث كان لا بد من حشد جميع الموارد للدفاع عنها. ختم كلامه بتحذير مبطن مؤداه انه، حتى لو أُعطي حسين مطالبه، فإن في حالة النصر، ما الذي «يمنع الحكومة من التعامل معك بأقسى الطرق؟»[78].

استمر فيصل بزيارة جمال باشا بشكل شبه يومي لطلب العفو عن المتهمين، الذين أصدرت المحكمة العسكرية في (عاليه) حكمها عليهم بالفعل. وكانت المحادثات مع جمال الآن تدور بشكل حصري حول هذه المسألة. وحمل فيصل عبئاً إضافياً يتمثل في الاضطرار إلى تقديم مناشدة العديد من كبار الشخصيات الذين دعوه وطلبوا شفاعته مع جمال نيابة عن المتهمين[79]. على الرغم من أن جمال قد قبل دعوة فيصل على الغداء في مزرعة البكري في (القابون) بضواحي دمشق، حيث أصرّ فيصل على التماسه، كان جمال حازماً في تصميمه على إعدام المتهمين. بعد بضعة أيام، في 6 أيار (مايو) 1916، تم إعدامهم.

وصلت أخبار الإعدامات لفيصل بينما كان في مزرعة البكري في (القابون). فصدرت طبعة خاصة لجريدة الشرق الناطقة بلسان سياسات جمال باشا، ذكرت تفاصيل المحاكمة والإعدامات،

وتم توزيعها مجاناً في يوم الإعدام. جلب الساعي الجريدة إلى فيصل بينما كان يتناول الفطور مع مضيفيه. قرأ أحد البكريين الخبر المريع وعمّ الصمت الجميع، يتخلله دعوات صامتة للموتى. بعدها فجأة قفز فيصل واقفاً على قدميه وكأنه مجنون، وانتزع كوفيته [غطاء رأس] من رأسه وألقى بها على الأرض وداس عليها بوحشية مع صيحة: «طاب الموت يا عرب»[80]. حان الوقت لحمل السلاح، لكن على فيصل أولاً أن يخرج من دمشق.

وفي وقت سابق من آذار (مارس)، تلقى جواب حسين لبرقيته، وكرر حسين طلبه أن تمنح الحكومة عفواً لكل السجناء السياسيين. هذا الجواب أثار غضب جمال، فاستدعى فيصلاً وحذره بعبارات غير مؤكدة عن أفعال أبيه وأخيه علي في المدينة المنورة. اشتكى جمال بأنه على الرغم من النية الحسنة التي تبديها أسرته فإن علي قد تدخل بشكل كبير في شؤون المدينة المنورة. وبينما كان العثمانيون يجهزون المتطوعين الحجازيين للحرب على جبهة السويس، أظهر والد فيصل ميولاً انفصالية. فخاطب جمال فيصلاً: «إذا أردت أن نحافظ على صداقتنا عندها عليك أن تطيع قواعد الصداقة، على أية حال، إذا لديكم مقاصداً أخرى فمن الأفضل لكم عندها اللجوء إلى السلاح والثورة، وتصنعوا نهاية لهذه الحفلة التنكرية وسيكون كل منا عندئذ عدواً علنياً للآخر، وسيرفع الأمر إلى الله تعالى [ليقرر]. وإذا ليس لديكم نية شريرة عندها اكتب لأخيك على أن يأتي إلى دمشق حالاً ويوقف تدخله في سلطة الحاكم»[81]. ووفقاً لجمال، قال فيصل له ويده على قلبه: «اعتذاري من سعادتك! كيف تنسبون لنا هذه الاتهامات؟ كيف يمكن لنا أن نكون خونة ونحن من سلالة النبي (ص) ونحن الأكثر ولاءً للخليفة؟ أبي، وأخي، وأنا لسنا خونة للناس أو للحكومة. نحن عبيد لأولئك الذين هم مخلصون وأمينون لسلطاننا المعظم الذي أعطانا بركاته. كُن متأكداً بأنني سأتوسط في النزاع بين بصري باشا [حاكم المدينة المنورة] وأخي، وسأوجه أخي أن يأتي [إلى دمشق] ليقبل يديك [يبايعك]»[82]. كانت تحذيرات جمال مدعومة بإجراءات أكثر قوة، حيث وصلت وحدة مؤلفة من 3500 من القوات العسكرية التركية إلى المدينة المنورة، متجهة ظاهرياً إلى اليمن، ولكن مع إمكانية نشرها لفرض أي إجراءات قد يتخذها الأتراك ضد الشريف حسين وعائلته[83].

إن استراتيجية جمال هي إبقاء كُلاً من فيصل وعلي كرهينتين في دمشق، لكن فيصل قد تشكك بالقدر نفسه وتجهز ليهرب من سوريا، فقد أصبح بقاؤه في سوريا خطيراً جداً الآن، لا سيما أنه كان فقد الأمل بقدوم أن أي دعم عسكري سوري للثورة. انتظر فيصل نتائج حملة التجنيد التي من المحتمل أن ترتفع إلى ما يقرب من مئة ألف قوات جندي إضافي، معظمهم سيكونون، بدون شك، من العرب. لكن تم تشتيت التشكيلات العربية التي نشأت حديثاً بسرعة إلى جبهات أخرى. وكانت سوريا فعلياً تحت سيطرة القوات التركية بشكل رئيس[84]. ذهب فيصل

ليلتقي جمال باشا في منتصف أيار (مايو) 1916، ويعلمه أن أبيه قد أمر علي أن يسير على رأس متطوعين حجازيين إلى جبهة السويس وأنه هو، أي فيصل، يطلب إذن جمال لينضم إلى أخيه في المدينة المنورة، التي سيسيران بعدها إلى القدس مع المتطوعين. فحضوره مع المتطوعين من شأنه أن يرفع معنوياتهم بشكل كبير، وروحهم القتالية أيضاً. كانت المفاجأة حين وافق جمال، رغم شكوكه الكبيرة بنوايا حسين. وعلى أية حال، لا بد أنه شعر بالاطمئنان نظراً لوجود قوات تركية بأعداد كبيرة بالإضافة إلى إيفاد فخري باشا، وهو جنرال عثماني ذو خبرة، إلى المدينة المنورة من شأنه أن يمنحه ما يكفي لسحق أي تمرد، والسير إلى مكة المكرمة، وإلقاء القبض على الشريف حسين وجميع أبنائه في حال حدوث أسوأ التوقعات.

غادر فيصل دمشق إلى المدينة المنورة بخط السكة الحديدية في 16 أيار (مايو) 1916، يرافقه صديقه المقرب نسيب البكري مع ثلاثة آخرين من كبار الشخصيات المفوضة من قبل جمال، تاركاً حرسه الشخصي في القابون كضيوف لعائلة البكري. وكان على الحرس الشخصي أن ينتظروا تعليمات أخرى متى سيغادرون إلى الحجاز. كان فيصل مبتهجاً بهروبه أخيراً من براثن جمال. واستقبلته حشود كبيرة في المدينة المنورة، ثم غادر إلى منزل أخيه. وبعد الظهر، زار فيصل مسجد النبي (ص) في المدينة. اقترب آصف باي، وهو أحد الأعيان الذين رافقوه إلى المدينة المنورة والمستشار القانوني للجيش الرابع، من فيصل في المسجد، وحذّر فيصل والدموع تنهمر من عينيه: «إذا أمكنك الهرب، لا تتردد، لأنهم [جمال وقيادة جمعية الاتحاد والترقي] يكنّون لك الشر. أخبرك ذلك احتراماً لسلفك [النبي محمد (ص) والذي يرقد في ضريحه هذا]»[85].

توصل حسين إلى قرار سريع، فمفاوضاته مع البريطانيين قادته إلى الاعتقاد أنهم قبلوا بشكل عام تصوره لحدود الدولة العربية المستقبلية. كما تقرر أخذ الاستثناءات بعين الاعتبار بشكل مؤقت بسبب مقتضيات الحرب، وكان مدى سيطرة الفرنسيين ونفوذهم في الساحل السوري الشمالي من جملة هذه الاستثناءات. وقد عبّر حسين في رسالته إلى مكماهون في 18 شباط (فبراير) 1916 عن سعادته لتأييد الأخير قيام تحالف قوي بين بريطانيا والدولة العربية المستقبلية، حيث افترض الشريف، أو رغب في الافتراض، أنّ جميع القضايا الحساسة ـ التي يمكن لها إعاقة انتفاضة عربية يدعمها البريطانيون ـ قد تمت تسويتها لتبقى فقط التفاصيل بانتظار إيجاد حلول لها لاحقاً. وبحلول منتصف شهر أيار (مايو) 1916، تمحورت المراسلات مع البريطانيين بشكل رئيسي بالإمدادات والدعم اللوجستي والمادي للقيام بثورة محتملة، كما تزايدت باضطراد، في الوقت نفسه، لهجة التهديد في الرسائل الصادرة عن مقر قيادة جمال وعن القيادة العثمانية أيضاً[86].

كان حسين شديد الحساسية للأخطار التي واجهت أبنائه، فيصل وعلي، وحشد الأتراك قوة كافية في الحجاز للإطاحة به إذا اقتضت الضرورة. إن تدفق المراسلات مع الباب العالي ومع جمال، وتغيير القوات التركية، كل ذلك يشير إلى اتخاذ إجراء وشيك ضده. لكنه بالنسبة لرجل محافظ ومتدين بشدة لم تكن القطيعة الحاسمة مع الإمبراطورية العثمانية مهمة يمكن خوضها بسهولة. ومع ذلك، اعتقد حسين أنه استنفذ جميع الخيارات مع الدولة التي تقودها جمعية الاتحاد والترقي، وعليه أن يتصرف من أجل خاطر أسرته، وإكراماً لسلالته، وللحجاز، وللقضية التي اعتنقها مؤخراً ـ والتي هي مُلك الأمة العربية ـ أعلم فيصل بشيفرة سرّية بقراره بإطلاق الثورة في أوائل حزيران (يونيو) 1916. لكن فيصل توسل إلى والده برسالة طويلة ليؤجل الثورة حتى آب (أغسطس) على الأقل من عام 1916. لأن الحصاد سيكون بحلول ذلك الوقت وستكون القبائل مجهزة جيداً للفترة القادمة من المواجهة والقتال. قال حسين في جوابه بأنه على فيصل أن يسرع بالتحضير للثورة لأن الوقت من ذهب، ولم يكن هناك متسع من الوقت للتأخير.

دعا فيصل مندوبي جمال الذين سافروا معه إلى المدينة المنورة، وأعلمهم أنه سيبقى في المدينة مع أخيه للقيام ببعض الأمور الملحة. حيث تم تعليق رحيل المتطوعين، لأن وسيلة النقل الخاصة بهم لم يتم تحديدها، سواءً كانت بالقطار إلى دمشق أم مباشرةً إلى الجبهة، وحالما تحُلّ هذه المسألة سيغادر فيصل إلى دمشق. وفي تلك الأثناء، لم تكن هناك حاجة للبقاء في المدينة المنورة، وأوعز إلى المتطوعين أن يعودوا إلى دمشق. ومن بين الذين سألهم فيصل أن يغادروا كان صديقه نسيب، ربما لتبديد أية شكوك بالمؤامرة. اتفق فيصل مع نسيب أنه حالما يتلقى برقية مكتوب فيها: «أرسلوا الخيول البُنيّة» ستكون الإشارة أن الثورة وشيكة. عندما وصل نسيب إلى دمشق رتّب لعائلته الرحيل حالاً إلى مكة المكرمة، وبعد ثلاثة أيام، قرب نهاية أيار (مايو) وصلت البرقية المشفرة. فذهب نسيب إلى مزرعة العائلة في القابون حيث سرية الحرس الشخصي لفيصل التي كانت لا تزال تنتظره، وغادروا سوية في الليل إلى الحجاز عن طريق صحراء العراق[*]. أرسل جمال، الذي كان في بيروت عندما حصلت هذه الأحداث، سرية لمطاردة المجموعة، لكنه كان متأخراً جداً، حيث فقد أثرهم في البرّية[87].

في 30 أيار (مايو) ذهب فيصل وعلي ليروا القادم الجديد فخري باشا، وهو الآن قائد القوات العثمانية في المدينة المنورة. كان فخري رجلاً متديناً بشدة وآمن إيماناً راسخاً بقدسية القضية

(*) من ذلك نلحظ مقدار المجازفة التي احتملها رفاق فيصل في عشية الثورة، فالطريق الذي كان من المفترض سلوكه من دمشق إلى الحجاز هو طريق الحجّ الشامي (دمشق ـ معان ـ تبوك ـ المدينة المنورة)، لكنهم أرادوا أن يظللوا مطارديهم، فاتجهوا نحو العراق وسلكوا طريق البوادي (وليس الفرات) المحفوف بالمخاطر والشحيح بالكلأ والمياه. (المُراجع).

العثمانية، لكنه كان أيضاً تصالحياً في موقفه من العرب[88]. أظهر فيصل وعلي محتويات برقية أنور في 12 أيار (مايو) لوالدهم، وأكّدا بأنهم لم يعد في مقدورهم الاستمرار بالتعاون مع السلطات العثمانية تحت هكذا تهديدات. وفقاً لذلك، كان على علي أن يغادر المدينة المنورة ويعود إلى مكة. أما فيصل فسيستمر بالبقاء في المدينة، على أية حال، ليجهز رحيل المتطوعين إلى جبهة السويس. اعتذر فخري للأخوين مؤكداً لهما أنه تمت صياغة البرقية بعجلة، ومعبراً عن أمنيته بأن يتم حل القضايا العالقة بين الباب العالي والشريف حسين، وبدا أن التوترات قد تم نزع فتيلها. وفي الوقت نفسه، احتفى الأخوة بفخري باشا في معسكر المتطوعين في منطقة سيدنا حمزة (ع)[89]. وعلى بُعد عشرات الأميال خارج مكة المكرمة، عاين فخري باشا بنفسه التحضيرات لمغادرة المتطوعين وروحهم القتالية العالية[90].

غادر علي المدينة في 1 حزيران 1916 باتجاه مخيم المتطوعين خارج المدينة. بعد أن ودّع الحاكم بصري باشا وفخري باشا، موضحاً لهما أنه سيقضي الليلة في المخيم ثم يغادر إلى مكّة. رافق فيصل أخاه إلى المخيم، حيث يفترض أن يودعه قبل أن يغادر. وفي صباح 2 حزيران (يونيو) أرسل فيصل وعلي عدداً من الرسائل إلى فخري باشا، حيث حملها ضابط تركي عُيّن كمساعد لفيصل. كانت الرسالة الأولى موجهة لفخري باشا من فيصل وتنصّ: «بما أن أعضاء الحكومة لم يفكروا إلا بما هو أسوأ تجاهنا، وبما أن هذا [الموقف] قد أثّر على قدرتنا لنعمل مع الحكومة، عدنا إلى مكة المكرمة وفقاً لتعليمات أبينا بما أننا لا يمكننا البقاء هنا»[91]. أُرسلت الرسالتان الأخريان من الشريف حسين إلى جمال باشا والصدر الأعظم. أما فحواهما فهو إعلام حسين الحكومة بأنه لن يشارك في حملة السويس الثانية حتى تتحقق مطالبه، والتي قُررت في برقياته لأنور باشا منذ شهرين[92]. بعدها تلقى جمال رسالة مشفرة من فيصل والتي جاء فيها: «تلقيت أمراً بإيقاف نقل المتطوعين إلى سوريا لأسباب آمل أن أشرحها لك شخصياً عندما أقابلك فيما بعد. لقد حزنت كثيراً للظروف الجديدة؛ وأنا أتألم لأنني لن أكون قادراً أن أراك ثانية حتى تُحل الأمور مرة أخرى [بيّننا] بشكل مرضٍ. لي الشرف أن أُعلمك أنني مغادر إلى مكة المكرمة لأُمضي بعض الوقت هناك»[93]. كانت الرسالة تتصف بالتملص والغموض ولم تحمل أي إيحاء بأن الأعمال العسكرية كانت وشيكة.

غادر علي وفيصل المعسكر بسرعة وتركا حمزة في مساء 1 حزيران (يونيو)، مع حرسهم الشخصيين ومئتي محارب. ذهبا إلى نقطة على طريق مكة المكرمة ـ المدينة المنورة وعادوا أدراجهم إلى منطقة (أبيار علي) قرب المدينة المنورة في 2 حزيران (يونيو). ومن هناك أرسلوا نداءات للقبائل، وبغضون أسبوع اجتمع تقريباً ستة آلاف مقاتل في قاعدتهم الجديدة. وانتظر الأخوة مدة أسبوع جواباً لرسائل والدهم للأتراك، لكن لم يكن هناك رد. وفي 9 حزيران (يونيو)

قامت القوات العربية تحت إمرتهم بقطع سكة الحديد بالقرب من المدينة المنورة. فجاءت قوة من حامية المدينة المنورة يقودها فخري باشا بنفسه لصد المهاجمين عن محيط نقطة السكة الحديدية قرب المدينة المنورة. احتدمت المعركة لأكثر من يوم وكانت نتيجتها انسحاب العرب إلى منطقة بير الماشي بسبب نفاد ذخيرتهم. أُعطي أمر الانسحاب الثاني إلى منطقة الغدير، حيث افترق الأخوان. انسحب فيصل مع قواته إلى ميناء ينبع الصغير على البحر الأحمر. وبقي علي في الغدير مستعداً للمعركة ومنتظراً الانطلاقة الرسمية للثورة. وفي 10 حزيران (يونيو)، هاجمت القوات العربية الأتراك في كل مدن الحجاز، وأعلن الشريف حسين رسمياً بداية الثورة العربية الكبرى في الوقت نفسه في مكة المكرمة.

هوامش الفصل الرابع

1 ـ أنظر مثلاً: أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 14. ويمكن الإشارة إلى أن النشاطات البرلمانية هذه تعد بداية عمل فيصل السياسي بين عامي 1913 و1914.

2 ـ أنظر مثلاً: إليازر تاوبر، مرجع سابق، ص 115. وهذا أيضاً اقتبسه حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 124.

3 ـ حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 125.

4 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 77.

5 ـ الوثائق البريطانية عن أصول الحرب، المحررون غ. ب. غوش وهارولد تمبرلي، المجلد 10، الجزء2، مكتب معلومات القطاع العام، لندن، 1938، ص 827.

6 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 87 ـ 94.

7 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 74.

8 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 41.

9 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 100 ـ 102.

10 ـ أنظر: حافظ وهبة، مرجع سابق، ص ص 57 ـ 58 واقتبسها سي. إرنست داون، مرجع سابق، ص 14.

11 ـ تعود علاقة الصداقة بين الأسرتين إلى عام 1909، عندما استضافت العائلة عبد الله [بن حسين] في دمشق بعد الحج. ثم استخدم حسين نفوذه مع السلطان لإصدار مرسومٍ يسمح لشباب عائلة البكري أن يخدموا فترات الخدمة الإلزامية العسكرية في مكة المكرمة. كان فوزي أكبر أبناء عطا البكري، والذي سينضم لاحقاً إلى فيصل في الثورة العربية الكبرى. سليمان موسى، مرجع سابق، رقم 127.

12 ـ أنظر: أولريك ترمبنار، «دخول تركيا إلى الحرب العالمية الأولى: تقييم المسؤوليات»، مجلة التاريخ الحديث، المجلد 34، رقم 4 (كانون الأول 1962)، ص ص 369 ـ 380.

13 ـ ليمان فون ساندرز، خمسة سنين في تركيا، معهد الولايات المتحدة البحري، أنابوليس، 1927، ص 206. ربما تذبذب وصف فون ساندرز لمشاعر فيصل المعادية للأتراك من خلال الأحداث اللاحقة وظروف الثورة العربية الكبرى.

14 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 103 ـ 104.

15 ـ تم تعميم منشور إعلان الجهاد نفسه على نطاق واسع في الإمبراطورية، لكن قوى الحلفاء

منعت توزيعه في مناطقها. وعلى أية حال، كانت هناك مخاوفاً حقيقية من قوى الحلفاء بأن السكان المسلمين سوف يستجيبون لدعوة الجهاد. وفي الحقيقة كان هناك عدداً قليلاً من الانشقاقات في جيوش الحلفاء باتجاه العثمانيين.

16 ـ ذكر جمال باشا في مذكراته بأن الحملة احتاجت أحد عشر ألف جمل كحيوانات حمّالة، لنقل إمدادات الماء عبر صحراء سيناء. جمال باشا، مذكرات جمال باشا (السفّاح)، ترجمة: علي أحمد شكري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004، ص ص 182 ـ 183.

17 ـ المرجع نفسه، ص 185.

18 ـ المرجع نفسه، ص ص 186 ـ 187.

19 ـ إن مصداقية هذه الوثائق كانت موضوع تساؤل من جانب بعض المؤرخين) على سبيل المثال، تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 810، الذي قال عن الحادثة أنها «قصة»، وحتى أولئك الذين لم يقبلوا بها فإنهم ميالون لاستخدامها. أنظر الكيالي، مرجع سابق، ص 127 ـ 128. إن التفاصيل التي قدمها أمين السعيد في مذكراته والمصداقية التي أُعطيت لها من قبل فيصل من خلال مقابلاته مع ايرسكين تشكل دليلاً واضحا بما في الكفاية على مصداقيتها. كذلك قبل(دون) بصحتها. أنظر دون، مرجع سابق، ص. 27 ـ 28. إن الوثائق الفعلية قد دمَّرت أو فقدت بعد سقوط م كة بيد ابن سعود عام 1925.

20 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، ص ص 105 ـ 106. يتكلّم سعيد عن فيصل «بكونه معروفاً بميوله المؤيدة لتركيا ورغبته في الحفاظ على حُسن نيتهم».

21 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 40.

22 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، ص 106.

23 ـ رونالد ستورز، التوجهات، بوتنام، نيويورك، 1937، ص ص 165 ـ 166.

24 ـ إيلي كيدوري، في المتاهة الأنجلو عربية: مراسلات حسين مكماهون وتفسيراتها 1914 ـ 1939، مطبعة جامعة كامبريدج، ص ص 21 ـ 22.

25 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 40 ـ 42.

26 ـ أنظر: أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، الجزء 1، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص ص 45 ـ 46.

27 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 152.

28 ـ فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، مطبعة الترجي، عمّان، 1956، ص ص 202 ـ 203.

29 ـ دور ياسين في الكشف عن تمثيليته بقي أمراً محيراً، فقد بقي مخلصاً للجهود العسكرية العثمانية حتى نهاية الحرب تقريباً، لكنه بالرغم من ذلك انضم إلى «تركيا الفتاة». أنظر: سامي عبد الحافظ القيسي، ياسين الهاشمي وأثره في تاريخ العراق المعاصر 1922 ـ 1936، جزء 1. مطبعة حداد، البصرة، 1975، ص ص 43 ـ 45. تجعل فيب آن مار من ياسين داعماً للإمبراطورية العثمانية ومؤيداً جداً للألمان في ميوله. أنظر: فيبي آن مار، «ياسين الهاشمي: صعود وسقوط قومي (دراسة في القيادة القومية للعراق، 1920 ـ 1936)»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة هارفارد، ماساتشوستس، 1966، ص 70.

30 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص ص 152 ـ 153؛ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 29 ـ 129؛ أحمد قدري، مرجع سابق، ص ص 40 ـ 41. يبدو أن أمين سعيد في مذكراته يتغاضى عن زيارة فيصل الأولى إلى دمشق في عام 1915.

31 ـ كان فعلياً في 26 آذار 1915.

32 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 42.

33 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 250.

34 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 42.

35 ـ تمت ترقية وهيب في الحقيقة ليرأس الجيش العثماني الثاني المتمركز في اسطنبول.

36 ـ وفقاً لإفادة لورنس في كانون الثاني 1917، كان فيصل لا يزال يميل إلى الأتراك بعد زيارته إلى اسطنبول، معتقداً بتوقع الضباط الأتراك لنصر ألماني وشيك على الجبهة الغربية. اعتقد فيصل، وفقاً للورنس، بأن الرأي العام في سوريا لم يكن على استعداد بعد لقبوله قطيعة مع الإمبراطورية العثمانية. وهذا ما جعله ينبّه أباه. أنظر: EO 6/686 الجزء 2، 8 كانون الثاني، 1917. مقتبسة من قبل سليمان موسى، مرجع سابق، ص 134. ويبدو أن هذه حجة قُدّمت مع إدراك متأخر بعد النصر العثماني في غاليبولي. وبدت الأمور مختلفة تماماً في نيسان من عام 1915، ومن غير المحتمل أن يقوم الضباط الأتراك بمثل هذا التنبؤ، نظراً لوجود قوة للحلفاء على بعد 100 ميل من العاصمة.

37 ـ أنظر: أمين سعيد، مرجع سابق، مجلد 1، ص 107.

38 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 250. يخلط جمال تواريخ خطاب فيصل أمام ضباط وأركان الجيش الرابع، ويجعلها متزامنة مع تواصل حسين الأول مع المندوب السامي في مصر في أيلول من عام 1915. قد لا يكون هذا هو الحال. وأصبح هذا التأريخ غير الصحيح مقولة سائدة بين منتقدي الثورة العربية، وتم استخدامه للاستدلال على شخصية فيصل المشكوك

فيها والمزدوجة. إن عدداً من المؤرخين مثل إيلي كيدوري بنوا حججهم على هذا التاريخ غير الصحيح. وعلى سبيل المثال فإن زيارة فيصل الثانية إلى دمشق سبقت إعدام الوطنيين العرب «المتآمرين» وملاحقة الجمعيات السرية. وبهذا الشكل فإن اجتماعاته معهم كانت مع مجموعات لاتزال قوة أساسية فعالة وبإمكانها القيام بثورة بدون دعم أجنبي كبير. وبذلك فإن الادعاء أن فيصل كان يتعامل مع عناصر لا تمثل الرأي العربي خاطئ بصورة كبيرة. إذا وضعنا زيارة فيصل في أيار ـ حزيران 1915، بدلاً من التاريخ الخاطئ، أيلول (سبتمبر) 1915، نجد أن الوضع قد تغير بصورة كبيرة بعد تنفيذ الإعدامات لما يسمى المتآمرين في آب 1915.

39 ـ «قانون الحصانة القضائية» وهو مصطلح يُطلق على الامتيازات القانونية والتجارية المعطاة للأوربيين الذين كانوا مقيمين في الإمبراطورية العثمانية. بالمضمون، لم يكونوا خاضعين للنظام القضائي العثماني، ولا يمكن محاكمتهم إلا في محكمة خاصة، يشرف عليها الممثلون القنصليون لبلدهم الأصلي.

40 ـ تم رفض البروتوكول من قبل بعض المؤرخين، لكونه غير ممثل للرأي العام العربي، ويبدو كعمل جماعة صغيرة من الضباط والسياسيين العرب الطموحين، مثلاً، يدعو ديفيد فرومكين البروتوكول بأنه عمل حفنة من المتآمرين، تم اكتشاف مؤامراتهم من قبل الأتراك، ويسيء الاقتباس من عمل داون لإثبات قضيته (ديفيد فرومكين، سلام لإنهاء كل السلام، كتب آفون، نيويورك، 1990، ص 175) مرة أخرى، فإن قضية التأريخ للمقابلات بين فيصل والقوميين في سوريا أساسية لفهم أمثل لأحداث ذلك الزمن.

41 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 43.

42 ـ أمين السعيد، مرجع سابق، المجلد 1، ص ص 108 ـ 109؛ قدري، مرجع سابق، المجلد 1، ص ص 46 ـ 47؛ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 131 ـ 133.

43 ـ المرجع نفسه، ص 109.

44 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 43.

45 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص ص 250 ـ 251.

46 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 44.

47 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 178.

48 ـ المرجع نفسه، ص ص 232 ـ 233.

49 ـ حسن كيّالي، مرجع سابق، ص ص 130 ـ 131.

50 ـ خالدة أديب أديوار، مذكرات خالدة أديب (الطبعة الأولى 1926)، أُعيد طباعتها من قبل دار جورجياس للنشر، نيوجرسي، 2004، ص ص 403 ـ 404. وهناك شاهد عيان آخر، الدكتور رائف أبي العلّام أيضاً شاهد هذه المشاهد المريعة. أنظر: نيكولاس. ز. أجاي جونيور، المكائد السياسية والقمع في لبنان أثناء الحرب العالمية، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 5، رقم 2 (نيسان 1974)، ص 155.

51 ـ علي فؤاد أردين، كيف غزونا مصر، مقتبسة في الحاشية، مكتوبة من قبل المحرر علي أحمد شكري لذكريات جمال باشا، مرجع سابق، ص ص 286 ـ 288. كان علي فؤاد أحد الضباط القياديين في جبهة السويس الفاشلة.

52 ـ تصور جمال إن الحملة الأولى لقناة السويس هي مثال للوحدة الإسلامية الشاملة. كانت القوات المهاجمة تتكون من وحدات كردية، وشركسية، وليبية، وبلغارية مسلمة، بالإضافة إلى متطوعين دروز. توحدت هذه القوات فيما يدعى « الجيش الإسلامي لإنقاذ مصر «. أنظر: حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 128.

53 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص ص 249 ـ 250.

54 ـ اشتكى ليمان فون ساندرز إلى رؤسائه عن سياسة جمال بالقول: « تمنع قسوة جمال باشا العرب السوريين من خدمتهم للقضية التركية؛ ليمان فون ساندرز، مرجع سابق، ص 140.

55 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص ص 44 ـ 45.

56 ـ سي. إرنست داون، مرجع سابق، ص ص 30 ـ 31؛ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد 1، ص 110.

57 ـ رونالد ستورس، مرجع سابق، ص ص 166 ـ 169.

58 ـ ربما كان هذا من تأليف ستورز. أنظر: إيلي كيدوري، مرجع سابق، ص 70.

59 ـ من الواضح أن مطالب حسين بخصوص حدود الدولة العربية لم تكن مجرد خطة تكتيكية؛ إذ اعتقد بصدق أن المطالب التي عبّر عنها يشاركها جميع العرب أصحاب التفكير الصحيح، وكررها بخطاب منفصل كتبه للحاكم العام للسودان السير ريجنالد وينغيت. وزارة الخارجية 882/12. أنظر: أيضاً سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 210 ـ 211.

60 ـ إيلي كيدوري، المتاهة الأنجلو عربية، مرجع سابق، ص 75.

61 ـ هذا وصف مركّز للغاية لخلفية قضية فاروقي، والتبادل المحموم للمذكرات بين مختلف الممثلين في هذه الدراما في لندن، القاهرة، دلهي، الخرطوم. شملت الأبطال، على سبيل المثال لا الحصر في القاهرة: غيلبرت كلايتون، هنري مكماهون، جون ماكسويل؛ وفي

لندن: هربرت كيتشنر، إدوارد غراي، أوستن تشامبرلين (رئيس مكتب الهند)، آرثر هيرتزل؛ في دلهي تشارلز هاردينج (نائب الملك)؛ في الخرطوم: ريجنالد وينغيت، سيريل ويلسون. وحتى الجنرال نيكسون، قائد القوات البريطانية في بلاد ما بين الرافدين، فقد ادعى بمضمون ذلك على مستقبل المصالح البريطانية في جنوب العراق.

62 ـ وزارة الخارجية 6237/371، ص 18 ووزارة الخارجية 461/141، اقتبسها سليمان موسى، مرجع سابق، ص 220؛ إيلي كيدوري، مرجع سابق، ص 94.

63 ـ إيلي كيدوري، مرجع سابق، ص 95.

64 ـ طُبعت كامل المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون من قبل الحكومة البريطانية في عام 1939: مكتب معلومات القطاع العام المراسلات بين السير هنري مكماهون والشريف حسين شريف مكة المكرمة، الأمر، 5957، 1939.

65 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 45.

66 ـ الولايات المتحدة 867، 283/4016. فيليب إلى وزير الخارجية (اسطنبول [عبر كوبنهاغ]، 21 أيار 1916). اقتبسها حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 131.

وقد تضاءل حجم عمليات الترحيل هذه مقارنة بالأرمن من شرقي الأناضول في الوقت نفسه، إذ نجح بعضهم في الوصول في النهاية إلى سوريا. فمصير الأرمن يمكن أن يحل بالسوريين إذا كان لا بد أن تندلع الانتفاضة العامة ضد الأتراك، وسيترك ذلك تأثير عميق هادئ على السوريين.

67 ـ سببت المجاعة في سوريا ولبنان موت ما يقارب عُشر السكان، بسبب التضور جوعاً والأمراض. أنظر: حسن كيّالي، مرجع سابق، ص 134؛ ميرزمير، نشوء لبنان الحديث، مطبعة جامعة كورنيل، إثاكا، 1988، ص 36.

68 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 45.

69 ـ تمت كتابة الرسالة على ورق خفيف الوزن يمكن أن توضع ملفوفة في علبة صغيرة. تاريخها بتاريخ سقوط أرضروم نفسه في شباط 1916 وبدليس في بداية آذار 1916. أنظر: سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 191 ـ 192.

70 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد 1، ص 110.

71 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص ص 36 ـ 37؛ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 191.

72 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد 1، ص ص 110 ـ 111.

73 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد1، ص 111؛ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص 112.

74 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 195.

75 ـ المرجع نفسه، ص 196.

76 ـ تسلّم جمال باشا تهديداً من الشريف حسين. «...إذا أردتني فعلاً أن أبقى هادئا عليك أن تعترف

باستقلالي في كل الحجاز...». جمال باشا، مرجع سابق، ص 252.

77 ـ المرجع نفسه، ص ص 253 ـ 254.

78 ـ المرجع نفسه، ص 254.

79 ـ المرجع نفسه، ص 255.

80 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص ص 190 ـ 191. يُقدّم جمال باشا نسخة أخرى، ويزوره فيصل بعد بضع ساعات من الإعدامات شنقاً ويرحب بإعدام الخونة. هذا خطأ، بسبب تواجد فيصل في مزرعة آل البكري، حيث شهد على ذلك عشرات الأشخاص. جمال باشا، مرجع سابق، ص 258.

81 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 259.

82 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 260. طلب جمال من الجنرال علي فؤاد حضور ذلك الاجتماع الذي يجب أن يعزز ذاكرة الأحداث. ويدعي جمال أن فيصل ذهب بعد ذلك إلى منزل الجنرال فؤاد حيث بكى بمرارة، وكان خائفا من أن جمال ينوي أن يشنق أخاه علي.

83 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد1، ص 115.

84 ـ المرجع نفسه، ص 114.

85 ـ المرجع نفسه، ص 115؛ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 194.

86 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد1، ص ص 116 ـ 117؛ سي. إرنست داون، مرجع سابق، ص 37.

87 ـ المرجع نفسه، ص 116.

88 ـ أنظر: إيلي كيدوري، «استسلام المينة المنورة، كانون الثاني 1919»، دراسات الشرق الأوسط، المجلد 13، رقم 1 (كانون الثاني، 1977)، ص 133.

89 ـ هذا موقع معركة أُحد الشهيرة سنة 625 للهجرة، حيث استشهد عم النبي ص، حمزة (ع)، «سيدنا، حمزة (ع)».

90 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص 263.

91 ـ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد1، ص ص116 ـ 117. يؤكد جمال باشا في مذكراته أن الرسالة إلى فخري باشا كانت من علي وليس من فيصل، ومحتواها كان مختلفاً (جمال باشا، مرجع سابق، ص 263). رواية سعيد تبدو أكثر صدقاً، لأنها مدعومة بثلاث روايات مختلفة عن الحادثة.

92 ـ جمال باشا، مرجع سابق، ص ص 263 ـ 264.

93 ـ المرجع نفسه، ص 265.

الفصل الخامس: الثورة العربية الأولى

تعزيز الثورة

إن قرار إطلاق الثورة ضد السلطة العثمانية قد تم اتخاذه من قِبل رجل واحد وهو الشريف حسين، وبالنسبة إلى فيصل فقد كان في حالة من تضارب بالمشاعر والحسابات ولا خيار أمامه سوى القبول بحكم أبيه، بخلاف عبد الله الذي كان في بعض الأحيان متلهف وبشكل متهور في حماسه لتحدي العثمانيين. كان فيصل أكثر أناةً ومدرك بشكل أكبر للعواقب الوخيمة التي قد تُصاحب مثل هذا المشروع. كانت الأحداث تجري وبسرعة كبيرة ومثل هذا التفكير كان شبه مستحيل، كما أن هوامش التأخير والمماطلة كانت تتقلص بسرعة، وذلك بسبب الضغوط المتضاربة من قِبل كل الأطراف لصالح الالتزام والعمل: من البريطانيين، العثمانيين، ومن القوميات العربية، فضلاً عن المقتضيات العسكرية ونتائج المعارك والحملات. لم يعد التقاعس عن العمل، حتى أثناء انتظار التوضيح من البريطانيين وتحسين الشروط معهم، خياراً متاحاً، كما أن المخاطرة باكتشاف المراسلات والاتصالات السرية مع القاهرة تتفاقم يومياً، بينما شدد العثمانيون من الضغوط نحو إعلان الشريف بوضوح عن تحمسه للمجهود الحربي.

لم تكن المراسلات المتزامنة بين مكة المكرمة والباب العالي مجرّد حيل قصدها صرف الانتباه عن تورط الشريف حسين المتزايد مع البريطانيين، بل كان لها ظروفها الخاصة، كما لم تكن مجرد خيار بديل إذا ما حدث وتم هجر المفاوضات مع البريطانيين. ولربما كان الشريف حسين ليقرر أن الانتفاضة لم تعد ضرورية لتحقيق أهدافه فيما لو أقرّ أنور، أو في حال اعترافه على الأقل، بجدية مطالب الشريف وبالقلق والمخاوف التي تحملها. لقد كان البقاء في إطار علاقة عمرها قرون أفضل بكثير في تلك الفترة من القفز نحو المجهول في تحالفٍ مع البريطانيين لم يسبق اختباره، زد على ذلك ارتباط البريطانيين في تحالف مع الفرنسيين والذين كانوا مقبولين بدرجة ما. لكن أسئلة أخرى دارت في ذهن الشريف حسين وأبنائه: ما مصير الحجاز والولايات العربية الأخرى في حال استمرار ولائهم للإمبراطورية وانتصار دول الوفاق في الحرب؟ ألن يقعوا بالتأكيد تحت السيطرة الأجنبية، أو الاحتلال، أو التقسيم كأرض معادية؟ وكيف سيتعامل ثلاثي

الانتصار أنور، طلعت، وجمال مع أمير مكة العنيد، وذلك في حال تمكنت السلطنة العثمانية من بسط سيادتها أو من النجاة من تقسيم أراضيها؟

عند سن الثالثة والثلاثين تم دفع فيصل إلى طريق بطولة الدراما المطلقة، والأحداث الحافلة والتي تمتلك بعضٍ من أوجه التشابه في العصر الحديث. إلا أنه لم يكن مهيأً للتجارب والاختبارات التي سيمر بها. لم يسبق لفيصل أن تواجه مع جيش حديث من قبل، كانت صداماته السابقة مع قبائل البدو المتمردين وقوات الإدريسي والتي كانت مختلفة تماماً عن مواجهة جيش حديث مجهّز بأفضل التجهيزات. لقد تم صقل مهاراته السياسية في سنّ مبكرة بين قبائل الجزيرة العربية، ومع البرلمانيين في المجلس العثماني، مع المسؤولين العثمانيين الماكرين والمشبوهين، ومع القوميين البارزين والوجهاء ـ لكنهم كانوا جميعاً ضمن حدود العالم الذي يفهمه. بالإضافة إلى أن احتكاكه مع الغرب والأساليب الغربية والناس كانت قليلة في أحسن الأحوال، واقتصرت على بعض الدبلوماسيين الأجانب والضباط الألمان الذين كان قد قابلهم في اسطنبول. أما معلوماته عن الشؤون الدولية فهي كما يراها ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية في مراحلها المتأخرة وتراجعها الكارثي الآيل للسقوط، واهتمامه الجديد بالعرب والقضية العربية لا بُدّ أن يمتزج باهتمامات تساوي الأخطار في حال ابتعاده عن العثمانيين والوقوع في قبضة القوى الأجنبية. لقد كان خوفه مبالغاً فيه، ورغم أنه قد يكون كذلك، فإن الانتصارات الروسية ضد الدولة العثمانية التي سوف تفتح الطريق لاحتلال الأراضي العربية كانت ملازمة لهذا القلق الدائم. إن من شأن هذا الخوف أن يتسرب وحتى أن ينفجر مخلفاً آثاره على أفعاله في المستقبل كلما بدت قضية الحقوق القومية العربية والحريات مهددة أو مقيدة من قِبل القوى الإمبريالية.

في الواقع لقد كان فيصل مدركاً لحدود القوة لدى أمير مكة المكرمة وحالة اللاتوازن القائم بين الحجاز والدولة العثمانية ولاحقاً بين الدول العربية وبريطانيا وفرنسا. أدى هذا إلى توخي الحذر الصحي، لكن لم يعيقه من اتخاذ قراراته، وذلك عندما شعر بوجود متسع للعمل.

وفي تلك الأيام من بدايات حزيران (يونيو) 1916، وبكل الأحوال، فإن فيصل لم ينجرف إلى نشوة الثوريين للشروع بمغامرة مصيرية، فقد كان مضطر أكثر، وبدافع حتمية العمل، عندما أُغلقت كل السبل البديلة الأخرى. كما إن التلميحات لبعض التسويات النهائية قد تحاشت الحاجة لإعلان الحرب على العثمانيين، وكانت العنصر الواضح في تبادله الأخير مع فخري باشا وجمال باشا. لم يكن الموقف الذي سيتخذه بوصفه متمرداً متحدّياً عندما يلقي القفاز على مضطهديه، بل كان الاعتراف بأن شراكة طويلة الأمد كانت في مخاضها الأخير، لكن مع وجود أمل خافت باقٍ في أن العلاقة لا يزال بالإمكان انقاذها أو أن تُسترد.

رفع مستوى الثورة

إن الثورة التي أُطلقت قبل أوانها في المدينة المنورة كانت بالكاد قد بدأت ببعض التحضيرات العسكرية، بالإضافة إلى مفارز قبلية سيئة التدريب، ومعدات بائسة، فضلاً عن مصادر تمويل صغيرة. كما إن عنصر المفاجأة كان كافياً للإبقاء على استمرارية زخم الثورة. وفي المدينة المنورة كانت الثورة ـ وبشكل خطير ـ على وشك التعرض للاختناق في بدايتها. أظهرت المعارك الأولى مع الأتراك الوضع المؤسف للتنظيم على الصعيدين اللوجستي وامدادات الثوار، وانعدام مهارات القيادة، ولكن قيادة وشجاعة فيصل لم تستطع التغلب على الضعف المتأصل. فقد كانت فرقة من القبائل من منطقة المدينة المنورة ـ معظمهم من المخلصين والموالين لقضية الأشراف ـ يعملون ولشهور عديدة مع الشريف علي، وقد أثار هذا الحوار المستمر مع شيوخ القبائل حفيظة القادة الأتراك سواء في المدينة المنورة أو على مستوى السلطات العليا في دمشق وإسطنبول[1]. في كل الأحوال، امتلكت العشائر العديد من العوامل المعقدة والمحفزة، الأمر الذي جعلهم حلفاء متقلبين، حيث امتزجت عوامل كالمال، والنهب، والضغينة والثارات بين القبائل، والغرور مع الخوف من العثمانيين وقصاصهم، بالإضافة إلى خسارة امتيازاتهم ورواتبهم. لقد ساد احترام وواقعية مفرطة تقترب من الموضوعية الساخرة في تعاملاتهم مع السلطة القائمة ومع الأشخاص الذين سعوا إلى تحديها، حيث استقطبت خطط علي وفيصل حينما دقت الساعة زعماء القبائل في منطقة المدينة المنورة ومن بينها: حرب، جُهينة، بلي، بنو سليم، مصروح، وائتلاف فروع قبيلتي عنزة وعتيبة.

على أية حال، فإن المواجهات الأولى في المدينة مع القوى العثمانية الضخمة والمجهزة بشكل جيد أثبتت أنها مخيبة للآمال. لقد تعرضت القبائل العربية للقصف المدفعي ولدرجة لم يكونوا معتادين عليها، كما كانوا مرعوبين من انفجار القذائف. انطلق كل من علي وفيصل في العراء أمام الرجال ليحشدوهم وليظهروا ازدراءهم بالقذائف ولكن دون جدوى. لقد كانت الاسلحة التي يمتلكونها وبشكل أساسي عبارة عن بنادق تقليدية، لا ترقى للمقارنة مع أسلحة الجيش العثماني. وقد قامت بعض الفصائل القبلية بمغادرة ميدان المعركة والالتجاء إلى المخابئ، أما الآخرون مثل بني علي فقد وصلوا إلى فخري باشا وتقدموا بعرض للاستسلام مقابل إلا يتم سلب قراهم. وبينما كان الطرفان يناقشان عرض الاستسلام قام الأتراك بمهاجمة قرى بني علي في منطقة العوالي قرب المدينة المنورة حتى الهضاب بمنتصف الطريق بين البلدة والبحر الأحمر[2].

لم يبقَ أمام الأخوين سوى الانسحاب من المدينة إلى الهضاب الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة والبحر الأحمر. فقد نفذت الذخيرة والمؤن ولم يعد يمتلكون المال لتقديمه للعشائر. كان على فيصل أن يلجأ إلى الحيلة لإقناع رجال العشائر بأن لديه مبالغ كبيرة تحت إمرته، فكان

يقوم بملء الخزنة بالحجارة ويُحكم شدها بالحبال وبحذر، ويحرسها عبيده عند كل مسيرة يومية، ثم يقومون بتقديمها وبكل دقة لخيمته عند كل ليلة. وعن طريق مثل هذه المسرحية، حاول الإخوان الإمساك بالقوة المتلاشية، حسبما كتب ت. س. لورنس لاحقاً[3].

أرسل فيصل مبعوثين إلى رابغ على البحر الأحمر، حيث تقع قاعدة التموين، للاستفسار عن الذخيرة الاحتياطية، إلا أن الشيخ حسين ابن مبارك المتنفذ في المنطقة اتخذ قراراً بأن الأتراك هم الذين سيربحوا. وبالتالي استولى على المؤن والسلاح الذي كانت بريطانيا قد أفرغته هناك لدعم الثورة، وخبأها في القرى التي تقع تحت سيطرته. غادر علي متوجهاً إلى رابغ في أواخر حزيران (يونيو)، ومع بدايات تموز (يوليو) 1916 وذلك لمواجهة مكائد ابن مبارك، تاركاً فيصل وحيداً في الهضاب مع مجموعة متضائلة من رجال القبائل بجانب عدم وجود موارد لدعم المقاتلين أو الثورة. لقد كانت بداية مشؤومة، وفي حال عَلِم الأتراك في المدينة المنورة الحالة المحفوفة بالمخاطر لجيش فيصل، فإن الثورة سوف تصل إلى نهاية مشينة وذلك قبل أن تبدأ لتوها.

في مكان آخر من الحجاز كان الحال قد تطور الى حد ما بنجاح أكبر من الطريقة العشوائية للثورة التي تم إطلاقها في المدينة المنورة. ففي 23 أيار (مايو) 1916 قام عبد الله بإرسال رسالة إلى صديقه رونالد ستورز في القاهرة، طالباً إياه أن يسافر وعلى الفور إلى الحجاز حيث كانت الثورة وشيكة. غادر ستورز، يرافقه مدير المكتب العربي المشكّل حديثاً في القاهرة مع ضابط المكتب كيناهان كورنواليس متوجهين إلى الحجاز، ووصلوا إلى جدة في الخامس من حزيران (يونيو)، مع بدء القتال تقريباً في المدينة المنورة[4].

لقد كان حسين يدفع باتجاه فتح جبهة جديدة في سوريا مع إنزال البريطانيين على الساحل السوري، وذلك لقطع طرق الإمداد العثماني نحو الحجاز، لكن ستورز لم يكن في وضع يُسمح له بتأييد هذه الطلبات. إن كل ما استطاع أن يَعِد به هو تقديم منتظم للأسلحة، الطعام، والمؤن وذلك فقط لحدود الحجاز الضيقة، حيث لا أموال أو أسلحة متاحة لأغراض أوسع للثورة[5]. وفي حزيران (يونيو) من العام 1916 وصل عدد القوات العثمانية في الحجاز إلى حوالي 12 ألف رجل، وتم توزيع القوى على طول خط الحاميات من المدينة المنورة إلى مدن ينبع، مكة المكرمة، الطائف، وجدة، بالإضافة إلى المعسكرات على سكة حديد الحجاز. لقد كانت هذه قوات الفرقة (22 حجاز) مقسمة على ثلاثة أفواج (130، 129، 128)، معززة بثلاثة كتائب والتي كانت متموضعة وبشكل مؤقت في المدينة المنورة على الطريق المؤدي إلى اليمين تحت إمرة القائد فخري باشا. وقد تضمنت قوات الحجاز أيضاً سريتين من قطاع عسير، ومن الناحية الفنية هي جزء من المفارز العثمانية في اليمن والتي كانت تتمركز في القنفذة والليث في أقصى

جنوب الحجاز. كما قد تم تجهيز القوى بالبنادق الحديثة والرشاشات والمدفعية الجيدة، وبشكلٍ عام كانت حسنة القيادة.

كما يمكن للقوات العثمانية أيضاً الاعتماد على المجموعات القبلية إذا اقتضت الضرورة. لقد كان التمركز الأكبر للقوات في المدينة المنورة، حيث كانوا قادة فخري باشا حوالي 4 آلاف رجل، والقوات العثمانية في الطائف تصل لحوالي 3500 مزودين بعشر قطع مدفعية تحت إمرة المحافظ غالب باشا، حيث قام هو وطاقمه بالانتقال إلى الطائف في موسم الصيف هرباً من الحر الشديد في مكة المكرمة. تألفت الحامية العثمانية في مكة المكرمة من حوالي 1200 رجل و20 مدفع تحت إمرة درويش بك. وعدد حامية جدة حوالي 2600 رجل مع 20 مدفع و15 من الرشاشات ثقيلة، كما تمركزت قوات أخرى في حامية على الساحل في مدينتي ينبع والوجه(*). وبما أن الطريق البحري يسيطر عليه البريطانيون وتحت قيادتهم في البحر الأحمر التي لا يمكن تحديها، لذلك فإن القوات العثمانية ستعتمد على الخط الحديدي الحجازي من أجل الإمداد، بالمواد والعتاد من سورية والأماكن الأبعد.

تم إطلاق الثورة رسمياً عند فجر العاشر من حزيران (يونيو) 1916 وذلك عندما انحنى الشريف حسين من نافذة قصره في مكة المكرمة وأطلق طلقة واحدة في الهواء باتجاه المقر الرئيس للجيش العثماني. لقد كانت هذه إشارة الموافقة لرجاله، الذين احتشدوا بالليلة السابقة في عدة نقاط تمركز في مدينة مكة ليثوروا ضد المعاقل العثمانية الرئيسة في البلدة[5]. كما إن الاتصالات بين مكة، جدة، والطائف قد تم قطعها في الليلة السابقة، عندما تم قطع كيبل التلغراف. كان الرد العثماني سريع وقام بقصف مدفعي شرس ضد المهاجمين وقصر الأمير، كان الشريف حسين يقوم بمشاهدة عرض موسيقي رائع بينما قصره يتعرض للقصف، لم يقم بتغيير روتينه اليومي، كما أصرّ على البقاء في مكتبه خلال ساعات العمل اليومي حتى عندما كانت القذائف تتساقط بمحيط منزله[7]. تم إنقاذ الوضع عندما وصل محمـد شريف الفاروقي من جدة، وذلك عندما قام الثوار بحماية البلدة واستولوا على قطعتين من المدفعية من القوى العثمانية المستسلمة [8]. قام الفاروقي بإقناع 6 من رماة المدفعية العرب ضمن القوى العثمانية المستسلمة أن يزحفوا معه إلى مكة المكرمة لنشر المدافع. كانت قلعة جَرول، وهي آخر مراكز العثمانيين في مكة المكرمة، قد سقطت في اليوم التاسع للانتفاضة، حيث تم أخذ حوالي 1200 شخص بوصفهم أسرى[9].

(*) سيرد ذكر (الوجه) مراراً في الكتاب، بوصفها إحدى ميادين الثورة الرئيسة، تقع على هضبة مرتفعة مطلة على ساحل البحر الأحمر، جنوب غرب تبوك، لها ميناء قديم تم استخدامه من قبل البحرية العثمانية. ولها أهمية تاريخية كإحدى بوابات الحجّاج القديمة. (المُراجع).

كانت جدة أول بلدة تسقط على يد الثوار، وتقريباً حوالي 4 آلاف رجل من قبيلة حرب قاموا بمحاصرة الحاميات العثمانية في البلدة وقاموا بقطع إمدادهم بالماء، كان العثمانيون غير قادرين على كسر الحصار، كما تم إحباط جميع محاولاتهم لمغادرة جدة وتجميع قواتهم في مكة المكرمة من قِبل البدو الذين قاموا بالتحكم بالطريق. في 13 حزيران (يونيو)، قامت ثلاث سفن حربية بريطانية (دو فيرين، هاردينج، فوكس) بالإبحار على طول ساحل جدة وبدأت بالقصف على التحصينات العثمانية، بعد 3 أيام لاحقة قامت القوات العثمانية في جدة بالاستسلام. كان الوضع في مدينة الطائف مشوش أكثر، وكان عبد الله المسؤول عن التحضيرات للثورة في البلدة، والتي تضم أكبر حامية عثمانية خارج المدينة المنورة، حيث الحاكم غالب باشا قد تراجع بسبب فترة شهور الصيف. لقد كانت البلدة محصنة جيداً، إذ فشلت عدة هجمات من عدة نقاط قام بها رجال قبائل غير منضبطين في اختراق دفاعاتها. وسيطرت المدفعية العثمانية على أرض المعركة وتم صدّ المهاجمين ليتم وضع البلدة بعد ذلك تحت حصار شديد.

كان أقصى اهتمام لدى عبد الله يتمحور حول الحفاظ على الأرواح أكثر من أخذ البلدة عن طريق هجوم أمامي[10]. إن وصول مفرزة المدفعية المصرية مع 4 مدافع جبلية التي تم إرسالها من قبل القوات التي يقودها بريطانيون في السودان، كانت بالكاد قد تمكنت من تغيير ميزان القوى بين المحاصَرين والمحاصِرين، لكن المحاصرون تمكنوا من الوصول الى المؤن الوفيرة المتواجدة في قرى المنطقة، لكن وضع الإمدادات داخل المدينة أصبح حرجاً، لذلك قام عبد الله بالسماح للسكان القاطنين هناك بمغادرة البلدة. وفي 23 من شهر أيلول (سبتمبر) قامت الحامية العثمانية والتي تبلغ حوالي الألفي رجل وبضع عشرات من المسؤولين بما فيهم حاكم الحجاز بالاستسلام لعبد الله. تم معاملة الجميع باحترام شديد وشرف[11]، أصبحت الآن البلدات الرئيسة للحجاز ـ مع استثناء ملحوظ ومقلق للغاية بالنسبة للمدينة المنورة ـ تحت سيطرة الشريف حسين[12].

انتكاسة مبكرة

على الرغم من ذلك، فقد تُرك فيصل مكشوفاً وبشكل خطير، حتى تقطّعت به السبل في التلال بين مدينتي رابغ وينبع، وفي آب (أغسطس) 1916 قام بمقابلة الكولونيل سيريل ويلسون في مدينة ينبع. خدم ويلسون كمدير منطقة بورت سودان والتي كانت بمثابة قناة التوريد الرئيسة إلى الحجاز، وقد تم إرساله من قِبل السلطات في القاهرة وبتوصيات شديدة من قائد السودان ريجنالد وينغيت وذلك لتقديم النصح حول التحضيرات العسكرية والمدنية في الحجاز وللعمل كضابط ارتباط مع الشريف حسين. جاء حاملاً لقب ضابط الحج البريء ظاهرياً، وذلك

للمساعدة في التحضيرات لموسم الحج والذي كان يصادف في تلك السنة في أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر). كما إن البريطانيين بشكل عام ونائب الملك في الهند بشكل خاص كانوا قلقين من أن هذا التوتر المتنامي في الحجاز يجب إلا يُلقي بتأثيراته على الحج، وبالتالي حماية البريطانيين (والشريف حسين) من الاتهامات العثمانية بأنهم قد تدخلوا في شعائر إسلامية مهمة. كان لدى ويلسون أيضاً مخاوف حول تواجد القوات العثمانية في المدينة والتي من الممكن تعزيزها بوحدات قادمة من سوريا عبر سكة حديد الحجاز. بدأ يلوح في الأفق نذير شؤم وذلك خلال المسير نحو مكة لوضع نهاية للثوار، فقد شوهد ضباط ألمان ونمساويين في المدينة المنورة، من المفترض أن يقودوا العمليات، الأمر الذي ساهم بإعطاء معنى لهذه المخاوف، فقد أشارت إحدى التقارير بتواجد ألف من الألمان والنمساويين[13].

لقد وقعت للتو معركة قرب غدير رابغ بين القوات العثمانية ورجال العشائر التابعة لـ علي وفيصل وتحت إمرة فيصل، تمخض عن هذه المواجهة تدمير كتيبتين تابعة للأتراك، ونصر لافت للأمير فيصل واهتزاز مؤقت للتقدم العثماني خارج المدينة المنورة.

قام الأمير فيصل بإخبار ويلسون بأن الحامية العثمانية في المدينة المنورة الآن يصل تعدادها إلى 24 ألف، ومن الممكن تعزيزها بوصول فرقة سميرنا من سوريا بأكثر من 115 ألف من القوات. أثار فيصل إعجاب ويلسون إلى حدٍ كبير والذي استجاب فوراً على نقل مطالبه من أجل الحصول على مدفعية وبنادق أفضل وبكمية أكبر. لكن عندما وصلت أخيراً هذه الكمية كانت فقط عبارة عن 4 مدافع عتيقة ذات مدى محدود، ويتم تشغيلها بواسطة مفرزة المصريين «المدفعجية»[14]. وبالرغم من أن هذه البنادق لم تعطِ تأثيراً إيجابياً لرجال القبائل لدى فيصل، إلا أنها شجعتهم للاستمرار بالهجوم على المراكز العثمانية في منطقة المدينة.

وبسرعة قام فخري باشا بتقوية الحصون المكشوفة وبشكل خاص تلك التي تقع في بير عباس والتي كانت تتوقع حدوث هجوم وشيك من قِبل رجال عشائر فيصل. إن البنادق العثمانية والتي كان لديها ما يقرب من ثلاثة أضعاف مدى البنادق التي عفا عنها الزمن لقوات فيصل قد تمكنت وبسرعة من السيطرة على الميدان.

لقد سقطت قذيفة واحدة قريبة وبشكل مقلق بالقرب من خيمة فيصل بينما كان يقابل أحد الضباط لديه، ومما ضاعف الشعور باليأس الرد المثير للشفقة لكتيبة المصريين. لم يستطع فيصل من مواجهة العدو وذلك بسبب عدم تكافؤ الاسلحة بين الطرفين، وقد كان لتوه قد خسر عدداً هائلاً من الرجال، كما كان المتبقي من المقاتلين لديه في حالة يُرثى لها من التعب وفي شوق للعودة إلى عائلاتهم. لقد كان تكتيكه الوحيد والرابح ضد القوات العثمانية هو مضايقته لقوافل الإبل في مؤخرة الأرتال العثمانية، لقد بدا وكأنه يتحمل لوحده وزر الحرب كلها. فقد كان عبد الله في مكة المكرمة

يشارك في السياسة العليا والإدارة، بينما كان علي وزيد متحصنان في رابغ. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1916 كان فيصل مع رديف من قواته يقومون بالانسحاب إلى محيط مدينة الحمرا الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة المنورة ورابغ. قام فيصل بترك قسم من عشائر حرب في منطقة بير عباس، وذلك لمضايقة القوات العثمانية، وذلك عن طريق شن غارات على أرتال الإمداد الخاصة بهم وخطوط التواصل. قابل ت. ي. لورنس فيصل ولأول مرة في قرية الحمرا بعد أن قام فيصل بالانسحاب من منطقة بير عباس[15]، كما قدّم لورنس طلباً شخصياً لزيارة مخيم فيصل، وعن طريق وساطة ستورز سمح الشريف حسين وعلى مضض لهذا الضابط الانكليزي الغريب في المضي قُدماً نحو رابغ ومن ثم إلى الحمرا. كان لورنس قد انضم إلى أركان المخابرات العسكرية لجيلبيرت كلايتون في القاهرة، والذي أصبح لاحقاً المسؤول عن إطلاق النشرة العربية، الموجز الأسبوعي السري للتقارير والتحليلات الاستخباراتية حول الشؤون العربية[16].

لقد كان تورطه بشؤون الحجاز عرضي، في الواقع قد تم إرساله إلى جبهة بلاد الرافدين بعد أن تم محاصرة القوات الأنغلو-هندية في الكوت[*] تحت قيادة الجنرال تشارلز تاونسند. كانت مهمة خيالية تم تصميمها لحث عشائر جنوب العراق على تطويق القوات العثمانية المحاصِرة، ولإفشال ذلك، كان على لورنس القيام برشوة الضابط التركي القائد لرفع الحصار عن مدينة الكوت، لكنه أخفق. بحلول شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1916 بدت الثورة العربية وكأنها قد تعثرت وتتجه نحو الهزيمة (حسب ثرثرة ضباط الأركان في القاهرة). كان لورنس برتبة رائد في حينه، واستطاع الحصول على إذن لزيارة الحجاز بصحبة ستورز. وقد أعجب بفيصل من أول مقابلة معه حيث وصف ظروف اللقاء على النحو التالي:

«اصطحبني خادم من العبيد إلى قاعة داخلية، يوجد في آخرها مدخل له إطار أسود، هناك وقف شخص أبيض ينتظرني وهو متوتر. ومن أول نظرة شعرت أن هذا هو الرجل الذي جئت من أجله إلى الجزيرة العربية القائد الذي سيصل بالثورة العربية إلى انتصار كامل.... قمت بتحيته. ثم فسح لي المجال لأدخل إلى الغرفة، وجلست على السجادة بالقرب من الباب. وبما أن عيني اعتادت على الظل، فقد رأيت الغرفة تضم عدداً من الأشخاص الصامتة وهم ينظروا باتجاهي أو إلى فيصل بثبات. لقد بقي مُطرقاً يحدق بيديه اللتين كانتا تلتفان ببطئ حول خنجره. أخيراً قام بسؤالي مستفسراً وبلطف كيف كانت الرحلة معي، تحدثت عن الحرارة، ثم قام بسؤالي كم

(*) اضطر الجيش البريطاني بعد هزيمة قاسية أمام العثمانيين إلى اللجوء لمدينة الكوت والتحصّن خلف سورها، لتبدأ إحدى صفحات الحرب المريرة، إذ بدأ الحصار منذ كانون الأول (ديسمبر) 1915، لقرابة 4 أشهر ونصف، ولم تنجح كل محاولاته للإفلات، ليُرغم على تسليم عناصره كأسرى حرب للجيش العثماني (أكثر من 14 ألف جندي وضابط). (المُراجع).

تبعد المسافة إلى رابغ مُعلقاً على أنني قد ركبت بسرعة. وهل تحب مكاننا هنا في وادي صفرا؟، حسناً لكنه بعيد عن دمشق؛ لقد سقطت هذه الكلمة كالسيف في وسطهم... مطولاً رفع فيصل عينيه مبتسماً لي وقال، الحمد لله هناك أتراك أقرب إلينا من ذلك»[17].

لقد بدا فيصل مدركاً لنوايا فخري باشا، خصوصاً وأنه كان لدى العثمانيين في ذلك الوقت ما يكفي للسير نحو مكة عبر عدد من الطرق التي تمر عبر رابغ. كان رجال العشائر لديه غير معتادين على حالة الدفاع السلبي لذلك أبقوهم العثمانيين في حالة عدم استقرار وتنبه دائم. شرح للورنس خطة عمله التنفيذية لمواجهة التهديد التركي المتزايد. فهو يحضّر الآن لخطة انتشار لقطع طريق الخط الحديدي الحجازي شمال المدينة. وفي الوقت نفسه يتقدم من رابغ، ويقوم زيد بصد الكتائب التركية الكبيرة في بير عباس، وبذلك يتم تطويق المدينة؛ أو على الأقل يتفادى الاندفاعة التركية جنوباً.

بقي لورنس في ضيافة فيصل حوالي أسبوع في منطقة الحمرا مستطلعاً لمنطقة وادي صفرا. وخلال هذه الأيام القليلة قام بتشكيل انطباعٍ حيويٍ عن الثورة ورجال العشائر والتي شكلت نواة المقاتلين وسمات فيصل كقائد لهم. لقد كان يبدو فيصل وللوهلة الأولى أكبر بكثير من عمر الثالثة والثلاثين: عيونه المحتقنة بالدماء، ووجنتاه غائرتان بخطوطٍ عميقة. لقد قام لورنس بتقديم صورة لرجل فخور بنفسه، مندفع، شجاع، ومحبوب من قِبل رجاله. استخدم فيصل وبشكل كبير تأثيره النبيل وحصل على احترام واهتمام رجال العشائر بدون عناء، لقد بدا وكأنه يحكم رجاله بلا وعي وبالكاد يعرف كيف يترك تأثيره العقلي على عقولهم، «ومن الصعب معرفة كيف تمكن من أن يطبع ما يدور في فكره عليهم، ومعرفة فيما إذا كانوا يطيعونه. إنه فنّ عظيم مختبئ لديه وهو أهل لذلك»[18].

كانت الحياة في مخيم فيصل تتبع روتيناً من نوع ما، فقد كان يُعلن عن حلول الفجر بالدعوة إلى الصلاة من قِبل إمام الجيش، وقام بفتح خيمة لمن يطلب زيارة منزله أو أي زائر مميز للمخيم. كان الفطور بشكل أساسي مكون من تمور وشاي حلو وقهوة، وكان هجرس خادم فيصل يُشرف على مراسم الإفطار، بعد ذلك يُحضّر فيصل مراسلاته ويساعده بشكل رئيسي فايز الغُصين وهو سوري من منطقة حوران قام بالانضمام إلى الثورة منذ بداياتها[19]. حوالي الساعة الثامنة صباحاً يمضي فيصل إلى خيمة الاستقبال الخاصة به، ويجلس على الارض فوق السجادة مواجهاً مدخل الخيمة ويقوم باستقبال زواره. حراسه الشخصيين عبارة عن عبيد محررين يقومون بالحفاظ على النظام عند مدخل الخيمة، حيث يصطف الزوار، يقعد البعض، والبعض الآخر يجلس القرفصاء على الأرض. ثم بشكل طبيعي وعند حلول الظهيرة يخرج فيصل من خيمة الاستقبال نحو خيمة المعيشة، حيث يُقدم طعام الغداء على صواني ضخمة تضم عدة أطباق.

يتناول فيصل طعامه باعتدال، وعندما يرى أن أسرته وضيوفه قد شبعوا يقوم بالإشارة كي تُرفع الصواني. كما يستغل فترة بداية الظهيرة كي يقرأ، ويتحدث مع ضيوفه، أو ليأخذ قيلولة قصيرة، ثم بعد ذلك ينتقل مرة أخرى إلى خيمة الاستقبال حيث يستمر اللقاء مع مواكب الزوار والقادمين وذلك حتى انتهاء يوم العمل. إذ كتب لورنس «لم يسبق لي أن رأيت عربياً يغادره وهو مستاء أو مجروح قط»[20]. كانت صلاة المغرب عبارة عن مناسبة عندما ينضم فيصل إلى جماعته ويمارس طقوسه مع العامة، في الواقع هو لم يكن رجلاً متديناً بشكل صريح، لكنه كان شديد الدقة في المراسم الشخصية واحترام أوقات الصلاة وواجباتها. في أوقات المساء يتم دراسة الأحداث العسكرية لليوم المنصرم والتخطيط لعمل الميدان في اليوم التالي. تُقدم وجبة المساء ما بين الساعة السادسة والسابعة مساءً، يذهب فيصل للنوم متأخراً، وقبل ذلك يمضي بعض الوقت من الراحة والنقاشات الودّية. غالباً ما كان يدعو شيوخ القبائل لإمتاعه بالقصص المتعلقة بعشائرهم والأنساب، أو للاستماع لقراءة بعض قصائد الشعر القبلي التي تتحدث عن الحرب، أو الأحداث والقصص التي جرت في تاريخ قبيلته. كان غالباً ما يُحكّم المسابقات الشعرية ويقوم بتسليم الجوائز للفائزين، كان متذوقاً للشعر العربي بشكل رائع.

لقد كان بإمكان لورنس أن يميز في حيرة فيصل حتى بذرة الشك عندما تتكون لديه حول النوايا الحقيقية للحلفاء، وخصوصاً البريطانيين، في تعاملهم مع العرب. «... ورغم معرفتي أن البريطانيين غير معنيين بالحجاز، مع ذلك أستطيع القول أنه عندما أخذ البريطانيون السودان، كانوا أيضاً غير معنيين؟ فهم تواقين إلى أراضٍ مهجورة، من أجل بنائها، وهكذا ربما كانت الجزيرة العربية ستكون يوماً ما ذات قيمة بالنسبة لهم. هناك اختلاف بين ما تجده جيد أنت جيد وما أجده أنا جيد، وسواء ما فرض عليك هو جيد أو سيء فإن هذا سيجعلك تبكي من الألم. هل يحب المعدن الثمين اللهب الذي يحوله إلى سائل؟ ليس هناك من سبب للإزعاج، إلا أن الناس الضعفاء بحاجة للاهتمام بهم. إن مزاجنا كبشر يشبه مزاج الشخص المقعد حتى يستطيع أن يتحسس قدميه»[21].

إن ما دفع رجال القبائل للثورة لم يكن شعورهم البدائي بعروبتهم، فالمفهوم القبلي للوجود كعربي هو الإدراك المباشر لنسبهم القبلي أو العرقي، وهذا لا علاقة له بالإيديولوجيات الوطنية وبعواطف الفكر المدني. ولم يشكل الدين عاملاً في هذا المجال، باعتبار أن الأتراك مسلمون ولهم الشعائر نفسها. كما أنهم لا يكنون كراهية خاصة للألمان. لأن القيصر قد اكتسب قدراً كبيراً من النية الحسنة بين مسلمي الإمبراطورية وذلك بسبب تعليقات المدح للإسلام. لقد كان أكثر ما يثير الكراهية ضد الأتراك هو كونهم رموزاً للسلطة المركزية والتي حدّت من حرياتهم وقوضت معيشتهم، والوعد بأن حكم الأشراف سيكون أكثر شرعية واستيعاباً.

في الواقع لم يكن الاشراف طبقة حكم منفصلة، كانت كل عشيرة تقريباً تمتلك حصة من هؤلاء الذين يدّعون وصول نسبهم إلى النبي (ص). لقد سجلت الثورة العربية حوالي ألف من الأشراف الذين عملوا كطليعة ومبشرين. لقد كان فيصل، حسب لورنس، قد وفى بالوعد. كان «... رسولاً أعطى الشكل المقنع للفكرة التي يعمل خلفها من أجل الثورة العربية. لقد فعل كل أو أكثر مما يأمله البريطانيون وأكثر مما نستحق»[22].

أدرك لورنس، نقاط الضعف العميقة التي واجهت قائد القوات القبلية وهو يواجه جيشاً حديثاً منظماً. لم يكن التطوع بأعداد كبيرة في الثورة نتيجة للحماس الوطني أو بضغط من القوى الحاكمة أو التجنيد الإلزامي. إن التفاوض والحصول على ولاء العشائر كان أمراً يتم كسبه بشق الأنفس، وبالرغم من أن فيصل كان بارعاً في هذا المجال إلا أنه اضطر إلى قضاء وقت طويل مع شيوخ العشائر والكبار، وذلك للتأكد من التزامهم بالقتال، في ضوء هذه الالتزامات، قد كانت مشروطة ومحدودة بالغالب. وفي واقع الأمر، اتخذت عدة عشائر شمالي الجزيرة العربية الحياد في هذا الصراع، حتى أن البعض منهم وقف إلى صفّ الأتراك. كما أن القبائل تتأثر بالنجاح، بينما انتهت محاولات فيصل وعلي الأولية بالفشل. وهذا بالتالي ترك انطباعاً لدى القبائل المترددة وكان عليه أن يعمل للتعويض عن تناقص الدعم لهم.

لذا فقد اضطر فيصل إلى الكفاح ضد ما يترتب على ذلك من استنزاف الدعم. وبالنسبة له كرجل تدرب على طرق الحرب والجيوش الحديثة فإن المناوشات والمعارك ضدَّ العثمانيين في الأيام الأولى كانت بدايات هزيلة. لم يكن التراخي أو النفور من المخاطر هو ما أبقى قوات فيصل المقاتلة غير نشطة ولفترات طويلة من الوقت ريثما تصل بعض الكابلات إلى القاهرة، بناءً على اقتراح مقدم من قِبل ضباط ميدان انكليز في الحجاز، إذن لا بد من ضرورة تأمين دعم القبائل بصورة ثابتة في كل مرحلة من مراحل المواجهات مع الأتراك وقبل البدء بالمعركة، وهذا لم يكن متوفراً دوماً[23].

قام جيش فيصل في بداياته بضم أي رجل عشيرة قد يكون عمره من الثانية عشرة إلى الستين سنة: في حقيقة الأمر كان باستطاعة أي شخص قادر على حمل السلاح وإطلاق النار. إنهم أشداء، نحيلين، وجسورين، وبإمكانهم الركوب لمسافات شاسعة وعبر أكثر التضاريس صعوبة. قدّم لهم فيصل دينارين في الشهر، وضاعف ذلك لمن لديه جمل، كما أنه ظل يُطعم الرجال وعائلاتهم. قدّم فيصل ديناراً أيضاً جائزة كمكافئة مقابل كل أسر، إنه تشجيع لافت لإمساك السجناء بدلاً من ذبحهم ببساطة. لقد يتراوح تعداد جيشه متذبذباً وبشكل كبير من بضع مئات إلى أكثر من عشرة آلاف. كان الرجال يأتون ويذهبون ملبيين نداء العائلة، العشيرة، أو ببساطة لأنهم قد شعروا بالملل والحاجة إلى الراحة. لم يكن يوجد لديهم شيء مثل تسلسل القيادة، يُشعرهم

بأنهم ملزمون بها، لقد قاموا بالخدمة فقط تحت إمرة مشايخ العشائر، وفي الغالب قاموا بتقبل السلطة الفضفاضة للأشراف.

معظم المقاتلين يقاتلون العدو من مناطق عالية منحدرة أومن خلف الصخور، وإذا داهمهم الخطر ينسحبوا إلى الكهوف والمتاريس، ربما عُشرهم من ركّاب الجمال والذين باستطاعتهم مهاجمة العدو في غارات متحركة تستهدف مؤخرة أو أجنحة جيشه. كان رجال العشائر مجهزين ببنادق قديمة الطراز وذات عيوب، لكن الأمر الأكثر دلالة هو نقص المدفعية. بالنسبة للمدفعية العثمانية فقد كانت تمتلك مدافع ذات تأثير نفسي مدمر على رجال العشائر، لقد كان امتلاك أسلحة نارية هو نعمة عظيمة في الواقع. تفهّم فيصل وبوضوح هذه النقطة، لذا كانت مطالباته للبريطانيين من أجل الحصول على قطع مدفعية بسبب تأثيرها على الروح المعنوية بقدر قوتها العسكرية. كما أظهرت القوات القبلية صفات متناقضة وبشكل جنوني، مآثر شجاعة فردية لا تصدق لكنها كانت ممزوجة مع القذارة وحتى السلوك الجبان.

أيضاً هناك النهب والسلب والسعي الذي لا ينتهي بحثاً عن الغنائم في مجتمعٍ يفتقر إلى حيازة كل الموارد تقريباً، لقد كان ذلك بارزاً، أضف إلى ذلك سوء الانضباط وإطلاق النار الجامح وحالات الاختفاء التي لا يمكن تفسيرها ولعنة القبائل وهي: الثأر.

حاول فيصل إبقاء هذه الخصومات والخلافات تحت السيطرة، لكنهم لم يغادروا المخيم أو مكان المعركة تماماً، كما إن السلوك القتالي لدى القبائل قد يؤدي إلى عواقب وخيمة.

واحدة من الحالات السيئة الذكر هي ترك قبيلة جهينة لساحة المعركة، وذلك عند الوصول إلى منعطف حرج في المعركة لاحتساء القهوة! اعتقد فيصل أنه قد تم توجيههم إلى ما يسمى بانسحاب[24]. لقد وقعت حادثة (استراحة جهينة) في منطقة نخل مبارك. كانت القوة التركية تتألف من ثلاث كتائب وسرية الفرسان والمدفعية التي زحفت إلى المدينة المنورة باتجاه قوات فيصل وتقابلوا بتاريخ 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1916[25]. كانت المعركة تتجه لصالح فيصل وكان الانتصار وشيكاً جداً عندما اضطرب الجناح الأيسر الممسوك من قبل قبيلة جهينة إلى الانسحاب. اضطُر فيصل إلى التقهقر مع ما يقارب من ألفين من رجاله إلى منطقة ينبع، بعد ذلك أرسلهم لمضايقة خطوط الاتصال التركية[26]. كانت منطقة ينبع محصنة جداً وتم إضافة حماية إضافية لشواطئها من قبل خمس سفن حربية بريطانية، بالإضافة إلى طائرتين مائيتين يمكن استخدامهما للقصف الجوي على مواقع العدو.

كان الأتراك على بُعد ثلاث أميال خارج المدينة، لكنهم اختاروا أن ينسحبوا. أعاد فيصل احتلال عدد من المراكز التي تم التنازل عنها للأتراك، ومن ثم تجهّز للمرحلة التالية من الحرب. إنه موقف خطير ويمكن أن تُسحق الثورة هناك من بعد ذلك، وقد كتب لورنس عن انسحاب

الأتراك من بوابات ينبع: «وهكذا استداروا عائدين. واعتقد أن الأتراك خسروا الحرب في تلك الليلة[27].

لم تكن قوات فيصل تستطيع القتال في مواجهة العدو، أو على الأقل ليس بهذا الشكل. في الأقل يمكن استخدامها كجيش لحرب العصابات، لكنها لا تستطيع أن تُخرج الأتراك من المدينة. كما أن الوجه الآخر صحيح أيضاً، فالأتراك لا يمكنهم السيطرة على هذه الأراضي، باعتبار أن خطوط اتصالاتهم وإمداداتهم محفوفة دوماً بالخطر، بسبب هجمات العصابات المحاربة. أدرك فيصل تماماً محدودية رجال القبائل وكذلك صفاتهم.

عندما قابل لورنس فيصل في تشرين الأول (أكتوبر) 1916 لأول مرّة، رأى في خيمته شخصاً يدعى مولود مخلص وهو عراقي من تكريت شخص فظ وشجاع لدرجة التهور، وهو أول ضابط سابق في الجيش العثماني التحق بالثورة. لقد تم توبيخ مولود على أنشطته القومية، وذلك من قبل السلطات العثمانية، كما أمضى سنتين منفي في نجد في خدمة بن رشيد حاكم حائل الموالي للعثمانيين. وعند اندلاع الحرب تم استدعاؤه إلى خطوط القتال، لكن تم أخذه كأسير حرب من قبل البريطانيين في معركة الشُعيبة في عام 1915 في الأيام الأولى لحملة بلاد الرافدين، بينما كان يقود فرقة الخيالة العثمانية. وعندما اندلعت الثورة العربية قام بالتطوع لنصرة قضية الأشراف، وانضم إلى فيصل كمساعده الفعلي في المعسكر. لقد أراد فيصل المزيد من هؤلاء العرب الذين كانوا ضباطاً نظاميين في الجيش العثماني، كما أن البريطانيين كان لديهم عدد منهم في سجون معتقلي الحرب.

تعزيز الثورة

إن اعتماد الثورة على أعمال القوات القبلية «غير النظامية» كانت دائماً مسألة يجب أخذها بعين الاعتبار، كما قام المكتب العربي بالكتابة إلى وينغيت بأن الثورة كانت تعاني من «نقص» في العناصر النظامية، نقص في المدفعية، وعدم وجود خطة مشتركة، فضلاً عن خطر التلاشي[28]. وبالرغم من النجاح الواسع الانتشار للثورة في الشهرين الأولين، فإن الوضع الاستراتيجي بحلول شهر أيلول (سبتمبر) 1916 قد بدأ يتدهور، ولا تزال القدرات الهجومية للقوات العثمانية في المدينة المنورة هائلة، حتى أنها كادت أن تسدد ضربة قاتلة للثورة الناشئة، وذلك عندما وصلت إلى ضواحي منطقة ينبع. كان لا يزال هناك خطر حقيقي من أن الأتراك سيزحفون إلى مكة المكرمة عبر طريق رابغ، وفي ظل غياب قوة دفاعية قادرة ومنظمة فإنها ستطغى على القوات القبلية المحتشدة لمواجهتهم. بقي المتمردون ومعهم ابن مبارك المسلح جيداً يرافقه أتباعه في منطقة رابغ كتهديد دائم للثورة، كما إن القبائل نفسها قد تتخلى عن مواقعها إذا أصبح التقدم

التركي وشيكاً. لقد علِم فيصل بذلك وقام بإخبار الكولونيل ويلسون، والذي أصبح الآن القنصل البريطاني في جدة والمسؤول عن التواصل مع الشريف حسين وحكومته، بأن قوة مدربة لا تقل عن ثلاثة آلاف رجل هي حاجة ماسة كي تُرسل إلى ينبع وذلك لدعم الموقف[29]. بعد مضي شهر، وفي أيلول (سبتمبر) 1916، قام عزيز علي المصري بطل حرب طرابلس بمغادرة مصر، بإذعان بريطاني، وذلك لينضم إلى صفوف ثورة الشريف في الحجاز.

قام الشريف حسين بتعيينه كرئيس أركان، وأرسله إلى منطقة رابغ، ليقوم بتنظيم قوة عربية منظمة ومؤهلة لمواجهة القوات التركية، وكان في انتظاره هناك مساعده السابق نوري السعيد والذي وصل قبله إلى الحجاز برفقة 700 جندي وضابط عراقي، والذين تم إطلاق سراحهم من سجون معتقلي الحرب، شريطة أن يوافقوا على الانضمام إلى الثورة العربية. تم احتجازهم في معسكر بالسويس، لكن بضعة فقط من سجناء الحرب كانوا جاهزين للانضمام للثورة ضد الإمبراطورية العثمانية. هؤلاء الذين وافقوا على القيام بذلك تم حشدهم على متن سفينة متوجهة إلى الحجاز، نوري نفسه تم الاحتفاظ به معتقلاً في منزلٍ في الهند، وذلك قبل السماح له بالمغادرة إلى مصر في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1915 لينضم مع قائده الضابط السابق [عزيز علي] المصري[30].

إن حملات التطويع المبكرة للثورة قد تم تعزيزها لاحقاً من خلال حملات التجنيد الأكثر نجاحاً لحدٍ ما في معسكرات الاعتقال [البريطانية] بالهند، العراق، ومصر، لكن العدد الاجمالي للعرب المجندين من سوريا والعراق بقي قليلاً. كما لم تستطع الوحدات القتالية النظامية للثورة العربية بالاعتماد على احتياجاتها من القوى البشرية من صفوف غير عرب الحجاز [31]، ولكن وبالرغم من ذلك كان هؤلاء الضباط العرب والرجال القليلين نواة القوة التي من شأنها أن تأتي من تلقاء نفسها مع انتقال الثورة شمالاً باتجاه سوريا في عام 1917[32]. لاحقاً ستظهر أهمية الضباط العرب في جيش فيصل أكثر. كما إن الضباط العراقيين، وإلى حدٍ ما الضباط السوريين، انخرطوا ولفترة في حكومة فيصل القصيرة في سوريا، والتي لاحقاً أصبحت أكثر تداخلاً واستدامة في شؤون الدولة العراقية المستقبلية. إن معظم مساعدي ومستشاري فيصل في العراق كانوا من هذا الكادر.

كان على المصري أن يراقب سيده الشريف حسين دائماً والذي لم يرضَ أبداً بتفويض صلاحياته لأحد، فقد كان حسين شخصاً شكاكً وصعب المراس، وهذه السمة قد أفسدت علاقاته مع كل الذين تعامل معهم من البريطانيين في القاهرة وصولاً إلى أبنائه. بينما كان المصري شخصاً قومياً محترماً وذو خلفية عسكرية معتبرة، صاحب شخصية قوية في حد ذاته، وفي الواقع فقد كانت مسألة وقت قبل أن تتصادم هاتين الشخصيتين.

وخلال الأشهر الستة التي قضاها في الحجاز استطاع المصري يضع الإطار التنظيمي للقوات العربية التي ستقاتل إلى جانب القوات القبلية غير النظامية. ولكنه لم يتمكن من ممارسة القيادة العملية على هذه القوات أو أن يسمح له بالحركة مع القوات بصورة مستقلة[33]، لقد بقي مكبوح وبقوة من قبل حسين، والذي قام برفض طلب ويلسون بتزويد قوات المصري بميزانية مستقلة. كما جاءت محاولة مصري نفسه هباءً لإقناع القاهرة بتزويده بميزانية مباشرة. لم يكن البريطانيين راغبين بمعاملة قوته على أنها وحدة منفصلة عن الثورة بقيادة حسين.

لقد سقطت القوة العربية الوليدة تحت القيادة الاسمية للشريف علي، والتي كانت قاعدته في رابغ، وحالاً بعد تشكّلها فإن التوترات الكامنة بين طبقة من الضباط والتي تنحدر من مناطق عربية أكثر تقدماً وذات وجهات نظر عصرية مع الثورة في الحجاز والتي تستند بالأصل على أساس قبلي قد بدأت تظهر على السطح. لقد انضم الضباط العرب وبشكل رئيسي لأسباب قومية صِرفة بالرغم من أن قلة قليلة قد رأتها فرصة قد أُتيحت لهم للحصول على عمل ملائم لهم ضمن جيش قد تم تشكيله حديثاً. أما الأكثر عرضة لعدم الثقة فهم الحلفاء وخاصة الفرنسيين ونواياهم وخططهم لما بعد الحرب بالنسبة للأراضي العربية، والعواطف الكامنة تجاه الألمان. كان البعض مثل المصري قد قام بإرجاع النظرية السابقة القائلة بأن النتيجة المثالية للعرب تكون في إعادة تشكيل الإمبراطورية العثمانية كدولة عربية تركية، وقد آمن الشريف علي بأن المصري ما زال يحمل مثل هذه الرؤى، وسوف يستخدم القوات العربية لتحقيق هذه الغايات بالذات.

في زحفٍ كان مخطط له إلى المدينة المنورة، قام علي باستدعاء القوة العربية، بسبب شائعات كاذبة وصلت له بأن المصري يخطط للاتصال بفخري باشا، وأنه ربما قد يغير أفكاره[34]. إن جو الشك هذا وفترات الخمول المطولة قادت بعض الضباط العرب لترك القوات والانفصال كي ينضموا إلى جيش فيصل. كان فيصل أكثر انفتاحاً على الضباط العرب وتطلعاتهم القومية من أخيه الأكبر صاحب العقلية التقليدية البحتة، لذلك ومن أجل أولئك الذين يسعون إلى العمل فإن جيشه كان يُعد القوة الوحيدة التي كانت بحالة اشتباك دائم مع الأتراك.

إن تعثّر وتيرة الثورة قد قرع ناقوس الإنذار في القاهرة ولندن، لكن وجهات النظر كانت منقسمة ومشوشة فيما يتعلق بالمسار الصحيح المطلوب للعمل وذلك لمنع الثورة من الانهيار. إن فكرة إرساء مفرزة ضخمة ومدربة من القوات البريطانية في رابغ، على الأقل وحدة بحجم لواء هو أمر قد تم طرحه بجدية، لكن نشره سوف يصطدم مع متطلبات التعبئة للهجوم المتوقع على سيناء من قِبل قوات التدخل البريطانية. كانت هناك أيضاً اعتراضات إضافية ذات طابع سياسي. إن وجود قوات أجنبية تابعة لقوى «مسيحية» في الحجاز قد يثبت أنه كارثة على العلاقات العامة مع الرأي العام المسلم وخصوصاً في الهند. وقد يقوِض وبشكل خطير المصداقية الدينية

للشريف حسين. بالإضافة إلى إلزام بريطانيا بالثورة وكأنها مشارك رئيس بالحرب بصورة يصعب معالجتها، بكل ما يترتب عليها من نتائج سياسية. لكن الداعمين للإنزال البريطاني في رابغ ومنهم المفوض السامي هنري مكماهون كان لديهم قلق من انهيار ثورة الشريف وانعكاس الأمر على مصداقية وعود الحلفاء والتزاماتهم[35].

لقد فكرت وزارة الحرب في لندن بأزمة رابغ لكنها ترددت ولم تستطع صياغة خطة عمل محددة، حتى حسين نفسه كانت تتنازع في عقله فكرتين، تارة يقبل بدعم الإنزال في رابغ، ومن ثم يقوم بتغيير رأيه[36]. لقد كان مدركاً بأن تواجد القوات الأجنبية على ما يفترض أرض ذات سيادة وإسلامية بالكامل سيفرض نوعاً من الإهانة. وفي الوقت نفسه، كان في واقع الأمر مدركاً لمخاطر الثورة، إذا تمت مواجهة التقدم التركي إلى منطقة رابغ فقط من قِبل الفصائل القبلية.

تم إرسال الشريف علي حيدر، منافس الحسين، من قِبل العثمانيين من مدينة اسطنبول إلى المدينة المنورة في تشرين الأول (أكتوبر) 1916، حيث تم تعيينه في منصب الشريف المضاد. إدّعت حملته الإعلامية وبشدة بأن حسين كان متحالفاً مع أعداء الإسلام. كما دعم عبد الله وبشدة إنزال اللواء البريطاني، وكذلك كان الأمر مع فيصل في البدء. بكل حال، وبالرغم من انقسام ولاء القبائل الواضح، فإن انسحاب القوة التركية عن أبواب ينبع قد جعل فيصل يغير رأيه بالنسبة للحاجة القوات الأجنبية وتبّني نهج عمل آخر، وذلك كي يخرج من فخ رابغ. لقد قام وبشكل دائم بمقابلة عشائر المنطقة، وبشكل خاص قبيلة جهينة وقبيلة حرب[37] واللتان قامتا بأخذ جانبين مختلفين في الثورة. ففي إحدى الحالات، قام فيصل باتخاذ طريقه لوحده لعقد اجتماع سري مع قبيلة جهينة ليقنعهم بالاستمرار في التقدم [38]. أدى فيصل دوراً رئيسياً في التوسط بين القبائل، «وعمل يومياً وعلى مدار الساعة على موضوع التهدئة الداخلية هذا» [39]. ترك المشهد غير المألوف لوجود شخصية رفيعة المستوى كفيصل والتي كرّست الكثير من الوقت لتوحيد القبائل العربية في سبيل قضية عليا تأثيراً بعيد المدى، حيث تغيرت ولاءات القبائل جزئياً نحو قضية أسمى من اهتماماتهم الضيقة.

كتب لورنس لاحقاً حول مساعي فيصل الدؤوبة مع القبائل: «لقد انطبع الآن في عقول كل العرب أن [فيصل] الآن يقف فوق كل الأمور العشائرية، شيوخ العشائر، والغيرة العشائرية. له كرامة صانع السلام وهيبة السلطة المتشابكة. هو لم ينحز أو يجاهر بانحيازه إلى أي طرف في نزاعاتهم: لقد كان يتوسط ويتولى التسوية»[40]. قام لورنس بالكتابة إلى أمه في 16 كانون الثاني (يناير) 1917، «لقد كان لديه سمعة هائلة في العالم العربي كقائد ودبلوماسي، ونقطة قوته هي مقدرته على التعامل مع القبائل: هو يمتلك طريقة يتعامل فيها بشكل مثالي مع رجال العشائر وكان الجميع يحبونه»[41]. لم يكن فيصل يُظهر أي شكل من أشكال التحيّز لقبيلة ضد أخرى، حتى

وإن أثّرت في شقيقه عبد الله، وهذا الأمر جعله قائداً للعشائر جميعها أكثر من مجرد زعيم عشيرة أو قائد فصيل.

في إحدى التقارير الاستخباراتية، كشفت المراقبة لفيصل بأنه لم يكن يحتجب عن أي شخص يلتمسه أو مقدم عريضة، ويقوم بالاستماع إلى كل قضية، وإذا لم يتمكن من حلّها بنفسه يقوم باستدعاء أحد مساعديه ليحلّها له، لقد كان صبره لا حدود له ومقدرته على ضبط النفس رائعة نوعاً ما[42].

لقد قام فخري باشا بالانسحاب من منطقة ينبع، وذلك فقط لإعادة تجميع صفوفه، كما إن قوة تركية كبيرة مؤلفة من حوالي 5 آلاف رجل قد تحركت على طول الطريق السلطاني باتجاه رابغ. لقد كانت القبائل التي تقع في طريق التقدم التركي في حالة تردد وانتظار لنتائج القتال، وذلك كي يرموا بثقلهم لصالح فريق أو آخر، وكان على فيصل أن يندفع بين القبائل ليضمن صمودهم وأن يتجهز لهجوم مضاد، آملاً أن يتمكن من إيقاع الأرتال التركية في الفخ بين قواته وقوات الشريف علي الزاحفة من رابغ.

لكن رجال عشائر علي تصرفوا بناءً على إشاعات كاذبة من بعض قبائل قامت بالانسحاب من المعركة المرتقبة وسقطت في حالة فوضى وهي تنسحب إلى رابغ، كما إن الوضع في رابغ قد أصبح حرجاً. عند هذا المنعطف قام فيصل بخطة جريئة لضرب منطقة وجه، وهي عبارة عن مستوطنة صغيرة تبعد حوالي مئتي ميل شمال ينبع. لقد كانت بمثابة قاعدة مثالية لضرب خط الحجاز وخطوط الاتصال التركي ما بين المدينة المنورة وسوريا المنقطعة. إذا تم النجاح فإن هذا التحرك سوف يُجبر الأتراك لاستدعاء أرتالهم المتحركة وتركيز قواتهم فقط في المدينة المنورة. وسيُرفع التهديد عن منطقة رابغ ومن ثم ستصبح الثورة في مأمن في عاصمتها مكة المكرمة. كما حقق فيصل انتصاراً على واحدة من القبائل الرئيسة وهي قبيلة بِلي في منطقة وجه، كما تمكنوا لتوهم من قطع خطوط الاتصال ما بين وجه ونقطة سكة الحديد في العُلا. أكد تقرير ميداني استخباراتي بريطاني أنه إذا تمكن فيصل من أخذ منطقة وجه فإن قبائل المنطقة وبشكل رئيسي بِلي وجهينة الشمالية سينضمون إلى الثورة[43]. والتأثير الآخر الإضافي المحتمل هو الفوز بدعم من نوري الشعلان، وهو واحد من قادة العشائر الرئيسيين في جنوبي سوريا والذي كان فيصل على تواصل معه، وذلك خلال فترة إقامته في دمشق في عام 1915.

وفي اجتماعٍ على متن السفينة الحربية البريطانية دوفيرين الراسية قرب ينبع، قابل فيصل ويلسون ولورنس، وقد توصل الاتفاق إلى أنه يتوجب على فيصل التوجه إلى منطقة وجه، بينما يقوم البريطانيون بنقل 500 من رجال العشائر والقوات النظامية إلى هناك، ثم تم السعي للحصول على الموافقة للخطة من الشريف حسين. كتب لورنس إلى بعثة منطقة وجه: «إنها

فرصتهم [العرب] الأخيرة والأهم من تأمين حصار المدينة هو منع الاتراك من الاستيلاء على مكَّة»[44]. قام فيصل بتجهيز جيشه للزحف نحو وجه في يوم رأس السنة من عام 1917، لقد كانت لحظة انطلاق جيش فيصل حدث رائع، حوالي 10 آلاف من رجال العشائر مع ما تم جمعه من كتائب الهجّانة مجتمعين عند نقطة اللقاء في وادي خارج منطقة ينبع. عندما وصل فيصل قاموا جميعاً بتحيته بهدوء وانتظروا شارة البدء من قارعي الطبول ليعتلوا ظهور جمالهم لبدء الزحف. كان فيصل مرتدياً روب أبيض يحيط به حراسه الشخصيين المحتشدين باكتظاظ من خلفه، ثم انطلق راكباً في المقدمة. كان الجيش متكدس خلف فيصل مع أعلام مرفرفة وطبول تقرع، لقد بدأ الزحف نحو منطقة وجه[45]. لقد كانت لحظة رمزية جداً، إذ كانت المرة الأولى في التاريخ الحديث التي تجتمع فيها القبائل مع بعضها في قضية مشتركة.

كما أنها المرة الأولى أيضاً التي يغامر فيها رجال القبائل بالخروج من أراضيهم، ليس بحثاً عن ثأر، غنائم، أو بهدف الإغارة، بل كأعضاء في جيش عربي، متّحدين خلف قائد واحد. للوهلة الأولى، أصبح لدى فيصل عشائر بِلي وجهينة، وكان بينهم حرب وعداوة دم، والآن يعيشون ويقاتلون جنباً إلى جنب في جيشه [46]. أيضاً كان هناك سبباً آخر لهذا العرض الرائع، لقد كان إعلاناً عن تنامي قوة الثورة العربية وسيادة الأشراف وسيطرتهم على القبائل. وتوجّب الآن على القبائل المترددة أن تتماشى مع الزحف الواضح والكاسح للثورة المدعومة بالأسلحة والذهب والدعم الواضح من القوة العالمية.

لقد استغرق الزحف إلى منطقة وجه أكثر من 3 أسابيع، حيث تلقى فيصل خلاله الدعم من القبائل في منطقة وجه. وبكل الأحوال، فإن جيشه لم يتعرض لأي قتال. لقد تم بالفعل الاستيلاء على وجه من قبل خمسمائة من رجال القبائل والجنود النظاميين في جيش فيصل، والذين تم نقلهم على متن السفينة الحربية هاردينج إلى منطقة وجه. قام قسم الإنزال بمهاجمة البلدة مدعوماً من الخلف من قبل مدافع هاردينج وسفن حربية أخرى، وكانت المدينة محكومة من قبل مفرزة تركية صغيرة تتألف من حوالي مئتين من القوات، واستسلم المدافعون عنها بسرعة.

سقطت وجه في 24 كانون الثاني 1917. وصل جيش فيصل في اليوم التالي. لكن الخوف كان على ينبع التي لم يكن فيها دفاع كافٍ ويمكن أن تسقط إذا كان هناك تصميم لدى الأتراك للتقدم نحوها، لكن ذلك لم يتحقق. قام فيصل بتطوير خطة تُجبر الأتراك على التخلي عن أي تقدم من المدينة إلى ينبع، وذلك بأن يقوم عبد الله بالاستيلاء على نقطة من الخط الحديدي الحجازي شمال المدينة في وادي عيسى، فإذا تمّ حصار الأتراك من الشمال وأصبحت وجه تحت سيطرته فإن التقدم إلى ينبع من المدينة سيكون محفوفاً بالخطر[47]. قام فيصل قبل ذلك بالكتابة لوالده حول موضوع حملة وجه المرتقبة وخططه للاستيلاء على زمام المبادرة: «حالما نعزز

مواقعنا في منطقة وجه فإننا سوف نحصل على ملاذ يمكن أن يُصبح قاعدة تقدمنا [للعمليات]... قد تظن بأن تلك الآراء ووجهات النظر مجرد خيالات وأحلام، لكن على أرض الواقع فإن كل شيء يبدأ صعب في البداية، لكن يبقى العمل هو مفتاح النجاح»[48].

إن عملية الاستيلاء على منطقة وجه قد غيرت تماماً الخارطة الاستراتيجية للحرب في الحجاز، أُنشئت قاعدة إمداد مهمة في منطقة شمال ساحل الحجاز، بالإضافة إلى رابغ وينبع، وبعد الاستيلاء على عدد من المستوطنات الساحلية الصغيرة شمالي وجه أصبح ساحل الحجاز بأكمله بأيدي قوات الشريف. أصبح بالإمكان الآن شنّ هجمات منظمة وفعّالة ضد خط سكة حديد الحجاز والبؤر الاستيطانية التركية المتموضعة شمالي الحجاز. لقد زال الخطر عن ينبع ورابغ ومكّة، وبقيت القوات التركية محجوزة في المدينة على الرغم من المناشدات الألمانية لإخلاء المدينة.

شكّل ذلك هدراً لمصادر وقوى العثمانيين التي كان بالإمكان استخدامها بصورة فعالة أكثر على الجبهات. إن الحفاظ على مكانتهم أمام الرأي العام الإسلامي بالسيطرة على واحدة من المدينتين المقدستين لدى المسلمين. كلّف الأتراك حوالي 25 ألف جندي، منهم 14 ألف في المدينة نفسها وكذلك 11 ألف عنصر لحماية المراكز الرئيسة للخط الحديدي الحجازي في جنوب سورية وشمال الحجاز.

إن عملية احتلال منطقة الوجه قد مهّدت الطريق أيضاً لتعاون قبلي داخلي أعظم تحت قيادة فيصل، وذلك عن طريق جلب قبائل مهمة من جنوبي سوريا لصفوف الثورة والتي قد انتقلت الآن إلى المرحلة الثانية.

هوامش الفصل الخامس

1 ـ هما اثنان من أقارب فيصل، الشريف شحات بن علي، والذي كان مساعداً لحسين في المدينة المنورة، وأخيه الشريف ناصر، والذي لعب دوراً رئيسياً في تعبئة القبائل في منطقة المدينة وذلك لدعم الثورة. وأصبح الشريف ناصر قائداً كبيراً في الجيش العربي الشمالي التابع لفيصل. أنظر سليمان موسى، مرجع سابق، ص 273.

2 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص ص 94 ـ 95.

3 ـ المرجع نفسه، ص 95.

4 ـ لقد تم تأسيس المكتب العربي في ربيع عام 1916. وكان نشاطه الأولي هو موائمة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، وذلك عن طريق جمع وتحليل ونشر المعلومات الاستخباراتية في العالم العربي، وذلك كي يراقب النشاطات. ويحلل الخطط للقوى المركزية والإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط. كان المركز العربي مسؤولاً مباشراً لـ غلبرت كلايتون رئيس الاستخبارات العسكرية والسياسية في القاهرة، ومن خلاله إلى المفوضية البريطانية في مصر. أما السلطة الكلية على المكتب فهي من مسؤولية وزارة الخارجية في لندن، كان هوغارث عالم آثار في أوكسفورد والمسؤول عن المتحف أشموليان قبل أن ينضم إلى خدمات الاستخبارات البحرية. معظم موظفوا المكتب هم من خلفية استخباراتية أو عسكرية. أنظر: بروس ويستريت، المكتب العربي، السياسة البريطانية في الشرق الأوسط: 1916 ـ 1920، جامعة ولاية بنسلفانيا، بنسلفانيا، 1992.

5 ـ أنظر سيلا آن سكوفيل. الدعم اللوجستي البريطاني للهاشميين في الحجاز: من الطائف إلى معان، 1916 ـ 1918، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة كاليفورنيا، بيركيلي، 1982، ص 55.

6 ـ اعتمد حسين كثيراً على الدعم من بعض أقاربه الأشراف، اثنان منهم، الشريف شاكر والشريف شرف اللذان سوف يلعبان دوراً مهماً في الثورة وفي الدول المنشأة لاحقاً في الولايات العربية للإمبراطورية. وخصوصاً الشريف شرف الذي كان رفيق سلاح لفيصل وعمل كواحد من مستشاريه. وفي عام 1926 انضم لفيصل في العراق.

7 ـ كان الشريف حسين من هواة الموسيقا، ولقد استمرت أوركسترا البلاط لديه بأدائها في ساحة قصره وذلك خلال القصف، وعندما وقعت القذائف بالقرب من الأوركسترا والموسيقيين تدافعوا لحماية أنفسهم، قام الحسين بأمرهم بالعودة ومتابعة أدائهم بالرغم من القصف.

8 ـ لقد تم إيفاد الفاروقي إلى الحجاز من قبل البريطانيين مع الضباط السوريين والعراقيين

وذلك للمساعدة على الثورة، أنظر ستوز، مرجع سابق، ص 175. وتم تعيين الفاروقي في أوائل تموز من عام 1916 كمبعوث للحسين في القاهرة. بقي شاغلاً لهذا الموقع حتى أيلول من عام 1917.

9 ـ عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص 116. أنظر أيضاً جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص ص 99 ـ 195.

10 ـ أنظر النشرة العربية، رقم 23، 26 أيلول من عام 1916 ص 303.

11 ـ في لقائهم الأول بعد استسلام العثمانيين في الطائف، تحسّر غالب باشا، الحاكم العثماني السابق، لعبد الله عن الخرق الذي وقع بين العرب والعثمانيين. يا «للفاجعة الكبيرة عندما كنا أصدقاء والآن أصبحنا أعداء!» وبعد الوصول إلى جدة، حيث كان يجب أن يتم نقله إلى سجن أسرى الحرب من قبل البريطانيين، قام غالب بإرسال سيفه الخاص إلى عبد الله كي يتجنب تسليمه إلى ضابط أجنبي. أنظر عبد الله بن الحسين، مرجع سابق، ص ص 127 ـ 128.

12 ـ إن معظم قرى الحجاز الساحلية، مثل ينبع والليث وقنفذه وأملج سقطت بيد القوات العربية، ولكن هذه القرى لم تكن دوما حليفة للشريف حسين. طلبت السلطات البريطانية في عدن من الإدريسي، الذي يرتبط معهم باتفاقية رسمية، لاحتلال قنفذة. وقد احتاج الأمر لكثير من الضغط لطرد الأدريسي من قنفذة بعد أن عارض الشريف حسين بشدة هذا التحرك.

13 ـ أنظر سيلا آن سكوفيل، مرجع سابق، ص 87.

14 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 96.

15 ـ إن شخصية ومآثر ت. ي. لورنس كانت موضوع للعديد من السير الذاتية. وأقلها رائعته الأدبية « أعمدة الحكمة السبعة « التي تصف تقدم الثورة العربية كما تم مشاهدتها من منظوره الخاص.

16 ـ النشرة العربية لديها بعض الكتاب ذوي الفكر الثاقب الذين ساهموا في صفحاتها، وأضافوا عدداً من رواد المكتب العربي مثل هوغارث ولورانس وغيرترود بيل وفيليب غريفز. رغم أن تداولها كان محدوداً على أساس الحاجة للمعرفة ضمن الحكومة البريطانية، وكان مضمونها معروفا لحلفاء بريطانيا وهم إيطاليا وفرنسا. أنظر بروس ويستريت، مرجع سابق، ص ص 103 ـ 106.

17 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 92.

18 ـ المرجع نفسه، ص ص 98 ـ 100.

19 ـ كان الغصين عضواً في حزب الفتاة وخدم كعضو برلماني عثماني. لقد كان في اسطنبول كعضو في مجلس المبعوثان والذي تعرّف فيها ولأول مرة على فيصل. تم إلقاء القبض عليه من قبل جمال باشا في عام 1916 وبُرّأ. أُرسل إلى المنفى في منطقة ديار بكر. شهد هناك الحرمان والمجازر التي عانى منها الأرمن، والتي روى لاحقاً عنها في مذكراته الشهيرة (فائز الغصين، شهيد أرمينيا، س. أ. بيرسون، لندن، 1917). كما كتب الغصين أيضاً مجلدين من مذكراته عن الأيام التي قضاها مع الثورة العربية.

20 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص ص 127 ـ 128.

21 ـ المرجع نفسه، ص 102.

22 ـ المرجع نفسه، ص 99.

23 ـ أنظر على سبيل المثال، رسالة وينيغيت إلى مكتب الحرب، حيث كان يتذمر فيها من مناقشات فيصل المطولة مع رؤساء العشائر وتأثيرها على جهود الحرب ضد الأتراك. (من الأوراق الخاصة للسير ريجنالد وينيغيت في جامعة دورهام، أرشيف السودان 145/4، 15 نيسان 1917. أُقتبس في رونالد كولمان، «الثورة في الجزيرة العربية، 1916 ـ 1919: الصراع والتحالف للأنظمة السياسية الثلاثية»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة كولومبيا، نيويورك، 1976.)

24 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 292.

25 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة العربية: المعارك الأولى، المجلد الأول، كتب رياض الريس، لندن وقبرص، 1991، ص ص 26 ـ 125.

26 ـ سأل فيصل «لماذا عدت إلى أرض المعسكر خلفنا خلال المعركة؟ أجاب عبد الكريم [زعيم عشيرة جهينة]: فقط لنضع لأنفسنا فنجاناً من القهوة. لقد كنا نحاربهم منذ شروق الشمس وقد أصبح الآن الغسق، لقد كنا متعبين وعطشى». ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 132.

27 ـ المرجع نفسه، ص 99.

28 ـ كولمان، مرجع سابق، ص 228.

29 ـ سيلا آن سكوفيل، مرجع سابق، ص 90.

30 ـ بحسب تقرير صبحي العمري، مرجع سابق، ص. 124 ـ 125. الذي كان يعمل ضابطاً في جيش فيصل، فإن مجموعة أخرى من سجناء الحرب العراقيين المحتجزين في الهند قد نزلوا في جدة بعد أن تمردوا عندما علموا أنهم سيشكلوا كتيبة عربية لقتال الأتراك في جبهة

غزة. وأصروا على أنهم تطوعوا لقتال الأتراك كجزء من الجيش العربي وليس كوحدة في القوات البريطانية.

31 ـ جاء التجنيد في القوات المقاتلة النظامية للثورة من جانب اليمنيين والبدو والطبقات الدنيا في المدن.

32 ـ يعطي صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد الأول، أسماء حوالي 130 ضابط عراقي من الذين خدموا الثورة العربية، وحوالي 60 سوري.

33 ـ تم تهميش المصري من قبل حسين، وذلك عندما قام بتعيينه كوزير دفاع غير فاعل.

34 ـ أنظر علي جودت (الأيوبي): ذكريات 1900 ـ 1958، متابعي الوفاء، بيروت، 1967، ص ص 40 ـ 47.

35 ـ أنظر جون فيشر، أزمة رابغ، 1916 ـ 1917، دراسات الشرق الأوسط، المجلد، 38، رقم 3 (تموز 2000)، ص ص 73 ـ 92.

36 ـ أنظر جاشوا تيتلباوم، مرجع سابق، ص ص 82 ـ 83.

37 ـ أنظر النشرة العربية، رقم 28، 28 تشرين الثاني 1916.

38 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 137.

39 ـ أنظر النشرة العربية، رقم 36، 26 كانون الأول 1916.

40 ـ النشرة العربية، رقم 57، 24 تموز 1917.

41 ـ مالكولم براون، تحرير، رسائل ت. ي. لورنس، دنت وأولاده، لندن 1988، ص 101.

42 ـ النشرة العربية، رقم 36، 26 كانون الأول 1916.

43 ـ ف. و686/6، تقرير استخباراتي، 12 كانون الأول 1916، مقتبس جاشوا تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 87.

44 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 138.

45 ـ المرجع نفسه، ص ص 144 ـ 149.

46 ـ النشرة العربية، المجلد رقم 31، 18 تشرين الثاني 1916.

47 ـ زحف عبد الله إلى وادي العيس، حيث وصل في 15 كانون الثاني 1917، وكان ذلك يحمل جانب منفعة غير متوقع. ففي طريقه قام عبد الله بأسر مبعوث تركي كان مسافراً إلى المدينة المنورة ومعه أكثر من 200 ألف جنيه من القطع النقدية.

48 ـ رسالة من فيصل إلى الشريف حسين، مؤرخة بير سعيد، في العاشر من محرم، 1333 هجري (6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1916)، مقتبس في: سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 91 ـ 92.

الفصل السادس: اندلاع الثورة العربية الثانية

إن عملية الاستيلاء على منطقة وجه قد عززت موقع فيصل وجيشه على الأبواب الجنوبية لسوريا. وشكَّلت قوات فيصل المؤلفة من القبائل والجنود النظاميين جيش الشمال، وذلك لتمييزهم عن القوات القبلية تحت قيادة علي وعبد الله. لقد انتشروا بشكل أساسي لمتابعة الحصار غير المحكم للمدينة المنورة ولمضايقة الحامية التركية فيها من وقت إلى آخر، لكن كان أي تحرك آخر باتجاه الشمال سيدفع الثورة إلى مساحات دبلوماسية، وعسكرية، وسياسية مختلفة تماماً: ذلك الإقليم الذي لم يظهر كثيراً في المداولات الجارية آنذاك في لندن وباريس حول إعادة رسم خارطة الأراضي العربية في الإمبراطورية العثمانية في فترة ما بعد الحرب.

في كل الأحوال، فإن زحف فيصل إلى سوريا من شأنه أن يثير قضايا شائكة للغاية بالفعل: علاقات الثورة مع خطط قوة الحملة المصرية من أجل الحملة في فلسطين وسوريا، الامتداد السياسي لشريف مكة حسين في الداخل السوري وما بعده، والبروتوكولات السرّية لاتفاقية سايكس بيكو والتي قامت بتقسيم الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ. لا عجب في أن القائد في القاهرة قد سعى في البدء للحد من مستوى النشاطات العسكرية لفيصل والعمليات العسكرية للجيش الشمالي ضد سكة حديد الحجاز، ومنع امتداد حملتهم للسيطرة على المنطقة الواقعة خارج سكة حديد الحجاز. وفي هذا الصدد، كانت القاهرة مدعومة وبقوة من قبل الفرنسيين، والذين كان لديهم بضعة أسابيع بعد اندلاع الثورة، قاموا بإرسال هيئة استشارية عسكرية فرنسية إلى الحجاز بقيادة الكولونيل إدوارد بريموند. كانت التوجيهات لبريموند هو تقديم الدعم المشروط للثورة ومراقبة نشاطها، وكتابة تقارير حولها، وإذا اقتضت الضرورة إحباط مخططات الشريف وأبناؤه، خصوصاً فيصل.

إن المصالح الفرنسية في سوريا كانت معروفة ومحددة في اتفاقية سايكس بيكو، وأي زحف لفيصل باتجاه جنوبي سوريا كان يجب أن يكون في إطار وجهة النظر الفرنسية وطموحاتهم المستقبلية في المنطقة.

فيصل في وجه

لقد ترافق مع احتلال منطقة وجه تدمير كبير ونهب واسع من قبل القوات المحتلة. وفي الواقع قام فيصل بتحذير رجال البلدة عن قرب حدوث هجوم وشيك وحثّهم إما على الثورة ضد 200 رجل من الحامية العثمانية القوية أو على الرحيل عن بلدتهم، لكنهم في الواقع لم يقوموا بأي منهما، وكان معظمهم من المصريين أتوا عبر البحر الأحمر، وغير متعاطفين مع الثورة وهم أكثر من الذين أصولهم حجازيين. تم استعادة وفرض النظام في البلدة وبسرعة، عندما عيّن فيصل مولود مخلص كحاكم للبلدة[1]، ولقد أخافت إجراءاته القاسية اللصوص (ورجال البلدة)، وبدأت منطقة وجه تعمل في الحال كمقر جديد للجيش الشمالي لفيصل.

حالاً وبعد سقوط منطقة وجه أصبحت الثورة أقوى وبشكل أكبر عند وصول جعفر العسكري، وهو ضابط عراقي من أصل كردي وقد تخرج من الأكاديمية العسكرية في اسطنبول، كما تلقى قبل اندلاع الحرب تدريباً متقدماً للضباط في الإمبراطورية الألمانية. كان العسكري ضابطاً مخلصاً للعثمانيين، وشهد المهام في الصحراء الليبية كجزء من الوحدة العثمانية التي كانت تدعم رجال قبائل السنوسي، ومقرهم في برقة، وذلك بعد عدة مواجهات ومعارك مع القوات البريطانية القادمة من مصر. إحدى هذه المعارك، والتي تحولت إلى قتال يائس بالأيدي، حيث أصيب بضربة سيف ووقع أسير لدى البريطانيين، ومن ثم تم نقله إلى مصر في بدايات عام 1916 إلى مشفى عسكري في القاهرة لسجناء الحرب، والذي حاول الهروب منه في مغامرة فاشلة انتهت بإدخاله المشفى مرة أخرى وبقدم مكسورة[2].

في حبسه الثاني في المشفى قام جعفر العسكري بالتقرب من العديد من القوميين، بما فيهم صهره المستقبلي نوري السعيد والطبيب السوري عبد الرحمن الشهبندر، الذي أصبح لاحقاً وزير الخارجية في حكومة فيصل بدمشق، ولإعادة تقييم موقفه الداعم للقضية العثمانية قام هذان الشخصان بتزويد العسكري بمعلومات مفصلة عن الجمعيات السرّية العربية، وعمليات القمع التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي ضد القوميين في سوريا. وخلال فترة غياب العسكري في ليبيا تم تسريب معلومات قليلة إليه فيما يتعلق بما يحدث في سوريا، لا سيما فيما يتعلق بمدى الإجراءات القمعية لجمال باشا. كان الطبيب الشهبندر على تواصل منتظم مع كبار موظفي المكتب العربي في القاهرة مثل كلايتون، هو غارث، ولورنس، كما رتّب لقاءً للعسكري معهم كي يقيس بنفسه احتمالات الثورة. عرض العسكري أن ينضم إلى قوات الشريف، ولم يُثر في البداية أي رد، ربما بسبب قلق مبعوث حسين في القاهرة الفاروقي من تعمّد حجب اتصالات العسكري مع الشريف حسين[3].

وكضرورة لقوات عربية نظامية لتقوية الثورة أصبح واضح وبشكل متزايد أن العسكري هو

الخيار الواضح وذلك لقيادة هذه المفرزة في الساحة بالرغم من شكوك حسين بضباط الجيش النظامي، وكره جنرالاته للمتمدنين السوريين والعراقيين[4]. في النهاية كان فيصل هو من سيطر على تحفظات أبيه، وقام مباشرة بإرسال رسالة إلى العسكري داعياً إياه للانضمام إلى الثورة العربية عارضاً عليه تولي قيادة القوى النظامية للجيش الشمالي[5]. وفي بدايات عام 1917، أبحر العسكري على متن هاردينج متوجهاً إلى منطقة وجه.

وصف العسكري لقاؤه الأول مع فيصل على أراضي منطقة وجه بالعبارات التالية: «لقد رأيت أمير شاب، نحيل، بملامح ناعمة، وقام بمعانقتي قائلاً: لقد أردت أن يتم هذا اللقاء منذ زمن بعيد، وشكراً لله أنه [قد تحقق]... نحن لم نكن، ولسوء الحظ، قادرين على تشكيل قوى منظمة، وذلك بسبب الصعوبات التي واجهتنا من كل النواحي، لكن الآن أنا آمل أننا سنكون قادرين على بذل كل جهودنا لتشكيل جيش منظم يمكن أن يتولى كل المهمات العسكرية وبكل الظروف»[6]. لقد وجد عسكري الأمير فيصل منغمساً في الشؤون السياسية والإدارية، لذلك أدرك أنه ليس باستطاعته أن يقوم بتكريس الوقت اللازم للإدارة التفصيلية للشؤون العسكرية. قام فيصل بتفويض هذه المسؤولية وعن طيب خاطر إلى العسكري، ووافق الأخير على طلبه بشأن مركزية صنع القرار العسكري للعمليات العسكرية والانتشار ضمن هيكلية قيادة رسمية تتبع للعسكري ولفيصل بشكل مطلق. كما إن التجمعات القبلية للجيش الشمالي، والتي هي الأكثر أهمية عددياً ستأتي تحت شكل من أشكال الانضباط العسكري.

قام البريطانيون، بعد سقوط منطقة وجه، بانتداب عددٍ من الضباط، بالإضافة إلى لورنس، وذلك لتقوية قدرات الجيش الشمالي الضاربة، واستخدام المتفجرات، ولتقديم الاستشارة للعمليات. كما قاموا بضم خبراء متفجرات: الكولونيل ستيوارت فرانسيس نيوكومب، الكابتن هيربرت غارلاند، وضابط العمليات الرائد بيرس تشارلز جويس. لقد كان هؤلاء المستشارون المهرة هم من تحمل وطأة الجهود البريطانية لدعم جيش فيصل الشمالي، لكن كان لورنس هو من حصد الشهرة. باعتراف لورنس نفسه، أنه كان يرى نفسه وبشكل أساسي كضابط مخابرات وارتباط مع فيصل[7]. وبكل الأحوال، وبسبب وظيفته كقناة أساسية يتم من خلالها تدفق الأسلحة، الإمدادات، المعلومات، والمال ما بين الحلفاء والثورة، بنى لورنس لنفسه موقعاً قيادياً مع فيصل.

تجمّع كل المستشارين في مخيم فيصل في منطقة وجه، عندما تجري التحضيرات للمرحلة التالية من الحرب. كما إن فيصل يعلم أن تقدم الثورة يعتمد على القبائل التي يخطط جيشه للسير عبر أراضيها، بقدر ما يعتمد على استعداد قواته النظامية وفِرقه القبلية.

وعلى أي حال فإن الاتجاه الاستراتيجي للثورة لابُدَّ من تحضيره على ضوء توقعات الصراع التي يلتزم بها القادة. لقد كان فيصل وأبيه مصممين على أن تسير الثورة إلى المرحلة السورية

كرأس حربة ومحفز وذلك لتأسيس الدولة العربية المستقلة. إن تصميم حسين كان قد خفف من مخاوفه بشأن احتمال فقدانه للسيطرة والتأثير على جيش فيصل، كلما أصبح أكثر بُعداً واستقلالاً عن مكة المكرمة. ومن جهة أخرى، كان فيصل متحمساً للانتقال إلى جنوبي سوريا حالما يحزم حلفاؤه وعشائر المنطقة أمرهم، لكنه بدوره أيضاً قد تراجع، بسبب الأولوية التي أعطاها البريطانيون وهي استهداف سكة حديد الحجاز مع الإبقاء على حصار المدينة المنورة. كما إن السيطرة الكاملة للبريطانيين على الإمدادات، الأموال، والأسلحة كانت من أقوى الأعباء التي تم وضعها على كاهل فيصل والثورة بشكل عام، لا يمكن تجاهل اهتماماتهم وأولوياتهم إلا في حالة الخطر الشديد. في شباط (فبراير) 1917، قامت حكومة الحرب بتكليف ضابطٍ سياسيٍ كمستشار للشؤون السياسية لدى قوة الحملة المصرية شرق الحدود المصرية وللتأكد من التعاون المستمر مع الفرنسيين، لقد كان البريطانيون يدركون جيداً القيود المفروضة على عملهم ودعمهم الممكن تقديمه للثورة العربية إذا انعكس بأي حال على التزاماتهم مع الفرنسيين[8].

تم تمثيل الفرنسيين في الميدان بقائد المهمة العسكرية الكولونيل إدوارد بريموند، وكانوا يضغطون من أجل إشراك قوات التحالف الرسمية في الحملة على الحجاز ولإدخال الثورة بوضوح للدائرة الاستراتيجية والتي أعطت الحلفاء السيطرة على الحملة. في هذا الخصوص، كان بريموند دائماً يقظاً في متابعة أهداف السياسة الفرنسية في المنطقة، والتي شملت أيضاً الحفاظ على المصالح الفرنسية في سوريا حسب اتفاقية سايكس-بيكو، بالإضافة إلى التأكد إلا ينتج عن الحملة بزوغ دولة عربية جديدة، الأمر الذي من شأنه أن يشكل تهديداً على السيطرة الفرنسية المتوقعة على بلاد الشام. في الواقع، لقد ألحّ بريموند وبقوة على أن تتكون القوات الأنغلو ـ فرنسية وبشكل رئيسي من المسلمين، ولكن تحت قيادة ضباط أوروبيين من إمبراطورياتهم (المفترضة من الهند وشمال إفريقيا)، لكن بإمرة ضباط أوروبيين، تنزل في رابغ وتصطدم مع الجيش العثماني مباشرة في معركة على أرض الحجاز[9].

وصل الآن بريموند إلى منطقة وجه وذلك لتقديم تهانيه على احتلال المدينة، وللضغط من أجل إنزال الحلفاء في العقبة[10]. كان الفرنسيون مصممين على عرقلة تقدم قوات فيصل باتجاه سوريا، وذلك من خلال استباقه والاستيلاء من خلال القوة الأنغلو ـ فرنسية على أكبر قدر ممكن من الأراضي في خط مسيره المتوقع.

يقع معسكر فيصل في منطقة وجه على بعد ميل عن البحر، وكان عبارة عن مجموعة معقدة من خيام قد تمّ نصبها في مجموعات للضيوف، فِرق العمل، الخدم، مناطق الاستقبال، وأماكن المعيشة. كما إن القوات النظامية ورجال العشائر، المستشارين الإنكليز، والكتيبة المصرية بقيادة بريطانيا تحيط خيامها مخيم فيصل وعلى نطاق واسع[11]. كان فيصل دائماً ما يعاني

من ضغط البريطانيين، وذلك لشن غارات على سكة حديد الحجاز ولمضايقة المواقع العثمانية المحيطة بالمدينة المنورة. زادت شدة هذه الضغوط عندما تلقوا تقرير استخباراتي غير صحيح بأن الأتراك على وشك ترك المدينة المنورة وسحب قواتهم كي يقوموا بتعزيز مواقعهم ضد تحرك بريطاني متوقع في جنوبي فلسطين. «لقد قمنا بإخبار فيصل بالموقف الصريح وأن مصالح الحلفاء في هذه الحالة تطالب بالتضحية أو على الأقل بتأجيل الامتيازات الفورية للغرب». كتب لورنس: لقد ارتقى فيصل إلى مرتبة الشرف ووافق على الفور على بذل قصارى جهده»[12]. كان لا بدّ من تأجيل الزحف نحو الشمال، وأن يتم التركيز على تدمير الاتصالات والإمدادات المتوجهة للحامية التركية في المدينة المنورة، وذلك عن طريق تكثيف الهجمات على سكة حديد الحجاز.

ماعدا جيش فيصل في منطقة وجه، فإن القوى الأساسية الأخرى للثورة كانت تحت إمرة الشريف علي في وادي العيسى في منطقة بير درويش بالقرب من المدينة المنورة، مع قوى أخرى أقل قوة تحت إمرة عبد الله في وادي العيسى شمال المدينة المنورة. وفي أواخر شهر آذار (مارس) 1917 توجه فيصل إلى وادي العيسى بصحبة جعفر العسكري، وهو الآن قائد القوات الشمالية، ومع مساعده مولود مخلص وذلك لمقابلة أخيه ومناقشة خطط العمل المستقبلية للقوى المنضمة إلى الثورة. استغرقت الرحلة إلى وادي العيسى، عبر الشعاب الجافة والقاحلة، يومان عبروا خلالها أرضٌ مقفرة، أشجار شوكية ملتفة وجرداء متناثرة عبر الأراضي. كانت أشعة الشمس تضرب بشكل مخيف، تسوقهم الجمال بحثاً عن أي ملجأ، وقد مزقت الأشواك الحادة ملابس الراكبين وأخبية الجمال[13]، لقد كانت الظروف في وادي العيسى رهيبة. ولمدة ثلاثة أيام ضربت المنطقة عاصفة رملية مستعرة، لكن فيصل وحاشيته تحملوا وتابعوا.

رافق فيصل الكابتن، فيما بعد الرائد، جويس وكيناهان كورنواليس الضابط السياسي للمكتب العربي والذي تم إرساله إلى منطقة وجه في مهمة ميدانية، بالإضافة إلى القائد راهو الضابط الفرنسي من أصول جزائرية الذي التحق بمجموعة بيرموند الاستشارية[14]. إن اقتراح توحيد الجيوش الثلاثة بقيادة العسكري لا يمكن تنفيذه بسبب صعوبة الاتصالات مع جيش علي. على أي حال وافق فيصل وعبد الله على خطة عملية لا تُلزم أياً من الطرفين للقدوم من أجل مساعدة الطرف الآخر، وذلك بسبب صعوبة الاتصال وضرورة التحرك السريع للتعزيزات والتموين[15].

أمّنت احتلالات فيصل السابقة في منطقة وجه الدعم للقبائل الرئيسة في المنطقة، ولأولئك الواقعين على طول الطريق المخطط للزحف باتجاه جنوبي سوريا. أعلنت قبائل بِلي جميعها حول منطقة وجه دعمها لفيصل، كما أخذ الدعم من معظم عشيرة جهينة، ومن بني عطية زعماء الصحارى إلى الشمال الشرقي لمنطقة وجه، وقد تم تأمينها عندما أقسم زعيمها عاصي بن عطية على الولاء لفيصل، وذلك بعد سقوط وجه مباشرةً. وبكل الأحوال، فإن اتحاد العشائر الرئيسة

لصحراء سوريا الجنوبية، الرُوَلَة، العنيزة، بني شاكر، وفي المقدمة الحويطات، كان لا بد من كسبها قبل الشروع بأي عمليات جادة في منطقتهم [16]. كان زعيم عشيرة الرولة نوري الشعلان قد بدأ للتو بالتواصل مع فيصل وذلك خلال الأيام الأخيرة من عام 1915 في دمشق وكضيف غير مرحب به لدى جمال باشا. كانت قبيلة الشعلان تسيطر على الحدود الشرقية للصحراء السورية، ما بين الجوف (في الجزء الشمالي الغربي لشبه الجزيرة العربية) وصولاً إلى جبل الدروز جنوب شرق دمشق. كان فيصل يصادق الشعلان لبعض الوقت ويقوم بتبادل الهدايا معه. وقد تم إرسال سكرتير فيصل فايز الغصين لمركز الشعلان في الجوف سعياً للحصول على دعمه، لقد كان الشعلان في ذلك الوقت رجل كبير السن ويُخشى من كثيراً، لكنه يحظى بالاحترام وذلك بعد أن ارتقى إلى منصبه كزعيم لا جدال فيه وذلك بمقتل أخويه. أما القبيلة الأخرى التي تقف في وجه التقدم نحو الشمال فهي الحويطات، التي كان قائدها الأكثر وقاراً والمرحب به كمقاتل وهو عودة أبو تايه. تسيطر قبيلة الحويطات على منطقة معان، وهي مركز رئيس للخط الحديدي الحجازي والمرفأ الصغير في العقبة.

في أوائل شباط (فبراير) 1917 وصل مبعوث من قبل نوري الشعلان إلى مخيم فيصل في منطقة وجه جالباً معه فرس كهدية، لقد كان تعبيراً عن الدعم الضمني، لكن لم يرغب نوري الشعلان بكسر العلاقة علانية مع العثمانيين إلى أن يبدأ القتال جدياً. وفي اليوم نفسه، جاء وفد من الحويطات حاملاً معه تحيات عودة وعبارات الدعم، قام فيصل بالترحيب بالزوار وعانقهم، لكنه رغب بحضور عودة شخصياً، ليس فقط لقياس مدى التزامه، ولكن ليطلعه أيضاً على الخطة المفصلة لامتداد الثورة في منطقته [17]. أعطى تواجد هذين المبعوثين الممثلين للقبائل الكبيرة شمال منطقة وجه المزيد من الزخم لحشود رجال القبائل وشيوخها المندفعين للتعبير عن دعمهم لفيصل والثورة. وفي رسالة لأبيه في 23 آذار (مارس) 1917، تحدث فيصل عن وصول «ألفي فارس إلى مخيمه من الرولة، والشرارات، والحويطات، وبني شاكر، والعميرات [قبائل]، مع 242 شيخ، 90 منهم جلبوا معهم 140 حصان وأسلحة». قام فيصل بتجنيدهم في صفوف قواته من خلال أدائهم قسم الولاء على القرآن الكريم، حيث ألزم القسم مؤديه بــ: «**ننتظر حين تنتظر [فيصل] وأن نسير حين تسير، وأن لا ندين للترك بطاعة، وأن نحسن معاملة كل من يتكلم العربية وأن نجعل الاستقلال فوق حياتنا وأهلنا وأموالنا**»[*]، (سواء أكان بغدادي، حلبي، سوري، أو من دم صافي)، وأن يضع الاستقلال في أولى أولوياته، فوق الحياة، الأسرة، والمنفعة[18].

في الخامس من نيسان (أبريل) 1917، وصل وفد من رجال القبائل إلى مخيم فيصل في

(*) النص الأصلي لقسم الولاء في الثورة العربية الكبرى كما ورد في وثائق المكتبة الوطنية الأردنية. (المترجمان).

منطقة وجه وكان يضم بينهم عودة أبو طايح[19]. بقي عودة قرابة الشهر في مخيم فيصل وهم يقومون بوضع الخطط للعمليات القادمة ضد الأتراك في منطقة معان. لقد قام لورنس بوصف اللقاء الأول وبأدق التفاصيل بين فيصل وعودة: «أمسك عودة يد [فيصل] وقام بتقبيلها، ثم تنحوا جانباً بخطوة أو اثنتين وتبادلا النظرات ـ

إنهما ثنائي رائع ويمثلان أفضل ما هو مثالي في الجزيرة العربية. كان فيصل يمثل السيادة، وعودة المقاتل، كل منهما أتقن دوره، وأدركا وأحبا بعضهما فوراً[20]. أصبحت قبائل المنطقة الآن جميعها على متن سفينة فيصل، وكل ذلك بفضل صبر فيصل الذي لا يعرف الكلل ومثابرته لحل النزاعات القبلية وتلطيف الحساسيات. ساعده في هذا الأمر توافر الدعم المادي إلى حد كبير، بالإضافة إلى الدعم المالي المقدم له من قبل البريطانيين. في 21 شهر شباط (فبراير) 1917 قام مكتب الحرب بالموافقة على نقل أكثر من 30 ألف بندقية و15 مليون طلقة إلى قوات فيصل في منطقة وجه، وفي أوائل شهر كانون الثاني (يناير) قام فيصل بطلب 150 ألف جنيه من وينغيت في القاهرة وذلك لكسب نفوذ عدة قبائل من شمال الحجاز. وقام وينغيت بالتوصية أن يتم منح هذا الطلب، لكن تم تحديد الإعانة القبلية بـ 10 آلاف جنيه[21].

سقوط العقبة

انطبع سقوط العقبة في ذهن عامّة الناس لارتباطه بشخص لورنس، وربما أكثر من أي إنجاز حقيقي لبطولاته الأخرى، حيث أُطلق عليه لورنس العرب. وإن مذكراته «أعمدة الحكمة السبعة» قد زودتنا بوصف مفصل للأحداث التي سبقت سقوط العقبة، وقدّم لورنس لنفسه دوراً مركزياً ليس فقط في التخطيط وتوجيه العمليات والتي بلغت ذروتها في الاستيلاء على العقبة، ولكن أيضاً في تصورها. قلة من كُتّاب سيرته سبق أن فحصوا أو دحضوا ادعاءاته. وربما كان ذلك على الأغلب بسبب عدم القدرة أو عدم الرغبة باستخدام مراجع عربية، بما فيها مذكرات أبطال الثورة العربية. إن كل هذه السير، وليس بالضرورة من أجل تشويه سمعة أو الانتقاص من أهمية لورنس في حملة العقبة، تركز بصورة مختلفة على أعمال كل اللاعبين.

في جميع التقارير العربية، يظهر فيصل من الأوائل وأشد المؤيدين لوضع استراتيجية الاستيلاء على العقبة. ففي رسالة قام بإرسالها إلى والده في منتصف كانون الأول (ديسمبر) 1916 (تم تأريخها 21 ربيع الأول من عام 1335 هجري)، كتب فيصل ذلك «بعد [سقوط] منطقة وجه، بقي علينا ضبا ومُلحية فقط [على الساحل الشمالي للحجاز] وكلتاهما ضعيفتان [دفاعاتهما سيئة] الآن. بعد ذلك، علينا فقط أن نأخذ العقبة وأن ننضم إلى القوات الإنكليزية [نزحف من سيناء]»[22]. وفي ملاحظة بتاريخ الأول من آذار (مارس) 1917، من الرائد فيكيري وهو ضابط

مدفعية خدم في السودان وتم إرساله إلى منطقة وجه، قام بالكتابة إلى المكتب العربي بأن فيصل مهتم جداً بالاستيلاء على العقبة وذلك بمساعدة قواته فقط، الأمر الذي سيعطي تأثير هائل على السوريين، ولهذا السبب توجه فيصل بطلب من السفن البريطانية لنقل قواته عبر البحر للاستيلاء على الميناء. قام كلايتون بالرد أنه يتوجب ثني فيصل عن التحرك إلى العقبة في الوقت الحاضر، لأنه قد يلهيه عن مهمته الأساسية وهي مهاجمة سكة حديد الحجاز. في كل الأحوال، فإنه لا توجد أي سفينة حربية متوافرة الآن من أجل مهمته[23].

إن أهمية العقبة بالنسبة للأهداف العسكرية لفيصل وأبيه لا يمكن التقليل من شأنها. إذ لم تكن العقبة مجرد امتداد هام لإقليم مسيطر عليه من قبل الثورة حتى الأراضي السورية، لكنها كانت أيضاً قاعدة، يُمكن انتشار الثورة منها وبسرعة نحو سوريا وتقوم بالتأسيس للمطالبات العربية بالاستقلال. لقد تم تحديد أهداف حرب الشريف حسين في الواقع من قبل الفاروقي، وذلك بعد لقائه مع الشريف في حزيران (يونيو) 1916، إن جوهر المحادثة قد تم تضمينه على شكل ملاحظة من المكتب العربي في القاهرة إلى كلايتون، والذي كان آنذاك في لندن[24].

في البداية، أراد الشريف حسين أن يتم الاعتراف به سياسياً من قبل الحلفاء كرئيس ذو سيادة للمملكة العربية، وثانياً أراد أيضاً تجميع القوى العسكرية والزحف بها نحو سوريا في أقرب وقت عملياً. إن احتلال سوريا من قبل قواته سوف يقوي موقعه، ويؤكد سلطته كما يعطيه الأولوية من بين المطالبين الآخرين وبالتحديد فرنسا، كان حسين يعتمد على الدعم المالي والعتاد البريطاني مما سيمنحه موقفاً قوياً جداً حيث يثبت سلطته وأولويته بالنسبة لمطالب الآخرين، [أي فرنسا]، لكنه ما زال بإمكانه متابعة أهدافه كلما سمحت له الظروف بالقيام بذلك.

كانت العقبة تقع في مركز طموحه، علاوة على ذلك، كان لدى فيصل أسبابٌ أخرى ليندفع باتجاه سوريا، فقد كان لديه أصدقاء وأتباع عديدين في ذلك البلد. تتطلعوا إليه كقائد ورمز للثورة القومية. كان يجب أن يُنظر إلى جيشه على أنه يتحرك نحو السيطرة على منطقة معينة أكثر من مهاجمة طرق النقل والإمداد للأتراك فقط.

وثمة عامل آخر ربما يدفع فيصل للتركيز على التقدم نحو سوريا يرتبط بوجود اتفاقية سايكس ـ بيكو، والتي ربما تم الإشارة إليها أمام فيصل من قبل لورنس في شهر شباط (فبراير) 1917[25]. وهذا يمكن أن يفسر الإحباط عندما دعاه جويس للتركيز على الخط الحديدي الحجازي والمدينة عوضاً عن التوجه شمالاً نحو سورية. وقد كتب جويس إلى ويلسون « لقد بدا لي أنه هو [فيصل] يميل إلى التركيز على أفكاره المتعلقة بالشمال وسوريا في حين أن المعلومات لدي حتى الآن أن الذهاب إلى المدينة المنورة يجب أن يكون الهدف الأول لكل فِرق القوات لدى الشريف وسعيت لشرح ذلك له وبكل وضوح»[26]. وفي شهر نيسان (أبريل) 1917 كان فيصل قلقاً

بسبب شائعة تقول بأن الفرنسيين يخططون لإنزال 60 ألف من قواتهم في سوريا، إنه تطور قد يحطم كل الإمكانات لتشكيل دولة عربية مستقلة والتي تشمل معظم، إن لم يكن كل، سوريا[27].

إن احتلال العقبة بالقوة مرتبط وبشكل واضح بالثورة العربية تحت القيادة والتوجيه الكلي لفيصل، سيكون حدثاً بالغ الأهمية، ويعزز من تطلعات العرب بدولة مستقلة وإحباط المحاولات الفرنسية لإفشال مثل هذا الاحتمال. في الواقع، إن تشكيل الحرس المتقدم والذي وافق فيصل على يترأس حشد القبائل جنوب سوريا ضد العقبة يوضح وبشكل جلي هذه النية. وفي رسالة إلى أبيه في 14 نيسان (أبريل) 1917، كتب فيصل: «أما بالنسبة لجهود خادمك [فيصل] في سوريا فإن الأمور تسير على أحسن ما يرام. في اليومين القادمين ومع عودة أبو تايه سيبدأ الزحف باتجاه الشمال وسيتمركز في الجفر، على بُعد 3 ساعات من معان، يرافقه الشريف ناصر بن علي، ومن الممكن أيضاً خادمكم نسيب [البكري، الدمشقي] وذلك للقيام بالترتيبات الضرورية للثورة الشاملة»[28]. لم يكن هناك أي ذكر للورنس، قام فيصل باختيار الشريف ناصر على رأس الحملة الاستطلاعية والعمل كممثل له مع القبائل الشمالية[29]. العضوان الآخران اللذان كانا تحت إمرة فيصل ورافقاه برحلته الاستطلاعية كانا نسيب البكري، صديق فيصل المقرب وعضو من جمعية الفتاة السرّية، وزكي الدروبي، وهو ضابط نظامي سابق في الجيش العثماني. إن وجود سوريين اثنين كان، وبشكل أساسي، لفرض تأسيس تواصل مع المعارضين السوريين وذلك للمساعدة في المعركة في سوريا.

شارك لورنس في الحملة كاختصاصي متفجرات، وذلك بعد أن توسل لفيصل للسماح له بالانضمام إلى المجموعة[30]، وبالرغم من أنه لم ينظِّم الخطط للحملة أو يقودها فإن وجوده كان حيوياً في الفتح اللاحق للعقبة. غادرت الحملة منطقة وجه في التاسع من أيار (مايو) يرافقها 35 متطوع متدرب من البدو، مع بنادقهم، متفجرات، و20 ألف جنيه من الذهب. عبروا الصحراء الشرقية ومن ثم انحرفوا باتجاه الشمال عابرين خط سكة الحديد حتى وصلوا إلى وادي سرحان في 20 يوم. وخلال أسبوعين، كان الشريف ناصر وعودة [أبو تايه] قادرين على تجنيد 500 مقاتل من قبائل الرولة والحويطات وزحفوا معهم باتجاه الغرب، لكن تلك القوة كانت أضعف بكثير من أن تستولي على معان.

وفي الثاني من تموز (يوليو) 1917 حدثت مواجهة مع كتيبة تركية بالقرب من معان في منطقة أبو الليسان وتلا ذلك معركة شرسة. قُتل في تلك المعركة حوالي 300 تركي ومجندين عرب، كما وقع 160 أسير في يد القوة الاستطلاعية. لقد كان نصراً لافتاً، ويعود الفضل في ذلك النصر لشجاعة عودة ورجال قبيلته، وقد شجّع هذا النصر العديد من القبائل المترددة للانضمام إلى القوة وفتح الطريق إلى العقبة، كما استسلمت عدة حاميات تركية في المنطقة، وقامت

قوات أخرى بالانسحاب إلى مواقع محصنة حول البلدة. كانت الدفاعات التركية هناك تهدف فقط إلى منع شنّ الهجوم من البحر، كما إنها لم تعد تصمد أمام اعتداءات العرب المباشرة، وفي السادس من شهر تموز (يوليو) قامت حامية العقبة بالاستسلام ودخل الشريف ناصر وقوته إلى العقبة. استسلم 42 ضابط من الجيش التركي و700 جندي، كما وصل عدد قتلاهم وجرحاهم إلى 600.

قام الشريف ناصر[31] بكتابة رسالة مفصّلة لفيصل من العقبة وباللهجة العامة للبدو، تم تأريخها في السادس من تموز (يوليو) 1917 (15 رمضان، 1335 هجري)، واصفاً الأحداث[32]. في رواية الشريف ناصر للبعثة الاستطلاعية وسقوط العقبة تم ذكر اسم لورنس مرة واحدة، وكعضو فقط في المجموعة التي قامت باستطلاع منطقة الزرقاء. لم يكن هناك أي إشارة لدور قد قام به لورنس في التخطيط والتنظيم للهجوم. نسب ناصر الفضل لرجال العشائر ولأعمالهم البطولية، ولقد كان ناصر معروفاً بموثوقيته لذلك كانت الرسالة دليلاً قوياً على أن لورنس قد بالغ كثيراً بالنسبة لدوره في الحملة. بعد ذلك مباشرةً، انطلق لورنس وثمانية من المتطوعين وعبروا صحراء سيناء متوجهين إلى قناة السويس لينقلوا للبريطانيين أخبار النصر العربي، لقد كان تقرير لورنس لاحتلال العقبة للجيش البريطاني في مصر، والذي الآن تحت القيادة العامة للجنرال إدموند أللنبي، والذي حلّ مؤخراً بدلاً من أرشيبالد موراي، قد ركّز فيه بأن معظم النصر جاء بفضل وجوده. ومع ذلك، كانت الحقيقة متناقضة إلى حد كبير مع ادعاءات لورنس العرب. إنها زخرفة فنية لسرد حقيقي بشكل أساسي للبطولة والجرأة، وتقديمها في نثر مثير. وذلك بسبب معرفته التامّة أن الابطال العرب الآخرين، الغالبية العظمى منهم، ليسوا في وضع يسمح لهم الاعتراض أو تصحيح القصة.

وبينما كانت القوة الاستكشافية بقيادة ناصر تقاتل ومن ثم تسيطر على القوات التركية في العقبة، قام فيصل وبنفسه بقيادة فرقة كبيرة خارج منطقة وجه لمهاجمة المواقع التركية الواقعة على سكة حديد الحجاز. تألفت القوة من «كتيبة القبلة» المشكّلة حديثاً من القوات النظامية بقيادة جعفر العسكري، مفرزة سلاح الفرسان وتتكون من200 فارس وأكثر من 200 بدوي على الأحصنة والجمال. توجهوا جميعاً إلى وادي جَيدا حيث نزل فيصل ودعا قبيلة جهينة في المنطقة لينضموا إلى قواته للمشاركة في الهجوم على محطات سكة حديد الحجاز. تم شن سلسلة من المداهمات ضد مواقع حيوية لسكة الحديد في زُمرد، لكن الحملة توقفت وذلك عندما أمر فيصل القوى المهاجمة بالعودة إلى وادي جَيدا ومنها إلى منطقة وجه للاستعداد لنقلهم إلى العقبة. وقد وصلت للتو أخبار سقوط العقبة[33].

بشكل عام استقبل أللنبي أنباء سقوط العقبة بأيدي قوات الجيش الشمالي بشكل جيد، لإن

انتشار الثورة إلى الشرق والجنوب من سوريا سوف يساعد وبشكل كبير الحملة المخطط لها إلى فلسطين بقيادة قوة الحملة المصرية[34]. وقد اتخذت القيادة العليا قراراً بوضع جيش فيصل تحت قيادة الجنرال أللنبي، وأن يلائم عملياته ضمن سياق استراتيجياته وخططه للحملة على سوريا. من الآن فصاعداً أصبحت وظيفة الجيش الشمالي ضمن إطار هيكل قيادة أللنبي أكثر منها تحت السلطة المستقلة للملك حسين. كان الأخير قد اتخذ مؤخراً لقب الملك، مما أثار ذعر الحلفاء، لقد وافقوا على مضض على دعوته ملك الحجاز أكثر من دعوته ملكاً على الأراضي العربية، وهو اللقب الذي أعطاه لنفسه[35]. إن هذا الأمر قد أغضب حسين وقام بالشكوى بأن البريطانيين قد عرضوا عليه من قبل الاعتراف به كخليفة، والذي هو أعظم بكثير من لقب ملك. وقد أثّرت هذه القضية بشكل كبير على تصورات حسين بشأن صدق الالتزامات البريطانية تجاهه وللسبب الأوسع للثورة، الأمر الذي ساهم في توتر العلاقة بين العرب والبريطانيين ولسنوات.

لقد تم اختيار لورنس من قبل القيادة العليا من أجل الحصول على موافقة حسين بنقل قوات فيصل إلى العقبة ووضعها تحت القيادة الاستراتيجية لـ أللنبي. قام لورنس بمقابلة حسين في أواخر تموز (يوليو) 1917، في منتصف الطريق بين مدينتي مكة المكرمة وجدة وبصحبة الكولونيل سيريل ويلسون، صلة الاتصال والتواصل الرئيسة للبريطانيين مع حسين. وافق حسين على التغييرات المقترحة فيما يتعلق بإلحاق جيش فيصل بقوة الحملة المصرية، ولكن وفي رسالة تم إرسالها إلى فيصل فيما يتعلق بالعلاقات المستقبلية مع البريطانيين كان أكثر غموضاً، مُطلقاً يد فيصل في التعامل مع أللنبي، وذلك لتسهيل التعاون بين الجيشين[36]. لقد استمر حسين برؤية نفسه كقائد مطلق لجيش فيصل الشمالي.

في الأسبوع الأول من شهر آب (أغسطس) 1917، كان معظم الجيش الشمالي تحت قيادة العسكري والذي تم نقله بحراً ونزل في العقبة. في 23 آب، وصل فيصل بنفسه إلى العقبة لينضم إليه أخيه الأصغر غير الشقيق زيد في وقت لاحق من العام برفقة 1500 مقاتل مع عدد من أقربائه الأشراف بمن فيهم الشريف ناصر، والشريف شاكر. تم تجميع كامل الجيش الشمالي في العقبة، كما انتشر الجيش لاحتلال التلال بين العقبة ومعان، وعملوا على تقوية الدفاعات ضد أي هجوم تركي مضاد محتمل. تم تعزيز القوات بشكل رئيسي بوصول المتطوعين العراقيين من مخيمات سجناء الحرب في الهند، والذين كانوا ولحد الآن يقبعون في الإسماعيلية، قام العسكري بتنظيمهم ضمن كتيبة جديدة تحت اسم كتيبة الإسماعيلية[37].

أصبح الجيش الشمالي لفيصل الآن عبارة عن مجموعة مكونة من ثلاث تشكيلات منفصلة. يتألف التشكيل الأول من القوات النظامية تحت قيادة جعفر باشا العسكري، ويتكون من لوائي مشاة، كتائب الهجّانة، كتائب مشاة متمركزة تحت قيادة مولود مخلص، وثمان مدافع رمي تحت

قيادة القائد العراقي جميل المدفعي. وأيضاً نوري باشا السعيد، الذي انضم مؤخراً إلى جيش العقبة بعد التحاقه بقوات علي قرب المدينة حيث كان رئيساً للأركان. ويتضمن التشكيل الثاني المصريين والبريطانيين وآمر القسم الكابتن السابق، وهو الآن الكولونيل جويس، وبطارية مدرعة، وكتيبة مدفعية من وحدة الفرسان الهندية، وفصيلة النقل، ومحطة لاسلكي في العقبة. والتشكيل الثالث يتألف من منظومة بطارية جزائرية عليها أربعة مدافع ورشاشات بقيادة الفرنسي بيساني. إلى جانب هذه التشكيلات هناك مجموعات كبيرة من رجال القبائل الذين يتركزون في مناطق محددة لإشغال العدو في أثناء المعركة. وفي نهاية الحرب ازداد جيش الشمال إلى نحو ضعف حجمه.

كما إن أمور فيصل المالية قد تحسّنت بعد احتلال العقبة، فالإعانة البريطانية لحسين قد دعمت الثورة، وتمت زيادتها بمقدار 200 ألف في الشهر، وذلك في صيف عام 1917. من هذا المبلغ، تم تخصيص 50 ألف منها لفيصل في الشهر، وذلك على قدر المساواة مع حصة عبد الله. لكن وفي رسالة إلى الملك حسين مؤرخة في 12 أيلول (سبتمبر) 1917، حثّ فيها ويلسون الشريف حسين على زيادة الدعم المالي لفيصل إلى 75 ألف جنيه في الشهر، وذلك بالنظر إلى مجال نشاطه الموسع والحاجة للحفاظ على الأنصار من القبائل الجدد. كتب ويلسون: «لاشك أن عمليات الأمير فيصل ذات أهمية كبيرة بالنسبة للنتائج في الحجاز و... سورية، ومن الضروري لضمان استمرار النجاح توفير الدعم المالي اللازم للأمير فيصل. باعتبار أن النجاح الذي تحقق في عمليات الشمال هو الذي أعطى المبرر للبريطانيين بضرورة زيادة التعويض [إلى حسين]»(38).

إن زيادة موارد فيصل، لا تعني بالضرورة أنه كانت لديه إمكانية الوصول إليها بسهولة، لأن مستشاريه البريطانيين ومن خلال المال الذي كان يصل إليه، قاموا بالتلاعب بمدفوعات هذه الإعانات وبطرق قد ساهمت ومن دون أدنى شك في زيادة قلق وشك فيصل فيما إذا هذا التمويل هو حقاً تحت تصرفه. قام جويس بإرسال تقرير إلى رؤسائه في إحدى المناسبات وذلك عندما حجب الأموال عن فيصل، «لقد قمنا أنا ولورنس بفعل شيء مروع وقمنا بإعطائه [فيصل] فقط 10 آلاف جنيه وذلك بدلاً من 50 ألف، والمبلغ المتبقي 40 ألف بقي في المكان الحصين لمنحه إياه كلما دعت الحاجة»(39).

خلال خريف عام 1917، كان الجيش الشمالي قد انخرط في معارك ضارية مع الجيش العثماني، والذي كان يسعى لاستعادة الأرض المفقودة في مسرح العقبة ـ معان. ففي منطقة وادي موسى وقعت معركة استمرت طوال اليوم انتهت بتراجع الأتراك مخلفين وراءهم 400 بين قتيل وجريح وأسير. المعارك الأخرى جرى القتال فيها في دلاغة، وحيدة والقويرة، وجميعها كانت لصالح العرب. لقد صادف حدوث هذه المعارك كلها مع هجوم أللنبي الكبير في جنوب فلسطين

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، عندما احتل غزة، بئر السبع، ويافا وتحضيراته لمعركة القدس. إن مساهمة جيش الشمال بالمعارك أسهم في نجاح حملة أللنبي وقد تم الاعتراف بذلك من قبل وينغيت وذلك في رسالة إلى وزارة الخارجية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. ذكر وينغيت بأن العرب قد حجزوا وبنجاح 20 ألف من القوات العثمانية بين معان والمدينة، ومنعوهم من المشاركة في معارك الجنوب بفلسطين[40]، وفي الوقت نفسه، اتكل البريطانيون على مصداقية فيصل وتأثيره في سكان المنطقة، وذلك لكسب دعمهم في عمليات الحلفاء.

بعد سقوط غزة وبئر السبع، تم الطلب من فيصل في إرسال أحد الأشراف، وذلك للمساعدة في تعزيز الهجوم البريطاني وتأمين مساعدة القبائل في طريق التقدم. أوفد فيصل الشريف عبد الله بن حمزة إلى قبائل المنطقة وذلك للتأكد من دعمهم وتعاونهم مع الجيش البريطاني في فلسطين، كما استخدم البريطانيون خطة وذلك بإسقاط منشورات تحمل رسالة الثورة من الشريف حسين، فضلاً عن أنها ناشدت الضباط والجنود العرب في الجيش العثماني للانشقاق والانضمام إلى الجيش البريطاني في فلسطين، و«التي ستضم ممثلاً لملك الحجاز. سوف يقومون بالترحيب بكم وسيساعدونكم على تحرير الأراضي العربية»[41]، لقد كان لهذه المنشورات تأثيرها، حيث قام سيل من الهاربين العرب بالانضمام إلى الزحف البريطاني، ومن ثم إلى قوات الجيش الشمالي. لم يعلموا أن الوعود بتحرير العرب كانت تتعارض مع الاتفاقية السرّية التي أبرمتها بالفعل بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بتقسيم الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية بعد الحرب. وسرعان ما تم إضافة إعلان من قبل الحكومة البريطانية والذي من شأنه أن يغير وبشكل جذري تكوين الأغلبية الساحقة من السكان العرب في فلسطين.

الاتفاقات السرّية والإعلانات العامة

بمجرد استيلائهم على السلطة في روسيا في ثورة تشرين الأول (أكتوبر) 1917، قام البلاشفة بإعلان تفاصيل اتفاقهم السرّي، حيث كانت الإمبراطورية القيصرية من الدول الموقعة التي قامت بتقسيم الشرق الأوسط فيما بين قوى الحلفاء إلى مناطق نفوذ واحتلال. عُرف هذا الاتفاق باسم اتفاقية سايكس-بيكو، والتي أصبحت سياسة الحلفاء الرسمية. بعدها أرسل السير إدوارد غراي رسالة إلى السفير الفرنسي في لندن بتاريخ 16 أيار (مايو) 1916، محدداً شروط الاتفاقية، والموافقة النهائية للحكومة البريطانية على شروطها. إن التحليل التفصيلي للظروف التي أدت إلى هذا الاتفاق هو خارج نطاق هذه السيرة الذاتية، مع أنها أساسية لفهم الأعمال والدوافع للاعبين بالدراما والتي بدأت تتكشف في الشرق الأوسط عند نهاية الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها مباشرةً[42].

كانت روسيا القيصرية هي التي بدأت العملية والتي بلغت ذروتها باتفاقية سايكس ـ بيكو. تم إطلاق حملة غاليبولي من قبل البريطانيين والفرنسيين وذلك للتخفيف من الضغط على روسيا لحد ما ولإحداث هزيمة سريعة للإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي فتح قضايا شائكة مثل ماذا سوف يحدث للأراضي والشعوب الذين تحكمهم.

كانت البداية من روسيا القيصرية التي بدأت بهذه العملية وتوجت باتفاقية سايكس ـ بيكو. إن حملة غاليبولي Gallipoli، التي أطلقها البريطانيون والفرنسيون من أجل تخفيف الضغط جزئياً عن روسيا ولتحقيق هزيمة سريعة للإمبراطورية العثمانية، هي التي فتحت الموضوع الشائك بخصوص مصير الأراضي والشعوب الواقعة ضمن هذه الإمبراطورية. ففي الرابع من آذار (مارس) 1915 ادعت روسيا أنه يتوجب وضع مضيق القسطنطينية تحت سيطرتها، وهو أمر يُعد هدف تاريخي للسياسة الخارجية لديها.

ورغم قبول بريطانيا وفرنسا ذلك على مضض، فإنّ هذه الطلبات دفعت الفرنسيين إلى بدء مفاوضات مفتوحة مع البريطانيين، بموجب المذكرة المؤرخة 14 شباط (فبراير) 1915، بخصوص توزيع الأراضي العثمانية في منطقة الشرق الأوسط بعد انتصار الحلفاء. كانت مناورة فرنسا المفتوحة بأن تكون كافة الأراضي السورية بما فيها فلسطين وكيليكيا تحت السيطرة الفرنسية، إلا أن البريطانيين رفضوا ذلك. إن فلسطين بالتحديد كانت تعتبر من قبل البريطانيين كياناً منفصلاً، وهي، مع المواقع المقدسة للإسلام في الشرق الأوسط، زعموا أنها تستحق نظاماً خاصاً.

ظل النظام السياسي المستقبلي في الشرق الأوسط موضوع متأرجح بين لندن وباريس حتى قيام الشريف حسين بإطلاق ثورته، والذي طالب بالالتزام الواضح بالحدود الإقليمية للدولة العربية المستقلة، الأمر الذي أعاد المشكلة إلى ذروتها. ففي 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1915، قام غريف بإرسال رسالة إلى السفير الفرنسي في لندن مطالباً فرنسا بتسمية مرشحٍ ممثلٍ لها من أجل النقاشات حول تطوير موقف الحلفاء المشترك بشأن النظام السياسي في الشرق الأوسط بعد الحرب.

قامت فرنسا بتسمية فرانسوا جورج ـ بيكو، القنصل الفرنسي السابق في بيروت، لرئاسة وفدهم، أما البريطانيون فقد استقروا على السير مارك سايكس، وقد كان قراراً مصيرياً، بالنسبة إلى سايكس فهو لم يكن دبلوماسياً من النوع التقليدي الحذر، ولا خبيراً أكاديمياً مدرباً في ثقافات ومجتمع وأمور الشرق الأوسط. هو في الواقع، وُلد لدى عائلة ثرية من يورك شاير وورث البارونية، كما تمتع سايكس بتربية انتقائية، وقد كان مسلحاً بدرجة عالية من الدراسة في كامبريدج، كما سافر كثيراً عبر الأراضي العثمانية، وأصبح أحد المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط. غالباً ما تحدث في البرلمان حول مسائل تتعلق بالدولة العثمانية خلال فترة تأديته

لوظيفته كعضو في البرلمان لدى الحزب المحافظ. لقد كان معروفاً بدعمه الشديد للدولة العثمانية في وجه التوسع الروسي، لكن خضعت آراءه لتغيرات كبيرة بعد ثورة تركيا الفتاة والتي شجبها. ولاحقاً أصبح أكثر تعاطفاً مع التطلعات الوطنية للسكان من غير ذوي الأصول التركية ضمن الإمبراطورية العثمانية[43]. وكمحارب قديم في حرب البوير[*]، لفت سايكس أنظار كيتشنر، وذلك خلال تعيينه في وزارة الحربية البريطانية، فعيّنه كيتشنر كعضو في لجنة دي بنسن حول سياسة الشرق الأوسط، وعندها سطع نجم سايكس.

يبدو أن الخطة التي وضعها كل من سايكس وبيكو تحت إشراف ومساعدة وزارة الخارجية البريطانية وكذلك الفرنسية تفي بالأهداف الإمبريالية للقوى المتنافسة في الأراضي التي ستنفصل قريباً عن الإمبراطورية العثمانية. لقد تم تصميم مناطق نفوذ وتحكّم لكل قوة، وقامت الأخرى بدورها بالقبول بها، وتم ترميز التقسيمات الإقليمية بالألوان وذلك لتسهيل الاطلاع عليها. لم تدخل الطموحات الروسية ضمن الأراضي الإقليمية العربية للإمبراطورية، لقد كانت موسكو مقتنعة بالقسطنطينية بالإضافة إلى الولايات الأربع الشرقية في الأناضول مع عدد كبير من سكان أرمينيا. أما مناطق السيطرة الفرنسية فقد تضمنت القسم الأكبر من ساحل سوريا جنوب الأناضول، والأجزاء الشمالية من ولاية الموصل، وقد تم ترميزهم بالأزرق على الخريطة. وقامت بريطانيا بمنح نفسها معظم العراق (لونته بالأحمر)، بما فيها مدن البصرة وبغداد، وأسفل السواحل الغربية للخليج. كما أن بريطانيا كانت تفكر بضم موانئ حيفا وعكا ومنافذهما.

أما بالنسبة لباقي الأجزاء من الأراضي الإقليمية العثمانية فقد تم تصميمها على شكل مناطق 'أ' و'ب'، والتي تتضمن المنافذ والمدن: دمشق، حلب، حمص، وحماة، حيث تم تخصيصها لحاكم عربي مستقل، تحافظ فيها فرنسا على سيادتها، وذلك عن طريق توفير المستشارين والمسؤولين بسلطات تنفيذية، ولها الأولوية على المشاريع. والترتيبات نفسها اشتملت عليها السيادة البريطانية على أراضي المنطقة 'ب' والتي ارتبطت وبشكل مربك مع معظم شرق الأردن، وصولاً إلى صحراء الأنبار وكركوك. لقد كان الدافع الأساسي وراء هذا هو الرغبة البريطانية للسيطرة على حقول النفط في كركوك ولربطها بخط أنبوب النفط الواصل إلى ميناء حيفا.

إن وجهة النظر القائلة بأن بريطانيا يجب أن تحتفظ بأراضٍ من شأنها تسهيل التواصل الإمبراطوري ما بين السويس والشرق قد تم صياغتها ولأول مرة من قبل كيتشنر، كما أنه قد

(*) جرت تلك الحرب بين الجيش البريطاني ومستعمرتين تُحكمان من قبل مجموعات أوربية مسيحية مختلفة في جنوب أفريقيا، كانت حرباً مُرهقة ومكلفة بين عامي 1899 ـ 1902، انتصرت فيها بريطانيا. (المُراجع).

لعب دوراً هاماً في المفاوضات. وتم تحديد فلسطين باللون البني على الخريطة، وسوف تحظى بحكومة دولية يتم تشكيلها بالتشاور مع روسيا، والبقية من الحلفاء وشريف مكة.

لم تتحقق بالضبط رؤية اتفاقية سايكس ـ بيكو بعد النظام العثماني، لقد تم استبداله في معاهدة السلام من قبل نظام الانتداب. بالرغم من ذلك هي «وثيقة صادمة « أو «عملية احتيال بسيطة « كما وصفها لورنس[44]. إن الترتيب اللاحق للشرق الأوسط ضمن الأراضي الإقليمية العربية لم يبتعد كثيراً عن هدفها العريض. لقد خلطت الاتفاقية بين غير المعقول وغير المستدام مع الغباء الصريح. كان يقع تحت الحكم المباشر سكان متقدمون نسبياً على الساحل السوري وبحد أقل في بغداد والبصرة، بينما الأراضي الصحراوية وسكان البدو قد أُعطوا حالة شبه مستقلة. كانت هناك انقسامات لا شك فيها في هذه المناطق بين مختلف المراكز السكانية، الثقافية، الاجتماعية، والدينية، وبالرغم من ذلك كان هناك قاسم مشترك في اللغة والمحفزات الأولى للهوية الوطنية. إن تقسيم هذه المناطق الإقليمية إلى مناطق نفوذ من قبل القوى المتنافسة بأنظمتها الإدارية والاستعمارية المختلفة أدت ببساطة إلى انحسار أي فرصة صغيرة محتملة لتنظيم كيان سياسي مشترك ـ حتى وإن كان مترهلاً ـ بالنسبة لسكان المنطقة العرب.

لقد تم التفاوض على الاتفاق بدون اطلاع الشريف حسين، كما أن المفاوضات المضنية بين حسين ومكماهون تمهيداً للثورة لم تحمل أي تلميح إلى وجود صفقة سرّية كان يتم إعدادها من قبل الحلفاء، باستثناء عبارات غامضة والتي تحدثت عن «مصالح حلفائنا»، «الفرنسيين»، كما وصفها مكماهون. لا مجال للشك بأن حسين كان من شأنه إفساد إمكانية الثورة إذا علم بتفاصيل خطط الحلفاء لما بعد الحرب، فهي على الأقل كانت خيانة خطيرة للثقة، وهذه الحالة أصبحت أكثر وضوحاً للبريطانيين باعتبار أن وعودهم للفرنسيين اصطدمت بروح التزاماتهم مع حسين، وبصرف النظر عن صياغتها الغامضة أو الملتبسة.

أدرك سايكس بنفسه لاحقاً التناقضات الواضحة في السياسات والالتزامات البريطانية والتي كان قد أسهم فيها بشكل كبير، ولكن لم تكن هذه الخوالج واضحة عندما انطلق باتجاه منطقة وجه وذلك ليقابل فيصل، ومن ثم يتقدم إلى جدة ليقابل هناك الملك حسين. كان سايكس قد زار لتوه القاهرة، حيث أجرى لقاءً مع وفد من المسلمين السوريين البارزين، وأعطاهم شرحاً موسعاً لخطط ما بعد الحرب بالنسبة للمناطق العربية ضمن الإمبراطورية العثمانية. دارت شائعات في القاهرة حول وجود صفقة فرنسية ـ بريطانية، والتي ربما قد تناهت إلى مسامع الملك حسين، ولكن لم يكن هناك أي دليل يثبت بأن حسين كان مدركاً لأي شيء بالتحديد. قام كلايتون بإرسال رسالة إلى وزارة الخارجية بتاريخ 10 آذار (مارس) 1917 صرّح فيها وبشكل قاطع بأن حسين لم يعرف أي تفاصيل حول اتفاقية سايكس ـ بيكو[45].

لقد كانت زيارة سايكس إلى القاهرة تمهيداً للقائه مع فيصل، وذلك بتاريخ الثاني من آذار (مارس) في منطقة وجه. لم يقدّم سايكس أي تفاصيل لمحادثاته مع فيصل، فقط قام بتقديم تقرير بأنه قد أعطى فيصل المبادئ الأساسية للاتفاقية الإنكليزية ـ الفرنسية مع الأخذ بعين الاعتبار الكونفدرالية العربية[46]. ومن غير المحتمل أن يكون سايكس قد سرّب أي تفاصيل والتي تشير ضمناً إلى الضم الفرنسي للساحل السوري، بالإضافة إلى الحالة الدولية لفلسطين.

بعد محادثاته مع فيصل، غادر سايكس إلى جدة حيث تقابل مع الملك حسين وأعطاه رسالة تحية من الملك جورج الخامس، بالإضافة لأخبار مرحِّبة بأن الحكومة البريطانية قد رفعت من إعانتها له إلى 200 ألف جنيه في الشهر.

كان لدى سايكس تعليمات واضحة بعدم الإفصاح عن محتوى الاتفاقية، ولكن عليه تهدئة قلق حسين بخصوص أهداف فرنسا في سورية[47]. وفي أثناء المباحثات ألحّ حسين على سايكس ضرورة عدم وجود تسوية بالنسبة لاستقلال العرب، وأنّه من غير المسموح لفرنسا ضمّ سورية، لأن هذا يشكل خيانة من جانبه فهو يشجع السوريين على الثورة ضدَّ العثمانيين، وليس من أجل تسليمهم إلى قوة أجنبية أخرى.

لقد كان حسين متخوف وبشكل واضح من المخططات الفرنسية حول سوريا، وتفاقمت مخاوفه بسبب تواجد بيكو في القاهرة برفقة وفد فرنسي كبير. قام بيكو بعمل عدة خطابات وتعليقات أشارت وبوضوح إلى الرغبة الفرنسية بأن يكون لها رأي دائم في إدارة سوريا، خاصة فيما يتعلق بمناطقها الساحلية. أصبح حسين الآن متحمساً للقائه بشكل مباشر. عاد سايكس إلى مصر وقام بإرسال تقرير عن مهمته، ومرة أخرى غادر متوجهاً إلى منطقة وجه لكن هذه المرة يرافقه بيكو. في 17 أيار (مايو)، تقابل فيصل مع سايكس وبيكو مرة أخرى واجتمعوا جميعهم مع ستيوارت فرانسيس نيوكومب، المستشار العسكري للجيش الشمالي، ثم غادروا إلى جدة للقاء الملك حسين. قبل بضعة أسابيع، وفي الحادي عشر من آذار (مارس) 1917، قام الجيش البريطاني في العراق وتحت قيادة الجنرال ستانلي مود بالاستيلاء على بغداد في انتصار كبير للسلاح البريطاني في مسرح الحرب بالشرق الأوسط. إن نمط إدارة الاحتلال والتي تنوي بريطانيا تأسيسه في العراق كان في أذهان الأطراف المجتمعين في جدة وبشكل كبير جداً.

في 19 أيار (مايو) 1917، تقابل حسين ولمدة 3 ساعات مع سايكس وبيكو، ومع فيصل بحضور فؤاد الخطيب، مستشار حسين اللبناني الأصل للشؤون الخارجية، وهم أنفسهم تابعوا الاجتماع في اليوم التالي، ولكن هذه المرة مع الكولونيل ويلسون، الممثل البريطاني في جدة. أثارت هذه اللقاءات قدراً كبيراً من الجدل حول ما إذا كان حسين قد تم إبلاغه بتفاصيل اتفاقية سايكس ـ بيكو. قام سايكس بكتابة تقرير موجز بنفسه حول اللقاء والذي لم يلقي الضوء على هذه المسألة. لكن

آخرين، بما في ذلك ويلسون نفسه، بيكو، فؤاد الخطيب، ونيوكومب، والذي التقوا بفيصل فوراً بعد اللقاء الثاني، كتبوا بعض التفاصيل حول الاجتماعات أيضاً. عن ماذا تمخض هذه الاجتماع؟ لم يعرضا أية تفاصيل أو رواية كاملة عن الاتفاقية أمام حسين، كما لم يخمن حسين نطاقها ومداها، وقام بتفسير الطموح الفرنسي في سوريا رغبةً في النفوذ والمميزات التي يمكن التعامل معها أو حتى استيعابها جزئياً، وأنها ليست خطة مفصلة تمَّ الاتفاق عليها مع البريطانيين لضم الجزء الأكبر من سورية. ورغم عدم قناعته فقد حاول إقناع نفسه بما قدمه البريطانيون.

وتحت ضغط كبير من سايكس خلال الاجتماعات وافق على قبول دور للفرنسين في سورية ومثله للبريطانيين في بغداد. وبالطبع، لم يقم سايكس بإخبار حسين ما هي خطط البريطانيين فعلاً تجاه بغداد والبصرة. لقد اعتقد حسين بأن البريطانيين يسعون لإنشاء دولة عربية مستقلة في العراق، وذلك بعد نهاية الحرب، وأن إدارتهم الحالية للبلاد كانت نتيجة محضة لمقتضيات الوضع الراهن.

لقد كان كُلٌّ من ويلسون ونيوكومب قلقين للغاية بأن لا يقوم سايكس بتوضيح الأمور الغامضة للموقف البريطاني وأن تُترك الأمور معلقة بطريقة غير مرضية. وقد كتب نيوكومب بأن عدداً من المواضيع الأساسية تمّ تجاهلها كلياً ولم تناقش مع حسين، وذهب إلى أبعد من ذلك ليقول «أن البريطانيين استمروا بهذه الطريقة من المراوغة مع الملك دون إعلامه بمحتوى الاتفاقية. إنهم يلعبون لعبة الازدواجية بأقصى حدودها»[48]. بدوره قام ويلسون بكتابة رسالة من 12 صفحة إلى كلايتون أثار فيها مسألة أن حسين ليس لديه أي علم بالسياسة البريطانية في العراق. كتب ويلسون، «إذا كان حسين على علم بها، فهو بالتأكيد لن يقبل بها. استمر حسين أو اختار الاستمرار بالانطباع أن احتلال العراق أمر مؤقت وأن التعويضات البريطانية له هي إلى حد ما بدل إيجار يُدفع له كتعويض عن إدارتهم المباشرة للعراق»[49]. أنهى ويلسون رسالته بحثّ حكومته على اتخاذ خطوات سريعة» وذلك للكشف عن الحقيقة، لئلا يكون للشريف والشعب العربي أي سبب وجيه لاتهام بريطانيا بالخداع.

إن التطور العميق الآخر والذي ساهم بالتأثير على مجرى الأحداث في الشرق الأوسط كان إعلان بلفور، والذي ألزم بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. كان البيان على شكل رسالة تم إرسالها إلى اللورد والتر روتشيلد من قبل آرثر بلفور، وزير الخارجية البريطاني في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. تمّ فيها تفصيل موقف سياسة مجلس الوزراء من الدعم السياسي للصهيونية، وإن كان قد تم إحاطته بشروط تتعلق ببعض حقوق السكان العرب الحاليين والذين تصل نسبتهم بالنسبة للسكان الفلسطينيين في ذلك الوقت إلى 93%: «وجهة نظر حكومة جلالة الملك مؤيدة لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل

تحقيق هذا الهدف، لقد أصبح مفهوم وبشكل كلي أنه لن يتم عمل أي شيء من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية والمتواجدة في فلسطين، أو الحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر»[50]. ربما لا يوجد إعلان آخر في الوقت الحديث يمتلك مثل هذا التأثير على شعب بأكمله، وكان غارقاً في الجدل، وكان له مثل هذه النتائج الصاعقة.

إن جذور وعد بلفور هي خارج نطاق هذا الكتاب، لكن بالرغم من ذلك إنه لمن المهم أن نؤكد بأنها قد أثّرت وبشكل مباشر وبمختلف الطرق في الثورة العربية. أولاً، من المفترض أن الحكومة البريطانية سوف تطلق يدها في فلسطين كمنطقة تقع مباشرةً تحت سلطتها، وذلك كي يتم تفعيل الإعلان. ثانياً، لقد أُفترض أن عرب فلسطين ـ وبأي شكل كان ـ هم قوميين داعمين للثورة، أو ببساطة إن سكان فلسطين المحليين ـ ليس لديهم الحق في أن يقرروا مستقبلهم السياسي، بل إن حقوقهم المدنية والدينية فقط تحتاج أن تُحترم من قبل بعض الهيئات الدولية أو الأجنبية. لقد أُصطدم الأمران مع تفسير حسين في مراسلاته مع مكماهون ونظرته أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا والتي تشكل قلب الدولة العربية المستقلة. لقد كان حسين متعاطف مع محنة اليهود في أوروبا، كما كان فيصل، ورحبا بوجود اليهود وبهجرتهم إلى فلسطين. حتى أنه حرّض الشعب الفلسطيني على الترحيب باليهود كإخوة وأن يتعاونوا معهم من أجل الصالح العام[51]، لكن هذا كان بعيداً كل البعد عن الاعتراف والقبول بادعاءات الصهيونية بحق تشكيل دولة لليهود في فلسطين، والتنازل عن المطالب العربية بالسيادة على كامل الأراضي الفلسطينية. اعتقد فيصل نفسه أن اليهود المتحدثين باللغة العربية لا يختلفون عن العرب الآخرين وأَمَلَ أن يتأسوا بأهداف الثورة العربية. وفي رسالة إلى سايكس، كتب لورنس فيما يتعلق بوجهة نظر فيصل عن اليهود الفلسطينيين واليهود الذين هم من أصول أوروبية:

بالطبع أنت تعرف الخلافات الجذرية بين يهود فلسطين ويهود المستوطنات: وأن النقطة المهمة بالنسبة إلى فيصل هي أن الأول يتكلم العربية والثاني يتكلم الالمانية العبرية. وهو على اتصال مع اليهود العرب) حيث تقع مقراتهم الرئيسة في صفد وطبريا ضمن منطقته (وهم على استعداد لمساعدته بشروط محددة. لقد أظهر اليهود العرب نفوراً كبيراً من المستوطنين اليهود، حتى أنهم اقترحوا اجراءات قمعية ضدَّهم. إلا أن فيصل تجاهل هذه النقطة حتى اللحظة، واستمر بذلك. أما محاولاته للاتصال مع يهود المستوطنات فقد باءت بالفشل. كانوا يدَّعون بأنهم رتبوا أمورهم مع القوى الكبرى وليس لديهم الرغبة بالاتصال مع الجانب العربي... والآن يريد فيصل أن يعرف ماهي الاجراءات الموجودة بين يهود المستوطنات (أحياناً يطلق عليهم الصهاينة) والحلفاء... بماذا وعدتم الصهاينة وما هو برنامجهم؟[52].

ومن أجل تهدئة مخاوف حسين، قام البريطانيون بإرسال ديفيد جورج هوغارث من المكتب العربي في القاهرة، وذلك للقاء حسين ما بين 8 ـ 14 كانون الثاني (يناير) 1918، وخلال اللقاء قام هوغارث بتسليم رسالة جليلة من الحكومة البريطانية أكدت فيها لحسين بأنه لن يُسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين إلا بقدر ما يتوافق مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب[53]. لقد كان أخيراً هذا البيان القاطع كافياً لتبديد مخاوف حسين بشأن النوايا النهائية للحكومة البريطانية حول فلسطين. خرجت هذه الرسالة إلى فيصل في العقبة والذي لم يكن مهتماً بآثار إعلان بلفور، الآن تلقى حسين توضيحات مرضية من الحكومة البريطانية تحمي الحقوق العربية في البلاد.

وفي نهاية عام 1917 أصبح كُلاً من فيصل وحسين مدركين للتغيير الدراماتيكي للمشهد السياسي المختلف عما كانت عليه عندما طرحته الثورة لأول مرة. إن نقص المعلومات التفصيلية فيما يتعلق باتفاق سايكس ـ بيكو لم يمنعهم من إدراك أن الفرنسيين يتوقعون أخذ امتيازات رئيسة من البريطانيين في الشرق الأوسط وأنهم صمموا على إنشاء إمبراطورية لهم في شرق المتوسط. إن غموض ومراوغة السياسة البريطانية سببت أيضاً قلقاً كبيراً، وسعى الطرفان، كل بطريقته، إلى تحقيق أهدافه الوطنية والشخصية وذلك من خلال المناورة والخداع وسط مسرحية هذه الحرب المعقدة وطموحات القوى الإمبريالية. وفي حالة فيصل، فإن اوراق اللعب ستكون رابحة لجانبه بالزحف إلى الشمال وتأكيد الحقائق على الأرض، وعن طريق إثبات أن جيشه ورجال القبائل لديه يستحقون القوة العسكرية الرئيسة المتحالفة في الميدان مع قوة الحملة المصرية تحت قيادة أللنبي. فقط عندئذ يكون باستطاعة العرب أن يكتسبوا وزناً كافياً ومصداقية ليتحدوا بجدية ضد المكائد الفرنسية (وحتى البريطانية، التي دعمت في النهاية استمرار الثورة)، على أمل الحفاظ على هدفهم الرئيسي وحمايته بإنشاء دولة مستقلة للعرب.

هوامش الفصل السادس

1 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص ص 168 ـ 169.

2 ـ جعفر العسكري، مذكرات جعفر العسكري، تحرير. نجدت فتحي صفوت، دار اللام، لندن، 1988، ص ص 79 ـ 88.

3 ـ المرجع نفسه، ص ص 99 ـ 107.

4 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 172.

5 ـ جعفر العسكري، مرجع سابق، ص ص 106 ـ 107.

6 ـ المرجع نفسه، ص 108.

7 ـ وزارة الخارجية 882، 6 كانون الأول 1916. مقتبس في: جون. ي. ماك، أمير الفوضى: حياة ت. ي. لورنس، مطبوعات جامعة هارفارد، كامبريدج، ماساتشوستس، 1988، ص 148.

8 ـ سيلا آن سكوفيل، مرجع سابق، ص 165.

9 ـ فيشر، مرجع سابق، ص ص 78 ـ 79 وت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 113 ـ 114.

10 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 172 ـ 173.

11 ـ بحلول شهر آذار 1917، كان هناك حوالي 40 ضابطاً بريطانياً بالخدمة ضمن صفوف الثورة العربية، ومعظمهم مع جيش فيصل الشمالي. بالإضافة إلى أن البريطانيين قاموا بإرسال مفرزة من حوالي ألف مصري، بينهم حوالي 40 ضابط مصري، معظمهم كانوا مع الجيش الشمالي. كان لدى الفرنسيين مفرزة تضم بشكل رئيسي قوات جزائرية ومغربية، وكانوا جميعهم مع الجيش الشمالي.

12 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 182.

13 ـ جعفر العسكري، مرجع سابق، ص ص 110 ـ 113.

14 ـ قام لورنس بتكريس مساحة لا بأس بها في كتابه « أعمدة الحكمة السبعة « لرحلته إلى وادي العيس، حيث تقابل مع عبد الله. وقام بإنشاء صورة معبرة لعبد الله، كما ألمح مرات عديدة إلى تنامي غيرة عبد الله من فيصل. لكن لورنس لم يذكر مطلقاً مهمة فيصل الأكثر أهمية إلى وادي العيس مع مستشاريه العسكريين الرئيسيين.

15 ـ جعفر العسكري، مرجع سابق، ص 113.

16 ـ أنظر: سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 01 ـ 300؛ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 81 ـ 178.

17 ـ أقام عودة لتوه اتصالاً بفيصل. ونتيجة لإيفاد لورنس إلى القاهرة في الرابع عشر من شباط 1917، قام عودة بطلب السماح من فيصل لمهاجمة معان. سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 301، هامش 2.

18 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 181.

19 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 01 ـ 300: وزارة الخارجية 6/882، الخامس عشر من نيسان من عام 1917، رسالة من كلايتون إلى مكتب الحرب يصف فيها وصول الوفد العشائري إلى مخيم فيصل.

20 ـ ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 228 ـ 229.

21 ـ سيلا آن سكوفيل، مرجع سابق، ص 164. نقلاً عن أرشيف السودان، صندوق 1/145، تقرير فيصل، الخامس عشر من كانون الثاني 1917. وبأسلوب بيروقراطي، قام مكتب الحرب باقتراح أن التمويل المقدم إلى القبائل يجب أن يتم خصم لاحقاً من المملكة العربية المستقبلية.

22 ـ صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد الأول، ص 132.

23 ـ وزارة الخارجية 19/882، اقتبس أيضاً سليمان موسى، مرجع سابق، ص 300.

24 ـ وزارة الخارجية 4/882، اقتبس سليمان موسى، مرجع سابق، ص 300، هامش1.

25 ـ يلمّح لورنس فقط إلى الطيش من جانبه في كتابه، لكن كاتب سيرته الذاتية جيرمي ويلسون، أعطى الموضوع تركيزاً أكثر. جيرمي لورنس، لورنس العرب: السيرة الذاتية المرخصة الخاصة بـ ت. ي. لورنس، أثينيوم، نيويورك، 1989، ص ص 361 ـ 362.

26 ـ وزارة الخارجية 6/686، 24 آذار 1917: أيضاً تم الاقتباس تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 116، هامش 126.

27 ـ سيلا آن سكوفيل، مرجع سابق، ص 184.

28 ـ رسالة من فيصل إلى الملك حسين، تم تأريخها (وجه)، الخامس والعشرين من جمادى الثاني، 1325 هجري (ما يعادل السابع عشر من نيسان في عام 1917)، من أوراق الأمير زيد، مستنسخة عند سليمان موسى، مرجع سابق، ص 103.

29 ـ الشريف ناصر (1890 ـ 1934). المعروف بأبو سيف وكان شريف المدينة المنورة وأحد قادة فيصل الماهرين. كان رجلاً محترماً، ومحبوباً جداً من أتباعه. قام لورنس بوصفه كشخص «يشُعّ طيبة».

30 ـ صبحي العمري، آل ماريك، مرجع سابق، ص 133.

31 ـ المرجع نفسه، ص ص 132 ـ 135، سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 300 ـ 303.

32 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 125 ـ 127.

33 ـ جعفر العسكري، مرجع سابق، ص ص 113 ـ 117.

34 ـ أللنبي إلى وليم روبرتسون، رئيس الأركان العامة للإمبراطورية، ضابط الصف في الجيش 158/634، اقتبس جيرمي ويلسون، مرجع سابق، ص ص 426 ـ 427.

35 ـ في النسخة العربية لمراسلاتهم مع الملك، قام الحلفاء بمخاطبته مستخدمين المكافئ العربي إلى «جلالتك».

36 ـ جاشوا تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 93.

37 ـ جعفر العسكري، مرجع سابق، ص 120.

38 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 135 ـ 136.

39 ـ جويس إلى كلايتون 25 أيلول 1917، أرشيف العقبة هـ 72 ـ 73، مكتبة كلّية الملوك، لندن، اقتبس جيرمي ويلسون، مرجع سابق، ص 448.

40 ـ مكتب وزارة الخارجية 7/882، الثاني من تشرين الثاني من عام 1917، اقتبس سليمان موسى، مرجع سابق، ص 307، هامش1.

41 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 308 ـ 309.

42 ـ في عقل العرب، فإن سايكس ـ بيكو اختزلت ضمنها كل معاني المراوغة، الانتهازية، الكذب، الظلم في سياسات وأعمال الإمبريالية وقوى ما بعد الإمبريالية في الشرق الأوسط. خلاف ذلك، فقد انزلقت في الغالب في صمت محرج كأحد بقايا حقبة ماضية مع عدد قليل من المدافعين باستثناء مؤرخ غريب.

43 ـ أنظر المقال الممتاز السير مارك سايكس، إيلي كيدون، انكلترة والشرق الأوسط: دمار الإمبراطورية العثمانية، 1914 ـ 1921، مانسيل، لندن، ص ص 67 ـ 87، أنظر أيضاً السيرة الذاتية لـ سايكس: روجرد، أدلسون، مارك سايكس: صورة لهاوي، جوناثان كيب، لندن، 1975.

44 ـ حسب جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 248، ت. ي. لورنس، مرجع سابق، ص 282.

45 ـ وزارة الخارجية 16/882، العاشر من آذار عام 1917، سليمان موسى، مرجع سابق، ص 250، هامش2.

46 ـ إيلي كيدون، متاهة الأنغلو ـ عرب، ص 163.

47 ـ وزارة الخارجية 12/882، مؤرخة في الثامن والعشرين من نيسان عام 1917، وذلك على شكل رسالة من كلايتون إلى ويلسون يحدد شروط سايكس المرجعية لزيارته إلى جدة. أنظر سليمان موسى، مرجع سابق، ص 354 ـ هامش2.

48 ـ وزارة الخارجية 16/882، رسالة من قبل المقدم نيو كامب، 20 أيار عام 1917، «محادثة بين الشريف حسين وسايكس». مقتبس في سليمان موسى، مرجع سابق، ص 358، هامش1.

49 ـ وزارة الخارجية 16/882، من ويلسون إلى كلايتون، رسالة مؤرخة في 24 أيار 1917، مقتبس في أيضاً سليمان موسى، مرجع سابق، ص 359، هامش1.

50 ـ من ليونارد ستين، «إعلان بلفور» ماغنس للطباعة، الجامعة العبرية، القدس ولندن، 1983.

51 ـ مجلة القِبلة، مكة المكرمة، رقم 183، 23 آذار 1918، كتبت المقالة من قبل حسين.

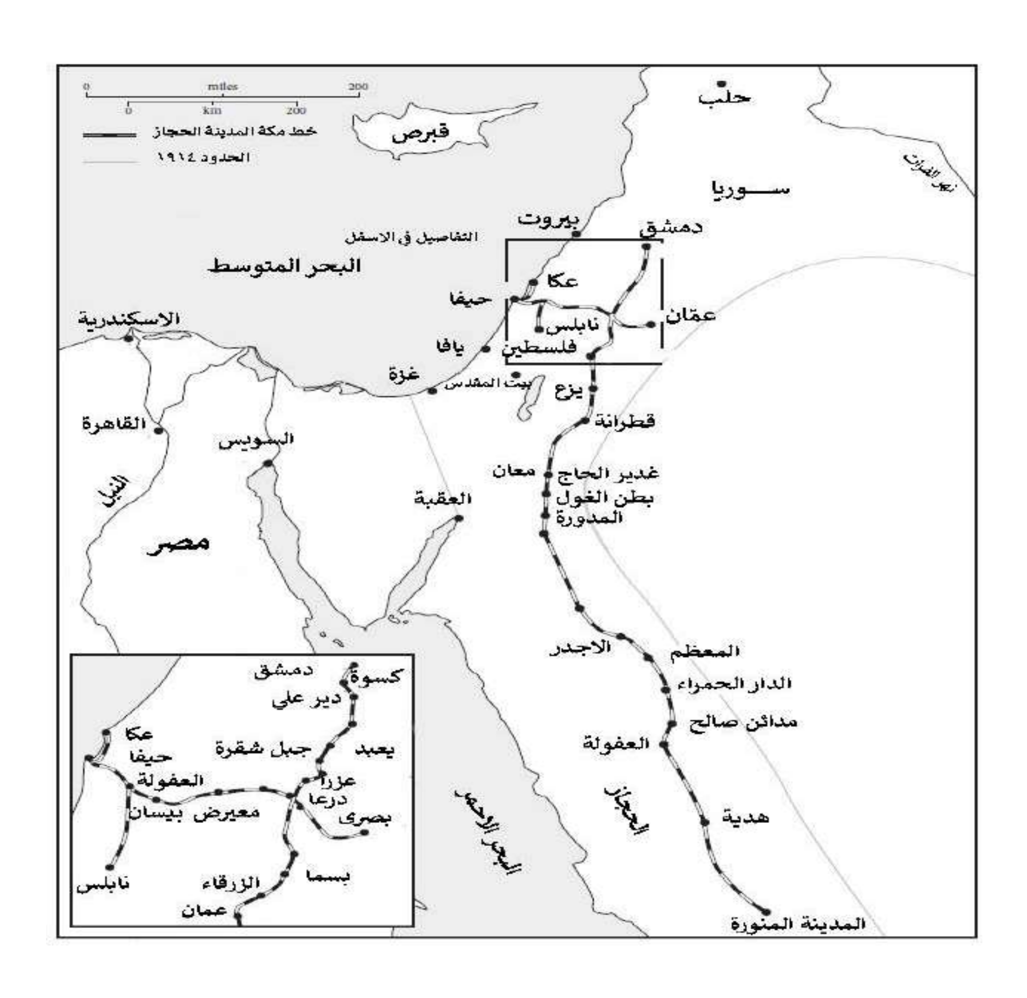
52 ـ ت. ي. لورنس إلى السير ت. م. ب، سايكس، 9 أيلول 1917، أوراق كلايتون 11/693، جامعة دورهام، مقتبس في جيرمي ويلسون، مرجع سابق، ص ص 442 ـ 443.

53 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 268. هذا اقتباس حرفي من أنطونيوس، تمت ترجمته من رسائل الحسين وبخط يده باللغة العربية في لقائه مع هوغارث. تقرير هوغارث إلى وينغيت في لقاءاته مع الملك حسين، تاريخ 15 كانون الثاني 1918، بالإمكان إيجادها في وزارة الخارجية 7/882 والقيادة 5974.

الفصل السابع: الثورة العربية الثالثة

حرب سكة الحديد

خارطة [3] سكة حديد الحجاز



لقد توسّعت قاعدة الجيش الشمالي وبشكل واضح في نهاية عام 1917، كما تم تعزيز الموقع حول العقبة، بالإضافة إلى موقع متقدم في سهل جوير على بعد عدة أميال من الداخل. وواصلت البحرية البريطانية وبانتظام في إرسال قوافل الإمداد، كنقل القوات، والمركبات المدرعة أيضاً والتي كانت سابقاً في منطقة (وجه). كما تم استخدام المركبات المدرعة وبنجاح من قبل جويس في عدد من الغارات خارج العقبة مستهدفاً خط سكة حديد الحجاز. كما كانت التشكيلات النظامية تتلقى تدفقاً متزايداً من الضباط العرب ـ المنشقين عن الجيش العثماني وأولئك الذين تم تجنيدهم من مخيمات سجون الحرب. لقد كان الجميع متحمساً لإثبات جدارتهم في دعم الحملات. وبدأ بقية العرب من مدنيين، أطباء، إداريين، وسياسيين طموحين بالانجذاب إلى هذه النواة الجديدة للثورة العربية وذلك لخدمة أوضاعهم ومصالحهم في الترتيب الجديد المحتمل. انضم إلى الثورة العربية أيضاً في العقبة مجموعة صغيرة من المتطوعين الأرمن، اللاجئين من مذابح الأناضول، والذين انسحبوا لاحقاً إلى مصر، حيث قاموا بتشكيل نواة قوة أكبر من الأرمن ارتبطت بقوات الحملة المصرية.

تم بناء مخيم العقبة حول مجمع الخيام الرئيسي لفيصل، والذي يتضمن خيام أقارب الشريف، وحراسه الشخصيين، ومناطق تناول الطعام والاستقبال لحاشيته وزواره. وفي جزء آخر من المخيم، تقع خيام الضباط والمشاة للتشكيلات النظامية، كما بنى البريطانيون مقصفاً [مكان عام للاستراحة والإطعام] لاستخدام الضباط والمستشارين المرافقين للجيش الشمالي، بالإضافة إلى مطار صغير. وبمرور الوقت فإن الجيش الشمالي سيصبح لديه قوة جوية صغيرة تتألف من طائرات استطلاع ونقل خفيفة والتي تضاعفت لتصبح قاذفات، تم استخدامها لقصف مواقع العدو. كما كان للمخيم حصته أيضاً من التجار، وخصوصاً تجار الحجاز والذين لحقوا بالجيش متوجهين شمالاً[1]. غطّى الصخب الواضح المعسكر في فترات الملل الشديد والتقاعس عن العمل والتي تخللتها عمليات حفر لا نهاية لها للمشاة، لقد بدأ يخيم جوٌ من الانقسامات الوليدة بين صفوف هذا الجيش المتنوع. إن فجوة الاختلاف ما بين فئة الضباط المحتسين للويسكي والضباط القادمين من المدن العربية ورجال قبائل الداخل، كانت هي الأكثر وضوحاً[2]، لكن التحيزات الدينية والطائفية والإقليمية كانت هي الأكثر دماراً وفتكاً والتي غالباً ما كذّبت أي مشاعر قومية كان يتم التعبير عنها بحماس. يصف شاهد معاصر كيف كان الضباط السوريون يتذمرون وبمرارة من احتكار العراقيين لجميع المناصب في الجيش، وكيف انقسم العراقيون والسوريون والحجازيون إلى زُمَر. إن هذا التحالف الهشّ والمتصارع في كثير من الأحيان ـ الذي لاحت من خلفه هيمنة وجود وطموحات القوة الإمبريالية البريطانية (والفرنسية بدرجة أقل) ـ توجب على فيصل ومستشاريه إدارته بعناية

أثناء تحضيراته للمرحلة المقبلة من الحملة. لكن كان على فيصل الإبحار في عين العاصفة التي ضربت في خضم الثورة العربية عند نشر اتفاقية سايكس ـ بيكو والمكاسب التي أمل الأتراك بانتزاعها نتيجة الكشف عن تلك الاتفاقية.

مقترحات السلام إلى فيصل

إن وجود اتفاق سرّي يتعلق بتقسيم الأراضي العثمانية لمناطق نفوذ واحتلال قد تم الإعلان عنه على الملأ في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917 بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا. لقد أمر تروتسكي زعيم البلاشفة ووزير الخارجية الأول للنظام بنشر كل الاتفاقات السرّية والمواثيق التي كانت في أرشيف وزارة الخارجية الروسية[3]. كما قامت صحف برافدا ولازفيتسيا بنشر تفاصيل اتفاقية سايكس ـ بيكو في عدديهما بتاريخ 23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. كما قامت مانشستر غارديان، وبالاعتماد على رسالة من مراسل بتروغراد بنشر اتفاقية سايكس ـ بيكو في عدديهما بتاريخ 26 ـ 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. وتم إثارة أسئلة في البرلمان حول الاتفاق، لكن وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور تجاهل أهميتها ورفض قبول أي نقاش مستفيض حول هذه المسألة. لقد تم ترك الأمر إلى جمال باشا، في خطاب تم إلقاؤه في بيروت في السادس من كانون الأول (ديسمبر) 1917، وذلك لإعلام المواطنين في الإمبراطورية العثمانية والعالم الإسلامي حول تفاصيل الاتفاقية وآثارها على الحلم العربي بالاستقلال.

لقد عرف جمال بذات نفسه بأن سقوط القدس بيد جيش أللنبي قد أصبح وشيكاً، وأن موقعه كقائد عثماني رفيع المستوى على مسرح الحرب في سوريا وفلسطين قد تزعزع، لكنه كان يتحدث أيضاً عن تحسن نسبي في خطوط جيش الإمبراطورية العثمانية وذلك بانسحاب روسيا من الحرب وإعادة انتشار الفرق العثمانية من الجبهة الروسية إلى الشرق الأدنى.

استنكر جمال الاتفاقية، ووصفها بشكل صحيح بأنها تدعو إلى إنشاء دول عربية مقتطعة من الأراضي العثمانية، لتوضع فقط تحت الوصاية والحماية للقوى [الأجنبية]. لقد ذهب جمال لحد القول بأن الثورة العربية لم تكن أكثر من ثورة «تناسب مقاييس البريطانيين» الذين يحتاجون إلى أدوات ومخالب قطط لخدمة غاياتهم الخاصة، قد شجعوا بعض العرب ليثوروا عن طريق إعطائهم وعوداً كاذبة وخداعهم بآمال كاذبة. بعد تصوير الشريف حسين على أنه عميل غبي ومخدوع من القوى الإمبريالية، والذي نجح فقط بمقايضة كرامة الخلافة بدولة مستعبدة للبريطانيين، قال جمال أنه وجّه رسالة إلى الشريف حسين داعياً إياه للانقلاب على البريطانيين والعودة إلى حظيرة الخلافة والإسلام[4]. لقد تم إلقاء الخطاب باللغة التركية ولكن تمت ترجمته الى اللغة العربية بشكل دقيق من قبل رجال الدين. وتم تشجيع الصحف السورية على نشر نص

الكلمة، كما أُرسلت نسخاً إلى المدينة المنورة، بعد تهريبها إلى مكة ومناطق أخرى من المشرق العربي تقع خارج السيطرة العثمانية.

إن الرسالة التي ألمح إليها جمال في خطابه لم تكن في واقع الأمر قد تم إرسالها إلى الشريف حسين، ولكن على الأغلب إلى الأمير فيصل في العقبة. وأُرسلت أيضاً إلى جعفر باشا، قائد التشكيلات النظامية للجيش الشمالي[5]، وتم تأريخ رسالة جمال لفيصل بالتقويم العثماني الرومي بما يتوافق مع 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، نقلها بواسطة مبعوث سرّي إلى العقبة. وجرت صياغتها بعناية، يناشد فيها عواطف فيصل تجاه الإسلام، وطلب منه الدعم والعودة إلى الماضي عندما كان فيصل يتفق مع سياسات جمال.

قام جمال بتبرير دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب لالتزامها المطلق في الدفاع عن الإسلام: [من أجل تحسين] الظروف المخزية للعالم الإسلامي ومن أجل وجود أكثر استقلالية وأقوى أو الموت بشرف وكرامة لتحقيق هذه الغاية. كما قام بتذكير فيصل بمشاركته لهذه الآمال، وذلك في اللقاءات العديدة التي قاموا بها، «أنت أيضاً توافق بشكل عام على مواقفي، كما أني استمعت لك في عدة مناسبات وكنت تتفق معي». كما ذهب جمال الى القول بأنه يمكن تبرير الثورة العربية على أساس واحد فقط: كسب الاستقلال الكامل للعالم الإسلامي ونيلهم للقوة والازدهار إلى الأبد. لكنه قام بطرح أكثر من سؤال مربك على فيصل وهو: كيف يمكنك تصور دولة عربية مكلّفة بإدارة شؤون المسلمين بالعالم بشكل مستقل ومشرف بينما الحلفاء قد أعلنوا بأن فلسطين ستقع تحت الإدارة الدولية، وبينما سوريا سيتم حكمها من قبل الفرنسيين والعراق من قبل بريطانيا العظمى؟. ثم قام جمال بعد ذلك بفتح الباب للمفاوضات وإمكانية الصلح بين الإمبراطورية العثمانية وقوات الثورة العربية. «بالإمكان عند بداية [الثورة] لم تكن تتوقع مثل هذه النتائج، لكن الجيش البريطاني والذي بدأ تدريجياً بضم فلسطين، قد أثبت لك هذه الوقائع وجعلهم واضحين أمامك... لكن بغض النظر عن هذه المسائل، الغاية هي الفرصة لتصحيح الوضع وإزالة سوء التفاهم السابق. إذا وافقت على ما أقوله دعنا ندرس المسألة ونحاول الوصول إلى فهم أفضل ونجدد صداقتنا. أنا أؤمن أنه وبكتابتي لهذه الرسالة قد قمت بإيفائي لواجباتي الدينية [بالعمل بصدق]»[6]. كما قام جمال بإلحاق الشروط التي كان الأتراك مستعدين للتفاوض بشأنها مع العرب، وقدّم لفيصل أوسع شكل من أشكال الحكم الذاتي الممكنة للمقاطعات العربية ضمن الإمبراطورية. ولإضافة مصداقية أبعد لعرضه، قال جمال بأن أي صفقة كهذه سوف تحمل أيضاً موافقة السلطان، وكذلك ضماناً مماثلاً من الحكومة الألمانية[7].

لم يكن واضحاً متى تلقى فيصل الرسالة، فبعد مضي ثلاثة أسابيع، وفي برقية مختصرة بتاريخ 14 كانون الأول (ديسمبر) 1917، أخبر فيها أباه بمضمونها وأنه سوف يرسلها له بأقصى

سرعة ممكنة. بالرغم من أنه من غير المحتمل، بأن فيصل كان سيسعى لإعادة فتح القنوات مع جمال باشا بدون معرفة ودعم أبيه. إن علاقته مع الشريف حسين لم تشهد أي توترات بعد والتي بدأت تظهر لاحقاً بين الأب والابن. لم تذكر أيٍ من مذكرات أولئك الموجودين في الوفد المرافق لفيصل في ذلك الوقت أن فيصل ربما قد ناقش اقتراحات جمال معهم. كما لم توجد أي تسجيلات تظهر بأن فيصل قد قام بمناقشة الرسالة مع أيٍ من مستشاريه البريطانيين قبل أن يرسلها لأبيه. ولم يقم فيصل كذلك في ذلك الوقت بأي اتصال مع الوسيط الذي قام جمال بذكره له لنقل آراء الحكومة العثمانية، الشيخ بدر الدين الحسني ـ الشخصية الدينية المرموقة ـ من دمشق. لقد عرف فيصل الشيخ جيداً، وذلك خلال فترة إقامته السابقة في سوريا. لقد أعطى بدر الدين الحسني لفيصل دعمه القاطع من أجل الثورة في سورية عام 1915. ربما بعض القطعات الأخرى في مخيم فيصل قد تكون على علم بالمشاعر العثمانية. قام جمال أيضاً بتوجيه رسالة لجعفر باشا، والتي قد تم إرسالها في نفس وقت إرسال رسالة فيصل. وناشد جمال شعور جعفر بمسؤوليته تجاه الأمة وذكَّره بمدى الضيم الذي سيلحق به فيما لو لم يعد هناك مبرر لاستمرار الثورة أمام تقدم الحلفاء في فلسطين التي قاتل صلاح الدين لإبقائها للمسلمين[8]. بكل تأكيد أن فيصل وجعفر تبادلا وجهات النظر بخصوص رسائل جمال، ولكن لا يوجد سجل حول ما دار بينهما، وفيما إذا سعى كل منهما إلى صياغة موقفٍ ما بهذا الخصوص.

لم يقم فيصل بالرد على رسالة جمال وانتظر ردة فعل أبيه، وأعلم الشريف حسين فيصل أن يرسل لجمال رداً برفض عرضه. وفي رسالة بتاريخ 17 كانون الثاني (يناير) 1917، كتب حسين إلى فيصل: «إن ردك على العرض [التركي] هو إن الوقت قد فات... ولعل الرحمة تنزل على الباقين من [العرب] الذين قام [الأتراك] بسحقهم واضطهادهم بسبب نزوات [الأتراك]»[9]. لقد كان على فيصل الاستمرار بعملياته العسكرية وأن ينتظر أيضاً جواباً باتصالات الحسين مع البريطانيين بخصوص مفاتحات جمال. لم تقم رسالة جمال بالإشارة وبالتحديد إلى اتفاقية سايكس-بيكو، لذلك ربما تكون اتصالات حسين مع البريطانيين بشأن هذه المسألة قد حدثت دون أن يعرف التفاصيل كاملة حول الاتفاقية. ومع ذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون حسين قد رأى الاقتراح التركي كعرض منفصل عن السلام[10]، فقد كان وبشكل واضح قلقاً من الآثار المترتبة على الاتفاق السرّي، والتفاصيل التي كان مطلعاً عليها جزئياً، كما أنه يرغب في إعادة التأكيدات فيما يتعلق بنوايا الحلفاء حول مستقبل المشرق العربي. لقد أحال حسين المراسلات مع جمال إلى المفوض السامي وينغيت في مصر، وطلب منه توضيح ما ذكره جمال عن تقسيم الأراضي العربية. وفي الوقت نفسه أكد ولائه للتحالف مع بريطانيا واقترح أن يستجيب فيصل للحد غير المسموح فيه للعرب بمناقشة شروط السلام بدون موافقة وإجراء المناقشات المسبقة مع الحلفاء[11].

أحال وينغيت المسألة إلى وزارة الخارجية نتيجة قلقه من تغير مجرى الأحداث، وخوفه من تأثير ما أفشاه العثمانيون على الرأي العام العربي، حيث دعا إلى الإدلاء بتصريح واضح يُنكر ما أكده جمال حول نية بريطانيا الاحتفاظ بفلسطين والعراق، فيما تسيطر فرنسا على سوريا كاملة. جاء الرد الرسمي البريطاني على حسين فيما يخص المزاعم التركية عبر اللجنة الشرقية المؤلفة حديثاً، وهي هيئة رفيعة المستوى من وزراء الحكومة برئاسة اللورد جورج كُرزون والتي تعنى بصياغة السياسات المتعلقة بشؤون الشرق الأوسط جميعها. وبالنتيجة، سلّم المفوض البريطاني في جدة ج. ر. باسيت رسالة وزير الخارجية بلفور إلى الشريف حسين بتاريخ 8 شباط (فبراير) 1918، والتي كانت «رسالة مضللة» وغامضة[12]. لم تنكر الرسالة أو تؤكد صحة التسريبات البلشفية، لكنها [استخفّت] بنوايا جمال. تمت صياغة الملاحظات الختامية للجمل في مصطلحات لا يمكن فهمها إلا على أنها التزام واضح بقضية الاستقلال العربي[13]. لا عجب في أن حسين قد ظنّ بأن هذا البيان يحمل التزامات بريطانية عميقة لقضية استقلال العرب كلهم.

إن مفاهيم حسين حسب اعتقاده هي تأكيد لا لبس فيه للدعم البريطاني للدولة العربية الموحدة وقد جرى تعزيزها من خلال برقية من وينغيت، التي أكدت إن اتفاقية سايكس–بيكو قد تم تقديمها على أنه تبادل غير ضار وليس أكثر من استكشاف لخيارات سياسية ممكنة للتصرف بالأراضي العثمانية بعد الحرب[14]. ولا يتوجب أن يكون لدى حسين أي مخاوف فيما يتعلق بالخطط البريطانية للأراضي العربية[15]، إن التوضيحات المخادعة والمعقدة حول طبيعة سياسات الحلفاء فيما يتعلق بالأراضي العربية قد تم قبولها من قبل حسين بصورة جزئية، لأنه كان قد أعدّ نفسه لقبول هذه التأكيدات دون تدقيق في غير محله. لقد كان من الأفضل المضي قُدماً بإحساس زائف من الراحة بدلاً من اكتشاف أنه قد وقع في شرك سياسات متضاربة، والتي ربما تقوض وبشكل جدي أسس الثورة ضد العثمانيين. وصل الخبر إلى فيصل بأن التأكيدات التي استلمها من البريطانيين كانت قوية، وأن ما عرضه جمال بخصوص تقسيم الأراضي العربية بعد الحرب لا أساس له، وبالتالي يمكن تجاهله تماماً. وطلب حسين من ابنه قطع الاتصالات مع جمال.

على أي حال، فإن الأتراك ومن خلفهم حلفائهم الألمان أصروا على محاولة إبعاد العرب عن الحلفاء. وفي أواخر شهر شباط (فبراير) 1918، قام جمال باشا الأصغر[16]، وهو جنرال عثماني آخر على الجبهة السورية، بانتداب رئيس قبيلة بني حسان ليتقارب مع فيصل، ويعيد العرض التركي وذلك لفتح المحادثات بين الجانبين، لكي لا تقع أراضي المسلمين تحت سيطرة القوى الأجنبية. قام فيصل بالرد بأن طالب الأتراك بإظهار نواياهم الحقيقية وذلك بانسحابهم من المدينة المنورة ومعان وكل نقاط سكة الحديد حتى عمّان، وذلك قبل أية مفاوضات. إذا حدثت كل هذه الأمور فإنه سوف يستخدم وساطة مع أبيه وذلك لفتح محادثات السلام.

على أي حال كان حسين يفضل الاعتماد على ما فهمه من التزامات الحلفاء بالنسبة لاستقلال العرب، وإغلاق كل الأبواب أمام الأتراك، إلا إذا قامت جيوشهم بالانسحاب إلى ما وراء «حدود» دولة حسين الجديدة المفترضة[17]. ولم يكن فيصل راغباً وبشكل كامل للتخلي عن إمكانية التوصل إلى اتفاق سلام منفصل مع الأتراك. وبلا شك فإن سلوك فيصل بعد سلام جمال قد أخفى قلقاً عميقاً من نوايا الحلفاء بخصوص العرب. هو لم يشارك موقف والده الشبيه بالنعّامة تجاه جميع الأدلة والتي كان الحلفاء يخفون نواياهم الحقيقية خلفها، والتداعيات بشأن الثورة العربية لكل من اتفاقية سايكس-بيكو وإعلان بلفور.

لكن فيصل وقع في مأزق شديد، لقد كان جيشه يحارب على الجبهة السورية ـ الفلسطينية ويعمل كجناح أيمن فعال لقوات أللنبي. إن زخم الحرب، وبالضرورة، قد قام بخلق ظروف على الأرض رمت بتأثيرها على أية محادثات سلام. لقد كان فيصل يعتمد كلياً على البريطانيين بشأن إمداده والتسليح، كما يعتمد على سرب من المستشارين البريطانيين المرافقين لقواته الذين بقوا يراقبون عن كثب كل عملياته وتعاملاته السياسية، وخصوصاً لورنس الذي قدّم معلوماتٍ استخباراتية وتحليلات لرؤسائه في القاهرة. أيضاً كان لدى لورنس عدد من المصادر الاستخباراتية داخل مخيم فيصل، والذين قاموا بتزويده بالمعلومات، وذلك لتقييم سلوك فيصل، وربما مواجهة أي توجهات قد تتعارض مع الموقف البريطاني.

لقد كان فيصل وبكل تأكيد مدرك بأن مستشاريه البريطانيين يلعبون أدوار مزدوجة، وأنه يوجد حدود لثقته بهم، كما كان مدركاً أيضاً أنه باستطاعة أبيه أن يجعل الحياة صعبة عليه إذا ما اكتشف بأنه يعقد محادثات سرّية مع الأتراك. لقد استمر اللقاء بين فيصل وجمال باشا الأصغر على الأقل إلى حزيران (يونيو) 1918، ولقد استحوذ لورنس على نفحة من هذه المحادثات السرّية، وكتب لاحقاً بأن جمال كان راغباً في إعطاء الاستقلال للعرب، والحكم الذاتي لسوريا، ونصف موارد الأتراك لفيصل، وذلك في مقابل أن ينضم الجيش العربي مرة ثانية مع الأتراك ضد البريطانيين[18]. كما ادّعى لورنس في وقت سابق بأنه قد قام بتشجيع فيصل على مراسلاته مع الأتراك، وذلك لزرع الفتنة داخل الرتب العسكرية بين العسكريين/ القوميين والضباط أصحاب العقلية الإسلامية، وفي مقدمتهم جمال باشا الأكبر[19]. ولكن كما أسرّ لورنس لاحقاً للمؤرخ العسكري البريطاني باسيل ليدل هارت، فإن هذه المحادثات مع جمال باشا الأصغر قد خرجت من السيطرة، وأن الأمر قد أصبح أكثر جدية مما كان قد سمح به لورنس.

لقد كانت ملاحظات هارت على هذه المحادثات كالاتي:

«لم يقم فيصل بإخبار [لورنس] أبداً حول مفاوضاته في صيف عام 1918 ـ لقد كان فيصل وبكل تأكيد يبيعنا. لقد اعتقد بأن البريطانيون يتصدعون... سمع [لورنس] ذلك عبر عملاء في

المخيم»[20]. لقد نجح لورنس وبشكل واضح، ومن خلال عملائه في سرقة نسخة من خطاب كان فيصل قد أرسله إلى جمال باشا الأصغر، وذلك في تاريخ العاشر من حزيران (يونيو) 1918. تفاصيل الرسالة تم إرسالها إلى هوغارث في القاهرة، لقد تم صياغتها بطريقة بليغة. وشرع فيصل بوضع شروطه لصفقة الانفصال مع الأتراك:

1 ـ على كل القوات التركية المتواجدة في جنوبي عمّان أن تنسحب من مواقعها.

2 ـ يجب على كل الضباط العرب والرجال الذين يخدمون في الجيش التركي وفي مقاطعات أخرى أن تتم إعادتهم إلى سوريا، حيث ينضمون إلى الجيش العربي.

3 ـ إذا قاتل الجيشان العربي والتركي إلى جانب بعضهما يجب أن يكون الجيش العربي تحت ـ

قيادته الخاصة.

4 ـ يجب أن تصبح العلاقات المستقبلية لسوريا مع تركيا على غرار العلاقات مع بروسيا، النمسا، وهنغاريا.

5 ـ إن الإمدادات والمواد الغذائية في سوريا يجب أن يتم تسليمها للجيش العربي.

في حقيقة الأمر، كان فيصل من حيث المبدأ على استعداد للوصول إلى اتفاقية سلام منفصلة مع الأتراك، هذا إذا ما اعترفوا باستقلال العرب، ولن يمر البريطانيون مرور الكرام.

لقد شعر البريطانيون بأن فيصل يدرك بأنه كانت تتواجد تناقضات مستحيلة بين موقف الحلفاء المعلن وشروط البروتوكول السرّي مع الفرنسيين، وبحسب رأي فيصل ربما يقوّض ذلك احتمالات استقلال العرب. لقد انعكست هذه المخاوف عبر تدفق الرسائل بين القاهرة ولندن بخصوص الطريقة التي يستطيعون من خلالها تهدئة فيصل وثنيه عن مواصلة المحادثات مع الأتراك دون معرفة البريطانيين[21].

تم تقديم اعتراف لفيصل بسلطته على الأراضي شرقي نهر الأردن، بالإضافة إلى إقامة لقاء مع أللنبي وذلك لتعزيز مكانته. لكن كل هذه اللفتات لم تبدد شكوك فيصل بالكامل، إن عدداً من الاستنتاجات الواضحة بخصوص مشاعر فيصل الحقيقية يمكن استخلاصها من الرسالة المرسلة في 10 حزيران (يونيو) 1918 إلى جمال باشا وعلى وجه الخصوص بدافع من مشاعر فيصل في تصور الإمبراطورية كاتحاد كونفدرالي من الدول التي يمكن أن تتحقق من خلاله التطلعات العربية.

أصداء إعلان سايكس بيكو ووعد بلفور

وصلت أخبار إعلان بلفور إلى مخيم فيصل في العقبة، وذلك في بداية عام 1918، وقد أثار مشاعر قلق عميقة بين الضباط ورجال الجيش الشمالي. وخيّمت حالة من الانهيار والتمرد لفترة، مع رفض بعض الضباط القتال بجانب البريطانيين حتى تلقوا تأكيدات من البريطانيين بإيفاء تعهداتهم للعرب. أبرق فيصل لوالده حول شكوك ضباطه ورجاله، ساعياً للحصول على شكل من أشكال التأكيد من حسين والتي تمكنه من مشاركتها مع رجاله والعمل على تهدئة مخاوفهم.

وبالتالي، أبرق حسين لفيصل في 11 كانون الثاني (يناير) 1918، معبّراً وبثقة من «أن الحلفاء أعظم وأكثر شرفاً من أن يتخلوا قيد أنملة من اتفاقهم معنا، كما هم الأكثر صرامة في اهتمامهم بمثل هذه التفاصيل»[22]. لقد كان هذا مثال آخر على طبيعة حسين الواثقة وعن عمد عندما يصل الأمر إلى الحلفاء ـ وخصوصاً وعود البريطانيين ـ حتى ولو كان تأثيرها المنشود وهو تهدئة الاضطرابات مؤقتاً في معسكر فيصل. لكن القضية لن تختفي ولا القلق الهادر المتعلق باتفاقية سايكس ـ بيكو، مثلما كان الحال في صفوف الحلفاء. كان القلق في صفوف حلفاء بريطانيا العرب قد بدأ يؤثر على الضباط في المكتب العربي في القاهرة، بالإضافة إلى صانعي السياسة الحقيقيين في اللجنة الشرقية في لندن. كما إن الادعاءات التركية حول حجج الحلفاء بدأ يرن بشكل مؤثر، وشيء ما يجب أن يُقام به، وذلك لوقف التدهور في المصداقية البريطانية مع العرب، بالرغم من تشبث حسين بإيمانه الراسخ بنوايا بريطانيا «الشريفة» في نهاية المطاف. إن الفرصة «لتوضيح» الموقف البريطاني حول هذه المسائل للعرب قد أتت عندما قام سبعة سوريين مقيمين في القاهرة بتقديم مذكرة للمفوض السامي في وزارة الخارجية، وذلك بتاريخ 26 نيسان (أبريل) 1918.

إن المجموعة والتي بقي اسمها سرّاً في ذلك الوقت، تضمنت شخصياتٍ سورية بارزة، وبعض ممن كانوا، أو ما زالوا أعضاءً في الجمعيات العربية السرّية[23]. قام البريطانيون بالتركيز على عائلة الأشراف كممثلين مؤثرين للحركة العربية، وتم ترك الأعيان والمثقفين السوريين الأكثر حضارة معزولين عن صانعي السياسة البريطانيين حتى أن المكتب العربي في القاهرة عيّن ضابط مخابرات ويدعى أوزموند والروند، لإقامة اتصالات مع هذه المجموعة.

لقد نجح والروند إلى درجة أنه حصل لنفسه على عضوية ضمن إحدى الجمعيات السرّية كأول عضو أوروبي فيها، «القحطانية». ووصف والروند مدى المشاعر المعادية للشريفين بين المتحضرين السوريين، وعرض عليهم السؤال الصعب فيما إذا كان السوريون سوف يقبلون بالحكم الهاشمي بعد الحرب[24]. وعلى الرغم من أن فيصل قد ظهر بأنه مقبول لدى هذه

المجموعة، كان هناك تحفظ قوي حول حسين، الشخصية الأكثر تقليدية، وبلا شك فإن منشأ ذلك هو الازدراء الذي يكنّه سكان المدن تجاه بدو الصحراء[25].

في 16 حزيران (يونيو) 1918، قام مكتب وزارة الخارجية بالرد على السوريين، وذلك على شكل بيان عُرف لاحقاً بـ «إعلان السبعة»[*]، والذي تم إلقاؤه من قبل والروند أمام بعض مؤلفي المذكرة الأصلية، وذلك في حفل رسمي في مقرات الجيش بمصر، كما تم إرسال نسخة من البيان إلى حسين.

أكد الإعلان على أن الحكومة البريطانية ستعترف بالاستقلال الكامل والسيادة للأراضي التي قد استقلت لتوها، بالإضافة لأولئك الذين تم تحريرهم من قبل الجيش العربي (وبشكل أساسي في الأراضي التي تقع تحت سيطرة جيش فيصل الشمالي). وفيما يتعلق بالأراضي المحررة من قبل قوى الحلفاء (العراق وأجزاء من فلسطين)، فإن الحكومة البريطانية سوف تتصرف على أساس يقوم على مبدأ موافقة المحكومين. أما بالنسبة إلى الأراضي التي لا تزال تحت الحكم التركي فقد كانت «رغبة حكومة جلالة الملك في حصول المضطهدين في تلك الأراضي على حريتهم واستقلالهم»[26]. لقد كان إعلان السبعة تأكيداً مباشراً على الدعم البريطاني لاستقلال العرب مع عدم وجود أيٍ من المحاذير أو التحوّط التي رافقت مراسلات حسين-مكماهون والمراوغات والغموض اللاحق للمسؤولين البريطانيين. كما أقامت حدود المنطقة العربية وبشكل واضح بطريقة لا تختلف عن فهم حسين لها. علاوة على ذلك، فإن الإعلان قد أسس مبدأ أن بريطانيا قد سعت لحرية واستقلال العرب، وأنها لن تقيم أي حكومة على أراضيهم لا تحظى بموافقة الشعب. لقد تم تلقيه بابتهاج في معسكر فيصل وبددت الكآبة التي حلّت عليه بسبب شائعات سرت عن صفقات ومكائد سرّية.

وفي خطاب الرئيس وودرو ويلسون بعد عدة أسابيع[27]، أُعلن مبدأ تقرير المصير للأشخاص الخاضعين كهدف للحلفاء في أية تسوية بعد الحرب، وأعاد تأكيد النقاط الرئيسة للإعلان وأضاف المزيد من الألق لأهميته. في الواقع، لقد كان عاملاً مهماً في تحفيز وتنشيط حملات فيصل في الأشهر القليلة الماضية من الحرب، كما دفعه لتحرير المزيد من الأراضي قدر المستطاع، لأنه وبعد كل ذلك فإن هذه الأراضي سوف تصبح جزءاً من دولة عربية ذات سيادة ومستقلة.

إن تحكّم البريطانيين بالضرر بخصوص الكشف عن اتفاقية سايكس-بيكو كان لا بد أن يحيد ليشمل مسألة إعلان بلفور. كتب كلايتون من القاهرة للسير مارك سايكس بتاريخ 28

(*) السبعة: نسبةً إلى المذكرة التي أصدرتها سبعة من الشخصيات السورية البارزة في القاهرة من أعضاء حزب الوحدة السورية، وطالبوا فيها باستقلال شبه الجزيرة العربية كما تمّ توضيحه سلفاً. (المُراجع).

تشرين الثاني (نوفمبر) 1917، بأن المسيحيين والمسلمين ينظرون ومع قليل من الفزع من احتمالية رؤية فلسطين وحتى سوريا تقع في أيدي اليهود، ويخشون ذكائهم المتفوق وقدراتهم التجارية[28]. وفي ربيع عام 1918، قام وفد من القادة البريطانيين الصهاينة برئاسة الدكتور حاييم وايزمان، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، بالقدوم إلى فلسطين. لقد تمت الموافقة على زيارة اللجنة الصهيونية من قبل اللجنة الشرقية، وكانت أولى مهامها أن تجهز الأسس لتطبيق شروط بلفور، لكنها أُتهمت أيضاً بتهدئة مخاوف المجتمع العربي بخصوص النوايا الصهيونية[29].

لقد كان أول شخصية عربية رئيسية أراد المكتب العربي في القاهرة من وايزمان أن يقابلها هو فيصل[30]، لقد قام لورنس بالكتابة إلى كلايتون من قبل قائلاً بأنه سوف يستحوذ على فيصل ويتحكم به لكي يتخذ موقفاً ملائماً تجاه الصهاينة، على الأقل خلال فترة الحرب[31]. لكن فيصل قد شهد لتوه آثار إعلان بلفور على ضباطه في الجيش الشمالي، ومن المحتمل جداً بأنه قد شاركهم مخاوفهم العامة وهواجسهم. وفي واقع الأمر، اعترف لورنس بذاته بأن «الاقتراب الوشيك والجدّي لمشكلة فلسطين هو براءة اختراع تعود فقط لفيصل من بين كل الأشراف. لقد اعتقد بأننا ننوي أن نحتفظ بها لأنفسنا، وذلك تحت عذر ضبط التوازن بين الأديان المتصارعة ويعتبرها ثمناً رخيصاً يجب دفعه وذلك من أجل المساعدة البريطانية التي حصل عليها ولا يزال يأمل في الحصول عليها»[32].

في أواخر شهر أيار (مايو) 1918، تم وضع الترتيبات من أجل اللقاء بين فيصل ووايزمان في العقبة[33]. لم يتواجد لورنس لحضور الاجتماع ـ لقد انضم مع الشريف ناصر في حملة ـ وحلّ محله جويس. تم اللقاء بين فيصل ووايزمان في العقبة وذلك بتاريخ الرابع من حزيران (يونيو) 1918. استمر الاجتماع لمدة خمس وأربعين دقيقة، بقي جويس فيها لدقائق. عبّر الشريف فيصل عن رأيه بضرورة التعاون بين اليهود والعرب... بالنسبة لأكثر الترتيبات السياسية المحددة، فإن [فيصل] لم يكن راغباً في التعبير عن أي رأي، مشيراً إلى أنه في مسألة السياسة كان يتصرف بكونه مجرد وكيل لوالده وهو ليس في موقع يخوله بمناقشتهم... «أشار الدكتور وايزمان إلى أن اليهود لا يؤيدون إقامة حكومة يهودية، لكن يرغبون في العمل تحت الحماية البريطانية بهدف استعمار البلاد وتنميتها من دون التعدي على المصلحة المشروعة لأي شخص...أعلن فيصل أنه بالنسبة لنا وكعرب فإنه ليس باستطاعتنا أن نناقش مستقبل فلسطين مع المستعمرين اليهود أو مع أي بلد تحت الحماية البريطانية... لاحقاً عندما تكون الأمور العربية أكثر تماسكاً يصبح بالإمكان طرح مثل هذه الأسئلة»[34].

وايزمان، وبالطبع، كان مخادعاً عندما قال بأن الحركة الصهيونية غير مهتمة بوضع حكومة صهيونية في فلسطين. كما كتب لورنس لاحقاً، بعد اللقاء مع وايزمان في منتصف حزيران

(يونيو) 1918، «آمَل الدكتور وايزمان في أن تكون فلسطين يهودية وبالكامل في السنوات الخمسين القادمة، وفلسطين يهودية بواجهة بريطانية لهذه الفترة»[35].

لا توجد سجلات عربية بخصوص اللقاء الأول بين فيصل ووايزمان، لذلك بقيت رسائل جويس المصدر الوحيد للمعلومات حول الحدث. لقد بدا أن فيصل قد قبل تأكيدات وايزمان فيما يتعلق بالنوايا الصهيونية حول فلسطين، بالرغم من اعترافه بأن هذه النوايا يمكن أن يترتب عليها حقوق بالأراضي. ولكن مرة أخرى فإن هذه الصرخة بعيدة عن الإقرار بها، وبصرف النظر عن موضوع التسامح، فإن الأراضي العربية ستؤول إلى يهود المستوطنات القادمين من أوربا بصورة مطلقة. وربما كان فيصل يدرك، بصورة غامضة، أن وعد بلفور يخفي أكثر من نتائج ثقيلة بالنسبة للشعب العربي في فلسطين، إلا أنه لا يملك المعلومات ولا حتى الوسائل في هذه المرحلة ليناقش المضاعفات السياسية للمشروع الصهيوني.

في الوقت نفسه كان فيصل مدركاً أن اليهود البريطانيين قد يلعبون دوراً لإبقاء الدعم الحكومي البريطاني للثورة العربية، حتى أنها قد تصرف النظر عن أكثر الآثار التي تنذر بالسوء والمترتبة على الكثير من التكهنات بشأن الاتفاقات السرّية. إن التقارب المثالي بين العرب واليهود، مع استفادة كل منهما من التطلعات القومية للآخر، كثيراً ما ظهرت في رسائل وملاحظات المسؤولين البريطانيين ولم يكن فيصل على علم به. إن الاعتراف بالدور الصهيوني قد يلعب دوراً في تطور موضوع الدولة العربية المأمولة وكان غالباً ما يتم تأكيده من قبل فيصل. ربما كان هذا توقعاً حقيقياً أو مجرد طرح لتحديد الملاحظة الصحيحة مع المسؤولين البريطانيين والذين كانوا يأملون بأن مشروع الصهيونية سوف يُنظر له من قبل العرب كمساعد لتطلعاتهم القومية الخاصة. لكن دون شك فإن فيصل ومعه والده طبعاً، قد تعاملوا مع يهود الإمبراطورية والعالم العربي بلطف، لقد كانت مشاعر أبيه نحو اليهود العرب على أنهم أولئك أصحاب العقلية التقليدية، وموقف فيصل كان متأثراً بتلك النظرة، بل أكثر من ذلك شعر بأن اليهود ـ والمسيحيين ـ من العالم العربي قد كانوا أولاً وقبل كل شيء من العرب، ويجب أن تتم معاملتهم بمساواة وكمواطنين في الدولة العربية الجديدة. كانت رسائل جويس حول اللقاء الأول لفيصل–وايزمان قد تم فهمها في ضوء أنه كان هناك تناقض كبير ما بين وايزمان المحنّك بأمور الحياة وبمعرفته الدقيقة، ومداولاته على أعلى المستويات في بريطانيا، فرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، وما بين الإدراك المحدود الذي كان لدى فيصل للعمل حول العمل الحقيقي للحكومات ومجتمعات الحلفاء. إن اعتماد فيصل المبكر على المستشارين البريطانيين، وخصوصاً لورنس، وذلك لتزويده بالإجراءات الدقيقة لقرارات الحلفاء وخططهم ونواياهم، قد يكون قد طبع أيضاً فهمه للقضايا. وبكل حال، هو سوف يتعلم وبسرعة أن يختبر آراء المستشارين البريطانيين الملحقين بمخيمه

مع مستشاريه العرب المحنكين الآخرين. ولم يكونوا أولئك دائماً أطرافاً نزيهة، غالباً ما يكون لديهم ميولهم الخاصة ومصالحهم، ومع ذلك فهم يقدمون وجهات النظر النقيضة لآراء مستشاريه البريطانيين.

لقد كان فيصل يطوّر معرفته الخاصة بالحلفاء، وسيحتفظ بشكل متزايد بمستشاريه. لكن وفي حزيران (يونيو) 1918 كان فيصل في مرحلة مبكرة في ثقافته كرجل دولة، كما أظهر فهماً غير مؤكد للقضايا الدولية المعقدة، وذلك من خلال التمسك بموقف حذر وغير ملتزم.

ولا يمكنك أن تتوقع الكثير من شخص يختلف إدراكه عن إدراك القوى الكبرى التي تمتلك الخبرة والقدرة على الدفاع مثل وايزمان، إلا أن فيصل استطاع أن يبلي بلاءً حسناً: فهو لم يفصح كثيراً عما لديه بالرغم من محاولات المؤرخين الصهاينة لإعطاء صورة الشخص اللامبالي عنه، بل وأنه داعم للمشروع الصهيوني في فلسطين. إلا أن كل هذا وببساطة لم يكن إلا لإخراج تعليقات فيصل عن محتواها لخدمة أغراضهم. كما أن الوطنيين العرب المتطرفين تمسكوا أيضا بتصريحاته الغامضة عند أول لقاء له مع وايزمان لإدانته لأن هجومه لم يكن كافياً عندما رفض أي نوع من الخطط الصهيونية التي أبداها وايزمان.

حملات البحر الميت

كان استيلاء أللنبي على القدس خدعة ذكية جعلت الأتراك يتخلوا عن دفاعاتهم. لقد توقعوا هجوماً كبيراً على السهل الساحلي، إلا أن الحملة المصرية توجهت نحو الداخل للاستيلاء على المدينة. دخل أللنبي القدس سيراً على الأقدام بتاريخ 11 كانون الأول (ديسمبر) 1917 منتصراً وباحتفالات. احتفظ سايكس بهذه الصورة في مخيلته أذهلت الناس «كان النصر مؤزراً ونُفّذ كلفة صغيرة بالأرواح والمعدات. كما أن هذا النصر فتح باتجاه مرحلة جديدة في حرب الشرق. وبما أ ن إمكانية النصر النهائي على الأتراك أصبح حقيقة، فإن المضامين السياسية لنصر الحلفاء بدأت تظهر والفرنسيون الذين كان دورهم أقرب إلى الصفر، لذلك كانوا يرغبون بتأكيد حقوقهم بموجب اتفاقيتهم مع البريطانيين. اختار أللنبي أن يتوقف لإعادة معايرة استراتيجيته خلال المرحلة القادمة والتي يمكن أن تكون فاصلة في الحرب. كما أنه لابد من سد النقص بالموارد ونقل قوات جديدة، من بلاد الرافدين بصورة خاصة وضمها إلى الجيش الحالي. ولن يكون هناك أي تقدم لهذا الجيش حتى منتصف شباط (فبراير) 1918. إن عبء مقاتلة الأتراك خلال هذه الفترة سيقع على عاتق جيش فيصل.

في كانون الأول (ديسمبر) 1917 قام كل من فيصل وجويس بالتخطيط لحملة في منطقة جنوب البحر الميت. كانت هذه المنطقة خصبة نسبياً وتنتج كميات مفيدة من الحبوب

والأخشاب والتي تُستخدم من أجل سكة حديد الحجاز. كما أراد فيصل أيضاً أن يكسب الدعم من سلسلة القرى الواقعة بين قاعدته الأمامية الجديدة في القويرة(*) والبحر الميت(36). إن هذه القرى لم تكن مرتبطة وبشكل محدد مع أي قبيلة، وستكون المواجهة الأولى له لتحركه من دون مستوطنات قبلية. لقد كانوا معياراً جيداً لقياس الدعم من القرى العربية العادية وفلاحي الثورة.

قام فيصل بوضع أخيه غير الشقيق (زيد) برئاسة القوة التي تحركت لاحتلال الطفيلة، وبالرغم من أن زيداً كان يافعاً وما زال نسبياً غير خبير، لكنه ومع ذلك كان رجلاً شجاعاً، قد كسب احترام القوى القبلية التي كانت تحت قيادته. قام فيصل وجويس بتطوير خطة قام بموجبها الشريف ناصر ومع قوة تتألف من 1000 رجل من العشائر و150 من القوات النظامية بقيادة نوري السعيد بقطع خط سكة الحديد بين معان ودرعا، بالإضافة إلى رتلين، واحد كان يزحف من الجنوب خارج قرية الشوبك والآخر من الغرب، ليستولوا على بلدة الطفيلة. وفي 10 كانون الثاني (يناير) 1918 وقعت الطفيلة في أيدي قوات فيصل، وقام زيد بالتحضير للتقدم باتجاه الشمال إلى كرك. كان الأتراك يخططون للقيام بهجوم مضاد وذلك لاستعادة الطفيلة. وكان مسرح الأحداث متهيئاً للمعركة الأضخم بين الجيش العثماني وقوات الثورة العربية. في 23 من شهر كانون الثاني (يناير) تم ارسال قوة تركية كبيرة تحت قيادة الجنرال حميد فخري لاستعادة الطفيلة(37).

كانت كتيبة الجيش الشمالي في الطفيلة تحت قيادة جعفر باشا العسكري، كما حققت المعركة نصراً أساسياً لجيش فيصل. كان عدد القوات التركية المهاجمة لا يقل عن 1500 من المشاة وقرابة 750 من سلاح الفرسان، وجنود دعم آخرين. كانت هذه هي قوات النخبة من الفرقة 48 العثمانية المكونة من 2000 جندي، تم أسر 250 جندي، ورجع 420 إلى الكرك وقُتل قرابة 1330(38)، وكان الجنرال حميد فخري من عداد القتلى، لقد قاتلوا وببسالة حتى النهاية. بعد قرابة الشهر، تعلّم الأتراك درساً قاسياً من مواجهتهم الكارثية في معركتهم الأولى في الطفيلة، لذا استعادوا البلدة، وانسحبت كتيبة الجيش الشمالي جنوباً إلى الشوبك [شمال معان]. لكن الأتراك قاموا بالانسحاب من الطفيلة في أواخر آذار (مارس) 1918 وذلك لتعزيز مواقعهم، متوقعين هجوم بريطاني على الخطوط التركية شمالي البحر الميت. عند ذلك تم إعادة احتلال الطفيلة من قبل زيد.

لقد تم وصف معركة الطفيلة بشيء من التفصيل من قبل لورنس، الذي قام بمنح نفسه مكانة الصدارة في حشد الدفاع وتوجيهه(39)، إن روايته للأحداث تنازع عليها العرب وبشدة

(*) القويرة: بلدة تقع شمال مدينة العقبة بحوالي 50 كم. كانت تاريخيًا تُعد إحدى مراكز انطلاق الثورة العربية الكبرى، وهي منطقة زراعية خصبة. (المُراجع).

والذين قد شاركوا في المعركة أيضاً. إن وصفهم الدقيق للمعركة، قد تم تأييده فيما بعد وبالأدلة من قبل ضباط قاموا بالقتال مع الجيش التركي، فقد نسبوا النصر إلى شجاعة ضباط جيش فيصل الشمالي (خصوصاً العراقيين)، فقد أفادوا بتجمّع حشد قوات البدو عبر أنظمة اتصالات بدائية ومقاومة الفلاحين المسلحة في المنطقة. أما لورنس الذي كان عموماً غير مجند من قبل الضباط النظاميين في جيش فيصل، ومن خلال مذكرات الضباط العرب، الذين خدموا في جيش الثورة، فغالباً ما قاموا بوصفه بعبارات أقل من الإطراء والتملّق. قام ضابط شاب في معركة الطفيلة، اسمه صبحي العمايري، بوصف مشهد، حيث يظهر فيه لورنس ومعه مساعده، حاملاً معه كاميرا سحب، ويشرع في التقاط صورة للورنس مع عمايري وسط كومة من المدافع التركية والتي تم الاستيلاء عليها، وقد أشرف عمايري على جمع هذه الغنيمة وحمايتها. لاحقاً عبّر عمايري عن دهشته لرؤية الصورة نفسها تماماً مع إعادة إنتاج لها في مجلة إنكليزية مع تعليق يشير إلى أن لورنس كان مسؤولاً عن تحقيق النصر بالمدافع التي تم الاستيلاء عليها كدليل يثبت ذلك.

بينما كانت معركة الطفيلة مستعرة، كان فيصل يقود بنفسه كتيبة لمهاجمة محطة سكة حديد في المدورة، حوالي 70 ميل شرق العقبة. كان يصحبه رئيس أركان الجيش الشمالي نوري السعيد. كانت الكتيبة تتألف من البدو (تحديداً الحويطات، بني عطية، وعمران) معاً مع القوات النظامية مدعومة بالمدفعية، والسيارات المصفحة تحت القيادة البريطانية. وبتاريخ 23 كانون الثاني (يناير) 1918، أعطى فيصل أمر الهجوم. وبالرغم من النجاح الأولي، فإن الغارة على المدورة كانت مخيبة للآمال، لم يكن الطرف المداهم قادراً على اسكات المدافع التركية، حتى مع الدعم الجوي، أو بالاستيلاء على المحطة. لقد أصيب فيصل بخيبة أمل شديدة، وجاء في رسالة قام بكتابتها إلى زيد بتاريخ 24 كانون الثاني (يناير) 1918.

بالنسبة لنا فقد فشلنا في غاراتنا على المدورة. ولا يوجد أي تفسير لانسحابنا سوى أنها مشيئة الله. لقد وصلنا إلى المدورة بأعداد ضخمة [من القوات]... ووجدنا أمامنا حوالي 200 [من الأعداء]. حدثت مناوشات خفيفة شملت المدفعية والطائرات. لم تقم المفرزة بالهجوم في اليوم الأول. لا أحد يعلم سوى الله. الكسل، التردد، والضعف. لم أستطع الصمود ليوم ثانٍ وذلك بسبب نقص الماء والإمدادات الأخرى، وتوجب علينا الانسحاب بلا مبرر مقنع. إن هذا دليل على أن الشخص الذي لا يعتمد على الله ولكن فقط على أدواته الخاصة محكوم عليه بالفشل... لقد عدنا الآن إلى الحقيقة [الإيمان بالله تعالى]. أقسم بالله، يا أخي، لقد اعتقدت أننا سنسيطر عليهم في أقل من 5 دقائق... وآخرين قد اعتقدوا الشيء نفسه. كما قال عمر بن الخطاب [عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني للمسلمين بعد وفاة النبي محمد (ص)] في معركة حنين [التي انتصر فيه المسلمون الأوائل نصراً حاسماً]: هذا أمر الله.

ومع نمو التشكيلات النظامية لجيش الشمال وأهميته المتزايدة في الحملة على سوريا وفلسطين، عين أللنبي ضابط اتصال، وذلك للتعاون بين قوة الحملة المصرية وجيش فيصل. أصبح الكولونيل آلان دوناي هو المنسّق الاستراتيجي الرئيسي للجيش الشمالي[*]، كما سعى إلى دمج خطط حملته ضمن الاستراتيجية العامة لقوة الحملة المصرية. لكن هذا الاندماج المتزايد لتحركات جيش الشمال مع قوة الحملة المصرية كان له جانبه السلبي. لقد بدأ الضباط العرب في جيش فيصل يشعرون أن استقلالهم الذاتي يتعرض للخطر بشكل جدي، ولم يعد بإمكانهم التفكير في الثورة على أنها طليعة حركة عربية أكبر من أجل الاستقلال. للبعض، أصبح الجيش الشمالي مجرد مساعد لقوة الحلمة المصرية.

وصلت الأمور للذروة في أوائل شهر نيسان (أبريل) 1918، وذلك عندما قامت مجموعة كبيرة من الضباط بتقديم مذكرة تفصيلية لفيصل، تتعلق بمخاوفهم وقلقهم حول مسار الأحداث وخضوع المخططات العسكرية للجيش الشمالي إلى احتياجات قوة الحلمة المصرية.

كان الشخص المكلف بتسليم المذكرة إلى فيصل هو مولود مخلص، والذي أصبح في تلك الفترة قائداً في الجيش الشمالي في الفرقة الأولى. لقد أُمر مخلص فقط بقيادة قوة لمهاجمة محطة سكة حديد فازوعة fassouaa، وهو أمر اعترض عليه وبشدة. قام فيصل بإعفائه من مهمته وأمر باحتجازه حتى يتم نقله إلى مكة. تولى جعفر مهمة مهاجمة محطة فازوعة، لكن الحملة انتهت بحالة من الفوضى. أدى البرد القارس في ذلك العام وانهيار قوافل الإمدادات وظروف السير الرهيبة إلى حدوث شبه فتنة، مما أجبر قوات جعفر على الانسحاب. أُجبرت القوة التي كانت في حالة يرثى لها على تراجعٍ غير منظم مع هلاك الكثيرين من البرد، والجوع، والعطش. هبّت رياح الكارثة على فيصل، فقام شخصياً بملاقاة الرتل المنسحب بإمدادات الطعام والمؤن الطبية مسامحاً مخلص إثر مشاهدته لعواقب الحملة، الأمر الذي أثبت صحة اعتراضات الأخير. شرع بعد ذلك بإقناع الضباط المتمردين بأن المستشارين البريطانيين لم يكونوا هناك كمحرضين، ولكن بالأحرى لمساعدة الجيش الشمالي في ترتيب إمداداته وللعب دور داعم في القتال. هدأت الظروف شبه المتمردة في الجيش الشمالي، لكن حالة الشك والعداء من قبل بعض الضباط تجاه البريطانيين بقيت مستمرة[40].

سكن القتال بصورة مؤقتة في آذار (مارس) 1918، بسبب الطقس السيئ الذي أعاق العمليات، وتم وضع خطط الهجوم على معان من قبل فيصل ومستشاريه، وهي تقاطع سكة حديد محصن

(*) الكولونيل آلان دوناي المنسّق الاستراتيجي الرئيسي للجيش الشمالي، عيّنه أللنبي للتنسيق بين قوة الحملة المصرية البريطانية وجيش فيصل. (المُراجع).

جيداً. إن الاستيلاء على معان سوف يحدد مصير الحامية التركية الكبيرة في المدينة المنورة. لقد تزامنت الخطة العربية للهجوم مع تحضيرات أللنبي للاستيلاء على السلط عبر نهر الأردن[*]، وذلك لحماية أجنحة جيشه، بينما يزحف باتجاه الشمال. كما إن الاستيلاء على السلط سوف يسمح في حدوث اضطرابات لخطوط الإمداد والتعزيزات لحامية معان.

كانت قوات فيصل المهاجمة مقسمة إلى ثلاثة أرتال، الأول كان بقيادة جعفر باشا والذي سيهاجم محطة سكة حديد غدير الحاج جنوب معان، أما الرتل الثاني بقيادة نوري السعيد لمهاجمة سكة القطار في غدير الحج جنوب معان، والرتل الثالث بقيادة مولود مخلص، وسيهاجم مرتفعات سمنة وتقع مباشرةً إلى الغرب من محطة معان[41]. لكن غارة أللنبي على السلط وعمّان كانت فاشلة وتم دعوة دوناي لإقناع فيصل بتأخير الهجوم على معان. وفي اجتماع محتدم تم عقده في المقر المتقدم لقيادة فيصل في أبو لسان خلال السابع والثامن من شهر نيسان (أبريل)، سعى دوناي لتأخير الهجوم مقابل مقاومة عنيفة من قبل كبار قادة فيصل لهذا الرأي. لقد ضاع الكثير حتى تلك اللحظة في التحضير للهجوم فلم تعد مبررات التأجيل للتماشي مع جدول أللنبي الزمني مقبولة من قبل فيصل وقواته على حد سواء. أخيراً رضخ دوناي وتم اعتماد تعديل لخطة الهجوم الأصلية.

في 11 نيسان (أبريل)، نجح مولود مدعوماً من رجال قبيلة الحويطات في احتلال مرتفعات سمنة، لقد أظهر شجاعة هائلة في إدارة المعركة بالرغم من وجود كسر في وركه. كما احتل جعفر باشا محطة سكة الحديد في الأردن وأخذ معه 150 أسير، ونجح نوري باحتلال محطة القطار في غدير الحاج. وبحلول 14 نيسان (أبريل) قامت الأرتال الثلاثة بالاتصال مع بعضهم البعض استعداداً للهجوم على معان. قامت الطائرات بإسقاط منشورات بتوقيع فيصل، داعيةً حامية معان للاستسلام، وتعِد بمعاملة كل سجناء الحرب بشرف. وفي 15 نيسان (أبريل)، أعطى فيصل، وفي موقعه المتقدم في الوحيدة عشرة أميال غرب معان، الأمر بشن هجوم شامل على معان. تقدم الهجوم للأمام نحو تحصينات البلدة بضع مئات من الياردات، لكن المقاومة التركية كانت شديدة، فأحجم فيصل عن الدعوة لشن هجوم آخر، ولكنه خضع أخيراً لقادته بفعل ذلك[42]. وقع الهجوم الأخير على معان في 17 نيسان (أبريل)، وقد بلغ ذروته بهجوم متقدم من قبل نوري السعيد ضد محطة سكة الحديد. فشل الهجوم، والسبب الرئيسي كان نفاد الذخيرة وقذائف المدفعية من المهاجمين[43]. وبالرغم من النتيجة فقد قدّمت معركة معان دفعة قوية من الثقة بالتشكيلات النظامية لجيش الشمال. لقد كانوا قادرين على التخطيط والسيطرة على

(*) تقع السلط إلى الغرب من مدينة عمّان بمسافة 30 كلم، على الطريق الرئيس القديم الرابط من عمّان والقدس. (المُراجع).

تعقيدات المعركة الحديثة من دون فضل حلفائهم الغربيين. ومن بعد معان، كان فيصل أكثر تصميماً على التقدم نحو الشمال[44].

لقد تزامن وصول قوات فيصل إلى منطقة معان مع هجوم ألماني كبير على الجبهة الأوروبية. تم تحويل الموارد المخصصة لمسرح الحرب بين فلسطين وسوريا، وذلك لوقف الهجوم على الجبهة الغربية، وتوقف تقدم أللنبي. وبالرغم من أن القدس وأريحا قد أُحتلتا، كان على أللنبي أن يأخذ وقته ليقوم بهجومه الكبير، وذلك عندما تكون الظروف أكثر ملائمة. عند هذا المنعطف جاء جيش فيصل بمفرده.

استمرت حملة فيصل خلال أيار (مايو) وحزيران (يونيو) وبلا هوادة بالهجوم على سكة الحديد في شمالي معان، كما أغارت مرات عديدة على القوات التركية المتمركزة في جردان وحيسة وفريفرة[*]. كانت الحامية التركية في معان، مع حوالي 4 آلاف جندي، ما تزال قوية وبشكل كافٍ للصمود أمام هجوم مباشر، وبالإمكان مساندتها بقوة قادمة من عمّان، حيث كان للأتراك ثلاث وحدات رئيسية. لذلك كان يتوجب على الجيش الشمالي أن يأخذ المبادرة ضد الأتراك، كما يجب أن يتجهزوا بالعتاد والمؤن من عند أللنبي للوصول إلى هذه النهاية. كانت أول علاقة على حدوث هذا بالفعل هي موافقة أللنبي على تزويد الجيش الشمالي بألفي جمل من فيلق الإبل الإمبراطوري المنحل مؤخراً. ستكون هناك حاجة ماسّة لنقل الإمدادات والرجال على طول قوس أوسع بكثير، كما تسمح للجيش الشمالي بشن غارات بعيدة عن قاعدة فيصل الأمامية في أبو اللسان[45]. كانت درعا، وهي تقاطع سكة حديد هامة وصمام رئيسي للاتصالات بين جيوش الأتراك في الميدان، في متناول جيش الشمال. لقد كانت على بعد 70 ميلاً جنوب الجائزة الكبرى، دمشق.

بحلول صيف عام 1918 توجّب على فيصل وجيشه أن يمروا عبر محن كبيرة وتحديات، جرت كلها في مساحة جغرافية ضيقة ومتشابكة بشكل وثيق، وسيزداد الأمر أكثر مع تقدم جيش الشمال في طريقه شمالاً، بموازاة سكة حديد الحجاز. ومن واجب فيصل أن يقوم بموازنة عوامل عديدة دون أن يفقد مسار الهدف الحيوي للثورة: تأسيس دولة عربية مستقلة على أكبر قدر ممكن من مساحة الأراضي العربية. بالإضافة إلى مواجهة التحديات العسكرية مع الأتراك، وكان عليه أن يتعامل مع عدد لا يحصى من القضايا الأخرى والتي لم تكن ضمن الاهتمامات الأساسية للقائد الميداني. كان عليه أن يقوم بموازنة التوترات بين مستشاريه البريطانيين وكبار ضباطه

(*) قرى وبلدات متقاربة تقع إلى الشمال الشرقي من معان، وجنوب شرق البحر الميت، تسيطر على طرق المنطقة باتجاه فلسطين. (المُراجع).

العرب، وبين العراقيين والسوريين في فيلق الضباط التابع له، وبين رجال العشائر والقوات النظامية، وبين العشائر ذاتها والتي شكّلت إئتلافاً مضطرب داخل الثورة، وبين مطالب أللنبي وقوة الحملة المصرية من جهة والجيش الشمالي من جهة أخرى. كما واحتاجت مجموعة من القضايا السياسية إلى الإدارة بعناية، ومن ضمن هذه القضايا: المشكلات التي أثارها الكشف عن اتفاقية سايكس ـ بيكو، وإعلان وعد بلفور، واقتراحات جمال باشا للسلام، والتصدعات التي بدأت تظهر في صفوف سكان المدن من القوميين العرب، وحملت هذه القضايا أيضاً إمكانية إخراج الثورة من جذورها عن مسارها. على المستوى الشخصي، فإن علاقات فيصل مع والده كانت قد وصلت لمأزق ينذر بالخطر، حيث رفض حسين ولشهور أن يستقبل فيصل في مكة، مختلقاً عذراً وراء آخر. كان التنافس الضار بين الأب والابن مع ارتفاع صورة فيصل أمراً محتملاً الآن وبشكل جدي. كان حسين متخوفاً وبشكل كبير بسبب وجود الكثير من الضباط العراقيين والسوريين في مخيم فيصل، لأنهم المعارضون الرئيسيون لطموحاته السياسية العريضة.

كان فيصل الآن في طليعة الثورة العربية. من المرجح أنه في هذه الفترة التي بدأ فيصل يرى نفسه مؤيداً ومدافعاً عن قضية هي أكبر من المصالح الأسرية الضيقة لعائلته أو طموحاته الشخصية. أما وصف لورنس لشخصية فيصل في مراسلاته وكتاباته فقد كان مديحا متملقاً، إلا أنه أشار فيما بعد إلى باسيل ليدل هارت إلى نواحي أخرى من شخصية فيصل التي يجدها مثيرة للجدل. وبالرغم من ذلك فقد أصّر لورنس على الاعتراف بالتزام فيصل بالقضية العربية. «[فيصل] سوف يفعل أي شيء لنيل العرب حريتهم ـ لقد كان شغفه الوحيد، غير أناني بشكل بحت.... وقد جعله هذا الأمر يواجه أمور ومخاطر كان لا يطيقها»، هذا ما أفضى به لورنس إلى ليدل هارت[46].

بالقدر نفسه من الأهمية، فإن كل الضباط العرب تقريباً والمدنيين المرتبطين مع جيش فيصل يرونه في هذا الإطار: باعتباره الشخص الأكثر التزاماً بالقضية الشاملة للاستقلال العربي وكأفضل رمز لذلك. لقد كان موثوقاً به ضمنياً من قبل رجال العشائر بالإضافة إلى الضباط النظاميين، لاتخاذ الحكم الصحيح فيما يتعلق بالهدف الأسمى، وليقود الثورة في المعارك وبين حقول الألغام الدبلوماسية والتي كانت تتراكم بلا هوادة.

هوامش الفصل السابع

1 ـ صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد1، ص ص 142 ـ 143.

المرجع نفسه، ص 143. يصف العمري، الذي لديه وعي تقليدي ولا يتناول المشروبات الروحية إطلاقاً، مشهداً في مخيم العقبة عندما كان عمر 19 عاما وبرتبة ملازم حيث تحمَّل مزاحا وضيعا على حسابه من قبل ضباط كبار وهم يتمتعون بالمشروب.

3 ـ زين. ن. زين، السيرة الدولية في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت، 1977، ص ص 74 ـ 75.

4 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص ص 225 ـ 256.

5 ـ أرسل جمال أيضاً رسالة ثالثة، بعد أسبوعين، إلى عبد الله. كانت هذه الرسالة مختصرة وذكّرت عبد الله بولائهم المشترك إلى لبلاد المسلمين.

6 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 152 ـ 153.

7 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 254.

8 ـ من المدهش أن جعفر باشا لم يُشر مطلقاً في مذكراته لرسالة جمال، على الرغم من أهميتها.

9 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 156.

10 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 178 ـ 379. ويؤكد هذا المصدر أن تبادل الرسائل مع الحلفاء لم يضعها في سياق الكشف عن اتفاقية سايكس ـ بيكو. وهذا غير محتمل، فالأتراك نشروا الاتفاق بغير هوادة وعلى نطاق واسع. ومن المحتمل أن تفاصيلها قد وصلت إلى حسين بالوقت نفسه تبادل الرسائل مع البريطانيين.

11 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 156 ـ 159.

12 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 258.

13 ـ المرجع نفسه، ص ص 431 ـ 432.

14 ـ المرجع نفسه، ص 257.

15 ـ وزارة الخارجية 686/37، سليمان موسى، مرجع سابق، ص 384، هامش1.

16 ـ يوجد ثلاثة أشخاص يحملون اسم «جمال» على الجبهة السورية. الأول كان جمال باشا حاكم سوريا وقائد الجبهة السورية الفلسطينية. وكان يُعرف بجمال باشا الأكبر. الثاني جمال باشا الأصغر الذي قاد الجيش العثماني الرابع حتى أيلول 1918. أما الثالث فكان جمال باشا الثالث قائد القوات العثمانية في قطاع معان.

17 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 284 ـ 285.

18 ـ ت. ي. لورنس، « إضاءات جانبية على الحرب العربية »، مقالة غير موقعة في صحيفة التايمز اللندنية، 4 أيلول 1919.

19 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 47.

20 ـ المرجع نفسه، ص 511.

21 ـ وزارة الخارجية 688/38 وسليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 384 ـ 385، هامش1. البريطانيون أنفسهم كانوا أيضاً يجرون محادثاتهم السرّية الخاصة مع الأتراك في سويسرا في كانون الأول 1917.

22 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 162.

23 ـ تضمنت القائمة عدداً قليلاً، مثل الدكتور عبد الرحمن الشابندر الذي أصبح من حلفاء فيصل في حكومته العربية في سوريا.

24 ـ إن تحيّز أوزموند والروند للسوريين يتعارض مع مشاعر لورنس الذي لم يكن لديه سوى ازدراءً لأفنديي العرب في المناطق الحضرية.

25 ـ بروس ويسترات، مرجع سابق، ص 162 ـ 164.

26 ـ جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص ص 433 ـ 434.

27 ـ في ماونت فيرنون بمناسبة الرابع من تموز، 1918.

28 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 468 ـ 469، من وثائق سايكس، كليّة سانت أنطوني، أوكسفورد.

29 ـ مذيعو الاتحاد الكندي 23/27 من كانون الثاني 1918؛ اضطلع بها أيضاً جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 512.

30 ـ المرجع نفسه.

31 ـ وزارة الخارجية 887/7 fo 268؛ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 312 ـ 313.

32 ـ المرجع نفسه، ص 513.

33 ـ قابل وايزمان الشخصيات القيادية العربية الفلسطينية في القدس، حيث كرّر بقوة الطبيعة المسالمة للمشروع الصهيوني في فلسطين.

34 ـ وزارة الخارجية 882/14: جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 513.

35 ـ المرجع نفسه، ص 514.

36 ـ المرجع نفسه، ص ص 465 ـ 466. تقع الجويرة على بعد خمسين ميلاً إلى شمال شرق العقبة، وتتموضع بين العقبة وسكة حديد الحجاز.

37 ـ صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد1، ص 176.

38 ـ المرجع نفسه، ص ص 163 ـ 185.

39 ـ ت. ي. لورنس. الأعمدة السبعة، ص ص 478 ـ 492. كوفئ لورنس كضابط أركان المنطقة لدوره في المعركة.

40 ـ صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد1، ص ص 203 ـ 205.

41 ـ اللورد بيرد وود، مرجع سابق، ص ص 60 ـ 66؛ صبحي العمري، مرجع سابق، المجلد1، ص ص 207 ـ 232.

42 ـ اللورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 65.

43 ـ وفقاً لجعفر فإن الأتراك كانوا يستعدون لإتلاف وثائقهم بما أنهم متأكدون أن الهجوم سينجح. اللورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 43.

44 ـ المرجع نفسه، ص 66.

45 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 505 ـ 506.

46 ـ المرجع نفسه، ص 385.

الفصل الثامن: التوجه نحو دمشق

إن السنتين اللتين امتدتا بين إطلاق الثورة العربية والتحضيرات للزحف نحو دمشق قد أثّرت وبعمق على شخصية فيصل، وغيرت من فهمه للعالم. فعند بداية الحرب العالمية الأولى، نظر فيصل إلى العالم من خلال وجهات نظر محددة بالنسبة لأمير عربي ينتمي لمجتمع تقليدي للغاية، ومحكوم بالتعرض للتغيرات التي تجتاح العالم من خلال مقعده في البرلمان العثماني، ومن اتصالاته مع النخبة شبه الحديثة في الإمبراطورية.

أيضاً فإن علاقاته مع الأوروبيين كانت عرضية، ولا يمكنها أن تشكل الأساس لفهم صحيح للغربيين. لقد كان وبكل تأكيد مدركاً ومحترماً لسلطة ونفوذ القوى الإمبريالية، لكن هؤلاء لم يؤثروا بعد بشكل مباشر في قلب أراضي الولايات العربية ليكونوا عاملاً في حياته اليومية. بعد الثورة، لم يتوجب على فيصل التعامل مع القوى الإمبريالية فقط من خلال الاستعراضات العسكرية التي قادها الضباط والمسؤولون الأجانب، بل توجّب أيضاً على فيصل الاجتماع معهم بشكل شبه يومي، لكن كان عليه أيضاً أن يطور أساسيات الحنكة والدبلوماسية بالإضافة إلى مواجهة الأطماع الاستعمارية والسياسية للبريطانيين والفرنسيين، من أجل المال والنصائح السياسية والدعم من العوامل المعقدة ولحد كبير، كما كان لها تأثير مباشر على سلوكه، مما أجبره على موازنة التناقض وحتى الأهداف المتناقضة، مع الحفاظ على التركيز على الجائزة النهائية من أجل الاستقلال السياسي للعرب.

فيصل في سن الخامسة والثلاثين

اختلطت دوامة الأحداث والشخصيات مع حملة عسكرية شرسة قامت بفرض نفسها على فيصل، وأسهمت بتطور الشخصية التي عنت الكثير لأناس عديدين. فبالنسبة للضباط العرب القوميين والشخصيات المرموقة (الأفندية)[*] في سوريا والعراق، كان فيصل تجسيداً واضحاً

(*) كلمة تركية مفردها أفندي، معناها السيد أو القائد. تُطلق على بعض فئات الجهاز الإداري والحاكم في الدولة العثمانية، أو على الفئة المثقفة والمتعلمة تعليماً حديثاً. تحوّل استخدامها في البلاد العربية لتشير إلى المثقفين الذين يرتدون لباساً غربياً (البنطال والمعطف «سترة»). (المُراجع).

للتطلعات العربية للاستقلال، والتي أصبحت الآن أكثر إلحاحاً، بسبب الانتفاضة والتي قطعت الروابط التاريخية بين الإمبراطورية العثمانية والعرب. وبالنسبة إلى عموم المقاتلين البدو ـ والذين شكّلوا معظم القوات المحاربة ـ وإلى زعمائهم أيضاً، كان فيصل سليل ما يُعتبر أنبل عائلات شبه الجزيرة العربية. لقد كان الشريف، الذي وضعته مكانته اللامعة فوق جميع القبائل والأعراق، مما يفرض أيضاً الاحترام الشخصي والطاعة له في زمن الحرب. ولقد كان أيضاً مصدر الذهب الذي كان يتلقاه البدو بوفرة غير معتادة، وذلك لمشاركتهم في الثورة العربية. وبالنسبة للضباط البريطانيين المرتبطين بمعسكره، وخصوصاً للورنس فقد كان فيصل الوجه العربي الأساسي للثورة، والذي كان يتم تقديم النصح له ودفعه في الاتجاه الصحيح، الشخص الذي يجب رعاية صفاته ـ والمبالغة فيها إذا لزم الأمر ـ وذلك للحفاظ على زخم الثورة مستمراً وللأمام. بالنسبة لهم، فقد كان هو الشخص الذي تمتع بقدرات موثوقة، لكنه لم يستطع وحده مواجهة ضغوط الطبقة العسكرية البيروقراطية وتعقيدات القضايا الدولية تمام المواجهة. على المقلب الآخر، رآه الفرنسيون تقريباً بشكل معاكس، إذا اعتبروه الشخص الأرجح قدرة على إحباط طموحاتهم في سوريا والشام وإخراج خططهم الموضوعة بعناية والمتفق عليها مع البريطانيين للتقسيمات السياسية في الشرق الأوسط. أخذ فيصل كذلك في بناء سمعة على مستوىً عالمي، وقد ساعده في ذلك الشهرة التي خلقها الصحفي الأمريكي لويل توماس للورنس في أوروبا وأمريكا[1]. كما تم تحديد جانب آخر من شخصية فيصل وذلك من خلال علاقته مع أبيه وإخوته. إن سبب الثورة العربية لا يمكن فصله بشكل كلي عن موضوع طموحات سلالة عائلة الأشراف، كما عانى فيصل أيضاً من تقلبات موقف والده تجاهه والتي تحولت من الثناء السخي لإنجاز فيصل إلى الفظاظة الصريحة، لقد كان حسين يكره فقدان السيطرة على نشاطات جيش الشمال حتى أنه بدأ يراوده الشك حول دوافع فيصل، وأصبح غاضباً من مواقف فيصل وعلاقاته.

لقد حددت شخصية فيصل، والتي كانت بدورها تخضع لعملية نضوج وتحول عميقة، آراء الآخرين عنه والطريقة التي سعوا من خلالها للتعامل معه. ولا بد أن الانتقال من عالم المسلّمات شبه المطلقة الذي يهيمن عليه العثمانيون ومن بيئة الحجاز التقليدية اجتماعياً وسياسياً إلى الحرب واضطراباتها وإلى التحالف مع القوى الأوروبية قد كان أمراً مقلقاً في حد ذاته. إذ توجب على فيصل أن يحثّ الخطى لتطوير معرفته حول النظام الجديد الناشئ في زمن فرض عليه أيضاً التعامل مع انهيار المسلمات السابقة. لقد كانت هناك صعوبات وتحديات موروثة في عملية الانتقال من مجموعة من القواعد والثوابت إلى أخرى لا تزال غير محددة المعالم النهائية. إن مقدار الحذر والتردد بالضرورة قد تطور عند فيصل بالترافق مع وصوله إلى هذه الحقائق والمتغيرات الجديدة، من دون امتلاك أدوات المعرفة والتجربة. هكذا نشأ تردد غير طبيعي

من الحكمة كان يتعارض مع اندفاعه وتوجهه الفكري للعمل. لقد كان جوهر شخصية فيصل يفيض بإحساس عميق بالواجب تجاه عائلته، والقضية العربية، ونحو القبائل التي دعمت الثورة. وتطورت روابط الثقة هذه وبشكل طبيعي نتيجة الإحساس بالواجب تجاه الآخرين، لكن هذه الثقة يمكن لها وبسهولة أن تتعرض للخطر وذلك من خلال إجراء غير حكيم قد يحطم تحالفاً هشّاً في طريقه للنجاح، ولكن محفوف بالمخاطر. كما إن هذا الحذر قد يُساء تفسيره على أنه بخل، كما حدث لاحقاً مع لورنس، عندما زعم ذلك في محادثة له ما بعد الحرب مع المؤرخ العسكري باسيل ليدل هارت[2].

وهكذا، فإن فيصل وقد بلغ الخامسة والثلاثين عليه أن يطور مجموعة جديدة من القدرات والسلوك لرؤية الأشياء بصورة صحيحة بحيث تغطي على ميوله الشخصية. إن مستشاريه الموثوقين هم أفراد عائلته، لحين وصوله إلى مخيمه في آب (أغسطس) 1918 فقد أصبح لديه مجموعة من الأتباع الوطنيين، وأصبح أحد هؤلاء أكثرهم ثقة بالنسبة إليه. وفي رسائله لأبيه خلال سنوات الحرب ظهر فيصل كشخص تميز بإحساس عميق من تقوى الأبناء والاهتمام بإخوته. إن هذا الأمر يبدو طبيعياً في الرسائل المتبادلة بين الآباء وأبنائهم ممن نشأوا في إطار بيئة تقليدية، لكن شروط الاحترام والمودة التي استخدمها فيصل كانت خارجة عن المعادلة. فمع تتطور وتقدم الثورة، ازدادت نبرة الثقة في رسائل فيصل، خصوصاً عند الاتصال وتقييم الأوضاع السياسية والعسكرية، وبالرغم من صياغته بعبارات محترمة، إلا أنهم أشاروا إلى تزايد ثقته بنفسه.

وعلى الرغم من أن عائلته كانت المستودع الرئيسي لثقة فيصل في سنوات الحرب، فقد كان أخويه عبد الله وعلي غالباً منشغلين في محاصرة الأتراك للمدينة المنورة وغير قادرين على تقديم نوع المشورة التي يحتاجها في الوقت المناسب. أما على أرض الواقع، كان أبيه بعيداً عنه في مكة المكرمة، كما أن رحلات فيصل إلى الحجاز أصبحت أقل، وذلك مع تقدم الحملة. وأخذ أخيه زيد غير الشقيق، مع أنه أصغر بكثير، دور المساعد الموثوق وعلى أكمل وجه، لكنه كان غير ناضج سياسياً ليلعب دور المستشار. وبالرغم من ذلك، فقد اعتمد فيصل كثيراً على مساعدة أقاربه الأشراف، البعض منهم ممن كانوا مقربين منه تحديداً، مثل الشريف ناصر. لكن لم يكن لدى أيٍ منهم اتساع الخبرة والانفتاح على العالم الخارجي ليتمكن من تزويد فيصل بنوع من النصيحة التي يحتاجها، لتمكّنه من خوض غمار المخاطر السياسية والدبلوماسية. أما رؤساء القبائل والذين كانوا مقربين منه فالعديد منهم كانوا شجعاناً ودهاةً ماكرين، ولكن ليس لديهم الأرضية الكافية ليكونوا مستشارين موثوقين.

أيضاً الضباط العرب في الجيش الشمالي قد قاموا بلعب هذا الدور، ومن بينهم الشخص

المقرب من فيصل جعفر باشا وعلى قدرٍ أقل بكثير كان نوري السعيد. بكل الأحوال، فإن الضباط العرب قد شكلوا عصبة خاصة بهم في ضوء تجاربهم المشتركة ضمن الجيش العثماني ووجهات نظرهم المشحونة للغاية فيما يتعلق بشؤون القوى الغربية والاستقلال العربي. البعض من المدنيين السوريين ممن كانوا متواجدين في مخيم فيصل، مثل سكرتيره الخاص فايز الغصين، والذي كان لغاية صيف عام 1918 غير مقرب لدى فيصل ليعمل كمستشار وصديق له. وبالرغم من تواجد العديد من العرب حول فيصل والذين قاموا بتشكيل نوع من الثقل المضاد أمام الجيش البريطاني والمستشارين السياسيين في مخيم فيصل، لم يكن أمام فيصل في البداية سوى القليل من الخيارات باستثناء إيلاء اهتمام وثيق لما قاله له هذا الأخير.

إن دور المستشارين البريطانيين الموجودين مع فيصل وتأثيرهم عليه، وخاصة لورنس أمر مبالغ فيه، وكذلك تم الاستخفاف به، والدراسات المعاصرة للثورة العربية هي بصورة ساحقة من إنتاج ما كتبه المسؤولون البريطانيون في مذكراتهم أو من تاريخ الحملات ضدَّ الدولة العثمانية في الشرق[3]. تفوقت عليهم جميعاً مذكرات لورنس الحربية والمؤثرة «أعمدة الحكمة السبعة» والنسخة المختصرة منها «ثورة في الصحراء». مع أن لورنس حاول قدر استطاعته لكنه لم يستطع صرف الانتباه عن نفسه: قد كتب تشرشل عنه ببراعة ـ «الانسحاب نحو موقع الاهتمام». ورغم تقويمه لفيصل بالنسبة للعديد من مبادراته ونجاحاته، فإن النبرة الخفية في مذكرات لورنس كانت نبرة متقلبة ومتحفظة. وكأنه سيد خجول يتعامل مع شخص مبتدئ[4]. لم يكن العرب من ضمن مسرح لورنس، ولكن كانت هناك حاجة لأشخاص للقيام ببعض الأعمال ومن ثم لا بد من قيادتهم وتقديم الرشوة لدفعهم نحو العمل ـ مع البريطانيين وتقديم العنصر المنشط لهم للقيام بأعمال مثل جمع القبائل، والتموين والتسليح ونقل جيش الشمال، وغيرها من الأهداف والتكتيك، كل ذلك كان يتم من أجل الضباط البريطانيين الذين بدورهم يقدموا هذه المعلومات وحسب التسلسل إلى أللنبي. وببساطة فقد جرى التأثير على فيصل بجهود كبيرة من الضباط البريطانيين الذين أحاطوا به وعلى رأسهم الشخصية البارزة لورنس. بقيت هذه القصة محافظة على زخمها حتى جرى فتح الملفات البريطانية في وقت متأخر من ستينات القرن العشرين، والتي كان لها تأثيراً معدلاً دون إزاحة الجدل القائم.

لقد كانت الرواية المضادة للمؤرخين العرب أضعف بكثير، وذلك بسبب ندرة مذكرات الحرب من الجانب العربي، وغياب أي مواد أرشيفية هامة من المصادر العربية وإقحام التحيزات الأيديولوجية والسيرة الذاتية في منهجيات المؤرخين والسير الذاتية، خصوصاً الروايات العربية التي إما تجاهلت أو تجاوزت الدور البريطاني في نجاح الثورة العربية، أو أنها ترفض الثورة العربية بوصفها مؤامرة لتشويه تطلعات العرب، حيث جرى استمالة الأسرة الهاشمية بصورة متعمدة

أو غير متعمدة لكي تلعب دور مخلب القط نيابة عن القوى الامبريالية. وهذه الحقيقة لم تحصل بسبب ضعف كبير ونقص الثقة في شخصيته، بل بسبب الثورة ضدَّ جبروت الإمبراطورية العثمانية والذي لا بد من دعمه من قبل حليف ذو قوة أجنبية وله عاداته وطرقه غير المألوفة في البداية كان الأمر بمعنى أن الإمبراطورية البريطانية كانت شأناً عالمياً شاملاً، مع موارد هائلة تحت تصرفها، والتي لا يمكن تجاهل استشارتها ونصيحتها والتي تركت أثرها على كل تعاملات فيصل مع البريطانيين. لقد كان هذا صحيحاً، وبالتحديد عندما كانت تتعلق بالأمور التي يشعر فيها فيصل بأنه لديه القليل من المعلومات أو حتى لا يملك ولا أي معلومة أو الأهلية، أو عندما لم يكن يمتلك الوسائل لاتخاذ مسار مستقل للعمل باستخدام موارده الخاصة.

وعندما قام بفعل ذلك، مثلما فعل بتعاملاته مع القبائل، عمل فيصل وفقاً لتقديره الخاص وأذعن مستشاريه لحكمه. لكن كل شيء آخر في الأيام الأولى للثورة يتطلب مساعدة ودعم بريطاني كبير: تدريب على المتفجرات، تكتيكات لاستخدامها ضد وحدات العدو الميكانيكية، نقل القوات، الدعم الجوي ـ والقائمة لا تنتهي تقريباً. والقوات السيئة التجهيز، غالباً ما كانت قوة غير منظمة والتي يجب دمجها في جناح مقاتل وذلك لدعم قوى الحملة العسكرية الإمبريالية، وهذا لا يمكنه أن يؤثر بدون مشاركة مكثفة للمجموعات الاستشارية البريطانية.

على أي حال لم يكن اعتماد أو استقلال فيصل مع المستشارين البريطانيين إلا عند الضرورات العسكرية القصوى التي تصطدم بالخطط السياسية والطموحات، وتصبح الأمور صعبة الحل. كان يتعلم بسرعة، وذلك فيما يتعلق بسلوك القوى العظمى، وتردده الأولي فيما يتعلق بالثورة يكشف حذره من أطماع القوى الأجنبية في الأراضي العربية. إن هذا الحذر الكامن قد قام بتشكيل حجر الأساس لتعاملاته مع البريطانيين، لكن غطّتها حقائق التبعية لهم لأجل الحصول على الدعم العسكري، المالي، السياسي، والدبلوماسي. لقد كان فيصل في الواقع مدركاً لحقيقة ضعف العرب وانقسامهم، وللهشاشة الموروثة للثورة العربية. لقد ولّد هذا الأمر إحساس بالقلق في داخله، وكان في بعض الأحيان شديد التوتر والاندفاع. وظهر ذلك في عاداته الغذائية الزهيدة وتدخينه المستمر، وكان لها آثار ضارة على سلامته العامة. إن صحة فيصل لم تكن دائماً قوية، لكنه وبحذر تمكن من إخفاء اعتلاله وراء آدابه العامة المفعمة بالحيوية والساحرة.

لقد كان فيصل عرضة للتقلبات المزاجية، وذلك عندما يتعلق الأمر بتقييم النكسات وردود الفعل عليها. كانت فرصة تعثّر الثورة تحت ضربات الهجمات التركية المضادة تكمن تحت السطح مباشرةً. فعلى سبيل المثال، إن فشل غارات أللنبي للاستيلاء على السلط وعمّان في آذار (مارس) 1918 قد ألقت بآثارها السلبية على فيصل مباشرةً والذي أدرك بأن ذلك سوف يهدد موقع الجيش الشمالي[5].

لقد كان فيصل مدركاً تماماً للحالة الثابتة لضعف الثورة العربية، لقد ادى هذا دوراً هاماً في تعاملاته مع مستشاريه، كان عليه أن يقبل النصيحة المقدمة على الرغم من حقيقة أنها قد تتعارض مع أهدافه الخارجية وطموحاته، أو أن تكون دون مستوى توقعاته أو متطلباته. إن أسلوبه الذي اشتهر فيما بعد باستراتيجية (خذ ثم اطلب المزيد)، قد قامت بخلق سوء فهم وشكوك كبيرة جداً، كما أنها ولّدت عدداً من الأفكار الخاطئة حول شخصيته، مما أدى إلى اتهامات بالتناقض والازدواجية والاستسلام للضغط الأجنبي، وذلك لقبوله بما هو دون المستوى المأمول، كما سيقوم القوميون باتهام فيصل بالرضوخ للمطالب الأجنبية بالمطالبة بالمزيد بعد الظهور بالموافقة على ما تم عليه، وآخرون يتهمون فيصل بمضاعفة التعامل. إن هذه الصفات المتناقضة هي في جوهرها مؤشرات لمظهر أكثر وضوحا لاستراتيجية شخص في موقع غير متوازن بين تيارات متعاكسة. إن الضغط المتراكم الذي أجبر فيصل على انتحال هذه الشخصية بدأ يطفو على السطح في صيف 1918، ليعود للظهور في المستقبل. وفي مقدمة ذلك انتقال مجال عمل الثورة العربية من غارات ومعارك في حرب الحجاز إلى الوسط السياسي عام 1918.

إن فداحة القضايا فرضت نفسها على فيصل وبدأت بعدم الارتياح الذي أحدثه كُلّاً من الاتفاقات الأنغلو ـ فرنسية وإعلان بلفور فيما يتعلق بشكل ما بعد الحرب في الشرق الأدنى. بينما كان اختيار حسين الأول هو كنس آثارها وإخفائها، كان يتوجب على فيصل مواجهتهم وبشكل يومي في معسكره، كما إن الضباط العرب وأتباعه من المدنيين السوريين قد كانوا هناك للتأكد من ذلك. إن هذا الأمر وبالضرورة، قد ولّد قضايا تتعلق بمدى جدارة الثقة بمستشاريه البريطانيين، ومدى عملهم بأجندة مزدوجة. كانت خيارات فيصل بهذا الخصوص ضيّقة بشدة، لم يكن لديه أي خيار غير أن يثق بمستشاريه البريطانيين وعلناً، حتى تثبت الظروف والأحداث عكس ذلك. وحتى ذلك الوقت، لم يستطع قطع علاقته بهم طالما بقيت قضية التبعية. لقد أساء لورنس فهم هذه الإشارة الظاهرية لقبوله النصيحة التي يقدمها هو وغيره إلى فيصل كإشارة لتأثيرهم عليه. وغالبا ما كانت أمراً مفروغ منه يؤدي إلى موقف سهل أو نوع من التنازل من جانب فيصل. وذلك ما ستؤكده تعليقاته اللاحقة، لكنه كان أيضاً واقعياً يقر ويقدر النصيحة الصحيحة والبناءة، والتي كان يتلقاها في كثير من الأحيان. في التحليل النهائي، قبِل فيصل بنفوذ مستشاريه البريطانيين، ولكن فقط كنتيجة مباشرة لحساب واضح من جانبه لقبول نصيحة كهذه حيث لا تتعارض أو تتصادم مع خطته الأشمل، أو حيث هو وببساطة لا يكون لديه ما هو ضروري لتطوير موقفه.

لم يتغير موقف فيصل العسكري إلا عندما شنّ أللنبي هجومه الكبير على الخطوط التركية في فلسطين وسورية في أيلول 1918، حيث كان الموقف العسكري لفيصل مدفوعاً من

خلال الاستعجال لتوسيع الإقليم وبشكل فعّال تحت سيطرته، بالإضافة لمطالبات مستشاريه البريطانيين والتي قامت بالتركيز بشكل طبيعي على إزالة التهديدات التركية على الجناح الأيمن لألنبي. إن مهمة فيصل من وجهة النظر البريطانية كانت مواجهة التهديد التركي على ألنبي عن طريق تدمير أكبر قدر ممكن من خط سكة حديد الحجاز والقضاء على الحاميات والتشكيلات العسكرية التركية على طول مسارها. من جهة أخرى، ارتبط توسيع نفوذ جيش الشمال بشكل أساسي بإرساء سوابق من شأنها أن تساعد في تأسيس دولة عربية مستقلة. أدرك فيصل أن مطالبات العرب بالاستقلال سوف تُعزز وبشكل كبير إذا استطاعت نوعيته ومستوى موظفيه الناشئين أن تلبي احتياجات بناء دولة جديدة، مما دفعه للتواصل مع الخارج، وذلك لتثقيف النخب في سوريا والعراق، كي يتمكنوا من إلحاق أنفسهم بركب حركته، إنها حالة سوف ترفع إمكانية زيادة الصراع ليس فقط مع العمود الفقري لجيشه من القبائل، ولكن أيضاً مع مستشاريه البريطانيين، والبعض منهم، وكان من بينهم لورنس أصبح معادٍ جداً لهذه الفئة، إذ فضّل هذا الأخير صحبة البدو ورجال القبائل كثيراً حيث اعتبرهم موئّل الفضائل (والرذائل أيضاً) التي تحدد الشخصية العربية الأصيلة في نظره. كما أطلق لورنس وبكل حرية ألقاب المخادعين والجبناء على أفندية المدن الذين أخذوا بالتكتّل حول فيصل مع ترسّخ أساسات الثورة. «ومع التسهيلات الصاخبة التي خلقها السوريون ـ شعب أشبه بالقردة في حركتهم، يتمتع بالكثير من سرعة بديهة اليابانيين لكنهم أكثر ضحالة ـ قاموا [أعضاء الجمعيات السرّية العربية] ببناء منظمة هائلة بسرعة كبيرة... لقد توقعوا أن يحصلوا على الحرية بالاستعطاف وليس بالتضحية»(*) (7). ولقد كثُر معسكر فيصل بمثل هذه التناقضات، ووقعت عليه المهمة الجائرة المتمثلة في إدارة الأشخاص المتوترين للغاية مع غرور يتناسب معهم. لقد توجّب على فيصل أن يقوم بوضع عدة أقنعة، ويتصنّع عدة وجوه، وذلك لتلبية كل من هذه الفئات المتنوعة وسعي معظمهم إلى تعريفه بقضيتهم أو وجهة نظرهم الخاصة. ليكون قادراً على تحمل هذا لفترة طويلة حتى نهاية حياته ـ إنه أمر سيؤثر على أي رجل مهما كان شأنه.

كما شكّلت القطيعة بين فيصل وأبيه عامل ضغط إضافي على الابن، وجرحَه هذا العامل بشكل أعمق، لكونه شخصي الطابع بشكل أكبر، وذلك عندما بدأت القطيعة بينه وبين أبيه. لم يكن حسين بالضرورة يشعر بالغيرة من فيصل، ومن إنجازاته، أو من تنامي مكانته الدولية. إن أكثر ما أقلقه هو خروج فيصل عن سيطرته، وبُعده بالمسافة عنه، بالإضافة إلى زيادة اتصالات

(*) إذا ما أخذنا وجهة نظر لورنس بالتخصيص فإن المقصود ليس شعب سوريا وإنما (أفندية المدن) كما سماهم. أما على إطلاق عباراته بشكل عام فإنما هي خير مثال على عجرفة البعض في الغرب الاستعماري في التعامل مع شعوب الشرق والتي تخلو من الاحترام لتاريخ وثقافة هذه الأمم؛ إنها نظرة القوي المغرور ببساطة!. (المُراجع).

فيصل مع أبطال الميدان الرئيسيين من البريطانيين، مُنشأً بذلك عقدة بديلة للسلطة. يمتلك حسين شخصية متحكمة وغالباً ما لجأ إلى تدابير لا يمكن تفسيرها ومضادة للمقاييس لتأكيد سلطته. واحدة من أفظع الحالات التي أظهرت فظاظته وتجاهله للعواقب كانت حادثة في آب (أغسطس) 1918 مع جعفر باشا العسكري. ففي أوائل ذلك الشهر، تلقى جعفر باشا من أللنبي وسامً رفيعاً تكريماً له بصفته قائداً عاماً للقوات المسلحة للجيش الشمالي. وتمت تحية جعفر من قبل حرس الشرف التابع إلى دورست يومانري، وهي الكتيبة نفسها التي واجهها في الصحراء الليبية عندما كان يقاتل بجانب رجال قبائل السنوسي[8]. في اليوم التالي، وفي 17 آب (أغسطس) 1918، ظهر إعلان في جريدة القبلة الرسمية في مكة المكرمة، من الواضح أنه تم نشره بعلم حسين، أُعلن فيه بأن جعفر باشا كان مسؤولاً فقط عن إحدى تشكيلات الجيش الشمالي، وأنه لم يسبق أن تم تعيينه في منصب القائد العام، على الرغم من أن فيصل قد عيّن جعفر قائداً عاماً في عام 1917 وباعتراف الجميع دون أن يوافق حسين رسمياً على هذا التعيين. لقد كان تأكيد حسين على مكانة جعفر المحدودة إهانة مباشرة، ليس فقط لجعفر وإنما لفيصل أيضاً[9]. قدّم جعفر استقالته حالاً، ومعه كبار ضباط الجيش الشمالي من مناصبهم. وفي رسالة إلى أبيه في 29 آب (أغسطس) استقال فيصل من منصبه، ووصلت إشاعة استقالته إلى القوات غير النظامية، وهم بدورهم أصبحوا حاقدين ومتمردين.

أدى الوضع برمته إلى تعليق العمليات العسكرية، وكان من الممكن أن تكون قد حددت نهاية الثورة، على الأقل في شكلها القديم. وينغيت، أللنبي، ويلسون سارعوا جميعاً لحمل الملك على التراجع عن تصريحاته ولكن دون جدوى. في الواقع قام بخطوة أبعد وبرسالة لزيد، وصف فيصل فيها بالخائن وقام بوضع زيد بالمسؤولية. وتعقيباً على هذه الأحداث أبرق جويس إلى لورنس «... إن تصرف الملك برفضه الاعتراف بفيصل... أدى إلى تدمير سلطة فيصل وجعلته يفهم أنه فقد ثقة أبيه نهائياً بالنسبة لعمليات الشمال. وفي برقية مشفَّرة أرسلها الملك أمس إلى زيد يصف فيها فيصل بالخائن والمتمرد وأمر زيد وثلاثة من الضباط بالاستمرار. وما لم يصحح الملك هذا الأمر فإن فيصل لن يتحرك نحو الشمال، وزيد غير مؤهل ليحل محله. لن تعود الأمور إلى نصابها ما لم يبرق حسين إلى فيصل ويحثه على الاستمرار في عمله بالشمال ويعلمه بأنه يتمتع بثقة كاملة من الملك وأنه سيوافق بصورة مؤقتة على التعيينات التي أجراها فيصل لحين تسوية الأمر»[10].

تم نزع فتيل الأزمة عندما صمم لورنس اعتراضاً ذكياً لأكثر الرسائل سُمّية من الأب إلى الابن وتم تغيير محتواها إلى فقرات أقل هجوماً[11]. تم تشجيع حسين بعد ذلك من قبل البريطانيين لتقديم اعتذار فاتر، والذي قبله فيصل، معلناً لجميع الضباط والأركان المجتمعين، وذلك بعد

قراءته لبرقية حسين المزورة: «إن البرقية قد أنقذت سمعتنا»[12]. إن هذا الحادث الخطير على الرغم من أنه كان يمكن أن ينتهي بشكل جيد، لكنه كان انعكاس للنهايات التي كان حسين مستعداً للذهاب إليها، وذلك لتأكيد سلطته على فيصل، فقد ساهمت في تزايد الاغتراب بين الأب والابن. ومع الوقت، فإن هذا الاغتراب سوف يمتد لأبناء حسين الآخرين، وذلك كلما نمت حالة العناد والشك والريبة وطبيعته التي وصلت إلى مستويات لا تطاق.

تصادف الشهر الأخير لفيصل في مخيم (وحيدة) بمفاتحات السلام التركية الأخيرة، إذ تم نفي الأمير سعيد الجزائري إلى الأناضول، وهو سليل الأمير العظيم عبد القادر الجزائري الثائر الجزائري في القرن التاسع عشر والذي قضى سنواته الأخيرة في دمشق، من قبل السلطات العثمانية. سُمح للأمير سعيد بالعودة إلى دمشق في صيف عام 1918، جزئياً للعمل كوسيط مع فيصل. تقابل جمال باشا الأصغر مع الأمير سعيد في المعسكر السابق في السلط، حيث طلب منه أن يسلّم رسالة إلى فيصل يدعوه فيها لعمل تسوية سلمية بين الأطراف المتحاربة[13].

في 12 آب (أغسطس) 1918، تقابل فيصل مع الأمير سعيد في مخيم وحيدة وذلك بحضور فايز الغُصين (سكرتيره الشخصي)، زيد، ونوري السعيد. لم تحمل رسالة جمال أي مقترحات معينة للسلام، لذلك كان فيصل ملزم بالرد بعبارات عامة. قام فيصل بتحذير جمال بأن قواته كانت عرضة لخطر وشيك من التدمير، «إن كل ما أراده العرب هو أن يعيشوا بحرية وفي سلام وانسجام مع الأتراك... إن علاقات [العرب] معك يتوجب إلا تختلف عن بافاريا وبروسيا»[14]. كتب فيصل لأبيه: « لقد تمت زيارتي البارحة من قبل الأمير سعيد الجزائري كمبعوث من جمال، محملاً برسالة من الأخير. طلب جمال بوقف سفك الدماء بيننا، قائلاً بأنه يوافق على كل مطالبنا. قمت بإعطاء [الأمير] سعيد رد صادم، وأعدت عليه بأن هذا ليس أكثر من حيلة وخداع [تركي]». لكن كل من فايز الغصين والأمير سعيد الجزائري قاموا بالكتابة لاحقاً بأن فيصل قد طالب جمال بسحب القوات التركية من الأراضي العربية ومنح الاستقلال للعرب. حسب الأمير سعيد أبرق جمال لإسطنبول لقبول مطالبات فيصل وادّعى أن السلطان محمد رشاد قد انضم إليهم وأمر مجلس وزرائه بالموافقة، لكن أنور، طلعت، وقادة آخرين من جمعية الاتحاد والترقي قاموا بتجاهل تعليمات السلطان[15]. وهكذا انتهت آخر محاولة للمصالحة بين الأتراك والثورة العربية.

التقدم نحو الأزرق

في الثلاثين من شهر آب (أغسطس) 1918، وصلت مجموعة من الرجال المتعبين والضعفاء إلى مخيم فيصل المتقدم في وحيدة، قرب بلدة معان المحاصرة. لقد كانوا جزءاً من قافلة كانت قد اتخذت طريقاً خطيراً ومتعرجاً في رحلة دامت عشرين يوماً، من دمشق وعبر الخطوط

التركية، وذلك كي ينضموا للثورة مع فيصل. لقد ضمّت المجموعة كبار الأعضاء من جمعية الفتاة السرّية، واحد منهم، رستم حيدر الذي سيصبح من أصدقاء فيصل المقربين وكاتم سرّه وأحد مستشاريه الأساسيين، والآخر تحسين قدري، والذي سيخدم كمساعد لفيصل.

وُلِد محمد رستم حيدر في بعلبك، لبنان عام 1899، وهو ابن لمدير إقليم عثماني من عائلة لبنانية شيعية عريقة[16]. بعد تخرجه من المدرسة الثانوية في دمشق، التحق بأكاديمية النخبة الإمبراطورية في اسطنبول لدراسة العلوم السياسية والإدارة العامة، تخرج في عام 1910 في اسطنبول. انتظم حيدر في صفوف الحركة العربية الناشئة وصادق قياداتها هناك، اثنان منهم الدكتور أحمد قدري من سوريا وعوني عبد الهادي من فلسطين، اللذين مع الوقت سيصبحان أصدقاء حيدر مدى الحياة، وسيخدمون لاحقاً تحت قيادة فيصل. بعد ذلك غادر حيدر متوجهاً إلى باريس ليكمل دراسته بالسوربون، حيث تابع أنشطته القومية، وقام بتنظيم نادي ثقافي عربي هام. كما انضم حيدر لنشاطات سرّية سياسية، وكان واحداً من الآباء الثلاثة المؤسسين لجمعية الفتاة، حيث تم تصميم هيكلها ولأول مرة في باريس عام 1911[17]. وبعودته إلى سوريا أصبح محاضراً في مادة التاريخ ومدرساً في عدد من الأكاديميات. وفي النهاية ترأس كلّية الصالحية في القدس، وهي مؤسسة روّج لها جمال باشا لنشر نسخة محدّثة من الثقافة الإسلامية. عندما وصلت جيوش أللنبي إلى القدس في كانون الأول (ديسمبر) 1917، غادر حيدر متوجهاً إلى دمشق حيث قابل رفاقه القدامى من جمعية الفتاة، وذلك للتحضير للانتقال والانضمام مع فيصل.

كانت المجموعة، التي شكّلت نواة جمعية الفتاة، ما تزال فعّالة في دمشق وعلى تواصل مع فيصل خلال الثورة وبشكل رئيسي، وذلك من خلال قناة تواصل مع أحد قياداتها وهو الدكتور أحمد قدري أخو تحسين[18]. كان أحمد قدري يزود فيصل بمعلومات استخباراتية مفيدة، فيما يتعلق بالتدابير والخطط للقوات العثمانية، وذلك عن طريق المتعاطفين مع هيئة الأركان العامة للجيش الرابع[19]. أصبحت الظروف في دمشق غير مستقرة بالنسبة للمجموعة، اتصل قدري مع فيصل ليرى إن كان سيسمح لهم بمغادرة دمشق والانضمام لمعسكره. حتى استلام الإذن من فيصل، قام قدري بتنظيم الحزب الأساسي للقادة والمتعاطفين مع حزب الفتاة الذين انضموا بعد ذلك من قبل مجموعة أكبر بكثير تتكون من أولئك الذين يرغبون في الوصول إلى عائلاتهم في مصر ومناطق أخرى محتلة من قبل قوة التجريدة المصرية. تضمنت القافلة العشرات من العائلات الأرمنية الذين أُخذوا لاجئين من القمع التركي في جبال الدروز، ومن الذين كانوا تحت حماية فيصل شخصياً. واحد من أعضاء جمعية الفتاة ويُدعى خليل السكاكيني، وهو كاتب وشاعر، قام بتأليف قصيدة شهيرة لفيصل ولُحّنت لتصبح أغنية حاشدة للثورة والقوميين العرب الأوائل.

تزامن وصول المجموعة مع الاستعدادات النهائية لتقدم القوات الرئيسة للجيش الشمالي إلى درعا عبر الواحة في بلدة الأزرق، شرق سكة حديد الحجاز تماماً والتمركزات التركية الرئيسة. توقف الهجوم الألماني الرئيسي على الجبهة الغربية، كما تم تعزيز جيش أللنبي بوحدات من أستراليا، ونيوزيلندا، وبلاد الرافدين، والهند، وأصبحت الآن مستعدة للهجوم الساحلي الحاسم ضد القوات العثمانية في فلسطين وسوريا. ومع ذلك بقيت الخطورة تكمن في شن هجوم تركي على قوات فيصل الأضعف في منطقة معان. وفي حال نجاح ذلك فإنه بالإمكان أن يهدد بالهجوم كلياً، فضلاً عن تعطيل خطط فيصل الخاصة بالمسير نحو الشمال باتجاه درعا ودمشق. هذا وقد وضع كلّاً من لورنس ودوني خطة الهجوم وذلك بموافقة أللنبي وفيصل، بحيث تُشن غارة كبرى على درعا انطلاقاً من القاعدة في مدينة الأزرق في 16 أيلول (سبتمبر) 1918. وكانت هذه الغارة ستتزامن مع هجوم أللنبي الرئيسي على طول السهل الساحلي، بحيث تربك الأتراك فيما يخص اتجاه الهجوم الرئيسي، إضافة إلى قطع طرق إمدادهم. هذا وتجهّز فيصل لمغادرة معسكره في أبي لسان متوجهاً إلى مدينة الأزرق بعد نهاية الأزمة التي نتجت عن قسوة حسين. وفي التاسع من أيلول (سبتمبر) 1918، غادر فيصل على رأس قواته يرافقه جويس.

كان المسير إلى أزرق محفوفة بالمخاطر مع تجوال الطائرات الألمانية، لذلك كان السير يتم غالباً في الليل، لتجنب أن يتم رصد الأرتال، كما أن درجات الحرارة في النهار كانت لا تطاق. وفي إحدى النقاط في الصحراء وقبل أزرق، توقف الرتل في منتصف النهار، لأخذ قسط من الراحة، الكولونيل والتر فرانسيس ستيرلينغ، والذي كان قد انضم لتوه مع قوى الجيش الشمالي كضابط أركان للقوات النظامية، يروي كاشفاً قصة: «لقد كانت خيمة صغيرة فقط تظلل فيصل من أشعة الشمس الحارقة، ورفاقه من حوله جالسين على سروج الجمال أو ممدين على جلود الأغنام على الأرض. فجأة، وعلى مسافة، شوهد خيال بدوي مقبل مسرعاً باتجاههم. تم كبح جماحه من قبل رجال فيصل ومن ثم أخذه للحلقة حول الخيمة... نوري [باشا السعيد] ومع هزة من رأسه تشير إلى أنه ليس لديه أي فكرة عمن يكون، لقد كانوا من قادة عشيرة الرولة الكبيرة وقالوا أنهم جاؤوا نيابةً عن رئيسهم، الأمير نوري الشعلان. لقد قالوا بأنهم جاهزين أن يتعهدوا بدعمهم ولكن بمقابل، ونوع السعر الذي قاموا بطرحه هو منطقة رعي هائلة وأكبر سلطة في جنوبي سوريا»[20]. لقد أتت رعاية فيصل الطويلة لنوري الشعلان ثمارها أخيراً. وفي 12 أيلول (سبتمبر) 1918، فيصل ومعه كامل كتلة النظام العربي، قد وصلت إلى أزرق.

لم تكن القوة العربية التي تجمعت في أزرق عازمة فقط على تأمين جناح أللنبي وقطع القوات التركية في شرق الأردن، وذلك عن طريق خطوط الاتصال التركة على طول خط سكة الحجاز، ولكن التحضير أيضاً لاختراق رئيسي سيقودهم إلى دمشق، الهدف الأساسي للحملة

العسكرية. تضمنت التشكيلات النظامية 450 في فيلق الإبل والرشاشات والمدفعية، بما فيهم تشكيلة البطارية الفرنسية تحت قيادة بيساني. بالإضافة إلى ثلاث مدرعات بريطانية. لقد كان من المقرر أن يتم تعزيزهم بقوى قبلية أكبر بكثير، ومنهم الآن الرولة بقيادة نوري الشعلان الذي انضم أخيراً للثورة. إن تواجد أكبر قوة في أزرق قد تم تصميمه لخداع الأتراك وتركهم يعتقدون بأن الوجهة الحقيقية للهجوم هي البلدة الأكثر قُرباً من عمّان أكثر منها من درعا نفسها. كما أن تنظيم القوة العربية سوف يُنظر إليه على أنه جزء من استراتيجية أللنبي لمهاجمة الجهات الشرقية مرة ثانية، ولصرف الانتباه التركي عن الاتجاه الحقيقي للتوجه على طول السهل الساحلي. كتب دوني في تقريره: تم اتخاذ تدابير لنشر شائعات بين سكان العرب المحليين مفادها عن حدوث هجوم وشيك من قبل الأمير فيصل على عمّان من جهة الشرق[21]. كانت الأهداف الحقيقية تتوجه نحو خطوط التواصل التركية حول بلدة درعا، وخصوصاً الشمالية الغربية وجنوب سكة الحديد لأنها قد تقاربت هناك. غادرت الجهات المداهمة منطقة أزرق في 13 أيلول (سبتمبر)، وتولى نوري السعيد مسؤولية أكبر العمليات الشمالية، بينما تحرك فريدريك بيك، وهو ضابط بريطاني يتولى قيادة فرق مختلطة من القوى المصرية والشركس، ضد سكة حديد جنوب درعا. لقد كانت الغارات ناجحة وقطعت بشكل فعال درعا من الشمال والجنوب. كما إن الهجوم على الخط الفرعي لفلسطين غرب درعا قد تم تنفيذه وبنجاح وبشكل كامل في 18 أيلول (سبتمبر)، عندما قاد لورنس ونوري السعيد التشكيل العربي النظامي، مهاجمين ومدمرين المحطة عند مزيريب وقاموا بهدم أجزاء كبيرة من خط سكة الحديد في 19 أيلول (سبتمبر)، وقامت حملات الإغارة بالعودة إلى معسكرهم الجديد في المتاعية في جبل الدروز، وبشكل ناجح فاق كل التوقعات وبخسائر بشرية ومادية قليلة. قام الجيش الشمالي بإتمام مهمته الرئيسة فيما يتعلق بهجوم أللنبي المقبل. لقد تمّ عزل درعا بشكل فعلي ومعها وحدات من الجيش التركي الرابع المنتشرة شرق نهر الأردن والمتمركزة في عمّان.

في 19 أيلول (سبتمبر) 1918، أطلق أللنبي هجومه الكبير والحاسم، حيث تمّ تدمير الجيش العثماني السابع تماماً في معركة مجيدو (اسم المنطقة التوراتي هو هرمجيدون)، وكان هذا الجيش جزء من مجموعة جيوش يلدريم بقيادة ليمان فون ساندرس، كما كان الوحدة العثمانية المقاتلة الوحيدة غرب نهر الأردن. وقصف سلاح الجو الملكي أرتال الجيش السابع المنسحبة من نابلس بلا رحمة، مخلّفة وعلى مسافة 6 أميال آليات مدمرة ومتروكة، ومدفعية، ومعدات عسكرية. لم تصل أخبار نصر أللنبي للجيش العربي لمدة ثلاثة أيام، والذين كانوا متمسكين بمواقعهم وهم في حالة قلق وخوف من حدوث هجوم مضاد من الوحدات التركية المتمركزة في عمّان ودرعا. عاد لورنس إلى أزرق حيث بقي فيصل خلال الغارة آملاً في أن يأخذ طائرة من

سلاح الجو البريطاني، حيث كان من المقرر أن يكون في أزرق بحلول 21 من أيلول (سبتمبر) مع أخبار نتائج الهجوم. كان لورنس يسعى لإقناع مقر أللنبي لتوفير غطاء جوي للجيش العربي في حال حدوث هجمات تركية مضادة. وعندما هبطت الطائرة، وصلت أخبار انتصارات قوات التجريدة المصرية الساحقة، كما وصلت أيضاً رسالة من أللنبي إلى فيصل: «أنا أرسل لسموك تحياتي وتهانيّ القلبية على هذا الإنجاز العظيم لقواتك الشجاعة في درعا، الذي كان له بالغ الاثر من خلال إيقاع اتصالات العدو في حالة إرباك، مما أسهم في نجاح عملياتي الخاصة. يعود الفضل لجهودنا المشتركة في هزيمة الجيش التركي وجعله في حالة تراجع كامل في كل مكان... وصل عدد الأسرى إلى ثمانية آلاف واستولينا على أكثر من مئة مدفع بالإضافة إلى كمية كبيرة من المعدات الحربية من كل وصف، إلى درجة عدم إمكانية تقديره في الوقت الحالي. لقد عانى الجيش التركي في سوريا لتوه من هزيمة من الصعب أن يتعافى منها بسهولة. إنه يقع على عاتقنا الآن، وعن طريق مضاعفة جهودنا في هجماتنا، لتحويل الهزيمة إلى دمار»[22].

قام دوني بإرسال رسالة أخرى إلى جويس، تم تسليمها بالطائرة نفسها، والتي حملت معها تعليمات أللنبي الجديدة للجيش العربي. يتوجب الآن أن يتم تدمير خط سكة الحديد جنوب درعا وبالكامل، وذلك للقضاء وبشكل نهائي على التهديد الذي يتهدد جناح قوة التجريدة المصرية، وتهيئة القبائل التي كان من المقرر حشدها لإغلاق أي مسارات تراجع لفلول الجيش العثماني الساعية لعبور شرق الأردن. لكن كان هناك أيضاً جزء من الرسالة والتي تعاملت على وجه التحديد مع فيصل والزحف نحو دمشق: «وفوق كل هذا فإنه هو [أللنبي] لا يرغب في أن يندفع فيصل، لوحده، نحو دمشق أو اي مكان آخر ـ سوف نكون قادرين حالاً في وضعه هناك كجزء من عملياتنا الخاصة، وإذا انطلق قبل الأوان وبدون معرفة أو موافقة الجنرال أللنبي، لضمان عمله، فإنه سيكون الشيطان بحد ذاته الذي سيدفعه لاحقاً، الأمر الذي سوف يفسد عربة التفاح كلها. لذلك استخدم كل تأثيراتك المقيدة، واجعل لورنس يقوم بعمل ذات الشيء وذلك لمنع فيصل من القيام بأي اندفاعة نحو الشمال مما قد يفرض يدنا في الاتجاه الخاطئ. لقد أصبح الوضع وبشكل كامل الآن في يدنا. لذلك لا داعي لأن يتخوف فيصل من أن يتم نقله، وزوده بمعلومة بأن يثق بنا وأن يكون صبور. عليك فقط أن لا تدعه يتحرك شمالاً بدون استشارة أولية من الجنرال أللنبي ـ الأمر الذي سيكون خطأً قاتلاً»[23].

خلال هذه الفترة الحاسمة، كانت مكانة فيصل بين الناس في المنطقة قد بدأت تتنامى، وأخذت الشائعات حول تعداد جيشه يحظى بأرقام أسطورية بين فلاحي جنوب سوريا، كما أصبح قادته من الأسماء المألوفة للناس في منطقة الشيخ سعد [قرية في منطقة حوران شمال درعا]، وجاؤوا بخجل ليلقوا بنظرة على جيش فيصل، الجيش الذي بدأوا يتهامسون حوله بأشياء

أسطورية قد أصبح الآن في قراهم، وكانت قيادته من قبل أسماء مشهورة ـ «طلال، ناصر، نوري، عودة». كتب لورنس عن مرور جيش الشمال عبر إحدى قرى درعا[24]. ووصف رستم حيدر في مذكراته كيف تم إطاعة فيصل وفي كل المواضيع من قبل أتباعه، وكيف كان معسكره بالكامل حريص على راحته[25]. لقد ساهم انهيار الجبهة العثمانية في جلب الناس من البلدات الصغيرة والقرى في جنوب سوريا للثورة ضد الأتراك المنسحبين، كما وصل المبعوثون من دمشق وبشكل منتظم لمعسكر فيصل في أزرق. «اعتدنا على مناشدة الناس كي ينضموا إلى الثورة. لكن الآن، أي أحد يريد أن يبقى في البيت فباستطاعته أن يفعل ذلك، وأي أحد يريد القتال معنا هو مرحب به»، قال فيصل ذلك لوفد من الدروز[26].

في 22 أيلول (سبتمبر) قام فيصل بزيارة للجبهة يرافقه الدكتور أحمد قدري، نوري الشعلان، ولورنس، وعاد في 25 من الشهر بأخبار تفكك الجيش العثماني والتصاعد في المنطقة. حوالي أربعة آلاف مقاتل من الجيوش العثمانية كانوا متحصنين في درعا، وألف منهم قد تم تجريدهم من ملابسهم من قبل البدو وذلك خلال انسحابهم من درعا. وكانت 10 أيام بين إطلاق أللنبي لحملته واحتلال دمشق شوهد فيها انهيار القوات العثمانية وعلى كافة المستويات، وانسحابهم وهم مذعورين من مواقع شغلوها لفترة طويلة من الزمن.

كان الانسحاب التركي في كل مكان والأمر الذي أعاقه هو الدمار الذي أصاب سكة حديد الحجاز، مُرغماً الجنود على سلوك الطرقات. كما تم سحق أرتال القوات المنسحبة من قبل البدو أو الفلاحين المسلحين، إضافة إلى كون خط الجبهة غير واضحٍ، مربكٍ، وفي حالة فوضى. كان مصطفى كمال أحد أولئك الذين أوشكوا على الوقوع في قبضة القوات العربية، بينما كان يتراجع شمالاً، وهو قائد الجيش العثماني السابع المهزوم، ولاحقاً مؤسس الجمهورية التركية الحديثة. وفي الواقع، تراسل كمال مع فيصل لعدة أشهر، وجاء ذلك ضمن مراسلات فيصل المستمرة مع كبار الضباط العثمانيين، ولربما أنه نجا من الأسر بسماح فيصل له بالهروب[27]. إذ كان من الممكن له أن يثبت أنه حليف مفيد للعرب، لكونه معروفاً بإيمانه بأن على تركيا أن تحضر نفسها، أولاً وآخراً، لانفصال العرب عن الإمبراطورية العثمانية: «مصطفى كمال... [قام بوعد فيصل] أنه عندما يتم تثبيت العرب في عاصمتهم، فإن الساخطين في تركيا سيتم حشدهم واستخدام أراضيهم كقاعدة لمهاجمة أنور وحلفائه الألمان في الأناضول. لقد أمِل مصطفى بأن القوات المتجمعة ومن كافة القوى التركية شرق طوروس قد تمكنه من الزحف مباشرةً نحو القسطنطينية»[28]. سيثبت فيصل لاحقاً بأنه داعم قوي لمصطفى كمال في صراعه للسيطرة على تركيا. في هذه الأثناء، يواصل الجيش العربي مسيره نحو الشمال باتجاه دمشق، ولقد وقع على الجنود الأتراك المنسحبين فظائع عقب فظائع قاموا بارتكابها ضد قرويين بائسين، حيث قام

العرب بالانتقام من المجزرة في طفس، وهي قرية صغيرة قرب درعا، ووقعت مجزرة شنيعة بالقوات التركية المنسحبة.

في 29 أيلول (سبتمبر) 1918 دخل فيصل إلى درعا بسيارة فوكسهول، تتبعه مدرعات من الجيش العربي، وقام بالاستقرار في محطة سكة الحديد.

وقبل يوم، سيطر الجنرال جورج بارو، قائد فرقة سلاح الفرسان الرابعة التابعة للجيش الهندي، على المدينة في مشاهد من الفوضى والنهب. كتب رستم حيدر، والذي كان مع فيصل في درعا، في مذكراته: «ما أعظمها من متعة... الفلاحون يقومون بنقل الأبواب الخشبية، النوافذ، العجلات، العربات، الخزن، الكراسي... اللصوص يقومون بكسر الأبواب لسرقة الخشب... كما فقد مجلس المدينة سقفه... قام الأتراك بحرقهم جميعاً مع منزل جمال باشا (الأصغر).... خيول نافقة ملقاة في حفر... جنود أتراك مصابين ملقون بالأزقة.... دمار... شبح الحرب في كل مكان... العار للإنسانية البربرية...»[29]. قام الأتراك بهجر البلدة منساقين بحالة من عدم التنظيم باتجاه الشمال. أرسل بارو فرقة خيالة للزحف نحو دمشق يرافقهم عناصر من الجيش العربي بقيادة نوري باشا السعيد ليوفر له حماية لجناحه الأيمن ـ أو محاولاً الوصول إلى دمشق أولاً.

كانت هناك رغبة واعية من جانب فيصل في أن تكون قواته هي من تستولي على دمشق.» وقعت مشاهد مروعة للموت على الطرق الشمالية لدمشق ودمار هائل، لقد تم تدمير الجيش الرابع التركي المنسحب وبشكل كامل: لقد تناثرت على الطرقات جثث الأعداء الذين ماتوا من الإرهاق والأحصنة الميتة، كما تناثرت الآليات المدمرة في كل اتجاه، يقدر بحوالي الألفين من الأعداء قد تم إحصاؤه ما بين درعا ودمشق»[30]. بدأ التخطيط الجاد الآن لحكومة دمشق وأجزاء من سوريا والتي سيتم إدارتها من قبل سلطة عربية، كما قام فيصل بإرسال مبعوثين للبلدات الرئيسة في سوريا ولبنان.

الاستيلاء على دمشق

قام أللنبي بإعطاء أوامره إلى فيلق الصحراء بقيادة الفريق الأسترالي هنري شوفيل، للاستيلاء على دمشق مع التحذير من عدم ترك العرب قدر الإمكان من الذهاب أولاً. وقد ادعى العديد من المعلقين فيما بعد بأن دخول قوات فيصل إلى دمشق كان بطريقةٍ ما هدية من أللنبي خصصها لمنح العرب نصر رمزي لا يستحقونه[31]. لقد كان الواقع هو أكثر في شكل تعويض عن قرار سابق في 20 أيلول (سبتمبر) 1918 والذي نهى صراحة فيصل من المسير نحو دمشق عندما كان لديه الإمكانية والوسائل لعمل ذلك. «يرغب رئيس الأركان [أللنبي] من [جويس] أن يتأكد من أن الأمير فيصل... لن يشرع بأي مشروع باتجاه الشمال، مثل التقدم نحو دمشق من دون الحصول على

موافقة القائد العام. (بإمكانك بهذه الصلة، إذا دعت الضرورة، أن تقتبس تصريح الملك حسين القاطع بأن الأمير فيصل وجيشه هم تحت إمرة رئيس الأركان مباشرةً)... إن إيقاف التعاون مع قوات الحملة المصرية هو أمر ضروري ولا يتوجب أن يتم أي عمل مستقل أو سابق لأوانه من قبل الأمير فيصل»[32]. لذلك كان عليه قراءة الأمر الصادر عن رئيس أركان جيش أللنبي، اللواء وليم بارثولوميو، إلى جويس، بأن النوايا الطيبة للنبي تجاه الثورة العربية كانت تقتصر على شروط الاتفاقات الأنغلو ـ فرنسية لمستقبل الأراضي العربية في الإمبراطورية العثمانية.

حالاً وبعد هجوم أيلول (سبتمبر) الذي قام به أللنبي، بدأ الفرنسيون بإزعاج البريطانيين فيما يتعلق بالتزاماتهم المتبادلة تحت سقف شروط اتفاقية سايكس ـ بيكو. ففي 24 أيلول (سبتمبر) أرسل بلفور برقية إلى وينغيت توضح أن تقدم أللنبي إلى دمشق يجب أن يراعي شروط اتفاقية 1916، وإذا ما كان سيتم تعيين إدارة عربية للمنطقة، فإن التواصل بين أللنبي وإدارة كهذه يجب أن يتم عبر مكتب ارتباط فرنسي[33]. وقبل مرور شهر، قام كل من وينغيت ومكتب الخارجية بإرسال تعليمات أللنبي، وذلك للالتزام بشروط اتفاقية سايكس ـ بيكو. كان البريطانيون لا يزالون ينتظرون تخفيف فرنسي لمطالبهم بموجب الاتفاقية. وعلى الرغم من أن الجانبين قد التقيا في 30 أيلول (سبتمبر) للتوصل إلى الترتيبات من أجل سلطة احتلال الأراضي التي تم إنشاؤها لتكون تحت النفوذ الفرنسي، إلا ان البريطانيين مقتنعين بأن تردد الفرنسيين في المشاركة في كتابة إعلان، يأتي تجنباً أي مطالبات ضم لأية أراضي عربية. كان تعداد سكان دمشق ثلاثمائة ألف نسمة، كان لها رمزيتها السياسية والعسكرية المهمة بالنسبة للعرب، ولقد كانت مدينة حديثة نسبياً، ومركز ثقافي واقتصادي. استفادت في العقود الأخيرة من الحكم العثماني من الإنفاق الكبير على مبانيها العامة، المعاهد الثقافية والدينية، الأسواق، والطرق. عاشت الطبقات الدمشقية الثرية في منازل حجرية أنيقة ورائعة الجمال بشكل لافت وبساحات مظللة، وكانت تمتلك أهمية تاريخية ودينية غنية كمركز لسلالة بني أمية والتي حكمت أكبر إمبراطورية في زمانها، امتدت من إسبانيا إلى الهند، وكانت موقعاً لأحد أقدم وأكبر المساجد الإسلامية، وهو الجامع الأموي. كان لدمشق أهمية كبيرة لقضية القوميين العرب ولفيصل. وكل ما سبق يعتبر ذو أهمية قليلة.

كانت دمشق تُعد أيضاً جائزة من الناحية العسكرية، فقد كانت عقدة مواصلات لكامل الجيوش العثمانية في جنوب الأناضول وكان لديها مخازن كبيرة من الأسلحة ومخزونات من الإمدادات. كما كانت دفاعاتها قوية، تحدها من الغرب الجبال من النطاق المناهض للبنان، كما أنها محاطة بالغوطة أيضاً، مما يتوجب على الجيش المهاجم أن يزحف عبر جبل وعر التضاريس في الجنوب أو عبر الصحراء في الشرق. وإذا بدأت المعركة، فإن المدينة كانت تكثر فيها الشوارع

والحارات الضيقة والمساكن المحاطة بالأسوار التي من شأنها أن توفر غطاءً منيعاً للمدافعين عنها. ولقد اختار الأتراك عدم الاحتفاظ بالمدينة، إذ شوهد خط الدفاع يهرب من جنوب دمشق إلى بيروت، الأمر الذي يمكن أن يزيد من تقدم أللنبي. وفي نهاية شهر أيلول (سبتمبر) 1918 تفككت وببساطة السلطة الإدارية العثمانية في البلدة، وغادر الحاكم وموظفي المدينة الرسميين مع غياب القيادة المحلية التقليدية للمدينة. من شخصيات حلفاء الإدارة العثمانية فوزي العظم وهو من الشخصيات البارزة، وعبد الرحمن اليوسف وهو من أعظم مالكي الأراضي في سوريا، ولقد كانت هذه الشخصيات إما في اسطنبول أو خارج البلاد. وبعض الداعمين للثورة قاموا بمغادرة دمشق للانضمام إلى فيصل في الأسابيع الأولى، بينما كان عدد من المعارضين السوريين في المنفى أو في السجن. لقد انقسمت فلول الطبقة السياسية الدمشقية إلى معسكرين مختلفين للغاية، الأول كان يقوده الأخوة الجزائري، الأمير سعيد والأمير عبد القادر. وكانت قاعدة دعمهم عبارة عن تجمع قوي يصل عدده إلى خمسة عشر ألف من الجزائريين في دمشق.

تم نفي الأخوين إلى بورصة في الأناضول خلال الحرب، ويرجع ذلك إلى ميولهم الفعلية المؤيدة للفرنسيين، (الأخ الآخر، الأمير عمر الجزائري الذي تم إعدامه من قبل جمال باشا وذلك لأنشطته الوطنية). سُمح للأمير سعيد بالعودة إلى دمشق، لكن أخيه عبد القادر كان قد هرب وأخذ طريقه إلى مكة المكرمة وذلك عند بدء الثورة العربية، وهناك قام حسين بالترحيب به وإعطائه موارد مالية معتبرة لإنفاقها في تدبير الثورة ضد الأتراك في جبل الدروز. توجه عبد القادر إلى العقبة لينضم إلى فيصل وبعد ذلك انتقل إلى جبل الدروز، رافعاً راية الثورة العربية أمامه، لكن وعند وصوله إلى جبل الدروز قام عبد القادر بالانسحاب وتبديل الولاء عائداً إلى دمشق ومعلناً ولاءه للحكومة العثمانية. إن عبد القادر وبكل اعتبار رجل مغامر وبشكل كبير، شجاع بشكل طائش ولحد الجنون ولديه طموح عميق في أن يجعل عائلته تحكم سوريا. ومع انهيار الإدارة العثمانية من حولهم قام الأخوان باغتنام الفرصة ونظموا ميليشيا تضم أتباعهم من الجزائريين ليتم نشرها في المدينة، وذلك بعد أن تتم مغادرة الجيش العثماني للمدينة.

كان الحزب الآخر الرئيسي في مدينة دمشق من المناصرين لفيصل، بقيادة علي رضا باشا الركابي[34] وشكري باشا الأيوبي[35]. توجه الركابي إلى مقر بارو لكنه لم يكن متواجداً في دمشق في تلك الفترة. وفي 29 أيلول (سبتمبر) 1918، تجمع الأعيان القلائل المتبقين في قاعة المدينة ـ دار الحكومة ـ ومارسوا سلطتهم المحدودة بانتخاب الأمير سعيد الجزائري لرئاسة الحكومة[36]. إن راية الثورة العربية، والتي ادعى عبد القادر بأنها قد تم إعطاؤها له شخصياً من قبل الملك حسين في مكة المكرمة، قد تم رفعها في دار البلدية لتحل محل الراية العثمانية[37].

أعلن سعيد عن تأسيس الحكومة العربية تحت الوصاية الشاملة للملك حسين، وقام

بتشكيل مجلس استشاري مؤلف من عدة أعيان محليين، كما عيّن مسؤولين لحكومة مدينة دمشق بالإضافة للدرك والأمن الداخلي. كما قام بتعيين عمر الداعوق وهو ينتمي لعائلة محلية مرموقة[38]. شكري الأيوبي والذي قد تلقى الأمر لتوه من فيصل للعمل على تشكيل حكومة عربية جديدة، لم يكن لديه خيار غير السير مع الأمر الواقع للإخوة الجزائري والموافقة على العمل مع السلطة الجديدة.

من دون شك إن الأيوبي قد كان مربكاً، لأنه تم إطلاق سراحه للتو من السجن. وفي وقت مبكر من ذلك اليوم قامت مظاهرة بقيادة أحد أتباع فيصل، زعيم عشيرة الجولان أحمد مريود، وكانت المظاهرة في منطقة الميدان بدمشق وقد رفعت المظاهرة علم الثورة العربية وهاجمت السجن في خان الباشا، مطلقين سراح شكري الأيوبي وعدد من زملائه. أصبح الآن المتظاهرون بقيادة الأيوبي وساروا إلى القلعة حيث قاموا بإطلاق سراح أربعة آلاف سجين[39]. أحد أتباع فيصل، ويدعى فارس الخوري، مسيحي، والذي شغل لاحقاً عدة مناصب في حكومة فيصل السورية، قد وافق أيضاً على أن يخدم في حكومة سعيد. كما إن الأخوة الجزائري لم يضيعوا الوقت في إعلان سلطتهم، واستولوا على مطبعة جريدة الشرق العثمانية السابقة وقاموا بإعادة تسميتها الاستقلال العربي. والعدد الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 1918 قام بمدح الملك حسين وفيصل، لكنه كان معنياً وبشكل أساسي بإعلان فضائل الأخوين الجزائري والادعاء بأن فيصل نفسه قد كلفهم بإدارة المدينة[40].

في اليوم نفسه قام الأمير عبد القادر بزيارة جمال باشا الأصغر، قائد القوات العثمانية، والذي كان لا يزال في مقره في فندق فكتوريا بدمشق. لقد أراد عبد القادر أن يرى مدى دعم القوات التركية حتى تتمكن ميليشياته الجزائرية من تأمين المدينة والاعتراف بسلطة حكومة سعيد العربية. في هذه الأثناء، قام الجنود الألمان المرافقين للجيش العثماني بتفجير مخزون الذخيرة الضخم، وحتى أنهم قاموا بإحراق نهاية خط الحجاز الرئيس[41]. لقد أضاءت الحرائق سماء الليل فوق دمشق.

وبالرغم من الروايات العديدة المتعلقة بأحداث ليلة 30 أيلول (سبتمبر) عام 1918، فإنه ما زال غير واضح من هو الذي دخل دمشق أولاً. لقد قام إعلان السبعة بالتوضيح بأنه يحق للعرب في تأسيس حكومة فوق الأراضي التي قاموا بتحريرها. قد تكون بعض الوحدات المتقدمة للجيش العربي قد دخلت المدينة في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) أو قبله، خصوصاً أنه من الممكن أن يكون معروفاً لهم أن هناك القليل من المدافعين الأتراك ما زالوا متبقين. انتشرت وحدات الفرسان الأسترالية، وذلك لمنع عودة الأتراك من جهة الشمال، وقد تكون قد دخلت المدينة أيضاً من الضواحي الشمالية. على أي حال كان شويفيل مهتماً بالنواحي العسكرية لتطويق المدينة استعداداً لدخولها أكثر من موضوع النصر السياسي في تحريرها[42].

في 1 تشرين الأول (أكتوبر) وعند الساعة السابعة والنصف صباحاً قام الشريف ناصر ونوري الشعلان بدخول دمشق. بالنسبة إلى لورنس فقد احتجزته القوات الهندية ذات الهويات المختلطة، ولم يتمكن من الانضمام إلى ناصر ونوري إلا في وقت لاحق، «لقد كانت الطرق تقريباً لا يمكن المسير فيها من الحشود التي كانت تهتف عالياً، وترقص، والبعض منهم كانوا يجرحون أنفسهم بالسيوف والخناجر ويقومون بإطلاق النار من بنادقهم في الهواء. كنا أنا، وناصر، ونوري الشعلان، وعودة أبو طايع نشعر بالبهجة، كانوا يهتفون للأسماء، وكنا مغطين بالزهور، وتلقينا القُبل لأجل غير مسمى، وقاموا برشنا بالعطر من فوق أسطحة البيوت». هذا ما كتبه لورنس إلى الهيأة العامة لقيادة جيش أللنبي[43]. إن دخول الجيش العربي إلى دمشق قد تم وصفه من قبل صبحي العمري، وهو ضابط سوري، وبأكثر المصطلحات إثارة للذكريات وتأثيراً: «في صباح الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 1918 قمنا نحن الوحدات [النظامية] للجيش العربي بالتقدم نحو دمشق ودخلنا إليها من بوابة الله وأخذنا طريقنا نحو ميدان باب الجابية ـ سنجقدار ـ مرجة[44].

احتشدت الجماهير على طول الطريق من بوابة الله إلى المرجة بالآلاف في الشوارع، وعلى أسطح المنازل، الرجال، النساء، والأطفال. كان الجميع يحيينا ويصفقون ويرقصون ويغنون، كما كانت النساء تطلق الزغاريد، وتردد الناس الشعارات والهتافات ويقومون بنثر الورود ورش العطر علينا، [هذا الأخير] من تقاليد دمشق في التحية. أنا لا أستطيع أن أصف المشاعر التي تمتلكني في تلك اللحظة، لقد انهمرت دموعي وكاد أن يتوقف قلبي من شدة البهجة... إن الفرحة التي عشناها وسط هذه الحشود من الناس كانت من نوع آخر وأعظم من أي فرحة يمكن لأي إنسان أن يختبرها طيلة حياته. أنا لا أستطيع أن أصدق أنه بإمكاني وصفها، حتى ولا أي شخص آخر يستطيع أن يفعل ذلك إن لم يعش أو يتذوق تلك الفرحة»[45]. في هذه الأثناء، كان فيصل يتحضر لمغادرة درعا متوجهاً إلى دمشق بالقطار، بينما كان قد بدأ في درعا ببناء الهيكل الجديد للحكومة العربية الجديدة، محدثاً بضعة مناصب محلية في درعا وفي البلدات والولايات.

كانت مشاكل إدارة الأراضي المحررة حديثاً هائلة، يتوجب عليه الآن أن يهتم بالتفاصيل المحلية للحكومة بنفسه، والأمنية، والإمدادات، والخدمات، وخصوصاً توفير مياه الشرب في بيئة سلطة غير مؤكدة ونقص حاد في الأموال. انهارت العملة العثمانية كما اقتصر مصدر دخله على الإعانات البريطانية للثورة. في 2 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، كتب حيدر في مذكراته عن النقص الحاد في المواد الغذائية مثل العدس، والقمح الذي كانت حكومة فيصل الوليدة الآن مسؤولة عنه، بالإضافة إلى عدم وجود عُملة متداولة مقبولة، مرّ القطار بفيصل عبر عدد من المحطات الصغيرة، كان معظمها قد تم تدميره، كما تم تدمير عدد من وسائط النقل. قام حيدر

على متن القطار بوصف كيف شاهد فيصل عبر منظاره مجموعة من البدو وهم يقومون بفصل الأحصنة عن الجِمال، وروى قصة حول الطريقة التي يعمل بها البدو:

«مرة كنت مسافراً في الليل عندما توقف الدليل وصاح عالياً: يا أيها الناس لقد ضللنا طريقنا. بعد ذلك قام بالترجل، وأخذ حفنة من التراب وفحصها ثم شمها وقال لنا: لا تيأسوا. وبعد السفر لمدة، قام الدليل بالترجّل وتصرف بالطريقة السابقة نفسها وعمل نفس العملية، ثم قال: لقد وصلنا الآن إلى الطريق الصحيح!. وفي حالة أخرى، أتى رجل بدوي من نجد لعندي وقال: يا أمير، كان عندي جمل صغير وقد أضعته منذ أربع سنوات مضت، والآن عندما أتيت إلى البلدة لاحظت أثره، وقمت باللحاق بالآثار حتى وجدت ضالتي بين قطيعك، طلبت منه أن يصف لي الجمل، وقام بوصفه [بدقة]، فقمت بدفع ثمنه له»[46].

قام لورنس بالإقامة في مبنى البلدية، كما وجد ناصر ونوري الشعلان وعودة وقد تلاقوا مع إدارة الأخوة الجزائري الجديدة. تم تهدئة مخاوف ناصر من أفعال الأخوة الجزائري إلى حدٍ ما من قبل الأمير سعيد واطلاعه بأنه كان يتصرف فقط نيابة عن الملك حسين. لكن لورنس لم يكن جاهزاً ليتقبل سلطة الأخوة الجزائري، لقد كان يبغضهم بشدة، معتبراً إياهم مجانين وأسوأ أنواع المتعصبين الدينيين[47].

أيضاً دخل الدكتور أحمد قدري إلى دمشق وكان على معرفة بالأعمال الداخلية للعائلات الدمشقية الرئيسة، كما قام بتحذير ناصر ونوري الشعلان من طموح الأخوة الجزائري وأطماعهم والتهديد المحتمل الذي قد يعرّضوا الحكومة العربية له[48]. استلم زمام الأمور وقام بإعلان نفسه ممثل فيصل الحقيقي، وقام لورنس بإعلان حل الإدارة المدنية المؤقتة للجزائري وعيّن شكري الأيوبي كحاكم عسكري مؤقت لدمشق لحين عودة الحاكم الدائم لها الركابي[49]. لقد وقعت مشادة وقام عبد القادر بسحب الخنجر ومهاجمة لورنس فاعترضه عودة. أعلن نوري الشعلان بأن قبيلته الرولة تقف إلى جانب لورنس، وقد حسم هذا الأمر الصراع لصالح لورنس ورجال فيصل.

تسلل الأخوان الجزائري وهما في حالة من الغضب الشديد ضدَّ لورنس[50]، وعندما وصل شوفال أخيراً إلى قاعة المدينة، كان لورنس وحلفاءه قد طردوا الأخوين، وقاموا بتقديم الأيوبي له كحاكم عسكري. اعتقد شوفال أن الأيوبي هو في الحقيقة الوالي العثماني في المدينة، ولكن لورنس أخبره فيما بعد أنه جرى تعيين الأيوبي من قبله بتفويض من ملك الحجاز. إنَّ هذا التباين في المواقف، بالإضافة لحقيقة أن لورنس، الضابط الصغير نسبياً، قد أخذ على عاتقه كل المهام في دمشق بصورة إنفرادية، كل ذلك أدى إلى توتر كبير بين شوفال ولورنس.

واصل عبد القادر وحاشيته المسلحة بتشكيل تهديد للنظام الجديد، ففي ليلة 1 تشرين الأول (أكتوبر) حاول الأخوة الجزائري القيام بتمرد، والذي تم قمعه على الفور من قبل الجيش العربي.

استسلم سعيد وتم إرساله إلى المنفى في حيفا، وفرّ عبد القادر، وبعد بضعة أسابيع أطلقت الشرطة النار عليه بينما كان يتهرب من الاعتقال. إن موت عبد القادر ربما قد تم التحريض عليه من قبل لورنس ونوري السعيد. وحسب صبحي العمري، فقد تم الطلب منه أن يأتي إلى فندق فكتوريا في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) 1918 حيث قابل نوري السعيد بصحبة لورنس.

أخبرني [نوري السعيد] بأن عبد القادر الجزائري يعمل على إثارة تمرد، كما أنه يعمل بناءً على التعليمات الفرنسية، وأن وجوده هو تهديد جدّي للأمن ولاستقلال البلد ونحن نريد أن نتخلص منه وبطريقة غير رسمية. قلت له هل ترغب في أن أقوم بقتله، أجاب «نعم». عندئذ قلت له إن هذا الأمر هو خارج الاتفاقيات العسكرية العادية بما أنه ينطوي على اغتيال. إذا أمرتني أن أجلبه لك حيّاً فسوف أقوم بذلك، وإذا رفض الاعتقال فسوف أجلبه تحت الإكراه، وإذا قاوم بقوة عندها سأقتله وأجلبه لك جثة هامدة. أما بالنسبة لاغتياله فهذا أمر لا علاقة لي به ولا يمكن أن يكون جزء من الأوامر العسكرية التي تصدر لي. بعد قليل من التفكير، وافق [نوري] على اقتراحي وأعلمني أن أقوم بسؤال رئيس الشرطة، والذي كان على علم بالموضوع، وعن مكان وجود منزل عبد القادر[51].

وفي اليوم المحدد، دُعي العمري لمكان آخر، وهكذا لم يكن جزء من عمل الشرطة، وانتهى الأمر بموت عبد القادر.

تُرك اليوم الأول لتحرير دمشق للفرح والاحتفالات، وكانت البلدات التي تمر بها القوات العربية والبريطانية تحتفل بهم، وكان بالإمكان سماع إطلاق النار ابتهاجاً عبر المدينة كلها. كما قامت الحشود بالتجمع في الساحة العامة لسماع الخطابات الحماسية، لقد كان مزاج الابتهاج حقيقياً.

إن سنوات جمال ذو القبضة الحديدية كانت بائسة بالإضافة إلى خسارات الحرب التي انتهت الآن.

كان هناك قلق في بعض الأحيان فيما يتعلق بنوايا فيصل والأشراف، في حين تمّ تهدئته من خلال التواجد الضخم للقوات البريطانية[52]. لكن ليلة 1 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 كانت مليئة بالفوضى والنهب الواسع النطاق، نزل الفلاحون الدروز والبدو للمدينة عازمين على النهب وأعمال الشغب. المستشفيات التي تديرها تركيا، مستودعات المؤونة، والمحلات قد تم سرقتها، كانت الخسائر منخفضة، وصلت فقط لبضعة عشرات قبل توقف أعمال الشغب. وتم نشر القوات العربية تحت قيادة نوري السعيد وتم استعادة النظام بسرعة، ومع عودة الركابي إلى دمشق وتوليه منصب الحاكم العسكري قام بنصب مشانق وهمية في ساحة المرجة، وأعلن بأنه سيقوم بشنق أي شخص يتم الإمساك به مخالفاً للقوانين ومُخلاً للسلم في المدينة. إن هذه

الحوادث من الفوضى قد تم المبالغة فيها لإظهار عدم فعالية الإدارة العربية الجديدة في قدرتها على الحفاظ على القانون والنظام والمحافظة على سير الخدمات العامة. في الأمر الواقع، إن البنية التي تم إنشاؤها للحكومة العربية في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) قد أثبتت قوتها، بالرغم من حقيقة أن ظروف المدينة التي خلّفها الأتراك ورائهم قد كانت رهيبة بالفعل. ومع مساعدة صغيرة من البريطانيين، فإن الإدارة العربية قد تمكنت من الحصول على نظام توليد كهربائي تم تشغيله مرة أخرى في 2 تشرين الأول (أكتوبر). كما كانت خدمة (الترام) معطلة منذ عام 1917، فتم إعادة تشغيلها، ولقد شهد كلايتون على الفعالية النسبية للحكومة الجديدة وذلك في برقية بعد عدة أيام قلائل إلى وزارة الخارجية[53].

كانت خطة فيصل هي العمل على تأسيس سلطة عربية واسعة النطاق في كل مكان قام الأتراك بالانسحاب منه، وامتد إلى ما هو أبعد من دمشق، وهذا ما تم إثباته وبإسهاب من خلال اليوميات ومذكرات تلك الحقبة، والتي تحدثت عن نشاط محموم في مخيم فيصل وتوافد سيل من الزوار والوفود وذلك للحصول على التعليمات والإرشادات من مركز السلطة الجديد[54]. وكما بدأ الصعود العثماني منذ قرون بدأ الانهيار بسرعة، بدأ عدد هائل من الضباط العرب، الموظفين الرسميين، وحتى الموالين للدولة العثمانية لحد الآن بالانجذاب لمعسكره. كان على فيصل أن يتكل في البدء على مجموعة صغيرة من الداعمين والذين كانوا ثابتين بالتزامهم معه ومع القضية العربية، ومعظمهم كانوا من جمعية الفتاة التي كانت مفيدة كذراع لفيصل في دمشق وفي عدة بلدات في سوريا ولبنان. هم على الأرجح لم يبلغوا حتى لبضعة عشرات من الأفراد، بالإضافة لعلاقات فيصل الشخصية مع أعيان العائلات السورية. أتى الدعم الرئيس الآخر من الضباط العرب والذين قد انضموا إلى الثورة، أو من الذين قد سعوا للتواصل مع جيش فيصل في الأسابيع القليلة قبل سقوط دمشق. في الأيام المبكرة، كانت الرغبة العارمة من جميع المشاركين تقريباً، والذين وضعوا جانباً طموحاتهم ورغباتهم الخاصة، هو ترسيخ أوراق اعتماد وسلطة حكومة عربية.

بدأ الأتراك بالتحضير للانسحاب من بيروت في 30 أيلول (سبتمبر) مخلّفين إدارة المدينة خلفهم بأيدي غربية. وفي اليوم نفسه، وقبل إقالته من منصبه، قام الأمير سعيد بإرسال رسالة إلى القوميين في بيروت، وذلك لإعلان الحكومة العربية. وبعد ذلك حالاً، تم إرسال شكري الأيوبي من قبل الإدارة العربية الجديدة إلى بيروت بصفته الحاكم العسكري للساحل السوري، وذلك طبقاً لشروط الاتفاقية الأنغلو ـ فرنسية لعام 1916. اعتبر لورنس هذا التحرك سابق لأوانه وخطيئة يمكن أن تسبب مشاكل كثيرة مع الفرنسيين فيما بعد[55].

دخول فيصل إلى دمشق

مع هدوء المدينة وسحق محاولة التمرد للأخوة الجزائري، أصبح فيصل الآن قادراً على دخول دمشق منتصراً، توقف قطاره في منطقة دير علي، وهي قرية درزية، حيث تقابل هناك مع مجموعة من الفلاحين الذين قاموا بجلب أخبار بأن الجيش العربي قد أصبح الآن في دمشق وقام بضرب القوات البريطانية فيها. لكن طبقاً لهم، كان الدروز هم أول من دخل المدينة، ووصلوا إلى الكسوة، والتي تبعد حوالي عشرين كيلو متر عن دمشق، وتوقف القطار. قام فيصل بإصدار الأوامر لرستم حيدر وبعض من خدم منزله بالركوب إلى دمشق، وذلك لإبلاغ الشريف ناصر، القائد الميداني للقوات العربية، بوصول فيصل.

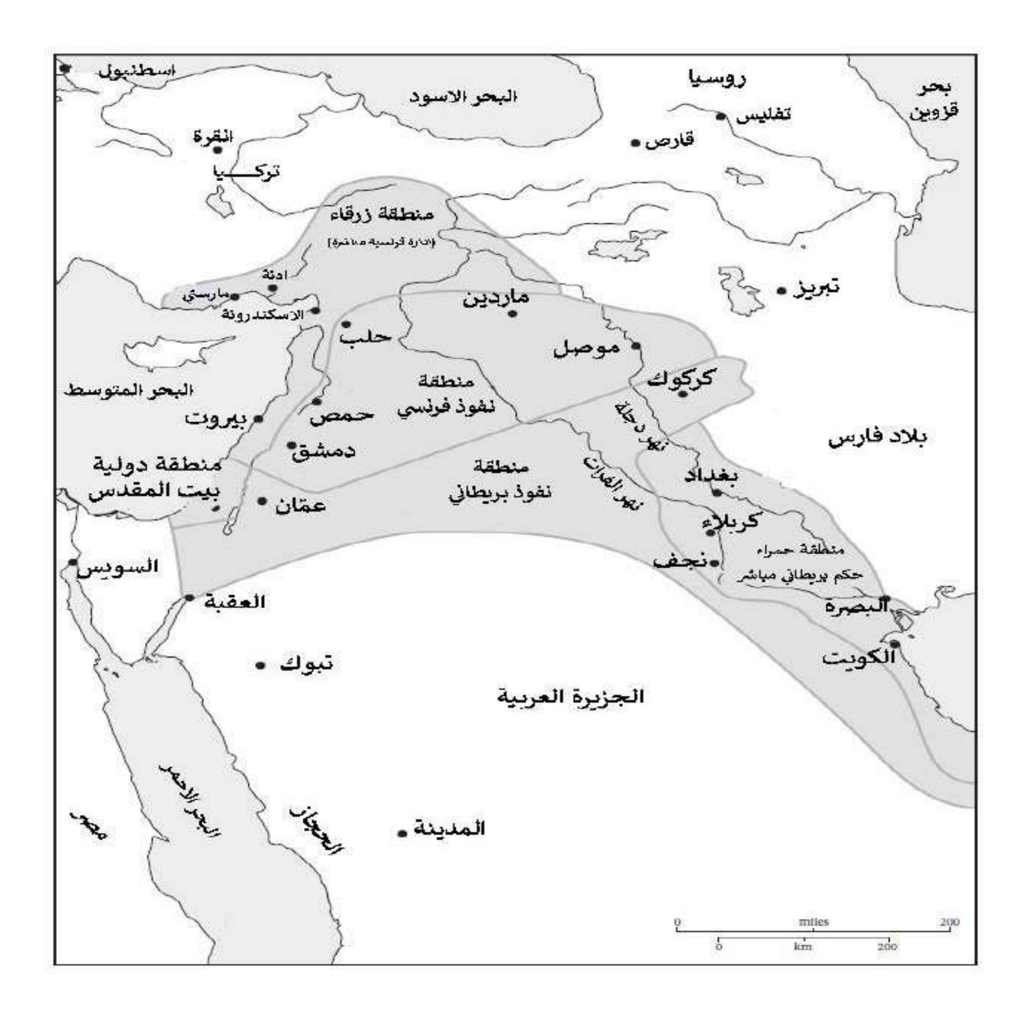
ركبت المجموعة الخيل باتجاه السراي (المبنى الحكومي الرئيس)، لكن ناصر كان قد غادر لتوه. وذهب إلى منزل آل البكري، أصدقاء فيصل القدامى، وجدوا الشريف ناصر هناك. قاموا بإخباره بوجود فيصل في الكسوة، والحاجة لناصر ونوري السعيد للمضي قُدماً إلى هناك وعلى الفور، وذلك لمرافقة فيصل لداخل المدينة. وبعد شربهم لعدد لا يحصى من فناجين القهوة، عاد حيدر مسرعاً لعند فيصل، كي يجد أن لا أحد من الفريق المرافق قد وصل لعنده بعد. بعد فترة قصيرة، وصل الفريق المرافق على متن جيادهم، وعلى ظهور الجِمال، وبالسيارات. قامت الحشود بالتجمع حول فيصل، مقبّلين يديه ومهنئينه على نصره العظيم. ضمّت الحشود المحاربين القدماء في سبيل القضية العربية، بالإضافة للانتهازيين الذين رأوا مصالحهم مع النظام الجديد. قام فيصل بتحيتهم جميعاً، وهو ممتطياً صهوة جواده، يتبعه الشريف ناصر، وهو يقود موكب ضخم عبر المدينة[56]. قام بالدخول للمدينة من جهتها الجنوبية عبر طريق الميدان وهو محاط ويتبعه على صهوات الجياد قادة العشائر من الحويطات.

الرولة والدروز. ومن خلفهم كان رجال العشائر على الجِمال ومشياً على الأقدام بالآلاف[57]، لقد كان مشهداً رائعاً. لقد بدا كأن دمشق كانت قد خرجت لتحية البطل. شقّ فيصل طريقه ببطء عبر الحشود، ملوّحاً ومحيياً سكان المدينة في مشهد من الابتهاج العظيم والفرح. كانت الحشود تهتف له ولحريتهم غير المعتادة[58]، كما كانت أعلام الثورة ترفرف في كل مكان. لقد وطئت الآن قدميه أرض المدينة.

توجه فيصل إلى فندق فكتوريا من أجل حضور اجتماع مرتب مسبقاً مع أللنبي، والذي كان قد وصل بسيارة قادماً من القدس مع طاقمه في وقت أبكر في 3 تشرين الأول (أكتوبر) 1918. تلقى أللنبي لتوه معلومات تفصيلية من وايت هول حول نمط الإدارة التي سيسمح فيها للعرب بإقامتها والموقف الذي يتوجب عليه أن يتخذه نحو فيصل والقضية العربية. كان عليه أن يعترف

ويدعم أي سلطة عربية يتم تأسيسها في المناطق التي تم الإشارة عليها «أ» و«ب» في اتفاقية سايكس ـ بيكو، وأن يحترم رموز هذه السلطة كالعلم والشعار المركزي.

خارط [(4)] اتفاقية سايكس بيكو 1916



«يجب أن تقوم سياستنا على تشجيع إنشاء إدارة عربية مركزية، محلية، أو إقليمية، حسب مقتضى الحال، والعمل من خلالهم على الأقل ظاهرياً وبالكامل. ولهذه الغاية، فإن الحاجة لها لا تحتمل التردد في قبول ولو مجرد سلطة اسمية عندما لا يمكن تأسيس سلطة أخرى في الوقت الحالي»[(59)]. لقد كانت هذه التنازلات مهمة لمفهوم تقرير المصير العربي ولكن تم تحوطها، وإذا تم البحث عن مستشارين أجانب من قبل الحكومة العربية من الساحل السوري، فيجب أن يكونوا فرنسيين.

تقابل فيصل وأللنبي ولأول مرة في فندق فكتوريا، وكان يحضر اللقاء نوري السعيد، الشريف ناصر، شوفيل، جويس، لورنس، هوبرت يونغ، وكيناهان كورنواليس وجاء هذا الأخير من المكتب العربي في القاهرة. كان ما يزال فيصل في حالة تأثر من نشوة الترحيب التي تلقاها من الحشود. كما كتب لورنس، «لقد كانوا على تباين غريب: يمتلك فيصل عيون واسعة، شاحب، متهالك، مثل خنجر رفيع، بينما أللنبي كان ضخم، ومحمر، مرح، وممثل لائق للقوة المحاطة بالمرح والتي تتعامل بقوة في جميع أنحاء العالم»[60]. لم تتوافر أي سجلات كاملة للاجتماع بين أللنبي وفيصل، حيث عمل لورنس فيه كمترجم. في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، خصص لورنس جزءً صغيراً من العبارات للحدث، لكن الجنرال شوفيل كان قد احتفظ بعدة مذكرات مفصلة حول الاجتماع، رغم أنه تم كتابتها بعد عدة سنوات من الحدث، للأسف. أما نوري السعيد فلم يكن لديه للأسف أي سجل.

حسب شوفيل، تم إعلام فيصل بأن فرنسا هي القوة الحامية لسوريا، وبأن الإدارة العربية في سوريا يجب أن تعمل تحت الرعاية والدعم المالي لفرنسا، كما أن لبنان الذي تمّ تحديده على طول الشاطئ السوري من صور وحتى خليج الإسكندرون ستكون إدارته مباشرة من قبل الفرنسيين، وأخيراً فإنه يتوجب على فيصل أن يكون لديه ضابط اتصال فرنسي. ذكر شوفيل بأن فيصل قد عارض وبشدة، لقد قال بأنه ليس لديه علم مطلقاً بالموضوع الفرنسي، وبأنه كان يتجهز ليأخذ مساعدة بريطانية، وأنه هذا ما تم إفهامه من المستشارين الذين قام أللنبي بإرسالهم له، بأن العرب سوف يأخذون كامل سوريا، بما فيها لبنان مع استثناء فلسطين، ذلك أن بلد بلا ميناء لا فائدة له منها، وعلى ذلك فإنه يرفض أن يكون لديه ضابط ارتباط فرنسي أو الاعتراف بالإرشاد الفرنسي بأي شكل من الأشكال[61]. عند ذلك التفت أللنبي نحو لورنس وسأله فيما إذا قام بإخبار فيصل بالحماية الفرنسية على سوريا وموقع فرنسا في لبنان. أجاب لورنس بأن كِلا الموضوعين لا هو ولا فيصل قد عرفوا بهذه الترتيبات، في الواقع كان ينكر أي منهما بأن لديه أي معرفة باتفاقية سايكس ـ بيكو.

هذا لا يمكن أن يصمد أمام الفحص الدقيق، لأنه وبحلول تشرين الأول (أكتوبر) 1918 كانت تفاصيل اتفاقية سايكس ـ بيكو معروفة وعلى نطاق واسع، حتى ولو لم يكن فيصل قد تلقى أي مذكرة رسمية حولها. بكل الأحوال فإن الرسالة الواضحة التي كانت فرنسا مصممة على تأكيدها هي حقوقها بموجب الاتفاقية، ولا بد أنها جاءت كصدمة غير سارّة. انتهى الاجتماع بعد أكثر من ساعة بقليل، وبقي لورنس ليُعلم أللنبي برغبته بالذهاب والمغادرة حالاً والعودة لإنكلترا، وافق أللنبي على مضض.

في اليوم التالي، 4 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، رحل لورنس بعيداً عن دمشق، ولم يعد أبداً،

كتب مؤلف سيرته الذاتية الرسمية أن مهمته في زمن الحرب قد أُنجزت الآن: لقد هُزم الأتراك وأقام العرب في سوريا... أمامنا مهمة أكثر صعوبة: وهي أن نقنع الحلفاء بأن ندع فيصل يحافظ على ما تم كسبه إلى الآن[62].

غادر فيصل فندق فكتوريا متوجهاً إلى مبنى البلدية، حيث كان في انتظاره لجنة استقبال كبيرة جداً، قوبل وصوله بهتافات الترحاب التي تصم الآذان من قبل الحشد المجتمع: شخصيات الحكومة الرسميين، قادة العشائر، رجال الدين، وأعيان المدينة. تقدم مفتي المدينة نحو فيصل وبايع الشريف حسين عبر ابنه فيصل: إن هذا المفتي ذاته كان قد أصدر فتوى في زمن العثمانيين بقتل فيصل[63]. بعد ذلك ألقى فيصل خطاب للجمع المحتشد، والذي لخصه حيدر في يومياته: «كان على سوريا أن تمضي في طريق التنمية، ولولا مشانق جمال باشا لما وصلنا إلى هذه الغاية، وضرورة أن نكون صادقين مع القضية، وضرورة مواصلة الحرب حتى يغادر الأتراك حلب ويرحلوا إلى ما بعد جبال طوروس وإن كل المعتدين سوف يعاقبون وبشدة»[64]. لاحقاً في ذلك اليوم انتقل فيصل إلى منزل محمود فخري البارودي، وهو شخصية محلية وداعمة منذ فترة طويلة للثورة العربية، حيث أسس قاعدته المؤقتة.

وفي ليلة 3 تشرين الأول (أكتوبر)، حضر فيصل مأدبة عشاء أقامها أللنبي، وعلى المائدة كان نوري السعيد، الذي جلس بين كلايتون والكابتن ميرسير، وهو ضابط ارتباط فرنسي. أشار نوري وبشكل عرضي للرجل الفرنسي بأن العرب قد استولوا على بيروت ورفعوا علمهم فوق المدينة، لقد كان هذا كافياً لإطلاق جرس الإنذار لدى الكابتن ميرسير، والذي قام بمغادرة طاولة العشاء ليرسل رسالة إلى باريس حول تحدي العرب للسلطة الفرنسية في لبنان[65]. لقد كان هذا مجرد لمحة مسبقة عن الأشياء القادمة للفرنسيين.

في هذه الأثناء، كان فيصل قائداً بلا منازع للعرب في سوريا، ولقد وصل إلى غايته المنشودة بعد أكثر المعارك صعوبة والتي دامت سنتين، تميزت بانتكاسات ومخاطر درامية عالية. انتصرت الثورة، لكن فيصل لم يستطع أن يهدأ على أمجاده، لقد كانت المشاكل الهائلة تكمن في المعركة لأجل سوريا، بل وأكثر من ذلك فإن المعركة من أجل جوهر القضية العربية قد بدأت للتو.

هوامش الفصل الثامن

1 ـ كان لويل توماس صحفياً خبيراً ماهراً والذي قابل لورنس برفق ستورز في القدس في أوائل عام 1918. أنظر: جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 489 ـ 494.

2 ـ أنظر: جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 1061، الهامش7. أدلى لورنس بتعليقات لا أساس لها لليدل هارت عن إن فيصل فقدَ قوة قلبه في أول مواجهة مع الأتراك في المدينة المنورة في عام 1916. على أية حال، تتعارض الأدلة مع هذا، لذلك إنه ليس واضحاً لماذا سعى لورنس للتخلص من هذا الادعاء. ففي الحقيقة، يتكلم لورنس خلال أعمدة الحكمة السبعة بالإضافة إلى إرسالياته إلى القاهرة، عن فيصل بأنه لديه الكثير من الشجاعة. فيما بعد، بعض المعلقين، معتمدين فقط على سجلات ليدل هارت المجزأة لمحادثاته مع لورنس، سيدّعون أن لورنس بالغ بشكل متعمد عن صفات فيصل بإرسالياته، وذلك لمناشدة الاحترام البريطاني للقادة الشجعان. ولكن ذلك لا معنى له.

3 ـ قدّم الفرنسيون مذكرات حرب قليلة عن الحملات في الشرق، إن الأكثر أهمية لغرض هذه السيرة الشخصية تعود إلى إدوارد بريمون: الحجاز في الحرب العالمية، بايوت، باريس، 1931.

4 ـ بدا لورنس بأمس الحاجة إلى أن يبدو بطل بشخصه. تحولت عواطفه من فيصل في بداية الثورة العربية الكبرى إلى أللنبي في نهايتها. ربما كان لورنس مستاءً من أن تلميذه لم يكن مطيعاً لإيقاعه. ت. ي. لورنس، الأعمدة السبعة، ص 582.

5 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص ص 62 ـ 63.

6 ـ مثال: سأل المكتب العربي لورنس أن يؤثر على فيصل حتى يتصرف بإيجابية مع مهمة وايزمان. فكتب لورنس مرتجلاً إلى كلايتون بأنه «بالنسبة لليهود، عندما أرى فيصلاً في المرة القادمة سأتكلم معه، ويجب أن يكون موقف العرب متعاطفاً»، مما يعني ضمناً بشكل سخيف أنه يمكنه التأثير على فيصل في هذه القضية الحاسمة ببساطة من خلال توضيح موقفه. جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 512 ـ 513.

7 ـ ت. ي. لورنس. الأعمدة السبعة، ص 45.

8 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 70.

9 ـ «لقد نشر الملك حسين هذه الإهانة الجسيمة لنا جميعاً... من باب الاستياء من النجاح الكبير الذي حققه ابنه ولإغاظة عرب البلدة الشمالية الذين كان الملك يحتقرهم ويخافهم». كتب لورنس، جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 539.

10 ـ جويس إلى باسيت (جدة)، 3 أيلول 1918، وزارة الخارجية 686/52، مقتبسة من قبل جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 540.

11 ـ ت. ي. لورنس. أعمدة الحكمة، ص ص 595 ـ 599.

12 ـ المرجع نفسه، ص ص 598 ـ 599.

13 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 394.

14 ـ هذا تعليق مثير للاهتمام، لأنه يعني ضمناً أن فيصل لا يزال يسعى إلى نتيجة من شأنها أن تترك العرب والأتراك في شكل من أشكال الترتيبات الكونفدرالية. ربما لم يكن فيصل على علم بالفروق الدقيقة في الترتيبات الإدارية في الإمبراطورية الألمانية. لكن تعليقاته جعلت الأمر واضحاً على أنه كان مدركاً أن الدولة الألمانية قد تم تأسيسها على مستوى عالٍ من اللامركزية. والقرائن على ذلك واضحة.

15 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 394.

16 ـ إن غالبية أتباع فيصل من السوريين والعراقيين أثناء سنوات الحرب كانوا من السنّة المسلمين. الأسباب واضحة تماماً: لم يكن هناك أي ضباط عراقيين من الخلفية الشيعية المسلمة في الجيش العثماني، والسكان الشيعة في سوريا العظمى كانوا يتركزون في منطقة جبل عامل في جنوب لبنان ووادي البقاع. كلاهما كانا في الغالب من المناطق الريفية. كانت التوترات الطائفية بين المسلمين الشيعة والسنّة في الحركة القومية العربية نادرة حتى عشرينيات القرن الماضي.

17 ـ رستم حيدر، مذكرات رستم حيدر، المحرر نجدت فتحي صفوت، الدار العربية للموسوعة، بيروت 1988، ص ص 17 ـ 18.

18 ـ تلقى أحمد قدري علومه الطبية في فرنسا، كما عمل أيضاً طبيبا خاصا لفيصل عندما كان في دمشق. كان كثير الحضور خلال اللحظات الخاصة بفيصل. وفي السنوات التالية كتب مذكرات مؤثرة عن تلك الفترة مؤرخا أوائل الحركة الوطنية العربية، والثورة العربية، والحكومة العربية قصيرة الأجل في سورية

19 ـ أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد1، ص ص 63 ـ 64.

20 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 71.

21 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 545.

22 ـ وثائق الماجور السير هيوبرت يونغ، رقم 19. مركز ليدل هارت للأرشيف العسكري، كلّية كينجز، لندن، «رسالة من الجنرال أللنبي إلى الأمير فيصل»، 20 أيلول 1918، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 548 ـ 549.

23 ـ دوناي إلى جويس، أرشيف العقبة العلامة 11، كلّية كينجز لندن، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 549.

24 ـ ت. ي. لورنس. الأعمدة السبعة، ص 649.

25 ـ رستم حيدر، مرجع سابق، ص ص 164 ـ 165.

26 ـ المرجع نفسه، ص 180.

27 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 557 ـ 558.

28 ـ ت. ي. لورنس. الأعمدة السبعة، ص 573.

29 ـ رستم حيدر، مرجع سابق، ص 184.

30 ـ إيفاد مكتب الحرب، مكتب الحرب 4510/95، 1 تشرين الأول 1918، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 560.

31 ـ أنظر: خصوصاً إيلي كيدوري، «الاستيلاء على دمشق، 1918»؛ دراسات الشرق الأوسط، المجلد1، رقم1، تشرين الأول، 1964، ص ص 66 ـ 83.

32 ـ مكتب الحرب 157/738، 21 أيلول 1918، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 540 ـ 541 وحاشية 27، ص 1102.

33 ـ مكتب الحرب 3381/371، اقتبسها سليمان موسى، مرجع سابق، ص 395.

34 ـ علي رضا باشا الركابي (1866 ـ 1942) وُلد في دمشق والتحق بالأكاديمية العسكرية في اسطنبول. انضم للجيش العثماني وترقى ليصبح جنرالاً في عام 1912. تم تعيينه حاكماً للقدس، وفيما بعد حاكماً وقائداً عسكرياً في المدينة المنورة. تمت إقالته في عام 1914 بعد انتقاده الحكومة العثمانية لدخولها الحرب. وانضم خلال الحرب إلى جمعية الفتاة، كاتماً عواطفه مع الثورة العربية من خلال الظهور بمظهر غير المهتم أمام جمال باشا، الذي عيّنه رئيساً للمجلس البلدي لدمشق. وكثّف قبل سقوط دمشق، بالتعاون مع الفتاة، اتصالاته مع فيصل لتولي دور في العهد الجديد.

35 ـ الجنرال شكري باشا الأيوبي كان من أوائل الشخصيات القومية، وأُلقي القبض عليه مع جميع الشخصيات القيادية السورية من قبل جمال باشا في أيار 1916. حُكم عليه بالموت، لكن بعد ذلك خُففت العقوبة. تم تعذيبه بشكل كبير في السجن وظل مسجوناً حتى مغادرة جمال لسوريا.

36 ـ خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص ص 47 ـ 48.

37 ـ يتكون العلم العربي من أربعة ألوان: الأحمر ويرمز للثورة؛ الأخضر ويرمز للواء آل النبي (ص)؛ الأسود ويرمز للواء العباسي، والأبيض ويرمز للواء الأمويين. يدّعي سايكس بأنه هو الذي رسم علم الثورة واختار ألوانه. على أية حال، ادّعى محي الدين الخطيب، وهو سوري مثقف من أوائل القوميين أنه تم اقتراح الألوان للشريف حسين من قبل مجموعة من القوميين العرب. أنظر: خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 48، هامش1.

38 ـ هادي حسن عليوي، فيصل بن الحسين: مؤسس الحكم العربي في سوريا والعراق، 1883 ـ 1933، كتب رياض الرّيس، بيروت، 2003، ص ص 64 ـ 65.

39 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، المجلد2، «لورنس ـ الحقيقة والكذبة»، كتب رياض الرّيس، لندن وقبرص، 1991، ص ص 188 ـ 190.

40 ـ المرجع نفسه، ص 10.

41 ـ مالكولم رسل، الدولة العربية الحديثة الأولى: سوريا تحت حكم فيصل 1918 ـ 1920، مكتبة الإسلام، مينيا بوليس، 1985، ص ص 9 ـ 10.

42 ـ مالكولم. ب. رسل، مرجع سابق، ص 12. يرفض رسل طرح كيدوري بأن شوفيل امتنع عمداً عن الاستيلاء على المدينة بسبب وجود اتفاق مسبق يسمح للجيش العربي بدخولها أولاً.

43 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 561.

44 ـ كانت هذه الساحة في وسط المدينة، حيث تم إعدام القوميين في عام 1916.

45 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة العربية، المجلد3، «ميسلون»، كتب رياض الرّيس، لندن وقبرص، 1991، ص ص 289 ـ 290.

46 ـ رستم حيدر، مرجع سابق، ص 186.

47 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 562. في الحقيقة، ليس لدى لورنس ما يقوله عن الإسلام، واعتبر أن أي عاطفة إسلامية هي عدو لدود للقيام بالاستقلال العربي.

48 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة، المجلد3، ص ص 229 ـ 300.

49 ـ توجد رواية مختلفة لهذه الأحداث قدّمها الضابط السوري للجيش العربي، صبحي العمري. كان الشريف ناصر الذي تصرف دائماً كممثل عن فيصل، وكان واضحاً أن ناصر ينوب عن فيصل في دمشق وليس لورنس. صبحي العمري، أوراق الثورة، المجلد2، ص ص 190 ـ 191.

50 ـ إن مواجهة لورانس مع الجزائري كانت بدافع شعوره أنهما غير مقبولين بالنسبة للرأي الوطني. وهذا مؤكد من خلال رواية الحادثة ضمن مذكرات أحمد قدري، مرجع سابق، ص.

73 ـ 74، حيث يقول قدري بأن «الوطنيين يعولون على الشريف ناصر أن يأخذ السلطة على عاتقه ويجبر الأمير سعيد على الاستقالة. «أما سعيد الجزائري فقد كتب من ناحية أخرى في مذكراته بأن هذا جزء من خطة للتأكد من أن الحكومة العربية وقعت تحت النفوذ البريطاني، وكان ينظر إلى الأخوين الجزائري على أنهما يشكلان عقبة لهذه الخطة. أنظر قاسمية، مرجع سابق، ص. 49. هذه العبارة ليست ذات مصداقية، حتى ولو اعتبرنا أن الأخوين الجزائري هما بصورة غامضة إلى جانب الفرنسيين. في تلك الفترة لم تدعم فرنسا الجزائري. أنظر راسل، مرجع سابق، ص. 212، الحاشية رقم 17

51 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة، المجلد3، ص ص 293 ـ 294.

52 ـ مالكولم. ب. رسل، مرجع سابق، ص ص 13 ـ 14.

53 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 565.

54 ـ يصف رستم حيدر المشهد بمعسكر فيصل بتفاصيل هامة، كما يفعل الدكتور أحمد قدري.

55 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 565.

56 ـ مأخوذة من يوميات رستم حيدر، مرجع سابق، ص ص 186 ـ 189.

57 ـ صبحي العمري، أوراق الثورة، المجلد3، ص ص 295 ـ 296.

58 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 89.

59 ـ مكتب الحرب إلى القيادة العامة، مصر، تيليغرام 67558، 1 تشرين الأول 1918. مكتب الحرب 37/960، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 360.

60 ـ ت. ي. لورنس. الأعمدة السبعة، ص 683.

61 ـ السير هـ ج. شوفيل، بيان تمت قراءته أمام النصب التذكاري للحرب الأسترالية، 1936، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 567 ـ 588.

62 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 568.

63 ـ رستم حيدر، مرجع سابق، ص 187.

64 ـ المرجع نفسه.

65 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 90.

الجزء الثالث

الحلم المُهشّم

سوريا ومؤتمر باريس للسلام

(1918 ـ 1921)

الفصل التاسع: أساسيات الدولة

أدى سقوط دمشق إلى تحويل بؤرة الاهتمام وبشكل مفاجئ من الجوانب العسكرية للحملة إلى الأمور الإدارية للمناطق المستولى عليها. لقد وجد فيصل نفسه الآن في قلب التشابك المعقّد للمصالح والطموحات المتداخلة، لكل من الأمور الداخلية والخارجية، والتي سعت كلٌ منها إلى فرض أولوياتها الخاصة والتحكم بالسلام واتجاه الأحداث في سوريا. من جهة، كان هناك فيصل وحلفاؤه من السوريين والقوميين العرب، حيث قام فيصل، ولتأكيد سيطرته على دمشق، بتعيين حلفائه في المناصب الرئيسة للإدارة الناشئة في سوريا، مع موافقة مباشرة من أللنبي. أصبح علي رضا باشا الركابي الحاكم العسكري، وانتشر أنصار فيصل في جميع أنحاء الحكومة السورية الجديدة. إن الانقلاب المفاجئ الذي أطاح بالأخوين «الجزائري» قضى على المعارضة المباشرة والمحتملة لسلطة فيصل وحكمه في دمشق.

اختار أللنبي أن يقبل التعيينات ويصدّق عليها، ولكن كان ما زال لديه حملة للقتال، بالرغم من أن أللنبي أراد التقليل من أي قرارات من جانبه قد تكون لها عواقب سياسية كبيرة وقد تضر بالمفاوضات في مؤتمر باريس للسلام. في سوريا كان قد قبِل ضمنياً بعض ادعاءات فيصل للسلطة ضمن الأراضي المستولى عليها. وبالرغم من ذلك فإن تعليماته لفيصل، بصفته الأخيرة كفريق في جيش أللنبي، كانت لتجنيد المزيد من القوات وتجديدهم باستمرار، وذلك لمتابعة التقدم في باقي الأراضي السورية. أيضاً قام أللنبي بنصح فيصل بتجنّب التورط بتشكيل حكومة مدنية في سوريا، وهو ما كان اقتراحاً غير عملي بشكل واضح، كما اقترح أن يدع فيصل الفوضى الإدارية المعقدة إلى أشخاص من أمثال الركابي الذين سيطر عليهم أللنبي بشكل مباشر. لكن أللنبي قد كشف أيضاً، ربما عن غير قصد، عن مدى طموح فرنسا في بلاد الشام وعن تصميمها لإلزام البريطانيين بالالتزام الصارم بشروط اتفاقية سايكس-بيكو. فرنسا التي كانت جهودها في الحملة ضد الأتراك ضئيلاً، كانت تسابق الآن لفرض سيطرتها على المناطق والتي تم وضعها تحت نفوذها طبقاً للاتفاقية، والتي تُدعى المنطقة الزرقاء والتي تتضمن الساحل السوري. كما كانت مصممة أيضاً أن تبسط نفوذها الإداري في الداخل السوري (المنطقة «أ» للاتفاقية). وهكذا كانت بذور حكومة عربية مستقلة في دمشق تشكل تهديداً مباشراً وحتى مميتاً لمطالب الفرنسيين في بلاد الشام.

في الوقت نفسه، لم يكن تطور هياكل السلطة لفيصل في دمشق كلها على بعضها مُرحباً بها من قِبل النخب الدمشقية التقليدية والتي انحازت إلى الأتراك في الحرب. ففي الوقت الحالي لم يعدوا في مواقعهم ليؤثروا على مجرى الأحداث، لكنهم كانوا يأخذون وقتهم لاستعادة وتأكيد سلطتهم التقليدية في الشراكة إما بالمشاركة مع فيصل أو بمعارضته إذا اقتضى الأمر. أدى ظهور النشاط السياسي المفتوح وصعود الأحزاب السياسية إلى زيادة تعقيد رغبة فيصل في إنشاء جبهة موحدة وعلى نطاق واسع للضغط من أجل المطالب العربية. إن انقسام القوميين إلى معسكرين واحد للمعتدلين والآخر للمتطرفين، ومطالب الأخير القصوى بالرغم من القوة العسكرية والسياسية الساحقة للحلفاء، كانت نتيجة حتمية تقريباً لسقوط الحكم العثماني. عانت حكومة فيصل ومنذ نشأتها في سوريا من أزمات خطيرة، وكيفية تمكن فيصل من إدارة هذه الأزمات وتجاوزها سيحدد النتيجة لحكمه في سوريا.

الحكومة العربية العسكرية في سوريا

تم مناقشة أساسيات الحكومة للمناطق التي تم الاستيلاء عليها في الاجتماع بين فيصل وأللنبي في فندق فكتوريا. في الواقع لقد كان الغرض الأساسي للاجتماع هو السماح للنبي بتقبل الإرشادات التي تلقّاها سابقاً من مكتب الحرب البريطاني في إدارة الأراضي المحتلة، والتي قد تم الموافقة عليها للتو بين البريطانيين والفرنسيين وفي الجوهر وإلى حد كبير بناءً على اتفاقية سايكس بيكو[1]. «كما إن سلطة الحلفاء العرب يجب الاعتراف بها رسمياً في أي جزء من مناطق «أ» و«ب». وكما تم تحديدها في الاتفاق الانكليزي ـ الفرنسي لعام 1916، حيث يمكن العثور عليها مؤسسة أو يمكن تأسيسها نتيجة للعمليات العسكرية الجارية الآن، اقرأ التعليمات ذات الصلة. تم منح عرب فيصل صفة محارب ومنحهم اعترافاً رسمياً وتم تمهيد الطريق لإدراجهم المحتمل في مؤتمر السلام». في ذات الوقت، دعت تعليمات أللنبي إلى «أن يتم التعامل مع المناطق المحررة على قدم المساواة مع مناطق الحلفاء المتمتعة بحالة الاستقلال (أو كونفدرالية دول) أو العرب المسالمين... وليس كمقاطعات معادية في جيش احتلال مؤقت»[2]. توجب على أللنبي أن يعترف براية الثورة العربية كرمز للحكم العربي الأصيل، في الواقع لتشجيع إنشاء إما إدارة عربية إقليمية، أو مركزية، أو محلية، حسب مقتضى الحال، والعمل، على الأقل ظاهرياً ومن خلالهم. لقد كانت هذه التنازلات مهمة للحكم الذاتي العربي لكنها لم تمتد إلى المنطقة الزرقاء لاتفاقية سايكس ـ بيكو: جبل لبنان، والساحل السوري. لقد كان أللنبي مُلزماً أيضاً بتذكير فيصل إذا رغب في السعي للحصول على مساعدة الموظفين الأوروبيين في إدارة الحكومة العربية في المنطقة «أ»، يتوجب أن يكون طاقم العمل هذا من الفرنسيين. وبالرغم من أن الاجتماع

قد انتهى وبشكل غير حاسم وقد كان قاسياً في بعض الأحيان، فإن أللنبي نفسه قد تشكل لديه انطباع جيد حول فيصل، كاتباً لزوجته حول تلك الأمسية قائلاً: سوف يروق لك فيصل، لديه جسد نحيل وملامح واضحة، له مزاج عصبي، ويديه رقيقتين مثل أيدي النساء، وعندما يتحدث تتحرك أصابعه بطريقة عصبية. لكنه رجل قوي الإرادة وصاحب قناعات مستقيمة[3].

تم إضفاء الطابع الرسمي على هذه التدابير لاحقاً من قبل أللنبي، وذلك في رسالة تم إرسالها إلى مكتب الحرب بتاريخ 23 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، والتي قسّمت الأراضي المحتلة في مسرح الحرب الشرقي باستثناء بلاد ما بين النهرين والحجاز إلى ثلاث مناطق احتلال منفصلة[4]. في النهاية قاموا كلهم بإبلاغ أللنبي وتتبّعوا الحدود الإدارية للدولة العثمانية المنهارة. إن منطقة الاحتلال الأولى، وأراضي العدو المحتلة في الجنوب، تشمل القدس منطقة تتمتع بحكم ذاتي (سنجق) وولايات عكا ونابلس ومقاطعاتهم. وهذه كانت مساوية للمنطقة الصفراء لاتفاقية سايكس بيكو، بما فيها فلسطين، والتي كانت تحت شروط الاتفاقية، حيث كانت تخضع لشكل من أشكال الترتيبات الدولية. في هذه الأثناء، كان عليهم أن يكونوا تحت الإدارة البريطانية المباشرة. المنطقة الثانية للاحتلال كانت أرض العدو المحتلة ـ الشمالية. تم إعادة تسمية أرض العدو المحتلة ـ الغربية وتضمنت جبل لبنان وكامل الساحل السوري من عكا إلى الاسكندرونة، وتقع تحت الإدارة الفرنسية المباشرة. والمنطقة الأخيرة هي الأراضي المحتلة شرقاً، وتم وضعها تحت الإدارة العربية المباشرة وشكّلت نواة حكومة فيصل العربية. لقد تضمنت ولاية دمشق لتصل جنوباً للأراضي الشرقية لنهر الأردن، ومعظم المناطق الجنوبية ولاية حلب.

لم يقم فيصل بالتعليق مباشرةً على إجراءات أللنبي، لكنه كشف عن مشاعره الحقيقية في وقت لاحق، وبعد زمن بعيد، وذلك ضمن اللقاءات التي أعطاها للسيدة ستيوارت إيرسكين في أوائل عام 1930 [*]: «حصل الخداع الأول عندما أعلن المشير اللورد أللنبي بأن سوريا قد تم تقسيمها إلى ثلاث مناطق تحت ذريعة بأن هذه الترتيبات هي محض مؤقتة وإدارية، أما الضربة الثانية التي تم توجيهها لسعادة العرب كانت تأكيد معاهدة سايكس ـ بيكو والتي تم إنكارها في عام 1917. لقد شاهدت بأم عيني خريطة البلاد [المقسمة إلى ثلاثة أجزاء]، بألوان متباينة، مما كشف مصائر الأجزاء الثلاثة المختلفة ليتوجب علينا بذلك أن نواجه الحقيقة المرّة»[50].

(*) السيدة ستيوارت إيرسكين: كاتبة ومؤرخة بريطانية، تُعد أول من كتب سيرة ذاتية للملك فيصل الاول؛ إذ أجرت مقابلات شخصية معه عام 1930، وطُبع كتابها في لندن بعنوان (King Fasial Of Iraq) بعد وفاته مباشرة عام 1933، وكان بجزئين، الأول عن حياته في الحجاز والتحاقه بالثورة العربية الكبرى، وصولاً إلى تأسيس حكومته ودولته في سوريا. والثاني عن حكمه وسياسته في العراق بين عامي 1921 ـ 1933. (المُراجع).

كانت الحكومة العربية الجديدة ضمن «أراضي العدو الشرقية المحتلة»[*]، إضافة إلى الجيش الشمالي، في وضع إداري وقانوني غريب، حيث إن قوات فيصل بقيت عملياً تحت قيادة أللنبي وجزءاً من قوات التحالف. وكان فيصل كقائد للجيش الشمالي مسؤول عن كل الأمور العسكرية لجنرالات المقرات عند أللنبي. إن الحكومة نفسها كانت مزيج من الشخصيات العسكرية والمدنية، برئاسة علي رضا باشا الركابي، استمدت مواردها من الحلفاء، بينما كانت تدّعي الولاء لفيصل، وأبعد من ذلك، للملك حسين في مكة.

منذ البداية، سعى كل من فيصل وحكومته للتجاهل أو التقليل من اعتمادهم على الحلفاء والعمل الجاد لتأسيس سلطة الحكومة والتمدد ضمن الأراضي التي تقع تحت سيطرتهم. كما انتهز فيصل أي فرصة أتيحت له لإعلان استقلال الحكومة العربية كشيء منفصل عن إدارة عسكرية مؤقتة ولخلق وقائع على الأرض، وذلك لاستباق أي تحركات مضادة من قبل الحلفاء، خصوصاً الفرنسيين، والجماعات العديدة التي قامت بمعارضة فيصل ومطالبة القوميين بالسلطة.

في 5 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، أصدر فيصل إعلانه الأول للشعب في سوريا. صرّح وبنبرات مدوية «أنه قد تم تأسيس حكومة عربية دستورية مستقلة في سوريا باسم سيدنا الملك حسين». وأعلن عن تشكيل إدارة عسكرية، وقد عيّن لها الركابي كرئيس للحكومة[6]، وكان فيصل قد قدّم في وقتٍ سابق جوهر الإعلان إلى تجمع أعيان دمشق والوجهاء في مأدبة، أكّد فيه على أن وصول الحكومة العربية سيتضمن مناطق «لم تتحرر بعد من العبودية». في إشارة إلى أراضي عربية ما زالت تحت الحكم العثماني[7]. بشكل متوقع، رأى الفرنسيون أن هذه التصريحات تحدي صريح لأطماعهم ومخالفة صريحة لاتفاقهم مع البريطانيين. لم يكن هناك أي ذكر للدور الفرنسي في «تقديم المشورة» للحكومة العربية الجديدة، وعمل القوميون على تأكيد حقوقهم في مناطق مخصصة بشكل واضح للفرنسيين، كان تحدياً رئيساً آخر لخطط فرنسا في السيطرة على سوريا. لقد استبق فيصل وصول الفرنسيين إلى بيروت، وقام بإرسال مبعوثه شكري الأيوبي ليعلن سلطة الحكومة العربية الجديدة. في الواقع، إن محاولة العرب القوميين لإثبات السلطة للحكومة الجديدة على لبنان قد بدأت منذ بضعة أيام وفي وقت أبكر.

وعملاً بالبرقية التي أرسلها سعيد الجزائري إلى كل المسؤولين العرب في الأقاليم السورية العثمانية، والتي تدعوا إلى إعلان تشكيل الحكومة العربية الجديدة، فإن رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق قام بزيارة الحاكم العثماني هناك وعرض عليه محتوى البرقية، وبعد قليل من التردد

(*) أراضي العدو الشرقية المحتلة (OETE): مصطلح يُطلق على جزء من الإدارة الفرنسية والبريطانية المشتركة على الولايات العثمانية السابقة المنتزعة منهم في بلاد الشام والعراق بين عامي 1918 و1920. (المُراجع).

قام الحاكم العسكري، إسماعيل حقي باي، بالموافقة على الاعتراف بسلطة الحكومة العربية وسلّم السلطة له. في 1 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، وفي حفل ترأسه الداعوق حضره «كممثل للحكومة العربية» حيث تم رفع العلم العربي فوق المبنى الحكومي الرئيس في بيروت[8]. وفي منتصف ليل 4 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، قام كل من شكري الأيوبي ـ مع المئات من الجنود يرافقه جميل الأُلشي، «وهو ضابط في الجيش العربي»، ورستم حيدر ـ بمغادرة دمشق متوجهين إلى بيروت، مع تعليمات من فيصل للإعلان رسمياً عن الحكومة العربية في بيروت وجبل لبنان[9]. تم تعطيل مسارات القطار من دمشق إلى بيروت من قبل المفارز الألمانية مع الجيش العثماني، مجبرين الفريق على السفر على ظهر الأحصنة. مارّين عبر عدة قرى وبلدات، حيث تم استقبالهم بالهتافات، وصلت المجموعة أخيراً[10] إلى بيروت في 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1918. وفي اليوم التالي قابل شكري الأيوبي القائد المسيحي حبيب باشا السعد في المبنى الحكومي الرئيس في بعبدا، على سفوح الجبال المطلة على بيروت. (كانت بعبدا بمثابة المقر الرئيس للحكومة أثناء الحرب). لقد كان السعد الرئيس الأخير لمتصرفية جبل لبنان المستقل، وذلك قبل إنهائه في عام 1915 عند اندلاع الحرب، ثم أدى اليمين كرئيس للإدارة الجديدة في لبنان، مقسماً الولاء لحكومة فيصل في دمشق[11]. على أي حال هذه حالة مختلفة تماما عن سورية والمشهد كان جاهزاً ليس فقط للتجاذبات مع الفرنسيين ولكن مع جزء كبير من السكان المسيحيين في لبنان، وخاصة الطائفة المارونية.

المواجهة على لبنان

لطالما أبدى فيصل موقفاً لطيفاً للغاية مع المسيحيين في العالم العربي، وفي أثناء الحرب حاول فيصل ووالده التقليل من مخاوف العرب المسيحيين فيما يتعلق بالترتيبات لما بعد الحرب، وإمكانية فرض حكم إسلامي عليهم. إذ كانت الدولة العربية الجديدة ستعتمد على الاعتبارات القومية لا الدينية، مغتنماً الفرصة ليطلق مقولته المشهورة: «الدين لله، والوطن للجميع». مع رفض قبول أي تمييز ضد المسيحيين سواءً ضمن حاشيته أو في الحكومة العربية. إن عدداً من المسيحيين اللبنانيين البارزين بمن فيهم الزعيم الماروني اسكندر أمون كانوا قد انضموا إلى فيصل، وعمل كوزير للعدالة في دمشق، لكن كان لدى العديد من المسيحيين وخصوصاً، المارونيين، شكوكاً حول نوايا فيصل. وإن انتقاله إلى بيروت وجبل لبنان قد تقرر نتيجة لقلقه فيما إذا تم تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو في شكلها الواسع، فإنه سيخسر لبنان أمام الدولة العربية الجديدة. إن دولة لبنانية مستقلة، يهيمن عليها الموارنة وتحت الحماية الفرنسية، من شأنه أن يقوّض وحدة الأراضي السورية، وحتى أنه سيؤثر على الطوائف المسيحية التي كانت داعمة

لفكرة دولة عربية ذات قاعدة عريضة. أما الأقليات الأخرى مثل الدروز والعلويين قد يطالبوا أيضاً بدول منفصلة في مناطقهم. لقد تم اختزال فكرة دولة واحدة في أحسن الأحوال إلى كونفدرالية فضفاضة بعدد من الدول الطائفية. وعلى الجانب الآخر كانت الكتل السنّية والشيعية لمسلمي بيروت، وطرابلس، وصيدا، وعكار، ووادي البقاع، الذين لن يوافقوا بسهولة على فكرة العيش في مكان تقطنه غالبية مسيحية وتحت رعاية فرنسية. لم يستطع فيصل التنازل عن مطالبته بهذه المناطق دون أن يتعرض لاتهامات بالتخلي عن مسلمي لبنان لصالح المسيحيين والحكم الأجنبي.

لقد كان يدرك خصوصية لبنان بتركيبته المعقدة من المذاهب والطوائف، لكل من المسلمين والمسيحيين، حيث قُدّر عدد سكانه بحوالي 520 ألف نسمة قبل الحرب، فيما بلغ تعداد السكان المسيحيين حوالي 345 ألف[12]، ولقد كان التجمع المسيحي الماروني أكبر مذهب منفرد ويمتلك روابط تاريخية ودينية مع أوروبا، وبالتحديد مع فرنسا. كما كان يقوده رجال دين أقوياء للغاية، والذين رأوها فرصة لانتزاع السلطة من خلال استحداث دولة تتضمن جبل لبنان، بالإضافة إلى الساحل ووادي البقاع مع غالبية من السكان المسلمين. كما إن «لبنان الكبير» لا يمكن أن يأتي إلى الوجود من دون الدعم الفرنسي والتأسيس لبعض أشكال المحميات الفرنسية على أراضيها. لكن في أوائل تشرين الأول (أكتوبر) 1918، لم تُشاهد أي قوات فرنسية ولا في أي مكان، فيما كان فيصل المتحالف مع البريطانيين لائذاً بدمشق وآخذاً بزمام المبادرة بإعلان السلطة للحكومة العربية فوق كامل الأراضي اللبنانية. تلقى البطريرك الماروني إلياس حويك رسالة من الأمير سعيد الجزائري طالباً منه إعلان دعمه للحكومة العربية، لكنه تجاهلها بإصرار. وبدلاً من ذلك قام بالاتصال وبشكل مستعجل مع الفرنسيين، طالباً استشارتهم بالمسألة. قام الفرنسيون بالرد بإرسال كلمتين إلى البطريرك: (نحن قادمون)[13].

تحرك فيصل باتجاه لبنان، مُطلقاً جرس الإنذار مع البريطانيين. لكن لورنس نفسه أرجع الخطوة ليس إلى فيصل بل إلى القادة الذين أحاطوا به، وعلى وجه التحديد الركابي والأخوة البكري[14]. لكن ادعاء لورنس لم يخضع للتدقيق، لأن فيصل كان متورطاً وبشكل مباشر في قرار تأكيد سلطة الحكومة العربية على بيروت وبقية لبنان. مذكرات صديق فيصل المقرب رستم حيدر كانت واضحة حول هذا الموضوع، على الرغم من أن التعليمات الفعلية قد تم إعطاؤها للتوجه نحو بيروت من قبل الركابي وليس فيصل[15]. وصف أللنبي الحركة «بغير المتوقعة»، بينما اعتقد الجنرال كلايتون، مستشار أللنبي السياسي، أن الخطوة حتمية. والغاية منها الاستفادة من إعلان السابع من حزيران (يونيو) 1918 كمبرر لاحتلال أكبر مساحة ممكنة من الأراضي. إن الأراضي المستولى عليها ستكون ضمن فئة الأراضي المحررة من قبل العرب أنفسهم ومن ثم تعد جزءاً من المناطق العربية التي تتبع الحكم الذاتي.

بالطبع لم يكن الفرنسيون راضون عن أصوات الاحتجاجات، فعند سماع أخبار تحرك رجال فيصل لإنقاذ سلطة الحكومة العربية في لبنان، بالإضافة إلى رمزية رفع الرايات فوق المباني الحكومية الرئيسة. قام الكابتن كولوندر[16]، الممثل الفرنسي في سوريا، وبشكل عاجل بالطلب من حكومته بإرسال قوات، وذلك للاستيلاء على بيروت والبلدات الساحلية[17]، ثم قام كولوندر بالاحتجاج لكلايتون مطالباً إياه بالتعيين الفوري للضباط الفرنسيين في البلدات الساحلية، عندها اعترض كلايتون قائلاً بأن أللنبي هو الوحيد الذي باستطاعته إعطاء مثل هذه الأوامر، لذا أخذ كلايتون احتجاجاته وتوجه إلى فيصل، الذي رفض قبول الادعاء بأن قواته قد خالفت أي اتفاقات سابقة، قائلاً بأنهم هناك فقط لمنع حدوث أي اضطرابات وللمساعدة في طرد الأتراك.

في هذه الأثناء، بدأ أللنبي يستشعر خطورة الموقف، ومن إمكانية حدوث مواجهة بين الفرنسيين والقوات العربية في لبنان، لذا قام بإعطاء التعليمات للفيلق الحادي والعشرين بقيادة الجنرال إدوارد بولفين بالانتشار على طول الساحل الجنوبي لبيروت، وذلك ليسرّعوا تقدمهم في المدينة. وصلوا إلى مدينة صيدا، والتي تبعد ثلاثين ميلاً جنوب بيروت، في 7 تشرين الأول (أكتوبر) 1918. كما وافق أللنبي أيضاً على تعيين حاكم عسكري فرنسي في صيدا وبيروت، في حركةٍ تمت معارضتها من قبل ممثلي فيصل، وفي اليوم نفسه قامت وحدات البحرية الفرنسية وبقيادة الأدميرال فارني بإنزال قواتها في بيروت. كانت هذه القوات قد غادرت بور سعيد قبل يوم وهي جزء من كتيبة فرنسية خاصة إلى سورية ولبنان[18]. وعند الوصول إلى بيروت، أمر بولفين الأيوبي أن يسلّم موقعه كحاكم عسكري، وأن يُنزل العلم العربي. رفض الأيوبي أن يقوم بفعل ذلك بدون تعليمات صريحة من فيصل، قام كلايتون أيضاً بإرسال رسالة إلى فيصل في دمشق محذراً إياه بأن القضية العربية ستتضرر وبشكل خطير إذا ما حاول أن يسيطر على المناطق التي هي جزء من المنطقة الزرقاء، ومشدداً أيضاً على الأوضاع الخاصة للبنان. قام فيصل برفض كل هذه الضغوطات، بما فيها طلب أللنبي بأن على الأيوبي أن يقوم بتسليم موقعه[19]. كما قام بطلب تأكيدات من أللنبي بأن أي إجراءات عسكرية بشأن الساحل ستكون مؤقتة ولن تُعرّض الوضع النهائي لهذه الأراضي لأي خطر[20]. في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 قام أللنبي بالكتابة إلى فيصل، قائلاً بأنه مهما كانت الإجراءات المتبعة الآن للمقاطعات في المنطقة الساحلية، فإنها ذات طبيعة عسكرية، ولن تؤدي إلى المساس بالتسوية النهائية والتي سوف تقرَر من قبل الحلفاء في مؤتمر السلام[21].

في بيروت كان الفرنسيون مصرّين على تجريد الأيوبي من أي صفة رسمية، وطالبوا بإنزال الأعلام العربية عن كل المباني العامة. تم طرح اقتراح حل وسط قام بتقديمه كل من كلايتون وبولفين وهو إذا ما توجّب بقاء الأيوبي فإنه يكون كحاكم مدني تحت قيادة حاكم عسكري

فرنسي، وهو أمر غير مقبول إلى كولوندري [القائد الفرنسي]. رضخ أللنبي وأكد التعيين للحاكم الفرنسي الكولونيل دي ـ بيبيب. احتج الأيوبي وبشدة، لكن تم أخذه في النهاية إلى غرفته في الفندق، حيث تولى الكولونيل سلطة الحاكم العسكري. وخلال ليلة 10 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 قام الضباط الإنكليز في بيروت بإنزال العلم العربي عن كل المباني العامة، لقد كانت ضربة قاصمة لفيصل والحركة العربية، ولم يُسمح أن تمرّ وتُنسى.

قام فيصل بإرسال رسالة نارية إلى أللنبي يحتج فيها على هذا التحرك. «أنا أعتقد أنه لا حاجة للشرح أو التوضيح لكم حول ما لحق بالعلم العربي من وصمة عار في بيروت، وهو شعار الأمة نفسها التي أخبرتني مؤخراً أنّ جلال الملك جورج الخامس قد ضمّها كجزء من حلفاء بريطانيا... قد أكون أخطأت بإرسال شكري الأيوبي إلى [بيروت]، مع أني أعتقد، لا بل أعلم أن هذه الراية لم يتم رفعها من قبلي أو من قبل شكري الأيوبي أو من قبل أي قوة عسكرية، لكن تم رفعها من قبل أمة اختارت هذا العلم لنفسها وهو يمثل التزامهم بأهلهم وأقاربهم وطلبت منا أن نرسل بدون إكراه واحداً ليحكمهم... إن الشعب في الساحل السوري يريد [الاستقلال] ويسعى للانضمام لإخوانهم العرب. هل من العدل والإنصاف أن يُحرموا من هذه الرغبة؟ [22]» بينما اعتبر الفرنسيون، والبريطانيون إلى حد ما، في تأكيد سلطة الحكومة العربية على لبنان انتزاعاً فجّاً للسلطة، فإنه بالنسبة إلى فيصل والقوميين قد كانت كرمز لالتزامهم بدولة توحّد جميع المتحدثين باللغة العربية في سوريا. وفي ذات الوقت، فإنها تثبت لفيصل معارضة الفرنسيين الشديدة لفكرة الوحدة العربية الحاكمة لكل سوريا، وإصرار فرنسا على التنفيذ الصارم لاتفاقية سايكس ـ بيكو. كما اضطر ممثلو حكومة دمشق العربية إلى الانسحاب من أجزاء أخرى من الساحل السوري، والواقع ضمن ما يسمى بالمنطقة الزرقاء. أما في اللاذقية، كما في أنطاكية الواقعة في كيليكيا، أنزل الفرنسيون قواتٍ لفرض سلطتهم وأنزلوا كذلك الأعلام العربية.

وما إن تمت تسوية موضوع إدارة مناطق الساحل السوري، حتى برز موضوع أخر يشمل أراضي موضع خلاف. إن وادي البقاع الذي يفصل جبال لبنان عن السلسلة الشرقية، يتألف من مزيج من السكان مع غالبية مسلمة، وكان يُحكم خلال الفترة العثمانية كجزء من ولايتي بيروت ودمشق. كان الوادي مقسماً لأربع مقاطعات منفصلة، ولكن لم يكن أيٍ منها جزءاً من مجلس إدارة جبل لبنان المستقل الذي يسيطر عليه المارونيون، على الرغم من أن المارونيين قد طالبوا باستمرار بإدراجه في منطقتهم المتمتعة بالحكم الذاتي. وقامت اتفاقية سايكس ـ بيكو بوضع وادي البقاع كجزء من المنطقة الزرقاء، أما الفرنسيون الذين خرجوا منتصرين في بيروت، فقد بدأوا السعي لضم حقوقهم في البقاع أيضاً.

في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، تصرف كولوندر بناءً على تعليمات صدرت عن وزير

الخارجية الفرنسي ستيفن بيشون، طالباً من كلايتون بإعلام فيصل أن فرنسا تنوي أن تمارس حقوقها في وادي البقاع وأن تحتل المنطقة. قام كلايتون بالرد على مكتب وزارة الخارجية بأن فيصل والقوميون ليسوا جاهزين كي يستسلموا للتحدي الفرنسي. لا تنتمي أي من المناطق المتنازع عليها إلى لبنان والعرب سيعارضون ضمهم للمناطق الواقعة تحت السيطرة الفرنسية. لكن الفرنسيين لن يكون لديهم أي منها، وعندما أعلن أللنبي عن خططه لإدارة الأراضي المستولى عليها، فقد تم وضع البقاع ضمن أراضي العدو المحتلة الغربية، أو داخل الأراضي التي تأتي تحت الإدارة الفرنسية المباشرة. بكل حال، فقد اعترض فيصل وبشدة لدى أللنبي حتى أنه قام بالتهديد بالاستقالة[23]. وبالرغم من الاحتجاجات الفرنسية، لكن أللنبي قام بعكس قراره ووضع وادي البقاع مع البلدات المهمة لزحلة وبعلبك في منطقة احتلال الإدارة العربية، أراضي العدو المحتلة الشرقية. كما أنه قام بإعطاء فيصل كامل السلطة السياسية في أراضي العدو المحتلة الشرقية، مقللين الوضع الذي كان قد تم منحه سابقاً للركابي.

آخر أيام سوريا العثمانية والنظام الجديد

بدأت الخطوط العريضة المبدئية لدولة عربية تظهر في سوريا، طبقاً لحدود الأراضي المحتلة شرقاً، كما بدأت تأخذ شكلاً مقبولاً. أعطت الحدود الغربية المتضمنة وادي البقاع، فيصل مكانة هامة لمواصلة الضغط من أجل المطالبة ببقية لبنان. إلى الجنوب والشرق، أراضي العدو الشرقية وتتضمن معظم مناطق «أ» و«ب» لاتفاقية سايكس ـ بيكو: سوريا الداخلية وعبر الأردن. أما في الشمال، فقد تغيرت الحدود مع تراجع الجيوش العثمانية، واستقرت فقط شمال حلب بعد هدنة مودروس والتي أنهت الأعمال العدائية بين الحلفاء والإمبراطورية العثمانية والتي تم توقيعها في 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1918. وبعد سقوط دمشق تم نشر الجيش العربي وبشكل رئيس لفرض الأمن الداخلي، لكن فيصل كان ما زال بإمكانه أن يقدّم 1500 من القوات النظامية تحت قيادة الشريف ناصر، بالإضافة إلى الآلاف من قوات القبائل من أجل الحملة المستمرة ضدَّ ما تبقى من القوات العثمانية. لقد أدى الاستيلاء على دمشق إلى رفع معنويات القوات العربية بصورة كبيرة كما منحتهم شيئا من الاعتداد بالنفس. وبعد أن أصبحت المواضيع السياسية الرئيسة تحت عناية فيصل خلال اجتماعه مع أللنبي في فندق فيكتوريا، فقد استسلم فيصل إلى حالة من التأمل[24]، قام أللنبي بسؤاله عن ماذا يدور في ذهنه، أجابه «سنتحرك إلى طوروس [جبال تركية]»؛ وأضاف «المشاة لدينا سريعون ويمكنهم التعايش مع الصعوبات، إذا ما جاء جيشك معنا فهذا سيكون أفضل بكثير؛ بإمكاننا أن نبقيك مخزّن بالأعلاف والإمدادات، الشيء الوحيد الذي ليس بإمكاننا أن نقوم بتزويده هو الذخيرة. عند ذلك قام فيصل بنقل نيته في المضي قُدماً بمفرده إذا لزم الأمر.

بالطبع، فإن أللنبي سوف لن يسمح للجيش العربي بالزحف شمالاً لوحده، كانت تلك مهمة فرقة الفرسان الخامسة بقيادة الجنرال هنري جون ماكاندرو. لكن قدرة البريطانيين على القتال قد أُستنزفت جدياً بسبب المرض، كما إن فرقة الفرسان الخامسة لم يكن يبلغ عددها أكثر من 250 ألف رجل. فرقة الفرسان الرابعة التابعة إلى بارو، أما القوة الرئيسة الأخرى والتي يمكن استخدامها في الحملة في شمال سوريا، قد تم إنقاص عددها إلى 1200 رجل. كان على القوات العربية بقيادة نوري السعيد أن تزحف برفقة الوحدات البريطانية، لتغطية الجناح الأيمن للتقدم. لقد كان إسهام القوات العربية للحملة شمال دمشق أكبر نسبياً مما كان عليه في السابق، فقد شكلت ثلث القوات المقاتلة من جيوش الحلفاء.

في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 دخل ماكاندرو برفقة القوات العربية بقيادة نوري مدينة حمص، وسط استقبال صاخب من سكانها، وبينما كان ماكاندرو ينتظر التعزيزات من أللنبي، قامت القوات العربية بالاندفاع شمالاً نحو بلدة حماة، والتي قام نوري باحتلالها في 20 تشرين الأول (أكتوبر) وبعد ذلك تحرك باتجاه مدينة أخرى عظيمة في سوريا وهي حلب. في 23 تشرين الأول (أكتوبر) تلاقت القوات العربية مع فرقة ماكاندرو وعلى بعد بضعة أميال خارج المدينة، وبالرغم من أنهم كانوا ضعفاء جداً لطرد المدافعين، فإن الجيش العثماني في حلب كان بقيادة القائد الرائع مصطفى كمال والذي تجاهل كافة الدعوات للاستسلام. لكن؛ وباستطلاع أجراه نوري اكتشف أن الدفاعات التركية كانت مهجورة، عند ذلك تم احتلال المدينة من قبل القوات العربية في 25 تشرين الأول (أكتوبر)[25]. تم رفع الراية العربية فوق حلب وقام نوري بإجراء التعيينات اللازمة لتغطية الإدارة المحلية. وفي 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 دخل ماكاندرو المدينة رسمياً ومن دون أي مقاومة، وتلاقت القوات المشتركة البريطانية والعربية مع مظاهرات تأييد وبهجة كبيرة. تابع نوري من خلال قوات عربية متاحة واندفع أبعد نحو الشمال، محتلاً محطة سكة حديد المسلمية حيث خطوط اسطنبول وبغداد تتصل مع الخط الرئيس عبر سوريا[26]. ما وراء ذلك تقع مواقع دفاعية منيعة على الحدود مع الأناضول والتي قام مصطفى كامل بتحضيرها، إن اختراق هذه الخطوط كان أبعد من قدرات البريطانيين والقوات العربية في منطقة حلب، لقد كانت هذه هي حدود التقدم العربي. عند ظهيرة 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، بعد هدنة مودروس[*]، هدأت القتال بين الحلفاء والسلطة العثمانية. أربعة قرون من الحكم العثماني للعرب والشرق الأدنى قد وصلت لنهايتها.

(*) وقّعت دول الوفاق المنتصرة (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا) هدنة مع الدولة العثمانية بتاريخ 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1918 في مدينة مودروس اليونانية، تمّ إيقاف القتال بموجبها، ونصّت على نزع سلاح الجيش العثماني وحقّ (الوفاق) على احتلال أي نقطة استراتيجية تهددها. (المُراجع).

نجت عاصمة فيصل دمشق من أضرار كبيرة، لكن الأنقاض والقمامة قد ملأت الشوارع. وقد تم إعادة تأسيس الخدمات الرئيسة ببطء، وذلك بعد الاستيلاء على المدينة. لكن أنظمة سكك الحديد، البريد، والتلغراف بقيت تحت سيطرة البريطانيين، الذين لم يكونوا مستعدين بعد لتسليم العناصر الرئيسة للبنية التحتية للاتصالات لإدارة لم تتم تجربتها. وبينما الحرب لا تزال مستمرة. كانت الأمور المالية أيضاً قائمة، والنفقات الشهرية للحكومة والتي كانت تقدر بشكل يتراوح بين 150 ألف إلى 200 ألف جنيه مصري (الجنيه المصري، كان العملة المصرّح لها بالتداول)، في حين لم يكن بوسع فيصل أن يتصرف إلا ببضعة آلاف من الجنيهات من الضرائب والتي قد تم جمعها للتو من قبل الأتراك[27]. أصبحت الحكومة العربية الآن مسؤولة عن الإدارة المدنية، الجيش، الشرطة، والجندرمة، بالإضافة إلى التكاليف المباشرة لغوث اللاجئين. أعداد هائلة من البشر قد شرّدتهم الحرب كانوا لاجئين في سوريا، مثل الأرمن، كان يتوجب دعمهم في تلك الأوقات الحرجة. لم يتحقق ذلك حتى شهر كانون الأول (ديسمبر) حيث تم تقديم دعم بريطاني بقيمة 80 ألف جنيه مصري، وبالكاد كان كافياً لسد أكثر الاحتياجات إلحاحاً للحكومة. إن الظروف المالية للحكومة العربية، واعتمادها على مصدر خارجي، وكذلك عائداتها المحدودة، كل هذا نشأ عنه مشاكل بقيت تطارد فيصل طيلة الوقت في سورية.

أمسك الركابي بصفته الحاكم العسكري بمقاليد الحكومة، وعمل تحت إشراف فيصل وأللنبي، الذي كان كلايتون يمثله مباشرة. لم يتدخل كلايتون في تفاصيل الأمور للحكومة، لكنه ركّز على الامور المهمة والعاجلة. إن رحيل معظم رؤساء وأقسام الحكومة المدنية التركية قد ألزم الحكومة الجديدة على تعيين عرب في مكانهم وبسرعة. لقد تم تعيين كادر جديد من المديرين العامين مكان الوزراء في اسطنبول حيث كان رؤساء الأقسام السابقين يقومون بإرسال تقاريرهم. لقد كانوا وبشكل أساسي عرباً سوريين أو فلسطينيين، كما ضمّت عدداً من العراقيين. أيضاً قاموا بتأسيس محكمة استئناف جديدة (محكمة نقض)، لكن العمل استمر وبشكل رئيسي بالقانون والهيكل القانوني العثماني القديم[28]. كما تم الاعتراف بحرّية التعبير والتجمع واحترامه، وتم تغيير لغة البلاد وبسرعة من التركية إلى العربية، وكان لا بد من تعليم الموظفين تدوين الوثائق الرسمية والمراسلات باللغة الجديدة[29].

تم استبدال ألقاب الحقبة العثمانية القديمة مثل، باشا، خواجا، وآغا رسمياً بمفردات عربية أبسط، وتعيين مجلس استشاري جديد يعتمد على عدد من الوجهاء من سوريا ولبنان ومن المسلمين والمسيحيين، وقد كُلّف بمراجعة واقتراح القوانين والأنظمة وذلك لدراستها من قبل الحاكم العسكري وبموافقة فيصل. كما تم حلّ الجيش الشمالي السابق واستبداله بجيش عربي جديد، بالاعتماد على عدد كبير من الضباط العرب الذين ظلوا مع القوات العثمانية في الأسابيع

الأخيرة، وكذلك بالطبع الضباط العرب في جيش فيصل النظامي. لقد تم تشكيل ثلاثة ألوية، مقرها دمشق، وحلب، ودرعا. ترأس ياسين الهاشمي المجلس للشؤون العسكرية، وتم تفويض الأمن الداخلي لضابط بريطاني من أصول عربية، الكولونيل (الذي أصبح لاحقاً جنرال) غابرييل حدّاد. وتم تعيين الحكّام الجدد للولايات بمن فيهم علاء الدين الدروبي حاكماً لدمشق. حيث ضمّ مجلس مدينة دمشق اثنا عشر عضواً، اثنان منهم من الطائفة المسيحية وواحد من الطائفة اليهودية. أما حلب، فبعد فترة قصيرة من وجود شكري الأيوبي كحاكم عسكري تم تسيير أعمالها وبشكل أساسي من مُعيّنين عراقيين، جعفر العسكري كحاكم عسكري، وناجي السويدي كرئيس إداري[30]. ونشأت أسس الدولة الجديدة بسرعة كبيرة، بالرغم من الصعوبات الهائلة في زمن الحرب وندرة المصادر والقوة البشرية.

لكن بذور التناقضات والمنافسات قد زُرعت أيضاً في هذا الوقت. كان فيصل يهدف إلى بناء دولة عربية وبكل ما في الكلمة من معنى، سواء أكانت دولة وحدوية أو كونفدرالية، ولكن كان عليه أن يتعامل مع الاعتبارات الإقليمية والمحلية، فقد كان هو نفسه حجازي وليس سوري. إن وضعه وخلفيته الخاصة، وكفاءته للحكم لا يمكن الاعتراض عليها، لكن التزامه بالقضية القومية العربية قد فرض عليه الاستفادة من جميع المواهب المتاحة في الولاية الجديدة، بمن فيهم أولئك الذين يكّنون عداوة للقضية القومية، وأن تكون لصالح السوريين عند منح فرص العمل في الحكومة الجديدة. إن عدد العراقيين، اللبنانيين، والفلسطينيين في المواقع الرئيسة في الإدارة والشؤون العسكرية قد تم قبوله في البداية كجزء من عملية بناء دولة عربية واسعة، ولكن مع الوقت أصبحت مصدراً للصراع بين «الأولوية السورية» والعروبة الشاملة[31]. في الوقت نفسه، وبالرغم من سلطة فيصل ونفوذه على الحكومة الذي اتضح في التطبيق، لكنه كان لا يزال خارج التركيبة الإدارية لمنطقة احتلال العدو الشرقية. إن الحكومة العربية ما تزال تدين بالفضل لجنرالات مقرات أللنبي، وفي التحليل النهائي كان على الركابي أن يقوم بإبلاغهم. إن هذا التدخل في السلطة في بعض الأحيان قد قاد إلى قلب قرارات الحكومة وذلك من قبل جنرالات مقر أللنبي، وفي مناسبات أخرى كانت الحكومة ملزمة بتنفيذ التوجيهات التي لم تكن من صنعها[32]، لقد كان الركابي مشرفاً قادراً، ولكنه رجل معقّد، وغالباً ما كان يقوم بتبديل ولاءاته. كانت علاقاته مع فيصل ودية إلى حد كبير وتعاونية، في الأقل عندما كان متواجداً في سوريا، ومعاً قاما بالموافقة على التعيينات الرئيسة في حكومة الجيش العربي. إن أصوله الدمشقية تعد ميزة هامة بالدرجة الأولى، وقد ساعدت على تهدئة الغمغمات المبكرة حول دور وسلطة الموظفين الحكوميين والذين هم من أصول غير سورية.

الحياة السياسية في الدولة العربية الجديدة

إنّ التزام فيصل بالقومية العربية كأيديولوجية سياسية كان لائقاً وملائماً إلى حدٍ ما. لقد كانت القومية العربية نفسها فكرة ناشئة وتراوح أتباعها عبر طيف كامل من الرأي السياسي. فمن ناحية هناك العرب الذين يمكن تبرير ثورتهم ضدَّ العثمانيين بسبب انتهاك الإمبراطورية للمعايير المفترضة للحكومة الإسلامية، مثل التخلي عن الشريعة، وهو واجب مو جه بصورة عامة ضدَّ المنادين بالوحدة. واستخدم حسين هذه الحجة وبشكل واسع لتبرير الثورة ضد الخليفة العثماني[33]. لقد تشكّلت رؤيته السياسية ضمن الأشكال الإسلامية التقليدية للدولة، لم يكن التفوق العربي شرطاً مسبقاً، بل كان محض صدفة، مثل الآخرين، ففي هذه الحالة، فشل الأتراك العثمانيون في الارتقاء إلى مستوى مسؤولية قيادة الدولة الإسلامية. كما أن ابنه عبد الله، كان يؤمن بصحة الأساس الإسلامي للحكومة، ولكن مع فارق أساسي وهو أن العرب، لكونهم عرباً، لهم الأولوية للعمل على إحياء الحكومة الإسلامية. كان القوميون العرب في تلك اللحظة تتداخل مفاهيمهم وبشكل وثيق مع فكرة أن العرب لديهم دور خاص ليؤدوه في إحياء الحكم الإسلامي، لقد كانوا هم الحاملين الأصليين للرسالة الإسلامية، وكانوا المسؤولين عن أول موجة انتشار كبيرة. وتأتي وجهة نظر «عبد الله» عن العرب ودورهم في وضع الإسلام في نفس قالب الإصلاحيين الإسلاميين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مثل، محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، وبالتوازي مع الكاتب السوري عبد الرحمن الكواكبي. في مؤلفه «أم القُرى»، تصور فيه الكواكبي إقامة خلافة مقرها مكة وتُقاد من العرب[34]. لكن وإن لم يكن فيصل علمانياً تماماً في النظرة فقد تفهّم القومية العربية أكثر من منظور عرقي وثقافي. هو لم يكن مدافعاً عن الوحدة السياسية لكل الشعب العربي، بل في الواقع كان منظوره السياسي في البدء بالكاد يبتعد عن الحجاز وسوريا الكبرى. لقد اختار القومية العربية كبرنامج سياسي مرضي وأداةً لكسب الدعم في مناطق تقع خارج تاريخه العائلي. في الوقت نفسه، فإنه لا مجال للشك في أن فيصل كان يؤمن، وبصدق، بتطلعات الاستقلال السياسي العربي، وهو مَيل تم تعزيزه خلال الثورة العربية، واستمرار عضويته في جمعية الفتاة كانت اختباراً لهذا. لقد فهم بأن أسس الحكم الشرعي للأراضي العربية في الشرق الأدنى بعد انهيار الدولة العثمانية قد انحرف بلا ريب عن مبدأ الأسرة الحاكمة الضيقة والصيغ التقليدية والدينية البحتة. لذلك كان ميله الطبيعي تجاه القومية البراغماتية والمعتدلة، تلطفها الحساسية تجاه علاقات القوة المحلية. بكل الأحوال، فإن هذا لم يكن يتجلى في رد فعله للأحداث والظروف في سوريا.

في بداية القرن العشرين كان تعداد سكان سوريا تقريباً مليون ونصف نسمة، وقد أصبحوا بشكل متزايد مجتمعاً متحضراً، وقد تسارعت هذه العملية خلال سنوات الحرب. كانت الغالبية

في البلاد من الطائفة المسلمة السُنّية، مع نسبة هامة من المسيحيين، وأقليات من الدروز والعلويين. والمسيحيون في سورية ليسوا مثل لبنان، فهم متواجدون في كل المناطق، على عكس الدروز والعلويين الموجودين في مناطق جغرافية محددة. كانت الغالبية من العرب السُنَّة من سكان الريف لديهم آراء سياسية سيئة التكوين أو لا توجد آراء سياسية. وهم في بعض المناطق، مثل حلب وحماة، كانوا مدينين لكبار المُلاّك. وبشكل عام، كان لديهم تفاعل ضئيل أو معدوم مع الدولة، ما عدا من خلال جامعي الضرائب، والسوق والتجنيد العثماني البغيض (سفر برلك). كانت النخب التقليدية بشكل أساسي في سوريا من جهة أخرى، من العائلات الثرية من مُلاّك الأراضي، أو المنتمين لسلالة دينية عريقة من علماء الدين والباحثين وكبار المسؤولين. قلة قليلة بقيت منجذبة بسبب مهنهم مع الجيش العثماني، مع استثناء لبعض الأعيان من المسيحيين المتمدنين، والأغلبية كانت من الطائفة السنية. وعلى الرغم من أنهم غالباً ما ينتقدون الحكومة العثمانية في السر، إلا أنهم كانوا مع ذلك يدعمون على نطاق واسع الحكم العثماني. ومع انهيار الإمبراطورية العثمانية أصبحت النخب التقليدية غير مقيدة وغير قادرة على التأثير في سياسات الحكومة الجديدة أو الدعوة بشكل واقعي إلى استعادة النظام القديم. بأي حال فإن الحلفاء لن يقبلوا بأي إعادة صياغة للدول العثمانية، ومصير سوريا ككيان منفصل عن تركيا قد تم حسمه.

لقد تم تقرير النظام الجديد في سوريا من قبل القوميين العرب. ينطبق لقب القومي العربي نفسه على مجموعة متنوعة. في عمقها كانت من أولئك الأعضاء الذين ينتمون للجمعيات السرّية ما قبل الحرب والذين هم الآن يحتلون المناصب العليا في حكومة فيصل. لقد توسعت مراتبهم بشكل هائل بانضمام الكثير من الأعضاء الجدد، والذين انضموا عن قناعة أو من منطلق نصفي. لقد كان لدى القوميين خلفيات متنوعة، لكن معظمهم جاء من خلفيات ثرية نسبياً وتتمتع بامتياز وتكون من ذوي الاحتراف، مثل الأطباء، المحامين، والصحفيين، ومعظمهم ممن تلقوا التعليم العالي إما من اسطنبول، بيروت، أو العواصم الأوروبية. ليس فقط من الدمشقيين ولكن سوريين آخرين وعرب غير سوريين قد انجذبوا نحو العاصمة الجديدة للقضية القومية العربية، وكان بعضهم موظفين عثمانيين في اسطنبول، أو من مكان آخر ضمن الإمبراطورية، البعض الآخر كان من الضباط الذين قد خدموا بإخلاص القضية العثمانية حتى النهاية. اختلط شيوخ العشائر بأعيان الولايات في دمشق، وكلهم يحاولون أن يجدوا بشكل أو بآخر دورهم في الدولة الجديدة. لقد كانت دمشق أيضاً مركزاً لأولئك الذين قد وقعوا في قبضة السلطات الاستعمارية في أماكن أخرى من المنطقة، فيما إذا كانوا لبنانيين وعلى خلاف مع الفرنسيين أو عراقيين على خلاف مع البريطانيين. إن دمشق كانت مدينة فيصل، وبلا شك، قلب حركة القوميين العرب، وبمثابة الكعبة الحقيقية للعرب، كما سمّاها أسعد داغر في مذكراته[35].

إلى حد كبير كان التجمع السياسي الأكثر أهمية في الحكومة العربية هو جمعية الفتاة التي تم إدخال فيصل فيها قبل الثورة العربية. لقد احتل اثنا عشر عضواً، بمن فيهم المسؤول العسكري الركابي، القائد الجديد للجيش العربي ياسين الهاشمي، وقائد الشرطة محمد التميمي، مواقع عليا في الحكومة. لقد كان خمسة من طاقم فيصل الشخصي، مثل عوني عبد الهادي، وسكرتيره الخاص رستم حيدر ونسيب البكري جميعاً أعضاءً في جمعية الفتاة. لقد وثق فيصل وسعى لأخذ النصيحة من أعضاء اللجنة المركزية للجمعية والعديد من المراقبين المعاصرين بالإضافة إلى المؤرخين اللاحقين. بالمختصر، فإن جمعية الفتاة بحقيقة الأمر قد تحكمت بالحكومة العربية. إن هذا الأمر حمل الجدل خطوة واحدة بعيداً جداً، إن العلاقات بين جمعية الفتاة والدولة العربية الوليدة قد ساعد وبكل تأكيد في جعل الجمعية هي الأكثر قوة والأفضل تمويلاً بين الأحزاب السياسية في دمشق، لكن في الوقت نفسه كان عليها أن تتحمل المسؤولية والنقد المستمر للقرارات السياسية والتي كانت أبعد من قدرتها على التحكم، كما كانت عرضة للانقسامات المنهكة بين أطياف قياداته [36]، كما عانت من ضعف القيادة وفي كثير من الأحيان من الشلل والفوضى والنقاشات الداخلية الحادة في جوهرها، لقد فشلت في بناء البنى الشرطية الضرورية لها، وذلك لإبراز قوتها بشكل فعال، سواءً داخل الدولة أو على نطاق أكبر، وفي تطوير إطار سياسة متماسك ومستدام، وذلك لمساعدة فيصل في تحديات الزمن. لم يحاول فيصل فرض رؤيته أو سيطرته وقيادته على جمعية الفتاة، لقد استخدمها أكثر كهيئة استشارية وداعمة ومجلس موثوق حتى نهاية عام 1919 عندما تدهورت علاقته مع الفتاة[37]. ووسّعت الجمعية هيكلها الإداري ليضم سيلاً من الأعضاء مما أضعف الروابط وبشكل كبير عن التي كانت موجودة عندما كانت مجموعة أصغر متماسكة. وفي اجتماع عُقد خصيصاً في دمشق في 17 كانون الأول (ديسمبر) 1918 والذي تضمن كل فروعها العربية، قامت بالتصويت للجنة مركزية جديدة، كما احتفظت بوضعها السرّي، وذلك في ضوء الظروف الحالية، لكنها قامت بتشكيل جبهة سياسية، حزب الاستقلال، ليكون بمثابة ذراعها العامة[38]. ومع مرور الزمن فإن شعبية حزب الاستقلال سوف تتفوق على المجموعة التأسيسية.

المجموعة السياسية الرئيسة الاخرى التي انبثقت في فترة ما بعد الحرب في الفترة الفيصلية في سوريا كانت حزب العهد. لقد تمكن هذا الحزب من إبقاء تركيبته حيّة خلال الحرب، وعلى عدد شخصياته الرئيسة الذين انضموا مع فيصل إما عند اندلاع الثورة أو قبل سقوط دمشق. لقد كانت السيطرة على حزب العهد من قبل ضباط عراقيين، كما كانت عضويتها محصورة وبشكل أساسي للعسكريين. إن بذور الانقسام بين الأعضاء السوريين والعراقيين قد كانت واضحة خلال الثورة، لكنها أصبحت واقعاً، وذلك بعد تأسيس الحكومة العربية في سوريا. لم تكن الانقسامات

بسبب المنافسات الإقليمية وحسب، ولكن تفاقمت أيضاً بسبب المسارات المتباينة بشكل متزايد والتي قام بأخذها السياسيون السوريون والعراقيون. لقد انقسم حزب العهد وبشكل أساسي إلى حزبين اثنين: حزب العهد السوري وحزب العهد العراقي. بعض الأعضاء السوريين والعراقيين من فترة حزب العهد ما قبل الحرب انضموا لحزب الفتاة، بينما الغالبية العظمى من أعضاء حزب العهد العراقي ركزوا اهتماماتهم ونشاطهم للتأثير على الأحداث في العراق(39).

العقدة الرئيسة الثالثة للنشاط السياسي في دمشق كانت النادي العربي، لقد تشكل النادي العربي إلى حدٍ ما على غرار نادي الأدب العربي «المنتدى» والذي كان ينشط في اسطنبول في سنوات ما قبل الحرب. لقد تم تنظيمه كنادي أدبي واجتماعي، وأحد مؤسسيه المسؤول العسكري الركابي، كما شغل منصب الرئيس الفخري الذي يُفترض أن يكون عربياً من حيث النطاق والطموح. لقد كانت منظمة سورية فعالة ويقع مكتبها الرئيس في دمشق والأفرع في حلب وحمص، وعلى الرغم من كونها سياسية في ميثاقها وأهدافها، إلا أنها سرعان ما اجتذبت القوميين المتطرفين والطموحين من مختلف الأنواع، لتصبح مركزاً لحركة القوميين العرب ومدرسة للوعي السياسي القومي(40). انطلقت معظم الاحتجاجات العامة من اجتماعاتها ودعواتها للخروج في المظاهرات.

إنّ أهمية هذا النادي هي أنه كان المركز الرئيس لحركة الوطنيين التي تعززت عندما طُلب من زوار أجانب مثل مارك سايكس وجوج بيكو وغيرترود بيل التحدث في اجتماعاته. لكن أنشطة النادي غالباً ما خرجت عن السيطرة، وقادت لأعمال شغب خطيرة، وحتى اضطرابات طائفية. لقد حاول فيصل أن يؤثر وحتى أن يتحكم بتوجهها، لكنه احتاج لها أيضاً لتكون انعكاساً للرأي القومي وحليفاً محتملاً في مناورته مع البريطانيين والفرنسيين.

حلب وإعلان الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر)

بعد أن استقر الوضع في دمشق إلى حد ما، قام فيصل بإرسال رسالة إلى أبيه، شارحاً له التطورات وبالتفصيل حتى تاريخه. وخلال هذا الوقت كان حسين قد تصالح مع حقيقة أن فيصل هو الذي كان عليه أن يتحمل عبء صنع القرار اليومي في سوريا، حتى مع احتمالية أن يقتطع فيصل لنفسه مجالاً خارج سيطرة وتأثير حسين المباشر. لقد كان فيصل حريصاً وبشكل دائم على الحفاظ بالظهور على أنه يتصرف بالنيابة عن والده، وفي بعض الأحيان كان يشير إلى سوريا في مراسلاته مع والده على أنها مملكة حسين. لكن مكانة حسين في سوريا وأراضي العدو المحتلة الشرقية لم يعترف بها الحلفاء صراحة. لقد كان يتم إعلامه بالتطورات في سوريا وبانتظام إما من خلال مراسلات فيصل أو في كثير من الأحيان بالتواصل مع وينغيت. لكن الأخبار وصلت إليه متأخرة، وأدرك أنه كان عليه التنازل عن سيطرة شبه كاملة على القرارات في سوريا لفيصل. أصرّ

الفرنسيون وبشكل مؤذٍ على دعوة حكومة فيصل العربية «حكومة الأشراف»، لقد تم تصميم هذا وذلك للتقليل من شرعيتها ولإثارة الشكوك داخل عقول النخبة السورية حول دورهم في دولة مُسيطر عليها من قبل دخلاء من الحجاز. لقد كان الاستنتاج الشائك أن أهل الحجاز كانوا من بيئة الصحراء المتخلفة، ومرتبطين مع البدو وكل ما هو رجعياً في الثقافة القبلية العربية، ولم يكونوا مؤهلين لحكم السوريين الذين يُفترض بأنهم أصحاب خبرة.

لقد وصفت رسالة فيصل لأبيه حالة التوتر مع الفرنسيين، وبعد ذلك مع البريطانيين، فيما يتعلق بمعاملة مندوبه شكري الأيوبي، وإنزال العلم العربي عن الأبنية الحكومية الرئيسة في لبنان. من الواضح أنه شعر بالمرارة من التجربة برمتها، وصبّ مشاعره على والده، لقد أظهرت رسالته شكّه الكبير وبغضه للفرنسيين ولسياستهم في سوريا ولبنان.

بالنسبة لفرنسا في بيروت، فقد حكمت باسمها بالرغم من تأكيدات أللنبي بأنه لن تكون هناك أسماء تعريفية للحكومات [السورية]. وقام سياسيوها بنشر الفكرة الفرنسية [بالسيطرة على سوريا ولبنان] والشعب فوق الأراضي [اللبنانية والسورية] منزعجين وبشدة [من التصرفات الفرنسية] وبالأخص المسلمين وقسم كبير من المسيحيين. إنهم يحملون مسؤولية البلد ومستقبله، هم يقولون بأن الشعب قد اختار مستقبله ولكن أنتم [عائلة الأشراف] قد وافقتم فرنسا وقمتم بتسليم الشعب لهم [الفرنسيون] بالإضافة إلى الساحل... أنا منزعج ولا أعرف ماذا أفعل. أنا أستطيع أن أقاوم فرنسا بالقوة، لكن اعتبار البريطانيين وخصوصاً القائد العام [أللنبي] وتصريحاته ووعوده قد منعتني من فعل ذلك... سأراقب الوضع... و[إذا كان ضروريا] سوف أقوم بترك موقعي الرسمي وأدافع عن شرفي الشخصي حتى ولو كنت وحيداً، إننا المسؤولون عن شعب هذا البلد. إننا نحن من أعطاهم الوعود بالأمن والتزامات محددة، ضمناها بحياتنا وشرف عائلتنا... فإما حياة مشرفة أو الموت! نحن لا يمكننا أن نسلّم الساحل السوري للفرنسيين... إذا تُرك الأمر لي، فإنني سوف أقوم بقتل أي أحد يريد أن يأخذ أرضنا ويدمرنا[41].

في 4 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، قام فيصل بجولةٍ في بلاده المحررة حديثاً، حيث كانت لديه الثقة الكافية بأن الوضع في سوريا بات مستقراً، وأنه قد حان الوقت لزيارة المدن الرئيسة الأخرى في سوريا، إذ كان لا بد من أن تتعرف عليه الجماهير بشكلٍ أفضل كما أنه كان بحاجةٍ للتعرف على القيادات والقضايا المحلية، وكان بحاجةٍ أيضاً إلى إظهار شعبيته لدى تلك الجماهير. كما حرصت حاشيته الشابة في دمشق على أن يقوم بجولةٍ في البلاد، حيث كانت حلب وجهتهم الرئيسة[42]، إذ أنها كانت المدينة الرئيسة في شمال سوريا، ولعلها أكبر من دمشق من حيث المساحة، وعاصمةً لإحدى الولايات العثمانية، وقد تم تنصيب شكري الأيوبي مؤخراً حاكماً عليها بعد الهزيمة في بيروت، وكان هذا من شأنه أن يوفر الذريعة لزيارة فيصل من الناحية الفنية.

لكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من السيارات المتاحة للقيام بالرحلة براً، فغادرت الحاشية قبل فيصل عبر طريقٍ متعرجٍ أخذهم عبر زحلة في سهل البقاع إلى حمص وحماة، ثم التقى الوفد مع فيصل في معرة النعمان قبل حلب. وكان فيصل نفسه قد تبعهم بسيارةٍ، برفقة الدكتور أحمد قدري، توجّه أولاً إلى حمص، حيث استقبلته عائلة العظم المرموقة. وكان الطريق إلى حمص مكتظاً بالمهنئين. وفي سهل البقاع، تم تزيين طريق رحلته بالكامل بالأعلام العربية. وفي حماة، محطته التالية، أقام حفل استقبالٍ جماهيري كبير، حيث استغل مناسبة تواجده هناك للضغط من أجل تحقيق معايير تعليمية أفضل وأكثر حداثة، وتمكن من جمع مبلغ كبير قدره 4000 جنيه، مضافاً إليه التزامه بمبلغ 8000 جنيهاً، لدعم الإصلاح التعليمي. وفي 6 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، دخل فيصل، برفقة أنصاره الدمشقيين، إلى حلب منتصراً، وخرجت المدينة كلها مساندةً له ومشيدةً به، وأمطرته بالماء المعطر والزهور[43]، وفي 11 تشرين الثاني (نوفمبر) ألقى أول خطابٍ سياسي بالكامل له في سوريا في قاعة النادي العربي في حلب، وكان ذلك الخطاب مهماً للغاية لأنه حدد لأول مرةٍ رؤية فيصل للدولة العربية المستقبلية، وفهمه لمعنى الوطنية والقومية العربية.

بدأ فيصل حديثه باستعراض قرون الحكم التركي وما دفع والده لإعلان الثورة، مكملاً بعدها:

«لقد رحل الأتراك عن أرضنا تاركين إيانا كالصغار، فليس لدينا حكومةٌ ولا جيشٌ ولا نظام تعليمي. والغالبية العظمى من شعبنا ليس لديهم فهمٌ للوطنية أو الحرية أو معنى الاستقلال ـ حتى النزر اليسير الذي يجب أن يعلموه... لهذا السبب علينا أن نجعلهم يفهمون نعمة الاستقلال... ونسعى لنشر التعليم، فلا يمكن لأمةٍ أن تستمر بدون تعليمٍ وتنظيمٍ ومساواة. أنا عربي ولا فضل لي على أي عربي آخر، ولا مثقال ذرة حتى... أناشد إخواني العرب مهما اختلفت طوائفهم أن يتمسكوا بعباءة الوحدة والوفاق، وأن ينشروا المعرفة، وأن يشكلوا حكومةً نفخر بها، لأننا إذا فعلنا ما فعله الأتراك [في سوء الحكم] فإننا سنرحل أيضاً عن هذه الارض لا قدّر الله. ولكن إذا تصرفنا بطريقةٍ مسؤولةٍ وواعية، فسيسجل التاريخ أعمالنا بفخر. أكرر ما قلته في كل مواقفي السابقة، كان العرب عرباً قبل موسى وعيسى ومحمد. وجميع الأديان تأمر [أتباعها] باتباع الطريق الحق وتوصي بالتآخي في الأرض، وكل من يزرع بذور الفتنة بين مسلمٍ ومسيحي ويهودي ليس عربياً. أنا عربيٌ قبل كل شيء. وأقسم بشرفي وشرف عائلتي وبكل ما أقدسه وأُجلُّه بأنني لن أصد أصحاب المظالم المشروعة بدون وجه حق، ولن أغفر لمن يبذرون الفتنة... العرب شعوبٌ متنوعةٌ تعيش في مناطق مختلفة، فالحلبي ليس مثل الحجازي ولا الدمشقي مثل اليمني. ولهذا السبب جعل والدي الأراضي العربية تتبع كل منها قوانينها الخاصة التي تتناسب مع ظروفها وشعبها... كان يجب أن نبدأ أولاً بتنظيم مؤتمرٍ يحدد هذه القوانين [دستور الدولة

العربية]، لكن العرب الذين يعيشون في الخارج الآن أفضل من غيرهم في صياغة مثل هذه القوانين، ولهذا السبب قمنا بتأجيل هذا الأمر إلى أن يجتمع المنفيون. فهؤلاء الموجودين في الخارج والذين أذكرهم هم أشخاصٌ أكفاء في صياغة القوانين الجيدة التي تتماشى مع روح هذه الأرض وخصال أهلها، وسوف يجتمعون في دمشق أو في أي مكانٍ آخر في العالم العربي من أجل مؤتمرهم[44]، أطلب من إخواني أن يعتبروني خادماً لهذه الأرض، فقد منحتموني ولائكم بكل صدقٍ وثقة، وفي المقابل سأقسم قسماً مغلظاً بأنني لن أتهرب من الدفاع عن الحقيقة ومحاربة الظلم وسأعمل بكل الطرق للسمو بمكانة العرب»[45].

لقد صِيغ خطاب فيصل بعناية، فكان موزوناً في نبرته، ومعتدلاً في افتراضاته الشخصية، وتنويرياً بالطرق التي تصورها للمستقبل وقد تلقاه الجمهور بشكلٍ جيدٍ للغاية، فقد حدد أسس القومية العربية الشاملة والمعتدلة التي من شأنها أن تشكل العمود الفقري لدولةٍ دستوريةٍ فيدرالية أو مجموعةٍ من هذه الدول المرتبطة بشكلٍ طليقٍ في كونفدرالية. كما حدد فيصل دوره ودور وعائلته الخاصين في النظام الجديد، لكنه استدرك ذلك بالإصرار على أن المكانة مقترنةٌ بالأعمال والنجاح، والولاء الذي افترض أن السوريين قد منحوه إياه لحكمهم مرهونٌ بأفعاله وأدائه.

وقبل أيام قليلة من ذلك، تلقى فيصل إشعاراً بإعلان أنغلو ـ فرنسي مهم بدا أنه وضع حداً لاتفاقية سايكس بيكو، وبرر الموقف العربي من مسألة الحكم الذاتي واستقلال الأراضي العربية عن الإمبراطورية العثمانية. وقد أشار إلى هذا الإعلان في مستهل كلمته ودعمه باستفاضةٍ. فقد اقتُرِحت بعض أشكال البيانات التي من شأنها تهدئة الرأي القومي العربي منذ شهر آب (أغسطس) 1918، حيث اعتقدت وزارة الخارجية أن ذلك سيهدئ المخاوف بشأن النوايا الحقيقية للحلفاء. وسار الفرنسيون على ذلك الأمر شكلياً، في الوقت الذي كان فيه مفوضهم السامي في بلاد الشام، فرانسوا جورج بيكو، الذي وصل بيروت في 6 تشرين الثاني (نوفمبر)، يطالب البريطانيين بتسليم كل سوريا إلى الفرنسيين. ومع ذلك، فقد تمت صياغة الإعلان بطرقٍ تحمل في طياتها، على الرغم من كونها قانونية، دلالةً قويةً على أن العرب سيُمنحون حق تقرير المصير. لكن كان هناك لدغةٌ في آخر الإعلان، فقد أعطت الجملة الأخيرة من الإعلان الحلفاء الحق في «ضمان عدالةٍ نزيهة ومتساوية للجميع؛ لتسهيل التنمية الاقتصادية للبلاد من خلال تشجيع المبادرات المحلية؛ ووضع حدٍ للانقسامات التي اسُتغلت طويلاً من قبل السياسة التركية»[46]. وبالطبع، وراء «المهام» التي ادعاها الحلفاء لأنفسهم، يمكن تصور جميع أشكال الحكم المباشر وغير المباشر. وقد غابت هذه الفروق الدقيقة على الجماهير في البلاد العربية، وكانت هناك مظاهراتٌ كبيرةٌ دعماً للإعلان، بما في ذلك في بيروت ودمشق، حيث اعتقد الناس أن اتفاقية

سايكس بيكو قد انتهت أخيراً وأن الحلفاء مصممون على منح حق تقرير المصير للعرب، وإلا فلماذا يتم إصدار مثل هذا الإعلان التأكيدي لما كانت الحرب قد انتهت بالفعل ولم تكن هناك حاجة للمراوغة بشأن نوايا الحلفاء؟[47]

التحضيرات لمؤتمر باريس للسلام

تزامنت جولة فيصل في شمال سوريا مع تطورات مهمة كانت تشهدها لندن، من شأنها أن تؤثر على مجريات الأحداث في بلاد الشام. فقد وصل لورنس إلى لندن في الأسبوع الأخير من تشرين الأول (أكتوبر)، وبعد فترة راحة قصيرة بدأت جولة من الاجتماعات مع كبار المسؤولين. وكان من الواضح بشكل متزايد في وايتهول[*] أن اتفاقية سايكس بيكو لم تكن قابلة للتطبيق من الناحية العملية، ولكن كان هناك حدٌّ لمدى استعداد البريطانيين للمضي في مواجهة الفرنسيين بشأن هذه المسألة. فقد كان الموقف الفرنسي بسيطاً وواضحاً: لقد كانت اتفاقيةً جرى إبرامها في زمن الحرب، والآن انتهت الحرب ومن الضروري الالتزام بشروطها. كتب السير جورج ماكدونو من مكتب الحرب، والذي كان متأثراً بشكل كبير بلورنس، مذكرة مفصلة بتاريخ 28 تشرين الأول (أكتوبر) 1918، يحدد فيها أسباب رفض الاتفاقية. وقد تم توجيه المذكرة إلى أعلى لجنةٍ لصنع السياسة في وزارة الحرب، تتعامل مع شؤون الشرق الأدنى، اللجنة الشرقية، برئاسة اللورد كرزون. وعرض ماكدونو في المذكرة تسع تطورات، بدءاً من اندلاع الثورة العربية، وغزو بريطانيا لفلسطين وسوريا دون أي دعم من الفرنسيين ولكن بمساعدة كبيرة من العرب، إلى دخول الولايات المتحدة في الحرب، وإدانة المعاهدات السرية وإعلان ويلسون عن حقوق الشعوب في تقرير المصير. ودعا ماكدونو إلى تمثيل العرب في مؤتمر السلام على قدم المساواة مع الأطراف المتحاربة الأخرى، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، كما اقترح تقسيم بلاد ما بين النهرين إلى منطقتين: شمال بلاد ما بين النهرين تحت قيادة الأمير زيد، وجنوب بلاد ما بين النهرين تحت قيادة الأمير عبد الله، وتبقى سوريا تحت سيطرة فيصل وتضم ساحل البحر الأبيض المتوسط من طرابلس إلى طرسوس، وتبقى بريطانيا كقوة متفوقة، في حين سيبقى النفوذ الفرنسي في لبنان وفي جيب حول الإسكندرونة.

في اليوم التالي خاطب لورنس اللجنة الشرقية شخصياً. وقد أوجز عدداً من المواقف فيما يتعلق بتقسيم الأراضي العربية في الشرق الأدنى والتي تابعت بدقة ملاحظة ماكدونو السابقة.

(*) هو الطريق الرئيس في مدينة ويستمنستر وسط لندن، ويُطلق عليه تاريخياً في كثير من الأحيان اسم (وايت هول) كنايةً للإدارة الحكومية البريطانية الشاملة، فضلاً عن كونه اسم جغرافي للمنطقة المحيطة بالدوائر الحكومية والوزارات والبرلمان «مركز حكومة صاحبة الجلالة». (المُراجع).

ثم طلب كرزون من لورنس أن يضع أفكاره بشكل أكثر رسمية في مذكرة إلى اللجنة الشرقية. وطلبت اللجنة الشرقية أيضاً إفادات رسمية حول قضايا الشرق الأدنى من أرنولد تالبوت ويلسون، القائم بأعمال المفوض المدني في بلاد ما بين النهرين، ومن السير آرثر هيرتزل من مكتب الهند. كان تركيز هيرتزل الرئيس على بلاد ما بين النهرين ودعت مذكرته إلى تحويلها إلى مستعمرة افتراضية يديرها مكتب الهند(*). وقد رفض دعوة لورنس لتقسيم بلاد ما بين النهرين. كما أنه لم يكن متعاطفاً مع قضية الأشراف وجميع المطالب القومية العربية، بالإضافة إلى موقف فيصل تجاه الفرنسيين في سوريا. وقد قدم ديفيد جورج هوغارث من المكتب العربي في القاهرة والجنرال كلايتون المزيد من المساهمات في صنع السياسات. وبصرف النظر عن مكتب الهند، فقد كان هناك شبه إجماع بين أولئك الذين اضطروا للتعامل مع «المسألة العربية» بأنه لابد من تعديل اتفاقية سايكس بيكو أو التخلي عنها بشكل جدي، ويجب تشجيع ودعم حكومة فيصل في دمشق، ويجب أن تمتد أراضيها لتشمل الشريط الساحلي الممتد من طرابلس شمالاً، بينما يجب أن تقتصر الطموحات الفرنسية على لبنان. جاء الرد الفرنسي على شكل مذكرة طويلة من وزير خارجيتهم ستيفن بيشون. «لم تكن [فرنسا] مستعدة في أي وقت، سواء في دمشق أو حلب أو في الموصل، للتنازل بأي شكل من الأشكال عن الحقوق التي تتمتع بها من خلال اتفاقية عام 1916، مهما كانت الترتيبات المؤقتة التي دعا إليها الوضع العسكري العابر» (49). فكان البريطانيون في موقفٍ غير مريح باضطراد حيث اضطروا إلى وضع سياسة تناسب مصالحهم، وتهدئ الفرنسيين وتلبي الحد الأدنى من مطالبهم، وتكون مقبولة لدى حلفاء بريطانيا العرب.

كان موعد مؤتمر باريس للسلام يقترب بسرعة، وبرزت قضية التمثيل العربي إلى الواجهة. كان البريطانيون حريصين على رؤية العرب في مؤتمر السلام، ليكونوا بمثابة ثقل موازن للمطالب الفرنسية ولإضفاء بريق التأييد الدولي على أي صفقة قد تظهر وتؤثر على الأراضي العربية. وفي أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، أرسلت وزارة الخارجية برقية إلى أللنبي ووينغيت وكلايتون تسأل عما إذا كان الوقت مناسباً لدعوة الملك حسين إلى مؤتمر السلام الذي سيبحث في قضية الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية. كان التفاهم أن يرشِّح الحسين من ينوب عنه ويمثل القضية العربية في المؤتمر. اتفق كل من أللنبي ووينغيت على وجوب توجيه مثل هذه الدعوة، واتفقا على أن فيصل هو أفضل شخص للقيام بمثل هذه المهمة ورئاسة البعثة العربية.

(*) مكتب الهند، مكتب وزارة الهند أو مكتب الهند اختصاراً: خضعت الهند لحُكم التاج البريطاني مباشرةً عقب انتفاضة 1857 ـ 1858. وتم تأسيس مكتب الهند التابع لوزارة الخارجية (1858 ـ 1947) وفق قانونٍ جديد يمنح صلاحيات مطلقة في المجالات كافة لما يُسمى بـ(وزير الدولة لشؤون الهند)، يعمل كحلقة وصل بين لندن وحاكم الهند العام أو نائب الملك فيما بعد، ويعمل مستقلاً عن وزارة المستعمرات. (المُراجع).

وفي 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، أرسل لورنس برقية إلى حسين أبلغه فيها أن المحادثات المتعلقة بالقضايا العربية من المحتمل أن تُجرى في باريس في غضون خمسة عشر يوماً. «أرسل الجنرال أللنبي رسالة تلغراف مفادها أنك تريد أن يكون لديك ممثل هناك. فإذا كان الأمر كذلك، أتمنى أن ترسل فيصل، لأن انتصاراته الرائعة أكسبته شهرة شخصية في أوروبا مما سيجعل نجاحه أسهل. وإذا وافقت، أرجو أن تبعث ببرقية له للاستعداد لمغادرة سوريا على الفور لمدة شهر تقريباً. «كما طلب لورنس من حسين إخطار الحكومات البريطانية والفرنسية والإيطالية بأن فيصل سيتوجه إلى باريس كممثل له[50].

تلقى فيصل برقية من حسين تأمره بالمغادرة إلى باريس في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) بينما كان لا يزال في حلب. وقد استمر حسين بالاعتقاد بأن أفضل سياسة للعرب في أي اجتماع دولي هي الالتزام الوثيق بالخط السياسي البريطاني حيث ألزمهم بوعودٍ ظنها، وبكل جوارحه، وعوداً راسخة بالاستقلال وبإقامة دولة عربية. وجاء في البرقية: «طلبت بريطانيا العظمى حليفتنا الوفية حضور [فيصل] كممثل للمصالح العربية... ونظراً لأن صلتنا الوحيدة هي بالقوة البريطانية ـ فليس لدينا علاقة أو لم تجمعنا مناسبة أخرى مع الآخرين... يجب نقل جميع ملاحظاتك إلى قادتهم وممثليهم الموقرين، سواءً كانوا زملاءك في المؤتمر أو مسؤوليهم المعينين. وعليك أن تلتزم بما يطلبون منك أن تفعله أو تقوله، سواء في الاجتماع أو في مكان آخر، وتجنب كل شيء آخر. هذا هو حد صلاحياتك المسموح بها خلال الاجتماع». لقد كانت صلاحيةً ضيقة، بل ومقيدة، لكن فيصل قبلها واستعد للمغادرة إلى أوروبا. أما ما إذا كان سيعد نفسه ملزماً بالشروط المهينة إلى حد ما، والتي تمنع أي مبادرة أو حكم من جانبه، فهذا يعتبر مسألة أخرى.

وقبل مغادرته حلب، طلب فيصل من والده إرسال عبد الله لينوب عنه في غيابه، لكن عبد الله لم يكن جاهزاً لذلك، لأنه كان لا يزال منخرطاً في حصار المدينة. فقد استمر القائد العثماني فخري باشا في الصمود ورفض الاستسلام لقوات الحسين على الرغم من «هدنة مودروس». ولم يقر فخري بأن محاصريه كانوا مقاتلين شرعيين، ولن يستسلم إلا بناء على تعليمات مكتوبة من السلطان نفسه. ولم يمضي سوى ثلاثة أشهر حتى استسلمت المدينة[51]. ومع ذلك، تقدم فيصل على الفور إلى بيروت، مسافراً عبر حمص وطرابلس. وكانت تلك أيضاً مناسبة له لإظهار شعبيته في المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية. ففي طرابلس استقبله مفتي المدينة عبد الحميد كرامي وقادة آخرون. وشدد جميع كبار الشخصيات في خطابات الترحيب على ارتباط طرابلس ببقية سوريا. كما أعطوه الحق في تمثيلهم في أوروبا، ووصل إلى بيروت في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، حيث قابلته الجماهير بحماسة شديدة، وخرج شباب المدينة بقوة وسحبوا عربته بأجسادهم في شوارع المدينة على صيحات «ما بنرضى غيرك سلطان» و«لا نرضى إلا

العربي». كان الضابط البريطاني المسؤول، السير إدوارد بولفين، الذي كان مسؤولاً عن ترتيبات سفر فيصل إلى أوروبا، هناك أيضاً لاستقباله. ولكن، في إشارة إلى المشاعر الفرنسية تجاهه، أوقفت القوات الفرنسية سيارة فيصل التي كانت ترفرف عليها رايته، وتعرض سائقه للمعاملة السيئة، ولحسن الحظ لم يكن فيصل في السيارة في ذلك الوقت.

كان فيصل متخوفاً من رحلته إلى أوروبا، خاصة أنها جاءت في وقت حرج في الشأن السوري. وكان قد كتب إلى أللنبي في 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 احتجاجاً على الأنشطة الفرنسية مثل حظر الاجتماعات الأدبية والقيود الصارمة على الصحافة، ولكنه عبّر في رسالة ثانية إليه بعد ذلك بوقت قصير، عن قلقه من المغادرة في مثل هذا المنعطف المهم لحضور مؤتمرٍ تمهيدي. فقد كان عملاء سريون للفرنسيين قد أبلغوا شيوخ منطقة حوران الدروز بتوقع الحماية الفرنسية. فكتب إلى أللنبي قائلاً: «لا يمكنني البقاء لأرى بلادي وهي تضحي من أجل طموحات أمة لا أعتقد أن مصالحنا تهمها»(53). لم تكن إدارة البلاد قائمة بعد، وواجهت تحديات هائلة من حيث الأمن والموارد والحفاظ على القانون والنظام. كما طرح فيصل أيضاً مسألة كيفية تنفيذ بعض شروط الإعلان الأنغلو ـ فرنسي. وتساءل بالأخص عن كيفية استطلاع آراء شعوب الأراضي العربية، وللمرة الأولى، أُثيرت إمكانية أن تكون الولايات المتحدة حكماً محايداً في تحديد مستقبل الأراضي العربية. حيث أمل فيصل أن تتمكن دولة متحالفة غير منحازة «مثل الحكومة الأمريكية الليبرالية والعادلة» من استطلاع الرأي في كل من سوريا ولبنان(54).

وقبل يوم من مغادرته إلى أوروبا، وجّه فيصل خطاباً إلى والده يصف استقباله في بيروت وأفكاره حول السياسة تجاه الحلفاء قائلاً:

«لقد خرج سكان بيروت، لا سيما مسلموها، بأعداد كبيرة. لقد تظاهروا بطرق لا أستطيع وصفها، حتى عندما وضع الحاكم الفرنسي عقبات في طريقهم ومنع جميع التظاهرات... [حماسهم] وما رأيته من التزامهم بعرش جلالة الملك يتجاوز أي وصف يمكنني تقديمه. الفرنسيون هنا ضدنا بشدة [أسرة الأشراف]، وهم ضد الفكرة العربية وحتى ضد حلفائهم البريطانيين. وضعنا في الداخل مضطرب للغاية ولا أعرف ماذا سيحدث بيننا في فرنسا. وأعتبر أن البريطانيين مستعدين جداً لتقديم الدعم والعون. رفضت كل المساعدة الفرنسية لأنني رأيتهم طامعين في احتلال أراضينا. يجب أن تكون روابطنا مع إنكلترا قاطعة، فلا سبيل للعرب إلا في الصمود والولاء لهم [البريطانيين]. لا أعرف ما إذا كان ما يفعله البريطانيون هو مجرد أهداف سياسية أم أنه حقيقي، ولكن مهما كان الأمر، علينا أن نلتزم بسياساتهم لأن مصالحنا تتشابك مع مصالحهم. لقد أمرني جلالة الملك [الحسين] بالانتقال إلى المؤتمر وأطعت الأمر على الرغم من تحفظاتي الكبيرة. إنني أمضي دون أن أعرف ما هي الأسس التي أسير عليها. لا شك في أن الفرنسيين سيطالبون بحقوقهم في البلاد ويدّعون أن

المسيحيين يرغبون في الانضمام إلى فرنسا. سيتعيّن علينا تنظيم استفتاء لإثبات أن البلد معنا... لكن المسيحيين منقسمون إلى ثلاثة أقسام: الروم الأرثوذكس معنا بكل معنى الكلمة، ويمكنك اعتبارهم [في دعمهم] كما المسلمين. والبروتستانت والكاثوليك [اليونانيون] مترددون ويطالبون بأن تكون أي حكومة تحت إشراف دولي. والموارنة ـ في الواقع سكان [جبل] لبنان ـ هم أساساً مع فرنسا. السوريون عموماً بنسبة 80% ـ أو حتى 90% ـ معنا... سأعرض على إنكلترا تحالفاً نهائياً بينها وبين العرب، بشرط إلا تتدخل أي قوة أجنبية أخرى معنا. وبهذه الطريقة نضمن للبريطانيين جميع مصالحهم... وسنطلب منها كل ما ينقصنا من مستشارين ومسؤولين وأموال وسلاح بشرط إلا نفقد ذرة من استقلالنا وأن نكون أمة تحكم نفسها بنفسها... أنا متأكد من أنني سأكون قلقاً أثناء إقامتي في باريس لأن الحكومة [في سوريا] لم يتم تنظيمها بشكل صحيح بعد... لكن وجود زيد هنا [الأمير زيد الذي تم اختياره نائباً عن فيصل] يمنحني بعض راحة البال»[55].

إن وجهات النظر التي يعبّر عنها فيصل في هذه الرسائل هي آراءٌ لشخص كان أكثر حكمة بكثير مما توحي به سنواته الخمس والثلاثين. كانت هذه أول رحلة لفيصل إلى أوروبا الغربية، لكنه كان يحمل وجهات نظر كانت أكثر ليبرالية واستيعاباً مما أراد الفرنسيون إظهاره للآخرين عنه، أو التي كان يتبناها مسؤولوهم. لم يكن هناك تلك الصورة الكاريكاتورية للمتعصب الديني التي شغف الفرنسيون في رسمها عن أشراف مكة. ومن اللافت للنظر أن فيصل لم يكن لديه أي شعور بالتعصب الديني أو العنصري وكان يحترم فطرياً المثل الديمقراطية والحاجة إلى إقرار شعبي للحكم العربي. كما كان يؤمن إيماناً راسخاً بفكرة الاستقلال التام، لكنّ رؤيته الواقعية بعدم إمكانية تحقق ذلك دون التحالف مع قوّة عظمة وحمايتها قد حدّ من إيمانه. كما ورأى في بريطانية العظمى مثال القوة التي يجب احتذائها والتي يمتلك العرب أفضل الفرص للتحالف معها.

تأخرت السفينة التي تقل فيصل إلى أوروبا بعض الشيء، وتوجه فيصل إلى دمشق، حيث أعطى تعليماته للشاب زيد الذي كان سينوب عنه في غيابه. وفي 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، استقل فيصل الطراد البريطاني الصغير HMS جلوستر، مبحراً من بيروت إلى مرسيليا. ورافقه مساعده في المعسكر نوري السعيد، ورئيس وزرائه رستم حيدر، وسكرتيره الشخصي فائز الغصين، ورفيقه الخاص تحسين قدري، والدكتور أحمد قدري طبيبه ومستشاره الخاص. وكان هؤلاء المستشارون والأصدقاء الأكثر ولاءً لفيصل من غير الحجازيين، وكان من بينهم عراقي وسوريان ولبناني وفلسطيني. كان يخطط لزيارة قصيرة لا تتجاوز أسابيع قليلة. فقد كتب له لورنس في وقت سابق أنه يتوقع أن يقضي حوالي ستة أسابيع في أوروبا، وأن يأتي «مرتدياً ملابس عربية»، فمن المفترض أن يبرز بين حشد من كبار الدبلوماسيين والضباط ورجال الدولة الذين يرتدون المعاطف مشقوقة الذيل، حيث كان يستعد للقائهم.

هوامش الفصل التاسع

1 ـ مكتب الحرب إلى القيادة العامة في مصر، تيليغرام 67558، 1 تشرين الأول 1918. مكتب الحرب 37/960، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، الحاشية 74، ص 108.

2 ـ المرجع نفسه.

3 ـ السير أرشيبالد ويغل، أللنبي: دراسة في العظمة، جورج. ج. هاراب، لندن، 1941.

4 ـ أللنبي إلى مكتب الحرب، EA 1808، 23 تشرين الأول 1918، وزارة الخارجية 371/3384، اقتبسها مالكولم. ب. رسل، مرجع سابق، ص 214، الحاشية 46.

5 ـ السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 96.

6 ـ مأخوذة من أبي خلدون ساطع الحصري، يوم ميسلون: صفحة من التاريخ الحديث للعرب، ترجمة سيدني غلازير، معهد الشرق الأوسط، واشنطن، العاصمة، 2004، ص ص 101 ـ 102.

7 ـ مالكولم. ب. رسل، مرجع سابق، ص 18.

8 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 397. تم إبراق ألوان العلم من بيروت إلى دمشق، وتم رفعه من قبل فاطمة المحمصاني، أخت اثنين من الذين شنقهم جمال باشا. أنظر: خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 57.

9 ـ إنه غير واضح إذا ما كان شكري قد تم إيفاده من قبل فيصل بمحض إرادته أو نتيجة للمناشدات من داعمي فيصل في بيروت. أنظر: زين. ن. زين، الصراع الدولي، ص ص، 78 ـ 79.

10 ـ رستم حيدر، مرجع سابق، ص ص 191 ـ 193.

11 ـ زين. ن. زين، الصراع الدولي، ص ص، 83 ـ 85.

12 ـ المرجع نفسه، ص 220، الحاشية 3، وص 83.

13 ـ اقتبسها مير زمير، مرجع سابق، ص 51.

14 ـ جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص ص 569 ـ 570، مقتبساً في رسالة لورنس إلى يل في 22 تشرين الأول 1929.

15 ـ تتضمن مذكرات حيدر نسخة طبق الأصل من التعليمات الأصلية المعطاة لحيدر وشكري الأيوبي من قبل الركابي. على أية حال، حيدر لا يتحرك بدون إذن صريح من فيصل.

16 ـ عيّن الفرنسيون بالفعل فرنسوا جورج بيكو كمفوض سامٍ لفلسطين وسوريا، ولكنه لم يصل إلى مكان الحدث بعد.

17 ـ مير زمير، «فيصل والتساؤل اللبناني، 1918 ـ 1920»، دراسات شرق أوسطية، المجلد 27، رقم3 (تموز 1991)، ص ص 404 ـ 406.

18 ـ تعرف بالانفصال الفرنسي لفلسطين وسوريا.

19 ـ مير زمير، «فيصل والتساؤل اللبناني»، ص 406؛ خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 58.

20 ـ كلايتون إلى وزارة الخارجية: FO 3384/371، 171564/747، رقم115، 12 تشرين الأول 1918، اقتبسها مير زمير، «فيصل والتساؤل اللبناني»، الحاشية8، ص 423.

21 ـ وزارة الخارجية 3584/371. fo 221، اقتبسها جيريمي ولسون، مرجع سابق، ص 571.

22 ـ سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 221 ـ 222، اقتبسها من وثائق أمير زيد.

23 ـ وزارة الخارجية 3384/371، كلايتون إلى وزارة الخارجية، 20 تشرين الأول 1918، اقتبسها مير زمير، «فيصل والتساؤل اللبناني»، ص 407.

24 ـ لورد بيرد وود، مرجع سابق، ص 91.

25 ـ يروي صبحي العمري، الذي كان في الحملات الأخيرة للجبهة السورية، عندما تم الدخول إلى حلب، حيث تحرك هو وكتيبته نحو فندق البارون الذي يشكل مقر الجيش التركي وعندما كان يحض لوضع الرشاش أمام الفندق رأى سيارة تمر بسرعة والتي كانت تنقل مصطفى كمال قائد القوات التركية في حلب مع عناصره. ولو أن العمري وصل قبل عدة دقائق لكان باستطاعته القبض على كل القيادة في حلب! صبحي العمري، المعركة، المجلد3، ص ص 311 ـ 312.

26 ـ المرجع نفسه، ص 93.

27 ـ وزارة الخارجية 37 /3364، كلايتون إلى وزارة الخارجية، 24 تشرين الأول 1918، اقتبسها مالكولم. ب. رسل، مرجع سابق، ص 214، الحاشية 54.

28 ـ يوسف حكيم، ذكريات.. سورية والعهد الفيصلي، المجلد3، دار النحاس، بيروت 1986، ص ص 35 ـ 45.

29 ـ أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 120.

30 ـ يوسف حكيم، مرجع سابق، ص ص 36 ـ 37.

31 ـ مثلاً نائب الحاكم العسكري عادل أرسلان كان من لبنان؛ نوري السعيد، جعفر العسكري، وياسين الهاشمي، كلهم عراقيون، هم مستشارون عسكريون، المستشار العسكري وقائد الجيش. وعلى التوالي سعيد شقير، وهو مسيحي من بيروت، كان رئيس الشؤون المالية؛ اسكندر أمون، مسيحي من جبل لبنان كان مديراً للعدل.

32 ـ مثلاً، على المسافرين إلى سوريا أن يتلقوا إذناً مسبقاً من البريطانيين، في الواقع من أجل منع أولئك الذين تكون تصرفاتهم وكلامهم معادية لمسار الحلفاء. أنظر: خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 62.

33 ـ أنظر: سي. إرنست داون، مرجع سابق، ص ص 69 ـ 86.

34 ـ في الحقيقة إن الشاعر والكاتب من العصر الفيكتوري ويلفريد بلنت، منذ عام 1882، قد دعا في وقت سابق إلى مثل هذا المسار. أنظر: ويلفريد بلنت، مستقبل الإسلام، ننساتش بابليشر، دبلن، 2007.

35 ـ أسعد داغر، مرجع سابق، ص 106.

36. محمد عزت دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، المطبعة العصرية، صيدا، 1950، ص 86 ـ 87.

37. المرجع نفسه، ص 80 ـ 86.

38. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 66 ـ 68.

39. محمد عزت دروزة، مرجع سابق، ص 88 ـ 89.

40. أسعد داغر، مرجع سابق، ص. 107.

41. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 220 ـ 21. الرسالة غير مؤرخة، ولكن من المحتمل أنها كتبت في منتصف تشرين الأول (أكتوبر) 1918.

42. أحمد قدري، مرجع سابق. مرجع سابق، المجلد. 1، ص 84 ـ 85.

43. المرجع نفسه، ص. 85.

44. كانت هذه هي المرة الأولى التي طُرحت فيها فكرة المؤتمر الدستوري لكامل الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية.

45. النص الكامل لخطاب فيصل مأخوذ من أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 3 ـ 8؛ أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 1، ص 86–87.

46. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 581، الحاشية 36، ص 1111.

47. أرنولد ويلسون، بلاد ما بين النهرين، 1917 ـ 1920، مطبعة جامعة أكسفورد، أكسفورد، 1931، ص 102 ـ 103.

48. جيرمي ويلسن، مرجع سابق، الحاشية 18، ص 1110.

49. المرجع نفسه، الحاشية 41، ص 1111.

50. محمد عزت دروزة، مرجع سابق، ص 415 ـ 416.

51. إيلي كدوري، «استسلام المدينة»، ص 124 ـ 43. كان رد فخري القاسي على حسين عندما طُلب منه الاستسلام: «أرجو منك إلا تزعجني بطلبات غير مجدية».

52. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 1، ص 90.

53. اللورد بريدوود، مرجع سابق. ص 103.

54. فيصل إلى أللنبي، رسالة 19 أكتوبر / تشرين الأول 1918، فو 438/141، مقتبس في مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص. 217، الحاشية 29.

55. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 244 ـ 45.

الفصل العاشر: الخُطى الأولى في أوروبا

توجَّه فيصل إلى أوروبا وهو على موقفه، والغموض يكتنف هدف زيارته، اذ وافق على مضض على السفر بدعوى حضور مؤتمرٍ تمهيديٍّ حول سوريا والأراضي العربية المحتلة الأخرى، لكن سرعان ما بدَّلت مجريات الأحداث ذلك، فقد تم تحديد مكان انعقاد مؤتمر السلام وكان قادة الحلفاء يستعدون للاجتماع في باريس في غضون أسابيع قليلة، وأضاف الوصول الوشيك للرئيس وودرو ويلسون إلى أوروبا لإطلاق مؤتمر السلام بُعداً جديداً مهماً للقضايا الشائكة في الشرق الأدنى. كما اتفقت اللجنة الشرقية، التي اجتمعت في اليوم الذي أبحر فيه الطَّرّاد جلوستر، على أن حضور فيصل إلى مؤتمر السلام كان ضرورياً لإقناع الأمريكيين بقبول المطالب البريطانية في فلسطين وبلاد ما بين النهرين، حيث سيضيف ذلك العربي المرموق قدراً كبيراً من الأهميةً إلى حجتهم إذا ما اعتُبِر أنه يؤيد أحقية البريطانيين في هذين البلدين. وفي المقابل، سيضطر الأمريكيون أيضاً إلى ملاحظة الاعتراضات العربية على السيطرة الفرنسية على سوريا. إلا أن الفرنسيين كانوا غاضبين من أن فيصل بدأ رحلته دون إخطارهم بمهمته المزمعة، وقد زاد التضارب في تدفق البرقيات بين كلٍّ من لندن والقاهرة وجدة من حدة الارتباك تلك.

الأيام الأولى في فرنسا

لم يتم إخطار الفرنسيين رسمياً من قبل وزارة الخارجية بوصول فيصل، إلا عندما كان الطراد جلوستر على وشك الوصول إلى مرسيليا. وقد كانوا يعرفون جيداً موقف فيصل من أطماعهم، فكان وجوده في أوروبا كمدافعٍ عن استقلال سوريا أمراً غير مرحبٍ به، فضلاً عن أنه قد أصبح الآن قادراً على التأثير على لاعبٍ جديدٍ مؤثر في التسوية في الشرق الأوسط وهو الولايات المتحدة. لكن لم يكن بوسعهم عمل الكثير الآن لمنع زيارته، فقد أضحت أمراً واقعاً، لذلك سارعوا لاحتواء تلك الزيارة وإدارة نتائجها، فاتفقوا على استقباله كقائدٍ عسكريٍّ بارز وابن ملكٍ صديقٍ وحليف، وليس كممثلٍ دبلوماسيٍّ رسميٍّ لوالده، وعلى أن يتضمن خط سير رحلته زيارةً إلى باريس وإلى ميادين القتال في شمال فرنسا.

كانت الرحلة من بيروت إلى مرسيليا قصيرةً وهادئة بكل المقاييس، وأثناء رحلته على متن الطرَّاد حافظ فيصل على لباقته وتبادُل المجاملات كأميرٍ عربي مسلم، فرفض تناول

الكحول ولم يسمح بتقديمه على طاولته[1]. رسى الطرّاد جلوستر في مرسيليا في 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، وكان في استقباله إيمانويل برتراند، المسؤول الفرنسي المتقاعد في السلك الدبلوماسي، بموجب تعليماتٍ صارمة للالتزام بجدول الزيارات والمناسبات غير الضار، فلم تكن هناك مناقشات سياسية جوهرية مع فيصل، وكان على برتراند أن يرافق فيصل خلال إقامته المؤقتة المخطط لها في فرنسا ويمنعه من التوجه مباشرةً إلى إنكلترا. كانت وزارة الخارجية تفضّل إلى حدٍّ كبير إلا تطول إقامة فيصل في فرنسا، لكن برتراند راوغ بدهاءٍ محاولات المسؤولين البريطانيين لوضع فيصل على متن قطارٍ متجهٍ إلى باريس ثم لندن. وفي هذه الأثناء، كان لورنس قد وصل إلى مرسيليا بعد ساعاتٍ قليلةٍ من رسو الطرَّاد جلوستر، لكن الفرنسيين أخبروه بعباراتٍ لا لَبس فيها بأنه ليس موضع ترحيب، فقد كان يرتدي عباءةً وعمامةً عربيةً برَّاقة، وهي ملابس كفيلةٌ بإزعاج الفرنسيين، غير أنه أقحم نفسه مع الوفد المرافق لفيصل وسافر معهم إلى ليون. كذلك تم تجنيد العقيد بريموند، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية إلى الحجاز أثناء الثورة، لمرافقة فيصل أثناء زيارته لفرنسا، فقد تلقَّى، أثناء إجازته في فرنسا عند وصول فيصل، رسالةً عاجلةً للحضور إلى باريس حيث تلقَّى تعليمات شفهية من جان غوت، نائب مدير قسم آسيا في وزارة الخارجية الفرنسية. تضمنت الأوامر انضمام بريمون إلى الوفد المرافق لبرتراند وفيصل الذي كان متوجهاً حينها إلى ليون، وطُلِب منه أن يعامل فيصل كشخصيةٍ عامةٍ وبارزة، وألّا يُسبغ عليه أية صفةٍ دبلوماسية بأي شكلٍ من الأشكال[2]. وصل فيصل إلى ليون في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) ونزل في فندق تيرمينوس، وقام بزيارة غرفة التجارة وجامعة ليون التي كانت تناقش حينها فكرة رعاية جامعة عربية في دمشق، فقد ارتبطت ليون تاريخياً بتجارة الحرير في بلاد الشام، وكان التجّار ورجال الدين فيها يؤيدون بشدة إنشاء دولة يهيمن عليها الموارنة في لبنان.

شعر فيصل بالقلق والتقييد نظراً للتحول غير العادي في مجريات الأحداث، فالزيارة التي كان من المفترض أن تدور حول قضايا الاستقلال العربي وتمثيل العرب في مؤتمر السلام قد تحولت الآن إلى اجتماعاتٍ ومناسباتٍ مرتبة، فأرسل نوري السعيد ليقدم شكوى بشكلٍ سري إلى القنصل البريطاني في ليون. أخبر نوري القنصل أن فيصل شعر وكأنه سجين لدى مضيفيه الفرنسيين، وعلى الرغم من أنه قد تم إلزامه صراحةً بعدم القيام بأي شيءٍ يثير الاستياء، إلا أنه رغب في معرفة ما إذا كان يتوجب عليه فرض نفسه توخياً منه لقطع جولته الفرنسية[3]. إذ كان من العسير على شخصٍ لا يجيد اللغة الفرنسية إلا قليلاً وعلى مجموعةٍ من المستشارين الذين لا يتمتعون بخبرةٍ تامةٍ في الشؤون الدولية أن يكونوا تحت رحمة مضيفين لا يُحسنون الظن به ولا بتصرفاته

أو مخططاته. ومستذكراً هذه الواقعة للسيدة ستيوارت إرسكين عام 1933، لخّص فيصل الموقف الفرنسي على النحو الآتي: «ليس لدى فرنسا أية معلوماتٍ تتعلق بالمهمة الرسمية المكلّف بها في فرساي؛ ولذلك فإنه من غير المستحسن أن تكمل رحلتك إلى باريس»[4].

لكن فيصل برأ ساحته على نحوٍ جيد طوال أسبوعين تقريباً في فرنسا. ويصف أحمد قدري كيف أن سلوك فيصل النبيل مرتدياً عباءته العربية المتدلية وعمامته وخنجره الرسمي قد أضفى عليه حضوراً مهيباً، الأمر الذي كان له وقعُه على العديد من الذين تواصلوا معه، وذهب الأمر بالبعض إلى حد تشبيهه بصورة يسوع في مشيته ومظهره[5]. في 30 تشرين الثاني (نوفمبر)، غادر الوفد إلى بلفور في عربةٍ خاصة للسكك الحديدية، استعداداً لزيارة ميادين القتال الرئيسة في فرنسا. وقد انضم إليهم هناك كبير مترجمي اللغة العربية لدى الفرنسيين، المغربي قدور بن غبريط، الذي كان على درايةٍ مسبقاً بالعائلة الشريفية من خلال زياراته السابقة للحجاز، وقد برز في العديد من اتصالات فيصل اللاحقة مع الفرنسيين[6]. توجه الوفد من بلفور إلى ستراسبورغ ولكن لم يكن من المؤكد بعد ما إذا كان الفرنسيون سيدعون فيصل رسمياً إلى باريس ومتى ستتم دعوته. وأثناء تواجده في ستراسبورغ، دعا فيصل بريمون جانباً، وقال له: «لقد خضنا الحرب معاً، ونحن رفاقٌ في السلاح، ولدي ثقةٌ في إعرابكم عن الصداقة والإخلاص، فأطلعني على الوضع بصراحة. إذا كانت الحكومة الفرنسية لا ترغب في قدومي إلى باريس، فأعلمني بذلك. لقد عيَّنتُ في دمشق ممثلاً عني أخي زيد وهو يافعٌ وقليل الخبرة، الوضع صعبٌ وأنا قلق، فإن كان وجودي هنا مضيعةٌ للوقت، فمن الأفضل لي أن أعود إلى دمشق»[7]. وجاءت إجابة بريموند بأنه سيحاول الحصول على إجاباتٍ قاطعة في أقرب وقتٍ ممكن، ونقل مخاوف فيصل إلى وزارة الخارجية. وأتى الرد بأن الرئيس ريموند بوانكاريه سيستقبل الأمير فيصل في 7 كانون الأول (ديسمبر) 1918. وبذا أصبح بإمكان فيصل، بعد أن اطمئن، أن يواصل زياراته الاحتفالية إلى ميادين القتال على الجبهة الفرنسية، فقام الوفد بزيارة ميتز وفردان، وعرَّجوا على فيسبادن وفرانكفورت في ألمانيا في جولةٍ قصيرة. وأثناء ذلك قام الضباط الفرنسيون المرافقون للوفد بالشرح له تفاصيل المعارك الرهيبة في فردان والقيادة البطولية للمارشال بيتان[8]. وأثناء سيره في الحقول الموحلة التي مزقتها القذائف على الجبهة الغربية مرتدياً ملابسه العربية كاملةً، تأثر إلى حدٍّ كبير بالمشهد المروع للحرب[9]. وفي 5 كانون الأول (ديسمبر) وفي احتفالٍ عسكري مبهر في ستراسبورغ، تلقى فيصل وساماً عسكرياً فرنسياً رفيعاً، وهو صليب وسام جوقة الشرف، وحضر الاحتفال الجنرال هنري غورو، الذي أصبح فيما بعد العدو الأكبر لفيصل في سوريا.

في 7 كانون الأول (ديسمبر)، غادر فيصل وفريقه (بار لو دوك) إلى باريس في عربةٍ كان

يستقلّها القيصر في رحلاته ما قبل الحرب إلى ألزاس، وقد استُقبل في حفل ترحيبٍ في محطة جران ديليست في باريس، ثم تم نقله إلى فندق كونتيننتال، وفي الفندق تم استقدام موظف جديد إلى حاشيته لمقابلته وهو عوني عبد الهادي. كان عوني، وهو فلسطيني من جماعة الفتاة، في باريس عندما كان طالباً، وكان صديقاً لاثنين من مرافقي فيصل، وهما الدكتور أحمد قدري ورستم حيدر، وهما من عرّفاه على فيصل. يروي عوني في مذكراته كيف صادف فيصل في جناحه بالفندق، ورآه متألقاً في لباسه العربي ويحمل خنجره الذهبي الرسمي. وقد وافق فيصل على الفور على عوني وطلب منه إبداء رأيه في الفرنسيين وآرائهم عن العرب. اعتقد عوني أن الفرنسيين قد ضُلِّلوا من قبل حكومتهم ونخبهم، الذين صوروا لهم العرب على أنهم شعب متخلف، وأن فرنسا لديها مهمة حضارية في الأراضي العربية التي احتلتها. وعلى الرغم من أن العرب قاتلوا إلى جانب الحلفاء في الحرب، إلا أن الفرنسيين استمروا في تبرير تدخلهم في سوريا على أنه جزءٌ من مسؤوليتهم الحضارية، وكان من المستبعد أن يتخلوا عن سياساتهم المتعنتة أو يعدِّلوها فيما يتعلق بالسيطرة المستقبلية عليها. وبعد هذه المقابلة عيَّن فيصل عوني رئيساً للمكتب الاداري للوفد العربي إلى مؤتمر السلام[10]. وفي وقتٍ لاحقٍ من ظهر ذلك اليوم، أجرى فيصل، برفقة المترجم المغربي ابن غبريط، اتصالاً ودياً مع الرئيس بوانكاريه في قصر الإليزيه، وقد حضر في ذلك المساء عرض الأوبرا الكوميدية «معروف» ذات الموضوعات العربية.

وفي 9 كانون الأول (ديسمبر)، يوم مغادرته إلى لندن، زار فيصل وزارة الخارجية الفرنسية، حيث حضر غداء عمل مع وزير الخارجية ستيفن بيشون[11]. وكان اللقاء تعارفياً، إذ لم يتم التطرق إلى أي أمرٍ جوهري أو مناقشته. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، أخذه الفرنسيون إلى أحد المسارح في الشانزليزيه، حيث كانت هناك فرقةٌ راقصة تقدم عروضها، لكن فيصل تجاهل العرض، معتقداً أنه حيلةٌ لصرفه عن الأمور السياسية الأكثر إلحاحاً، والتي حرص الفرنسيون على تجنُّب مناقشتها أثناء زيارته. ولدى مغادرته المسرح، التفت فيصل إلى عوني عبد الهادي وقال: «هل يعتقد الفرنسيون أنهم يستطيعون إغرائي براقصاتهم؟ أنا لم آت إلى هنا من أجل اللهو والرياضة، بل جئت لأخدم بلدي»[12]. وفي المساء، استقل فيصل وفريقه الذي ضمَّ بريمون القطار الليلي إلى بولون لعبور القناة، وكان في انتظارهم لورنس مرتدياً عباءةً عربيةً بيضاء حيث بدا «كأحد فتيان جوقة كاثوليكية»[13]. كان فيصل سعيداً بالتأكيد برؤيته إذ أنه سيكون الشخص الوحيد، من خارج الوفد العربي المرافق له، الذي يعرفه ويثق به خلال رحلتهم إلى إنكلترا. وكان لورنس قد قضى يومين في فرنسا للإعداد لرحلة فيصل إلى إنكلترا. وأثناء مشاهدته لكتيبةٍ من مشغِّلات التلغراف اللواتي كن يرتدين الزي

العسكري ويتجهزن للصعود إلى السفينة المتوجهة إلى إنكلترا، علّق فيصل لبريموند قائلاً: «من الضروري رؤية مثل هذا المشهد لأدرك فعلاً الفكرة الأوروبية عن المساواة بين الرجال والنساء، ففي بلادنا النساء عاطلاتٌ عن العمل، وفكرة المساواة مجرد دعابة، بينما هنا فالنساء يعملن كالرجال»(*). وقد أشار بريموند في مذكراته حول هذه الحادثة إلى أن قلةً في فرنسا يمتلكون وعي ونزاهة الأمير فيصل[14].

كان الأسبوعان اللذان قضاهما فيصل في فرنسا بمثابة زوبعةٍ من الاجتماعات والأنشطة والفعاليات، لكن شكوكه بالفرنسيين لم يكن بالإمكان تبديدها، فقد كتب إلى والده في 12 كانون الأول (ديسمبر) بعد وقتٍ قصير من وصوله إلى لندن، مخبراً إياه أنه يجب أن يتوقعوا الأسوأ من الفرنسيين. فقد كتب:

أما بالنسبة لفرنسا، فإنها لا تنوي قبول ما عرضته عليها معاهدة 1916 [اتفاقية سايكس بيكو] فيما يتعلق بالأراضي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط غرباً وعكا في الجنوب، وكل دمشق ولبنان (أي جبل لبنان شرقاً مع وادي البقاع)، والسكك الحديدية إلى حلب شرقاً وملاطيا في الشمال، بل إنها تريد في الواقع السيطرة على كل مناطق سوريا الداخلية في دمشق وحلب وحمص، وليس مجرد ممارسة نفوذها السياسي هناك بحسب الاتفاقية. باختصار، فإن فرنسا تريد الساحل وكذلك الداخل السوري، أو بطريقةٍ أخرى، كل سوريا دون أن يبقى أي جزء خارج سيطرتها... إنهم خائفون من المنافسة البريطانية في الشرق، لأن [فرنسا] تعرف أن العرب بطبيعة الحال يفضلون البريطانيين، برغم أنني أخبرتهم [الفرنسيين] أن العرب يحبون من يبادلونهم المحبة ويراعون المصالح [العربية][15].

وقد كتب إلى شقيقه زيد في اليوم نفسه قائلاً، «الحرب السياسية ستبدأ بيننا وبين فرنسا، لأنها أبدت عداوة [تجاهنا]... قد أعود [إلى دمشق] إذا لزم الأمر قبل نهاية المؤتمر [مؤتمر السلام] وأعينك ممثلاً لي هنا في باريس... لكننا قد نضطر أيضاً إلى إعلان الحرب على فرنسا... فكن مستعداً![16]

ولما كانت الأزمة المستمرة في سوريا وترقُّب الأحداث الجسيمة القادمة تحتل رأس قائمة أولوياته، كان العبء الذي يتحمله فيصل هائلاً لكي يبحر بنجاح عبر هذه المياه الخطرة، فذكائه الفطري وحنكته في المعترك السياسي أثناء الثورة العربية ومن ثم في سوريا قد ساعداه كثيراً،

(*) يظهر من النصّ أعلاه ان فيصل كان لديه إدراك مبكر ووعي راسخ بدور المرأة الأساسي في المجتمع، وضرورة منحها الحق في العمل ومشاركة الرجل في مجالات متنوعة من الحياة، في وقتٍ كانت المجتمعات العربية تعيش في غياهب السيطرة الذكورية على مقدّرات النساء. إن ما ذُكر ليس هو الوحيد ما يؤشر ذلك، بل ترك لنا نصّاً آخر يدل على استحسانه للدور الذي تقوم به المرأة الغربية بين القوى العاملة الصناعية وتمنياته أن تنعكس التجربة في بلاده، وذلك في زيارته لبريطانيا في كانون الأول (ديسمبر) 1918. (المُراجع).

لكن هذه المكتسبات كانت لا تزال غير كافيةٍ في عالم السياسة الدولية المعقد والمخادع وفي تناحرات القوى العظمى وأطماعها، لا بل إنه حاول بطريقةٍ مبتدئة أن يستنبط آراء عددٍ كبيرٍ من السياسيين والدبلوماسيين الأجانب الذين كانوا يقيمون في فندق كونتيننتال[17]، لكن لا أحد على ما يبدو، باستثناء الفرنسيين والبريطانيين، كان يعرف أو حتى يهتم كثيراً بالقضايا العربية.

وأفضل توصيفٍ للمأزق الذي مرَّ به قد جاء من عوني عبد الهادي، حين كتب لابنته بعد عقودٍ من ذلك، حيث ذكر:

«لقد أتى صاحب السمو [فيصل] إلى باريس خالي الوفاض مما قد يسهل مهمته في العالم الأكبر الذي كان أوروبا. لم يكن لدى [فيصل] أي تجربةٍ شخصيةٍ سابقة في [أوروبا]، ولم يعطه والده أي توجيهاتٍ سياسية من شأنها أن تنير الطريق أمامه... كان [فيصل] سياسياً بالفطرة لكنه لم يكن بعد بارعاً في المناورات السياسية، ولم يكن قد تعرف بعد على القادة السياسيين الرئيسيين، فقد كان احتكاكه مع القضايا السياسية وخاصةً السياسة الغربية محدوداً حتى ذلك الحين [أثناء مؤتمر السلام]، وزيارته إلى أوروبا في نهاية عام 1918 كانت الأولى من نوعها، وكل هذا يجب أن يؤخذ في الاعتبار. فكل ما كان يعرفه [فيصل] حتى ذلك الحين هو أن والده حارب إلى جانب الحلفاء لتخليص الأراضي [العربية] من الحكم العثماني وقد أرسله والده إلى باريس لتمثيله في مؤتمر السلام. كان فيصل رجلاً ذكياً للغاية وكان يتمتع بقدرةٍ كبيرةٍ على تقدير واستيعاب ما يسمعه ويراه، لكنه كان ما كان يميزه خاصةً هو مقدرته الكبيرة على التطور والتأقلم سريعا»[18]. وكان ذكاءه ومهاراته السياسية ستُختبر إلى أقصى حد.

السنة الجديدة في إنكلترا

غادر فيصل إلى إنكلترا كنتيجةٍ للمستجدات المهمة التي كانت قد حدثت والتي كان من شأنها أن تؤثر بشكلٍ كبير على مستقبل الأراضي العربية تحت احتلال الحلفاء. ففي 1 كانون الأول (ديسمبر) 1918، وصل جورج كليمنصو إلى لندن للقاء رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج لمناقشة سياساتهم ومواقفهم قبل بدء مؤتمر السلام، وفي اجتماعٍ خاصٍ جرى بينهما في السفارة الفرنسية في لندن، اتفق الزعيمان على إجراء تغييراتٍ بعيدة المدى على اتفاقية سايكس بيكو، فوافق كليمنصو على طلب لويد جورج بأنه يجب أن تنتقل السيطرة على منطقة الموصل، التي تم تحديدها على أنها خاضعة للنفوذ الفرنسي في الاتفاقية، إلى البريطانيين، كما وافق أيضاً على نقل السيطرة على فلسطين إلى البريطانيين، متخلياً عن فكرة إدارةٍ دوليةٍ في البلاد. وفي المقابل، طالب كليمنصو بريطانيا بعدم الاعتراض على الإدارة الفرنسية على كامل

سوريا[*]، وهو ما وافق عليه لويد جورج فوراً[19]. وفي هذه الأثناء، كانت اللجنة الشرقية، التي لم يتم إبلاغها بـ «اتفاق السيدان»، لا تزال تناقش إلغاء اتفاقية سايكس بيكو برمَّتها[20]. إلا أن اتفاق كليمنصو ولويد جورج هو ما رَجَح، حيث لن تضغط بريطانيا على الفرنسيين لإسقاط الاتفاقية كوثيقةٍ تأسيسية للتصرف في الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية في مرحلة ما بعد الحرب[21].

وصل فيصل إلى لندن دون أن يعرف أن البريطانيين، الذين كان عليه الاعتماد عليهم كحليفٍ وحيدٍ له في مؤتمر السلام، قد أبرموا صفقةً فتحت للفرنسيين طريقاً واضحاً للسيطرة على سوريا، فالبريطانيون لن يمنعوا فيصل من مناشدة الأمريكان إقامة دولةٍ عربيةٍ مستقلة، وسيكونون أيضاً داعمين له فيما لو كان سيتجادل مع الفرنسيين ويسعى إلى تعديل إدارتهم وسيطرتهم على سوريا، لكنهم لن يجابهوا حليفهم في الحرب من خلال دعم الأجندة العربية بصورةٍ فعالة، والفرنسيون بدورهم لم يفوتوا أي فرصةٍ أبداً لتذكير البريطانيين بالتزاماتهم الأساسية والامتناع عن التحدث مع فيصل في الأمور الجوهرية المتعلقة بسوريا[22].

أدخل البريطانيون فيصل في متاهةٍ معقدة من الالتزامات والوعود والذرائع، فقد أدركت وزارة الخارجية مدى المصاعب التي قد تنشأ إذا ما أدرك فيصل حقيقة أن البريطانيين قد تخلوا عنه فعلياً في مؤتمر السلام، فتوجهت أنظارهم حينها إلى لورنس لتوجيه فيصل والتأثير عليه، بحيث لا يتجاهل في ممارساته المصالح البريطانية الحيوية أو يهددها. كان من المقرر أن يتم إلحاق لورنس، وبتحريضٍ من وزارة الخارجية، بالوفد المرافق لفيصل، ولكن سيتم إدراجه كعضوٍ استشاري للوفد البريطاني في مؤتمر السلام، فأضحى منخرطاً في عملية الموازنة الصعبة المتمثلة في ضمان تلبية المصالح البريطانية، والدفاع في الوقت نفسه عن قضية فيصل واستقلال العرب. لقد اقتضى الحال منه أن يعيش كذبةً، محاولاً في الوقت نفسه تغيير الظروف بحيث تسقط تلك الكذبة من تلقاء نفسها، أو أن يتم الحد من تبعاتها في أقل تقدير.

بات لورنس الكنَف الافتراضي لفيصل. ومن العبث التكهن ببواعثه ودوافعه الحقيقية من حيث صلتها بالقضايا العربية ـ وقد نمت مساعٍ حقيقية حول تحليل شخصية لورنس ـ لكن مظهرها الخارجي ينقسم إلى جانبين متناقضين في كثيرٍ من الأحيان. فمن جهةٍ، كان ملتزماً بالتعليمات والتوجيهات الشاملة التي أوعزت إليه بها السلطات العليا، سواءً مجلس الوزراء أو وزارة الخارجية أو الجيش، ولكنه قام بفرز وتصفية تلك التعليمات والتوجيهات من خلال شخصيته

(*) كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو ومن بعدها (اعلان السبعة) ينصّان على أن منطقة السيطرة الفرنسية لا تشمل الداخل السوري، بل جميع السواحل الشامية (السورية واللبنانية) المطلة على البحر المتوسط فقط وأجزاءً من الأناضول. (المُراجع).

المتفردة واللامعة ووفق أجندته الفريدة. ومن جهةٍ أخرى، شعر بالواجب تجاه «القضية العربية» ـ التي دمجها مع تفسيره الخاص لها ـ وتجاه شخص فيصل، فقد كان يميل إلى اعتباره قاصراً يجب مرافقته والإشراف عليه في أروقة الدول وحمايته من مخططات السياسيين ومطامع الحكومات وتقلبات وتعقيدات الشؤون الدولية ـ في الأقل حتى «ينضج» ليمارس الدور الذي تصوره له. وقد كان فيصل ذكياً للغاية ومتنبهاً لئلا يلقي بالاً لموقف لورنس المتضارب، لكن قلة تجربته نسبياً في الشؤون الدولية في تلك المرحلة لم يترك له سوى خيارٍ واحدٍ وهو الاعتماد على مشورة لورنس وتمثيله له. ومما لا شك فيه أن فيصل كان يثق بلورنس، معتقداً أن اهتمامه بالقضية العربية والأسرة الشريفية كان حقيقياً، كما أنه كان بحاجة أيضاً إلى الوثوق بالحكومة البريطانية، ليس من منطلق أن هذه كانت تعليمات والده فحسب، بل لأنه لم يكن يمتلك حلفاءً في بلدانٍ أخرى حين بدأ مؤتمر السلام. وقد اعتقد بأن الأمريكيين قد ينحازون إلى جانب الاستقلال العربي إذا ما فشل البريطانيون في مواجهة الفرنسيين نيابةً عن العرب. وقد كتب إلى والده: «لا يريد [البريطانيون] إعلان الحرب على الفرنسيين [بخصوص إلغاء اتفاقية سايكس بيكو] إذا أصرت فرنسا على تنفيذها، وهذا هو السبب وراء رغبتهم في أن تشارك أمريكا في الأمر وأن تبتَّ فيه بصفتها حكماً لجميع الأطراف. والأمل مُعلَّقٌ على أن يَصدر الرئيس ويلسون حكماً عادلاً ووفقاً للمبادئ [النقاط الأربع عشرة] التي أعلنها والتي التزم بها حتى الآن»[23].

نزل فيصل ووفده، الذي ضم رستم حيدر ونوري السعيد والدكتور أحمد قدري وعوني عبد الهادي، في أحد أرقى فنادق لندن، وهو فندق كارلتون. وقد كتبت صحيفة التايمز بضعة سطورٍ عن زيارته، مما دلّل على قلّة الاهتمام السياسي التي حظيت به تلك الزيارة، فقد أشارت إليه على أنه «بطل الملحمة العربية» وتحدثت عن «مآثره الشاعرية كقائدٍ أعلى للجيش العربي الشمالي». فمجيء فيصل إلى إنكلترا هو «ليقدم احترام والده للملك»، دون ذكر أي كلمةٍ عن سوريا والمشاكل المستمرة مع الفرنسيين [24]. وفي 12 كانون الأول (ديسمبر)، أُستدعي فيصل برفقة لورنس، الذي عمل أيضاً كمترجم، في المساء للقاء وزير الخارجية آرثر بلفور، وكان قد استقبل في وقتٍ سابق من اليوم نفسه وفداً أرمنياً، أعرب عن شكره له على الدعم الكبير الذي قدمه للأرمن النازحين في سوريا الذين دفعتهم للنزوح المذبحة التي طالت مجتمعهم في الأناضول خلال الحرب.

كشفت زيارة فيصل إلى بلفور أيضاً إلى أي مدى سمح لورنس لرغباته الشخصية بالتدخل في تغطية الأحداث. وتتباين الرواية التي أبلغها فيصل لوالده حول تلك الزيارة، والتي عمل فيها لورنس كمترجم، تبايناً شديداً مع ما سجله بلفور لاحقاً في مذكرته الرسمية، وبطبيعة الحال كان كل من فيصل وبلفور يعتمدان على مصداقية ودقة ترجمة لورنس، إذ تقتصر مذكرة بلفور

بمعظمها على وصف العداء الذي يُكنُّه فيصل للفرنسيين ووعده بمحاربتهم إذا ما استمروا في تكتيكاتهم العدوانية، في حين تعبِّر رسالة فيصل بعباراتٍ لا لبس فيها عن قلقه العميق والمتزايد إزاء سياسات بريطانيا الحقيقية ونواياها تجاه العرب. وقد ذكَّر فيصل بلفور بأنه تعيَّن على الشريفيين أن يتحملوا تنديد واستنكار قطاعاتٍ واسعةٍ من العالم الإسلامي عندما ثاروا ضد الأتراك، وقد قاموا بذلك نظراً للضمانات التي قدمها لهم مكماهون حول الاستقلال، وكذلك الالتزامات التي تم التعهد بها بموجب إعلان السبعة بأن جميع الأراضي التي حررها العرب ستبقى تحت الحكم العربي، ونظراً لإيمان العرب بالتعهدات البريطانية، «فقد تنازلوا عن جزءٍ من هذه الأراضي لقوىً كانت طامعةً بهم. لقد تنازلنا عن... الساحل السوري بناءً على تأكيدات الجنرال أللنبي وتصريحاته بأن هذه ليست سوى ترتيباتٍ مؤقتة». ووفقاً لفيصل، فقد رد بلفور حينها قائلاً، «لم تكن الحكومة البريطانية هي من ساعدت العرب بل العرب هم من ساعدوا بريطانيا [في الحرب] وأن البريطانيين سيكونون نصيراً وأصدقاء للعرب على الدوام». وهو ما ورد عليه فيصل بحدةٍ قائلاً، «تساورني شكوكٌ حيال هذه المسألة بسبب ما أعرفه عن معاهدة 1916 السرية [اتفاقية سايكس ـ بيكو] التي تدمر فعلياً حياة العرب، فنحن لا نقبل بأي احتلال. وقد قرأت في صحيفة التايمز أن السيد كليمنصو ذكر بأنه يرغب في الحفاظ على سلامة الأراضي السورية وأنه لا يريد تقسيمها، وهذا يبدو جيداً للغاية، لكن هذا يعني حقاً أنه يرغب في الحفاظ عليها موحدةً ليكون من الأفضل ابتلاعها. ولولا وجود الجيوش البريطانية والجنرال أللنبي، لكنا نصفِّي حساباتنا معهم في الوقت الحالي، فإذا لم تساعدنا [في مواجهة الفرنسيين] فسوف نعلن للعالم أفعالك المخادعة وسنقاتل كل من يسعى لاحتلال أراضينا... أريد من بريطانيا أن تمزق هذه الاتفاقية ولا أجد أي عذرٍ لعدم القيام بذلك»[25].

سعى بلفور لتهدئة قلق فيصل، وعرض بشكلٍ غير مقنعٍ وأقسم بشرفه أن «العرب سيخرجون مسرورين من مؤتمر السلام وقد استعادوا كل ما كانوا يأملونه من تلك الأمجاد التي تفتخر بها البشرية جمعاء». وعلى حد تعبير فيصل نفسه، والمكتوب مباشرةً بعد اجتماعه مع بلفور، فإنه يكشف بوضوح أنه لم يكن تماماً ذلك البريء كما كان لورنس قد تمنى له، وتعبر الرسالة عن الخوف المُلِحّ من أن شيئاً ما يجري كان سيثبت أنه ضارٌّ ومكلفٌ للغاية للعرب؛ والأمل (الأمل الضئيل؟) في أن يلتزم البريطانيون، أو قد يرون ضرورةً للانحياز بحزم إلى جانب فيصل ضد الفرنسيين في مسائل الاستقلال العربي[26]. كما استشعر فيصل أيضاً أن السياسيين البريطانيين كانوا مترددين في الالتزام بأي مواقف سياسية فيما يتعلق بالشرق الأدنى قبل وصول الرئيس ويلسون، الذي كان فيصل يعتبره الحَكم النهائي في هذه الخلافات[27]. وفي اليوم التالي التقى فيصل بالملك جورج الخامس في قصر باكنغهام، حيث حصل على الوسام الفيكتوري الملكي،

تقديراً لـ «الدماء المشتركة التي أُريقت من قبل العرب البريطانيون وهم يقاتلون جنباً إلى جنب في ساحة المعركة»، ثم تابع جورج الخامس تأكيده لفيصل على دعم بريطانيا والتزامها، ولكنه تساءل أيضاً عن سبب تكرار الحسين الدائم المطالبة بالاستقلال والاكتفاء الذاتي، فقد ظهر أن هذه التصريحات تستهدف البريطانيين وتشكك في نواياهم[28]. ورداً على ذلك، كرر فيصل التأكيدات التي أدلى بها في اليوم السابق لبلفور بأن اتفاقية سايكس بيكو كانت مجحفةً، وأن العرب لا يستطيعون قبول أي شيءٍ أقل من الاستقلال الكامل لسوريا، وفي الوقت نفسه، واصل التأكيد على ثقته في الصداقة والوعود البريطانية.

وبعد لقائه الملك غادر فيصل في زيارة استغرقت أربعة أيام إلى شمال إنكلترا واسكتلندا، حيث تفقَّد الأسطول واستقل البارجة الحربية إتش إم إس أوريون، كما زار عدة مجمعات صناعية. ولعلها كانت حيلةً متعمدةً من جانب وزارة الخارجية لإبعاده عن الصحفيين وأعين المتطفلين في لندن، ولكن على الأرجح كانت لاطلاع فيصل على البلاد وقوتها الصناعية والعسكرية. وقد تأثّر فيصل للغاية بحجم الصناعة البريطانية وامتدادها، ولوحظ ذلك خاصةً باستحسانه للدور الذي تقوم به المرأة في القوى العاملة الصناعية، «رأيت بأم عيني... مشاركة المرأة في صفوف القوى العاملة خاصةً في مصانع الذخيرة الكبيرة التي تُصنِّع القذائف الثقيلة»[29]. وفي إحدى المناسبات المدنية خلال الزيارة، ادَّعى لورنس، الذي رافق فيصل خلال جولته، ادعاءً سخيفاً بأن فيصل خاطب التجمع من خلال تلاوة مقتطفاتٍ من القرآن، والتي قدمها لورنس حينها في خطابٍ مرتجل. كانت هذه أحد ادعاءات لورنس الخبيثة التي لا يمكن أن تكون صحيحةً لسببين: الأول، أنه كان هناك العديد من المتحدثين باللغة العربية بين الحضور والذين كانوا سيعلقون على الأمر؛ والثاني، أن فيصل الذي كان يحترم الدين والنصوص المقدسة لم يكن من الممكن أن يستخفَّ بالقرآن بهذه الطريقة أمام جمهورٍ أجنبي.

الخطوط العريضة للقضية العربية

لدى عودته إلى لندن، خاض فيصل جولاتٍ من الاجتماعات في وزارة الخارجية ومكتب الهند، حيث التقى وزير الدولة لشؤون الهند إدوين صموئيل مونتاجو، وكان يخطط للقاء رئيس الوزراء لويد جورج، لكن لم يتسنى الترتيب للاجتماع، حيث تم إبلاغه رسمياً أن بريطانيا لا يمكنها منع الفرنسيين إذا أصروا على حقوقهم بموجب اتفاقية سايكس بيكو[30]. وبحسب الملاحظات التي تم الاحتفاظ بها في الاجتماع، فقد ردَّ فيصل أنه «أقرَّ بمقتضيات التحالف الأنغلو ـ فرنسي، والالتزام الواقع على بريطانيا العظمى بالوفاء بوعودها لحليفتها، لكن هذا الالتزام يجب أن يتم على حساب بريطانيا العظمى نفسها وليس على حساب العرب»[31]. وفي يوم السبت، 28 كانون

الأول (ديسمبر)، التقى فيصل على انفراد مع اللورد كرزون في منزل الأخير، ورافق رستم حيدر فيصل أثناء الزيارة واحتفظ بملاحظات عن المحادثة بين الاثنين. فقد أكد كرزون دعم بريطانيا للعرب، لكنه أراد مذكرةً تفصيليةً من فيصل بشأن ماهية المطالب العربية، كما طلب منه بعض التنازلات فيما يتعلق بالمصالح الفرنسية في بلاد الشام، وقد عارض فيصل إعطاء الفرنسيين أي شيءٍ سوى الوجود الرمزي في سوريا، وذلك فقط بسبب التمثيل البريطاني. انتهى الاجتماع بشكلٍ جيد، مع تصريحٍ لكرزون بأن «إنكلترا ترغب في مساعدتك بكل قوتها وهي معك في مطالبك، تأكد من هذا»[32]. ولكون تلك التصريحات قد صدرت عن شخصيةٍ رفيعة المستوى ومؤثرة مثل رئيس اللجنة الشرقية، فلم يكن بالإمكان إلا أن يكون لها أثرٌ إيجابيٌ على فيصل، خاصةً بعد النصوص المتلوة الجافة السابقة من قبل مكتب الهند ووزارة الخارجية، وقد شرع حالاً في كتابة المذكرة التي سعى إليها كرزون لتحديد الموقف العربي من مؤتمر السلام.

عمل لورنس وفيصل على إعداد المذكرة في الأيام الأخيرة من عام 1918، وقد جرى عليها العديد من التعديلات، وذلك استناداً إلى النسخة المعدلة للمذكرة باللغة الإنكليزية التي لا تزال موجودةً بخط يد لورنس. وقد انطوت هذه المذكرة على أهميةٍ كبيرة نظراً لكونها البيان الرئيس من قبل الوفد العربي إلى مؤتمر السلام. وقد كانت لهجتها مدروسةً ومعتدلة، وربما تعكس توصيات وزارة الخارجية كما عبر عنها لورنس لصياغة الموقف العربي بعباراتٍ معقولة. بيد أن العبء الذي أُلقي على كاهل فيصل لإصدار وثيقةٍ تفاوضيةٍ جوهرية يعتمد عليها الموقف العربي التمهيدي كان هائلاً، فوالده لم يعطه سوى القليل جداً من التعليمات، بينما أرادت وزارة الخارجية ورقة موقفٍ مداهنة يمكن إعادة صياغتها بأية طريقة. وفي الوقت نفسه، كان فيصل مدركاً تماماً لمحدوديته، وقلة خبرته في الدبلوماسية الدولية، وافتقاره إلى المهارات اللغوية غير العربية والتركية، وكان الفرنسيون يصطفّون ضده، والبريطانيون يراوغون وراء الادعاء بدعمه. وقد دفعه اضطراره هذا إلى الاعتماد على حليفٍ كانت أجندته وخياراته الحقيقية غير واضحةٍ، ولعلها تتناقض جوهرياً مع أجندته وخياراته في موقفٍ غير مريح. ورغم أنه لم يكن يمتلك أية خبرةٍ على الإطلاق مع الأمريكيين، بيد أنه عقد أملاً كبيراً على تصريحات ويلسون العلنية فيما يتعلق بتقرير المصير ورفض المعاهدات السرية.

حملت المذكرة مسحةً مثاليةً، لا شك أنها كانت تستهدف الأمريكيين الغائبين، ومُعدَّةً لمناشدة المشاعر الويلسونية التي اعتقد فيصل أنها ستسود مؤتمر السلام[33]. وبحسب المؤرخ البريطاني الرسمي لمؤتمر السلام(*)، فقد قال فيصل في جلسةٍ خاصة قبل المؤتمر إنه «اقترح أن

(*) مؤرخ مؤتمر السلام هو هارولد و. ف. تيمبرلي (1879 ـ 1939)، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة كامبريدج منذ عام 1931، وماجستير في بيترهاوس، كامبريدج. حضر مؤتمر السلام ووضع لاحقًا تاريخ رسمي له. (المُراجع).

يقدم إلى [المؤتمر] مشروعاً لاتحادٍ كونفدرالي للدول العربية يكون متحرراً من الهيمنة التركية ويخضع لقيادة وحماية الولايات المتحدة»[34]. بدأت المذكرة بتعريف ما عناه فيصل بالأمة العربية وأهداف الحركة القومية العربية. «خط البلاد الممتد من خط الإسكندرونة ـ بلاد فارس حتى المحيط الهندي يسكنه العرب ـ ونعني بذلك أشخاصاً من أصولٍ ساميةٍ مرتبطةٍ ارتباطاً وثيقاً، وكلهم يتحدثون لغةً واحدة، وهي العربية. وأعتقد أن العناصر غير العربية في هذه المنطقة لا تتجاوز واحداً في المائة من الإجمالي... هدف الحركات القومية العربية... هو توحيد العرب في نهاية المطاف في أمةٍ واحدة ». فهو لم يسعَ إلى فرض الوحدة بالقوة لكنه لم يقبل بتقسيم «المنطقة كغنائم حربٍ بين القوى العظمى»[*] [35]. لقد تحدثت المذكرة بجميع النبرات المناسبة، فقد ولجت بعنايةٍ داخل غابةٍ من المطالبات والمطامع المتنافسة، لكنها لم تغفل أبداً عن الهدف النهائي وهو استقلال الدول العربية داخل هيكلٍ اتحادي فضفاض، فتناولت المخاوف البريطانية بشأن الوصاية على بلاد ما بين النهرين، وقدَّمت اعترافاً غير مباشرٍ بالوضع الخاص لفلسطين، وأضفت الشرعية على الوصاية الدولية على تلك الدولة. إلا أن الفرنسيين المتعنِّتين دائماً كانوا يتربصون في الكواليس، ولن يتأثروا بالمشاعر الرقيقة التي تحملها المذكرة، فهي تتناقض مع مزاعمهم الجوهرية. وفي 29 كانون الأول (ديسمبر) 1918، ألقى بيشون كلمة أمام مجلس النواب الفرنسي حول السياسة السورية، وأكد أن الحقوق الفرنسية في سوريا ولبنان وكيليكيا تستند إلى العلاقات والمعاهدات والاتفاقيات التاريخية وإلى رغبات السكان، الذين كانوا «عملاء» لفرنسا[36].

الحركة الصهيونية

منذ أن شجعت الحكومة البريطانية زيارة وايزمان إلى العقبة للقاء فيصل، كانت خططها تهدف إلى جرِّ حلفائها العرب والصهاينة نحو اعترافٍ ودعمٍ مشتركين للسيطرة البريطانية على فلسطين. لم يكن الصهاينة بحاجةٍ إلى الإقناع، إذ أن السيطرة البريطانية على فلسطين ستسمح بتنفيذ وعد بلفور دون قيود، وفي الوقت نفسه، أدرك البريطانيون أن الغموض الذي يشوب طبيعة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، والذي هو محور وعد بلفور، قد يشكِّل عقبةً كأداء أمام الرأي العام العربي. وفي هذا السياق، تم إرسال هوغارث لرؤية حسين في تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، وتم تكليفه بإقناعه بأن المشاريع الصهيونية في فلسطين في مجملها لا تشكِّل

(*) إن تصريحات فيصل أعلاه تؤكد بما لا يقبل الشك أنه رفض بشكلٍ صريحٍ سلب لواء الإسكندرونة الذي حيكت حوله مؤامرة بشعة تمّ خلالها اقتطاعه بمينائه التاريخي والاستراتيجي المهم من جسد الدولة السورية الناشئة ومنحه لتركيا بتواطؤ فرنسي مكشوف عام 1938. (المُراجع).

خطراً على المصالح العربية. وفي الوقت نفسه، كان كلٌ من سايكس ولورنس متحمسين للدور الذي ستلعبه الأموال الصهيونية والفطنة التقنية التي جلبها المستوطنون اليهود في فلسطين في تغيير المشهد الاقتصادي لفلسطين وتحسين وضع الفلاحين العرب. وقد أشارت رسالة سايكس الطويلة والمشتتة إلى فيصل في آذار (مارس) 1918 إلى قوة يهود العالم، إذا ما تم حشدهم لدعم العرب، على أنها مفتاح نجاح الخطط العربية للاستقلال. ولطالما كرَّر محاورو فيصل من البريطانيين هذه العوامل باستمرار، وهي أن الوطن القومي لليهود لا يعني إقامة دولةٍ يهودية ولن يعرض حقوق العرب في فلسطين للخطر، وأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ستكون محدودةً ولن تشكل تهديداً للسكان المحليين، وأن الصهاينة قد امتلكوا قدراً كبيراً من الموارد والمعرفة التقنية التي يمكن استخدامها في فلسطين، وأن جماعات الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة وبريطانيا هائلة، ويمكن أن ترجّح كفة الميزان في مؤتمر السلام لصالح العرب.

وحتى وصوله إلى أوروبا، لم يكن فيصل يمتلك الحنكة اللازمة في الشؤون الدولية لتقدير مدى وعمق الأطماع الصهيونية في فلسطين، وكونه متسامحاً بطبعه مع الأديان والمعتقدات الأخرى، فقد انجذب في البداية وبطريقةٍ ما إلى الفكرة الصهيونية القائلة بأن المستوطنين اليهود يساعدون في بناء أراضي فلسطين، فقد كان اليهود العرب جزءاً لا يتجزأ من المشروع القومي العربي ومُرحباً بهم فيه، وكانت فكرة الروابط الأخوية بين المهاجرين اليهود الأوروبيين والسكان العرب المستقرين في فلسطين، تحت الحكم العربي، فرصةً مغرية[37]. إلا أن فيصل بدأ يشعر بقلقٍ متزايدٍ من أن المشروع الصهيوني قد لا يكون مفيداً للمصالح العربية كما يُصوَّر له، ومما لا شك فيه أن وجهة النظر تلك قد عززتها حاشيته من المستشارين العرب، إذ تسلل هذا القلق ليتبدَّى في تصريحاته العلنية، وقد ظهر هذا التضارب بين تصوراته السابقة والأكثر تفاؤلاً حول الصهيونية وبين الهواجس المتعلقة بالنية الحقيقية للصهيونية السياسية خلال زيارته الأوروبية. وقد سعت كلٌّ من الحكومة البريطانية والصهاينة إلى تبديد تلك المخاوف التي أدركوا بأنه كان يواجهها وما يترتب عليها من تبعاتٍ على مخططاتهم، فبادرت الحكومة البريطانية، وببراعةٍ، إلى التدخُّل في جدول أعماله وقامت بتوجيهه، إذ لم يتم اطلاعه إلا على ما أرادوا أن يراه ويسمعه، فقد تعرّض إلى «مداهنةٍ» سياسيةٍ دؤوبةٍ، أدّت في بعض الأحيان إلى إسكاته. وما جعل هذه المهمة يسيرةً إلى أبعد الحدود ليس فقط تعويله المطلق على البريطانيين أثناء تواجده في أوروبا، بل نظراً للتفاوت الهائل بين إمكانات قوةٍ عظمى، خرجت منتصرةً من حربٍ عالمية، وبين الفريق الاستشاري الهزيل الذي استطاع فيصل حشده لغزوته الأوروبية. وقد أراد الصهاينة أن يحصلوا منه على اتفاقيةٍ مرضيةٍ للاعتراف بمشاريعهم في فلسطين، مدركين أنه

بينما كان التمثيل العربي في المؤتمر لا يزال غير واضح المعالم ـ حيث كان الحجاز فقط هو الوحيد الحاضر في المؤتمر ـ إلا أن فيصل كان هو الوجه العربي المؤثر، وبالتالي فإن أي بيانٍ إيجابي أو اتفاقٍ من جانبه يمكن أن يُفسَّر على أنه اتفاقٌ عربي على الموقف الصهيوني بشأن فلسطين. وحقيقة أن فريقاً صهيونياً، برئاسة حاييم وايزمان، قد دُعيَ مرتين لرؤية فيصل أثناء إقامته في لندن يدل على الأهمية التي رآها البريطانيون والحركة الصهيونية في ضمان قبول فيصل للبيانات الصهيونية فيما يتعلق بالحقوق القومية والتاريخية لليهود في فلسطين.

قابل وايزمان فيصل لأول مرةٍ في فندق كارلتون في 11 كانون الأول (ديسمبر) 1918، بعد وقتٍ قصيرٍ من وصول الأخير إلى لندن، وفي الواقع قبل مغادرة فيصل لزيارة بلفور في ذلك اليوم، وقد كان لورنس حاضراً بصفته مترجماً، فبعد لقائهما السابق في العقبة، كوَّن فيصل نظرةً إيجابيةً عن شخص وايزمان، وهو الشعور الذي بادله إياه وايزمان وورد في مذكراته[38]. فبحسب وايزمان، الذي لم يكن مُلمَّاً باللغة العربية، ونقل وفقاً لترجمة لورنس وحسب، بدأ فيصل الاجتماع باطلاعه على خريطة اتفاقية سايكس بيكو وذكر أن شروطها غير مقبولةٍ، لا للعرب ولا لليهود، وقد اشتكى بمرارةٍ من الفرنسيين وقال إنه يعلق آماله على الأمريكيين، فكان ردُّ وايزمان حينها بأنه يتوقع أن يعترف مؤتمر السلام، وفيصل كذلك، بالحقوق التاريخية والوطنية لليهود في فلسطين، وأن الحركة الصهيونية ستضغط من أجل انتداب بريطاني على فلسطين. وقد أكَّد لفيصل على الدعم اليهودي التقني والمالي للعرب، حيث كان اليهود يعتزمون شراء أراضيهم في فلسطين من المُلَّاك الإقطاعيين والأفندية الحضريين، وسوف يقومون بتحسينها إلى الحد الذي يمكن أن تستوعب فيه فلسطين أربعة أو خمسة ملايين مهاجر يهودي آخرين. وكان ردُّ فيصل حينها أن الأراضي العربية واسعةٌ بما يكفي لاستيعاب المهاجرين الجدد، وطلب المساعدة اليهودية لتلبية تطلعاته.

بيد أن تقرير فيصل حول الزيارة كان مختلفاً بشكلٍ جوهري، فقد ذكر في رسالته التي كتبها إلى والده في 12 كانون الأول (ديسمبر) 1918، أن وايزمان هو من طلب الاجتماع وأنه قال في مستهل الاجتماع أن «اليهود ليس في نيتهم حكم فلسطين، وأن أقصى أهدافهم هو إيجاد ملاذٍ هناك وليس لديهم أدنى طموحٍ لتشكيل حكومةٍ [في فلسطين]». وقد رفض وايزمان ذلك الحين اتفاقية سايكس بيكو وذكر أنه «إذا سار العرب واليهود جنباً إلى جنب فلا يمكن لأمةٍ أن تحرمهم من حقوقهم». وقد كتب فيصل حينها أن وايزمان كرَّر إصراره على أن اليهود لا يسعون إلى إقامة حكومةٍ خاصةٍ بهم في فلسطين، «بل يريدون منع أي أحدٍ من حرمانهم من حقهم في الهجرة إلى هناك وتأسيس شركاتٍ وطرقٍ وسككٍ حديدية... يريدون أن يروا يهود فلسطين معترفاً بهم كمواطنين لهم الحق في دخول المجالس المحلية والوطنية... لديهم الأموال التي يمكن توفيرها

للعرب لتقوية حكومتهم وإعادة إعمار وبناء بلدهم». وتابع فيصل قائلاً: «لا تستهن بهذا إذا كانت [هذه المشاعر] صادقة... العرب سيعارضون فكرة الاحتلال بكل ما أوتوا من قوةٍ ومَنَعَة، وإذا لم تساعدهم إنكلترا، التي وضعتهم في هذا الموقف، أو أمريكا، فسنقاتل الفرنسيين حتى الموت كي لا يقول أحدٌ إننا بعنا بلدنا بثمنٍ بخس... العرب بحاجةٍ إلى موارد لإصلاح ما دُمِّر من أراضيهم وهم ينشدون منكم [اليهود] الدعم السياسي ومنحهم الصلاحيات». وفي تلك اللحظة مد وايزمان يده لفيصل وقال، «أعدك باسم كل اليهود أننا إما سنموت أو نعيش معاً». واختتم فيصل حديثه عندئذٍ قائلاً: «إذا وفيتَ بما قلته لي، فسأفي بما قلته لك بأن العالم العربي لا يمكن تقسيمه»[39]. فالثغرات بين التقريرين حول هذا الاجتماع واسعةٌ جداً بحيث لا يمكن تفسيرها بأي طريقةٍ أخرى سوى كونها عيوبٌ في الترجمة التي أوردها لورنس، سواء كانت متعمدةً أو غير ذلك. وستظهر هذه العيوب بشكلٍ قاطعٍ أكثر بعد أسابيع قليلةٍ حين التقى فيصل بوايزمان للمرة الثانية.

في اليوم التالي، 12 كانون الأول (ديسمبر) 1918، نشرت صحيفة التايمز، وبتحريضٍ من قبل لورنس ووزارة الخارجية بلا شك، بياناً صادراً عن فيصل، يقول فيه «الفرعان الرئيسيان للعائلة السامية، العرب واليهود... يفهمان بعضهما البعض، وآمل أنه نتيجة لتبادل الأفكار في مؤتمر السلام، الذي سيسترشد بمُثُل تقرير المصير والمواطنة، ستحرز كل دولةٍ منهما تقدماً واضحاً نحو تحقيق تطلعاتها، فالعرب لا يغارون من اليهود الصهاينة ويريدونهم أن يحظوا بمعاملةٍ عادلة، كما أكد اليهود الصهاينة للقوميين العرب عزمهم على أن يشهدوا أنهم يحظون أيضاً بمعاملةٍ عادلة في مناطقهم. وقد أثارت المكيدة التركية في فلسطين مشاعر الغيرة بين المستعمرين اليهود والفلاحين المحليين، لكن التفاهم المتبادل لأهداف العرب واليهود سيبدِّدُ على الفور أخر أثرٍ لهذه المرارة السابقة، والتي اختفت بالفعل حتى قبل الحرب». ومن غير الواضح فيما إذا كان فيصل قد تلا البيان بنسخته العربية، إن كان قد صيغ بالعربية فعلاً، أو وافق عليه بناءً على قول لورنس، حيث لم يرد ذكره في الرسائل التفصيلية التي بعث بها إلى والده أو زيد. وفي وقتٍ لاحقٍ، وخلال مأدبةٍ أقامها على شرفه اللورد والتر روتشيلد، أحد زعماء يهود بريطانيا وصهيونيٌ بارز، في 29 كانون الأول (ديسمبر) 1918، قال فيصل:

ما من إنسانٍ عربي حقيقي يمكن أن يشك أو يخاف من النزعة القومية اليهودية، فقد حكم الأتراك عبر تشجيع الشقاق والعداء بين الشعوب الخاضعة لهم ومعتقدات تلك الشعوب، ويؤسفني أن يفعل الآخرون الشيء نفسه الآن. لقد أخبرني أشخاصٌ ممن يعتبرون أنفسهم متحضرين أن اليهود يريدون مسجدنا في القدس كهيكلٍ لهم، وأن يمحوا فلاحي فلسطين ويجتثوهم. ومن جهتي، فأنا أعلم أنه لا يوجد يهوديٌ حقيقي يحمل هذه الآراء، وهذه التلميحات

لا تؤثر علينا مطلقاً، إذ أننا نطالب بتحرر العرب، وسنظهر غير جديرين بتلك الحرية إذا لم نقل لليهود الأن، كما أفعل، ـ أهلا بعودتكم للوطن ـ ونتعاون معهم إلى أقصى حدود قدرة الدولة العربية... إن مُثُل الدكتور وايزمان هي مُثُلنا، ونتوقع منكم، ودون طلبٍ منا، مساعدتنا في المقابل، إذ لا يمكن بناء دولةٍ في الشرق الأدنى دون مساعٍ حميدةٍ من القوى العظمى، لكن الأمر يتطلب أكثر من ذلك، حيث يستلزم اقتباس المثل العليا والأدوات والمعرفة والخبرة من أوروبا. ولجعل ذلك مناسباً لنا، يجب أن نحول ذلك من قالبه الأوروبي إلى القالب العربي ـ وأي وسيطٍ في العالم قد يمكن أن نجده أكثر ملاءمةً منكم؟ حيث أنكم تمتلكون معرفةً تامةً بأوروبا، وأنتم أبناء عمومتنا بالدم[40].

لم تختلف المشاعر التي عبَّر عنها فيصل في هذه المناسبة بخصوص المودَّة العربية اليهودية كثيراً عن تلك التي وردت في المذكرة التي صاغها من أجل مؤتمر السلام، لكنها اختلفت في لهجتها وفي التشديد عن البيان الذي أُرسل إلى التايمز والذي يحمل اسمه، والذي ظهر أنه يقبل فكرة الحقوق القومية اليهودية في فلسطين.

عُقد الاجتماع الثاني بين فيصل ووايزمان في لندن في مقر فيصل في فندق كارلتون أيضاً وذلك في 3 كانون الثاني (يناير) 1919. وهذه المرة رافق وايزمان نعوم سوكولوف، الأمين العام للمؤتمر الصهيوني العالمي، وهربرت صموئيل، مدير مكتب البريد في حكومة أسكويث في زمن الحرب والصهيوني المتفاني، ومن جديد كان لورنس هو المترجم الوحيد بين فيصل والوفد الزائر. قدَّم وايزمان لفيصل «اتفاقيةً» مكتوبةً بخط اليد باللغة الإنكليزية، حيث شرع لورنس حينها بشرح محتوياتها لفيصل. وقد تناول نص الاتفاقية الروابط العرقية والعريقة بين العرب واليهود، وضرورة التعاون بينهما من أجل تحقيق تقدم الدولة العربية الجديدة وفلسطين، وإنشاء «وكلاء معتمدين حسب الأصول» في الأقاليم المعنية، وتوفير ضمانات لتطبيق بنود إعلان بلفور، وحرية العبادة. وقد نصَّت الاتفاقية في مادتها رقم 4 ذات الأهمية على أنه «يجب اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتشجيع وتحفيز هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاقٍ واسع، وعلى توطين المهاجرين اليهود على الأرض بأسرع وقتٍ ممكن من خلال الاستيطان القريب والزراعة المكثفة للأراضي. وباتخاذ مثل تلك الإجراءات، ستتم حماية حقوق الفلاحين العرب والمزارعين المستأجرين، وستتم مساعدتهم في دفع تنميتهم الاقتصادية».

واستجابةً منه لتأكيدات لورنس والضغوط المتراكمة عليه من قبل البريطانيين للاعتراف الرسمي بالمطالبات الصهيونية، ودون أن يتسنى له قراءة النص الإنكليزي، وافق فيصل على التوقيع على الاتفاقية، لكنه أضاف بعد ذلك إضافةً تكميليةً بخط يده، تمت صياغتها بعباراتٍ شاملةٍ وقاطعة لدرجة أنه كان لها تأثيرٌ بإبطال الاتفاقية. ففي الواقع فقد كان توقيع فيصل

مشروطاً بوفاء الحكومة البريطانية بوعودها فيما يتعلق باستقلال العرب، كما ورد في مذكرته التي بعث بها إلى وزارة الخارجية قبل أيامٍ قليلة. وقد ورد في الإضافة التكميلية ما يأتي: «سأوافق على البنود المذكورة أعلاه شريطة حصول العرب على استقلالهم، كما هو مطلوب في مذكرتي المؤرخة في 4 كانون الثاني (يناير) 1919، إلى وزارة الخارجية في حكومة بريطانيا العظمى، ولكن في حال القيام بأدنى تعديلٍ أو خرق [فيما يتعلق بالمطالب الواردة في المذكرة]، فلن ألتزم بكلمةٍ واحدة من هذه الاتفاقية والتي ستُعتبر باطلةً وليس لها أية قيمةٍ أو صلاحية، ولن أكون مسؤولاً بأي شكلٍ من الأشكال»[41]. كانت ترجمة لورنس التقريبية للإضافة التكميلية التي قام بها فيصل والتي قدمها إلى وايزمان سيئةً للغاية، وربما مضلِّلةً عن عمد، فهو لم يشر إلى مطالب فيصل المحددة من أجل الاستقلال العربي في الإضافة التكميلية التي كتبها، والتي من الواضح أنها شملت عرب فلسطين. ولم يتم الإعلان عن الاتفاقية حتى عام 1936، عندما كشف عنها وايزمان لأول مرة في رسالةٍ بعث بها إلى التايمز، لكنها سُلِّمت للوفد الأمريكي في مؤتمر السلام من قبل الحركة الصهيونية، دون ذكر الإضافة التكميلية التي أوردها فيصل بالعربية أو ترجمة لورنس (الخاطئة) لها، وقد أدت دورها في موقف المؤتمر الإيجابي من المطالب الصهيونية.

عندما غادر فيصل الاجتماع مع وايزمان لتفسير ما قام به لمستشاريه الذين كانوا في جناحٍ قريبٍ من المكاتب في فندق كارلتون، قوبل بتعابير من الصدمة والذهول، إذ كيف يمكنه أن يوقِّع على وثيقةٍ كتبها أجنبي لصالح أجنبي آخر باللغة الإنكليزية، وهي لغةٌ لا يفقه فيها شيئاً؟ فردَّ فيصل على مستشاريه كما هو مسجلٌ في مذكرات عوني عبد الهادي قائلاً: «لديكم الحق في أن تتفاجؤوا بتوقيعي على مثل هذه الاتفاقية المكتوبة باللغة الإنكليزية، لكنني أؤكد لكم أن دهشتكم ستزول عندما أخبركم أنني لم أوقِّع على تلك الاتفاقية إلا حين اشترطت كتابياً أن موافقتي على التوقيع عليها مشروطةٌ بقبول الحكومة البريطانية على المذكرة السابقة التي قدمتها إلى وزارة الخارجية... [هذه المذكرة] تضمنت المطالبة باستقلال الأراضي العربية في آسيا، بدءاً من الخط الذي يبدأ من الشمال عند الإسكندرونة ـ ديار بكر وصولاً إلى المحيط الهندي جنوباً. وفلسطين، كما تعلمون، تقع ضمن هذه الحدود... لقد أكدت في هذه الاتفاقية قبل التوقيع عليها أنني لست مسؤولاً عن تنفيذ أي شيء فيها إذا جرى السماح بإجراء أي تعديلٍ على مذكرتي»[42].

وبغض النظر عن تأكيدات فيصل لمستشاريه بأنه من خلال كتابته للإضافة التكميلية، فإنه تجنب أي شراكٍ كان من الممكن أن يتم نصبها له، إلا أن تصرفه ذاك كان خطيراً، إن لم يكن مُهلِكاً تماماً، إذ كانت تلك الاتفاقية إحدى الوثيقتين التي وقّعهما واستغلها الصهاينة لاحقاً للتدليل

على أن خططهم في فلسطين كانت تحظى بمعرفة وموافقة العرب المسبقتين[43]. وقد أدرك فيصل لاحقاً الحماقة التي ارتكبها بإلحاق توقيعه على الاتفاقية مع وايزمان، ولو أنها تضمنت إضافةً تكميليةً من جانبه. ولعله شعر بخداع لورنس والبريطانيين له، ففي حديثه إلى أحد الصحفيين في آذار (مارس) 1920، حيث كانت معرفته بمعطيات الشؤون الدولية التي لا ترحم قد تعاظمت تعاظماً كبيراً، اعترف فيصل بالضبابية التي كانت تكتنف رؤيته السابقة ازاء النوايا الصهيونية، فقد اعتقد أنه بالإمكان ايجاد أرضياتٍ للتعاون العربي اليهودي في فلسطين، لا سيما بعد سلسلة التطمينات التي قدمها له كلٌّ من هوغارث ووايزمان ولورنس بأن الصهاينة لا يسعون إلى إقامة دولةٍ مستقلةٍ في فلسطين، وأن هدفهم هو اتاحة ازدهار الوجود اليهودي هناك دون المساس بالحقوق والمصالح العربية[44]. لقد كان اعتماد فيصل على لورنس في تلك الأيام الأولى في أوروبا أمراً لا مناص منه، غير أن لورنس كان أيضاً مسؤولاً في النهاية عن ضمان إلا يكون فيصل بعيداً كثيراً عن المواقف السياسية البريطانية الرئيسة. ولعله ـ أي لورنس ـ قد شتم وانتقد الغموض والالتباس والمخادعة التي شابت السياسة البريطانية في الشرق الأدنى ـ حيث سخر منها بقسوة في مراسلاته الخاصة ـ إلا أنه مع ذلك كان يتشارك مبادئها الضمنية، إذ لم يكن الحفاظ على المصالح البريطانية وبسط النفوذ والسيطرة البريطانية على الشرق الأدنى بعيداً عن ذهنه، بالرغم من أنه سعى وراء ذلك بطريقته الخاصة، فبالنسبة له كانت إعادة تشكيل الشرق الأدنى نوعاً من المغامرة، وكان بالإمكان تقديم المشروع الصهيوني في فلسطين، على الرغم من تعارضه المتأصل مع الاستقلال العربي، كمصدرٍ مهم لدعم العرب. وفي معرض كتابته إلى آلان دوناي في وقتٍ لاحق من عام 1919، عبَّر لورنس عن فكرته الخيالية بأن الصهاينة يمكنهم تمويل الشرق بأكمله، وليس سوريا والعراق فحسب، كون فلسطين لا تشكل سوى اقليمٍ صغيرٍ جداً بحيث لا تعدو كونها اهتماماً عابراً للممولين الكبار![45] وبوجود حلفاءٍ بهذه القوة والنفوذ، سوف يتعزز موقف فيصل كثيراً في مواجهته مع الفرنسيين.

تركت أيام فيصل في لندن أثراً على سلوكه الشخصي. وقد كتب عوني عبد الهادي في مذكراته:

«كانت الأيام القليلة التي قضاها الأمير فيصل في لندن كافيةً للتأثير عليه بشكلٍ كبير، حيث نقلته من كونه أميراً عربياً نبيلاً منغمساً في النمط البدوي إلى أميرٍ يحمل ذهناً عصرياً. وبرأيي، فإن اختلاط الأمير مع طبقة اللوردات في لندن، واحتكاكه بالإنكليز في اجتماعاتهم الخاصة وعلى موائد العشاء، وحياة الرخاء لدى الإنكليز عموماً، ترك بصماته عليه، حيث لاحظنا ذلك بوضوح في الطريقة التي غيّر بها الأمير سلوكياته. فالأمير الذي عوَّدنا إلا يدخل أي اجتماعٍ إلا بردائه العربي، وألا يدخل أحدٌ بحضوره إلا بزيه الرسمي، والذي لا يسمح لأحدٍ بأن يتحدث إلا بإذنٍ شخصي منه،

بدأ يرتدي قبعاتٍ غريبة الشكل بدلاً من العمامة [عند العرب]، [وأخذ] يرتدي معاطف البونجور أو الفروك بدلاً من المعطف الإسطنبولي الرسمي والعباءة. كان يستند على ذراعي أحد مرافقيه وهو يقوم بجولاته الترفيهية في شوارع لندن أو فنادقها، شأنه شأن العديد من أبناء ملوك أوروبا الذين احتشدوا في شوارع لندن»[46].

قد يتم تفسير تلك الكلمات على أنها تصويرٌ كاريكاتوريٌ للحاكم القادم من بلدٍ متخلفٍ والذي يقلِّد نمط الحياة الغربية بطريقةٍ سخيفة. إلا أنه، وأثناء وجوده في أوروبا، سعى فيصل إلى الاعتراف به كشخصٍ ذو عقليةٍ معاصرة وإلى تبديد أي انطباعٍ بين قادة وشعوب أوروبا بأنه يمثل بطريقةٍ ما أسرةً أو مجتمعاً متخلفاً، فقد كان بحاجةٍ لإثارة إعجاب العالم وللإشارة إليه أن العرب قد ارتقوا إلى منزلة الشعب «المتحضِّ».

ومع حلول العام الجديد، شهدت زوبعة النشاط الاجتماعي في الأيام الأخيرة من عام 1918 حضور فيصل مأدبة غداء استضافها عمدة لندن في 30 كانون الأول (ديسمبر) 1918، وكان من بين الضيوف السير آرثر هنري مكماهون واللورد روتشيلد. وقد كتبت صحيفة التايمز في تقريرٍ لها حول الاجتماع: «قام السيد العمدة، الذي اقترح نخباً بصحة الأمير، بشكره على الخدمات الرائعة التي قدمتها قواته الباسلة في تحرير الأرض المقدسة من الحكم التركي المقيت. ورداً على ذلك، قال الأمير إن العرب كانوا يقاتلون من أجل مبادئ الحرية والعدالة العظيمة التي كانت مقدسةً للغاية لدى الحلفاء وتناقض الهيمنة التركية. وقد كان سعيداً بأنهم قد حظوا بتعاطفٍ حقيقي من الشعب البريطاني في مهمتهم وقضيتهم تلك». لكن البلاد التي خلَّفها وراءه لم تغب عن باله أبداً، فرسالته الأخيرة عام 1918، بتاريخ 31 كانون الأول (ديسمبر) 1918، كانت موجهةً إلى شقيقه زيد في دمشق. وطمأنه فيها على حسن نوايا بريطانيا وولائها، والآمال الكبيرة التي يعلقها على مجيء الأمريكيين، والدعم الراسخ للاستقلال الذي كان يتلقاه من الجالية السورية في أمريكا. وقد أنهى رسالته تلك بالإشارة إلى كآبة لندن في الشتاء، والليالي الطويلة مع غروب الشمس عند الثالثة مساءً، والغيوم والضباب اللذان يحجبان أشعة الشمس خلال النهار. وتنهد مُردِّداً، «بلادي وإن جارت عليَّ عزيزةٌ»[47].

هوامش الفصل العاشر

1. المملكة العراقية مديرية الإعلام، مرجع سابق، ص 55.
2. إدوارد بريموند، مرجع سابق، ص 310 ـ 311.
3. FO 371/3418، E. Vicars (القنصل العام البريطاني، ليون) لوزير الخارجية، لندن، مقتبس في جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص. 1111، الحاشية 49.
4. السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 97.
5. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 1، ص 92.
6. ترأس ابن غبريت جمعية خيرية إسلامية وكان مديراً للمعهد الإسلامي باريس. اعتقد الوفد المرافق لفيصل أن قدراته في الترجمة ضعيفة نوعًا ما، ربما بسبب الاختلاف بين اللهجات العربية في شمال إفريقيا والشرق الأدنى.
7. Edouard Brémond، مرجع سابق. ص 315 ـ 316.
8. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 1.
9. المرجع نفسه، ص 316 ـ 317.
10. عوني عبد الهادي، مذكرة عوني عبد الهادي، تحرير. خيرية القاسمية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2002 ص. 49 ـ 50.
11. المرجع نفسه، ص 51.
12. المرجع نفسه، ص ص 51 ـ 52.
13. المرجع نفسه، ص317.
14. المرجع نفسه، ص 318.
15. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 251 ـ 252.
16. المرجع نفسه، ص 250.
17. المرجع نفسه، ص 52.
18. المرجع نفسه، ص 50 ـ 51.
19. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 589 ـ 590.
20. المرجع نفسه، ص. 1111، الحاشية 50.
21. المرجع نفسه، ص. 1111، الحواشي 55 و56.

22. المرجع نفسه، ص. 1111، الحاشية 59.

23. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 252.

24. التايمز، الأربعاء 11 ديسمبر 1918، ص 8. بعد أيام قليلة كتب لورانس مقالاً لصحيفة التايمز، جزئياً لتصحيح إهمال الصحافة لزيارة فيصل، شدد فيه على المساهمة العربية في المجهود الحربي.

25. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 252 ـ 53.

26. المرجع نفسه، ص 252.

27. المرجع نفسه، ص 256.

28. المرجع نفسه، ص 252.

29. في الرسالة نفسها إلى والده المؤرخة 25 كانون الأول (ديسمبر) 1918، ناقش فيصل أيضاً الوضع المتدهور في اليمن وعسير، حيث كان الإدريسي يقوم بمحاولة أخرى من أجل الاستقلال التام. وقد فكر فيصل أن هذه المناطق يمكن أن تخضع للمناقشة خلال مؤتمر السلام، وفي غياب أي تمثيل لهذه الدول في المؤتمر، فقد أخبر فيصل والده بأنه يسعى إلى دفع اليمن للاستقلال ولكن مع ارتباط مرن مع حكم حسين في الحجاز. أما بالنسبة لعسير، فهو سيصر على ضمها كجزء من أراضي مملكة الحجاز.

30 .H. W. V. 1.142 ص ،

31. محمد عزت دروزة، مرجع سابق، ص 437 ـ 38؛ 371 4162/FO، 27 كانون الأول (ديسمبر) 1918.

32. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 208 ـ 210.

33 ـ أوضح الرئيس ويلسون موقف الولايات المتحدة في خطابه في عامي 1917 و1918. وفي النقاط الأربع عشرة في كانون الثاني (يناير) 1918.

34. هـ و. في تمبرلي، مرجع سابق، ص 144.

35 ـ 608 80/FO؛ 680 92/FO؛ سليمان موسى، مرجع سابق، ص 45 ـ 48.

36. هـ و. في تمبرلي، مرجع سابق، ص 143.

37. حتى جورج أنطونيوس، الذي كانت وجهات نظره بشأن فيصل مواتية للغاية، اضطر للاعتراف، «في ذهن فيصل، تطورت هذه النظرة تدريجياً إلى إيمان إيجابي بإمكانية التعاون العربي اليهودي في فلسطين». جورج انطونيوس، مرجع سابق، ص 285.

38. حاييم وايزمان، المحاكمة والخطأ، هاربر، نيويورك، 1949، ص 235 ـ 42. وصرح وايزمان أيضاً أن فهم فيصل للغة الفرنسية كان كافيًا لكسر ملل الحديث من خلال المترجمين الفوريين، لكن معرفته باللغة الإنجليزية كانت معدومة، وهي نقطة يبدو أنها تتعارض مع انطباع فون ساندرز.

39. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 436 ـ 437.

40. الوقائع اليهودية، 3 يناير 1919، ص 20.

41. جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص. 439. ينبع الارتباك في التواريخ من حقيقة أن المذكرة التي أشار إليها فيصل كانت في الواقع موقعة في 1 كانون الثاني (يناير) 1919. أرفق فيصل توقيعه بالملف ثم وقع فايتسمان باسمه.

42. عوني عبد الهادي، مرجع سابق. مرجع سابق، ص 56 ـ 57. كان لدى عوني تصور سلبي عن لورانس، ورأى أنه مدفوع بشكل أساسي بالمصالح البريطانية. رأى عوني أن موقف لورنس من الصهيونية داعم للغاية، وهو رأي شاركه أيضاً وايزمان في مذكراته.

43. والأخرى هي الرسالة المزعومة التي كتبها فيصل إلى فيليكس فرانكفورتر، عضو البعثة الصهيونية الأمريكية إلى مؤتمر السلام.

44. جوزيف جيفريز، فلسطين، الواقع: صعود القومية اليهودية والشرق الأوسط، مطبعة هايبريون، نيويورك، 1939.

45 .P. Knightly and C. Simpson ،The Secret Lives of Lawrence of Arabia ،Nelson، London.20 ـ 119 ص ،1969 ،

46. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 54 ـ 55.

47. سليمان موسى، مرجع سابق، ص260.

الفصل الحادي عشر: في مؤتمر باريس الأول للسلام

في 9 كانون الثاني (يناير) 1919 وصل فيصل والوفد المرافق له إلى باريس على متن القطار القادم من لندن. وقد كان من المقرر افتتاح مؤتمر باريس للسلام رسمياً في 18 كانون الثاني (يناير)، لكن مسألة تمثيل وفد الحجاز لم تكن قد تمت تسويتها بعد، إذ أن فيصل كان قد دخل ميداناً معادياً بشدة لمطالب العرب بالاستقلال. وقد رفضت الحكومة الفرنسية بوقاحةٍ الاعتراف بمكانته، واعتبرته وزارة الخارجية الفرنسية أنه مجرد مناهضٍ متهورٍ للفرنسيين وأن البريطانيين يتلاعبون به لتعزيز مصالحهم الخاصة في الشرق الأدنى على حساب فرنسا[1].

وقد انسحبت هذه العدائية لوجود العرب في مؤتمر السلام على الصحافة الفرنسية أيضاً، فقد صوَّرت فيصل بأسوأ صورةٍ كمتطفِّلٍ حجازيٍ طامحٍ للتدخل في شؤون سوريا، وكذلك كعقبةٍ أمام مهمة فرنسا الحضارية في سوريا ومطالباتها بوضع نظام وصايةٍ خاص على سكانها المستضعفين المفترضين (والموالين للفرنسيين). وقد كان فيصل أيضاً مدركاً تماماً حينها أن البريطانيين، الذين غالباً ما يؤيدون مواقفه علناً ويشجعونه، يمكنهم بسهولةٍ تبديل مواقفهم، بل وحتى نقضها خلال مفاوضاتهم الخاصة مع الفرنسيين. كما أن التوجيهات الفجَّة التي تلقاها من والده كانت سخيفةً، حيث لم تتضمن أي إحاطةٍ مثمرةٍ حول كيفية إجراء المفاوضات مع الحلفاء ـ بخلاف الاعتماد على حسن النية البريطانية ـ والضغط من أجل تحقيق الأهداف الرئيسة للثورة العربية. وفوق كل ذلك، فقد كان مؤتمر السلام مهتماً بشكلٍ أساسي بإعادة تشكيل أوروبا بعد هزيمة ألمانيا والنمسا وتفكك إمبراطوريتهما، حيث لم تكن قضايا الشرق الأدنى العربي لتحتل الأولوية الأولى ولم تكن لتشغل الكثير من وقت الزعماء الحاضرين في المؤتمر.

الاستعدادات والتخطيط

بطبيعة الحال، حظي فيصل رسمياً بحسن الاستقبال واللياقة الدبلوماسية المناسبة من جانب الحكومة الفرنسية، نظراً لمقامه الرفيع كأحد الحاضرين، وإن لم يكن يحظى بعد بغطاءٍ كاملٍ من الاعتماد الدبلوماسي، حيث نزل هو وطاقم الموظفين والمساعدين المرافقين له في المنزل الفخم للكونتيسه دي كيلرمان قبالة الشانزليزيه[2]. (إلا أنه جرى إنزال لورنس في فندق كونتيننتال، على مسافةٍ بعيدةٍ من مقر فيصل، ومن الفنادق الرئيسة التي كانت تقيم فيها الوفود

البريطانية، وهما أستوريا وماجيستيك). وهكذا بدأت قرابة خمسة أشهر من النقاشات واللقاءات والمفاوضات الشاقة التي وصفها لورنس بأنها «أسوأ ما مررتُ به، وكانت أسوأ بالنسبة لفيصل، لكنه تعلم منها فنّ السياسة برمَّته»[3].

تمثلت المهمة الأولى لفيصل في التثبُّت من نوايا فرنسا تجاه وفده، وتبديد الاعتراض الفرنسي على جلوس الوفد العربي في المؤتمر، فعندها فقط ستُتاح له الفرصة لعرض القضية العربية على قادة الحلفاء. لم تكن لقاءاته الأولى مع القادة والمسؤولين الفرنسيين مشجعة، فبعد وقتٍ قصيرٍ من وصوله إلى باريس، قام فيصل بزيارة مجاملة إلى كليمنصو، الذي أدلى ببعض الملاحظات العامة حول الاعتراف بالعرب على أنهم شركاء في القتال[4]. لكن، في 16 كانون الثاني (يناير)، وقبل يومين من الافتتاح المقرر لمؤتمر السلام، قام مساعد مدير القسم الآسيوي بوزارة الخارجية الفرنسية، جان غوت، بزيارة فيصل. ولاحقاً يستذكر عوني عبد الهادي، الذي كان حاضراً في الاجتماع، ما أسفر عنه ذلك الاجتماع، حيث أبلغ غوت فيصل بأن فرنسا رحبت به كزائر، لكنه أعرب عن أسفه الشديد لعدم تمكن فرنسا من الموافقة على تخصيص مكانٍ له في المؤتمر. كان تبريره لهذا الازدراء هو أن الحلفاء ككل لم يعترفوا بمملكة الحجاز، ولا بأبيه كملك، وقد كان هذا صحيحاً من الناحية العملية، حيث لم تكن الولايات المتحدة ولا اليابان قد اعترفتا رسمياً بعد بسيادة الحجاز. بيد أنه، وفي محاولةٍ يائسةٍ للتهدئة، أبلغ غوت فيصل أن فرنسا لن تعترض إذا قامت إحدى السلطات بالنيابة عنه[5]. كانت تصريحات غوت مزعجةً للغاية بالنسبة لفيصل: «جاء هذا الخبر بمثابة صفعةٍ شديدةٍ لفيصل. فهو الذي ترك وطنه ليعرض قضية شعبه في سبيل وحدته واستقلاله، قد بدأ يشعر أن قدومه إلى المؤتمر سينتهي بالفشل»[6]. غير أن معاناة فيصل لم تدم طويلاً، حيث أقنع لورنس وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، بضرورة العمل بحزمٍ على مسألة جلوس وفد الحجاز، وذلك قبيل اجتماعه مع نظيره الفرنسي، بيشون، ومع كليمنصو. وبعد ابداء بعض الاعتراضات، وافق الفرنسيون على مضض على تمثيل الحجاز في المؤتمر بمندوبين[7].

بدت مخاوف فيصل من الفرنسيين ومكائدهم جليةً في رسالةٍ مفصلةٍ كتبها إلى والده في 19 كانون الثاني (يناير)، حيث كان يعتقد أن «فرنسا تريد اقتلاع سوريا من جذورها العربية وحكمها بلا منازع». حيث كان الفرنسيون يسوقون كل أنواع الحجج سعياً لتحقيق مآربهم، لا سيما عبر تصوير الحجازيين على أنهم متطفلون، والتأكيد حيثما أمكنهم على الطبيعة «الخاصة» لعلاقاتهم مع سوريا. وقد تذمَّر فيصل من أن والده لم يقدّم له الكثير من الأدلة الوثائقية لدعم قضيته، مما جعل موقفه التفاوضي ضعيفاً جداً[8]. فهو لم يكن مطَّلعاً على تفاصيل مراسلات حسين ـ مكماهون، ومن ثم لم يستطع استخدامها لتعزيز قضيته من أجل الاستقلال العربي، حيث كان

على علمٍ بالوثائق وطلب من والده الحصول عليها، لكن حسين ردّ بأن نص هذه الوثائق موجودٌ في لندن وأنه ليس بحاجةٍ حقيقيةٍ إليها[9]. وما لا يمكن تفسيره هو السبب وراء عدم اعتبار حسين أنه من المناسب أن يُطلع فيصل على فحوى تلك المراسلات قبل مغادرته إلى مؤتمر السلام، إذ لا يمكن بالتأكيد أن يقتصر السبب في ذلك على ثقته بأن يراعي البريطانيون ما اعتبره اتفاقاً معهم بمصداقيةٍ تامةٍ، بل يُرجَّح أن السبب قد نبع من حاجته إلى الاحتفاظ بأكبر قدرٍ من السيطرة على المفاوضات، وتزويد فيصل بالمعلومات المهمة تدريجياً وعند الضرورة القصوى وحسب.

وعلى الرغم من غياب النصوص المهمة لمراسلات حسين ـ مكماهون، تعيَّن على فيصل أن يطور استراتيجيةً تفاوضيةً في التعامل مع الحلفاء. وقد استطرد، في الرسالة نفسها التي بعث بها إلى حسين، إلى رسم الخطوط العريضة للقضية التي كان سيطرحها أمام الحلفاء.

«أنا أمثِّل والدي والجيش العربي الذي اعترفت القوى الثلاث جميعها بأنه شريكٍ في القتال. لقد قدمت إلى أوروبا لأدافع عن العرب وأطالب بحقوقنا، باسم الملك [حسين] والجيش المقاتل الذي يتكون من كل العرب... اطلب من القوى عدم تقرير أي شيءٍ يتعلق ببلادي التي جرى رسم [حدودها] شمالاً بجبال طوروس وديار بكر، إلا بعد أخذ آراء سكان تلك البلاد التي يتكون منها الجيش العربي. فلأهل هذه البلاد الحق في انتخاب الحكومة التي يريدونها، وعلى القوى الاعتراف بقرارهم المستقل... إن أي قرارٍ يخالف هذا المبدأ سيجابه بالرفض من قبلنا. وسأقول ذلك لأن مبادئ الحكومة الأمريكية، وزعيمها، ويلسون، وبقية القوى تؤكد على أن الشعوب ـ وليست الحكومات ـ هي من لها الحق في تقرير مستقبلها. وهكذا، لا يمكن لأحدٍ، لا سيما الفرنسيين، إبداء أدنى اعتراض. وأعتقد أن مثل هذا الكلام يتوافق تماماً مع التوجه العام للرأي العام، وسأحثُّ عليه بما أوتيت من عزيمةٍ وحماس. كما أود أن أقول أن جلالته [حسين] لا يعتزم على إجبار العرب على قبول سلطته، بل سيلتزم بالقرارات التي يتم التوصل إليها بمحض ارادتهم، وسيطالب بما أوتي من قوةٍ أن يكون للعرب حقٌّ صريحٌ في تقرير مستقبلهم. وإدارة مواردهم، وهو [حسين] لن يقبل أن تتدخل أي حكومةٍ في شؤونهم [العرب] وتدفعهم لقبول حكومةٍ لا تنبع من إرادتهم الصريحة، فالبلاد ليست حكراً على أحد، بل هي ملكٌ لأهلها، كما قال جلالته للسيدين سايكس وبيكو عند قدومهما إلى جدة، وكما أكدتم لهما بضرورة إتاحة الحرية المطلقة للشعب»[10].

ازدادت حنكة فيصل السياسية بما لا يقاس خلال الأسابيع القليلة الماضية، حيث انهمك في دهاليز الدبلوماسية الدولية وتناحرات القوى العظمى. كتب عوني: «أظهر سموه (فيصل) اهتماماً كبيراً بسياسات القوى الأوروبية، لا سيما الفرنسية منها، فقد وجدت أن سموه لم يكن قلقاً للغاية

بشأن تقلبات السياسة الأوروبية، بل كان مستعداً تماماً للخوض في الأسس التي يقوم عليها إعداد تلك السياسات. لقد فكّر ملياً في سياسات بريطانيا في ضوء تعليمات والده بخصوص ضرورة التزامه بنصائحهم»[11].

وتشير رسالته إلى والده، بعد ستة أسابيع فقط من وصوله إلى أوروبا، إلى نضجٍ وفهمٍ لدعائم السياسة الأوروبية وهو أمرٌ لافتٌ للغاية بالنسبة لشخصٍ لم يسبق له أن تعاطى مباشرةً مع الأساليب الأوروبية. وقد عكست استراتيجيته الحاجة إلى مساءلة الحلفاء حول تصريحاتهم المتعلقة بتقرير مصير الشعوب، كما أن مناشدته للرأي العام تشير إلى أكثر من مجرد فهمٍ بديهي بأن السياسيين في النظم الديمقراطية لا يمكنهم في نهاية المطاف أن يبتعدوا كثيراً عن قاعدتهم الانتخابية. إلا أنه، وفي معركته لحشد الرأي العام، أدرك أنه في وضعٍ حرجٍ للغاية، لا سيما مع الفرنسيين، حيث اشتكى بمرارةٍ من أن السياسيين والصحافة الفرنسيين قد قدما للجمهور الفرنسي وجبةً من الأكاذيب وأنصاف الحقائق حول القضية العربية، الأمر الذي أدى بدوره إلى تغذية الشعور بالازدراء للعرب لدى شريحةٍ واسعةٍ من ذلك الجمهور، وساعد في تعزيز صورة فرنسا كقوةٍ حضاريةٍ للشعوب المتخلفة. وقد نقل لوالده ما ورد في صحيفة (ليه تيمس) (Les Temps) الرسمية التي سخرت من فكرة أن تُحكم سوريا يوماً من قبل دولةٍ «غير متحضرةٍ» مثل الحجاز[12]. وكان فيصل يعلم أن فرنسا ستكون ألدَّ خصومه في المؤتمر، فلذلك، وبدلاً من انتقاد الصحافة الفرنسية والرأي العام على أساليبهما المتعصبة، فقد عزم على المحاولة بصبرٍ للتغلب على تحاملهما عن طريق ضرب المثل لهما وعبر المقابلات وبيانات وسياسات التهدئة التي من شأنها أن تقلل مخاوفهما من قيام دولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ في الشرق الأدنى.

في 18 كانون الثاني (يناير) 1919، افتُتح مؤتمر باريس للسلام رسمياً في (سال دورلوج) (Salle d'Horloge) الفخم في (كاي دورسيه) (Quai d'Orsay) في باريس. وقد تم اختيار التاريخ بعناية من قبل كليمنصو لأهميته الرمزية، حيث صادف تاريخ تتويج القيصر فيلهلم الأول في فرساي، كأول إمبراطورٍ لألمانيا الموحّدة بعد هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية 1870 ـ 1871. وقد حان دور فرنسا الآن للحكم على ألمانيا. اتخذ وفد الحجاز مكانه في المؤتمر. وكان المندوبان، فيصل ورستم حيدر، العربيين الوحيدين اللذان تم قبولهما في المؤتمر عندما افُتتح رسمياً في الساعة 3 مساءً. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، زار غوت فيصل واعتذر عن تعليقاته العصبية قبل بضعة أيام.

التجاذبات الأنغلو ـ فرنسية

صاحب افتتاح المؤتمر تجاذباتٍ بين بريطانيا وفرنسا حول حل القضية السورية. وتمثَّل الموقف البريطاني الرسمي بالتزام الحياد بين ادعاءات فرنسا وتلك الخاصة بفيصل، ورفضت بريطانيا اتخاذ أي موقفٍ نهائي في هذا الشأن خشية المساس بقرارات مؤتمر السلام. في الوقت نفسه، كانت هناك تيارات متنافسة داخل الوفد البريطاني في باريس تدفع باتجاهاتٍ مختلفة، حيث شعرت الأغلبية أن مستقبل أوروبا هو المهم، وأن القضية السورية لا تشكّل أولويةً، إذ ليس هناك من مصالح بريطانية حيوية على المحك، وإذا أصرّت فرنسا على حقوقها بموجب اتفاقية سايكس بيكو، فلن تستطيع بريطانيا فعل الكثير لمنعها. وقد أراد اللوبي الأنغلو ـ هندي(*)، بقيادة السير آرثر هيرتزل، تحويل بلاد ما بين النهرين إلى مستعمرةٍ كاملة، وما دام هذا يتماشى إلى حدٍّ كبيرٍ مع نوايا فرنسا في سوريا، فإن توصيات هذا اللوبي السياسية كانت لتراعي فرنسا في مسعاها لانتزاع السيطرة على سوريا ولبنان، حيث يمكن تجاهل المطالب العربية للاستقلال بأمان طالما أن وقائع القوة الإمبريالية قد فرضت نفسها على الشرق الأدنى. أما التيار الثالث، الذي مثَّله لورنس وغيرترود بيل[13] والجنرال جيلبرت كلايتون، مستشار أللنبي السياسي، أفضل تمثيل فقد سعى إلى التوفيق بين الوعود والالتزامات والمصالح البريطانية المتضاربة ودعم استقلال دولة أو دول عربية، لكنها مع ذلك مرتبطة ببريطانيا[14].

وقد تناول كلايتون المعضلة التي واجهتها بريطانيا في الشرق الأدنى في مذكرةٍ مفصلة، حيث كتب أن بريطانيا كانت ملتزمةً بثلاث سياساتٍ متمايزة ولكنها غير متوافقة وهي: الاتفاقات مع حسين التي تضمنتها رسائل حسين ـ مكماهون، والتي ألزمت بريطانيا بدعم دولةٍ عربية أو كونفدرالية لتلك الدول، اتفاقية سايكس بيكو التي اعترفت فيها بريطانيا بهيمنة فرنسا على سوريا ولبنان، وإعلان بلفور الذي ألزم بريطانيا بدعم المشروع الصهيوني في فلسطين. وقد ذكر أن حقائق الوضع على الأرض جعلت تحقيق هذه السياسات مستحيلاً، فعرب سوريا، باستثناء المسيحيين الموارنة وأقلية صغيرة من بين شرائح أخرى من السكان، قد رفضوا ببساطة أي سيطرةٍ فرنسيةٍ على البلاد، ولم تكن فكرة دولة عربية واحدة قابلةً للتطبيق إذا تم تقسيم المنطقة إلى مناطق سيطرة من قبل القوى الإمبريالية التي كانت أنظمتها الإدارية وثقافتها السياسية مختلفة تماماً، كما

(*) اللوبي الأنغلو ـ هندي: المقصود به مجموع موظفي الإدارة البريطانية للهند، والتي يشترك بها مكتب الهند داخل وزارة الخارجية بلندن من جهة ونائب الملك البريطاني في الهند الذي يرأس الحكومة المركزية هناك، والتي كانت تدير مقاطعات الهند البريطانية، ويمتلك هؤلاء سياسات ورؤى متقاربة فيما يخص التعامل مع المستعمرات. (المُراجع).

كان هناك عداءٌ متزايدٌ للمشروع الصهيوني من جانب غالبية السكان العرب في فلسطين وسوريا.

من ناحيةٍ أخرى، كانت فرنسا مصممةً على ممارسة سيطرةٍ دون قيود على سوريا ولبنان، إذ كانت التعديلات على اتفاقية سايكس بيكو التي وافق عليها كليمنصو خلال رحلته إلى لندن في كانون الأول (ديسمبر) هي أقصى ما كان الفرنسيون على استعدادٍ للاعتراف به. وقد كان الالتزام البريطاني بإقامة دولةٍ عربيةٍ مستقلة من أكبر العوائق أمام الخطط الفرنسية، وهو ما كان الفرنسيون مصممين على إحباطه، فلم يتم ادخار أي جهدٍ للاستخفاف بفيصل وإهانته في الصحافة الفرنسية، وكانت وزارة الخارجية الفرنسية ترسل بانتظام مذكرات إلى نظيرتها البريطانية تتهم فيها الجيش البريطاني في سوريا بالتحيز ضد فرنسا والعمل على تقويض المصالح والمزاعم الفرنسية.

وقد مثّلت الولايات المتحدة مشكلةً محدقةً للفرنسيين، إذ أن الدعوات الأمريكية لتقرير المصير كأساسٍ لتشكيل حكوماتٍ وطنيةٍ في الدول الحديثة الخارجة من ركام ما بعد الحرب قد تعرقل فرص فرنسا في بسط سيطرتها على سوريا، وأي استفتاءٍ أو استبيانٍ سيجري في سوريا سيستدعي حتماً استقلالاً بمنأىً عن أي تشابكاتٍ مع فرنسا.

من جانبه، أقر فيصل بأهمية تأمين الدعم ـ أو على الأقل حسن النية ـ من الولايات المتحدة لإقامة دولةٍ أو دولاً عربيةً مستقلة. وقد كتب لأخيه زيد: «عملي هذه الأيام منصبٌّ على الأمريكيين. لقد وافقت على لقاء شخصياتٍ بارزةٍ لديهم وسألتقي قريباً على انفراد مع الرئيس ويلسون، وسأحسم الأمر معه بالطريقة المناسبة إن شاء الله. سوف أذكره بتنفيذ خطته المعلنة إلا وهي استطلاع الرأي العام في البلاد، وأعني بذلك إجراء استفتاءٍ في جميع الأراضي المحررة من الأتراك، ولا شك في أنه سيوافق على ذلك»[16]. وفي 20 كانون الثاني (يناير)، التقى فيصل وبضعة مقربين منه، بمن فيهم رستم حيدر، مع العقيد إدوارد هاوس، كبير مستشاري الرئيس ويلسون في باريس. وقد قدم فيصل الخطوط العريضة للقضية العربية، وطالب بإجراء استفتاءٍ للتثبت من الآراء في الأراضي العربية، في حال عدم وجود اتفاقٍ مشترك على ترتيب هذه الدول. وفي 23 كانون الثاني (يناير)، التقى مع وودرو ويلسون، ولم يكن راضياً جداً عن نتيجة المحادثات التي أجراها معه، حيث كان الأخير غير ملزمٍ فيما يتعلق بمطالب فيصل، فقد وعد فقط بأنه سوف يلتزم بمبادئه ويفعل ما يرى أنه صواب[17].

خطابه أمام مجلس العشرة

تمت دعوة فيصل لعرض قضيته شخصياً على الهيأة الرئيسة لصنع السياسات في المؤتمر، وهي مجلس العشرة[*]، في 6 شباط (فبراير)، بعد حوالي ثلاثة أسابيع من افتتاح المحادثات[18]. وقبل هذا الخطاب المهم للغاية، وزّع فيصل المذكرة المؤرخة في 1 كانون الثاني (يناير) 1919 على مندوبي القوى العظمى وهي التي كان قد أرسلها في وقتٍ سابقٍ إلى وزارة الخارجية. تم تقديم ملخص عن هذه المذكرة إلى المؤتمر في 29 كانون الثاني (يناير)، والذي أضاف إليه فيصل أنه استند في قضيته إلى المبادئ التي أعلنها الرئيس ويلسون، لا سيما النقطة الثانية من خطابه في ماونت فيرنون في 4 تموز (يوليو) 1918 والتي دعا فيها إلى حق تقرير المصير للأمم.

استغل فيصل الفترة التي أعقبت افتتاح المؤتمر، بانتظار الدعوة لمخاطبة مجلس العشرة، لتكثيف اتصالاته مع المندوبين، ومحاولة التأثير على الرأي العام الفرنسي بشكل إيجابي. ويذكر رستم حيدر في مذكراته جولةً مطوَّلةً من الاجتماعات مع كبار المسؤولين من دول الحلفاء ومآدب العشاء التي كان فيصل ضيف الشرف فيها. وقد أجرى فيصل تلك الجولات مع الوزراء والجنرالات ومحرري الصحف وأساتذة الجامعات وكبار الشخصيات العربية الذين يقيمون في باريس. ومن بين تلك الشخصيات كان عزت باشا العابد، مدبر شؤون السلطان عبد الحميد، الذي قدَّم روايته الخاصة للأحداث التي أدت إلى زوال الإمبراطورية، وأطرب آذان مستمعيه بآرائه اللاذعة حول «الإصلاحيين» وجمعية الاتحاد والترقي (CUP)[19]. قام غوت بزيارة فيصل مرةً أخرى، يتبعه بن غبريط [مترجمه] في كل مكان. وقد أقرَّ فيصل بأن لبنان قد يكون له وضعٌ مستقل، لكنه أصرَّ على أن الحكم الشرعي الوحيد لسوريا يجب أن يستند إلى إرادة الشعب التي تم التعبير عنها عبر الاستفتاء، وتجاهل احتجاجات غوت حول الحاجة إلى حماية الأقليات، مشيراً إلى أن الحلفاء كانوا يستعدون لتأسيس العديد من الدول القومية ذات الأقليات العرقية البارزة، والتي لا تستوجب أي منها حمايةً رسميةً من قوةٍ أجنبية، والعرب كانوا متقدمين شأنهم شأن الإغريق والرومانيين، الذين كان لديهم دولهم القومية الخاصة بهم، ولم يكونوا بحاجةٍ إلى مرشدٍ أجنبي، فالمستشارين والخبراء سيكونون موضع ترحيب، لكن هذا لا يقتضي مطلقاً فرض حكمٍ أجنبي على البلاد. وقد بدا أن الحوار مع غوت كان له وقعه، حيث أتى ابن غبريط في اليوم التالي ليعلن لفيصل أن الحكومة الفرنسية ستعلن قريباً سياستها الرسمية تجاه سوريا، مما أعطى انطباعاً بأن فرنسا قد تتراجع عن فكرة السيطرة المباشرة على البلاد[20]. وفي 30 كانون

(*) توزعت أعمال المؤتمر على مجلسين، أُطلق على الأول اسم (الأربعة الكبار أو مجلس الأربعة)، وضم الرؤساء وودرو ولسن ولويد جورج وكليمنصو واورلاندو، أما الثاني فسُمي (مجلس العشرة)، وهم الأربعة أنفسهم ووزراء خارجيتهم وممثلين اثنين عن اليابان. (المُراجع).

الثاني (يناير)، قرر الأربعة الكبار واليابان فصل الأراضي العربية وأرمينيا عن تركيا، والقبول ضمنياً بهويتهم المستقلة، لكن تلك القوى جعلت ذلك الاستقلال مشروطاً بوجوب تعيين سلطات انتداب لتوجيه تلك الدول الحديثة وتقديم المشورة لها نحو تحقيق الاستقلال الحقيقي. فقد بدا واضحاً أن الأراضي العربية وأرمينيا كانت تُعتبَر «أمانةً مقدسةً عُهِد بها إلى الحضارة»، وفقاً لبيان القوى العظمى. وبهذا دخلت المصطلحات المشحونة بالانتداب وسلطات الانتداب قاموس نظام ما بعد الحرب.

أتت الدعوة لفيصل لإلقاء خطابه أمام قادة الحلفاء على نحوٍ مفاجئٍ في الخامس من شهر شباط (فبراير)، مما منحه مهلة يومٍ واحدٍ فقط للتحضير للخطاب. وقد دوَّن حيدر في مذكراته أن «النبأ [بإلقاء الخطاب أمام مجلس العشرة] جاء بعد ظهر [5 شباط (فبراير)] متضمناً أن المؤتمر يرغب في سماع ممثلي الحجاز فيما يتعلق بمطالبهم الإقليمية... في الواقع، كنا ننتظر هذه [الدعوة] بصورةٍ يومية لكننا لم نتوقع أنها ستكون مفاجئةً إلى هذا الحدّ، حيث اعتقدنا أنهم سيمنحوننا يوماً أو يومين للاستعداد لها». لقد أراد فيصل كتابة ملاحظةٍ من شأنها أن تساعده في تنظيم أفكاره من أجل بيانه المرتقب، لكن لم يتم الإعداد لأي شيءٍ مسبقاً. وفي ذلك الحين وصل كل من سايكس ولورنس إلى مقر فيصل ومعهما ملاحظاتهما الخاصة، لكن فيصل طلب من فريق المستشارين لديه إعداد خطابه. وبعد العمل طوال الليل، خرج حيدر وعوني عبد الهادي والدكتور أحمد قدري ونوري السعيد، برفقة فيصل الذي كان يعرِّج عليهم باستمرار ليرى مدى تقدم العمل، بمسودةٍ وجدها فيصل مقبولةً. «كان الأمير يأتي بين الفينة والأخرى لسماع ما كتبناه، وكنا نتوافق على أجزاءٍ، ونعدل أجزاءً أخرى، ونضيف أفكاره. وفي منتصف الليل ذهب إلى فراشه، لكني لا أعلم ما إذا كان قد نام في تلك الليلة، فقد كان مضطراً لعلمه بخطورة الموقف، إذ أن الوقت قد حان للتحدث بصراحةٍ ولهذا كان مرتبكاً... وكيف للمرء إلا ينفعل وقد حان الوقت ليحصد ثمار عمله، وهذا يتطلب شجاعةً كبيرةً في الطرح»[21].

في 6 شباط (فبراير)، وهو يومٌ تاريخيٌ، لأنه شهد ظهور العرب لأول مرةٍ على الساحة الدولية، التقى فيصل مع حيدر لوضع اللمسات الأخيرة على مسودة خطابه[22]. وفي وقتٍ لاحقٍ من صباح ذلك اليوم، أتى لورنس وسايكس لإضافة تعليقاتهما، ولتصحيح النسختين الإنكليزية والفرنسية من المسودة، حيث أن فيصل كان سيلقي الخطاب باللغة العربية. كان سايكس مهتماً بألا يستعدي فيصل الرأي العام الفرنسي والكاثوليكي من خلال إدراج لبنان في مطالبه بدولةٍ عربيةٍ مستقلة، بينما أراد لورنس التأكد من أن فيصل لم يذكر فلسطين في سياق المطالب العربية بالاستقلال[23]. وفي وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهر، تم الانتهاء من مسودتي اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وانطلق فيصل، بصحبة حيدر ونوري السعيد وعوني عبد الهادي ولورنس، إلى كواي دورساي Quai

d'Orsay حيث كان مجلس العشرة في انتظارهم. التقى الوفد مع كليمنصو وبيشون والرئيس ويلسون في القاعة الكبرى بالمبنى، والذين سبقوهم فيما بعد إلى قاعة الاجتماعات، حيث كان من المقرر أن يجتمع مجلس العشرة. وبعدها، تمت دعوة فيصل ومرافقيه لدخول قاعة الاجتماعات، حيث كان في انتظارهم على طاولة المؤتمر: الرئيس ويلسون، روبرت لانسينغ، وزير الخارجية الأمريكية؛ لويد جورج، بلفور، فيتوريو أورلاندو، رئيس الوزراء الإيطالي؛ والوفد الياباني برئاسة الأمير سايونجي كينموشي رئيس الوزراء الأسبق. استقبل كليمنصو فيصل عند الباب، حيث قدَّمه للقادة الجالسين على الطاولة. أخذ فيصل مكانه في منتصف طاولة المؤتمر، وبعد وقفةٍ قصيرة، قال كليمنصو: الكلمة للأمير فيصل!»[24].

وقف فيصل وألقى خطابه مستنداً إلى نسخةٍ موسَّعةٍ من مذكرة 29 كانون الثاني (يناير) التي كانت قد أُرسلت سابقاً إلى المؤتمر. وبدأ كلامه بالقول: «يسعدني أن أنضمَّ إلى مجلسكم هذا الذي يضم القادة العظماء في العالم وأعتقد أن هذا المنبر العالي سيعامل الأمة العربية بإنصاف، لأنهم [العرب] يسعون للدفاع عن حقوقهم الطبيعية». ثم قام بإلقاء النص الرئيسي لخطابه، حيث كان يتوقف عن الكلام بفواصل زمنيةٍ منتظمة لإعطاء لورنس وقتاً لتقديم الترجمة الإنكليزية، والتي كانت تترافق في الوقت نفسه مع الترجمة الفرنسية لصالح كليمنصو بواسطة مساعد يجلس بجانبه. وحين اقترب من نهاية خطابه، طلب فيصل الإذن بقراءة الخطاب بأكمله دون أي مقاطعةٍ حتى النهاية. لقي الانسياب المتواصل للغة العربية، الذي ألقاه فيصل بنبراتٍ قويةٍ وموزونةٍ، وبنغماتٍ متفاوتة، التأثير المنشود لدى الحضور. وقد أشار حيدر في مذكراته إلى أن «أعضاء التجمع كانوا مفتونين حيث أنهم لم يسمعوا قط خطاباً أو أي نصٍ يُقرأُ عليهم باللغة العربية. ولا يمكنني أن أُعرب عن مدى تأثير الأصوات العربية الحلقية عليهم بشكلٍ رخيم، إلا أن علامات الدهشة كانت واضحةً على وجوههم». ثم قام لورنس بقراءة النسخة الإنكليزية من الخطاب بصوتٍ عالٍ، تبعه مسؤولٌ فرنسي في قراءة النسخة الفرنسية. كان ويلسون يومأ برأسه اعترافاً منه بالنقاط الرئيسة في الخطاب، بينما كان لويد جورج يبتسم وأورلاندو يهز برأسه موافقاً، فقط كليمنصو وبيشون كانا عابسين، حيث أصبح وجه بيشون أكثر تجهماً مع التقدم في الخطاب[25].

تمسَّك خطاب فيصل بشكلٍ وثيقٍ بمضمون مذكرته الصادرة بتاريخ 1 كانون الثاني (يناير). فبصفته ممثلاً لوالده، قائد الثورة العربية ضد الأتراك، طالب القوى بالاعتراف بالسكان العرب في آسيا، من الخط الممتد من الإسكندرونة إلى ديار بكر شمالاً، إلى المحيط الهندي جنوباً، بوصفهم شعباً ذا سيادة، كما أقرَّتهم عصبة الأمم. وقد استثنى الحجاز، التي كانت حينها مملكةً مستقلةً ومعترفٌ بها، وكذلك مستعمرة عدن التابعة للتاج البريطاني. كما قام بتكرار الأسباب التي

تجعل من العرب شعباً ذا سيادة وهي: أمجاد حضاراتهم الماضية، وما يمكن أن يساهموا به في المستقبل، حقيقة أنهم يتحدثون جميعاً لغةً مشتركةً، والحدود الطبيعية التي فصلتهم عن الأمم الأخرى، والموارد التي يمكن للدولة المشتركة التصرف فيها، وزيادة خطوط النقل والاتصالات بين مختلف أقاليم المنطقة، إذ أنه من الصعب العثور على أي مجموعةٍ أخرى من الناس تمتلك مثل هذه القواسم المشتركة. وقد حملت الملاحظات الختامية لفيصل ما يأتي: «لقد وعد الحلفاء الأمة العربية بنيل حريتها واستقلالها مع نهاية الحرب، وهاهم الآن قد خرجوا من الحرب منتصرين، فمن الضروري أن يلتزموا بتعهداتهم. وإنني على ثقةٍ من أن القوى العظمى ستهتم بخير الشعوب العربية أكثر من اهتمامها بمصالحها المادية [في الدول العربية]... المطالب القومية العربية تتفق تماماً مع المبادئ التي أعلنها الرئيس ويلسون والتي وافقت عليها جميع دول العالم»[26].

ساد الصمت قاعة الاجتماعات بعد أن أنهى فيصل خطابه. ثم سأل كليمنصو إذا كانت هناك أي استفسارات، فطرح لويد جورج استفساراً عن الأوضاع في العراق، حيث أجابه فيصل بأن معظم قواته النظامية وضباطه كانوا عراقيين وأنهم قاتلوا بإخلاص إلى جانب الحلفاء من أجل الاستقلال العربي. ثم طرح ويلسون سؤالاً مُلغَّماً، «فيما إذا كان يفضل [فيصل] لشعبه انتداباً واحداً أو أكثر؟ وذلك بالنظر إلى أنه تم اعتماد خطة الانتداب نيابةً عن عصبة الأمم. «فرد فيصل قائلاً: أنا مترددٌ في إبداء رأيي في هذا الأمر لما يترتب على ذلك من مسؤولية كبيرة، فوالدي هو الوحيد الذي يمتلك الحق في الإجابة على هذا السؤال. أما أنا فقد أتيت إلى باريس لتمثيل والدي في مؤتمر السلام وللمطالبة بالاستقلال التام والوحدة الكاملة لأراضي العرب المنفصلة عن الحكم التركي»[27]. فأصر ويلسون بسؤاله، «لكن إذا سألتك عن رأيك»، فأجاب فيصل، «مبدئي هو الوحدة العربية، فمن أجل هذا حارب العرب، ولن أقبل أي تقسيم لأراضينا وأسعى للاستقلال [للعرب]». وفي هذه اللحظة، طلب فيصل إرسال لجنة تحقيق دولية إلى الدول العربية لاستطلاع آراء السكان حول نوع الحكومة التي يسعون إليها[28].

عاد لويد جورج إلى الاستجواب وسأل فيصل عما فعله العرب بالضبط في الحرب. عندها وصف له فيصل بشيءٍ من التفصيل بداية الثورة العربية، والحملات ضد الأتراك في الحجاز ثم في شرق الأردن، وأخيراً الدخول إلى دمشق والحملة في سوريا. ورداً على تصريحات أحد المندوبين غير اللائقة بشأن العرب، أخذت الحمية فيصل فقال، «أمتي تمتلك إرثاً حضارياً عظيماً، وعندما كانت في أوج حضارتها، كانت الأمم التي تمثلها في حالةٍ من الفوضى والهمجية. أطلب منكم إلا تخونوا هذه الأمة التي خدمت قضية كل الحضارات». كان لكلمات فيصل الوداعية أثرها على الحضور الذين هزوا رؤوسهم موافقين. وقد ذكرت صحيفة ديلي ميل اللندنية في اليوم التالي أن «الأمير [فيصل] لم يتهرب من تذكير المندوبين بأن أمته كانت متحضرةً بالفعل عندما

كانت دولهم لا تزال تعيش حالةً من الهمجية»[29]. وبعد جولةٍ من الأسئلة، وقف فيصل وصافح يد كليمنصو وغادر القاعة.

ما أعاق فيصل هو عدم وجود أي وثائق كان يمكن أن تثبت بالتحديد للبريطانيين مجموعة الالتزامات التي قطعوها لوالده. وكان والده قد أخبره بنشوةٍ أن يطلب من البريطانيين مثل هذه الوثائق التي لم يفصِح عن وجودها في الماضي. وقد كتب فيصل إلى والده في 28 شباط (فبراير) شاكياً، «أُعلم جلالتكم أنني كتبت لكم عدة رسائل لم تردوا عليها إلا بالبرقيات. ما زلت في انتظار التعليمات التي ذكرتها سابقاً والتي لم أتلقَ شيئاً بشأنها حتى الآن. آمل إلا تكون قد ضاعت في الطريق (!)»[*] [30]. لكن، وفي اليوم التالي لخطاب فيصل أمام مجلس العشرة، ألمحت صحيفة ليه تيمبس، في هجومٍ لاذعٍ على الحسين واستراتيجيته «الإمبريالية» للسيطرة على الشرق العربي، إلى مراسلات حسين ـ مكماهون. وأدى ذلك إلى مشاحنةٍ بين صحيفة ليه تيمبس وعوني عبد الهادي، سعى خلالها عوني إلى دحض مزاعم الصحيفة. وقد لفت عوني انتباه فيصل إلى تلك المشاحنة، حيث نفى أيَّ علمٍ له بمضمون التبادلات بين حسين ومكماهون. عندئذٍ أمر فيصل عوني بالتوجه فوراً إلى لندن والطلب من وزارة الخارجية نسخاً من هذه الرسائل، إذا كانت موجودةً بالفعل. أقرت وزارة الخارجية بالمراسلات، وامتثلت لطلب فيصل، وأعطت عوني مجموعةً كاملةً من تلك المراسلات باللغة العربية، وقد أصيب فيصل بالصدمة، لأن والده حجب عنه مثل هذه الوثائق المهمة. وكان التفسير الوحيد الذي استطاع عوني الخروج به حول تكتُّم حسين الاستثنائي هو أن «الملك حسين اعتقد أن لا أحد، ولا حتى ابنه فيصل، يملك الحق في معرفة ما تم الاتفاق عليه نتيجة هذه التبادلات بينه وبين قوةٍ عظمى، وهي بريطانيا، حيث كان يثق ثقةً تامةً في نوايا البريطانيين»[31].

لم يكن فيصل الشخص الوحيد الذي طُلب إليه إلقاء خطابٍ أمام مجلس العشرة حول الشأن السوري، حيث طلبت وزارة الخارجية من الدكتور هوارد بليس، وهو رئيس الكلية السورية البروتستانتية في بيروت (والتي أعيدت تسميتها فيما بعد بالجامعة الأمريكية في بيروت)، تقديم بيانٍ رسمي حول سوريا إلى المجلس. كان بليس مسؤولاً أكاديمياً وجامعياً يحظى باحترامٍ كبير، ويمتلك معرفةً عميقةً وخبرةً في الشرق الأوسط. وقد كان فيصل يقدِّر والد هوارد، دانيال بليس، مؤسس الكلية، عالياً، وكذلك هوارد نفسه. فقد أطلق على دانيال بليس لقب «جد سوريا»، وعلى

(*) يتهكّم فيصل بمرارة في هذه النقطة، وهو يرى مطلبه المشروع في الحصول على النصوص الحرفية لمراسلات حسين ـ مكماهون لا يُلبى. وتجدر الإشارة في هذا الصدد أنه تم تداول مقتطفاتٍ غير رسمية منها في الديلي ميل سنة 1923، وتم تداول نسخاً من الرسائل في الصحف العربية، ثم نُشرت المقتطفات في تقرير لجنة بيل لعام 1937، ونُشرت كاملة في كتاب جورج أنطونيوس عام 1938، الصحوة العربية. (المُراجع).

هوارد بليس «أب» سوريا[32]. ألقى بليس كلمةً أمام المجلس في 13 شباط (فبراير) ووجَّه نداءً حماسياً من أجل تشكيل لجنة تحقيق للتأكد من آراء الشعب السوري[33]، وكان قد كتب في وقتٍ سابقٍ إلى الوفد الأمريكي في باريس ليقول إنه يتوقع أن يختار الشعب السوري الولايات المتحدة أولاً كسلطة انتداب، ومن ثم بريطانيا.

وبعد التصريح الذي أدلى به بليس، صمم الفرنسيون على أن شكري غانم، وهو مواطنٌ فرنسي من أصل سوري عاش خارج سوريا لمدة أربعين عاماً، يجب أن يُلقي خطاباً أمام مجلس العشرة. كان غانم يشغل منصب رئيس اللجنة المركزية السورية التي ترعاها فرنسا. وقد انبثقت اللجنة السورية عن مؤتمرٍ أُقيم في مرسيليا بدعمٍ فرنسي، وقام غانم بتنظيمه في أوائل كانون الثاني (يناير) 1919، حيث أصدر قراراً بوضع سوريا تحت حماية فرنسا. انزعج فيصل بشدةٍ حين سمع أن غانم قد دُعي لإلقاء كلمةٍ أمام المجلس، وبعث حيدر ليقدم شكوى رسمية للمؤتمر حول دعوة غانم، وطالب بأن يكون حاضراً لدى إلقاء غانم لخطابه. لكن طلبه رُفِض، حتى مع احتجاجه بأن حضوره كان بدعوةٍ رسميةٍ كمندوبٍ رسمي إلى مؤتمر السلام، بينما مجيء غانم كان بناءً على طلبٍ من طرفٍ أخر وليس له صفةٌ رسمية[34]. ألقى غانم خطاباً طويلاً ومنمّقاً، هدَفَ بشكلٍ أساسي إلى تقويض مطالب فيصل بتمثيل المتحدثين باللغة العربية في الشرق الأدنى. كما دعا إلى فرض انتدابٍ على سوريا دون مشاورات، ورفض ببساطةٍ فكرة إجراء استفتاءٍ رسمي لاستطلاع الرأي العام حول هذه القضية الحيوية[35]. لم يلقى خطاب غانم، الذي استمر لساعتين ونصف، استحساناً بالمطلق، فبدأ ويلسون بالمشي في القاعة جيئةً وذهاباً، وغانم يستطرد دون توقف، والتفت كليمنصو إلى بيشون، وسأله بغضب، «لماذا أتيت بهذا الشخص إلى هنا أساساً؟»[36]

أثارت حقيقة أن مجلس العشرة قد وافق على الاستماع إلى بياناتٍ أخرى حول القضية السورية لدى فيصل بعض القلق، فكان بحاجةٍ إلى إعادة تأكيد مكانته وتمييزها عن أمثال غانم بالخصوص. ففي 15 شباط (فبراير)، كتب إلى شقيقه زيد في دمشق يطلب منه الطلب من شخصياتٍ سوريةٍ بارزة إرسال برقياتٍ إلى باريس، يخوِّلونه فيها بتمثيلهم في مؤتمر السلام[37]. تجمع حشدٌ كبير من الأعيان والزعماء الدينيين والمثقفين والمسؤولين في المركز الحكومي بدمشق، دار الحكم، حيث خاطبهم علي رضا الركابي. وقد أخبر الركابي الحضور عن مهمة فيصل في باريس وحاجته إلى تعزيز موقفه التفاوضي عبر بيانٍ واضح بالدعم من القيادات البارزة في سوريا. وقد برز إجماعٌ على ضرورة تقوية موقف فيصل من خلال منحه قاعدة دعمٍ عريضةً من قبل القيادة الطبيعية للمجتمع السوري والحكومة في مطالبه بالاستقلال الكامل لسوريا. فتم إعداد البرقيات وإرسالها إلى مؤتمر السلام وإلى قادة الدول العظمى، مؤكدين فيها على أن فيصل

مفوضٌ بالتحدث نيابة عنهم في المؤتمر، ومجددين التأكيد على مطالبهم باستقلال سوريا[38]. وكان من بين الموقعين الحاخام الأكبر وبطريرك الروم الكاثوليك.

وفي اليوم نفسه، فقدَ فيصل سكرتيره الخاص فايز الغصين الذي طُلب منه المغادرة إلى سوريا. كانت مغادرة الغصين موضع شبهةٍ، حيث يتهمه حيدر في مذكراته باللصوصية وبأنه كان عميلاً للفرنسيين. فهو لم يكن يحظى بشعبيةٍ بين حاشية فيصل، الذين رأوه سمجاً، ومغروراً، وضيق الأفق، لكنه كان مع فيصل منذ الثورة العربية. وفي النهاية كان فيصل سعيداً بمغادرته[39]، واستغل مناسبة رحيله لتعزيز وفده بإضافة علمين لامعين من سوريا ولبنان وهما، السياسي فارس الخوري المسيحي، والأمير الدرزي أمين أرسلان. كما استعد لإرسال وفدٍ مؤلفٍ من المسيحيين بشكلٍ رئيس إلى الأمريكيتين للتواصل مع الجاليتين السورية واللبنانية في المهجر.

الانطباعات عن فيصل: ديفيد لويد جورج وروبرت لانسينغ

برز وفد الحجاز في المؤتمر على الرغم من قلة عدد أعضائه ووضعه الهامشي. فقد شكَّل الثنائي فيصل ولورنس أكثر من مجرد ندٍّ للأربعة الكبار من حيث اهتمام الدعاية بهما، وقد وفّرت لهما الصحافة تغطيةً جيدة. وتشكلت بالفعل معالم أسطورة لورنس العرب، حيث تفرَّد لورنس بحضورٍ ملحوظٍ وهو يرتدي عمامته العربية. وقد لاحظ كل من كتب عن المؤتمر تقريباً حضور لورنس، إلا أن مكانة فيصل وهيبته تركا تأثيراً عميقاً بالقدر نفسه على من صادفوه. كتب ديفيد لويد جورج في مذكراته عن مؤتمر السلام:

«عرض الأمير فيصل قضيته على مؤتمر السلام في كاي دورسيه Quai d»Orsay في السادس من شباط (فبراير) عام 1919، برفقة الكولونيل لورنس. تهندم هذان الرجلان البارزان بعباءتين منسدلتين من اللون الأبيض اللامع واللتين كانا يرتديانها حينما قادا محاربيهما الفرسان لقتال الأتراك. وقد أضافت روعة الزي الشرقي لفيصل، الذي كان مُحيَّاه العقلاني وعيناه اللامعتين ليتركا انطباعاً لدى أي جمهورٍ، تميزاً إضافياً لمظهره. وقد عرض قضيته بوضوحٍ وإيجازٍ ووقار. لقد تحدث بنبرةٍ منضبطةٍ إلى أبعد الحدود، ولم ينفعل سوى مرةٍ واحدةٍ فقط، حين أدلى أحد المندوبين عن غير قصدٍ بملاحظةٍ خرقاء بدت وكأنها تتناول العرب كما لو كانوا شعباً جاهلاً أو شبه متحضر، حيث انفجر على الفور متحدثاً بلهجةٍ صارمةٍ ومجلجلة: «إني أنتمي إلى شعبٍ امتلك حضارةً حينما كان سكان كل البلاد المُمثَّلة في هذه القاعة من البرابرة». ولدى محاولة سنيور أورلاندو [رئيس الوزراء الإيطالي]، لجم هذا الهجوم، بصفته ممثلاً لروما القديمة، رد عليه فيصل بحدة: «أجل، حتى قبل ظهور روما»[40].

بيد أن من ترك صورةً محبوكةً بشكلٍ مفصَّلٍ عن فيصل في المؤتمر كان روبرت لانسينغ، وزير خارجية ويلسون[41]. حيث كتب في العام 1922، متحدثاً عن فيصل:

من بين العديد من ممثلي الأعراق والجنسيات والمذاهب البارزين الذين اجتمعوا في باريس للتفاوض على معاهدات السلام ولاستعادة النظام السياسي والاجتماعي الذي مزقته الحرب، قدر المستطاع، لم يكن هناك أحدٌ ملفتٌ للنظر في مظهره أكثر من هذا الأمير القادم من المدينة المقدسة [مكة]... فقدُّه الممشوق والمنتصب، والذي يجعله يبدو أطول مما هو عليه فعلاً، وعباءته السوداء المنسدلة وعمامته الذهبية، مع لثامه المطرز بأناقةٍ متدلياً بإتقانٍ على كتفيه من تحت حافة العمامة، زاد من وقاره في مشيته ومن التعابير الجادة التي لم تفارق سحنته أبداً. إذ لا يمكن لأحدٍ أن ينظر إلى الأمير فيصل دون أن يخامره شعورٌ فطريٌ بأن هذا الرجل قد خُلِق ليكون قائداً للرجال، رجلٌ يستحق أن يكون قائداً للرجال.

كانت ملامح الأمير العربي واضحة المعالم ومتناسقةً ونموذجيةً بالنسبة لعرقه. فقد كان شعر رأسه ولحيته أسوداً ومجعَّدٌ قليلاً، وكانت شفتاه، اللتان يغطيهما جزئياً شاربٌ صغير، حمراوان وممتلئان، لكنهما لا تظهران فضاضةً أو شهوانية. كانت بشرته شاحبةً ومرقَّشة قليلاً... كان وجهه نحيفاً، وعلى الرغم من وجود بضعة خطوطٍ وتجاعيد عليه، إلا أنه كان يحمل تعابير القوة والجدية. كانت عيناه الداكنتان هادئتين ولطيفتين، لكن يمكن للمرء أن يتخيل بسهولةٍ أنهما ستشتعلان فجأةً في حالات النزاع أو سيطرة المشاعر العنيفة. كان الصدق والصراحة يملآن نظراته المباشرة، فلم تكن تعابيره تحمل أي نوعٍ من الحيلة، أو ذلك المكر الخفي، الذي غالباً ما تكون من سمات خطوط الوجه للسكان الأصليين في جنوب غرب آسيا.

لطالما اتسمت تحركات الأمير فيصل بالتأني والهيبة، فقد كان يتحرك ويتحدث بتروٍّ ووقار، حيث يشعر المرء بمخزون القوة الذي يمتلكه وقوة شخصيته، بينما يتملكه شعورٌ بأنه يمتلك تفكيراً عميقاً يجعله يسمو فوق مكانة الشخص العادي... كل شيءٍ في الأمير جديرٌ بالاحترام، إذ يبدو عليه سمو الشخصية ونبل الهدف. كان ذلك هو الانطباع الذي تركه لدي... وهو الانطباع الذي ظل على حاله عندما تعرفت عليه أكثر وقدَّرت قوته الفكرية التي تنسجم تماماً مع خصائصه الجسدية[42].

وقد قدّم لانسينغ الإشادة المناسبة للورنس في الثورة العربية، لكنه ذهب بعد ذلك ليقول بأن هذا:

لا يقلل بأي حالٍ من الأحوال من فضل الأمير فيصل في نجاح الحرب العربية، فرجال القبائل قد تجمعوا حوله هو بصفته مسلماً، ومن أجله هو هرعوا إلى المعركة ضد الأتراك. لقد كان تجسيداً لقضيةٍ، والإلهام الحي للوحدة العربية والاستقلال، وبدونه كان النجاح مستحيلاً... لقد

أتى الأمير فيصل إلى مؤتمر السلام وهو يحمل هدفاً، وأعتقد أنه كان يأمل بإنشاء مملكةٍ عربيةٍ تمتد شمالاً من الأطراف الصحراوية لشبه الجزيرة العربية إلى جبال طوروس وحدود أرمينيا القديمة، ومن نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت الغالبية العظمى من سكان هذه المنطقة من العرق العربي والآرامي ومن المؤمنين بالقرآن مع استثناءاتٍ قليلةٍ، ودمشق كانت ستصبح عاصمة هذه الدولة الجديدة... يبدو أن رغبة الأمير كانت تتمثل في ضم فلسطين إلى حدود الدولة المقترحة، وهي رغبةٌ مبررةٌ في ضوء حقيقة أن ما يقرب من تسعة أعشار سكان تلك المنطقة هم اليوم من الدم العربي، على الرغم من أنني أعتقد أنه لم يكن من الممكن أن يكون متفائلاً بتحقيق هذه الرغبة في ظل الحركة الصهيونية التي تلقت دعماً غير مشروط من الحكومة البريطانية.

لقد عرض المطلب العربي وتطلعات المحمديون(*) في سوريا أمام مجلس العشرة في مؤتمر السلام. ومما لا شك فيه أنه أثار إعجاب مستمعيه بشدة بقوة حججه وبالطريقة الهادئة والحصيفة التي قدم بها مبرراته لإعادة إحياء سوريا كدولةٍ مستقلة... تحدث الأمير بوقارٍ مَهيب، ولعل من الأصح القول بأبهةٍ، وبسلاسةٍ في النطق مما يدل على الإلمام بمخاطبة الجموع العامة. لقد تمنينا لو كنا قادرين على فهم اللغة التي استخدمها، إذ ما من شكٍ في أن جمله قد فقدت الكثير من محتواها خلال الترجمة، لا سيما في حيوية التعبير إذ ليس هناك من نظيرٍ مباشرٍ في اللغات الأوروبية يضاهي المصطلح العربي.

تابع لانسينغ اعترافه الاستثنائي بخصوص الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تبديد آمال فيصل. فقد ذهب أبعد من التناحر بين القوى العظمى والالتزامات المتضاربة إلى العداء المتجذر ضد الإسلام والمسلمين الذي كان سائداً بين القوى الغربية، «واجه الأمير فيصل في باريس قوىً أكثر نفوذاً والتغلب عليها أكثر صعوبةً من الجيوش التركية التي قاتلها بنجاحٍ كبير، فقد ساد في سائر أنحاء العالم المسيحي ولأجيالٍ كرهٌ تجاه العقيدة المحمدية... أتاح انهيار الإمبراطورية العثمانية هذه الفرصة [لاستعادة ثروات مسيحيي الشرق] وكان المندوبون الأوروبيون إلى مؤتمر باريس مصممون بصورةٍ عامة على منع استعادة سلطة المسلمين في الأراضي التي كانت خاضعة لنفوذ السلطان... إن جو العداء للحكم الإسلامي جعل هدف الأمير فيصل في إنشاء مملكةٍ سوريةٍ

(*) شاع لفظ «المحمديون» في الغرب، بعد أن نُقل من عن إسبانيا، والمقصود به المسلمون. وعلى الرغم من أن هناك مصطلحاً متواتراً لدى معتنقي دين الإسلام هو (أمة محمد)، كونهم يأخذون تعاليم دينهم من النبي الأكرم محمد ص، لكنهم يُفضلون أن يدعوهم الآخرين بـ(المسلمين) وليس المحمديين، لكيلا ينصرف الذهن أن دينهم خاص بنبيهم فقط، ويظن السامع أن دين الأنبياء الآخرين ليس هو الإسلام، ويكون تشبيهاً لهم بالنصارى (المسيحيون) واليهود (الموسويين).

جديدةٍ ـ والتي، على سبيل التذكير، كانت ستصبح مملكةً إسلاميةً جديدة ـ أمراً صعب المنال». بيد أن لانسينغ قد خلص إلى أن الدولة العربية الجديدة بقيادة فيصل قد تكون مختلفةً جوهرياً عن الإمبراطورية العثمانية في علاقاتها مع القوى الغربية. «كان أسلوب الرجل في هذه الظروف مثيراً للإعجاب مما أكَّد على وقاره واتزانه وترك انطباعاً أعمق لأنه كان يناضل ضد قوىً لا سبيل لمقاومتها. لقد كان اختباراً للشخصية والطباع مما زاد من احترام الوفود الموجودة له. لقد ترك الأمير فيصل انطباعاً بأنه شخصٌ يجمع بين أفضل وأسمى خصال الشخصية الشرقية، فقد تجلى النبل والكرامة والصدق والصراحة والتحفظ والحكمة في سلوكه وأقواله». ولكن بعد ذلك، أفصح لانسينغ عن تحيُّزه الراسخ ضد دين فيصل في بيانٍ كان من المقبول تماماً بثّه علانيةً في ذلك الوقت، «لقد بدا جديراً جداً بالنجاح على الرغم من أنه كان يتَّبع ديناً يُعتبر نقمةً وليس نعمةً في العديد من البلدان».

لقد بذل لورنس وفيصل الكثير من الجهد في صقل الأمريكيين خلال مؤتمر باريس للسلام[43]، بناءً على فكرة أن الولايات المتحدة ستحافظ على التوازن بين مصالح فرنسا وبريطانيا في الشرق الأوسط، والسلطة المعنوية الكبيرة للرئيس ويلسون على أولئك الذين يؤمنون بمبادئ تقرير المصير والذي كان من المفترض أن يُبنى صرح مؤتمر السلام على مبادئهم، مما جعل الأمريكيين الحليف الأنسب للقضية العربية. وقد كانت الروايات الأمريكية حول كلٍّ من لورنس وفيصل في ذلك الوقت مشوبةً بقدرٍ من الرومانسية ـ ففي إحدى الحالات تمت مقارنة مظهر فيصل بمظهر المسيح ـ لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أن لانسينغ كان يكتب سيرته الموجزة عن فيصل بعد عدة سنواتٍ من المداولات التي جرت في باريس، مستفيداً من الإدراك المتأخر ومع تدخُّل الأحداث العظيمة في حينه، مما يشي بأن انطباعاته تلك لم تكن انطباعاتٍ عابرةً لمتفرِّجٍ مبهور.

فيصل في المجتمع الفرنسي

سرعان ما علمت الطبقات السياسية والأدباء والمثقفين ومضيفات المدينة بوجود فيصل في باريس. وقد تولّت الكونتيسة دي كيلرمان بنفسها مسؤولية تعريف فيصل بالشخصيات المرموقة في الثقافة والآداب الفرنسية، وفي غضون فترةٍ قصيرة كان الجميع يتوق للقاء فيصل، حيث أصبح من المعتاد أن تتصل دي كيلرمان بانتظام بعوني عبد الهادي في القصر لتطلب منه توجيه دعوةٍ لفيصل لحضور حفل غداءٍ أو عشاءٍ أو حفل استقبال. يكتب عبد الهادي في مذكراته أن «المجتمع الفرنسي الراقي قد تنافس بشدةٍ للقاء فيصل، فقد كانوا مفتونين بشخصيته، وبملابسه العربية، ووجهه الجذاب، وبما اعتبروه نزاهةً وتسامحاً وسلوكاً كريماً يتمتع به، وهذا ما أقنعهم بعظمته[44].

توطدت أواصر الصداقة بين فيصل والشخصيات المرموقة في المجتمع الفرنسي، ولكن أعمق تلك الصداقات كانت مع عملاق الأدب الفرنسي (والحائز على جائزة نوبل لاحقاً)، الكاتب والروائي أناتول فرانس، فغالباً ما كان الأخير يظهر في منزل فيصل صباحاً أو مساءً، يطرق الباب، ولكونه قد وجد فيصل يراعي زياراته غير المتوقعة فقد تمادى في حضوره في أوقاتٍ غريبة. وهو من قام بمقارنة ملامح فيصل مع ملامح المسيح، وقد بادل سخاء فيصل بالمثل، حيث كان يدعوا فيصل ومرافقيه في كثيرٍ من الأحيان لتناول طعام الغداء أو العشاء في مقره عندما كان في باريس، أو في فندق بلفيو، أو في منزله الريفي. وكان يدعو، إلى جانب فيصل، العديد من كبار الصحفيين في البلاد ومحرري الصحف المهمة، مثل (ليه تيمبس) (Les Temps) و(لي ماتان) (Le Matin) و(فيغارو) (Le Figaro). كان أناتول يستحوذ على الحوار في تلك اللقاءات، ويوجهه نحو الإشادة بفطنة فيصل وحسّه السليم، واحترامه لفرنسا كبلد، ومزايا القضية العربية. ومن ثم يشجع الصحفيين على دعم فيصل في مطالبه الوطنية[45].

يعود نجاح فيصل مع المثقفين والمجتمع الراقي في كثيرٍ منه إلى حداثة الرؤية الاستشراقية الغريبة والمثالية تجاه العرب والتي تشربتها الطبقات المثقفة [الفرنسية]. يذكر رستم حيدر في مذكراته إحدى زيارات فيصل وحاشيته في 26 شباط (فبراير) 1919 إلى منزل أناتول فرانس في سانت كلاود، في الضواحي الغربية لباريس.

إلتقينا أناتول فرانس، وهو رجلٌ عجوزٌ يبلغ من العمر 76 عاماً، ويبدو خليطاً من فيكتور هوغو [الروائي الفرنسي في القرن التاسع عشر] والمتنبي [أحد أعظم شعراء العرب الذين عاشوا في القرن العاشر]. نظر [فرانس] إلى الأمير بتقدير، وعلّق على مدى روعة ملابسه وكيف تتناسب مع مظهره... ثم أدلى بدلوه حول حب العرب للتجارة، ولذلك فقد واصلوا حياتهم حتى بعد انتهاء إمبراطوريتهم، على عكس الرومان الذين اختفوا بعد انهيارهم العسكري، لأنهم لم يمتلكوا سوى خصالٍ عسكرية وحسب... في كل مرةٍ كان ينظر فيها فرانس إلى الأمير كان يعود بذهنه إلى قصص ألف ليلة وليلة... ومدى انتشار هذه النظرة في أوروبا، وكأن حضارة العرب برمّتها، والتي لم يطّلع عليها حتى أعظم مفكريهم، لم تترك أثراً إلا كتاب ألف ليلة وليلة. لقد ترك السرد القصصي الخيالي والغريب لذلك الكتاب الغربيين، بمن فيهم شخصياتهم الأدبية، يعتقدون أن الشرق بأكمله يشبه ما جاء في ذلك الكتاب[46].

واستمر اليوم مع مطالبة حيدر بإلقاء قصيدةٍ على أناتول فرانس، وهي قصيدةٌ ألّفها فيصل بعنوان «القصيدة الخنجرية»[47]. لكن، وفي مناسبةٍ لاحقة، خفّف حيدر من حدّة آرائه حول أناتول فرانس واعتبره مناصراً حقيقياً لفيصل والقضية العربية. وفي حفل غداءٍ أقامه فيصل، ودعا إليه الكاتب والمسرحي جورج برنارد شو وزوجته شارلوت، أشاد أناتول فرانس إشادةً مؤثرةً

بفيصل والعرب. ورداً على ثناء فيصل عليه، قال أناتول فرانس: «أحيِّيك كقائد جيشٍ لأمةٍ كان لها النصيب الأكبر في النهوض بالإنسانية وخدمتها... لقد خدم العرب الإنسانية في الماضي ولهذا آمل أن يحققوا ما يتمنونه حتى يتمكنوا من خدمة الإنسانية مرةً أخرى في الأجيال القادمة»[48].

كما قام فيصل بزيارة كبار التربويين والعلماء في فرنسا، على أمل إقناعهم بعدالة قضيته، وراجياً أن يجعلهم يكتبون أو يتحدثون علناً لصالح القضية العربية. وأحد هؤلاء كان البروفيسور أولار، رئيس جامعة السوربون، الذي التقى به فيصل في مكتبه[49]. أمضى فيصل أكثر من ساعةٍ في تبيان حق العرب في تقرير مصيرهم وضرورة أن يعترف مؤتمر السلام بهذا الحق ويمنح العرب استقلالهم. وفي اليوم التالي، كتب أولار مقالاً في صحيفة لو جورنال دي ديبات Le Journal des Débats، وأيّد دعوة فيصل إلى الحرية والاستقلال للشعب العربي. إلا أن نشر مقالة بين الحين والآخر في الصحافة الفرنسية والتي تدعم القضية العربية لم تكن كافيةً لمواجهة النبرة السلبية العامة تجاه فيصل والأشراف والدعوات لاستقلال سوريا. فقد كانت الصحافة الفرنسية مشبعةً بفكرة استحقاق فرنسا لمكانةٍ متميزة في سوريا، شرّعتها لها كلٌّ من اتفاقية سايكس بيكو واستحقاقها لمكافأةٍ عادلةٍ لقاء النضال البطولي لفرنسا في الحرب العالمية الأولى. كما تأثرت باللوبي الاستعماري الذي أراد تأكيد مصالح فرنسا في سوريا، وكذلك بالرأي الكاثوليكي الذي عكس الموقف المتطرف لموارنة لبنان، ويضاف إلى هذه العوامل العدائية الكراهية التي كانت منتشرةً على نطاقٍ واسعٍ، والتي غالباً ما كانت تتحول إلى عنصريةٍ صريحةٍ ضد العرب والمسلمين.

لم تقتصر هذه الهجمة الشعواء على ثقافة العرب ودينهم وتطلعاتهم، والتي أبقت نوعاً ما على فكرة أنهم غير جديرين بالاستقلال ولا بد من توجيههم إلى العالم الحديث، على الصحافة الفرنسية فحسب، بل كان له تأثيرٌ ليس فقط على الرأي العام ولكن أيضاً على تعزيز الصور النمطية والأحكام المسبقة حتى في عقول الدبلوماسيين في كاي دورسيه والتي من المفترض أنها عقولٌ رصينةٌ ومتَّزنة. ومن اللافت للنظر ما كشفه جان غوت لدبلوماسي أمريكي بأنه، «يعتقد (غوت) أن المسلمين يزدادون قوةً وأنه يعتقد أن هناك خطراً كبيراً في قيام إمبراطوريةٍ عربيةٍ كبيرة، وأن الفرنسيين أرادوا أن يضفوا على المسلمين الصفة القومية [أي تجريدهم من ولائهم الأول للإسلام]... كان يعتقد أن الأمير فيصل شديد الاهتمام بالحفاظ على الإمبراطورية العثمانية»[50]. كان فيصل يدرك جيداً عمق هذا التحامل، لكنه تعامل معه، متسلحاً في كثيرٍ من الأحيان بحس الدعابة، كما حصل معه، على سبيل المثال، في حفل عشاءٍ أقامه على شرفه البروفيسور جيمس شوتويل من الوفد الأمريكي، ففي تأكيدٍ له على أن الجمهور الباريسي كان ينظر إليه على أنه نصف متحضرٍ بسبب امتشاقه لخنجرٍ احتفالي، ردَّ بالقول أنه لا بد وأن

الضباط الفرنسيين غير متحضرين بتاتاً لكونهم يحملون سيوفاً في الاحتفالات![51] لقد كان فيصل مطمئناً تماماً إزاء خلفيته وهويته لدرجة أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى إثبات نفسه كندٍّ أمام جمهورٍ متشكك، لكنه قام أحياناً بتعديل لباسه أو عاداته لتلائم توقعات الغربيين. وبعد دعوته لتناول العشاء مع فيصل، أفاد شوتويل عن النتيجة المؤسفة لمثل تلك التنازلات. «للأسف، فقد توصل العرب إلى استنتاجٍ مفاده أنهم ما لم يرتدوا ملابس مثل الأوروبيين فإن قضيتهم ستتضرر؛ لأن الناس يتحدثون عنهم وكأنهم نصف متحضرين، لذلك قام الأمير بقص معطف الأمير ألبرت مثل معاطف القساوسة حول العنق مع ياقةٍ بيضاء قاسية. [لكنه] يبدو وقوراً في أي شيء وكان أسلوبه اللطيف كفيلاً بالتغطية على فظاعة ملابسه»[52]. ومع مرور الوقت، سيتحسن ذوق فيصل بالأزياء، بل وسيصبح شخصاً أنيقاً مرتدياً ملابسه الأوروبية المفصَّلة بإتقان. استشعر رستم حيدر روح هذا التغيير. ففي يومياته بتاريخ 16 كانون الأول (ديسمبر) 1919، كتب أن فيصل أمر بتفصيل معطفٍ مشقوق الذيل بعد أن حضر دعوة عشاءٍ في باريس ضمت شاه بلاد فارس. كان فيصل يرتدي وقتها ملابس تقليدية، لكن جميع الضيوف الآخرين، بمن فيهم حاشية الشاه، كانوا يرتدون معاطف مشقوقة الذيل، مما جعله يشعر بعدم الارتياح في هذا الموقف، وأفضى لحيدر أنه «لا ينبغي لأحدٍ أن يحضر مأدبةً تضم الملوك إلا إذا كان يرتدي أنسب الملابس». عندها قال له حيدر، «يا سيدي، لو جاءك أحدٌ قبل ثلاثة أشهر واقترح عليك أن تقتني معطفاً مشقوق الذيل خاصاً بك، لكنت طردته! أما الآن فإنك تعتقد أن ذلك ضروريٌ. «فابتسم فيصل وقال: «أجل، هذا صحيح. لكن للضرورة احكامٌ الآن»[53].

هوامش الفصل الحادي عشر

1 ـ حتى تاريخ 16 كانون الثاني (يناير)، لم يرد ذكر لوفد عربي أو حجازي إلى مؤتمر باريس للسلام في القائمة الرسمية الفرنسية للبلدان الممثلة في المؤتمر ووفودها. رستم حيدر، مرجع سابق، ص216.

2. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 58.

3. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 598.

4. عوني عبد الهادي، الذي كان معاديًا للورنس، يقول إن فيصل لم يخبر لورانس بالاجتماع مع كليمنصو. عند مغادرة قاعة وزارة الحرب حيث كانا يلتقيان، رأى فيصل وكليمنصو لورانس جالسًا على أحد المقاعد بالزي الرسمي الكامل. ثم اضطر فيصل إلى تقديم لورانس إلى كليمنصو. يعزو عوني عبد الهادي هذا الحدث غير العادي إلى رغبة لورانس دائمًا في إقناع الفرنسيين بقربه من فيصل، وأن فيصل كان يعتمد في النهاية على لورانس والبريطانيين. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 61.

5. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص60. قدم لورانس نسخة مختلفة بعض الشيء، ربما بالاعتماد على المعلومات التي قدمها له أحد الحاضرين في الاجتماع. ومن غير المحتمل، أن تم تقديم غوت على أنه تحدث إلى فيصل بنبرة قاسية للغاية ومخيفة، بل وحتى مهينة. من المستبعد جدًا أن ينغمس دبلوماسي محترف، حتى أثناء حمله لأخبار سيئة، في سلوك مهين. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص. 599. الوصف الأكثر اكتمالا للقاء بين جوت وفيصل ورد في رسالة فيصل إلى والده في 19 كانون الثاني (يناير) 1919.

6. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص60.

7. زين ن. الزين، الصراع الدولي، ص. 66، الحاشية السفلية 1. رسالة فيصل إلى والده بتاريخ 19 كانون الثاني (يناير) 1919 بأن فيصل هو الذي حرّك الأمور والتي أدت إلى تخصيص مقعدين في المؤتمر للحجاز. وحالما غادر غوت سارع فيصل «...لإرسال أحدهم (لورانس؟) إلى وزير الخارجية البريطاني وإعلامه بما جرى بيني وبين غوت. وقد غضب وزير الخارجية عندما سمع الأخبار الذي دفع القوى الكبرى لقبول موفدين اثنين من حكومة الحجاز...». موسى، المراسلات، مرجع سابق، المجلد 2، ص 39.

8. المرجع نفسه، ص 36.

9. السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 97.

10. سليمان موسى، المرسلات، المجلد. 2، ص 36 ـ 37.

11. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 61.

12. المرجع نفسه، ص 37.

13. كانت غيرترود بيل آنذاك المستشار السياسي للإدارة البريطانية لبلاد الرافدين، وحضرت مؤتمر باريس للسلام على وجه التحديد نيابة عن الحكومة التي تتخذ من بغداد مقراً لها.

14. توقّع لورانس بالطبع أن مثل هذه الدولة سيحكمها حسين وأبناؤه، ويفضل أن يكون فيصل.

15 ـ بتاريخ 11 آذار (مارس) 1919؛ جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 601–602.

16. سليمان موسى، المرسلات، المجلد. 2، ص 41.

17. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 220. بحسب ليونارد شتاين في كتابه «وعد بلفور»، تم ترتيب لقاء فيصل مع ويلسون من قبل الحاخام ستيفن فايس، رئيس اللجنة الأمريكية للصهيونية. أنظر ليونارد شتاين، مرجع سابق، ص. 594. ومع ذلك، يبدو أن هذا غير محتمل، لأن الوفد البريطاني كان من المرجح أن يكون قد رتب للاجتماع.

18 ـ يتألف مجلس العشرة من رؤساء الحكومات ووزراء خارجية الدول الخمس الكبرى المنتصرة (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا واليابان). نظرًا لحجمه الكبير وطبيعته غير العملية، تم استباق مجلس العشرة بقرارات اتخذت بشكل مستقل من قبل «الأربعة الكبار» (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا).

19. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 221 ـ 223.

20. المرجع نفسه، ص 225 ـ 229.

21 ـ المرجع نفسه، ص ص 233 ـ 234.

22. زعم بعض كتّاب سيرة لورانس أن لورانس هو من كتب خطاب فيصل باللغة العربية. وهذا خطأ تماماً. كانت اللغة العربية المكتوبة لدى لورنس فقيرة وغير صحيحة من الناحية النحوية وشبه طفولية. كانت مهمة كتابة مثل هذا الخطاب المهم تتجاوز قدراته اللغوية. أنظر مايكل كوردا، البطل، The Life and Legend of Lawrence of Arabia، HarperCollins، New York، 2010، p. 473.

23. المرجع نفسه، ص ص 235 ـ 36. أشار سايكس أيضاً بشكل غير رسمي لحيدر أنه إذا كانت الحركة القومية العربية أكثر وضوحًا في عام 1916، لكان بحاجة إلى تعديل اتفاقه مع بيكو، ويفترض أن يأخذ بعين الاعتبار المطالب العربية للاستقلاله حيدر بأن الحركة القومية كانت موجودة قبل المؤتمر العربي بباريس عام 1913.

24. المرجع نفسه، ص 236.
25. المرجع نفسه، ص 237.
26. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 62 ـ 63.
27. المرجع نفسه، ص 63.
28. المرجع نفسه، ص 63.
29. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 237 ـ 38. أيضاً، D.H Miller، مذكراتي في مؤتمر باريس، 1918 ـ 1919، المجلد. الرابع، أبناء جي بي بوتنام، نيويورك، 1928، ص. 296. سأل بيشون فيصل بحماقة عن المساهمة الفرنسية في المجهود الحربي في الشرق الأدنى. عدّد فيصل المساهمة الفرنسية على أنها « 4 مسدسات من عيار 60، مدفعان من عيار 80، ولكن على الرغم من ذلك، نشكر فرنسا طالما أننا على قيد الحياة لأنها ساعدتنا، وهي أكبر بكثير من مجرد الثناء عليها». رستم حيدر، مرجع سابق، ص 239.
30. سليمان موسى المرسلات ص 60.
31. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 64 ـ 66.
32. مقابلة مع فيصل في مجلة Outlook، 2 نيسان (أبريل) 1919، نقلاً عن: زين ن. الزين، الصراع.

دولي، ص. 70، الحاشية 3.

33. زين ن. الزين، الصراع الدولي، ص 69.
34. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 246 ـ 247.
35. زين ن. الزين، الصراع الدولي، ص 71 ـ 73.
36. جيمس ت. شوتويل، في مؤتمر باريس للسلام، ماكميلان، لندن، 1937، ص. 178.
37. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. 2، ص.53 ـ 54. وفي الرسالة نفسها، أبلغ فيصل زيد بأنه يعتزم إحضار السياسي السوري المسيحي فارس الخوري والأمير الدرزي أمين أرسلان إلى باريس كعضوين في وفده.
38. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 58.
39. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 251 ـ 52. رغم ذلك، كان للغصين أنصاره. أخبر الغصين الكاتب محمد كرد علي أنه ترك فيصل لأن الأخير كان صعب العمل معه وذا طبع مزاجي. كاتب آخر، الصحفي والمحرر العراقي رفائيل بطي، قال إن حيدر كان يشعر بالغيرة من الغصين

ويريد أن يكون المقرب الوحيد لفيصل. لكن عوني عبد الهادي أيّد ملاحظات حيدر على الغصين وادعائه باختلاس أموال من فيصل. سليمان موسى، اعتمادًا على محادثة أجراها مع الغصين، يعتبر رحيله أمرًا روتينيًا لأن مهمته انتهت.

40. ديفيد لويد جورج، مذكرات مؤتمر السلام، المجلد. II، مطبعة جامعة ييل، نيو هافن، 1939، ص 673 ـ 674.

41. روبرت لانسينغ، الأربعة الكبار وآخرون من مؤتمر السلام، هاتشينسون، لندن، 1922، ص 161 ـ 177.

42. المرجع نفسه، ص ص 161 ـ 165.

43. في 21 كانون الثاني (يناير) 1919، أوصى «قسم الاستخبارات» بالوفد الأمريكي إلى مؤتمر السلام ويلسون بضرورة إنشاء دولة سورية، في ظل نظام الانتداب، ولكن دون قرار بشأن سلطة الانتداب، وأن مثل هذه الدولة ينبغي السماح لها بالانضمام إلى اتحاد كونفدرالي للدول العربية. زين ن. الزين، الصراع الدولي، ص69.

44. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 58.

45. المرجع نفسه، ص ص 58 ـ 59.

46. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 265 ـ 266.

47. أو «قصيدة الخنجر». ألّف فيصل أبياتها الاثني عشر إلى عبد الله، لأنه أعطى زيد خنجرًا ذهبيًا لم يره فيصل من قبل.

48. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 273 ـ 74. عادة ما كان حيدر دقيقًا في الإبلاغ عن أولئك الذين كانوا مع فيصل في أي وقت، لكنه لم يذكر لورانس خلال هذه الاجتماعات مع أناتول فرانس. هذا غريب حيث عمل برنارد شو كمحرر لـكتاب Seven Pillars of Wisdom (أعمدة الحكمة السبعة) وكان لزوجته شارلوت مراسلات تفصيلية لاحقة مع لورانس. ولكن وفقًا لمايكل هولرويد، كاتب سيرة برنارد شو، لم يتم تقديم شو إلى لورانس إلا في مارس 1922. مايكل هولرويد، برنارد شو، فينتيدج، لندن، 1998، ص 525.

49. وعلّق عوني عبد الهادي قائلاً: «كان من المعتاد في ذلك الوقت لكبار السياسيين، حتى رئيس الجمهورية، اعتبار العلماء الزائرين مثل م.أولار امتيازًا عظيمًا». عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 59.

50. هاري ن. هوارد، لجنة كنغ كرين: تحقيق أمريكي في الشرق الأوسط، خياط، بيروت، 1963، ص 43، الحاشية 1.

51. جيمس ت. شوتويل، مرجع سابق، ص 129 ـ 131.

52. المرجع نفسه، ص 196 ـ 197.

53. رستم حيدر، مرجع سابق، ص511.

الفصل الثاني عشر: في مؤتمر باريس الثاني للسلام

كانت الجهود الجبارة التي بذلها فيصل لإقناع مجلس العشرة، لا سيما الحكومة الثلاثية المكونة من لويد جورج وكليمنصو وويلسون، بجدوى وجود دولةٍ عربيةٍ مستقلة أو اتحاد دول وصوابية ذلك بالفعل، تعتمد في النهاية على توافر النوايا الحسنة لتلك القوى لمثل هذه النتيجة ـ إن لم يكن كلها فعلى الأقل بريطانيا والولايات المتحدة. ولم يكن الانطباع الشخصي الثابت الذي تركه فيصل على مؤتمر السلام يعني الكثير من الناحية العملية إنْ لم يهيئ الظروف التي يمكن في ظلها تلبية مطالبه، ومن ثم، المطالب العربية. وقد كانت مبادئ ويلسون السامية تضمحل تدريجياً مع تقدم المؤتمر، فقد أجبرته وقائع العلاقات الدولية على المساومة على مبادئه أو وضعها في غير مكانها، لأنها اصطدمت بأطماع ومصالح القوى الإمبريالية الأوروبية. كما لم يكن بالإمكان الاستمرار بجدية بالاعتقاد الذي آمن به فيصل بأنه يستطيع محاسبة الولايات المتحدة على أهدافها المعلنة بخصوص نظام ما بعد الحرب، لأن المطالب الفرنسية أثبتت أنها مستعصيةٌ على الحل، ولأن بريطانيا كانت عالقة بشكل متزايد في تقلباتٍ ملتوية بين أطماعها الخاصة والتزاماتها المتضاربة تجاه حلفائها الفرنسيين والصهاينة والعرب. ومع ذلك، كان للولايات المتحدة قوةٌ كبيرةٌ متبقية للتأثير على نتائج الأحداث في الشرق الأوسط، فقد كان مبدأ حق تقرير المصير الوطني لا يزال فاعلاً، وهو المبدأ الذي أقرَّت به القوى الأوروبية، بسوء نيةٍ ربما، على أنه يشكل إحدى الركائز التي سيتم تقسيم الإمبراطورية العثمانية على أساسها.

نشأة لجنة الحلفاء المشتركة للتحقيق

كان المؤتمر قد استمع إلى أربعة بياناتٍ حول الأراضي العربية، أهمها كان بيان فيصل، وكان هناك ثلاثة بياناتٍ أخرى للدكتور هوارد بليس، وشكري غانم، وداود أمون[1]. وقد ترأس الأخير وفداً لبنانياً، أغلبه من الموارنة بدعمٍ من فرنسا. كما أنه حاز على صفةٍ رسميةٍ في مؤتمر السلام، واستمع إليها مجلس العشرة في 15 شباط (فبراير). وقد دعا آمون إلى إقامة دولةٍ تتمتع بالحكم الذاتي في لبنان ضمن حدود ما قبل عام 1860 وإلى تحالفٍ فضفاض مع سوريا[2]. كان فيصل يدرك بوضوح أن تشعُّب المطالب والمطالب المضادة المتعلقة بالترتيب المستقبلي للأراضي العربية قد تُضعف بشكلٍ كبير قضيته مع الولايات المتحدة. فازداد موقفه إيجابيةً تجاه الأخيرة،

لدرجة أنه كان يفكر في احتمال انتدابٍ أمريكي على سوريا، لكنه كان مقتنعاً أيضاً بأن موقفه هو الذي حظي بالمتابعة الأكثر في سوريا، وأنه يمكن بسهولةٍ التأكد من ذلك عبر لجنة تحقيقٍ محايدة. وكان قد سبق لفيصل أن أبلغ الممثلين العسكريين في المجلس الأعلى بأن «القوى الشريكة يجب أن ترسل لجنة إلى سوريا لإثبات الحقائق والتحقق من رغبات الشعب»[3]. وفي واقع الأمر، فإن فيصل كان قد طرح الأمر في وقتٍ سابقٍ في اجتماع عقده مع البروفيسور دبليو إل ويسترمان، رئيس قطاع غرب آسيا في شعبة الاستخبارات بالوفد الأمريكي. وأوضح فيصل لويسترمان أن خطته تقتضي أن يطلب من المؤتمر إرسال لجنة تحقيقٍ لتفقد الوضع في سوريا، والتأكد من رأي شعبها، وكان بحاجةٍ إلى دعمٍ أمريكي لمثل هذا الاقتراح[4].

بيد أن الدكتور هوارد بليس كان هو الأكفأ في المساعدة على إقناع ويلسون والوفد الأمريكي بالحاجة إلى مثل هذه اللجنة[5]. فقد كان بليس قد كتب إلى ويلسون في 7 شباط (فبراير) 1919 قائلاً إن الشعب السوري يعوِّل على الأمريكيين للاضطلاع بمبدأ تقرير المصير، وأن التقارير التي سمعها والتي تفيد باحتمال إرسال لجنة أمريكية للتحقيق في الوضع في الشرق الأوسط تلقى ترحيباً بالغاً[6]. كما جدد بليس موقفه أمام لانسينغ في 26 شباط (فبراير)، وفي ذلك الوقت أقرَّ الوفد الأمريكي أن نتائج لجنة تقصي الحقائق ستشكل شرطاً أساسياً مسبقاً لأي تسويةٍ في الشرق الأدنى. وكان الفرنسيون قد رفضوا مسبقاً الاقتراحات التي قدمها الأمريكان سابقاً في هذا الصدد، ولكن هذه المرة كانت الولايات المتحدة مصممة على وضع مسألة لجنة تقصي الحقائق بحزم على جدول أعمال الاجتماع المستقبلي للأربعة الكبار[7]. بيد أنه من غير الممكن حسم أي شيءٍ حتى عودة ويلسون من الولايات المتحدة، إذ كان قد غادر باريس في 14 شباط (فبراير)، وكان من المقرر أن يعود في 14 آذار (مارس). وبقي فيصل في باريس منتظراً عودة الرئيس الأمريكي الذي عقد عليه آمالاً عريضةً حينها من أجل الاستقلال العربي.

اجتمع المجلس الأعلى، بحضور الأربعة الكبار، في مؤتمرٍ سري في 20 آذار (مارس) 1919 في شقة لويد جورج في باريس لمناقشة المسألة السورية. ومن الملفت للنظر أن الجنرال أللنبي كان قد دُعي لحضور الاجتماع، حيث كان قد أبلغ لويد جورج في وقتٍ سابق عن مخاوفه في سوريا النابعة من الشائعات حول التنازل عن البلاد لصالح السيطرة الفرنسية[8]. كان الاجتماع ساخناً، مع إصرار الفرنسيين على أن اتفاقية سايكس ـ بيكو قد أطلقت يدهم في سوريا ولبنان، وقد قبِل البريطانيون، بقدرٍ محدودٍ فقط، المزاعم الفرنسية من حيث صلتها بلبنان، ولكن ليس بالنسبة للداخل السوري، حيث كان ينبغي لقرار الحكومة هناك أن يراعي اتفاقهم الخاص مع حسين. وقد رفض بيشون الفكرة القائلة بأن فرنسا يجب أن تلتزم بشروط مراسلات حسين ـ مكماهون، التي لم يكونوا طرفاً فيها، واشتكى من أن الفرنسيين لم يتلقوا سوى نسخ من المراسلات قبل أسابيع

قليلة، فردّ عليه لويد جورج حينها بحدةٍ، قائلاً إن البريطانيين هم من أرسلوا أكثر من مليون رجل إلى ميدان الحرب في الشرق الأوسط، وأنهم هم وحلفائهم العرب من هزموا الأتراك في النهاية. وقد شاطره أللنبي الرأي بأن المساندة العربية كانت لا تقدر بثمن في الحملة. وأخيراً، تدخل ويلسون، الذي كان حانقاً من القوى المتناحرة، بالقول إن الولايات المتحدة غير مباليةٍ بمطالب كل من بريطانيا وفرنسا بشأن الشعوب. «... كان أحد المبادئ الأساسية التي التزمت بها الولايات المتحدة هو موافقة المحكومين... واكتشاف أمنيات سكان هذه المناطق. «ثم استطرد مقترحاً ذهاب لجنة الحلفاء المشتركة إلى سوريا وأماكن أخرى في الأقاليم العثمانية السابقة للتعرف على وجهات نظر الناس هناك[9].

وافق كليمنصو على مضض على فكرة التحقيق «من حيث المبدأ»، قائلاً إن «الشرقيين جبناء للغاية ويخافون من قول ما يجول في خواطرهم». كما أراد وجوداً عسكرياً فرنسياً في سوريا لموازنة الوجود العسكري البريطاني والعربي هناك، لأن «الأمير فيصل عملياً كان أحد جنود إنكلترا». ووافق لويد جورج على فكرة اللجنة التي تغطي جميع الأقاليم العثمانية السابقة والتي كان من المقرر وضعها تحت نظام الانتداب، بما في ذلك فلسطين وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا، وطلب من الوفد الأمريكي صياغة صلاحيات تلك اللجنة[10]. غير ان الاتفاق الظاهري حول لجنة الحلفاء المشتركة لم يكن كافياً لحجب النقاشات الحادة التي تخللت الاجتماع في كثيرٍ من الأحيان، تاركةً ويلسون مضطرباً ومنزعجاً. «خرج الرئيس ويلسون من الاجتماع وهو يشتم الجميع وكل ما قاله كان أنه لم يفعل شيئاً سوى التحدث لمدة ثمانية وأربعين ساعة وكان يشعر بالاشمئزاز من الأمر برمَّته»[11].

لم يكن أحدٌ أكثر سعادةً من فيصل لقرار إرسال لجنة تقصي حقائق إلى الشرق الأدنى[12]. وقد كتب إلى الرئيس ويلسون في 24 آذار (مارس) معبراً عن شكره وتقديره للفرصة التي أتيحت للعرب للتعبير عن «أهدافهم ومُثلهم من أجل مستقبلهم الوطني»[13]. وبعد بضعة أيام، اتصل فيصل ولورنس بالعقيد هاوس، وأخبراه أن فكرة إرسال لجنة إلى سوريا كانت أفضل ما سمعه على الإطلاق. وفي هذه الأثناء، أصبح فيصل متحمساً أكثر من أي وقتٍ مضى لإقامة علاقةٍ مع الولايات المتحدة، وكان يدعمه لورنس في هذا. وفي واقع الامر، سعى الأخير إلى «إدارة» التواصل مع أمريكا، مستفيداً من علاقاته الخاصة مع شخصياتٍ بارزةٍ في الوفد الأمريكي وصيته الذائع في الولايات المتحدة، فشدَّد على أن الاتصالات مع الأمريكيين في باريس ستقتصر تماماً عليه وعلى فيصل، ومنع أي أعضاءٍ آخرين من وفد الحجاز من التعامل الفردي مع الوفد الأمريكي في القضايا السياسية[14]. وخلال الاجتماع مع هاوس ونظراً للخلاف الأنغلو ـ فرنسي حول مسألة انتداب سوريا، سأل فيصل هاوس عمّا إذا كانت الولايات المتحدة تدرس أن تكون هي نفسها

سلطة الانتداب على سوريا. وقال فيصل إن العرب «يُفضلون الموت على الانتداب الفرنسي». وقد وافق لورنس على فكرة انتدابٍ أمريكي على سوريا، إذ لم يكن بإمكان البريطانيين القيام بذلك، خشية أن يتهمهم الفرنسيون بالنفاق، ورأى لورنس أيضاً أن الانتداب الأمريكي على سوريا سيكون موضع ترحيبٍ من قبل الأمريكيين العرب[15]. لكن هاوس شكَّك في إمكانية قبول الولايات المتحدة بالانتداب على سوريا.

تقرَّر أن تغادر اللجنة إلى الشرق الأوسط بحلول نهاية أيار (مايو) 1919، وكان الأمريكيون أول من أعلن تشكيل وفدهم، ووقع اختيار ويلسون على رئيس كلية أوبرلين، الدكتور تشارلز كينغ، الذي كان وقتها في فرنسا، ورجل الأعمال المعروف في شيكاغو، تشارلز كرين، الذي كان لديه بعض المعرفة بالشرق الأدنى ليكونا عضوين في اللجنة[16]. بيد أن ترتيب الأمور لم يكن ليتم بسلاسةٍ بالنسبة للفريق البريطاني الفرنسي في لجنة الحلفاء المشتركة للتحقيق، إذ لم يكن الفرنسيون في عجلةٍ من أمرهم للتحرك، وكانوا في الواقع يبحثون عن طريقةٍ لإحباط عمليات اللجنة وإجهاضها. فبالنسبة لهم، وافق اجتماع 20 آذار (مارس) للأربعة الكبار من حيث المبدأ فقط على إيفاد اللجنة، وكانت الرغبة الأمريكية في التحرك نحو الشرق الأدنى في أقرب وقتٍ ممكن أمراً غير قابلٍ للتنفيذ بكل بساطة، وقد أبلغوا الأمريكان بتكلُّفهم المعتاد وبلغةٍ متعالية أنهم «كانوا صادقين جداً في التعامل مع الشرقيين»[17]. وظل الوضع النهائي للجنة معلقاً طوال الشهرين التاليين، متخبطاً بين الارتباك والدسائس، وعاكسته بسرعةٍ الظروف الناشئة في الشرق الأدنى.

فيصل والصهاينة

تم الاعتراف بالمنظمة الصهيونية رسمياً من قبل مؤتمر السلام، وخاطب سوكولوف مجلس العشرة في 25 شباط (فبراير) 1919، داعياً إلى تنفيذ إعلان بلفور، وإقامة انتداب بريطاني على فلسطين، جنباً إلى جنب مع إدارةٍ محليةٍ من شأنها ضمان استمرار هجرة اليهود إلى فلسطين. وقد مارست تلك المنظمة، التي أبدت قلقها من تداعيات لجنة التحقيق على المشروع الصهيوني في فلسطين، نفوذها لإجهاض إرسال اللجنة، أو على الأقل لاستبعاد فلسطين من اختصاصها. وقد قام فيليكس فرانكفورتر، الأستاذ في كلية الحقوق بجامعة هارفارد ومستشار المنظمة الصهيونية، بلقاء العقيد هاوس في أواخر آذار (مارس). وبحسب ما لخَّص هاوس انطباعاته عن الاجتماع مع فرانكفورتر فقد ذكر، «يعتقد اليهود أن لجنة الحلفاء المشتركة التي على توشك أن تُبتَعَث إلى سوريا كانت مجرد وسيلةٍ لخداع يهود فلسطين». وقد أكد له هاوس أنه لا توجد مثل تلك النية وأنه سيتم الالتزام بإعلان بلفور[18]. وواصل فرانكفورتر حملته لمنع اللجنة من تفصي الآراء

في فلسطين عن طريق الكتابة مباشرةً إلى ويلسون قائلاً. «لطالما كان هاجس اليهود ـ ولا يزال ـ موافقتك على وعد بلفور ورعايتك لتأسيس دولة فلسطين كوطنٍ قوميٍّ لليهود. وقد أثارت التعيينات في اللجنة المشتركة للحلفاء حول سوريا والتأجيل المفترض لأشهرٍ، لا سيما لوقتٍ يتجاوز فترة إقامتك هنا، لترتيب قضايا الشرق الأدنى، القلق العميق لدى ممثلي يهود العالم»[19].

كانت نظرة فيصل المعتدلة نوعاً ما بالنسبة للمشروع الصهيوني في فلسطين تضمحل مع ظهور التفاصيل حول المدى الحقيقي للأطماع السياسية الصهيونية، إذ كانت هذه المطامع تشير بوضوحٍ إلى إقامة دولةٍ يهوديةٍ في فلسطين. وقد أصبح التحالف التكتيكي الذي أقامه مع وايزمان، والذي يقوم بشكلٍ راسخٍ على القناعة الثنائية بأن الصهاينة سيساعدون قضية الاستقلال العربي وأن برنامجهم في فلسطين يستبعد إقامة دولةٍ يهودية، مغرماً في الوقت الحاضر. وكان الوفد المرافق له متشككاً بشدة حيال المزاعم الصهيونية في فلسطين، وهو موقفٌ بدا مبرَّراً نظراً لتصريحات ومواقف الوفد الصهيوني في مؤتمر السلام التي انحرفت بشكلٍ كبيرٍ عن تصريحات وايزمان المدروسة في وقتٍ سابق. وفي 12 شباط (فبراير) 1919، أجرت صحيفة انفورمسيون «L'Information» الفرنسية مقابلةً مع فيصل ذكر فيها فلسطين ثلاث مرات في سياق حديثه عن الدول العربية التي سعى لتنال استقلالها.

وفي 1 آذار (مارس)، أجرى فيصل مقابلةً أخرى مع صحيفة لو ماتان، أوضح فيها موقفه من مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وبحسب رستم حيدر، قال فيصل لمراسل الصحيفة إن «الشعب اليهودي يمكن أن يجد ملاذاً في فلسطين، مقر شعبه وديانته، ولكن الغالبية في فلسطين هم من العرب وعلى الحكومة هناك أن تراعي مصالح الأغلبية، ولا بد أن يكون مبدأ الحكومة هو المساواة في الحقوق بين الناس». إلا أن صحيفة لو ماتان Le Matin نشرت المقابلة مع النص التالي المنسوب إلى فيصل، «سيسعدنا باسم الإنسانية والمروءة أن نشهد على هجرة اليهود الأوروبيين المضطهدين إلى فلسطين، شريطة أن يستقروا هناك مدركين لواجباتهم الوطنية تحت سلطةٍ إسلاميةٍ أو سلطةٍ مسيحيةٍ أجنبية مفوضةٍ من قبل عصبة الأمم»[20].

تسببت المقابلة بمشاكل لا نهاية لها مع الوفد الصهيوني في باريس، الذي سارع للإعراب عن استيائه من لورنس. وعندها تم ترتيب لقاءٍ على وجه السرعة بين فيصل وفرانكفورتر، بحضور لورنس، لنزع فتيل ما تمخض عن المقابلة. وبعد ذلك صاغ لورنس خطاباً فيَّاضاً إلى فرانكفورتر، ليوقعه فيصل. وقد أصبح ذلك الخطاب موضوع جدلٍ كبيرٍ في المستقبل حيث تبرأ فيصل والوفد المرافق منه عملياً فيما بعد، إذ تجاوزت صياغة لورنس إلى حدٍّ بعيد ما عبّر عنه فيصل يوماً بشأن الصهاينة، سواء بشكلٍ خاصٍ أو علني. «نحن العرب، وخاصةً المثقفون بيننا، ننظر بأعمق التعاطف إلى الحركة الصهيونية. إن وفدنا هنا في باريس على اطلاعٍ كاملٍ

بالمقترحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية أمس إلى مؤتمر السلام، ونعتبرها معقولةً ومناسبة. وسنبذل قصارى جهدنا، بقدر ما يتعلق الأمر بنا، لمساعدتهم من خلال تمنياتنا لليهود بترحيبٍ قلبي بعودتهم للوطن. «وتستطرد الرسالة في الشاعرية المفرطة حول التعاون العربي اليهودي والأهداف المتماثلة للقومية العربية والحركات الصهيونية. و«ردّ» فرانكفورتر على هذه الرسالة المزعومة بشكر فيصل على اعتباره هذه المقترحات «معقولةً ومناسبة»، وأن فيصل الآن «من أشد المؤيدين لتحقيقها». وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر بتاريخ 5 آذار 1919 عن طريق مراسلها في باريس، رسالة فيصل إلى فرانكفورتر، ووجد محتوى الرسالة طريقه إلى الأرشيف البريطاني[21].

ظهر الجدل لاحقاً حول من قام بتأليف الرسالة في عام 1929، عندما قدم السير لويد فريدمان، نيابةً عن المنظمة الصهيونية، نسخةً من الرسالة بنسختها الإنكليزية، وبتوقيع فيصل باللغة الإنكليزية، إلى لجنة (شو)[*] المعنية بالشأن الفلسطيني. كان لدى عوني عبد الهادي، الذي كان حينها عضواً في الوفد العربي الفلسطيني الذي اجتمع مع لجنة شو، شكوكه في أن الخطاب كان مزوراً، وأرسل ببرقيةٍ إلى فيصل في بغداد للاستفسار عن صحة ذلك الخطاب. فردَّ رستم حيدر، أمين البلاط الملكي في بغداد حينها، ببرقيةٍ إلى عوني قائلاً: «جلالة الملك [فيصل] لا يتذكر أنه كتب شيئاً من هذا القبيل». وفي رسالةٍ بتاريخ 25 كانون الثاني (يناير) 1930 إلى صحيفة البلاد الصادرة في بغداد، والتي كانت قد ترجمت الخطاب إلى العربية، قال حيدر، إن فيصل «يجد أنه من الغريب جداً أن يُنسب إليه مثل هذا الأمر إذ لم يخطر بباله قطّ السماح لأي دولةٍ أجنبيةٍ أن يكون لها نصيبٌ في دولة عربية». وهو ما لا يُعدُّ إنكاراً تاماً وحسب، بل وتبرأً من ذلك الخطاب وما يترتب عليه.

بيد أن عوني عبد الهادي هو من أنكر بشدةٍ في مذكراته صحة هذا الخطاب. فبادئ ذي بدء، يصرِّح بشكلٍ قاطعٍ، وبصفته سكرتيراً لوفد الحجاز، أن مثل هذا الاجتماع لم يتم أبداً ـ ليس على حدِّ علمه في الأقل. ثانياً، إن عدم وجود أي نسخةٍ باللغة العربية للخطاب يعني أن لورنس هو من ألَّفه بنفسه، وأنه قد تم اختلاقه فيما بين لورنس ووايزمان وفرانكفورتر، دون إطِّلاع فيصل على تفاصيله ونبرته المفرطة في المجاملة. «لم ينمُ إلى علمي أن اجتماعاً في ذلك التاريخ [1 آذار (مارس) 1919] قد تم بين الأمير فيصل والدكتور حاييم وايزمان والسيد فيليكس فرانكفورتر

(*) لجنة شكّلتها وزارة المستعمرات البريطانية في 3 أيلول (سبتمبر) 1929 برئاسة المستر والتر شو، للتحقيق في أسباب اندلاع انتفاضة البُراق في فلسطين، ووضع التوصيات بالتدابير الواجب اتخاذها لمنع تكرارها. صدر التقرير في آذار (مارس) 1930، وخلُص إلى أن الأسباب تكمن في مخاوف العرب من الهجرة اليهودية المستمرة وشراء الأراضي. (المُراجع).

ولورنس. كما أنني لم أشهد، بصفتي سكرتيراً للأمير فيصل، أي اجتماعٍ من هذا القبيل... أعتقد أن هذا الخطاب، بافتراض أنه صحيح، قد كتبه لورنس، وأنه وقعه باللغة الإنكليزية نيابةً عن فيصل. أعتقد أن هذا الخطاب جزءٌ من الادعاءات الكاذبة التي ساقها حاييم وايزمان ولورنس لتضليل الرأي العام»[22].

تشير حصيلة الأدلة إلى أن ملاحظات عوني عبد الهادي هي الأقرب إلى الحقيقة، إذ ازداد قلق فيصل حقاً بشأن الخطط الصهيونية للاستيطان في فلسطين والمخاطر التي قد تشكلها على الاستقلال العربي فيها. بينما لا يتضمن محتوى الخطاب ونبرته إلى فرانكفورتر أي طابعٍ ملحٍّ كان فيصل قد شعر به فيما يتعلق بالمخاطر التي يتعرض لها العرب من الخطط الصهيونية حول فلسطين. وفي واقع الأمر، وبعد أسابيع قليلة من الخطاب المزعوم إلى فرانكفورتر، كتب فيصل مسودة مذكرةٍ أحضرها لورنس إلى ستيفن بونسال، عضو الوفد الأمريكي. وكانت تلك المذكرة انعكاساً واضحاً لمخاوف فيصل بشأن مستقبل فلسطين، وهو شعورٌ مناقضٌ لذلك الذي ظهر في رسالة فرانكفورتر، حيث كتب فيصل:

إذا هيمنت آراء الصهاينة الراديكاليين كما عُرضت على [مؤتمر السلام]، فإن النتيجة ستكون اضطراباً، وقلاقل مزمنة، وحرباً أهليةً في فلسطين عاجلاً أم آجلاً. لكني آمل إلا يساء فهمي، إذ أنني أؤكد أننا نحن العرب ليس لدينا أي عداءٍ عرقي أو ديني ضد اليهود كما هو سائدٌ للأسف في العديد من مناطق العالم الأخرى. أؤكد لكم أن علاقاتنا ممتازةٌ مع اليهود الذين مكثوا منذ عدة أجيال في فلسطين، لكن الوافدين الجدد يظهرون خصالاً مختلفةً تماماً عن أولئك «المستوطنين القدامى» كما نسميهم، والذين تمكّنا من العيش وحتى التعاون معهم في بيئةٍ ودية. ولتعذُّر وجود توصيفٍ أفضل، لا يسعني إلا أن أقول إن المستوطنين الجدد دون استثناءٍ تقريباً قد أتوا محمَّلين بروحٍ إمبريالية، إذ يصرحون بإننا نسيطر على وطنهم منذ فترةٍ طويلةٍ جداً وقد انتزعناه منهم بالقوة الغاشمة خلال العصور المظلمة، أما الآن وفي ظل النظام العالمي الجديد لا بد لنا من إخلاءه، وإذا كنا عقلاء فيجب أن نفعل ذلك بسلامٍ ودون أي مقاومةٍ لمشيئة العالم المتحضر[23].

فضلا عن ذلك، وفي منتصف نيسان (أبريل) 1919، علَّق فيصل، أثناء لقائه وفداً أكاديمياً فرنسياً، على الأخطار التي يمثلها الصهاينة الأكثر تطرفاً على عرب فلسطين. «مثل هؤلاء الأشخاص يبالغون في تصريحاتهم ويتخذون مواقف متطرفة بما يثير حفيظة العرب. وعلى اليهود أن يتجنبوا التعليقات التي تستفز عواطفنا، فنحن لا نريد أن نتخلى عن أرضنا ونتركها لليهود، كما قال أحد كتابهم [المتطرفين]: (أعطوا المسلمين [مسلمي فلسطين] تكلفة السفر وسيحملون أمتعتهم على ظهورهم ويغادرون). كما لو أن الناس بدوٌ رُحَّل»[24]. والتفسير الأكثر ترجيحاً

للتبادلات المزعومة بين فيصل وفرانكفورتر هو أن الاجتماع قد حدث بالفعل بين الفرقاء، وأن لورنس صاغ خطاباً باللغة الإنكليزية لم يتم توضيح محتوياته بالكامل لفيصل. وربما حينها قد تم حثّه أو ربما لا على التوقيع عليه، أو من المحتمل أن لورنس وقّعه ببساطة باللغة الإنكليزية نيابة عنه. ولعل لورنس قد أثار أيضاً لدى فيصل شعوراً بأنه إذا لم يتم استرضاء الوفد الصهيوني، فإن القضية العربية ستفقد حليفاً محتملاً ومصدراً للتأثير على الحلفاء. لكن من الواضح أن مضمون الخطاب كان متناقضاً تماماً مع تصريحات فيصل العلنية والخاصة في ذلك الوقت بشأن الأخطار المتأصلة في المشروع الصهيوني على عرب فلسطين.

فيصل والفرنسيون

أدرك الفرنسيون، الذين تمثَّل موقفهم العلني بالتقليل من شأن فيصل ودعواته إلى استقلال سوريا، في وقتٍ مبكرٍ أنهم لا يستطيعون تجاهله هو وأتباعه تماماً، فكان عليهم أن يأخذوا في الحسبان تداعيات مطالبة فيصل بالاستقلال الكامل لسوريا، حتى لو لم يكن يتمتع سوى بدعمٍ بريطاني محدود. فلم يُترجم رفضهم لرؤية فيصل للاستقلال العربي في الشرق الأدنى بالضرورة إلى رفضٍ بالاعتراف بأنه قد يكون له دورٌ يؤديه في سوريا التي يهيمن عليها الفرنسيون. فحتى تاريخ خطاب فيصل أمام مجلس العشرة في 6 شباط (فبراير)، كانت فرنسا مستعدةً على مضض للتنازل لفيصل عن قدرٍ من السلطة في سوريا، لا لشيءً سوى لتهدئة حلفائها البريطانيين، وبالتالي إتاحة الفرصة لهم للزعم بأنهم قد أوفوا بالتزاماتهم تجاه حلفائهم الشريفيين، وبروح الإعلان الأنغلو ـ فرنسي الصادر في 6 تشرين الثاني (نوفمبر). وفي المقابل ثارت ثائرة فيصل ضد الفرنسيين سراً وعلانيةً، لما اعتبره نزعةً استعماريةً متطرفةً لديهم، وسعى للحصول على الحلفاء أينما وجدهم لإحباط عزم فرنسا على تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو في سوريا.

تلقّى الفرنسيون خطابه الذي ألقاه في 6 شباط (فبراير) أمام مجلس العشرة بعدوانيةٍ، وسرعان ما تضاعفت بعدها الهجمات العنيفة ضده في الصحافة الفرنسية. كان الفرنسيون يتوقعون موقفاً أكثر استرضاءً، بل وحتى مراعاةً، من جانب فيصل، لكن ما حصدوه بدلاً من ذلك تركهم يشعرون بالمرارة. وقد ساهم هذا إلى حدٍّ كبير في ترسيخ فكرة أن فيصل شخصٌ مخادعٌ وغير جديرٍ بالثقة لدى الدوائر الرسمية الفرنسية[25]. وأطلقت وزارة الخارجية في كوي دورساي مذكرةً شديدة اللهجة إلى البريطانيين حول خطاب فيصل، مما أثار استهجان كرزون حول لهجتها. وجاء في المذكرة «الأمير فيصل، زعيم البدو، الذي تحوّل إلى منتدبٍ عن جميع الشعوب الناطقة بالعربية، يُرهب السكان الذين لا بد لهم بحكم ثقافتهم وتقاليدهم التاريخية أن يعارضوا هيمنة البدو»[26].

أثارت نبرة الفرنسيين العنيفة تجاه فيصل جزع البريطانيين، وتساءل مكتب الهند، كما جرت العادة، عما إذا كان ينبغي دعم المطالب العربية إلى الحد الذي تتعرض معه علاقة بريطانيا بفرنسا للخطر، واقترح أن تعمل بريطانيا كوسيطٍ نزيهٍ بين فيصل والفرنسيين. ومثَّل كليمنصو الشخصية الرئيسة في هذا الصدد، حيث اعتُبر أكثر ليبراليةً وانفتاحاً بخصوص المطالب العربية من البيروقراطيين والدبلوماسيين المحترفين في وزارة الخارجية، وإن كان لا يزال متشككاً. فقام لويد جورج بإيفاد اللورد ميلنر، الذي كان وزير المستعمرات حينها، لإقناع كليمنصو بعقد اجتماع مع فيصل. وأوضح ميلنر لكليمنصو أن البريطانيين غير راضين عن اتفاقية سايكس بيكو، وباعتبارهم حلفاء لكلٍّ من العرب والفرنسيين، فقد سعوا إلى التوفيق بين مطالبهما، إذ لم يكن من الممكن التوفيق بين التزامات الحلفاء بـ «منح التحرر الكامل للشعب السوري» مع القيام بالانتداب على سوريا، وكان أفضل رهان لهم هو التوصل إلى صفقةٍ مع فيصل[27].

بيد أنه وقبل أن يتم عقد هذا الاجتماع مع فيصل، جُرح كليمنصو على إثر تعرضه لإطلاق نارٍ في 19 شباط (فبراير)[*]، وكان لا بد من تأجيل الاجتماع. ولم تتعززت فرص عقد ذلك الاجتماع بعد أن سمع كليمنصو، أثناء فترة نقاهته، عن مذبحة الأرمن المحميين من قبل فرنسا في حلب في 28 شباط (فبراير). إذ كانت فروع النادي العربي في سوريا قد نظمت مظاهراتٍ حاشدةٍ ضد المزاعم الفرنسية بأن الشعب السوري طلب حماية فرنسا بملء إرادته. وسرعان ما تحولت المظاهرات في حلب إلى أعمال شغبٍ مناهضة للأرمن، أجَّجتها إلى حدٍّ ما التقارير التي وصلت عن إساءة معاملة الأرمن في كيليكيا للقوات العربية المستسلمة من الجيش العثماني، واستمرت أعمال الشغب لأكثر من ساعتين واستهدفت المباني التي يملكها الأرمن ودار أيتامٍ تُشرف عليها فرنسا. سقط ما يقرب من مائتي أرمني بين قتيلٍ وجريح، بعضهم على أيدي مثيري الشغب بالزي الرسمي، قبل أن تُعيد القوات البريطانية والعربية النظام [28]، الأمر الذي أثار غضب كليمنصو ودفعه إلى إلغاء الاجتماع المقترح مع فيصل.

ومع تواجد ويلسون بعيداً في الولايات المتحدة، وعدم توقع عودته حتى منتصف آذار (مارس)، وبتركيز مؤتمر السلام على الشؤون الألمانية، قام فيصل بجولة في الألزاس وراينلاند وبلجيكا، بعد أن تلقى دعوةً رسميةً من الملك ألبرت الأول لزيارة الأخيرة. غادر فيصل بالسيارة متوجهاً إلى نانسي في 10 آذار (مارس) في بداية زيارته التي كان من المقرر أن تستمر لمدة عشرة أيام، ورافقه الدكتور احمد قدري والعقيد بيساني. وعاد إلى باريس في 20 آذار (مارس)،

(*) كان ذلك على إثر تصريحاته التي عدّها المتشددون تراجعاً فرنسياً عن دعم المسيحية في العالم، فقام أحد المسيحيين المتعصّبين بإطلاق النار عليه وأصابته، لكن الجرح الذي سببته الرصاصة الواحدة كان بسيطاً ولم يُجبر كليمنصو على لزوم السرير إلا أياماً قليلة. (المُراجع).

حيث وصل في وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهر إلى محطة الشمال، حيث التقى به عوني عبد الهادي ورستم حيدر في المحطة وأمليا عليه أحداث الفترة الفاصلة. كان فيصل سعيداً بشكلٍ خاص عندما علم أن أللنبي كان في باريس. وتطرَّق إلى رحلته قائلاً: «كانت جولتي مفيدةً للغاية. وإنني أدرك الآن عظمة الأمة الألمانية وكيف تمكنت من مواجهة العالم بأسره. فأنا لم أر قط مثل هذا البلد المُشيَّد. يجب على الفرنسيين والبريطانيين البحث عن معلمين ألمان لإخبارهم بكيفية إصلاح أراضيهم». وأخبره حيدر أن بلفور مازح لورنس قائلاً بأن فيصل سيعود من رحلته مفتوناً بألمانيا، فضحك فيصل وقال: هذه حقيقة الأمر. هل يدركون ذلك؟! ثم تابع فيصل مادحاً بلجيكا وملكها، «إنه محبوب، لا بل وساحرٌ يأسر القلوب بفضائله ودماثة خُلقه». وكانت الصحافة البلجيكية أيضاً مؤيدةً جداً لفيصل والقضية العربية، ودعت الحلفاء إلى منح العرب استقلالهم[29].

ومع حلول نهاية آذار (مارس) 1919، كانت فرنسا مستمرةً في تجاهل فيصل ولم تكن مستعدةً للتعامل معه رسمياً في الأمور المتعلقة بسوريا. أثار ذلك غضب فيصل وصمم على المغادرة إلى سوريا استعداداً لوصول لجنة تقصي الحقائق. وضاعف البريطانيون حينها جهودهم للجمع بين الطرفين، وفُتحت قناةٌ خلفية لإثارة القضايا العالقة. وفي 25 آذار (مارس)، أقام ويكهام ستيد، رئيس تحرير صحيفة التايمز، مأدبة عشاء كان من المفترض أن يكون لها تأثيرٌ هام على المسار الدبلوماسي في باريس. كان ستيد لاعباً مهماً من وراء الكواليس، وكان لديه اهتمامٌ خاص بشؤون العرب والشرق الأدنى. وكان الهدف من الدعوة للاجتماع هو لرأب الصدع الذي كان يتزايد بين الموقفين الفرنسي والبريطاني حول سوريا والنفور بين الفرنسيين وفيصل. وحضر الاجتماع جان غوت وروبرت دي كايكس، وهو من أبرز قادة اللوبي الاستعماري الفرنسي ومستشار لوفد مؤتمر السلام الفرنسي المعني بشؤون الشرق الأوسط، وكان لورنس أيضاً من بين المدعوين، إضافةً إلى غيرترود بيل. وما أثار الدهشة أن لورنس حذَّر من المخاطر التي قد تشكلها لجنة تحقيقٍ على أطماع فرنسا في سوريا، فمن المرجح جداً أن تؤكد الاعتقاد السائد بأن فرنسا قوةٌ غير مرحبٌ بها في البلاد. وبدلاً من ذلك اقترح أن تسعى فرنسا إلى عقد تسويةٍ مع فيصل، فبوجوده قد يقتنع السوريون تماماً بالدعوة إلى انتدابٍ فرنسي. (ناقض لورنس موقفه بعد بضعة أيام عندما أيَّد الدعوة إلى انتدابٍ أمريكي في سوريا خلال اجتماعه وفيصل مع هاوس). واستمرت حجج لورنس في ذلك اليوم وأوصى دي كايك وزارة الخارجية بأن تتوصل فرنسا إلى صفقةٍ مع فيصل[30].

استمرت وزارة الخارجية الفرنسية في المراوغة، حتى تدخّل لورنس في تلك المعمعة مرةً أخرى، وكتب مذكرةً إلى كليمنصو، الذي كان قد تعافى حينها من محاولة الاغتيال، في 7 نيسان (أبريل) 1919 حول الرغبة في لقاء مع فيصل. وفي اليوم التالي، دعا جورج بيكو فيصل، الذي كان قد حدد مسبقاً يوم 12 نيسان (أبريل) موعداً لمغادرته إلى سوريا. وبحسب ملاحظات بيكو حول

النقاشات، عرض فيصل قيادة الشعب السوري لقبول التعاون الفرنسي مقابل التزامٍ محددٍ من جانب فرنسا باستقلال سوريا، كما تذمَّر من أن وجوده في باريس لم يعد ضرورياً حيث تم اتخاذ القرارات دون التشاور مع الوفد العربي، وقد ذكّره ذلك بـ «البرلمان العثماني، حيث كان يتم استدعاء الشخص فقط عندما تقرر اللجنة [جمعية الاتحاد والترقي CUP] أمراً بغرض التصديق على ذلك القرار الذي اتخذته»[31]. ومع ذلك، فقد أوضح لبيكو أنه سيوافق على تمديد إقامته في باريس، إذا كان من الممكن ترتيب لقاء مع كليمنصو.

تم اتخاذ الترتيبات، وفي 13 أبريل التقى فيصل مع كليمنصو في وزارة الحرب، حيث كان كلمنصو قد سئم من الخلافات التي لا نهاية لها مع البريطانيين حول سوريا، واقتنع أخيراً أن التسوية مع فيصل كانت أفضل بكثير من استطلاع الرأي السوري بشأن الانتداب الفرنسي. رافق فيصل إلى الاجتماع عوني عبد الهادي، بينما رافق كليمنصو المترجم الفرنسي الرسمي ابن غبريط. وهناك رواياتٌ عديدةٌ من المحادثة التي جرت بين الاثنين، بما في ذلك الملاحظات التي احتفظ بها عوني عبد الهادي وإعادة البناء اللاحقة للأحداث التي قدمها فيصل لساطع الحصري. بدأ كليمنصو كلامه بالقول إن فرنسا ليس لديها مطامع استعمارية في سوريا وأنه حارب الاستعمار لأكثر من خمسين عاماً في كتاباته وخطبه. قال فيصل إنه يثق في كليمنصو، لكنه لا يستطيع قول الشيء نفسه عن السياسيين الفرنسيين الذين قد يخلفونه. عندئذٍ تحدث كليمنصو عن الروابط الراسخة بين فرنسا والشعب السوري، والآن وبعد انسحاب البريطانيين من سوريا، ليس هناك من بديلٍ سوى استبدالهم بقواتٍ فرنسية. وبالطبع رفض فيصل هذه الفرضية، ونفى أن تكون سوريا قد طلبت أية قواتٍ أجنبية على أراضيها، وأضاف قائلاً: «أؤكد لكم أنه إذا احتاجت سوريا إلى أي قواتٍ أجنبيةٍ في المستقبل، فلن أتردد في طلب المساعدة منكم «. لكن كليمنصو أصر على أن وجود القوات الفرنسية ضروري إذا كانت فرنسا ستفي بالتزاماتها تجاه السوريين. وانتهى الاجتماع بإعلان فيصل أنه سيغادر إلى سوريا للترتيب لوصول لجنة التحقيق، وكان فيصل قد أدرك على الفور المخاطر على استقلال سوريا من خلال القبول بوجود القوات الفرنسية. إلا أنه استغل تأكيد كليمنصو على مناهضته القوية للاستعمار كدليلٍ على دعمه لاستقلال سوريا.

كما أثار لقاء فيصل مع كليمنصو شكوكه في أن مسألة لجنة التحقيق لم تتم تسويتها بعد، ويبدو أن كليمنصو ترك انطباعاً لدى فيصل بأن البريطانيين وليس الفرنسيين هم من يترددون في إرسال لجنة إلى الشرق الأدنى. وتفاقمت هذه المخاوف بسبب تقرير لورنس حول صعوبات التوصل إلى توافقٍ في الآراء بين الأربعة الكبار بشأن إيفاد لجنة التحقيق. في اليوم التالي أرسل فيصل مذكرة إلى لويد جورج تطلب توضيحاً للموقف البريطاني فيما يتعلق باللجنة، وإبلاغه بقراره المغادرة في أقرب وقتٍ ممكن إلى الشرق. وأشار إلى لويد جورج أنه إذا لم تأت اللجنة،

فإنه سيواجه أزمة مصداقيةٍ في بلده، حيث سيعود عملياً خالي الوفاض دون أي نتائج تذكر لجهوده. كما حذّره من أنه قد لا يتمكن من احتواء الاضطرابات وأعمال العنف التي ستتبع بالتأكيد في أعقاب أي أنباءٍ عن إلغاء لجنة التحقيق[34].

في هذه الأثناء، التقى لورنس، في إحدى نوبات الدبلوماسية الخلفية المحمومة، مع لويد جورج، الذي اتصل بفيصل بعد ذلك، وأبلغه أنه قد تقرر الآن أن تغادر اللجنة إلى الشرق الأدنى. كان فيصل مبتهجاً بالأخبار، وكان في مزاجٍ احتفالي عندما اتصل به ابن غبريط بعد ظهر يوم 14 نيسان (أبريل) حاملاً رسالته الخاصة من وزارة الخارجية الفرنسية، وقال لفيصل إن الفرنسيين يدعمون الآن لجنة التحقيق، ويريدون رؤيتها تغادر في أسرع وقتٍ ممكن، لكنهم طلبوا تأكيداتٍ بأن الاستفتاء المتوقع للشعب السوري لا ينبغي أن يكون لصالح الأمريكيين. وأجاب فيصل أن شعب سوريا لن يصوّت إلا من أجل الاستقلال التام، وأنهم سيفوضون له حق التفاوض نيابةً عنهم، وهو لن يتفاوض مع أحدٍ قبل أن يتوصل إلى اتفاقٍ مع الفرنسيين. وغادر ابن غبريط الاجتماع قائلاً: «لقد تم كل شيء! «يبدو أن الفرنسيين وافقوا على استقلال سوريا في ظل انتدابٍ فرنسي محدود المدة»[35].

في اليوم التالي، 15 نيسان (أبريل)، أرسل كليمنصو روبرت دي كايكس للقاء فيصل، وربما التوصل معه إلى اتفاق، وليس من المستغرب أن كليمنصو فضَّل استخدام مثل هذه القناة الخلفية بدلاً من البيروقراطيين الجامدين في وزارة الخارجية. وتحول الحوار إلى موضوع لجنة تقصي الحقائق، حيث شدد فيصل على أن أهميتها تكمن بالتحديد في أنها ستحدد آراء الشعب بوضوح في الأمور ذات الأهمية القصوى بالنسبة لهم. «لا أعتقد أن اللجنة ستحل المسألة، لكنها ستستوضح على الأقل إرادة الشعب. أعلم أن مستقبل [الأراضي العربية] لن يُحسم إلا بعد عودة اللجنة إلى أوروبا... سأطلب الاستقلال التام لبلدي لأنني عربي قبل كل شيء، وسأعود إلى أوروبا وأدافع عن هذا المبدأ. أعلم أن بلادنا بحاجة إلى مساعدةٍ خارجية ولكن علينا أولاً الموافقة على مبدأ الاستقلال. عندها فقط يمكن للبلد اختيار من سيساعده. لقد وعدت كليمنصو بألا أتحدث إلى أي شخصٍ قبل أن أتحدث معه، وألتزم بوعدي بأنني لن أتحدث إلى أي دولةٍ ولن أسمح لأي شخصٍ آخر بالقيام بذلك حتى أقوم بتسوية الأمر مع الحكومة الفرنسية. «ثم تساءل دي كايكس عما إذا كان البريطانيون سيغادرون البلدان الواقعة تحت سيطرتهم [بمعنى بلاد ما بين النهرين وفلسطين]، حتى لو أدانتهم لجنة التحقيق. فقال فيصل أن هذه مسألةٌ أخرى. «إذا أنكرت إنكلترا حقوق الشعوب، فسأعرف ما عليَّ فعله وكيف أدافع عن حقوق أمتي، فإما أن أموت دون بذلك... أو سأصبح بلشفياً! ثم طلب دي كايكس عقد جولةٍ ثانية من اللقاءات مع فيصل لمحاولة تسوية الأمور العالقة حتى يتمكن الفرنسيون من توضيح موقفهم النهائي داخل لجنة التحقيق[36].

مراسلات فيصل ـ كليمنصو

في 16 نيسان (أبريل)، قابل ابن غبريط فيصل حاملاً رسالة من كليمنصو مفادها أن فرنسا ستعترف باستقلال سوريا مقابل بيانٍ من فيصل يعترف بمصالح فرنسا في البلاد. شعر فيصل بسعادةٍ غامرة لاعتراف فرنسا الرسمي الأول بحق الشعب السوري في تقرير مصيره. وفي اليوم التالي، زار دي كايكس فيصل مع اقتراحٍ باستكمال المسألة رسمياً من خلال تبادل المذكرات بين كليمنصو وفيصل. اقترح دي كايكس أن يرسل كليمنصو مسودةً موجزة للخطاب المقترح تقديمه إلى فيصل، والتي سيردّ فيصل عليه، وستشكل المسودتان، بمجرد الاتفاق عليهما ووضع اللمسات الاخيرة عليهما، أساس موقف سياسة فرنسا حول سوريا، ويمكن أن تستمر تلك السياسة حتى في حال ترِك كليمنصو لمنصبه. وفي مساء ذلك اليوم، عاد دي كايك مع مسودة الخطاب المقرر من كليمنصو ليضع فيصل تعليقاته عليه قبل تقديمه في شكله النهائي.

غيَّر فيصل رأيه بعدما اجتمع مع مستشاريه في جلسةٍ مغلقة، بعد أن كان يفكر في وقتٍ سابقٍ في قبول المبادئ الرئيسة لمسودة الخطاب. فقد أجمعوا على أن مسودة المشروع غير مقبولة، حيث فرضت انتداباً على البلاد مقابل حق الاستقلال، وهو الحق الذي أقر به الحلفاء مسبقاً. حاول دي كايكس وابن غبريط تغيير وجهة نظر فيصل، إلا أنهما تراجعا أخيراً وأعطيا فيصل الوقت لصياغة ردّه الخاص الذي سيكون أساس الموقف العربي[37]. على أية حال، كان فيصل ينتظر عودة لورنس من إنكلترا واجتماعاً مع لويد جورج للتأكد من موقف بريطانيا من تبادل مسودات المشاريع مع كليمنصو، فأرجأ رحيله إلى الشرق مرةً أخرى. وقد ذكر في رسالةٍ بعث بها إلى زيد في دمشق في اليوم نفسه، «لقد أخَّرت رحلتي بسبب تبادلٍ مهم للمذكرات، فربما فرنسا قد وافقت أخيراً على الاستقلال الكامل لسوريا»[38].

عاد فيصل راضياً عن لقائه مع لويد جورج. وقد أشار رستم حيدر في مذكراته إلى أن فيصل ربما كان لديه شعورٌ زائفٌ بالأمان بشأن النوايا البريطانية، إذ لم تكن بريطانيا ذلك الوسيط النزيه تماماً، ناهيك عن اعتبار فيصل أنها الحليف الراسخ له في البلاد. بدا أن حيدر قد أدرك كل المكائد وتوصّل إلى نتيجةٍ أغضبت فيصل، فقد خلص إلى أن بريطانيا كانت قد قررت بالفعل تأييد تحالفها مع فرنسا، وأن لجنة التحقيق لن تعمل على تعزيز المصالح البريطانية. وفي واقع الأمر، قدَّر حيدر أن أهداف اللجنة كانت مرفوضةً على نطاقٍ واسع ـ من جانب الفرنسيين والبريطانيين فيما يتعلق بفلسطين وبلاد ما بين النهرين والأرمن والإيطاليين واليونانيين والصهاينة. وأن العرب فقط وربما الولايات المتحدة، التي كانت تفكر في الانتداب على أرمينيا، كانوا مؤيدين للجنة[39].

أراد مستشارو فيصل صياغة مسودةٍ شديدة اللهجة لا تترك مجالاً للمواربة فيما يتعلق بمطالبة العرب بالاستقلال. وكان فيصل على استعدادٍ لقبول مثل هذه النصيحة، على الرغم من أنه كان

يفضِّل موقفاً أكثر تساهلاً مع الفرنسيين. وخوفاً من أن يؤثر لورنس، الذي عاد لتوه من إنكلترا، على فيصل في اتجاهٍ معاكس، كتب حيدر ملاحظةً ساخطةً في مذكراته قائلاً: «وصل لورنس في المساء من إنكلترا وأخبره الأمير بالقضايا المطروحة. كان [فيصل] يعتمد عليه بشكلٍ أعمى، على الرغم من أن لورنس لم يكن أكثر من أداةٍ في أيدي رجال السلطة. فقد روَّج [لورنس] لسياساته [مع فيصل] فيما يتعلق باليهود والتي كانت متوافقة كلياً مع موقف الحكومة البريطانية، وهو الآن يروّج لسياسات لويد جورج، على الرغم من أن عواطفه ربما كانت مع الأمير، لكن وكما صرَّح في كثيرٍ من الأحيان، ليس للصداقة دورٌ في القضايا السياسية... لقد اعتاد لورنس على التحدث مع الأمير مباشرةً معتمداً على موقف ضعف [فيصل]. لم يعجبه أن يجادله أحدٌ منا لحماية مكانته لدى الأمير، كما لو أنه لا يتنازل بالتحدث إلى أحدٍ سوى الأمير. وهكذا فقد كان اعتماد الأمير عليه كبيراً»[40].

ولّد لورنس، المتصالح مع شخصيته المعقدة والغامضة، ردود أفعالٍ شخصيةٍ مختلفةٍ لدى فيصل ومستشاريه، وقد ظهر ذلك بشكل خاصٍ في التقارب المفروض على مدى أسابيع معاً خلال مؤتمر السلام، حيث تختلط الشكوك في ولاءات لورنس وخططه الحقيقية مع احترامٍ وإعجابٍ كبيرين ـ وحتى مع محبة ـ لهذا الرجل الأكثر إثارةٍ للحيرة. في 7 نيسان (أبريل) 1919، أُخبر لورنس أن والده كان مصاباً بمرضٍ مميت، فغادر على الفور إلى إنكلترا، حيث وصل بعد فوات الأوان، وبعد بضعة أيام عاد إلى باريس. كتب فيصل [مقدّراً لورنس]:

أعظم ما رأيته فيه، ويستحق الذكر كأحد سماته الرئيسة، هو صبره وحسن تقديره وهمَته وتفضيله للصالح العام على مصلحته الشخصية. عندما جاء لأخذ إجازةٍ سألتُه عن سبب رحيله، فقال: «يؤسفني أن أقول إن والدي قد مات وأريد الذهاب لرؤية والدتي». استفسرتُ منه عن تاريخ وفاة والده فقال: «منذ أسبوع ـ فقد تلقيت برقيةً تفيد بأنه مريض وغادرت على الفور، لكن عندما وصلت وجدتُ أنه توفي قبل ساعتين. لم أمكث في إنكلترا حتى الجنازة لأنني أدركت أنك كنت هنا بمفردك وأن هناك الكثير من العمل الذي يتعين القيام به. لم أكن أريد أن أبتعد عنك في حالة حدوث أمورٍ في غيابي. لم أخبرك بهذا في ذلك الوقت لكيلا لا أزعجك، لذلك أقول لك الآن، سأعود يوم الجمعة». وبالنظر إلى مثل هذه الأمانة والإخلاص والتفاني للواجب والسيطرة على المشاعر الشخصية! أجد أن هذه هي أسمى الخصال لدى الإنسان، والتي لا يتمتع بها سوى عددٍ قليلٍ من الأشخاص[41].

أما حيدر، الذي غالباً ما كانت كلماته قاسية تجاه لورنس، فقد كتب الفقرة التالية في مذكراته عندما أخبره فيصل بوفاة والد لورنس.

ذهبت لأواسيه [لورنس] وكان مفجوعاً للغاية، لكنه عاد بعد ذلك إلى الحديث راسماً على

وجهه ابتسامته المعتادة... لم أر قط رجلاً مثله مبتسمٌ دائماً. ودائما يقول للأمير: تم! بغض النظر عن الثمن الذي ستكلفه إياه تلك الكلمة، وكأن كلمة لا! لم تكن موجودةً في قاموسه. وفي كل مرةٍ أطلب منه أمراً، كان يقول: سأبذل قصارى جهدي. الحقيقة أنه ناضل بقوةٍ من أجل القضية العربية. وبالأمس، قال للأمير إن البريطانيين لا يعرفون شيئاً، فأنا أتناول ورقةً بيضاء وأكتب عليها ما أريد وسوف يلتزمون به وينفذونه... قال لي ذات يوم في حضرة الأمير: الرحلة أفضل بكثيرٍ من الوصول. كما لو أنه أراد أن يقول إن على الإنسان أن يكافح ويعاني لأنه من خلال الكفاح والمعاناة تُكتَسب الحياة الكريمة، فإن وصل الإنسان إلى هدفه، فسيشعر بالسعادة للحظةٍ ثم ستتوقف رحلة حياته. كان خائفاً من أنه إذا وصل إلى هدفه فسوف يتوقف مسار حياته، وهو الذي يجد في العمل متعة الحياة...[42]

عندما عُرضت المسودة العربية لرد فيصل على كليمنصو على دي كايكس في اليوم التالي، انزعج للغاية من مضمونها ونبرتها غير الدبلوماسية، حيث دعت المسودة إلى اعتراف القوى بالاستقلال الكامل لسوريا كاتحادٍ ديمقراطي، وستكفل عصبة الأمم مكانتها. وسوف ترحب سوريا بمساعدة المستشارين، ولكن بشروطها الخاصة. وستحصل فرنسا على تعويضها الأدبي من خلال دعم مطلب سوريا بالاستقلال، وهذا من شأنه أن يساعدها في توسيع نطاق مصالحها في سوريا. لكن دي كايك، الذي رأى في المسودة إهانةً لشخص رئيس الوزراء وفرنسا، رفض بشكلٍ قاطعٍ قبول المسودة واعتبرها قطيعةً في المفاوضات، مما اضطر فيصل إلى إعادة النظر في موقفه مرةً أخرى، معتمداً هذه المرة على حجج لورنس أكثر من اعتماده على مستشاريه. كان لورنس يطرح قضية مسودةٍ أكثر اعتدالاً على أساس المطالبة باستقلال سوريا، مع الاعتراف بمصالح فرنسا، وخاصةً في الساحل السوري، والاعتماد على تقلبات السياسة الفرنسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية داخل فرنسا، واحتمال وصول الاشتراكيين المناهضين للاستعمار لتحييد نفوذ اللوبي الاستعماري[43].

كتب لورنس أيضاً إلى كليمنصو يحثُّه على التعامل مع فيصل وقبول مصطلح «الاستقلال» لسوريا. وفي المقابل، وعد لورنس بأنه سيقنع فيصل بضرورة البحث عن حلٍّ للمعضلة عبر فرنسا، وتوطيد المصالح الفرنسية على شكل معاهدة تحالفٍ أو انتداب. لكن فيصل كان مصمماً على المغادرة إلى الشرق الأدنى وكان الوقت ينفد لإجراء مفاوضاتٍ مفصلة. استشعر حيدر المأزق الذي وقع فيه فيصل. «كان الأمير يخشى عواقب اتخاذ موقفٍ متصلب، ورأى ضرورة اعتدال الموقف العربي، وجعله منسجماً مع البريطانيين. لكننا (مستشاريه) حذرناه من مخاطر المرونة والضعف تجاه سياسات فرنسا وأطماعها... الأمر الذي من شأنه أن يجر البلاد نحو العبودية والانقسامات. لكن لورنس ساند الأمير، وكان الأمير يعتقد أن لويد جورج كان وراء لورنس»[44].

ثم صاغ فيصل رسالةً أخرى إلى كليمنصو حاول فيها التوفيق بين مواقفهما: الاستقلال التام لسوريا ووضع خاص لفرنسا داخل البلاد. واعتبر مستشارو فيصل أن المسودة الجديدة كانت مجامِلةً للغاية لفرنسا وتفتح الباب أمام فرض الوصاية الفرنسية على البلاد. لم يلقَ هذا الرأي استحساناً من جانب فيصل، الذي دخل في مشادةٍ مع الدكتور أحمد قدري حول الأمر، مردداً أنه هو المسؤول عما وقع عليه. ثم دعا لورنس للفصل في النزاع مع مستشاريه. وبطبيعة الحال، اتخذ لورنس جانب فيصل، قائلاً إنه من الأفضل استمالة فرنسا في هذه المرحلة لكسب الوقت. لكن مستشاري فيصل صمدوا على موقفهم، حيث أخبر حيدر لورنس أنهم كانوا مرتابين بشدة من فرنسا ونواياها، وأن فرنسا على أي حال ليست من النوع الذي يمكن أن يكون حليفاً جيداً للعرب، فقد كانت أنانيةً وقمعيةً ومن شأنها أن تزرع الانقسامات في سوريا. وفي إشارةٍ منه إلى الثمانمائة عضو من أعضاء جمعية الفتاة، قال حيدر إن بإمكانهم حشد الآلاف من حولهم لمحاربة فرنسا إذا اقتضى الأمر ذلك. وأمام إجماع مستشاري فيصل العرب على معارضة المسودة، رضخ لورنس نوعاً ما وتم اتخاذ القرار في النهاية بالتخلي عنها. وبدلاً من ذلك، أرسل فيصل خطاب وداع إلى كليمنصو، تناول فيه العموميات، تاركاً الوضع النهائي لسوريا قيد التفاوض[45].

وفي 21 نيسان (أبريل)، ومع فشل المفاوضات، استعد فيصل للرحيل إلى الشرق. وقبل مغادرته أجرى لقاء وداعٍ مع العقيد هاوس وعاد سعيداً بهذا اللقاء. فقد أكد هاوس أنه من المقرر ان تغادر لجنة التحقيق قريباً. وأصرّ فيصل أيضاً على أن يودع كليمنصو شخصياً، ووجد الأخير بضع دقائق لاستقبال فيصل. بدأت المحادثة القصيرة، كما سجلها حيدر الذي كان حاضراً حينها، بتبادل عبارات المجاملة، لكن فيصل كان مصمماً على انتزاع نوعٍ من الاعتراف من كليمنصو فيما يتعلق بذهاب لجنة الشرق الأدنى. رفض كليمنصو الانجرار إلى النقاش وتجاهل سؤال فيصل المتكرر. وفي مساء يوم 21 نيسان (أبريل)، انطلق فيصل إلى روما بالقطار من محطة جار دي ليون في باريس. وكان في وداعه لورنس، وغوت، وجورج بيكو، ودي كايكس، وأولئك الذين تركهم خلفه لمواصلة العمل في مؤتمر السلام، بمن فيهم عوني عبد الهادي ورستم حيدر. كما كان في المحطة عددٌ كبيرٌ من المسيحيين السوريين واللبنانيين لتوديعه. وقبل أيامٍ قليلة، كان شكري غانم قد زار فيصل بدفعٍ من الفرنسيين على الأرجح، وعرض عليه ولائه ودعمه بلهجةٍ مُنمّقة للغاية[46].

وقبل مغادرته، أعطى فيصل تعليماتٍ مكتوبة إلى حيدر وعوني عبد الهادي بخصوص الموقف الذي يتعيّن عليهما اتخاذه من الفرنسيين في مختلف القضايا وهي: استنكار جميع المعاهدات السرية (وهذا يعني بالطبع اتفاقية سايكس بيكو)، الاعتراف بالاستقلال الكامل لسوريا وإقراره، انسحاب جميع قوات الاحتلال الأجنبية في الوقت الذي يختاره العرب، احترام الحكم الذاتي

في لبنان، استقلال جميع الأراضي العربية بضماناتٍ دولي، وخيار إبقاء الحكومة السورية على جزءٍ من قوات الاحتلال الأجنبية. وفي مقابل هذه الشروط، تنزع الحكومة السورية إلى قبول المساعدة من فرنسا[47]، وقد كان لرحيل فيصل بالغ الأثر على أصدقائه ومستشاريه. فلدى عودته إلى القصر الخالي، كتب رستم حيدر: «لقد خلا القصر من أي شكلٍ من أشكال الحيوية كما لو أن الحياة قد فارقته».

كان فيصل قد عزم على المرور في روما للقاء المسؤولين الإيطاليين قبل أن يصعد على متن البارجة الفرنسية (باريس) في تارانتو التي كان من المقرر أن تقلّه إلى بيروت. وكان فيصل قد التقى ماركيز سالاجو راجي، عضو مجلس الشيوخ وعضو الوفد الإيطالي في مؤتمر السلام، لمناقشة القضايا التي تؤثر على مكانة إيطاليا في الشرق الأدنى. إلا أن زيارته إلى إيطاليا لم تكن تلقى ترحيباً من جانب بريطانيا أو فرنسا، اللتين كانتا قلقتين من أن طرفاً ثالثاً، غريباً عن الشرق الأدنى، قد ينخرط في المناقشات. وكان الإيطاليون قد أبلغوا فيصل أنهم يرغبون في دعمه ودعم المسلمين عموماً، كما فعلوا في طرابلس[48]. كان الإيطاليون يؤيدون لجنة تقصّي الحقائق، وكل ما سعوا إليه في سوريا هو ضمان مصالحهم الاقتصادية وعدم وقوع البلاد تحت سيطرة قوةٍ أجنبيةٍ واحدة. تم استقبال فيصل بتشريفٍ كبيرٍ في روما. والتقى بالملك ونائب رئيس الوزراء ووزراء الخارجية ومشاة البحرية والحربية ووزير المستعمرات. كما التقى بالبابا، الذي عقد معه اجتماعاً مغلقاً لأكثر من ساعةٍ من الزمن، حيث حمَّله تحياته إلى مسيحيي الشرق[49]. كما كلَّفت الحكومة الإيطالية جنرالاً وعقيداً لمرافقته إلى تارانتو.

في 27 نيسان (أبريل) غادر فيصل إلى بيروت، وكان على متن الرحلة معه ضابط الارتباط الفرنسي العقيد تولات. وبحسب تقرير تولات حول الرحلة، كان فيصل يخشى من الأطماع الفرنسية في سوريا، فقد تركت النبرة العنيفة للصحافة الفرنسية أثراً عميقاً في نفسه، حيث أشار مقالٌ صدر في صحيفة لوماتان في يوم مغادرته لباريس إلى أن إقامة محميةٍ فرنسيةٍ في سوريا بات أمراً محسوماً سلفاً[50]. فإذا كان بإمكان كليمنصو، الذي اعتقد فيصل أنه ليبراليٌّ ومناهضٌ للاستعمار، الموافقة على مثل هذا الإجراء، فما هي فرصه مع العناصر الأكثر رجعيةً في الحكومة والمجتمع الفرنسيين؟ كما قدّمت صحيفة لوماتان بعض المزاعم فيما يتعلق باستعداد فيصل للعمل مع الفرنسيين واتباع سياسة مشتركة، وقد كانت هذه المزاعم ببساطةٍ غير صحيحة. وبحسب ما علّق لورنس على ذلك المقال قائلاً، «لا تكاد توجد كلمةٌ صحيحةٌ في هذه التصريحات. فقد غادر فيصل في طراد فرنسي (بعد أن قدم وصيته) لكنه على الأرجح لن يعود إلى فرنسا... لم يبرم أي اتفاق مع كليمنصو، وهو مقتنعٌ بأن فرنسا هي الدولة الوحيدة في أوروبا المصممة على رفض استقلال سوريا»[51].

ترك فيصل انطباعاً شخصياً قوياً لدى المسؤولين الفرنسيين والمجتمع الفرنسي. وقد حظي باحترامٍ بالغٍ لدى دي كايكس تحديداً، حيث ميَّزه بصورةٍ إيجابية عن الحكام المحليين لشمال إفريقيا الفرنسية. «لا نجد فيه (باي) تونس أو سلطان المغرب، حيث يتصرف حسب شخصيته وأهوائه مترفّعاً دون جزع عن أن يعيش حياة سهلةً ومرفهةً كعميلٍ لفرنسا». ويستطرد دي كايكس قائلاً «إن فيصل لم يكن شخصاً شهوانياً بل قومياً، ومفاهيمه حول دور اللغة العربية قد أسقطت جوهر مهمة الحضارة الفرنسية في بلاد الشام. وبدلاً من الخضوع للحكم الفرنسي، قد ينسحب فيصل كلياً من الشؤون السورية. فهو لم يستطع قبول «نظامٍ سياسي ـ وقد قبلنا به [كرئيس] لإمارة دمشق ـ لا يمكن أن يعمل سوى لصالح انتدابٍ مستوحىً من الواقع المحلي والمصلحة الوطنية الفرنسية»[52].

كانت الأسابيع الأخيرة لفيصل في باريس مليئةً بالالتباسات وخيبات الأمل، ولكن وراء كل ذلك الضعف المتأصل في موقفه، والمساحة الضيقة للغاية للمناورة لديه. كان البريطانيون عاجزين بسبب التزاماتهم تجاه الفرنسيين، خاصةً بعد حصولهم على موافقة فرنسا على نقل السيادة إليهم في فلسطين والموصل، فقد كان هناك حدٌّ مُبيَّت لما يمكن أن يفعلوه لدعم مطالب فيصل في سوريا بالخصوص. وقد قاموا، في الواقع، بقطع الطريق عليه، على الرغم من أنهم كانوا يملكون القوة الأكبر على الأرض والقدرة على التأثير على النتيجة لصالحه. لم يستطع كليمنصو، مهما امتلك من حسٍّ ليبرالي مناهضٍ للاستعمار، أن يقدم لفيصل أي شيء في ذلك الوقت أكثر من علاقة التبعية، مع الاحتمال النظري بأن الوقت والأحداث قد تصلح هذا الوضع. ولعل أمريكا قد تصرفت كناصحٍ لفيصل، ولكن فقط في حال كان ويلسون مستعداً لمشاركة القوة المعنوية والمالية الأمريكية لصالح تقرير المصير العربي. وكانت الوسيلة للقيام بذلك، من وجهة نظر فيصل، هي لجنة التحقيق، لكن فعاليتها كانت تتدهور يومياً بسبب مماطلة الفرنسيين والبريطانيين، والخلافات المستمرة حول اختصاصاتها، وما إذا كانت هيأةً لتقصي الحقائق أو هيئةً استشاريةً أو هيأةً لصنع السياسات. ولا عجب في أن لورنس نصح فيصل بالتعامل مع الفرنسيين، مهما كان ذلك التعامل مزعجاً وخطيراً. ذلك أن الاتفاق مع الفرنسيين سيحل معضلة بريطانيا الأخلاقية ويحظى بمباركة أمريكا، لكن فيصل لم يكن مستعداً لذلك.

ويعود تعطل المفاوضات مع الفرنسيين في الأساس إلى أن ما كان يقدمه الفرنسيون في صيغة حكمٍ ذاتي كان أقل مما كان يمتلكه فيصل بالفعل على الأرض في سوريا. ولم يتفاوض فيصل مع الفرنسيين بسوء نية، لكن الطرفان تمسكا بموقفهما، فموقف فيصل تمثل بالاعتراف الفوري باستقلال سوريا، مع احتمال أن تُمنح فرنسا امتيازاتٍ في الدولة السورية الجديدة؛ أما موقف فرنسا فقد تمثل بالاعتراف الرسمي بالهيمنة الفرنسية على سوريا، على شكل قواتٍ ورفع

العلم الفرنسي إلى جانب العلم العربي في سوريا التي لن تتمتع في البداية إلا باستقلالٍ محدود. ولم يكن بوسع فيصل سوى انتظار وصول لجنة التحقيق، التي كان يأمل أن تؤدي نتائجها إلى ترجيح كفة الميزان لصالح الاستقلال الفوري.

غير أن معضلةً ضخمة أخرى كانت تلوح في الأفق مع وصول فيصل إلى بيروت في 30 نيسان (أبريل) 1919. فخلال غيابه الطويل(*)، تغير الوضع السياسي في سوريا بشكلٍ ملحوظ واستُفزت المشاعر إلى مستوياتٍ خطيرة. وكان على فيصل الآن أن يتعامل مع هذا العامل الجديد وغير المستقر في سعيه لتحقيق الاستقلال العربي في سوريا.

(*) كانت رحلة فيصل إلى أوروبا طويلة زمنياً ومكانياً، فقد استغرقت أكثر من خمسة أشهر، بدءاً من 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918 حتى عودته في أواخر نيسان (أبريل) 1919، وزار خلالها كلٌّ من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا وغيرها لأكثر من مرة. (المُراجع).

هوامش الفصل الثاني عشر

1. عدم الخلط بينه وبين قريبه اسكندر امون الذي كان من أنصار فيصل البارزين.
2. كانت حدود ما قبل عام 1860 تشير إلى ما يسمى بلبنان الكبير، وكانت محاولة متعمدة لتوسيع فهم الحدود الجغرافية للبنان إلى ما بعد فترة المتصرفية في العهد العثماني. وقد حصر ذلك لبنان بشكل أساسي في منطقة جبل لبنان. يشمل لبنان الكبير سهل البقاع والسهل الساحلي الممتد من صور إلى طرابلس.
3. هاري ن. هوارد، مرجع سابق، ص 25.
4. في لقاء فيصل مع ويلسون في 23 كانون الثاني (يناير)، كرر رغبته في مثل هذه اللجنة. أنظر يوكا نيفاكيفي، بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط العربي، 1914 ـ 1920، مطبعة أثلون، لندن، 1969، ص134.
5. كان فيصل يقدر عالياً عائلة بليس والجامعة الأمريكية في بيروت. وفي مقابلة مع مجلة Outlook في 7 آذار (مارس) 1919، قال فيصل: «لولا التعليم الذي قدمته هذه الكلية، لما كان النضال من أجل الحرية قد انتصر. العرب مدينون بكل شيء لهؤلاء الرجال «. زين ن. الزين، الصراع الدولي، ص 69 ـ 70، حاشية 3.
6. المرجع نفسه، ص 24 ـ 25.
7. المرجع نفسه، ص 25 ـ 26.
8. ديفيد لويد جورج، مرجع سابق، ص677.
9. زين ن. الزين، الصيرة الدولي، ص 77 ـ 79.
10. هاري ن. هوارد، مرجع سابق، ص 31 ـ 35.
11. إتش دبليو ستيد، خلال ثلاثين عامًا، 1892 ـ 1922، المجلد. الثاني، هاينمان، لندن، 1924، ص 298.
12. يكتب جورج أنطونيوس: «يُروى أنه لما وصل خبر القرار إلى أذني فيصل، شرب الشمبانيا لأول مرة، وشربها كأنها ماء. ثم ذهب في جولة بالسيارة عبر مقر الوفود الأمريكية والبريطانية وألقى الوسائد أمام كريون والقصر الملكي ووزارة الخارجية الفرنسية، قائلاً إنه نظرًا لعدم وجود قنابل لديه، يمكنه فقط التعبير عن مشاعره بهذه الطريقة. «جورج أنطونيوس، مرجع سابق، ص 288.
13. أوراق وودرو ويلسون، 9 ـ أ، ص33، مقتبس في هاري ن. هوارد، مرجع سابق، ص 35.

14. يوكا نيفاكيفي، مرجع سابق، ص 108 ـ 109. كان هذا نموذجًا لأسلوب لورانس الخاص، وأدى إلى تذمر الوفد البريطاني من أنه كان يدير دبلوماسيته الخاصة.

15. ديفيد جارنيت، رسائل تي إي لورانس، دوبليداي، نيويورك، 1939، ص 273 ـ 275.

16. هاري ن. هوارد، مرجع سابق، ص 39.

17. المرجع نفسه، ص ص 44 ـ 45.

18. المرجع نفسه، ص 37.

19. المرجع نفسه، ص 73.

20. Le Matin، العدد 12786، 1 مارس 1919، في رستم حيدر، مرجع سابق. ص 281 ـ 283، حاشية سفلية 2.

21. 414/CO 733 (75928).

22. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 67 ـ 68.

23. ستيفن بونسال، الخاطبون والمتضرعون، الأمم الصغيرة في فرساي، برنتيس هول، نيويورك، 1946، ص 56.

24. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 347 ـ 348.

25. Jukka Nevakivi، op، ص 126.

26. المرجع نفسه، ص 127.

27. ديفيد لويد جورج، مرجع سابق، ص. 678.

28. صبحي العمري، ميسلون ـ نهايات عهد، كتب رياض الريس، لندن، 1991، ص 77 ـ 79. كان العمري آنذاك مساعد الشريف ناصر، والمسؤول بالنيابة عن فيصل عن منطقة حلب.

29. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 277 ـ 292.

30. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 34 ـ 35

31. المرجع نفسه، ص. 35، ص217، الحاشية 53.

32. عوني عبد الهادي يعطي التاريخ 16 أبريل 1919.

33. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 67 ـ 68. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص36، اقتباسات من ملاحظات ابن غبريت، حيث أفاد الأخير أن كليمنصو عرض على فيصل الاعتراف باستقلال سوريا، لكنه أصر على أن العلم الفرنسي يرفرف بجانب العلم العربي.

34. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 338 ـ 339.
35. المرجع نفسه، ص 341.
36. المرجع نفسه، ص ص 345 ـ 347.
37. كان ينظر إلى ابن غبريت في كثير من الأحيان بقسوة من قبل حاشية فيصل. «موظف فرنسي... ما هي مخاوفه بالنسبة لسوريا. كان سيبيعها مقابل ميدالية فرنسية بقيمة فرنكين! كانت وجهة نظر رستم حيدر عنه مبكرة. رستم حيدر، مرجع سابق، ص. 352. وفي وقت لاحق، بدا أن حيدر غيّر وجهات نظره الشخصية إلى حد ما. كان ابن غبريت من تلمسان بالجزائر المجاورة للمغرب. كتب حيدر: «لقد مكث في باريس [من أجل مؤتمر السلام] لكي يعمل كمترجم بين فيصل والحكومة الفرنسية. عندما فهم معنى لغة فيصل، قام بترجمة [العربية إلى الفرنسية] بطلاقة ودقة ملحوظة، لكنه في بعض الأحيان لن يكون قادرًا على فهم المعنى بالضبط. ومع ذلك، كانت ترجمته من الفرنسية إلى العربية ضعيفة للغاية. لهذا السبب كان الأمير يصرّ على أن يكون أحدنا حاضرًا حتى تكون الترجمة خالية من الأخطاء»، ص 366.
38. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص 63.
39. رستم حيدر، مرجع سابق. مرجع سابق، ص 352 ـ 353..
40. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 342 ـ 43.
41. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 610 نقلا عن مذكرات فيصل الشخصية في المؤتمر.
42. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 343.
43. رستم حيدر، مرجع سابق. cit، pp 355–356 and Malcolm B. Russell، op، ص37.
44. المرجع نفسه، ص 355.
45. المرجع نفسه، ص ص 355 ـ 358.
46. المرجع نفسه، ص 350.
47. المرجع نفسه، ص ص 357 ـ 362.
48. المرجع نفسه، ص 359.
49. أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص. 23. سعت كلٌ من الحكومة الإيطالية والبابوية إلى التنافس مع الفرنسيين على ولاء مسيحيي بلاد الشام، لا سيما السكان الكاثوليك. قد يكون التحالف مع فيصل مفيدًا في هذه اللعبة. ومن وجهة نظر فيصل، سيقوض ذلك أيضاً المزاعم الفرنسية بأنهم هم الحماة الوحيدون لمسيحيي المنطقة.

50. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 38 ـ 39.

51. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 611، وص 1114، الحاشية 32.

52. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 38.

الفصل الثالث عشر: النضال من أجل سوريا

خارطة [5] الحكومة العربية السورية 1918 ـ 1920



رست البارجة التي تقل فيصل في ميناء بيروت في 30 نيسان (أبريل) 1919، وصعد اثنان من الأدميرالات الفرنسيين على متن السفينة للترحيب به قبل نزوله إلى الشاطئ. وكان في استقباله في المرفأ القادة البريطانيون والفرنسيون في لبنان، وحشدٌ كبيرٌ نظمه ممثل بيروت للحكومة العربية في دمشق جميل الألشي. شقّ فيصل طريقه بين الحشود ثم بالسيارة إلى مقر الحكومة العربية في بيروت في مبنى الداعوق[1]. وبعد استقباله موكباً من الأعيان السوريين واللبنانيين، وكبار الشخصيات الأجنبية والمهنئين، أدلى فيصل بأول تصريحاتٍ علنيةٍ له بعد غيابه المطوّل في أوروبا، وقد اختار كلماته بعناية. كان لا بد لخطابه أن يتضمن التوازن المطلوب بين الإبقاء على الأمل في قضية الاستقلال العربي، والقلق الذي يشعر به بشدة حيال الأطماع الفرنسية، والغموض البريطاني، والتردد الأمريكي. وقد علَق آماله على الوصول المتوقع للجنة الحلفاء المشتركة للتحقيق. إذ كان هذا إنجازاً ملموساً واحداً على الأقل يمكن أن يدَّعيه نتيجة إقامته التي استمرت خمسة أشهر في أوروبا. وفي إيماءةٍ واضحةٍ منه للأقليات المسيحية في سوريا، لا سيما الموارنة، اختتم فيصل بالتصريحات التالية: «ستكونون أحراراً في أراضيكم وبيوتكم، ويمكن لكل مكونٍ من مكونات [المجتمع السوري] إدارة شؤونه الخاصة مع الاحترام الواجب لعاداتكم وتقاليدكم»[2].

لكن، وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، وحين كان يخاطب وفوداً من سوريا في مكاتب الحكومة العربية في بيروت، كانت نبرة فيصل أكثر قوةً. «لقد أعدَّ العالم لنا الظروف الملائمة للمطالبة باستقلالنا، وساعدنا في هذا الصدد. لكن الاستقلال أمرٌ يؤخذ ولا يُمنح ببساطة، والأشخاص الذين يسعون إلى استقلالهم عن الغربيين دون أن يكافحوا ويستعدوا ويعملوا من أجله، فكأنهم يبنون عروشهم في السماء. نعم، نحن لا ننكر أننا بحاجةٍ إلى مساعدة الأوروبيين ودعمهم، وسنقبل أن تأتينا هذه المساعدة ممن نريد ووفقاً لمصالحنا... ولكن يجب إلا نأخذ منهم كل شيء ونرجع إليهم في شؤوننا، وذلك فقط بعد أن نحصل على استقلالنا الكامل غير المجزأ، والذي علينا أن نبني أسسه بأيدينا. وعلينا أن نحصل على استقلالنا خالياً من أي لَبس». تركت تصريحات فيصل انطباعاً بالغاً لدى جمهوره، ورفعت سقف توقعاتهم بأن الاستقلال هو مسألة وقتٍ وحسب. وعلى غير عادته، تحدّث فيصل، وهو يلقى خطبةً في المسجد الكبير في بيروت خلال صلاة الجمعة، عن الحاجة القصوى للتعاون بين المسلمين والمسيحيين من أجل تحقيق الاستقلال. «اتحدوا حتى تعرف أوروبا أن سوريا تريد الاستقلال»[3].

وخلال إقامته القصيرة في بيروت، كانت تصرفات فيصل وتصريحاته متوافقةً مع الوعد الذي قطعه لكليمنصو، وذلك بأنه إذا حصلت سوريا على استقلالها، فسوف يحترم مصالح فرنسا واهتماماتها المشروعة. وكان قد أدلى بعباراتٍ لطيفةٍ عن كليمنصو، واصفاً إياه بأنه إنسانيٌّ عظيم، وقام بدعوة القائم بأعمال المفوض السامي الفرنسي، والذي كان الجميع تقريباً في

بيروت يتجاهلونه على الدوام، لتناول العشاء. وكان فيصل قد غادر فرنسا دون التوصل إلى اتفاقٍ مع كليمنصو، لكنه على الأقل غرس بذرة صفقةٍ محتملة مع الفرنسيين. لم يكن لديه مؤيدون جادون في الحكومة الفرنسية، لكن بعض المدافعين البارزين عن سياسات فرنسا في الشرق الأدنى، أمثال جورج بيكو، اعتقدوا أن مصلحة فرنسا ستتحقق بشكلٍ أفضل إذا ما تم إبرام صفقةٍ مع فيصل لإدارة سوريا[4]. وبينما كان فيصل يستعد للمغادرة إلى دمشق، كان سعيداً للغاية بنتائج الاستقبال الذي حظي به وباجتماعاته في بيروت.

في 3 أيار (مايو)، غادر قطار فيصل بيروت متوجهاً إلى دمشق، وكان في وداعه عدد كبير من المهنئين واستقل مئات السوريين القطار معه لمرافقته في رحلته، وحين اقترب قطاره من محطة المعلَّقة في سهل البقاع، هلَّلت له الحشود مطالبةً بالاستقلال تحت رايته[5]. ونزل لفترةٍ من الوقت، ليأخذ قسطاً من الراحة في قصر يوسف نمور، أحد أعيان منطقة البقاع، حيث التقى بحشودٍ من الزوار. ثم غادر قطار فيصل وادي البقاع بعد الظهر، ووصل إلى دمشق في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، حيث اصطفت الحشود على جانبي خط سير القطار، وهتفوا جميعاً باسمه منادين بالاستقلال. ووصف شاهد عيان الاستقبال الذي حظي به فيصل أثناء ترجُّله من القطار قائلاً: «عندما وصل [فيصل] إلى العاصمة دمشق، لقي استقبالاً قلَّ نظيره، إذ لم تستطع العين تمييز شيءٍ سوى الحشود الضخمة على طول الطريق من المحطة إلى القصر، ولم تسمع الأذن إلا الدعوات للسماء مناديةً بانتصار الأمير»[6]. أبرق العقيد تولات إلى وزارة الخارجية الفرنسية ذاكراً أن استقبال فيصل في دمشق كان استثنائياً [ضخماً]. لم أر شيئاً مثله من قبل، فها هو بين شعبه محاطاً بأمته. إنه حقاً قائد هذه الأمة وأبرز شخصياتها. من يرى هذه المظاهرات الضخمة سيدرك مكانة هذا الأمير. يكفي أن يرى المرء الفيلم السينمائي لهذه التظاهرات ليقتنع بأنه لا حاجة إلى لجنة تحقيقٍ في هذه الأنحاء»[7].

خلال غياب فيصل الطويل في أوروبا، قام الحاكم العسكري علي رضا الركابي بإدارة سوريا على أساسٍ يومٍ بيوم. وكان يرفع تقاريره بشكلٍ مباشرٍ إلى أللنبي، الذي كان لا يزال يقيم في القاهرة، أو من خلال ضابط الارتباط البريطاني لدى الحكومة العربية، العقيد كيناهان كورنواليس. وقد أدار هذا الأخير علاقته مع الحكومة العربية بحذرٍ شديد، حيث تجنب من حيث المبدأ إقحام نفسه في إدارة شؤون البلاد، تاركاً تلك المهمة بالكامل للركابي، وهذا بدوره عزز سلطة الركابي ومكانته، مما سمح له بالادعاء بأنه حصل على دعمٍ صريحٍ من الجيش البريطاني لإدارة شؤون البلاد. وبحسب معظم التقديرات، فإن الحكومة العربية بالكاد برأت ساحتها في الأشهر القليلة الأولى من وجودها، إذ تم اتخاذ العديد من الإجراءات لضمان شعبيتها، مثل إعادة برامج الرعاية الاجتماعية التي كانت سائدةً في العهد العثماني، والتي تم تعليقها خلال الحرب. إضافةً إلى

ذلك، استأنفت الحكومة العربية دفع المعاشات لأرامل الحرب والأيتام والموظفين العثمانيين السابقين وأسرهم. وحاولت الحكومة أيضاً ضمان استقرار أسعار المواد الغذائية ـ وإنْ لم تنجح بذلك تماماً ـ من خلال شراء الحبوب مباشرةً من المزارعين، وإنشاء مراكز توزيع في معظم المدن. وغالباً ما كان يجري توزيع الحبوب على الفقراء في المدن والبذور على المزارعين المُعدمين مجاناً. وقد اضطلع المسؤولون الحكوميون بتقديم هذه الهبات، مع حرصهم على أن يعلم المستفيدين بأنها ممنوحةٌ لهم من قبل حكومة فيصل العربية[8]. وقد تولى الركابي بنفسه القيام بجولاتٍ واسعة في المدن السورية الرئيسة والريف، وتفقُّد المرافق الحكومية، وتوزيع المساعدات النقدية، والتحقق من الأسعار، وإصدار مراسيم العفو بأنواعها. ولم تقصِر الحكومة دعمها على فقراء المدن والفلاحين، بل استغلت الإعانات التي قدمها لها البريطانيون لشراء ولاء الأثرياء والنافذين، مستخدمةً الأسلوب الذي أثبت جدواه بمرور الزمن.

قامت مجموعةٌ مؤلفةٌ من أطيافٍ مختلفةٍ من السوريين واللبنانيين والعراقيين والحجازيين والفلسطينيين ومن شرق الأردن بإدارة الدولة الجديدة المضطربة والمتداعية[9]، فقد كانت سلطة الحكومة خارج العاصمة سلطةً مؤقتةً، وكان على الحكومة العربية مجاراة سلطات الأمر الواقع (والسلطات القانونية أحياناً) للأعيان المحليين في مدن الأقاليم، حيث كان أولئك الأعيان مستائين من السياسات ذات الطابع المركزي للحكومة العربية. فقد كان هناك عددٌ قليلٌ جداً من المسؤولين الأكفاء والنزيهين في الحكومة مقابل العديد من المستويات المتضاربة والمشوشة للسلطة والمسؤوليات، مما يعكس الطبيعة غير المتجانسة للحكومة نفسها، والتي تتألف من مزيجٍ عسكري ومدني غريب لا يحمل طابعاً واضحاً. وفوق كل هذا، كانت الحكومة العربية مقيدةٌ بإحكام باعتمادها الكامل على الدعم المالي والجبائي البريطاني، الذي بلغ في البداية 150 ألف جنيه إسترليني شهرياً. وقد كان لهذه الإعانات، إلى جانب الأموال التي أنفقتها قوات الاحتلال البريطانية، والقيود التجارية وإجراءات الحظر، والاختناقات في قطاع النقل والمضاربة والاحتكار على نطاقٍ واسع، تأثيرٌ في إثارة دوامةٌ من التضخم الشديد. وقد كانت قدرات الحكومة العربية على تحقيق الإيرادات مقيدةً إلى حدٍّ كبير ولم تكن مرتبطةً بنفقاتها الباهظة[10]. وكان حفظ السجلات المالية مزرياً للغاية، حيث كان المستشار المالي المعيّن من قبل بريطانيا لدى الحكومة العربية، سعيد شقير، كثيراً ما يشتكي إلى المشرفين البريطانيين من التجاوزات المالية وعدم الكفاءة البيروقراطية في إدارة الحسابات في الحكومة.

فيصل في دمشق

كانت دمشق صورة مصغرة عن سوريا. كان سكانها من العرق العربي بشكلٍ رئيسي، إلى جانب عددٍ كبير من الأكراد المستعربين والشركس والألبان. وكانت الأغلبية الساحقة من الناطقين باللغة العربية، على الرغم من وجود أقلية كبيرة من الأرمن الذين فرّوا من الاضطهاد في الأناضول. كما كان معظمهم من المسلمين السُنّة، في حين أن ما يقرب من خُمس السكان كانوا يتألفون من الدروز والعلويين ومختلف الطوائف المسيحية في الشرق. وربما كان عدد السكان اليهود فيها حوالي خمسة آلاف. لكن المدينة التي غادرها فيصل في تشرين الأول (أكتوبر) أصبحت الآن مكاناً مختلفاً، فقد كانت تغلي بالنشاط السياسي، وكانت الكتل السياسية الرئيسة ـ الفتاة والعهد والنادي العربي ـ جميعها بارزة جداً، لكنها أصبحت الآن معززةً بكل أنواع اللجان المتخصصة والتي نشأت لتعكس المزاج والمخاوف السائدة، فكانت هناك لجان لتعزيز الوحدة العربية، والتضامن السوري، والدفاع عن استقلال سوريا. وقد تعاملت لجنة شبه رسمية مع تدفق الزائرين (والمغامرين) من الأراضي العربية الذين انجذبوا إلى العاصمة السورية للبحث عن عمل، وشاركوا بشكلٍ مبهمٍ في الدفاع عن الحريات الجديدة في سوريا أو لتعزيز حظوظهم السياسية. وقد نزلت معظم الشخصيات البارزة في فندق أورينت، الذي كان بمثابة المقر الفعلي والمنتدى لكافة الفئات من سياسيين وضباط وموظفين حكوميين وجواسيس ومخبرين، فضلاً عن شرذمةٍ لا بأس بها من الضباط البريطانيين والفرنسيين. وكان سقف التوقعات قد ارتفع إلى مستوىً خطير، وكان المتهورون والمتطرفون في كل مكان. وكان على فيصل حينها أن يصوغ مكانته داخل هذا المزيج القابل للاشتعال من المشاعر والطموحات والمخاوف. ودعا الركابي إلى عقد اجتماعٍ عام في قاعة مبنى الحكومة، دُعيت إليه كبار الشخصيات السياسية والعلمانية والدينية والقبلية في سوريا، إلى جانب ممثلين عن قوى الحلفاء. وفي اليوم المحدد، 5 أيار (مايو) 1919، وقف فيصل لإلقاء خطابه.

كان خطاباً طويلاً، بدأ بذكر مسببات الثورة العربية. وقد قال متجاهلاً اللوم الذي أُلقي على والده، وعليه شخصياً من قبل أولئك الذين اعتقدوا أن أفعالهم تعد خيانةً للعثمانيين وللمجتمعات الإسلامية الأوسع: «شعر [حسين] أنه إذا استمر العرب في الحرب إلى جانب الأتراك المتحالفين مع الألمان، فسيشتركون في المصير نفسه من الهزيمة والتمزق... لطالما تاق العرب لفترةٍ طويلة للتخلص من نير الخضوع والتبعية... وأرادوا استعادة مكانتهم التاريخية»[11].

ثم تحوَّل للحديث عن الاتفاقيات التي اعتقد والده أنه أبرمها مع الحلفاء والتي على أساسها خاض الحرب ضد الأتراك. وعندما انتهت الحرب بهزيمة الأتراك، «ذهبتُ للمطالبة بحقنا في المؤتمر الذي كان مجتمعاً في باريس... لقد سُمح لي بالتحدث بحريةٍ وشرح رغبات الشعب قدر استطاعتي».

هنا، اصطدم فيصل بالمفاهيم التي تفتقد إلى الدراية والتي يتبناها الغرب عن العرب: «سرعان ما أدركتُ أن الغربيين كانوا لا يفقهون شيئاً عن العرب وأن معلوماتهم مستمدةٌ بالكامل من حكايات ألف ليلةٍ وليلة. فقد ظنوا أن العرب على شاكلة العرب القدماء، غير مدركين وجود الشعوب العربية الحديثة وفكرها السياسي ونهضتها. كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم بدوٌ يعيشون في الصحراء، ولم يعتبروا سكان المدينة عرباً على الإطلاق».

أمضى فيصل وقتاً طويلاً خلال المؤتمر وهو يشرح ببساطةٍ الحقائق الأساسية عن العرب والأراضي التي يسكنونها: «لقد أخبرت المؤتمر بذلك وكشفتُ عن أهداف العرب ونواياهم وأعمالهم للتخفيف عن المضطهدين. وبمجرد أن فهم الحلفاء غايات العرب ومطالبهم وإنجازاتهم التي قاموا بها نيابةً عنهم أثناء الحرب، اعترفوا باستقلال العرب من حيث المبدأ... ورأوا أنه من المناسب تعيين لجنةٍ دوليةٍ للتحقيق في الوضع بشكلٍ مباشر». ومن الواضح أن إرسال لجنة التحقيق كان المطلب الأبرز لفيصل كي تتكلَّل مهمته بالنجاح في باريس. «عندما تعود اللجنة إلى باريس [بعد مهمتها لتقصي الحقائق]، ستنظر عصبة الأمم في جميع الحجج وتتبين آراء مختلف الشعوب التي كانت تحت سيطرة الأتراك. وستعلن عن مطالب العرب والآخرين إما بالتبعية أو بالحكم الذاتي المستقل، وفقاً لدرجة معرفة وقدرة الأمم المحررة من الأتراك» وكانت النقطة الأخيرة إشارةً غير مباشرةٍ إلى الانتداب.

ثم التفَّ فيصل ببراعة حول قضية الوحدة العربية، التي عبَّر عنها البعض بالرغبة في قيام دولةٍ عربيةٍ واحدة. وقد كان هذا مطلب القوميين المتطرفين الذين اتخذوا موقفاً قوياً ضد تقسيم الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية. وبرَّر تقسيم الأراضي العربية إلى دولٍ على قاعدة أنه على الرغم من أن الأراضي كانت غير قابلةٍ للتجزئة، إلا أنه كانت هناك فروقاتٌ جوهريةٌ من ناحية مستويات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي من شأنها أن تجعل إقامة دولة واحدة فكرةً غير عملية. وصوَّر اقتطاع دولٍ في العراق وسوريا على أنه انتصارٌ للقضية العربية، وخطوةٌ نحو دولةٍ واحدةٍ موحدة مع تطور المناطق واقترابها من بعضها البعض. وتحوَّل فيصل الآن إلى مشروعية ادعائه عبر التأييد الشعبي، «لقد تصرَّف قادة الثورة دون استشارة الشعب لمجرد أن الوقت لم يكن يسمح بذلك. لقد أخذوا المسؤولية كاملةً على عاتقهم وعملوا وفقاً لذلك حتى اليوم. بيد أن هذه المسألة الآن أصبحت تتعلق بالتاريخ. أريد من الحاضرين هنا ـ في ظل الظروف التي يمثلون فيها الشعب معنوياً وليس رسمياً نظراً للمكانة الخاصة التي يحظون بها في مجتمعاتهم ـ أن يعبروا عن آرائهم بصراحة ويخبروني ما إذا كان ما فعلناه صائباً أم لا». لقد كانت دعوةً صريحةً لتجديد ولايته من خلال شكلٍ من أشكال التزكية العامة من قبل الوجهاء والشخصيات البارزة في سوريا الحاضرة في اللقاء. ولم يخب ظنٌّ فيصل لأن القاعة

ضجَّت بالتصفيق الحار والهتافات «موفق، موفق! «و» نعم، نعم، مباركةٌ كاملة». ثم سأل مجازياً عما إذا كان الجمهور يريده أن يظلَّ في القيادة. «هل تريدوننا أن نواصل عملنا أم لا؟ هل يثق الشعب في القائمين على شؤونهم أم لا؟... هل سيسمح لي الشعب بعد اليوم بالمباشرة في الشؤون الخارجية والداخلية للتحرك أم لا؟ وكان الردُّ القادم من القاعة صاخباً ومدوِّياً، تتخلله هتافات «يعيش الأمير فيصل»!.

لقد سعى فيصل الآن إلى الحصول على تأكيدٍ مباشرٍ لولايته واستمرار شرعيته كممثلٍ للشعب السوري.

يتعين على هذا المحفل المتواجد هنا أن يطرح السؤال الآتي: هل يدعم الشعب قولاً وفعلاً كل أفعالي في الداخل والخارج؟ هل سيساعدونني من خلال منحي كل ما أطلبه دون قيدٍ أو شرط أم لا؟ هذا ما أريده... وستكون هذه هي الآلية التي سيتَّبعها الشخص والأشخاص أو الهيأة في إدارة الشؤون ابتداءً من اليوم وحتى انعقاد اجتماعات المؤتمر السوري [هيأة منتخبة مقترحة]، والتي ستكون في وقتٍ قريب. وفي غضون ذلك، ولكي أباشر عملي يجب أن أحصل على تفويضٍ وهو ما أطلبه منكم. فامنحوني إياه وسأباشر عملي... أريد من الناس أن ينظروا إليَّ كما ما في السابق. أتوقع منهم إلا يخدعوا أنفسهم ويقولوا: «لقد منحتنا الأمم استقلالنا»، فمثل هذا الاعتراف رمزيٌّ فقط، إذ أننا لا نحصل على شيءٍ سوى ما نأخذه بأيدينا. الأمر متروكٌ للشعب وعليهم أن يتصرفوا... أريدهم أن يدعموا أقوالهم بالأفعال. هذا كل ما أريده ـ وهو أمرٌ بسيطٌ للغاية. وبما أنني لا أعرف ماذا أطلب أيضاً، فلا يسعني قول المزيد. ولكن بعد أن أنال ثقتكم ودعمكم، سأطلب تعاون الأمة إلى الدرجة التي تعتبر ضرورية.

كان مروراً رائعاً واستحوذ على اللحظة الوجدانية بالكامل، فقد أسر الحضور، وعمَّ الهرج والمرج، حيث وقف المندوبون واحداً تلو الآخر مُبدين دعمهم ومحبتهم الأبدية لفيصل هم ومناطقهم وقبائلهم. وقد تنافس كلٌّ من ممثلي فلسطين والعراق وحوران وحماة وحمص وحلب وصيدا وبيروت وعمّان والسلط وبعلبك وطرابلس وجنوب لبنان وحتى جبل لبنان على الإشادة بفيصل واستعدادهم للتضحية بكل شيء في سبيل قضية الحرية والاستقلال. ولم يكن ممثلو كافة الطوائف الدينية أقل حماساً، حيث مثَّل شيعة جنوب لبنان الشيخ عبد الحسين صادق، الذي قال: «باسم أهل جبل عامل (جنوب لبنان) أتعهد لكم بالولاء حتى الموت». كما قال بطريرك الروم الكاثوليك: «بأمرك يا صاحب السمو. اطلب ما تشاء!» أما البطريرك الأرثوذكسي فقد قال: «سموكم أبرم اتفاقية معنا، وسوف نلتزم بها»، وهو شعورٌ كان يتشاركه رئيس أساقفة السريان الكاثوليك، فقد أعلن رئيس الأساقفة النسطوري بشكلٍ قاطعٍ: «بالنيابة عن نساطرة سوريا، نتعهد بأن نطيع أوامركم، ونقسم لكم بالولاء، وبأن ندعمكم». أما الحاخام الأكبر في دمشق فقد قال:

«ثروتنا وحياتنا تحت تصرفك». وشكر رئيس الأساقفة الأرمني، متحدثاً باللغة التركية، العرب على التعاطف والإنسانية التي أظهروها للشعب الأرمني خلال سنوات الحرب الأربع: «سيخطُّ تاريخنا اسم العرب بأحرفٍ من ذهب، أباركم وأشكركم». أما الأمير أسعد الأيوبي، متحدثاً باسم المسلمين السُنَّة في لبنان، فقد قال: «نمنحك تفويضاً شاملاً، فكل ما تراه صواباً فهو صواب».

وحين هدأ الحضور، ردَّ فيصل وقد بدت عليه علامات الرضا بشكلٍ واضح: «لقد نلتُ ما أردته. ولا شك في أنه مع الدعم الذي تلقيته من هذا المحفل، سأستمر في العمل كما في السابق حتى يلتئم المؤتمر العام ويسنُّ قوانين لتنظيم شؤون سوريا بأكملها». وقبل الختام، كرَّر فيصل دعوته للتسامح والتوافق بين مختلف طوائف وديانات الشرق الأدنى. وقد كانت حيلةً واضحةً كذلك لنزع الخوف من قلوب مسيحيي المشرق من تهميشهم في دولةٍ مستقبليةٍ ذات أغلبيةٍ مسلمة، وهي القضية التي استغلها الفرنسيون لتبرير دورهم كـ «حماةٍ» لمسيحيي المشرق. «ما يجول في خاطري حول إدارة سوريا هو أن أُعطي الأولوية لمطالب الأقليات قطعاً وأفضِّلها على آراء ورغبات الأغلبية... أطلب من الجميع، كبيركم وصغيركم، الاتِّكال على الخالق، جلَّ وعلا، ثم على من أتى من أوساطكم، هذا العبيد الفقير، لأنني سأحميكم وأعاملكم جميعاً على حدٍّ سواء بغض النظر عن دياناتكم. إنكم سواسيةٌ أمامي لكن أفضلكم عندي هو الشخص الصالح والمتعلم. وأقسم على ذلك بشرف والدي وأجدادي... فليعلم الجميع أنني لن أُبدي أي محاباةٍ لأي شخصٍ لأنه ينحدر من عائلةٍ مرموقةٍ أو ذات نفوذ، وما سيعنيني هو الكفاءة، وليس المكانة الاجتماعية. وسأعين الشخص في المنصب الذي هو أهلٌ له لأن المكانة الشخصية تحمل قيمةً مجردةً صِرفة، في حين أن العمل يعود بفائدةٍ ملموسةٍ على الأمة بأسرها».

ولعل فيصل قد أصبح وقتها الزعيم بلا منازعٍ لحركة الاستقلال السورية، لكن هذه الحقيقة لم توقف النشاط السياسي المحموم والمكائد التي سادت البلاد أثناء وجوده في أوروبا. وقد سعى حينها للسيطرة على الوضع من خلال فرض أمره على إدارة البلاد والتحكم في وتيرة الحياة السياسية وتوجهها. ومتجاوزاً الركابي، الذي سعى حينها إلى تقليص صلاحياته، أعطى فيصل تعليماتٍ لرؤساء الدوائر الحكومية الرئيسة برفع التقارير مباشرةً إليه، مع منحهم أيضاً هامشاً كبيراً لإدارة شؤونهم[12]. كما بدأ في استقبال وفودٍ رسميةٍ من جميع أنحاء البلاد، وعيَّن رجاله للإشراف على الولايات. كان الشريف ناصر مُعيّناً بالفعل في حلب وعيّن فيصل حينها الشريف جميل، وهو أحد أقاربه الأشراف، في منطقة حوران كحاكمٍ. وتكتَّلت حوله حينها مجموعةٌ ضيقة من المستشارين، بمن فيهم أقاربه ـ شقيقه زيد والشريفين ناصر وجميل ـ ورفيقه القديم نسيب البكري[13]، والضابطان العراقيان نوري باشا السعيد وجعفر باشا العسكري. كما جاء بمعلمه القديم في اسطنبول صفوت العوا، الذي كان يثق به ضمنياً، كرئيسٍ لإدارة الشؤون المالية. وكان

المقربون الآخرون له في تلك الفترة هم: فؤاد الخطيب الشاعر والمساعد السابق لوالده، عيسى العيسى رئيس ديوان مجلس الوزراء، وفخري البارودي مساعده الشخصي، والأخوين القادري أحمد وتحسين. كما شكّل كل من رستم حيدر وعوني عبد الهادي جزءاً من المجموعة المقربة من فيصل، لكنهما بقيا في باريس للإشراف على عمل وفد الحجاز في الأشهر الأخيرة التي أدت إلى توقيع معاهدة فرساي.

وفي محاولةٍ منه لجمع كل الخيوط السياسية في يده، بدأ فيصل في اتباع استراتيجيةٍ مزدوجةٍ في علاقاته مع الأحزاب والجماعات السياسية الرئيسة. فقد سعى إلى إبقاء قضية الاستقلال الكامل راسخةً في مقدمة جدول أعماله مع تجنب القطيعة العلنية مع الحلفاء أو دعم المتطرفين صراحةً. وكان الحلفاء من جانبهم مدفوعين باعتباراتٍ أخرى وهي: أن الحكومة العربية لم تكن حكومةً منتظرة ولكنها الذراع الإداري لسلطة احتلال، OETE، وأن قضية سوريا والاستقلال العربي الأوسع نطاقاً هي مسألةٌ يقررها مؤتمر السلام، وأن نظام الانتداب كان بالفعل سياسةً معلنةً بالنسبة للأراضي السابقة للإمبراطورية العثمانية. كان على فيصل أن يتغلب على هذه العقبات شكلاً ومضموناً، بينما كان يناور لدفع مطالبه الرئيسة قُدُماً. وتلقى النادي العربي، الذي غالباً ما كان مسرحاً للخطب العاطفية والنعرات القومية، تعليماتٍ بقصر نقاشاته على القضايا الثقافية فقط، حيث تم تعليق إنذارٍ على جدرانه يحظر الاجتماعات السياسية، ولكن من الواضح أن تعريف ما يشكل قضايا «ثقافية» امتد ليشمل جميع أنواع الموضوعات. وتم «حظر» النشاط السياسي رسمياً في OETE، بينما لم يتم فعل أي شيء لاحتواء أنشطة الأحزاب والجماعات السياسية. وبحسب ما كتب الجنرال كلايتون إلى كرزون بخصوص أوامر الحظر الزائفة تلك، «سيكون من الأسهل حجز شلالات نياجرا بسدٍّ على منع السوريين من الحديث في السياسة، وبالتالي، سيسمح [فيصل] باستمرار المناقشات في منازل الأعضاء»[14]. وفي محاولة منه للتوفيق بين المواقف المتضاربة لأولئك الذين يسعون لاستقلال سوريا فقط، ومن يريدون الاستقلال لكل الأراضي العربية، أصدر فيصل تعليماته لمسؤولي الحكومة بنشر خبر أن الشعب يجب أن يطالب باستقلال سوريا ويعبر عن أمله في أن يُمنح الشيء نفسه للأراضي العربية الأخرى، فقد اعتقد فيصل أنه من الأهمية بمكان أن يتم توجيه الرأي في سوريا في اتجاهٍ واحدٍ قبل وصول لجنة التحقيق.

بيد أن فيصل كان يتأرجح على خيطٍ رفيعٍ للغاية، فلم تستطع مبادراته تجاه فرنسا أن تخفي التناقض العميق الذي كان يعتمل بداخله إزاء نوايا فرنسا في بلاد الشام[15]، كما أنها لم تكن بلسماً شافياً للمشاعر العميقة المعادية للفرنسيين في سوريا. فسرعان ما سيطالبه الفرنسيون بإجراءاتٍ ملموسةٍ لجعل أفعاله تتماشى مع تصريحاته، وكان جورج بيكو، الجالس في بيروت،

على أهبة الاستعداد لمواجهته في هذه القضية بالذات. وفي الوقت نفسه، لم يستطع الالتفاف حول قرار قوات الحلفاء بتبني نظام الانتداب. وهذا من شأنه أن يضر بدعوته للاستقلال ويضعه في خلافٍ مع القوميين، الذين استبعدت أفكارهم عن الاستقلال وجود أي وضعٍ خاص لأيٍّ من القوى[16]. انخرط القوميون والفلسطينيون في دمشق في موضوع مستقبل فلسطين إلى حدٍّ كبير، وبدأ فيصل ينأى بنفسه بشكل واضحٍ وعلني عن المشروع الصهيوني. وبحسب ما كتب كلايتون، «بدأ فيصل يدرك الصعوبات التي سيواجهها في التوفيق بين الفلسطينيين والصهاينة، ولم يعد يتعامل مع المسألة على أنها مسألةٌ ثانوية... كما أنه سيحاول حثَّ اللجنة الصهيونية على تعديل مطالبها، ومن المرجح أن يقترح على لجنة السلام عقد مؤتمر»[17].

فيصل وأللنبي وجورج ـ بيكو

اتَّسم شهر أيار (مايو) 1919 بكثافة الانشغالات بالنسبة لفيصل، إذ لم يقتصر انشغاله على ضرورة الإعداد لقدوم لجنة التحقيق المتوقَّع، بل كان عليه أيضاً إدارة العلاقات مع البريطانيين والفرنسيين التي كانت تزداد تعقيداً في سوريا. وفي 12 أيار (مايو)، وصل أللنبي إلى دمشق لإجراء محادثاتٍ مع فيصل. وألمح فيصل له إلى أنه ينوي الدعوة إلى مؤتمرٍ عام للسوريين يتم فيه إعلان الاستقلال التام. اعترض أللنبي بشدةٍ على ذلك، وأبدى انزعاجه من تداعيات مثل هذا الاحتمال، فتخلى فيصل عن مقترح استخدام المؤتمر لمواجهة العالم بأمرٍ واقع. كما كان فيصل متردداً في الطلب من بريطانيا بأن تكون سلطة انتدابٍ في سوريا خشية أن يشمّ الفرنسيون هذا الأمر ويحبطوه، كما لم يكن متأكداً مما إذا كانت بريطانيا ستقبل مثل هذا الانتداب. لكنه أخبر أللنبي أنه بينما سيدعو علناً إلى الاستقلال الكامل لسوريا، فإنه مُقرٌّ بأن قرار فرض الانتداب ربما قد تم اتخاذه بالفعل، وعندها سيبلغ اللجنة أنه إذا لم يكن الاستقلال التام ممكناً، فإنه سيقبل أن تكون بريطانيا هي سلطة الانتداب على سوريا. وخلال لقائه مع أللنبي، أبدى فيصل قلقاً عميقاً بشأن مسلك فرنسا. فإذا فرضت فرنسا سيطرتها على سوريا بالقوة، فإنه سيعلن وقوفه مع المعارضة النشطة[18]، وكان فيصل قد طلب من أللنبي في وقتٍ سابق أسلحةً ومعداتٍ للجيش العربي في سوريا، مُبدياً بلا شك قلقه من حالة الجهوزية العسكرية في حال لاحت في الأفق بوادر مواجهةٍ مع الفرنسيين. كما أنه سأل أللنبي بشكلٍ واضح عما إذا كان بإمكان الجيش العربي الاستفادة من خدمات الخبراء العسكريين الأمريكيين في تدريبهم.

بعد أيامٍ قليلة، في 16 و17 أيار (مايو)، التقى فيصل بجورج بيكو في دمشق. وفي هذا الوقت، كان مزيج الانطباعات والتصورات والأفعال والنوايا المتناقضة التي ميزت علاقة فيصل الصعبة مع فرنسا قد وصل إلى نقطة تحولٍ أخرى. فقد فوجئ فيصل بالتأكيد بضراوة المشاعر

المعادية للفرنسيين في سوريا، وهو ظرفٌ جعله يعيد النظر في الحكمة من محاولاته استرضاء فرنسا بالأقوال إن لم يكن بالأفعال. فمبدأ الانتداب على سوريا، الذي كان قد قبِله لمجرد كونه أمراً حتمياً على الأرجح، كان لا بد من موازنته مع الأصوات المدوِّية التي تنادي بالاستقلال التام. وفكرة أن سلطة الانتداب قد تكون فرنسا كانت أشبه بلعنةٍ، وبدأ العديد من الناس في سوريا يشعرون أن تصريحات فيصل الاسترضائية إزاء فرنسا كانت تخفي إمكانية إبرامه لصفقةٍ سريةٍ مع الفرنسيين[19]. وقد أسرَّ فيصل لكلايتون في دمشق بأن مبادراته تجاه فرنسا خلال مناقشاته مع كليمنصو، وفي تصريحاته العلنية اللاحقة في بيروت ودمشق كانت مجرد إجراءٍ لكسب الوقت حتى وصول لجنة التحقيق، حيث راهن فيصل حينها على اللجنة لتحقيق اختراقٍ من شأنه أن ينفُذ في خضم القضايا المتضاربة ويوفر لسوريا سبيلاً للاستقلال التام.

لم يحسم اللقاء مع جورج بيكو شيئاً، بل تبادل الطرفان الاتهامات حول تورُّط كل منهما بالقيام بتدابير خفيةٍ لتشويه سمعة الطرف الآخر، فقد تذمَر جورج بيكو من النشاطات المناهضة لفرنسا والتي يقوم بها اتباع فيصل في دمشق، بينما واجه فيصل المفوض السامي الفرنسي بأدلةٍ على أن البعض من موظفيه كانوا يؤلبون الدروز والأقليات الأخرى ضد فيصل والحكومة العربية. وذكّر فيصل جورج بيكو بالمشاعر المناهضة بشدةٍ لفرنسا في سوريا، والتي أجبرته على التوقف عن الإدلاء بأي تصريحاتٍ حول دور فرنسا في سوريا إلى ما بعد إجراء لجنة التحقيق تحقيقاتها[20]. حاول جورج ـ بيكو استرضاء فيصل بالقول إن فرنسا وافقت على استقلال سوريا من حيث المبدأ، لكنها لم تنتزع بيان الشكر المتوقع منه. بل بالعكس، فقد طلب الأخير أن تتخلى فرنسا رسمياً عن اتفاقية سايكس بيكو وأن تسحب قواتها من الساحل السوري، وبعد ذلك ستتولى إدارةٌ عربيةٌ السيطرة على سوريا بأكملها، حينها يمكن أن يُطلب من فرنسا مساعدة الحكومة العربية في الأمور المالية والتقنية، ولكن فيصل رفض قبول أي وصايةٍ على سوريا على غرار تلك التي تمارسها فرنسا على تونس والمغرب. كما طلب دعماً فرنسياً لتوحيد فلسطين وكيليكيا وولاية الموصل مع سوريا، إلى جانب إصدار بيانٍ علني من جانب فرنسا يفيد بأنها تدعم القضية العربية[21]. وكانت هذه مهمةً عسيرةً، لكن جورج بيكو نقل الطلب إلى باريس، وأبلغ فيصل بعد أسابيع قليلةٍ أن الحكومة الفرنسية مستعدةٌ لإصدار بيانٍ علني يدعم القضية العربية من أجل الاستقلال. لكن وفي ذلك الوقت، كانت الأحداث قد تطورت، مما جعل مثل هذا البيان عديم الجدوى عملياً.

فبينما كان فيصل يواجه كل هذه التحديات في سوريا، وصلته أنباءٌ مقلقةٌ عن هزيمة جيش شقيقه «عبد الله» في تورابة بالحجاز على يد قوات بن سعود الوهابية. كانت معركة تورابة، التي دارت رحاها في أواخر أيار (مايو) 1919، كارثةً عسكريةً بالنسبة لعبد الله الذي نجا بحياته بصعوبة، لكنها كانت نكبةً على الشريفيين في الحجاز. فقد تعرض نفوذ الملك حسين وهيبته

للخطر على نحوٍ مميت. وكان الشرفيون حينها في موقفٍ دفاعي عن معقلهم في الحجاز، دون حضورٍ للسلطان العثماني ولا للبريطانيين لمساعدتهم في استعادة موطئ قدمٍ لهم. وقد كان لها عواقب وخيمةٌ على فيصل، لأن قاعدة أسلافه، بغض النظر عن مدى ضعفها، كانت الآن قد سُلِبت منه. وكانت قبائل الجزيرة العربية، المناصرة لجيشه، منقسمةً بين رأيين، فمنهن من التحق بابن سعود، بينما انتظر الأخرون الوقت المناسب ليروا لصالح من سترجح الكفَّة. كما حوَّلت شقيقه عبد الله، الذي شعر بمرارة الهزيمة ولم يتبقَ له أي دورٍ عملي في الحجاز، إلى منافسٍ محتمل له[22]. وكانت الدعوات إلى تشكيل جيشٍ مسلم من سوريا لدعم الملك حسين في الحجاز مجرد أضغاث أحلام، فكل ما استطاع فيصل فعله هو إرسال بعض الضباط والرجال الذين اختارهم، مع بعض المدفعية والمدافع الرشاشة، إلى والده.

زار فيصل حلب في أوائل حزيران (يونيو) 1919، كجزءٍ من حملته لتوحيد النخب السورية وراء قيادته. وخاطب زعماء المدينة ووجهاءها في نادي حلب العربي، حيث شدد على أواصر الأخوة التي جمعت بين طوائف سورية المتعددة. «يجب أن نتعلم أننا لن ننجح ما لم نتمسك بالأخوة والإخلاص ووحدة اللغة، ونثبت للعالم أننا شعبٌ مؤهلٌ لولوج المجتمع المتحضر. يجب على كل منا أن يمثُل أمام لجنة التحقيق هذه وأن يقول بصراحةٍ وبلا خوف ما في قلبه إذا كان يرغب في تعزيز رفاهية شعبه... إننا جسدٌ واحد، وتصرفات الحكومة المؤقتة تدل بوضوحٍ على أنه ليس بيننا دياناتٌ أو طوائف، لأننا كنا عرباً قبل موسى وعيسى ومحمد... وستبذل الحكومة العربية الجديدة [لسوريا المستقلة] التي سيتم تشكيلها بمساعدة تلك الدول التي دعمتنا قصارى جهدها لدعم حقوق الأقليات من خلال تعهداتٍ مكتوبة؛ وأنا على ثقةٍ من أن الأقليات نفسها سوف تمزق هذه التعهدات لأنها سترى أن الأغلبية ستلتزم بها، وحتى أكثر [من الأقليات]»[23]. وفي نهاية خطابه، دعا فيصل إلى حملة تجنيدٍ لرفد قوات الأمن والجيش في الدولة الفتية، تحسباً منه وبشكلٍ واضحٍ للمشاكل المحتملة التي تنتظره.

المؤتمر السوري العام

أشار الخطاب الذي ألقاه فيصل في 5 أيار (مايو) في بلدية دمشق إلى الحاجة إلى تشكيل جمعيةٍ تعكس آراء الشعب السوري بشكلٍ صحيح، وستؤدي الجمعية المنتخبة دوراً كبيراً في إقناع لجنة الحلفاء المشتركة بحجم التأييد الواسع في سوريا لفكرة الاستقلال. وفي الوقت نفسه، شعر قادة الحركة الوطنية في سوريا أن وجود مثل هذه الهيأة ربما قد ساعد في تأمين قضية فيصل في باريس، وأن مطالبه بالاستقلال لم تكن مبنيةً فقط على مصالحه الشخصية أو الأسرية. ولعل الهيأة المنتخبة بصورةٍ صحيحةٍ قد عززت موقف فيصل التفاوضي في باريس وساعدته

في التغلب على الضغوط السياسية الهائلة التي تعرض لها. كما سيضفي المؤتمر أيضاً بريقاً ديمقراطياً على الحكومة العربية في سوريا، مما سيعزز من مصداقيتها ومهامها التشريعية. وبناءً على ذلك، منح فيصل دعمه لمجموعةٍ من حزب الاستقلال التابع لجمعية الفتاة والتي كانت قد اقترحت عليه الدعوة إلى انتخابات مؤتمرٍ وطني، مع ممثلين من الوحدات الإدارية الثلاث التي كانت سوريا قد قُسِّمت إليها[24]. وبمواءمة نفسه مع الدعوات إلى جمعيةٍ منتخبة، سعى فيصل بلا شكٍ أيضاً إلى تعزيز موقفه المحلي ضد الادعاءات القائلة بأنه كان مُجامِلاً للغاية للحلفاء.

بيد أن عقباتٍ هائلةً كانت تحول دون إجراء انتخاب الجمعية، إذ كان قد تم تقسيم سوريا فعلياً إلى ثلاث مناطق إدارية، ولم يتم فرض أمر الحكومة العربية إلا في OETE. ومن المؤكد أن الفرنسيين في الساحل لن يتعاونوا مع أي خطةٍ لإجراء انتخاباتٍ على أراضيهم؛ ولم يكن البريطانيون مستعدين لاستضافة الانتخابات في مناطقهم أيضاً. فكان أللنبي قد أصدر في وقتٍ سابقٍ أمراً بحظر أي تجمعات انتخابية في المناطق الجنوبية والغربية، لكنه أيّد إجراء انتخاباتٍ في المناطق الشرقية، كما سعى إلى تقييد سلطات أي جمعيةٍ منتخبةٍ أثناء الوجود الفعلي لإدارةٍ عسكريةٍ رسميةٍ.

ومع ذلك، أُجريت الانتخابات في المناطق الشرقية بالاعتماد كلياً على السجل الانتخابي العثماني السابق، ووفقاً لقوانين الانتخابات العثمانية القديمة. وأدت العملية الانتخابية المكونة من مرحلتين إلى انبثاق هيئةٍ انتخابية، اختارت بدورها المندوبين إلى المؤتمر. وفي واقع الأمر، كان معظم الذين تم انتخابهم في المؤتمر نواباً في المجلس العثماني(*). أما في الأجزاء الجنوبية والشرقية من سوريا المحتلة، فتم اختيار النواب عبر عملية التشاور مع الأعيان وشيوخ العشائر. وبذل الفرنسيون قصارى جهدهم لمنع خروج بعض هؤلاء النواب إلى المؤتمر في دمشق. وقد كان للعائلات السورية العريقة، فضلاً عن الطبقات الصاعدة، حصةٌ عادلةٌ من تركيبة المؤتمر السوري. ومن حيث التناسب، حظي المسيحيون بتمثيلٍ زائدٍ مقارنةً بنسبة مكونهم بين عموم السكان. ومع ذلك، فقد تم اختيارهم بأغلبيةٍ ساحقة من جانب المعسكر الموالي لفيصل. ولم يكن هناك ممثلين عن الطوائف التي دعمت الانتداب الفرنسي على سوريا. واجتمع أخيراً تسعةٌ وستون نائباً من إجمالي خمسةٍ وثمانين في دمشق لافتتاح المؤتمر السوري في 3 حزيران (يونيو) في مقر النادي العربي بدمشق[25]. وانتخب المؤتمر هاشم الأتاسي من حمص كأول رئيسٍ له.

(*) المجلس النيابي المسمى بـ(مجلس المبعوثان)، حصلت فيه بلاد الشام في المدة بين عامي (1908 ـ 1912) على ممثلين لها فيه، بلغوا 28 نائباً، توزعوا على الولايات الشامية كبيروت وحلب وسوريا والقدس، من أصل المجموع الكلي للنواب آنذاك البالغ 281. (المُراجع).

وعلى الرغم من أن المؤتمر قد التأم على عجلٍ بعمليةٍ انتخابيةٍ منقوصةٍ وغير مكتملة، إلا أنه كان يمثل بإنصاف التيارات السياسية في سوريا، وعكست قراراته ومراسيمه المشاعر العامة في البلاد. وقد سيطر عليه تياران عريضان، ضم التيار الأول أنصار حزب الاستقلال، الذي طالب بحق تقرير المصير لجميع الأراضي العربية، والثاني تمحور حول حزبٍ حديث النشأة هو حزب الاتحاد السوري، والذي كان مرتبطاً بمجتمع المنفى السوري في مصر، وكان برئاسة الدكتور العظيم عبد الرحمن الشهبندر. أما التكتل الثالث، المرتكز إلى الطبقة الأرستقراطية القديمة في سوريا، والمعني بشكلٍ أساسي بالقضايا المحلية، فقد اندمج فيما بات يُعرف باسم الحزب الوطني السوري. كان من الواضح أن مشاعر فيصل تتجه نحو الفئة الأولى، الذين عمل بعضهم معه أثناء الثورة، والذي كان واضحاً هيمنة أعضاء جمعية الفتاة عليهم. كانت الميول القومية العربية لتلك الفئة تتماشى أيضاً مع تفكير فيصل في ذلك الوقت، لكن التعاون الوثيق بين فيصل وهذه الفئة ولّد استياءً كبيراً بين النواب الآخرين، الذين شعروا بالإقصاء.

كان إنشاء المؤتمر السوري عنصراً مهماً في استراتيجية فيصل، لتقديم جبهةٍ موحدةٍ إلى لجنة الحلفاء المشتركة للتحقيق. لكن لربما كان له أثرٌ عكسيٌ عبر إبرازه الانقسامات داخل النخبة السياسية السورية بشأن مستقبل البلاد، لا سيما فيما يتعلق بنظام الانتداب والدور الذي كانت ستضطلع به فرنسا في إدارة الشؤون السورية. وكانت العائلات التقليدية، ممثلةً بعبد الرحمن اليوسف ومحمد فوزي العظم، قد نأت بنفسها عن فيصل ومشايعيه، مستشعرةً بتهميشها في النظام المستجد في دمشق. وكان آخرون، لا سيما أنصار فرنسا، ينتظرون الوقت المناسب لتغير المناخ السياسي لصالحهم. ولم يكن بالإمكان التوفيق بين الموقف الغامض للحكومة العربية في الداخل السوري وبين معطيات النفوذ الفرنسي في الساحل وعزم بريطانيا المتزايد على بسط سلطتها على فلسطين والعراق. فمن وجهة نظر خصوم فيصل، كان الأمر مسألة وقتٍ قبل أن تفرض حقائق القوة الإمبريالية نفسها على الوضع في سوريا، وعندها ستذهب مزاعم الحكومة العربية أدراج الرياح. وفي الوقت نفسه، أصبحت الانقسامات داخل معسكر فيصل أكثر حدةً، فقد كانت الشائعات المستمرة حول إبرام صفقةٍ سريةٍ مع كليمنصو تلاحق فيصل إلى دمشق حيث كان يسعى لتفسير سبب المكاسب الهزيلة التي حصدها من مؤتمر السلام. وكان القوميون الأكثر تذبذباً في معسكره، والذين اصطدموا بفرضٍ وشيكٍ على ما يبدو للحكم الاستعماري على سوريا والعراق متنكّراً في هيئة انتداب، ساخطين من أن فيصل قد بدا وكأنه يذعن لنظام الانتداب. وبالفعل فقد اتُهم فيصل بالانحراف عن أهداف الاستقلال الكامل لسوريا، وهي تهمةٌ وُجِّهت إليه في الاجتماعات السياسية المتكررة التي كانت تُعقد في دمشق قبل وصول لجنة التحقيق.

وكان الكاتب القومي اسعد داغر شاهد عيانٍ على إحدى هذه الحوادث:

«أدى هذا التغيير في السياسة في القصر وحاشيته إلى إثارة هياجٍ كبيرٍ بين الوطنيين، مما دفع الأحزاب السياسية وغيرها إلى الاجتماع لمناقشة هذه التغييرات. وقد ترأس معظم هذه الاجتماعات فيصل نفسه. أذكر أنني حضرت في ليلةٍ واحدةٍ اجتماعين مصيريين من تلك الاجتماعات في منزل عائلة البكري... الأول كان اجتماعاً عاماً حضره المئات من العرب المعنيين، أما الثاني فقد كان جلسةً خاصةً عُقدت في أحد صالونات المنزل. وقد حضر تلك الجلسة قادة حزب الاستقلال وهيئته الاستشارية. وبعد مناقشاتٍ مطوَّلةٍ وحادةٍ في كثيرٍ من الأحيان، تحدث فيصل وكرر الجملة التي أشرتُ إليها من قبل. واستند في حجته إلى المناقشات التي جرت بينه وبين سياسيين بريطانيين وأمريكيين، وكذلك إلى وثائق حصل عليها من شخصياتٍ بارزة. وبهذه الطريقة نجح في إقناع الأغلبية بالانحياز إلى آرائه، أو على الأقل تخفيف معارضتهم بإضعاف الأسس التي استندوا إليها في حججهم... إلا أن أحمد مروِّد [زعيمٌ وطنيٌ من منطقة الجولان] أصرَّ على أن لجنة التحقيق يجب إلا تستمع إلا لقضية المطالبة بالاستقلال الكامل للأراضي السورية، وأنا أيدته في هذا المطلب. فخاطبت فيصل وقلت إن ما قاله غايةٌ في الأهمية، إلا أنه لا يمكن الاعتماد على السياسيين الذين تعودوا على التملُّص من التزاماتهم في مثل هذه القضية الحيوية، فإن تراجعوا عن التزاماتهم تجاه سموك وتجاه والدك، فماذا سنفعل؟ وبأي ذريعةٍ يمكن أن نواجه فرنسا حينها؟ فقال فيصل: «السبيل الوحيد الذي سنلجأ إليه حينها هو استخدام القوة؛ وعلينا أن نُعدَّ أنفسنا لذلك. «في تلك اللحظة التفت إليّ محمد باشا العظم وهمس في أذني: «أخشى يا بني أنك ستصل إلى مرحلةٍ تندم فيها على ما فعلته مع الأتراك!»[26]

انطوى هذا التصريح على معنىً عميقٍ للغاية، فقد استمرت النخبة التقليدية في كبت المشاعر المؤيدة لتركيا، وستشتدُّ هذه المشاعر لاحقاً مع حملة مصطفى كمال الناجحة لتوطيد استقلال تركيا[27]. وقد ساد القلق والارتباك في سوريا، ووصل الإحساس بالانزلاق والتوجُّس إلى باريس البعيدة، حيث أشار رستم حيدر في مذكراته بتاريخ 6 حزيران (يونيو) 1919:

«تتحدث الأخبار الواردة من [سوريا] عن تنامي الوعي السياسي، لكن المعايير الأخلاقية العامة قد انحدرت إلى مستوياتٍ قذرة: فهناك سُعارٌ على الوظائف الرسمية وجداول الرواتب الأعلى؛ وعلى النياشين والأوسمة، والفساد، والحسد، والغيبة. وسوريٌ ضد عراقي. ويلٌ لهذه الأمة... البلد بحاجة إلى يدٍ من حديد، فأين هي؟ اللين مضرٌّ واليد القوية غائبة. وإذا استمرت اللجنة في تأخير ذهابها فإن الوضع سيتدهور أكثر»[28].

لجنة كينغ ـ كرين

كانت لجنة التحقيق ذات أهميةٍ حيويةٍ لاستراتيجية فيصل في الضغط على الحلفاء من أجل سوريا مستقلة، ولصد المطامع الفرنسية للسيطرة على البلاد. وقد أدّت التأخيرات بين الفينة والأخرى والتي صاحبت تشكيل تلك اللجنة ومغادرتها إلى سوريا إلى زيادة مخاوف فيصل. وفي مرحلةٍ ما أرسل برقية إلى رستم حيدر في باريس ليتم نقلها إلى جميع المندوبين في مؤتمر السلام. فقد أراد تأكيداً فورياً لموعد مغادرة اللجنة، وحذَّر من عواقب وخيمةٍ إذا تم تأجيل مهمتها أو إجهاضها. ووراء الكواليس في باريس، كانت الولايات المتحدة القوة الوحيدة التي تدعم إيفاد لجنة تحقيق. فالفرنسيون كانوا قد أقنعوا أنفسهم سلفاً بأن اللجنة كانت مؤامرةً دنيئةً لحرمانهم من حقوقهم بموجب اتفاقية سايكس بيكو. والبريطانيون، الذين أصدروا في البداية جعجعةً تؤكد نيتهم المشاركة في اللجنة، نأَوا بأنفسهم عنها في نهاية المطاف تحت مجموعةٍ من الضغوط وهي، الحاجة إلى تبديد الشكوك الفرنسية؛ والقلق بشأن النتائج المحتملة للجنة وتأثيراتها على السياسة البريطانية. أما اللوبي الصهيوني فقد استقتل ضد تلك اللجنة. وفي 21 أيار (مايو) 1919، قرر الرئيس ويلسون التصرف من جانبٍ واحد وأمر أعضاء اللجنة الأمريكيين بالاستعداد للمغادرة إلى سوريا. وأصبح يُعرف رسمياً حينها باسم القِسم الأمريكي في اللجنة الدولية لتركيا المنتدَبة، أو المعروفة باسم قادتها (لجنة كينغ ـ كرين)، ووصلت إلى يافا في 10 تموز (يوليو). حيث كان من المقرر لها البدء بالعمل على الفور. وقد عمل أعضاؤها لمدة اثنين وأربعين يوماً بلا كلل، حيث جمعوا المعلومات، وتلقوا العرائض، وأجروا مقابلات مع القادة السياسيين الرئيسيين والناس العاديين، واجتمعوا مع كبار الشخصيات الدينية، والجمعيات المدنية والمهنية، والنقابات ورؤساء البلديات. سافرت اللجنة في جميع أنحاء سوريا الكبرى ـ من فلسطين إلى لبنان وسوريا ـ وزارت ستّ وثلاثين بلدةً ومدينة وتلقت ما يقرب من 1863 عريضةً.

وقبل وصول اللجنة إلى دمشق، كان المؤتمر السوري قد أصدر قراراً عاماً في 2 تموز (يوليو)، كان من المفترض أن يشكل أساس تمثيله أمام لجنة كينغ كرين. فأعلن المؤتمر نفسه الممثل الحقيقي للشعب السوري والمحاور المناسب مع اللجنة المقبلة. كما حدد موقفه المؤيد للاستقلال التام لسوريا غير المُقسَّمة، ورفض أي دعواتٍ لأي شكلٍ من أشكال الاحتلال طويل الأمد المتخفي في صورة انتداب. كان هناك عدد من القرارات المناهضة لفرنسا، ورفض تام للمطالب الفرنسية بالتدخل في الشؤون السورية والتحكم بها[29]. وإذا كان لا بد من وجود انتدابٍ على سوريا، فيجب أن يذهب إلى الأمريكيين، وفي حال فشل ذلك، فإلى البريطانيين. كما دعا المؤتمر إلى حكومةٍ لا مركزية في جميع أنحاء سوريا تحترم الخصوصيات المحلية وحقوق الأقليات العرقية والدينية. ومن الملفت أنه دعا إلى حكومةٍ ملكيةٍ يكون ملكها فيصل، «حيث

سعى بكل نبلٍ من أجل تحريرنا وهو يتمتع بثقتنا الكاملة وبالإيمان بأن يكون ملكنا» 30(). كما رفض المؤتمر رفضاً قاطعاً «مطالب الصهاينة بإنشاء كومنولث يهودي في ذلك الجزء من جنوب سوريا المعروف باسم فلسطين»[31]. وشكَّلت قرارات المؤتمر أهم بيانٍ موحَّدٍ للموقف السوري والعربي تم عرضه على لجنة كينغ كرين. وفي 17 تموز (يوليو)، ألقى فيصل كلمةً أمام المؤتمر، حيث أشاد بالرئيس ويلسون وموقفه المناهض للاستعمار وحثَّ المندوبين على عرض قضيتهم على اللجنة بأمانة، برئاسة «صديقه العزيز، السيد كرين»[32].

وصلت لجنة كينغ ـ كرين إلى دمشق في 2 تموز (يوليو)، وبعد زيارةٍ بروتوكولية لفيصل في قصره، نزل أعضاؤها في فندقهم لاستقبال الوفود الغفيرة التي نزلت إلى العاصمة. وتم حشد المشاعر في المدينة لصالح المطالب القومية، وطُبِعت آلاف المنشورات ووزِّعت للمطالبة بالاستقلال التام[33]. وكان من بين أوائل زوار اللجنة وفدٌ مؤلفٌ من عشرين رجلاً من المؤتمر السوري برئاسة زعيمه هاشم الأتاسي. سلَّم الوفد رسمياً قرارات المؤتمر السوري وكرَّر شفهياً مطالبه الرئيسة (المعروفة وقتها باسم «برنامج دمشق»). وفي وقتٍ لاحقٍ تحدث فيصل إلى اللجنة لأكثر من ساعةٍ ونصف، مكرراً الدعوة إلى سوريا غير مقسمة، وواصفاً مفهومه لنظام الانتداب على أنه مسألة تقديم المشورة الفنية والمالية للبلاد، ومطالباً بأن أن تبقى الأنظمة التعليمية والتجارية في العراق وسوريا موحدةً لتسهيل عملية التقارب المستقبلي بين الأراضي العربية. كما رفض الدعوة إلى استقلال لبنان، مشيراً إلى أنه نتاج مكائد فرنسيةٍ بالتحالف مع عناصر دينيةٍ رجعية. فكان الحل لمشكلة الأقليات من خلال حكومةٍ ديمقراطيةٍ لا مركزية وليس من خلال تقسيم الأراضي السورية. وأنهى فيصل عرضه بإعلانه بشكلٍ درامي أنه إذا تدهورت الأوضاع أكثر في سوريا، فإنه يُفضِّل أن يُسجن مع آخرين من شعبه بدلاً من أن يكون حراً بمفرده»[34]. وقد تأثر أعضاء اللجنة بشدةٍ ببيانه الذي كان حصيفاً ومقنعاً[35].

ثم انتقلت اللجنة إلى أنحاء أخرى من سوريا، بما في ذلك شرق الأردن ووادي البقاع والمنطقة الساحلية. وقد أدت الدعاية الفرنسية والمال وحشد الموظفين الحكوميين، إلى جانب دعم الطائفتين المارونية والروم الكاثوليك انتدابٍ فرنسي على سوريا، إلى خرق شبه الإجماع الذي ساد في دمشق وفلسطين لصالح سوريا موحدة ومستقلة مع انتدابٍ أميركي أو بريطاني[36].

وقد عكست الآراء في حلب وبيروت تلك التي كانت في دمشق ولكن بحماسةٍ أقل، شأنها شأن الرأي السائد بين طوائف الروم الأرثوذوكس في سوريا. كما برز المجتمع العلوي في الجبال خلف اللاذقية مؤيداً للانتداب الفرنسي. ولكن، بالمجمل، كان رأي الأغلبية، وفي بعض الحالات الأغلبية الساحقة، يؤيد برنامج المؤتمر السوري. أرسل كرين برقيةً للرئيس ويلسون في 10 تموز (يوليو) أكد فيها الانطباعات الأولية للجنة بأن الغالبية العظمى من السكان يؤيدون وحدة

واستقلال سوريا وفلسطين، ويرفضون فكرة الانتداب الفرنسي[37]. وبعد زيارةٍ قصيرةٍ إلى كيليكيا، اعتكف أعضاء اللجنة في اسطنبول حيث وضعوا تقريرهم النهائي، الذي أودعوه لدى الوفد الأمريكي في باريس في أواخر آب (أغسطس) عام 1919؛ ولكنه بقي طي الكتمان لأكثر من ثلاث سنوات ولم يتم نشره للعلن حتى كانون الأول (ديسمبر) 1922، بعد فترةٍ طويلةٍ من إقامة نظام الانتداب وتقسيم الشرق الأدنى فعلياً. وحين رأى التقرير النور أخيراً، كان واضحاً للجميع أن تقييمات وتوصيات لجنة كينغ كرين كانت ستثبت أنها الأكثر إحراجاً لصانعي السلام البريطانيين والفرنسيين المجتمعين في باريس الذين كانوا يرسمون تسوياتهم الخاصة للمقاطعات العربية التي كانت تابعةً للإمبراطورية العثمانية.

تميّز تقرير لجنة كينغ ـ كرين بقراءةٍ نزيهةٍ وواضحة للوضع في سوريا في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن أعضاء اللجنة قد أيدوا نظام انتدابٍ لكل من العراق وسوريا، إلا أنهم أوصوا بأن يكون هذا النظام لفترةٍ محدودةٍ للغاية. ودعوا أيضاً إلى الحفاظ على وحدة سوريا (بما في ذلك فلسطين)، مع منح لبنان نوعاً من الحكم الذاتي داخل سوريا الموحدة. لقد قرروا أن شكل الحكومة في كل من العراق وسوريا يجب أن يكون ملكيةً دستورية، مع تعيين فيصل ملكاً على سوريا. ورفضوا فكرة الانتداب الفرنسي على أي جزءٍ من سوريا، وأوصوا بمنح الولايات المتحدة انتداباً على سوريا وبريطانيا على العراق، فإن لم تكن الولايات المتحدة قادرةً على الاضطلاع بالانتداب على سوريا، فيجب منحه لبريطانيا. وعلى الرغم من أن أعضاء اللجنة قد بدأوا مهمتهم وهم ميَّالون للمخططات الصهيونية في فلسطين، إلا أنهم خلصوا إلى التوصية بتقليص الطموحات الصهيونية بشكلٍ صارم. فقد توصلوا إلى استنتاج مفاده أن المشروع الصهيوني لا يمكن أن يتحقق إلا على حساب حقوق السكان العرب الأصليين، وبالتالي بقوة السلاح فقط.

التناحرات الأنغلو ـ فرنسية وقرار الجلاء

انعقدت لجنة كينغ ـ كرين في وقتٍ وصلت فيه التناحرات الأنغلو ـ فرنسية في الشرق الأوسط إلى مرحلةٍ حرجة. فقد أصبح كليمنصو متشككاً بشكلٍ متزايد في النوايا البريطانية في سوريا، ورأى أن الشبكة المعقدة في البلاد جزءٌ من مؤامرةٍ بريطانية لإفساد المصالح الفرنسية وحرمان فرنسا من الانتداب على البلاد. كما أشارت تصرفات بريطانيا، واهتمامها الواضح بإيجاد حلٍّ للتعهدات التي قطعتها لحلفائها الشرفيين، إلى تخليها عن مبادئ اتفاقية سايكس بيكو. وقد وصلت الأمور إلى ذروتها أثناء اجتماعٍ ساخنٍ لمجلس الأربعة عُقد في باريس يومي 21 و22 أيار (مايو)، عندما اتهم كليمنصو علانيةً لويد جورج بعدم الوفاء بوعوده فيما يتعلق بالتصرف في سوريا مستقبلاً[38]. أصبح الضغط الفرنسي على بريطانيا حينها بلا هوادة. وزادت

التقارير الميدانية للجنة كينغ ـ كرين حول الرفض الشعبي الواسع للانتداب الفرنسي من مخاوف الفرنسيين بشأن النوايا الحقيقية لبريطانيا. وكتب روبرت دي كايكس، منسق السياسة الفرنسية لسوريا، مقالاً لاذعاً للغاية في نشرة آسيا الفرنسية، والتي كانت تحظى بتغطيةٍ واسعة، حيث شجب لعبة بريطانيا المزدوجة المفترضة في بلاد الشام. واتهم دي كايكس البريطانيين علناً بتأجيج المشاعر المعادية لفرنسا لطرد فرنسا من سوريا، وأن البريطانيين كانوا يستخدمون فيصل كمخلب القط في لعبتهم هذه[39]. كان للضغوط الدبلوماسية الفرنسية، واللغط الذي أثاره اللوبي الاستعماري الفرنسي، والحملة الصحفية المكثفة المعادية لبريطانيا، تأثيرها في تركيز أفكار البريطانيين على أولوياتهم في سوريا. فبحلول آب (أغسطس) 1919، غدا لويد جورج غاضباً من استعصاء «المسألة السورية» وتحرك لانتشال بريطانيا من شبكة الالتزامات المتضاربة من خلال الاستجابة للمطالب الفرنسية بشأن سوريا. وفي 13 أيلول (سبتمبر)، توصّل لويد جورج وكليمنصو إلى اتفاقٍ يتم بموجبه إجلاء القوات البريطانية في سوريا بحلول 1 تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، لتحل محلها القوات الفرنسية في كيليكيا وعلى طول الساحل السوري، وقوات الحكومة العربية في المدن الأربع، دمشق وحلب وحمص وحماة. ظاهرياً، بدا أن إحدى قوات الحلفاء قد حلت محل الأخرى، لكن الأمر كان بمثابة إقرارٍ ضمني باتفاقية سايكس بيكو، حيث الأساس الجوهري لتسوية المسألة كان يتمثل بالقوة التي يجب أن تسيطر على سوريا.

لم يكن لدى فيصل أدنى فكرةٍ عن قرار بريطانيا الانسحاب من سوريا. ومع ذلك، فقد كان منزعجاً من الارتباك والغموض اللذان أحاطا بمسألة الانتداب والردود غير الواضحة التي كان يتلقاها من كلٍّ من البريطانيين والأمريكيين حول ما إذا كانوا مستعدين للاضطلاع بالانتداب على سوريا. وكان رئيس أركان ألنبي قد أخطر فيصل بالفعل بأن بريطانيا تعتزم قبول الانتداب على فلسطين، وهو تطورٌ دقَّ ناقوس الخطر لدى فيصل، فذلك لا يعني تقسيم سوريا جغرافياً فحسب، بل وينطوي أيضاً على خطر تقاسم الانتداب على سوريا بين قوتين أو أكثر. ولعل لجنة كينغ ـ كرين قد توصلت إلى استنتاجاتٍ مؤيدةٍ لموقف فيصل، ولكن كان من الواضح بجلاء أن غياب [الاعضاء] البريطانيين والفرنسيين جعل قابلية تنفيذ توصياتها موضع شكٍ كبير. أمضى فيصل ليالي بلا نومٍ قلقاً من أن يكون الفرنسيين يرونه الآن الشرير، باعتباره المسؤول الأكبر عن التأثير على لجنة كينغ كرين ضد الانتداب الفرنسي لسوريا. والبريطانيون أنفسهم لم يكونوا سعداء بتقدم عمل اللجنة في سوريا، حيث كانت العديد من الصحف السورية معاديةً بشكلٍ علني للبريطانيين، مما أجبر ألنبي على تحذير فيصل من استمرار توزيعها[40]. وقد غذّت التقارير الواردة من الصحف الأوروبية المخاوف في دمشق بشأن صفقةٍ أنغلو ـ فرنسية وشيكة من شأنها تسليم سوريا إلى فرنسا.

في 17 آب (أغسطس) أرسل فيصل خطاباً إلى أللنبي يهدد فيه بالاستقالة، إذا تم فرض انتدابٍ على سوريا ضد رغبات شعبها. «إذا كان هناك أي احتمالٍ أن يتخذ مؤتمر السلام قراراً يتعارض مع هذه الرغبة [سلطة انتدابٍ واحدةٍ على كلٍّ من سوريا وفلسطين] وينطوي على تقسيم البلاد، فلا يمكن أن يظل فيصل في منصبه الحالي الذي سيجعله عُرضةً للاتهام بأنه وافق على خراب بلاده»، كما جاء في ملخص رسالة فيصل التي تم إرسالها إلى كرزون[41]. وأضافت المذكرة أن «فيصل يعتقد أن حكومة جلالة الملك توصّلت إلى اتفاق مع الفرنسيين. وهدد بإصدار نداءٍ في غضون أيامٍ قليلةٍ لشعبه للقتال لكنه اقتنع بسحبه. لكنه يصرُّ على أنه لا بد أن يرسل شخصاً إلى إنكلترا أو أن يذهب بنفسه لعرض قضيته».

بدأ الوضع في سوريا يتدهور مع تزايد الشائعات حول نوايا الحلفاء، ووسط استمرار الشكوك حول مصير البلاد. ولتعزيز وضعه الداخلي جزئياً، وافق فيصل على تشكيل حكومةٍ جديدةٍ من ستة أشخاص، تكون مسؤولةً مباشرةً أمامه وفي غيابه أمام الركابي بصفته حاكماً عسكرياً. فتم تعيين اللواء العراقي ياسين الهاشمي أميناً للشؤون العسكرية ـ وهو قرارٌ مصيري كما تبين ـ واللواء غبريال حداد مسؤولاً عن الأمن الداخلي.

بدأ الهاشمي بوضع خططٍ لتجنيد متطوعين في جيش الحكومة العربية تحسباً لحدوث مشاكل. وتم تفويض مجلس الوزراء بإصدار المراسيم بقوة القانون، ولكن كان لا بد من تصديق فيصل على هذه المراسيم. ولأول مرةٍ، تولّى فيصل مسؤولية الإدارة المباشرة للبلاد، على الرغم من أنه كان لا يزال من الناحية الفنية مُلزماً بالأوامر الصادرة من مكتب أللنبي الرئيس. وفي 31 أب (أغسطس)، التقى فيصل مرةً أخرى مع رئيس أركان أللنبي، الجنرال باولز، بصحبة العقيد ريتشاردماينرتزهاجين[*]، الذي حلَّ محل الجنرال كلايتون ككبير الضباط السياسيين لدى أللنبي. وأدلى فيصل بتصريحٍ مطوَّلٍ وصف فيه موقف العرب منذ أن رفعوا مستوى الثورة ضد الأتراك معتمدين على تعهدات بريطانيا. كان العالم الإسلامي بأسره يراقب حينها ليرى ما سيكسبه من بريطانيا بعد أن ثار على الخلافة. فالمسلمين لم يقاتلوا ليروا أراضيهم مقسمةً بين فرنسا وبريطانيا، وسيرفضون هذه المهانة وسيقاتلون لاستعادة كرامتهم، وسيقاتل فيصل إلى جانبهم. لم يكن هذا تهديداً أو وعيداً، بل مجرد تذكيرٍ للبريطانيين، فمن سيصدقهم مرةً أخرى إذا لم تفِ بريطانيا بوعودها للملك حسين؟[42]

(*) كولونيل في الجيش البريطاني (1878 ـ 1967)، رئيس قسم الاستخبارات لدى الجنرال أللنبي في بداية الإنتداب البريطاني على فلسطين، وأدى دوراً بارزاً في التواصل مع الحركة الصهيونية هناك. (المُراجع).

في اليوم نفسه.

كتب فيصل رسالةً طويلةً إلى لويد جورج، لينقلها إليه أللنبي، مكرِّراً العديد من التصريحات التي أدلى بها للجنرال باولز، ولكن بحماسٍ وإلحاحٍ أكبر[43]. سلَّم أللنبي الرسالة إلى لويد جورج في 9 أيلول (سبتمبر)، لكن رئيس الوزراء البريطاني لم يُعِر اهتماماً كبيراً لتحذيرات فيصل ونُصحه[44]. كانت هناك حاجةٌ لتواجد فيصل في أوروبا لوضع اللمسات الأخيرة على خطط بريطانيا للانسحاب من سوريا، وعلى أمل التوصل إلى اتفاقٍ بين فيصل والفرنسيين لحكم المناطق الداخلية في سوريا. وفي 11 أيلول (سبتمبر)، أرسل لويد جورج برقيةً إلى فيصل دعاه فيها للحضور إلى باريس لأن مناقشة المسألة السورية كانت وشيكةً. تلقى فيصل البرقية في اليوم التالي. وببساطةٍ، لم يكن من الممكن له أن يصل إلى باريس في الوقت المناسب للانضمام إلى المناقشات الحاسمة بين لويد جورج وكليمنصو. ومع ذلك، وفي غضون ست ساعات، أكمل فيصل استعداداته للمغادرة إلى أوروبا، واستقل القطار إلى الإسكندرية عبر حيفا، حيث استقل سفينةً حربيةً بريطانية، سبيدي، متوجهاً إلى مالطا. وضم الوفد المرافق له الدكتور أحمد قادري ومساعده تحسين قادري ومستشاره السياسي فؤاد الخطيب[45] واللواء غبريال حداد[46] وغيرهم. كما كان معهم تولات على متن السفينة. وفي القطار في فلسطين، كتب فيصل إلى شقيقه زيد، وهو متخوفٌ من أن يوافق البريطانيون على استبدال قواتهم بالقوات الفرنسية في الداخل السوري. «إذا حدث هذا، لا سمح الله، فسأعود على الفور وأعلن معارضتي. يجب إعلان استقلال البلاد والبدء في التجنيد العسكري للدفاع عنها»[47].

كانت سبيدي بالفعل سفينةً سريعة، حيث مخرت عُبَاب المياه المتلاطمة، ولكن قبل وصولها إلى مالطا، تباطأت بشكلٍ غير مفهوم، مما أثار شكوك فيصل في أن وصوله إلى أوروبا قد تم تأجيله عمداً. وفي مالطا، كان على السفينة إعادة التزود بالوقود وإجراء إصلاحاتٍ طفيفة. فاقترح القائد أن ينتظر فيصل وصول الطراد الذي سيُقلِّه إلى مرسيليا براحةٍ أكبر، لكن فيصل أصرَّ على أن تستمر الرحلة على متن السفينة سبيدي، وكان يأمل في الوصول إلى باريس قبل مغادرة لويد جورج التي كانت مقررةً في 16 أيلول (سبتمبر)[48].

المحادثات المشؤومة في لندن

لم يكن وصول فيصل إلى مرسيليا ميموناً، فقد استقبله حزبٌ رسميٌ غير بارزٍ، جمعه هو وحاشيته في قطارٍ متجهٍ إلى بولونيا للعبور إلى إنكلترا[49]. كانت المداولات في باريس بين فرنسا وبريطانيا حول سوريا قد انتهت، ولم يُسمح له حتى بالتوقف للاستراحة في باريس من باب اللياقة، على الرغم من كونه مندوباً رسمياً إلى مؤتمر السلام. كانت الحكومة الفرنسية

تُظهر نواياها له بشكلٍ واضحٍ، إذ كان يُنظر إليه على أنه قوةٌ تعمل ضد المصالح الفرنسية، ولم يكن موضع ترحيبٍ في فرنسا. على أي حال، كانت فرنسا قد وافقت بالفعل على مذكرة لويد جورج، وبدأت تضع اللمسات الأخيرة على شروطها الأكثر غموضاً وبما يثير الجدل. وما إن وصل فيصل إلى لندن في 18 أيلول (سبتمبر)، بعد رحلةٍ طويلةٍ ومرهقة، حتى انخرط في سلسلةٍ من الاجتماعات مع كبار المسؤولين في بريطانيا. ففي 19 أيلول (سبتمبر)، التقى فيصل مع لويد جورج في داونينج ستريت، وحضر الاجتماع القائم بأعمال وزير الخارجية اللورد كرزون، ورئيس مجلس العموم بونار لو، والمارشال ألينبي، والمسؤول السياسي المساعد في قوة الاستطلاع المصرية العقيد كورنواليس. ورافق فيصل في ذلك الاجتماع فؤاد الخطيب واللواء حداد الذي عمل أيضاً كمترجم. كان لويد جورج قد دعا فيصل أساساً «لحثه على قبول الاقتراح المتعلق بالاحتلال كما تمت الموافقة عليه في باريس». واستمر الاجتماع لعدة ساعات، حيث أوضح لويد جورج أسباب قرار بريطانيا إجلاء قواتها من سوريا ـ مع الاحتفاظ بها في بلاد ما بين النهرين وفلسطين ـ ومحاولة فيصل إلزام بريطانيا بوعودها التي قطعتها لوالده وتصريحاتها المختلفة التي كانت قد أعلنت فيها عن دعمها للاستقلال العربي. وفي هذه المرة كان فيصل قد حصل من والده على المراسلات المهمة بين حسين والبريطانيين. وقد استخدمها بأقصى درجةٍ ممكنةٍ من الفاعلية لمحاولة تغيير السياسات البريطانية.

بيد أنه، وبالاعتماد إلى حدٍّ ما على ما قاله له والده و«عبد الله»، أشار فيصل باستمرار إلى «معاهدةٍ» بين والده والبريطانيين تشكل أساساً للتحالف بين الطرفين. وبطبيعة الحال، لم يكن هناك مثل هذه المعاهدة، وهي حقيقةٌ أصبحت واضحةً إلى حدٍّ محرج حين أثارها فيصل مع لويد جورج. فقد أخبره رئيس الوزراء ببساطة أن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن أي معاهدةٍ محددةٍ مع الملك حسين. واستمر لويد جورج في التأكيد على أن المذكرة هي وثيقةٌ مؤقتة وأن الترتيب النهائي لكافة الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية السابقة لا يمكن تحقيقه إلا في مؤتمر السلام[50]. لم يكن فيصل راضياً على تعليقات لويد جورج حول الطابع المؤقت للاتفاقية، أو تصريحاته بأن بريطانيا تنوي الوفاء بجميع التزاماتها تجاه العرب، فقد قاوم بشدةٍ الصفقة الأنغلو ـ فرنسية بشأن سوريا إذا ما أضرّت بالنتيجة النهائية، التي لم يرها إلا من منظور وحدة الأراضي السورية، مع وجود قوة انتدابٍ واحدة إذا لزم الأمر. وردد فيصل تصريحاته التي طالما أعلنها بأنه: «لا يستطيع الوقوف أمام العالم الإسلامي والقول أنه طُلب منه شنَّ حربٍ على خليفة المسلمين، وهو يرى الأن القوى الأوروبية تقسِّم البلاد العربية»[51]. وفي ذلك المساء، ذهب فيصل إلى المسرح للترويج عن نفسه بكل تأكيد من حدة الاجتماعات المُرهِقة.

وبعد يومين، أرسل فيصل إلى لويد جورج ردّاً رسمياً على المذكرة. ورفض أساس الاتفاقية

برمته، أي اتفاقية سايكس بيكو، قائلاً إن العرب لن يوافقوا أبدا على تقسيم أراضيهم. وقد اعترض بحزم على تقسيم الأراضي السورية قبل أن يختتم مؤتمر السلام أعماله. وعلى الرغم من إن الصفقة الأنغلو ـ فرنسية مقدّمة على أنها مؤقتة، إلا أنه ستكون هناك حدودٌ ثابتةٌ بين مختلف المناطق، والتي قد تشكِّل الأساس للترتيب النهائي للحدود. وقد كتب فيصل: «في الختام، أطلب إلغاء هذا الارتباط المقترح بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية تماماً لأنه يتعارض مع مُثُل عصبة الأمم وأيضاً مع التزاماتنا الأخرى التي كانت قائمةً على أساس الشرف الوطني. فضلا عن أنه عودةٌ غير مُنصفةٍ إلى سياسة الإمبريالية الطموحة التي يتعيّن نبذها إلى الأبد بعد هذه الحرب». وفي خطابٍ جانبي موجهٍ إلى أللنبي، أملاً في الحصول على صوته المؤثر، كتب فيصل، «لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للقائد العام، الذي يدرك كل هذه الحقائق [عن المقاومة الشعبية ضد تقسيم سوريا]، أن يوافق على تعريض البلاد التي حرَّرها للاضطراب الداخلي. سيكون من الأفضل بالتأكيد ترك الوضع الراهن على ما هو عليه أو سحب جميع القوات الأوروبية حتى صدور القرار النهائي [لمؤتمر السلام]»(52).

عقد فيصل اجتماعاً آخر مع لويد جورج في 23 أيلول (سبتمبر) في داونينج ستريت، مع نفس المشاركين في الاجتماع السابق الذي عُقد في 19 من الشهر نفسه. ونوقش موضوع «المعاهدة» التي ألمح إليها حسين وفيصل باستفاضة. واتضح أن ما تمت الإشارة إليه كان بشكلٍ شبه مؤكد ملحقاً كان قد أرفقه حسين برسالةٍ أرسلها إلى مكماهون في شهر آب (أغسطس) 1918، يبرز فهم حسين للالتزامات المختلفة التي تعهدت بها بريطانيا. وتم إرسال تلك الإحاطة إلى لندن، حيث لم يتم اتخاذ أي إجراءٍ آخر بشأنها، ومن الصعب اعتبارها معاهدةً بالمعنى التقليدي؛ لأن البريطانيين لم يوقعوا عليها أو يعترفوا بها بأي شكلٍ من الأشكال. وما شدَّد عليه كرزون خلال الاجتماع هو أنه لا توجد معاهدةٌ موقعةٌ بين البريطانيين وحسين، إنما فقط مجموعةٌ من المراسلات. وعلى أية حال، فقد اعترض البريطانيون على الخلاصة التي خرج بها حسين ورفضوا قبول أنها تعكس بدقةٍ التعهدات التي قُطعت للعرب. وهكذا، تم تقويض دعامةٍ مهمةٍ في استراتيجية فيصل التفاوضية، مما تركه في حيرةٍ من أمره حول سبب تضليله لكي يظن بوجود مثل هذه الأداة القوية بالفعل. «ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد تبدَّدت آمالي بفقدان أقوى أداةٍ لدي...»(53). كما أن هذا الأمر كان بمثابة تغييرٍ مهمٍ في موقف فيصل نفسه. حيث كان يتصرف سابقاً بصفته ممثلاً لوالده ومتحدثاً باسم قضيةٍ عربيةٍ واسعة، أما الآن فقد أصبح سيد نفسه تدريجياً، ويتحدث بناءً على شرعيته ومكانته كممثلٍ لتطلعات سكان سوريا الكبرى. وقد وقّع على وثائق بصفته الخاصة، مع إشارةٍ رسميةٍ فقط إلى والده باعتباره الزعيم الرمزي للقضية العربية. ولم

يتخلَّ عن القضية الهاشمية القديمة المتمثلة في إقامة كونفدراليةٍ بين الدول العربية، لكن دبلوماسيته أصبحت تركز على سوريا.

وخلال الأسابيع القليلة التالية، انتظر فيصل الرد الرسمي من الحكومة البريطانية على مذكرته المؤرخة في 21 أيلول (سبتمبر). وفي غضون ذلك، استمر في استقبال عددٍ كبيرٍ من الزوار في مقره بفندق كارلتون. وقد قام الزعيم الصهيوني وايزمان بزيارته مرتين، في 24 و26 أيلول (سبتمبر)، وكذلك فعل هربرت صموئيل، الوزير السابق في حكومة أسكويث الحربية والمفوض السامي المستقبلي في فلسطين. وفي زيارته الأولى عرض وايزمان على حكومة فيصل قرضاً لمدة خمس سنوات بقيمة 30 مليون جنيه إسترليني مقابل دعمه للبرنامج الصهيوني، وكان سيحظى أيضاً بدعمٍ صهيوني في وسائل الإعلام لموقفه المناهض للفرنسيين. لكن، وخلال زيارته الثانية، كان وايزمان أكثر وضوحاً بشأن ما يقصده. فقد كتب رستم حيدر في مذكراته، «قال وايزمان إن هناك 14 مليون يهودي حول العالم، وكلهم يرغبون في رؤية فلسطين يهوديةً، لكن 6 ملايين فقط منهم يريدون الذهاب إلى هناك بالفعل. كان [وايزمان] رجلاً معتدلاً واعتداله أثار حنق الآخرين عليه. فهو لا يعتقد أنه من الصواب أو المعقول أن تخضع فلسطين الآن لحكومةٍ يهودية، بينما لا يوجد سوى 60 إلى 70 ألف يهودي هناك في الوقت الحالي بينما يبلغ عدد المسلمين والمسيحيين [العرب] 600 ألف. إنه يريد أن يرى الهجرة [اليهودية]، وبمرور الوقت إذا أصبح اليهود أغلبيةً، فيمكنهم إنشاء حكومةٍ ديمقراطية على أساس المساواة [مع المسلمين والمسيحيين]. إنهم [اليهود] يرغبون في أن يكونوا إخوةً للعرب. يبلغ عدد سكان الأراضي العربية الآن 13 مليون نسمة، لكن يمكنها أن تستوعب بين 50 ـ 60 مليون نسمة، لذلك لا يوجد خطرٌ على الأراضي العربية، الواسعة جداً، بوصول 6 ملايين يهودي»[55].

لكن فيصل ازداد توجساً من تداعيات المشروع الصهيوني على آفاق الاستقلال العربي، وهو تغيُّرٌ في الرأي رصدته الإرساليات البريطانية القادمة من الشرق الأدنى. وقد كان الاعتراف بالهجرة اليهودية إلى فلسطين وحتى الترحيب بها ـ على أسسٍ اقتصاديةٍ ودينية وإنسانية ـ مع الرفض المطلق للتداعيات السياسية التي قد تنشأ عن زيادة عدد السكان اليهود في البلاد والمطالبات المصاحبة بوضعٍ سياسي منفصل أو حتى دولة يُعدّ عملاً متوازناً مُتقناً. ففي 3 تشرين الأول (أكتوبر) 1919، نشرت صحيفة كرونيكل اليهودية في لندن، وهي الصحيفة شبه الرسمية ليهود بريطانيا، مقابلةً مطوَّلةً مع فيصل حول المسألة الصهيونية. وفي المقابلة، أدلى فيصل بتصريحاتٍ وديةٍ بخصوص الدكتور وايزمان. «لقد وجدت مقترحات الدكتور وايزمان معتدلةً وعمليةً إلى حدٍّ كبير. وكما فهمت منه، فهو يعمل من أجل هجرةٍ منظمة إلى البلاد، وبالنسبة للظروف التي يكون فيها لليهودي حقوقٌ متساويةٌ مع العربي، فعليه أن يشارك في حكومة فلسطين... وليس هناك

ما يمنع ذلك». لكنه رفض فكرة الهجرة اليهودية المفتوحة إلى فلسطين، مشيراً إلى أن البلاد لا تستطيع استيعاب أكثر من 1000 إلى 1500 مهاجر سنوياً. كما حذَّر من احتمال وقوع اشتباكاتٍ بين العرب واليهود، إذا خطط المتطرفون الصهاينة للاستيلاء على البلاد وإقامة دولة يهودية.

أثارت تصريحات فيصل للصحيفة حفيظة عددٍ من الشخصيات الصهيونية البارزة في لندن، الذين التقوا به في 15 تشرين الأول (أكتوبر) ليتأكدوا ما إذا كانت تصريحاته التي وصلتهم تعكس وجهة نظره بدقة. ضمَّ اللقاء هربرت صموئيل وهاري ساشر، محامي وايزمان ومعاونه، ونوري باشا السعيد. وقد ذكر فيصل أن تصريحاته جاءت مدفوعةً بتأكيد المراسل أن اليهود يعتزمون إقامة دولةٍ في فلسطين[56]. كان الوفد الصهيوني مستعداً لأخذ تفسير فيصل على محمل الجد. بيد أن موقف فيصل من الصهيونية كان يقترب أكثر من أي وقت مضى من الخط القومي المتمثل في الرفض الكامل لأي مزاعم صهيونية بشأن فلسطين، حتى عندما صاغَ تصريحاته لتتوافق مع توقعات مختلف الجماهير.

بدأ فيصل يشعر بأن الأرض تتداعى تحت قدميه. وفي 26 أيلول (سبتمبر) كتب رسالةً إلى والده يلخص فيها رؤيته للأحداث حتى الآن وموقف البريطانيين. وعلى الرغم من أن البريطانيين حاولوا التعاطف مع وجهة نظره، إلا أنهم كانوا مدفوعين «بالمكاسب والمصالح المادية التي تشكل الأساس لجميع أعمالهم». وتحسُّباً للمشاكل المقبلة، حثَّ فيصل والده على حصر خلافاته مع شيوخ وزعماء القبائل وصنع تحالفاتٍ جديدةٍ معهم. كان فيصل أكثر توجُّساً من أن ما سيحدد الأحداث من الأن فصاعداً هو «الأمر الواقع، والسياسات القائمة على الفرض والسيف والقوة»[57]. فكتب لزيد في اليوم التالي: «الله المستعان! الله المستعان! القوة! ثم القوة! فكلما كنا أقوى وكلما تمكَّنا من إظهار نشاطاً عسكرياً، زاد احترامهم [الحلفاء] لنا ووافقوا على مطالبنا»[58]. كما طلب من عوني عبد الهادي الاتصال بالمسؤولين في دمشق للاستعداد لتولي المواقع التي أخلاها البريطانيون وتعزيز القدرات العسكرية للحكومة العربية في سهل البقاع[59]. وواصل فيصل بناء استراتيجيته على عدالة القضية العربية وعلَّق آماله في هذا الصدد على اجتماعٍ خاص للثلاثة الكبار. وإذا لزم الأمر، فإنه سيسافر إلى أمريكا. وكتب إلى لويد جورج في 9 تشرين الأول (أكتوبر) قائلاً: «إن انسحاب البريطانيين سيشكل كارثةً كبيرةً على العالم العربي بأكمله... «داعياً إلى تأجيل اتفاقية الإجلاء الأنغلو ـ فرنسية. إذ يتعيّن عرض المسألة برمتها على مؤتمر السلام أو على لجنةٍ أنغلو عربية فرنسية خاصة برئاسةٍ أمريكية لعرض نتائجها وتوصياتها على مؤتمر السلام[60].

وفي اليوم نفسه، تلقى فيصل رسالةً من اللورد كرزون، رداً على مذكرته المؤرخة في 21 أيلول (سبتمبر). لخَّص فيها كرزون التعهدات والالتزامات التي قطعتها بريطانيا على حسين، وحدَّد الأسباب وراء قرار بريطانيا الانسحاب من سوريا، فقد كلفت الجبهة الشرقية الخزانة

البريطانية 750 مليون جنيه إسترليني ونشر1.400.000 جندي. ولم يكن من المتوقع أن يستمر دافع الضرائب البريطاني في تحمل هذا العبء. كما ذكّر كرزون فيصل بتضحيات فرنسا على الجبهة الغربية، والتي قوّضت، من خلال تدمير القوة الألمانية، قدرة الأتراك على الاستمرار في الحرب وجعلت التحرر العربي ممكناً. لذلك فقد حثَّ فيصل على قبول أن «أفضل سبيلٍ للشعوب العربية هو قبول الترتيب المؤقت المقترح والانخراط في ترتيبات عملٍ ودية لتنفيذه مع حلفائهم، بريطانيا العظمى وفرنسا»[61].

وأيّاً كانت الآمال التي لربما قد حملها فيصل لتغيير القرار البريطاني بالجلاء عن سوريا، فإنها قد تبدَّدت حينما تلقَّى، في 10 تشرين الأول (أكتوبر)، ردّ لويد جورج على رسائله المتعددة. حيث رفض لويد جورج مطالب فيصل بطرح القضية على مؤتمر السلام أو على لجنةٍ خاصة، إذ لم تكن بريطانيا مستعدةً للاضطلاع بأي انتدابٍ على سوريا وقد أكد رئيس الوزراء أن قرار بريطانيا بالجلاء عن سوريا نهائي. كما «أقرَّ» لويد جورج بأن ممثلي الأطراف المعنية سوف يجتمعون لتسهيل عملية الانسحاب بحلول الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)[62]. وهكذا تراكم الضغط على فيصل للقاء الفرنسيين وإلقاء الضوء بأفضل صورةٍ على اتفاقية الجلاء الأنغلو ـ فرنسية. أما لورنس، الذي لربما كان قد خفّف نوعاً ما من هذه الضغوط وأعطى دفعاً معنوياً ومشورةً سياسيةً لفيصل، فقد كان غائباً عن المشهد. وكان قد كتب، بتوجيهٍ من وزارة الخارجية، عدداً من المقالات في الصحف، يُعبّر فيها عن دعمٍ فاترٍ لاتفاقية سايكس بيكو التي كان قد أطلق عليها «عهدٌ للعرب»[63]. إلا أنه كان قد كتب أيضاً إلى كرزون مقترحاً أن يعترف الحلفاء رسمياً بالحكومة العربية في سوريا: «طموحي الخاص هو أن يكون العرب أول سلطةٍ سمراء لدينا وليس آخر مستعمرةٍ نمتلكها»[64]. بيد أن توصيات لورنس لكرزون لم تكن مقبولةً وطُلب منه عدم مقابلة فيصل.

وقد تبِع ذلك سلسلةٌ من الرسائل المتبادلة بين لويد جورج وكليمنصو، وكان بعضها ساخناً للغاية. فقد اتهم كليمنصو البريطانيين بمحاولة حل مشاكلهم المتشابكة مع العرب عبر التضحية بالمصالح الفرنسية، كما اتهمهم بتسليح العرب، وهي أسلحةٌ يمكن استخدامها بعد ذلك لمحاربة الفرنسيين. وكان الحلّ الوحيد بحسب رأيه هو إقناع البريطانيين لفيصل بأنه يجب عليه الدخول في محادثاتٍ جادَّةٍ مع الفرنسيين، فيما يتعلق بالوضع بعد جلاء البريطانيين. وكان لويد جورج منزعجاً بشدةٍ من اللهجة الواردة في برقيات كليمنصو، وكما أطلق عليها كُرزون «الافتراءات البشعة»، وقام بكتابة مذكرةٍ مطولة تبرِّر الإجراءات البريطانية طوال تلك الفترة. إلا أنه وجد في انفتاح كليمنصو على فيصل وسيلةً للتغلب على اعتراضات الأخير على التعامل مع الفرنسيين. وفي 16 تشرين الأول (أكتوبر)، التقى كرزون وأللنبي بفيصل وأقنعاه بقبول دعوة كليمنصو

لافتتاح المناقشات، ولم يكن أمام فيصل خيارٌ سوى الذهاب إلى باريس، إذ كان البريطانيون على وشك أن يغسلوا أيديهم من الشأن السوري برمته، ولم يكن الأمريكيون في حالةٍ مزاجية ولا في وضعٍ يسمح لهم بلعب دور الفارس الأبيض. وفي 20 تشرين الأول (أكتوبر)، وصل فيصل إلى باريس في ظروفٍ لا تمتُّ بصلةٍ لزيارته السابقة.

فيصل في باريس

كان الرأي العام في فرنسا قد تحوَّل بشكلٍ ملحوظٍ ضد العرب وفيصل. ففي يوم وصول فيصل إلى باريس، كتب أحد الكتَّاب المعروفين والنائب في الجمعية الوطنية، موريس باريز، مقالاً لاذعاً في صدى باريس Echo de paris ينتقد فيه بشدةٍ كل من بريطانيا وفيصل، وشدَّد على أن لفرنسا الحق في الانتداب على المدن الأربع داخل سورية. وقد صرَح قائلاً: «إن مهزلة فيصل قد تجاوزت الحد». وتابع: «لا توجد أمةٌ غير فرنسا تمتلك تلك السوية العالية والخاصة من المودة والعبقرية المطلوبتين للتعامل مع العرب. أما النظرية البريطانية حول إقامة حكومةٍ عربيةٍ للحجاز في سوريا فهي نظريةٌ واهيةٌ ولا يمكن تبريرها، إذ لا يحق للأمير فيصل التواجد في دمشق أو حمص أو حماة أو حلب... فمن هو فيصل بالنسبة لنا أو للسوريين؟ إنه رجل القش الذي نصَّبته إنكلترا دون لقبٍ أو نفوذ... إذا كانت إنكلترا ترغب في منح مملكةٍ لهذا الأمير، فلتنصبه ملكاً في بغداد»[65].

مكث فيصل في باريس للشهرين والنصف التاليين، حيث التقى بمجموعةٍ من المسؤولين الفرنسيين بمن فيهم ذلك كليمنصو، وفيليب بيرثيلوت، الذي كان الأمين العام في وزارة الخارجية الفرنسية، وغوت، والجنرال غورو. وقد عُقدت الاجتماعات إما في وزارة الخارجية أو في مقر فيصل، وكان يقودها في الغالب فيصل بنفسه. وقد أناب عنه في بعض المفاوضات رستم حيدر وعوني عبد الهادي، لكنه ظل قريباً ويراقب أنشطتهما. كانت اللقاءات مع الفرنسيين صعبةً، حيث لم يكونوا مهتمين بأي حالٍ من الأحوال بالاستماع إلى حججه. وقد حاول البعض دعم الحكومتين البريطانية والأمريكية لموقفه، لكن دون جدوى. فقد كتب إلى لويد جورج قائلاً، «لقد جئت إلى باريس كما نصحتني، وأنا هنا منذ حوالي خمسة عشر يوماً. وقد بذلت قصارى جهدي للحفاظ على علاقاتٍ طيبة مع الحكومة الفرنسية، وسعيت لإزالة سوء التفاهمات وتلبية مصالحنا المشتركة»[66]. لكنه لم يلقى رداً مماثلاً من المسؤولين الذين التقاهم، وأبلغ لويد جورج أنه ينوي إحالة مسألة الجلاء البريطاني من سوريا إلى المجلس الأعلى[*] لمؤتمر السلام. كما

(*) المقصود بالمجلس الأعلى في مؤتمر السلام بباريس هو (مجلس الأربعة الكبار) الذي يمثّل رؤساء الدول الحليفة المنتصرة في الحرب العالمية الأولى. (المُراجع).

التقى برئيس الوفد الأمريكي إلى مؤتمر السلام فرانك ليون بولك، لكن المناقشات معه لم تثمر عن شيء، إذ أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدةً ببساطة لتبني موقفٍ من القضية السورية[67].

قام فيصل أيضاً بتبادل المراسلات مع كليمنصو، وتولى عوني عبد الهادي صياغة الترجمة الفرنسية لرسائل فيصل إلى كليمنصو. كان الهدف الرئيس الأول في هذه المرحلة هو إقناع كليمنصو بتأجيل أو إلغاء الإجلاء المقرر للقوات البريطانية، وقبول التعديلات على الاتفاقيات الأنغلو ـ فرنسية الموقعة في أيلول (سبتمبر). وقد قدّم الحجج المألوفة حول تقسيم سوريا التاريخية إلى دولٍ منفصلة ومناطق نفوذ، والقلاقل التي قد ينطوي عليها ذلك، والمقاومة المتوقعة إذا ما تم ذلك[68]. وقد هدف ردّ كليمنصو إلى تهدئة مخاوف فيصل من خلال التأكيد على أنه لا مستقبل سوريا السياسي ولا حدودها النهائية موضع بحثٍ في الوقت الحاضر. بعد ذلك تحوّل فيصل إلى المجلس الأعلى. وفي 6 تشرين الثاني (نوفمبر)، وجَّه مذكرةً مفصلة إلى المجلس عدَّد فيها المخاطر والمشاكل التي ستنشأ إذا تم وضع الاتفاقية الأنغلو ـ فرنسية حيز التنفيذ. وندَّد بتقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق منفصلة باسم الاعتبارات العسكرية، بينما هو في الواقع قرارٌ ذو دوافع سياسية. وتساءل مجازياً: «هل تمكنت أي دولةٍ في العالم من إحراز أي تقدمٍ في ظل هذه الظروف المعوقة؟»، وذكَّر المجلس بأن أساس المذكرة كان اتفاقية سايكس بيكو المقيتة، «التي تعاملت مع البلاد كما لو كانت ملكيةً خاصة أو مجرد قطعةٍ من المتاع». كما كشف فيصل شبح العداء الديني الصاعد لأن «الناس سيعتقدون أن هناك نيةً مُبيتةً لاضطهاد الإسلام»[69]. لكن مناشدته للمجلس الأعلى لم تسفر عن شيء. وقد قال كليمنصو، الذي كتب إلى لويد جورج في 9 تشرين الثاني (نوفمبر)، «إن مؤتمر السلام لن يفعل شيئاً سوى المصادقة على اتفاقنا على الانتداب الفرنسي في سوريا والانتداب البريطاني في بلاد ما بين النهرين»[70].

كما كان فيصل قلقاً للغاية بشأن الولاءات الحقيقية للشعب السوري، وما إذا كان سيقاتل الاحتلال إذا ما وصل إليه. كان يدرك أن الحكومة العربية لم تكن تحظى بشعبيةٍ بشكلٍ شامل، خاصةً بين شريحةٍ كبيرةٍ من النخب التقليدية، التي تم تقويض سلطتها ونفوذها بشكلٍ كبيرٍ منذ زوال الإمبراطورية العثمانية، وقد كانت ولاءات الأقليات المسيحية لا تزال موضع شك، وكان موارنة لبنان مناهضين بالكامل لإمكانية حكمهم من قبل حكومةٍ إسلامية، حتى لو كانت قد استبدلت تفويضها الديني بآخر قومي. وكانت فرنسا قد أثارت المشاكل مع الدروز والعلويين، الذين كانوا متوجّسين كفايةً بالأساس، بحيث أصبحت ولاءاتهم لحكومة دمشق المتزعزعة موضع تساؤل أيضاً. وكان تولات قد حذَّر فيصل من أن التقارير التي كانت تصل إلى وزارة الخارجية الفرنسية حول الوضع في سوريا ولبنان كلها تتحدث عن ضحالة التأييد الذي يحظى به وتزايد القلاقل والانفلات والفوضى في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة العربية. أما زيد الذي بقي

في سورية لمراقبة الحكومة، فهو لم يكن محبوباً، سواءً بسبب تقاريره المحذرة من الظروف المتدهورة داخل البلاد، أو المؤشرات بأن السكان على وشك الانفجار من الغضب[71].

كانت هناك أزمةٌ أخرى على وشك الاندلاع بينما كان فيصل لا يزال في باريس، حيث كان موعد انسحاب القوات البريطانية من سوريا بحلول 30 تشرين الثاني (نوفمبر) يقترب بسرعة. وكان الفرنسيون مصممين على نشر قواتهم للسيطرة على سهل البقاع، الذي كان الفرنسيين ينازعون عليه كجزءٍ من الأراضي الخاضعة لسيطرة الحكومة العربية. وكان الجنرال غورو قد أصدر أوامر باحتلال القوات الفرنسية لهذه المناطق، لكن فيصل كان مصمماً على إبقائها تحت سيطرة الحكومة العربية. وكتب إلى لويد جورج يحذره من أن القوات العربية المتمركزة هناك ستقاوم أي اعتداءاتٍ فرنسية بالقوة. ونجح البريطانيون في إقناع كليمنصو بتأجيل نشر قواتهم في سهل البقاع. وعلى أية حال، كان كليمنصو قد بدأ بالفعل برؤية منافع عقد صفقةٍ مع فيصل كأفضل سبيلٍ مفتوحٍ أمام فرنسا لتحقيق أهدافها مع تجنب استخدام القوة والترهيب. وتم الاتفاق مع فيصل على انسحاب القوات العربية من سهل البقاع، في حين أن القوات الفرنسية لن تدخل هذه المناطق. كما ستسحب فرنسا كتيبتها المدفعية الرمزية في دمشق، مراعاةً لطلب فيصل باحترام سلطة الحكومة العربية في تلك المناطق الواقعة تحت سيطرتها.

كان فيصل حينها يائساً من العودة إلى سوريا، حيث كان الوضع السياسي والعسكري في حالة جيشانٍ كامل. واندلعت أزمةٌ كبيرة في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) عندما ألقى البريطانيون القبض على القائد العسكري للحكومة العربية، اللواء ياسين الهاشمي، على أساس أنه كان يجنّد القوات لمقاومة الفرنسيين في سهل البقاع. كما اشتُبه في أنه على اتصالٍ بالقوميين الأتراك تحت قيادة مصطفى كمال، والذين كانوا يكتسبون أرضيةً ودعماً أكبر في نضالهم ضد الحلفاء. واندلعت أعمال الشغب والمظاهرات في دمشق احتجاجا على اعتقال ياسين. وكان البريطانيون قد أكملوا انسحابهم النهائي من سوريا بحلول الأسبوع الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر). ولم يعد وجودهم المطمئن متاحاً لتوفير ثقلٍ نظري موازن للقوة الفرنسية، وتضاءلت الخيارات المتاحة أمام فيصل إلى أن انعدمت تقريباً، فلم يكن أمامه خيارٌ سوى الموافقة على تأجيل عودته إلى أن يتم التوصل إلى شكلٍ من أشكال الاتفاق بينه وبين الفرنسيين. وكان البريطانيون والفرنسيون يجرون بالفعل اجتماعاتٍ لمحاولة الوصول إلى وضعٍ نهائي في سوريا، وسيكون اتفاقهم النهائي هو الأساس للصفقة التي ستُعرض على فيصل.

دعت الاتفاقية التي عُرِفت فيما بعد باتفاقية فيصل ـ كليمنصو، في جوهرها إلى إنشاء دولةٍ سوريةٍ مستقلة داخل الحدود على أن يقررها مؤتمر السلام أخيراً. وستوافق هذه الدولة على الاعتماد على فرنسا في الدعم الفني والعسكري والإداري، وتفوض تمثيلها الدبلوماسي الخارجي

لفرنسا. وسيتم اقتطاع دولةٍ لبنانيةٍ منفصلةٍ ومستقلة من سوريا التاريخية وتكون تحت الانتداب الفرنسي. وعلى الرغم من أن فيصل كان منهكا خلال أسابيع من الاجتماعات والمفاوضات المكثفة، بعد أن تخلى عنه البريطانيون، إلا أنه كان حذراً من نتائج المقاومة المسلحة، ومن الجبهة الداخلية المنهارة، إلا أن الاتفاقية لم تكن بأي حالٍ من الأحوال استسلاماً للمطالب الفرنسية، كما وافق معظم مستشاريه على شروطها، وكان الدكتور أحمد قدري استثناءً بارزاً. كان فيصل يستعد للتوقيع بالأحرف الأولى على الاتفاقية، لكن في النهاية قرر عدم القيام بذلك دون التشاور مع حكومته، وقبل معرفة مدى قبول الجمهور لها. كما كان والده قد أرسل مبعوثاً لتحذيره من التوقيع أي اتفاقيةٍ تتعارض مع الوعود البريطانية للعرب. وكان فيصل مقتنعاً بإخبار الفرنسيين أنه سيدفع من أجل قبول الاتفاقية في سوريا، وسيعود بعد ذلك إلى فرنسا للتوقيع على الاتفاقية النهائية، والتي سيتم عرضها على مؤتمر السلام.

لم تكن الاتفاقية مجرد أمرٍ فُرض على فيصل بحكم الظروف، حيث تبادل الجانبان تقديم وتلقي تنازلاتٍ مهمة، كما أشار بوضوح التقدم المحرز في المفاوضات. فقد وافقت فرنسا على عدم رفع علمها فوق دمشق، بل إنها تنازلت عن أجزاءٍ من «المنطقة الزرقاء» الواردة في اتفاقية سايكس بيكو للحكومة السورية. وكان من المقرر تعيين مستشارين فرنسيين بموجب عقودٍ يمكن إنهاؤها حسب رغبة الحكومة السورية، بشرط التعويض. لكن، وبدلاً من ذلك، سيتولى وزراء الحكومة السورية سلطاتهم المتوخاة سابقاً. كما وافق الفرنسيون على إنشاء برلمانٍ سوري، لكن دون قبولٍ صريح للمطالب العربية بضرورة أن يكون له صلاحياتٌ تشريعيةٌ واسعة. ولم يقبل جميع المسؤولين الفرنسيين بهذه الاتفاقية، معتبرين إياه إقراراً خطيراً بالمطالب العربية. ومن بين هؤلاء، على وجه الخصوص، غورو نفسه، الذي رفض فكرة أنه لا يمكن نشر القوات الفرنسية إلا في كيليكيا وليس في سوريا نفسها، بالإضافة إلى مستشاره السياسي الجديد، روبرت دي كايكس. لكن الفرنسيين غيروا موقفهم فيما يتعلق ببنود الاتفاقية بعد انتخابات 20 كانون الثاني (يناير) 1920، والتي لم يفز فيها كليمنصو بمنصب رئيس فرنسا، ووصلت حكومةٌ جديدةٌ برئاسة ألكسندر ميليران إلى السلطة، حيث كانت أقل مراعاةً لفيصل مما كان عليه كليمنصو من قبل، لكن ما كان يهم فيصل حينها هو موقف مواطنيه في سوريا، وخاصة القوميين. فقد كانت الاتفاقية بعيدةً كل البعد عن فكرة سوريا الموحدة في اتحادٍ مع دولٍ عربيةٍ مستقلةٍ أخرى، وقد تعارضت مع جميع البيانات القومية تقريباً، لا سيما تلك التي شكلت الأساس السياسي للثورة العربية: بروتوكول دمشق لعام 1915.

وفي 7 كانون الثاني (يناير) 1920، عاد فيصل إلى هذا العالم الذي تغير كثيراً، حيث غادر باريس متوجهاً إلى سوريا.

هوامش الفصل الثالث عشر

1. يوسف الحكيم، مرجع سابق، ص 70 ـ 71.

2. المملكة العراقية، مديرية الإعلام، مرجع سابق، ص 190 ـ 191.

3. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 39 ـ 40.

4. مئير زامير، فيصل والمسألة اللبنانية، ص 410. الميل الواضح نحو التوصل إلى اتفاق مع فيصل من شأنه أن يضعه على رأس اتحاد كونفدرالي لبناني ـ سوري تحت التأثير الفرنسي، مما أثار قلق الموارنة بشدة. وسأل شكري غانم كليمنصو عما إذا كانت فرنسا قد «تخلت» عن مسيحيي بلاد الشام. اعتقد روبرت دي كايكس أن فيصل كان يتعمد استغلال المناقشات التي أجراها مع كليمنصو ودي كايكس لخلق انطباع لدى مسيحيي لبنان بأن فرنسا قد تخلت عنهم. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص. 218، الحاشية 67.

5. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص71.

6. المرجع نفسه، ص ص 71 ـ 72.

7. رستم حيدر، مرجع سابق، ص403. من الواضح أن حيدر منحاز لتولات، حيث قارنه بشكل أفضل من بيساني، الذي وصفه بأنه جاهل.

8. جيمس ل. جلفين، الولاءات المنقسمة: القومية والسياسة الجماهيرية في سوريا عند نهاية الإمبراطورية، مطبعة جامعة كاليفورنيا، بيركلي ولندن، 1998، ص 28.

9. الشخصية المهمة التي انضمت إلى مخيم فيصل هو ساطع الحصر، الذي كان مسؤولاً عن شؤون التعليم. كان الحصري موظفا رفيعا ومهتما بأصول التدريس خلال الفترة العثمانية، ولكنه ظهر فيما بعد حامل أيديولوجيا القضية القومية العربية الأول.

10. ومما جعل وضعها المالي يزداد سوءً، ألغت الحكومة العربية، في محاولة منها لزيادة شعبيتها، عددًا من الضرائب والجبايات الخاصة التي تعود إلى العهد العثماني.

11. جميع الاقتباسات من خطاب فيصل مأخوذة من: أبو خلدون ساطع الحصري، يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2004، ص 106 ـ 111. تم الإبلاغ عن الخطاب على نطاق واسع، وظهرت أشكال مختلفة منه في Amin Sa'id، op. المرجع نفسه، المجلد. 2، ص 24 ـ 34، وفي المكتب الخارجي، وثائق السياسة الخارجية البريطانية، السلسلة الأولى، المجلد. IV، HMSO، London، pp.267–72.

12. كلايتون إلى كرزون، 5 يونيو 1919، في وزارة الخارجية، مرجع سابق، ص 266.

13 ـ لكن نسيب البكري ابتعد تدريجياً عن فيصل، ثم انفصل عنه فيما بعد بشأن مسألة الانتداب الفرنسي على سوريا.

14. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 264.

15. تفاقمت هذه الأمور برسالة خاصة تلقاها فيصل من رستم حيدر بتاريخ 7 آيار (مايو) 1919، كتب فيها حيدر: «كل يوم يجعلني أؤمن بشكل مكثف بآرائي الأصلية ويؤكد لي النوايا الشريرة للحكومة الفرنسية. يجب إلا نؤمن بوعود فرنسا التي تشبه العقرب». سليمان موسى، مرجع سابق. المجلد الثاني، ص 71 ـ 73.

16. كان رستم حيدر قد حذر فيصل بالفعل من تصميم قوى الحلفاء على أن يكون لها نظام انتداب، وناشده أن الدعوات إلى الاستقلال الكامل ليست غير عملية فحسب، بل قد تؤدي إلى نفور السلطات بشكل قاتل. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 264.

17. المرجع نفسه، ص 265.

18. المرجع نفسه، ص ص 287 ـ 289.

19. المرجع نفسه، ص 288.

20 ـ المرجع نفسه، ص ص 278 ـ 80؛ مذكرة بقلم العقيد ك. كورنواليس.

21. يوكا نيفاكيفي، مرجع سابق، ص 145 ـ 46؛ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص 45 ـ 46.

22. أنظر: ماري ويلسون، الملك عبد الله، بريطانيا وصناعة الأردن، مطبعة جامعة كامبريدج، كامبريدج، 1960، ص 36 ـ 38، حول عبد الله وترابة.

23. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص. 74؛ أبو خلدون ساطع الحصري، مذكّراتي في العراق، المجلد 1، منشورات دار الطليعة، بيروت، 1967، ص 112 ـ 113.

24. خيرية القاسمية، مرجع سابق، ص 108 ـ 109.

25. انتقل الكونجرس السوري فيما بعد إلى مبنى في ساحة المرجة بدمشق.

26. أسعد داغر، مرجع سابق، ص 131 ـ 132.

27. أنظر James L.Gelvin، op. المرجع نفسه، ص 82 ـ 83. كانت النخبة الحلبية على وجه الخصوص قلقة من الآثار الاقتصادية لفصل سوريا عن العراق.

28. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 414.

29 ـ كان صدق هذه المشاعر المعادية للفرنسيين مشكوكاً فيه إلى حد ما، فقد قام عدد من

النواب لاحقًا بفتح قنوات مع الفرنسيين، وسيصبح البعض مؤيدًا بشكل علني للانتداب الفرنسي على سوريا.

30. يمكن الحصول على النص الكامل للقرار في:

George Antonius، op. cit.، Appendix G، pp.440–42.

31. المرجع نفسه، ص 441.

32. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 100.

33. James L. Gelvin، op. مرجع سابق، ص 150 ـ 152.

34. هاري ن. هوارد، مرجع سابق، ص 119 ـ 123.

35. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 90.

36 ـ وقدمت فرنسا تمويلاً تكميلياً قدره مليوني فرنك للتأثير في الرأي المتذبذب لصالحها. ففي إحدى الحالات، أيد رئيس اتحاد قبائل العنزة القوي في شمال سوريا الانتداب الفرنسي مقابل مليون فرنك. أنظر مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 88.

37. المرجع نفسه، ص 134.

38. زين ن. زين، النضال من أجل الاستقلال العربي: الدبلوماسية الغربية وصعود وسقوط مملكة فيصل في سوريا، كارافان بوكس، لندن، 1977، ص 88 ـ 91.

39. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 318 ـ 20.

40. محمد عزت دروزة، مرجع سابق، ص 494 ـ 495.

41. المرجع نفسه، ص 366.

42. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 388 ـ 390.

43. المرجع نفسه، ص 385 ـ 388.

44. ولم يهتم البريطانيون كثيرًا بالبرقية التي أرسلها الملك حسين إلى الملك جورج الخامس في 9 أيلول (سبتمبر) 1919 للتعبير عن قلقه من إشاعات تقسيم الأراضي العربية.

45. فؤاد الخطيب: لبناني تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وكان من مؤسسي حزب اللامركزية. فرّ من لبنان أثناء حكم جمال باشا وانضم لاحقًا إلى الشريف حسين في مكة. وعينه حسين في وقت لاحق وزيراً لخارجية الحجاز. ثم عيّنه الحسين ممثلاً عن الحجاز لدى الحكومة العربية في دمشق.

46. اللواء جبرائيل حداد: من مواليد طرابلس وتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت. انضم إلى

الدرك المصري تحت قيادة رئيسها البريطاني، هارفي بك. ثم عينه أللنبي مساعداً لمحافظ القدس برتبة رائد بعد احتلالها من قبل قواته. وبعد احتلال جيش فيصل لدمشق، أوصى أللنبي فيصل بأن يستخدم حداد لتنظيم وقيادة قوات الشرطة والدرك في سوريا. ثم رُقي حداد إلى رتبة عميد (في الجيش البريطاني).

47. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص 101.

48. السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص 100 ـ 101.

49. خرج رستم حيدر، الذي كان حينها في باريس، مرتين للقاء قطار فيصل في باريس ولكن لسوء حظه لم يتوقف القطار في باريس. حيدر، مرجع سابق، ص 466.

50. المحضر الكامل لاجتماع 19 سبتمبر 1919 موجود في وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 395 ـ 404.

51. المرجع نفسه، ص ص 403 ـ 404.

52. المرجع نفسه، ص ص 406–407.

53. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 142.

54. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 472.

55. المرجع نفسه، ص 472 ـ 474.

56. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 81 ـ 82؛ جوزيف جيفريز، مرجع سابق، ص 306–308.

57. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 141 ـ 143.

58. المرجع نفسه، ص144.

59. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص81.

60. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 443 ـ 444.

61. المرجع نفسه، ص ص 444 ـ 449.

62. كليمنصو، مع ذلك، نسف هذه الترتيبات، ورفض الموافقة على إنشاء مثل هذه اللجنة، أو إرسال الجنرال غورو إلى لندن لبدء محادثات مع فيصل.

63. الأوقات 11 أيلول (سبتمبر) 1919.

64. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 422 ـ 424.

65. المرجع نفسه، ص491.

66. المرجع نفسه، ص ص 510 ـ 511.

67. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 482 ـ 483. كما التقى عوني عبد الهادي بولك في وقت لاحق، الذي كتب إلى حكومته يدعو إلى دعم موقف فيصل، لكن لم يسفر هذا الجهد عن شيء.

68. المرجع نفسه، ص ص 513 ـ 315؛ عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 82 ـ 84.

69. المرجع نفسه، ص 516 ـ 519.

70. المرجع نفسه، ص ص 520 ـ 522.

71. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص90.

الفصل الرابع عشر: انهيار المملكة السورية

كان الوضع في سوريا خلال غياب فيصل الذي دام قرابة أربعة أشهر في أوروبا قد أصبح أكثر توتراً واضطراباً. وقد كان زيد، الذي انتدبه فيصل لينوب عنه في الفترة الانتقالية، عديم الخبرة وغالباً ما طغت عليه جسامة التطورات المتعاقبة على البلاد وشعبها، ورسائله إلى والده وفيصل خير دليلٍ على ذلك، إذ عبَّر فيها عن مدى صعوبة استمراره في خضمٍّ تلك الاضطرابات. وقد ذهب المتهكمون الفرنسيون إلى حد القول إن كليمنصو تعمَد إبقاء فيصل بعيداً حتى يشغل السوريون الإدارة المتأرجحة للحكومة العربية تحت قيادة زيد الذي كان جاداً ولكن سيئ الحظ، حيث كان يتوق إلى المغادرة إلى كامبريدج لتلقي تعليمه الذي انقطع عنه، أو العودة إلى الحجاز في حال فشل في ذلك[1]. ولم يكن الحاكم العسكري المعتدل (علي رضا الركابي) كذلك قادراً على فرض سلطته على الفصائل التي لا تعد ولا تحصى والتي كانت تتنافس على توجيه شعور الإحباط والمرارة المتزايدين لدى العامة من الأحداث الجارية واستغلالهما. فقد فضَّل التسوية على المواجهة، ولم يكن مستعداً لمواجهة المدّ المتصاعد للقوميين المتطرفين، والمستهترين في كثيرٍ من الأحيان.

كان فيصل يدرك أن المشاعر في سوريا قد تحولَّت ضده أثناء إقامته في باريس. إذ يروي حيدر في مذكراته أن فيصل التقى بأمين التميمي لذي كان قد وصل مؤخراً من دمشق في 17 كانون الأول (ديسمبر) 1919، وقال التميمي لفيصل إن القوميين في سوريا بدأوا يشككون في دوافعه، وأن عدداً من المتطرفين يعارضون الحكومة العربية ويقوضونها. فأجاب فيصل وقد بدا عليه الغضب بوضوح، «يمكنهم التفكير كما يشاؤون ولكن ليس لديهم الحق في أن ينسبوا إليَّ النوايا السيئة أو يشككوا في إخلاصي. هل يعطونني دروساً في الوطنية؟ يا لهؤلاء المتطرفين! ماذا دهاهم كي يعتقدوا أنهم يستطيعون مقايضة قوميتهم معي؟ سأريهم ما تعنيه الوطنية!». ثم هدَّأ حيدر فيصل بتذكيره أنه حتى لو أراد المتطرفون اتباع سياساتٍ خاطئة، فإنهم سيكونون في الصفوف الأمامية ضمن الداعمين له إذا هو اختار الحرب[2].

امتدَّ الهيجان والبلبلة اللذان أثَّرا على جميع الفرقاء في سوريا ليصلا إلى تصاعدٍ في المشاعر المعادية للأشراف. وبحسب ما كتب ماينتزهاجن إلى كرزون في 2 كانون الأول (ديسمبر) 1919، «إن الشعور ضد الأسرة الشريفية كان بلا شك ينمو بقوةٍ لبعض الوقت. لقد فشلوا في استمالة

الطبقات، التي كانت ترغب فقط في الأمن بسبب عدم كفاءة الإدارة البائسة، والتشجيع، أو على الأقل التسامح الذي امتد إلى البدو... من ناحيةٍ أخرى، فإنهم ليسوا متطرفين بما يكفي بالنسبة للقوميين الأكثر حماسة وللحزب المتعنِّت في مناهضته للفرنسيين»[3]. لم يكن العداء المتزايد للقضية الشريفية قد امتد تماماً حينها ليطال شخص فيصل، ولكنه عاد إلى هذه البيئة المشحونة للغاية في كانون الثاني (يناير) 1920.

سوريا في خريف عام 1919

أصبح ياسين الهاشمي، الذي عيَّنه فيصل وزير الدفاع الفعلي للحكومة العربية، محوراً في تنظيم المعارضة ضد قرار الجلاء الصادر في 15 أيلول (سبتمبر). وقد رأى ياسين نفسه، وعلى الرغم من مناصرته المتأخر لقضية الاستقلال العربي، في الأزمة المتصاعدة فرصةً لتعزيز سلطته ومؤهلاته القومية. كما تولى قيادة الجناح العراقي لحزب العهد، وبذلك وضع تحت نفوذه المباشر عدداً كبيراً من الضباط العرب السابقين في الجيش العثماني[4]. وقام حزب العهد بشن حملةٍ دعائيةٍ مكثَّفة ضد وجود البريطانيين، وخاصةً الفرنسيين. كما انضم ياسين إلى ضباطٍ آخرين في إرسال برقيةٍ إلى وزارة الخارجية في حزيران (يونيو) للمطالبة بالتطبيق الفوري للإعلان الأنغلو ـ فرنسي الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. وبعد رحيل فيصل إلى أوروبا مباشرةً، بدأ ياسين، وبمبادرةٍ منه، بتشكيل «لجنةٍ للدفاع الوطني»، وكان قد بدأ بحملة تجنيدٍ كبيرة هدفت إلى جمع اثني عشر ألف جندي إضافي للخدمة في صفوف جيش الحكومة العربية. ولكن ألنبي سرعان ما وضع حدَّاً لذلك، وأنذر ياسين بالتوقف عن القيام بالأنشطة غير المصرح بها، لكنه امتنع عن اعتقاله كما أراد الفرنسيون[5]. وتنصَّلت الحكومة العربية من لجنة ياسين ونفت وجود أي تجنيدٍ عسكري. إلا أن التجنيد السري للميليشيات غير النظامية والجماعات السياسية المسلحة استمر. وفي 28 تشرين الأول (أكتوبر) 1919، خرجت مظاهرةٌ كبرى في دمشق نظمها القوميون، وانتهت بتسليم عريضةٍ موجهةٍ للحكومة والمندوبين الأجانب «ضد أي تسويةٍ تهدف إلى تقسيم بلادنا وحرمانها من الاستقلال وتحويل مناطقها الجنوبية الى وطنٍ لليهود»[6]. ومن باريس رد فيصل على المتظاهرين طالباً منهم التحلي بالصبر وانتظار نتائج مداولاته[7].

وفي هذه البيئة الحاضنة، حيث تنافست العديد من الجماعات المسلحة والأحزاب السياسية الراديكالية على قيادة القضية القومية، برزت شخصيةٌ جديدة لتوحيد اللجان الشعبية تحت قيادته، وهو الشيخ كامل القصَّاب، رجل الدين القادم من خلفيةٍ متواضعة والمتحدث الحماسي والمحرِّض البارع[8]. وقد ساعد في تنظيم «اللجنة الوطنية العليا»، وهي منظمةٌ نشأت في ختام سلسلة اجتماعاتٍ عقدتها شخصياتٌ وطنيةٌ في دمشق[9]، واختارت كل دائرةٍ من دوائر دمشق

الثماني والأربعين أربعة نوابٍ اجتمعوا في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) 1919 في منزل رئيس مجلس بلدية دمشق[10]. وخاطب القصاب الحضور وقدَّم الى التجمع بيان اللجنة الوطنية العليا. ثم أقنع جميع الحاضرين بالتوقيع على ميثاقٍ يلزمهم باتباع مسارٍ قومي يرفض كل الحلول الوسط وأنصاف الحلول لمطالب الاستقلال. ومن الوارد أن فيصل نفسه شجع القصاب على هذا الفعل، فبحسب الكاتب والصحفي محب الدين الخطيب، الذي كان حينها رئيس تحرير جريدة الحكومة العربية «العاصمة»، فقد أعطى فيصل تعليماتٍ لعددٍ من الشخصيات قبل مغادرته إلى أوروبا لبناء قدرات الجيش. وكان فيصل قد أخبر القصاب أيضاً بأنه «توقَّع منه [القصاب] ومن رفاقه الوطنيين أن يبدأوا تحركاً شعبياً لتحويل الشعب إلى شعبٍ مسلح... ولتحويل الأمة إلى ثكنةٍ عسكرية»[11]. وبدأت المنظمة بقبول المتطوعين وتدريبهم في مخيماتٍ مختلفة بتمويلٍ من الداعمين الأثرياء. وكان التدريب اعتباطياً بحيث أن بعض المتطوعين سرعان ما فقدوا حماسهم وغادروا، بينما عارض آخرون الانضباط العسكري وغالباً ما تمردوا على أوامر ضباطهم. ومع ذلك، كانت اللجنة مقبولةً على نطاقٍ واسعٍ لدى الرأي العام. وأعطتها القيادات الدينية البارزة في دمشق، مسلمين ومسيحيين، مباركتها، بل وحضروا بعض اجتماعاتها. وقد أدت دوراً مهماً في رفع الوعي العام بشأن الحاجة إلى الاستعداد للدفاع عن البلاد إذا لزم الأمر[12].

وأثناء وجوده في باريس، كان فيصل على اطلاعٍ دائم على التطورات في سوريا، لا سيما من خلال البرقيات المنتظمة من زيد، وكذلك من المسافرين والمبعوثين وتقارير الصحف. وفي أوائل تشرين الثاني (نوفمبر)، أرسل نوري السعيد إلى سوريا لاطلاع قادتها على التطورات في أوروبا، وخاصةً تداعيات الاتفاق الأنغلو ـ فرنسي. كما تم تكليف نوري بالتحقق من حالة الرأي في سوريا ومدى استعداد البلاد للنهوض في مواجهة السيطرة الفرنسية. والتقى نوري بمعظم الشخصيات البارزة في البلاد وانقسمت الآراء. فقد وقفت أغلبيةٌ بقيادة الضباط الأصغر سناً مثل يوسف العظمة بحزم ضد الانتداب الفرنسي، ووعدوا بمقاومته بالقوة إذا لزم الأمر. بينما سعت أقليةٌ، نشأت حول علي رضا الركابي، إلى شكلٍ من أشكال التسوية وأقامت حجتها على عدم التوازن بين القوات العربية والفرنسيين، لا سيما بعد أن سحب البريطانيون دعمهم من السوريين. ثم عرض زيد، الذي كان قد حضر هذه الاجتماعات، إحالة الموضوع برمته إلى المؤتمر السوري.

وبحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، أصبح ياسين زعيم المتطرفين بلا منازع. وكتب ماينرتزهاجن: «من المعروف الآن أن ياسين باشا، العقل القيادي في سوريا، يتواصل مع مصطفى كمال، حيث يهدف ياسين إلى إعادة الحكم التركي في سوريا، ليس على أسسٍ وطنيةٍ أو قوميةٍ عربية، بقدر ما هو على أساس النفوذ الشخصي... ليس هناك من شك في أن تأثير ياسين في الوقت الحاضر قد حلَّ محل التأثير السيئ والأكثر اعتدالاً ومنطقيةً لفيصل، وهو الآن يستتبع معه

الجيش وغالبية الشعب. بل إنه من غير المؤكد الآن ما إذا كان فيصل قادراً على تولي السيطرة على إدارةٍ لا بد لها من أن تتحرك مع الرأي العام أو تزول»[13]. وبات البريطانيون قلقين للغاية من مناورات ياسين على السلطة، خاصةً بعدما أخفق في الاستجابة لتحذيراتهم بعدم تعزيز قوات الحكومة العربية في سهل البقاع. فهو الآن لا يهدد وحسب المواقف والسياسات البريطانية والفرنسية في الشرق الأدنى، بل يهدد أيضاً حليفهم المفترض، فيصل، ومطالبته بحق السيادة على سوريا. علاوةً على ذلك، أضافت اتصالات ياسين المتزايدة مع القوميين الأتراك ومصطفى كمال بعداً خطيراً آخر لصعوده. كما أن تدخله في الشؤون العراقية، من خلال تنظيم الضباط العراقيين والمساعدة في إثارة المقاومة ضد الحكم البريطاني، جعله مبغوضاً لدى البريطانيين. وكل هذه العوامل كانت أكثر من كافيةٍ لحسم مصيره. وفي 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، دُعي ياسين لتناول الشاي في مقر القيادة البريطانية في دمشق. وهناك تم اختطافه ووضعه في سيارةٍ مصفحة ونقله إلى فلسطين، حيث تم نقله من مكان إلى آخر، كونه لم يكن مسجوناً تماماً، ولكن بالتأكيد ليس حراً، حتى سُمح له أخيراً بالعودة إلى سوريا عبر مصر في أوائل أيار (مايو) عام 1920[14].

أدى اعتقال ياسين إلى اندلاع مظاهراتٍ كبيرةٍ في دمشق وإغلاق جميع المحلات التجارية ليومٍ واحد احتجاجاً على ذلك. وفي يوم اعتقاله، كان المؤتمر السوري قد اجتمع لسماع الركابي يلقي خطاباً معتدلاً بشأن الواجبات الرئيسة للحكومة العربية، ويصيغه بعباراتٍ استرضائية للفرنسيين. ترك الخطاب انطباعاً سيئاً لدى المندوبين الذين كانوا مهتمين أكثر بكثير بإصدار أو سماع بياناتٍ رنَّانة حول الاستقلال وواجبهم في النضال من أجله. اجتمع المؤتمر السوري مرةً أخرى في 24 تشرين الثاني (نوفمبر)، وأعاد التأكيد على الالتزامات التي قطعها على نفسه أمام لجنة كينغ ـ كرين فيما يتعلق باستقلال سوريا وإقامة ملكية دستورية. لم يكن إعلان استقلال بل استعداداً لمثل هذا الاحتمال. وبحلول نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، عندما كان البريطانيون يضعون اللمسات الأخيرة على انسحابهم من سوريا، كانت حمّى الحرب قد انتشرت في دمشق، حتى أثرت على زيد نفسه. فقد تعمَّد الفرنسيون في بيروت منع برقيةٍ مهمةٍ من فيصل إلى زيد يبلغه فيها بتفاصيل اتفاقه مع كليمنصو في وادي البقاع. وتُرك زيد جاهلاً بحقيقة الوضع. فكان متذبذباً بين الاستعداد للحرب والتوجيه بالاعتدال بشأن القوميين الأكثر تشدداً. وفي نهاية المطاف، عضَّ على جرحه وواجه المتطرفين مباشرة. وأمر بإرجاء انعقاد المؤتمر السوري، على أن ينعقد مرةً أخرى عندما ترغب الحكومة في ذلك، على الأرجح بعد عودة فيصل[15].

في غضون ذلك، كان غورو قد وصل إلى بيروت في 18 تشرين الثاني (نوفمبر). وكان المفوض السامي الجديد وقائد جميع القوات الفرنسية في بلاد الشام مصمماً على بسط النفوذ

والسيطرة الفرنسيين على كامل التراب السوري. واختار غورو، الذي لم يكن لديه ثقةٌ كبيرةٌ بفيصل كحليفٍ محتملٍ لفرنسا، تجاهل الاتفاقية التي تم التوصل إليها بين فيصل وكليمنصو، وبدأ بالضغط على الحكومة العربية في دمشق للقبول بنشر القوات الفرنسية في الأقضية الأربعة التي تشكّل سهل البقاع[16].

سارعت الحكومة العربية إلى إيفاد نوري السعيد للقاء غورو ومحاولة إبرام صفقةٍ معه لا تسفر عن صدامٍ عنيف بين القوات الفرنسية التي تتقدم لتحل محل القوات البريطانية المنسحبة وقوات الحكومة العربية الموجودة أساساً في وادي البقاع. لكن غورو تمكَّن من نوري، الذي وافق على عقد صفقةٍ تتعارض مع تسوية فيصل ـ كليمنصو بشأن البقاع وأعطى غورو كل ما يريده تقريباً. غضب فيصل، عند سماعه بالنبأ، مما فعله نوري، إلى درجة أنه اتهمه بالخيانة بتعامله مع الفرنسيين[17].

وفي الخلاصة، فقد مُنحت فرنسا وجوداً عسكرياً في وادي البقاع، في حين دعت تسوية فيصل ـ كليمنصو إلى تجميد الوضع حتى يبتَّ مؤتمر السلام في الأمر. لكن غورو دفع إلى ما هو أبعد من التنازلات التي وافق عليها نوري. ففي المعلّقة، سرعان ما استُبدلت القوات العربية المنسحبة بقوةٍ فرنسيةٍ كبيرة، خلافاً لما نصت عليه الاتفاقية بين غورو ونوري. ثم نزلت الغوغاء من بلدة زحلة ذات الغالبية المسيحية، على أطراف سهل البقاع، وأثارت أعمال الشغب والنهب ودنَّست أحد المساجد[18]. وبدأ رد فعلٍ مضاد حيث أُجبرت العائلات المسيحية على الفرار إلى الساحل. وتعرض مركز مرجعيون الإقليمي المهم في جنوب لبنان للحصار، وظهرت عصاباتٌ مسلحة في كل مكان، بعضها ركَّز غضبه على الفرنسيين، بينما كان البعض الآخر مجرد قطاع طرق. وفي بعلبك، أكبر بلدةٍ في سهل البقاع، هاجمت مجموعةٌ من المسلمين الشيعة ضابطاً فرنسيا مما أجبره على الفرار إلى زحلة. وطالب غورو الحكومة العربية بتقديم اعتذارٍ رسمي، مشتبهاً في ضلوعها بهذا الحادث. ونظراً لعدم تلقيه ذلك الاعتذار، أمر ثلاثة آلاف جندي فرنسي باحتلال البلدة، في انتهاكٍ واضحٍ لاتفاقه مع نوري. وسادت ظروفٌ فوضويةٌ في العديد من المناطق وبدأ مناخٌ من الخوف وغياب القانون يسيطر على البلاد[19].

بدأ ائتلاف الطبقة السياسية في سوريا، الذي بدا ظاهرياً في الأيام الأولى للحكومة العربية، في التنازع، وازدادت حدة الانقسامات بين أولئك الذين سعوا للتوافق مع فرنسا وأولئك الذين طالبوا بالاستقلال التام. وكان للراديكاليين اليد الطولى في هذا النزاع، خاصةً بعد أن بدأت أنباء اتفاقية فيصل وكليمنصو ترشح إلى سوريا. حيث لم تكن الشروط الأفضل التي حصل عليها فيصل من كليمنصو تعني الكثير للراديكاليين، الذين رأوا في الاتفاقية استسلاماً للمطالب الفرنسية وتراجعاً جذرياً عن أهداف الحركة القومية. أبرق زيد إلى فيصل في 1 تشرين الثاني (نوفمبر)

قائلاً: «الثورة على الأبواب... هناك استياءٌ عميق [من الاتفاقية]»[20]، ونشأت فجوةٌ بين القوميين المتطرفين وفيصل، ذهب البعض إلى حد اتهامه بالخيانة. وصبُّوا جام غضبهم حينها على الركابي المهادن والحذِر[21]. وتصاعدت الضغوط عليه للاستقالة، لكنه قاوم. وكتب لزيد أنه «لا يستطيع اتباع السياسات الانقسامية للأفراد المستهترين» الذين قد يقودون البلاد إلى الخراب. وفي 10 كانون الأول (ديسمبر)، وبعد اجتماعٍ حاد مع زيد ومستشاريه، تم دفعه إلى لاستقالة[22]. وكان من اللافت أن الركابي قدّم استقالته إلى زيد وليس لرئيسه الفخري، ألنبي، في إشارةٍ إلى أنه كان يقرُّ على الأقل بوضع سوريا المستقل.

عيَّن زيد حينها العقيد مصطفى نعمة رئيساً للإدارة العسكرية، ويوسف العظمة رئيساً للمجلس العسكري. وسرعان ما أفسح تبجُّح نعمة بالقومية الطريق أمام ظهور الحقائق المؤلمة للسلطة حيث واجه اختلالاتٍ حادة بين الموارد التي كانت تحت تصرف الفرنسيين وتلك الخاصة بالحكومة العربية. ومع ذلك، بعد أيامٍ قليلة، أصدر مجلس الوزراء أوامره بالتعبئة العامة لأن «القوات المتطوعة لم تكن كافيةً لإرساء النظام بعد انسحاب البريطانيين... ولم تكن الأموال متاحةً لدفع أجور الجنود المتطوعين بالكامل»[23]. وقد استهوى الأمر مطالب القوميين بالاستعداد لمواجهة الفرنسيين، لكن الدعوة العامة للتجنيد الإجباري فشلت فشلاً ذريعاً في رفع الجهوزية العسكرية للحكومة العربية. إذ أمكن للأفراد الأثرياء شراء إعفاءهم من الخدمة العسكرية بالمال، وكان الحصار المُطبِق على سوريا سيعني أن الأسلحة والذخيرة والإمدادات ستكون شحيحةً للغاية بالنسبة للجيش. وقد كانت الحكومة العربية بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الأموال، حيث تم ايقاف الإعانة البريطانية، وقاوم الفرنسيون بالطبع إجراء أي تحويلاتٍ كبيرةٍ إلى خزائنهم[24].

كانت حالات الفرار وسوء الانضباط وانخفاض الروح المعنوية مستشريةً في الجيش العربي، وكان الرأي السديد يدرك أنه لا يضاهي الفرنسيين، فقد بلغ تعداد أفراده نحو سبعة آلاف، من إجمالي العدد المسموح به البالغ ثمانية آلاف، وكان مُسيطرٌ عليه بشكلٍ زائدٍ، خاصةً من العراقيين. وكان المجندون يتقاضون رواتب مزرية لا تتعدى 3 جنيهات إسترلينية شهرياً، وغالباً ما كانت لا تُدفع لهم لأسابيع متتالية[25]. كان وادي البقاع الحيوي تحت إمرة أحد المحاربين القدامى في الثورة العربية، علي جودت(*)، الذي كان يعِدُّ قواته لمواجهة الفرنسيين. لكن نعمة لم يكن يرسل له أي تعزيزات، فقد كان للضباط في الجيش العربي غايةٌ أخرى وهي تدريب فرق الفدائيين وتسليحها وتقديم الدعم اللوجستي لها، وقد أُنشئت لمناوشة الفرنسيين ومواجهتهم. وقد كانوا مدعومين في هذا من قبل اللجنة، التي ساعدت أيضاً قوات الفدائيين بشكلٍ مستقل،

(*) المقصود هو: علي جودت الأيوبي، سياسي عراقي من الموصل، تولى رئاسة الوزراء ثلاث مرات بين عامي (1934 ـ 1957). (المُراجع).

وكذلك من قبل الأحزاب السياسية، لا سيما حزب الفتاة[26]. وبحلول كانون الأول (ديسمبر) 1919، كان الفدائيون ينشطون على طول المنطقة الحدودية بأكملها بين OETE التابعة للحكومة العربية وOETW التي تسيطر عليها فرنسا. كما انتشروا في لبنان وفي مناطق متباعدة حتى اللاذقية على الساحل السوري وأنطاكية. وكانت بعض هذه العصابات مدفوعةً أيضاً باللصوصية. وبالعموم، قدّم الفرنسيون لأنفسهم مبرراتٍ وافية للتنديد بالحكومة العربية لدعمها السري للجماعات المسلحة وللترويج لعصاباتهم المسلحة المتحالفة مع فرنسا في مواجهة الحكومة العربية.

وفي مناطق أخرى من سوريا، كان البريطانيون هم المستهدفون من الفرق القومية والمجموعات القبلية المسلحة. ففي دير الزور وفي منتصف كانون الأول (ديسمبر) 1919، على الحدود التي لم يتم ترسيمها حتى ذلك الحين بين سوريا وبلاد الرافدين، احتلت المدينة عصابةٌ قبلية بقيادة الشيخ الصغير رمضان المدينة، وأخذت حامية بريطانية الصغيرة كرهينة. وكان شلش يتصرف بموجب تعليماتٍ سابقة من ياسين، وكذلك بأوامر سريةٍ من زيد لتعبئة العشائر[27]. وقد دبَّر الخطة جمعية العهد العراقية كبادرةٍ لثورة أوسع في سوريا والعراق. ونأى فيصل، الذي كان لا يزال في باريس، بنفسه عن الهجوم، وأصدر بياناً ندد فيه بالعملية، واصفاً إياها بأنها انتهاكٌ لروح التحالف بين الحركة العربية وبريطانيا[28]. تم نزع فتيل الأزمة حين اتفق البريطانيون مع جعفر باشا العسكري، حاكم حلب آنذاك، على الانسحاب رسمياً من المدينة، لكن صدى «انتصار» شلش تردد في جميع أنحاء البلاد. وعلى الرغم من قبول لندن رسمياً لمناشدات فيصل بأنه لم يكن متورطاً في الهجوم، إلا أن الشعور الذي ظل سائداً بين المسؤولين البريطانيين في بلاد ما بين النهرين هو أن فيصل كان وراء الهجوم.

وقد أُضيف عنصرٌ آخر غير متوقع إلى الاستقطاب الخطير الذي كان يحدث في سوريا بحلول نهاية عام 1919. فقد أدت المقاومة التركية ضد مزاعم الحلفاء وتعاون فلول الحكومة العثمانية إلى نمو حركة مقاومةٍ وطنيةٍ قوية بقيادة مصطفى كمال. واستنفد صراع القوميين الأتراك ضد الفرنسيين في قلقيليا معظم قوة غورو القتالية. وفي الوقت نفسه، كانت قنوات الاتصال تنفتح بين القوميين الأتراك والحكومة العربية ومختلف الجماعات العربية الراديكالية. كما انحرف الرأي العام بشدةٍ لصالح الأتراك، وكان جلياً عودة المشاعر المؤيدة لتركيا في كل مكانٍ في سوريا. استغل مصطفى كمال ذلك بمهارةٍ في دعايته الهادفة إلى تقويض الفرنسيين في سوريا عبر اللعب على المشاعر القومية الإسلامية وتصوير الحرب ضد الفرنسيين على أنها صراعٌ عربيٌ تركيٌ مشترك ضد الهيمنة الأوروبية. وكان فيصل نفسه متردداً إزاء هذه العلاقات مع الأتراك. فمن ناحيةٍ، كان يشعر بالقلق من أنه إذا تم ملاحقتهم، سيتم اكتشافهم من قبل البريطانيين وسيفقد

دعم حليفه الأثمن. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن نجاح القوميين الأتراك والشعبية الواضحة للسياسة المؤيدة لتركيا، إذا ما اتبعتها الحكومة العربية، ستساعده في صراعه مع الفرنسيين[29].

فيصل والقوميون

كان فيصل قد غادر أوروبا من ميناء طولون على متن السفينة الحربية الفرنسية فالديك روسو. ووصل إلى بيروت في 13 كانون الثاني (يناير) 1920 وقد استُقبِل بحفاوةٍ في حفل استقبالٍ رسمي لكبار الضباط الفرنسيين بقيادة الجنرال دي لا موت، نائب غورو. وبعد أن التقى بأتباعه والمهنئين في مقر الحكومة العربية في بيروت، استضافه في المساء الجنرال غورو على مأدبةٍ فاخرةٍ في حديقة بلدية بيروت. ومشى غورو بوضوحٍ بضع خطواتٍ متقدماً على فيصل، لإقناع الجمهور بتفوق مكانته بلا شك[30]، ولكن أموراً أخرى كانت تشغل ذهن فيصل غير مظهريات غورو. فقد كان فيصل يبذل جهوداً لإقناع الوفود التي جاءت لزيارته بالتزامه بالاتفاق الذي توصل إليه مع كليمنصو. وكانت الشروط أفضل ما يمكن الحصول عليه، وسيقوم، أي فيصل، بالتشاور مع أعيان البلاد وقيادتها السياسية قبل العودة إلى مؤتمر السلام والتوقيع على الوثيقة النهائية. ومع ذلك، كان هناك شعورٌ خفيٌ بالقلق بشأن شروط اتفاقية فيصل وكليمنصو ظاهرٌ بالفعل في بيروت، كمقدمةٍ لما كان يتوقعه فيصل في دمشق. فقد أعرب أعضاء حزب الفتاة الذين التقى بهم عن هواجسهم الكبيرة من الاتفاق.

وصل فيصل إلى دمشق في 16 كانون الثاني (يناير) 1920، بعد رحلته من بيروت إلى دمشق وهو يقود سيارته عبر وابلٍ من أمطار الشتاء. وهناك استقبلته حشودٌ كبيرة، لكنهم كانوا أكثر تحفظاً مما كانوا عليه خلال عودته المظفرة السابقة. وفي اليوم التالي، نظَّمت اللجنة[*] والنادي العربي مظاهرةً كبيرة، وعلى الرغم من أنها كانت تدعم فيصل ظاهرياً، إلا أنها عكست أيضاً القلق السائد بشأن الاتفاقية. وخاطب فيصل الحشود مباشرةً داعياً إلى الوحدة والهدوء. ولقي خطابه استحساناً، لكنه كان يعلم أن الاتفاقية التي وقعها بالأحرف الأولى كانت بعيدةً كل البعد عن أن تكون مقبولةً لدى شريحةٍ واسعةٍ من الرأي العام. وتناول فيصل مباشرةً في حديثه المطوَّل الذي ألقاه أمام النادي العربي بعد عشرة أيام، موضوع قيادته للقضية العربية. وقد سبقه عبد الرحمن الشهبندر الذي ألقى خطاباً قومياً حماسياً. ففيصل لم يكن خطيباً حماسياً، وغالباً ما كان يتوقف مطولاً أو يتردد أثناء استرساله في الكلام. ومع ذلك، فقد عقد العزم على أخذ زمام المبادرة. فقال: «أنا لست خائفاً من قوة الحكومات أو التكتلات السياسية، بل فقط من حكم

(*) يبدو أن المقصود بـ(اللجنة) هي اللجنة المركزية أو التأسيسية لحزب الفتاة السوري المناصر لفيصل، والذي تشكّل أواخر عام 1919. (المُراجع).

التاريخ، وأن يقول الناس في المستقبل إن فلاناً تصرف بطرقٍ لم تكن مناسبةً لأسلافه الذين عملوا من أجل الاستقلال... يجب أن يعرف الشعب أنني كنت نفس الشخص في الغرب... لم أغيّر آرائي سواءً أمام السياسيين أو حتى في أقسى الظروف. كان مبدئي دائماً هو استقلال بلدي وإعادة مجدنا المسروق... والله شاهدٌ على أنني عملتُ من أجل هذا. فلا أحد يرغب في رؤية الأجنبي مُتسيِّداً علينا... الجميع يشعر وكأنه واحدٌ في المطالبة بالاستقلال التام»[31]. لكنه استطرد بعد ذلك ليذكِّر جمهوره بأن الحكومة العربية لم تحظى باعترافٍ دولي، وأنها نهوضها أو سقوطها كان يعتمد على قوة دعمه الشخصي لها، حتى تم إرساء أساسٍ رسمي لشرعيتها. «أنا روح الحركة والشعب باعتماده على الحكومة فإنه يعتمد علي. وحتى تسنح الفرصة ونشكل مجالسنا الخاصة التي يمكن للناس الاعتماد عليها، لن أسمح [بانتقادٍ لا مبرر له] للحكومة. أنا الشخص المسؤول حتى يتم انتخاب مجلسٍ وطني، وعندها سأتخلى عن مسؤولياتي وأسلمها إلى الشعب»[32].

لم تكن مهام فيصل الفورية تقتصر فقط على استعادة ثقة العامة في قيادته وأهدافه، ولكن أيضاً على إعادة تأكيد سلطته على الحكومة. كانت شؤون البلاد قد انحرفت بشكلٍ خطير أثناء غيابه، وهو الآن يتولى مهمة إعادة تنظيم الحكومة. فتمت إقالة عددٍ كبيرٍ من كبار المسؤولين وتم إضفاء الطابع الرسمي على دور زيد كرئيسٍ تنفيذي، ومسؤولٍ عن الشؤون الإدارية الروتينية. وعاد الركابي إلى الحكومة كرئيسٍ للشؤون العسكرية، وكان قد التقى بفيصل بعد أيامٍ قليلةٍ من عودة الأخير، وقدَّم روايته للأحداث التي أدت إلى استقالته. بدا فيصل مقتنعاً بتفسيرات الركابي. وعلى أية حال، فقد أراد فيصل تأثير الركابي المعتدل في مجلس الوزراء جزئياً كثقلٍ موازنٍ ليوسف العظمة، الذي تم تعيينه كرئيس أركانٍ للجيش[33]. وتولى عبد الرحمن اليوسف، الشخصية العامة البارزة في دمشق، رئاسة مجلس الشورى. وكان اليوسف وغيره من الوجهاء قد انحرفوا نحو فيصل جزئياً كرد فعلٍ على تنامي نفوذ القصاب ولجنته. لكن إعادة تنظيم الحكومة كان لا يزال طريقاً طويلاً في سبيل استعادة المبادرة السياسية، ناهيك عن السيطرة على الوضع السياسي.

أصبح القوميون المتطرفون الآن أكثر وضوحاً وأجندتهم السياسية ترفض رفضاً قاطعاً سياسات فيصل التصالحية والبراغماتية. وكانت لا تزال هيبة فيصل والدعم المحلي والدولي الذي يحظى به يؤكدان له مكانته في قمة المشهد السياسي السوري، لكن الراديكاليين لم يرغبوا بالسماح له بهامشٍ مطلقٍ في صنع السياسة. ولم يكن جوهر الانقسام بين فيصل والراديكاليين يتعلق بمسألة السعي من أجل الوحدة والاستقلال ـ فقد كان هناك اتفاقٌ بالفعل على هذا الهدف ـ بل بالأحرى فيما يتعلق بالوسائل التي يمكن من خلالها تحقيق ذلك. وقد انقسم الرأي بالتحديد حول ما إذا كانت الحكومة العربية تملك الوسائل ـ المالية والدبلوماسية، ولكن قبل كل شيء العسكرية ـ

لمواجهة الفرنسيين. فلم يعتقد أحد جدياً أن فيصل أو أنصاره سعوا للانتداب الفرنسي لذاته. حيث كان المعتدلون يعملون من أجل تسويةٍ تلبي كلاً من الأهداف متوسطة المدى للوحدة والاستقلال، بالإضافة إلى هدفٍ يمكن تحقيقه بشكلٍ واقعي. أما الراديكاليون فقد استقروا بالفعل على موقفٍ متطرف برفض أي مزاعم فرنسية واللجوء إلى العمل العسكري إذا لزم الأمر. وقد تأثروا بالتأكيد بالضعف النسبي للموقف العسكري الفرنسي في سوريا، نظراً لأن معظم القوة القتالية لغورو كانت مرتبطةً بالحرب في كيليكيا (قيليقيا). فكان الشعور بأن الجيش النظامي للحكومة العربية، المدعوم من فرق الفدائيين، يمكن أن يجعل الموقف الفرنسي واهياً[34]. وقد اعتبر قوميون آخرون أن المواجهة مع الفرنسيين ضروريةٌ حتى لو أدى ذلك إلى هزيمةٍ عسكرية، وذلك لضرورة الحفاظ على شرف وكرامة الشعب السوري والتزامه بقضية القومية العربية.

وعلى كل حال، فقد كان هناك القليل من الشك في أن الصفقة التي أبرمها فيصل مع كليمنصو كانت مشبوهةً ولا تحظى بشعبيةٍ كبيرة. وحتى المعتدلين اعتبروها مرَّةً كمرار العلقم، وقليلون هم من سيدعمون شروطها علناً. وفيصل نفسه أشار إلى تلك الاتفاقية بهذه العبارات. «الاتفاقية كانت مقيتةً إلى حدٍّ كبير بالنسبة له [فيصل]، ولن تحظى بشعبيةٍ لدى شعبه، لكن موقف السلطات البريطانية لم يُبقي له أي خيارٍ وقد تم تسليمه مُقيَّد الأقدام والأيدي إلى الفرنسيين»، جاء ذلك في رسالةٍ منماينرتزهاجن. أوردت فيها عن لقاءٍ في بيروت بين فيصل والعقيد ووترز تايلور، ضابط الاتصال البريطاني لدى غورو[35]. حاول فيصل لكنه فشل في إقناع قيادة حزب الفتاة، الذي من المفترض أن يكون أكثر لِيناً بعد اعتقال ياسين الهاشمي، لدعم اتفاقه مع كليمنصو. ففي أوائل شباط (فبراير) 1920 دعا فيصل اللجنة المركزية لحزب الفتاة إلى اجتماعٍ عرض فيه تفاصيل الاتفاق، «هذه أفضل [صفقةٍ] أمكنني الحصول عليها. لا شك في أن إثارة القضية السورية في مؤتمر السلام وفي عصبة الأمم سيعمل لصالحنا، وإن جهودي في هذا الصدد ستحقق النجاح.» لكن أعضاء اللجنة المركزية كانوا مصرِّين على أنه كان من الأفضل المخاطرة بالحرب مع فرنسا وبريطانيا بدلاً من أن ينتهي بهم الأمر كمحميةٍ بائسة مثل تونس والمغرب[36]. ومع هذا القدر من المعارضة، على الأقل في العلن، بدأ فيصل في إعادة النظر في التزامه بالاتفاقية، وزِد على ذلك حينها خروج كليمنصو، الطرف الآخر فيها، من السلطة والحالة المزاجية لحكومة ميليراند الجديدة التي لم تكن مستعدةً للتسوية مع القوميين العرب. ومع ذلك، شعر فيصل بالفعل أن الاتفاقية مع كليمنصو كانت أفضل ما يمكن أن يتوخاه، وربما شكلت الأساس لتسويةٍ مقبولةٍ مع فرنسا. وفي السنوات اللاحقة، كان يتذكرها على أنها فرصةٌ ضائعةٌ على العرب. ويقول الشهبندر في مجلة المقتطف المصرية عام 1933: «بقي فيصل ثابتاً على احترامه للاتفاقية. وذكَّر

[الشهبندر] بها عام 1926 في بغداد بعميق الأسف... وباطِّراد عندما قارنها بالوضع الرهيب الذي كانت قد انحدرت إليه سوريا منذ ذلك الحين»[37].

كان فيصل يحاول توجيه سفينة الدولة داخل دوَّامة هذه التيارات السياسية. فقد أخذ الاستقطاب بين الفصائل، التي توصف مجازاً بأنها راديكاليةٌ ومعتدلة، حينها طابعاً طبقياً معيناً. وبدأت العائلات العريقة البارزة في دمشق، التي شعرت بالغربة عن الجماعات الشعبوية وبخطر صعودها، في تنظيم نفسها من خلال تشكيلٍ سياسيٍّ منفصل. وقد حرَّض فيصل على تأسيس هذا الحزب وتولَّى صديقه القديم نسيب البكري زمام المبادرة في هذا الصدد، حيث أسَّس الحزب القومي السوري كثقلٍ موازنٍ للجنة واللجان الشعبية الأخرى. وسمح فيصل لقريبه شريف ناصر بالانضمام إلى اللجنة التأسيسية للحزب[38]. وقد توقَّع بالتأكيد الاستفادة من تشكيله، لأنه قد يكون حليفاً مفيداً ضد الراديكاليين. فقد ازداد فتوراً بشكلٍ ملحوظ تجاه اللجنة منذ عودته، حيث رأى في المظاهرات التي نظَّمتها تهديداً مبطَّناً لسلطته. ولكن ومن خلال العمل على فرضية أنه من الأفضل إبقاء أعدائك قريبين منك، وافق على تولِّي منصب الرئيس الفخري له. فقد كانت إحدى الوسائل لإبقاء الراديكاليين تحت المراقبة والحفاظ على قدرٍ ضئيلٍ من المصداقية معهم، لكنها انطوت على مخاطر.

فتحت ارتباطات فيصل مع المنظمات المتطرفة، على الرغم من كونها رسميةً ومحدودة، الباب على اتهامه بأنه كان متواطئاً مع المتطرفين ومرتكبي أعمال العنف. ولكن الأمر الأكثر إدانةً له هو أنه كان سيُنشئ سمعةً غير مبرَّرة بأنه مراوغٌ ومستعدٌ للتعامل مع الجميع بتنوع انتماءاتهم لتحقيق غاياته. وفي واقع الأمر، كان من المستحيل على فيصل أن يختار جانباً على الآخر دون المساومة على برنامجه وحريته في العمل، إذ كان عليه أن يحافظ على مكانته باعتباره فوق الصراع في دمشق، وأن يشارك القوميين هدفهم في الاستقلال التام، ولكن في الوقت نفسه أن يخفِّف من هذه المطالب ببراغماتيةٍ لا غنى عنها وإدراكٍ للتداعيات الدولية على القضية السورية. كما أدرك فيصل أيضاً أنه كان عليه أن يتعامل مع التوترات الاجتماعية الناشئة داخل الطبقة السياسية السورية الجديدة، وخوف الوجهاء والمكونات الموجودة على الأرض من تنامي قوة الجماعات الشعبوية. كانت مكانته الاجتماعية الخاصة ستدفعه باتجاه الجماعات العريقة الموجودة على الأرض والأعيان، لكنه كان دخيلاً ولم يكن ملائماً للتسلسل الهرمي الاجتماعي فيها. كان جزءٌ من أصدقائه وحلفائه في سوريا ينحدرون من هذه الطبقة، لكن كان لديه العديد من الأشخاص الآخرين الذين كانوا إما من خلفياتٍ أكثر تواضعاً، أو كانوا، مثله، غرباء. وكانت المجموعة الأخيرة، لا سيما الفيلق الكبير من الضباط العراقيين الذين كانوا قد استُقطِبوا لخدمة الحكومة العربية، تشكل قوةً هائلةً في حد ذاتها. كانت إدارة هذا الطيف المعقد من الجماعات

والقوى في ساحةٍ سياسيةٍ مضطربة، تكتنفها الضغوطات من جميع الجهات ـ من البريطانيين، والفرنسيين، والأتراك تحت قيادة مصطفى كمال، والاقتصاد المحلي المتدهور بشكلٍ خطير، وغياب القانون، والعصابات المسلحة المتنقِّلة، ولأزمات المالية الحادة ـ تمثل مهمةً عسيرة. وإضافةً إلى بحر المشاكل هذا، كان على فيصل حينها أن يتعامل مع هجمات والده التي تكاد تكون مبطَّنة على سياساته. ففي أوائل شباط (فبراير) 1920، أرسل حسين برقيةً إلى صحيفة الأهرام المصرية، يندد فيها بأي شخصٍ (أي فيصل) تفاوض على التخلي عن حق العرب في الاستقلال الذاتي. وهذا بالطبع كان يخدم مصالح الراديكاليين في دمشق، فنزلت الوفود إلى مقر فيصل مطالبين إياه بتبنِّي تصريحات والده، إلا أنه ردَّهم خائبين، رافضاً أي انتقادٍ لمصداقيته القومية ومؤكداً على التزامه بسياساته الخاصة[39].

هنري غورو

لم ترُق ليبرالية كليمنصو للحزب الاستعماري، الذي كان يشك في رعاية كليمنصو للمصالح الاستعمارية الفرنسية في بلاد الشام. فقد كان الحزب الاستعماري يتمحور حول لجنة ليون للمصالح الفرنسية في سوريا، وهي تجمُّعٌ بقيادة غرفة تجارة ليون وبدعمٍ من المصالح الثقافية اليسوعية في لبنان. وكانت اللجنة عاقدة العزم على عدم التنازل عن مطالب فرنسا في بلاد الشام واستثماراتها الضخمة في لبنان. لذلك كان من المفاجئ تعيين كليمنصو للجنرال هنري غورو في تشرين الأول (أكتوبر) 1919، كمفوضٍ سامي جديد في سوريا ولبنان وكقائدٍ للجيش الفرنسي في بلاد الشام. كان غورو كاثوليكياً متديناً وكانت حياته المهنية المبكرة مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بتوطيد سيطرة فرنسا على غرب إفريقيا. كما خدم في المغرب تحت قيادة الحاكم الاستعماري الفرنسي العظيم مارشال ليوتي. وخلال الحرب العالمية الأولى، كان قد خدم كقائدٍ للجيش الفرنسي الرابع على الجبهة الغربية، حيث فقد ذراعه في تلك المعركة. كان غورو قد دعا علناً إلى وجودٍ عسكري فرنسي في المناطق الداخلية من سوريا، ووعد بحماية المصالح التجارية والثقافية لفرنسا، لا سيما مصالح ليون، في بلاد الشام[40]. وبالنسبة له، كان توسع وتوطيد النفوذ الفرنسي والهيمنة التجارية في بلاد الشام جانباً أساسياً من سياسة فرنسا الإمبريالية الشاملة، ولا يجب المساومة عليها من خلال عقد أي صفقةٍ قاسية مع حكومةٍ عربيةٍ متداعية في دمشق ومشكوكٌ في شرعيتها. وكانت الحكومة الفرنسية الجديدة تحت قيادة ميليران تتبنى الرأي نفسه، وأبقت على الحد الأدنى فقط من قنوات الاتصال مفتوحةً مع فيصل، إذ لم يكن من المهم بالنسبة لها أن تحشر سياساتها فيصل في الزاوية مع المتطرفين، حيث كان الفرنسيون ينتظرون الوقت المناسب حتى تحين لحظة وضع مخططاتهم موضع التنفيذ.

كان فيصل قد كتب إلى غورو يخبره أنه ينوي تنفيذ بنود الاتفاقية مع كليمنصو، وعلى الرغم من المعارضة الواسعة من المحيطين به، إلا أنه سافر إلى بيروت في شباط (فبراير) لمقابلة غورو ومحاولة تسوية بعض القضايا العالقة[41]. كان غورو قد كرّس معظم قواته لمواجهة تهديد القوميين الأتراك في كيليكيا (قيليقيا)، وكانت معركة السيطرة على بلدة ماراس محتدمةً بالفعل. لذلك كان الفرنسيون في موقفٍ ضعيف نسبياً عسكرياً، فوافق غورو على معظم اقتراحات فيصل لتهدئة التوترات بين الفرنسيين والحكومة العربية، ووافق على إخراج القوات الفرنسية من المناطق المتنازع عليها في سهل البقاع والسماح برفع العلم العربي في منطقة الاحتلال الفرنسي. ووعد فيصل بدوره، بوقف الهجمات على الأهداف الفرنسية من جانب القوات العربية غير النظامية ومعاقبة المتهمين بالقيام بهذه الأعمال. كما وافق أيضاً على أن الحكومة العربية لن تمنع بعد الآن استخدام قطاع خط السكة الحديد حلب ـ الرياق[*]، الذي يمر عبر الأراضي التي تسيطر عليها الحكومة العربية والذي تحتاجه فرنسا لنقل قواتها إلى جبهة كيليكيا (قيليقيا)، لكن لم يتم تنفيذ أي من هذه التنازلات فعلياً بالكامل، وسرعان ما عاد الوضع إلى ما كان عليه في السابق. وتبنى كلا الجانبين موقفاً من الانتظار والترقب، لكن الشعور كان يتنامى بضرورة القيام بشيءٍ ما للخروج من هذا المأزق.

كان فيصل في موقفٍ لا يُحسد عليه، فكان قد وقع بالأحرف الأولى على اتفاقيةٍ مع كليمنصو لكن شريكه لم يعد في السلطة لضمان إمكانية الوفاء بشروطها. والراديكاليون ومعظم المعتدلين في سوريا رفضوا تلك الاتفاقية على الفور، في حين أن الحكومة الفرنسية الجديدة وغورو لم يشعروا بأنهم مُلزمون بشروطها بأي شكلٍ من الأشكال. وعالقاً في الوسط. لم يكن أمام فيصل خيارٌ سوى المناورة باستمرار بين الفرنسيين والراديكاليين في دمشق. لقد التمس من الفرنسيين بعض التنازلات على الأقل، حتى لو كانت شكليةً، لإرضاء غرور القوميين وسلطة الحكومة العربية، بينما نصح الراديكاليين بعدم القيام بأي تحركٍ أرعن ضد قوة فرنسا الضخمة. وفي الوقت نفسه، كان عليه أن يستعد للأسوأ، وهو الحرب مع فرنسا، مع الموارد الشحيحة للغاية، ووجود طبقةٍ سياسيةٍ منقسمةٍ ومتنازعة، وتخلّي حليفه الأجنبي الأكثر أهميةً، بريطانيا العظمى، عنه مما كان له عظيم الأثر. كان ظرفاً محفوفاً بالمخاطر على قيادته وقضيته ومكانته. في معرض تأملها لموقف فيصل، كتبت الرحالة والكاتبة الفرنسية بيرث غوليس خلال زيارتها لسوريا في شتاء عام 1920، «لقد فقد [فيصل] هيبته بإقحام نفسه بيننا وبينهم [المتطرفون]. كان سيحظى بشعبية المنتصر في اليوم الذي يدير فيه ظهره لفرنسا»، فبالنسبة لبصيرتها النافذة، أصبح فيصل شخصيةً معزولةً ومنزويةً تدريجياً[42]. ففي خضم كل متاعبه في سوريا، شغل نفسه بالأحداث الجارية

(*) منطقة تقع في سهل البقاع وسط لبنان حالياً. (المُراجع).

في العراق وفلسطين، وكيف ستؤثر على وضعه في سوريا. لم يُرد أن يبدو أنه نسي الأسباب الأخرى التي قامت من أجلها الثورة العربية. في 23 شباط (فبراير) 1920، كتب إلى ألنبي يطلب منه بعض التصريحات الرسمية للتأكيد حول النوايا البريطانية في تلك البلدان لتهدئة الرأي العام في سوريا. فهو لم يكن يريد أن يتجاهل محنتهم. «أردتهم أن يعلموا (العراقيون والفلسطينيون) أنني لم أتجاهل أوضاعهم بسبب انخراطي في الشؤون السورية. أنا متهم بالتورط في الشؤون [السورية] لمصلحتي الشخصية فقط. أنا واثق من أنك تدرك موقفي غير المريح أمام والدي والأمة العربية كلها»[43].

مع بداية آذار (مارس) 1920، كان فيصل محاطاً بمشاكل هائلة من جميع الجهات، حيث لم يكن بإمكانه فعل الكثير لحلّها من جانبٍ واحد. وفي محاولةٍ منه للعثور على مرسىً لوضعه المتزعزع باطراد، ألقى أخيراً بنرده في خانة الراديكاليين، الذين لم يحالفهم تماماً بعد، تاركاً مسافةً كافيةً بينه وبينهم، للإبقاء على بعض الأمل في نهج عملٍ معتدل، إذ لم يستطع أن يحكم البلاد بشكلٍ يتعارض مباشرةً مع القوميين الراديكاليين، حيث كان بإمكانهم تطويقه بسهولةٍ بتذكيره بكلماته بأن «الاستقلال يؤخذ ولا يُمنح»، وقد يُعرِّض نفسه لتهمة الخيانة إذا أصرَّ على الدعوة علانيةً للتفاهم مع الفرنسيين، فلم يكن بإمكانه أن يستعيد مصداقيته القومية وبالتالي نفوذه إلا بالتقرُّب من الراديكاليين وتبنِّي شعاراتهم وبرامجهم. وفي مقابلةٍ أجراها لاحقاً مع الصحفي البريطاني ج. ام. ن. جيفريز، يقول فيصل، مستذكراً أحداث تلك المرحلة، إنه لم يستطيع أن يطلب من شعبه انتظار قرارات مؤتمر السلام لفترةٍ أطول، فقد كان الناس مضطربين من الغموض الذي يلفُّ مستقبل بلدهم ووقعوا تحت تأثير الدعاية المعادية للحلفاء. وقد كان قلقاً من أنه إذا عاد خالي الوفاض من رحلةٍ أخرى إلى أوروبا، فسيكون موقفه ضعيفاً وستعمُّ الفوضى في البلاد[44]. فبدأ بتوجيه خطابه علناً ضد الفرنسيين، وتبنِّي خطة القوميين بتعزيز القدرات العسكرية للحكومة عن طريق التجنيد الإلزامي. لكن هذا التغير في النهج أثار حفيظة غورو، الذي رأى في ذلك محض نفاقٍ وازدواجيةٍ وتأكيدٌ، إن كان ثمة حاجةً إلى ذلك، على عدم جدوى التعامل مع فيصل والقوميين، فقد بدت رسائل فيصل إلى غورو التي تنأى بالحكومة العربية عن هجمات الفدائيين المتكررة على الفرنسيين جوفاء، إذ كان غورو يعرف تمام المعرفة أن الحكومة العربية كانت تقدم المساعدة اللوجستية والمادية للعصابات المسلحة.

إعادة عقد المؤتمر السوري وإعلان الاستقلال

كان كلٌّ من القوميين الراديكاليين ومعظم المعتدلين يائسين من تحقيق أهدافهم من خلال المفاوضات مع بريطانيا وفرنسا، وقد شكَّل انسحاب الولايات المتحدة من التشابكات الأوروبية

والدولية عاملاً مساهماً آخر في مخاوف القوميين، حيث كانت الولايات المتحدة هي الواضعة لمبدأ تقرير المصير للأمم والشعوب[45]. وأُجبِر فيصل على التخلي عن رحلته التي كان يعتزم القيام بها إلى أوروبا وبدلاً من ذلك دعا لعقد المؤتمر السوري، حيث تشتت أعضاؤه بعد انفضاضه في كانون الأول (ديسمبر)، لكن فيصل قرر إعادة عقده مرةً أخرى، «كي يتسنى للأمير إبلاغهم بالتطورات ويترك الأمر لـ [المؤتمر] ليقرر مستقبل [سوريا]»[46]. وقد تأثر قرار فيصل إلى حدٍّ كبير بتصريحات حزب الفتاة بأنه يجب عمل شيء لاستباق أي قراراتٍ تؤثر على مستقبل سوريا تنبثق عن مؤتمر السلام. وكان المؤتمر السوري هو الهيأة الجماعية الوحيدة التي كانت تتمتع بالمصداقية والشرعية للبدء في مثل هذا المسار. وبينما كان المندوبون يتجمعون في دمشق من مختلف أنحاء سوريا، كان عددٌ كبيرٌ من الفلسطينيين قد تجمعوا بالفعل في العاصمة لمناقشة مستقبل بلدهم. وفي 27 شباط (فبراير)، نظموا أنفسهم ضمن «المؤتمر الفلسطيني» المؤلف من شخصياتٍ سياسيةٍ بارزة ووجهاء، وخرجوا بموقفٍ لا يقبل المساومة حول استقلال فلسطين داخل دولةٍ سوريةٍ موحدة، مندِّدين بالمشروع الصهيوني في فلسطين، ومطالبين بوضع حدٍّ لهجرة اليهود. كما رفضوا فكرة أن يُنسَب الفضل في استقلال سوريا لأية دولةٍ أجنبية. وقد مهَّد الطابع الراديكالي لقرارات المؤتمر الفلسطيني الطريق أمام عقد الاجتماع المرتقب للمؤتمر السوري، وجعل من الصعب الالتفاف على مضمون ولهجة القرارات. ولعل المؤتمر السوري لم يرتهن لقرارات المؤتمر الفلسطيني، بيد أنه كان هناك تعاطفٌ كبيرٌ مع القرارات الفلسطينية.

تم الافتتاح الرسمي للمؤتمر السوري في 6 آذار (مارس) 1920، في النادي العربي بدمشق، بعد أن اجتمع عددٌ كافٍ من المندوبين في العاصمة. وحضر الجلسة الافتتاحية فيصل وجميع أفراد حكومته، حيث قدَّم الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه نيابةً عنه عوني عبد الهادي. واستعرض الوضع العربي والوعود والبيانات والتصريحات المختلفة للحلفاء والتي أقرَّت ودعمت حق العرب في الاستقلال، لا سيما نقاط ويلسون الأربع عشرة والإعلان الأنغلو ـ فرنسي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. «لقد نال العرب حريتهم واستقلالهم بفضل دمائهم التي أُريقت وما تحمَّلوه من قهرٍ وظلم... لا أريد من أوروبا أن تمنحنا شيئاً ليس لنا بأي حال، ولكن أن تؤكد فقط على حقنا الواضح، الذي أقرَّت به بالفعل، في أن نعيش كأمةٍ حيةٍ تسعى إلى أن تكون لها حياةٌ حرةٌ واستقلالٌ كامل، شأنها شأن جميع الأمم الأخرى المتحضِّرة. «ثم دعا فيصل المؤتمر إلى منح سوريا شكلها الدستوري واختتم بتذكير جمهوره بعدم تجاهل إخوانهم في العراق الذين يمرون بمشاكل مماثلة، وإعلان تضامنهم معهم ودعمهم لهم. وعلى الرغم من أن خطابه حمل نفَساً قومياً للغاية، إلا أنه لم يغلق الباب أمام المزيد من المفاوضات. وفي واقع الأمر، فقد كان متسامحاً للغاية فيما يتعلق بنوايا الحلفاء. «من خلال زياراتي الرسمية المتعددة إلى أوروبا،

والمناقشات والحوارات المتبادلة التي أجريتها مع قادتهم، فإنه لا يساورني شكٌ أو ترددٌ إزاء النوايا الحسنة لحكوماتهم»[47].

ثم فوَّض المؤتمر لجنةً مكونةً من تسعة أشخاص بمهمة صياغة ردٍّ على خطاب فيصل. وقدَّم الشيخ كامل القصاب الرد داعياً إلى إقامة ديمقراطيةٍ برلمانيةٍ دستورية في سوريا الموحدة اللامركزية[48]. وعاد المؤتمر للانعقاد في 7 آذار (مارس) بتوجيهٍ من هاشم الأتاسي، وتم تمرير عددٍ من القرارات الرئيسة بالإجماع. وقد لخَّصت مقدمة القرارات موقف القوميين من الاستقلال التام لسوريا ضمن حدودها الطبيعية، بما فيها فلسطين، مستندةً إلى حق الشعب في تقرير مصيره، ووعود الحلفاء ونقاط ويلسون الأربع عشرة. ورفض المؤتمر المخطط الصهيوني لإقامة وطنٍ قومي لليهود في فلسطين، ودعا إلى اللامركزية الإدارية ومنح وضعاً خاصاً للبنان. وأعلن القرار بعد ذلك أن سوريا دولةٌ مستقلةٌ بالكامل ضمن حدودها الطبيعية وعرض تتويج فيصل كملكٍ دستوريٍّ عليها. « لقد اخترنا سموك بالإجماع لتكون الملك الدستوري لسوريا نظراً حكمتك وسداد رأيك ومؤهلاتك الاستثنائية الأخرى، وأعمالك الخالدة في الحرب والدبلوماسية، وحبك للحرية والدستور، وإخلاصك للوطن وشعبه»[49]. وتم إعلان القرار بأسلوبٍ مُنمَّق، حيث كان سيُقام حفل التنصيب الرسمي لفيصل من خلال إعلان البيعة في اليوم التالي، 8 آذار (مارس)، في مبنى البلدية[50].

وجاء اعلان الاستقلال وتنصيب فيصل وسط مشاهد من البهجة والاحتفال. ورافقت المراسم نيران المدافع ورفع علم سوريا المستقلة ـ شعار الثورة العربية الذي أضيف إليه نجمة بيضاء. وتعهّد أعضاء المؤتمر وكبار رجال الدين والمسؤولون المحليون وغيرهم من الوجهاء بالولاء لفيصل والتزامهم بالحكم بالقانون والتسامح الديني والحفاظ على النظام والأمن[51]. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، تم تكريم فيصل في النادي العربي بدمشق، حيث تم تسليمه رسمياً علم الدولة الجديد ولافتةً تذكاريةً مكتوبٌ عليها شعاراتٌ وطنية. وكان من المستغرب أن يقف بجانب فيصل في العرض العسكري بعد الاحتفالات، رئيس ضباط الارتباط الفرنسيين، كوسيه ونائبه تولات، والقنصل الأمريكي في دمشق. وقد غاب ضابط الارتباط البريطاني الذي غادر المدينة عمداً لتجنب أي إحراجٍ أو مواجهة. كان تولات ضابطاً حسن الطباع تعلم اللغة العربية أثناء خدمته في الجزائر. وقد أصبح قريباً من فيصل، وغالباً ما كان يرافقه في زياراته لمناطق مختلفة من سوريا وأوروبا، لكن تأثيره عليه لم يكن بأي حالٍ من الأحوال يقارن بالتأثير الذي مارسه لورنس يوماً. كان الضابطان الفرنسيان حاضرين في الاحتفالات بملء إرادتهما، دون أوامر صريحةٍ من غورو. وفي الواقع، ادَّعى غورو في وقتٍ لاحقٍ أن الضابطين قد جرى خداعهما بدهاء، حيث تمت دعوتهما لتناول الشاي فقط ليجدا نفسيهما وسط عرضٍ عسكري. لكن الواقع هو أن كوسيه

كان قد أُبلغ في وقتٍ سابقٍ بنوايا المؤتمر لإعلان استقلال سوريا، وكان غورو نفسه على علمٍ بالسياق العام للأحداث. وعلى الأرجح، فقد سمح غورو بالسير في إعلان الاستقلال دون عوائق، مدركاً أن ذلك سيثير قلق البريطانيين بشدة ويجعلهم ينفرون من الدولة السورية الجديدة. بيد أن فيصل أرسل برقيةً إلى غورو في 8 آذار (مارس) لإبلاغه أن المؤتمر السوري قد أعلن الاستقلال وسينصِّبه ملكاً عليها. وقد عزا هذا التصرف إلى استياء الشعب من التأخير الحاصل في تسوية مستقبل سوريا، وإلى أن استقلال سوريا كان على أية حال نتيجةً ينشدها الحلفاء أنفسهم[52].

كان إعلان الاستقلال قراراً محفوفاً بالمخاطر، فقد هدد بشكلٍ مباشرٍ ليس فقط مصالح فرنسا، التي رأت نفسها في تحدٍّ في جميع أنحاء بلاد الشام، ولكن أيضاً مصالح بريطانيا. لقد ألغى ذلك الإعلان مناطق الاحتلال، ووضعها نظرياً تحت سلطة دولةٍ واحدة. ورفض صراحةً تقسيم سوريا إلى ثلاث مناطق داخلية هي سورية ولبنان وفلسطين. وقد احتل البريطانيون فلسطين، التي حُدد مصيرها بالفعل لصالح بريطانيا من خلال الصفقة التي أبُرمت بين لويد جورج وكليمنصو قبل أكثر من عام. وأثار إعلان الاستقلال المتزامن من قبل المؤتمر العراقي («بلاد ما بين النهرين الـ29» كما أطلق عليهم كرزون باستخفاف) غضب البريطانيين، لا سيما، حيث بدأوا باستشعار أولى بوادر الثورة في العراق. ولم يكن لدى الحكومة العربية أي وسيلةٍ لفرض بياناتها الرنانة وكانت لا تزال تعتمد إلى حدٍّ كبير على الحلفاء في الإمدادات والدعم المالي والتشغيلي واللوجستي. ومهما كانت الحسابات، فإن القرار أحادي الجانب بإعلان استقلال سوريا في أوسع معانيه لم يكن ليجلب سوى المتاعب من القوى العظمى. فقد وحَّد بريطانيا وفرنسا في معارضةٍ مشتركة، وأزال أي تباعدٍ قد يكون موجوداً بينهما في معاملتهما للحكومة العربية واعتبارهما لها. ولا شك في أن إعلان الاستقلال حظي بشعبيةٍ كبيرة، ولكن كان بإمكان الأشخاص الأكثر حكمةً وعقلاً أن يستشفُّوا بسهولةٍ المخاطر التي ينطوي عليها هذا التصرف. وفيصل، الذي كان يعمل حتى ذلك الحين من أجل إيجاد تسويةٍ مع القوى أثناء محاولته إعداد حكومته وشعبه لمواجهةٍ محتملة، قد غير مساره فجأةً، فلم يكتفي بقبول سياسات الراديكاليين فحسب، بل تبنَّاها على أنها سياساته الخاصة، واضعاً نفسه على رأس تحالفٍ غير مستقرٍ من القوى كان يدفع الدولة الناشئة إلى مواجهةٍ غير متكافئة. ولا يمكن بكل تأكيدٍ اتهام فيصل بالتَّوق إلى المجد أو التبجيل الشخصي من خلال السعي وراء العرش. إذ لم يلاحظ أيٌّ من أولئك الذين صادفوه أنه سعى وراء الشهرة لنفسه. بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك، حيث لاحظوا أنه بدا غير مبالٍ بالطموح الدنيوي وكان يتصرف بنكرانٍ للذات وبإحساسٍ عميقٍ بالواجب[53]. فعرش سوريا، وعلى الرغم من قيمته الرمزية الكبيرة، لم يكن ليحفزه ليسير في هذا المنحى الخطير. وعلى الرغم من المزاعم اللاحقة التي تشير إلى عكس ذلك، إلا أنه لم يُخدَع أو يُورَّط

عمداً في السعي وراء الاستقلال، وهو المسعى الذي لا بد أنه كان يدرك أن من شأنه أن يضعه في صدامٍ مع الحلفاء. وكان الفرنسيون قد سمحوا لأعضاء المؤتمر السوري بعبور أراضيهم، وأمر غورو بمنح دفعةٍ للحكومة العربية قبل أيام قليلة من انعقادها. ومن شأن هذه التصرفات أن تنطوي على فكرة أن الفرنسيين سهّلوا عقد المؤتمر مع علمهم بأنه سيتخذ إجراءاتٍ قد تتعارض مع مصالحهم. بيد أن غورو كان قد نصح فيصل في وقتٍ سابق بعدم اتخاذ أي إجراءٍ من جانبٍ واحد، وكذلك فعل ضباط الارتباط الفرنسيون في دمشق. وكان أفضل تفسيرٍ لموقف فرنسا المتذبذب في الأيام التي سبقت إعلان الاستقلال هو القلق الحقيقي من أن الموقف العدائي العلني من جانبها سيؤدي إلى تفاقم وضعها العسكري الحرج في كيليكيا (قيليقيا) وقد يفتح جبهةً أخرى على القوات الفرنسية المنهكة[54]. ولكن الأمر كان قبل كل شيء متعلقاً بقلق فيصل من أنه قد يتخلف عن ركب الزخم القومي لإعلان الاستقلال، والدعوة الشعبية الهائلة لمثل هذه الخطوة، فقد كان القرار محسوماً تقريباً، بموافقته أو بدونها. فإذا هو قاوم هذا الإجراء والقرار قد اتُخذ على أية حال، فسيعرض نفسه لعزلةٍ خطيرةٍ، أو ربما قاتلة. فأمثال الشيخ كامل القصاب كان يمتلكون الشارع والحشود إلى جانبهم، ولم يكونوا في حالةٍ مزاجية تسمح لهم بالمصالحة. كما عمل نجاح القوميين الأتراك على تشجيع المتطرفين، وأدى إلى ظهور رؤىً حول دولةٍ عربيةٍ مستقلة متحدةٍ مع قوات مصطفى كمال لطرد الفرنسيين الضعفاء من الشرق الأدنى. وكان لا يزال هناك عددٌ كبيرٌ من الإسلاميين والمسؤولين والضباط العثمانيين السابقين وأعضاءٌ من المؤتمر السوري الذين يتوقون لمثل هذا الاحتمال[55].

بعد إعلان الاستقلال، سارع فيصل بالتحرك لإعادة تأكيد سيطرته على الأحداث واستعادة المعتدلين نسبياً أمثال علي رضا الركابي إلى السلطة، وتم تشكيل حكومةٍ جديدةٍ برئاسته، في إشارةٍ إلى الحلفاء بأنه، أي فيصل، يعتزم اتباع نهج عملٍ منطقي. وأعلنت الحكومة الجديدة حزمةً من الإجراءات الإصلاحية وأعلنت عفواً عاماً عن معظم فئات المجرمين. كما شرعت في عدد من الإجراءات التي أكدت على السيادة السورية، وشمل ذلك رفع العلم الجديد، وإصدار طوابع بريدية جديدة، وذِكر اسم فيصل كملكٍ خلال أذان صلاة يوم الجمعة. وقد قلَّل فيصل من أهمية إعلان الاستقلال للحلفاء، وصوَّره بعباراتٍ تكاد تكون عرَضيةً، إذ لم تكن لديه رغبةٌ في تحدي الحلفاء، وكان قلقاً من احتمال اعتباره متمرداً يعمل ضد الحلفاء وقرارات مؤتمر السلام. وقد كتب ألنبي إلى كرزون في 13 آذار (مارس) 1920 أنه تلقى مذكرةً من فيصل «يؤكد فيها لحكومة جلالة الملك أن إعلان الاستقلال وتوليه العرش لن يغيرا من العلاقات الودية بين سوريا وبريطانيا العظمى... كان إعلان المؤتمر مجرد تصريحٍ عن إرادة الشعب وطلبٍ إلى مؤتمر السلام للوفاء بوعوده»[56]. كان فيصل متردداً بالقدر نفسه مع والده. فقد فصل إعلان استقلال سوريا بشكلٍ

قاطعٍ سوريا عن أي صلةٍ لها بمستقبل الحجاز. وقد جعل من فيصل شخصيةً تحظى بمكانةٍ تضاهي مكانة والده، وهو ظرفٌ كان لا بد أن يخلق مشاكله الخاصة مع كلٍّ من حسين وعبد الله. بل إن فيصل تجنَّب إخبار والده رسمياً بقرار حصوله على لقب الملك، ولم يخاطبه بهذا الشأن إلا في 20 آذار (مارس)، أي بعد أسبوعين تقريباً من تاريخ إعلان الاستقلال. وقد سعى فيصل في رسالته إلى وضع استقلال سوريا في سياق الأهداف الأوسع للثورة العربية لتشكيل كونفدراليةٍ من الدول تحت إمرة الملك حسين. «بعون الله، بدأنا العمل وأعلنَّا استقلال سوريا والعراق في ظل الملكية الشاملة لجلالتكم»[57].

السخط في لندن وباريس

سرعان ما أعقب إعلان الاستقلال حملةٌ للحصول على اعترافٍ دبلوماسي بالدولة الجديدة. فقد كتب فيصل والركابي إلى كرزون وبرثيلوت وغورو معبرين عن صداقتهم ونواياهم الحسنة، بينما أرسل نوري السعيد، الذي كان قد طوَّر علاقته مع غورو، رسائل ذات طبيعةٍ تصالحيةٍ مماثلة. وقد حاول ألنبي، الذي طالما كان مهتماً بالوضع الأمني الداخلي في سوريا، في البداية الاستفادة من التطورات الدراماتيكية في دمشق. ففي 8 آذار (مارس)، أرسل برقيةً إلى كرزون للسماح «لفيصل بأن يعلن للمؤتمر [السوري] أن القوى الكبرى قد قبلت به ممثلاً للدولة العربية التي تضم الأقاليم البريطانية في بلاد ما بين النهرين وفلسطين والولايات الفرنسية في لبنان والساحل، وما تبقى من الولايات العربية التي تقع تحت السيطرة المباشرة لفيصل». ثم طلب من كرزون أن يأذن له بإرسال مثل هذه الرسالة إلى فيصل. فكتب كرزون على هامش المذكرة، «لا تفعل شيئاً»[58]. وفي 13 آذار (مارس)، أرسل كرزون برقيةً إلى ألنبي ليتم نقلها إلى فيصل. وقد عكس فيها رد الفعل البريطاني الرسمي على إعلان الاستقلال وكان قاسياً وغاضباً في لهجته. «لا يمكن لحكومة جلالته أن تعترف بحق مؤتمر دمشق، الذي لا تعرف شيئاً عن تشكيلته أو سلطاته، في تسوية مستقبل سوريا أو فلسطين أو الموصل أو بلاد ما بين النهرين. لقد تم غزو هذه البلدان من قبل جيوش الحلفاء ومستقبلها... لا يمكن أن يتحدد إلا من قبل دول الحلفاء التي تعمل بالتنسيق... حكومة جلالته لا يمكن أن تعترف بحق هيأةٍ قائمةٍ بذاتها في دمشق في تنظيم هذه الأمور، وإن حكومة جلالته مضطرةٌ إلى جانب الحكومة الفرنسية إلى القول إنهما يعتبران هذه الإجراءات لاغيةً وباطلة»[59]. لكن كرزون ترك باباً صغيراً مفتوحاً لمزيدٍ من المفاوضات، وطالب ألنبي بتجديد دعوته لفيصل للحضور إلى باريس لعرض قضيته أمام مؤتمر السلام. وأرسل الفرنسيون برقيةً مماثلةً إلى غورو لنقلها إلى فيصل. كانت فرنسا وبريطانيا تعملان حينها في انسجامٍ تام. ففي وقتٍ سابقٍ، في 7 آذار (مارس)، قامتا بإرسال رسالةٍ مشتركة إلى

فيصل ينصحونه فيها بالكف عن نهجه، لكن الرسالة وصلت إلى دمشق بعد يومٍ واحد ولم يكن لها تأثيرٌ على أعمال المؤتمر السوري. وقد قام كرزون سراً بإلقاء اللوم على الفرنسيين في تصعيد النزاع عبر مطالبهم وضغوطهم غير المعقولة سواءً على فيصل أو على بريطانيا. وكان كرزون قد كتب إلى السفير البريطاني في باريس، اللورد ديربي، «لكن، واحتراماً لضغوط الحكومة الفرنسية المُلحَّة، فقد قمنا في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي بالجلاء عن كلٍّ من كيليكيا (قيليقيا) وسوريا، وليس من دون تحذير الحكومة الفرنسية من العواقب الوخيمة التي قد تنشأ إذا ما حاولت بسط احتلالها العسكري على الأخيرة»[60].

فشلت ردود فيصل الاسترضائية على كلٍّ من كرزون والفرنسيين في التستر على حقيقة أن خياراته في مواجهة رفض الحلفاء القاطع لقرارات المؤتمر السوري قد تضاءلت. ولعل كرزون قد كان مستعداً لرؤية فيصل ملكاً على سوريا، ففي ردٍّ متأخرٍ على رسالة ألنبي للاعتراف بفيصل كـ«ممثلٍ للدولة العربية»، كتب كرزون: «في حين أنه ليس لدينا اعتراضٌ على إعلان فيصل ملكاً على سوريا من قبل سلطةٍ سوريةٍ مشكّلةٍ حسب الأصول، وبينما نعترف به كذلك بأنفسنا وعن طيب خاطر، إلا أنه لا يمكننا اعتبار قرار المؤتمر بمثابة بديلٍ لواجبات وقرارات مؤتمر السلام... أو تفويضاً لفيصل لإجبارنا على قبوله»[61]. وكان لا بد من تجاهل قرارات المؤتمر أو نقضها ـ وهو أمرٌ مستحيل ـ وكان على فيصل أن يأتي إلى أوروبا إذا كان كرزون سيعيد النظر في موقفه. وواصل ألنبي، الأقرب إلى الأرض، المحاججة عبثاً من أجل الوصول لتسويةٍ مع «مؤتمر دمشق»، الذي اعتبره «يمثل الغالبية العظمى من الوجدان السوري». كما حذّر مستشرفاً بأنه إذا استمر مؤتمر السلام في إنكار قانونية ومشروعية المؤتمر السوري، فإن الأعمال العدائية قادمةٌ لا محالة[62]. لكن فيصل تمسك بموقفه ورفض القدوم إلى أوروبا ما لم يقدم الحلفاء بعض التنازلات المهمة. وفي 28 آذار (مارس)، كتب إلى كرزون رافضاً طلب الأخير أن يأتي إلى أوروبا. وبعد تكراره لحق العرب في الاستقلال ووضعه في سياق وعود وتصريحات الحلفاء، كتب فيصل: «أؤكد لكم رغبتي في القدوم إلى أوروبا استجابةً لدعوتكم، ولكن فقط بعد تلقي تأكيداتٍ رسمية من الحكومة البريطانية ـ ولو تم التعبير عنها بسرية ـ تعلن فيها قبولها باستقلالنا»[63]. كانت مقومات المواجهة قائمةً بالفعل، تاركةً السبيل الوحيد للخروج من المأزق اللجوء إلى السلاح، أو على التهديد به على الأقل.

كان الجيش الفرنسي في بلاد الشام، المكون من حوالي 35000 جندياً، منخرطاً بشدةٍ في قتال الأتراك ولم يكن يحصد سوى الخيبات بشكلٍ عام. فقد كان الجنود مجندين بصورةٍ رئيسيةٍ من مستعمرات فرنسا في شمال إفريقيا والسنغال، وكان معظمهم من المسلمين، لذلك لم يكن غورو في وضعٍ يسمح له بشن الأعمال العدائية، فكانت رسائله إلى فيصل حازمةً لكنها لم تكن

عدائيةً بعد. كما كان عليه أن يتعامل أيضاً مع آراء كوسيه وتولات، ضابطي الارتباط الفرنسيين في دمشق، واللذان كانا كلاهما من دعاة السياسة الودية مع فيصل والحكومة السورية الجديدة. فغالباً ما كان تولات يكتب لرؤسائه بعباراتٍ ملتهبةٍ عن فيصل وضرورة التعاون معه. «كان أمامنا وطنيٌ واثقٌ، ومتعصِّبٌ نوعاً ما، متفانٍ بعمق للمُلك المنسوب إليه لتوِّه، ويمكن للمرء أن يشعر بأنه مستعدٌ للعودة إلى الزعيم البدوي البسيط المتمرد، الذي يقاتل من أجل قضيةٍ كان من حَوَاريها وبها التزم بشرفه الشخصي. أكثر من [كذا] حتى، فإني أُصرُّ على الاعتقاد بأن لدى فرنسا فرصةٌ جيدةٌ لاغتنام العمل مع حلفائنا الإنكليز لإيجاد أرضيةٍ تصالحيةٍ من شأنها تجنب اللجوء، بالنسبة للأمير، إلى بادرة يأسٍ يعتبرها ضروريةً لإنقاذ الشرف»[64] وكوسيه، كبير ضباط الارتباط، شاطر تولات هذه الآراء أيضاً. لم يكن لدى باريس وغورو الوقت لتوصياتهما، لكنهما سمحا لهما بمواصلة المحادثات التصالحية مع فيصل، فقد قدم ذلك العزاء لفيصل بأن الحل الدبلوماسي لا يزال ممكناً، وأعطى متسعاً من الوقت إلى أن سوَّت فرنسا مشاكلها في كيليكيا (قيليقيا).

كانت المشكلة الرئيسة التي واجهها فيصل حينها هي تمثيله في المؤتمر المرتقب للمجلس الأعلى، الذي كان مقررٌ عقده في سان ريمو، في إيطاليا، في منتصف نيسان (أبريل). فقد كان مؤتمراً حاسماً لقضية الانتدابات، وكانت توزيعها مطروحاً في جدول الأعمال. شعر البريطانيون بالحرج الشديد من تصرفات فيصل التي تعارضت مع تحذيراتهم المحددة، وفقد فيصل التعاطف والدعم الذي كان بأمسِّ الحاجة إليه في لندن. لكن على الرغم من هذا، كان كرزون يريد من فيصل الحضور، وتم توجيه دعوةٍ رسميةٍ إليه[65]. كان فيصل لا يزال معارضاً لفكرة حضور المؤتمر دون تنفيذ أي شيءٍ ملموس من جانب الحلفاء يعترف بالقرارات التي اتخذها المؤتمر السوري. فقد أراد من فرنسا أن تعيد التأكيد على التزامها بالاتفاق الذي أبرمه مع كليمنصو وأن توافق على أن إعلان الاستقلال الذي طرحه المؤتمر السوري لم يخالف شروطه. وطلب تأكيداتٍ مختلفة من بريطانيا، بأن تعيد التأكيد على وعودها وتصريحاتها بشأن استقلال العرب. كما كان مهتماً بشكلٍ خاص بعدم فرض السياسات الصهيونية على فلسطين وأراد بياناً بريطانياً بهذا المعنى. لكن سياسته في انتزاع التنازلات قبل السفر إلى أوروبا لم تفضي إلى شيء، ولم تكن الرسائل التي كانت تتنقل بين دمشق ولندن وباريس وبيروت تمثل بديلاً عن دبلوماسية المواجهة المباشرة. ومع ذلك، فقد كان فيصل حذراً من التوجه إلى أوروبا بعد فترةٍ وجيزةٍ من إعلان الدولة الجديدة، إذ كانت هناك أمورٌ عاجلةٌ خاصةٌ بالدولة يجب الاهتمام بها وكانت مكانته داخل البلاد، على الرغم من تفوقها، إلا أنها لا تزال مهددة. فقد يقوِّض الراديكاليون قاعدته في الداخل بسهولةٍ من خلال الادعاء بأنه سيقدم تنازلاتٍ غير مقبولةٍ وغير مصرحٍ بها للحلفاء.

وفي ظل هذه الظروف التي لم تكن تبشّر بالخير، افتُتح مؤتمر سان ريمو للمجلس الأعلى

في 19 نيسان (أبريل) 1920. وكان التمثيل العربي الوحيد عبارةٌ عن وفدٍ غير رسمي مكوَّنٌ من نوري السعيد ورستم حيدر ونجيب شقير. وقد وصلوا متأخرين أسبوعاً تقريباً وواجهوا صعوبةً في العثور على مسكن، وتم تجاهلهم فعلياً من قبل الحلفاء وظلوا معزولين عن القرارات الرئيسة للمؤتمر[66].

مؤتمر سان ريمو وتداعياته

التقى المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو في الفترة من 19 إلى 26 نيسان (أبريل)، بحضور لويد جورج وميليران. وخُصِّصت الجلسات الأولى لصياغة معاهدةٍ أصبحت فيما بعد معاهدة (سيفر)[*]، والتي تناولت شروط السلام المعروضة على تركيا. وفي 25 نيسان (أبريل)، أقرَّ المؤتمر بأن بلاد ما بين النهرين وسوريا هما دولتان مستقلتان، ولكن في الوقت نفسه، عيَّن انتداباً على بلاد ما بين النهرين وفلسطين وسوريا. فتم تسليم سوريا إلى فرنسا، وفلسطين وبلاد الرافدين لبريطانيا. وتُركت الخطوط الحدودية لهذه الولايات تحت الانتداب للقوى المنتدِبة لترتيبها، وقد تمت تسوية هذه الحدود من قبل بريطانيا وفرنسا في اتفاقيةٍ في 23 كانون الأول (ديسمبر) 1920. ولم يفُتّ أحدٌ الإعراب عن سخريته من نظام الانتداب، حتى أن لويد جورج وصفه بأنه «بديلٌ للإمبريالية القديمة»[67]. فقد نصَّت المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم، والتي استُخدمت لتبرير فرض نظام الانتداب على الشرق الأدنى، بشكلٍ قاطعٍ على أن «رغبات هذه المجتمعات [شعوب الشرق الأدنى] يجب أن تكون الاعتبار الرئيسي في عملية اختيار الانتداب». لكن هذه اللهجة الرنَّانة قد حُيِّدت جانباً بمنتهى البساطة حين قامت القوى بتقسيم الأراضي والموارد فيما بينها. كما أبرمت بريطانيا وفرنسا صفقةً قذرةً في سان ريمو لتقسيم غنائم النفط العراقي، حيث تعهّدت الحكومة البريطانية بمنح فرنسا حصةً بنسبة 25% في شركة النفط التي تم تأسيسها لاستغلال هذا المورد. وفي المقابل، وافق الفرنسيون على مرور خط أنابيب من حقول النفط العراقية عبر الأراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية في سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط.

كان يتعين التعامل مع الإعلان عن نظام الانتداب وانعكاساته على التطلعات القومية العربية على مراحل بالنسبة للجمهور القلق في سوريا والعراق. وقد كتب كرزون إلى اللورد هاردينج، الوكيل الدائم في وزارة الخارجية، في اليوم التالي لتوزيع الوصايات، معبِّراً عن قلقه بشكلٍ خاص إزاء رد فعل فيصل وآفاق حكمه في سوريا. وأصرّ على أن يحضر فيصل شخصياً إلى مؤتمر السلام

(*) وُقّعت معاهدة سيفر في 10 آب (أغسطس) 1920 كواحدة من أقسى المعاهدات على الدولة العثمانية وأشدها وطأة في تاريخها المعاصر، إذ قضت بتقسيمها وفرض الإشراف الدولي عليها. كما نصَّت على حصول الحجاز على الاستقلال وسيطرة فرنسا على سوريا ولبنان، وغيرها من البنود. (المُراجع).

لعرض قضيته، وكذلك لإضفاء الشرعية على مُلكه. فقد تم الآن فصل فلسطين رسمياً عن سوريا، ولم يكن هناك فرصةٌ لأن يمتد حكم فيصل عليها. فإذا أراد فيصل أن يصبح ملكاً على سوريا، فعليه أولاً الحصول على موافقة مؤتمر السلام على مثل هذا الوضع، وسيتعين على الفرنسيين الاتفاق معه على أساليب حكمه ونفوذه. وتم تكليف ألنبي بمهمة إبلاغ فيصل بقرارات مؤتمر سان ريمو. وفي 27 نيسان (أبريل)، أرسل ألنبي برقيةً إلى فيصل يخبره فيها أن سوريا قد وُضعت تحت الانتداب الفرنسي، وبلاد الرافدين وفلسطين تحت الانتداب البريطاني. وقد جمَّل ألنبي القرارات بالقول إنه تم الاعتراف بسوريا وبلاد ما بين النهرين كدولتين مستقلتين، لكنه أضاف على الفور «شريطة أن يتم مساعدتهما من قبل قوة انتداب حتى يحين الوقت الذي تصبحان فيه قادرتين على النهوض بمفردهما»[68]. كما حثَّ فيصل على القدوم إلى باريس وعرض قضيته، حيث كان من المقرر أن يجتمع المجلس الأعلى للحلفاء مرةً أخرى في أواخر أيار (مايو). وفي البرقية ذاتها، كرر ألنبي التزام الحكومة البريطانية بتنفيذ بنود وعد بلفور، وهو شرطٌ من شروط الانتداب الممنوح لبريطانيا على فلسطين.

جاء رد فيصل على ألنبي على شكل مذكرةٍ بالكاد أخفت خيبة أمله من قرارات سان ريمو. فبينما رحب بإعلان الحلفاء أن سوريا والعراق دولتان مستقلتان، لم يستطع قبول نظام الانتداب. «ليس لدي الحق في مناقشته، فالشعب الذي يدرك الخطر الذي قد ينطوي عليه على سلامته واستقلاله في المستقبل، قد احتج عليه بمرارةٍ ورفض قبوله». ورفض فصل فلسطين عن سوريا، كما رفض الإشارة إلى قبوله بالمشروع الصهيوني في فلسطين. «كل ما اعترفت به هو حماية حقوق اليهود في ذلك البلد بقدر ما يتم الحفاظ على حقوق السكان العرب الأصليين والسماح بالحقوق والامتيازات نفسها. لقد استغل عرب فلسطين، مسيحيين ومسلمين، أكثر من مرةٍ أية فرصةٍ للاحتجاج على أي اتفاقٍ أو تعهدٍ من شأنه أن يجعل وطنهم الأم الوطن القومي للإسرائيليين»[69]. واختتم فيصل مطالباً بأن يسبق أي زيارةٍ يقوم بها إلى أوروبا إعلانٌ من الحلفاء بعدم فصل فلسطين عن سوريا.

تلقى العرب أنباء الانتداب الفرنسي على سوريا (والانتداب البريطاني على العراق) باستياءٍ شديد. فقد قسّم الأراضي العربية إلى دولٍ غير طبيعية وربما متخاصمة، ترزح تحت أشكالٍ مختلفةٍ من الحكم. واحتج وفد الحجاز، الذي لا يزال الحضور العربي الرسمي الوحيد في مؤتمر السلام، بقوةٍ على قرارات سان ريمو. وأصيب حيدر ونوري السعيد، اللذان كانا في سان ريمو، بالصدمة من النتيجة. فقد كانت نكسةً كارثيةً للتطلعات القومية العربية وتركت المعتدلين، الذين كانوا يراهنون على حسن نية الحلفاء ويقدمون المشورة بشأن التسوية مع الفرنسيين، مكشوفين تماماً. كانت هناك إضراباتٌ ومظاهرات في جميع البلدات السورية. ونددت الجماهير

الغاضبة بالانتداب وطالبت الحكومة باتخاذ خطواتٍ للدفاع عن استقلال سوريا. لم تستطع حكومة الركابي مواجهة هجوم الاستجواب الضاري من قبل المؤتمر، واضطرت لتقديم استقالتها بعد أقل من شهرٍ على تشكيلها. كان فيصل معتكفاً في مقره مع شخصياتٍ قوميةٍ مختلفة بقيادة الشيخ كامل القصاب. وأقنعوا فيصل بضرورة تشكيل حكومة وحدةٍ وطنية تواجه التحديات المقبلة ببرنامجٍ يركز على المقاومة والدفاع الوطني[70]. وفي 3 أيار (مايو)، أدت الحكومة الجديدة اليمين الدستورية بقيادة السياسي المخضرم والمتحدث باسم المؤتمر السوري هاشم الأتاسي. وقد عكس بيانها الأول، الذي تلاه وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فعلياً ردّ فيصل على ألنبي. فقد سمحت الحكومة الجديدة بجمع قرضٍ وطني يعادل 1. 5 مليون جنيه إسترليني مقابل رهن الأراضي المملوكة للدولة في أجزاء مختلفة من سوريا. كما مددت التجنيد الإجباري إلى سنةٍ من الخدمة، واقترحت أن تكون عقوبة التهرب منها هي الجلد. وتمّت إحالة الأمر إلى فيصل، الذي غالباً ما كان يلتقي بوزراء حكومته على انفراد أيام الأحاد. ووقع على اقتراح تمديد التجنيد الإجباري، ولكن فقط بعد شطب المادة التي تنص على عقوبة الجلد للمتهربين من الخدمة العسكرية[71].

بدأت الشخصيات السياسية البارزة في أوروبا تدرك أن قرارات سان ريمو قد تُضعف موقف فيصل لصالح الراديكاليين، وتضيّق المساحة لحل المأزق المتزايد في سوريا. تحدث دالاديير، وهو برلماني فرنسي بارز، في الجمعية الوطنية في 25 أيار (مايو) مدافعاً عن فيصل: «إنه رجلٌ معتدل يستخدم كل وسائله لإقناع المتطرفين العرب بالتسوية مع فرنسا». كما تحدث لويد جورج أيضاً لصالح فيصل مخاطباً مجلس العموم. وقد ساعدت تصريحاته على تغيير رؤية فيصل بشأن جدوى الاستمرار في رفض السفر إلى أوروبا. فكتب إلى والده في 20 أيار (مايو)، «قد أتوجه إلى أوروبا استجابةً لرغبات مؤتمر السلام لا سيما في ضوء تعليقات لويد جورج الأخيرة في البرلمان»[72]. وهذه المرة خطط فيصل أن يأخذ معه ممثلين عن القوميين الراديكاليين مثل الشيخ كامل القصاب وياسين الهاشمي. كما أن حكومته غيّرت أيضاً آراءها بشأن عودته إلى مؤتمر السلام. فحتى أشخاصٌ مثل عبد الرحمن الشهبندر توصّل إلى رأيٍ مفاده بأنه يجب أن يذهب إلى أوروبا، وذلك بعد أن أعطاه فيصل نسخةً من الاتفاقية التي أبرمها مع كليمنصو[73]. وحده وزير الحربية، يوسف العظمة، أصرَّ على معارضته العودة الى مؤتمر السلام. حيث أيّد المؤتمر السوري، رغم تردد بعض أعضائه، كذلك فكرة إرسال وفدٍ سوري برئاسة فيصل.

لكن وفي الوقت الذي اتخذ فيه مجلس الوزراء وفيصل القرار الرسمي بإرسال الوفد في أوائل تموز (يوليو)، تغير الوضع بشكلٍ جذري. إذ لم تعد فرنسا مستعدةً للتعامل مع الحكومة السورية، ناهيك عن الاعتراف بها. كما أنها لم تكن مستعدةً بأي حالٍ من الأحوال للاستماع إلى

مشورة حليفها البريطاني إذا ما تعلق الأمر بالتعامل مع فيصل والسوريين. في واقع الأمر، فقد أرسى كرزون الأساس لموقفٍ فرنسي متطرف إذا لم يأتِ فيصل إلى أوروبا استجابةً لاستدعاءاتٍ من الحلفاء. ففي مذكرةٍ بتاريخ 18 أيار (مايو) إلى السفير الفرنسي، كتب كرزون عن عواقب عدم استجابة فيصل لمطالبه بالقدوم إلى أوروبا. إذ لا يمكن تجديد الدعوة له مرةً أخرى؛ ولن يعترف المؤتمر به بعد الآن كممثلٍ للحجاز؛ كما سيتم إلغاء جميع المساعدات المالية من الحكومتين البريطانية والفرنسية؛ وسيكون لفرنسا الحرية في احتلال خط سكة حديد حلب ـ الرياق، وهو صلة إمدادٍ مهمةٍ لقواتها في كيليكيا (قيليقيا)[74].

بات موقف فرنسا أكثر صداميةً وحتى عدوانيةً من أي وقت مضى. وقد فشلت محاولة فيصل الخرقاء لإشراك فرنسا في تحالفٍ جديدٍ قائمٍ على اتفاقية فيصل وكليمنصو فشلاً ذريعاً. فكان قد صاغ مذكرةً حول تلك هذه الصفقة إلى غورو، يطلب فيها من فرنسا الاعتراف بسيادة سوريا وإجلاء قواتها من كل سوريا باستثناء لبنان، كما حددها مؤتمر السلام. في المقابل سيوافق على قبول المشورة والمساعدة الفرنسية في سوريا ومساعدة فرنسا على تأمين حدود سوريا ضد تركيا[75]. تم رفض الصفقة المقترحة على الفور من قبل كل من غورو ووزارة الخارجية الفرنسية. وردَّ غورو بفتورٍ في 3 حزيران (يونيو) قائلاً: «إن إعلان الحكومة [الفرنسية] كان كافياً، لأنه أرضى الشعب السوري الذي اعترفت فرنسا باستقلاله»[76]، وقد تحصَّن غورو بتحسن الوضع العسكري الفرنسي في بلاد الشام. فوقّع هدنةً مع الكماليين في أوائل تموز (يوليو) 1920 ويمكنه الآن إعادة نشر قواته من جبهة كيليكيا (قيليقيا) إلى سوريا.

تصاعد التوترات

تزامن إعلان استقلال سوريا مع تصاعد القتال في سوريا ولبنان بين مجموعاتٍ مسلحة والقوات الفرنسية والقوات المدعومة منها. وحتى لو لم تصل تلك المجموعات إلى نقطة الثورة الوطنية، إلا أنها منحت غورو فرصةً للتوقف والتفكير في تعاملاته مع فيصل. فقد كان على الفرنسيين أن يتعاملوا مع عدد من الانتفاضات المحلية في مناطق احتلالهم، التي نشأ بعضها كرد فعلٍ على سياساتهم الخاصة بإنشاء إداراتٍ محليةٍ تحت قيادة ضباطٍ فرنسيين وبصلاحياتٍ واسعة. وحدثت أخطر تلك الانتفاضات في المناطق العلوية في اللاذقية وبانياس[*]، بقيادة شخصيةٍ محليةٍ، وهو الشيخ صالح العلي، وكانت مدفوعةً بشكلٍ أساسي بالاعتبارات المحلية

(*) يتجمع معظم العلويين من عكار جنوباً إلى جبال طوروس شمالًا، وبعضهم يقطنون في ريف حماة وحمص واللاذقية وطرطوس والإسكندرونة وكليكية (قيليقية) وجبل محسن بطرابلس في لبنان، أي إنهم يتوزعون على ثلاث بلدان حالياً. (المُراجع).

والتنافس بين المجتمعين الإسماعيلي والعلوي. وقد امتلك الشيخ صالح أكثر العلاقات هشاشةً مع فيصل، لكن هذا لم يمنع غورو من اتهام فيصل بدعم الانتفاضة بشكلٍ غير مباشر[77]. وكان هناك صراعاتٌ في مناطق أخرى يسيطر عليها الفرنسيون. ففي جنوب لبنان انتفض شيعة جبل العامل ضد الفرنسيين وحلفائهم الموارنة. وتم نهب عددٍ من القرى المارونية وحوصرت مدينة صور. ولم يتم إخماد الثورة إلا بعد وصول قواتٍ فرنسيةٍ كبيرة، حيث كانت الأعمال الانتقامية الفرنسية وحشيةً، إذ صدرت أحكامٌ بالإعدام على ستةٍ وثلاثين من قادة الحراك، وسوِّيت بلدة بنت جبيل بالأرض كردٍّ انتقامي، وفرَّ العديد من الثوار إلى فلسطين التي تحتلها بريطانيا وإلى داخل سوريا. وقد اشتكى فيصل بمرارةٍ للويد جورج من التحرك الفرنسي في جبل عامل، «المدفعية الفرنسية وقنابل الطائرات تدمِّر القرى بشكلٍ عشوائي وبدون شفقةٍ وتمزِّق السكان العزل إلى أشلاء»[78]. بيد أن انتفاضة جبل عامل كانت مرتبطةً بفيصل بشكلٍ عرضي. وكانت ثوراتٌ أخرى قد اندلعت في شمال سوريا. إذ كان صبحي بركات، الشخصية البارزة من منطقة أنطاكية وعضو في المؤتمر السوري لاحقاً، يقود مجموعةً من المتمردين لمناوشة القوات الفرنسية منذ أيار (مايو) 1919. وقد اندلعت ثورةٌ أكثر خطورةً بقيادة عضوٍ أخر في المؤتمر، وهو إبراهيم هنانو، في منطقة إدلب شمال حلب وامتدت لتشمل تقريباً كل الأراضي الواقعة بين الإسكندرونة وطرابلس. وكان هنانو ينسق عملياته مع كل من الشيخ العلي والأتراك. أنكرت الحكومة العربية تورطها في كل هذه الثورات، لكن هناك أدلة كثيرةٌ على أن فيصل قد ساعدها بالمال والسلاح وسمح لوحدات جيشه بتقديم دعمٍ خفي لعمليات معينة حيثما أمكن ذلك. وفي الوقت نفسه، كان لدى فيصل قائمة طويلة من الشكاوى الخاصة به ضد غورو. ففي رسالةٍ بتاريخ 16 أيار (مايو)، اتهم الشهبندر، بناءً على تعليماتٍ من فيصل، الفرنسيين بتسليح مسيحيي جبل عامل، وإذكاء المشاعر الانفصالية بين العلويين والدروز، وهندسة الانشقاقات في صفوف جيش فيصل، والتغاضي عن الإهانات ضد الإسلام وشخص فيصل بين المتطوعين المسيحيين في الجيش الفرنسي[79].

انهيار مملكة سوريا

واجه الفرنسيون أيضاً انقسامات داخل المجتمع الماروني[*] الذي كان يُنظر إليه حتى ذلك الحين على أنه كتلةٌ واحدةٌ تدعم الانتداب الفرنسي، وهو ما أعطى فرنسا أكبر عذرٍ لبسط سيطرتها على لبنان. فقد كانت هناك مجموعةٌ مهمةٌ من القادة المسيحيين تتفاوض سراً مع فيصل لتحويل ولاءاتها علناً إلى الحكومة السورية، إذا قبلت بلبنانٍ مستقلٍ مرتبطٍ بسوريا. ولا

(*) الموارنة: إحدى طوائف المسيحيين المهمة، يتبعون كنيسة المشرق السريانية، ويتركزون في لبنان، ويتواجد عدد منهم في سوريا أيضاً. (المُراجع).

شك في أن هؤلاء القادة قد تأثروا بغياب المشاعر الطائفية وبالحماية التي تمنحها حكومة فيصل للأقليات، لكنهم كانوا يتصرفون أيضاً بناءً على شائعاتٍ مفادها أن فيصل كان مستعداً لمنح لبنان الاستقلال الذي سعوا إليه بشرط أن يحافظ لبنان على ترتيبٍ كونفدرالي مع سوريا. وفي 10 تموز (يوليو)، كان وفدٌ من القادة الموارنة، مؤلفٌ من سبعة أعضاء من المجلس الإداري بقيادة شقيق البطريرك الماروني سعد الله حويك، في طريقه إلى دمشق للتوصل إلى اتفاقٍ خاص مع فيصل. ثم يتجهون بعد ذلك إلى أوروبا، حيث يعتزمون عرض قضيتهم المتمثلة بلبنانٍ مستقل بدون انتدابٍ فرنسي. لكن المجموعة اعتُقلت في بلدة زحلة اللبنانية، ثم نُفِيَت إلى كورسيكا. وحلَ غورو المجلس الإداري ودفع البطريرك الماروني إلى إرسال برقيةٍ إلى فرنسا يعلن فيها استمرار ولائه. وقد حمَّل الفرنسيون فيصل المسؤولية الشخصية عن الحادث واتهموه برشوة المندوبين[80]. ولو أن الوفد قد استطاع الوصول إلى أوروبا، لكانت فرنسا ستُحرج بشدةٍ من وجود هكذا وفدٍ رفيع المستوى وسط مؤتمر السلام، مما سيدحض ادعاءاتها بأنها الأقدر على حماية مسيحيي لبنان.

كما تسببت قضايا أخرى تبدو ثانويةً في توتر العلاقة بين الحكومتين الفرنسية والسورية. فقد تم منع رفع العلم السوري الجديد على مكتب الارتباط السوري في بيروت، ووضع غورو حداً لذكر اسم فيصل في الصلوات العامة. وقد رأى المسلمون في لبنان في ذلك تدخلاً مباشراً من جانب الفرنسيين في شؤون الدين. لكن ترتيب خط سكة حديد حلب ـ الرياق الذي يمر عبر الأراضي السورية كان المسبب في أكبر المشاكل. فقد كان الخط حيوياً بالنسبة لحركة الإمدادات والرجال الفرنسية الفاعلة إلى ساحات القتال في كيليكيا (قيليقيا)، لكن القوميين كانوا مصممين على حرمان فرنسا من استخدامه. وقد أدرك فيصل أن خط السكة الحديد كان حيوياً بالنسبة للجهود الحربية الفرنسية في كيليكيا (قيليقيا)، وأن غورو سيعتبر منع استخدامه بمثابة تهديدٍ خطير. ولم يغب عن ذهنه في الوقت نفسه أن الاستجابة لمطالب فرنسا لن تحظى بشعبيةٍ كبيرة. فكانت النتيجة سياسةً متذبذبةً سمحت للفرنسيين من حينٍ لأخر باستخدام الخط لنقل الإمدادات (ولكن ليس القوات أو العتاد الحربي)، بينما تعطَّل النقل الفرنسي بسبب عمليات التفتيش المتكررة على البضائع وإغلاق الخطوط والمظاهرات على طول مسار الخط. وبحلول 21 أيار (مايو)، تم إيقاف هذا الاستخدام المحدود للخط، حيث أنكرت الحكومة السورية، التي أذعنت للضغط العام، مؤقتاً على الفرنسيين أي استخدامٍ للخط. وهو ما أثار غضب غورو، حيث تعاطى مع الأمر على أنه عملٌ عدائي، وحمَّل فيصل المسؤولية الشخصية عن هذه السياسة، متجاهلاً نفيه بأن تكون هذه رغبته الشخصية، بل رغبة الحكومة التي كانت وراء هذه الخطوة.

لكن المشهد بأكمله في سوريا تغير بعد توقيع الهدنة الفرنسية الكمالية. وقد فسَّر القوميون بحماقةٍ وقف إطلاق النار على أنه «نصرٌ» للكماليين، لكن العقلاء أدركوا أنه ليس فألاً حسناً على استقلال سوريا وسيادتها. فقام فيصل برحلةٍ خاطفةٍ إلى حلب لتقييم الوضع عن كثب وقياس مدى الدعم الذي يحظى به هناك. كما ذُكِر أنه التقى بمبعوثي مصطفى كمال، لكن أي محاولاتٍ للدخول في تحالفٍ مع الأتراك كان مصيرها الفشل، فقد كان فيصل نفسه يتردد دائماً في ربط قضيته بقضية مصطفى كمال، وبعد الأحداث الرهيبة للحرب الكبرى، انقسم عرب سوريا حول جدوى الدخول في تحالفٍ جديدٍ مع الأتراك. فتقلص هامش المناورة لدى فيصل إلى أضيق الحدود وكان في مواجهةٍ مع غورو العدواني، الذي تعزز موقفه بعد إفلات قواته من جبهة كيليكيا (قيليقيا). ومتوجِّساً للغاية من تحركات غورو التالية، أرسل فيصل ببرقيةٍ إلى كرزون في 19 حزيران (يونيو) ذكر فيها: «لقد فوجئت كثيراً بسماع الهدنة بين الفرنسيين والأتراك تحت قيادة مصطفى كمال، مما يُخلِّف جزءاً أكبر من شمال سوريا وكيليكيا (قيليقيا) للأتراك... إن تمركز القوات الفرنسية التي أخلت كيليكيا (قيليقيا) وسوريا يقود المرء إلى الاعتقاد بأن قائدهم العام [غورو] يعتزم إيجاد بعض العذر لبدء العمليات العسكرية ضد حكومتي وإلحاق أضرارٍ بالغةٍ بها»[81]. ووراء غورو كان يقف ميليراند حاملاً القدر نفسه من العدائية، حيث لم يكن يرى أي ميزةٍ في التحالف مع فيصل أو في الاتفاقية التي أبرمها فيصل مع كليمنصو. كان ميليران قد مهَّد الطريق بالفعل للنتيجة النهائية مع فيصل، فكلَّف غورو بمهمة جعل فيصل وحكومته يتماشون مع قرارات سان ريمو، وباحتلال سكة حديد حلب ـ الرياق، وحلب نفسها إذا لزم الأمر، وأمرَ الحكومة السورية بوضع حدٍّ لنشاطات فرق الفدائيين. فإن لم يمتثل فيصل لهذه المطالب، فإن غورو سيحتل دمشق وينزع سلاح السكان ويعتقل المسلحين. وقد تُركت إدارة مرحلة شنُّ العملية ضد فيصل وتوقيتها ـ عاجلاً وليس آجلاً ـ لغورو ليقررها[82]. وفي غضون ذلك، كانت التعزيزات في طريقها لدعم قوات غورو في بلاد الشام، وأعلن ميليران أمام الجمعية الوطنية أن فرنسا مستعدةٌ لإرسال 30 ألف جندي لاحتلال دمشق وحلب، بينما تحدث روبرت دي كايكس عن 60 ألفاً، الأمر الذي جعل حتى القومي المتطرف ياسين الهاشمي، الذي عاد مؤخراً من منفاه في فلسطين، يتروَّى من حجم القوة العسكرية الفرنسية التي يتم حشدها[83].

باتت نوايا فرنسا الآن واضحةً تماماً، فقد اعتزمت تلك الدولة على بسط نفوذها المباشر على كل سوريا وعلى تفسير شروط الانتداب بمصطلحاتٍ استعماريةٍ جديدة. أما بريطانيا، فجُلُّ ما استطاعت فعله هو مراقبة هذه التطورات بصمت. فقد أتاحت فرنسا لبريطانيا حرية التصرف في إدارة الشؤون في فلسطين وبلاد الرافدين، وتوقعت أن تردّ لها الجميل في سوريا. وأيّاً كانت

الالتزامات المتبقية التي شعرت بها بريطانيا تجاه فيصل فقد تمت المساومة عليها عبر إعلان الاستقلال وعزم فرنسا على فرض سيطرتها على سوريا، وبالقوة إذا لزم الأمر. وكل ما كان بإمكان بريطانيا فعله هو الدعوة بصورةٍ مبهمةٍ للاعتدال وتقديم المشورة لفيصل لعقد أفضل صفقةٍ ممكنة مع الفرنسيين. فغيَّر فيصل موقفه عندئذٍ، وبدلاً من الاعتراض على الإجراءات الفرنسية، عرض أن يساعد جيشه الفرنسيين في كيليكيا (قيليقيا)، لكن غورو رفض بشدة. وعندها سأل غورو بشكلٍ صريح عما إذا كانت فرنسا تعتزم مهاجمة سوريا، فردَّ عليه غورو بإجابةٍ غير مُلزِمة تجنَّب فيها أي تأكيدٍ أو نفيٍ مباشر[84]. ومع وجود القليل من الخيارات المتبقية أمامه، رأى فيصل أن أفضل أملٍ له هو في السفر إلى أوروبا في أقرب وقتٍ ممكن، فقد احتاج إلى عرض قضيته أمام مؤتمر السلام آملاً بلا طائلٍ أن يتمكن من تلافي اتخاذ إجراءٍ وشيكٍ ضد سوريا، فلعل بالإمكان حثُّ فرنسا أو الضغط عليها لتعليق أو حتى إلغاء استعداداتها للحرب، لكن غورو لم يكن ليوافق على أيٍّ من هذا، إذ لم يكن ليتيح لفيصل الفرصة أن يُبطِل بالدبلوماسية ما كان على يقينٍ من أن فرنسا يمكن أن تحققه بالحرب. أخبر غورو فيصل أنه من غير الممكن له أن يحضر إلى أوروبا بعد تجاهله للطلبات الواردة إليه بالقدوم لمدة شهرين، ورغبته الآن بالمغادرة فوراً لحضور مؤتمر السلام دون استعداداتٍ لوجستيةٍ كافيةٍ ودون إخطارٍ بذلك غير ممكنة، حيث كان على غورو انتظار المزيد من التعليمات من باريس. وإذا ما أصرَّ فيصل على السفر إلى أوروبا عبر طريقٍ آخر غير بيروت، فقد ترفض فرنسا استقباله رسمياً[85].

وفي مواجهة موقف غورو الذي كان يزداد وعيداً، أرسل فيصل نوري السعيد إلى بيروت في أوائل تموز (يوليو) للتأكد من نوايا غورو عن كثب. وقد كُلِّف كذلك بانتزاع اعترافٍ رسمي من غورو باستقلال سوريا وبفيصل كملكٍ عليها. ولكن بدلاً من الاستجابة لطلبات فيصل، عاد نوري حاملاً معه إنذاراً أخيراً شفهياً من غورو، طالب فيه باحتلالٍ فوري لخط سكة حديد حلب ـ الرياق، والاعتراف بالانتداب الفرنسي على كل سوريا، والموافقة على العملة السورية التي تبنَّتها فرنسا وحرية التداول بها، والتخلي عن التجنيد العسكري الإلزامي. وتأخر نوري، في طريق عودته إلى دمشق في 11 تموز (يوليو)، لعدة ساعات بسبب التحركات العسكرية الفرنسية على طول الطريق والتي كانت تُنذر بالسوء. ودون انتظار رد فيصل، احتلت الوحدات الفرنسية سكة حديد حلب ـ الرياق في 12 تموز (يوليو). وكان المبرر لذلك هو أن الوحدات العربية قد عزَّزت القاعدة الأمامية الصغيرة بالقرب من عنجر في سهل البقاع. ولم يلقى احتجاج فيصل آذاناً، شأنه شأن عرضه اللاحق بتقليص الحامية في عنجر إذا ما انسحب الفرنسيون من سكة حديد حلب ـ الرياق.

الإنذار النهائي

مدفوعاً برد الفعل العربي الضعيف تجاه مبادراته العسكرية، أصدر غورو إنذاراً نهائياً رسمياً موجَّهاً إلى فيصل في 14 تموز (يوليو). وقد أَتبَعَ فيه، بصورةٍ موسَّعة وبطول عشر صفحات، بنود الشروط الشفهية التي حملها نوري، مع مطالب إضافية تتضمن تقليص حجم الجيش ومعاقبة أولئك الذين يُعتبرون مذنبين بارتكاب أعمال عدائية ضد فرنسا. وقد أُعطي فيصل مهلة أربعة أيام لقبول شروط الإنذار دون قيدٍ أو شرط، فإن لم يكن هناكُ ردٌّ وشيك، فسيفرض غورو شروطه بالقوة. أرسل فيصل على الفور مستشاريه عادل أرسلان ونوري السعيد إلى حيفا لطلب المشورة والدعم من ألنبي. كان الرأي العام البريطاني، وحتى البرلماني، يؤيد بعض الإجراءات لردع العدوان الفرنسي، لكن هذا لم يكن له تأثيرٌ يذكر على سياسة الحكومة. فقد كانت الحكومة البريطانية تغسل يديها من القضية برمتها. وأبرق اللورد هاردينج إلى ألنبي قائلاً: «أخشى أنه من المستحيل علينا التدخل، فمع منح الفرنسيين الانتداب على سوريا في سان ريمو، امتلكوا حقاً سابقاً وحصرياً فيما يتعلق بالشؤون السورية، بحيث لن يكون من الصواب أو من الملائم أن نعترض عليها... وإذا ما تسبب موقفهم الحالي من فيصل في وقوعهم في مأزق، فتلك ستكون مسؤوليتهم وحدهم»[86]. وقد سعى فيصل كذلك للحصول على دعم إيطاليا، التي شعرت بأنها خُدِعت، بسبب القرارات التي اتُّخِذت في سان ريمو. وقدَّم السفير الإيطالي في دمشق لفيصل الكثير من التعاطف ولكن مع القليل من المساعدة العملية[*].

وعلى الصعيد المحلي، كان موقف فيصل يزداد انعزالاً أيضاً. وكان قد ألقى كلمةً مطوَّلةً بمناسبة نهاية شهر رمضان في القصر الملكي بدمشق في 28 أيار (مايو). وقد حاول فيها أن يجد سبيلاً آخر غير الاستسلام أو اليأس، ورفضَ مبدأ الانتداب لأنه يتعارض بشكلٍ صارخٍ مع فكرة استقلال سوريا.» كلمة انتداب ليس لها تعريفٌ أو معنىً واضح وقد رفضتها الأمة رفضاً قاطعاً. إنه مصطلحٌ مطَّاط يتم تفسيره أحياناً على أنه أسوأ أشكال الاستعمار وأحياناً بأنه ألطف سبيلٍ لا يؤثر على الاستقلال. وأياً كان معناه، فهو وصمة عارٍ على جبين أمةٍ تريد أن تعيش [حرةً]. أتمنى أن تعرف الأمة أن زعيمها أو حاكمها أو ملكها الذي انتخبته يؤمن بهذا. وهو، [فيصل]، لن يقبل ما قد يُقال بأن المملكة التي يحكمها ترزح تحت وصاية مملكةٍ أخرى... لا ينبغي أن ينتشر

(*) كان من المفترض ـ بحسب الاتفاقيات السرية بين الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ـ أن تُطلق يد إيطاليا في جنوب الأناضول، بما في ذلك أدنة (أضنة) وأزمير وقونية وأنطاكيا، لكنها شعرت بعد انتهاء الحرب ووفق مقررات مؤتمر سان ريمو إن هناك محاباةً وانحيازاً بريطانياً واضحاً لليونان، بحيث تم التخلي عن وعود الحلفاء لإيطاليا، وأخذت الأمور تجري لصالح اليونانيين، ومن ثمّ للحركة الكمالية. فاندفعت إيطاليا لعقد اتفاق تصالح مع الحركة الأخيرة نكايةً بالبريطانيين. (المُراجع).

اليأس إلى أيِّ شخصٍ؛ والأمر مرهونٌ بمفكِّرينا وقادة الرأي والناشرين لدينا إلا ينشروا [اليأس] لأننا سنحيا ولا يمكن لأحدٍ أن يمسَّ باستقلالنا... لن يحكم علينا أحدٌ بالموت، فمثل هذا الحكم لم [ولن] يمرّ»[87]. كان خطاباً مؤثراً وعاطفياً، لكنه أعطى الأمل فقط بدلاً من إيجاد مخرجٍ واضحٍ من الأزمة. وكانت الانقسامات في سوريا قد اشتدَّت بالفعل بين أولئك الذين يسعون فعلياً للاستشهاد وأولئك الذين يدعون إلى التسوية. وبات المؤتمر السوري، الذي كان فيصل يسعى إلى تقليص صلاحياته وأذيته المتكررة، منبراً للقوميين، ودفعَ باتجاه اتخاذ موقفٍ عدائيٍ من الفرنسيين. وكان العديد من الوجهاء، الذين يرون استحالة الوضع، يحاولون إعادة تنظيم المؤتمر من خلال إجراء انتخاباتٍ جديدة، على أمل الحدِّ من تأثير المتطرفين على قراراته. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت الحكومة أقرب إلى فيصل وجدانياً، فباستثناء يوسف العظمة، وزير الحربية، الذي كان مقرَّباً شخصياً من فيصل، تبنوا عموماً آراء معتدلةً[88].

على الرغم من الرغبة الشديدة في تجنب الأعمال العدائية، دُفع فيصل وحكومته إلى الاستعدادات للحرب. وفي 13 تموز (يوليو)، خاطب يوسف العظمة المؤتمر وأعلن إجراءات الطوارئ، فأُعلنت حالة الطوارئ، وفُرضت الرقابة على الصحافة، ومُنح الجيش صلاحية مصادرة المركبات، وتم استدعاء قادة الفرق الفدائية المختلفة إلى دمشق وغادروا حاملين تعليماتٍ لدعم الجيش في حالة القتال. وكان غورو قد قدَّر أنه ربما كان هناك ما يزيد عن 30.000 من القوات غير النظامية المتاحة لدعم جيش فيصل، لكن هذا العدد كان مبالغاً فيه على الأرجح. فقد كان الجيش العربي نفسه يتألف من حوالي 15000 جندي، لكن قلة الانضباط والمشاكل المتعلقة بالروح المعنوية كانت متفشيةً فيه. وتوقَّع الضباط فرار خُمس الجيش في حالة اندلاع أعمالٍ قتالية. كما كان يفتقر إلى الإمدادات ويعاني من سوء التسليح. فقد فشلت حكومة فيصل بشكلٍ ملحوظ في العثور على مصادر جديدة للأسلحة، إذ لا بريطانيا ولا فرنسا كانتا على استعدادٍ لتسليح الحكومة العربية بالأسلحة المتطورة. وكان العظمة يقود الاستعدادات العسكرية، وقد كان شاباً مفعماً بالحيوية والنشاط ومخلصاً لفيصل، لكنه كان أيضاً مفتوناً بمصطفى كمال وحملاته الناجحة ضد الفرنسيين، مُعتقداً أنه يستطيع استنساخ تلك التجربة في سوريا[89]. فطالب برفع عديد الجيش إلى 25 ألف رجلٍ وإقامة مواقع محصنة مُطلَّةٍ على سهل البقاع. لكنه كان شديد التفاؤل بشأن القدرات القتالية للجيش. فحتى عودة ياسين الهاشمي، الذي شذَّبته إقامته القسرية في فلسطين، لم يكن قد أدرج نبرةٍ واقعيةٍ في التخطيط العسكري، فبعد تفتيش تشكيلات الخطوط الأمامية، أبلغ الهاشمي فيصل أن الجيش ليس في وضعٍ يسمح له بمواجهة الفرنسيين. فعلى سبيل المثال، كان لا يملك ما يكفي من الذخيرة سوى لبضع ساعاتٍ فقط في المعركة. واجتمعت حكومة الحرب برئاسة فيصل في 16 تموز (يوليو) للنظر في تقرير

الهاشمي. وكان من الواضح أن العظمة منزعجٌ من مزاعم الهاشمي، لكنه رضخ عندما وُوجه بالأدلة على أن كل رامٍ لا يمتلك أكثر من 270 طلقة وأن كل قطعة مدفعيةٍ لديها ثماني قذائف فقط. وهذه بالكاد يمكن أن تصمد لمعركةٍ واحدة. ومع ذلك، فقد أعلن جميع الضباط أنهم ملزمون بواجب خوض الحرب[90].

وفي اليوم التالي، 17 تموز (يوليو)، دعا فيصل المؤتمر السوري إلى اجتماعٍ سري في القصر الملكي. وكان الاعتقاد السائد هو أنه سيُطلب من المؤتمر الإعلان بأن الحرب وشيكةٌ. طرح فيصل تساؤلاً عما إذا كان ينبغي عليهم الدخول في حربٍ ضد عدوٍّ قوي أو السعي إلى عقد تسوية. وانقسمت الآراء، حيث التزم معظم المندوبين الصمت، فيما دعا المندوبون من الغرب والجنوب (لبنان وفلسطين) إلى حربٍ دفاعية ضد فرنسا. كان فيصل يدرك أنه لا يمكن التوصل إلى إجماعٍ خلال المؤتمر. فالتقى المندوبون في وقتٍ لاحقٍ على انفراد، ودون التأثير المعتدل لفيصل، أصدروا قراراً يتهم الحكومة بالتصرف بخيانةٍ عبر استعدادها للانصياع إلى الإنذار الفرنسي[91].

ومع اقتراب موعد إنذار غورو، التقى فيصل مرةً أخرى بمجلس وزرائه في 18 تموز (يوليو). وتوصلوا إلى قرارٍ مصيري وافق عليه الجميع باستثناء يوسف العظمة، حيث رفضوا الدخول في حربٍ مع فرنسا ووافقوا على سحب القوات التي نشرها العظمة في التلال والمرتفعات المطلَّة على سهل البقاع وطريق بيروت ـ دمشق. وعندما صادق فيصل على قرار مجلس الوزراء، سارع العظمة للموافقة وأمر على الفور بانسحاب الجنود العرب من عنجر ومحيطها. وفي هذه المرحلة، عاد ضابط الارتباط البريطاني في دمشق، العقيد إيستون، إلى دمشق من بيروت، وأبلغ فيصل بعباراتٍ لا لبس فيها بضرورة قبول شروط الإنذار الفرنسي. فأبرق فيصل إلى غورو يخبره أن مجلس الوزراء وافق على انسحاب القوات من منطقة عنجر، لكن غورو رد ببرقيةٍ أكد فيها أنه يجب قبول شروط الإنذار وتنفيذها بالكامل. وعلى الرغم من ذلك، فقد مدَّد الإنذار حتى 20 تموز (يوليو). وفي 19 تموز (يوليو)، كتب فيصل إلى كوسيه، كبير ضباط الارتباط الفرنسيين في دمشق، يخبره بأن الحكومة السورية قد قبلت الإنذار دون قيدٍ أو شرط.

وفي اليوم نفسه، اجتمع المؤتمر السوري بقيادة زعيمه الجديد، الشخصية الدينية المؤثرة رشيد رضا، وأصدر قراراً بالإجماع يفيد بأن أي حكومةٍ قبلت بشروط فرنسا هي حكومةٌ غير شرعية. وتمت طباعة القرار وتوزيعه على نطاقٍ واسعٍ وظهر في جريدة العاصمة الرسمية[*]. وزار وفدٌ من المؤتمر فيصل في قصره لإبلاغه بقراره، حيث حدثت مُشادَّة بين رضا وفيصل. حيث

(*) جريدة العاصمة الدمشقية، صدرت بين عامي 1919 ـ 1929، تصدر إسبوعياً مرتين بثماني صفحات، رصدت نهاية الحكم العربي الفيصلي في سوريا وبدايات الانتداب الفرنسي عليها. (المُراجع).

سأله فيصل بغضب: من أنتم أيها القوم؟ أنا من أوجدت دولة سوريا، فرد عليه رضا عندها: أأنت من أوجد سوريا؟! سوريا موجودةٌ قبل أن تولد!»[92]. كان ذلك مؤشراً على تصاعد حالة القلق العام وتزايد التوترات التي كانت تجتاح العاصمة نتيجة إنذار غورو. وكانت الأمور تتجه نحو الذروة. وفي 20 تموز (يوليو)، وافق مجلس الوزراء أخيراً، والذي لم يكن على علمٍ بعد باتصالات فيصل السابقة مع غورو، على قبول شروط الإنذار وأبلغ كوسيه رسمياً بهذا المعنى. فقام كوسيه بدوره بتشفير قرار مجلس الوزراء، وفي حوالي الساعة 6 مساءً، أعطاه لمكتب تلغراف دمشق لإرساله إلى غورو. كان قراراً لا مفر منه، إذ كانت الحكومة ستقيس خياراتها بواقعية وتتجنب إراقة الدماء. فصدرت أوامر بتسريح الجيش، وتم حلُّ الوحدات الموجودة بالفعل في دمشق على الفور، وتم إخلاء الخطوط الدفاعية في عنجر أخيراً، وامتلأت الطرقات في المنطقة بصناديق الذخيرة والأسلحة المهجورة[93].

ومع وصول أنباء حلّ الجيش وقبول الإنذار إلى الجماهير، اجتاحت العاصمة عاصفةٌ من الاحتجاج، ودخلت في نوبةٍ من الانتفاضة. ووصف طه الهاشمي شقيق ياسين ومدير الأمن العام أحداث ذلك اليوم، حيث قال في مذكراته: «في 20 تموز (يوليو) غادر عدد من الجنود ثكنة البرامكة [في دمشق] ملوّحين بأسلحتهم وهم يهتفون بأن الحكومة استسلمت للفرنسيين... ثم انضم إليهم جنود آخرون وتضخم الحشد. فهاجموا الحصن ومستودع الأسلحة، وأطلقوا سراح السجناء مطلقين النار بكثافة»[94]. وفي تلك اللحظة، أظهر زيد، شقيق فيصل، رشاقةً وشجاعةً غير اعتياديتين. فمسلحاً بمدفعٍ رشاش، ويرافقه مساعدٌ واحدٌ فقط، هو الملازم العراقي بهاء الدين نوري، وقاد زيد سيارته باتجاه المتظاهرين مُطلقاً النار عليهم، مما أدى إلى تشتيتهم في جميع الاتجاهات. وكتب صبحي العمري الذي شهد هذه الأحداث: «لولا هذه الخطوة الجريئة من جانب الأمير زيد والمخاطرة الشخصية التي قام بها، لكانت الفوضى تعمُّ دمشق ومحيطها»[95]. وبعد استعادة النظام أخيراً، كان عدد الضحايا مرتفعاً جداً. فقد قُتل ما يقرب من مائتي شخص في أعمال الشغب في ذلك اليوم.

بيد أن الجيش الفرنسي لم يوقف زحفه. إذ لم يتلقَ غورو برقية كوسيه التي يبلغه فيها بقبول الإنذار في اليوم المحدد. حيث انقطعت خطوط التلغراف بين دمشق وبيروت ولم تصل البرقية إلا في اليوم التالي، 21 تموز (يوليو)[96]. وتقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال جوبيت، يتصدرها السنغاليون والشمال أفريقيين، نحو دمشق، واستولت على الجسور فوق نهر الليطاني، ووصلت إلى هدفها المنشود في ذلك اليوم عند سفح جبال لبنان الشرقية. وقد ضاءل حجم الجيش الفرنسي المنتشر من حجم القوات العربية المُدافعة حتى قبل إصدار أمر التسريح والحل المنفلت. فقد انضمت وحدات سلاح الفرسان والمدفعية إلى

عشر كتائب مشاة، بحيث بلغ عددها الإجمالي أكثر من اثني عشر ألف مقاتل، مدعومين بالدبابات وقاذفات القنابل.

تلقَّى فيصل ومجلس وزرائه نبأ تقدم الجيش الفرنسي بقلقٍ شديد، على الرغم من قبولهم للإنذار. وأبدى فيصل أشدَّ احتجاجٍ ممكنٍ على ما اعتبره تصرُّفٌ فرنسيٌّ غادر. فقد كانت خيانةً واضحةً وصريحةً للوعود التي قطعها غورو. ولم يعد من الممكن تجنب القتال، حيث أصبحت مسألة شرفٍ بالنسبة لفيصل وضباط الجيش العربي والشعب بشكلٍ عام. وظهر فيصل في الجامع الأموي الكبير بدمشق، حيث خاطب الناس قائلاً: «لقد سعيتُ لوقف تقدم جيش العدو عبر موافقتي على مطالبهم لكنهم خانونا... إذا كنتم تريدون بلدكم فاخرجوا ودافعوا عنها»[97]. وصدرت الأوامر إلى القوات المنحلَّة القادمة من عنجر لإعادة تنظيم نفسها في خطٍّ دفاعي غربي خان ميسلون، على بعد خمسةٍ وعشرين كيلومتراً فقط من دمشق، وأعطيت قيادة المواقع الدفاعية إلى اللواء حسن الهندي، بأمرٍ مباشرٍ من فيصل بالدفاع عنها حتى النهاية.

استحوذ الحماس الشعبي للحرب على الجماهير، لكن معظمهم انحرفوا عن الالتزام بالجبهة، بعد أن أصبح واضحاً لهم أن الرعاع ليسوا نِدّاً لجيشٍ نظاميٍ وحديث. ولم يكن حال اللجان الشعبية التابعة للشيخ كامل القصاب أفضل، فعلى الرغم من الوعود الرنَّانة، لم يتمكنوا من حشد سوى ألف متطوعٍ على الأكثر للقتال على الجبهة[98]. فقد تبجَّح الشيخ كامل القصاب أمام فيصل بأنه يستطيع إرسال عشرة آلاف مقاتلٍ إلى الميدان، لكن عندما أزفت اللحظة، ما كان منه إلا أن قدَّم بضع مئاتٍ من الطلقات و300 جنيه ذهبي كمساهمةٍ منه في المجهود الحربي. أما يوسف العظمة فقد تولَّى القرار النهائي للقوات المدافعة في ميسلون. وفي أحسن أحوالها فقد بلغ تعداد القوات العربية المدافعة عن الخطوط ثلاثمائة جندي نظامي، وبقايا فرقة الهندي(*) المؤلفة من بضع مئات إلى جانب جنودٍ آخرين حشدهم العظمة مع القوات غير النظامية والمتطوعين، بما في ذلك البدو والهجَّانة، وهو ما يعادل على الأرجح ألف رجلٍ آخر. وكانت مهمة فيصل الأساسية الآن هي كسب الوقت لوقف المعركة غير المتكافئة من الحدوث.

انتدب مجلس الوزراء حينها أحد أعضائه، وزير التربية والتعليم(**)، ساطع الحصري، للسفر إلى بلدة عاليه الجبلية، مقر غورو. ورافق الحصري جميل العشي ممثل فيصل السابق في بيروت والعقيد تولات. كانت مهمته محاولة إقناع غورو بوقف التقدم الفرنسي، وكان غورو في مزاجٍ عدائي

(*) اللواء حسن الهندي الذي أُعطي قيادة المواقع الدفاعية. (المُراجع).

(**) كانت تُسمى آنذاك وزارة المعارف في العهد الفيصلي في سوريا وفي عهد الإنتداب بالعراق، وتُعنى بشؤون التربية والتعليم وقضايا الثقافة، ويُضاف إليها عبارة (والصحة العمومية) أحياناً، كناية عن تولي وزيرها تلك المهمة أيضاً. (المُراجع).

وأصرَّ على أن التقدم الفرنسي كان مدفوعاً بحقيقة أن الرد على الإنذار لم يأتِ في الوقت المحدد. ثم تلا مجموعةً جديدةً من الشروط التي يتعين على الحكومة السورية الالتزام بها، إذا كانت تريد تجنّب الحرب. وكان أفظع هذه الشروط الجديدة هو المطالبة بتنصيب بعثةٍ فرنسيةٍ في دمشق للإشراف على تنفيذ الإنذار ورسم مسارٍ لتطبيق الانتداب. كما وافق على تمديد الهدنة ليومٍ آخر، حتى منتصف ليل 23 تموز (يوليو). غادر الحصري على الفور مجلس غورو عائداً إلى دمشق. كما حمل معه رسالةً شخصيةً من غورو إلى فيصل. وأعطى الحصري الرسالة لفيصل الذي بدا منهكاً، فقرأها واستمع إلى تقرير الحصري دون أن يقول شيئاً. ودعا إلى اجتماعٍ لمجلس الوزراء في اليوم التالي[99]. وفي 23 تموز (يوليو)، التقى فيصل مرةً أخرى بمجلس الوزراء للنظر في مطالب غورو الجديدة. وخلال الاجتماع، دخل كوسيه يحمل مطلباً من غورو بالسماح للجيش الفرنسي بالتقدم إلى ميسلون، حيث كانت المياه وفيرة. كان هذا دليلاً كافياً، حتى للمترددين، على أن فرنسا مصممةٌ على احتلال سوريا بالقوة. فقرر مجلس الوزراء توجيه نداءٍ عاجلٍ إلى جميع القوى، لمجرد إحداث أثرٍ رمزي لا غير. ورفض مطالب غورو الأخيرة لأنه اعتبر قبولها مقدمةً لحرب أهلية.

معركة ميسلون ونهاية مملكة سوريا

شنَّ الفرنسيون هجومهم بعد فجر 24 تموز (يوليو) بقليل، باتجاه وادي القرن وآبار ميسلون. وقادت الدبابات الهجوم، حيث هاجمت مركز المواقع العربية التي كانت مهيأةً على عجالة، فيما هاجم سلاح الفرسان والوحدات الأخرى من الشمال والجنوب. في البداية، كانت المقاومة من جانب مجموعةٍ متنافرةٍ من القوات العربية النظامية والمتطوعين كافيةً لإبطاء هجوم الدبابات. فاحتدم القتال العنيف في الساعات القليلة الأولى، حيث حوصرت سريتين من القوات السنغالية من قبل قواتٍ عربية، لكن الخنادق العربية في الوسط تم اجتياحها أخيراً وتحوَّلت المعركة بشكلٍ حاسمٍ لصالح التفوق الساحق للفرنسيين. كان يوسف العظمة بشجاعته المتهورة يوجِّه عملية الدفاع، وكان يخطط لتفخيخ الخنادق بالألغام لوقف تقدم الفرنسيين لكنه قُتل في مقرِّ قيادته قبل أن يتمكن من القيام بعملية التفجير. تفكَّكت القوات العربية وتحوَّل انسحابها إلى هزيمةٍ نكراء حين هاجمت الطائرات الفرنسية خطوطها وقصفتها. وبحلول الساعة العاشرة صباحاً، انتهت المعركة. كانت كارثةً عسكريةً، لكن اسمها سُجِّل في التاريخ العربي كمرادفٍ للبطولة والشجاعة اليائسة في مواجهة الصعاب الهائلة، وكذلك الغدر والخيانة. استعدَّ الفرنسيون للتقدم نحو مدينة دمشق. وفي اليوم السابق، كانت حلب قد استسلمت بسلام للقوات الفرنسية بقيادة الجنرال جوبو.

كان فيصل متواجداً في الجبهة على طول خطوط الدفاع الثانية في قرية الحمَّة، وكان بإمكانه

متابعة التقدم المُحرَز في القتال. ومع تكشُّف عملية الاندحار، تقرَّر أنه على الحكومة أن تنسحب إلى بلدة الكسوة، على بعد عشرين كيلومتراً جنوب دمشق وعلى سكة حديد الحجاز. وكان على فيصل أن يذهب إلى هناك بالسيارة، بينما ينضمُّ إليه باقي أعضاء مجلس الوزراء بالقطار من دمشق. وجاءت الحكومة كلها إلى محطة السكة الحديد باستثناء وزير الداخلية علاء الدين الدروبي، الذي قدَّم عُذراً واهياً بأنه ينبغي عليه البقاء في العاصمة. وفي حقيقة الأمر، فقد كان على اتصالٍ بالفرنسيين الذين عرضوا عليه منصب رئيسٍ للوزراء في حكومتهم الجديدة. بقي أعضاء الحزب في الكسوة، في عرباتٍ مجهزةٍ خصيصاً حيث كانت بمثابة مكانٍ للنوم والعمل في انتظار وصول فيصل. وعند غروب شمس يوم 24 تموز (يوليو)، توجَّه فيصل بسيارته مع حاشيته إلى محطة الكسوة، ورفض الدخول في أي نقاشٍ جادٍّ حول الخطوات المقبلة للحكومة. كان مكبوتاً، وبدا أنه ينتظر بعض الأخبار المهمة التي جاءت أخيراً على شكل برقيةٍ من نوري السعيد مع بعض الأخبار الكاذبة المطمئنة بشأن النوايا الفرنسية، حيث تم استدعاء فيصل للعودة إلى دمشق. وبدا فيصل مرتاحاً للرسالة، معتبراً مضمونها مدعاةً لبعض التفاؤل.

وفي اليوم التالي، 25 تموز (يوليو)، وصلته أخبار مشجِّعةٌ على ما يبدو من مسافرين من دمشق، واتخذ قراراً بأن يطلب من الدروبي، المعروف بموقفه المهادن للفرنسيين، تشكيل حكومةٍ جديدة. فأوفد أمين البلاط الملكي، إحسان الجابري، لتقييم استعداد الدروبي لتشكيل الحكومة. لكن الدروبي لم يكن يحمل أي شعورٍ بالندم في هذا الصدد. فكان قد أبرم بالفعل اتفاقه مع الفرنسيين وشكَّل حكومةً جديدةً، بمعرفتهم وموافقتهم، في اليوم نفسه. وقد استبقى بعض أعضاء الحكومة القدامى، واستبعد من اعتبرهم مسيئين للفرنسيين، أمثال الحصري، وجلب آخرين كانوا يعتبرون متعاونين مع النظام الجديد. وكان من بين هؤلاء ممثل فيصل السابق في بيروت جميل الألشي والنبيل الدمشقي عبد الرحمن اليوسف. كما التقى الجابري مع القنصل العام الإيطالي المتعاطف، ماركيز دي باتيرنو، الذي أبلغه أن الفرنسيين كانوا يعدُّون إعلاناً بعدم شرعية نظام فيصل وأن تنصيبه كان لاغياً وباطلاً. ونصح الماركيز الجابري بالتشديد على أهمية عودة فيصل الى دمشق لمواجهة هذه التحركات. فوافق فيصل وعاد بالقطار إلى دمشق مع عددٍ من أعضاء حكومته السابقين[100].

قام فاتح دمشق، الجنرال جوبيت، بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ، وتلا بياناً مُعداً يلعن فيه فيصل وسياساته: «جرَّ الأمير فيصل البلاد إلى ما يقارب شبراً واحداً فقط من الدمار ومسؤوليته عن الاضطرابات الدموية في سوريا خلال الأشهر القليلة الماضية واضحةٌ جداً وجسيمةٌ جداً لدرجةٍ تجعل من المستحيل تماماً أن يبقى في البلاد». وحين تم إخطاره بهذا البيان، أرسل فيصل على الفور برقيةً إلى غورو، يحتج فيها عبثاً على هذا الإجراء وطالب بأنه ينبغي على أي اتصالاتٍ أو تعليماتٍ مقدمةٍ للحكومة أن تمرَّ من خلاله. لكن المسألة كانت مسألة وقتٍ فقط قبل أن

يسأم الفرنسيون من هذه المشاحنات القانونية ويتخذون إجراءاتٍ حاسمةٍ ضده. ففي 27 تموز (يوليو)، أحضر له العقيد تولات، صديقه والمقرَّب منه أحياناً، رسالةً قصيرةً تأمره بمغادرة البلاد. وجاء في المذكرة: «يشرفني أن أبلِّغ سموكم أن حكومة جمهورية فرنسا قررت أن تطلب منك ومن عائلتك وحاشيتك مغادرة دمشق في أقرب وقتٍ ممكن عن طريق سكة حديد الحجاز. سيكون هناك قطارٌ خاص تحت تصرف سموك وحزبك». وكانت موقَّعةً من قبل غورو. رفض فيصل رسمياً المذكرة، ورفض الاعتراف بحق فرنسا في إلغاء سلطته في إدارة سوريا أو إلغاء لقبه الذي منحه له الشعب السوري(101).

بيد أن فيصل أدرك أن احتجاجاته كانت بلا جدوى. فغادر دمشق ليلة 27 تموز (يوليو) بالقطار متجهاً جنوباً باتجاه درعا. وكان المسؤول السابق الوحيد من حكومته الذي رافقه هو الحصري. وقبل مغادرته قام حشد من الناس، بينهم مجموعةٌ من الشباب القوميين من العائلات المرموقة، بزيارته في قصره. وأخبرهم فيصل أنه غير مستعدٍّ للسير على خطى الحاكم المصري، الخديوي توفيق، الذي أبرم صفقةً مع البريطانيين للاحتفاظ بالعرش، فهو لن يعقد اتفاقاً مع الفرنسيين على حساب أبناء بلده. ثم تابع: «سأغادر الآن إلى درعا ولا أعرف إلى أين سأتجه بعد ذلك ـ إلى الجنوب أو إلى الغرب. لقد طلبت الدعم من البلد مراتٍ عديدة، لكنهم [منتقدوه] قالوا إنني أبحث عن منصب أو أنني أبرمت صفقات سرية. أخبرتهم أن يثقوا بي وألا يخالفوني، حتى أجد لكم السبيل الصحيح، لكن لم يكن أحدٌ مهتماً... عندما رأيت الخطر بأمِّ عيني، وأشرتُ إلى أنه يتعين علينا اتباع سياسة الاعتدال والحكمة، لم يستمع إليَّ أحد، ولم تلقَ آرائي آذناً صاغية، لكن لا يهم، فعسى الله أن يجلب اليسر بعد العسر»(102).

وصل فيصل إلى درعا ليلاً وقضى ليلته في القطار، ولم يكن رفاقه الذين كانوا في انتظاره هناك على علمٍ بوصوله حتى صباح اليوم التالي. ويصف الكاتب أسعد داغر رد فعله عندما رأى فيصل يترجَّل من القطار في الصباح. «نزل الملك من القطار بابتسامته المعهودة لكنها كانت تُخفي ألماً بالغاً. انضممنا إليه في كافتيريا المحطة حيث تناولنا فطورنا بصمت، وكان حسّ الدعابة الودِّي لديه غائباً. ثم غادرنا الكافتيريا إلى دار البلدية حيث تم تجهيز أحد صالوناتها الكبرى كمسكنٍ مؤقتٍ له... جلس جلالته على إحدى الطاولات وبدأ في الكتابة لحوالي خمس عشرة دقيقةً. ثم نهض وراح يسير في الغرفة مكرراً أبيات الشاعر:

وَمَنْ رَعَى غَنَماً في أَرْضِ مَسْبَعَةٍ ونامَ عَنْها تَوَلّى رَعْيَها الأَسَدُ(103) (*).

(*) الأبيات لأبي مسلم الخُراساني (عبد الرحمن بن مسلم)، أحد أعمدة الدعوة العباسية وقوتهم الضاربة التي أسقطت دولة بني أمية (قُتل 137هـ). ومنها: أَدْرَكْتُ بالحَزْمِ والكِتْمان ما عَجَزَتْ/عنه مُلُوكُ بني مَرْوانَ إِذْ حَشَدُوا. (المُراجع).

مكث فيصل والوفد المرافق له ثلاثة أيام في درعا، واستغل الوقت هناك للقاء الزعماء المحليين وشيوخ العشائر، ونُصبت له خيمةٌ خاصةٌ بالقرب من القطار لهذا الغرض. وقد التقى به العديد من زعماء القبائل والوجهاء المحليين، وأعلنوا جميعاً ولائهم وإخلاصهم له، لكن فيصل كان يعلم أن دعم القبائل المحلية لمقاومة الفرنسيين سيكون فاتراً، فقد كان يعتمد كلياً على درجة الدعم الذي يمكن أن تولِّده هذه المقاومة من البريطانيين. كانت الحكومة الجديدة حذرةً أيضاً من تحركاته، ووجَّه وزير الحربية الجديد، الألشي، رسالةً الى قائد القوات العربية في درعا ليراقب عن كثب تحركات فيصل وألا يقدم له اي مساعدة[104]. كان فيصل الآن أمام خيارين، فإما أن يتجه جنوباً نحو شرق الأردن والحجاز، أو يتجه غرباً نحو فلسطين. فإذا اختار الأول، فهذا يدل على نيته في الاستمرار في السيطرة على جزء من سوريا، والبقاء على اتصالٍ مع كل من الحجاز والداخل السوري، وربما تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين من قاعدةٍ في عمّان. وإذا تحرك غرباً نحو حيفا، فهذا سيدل على نيته في الانتقال إلى أوروبا، حيث سيطرح قضيته أمام جمهورٍ دولي ويحاول استعادة موقعه. وكان لكل مسارٍ من هذين المسارين أنصاره ومنتقدوه، وتردَّد فيصل بين الاثنين. فقد نزع عناصر حاشيته من العراقيين لدفعه نحو تنظيم المقاومة في حوران، والاستمرار في حرب العصابات ضد الفرنسيين. بينما سعى آخرون، لأسبابٍ منها عدم تأكدهم من ولاء قبائل حوران والدروز، إلى اتباع سياسةٍ أكثر دبلوماسيةً تعتمد على التوصل إلى اتفاقٍ مع الفرنسيين، أو عرض قضية فيصل على مؤتمر السلام في حال فشل ذلك[105]. لكن فيصل لم يكن يمتلك ترف مناقشة الأمر على نطاق واسع، إذ أن العديد من مستشاريه وأنصاره قد تشتتوا، بعضهم هرباً من سخط الفرنسيين، والبعض الآخر للوصول إلى تسويةٍ مع النظام الجديد[106]. وقد كان بأمسِّ الحاجة للتشاور مع حسين وكذلك مع حلفائه البريطانيين السابقين. كما كان في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى التمويل لأنه غادر دمشق بدون نقود، واضطر إلى طلب مساعدةٍ ماليةٍ من والده.

أزعج مكوث فيصل في درعا الفرنسيين، حيث اعتقدوا أنه قد يخطط لإثارة ثورةٍ قبليةٍ ضدهم، وأمروا الدروبي بإرسال برقيةٍ إلى فيصل، بتوقيعه، يطالبه فيها بالمغادرة إلى الحجاز أو حيفا. وناشد الدروبي فيصل في البرقية «أن يسرع لإنقاذ حوران من الكارثة والخراب». وفي اليوم نفسه، ألقت طائرةٌ فرنسية منشورات فوق درعا وبلدات أخرى في حوران، داعيةً الأهالي لطرد فيصل من المنطقة. وقد حذَّر الفرنسيون السكان أنه إذا رفض فيصل المغادرة، فسيقصفون معسكره. وأعطوهم مهلة عشر ساعاتٍ حتى يغادر قطار فيصل البلاد. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن أمام فيصل خيارٌ سوى الاستعداد لمغادرة سوريا، فاختار الذهاب إلى حيفا.

فطلب فيصل حينها من عادل أرسلان، الذي كان موجوداً مسبقاً في فلسطين، الاتصال

بالمفوض السامي الجديد في فلسطين، السير هربرت صموئيل، للسماح له بالسفر إلى حيفا. ورحّب البريطانيون بتوجه فيصل نحو فلسطين وليس شرق الأردن. إذ كان التحرك جنوباً سينبّه الفرنسيين إلى أن فيصل ربما يخطط لبدء أعمالٍ عدائيةٍ ضدهم انطلاقاً من قاعدةٍ كانت مؤمَّنةً داخل الأراضي التي تديرها بريطانيا، حيث لم يكن البريطانيون مستعدين لقبول مثل هذا الاحتمال.

غادر قطار فيصل درعا متوجهاً إلى حيفا، ووصل هناك في 1 آب (أغسطس) 1920، مغادراً سوريا وعرشها إلى غير رجعة.

وهكذا انتهت سنتان ونصف كانت عاصفةً ومليئةً بالأحداث، سعى خلالها فيصل إلى إقامة دولةٍ مستقلةٍ للعرب في سوريا. لقد ابتعد الآن عن سوريا متجهاً نحو آفاقٍ جديدةٍ، وقد صقلته خاتمةُ الأسابيع القليلة الأخيرة من عمر مملكته، لكنه أكثر حكمةً بأساليب القوى العظمى ونزعات الخيانة للمطامع والعداوات السياسية لدى العرب.

هوامش الفصل الرابع عشر

1. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد IV، pp.565-66.
2. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 512 ـ 514.
3. المرجع نفسه، ص. 566. لم يكن مينترزهاجين أكثر المراقبين موثوقية أو نزاهة (في الواقع ثبت لاحقًا أن العديد من ادعاءاته مزورة)، لكن تعليقاته على فقدان مكانة الأشراف يمكن أن يدعمها المراقبون المعاصرون.
4. فيبي آن مار، مرجع سابق، ص 80.
5. المرجع نفسه، ص ص 409 ـ 411.
6. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 143 ـ 144. يعطي الحكيم تاريخ 10 تشرين الثاني (نوفمبر) 1919؛ يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 116.
7. المرجع نفسه، ص116.
8. درس القصّاب في الأزهر في القاهرة، وكان من أوائل أعضاء مجتمع الفتاة. كان قد غادر سوريا إلى مصر في بداية الحرب وتعاون مع الشريف حسين لفترة. كان أحد «السبعة» الذين وجهت إليهم الحكومة البريطانية إعلانها الشهير. عاد إلى دمشق بعد تشكيل الحكومة العربية.
9. كثير من الناس حصلوا على الفضل في تشكيل اللجنة، بما في ذلك الدكتور أحمد قدري، طبيب فيصل. أنظر: المرجع نفسه، المجلد1، ص 149 ـ 150.
10. أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 101 ـ 103.
11. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص144، الحاشية 2، نقلاً عن مقابلة شخصية مع الخطيب.
12. المرجع نفسه، ص ص 144 ـ 145.
13. المرجع نفسه، ص 523؛ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد 2، ص102.
14. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 116 ـ 117.
15. المرجع نفسه، ص122.
16. مالكوم ب. راسل، مرجع سابق، ص111.
17. رستم حيدر، مرجع سابق، ص527.
18. المرجع نفسه، ص 112.

19. المرجع نفسه، ص 113.

20. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص234.

21 ـ لم يكن الركابي أيضاً يحظى بشعبية حتى لدى المعتدلين، فقد أُتهم بالمحاباة والفساد.

22. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 123 ـ 24؛ خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 149 ـ 151.

23. جريدة العاصمة، العدد 87 تاريخ 25 كانون الأول 1919.

24. كادت أموال الحكومة العربية أن تنفد بحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1919. وفي حالة يأس، أرسل زيد برقية إلى والده أن يحوّل فوراً قدره 50 ألف جنيه مصري. لم يكن هناك شيء وشيك. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثاني، ص232.

25. غيرترود بيل، «سوريا في أكتوبر 1919»، مكتب الهند، 802/IO L / PS / 10، 15 نوفمبر 1919.

26. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 151 ـ 152.

27. اليعازر تاوبر، «الكفاح من أجل دير الزور: تحديد الحدود بين سوريا والعراق»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد. 23، ع 3 (أغسطس 1991)، ص 361–385.

28. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 514 ـ 515. كتب حيدر في مذكراته أن فيصل غضب من هذا التصرف وأمر زيد بالتنديد به باعتباره جريمة والقبض على الجناة.

29. المرجع نفسه، ص154، الحاشية 1، وزين ن. زين، النضال من أجل الاستقلال العربي، ص 147 ـ 148.

30. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص160.

31. المرجع نفسه، ص ص 164 ـ 165.

32. المرجع نفسه، ص.162 ـ 169.

33. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 123 ـ 24؛ أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 169 ـ 171.

34. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 124 ـ 126. وألقى كل من القصّاب ويوسف العظمة خطابات أكدت استعدادهما للقتال إذا لزم الأمر.

35. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 629 ـ 630.

36. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص175.

37. المقتطف، القاهرة، الجزء 3، المجلد 83، 1933.

38. خيرية القاسمية، مرجع سابق، ص 160 ـ 61؛ أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد 2، ص 173.
39. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 66 وص 120، الحاشية 49.
40. فيليب س. خوري، سوريا والانتداب الفرنسي: سياسة القومية العربية، 1920 ـ 1945، مطبعة جامعة برينستون، برينستون، نيو جيرسي، ص 38 ـ 39.
41. مراسلات فيصل ـ غورو (مراسلات فيصل ـ غورو)، تحرير: جورج اديب كريم، قسم الدراسات التاريخية، منشورات الجامعة اللبنانية، عدد 50، بيروت، 2009، ص 51 ـ 78.
42. رستم حيدر، مرجع سابق، ص. 649؛ مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص. 131 وص235، الحاشية 73. مدام بيرث جورج غوليس كاتبة فرنسية معروفة ومشهورة بمعرفتها وخبرتها في شؤون الشرق الأوسط. التقت بفيصل عدة مرات خلال إقامته في باريس وبعدها في دمشق.
43. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص87.
44. جوزيف جيفريز، مرجع سابق، ص321.
45. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 176 ـ 177.
46. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص164.
47. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 178 ـ 181. حيث ورد فيه النص الكامل لخطاب فيصل.
48. جريدة العاصمة دمشق، عدد 108، 11 آذار 1920. كما نقلت في خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص. 165، الحاشية 1.
49. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص136.
50. في مؤتمر أصغر بكثير للقادة السياسيين والعسكريين العراقيين في دمشق في اليوم نفسه، أعلن توفيق السويدي استقلال العراق، وكان عبد الله هو الملك المفترض.
51. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 236، الحاشية 12؛ خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص.165 ـ 66. لم يتوج فيصل بهذه الصفة لعدم توفر تاج. تُرك ذلك لتاريخ لاحق، وهو 20 مارس، لكنه نُسي بعد ذلك.
52. مراسلات فيصل ـ غورو، مرجع سابق، ص 98 ـ 99.
53. رستم حيدر وعوني عبد الهادي، اللذان ربما كانا أقرب المقربين لفيصل في هذا الوقت، يشيرون إلى هذا باستمرار. وبالفعل قال جعفر باشا العسكري إن فيصل ليس لديه طموح شخصي. أنظر السيدة ستيوارت إرسكين، مرجع سابق، ص3.

54. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق 137 ـ 138، نقلاً عن الإرساليات الفرنسية.

55. أنظر زين ن. زين، النضال من أجل الاستقلال العربي، ص147، الحاشية 2.

56. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.224–25.

57. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثالث، ص 82 ـ 83.

58. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الثالث عشر، ص 223.

59. المرجع نفسه، ص. 225. قبل يومين، أرسل السفير الفرنسي في لندن مذكرة إلى كرزون، احتج فيها بشدة على قرارات المؤتمر السوري وطالب السلطات باعتبارها باطلة.

60. المرجع نفسه، ص 226 ـ 229.

61. المرجع نفسه، ص232.

62. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.233–34. كان استخدام مصطلح «مؤتمر دمشق» في الوثائق الرسمية للإشارة إلى الكونغرس السوري محاولة متعمدة للتقليل من أهميته وشرعيته.

63. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثالث، ص85.

64. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص ص 158 ـ 159.

65. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.237–39. في سجل لقائه بالسفير الفرنسي في 30 آذار (مارس) 1920، كتب كرزون «أن الإعانة الأنجلو ـ فرنسية لفيصل والتي تبلغ 100 ألف جنيه إسترليني شهريًا لم تُدفع منذ نهاية عام 1919، وأنه يجب حجبها إذا بقي فيصل على سياسته غير الودية والمستقلة «.

66. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 623 ـ 627.

67. ديفيد لويد جورج، مرجع سابق، المجلد 1، ص622.

68. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص145.

69. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.257–58.

70. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 156 ـ 158.

71. المرجع نفسه، ص 162.

72. سليمان موسى، مرجع سابق، المجلد. الثالث، ص111.

73. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص162.

74. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.271–72.

75. مراسلات فيصل ـ غورو، ص 238 ـ 239.

76. المرجع نفسه، ص 247.

77. المرجع نفسه، ص ص 178 ـ 181.

78. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. XIII، pp.282–83.

79. مراسلات فيصل ـ غورو، مرجع سابق، ص 192 ـ 193.

80. وكانت مسألة ما إذا كان المندوبون يخططون لعرض قضيتهم بمحض إرادتهم، أو تم حثهم على القيام بذلك عن طريق الرشاوى، مثيرة للجدل؛ إذ لم يتم تسويتها حتى الآن، فبعد سنوات، كتب عادل أرسلان، مستشار فيصل، في صحيفة الحياة اللبنانية اليومية في 21 نوفمبر 1952 أن الوفد قد نسق أعماله مع نوري السعيد والسياسي اللبناني السني رياض الصلح. وقدّم لهم التاجر اللبناني المسلم الثري عارف النعماني تكاليف السفر الخاصة بهم. ومع ذلك، يقول الرحالة والمؤرخ أمين الريحاني، إن الأموال جاءت من فيصل ولكن تم توجيهها عبر النعماني. إلا أن النعماني كتب في عام 1953 وفي جريدة الحياة أيضاً، وادعى أن المبلغ الكامل البالغ 10500 جنيه ذهب منه وتم توجيهه عبر رياض الصلح.

81. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الثالث عشر، ص 288.

82. مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 89 ـ 90.

83. خيرية القاسمية، مرجع سابق، ص 195 ـ 196 وص 196، الحاشية 1.

84. مراسلات فيصل ـ غورو، مرجع سابق، ص 268 ـ 275.

86. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الثالث عشر، ص313.

87. المملكة العراقية مديرية الإعلام، مرجع سابق، ص 213 ـ 217.

88. حاول الفرنسيون ـ ونجحوا ـ في تخريب جزء من مجلس الوزراء من خلال المساعدات النقدية السخية والوعود بالوظائف في النظام الفرنسي الجديد. وعلى وجه الخصوص، تم كسب وزير الداخلية علاء الدين الدروبي إلى جانب الفرنسيين.

89. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 200 ـ 201؛ يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 180 ـ 181؛ مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 180 ـ 181.

90. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 181 ـ 182.

91. خيرية القاسمية، مرجع سابق، ص 200 ـ 201؛ يوسف حكيم، مرجع سابق، ص182.

92. المرجع نفسه، ص. 202، الحاشية 1.

93. المرجع نفسه، ص ص 202–203.

94. طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي، تحرير. خلدون صالح الحصري، المجلد1، منشورات دار الطليعة، بيروت 1967، ص 61 ـ 62.

95 ـ صبحي العمري، ميسلون، ج 3، ص 137 ـ 138.

96. الموضوع هو لماذا قُطعت خطوط التلغراف ومن هو المتهم. وأفضل دليل هي أن الخطوط قطعت أو سمح بأن تقطع كخدعة متعمدة من الفرنسيين لتحاشي استلام الموافقة على الإنذار الأخير. أنظر: مالكولم ب. راسل، مرجع سابق، ص 191 ـ 194.

97. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص ص 203 ـ 204، الحاشية 1.

98. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد 2، ص 251.

99. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 60 ـ 74؛ أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد2، ص 261 ـ 273.

100. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 79 ـ 82.

101. مراسلات فيصل ـ غورو، مرجع سابق، ص 354 ـ 356.

102. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 272 ـ 73؛ أمين الريحاني، مرجع سابق، المجلد. 2، ص. 206.

103. أسعد داغر، مرجع سابق، ص ص من 148 ـ 149.

104. أحمد قدري، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 274 ـ 274.

105. يوسف حكيم، مرجع سابق، ص 203 ـ 204.

106. المرجع نفسه، ص 198 ـ 199. ومن الذين غادروا من أجل الأمان النسبي لفلسطين، الشابندر والشيخ كامل القصّاب. وكان الضباط العراقيون مثل ياسين الهاشمي وجميل المدفعي في مأزق. لم يكن البريطانيون أصدقاءً لهم، فاغتنموا فرصتهم وبقوا في سوريا. أسعد داغر، مرجع سابق، ص 146.

الفصل الخامس عشر: على غير هدى

إن انغماس فيصل في عالمٍ عبثيٍ لا يعرف الرحمة، تحكمه التناحرات والمصالح بين القوى العظمى، والنهاية الكارثية لمملكته في سوريا، كان من شأنه أن يُدمي قلب المرء، بل ويحطِّمه، إذ استحالت التطلُّعات والآمال التي حملتها الثورة العربية هباءً منثوراً من حوله. وحين يتعلق الأمر باتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور، وهما البيانان اللذان يدلِّلان على النوايا الحقيقية للحلفاء، فلا مناص من أنهما طغيا على الغموض المدروس في رسائل مكماهون والتصريحات الأخرى من جانب البريطانيين والفرنسيين التي بدت وكأنها تعطي مصداقيةً لفكرة الاستقلال العربي. فسوريا ولبنان باتتا الآن تحت السيطرة الفرنسية المُحكَمة. وبعد خمسة أسابيع من سقوط دمشق في أيدي القوات الفرنسية، أعلن غورو عن منح لبنان وضعه الرسمي المستقل، مع إضافة وادي البقاع والسواحل المُشاطئة بما فيها طرابلس. وتحقَّقت طموحات الموارنة بإقامة دولة «لبنان الكبير»، التي اقتطُعت من سوريا التاريخية، وتم استبعاد فلسطين بشكلٍ واضحٍ من أي صلةٍ لها مع سوريا الموحَّدة، مع وجود مفوضٍ سامٍ صهيوني ملتزمٍ ومكلَّفٍ بتنفيذ شروط الانتداب التي دعت على وجه التحديد إلى تحقيق فكرة الوطن القومي لليهود. وكان العراق، وهو الإقليم الكبير الآخر من الإمبراطورية العثمانية السابقة، في خضِم تمرُّدٍ لم يكن من الممكن إلا أن يُسفر عنه تعميق السيطرة البريطانية. وفي سوريا، كان حلفاء فيصل من القوى القومية أكثر خطورةً على حكمه في كثير من الأحيان، نظراً إلى تهورهم واستخفافهم بالمعطيات السياسية، من أعدائه السابقين الفرنسيين، إذ كان هناك جحفلٌ من الوجهاء الساخطين والسياسيين الطموحين الذين لم يكن لديهم أي وازعٍ يردعهم عن إبرام الصفقات مع الفرنسيين لتعزيز أهدافهم الشخصية. وكان الحجاز نفسه، المُعدَم والرازح تحت ضغوطٍ ماليةٍ مستمرة، محكوماً من قبل حسين المتجهِّم والمتقلِّب باستمرار، ومهدَّداً من قبل قوات ابن سعود من ناحية، ومن خلال العلاقات الأكثر سخطاً وتوتراً مع بريطانيا، المُحسِن الأجنبي الرئيسي بالنسبة له، من ناحيةٍ أخرى.

لكن فيصل كان مصمماً على التعلم من التجارب المريرة التي خاضها في الماضي القريب، إذ لم يكن ليسمح لجسامة الخيانات والانقلاب على الأعقاب من أصدقائه وحلفائه السابقين، لا سيما البريطانيين، والنتيجة المدمرة في سوريا أن تقهره. وكان هذا أول مؤشرٍ حقيقيٍّ على أنه اكتسب سجاياً عميقةً تليق برجل دولةٍ، وسوف تصبغ شخصيته حتى نهاية حياته. لم يغير

فيصل هدفه الأسمى ـ وهو إنشاء اتحادٍ كونفدراليٍّ مستقلٍ من الدول العربية ـ ولكن بعد ما حصل له في سوريا، سيكون حذراً للغاية من السماح للقوميين والراديكاليين بتطويقه، ولن ينصاع بسهولةٍ لمواقفهم المتهوِّرة والمتطرِّفة. لقد استحدث مذهباً سليماً يقوم على الشكِّ في تأكيدات السياسيين والزعماء الدينيين الذين أدَّعوا بأنهم كانوا يتحدثون من أجل المصلحة العامة وأنهم قادرون على حشد مئات الآلاف من الناس. وتجلَّى ضعف الاستجابة لدعواتهم في التعبئة ومواجهة الفرنسيين بوضوحٍ في هزيمة ميسلون. أصبح فيصل أكثر ثقة بنفسه، مُدركاً أن حدسه الخاص سيكون مُرشداً لتصرفاته أفضل بكثير من السبيل الذي كان مضطراً لاتباعه. وقد انطوى هذا الحدس على احترامٍ صحيحٍ للمعطيات السياسية وللنفوذ على الأرض، ولتقدير نقاط ضعف المجتمعات العربية التي تلِج العصر الحديث وهي ترزح تحت ضغط قلة الموارد وثقافةٍ سياسيةٍ متخلفة، ولإدراك أن الانقسام والتشرذم يشكلان تهديداً حاضراً على الدوام ولا يمكن تجاوزه إلا من خلال قيادةٍ قويةٍ تقدم توجُّهاً هادفاً. كان فيصل يدرك أيضاً أن القوة والجبروت يجب أن تكونا متاحتان للحاكم الذي يواجه انشقاقاتٍ في الداخل وتهديداتٍ من الخارج. فأوجه القصور الواضحة في الجيش العربي في سوريا كانت لازمةً دائمة. ولا يمكن لأي دولةٍ أن تتوقع الاستمرار في المنطقة دون تشكيل قوةٍ قتاليةٍ على أساسٍ صحيح. وكانت هذه الموضوعات ستحدد موقفه من مجموعةٍ من القضايا بينما كان يستعد لمواجهة مأزقه المتمثل في الانجرار بلا هدفٍ في عالمٍ تتحكم فيه القوى العظمى بزمام الأمور.

كان التحدي الأول الذي واجهه هو إعادة تأسيس تحالفه مع بريطانيا، القوة الوحيدة التي كانت لديها الوسائل للتأثير على مجرى الأحداث ومعالجة النتيجة المدمرة للفترة الفاصلة في سوريا، ولو جزئياً. فقد كان البريطانيون مُحرجين بشدة من إعلان استقلال سوريا وباتوا مراقبين سلبيين في الأيام الأخيرة للمملكة السورية عندما سقطت في يد فرنسا. وكانوا منزعجين من الشائعات التي تقول أن فرنسا كانت ترغب في الحفاظ على شكلٍ من أشكال الحكم الملكي في سوريا، وأن الفرنسيين كانوا على استعدادٍ لدعوة الأمير سعيد الجزائري للعودة إلى دمشق لتولي العرش الشاغر حينها. وبحسب ما كتب كرزون في 31 تموز (يوليو) 1920 للسفير البريطاني في باريس، إيرل ديربي، في ردٍّ مبكِّرٍ على سقوط الحكومة العربية[1] «لقد خطر لي أن الفرنسيين قد يفكرون في تنصيب الأمير محمد سعيد مكان فيصل. سيكون هذا اختياراً مؤسفاً للغاية ولا يمكن لحكومة جلالة الملك أن تنظر إليه باطمئنان». ومع ذلك، فقد كان البريطانيون متحفظين بشكلٍ ملحوظ حول الطريقة الوحشية التي مارست بها فرنسا صلاحياتها. فكان كرزون قد التقى برتيلو، المسؤول الفرنسي البارز في وزارة الخارجية الفرنسية، في بولوني في 27 تموز (يوليو)، لمراجعة الوضع في سوريا. كان كرزون متفهماً للرد الفرنسي. وعلى الرغم من أنه كان من الممكن اعتباره

عبثاً شديد القسوة وفقاً لتقديراته، إلا أنه قبِل به نظراً لتحالفهما التاريخي والتزاماتهما المتبادلة. وقد كتب إلى السير جورج جراهام، السفير البريطاني في بلجيكا[2]، «يجب علينا [البريطانيين] الالتزام بهذه المشاركة بأمانة حيث أنني على ثقةٍ بأن الحكومة الفرنسية ستعمل بالمقابل على تسويةٍ في بلاد ما بين النهرين وفلسطين. «أما بالنسبة لفيصل، فقد اعترف كرزون بغطرسةٍ ببعض الاهتمام المتبقي بالنسبة له: «دخل [فيصل] في علاقاتٍ معينةٍ معنا، سواء فيما يتعلق بالتعهدات التي قدمناها لوالده بشأن استقلال الدول العربية، وكذلك بسبب علاقته بالمناطق التي كنا قد قبلنا بالانتداب عليها»[3]. كانت هذه حينها الأسباب الرئيسة الأخرى التي حملت بريطانيا على الاستمرار في التبشير ببعض الآفاق لفيصل. ولكن سبباً آخر كان قد أُضيف في أخر فترةٍ ولأول مرة، حيث أرسل القائم بأعمال الحاكم المدني لبلاد الرافدين، أرنولد تالبوت ويلسون، برقيةً في 31 تموز (يوليو) من بغداد إلى وزارة الخارجية طرح فيها إمكانية أن يكون فيصل ملكاً على بلاد ما بين النهرين. «هل تدرس حكومة جلالته إمكانية أن تعرض عليه [فيصل] إمارة بلاد الرافدين؟ حتى الآن كانت الاعتراضات بالنسبة للأمير [فيصل] حول هذا الأمر تتمثل في عدم العثور على أي شخصٍ مناسب. فلطالما اعتبرنا فيصل وقفٌ على سوريا. ولم يدفعني أي شيءٍ سمعته خلال الأشهر القليلة الماضية إلى تعديل آرائي حول عدم ملاءمة عبد الله وتجربتنا في الأسابيع القليلة الماضية في بغداد توضح إلى حدٍّ كبير أنه لن ينجح أي مرشحٍ محلي في الحصول على الدعم المحلي الكافي الذي يمكِّنه من النجاح، ففيصل وحده من بين جميع الحكام العرب يملك فكرةً عن مدى الصعوبات العملية التي تكمن في قيادة حكومةٍ متحضِّرةٍ بما يتناسب مع الأسس العربية»[4].

لكن عرش بلاد ما بين النهرين لم يكن يدور في ذهن فيصل وهو يشقُّ طريقه من درعا إلى حيفا.

الاستعدادات للعودة إلى أوروبا

وصل فيصل إلى حيفا في 1 آب (أغسطس)، وكان في استقباله حاكمها المُعيَّن من قبل بريطانيا، العقيد إدوارد ألكسندر ستانتون. توقف القطار أثناء الرحلة، في عفُّولة، وهي محطةٌ صغيرةٌ داخل أراضي فلسطين الخاضعة للإدارة البريطانية. وهناك قدَّم المقصف بعض الشاي لفيصل. لكن، وفي وقتٍ لاحقٍ في حيفا، قدَّم له قسم محاسبة الادِّخار في الجيش البريطاني في فلسطين فاتورةً بخسةً لقاء ثمن المرطبات[5]. لقد كان درساً مفيداً، وإن كان صادماً، لتذكيره بظروفه المزرية الآن. تم إيواء فيصل، مع عددٍ قليل من أتباعه، في منزل السيدة نيوتن، وهي من أشد المؤيدين للقضية العربية. استمر الحاكم في إبداء الرعاية والترحيب تجاه فيصل وزيد، لكنه

لم يبدِ ذلك تجاه وفود الزوار الذين سعوا للقاء فيصل. فقد كتب حاكم رونالد ستورس، ومن ثم حاكم القدس المعين من قبل بريطانيا: «لا يمثل فيصل وزيد ورابطة مستشاري الدفاع معهما أي إزعاجٍ، لكن المشكلة تكمن في الأعيان الآخرين الذين يتجولون في المكان ويدخلون ويخرجون مثل سربٍ من النحل، ولا يمكن للمرء أن يعرف أبداً عدد الوجبات المطلوبة على الغداء أو العشاء». وسرد قائمةً بأسماء الوفد المرافق الذي أراد الذهاب مع فيصل إلى مصر، في طريقه إلى أوروبا، وقال متأوِّهاً، «لا يمكنهم البقاء هنا إلى أجلٍ غير مسمى»[6].

وخلال الأيام القليلة التالية التي قضاها في حيفا، سعى فيصل إلى إعادة التواصل مع القوى الموجودة في الشرق الأدنى، ومع ألنبي في المقام الأول، والذي كان في ذلك الوقت في الإسكندرية. لكن ألنبي تحاشى مقابلة فيصل بكل السبل. فأرسل برقيةً إلى كرزون في 2 آب (أغسطس) بخصوص طلبات فيصل لعقد اجتماع: «ليس لدي أي مشورةٍ لتقديمها لفيصل، لكوني غير مُطّلعٍ على الموقف المستقبلي لحكومة جلالة الملك تجاهه، وأي استقبالٍ له سيترك بالتأكيد انطباعاً سيئاً لدى الفرنسيين. أقترح أن يتم نقله إلى إحدى المحطات على سكة حديد الحجاز، مثل عمّان، ومن هناك إلى المدينة. وإذا كنت ترى أنه من المستحسن أن يتم استقباله نيابةً عن حكومة جلالة الملك، فأنا أقترح في جميع الظروف أنه من الأفضل أن يستقبله المفوض السامي في القدس [صموئيل]»[7]. لقد كان تصريحاً قاسياً ومشيناً يصدر عن ألنبي تجاه حليفه زمن الحرب ورفيقه في القتال، لكنه عكس الشعور السائد بين كبار المسؤولين البريطانيين في الشرق الأدنى بأن فيصل يجب أن ينأى بنفسه طواعيةً عن المشهد لتجنب أي إحراجٍ محتملٍ للبريطانيين بسبب حضوره المستمر. توقَّع فيصل ذلك، وأبلغ صموئيل أنه يرغب في الذهاب إلى أوروبا على نفقته الخاصة، كما أكد له أنه لا يسعى لتعقيد العلاقات بين بريطانيا وفرنسا، ولا يخطط لأي تحركٍ ضد الفرنسيين[8]. أمر كرزون صموئيل بإبلاغ فيصل بأن الحكومة البريطانية تثمِّن تصريحه بأنه لا يرغب في إثارة الفتنة بين البريطانيين والفرنسيين. وعلاوةً على ذلك، فإن الحكومة البريطانية تدرك تماماً أنه [فيصل] بذل كل جهدٍ ممكنٍ لتحمُّل الموقف الصعب... وأنهم على ثقةٍ من أنه قد تتاح لهم في المستقبل الفرصة ليثبتوا له أن موقفه المخلص تجاه الحكومة البريطانية لم يُنسى»[9]. كانت إشارةً كافيةً من كرزون أنه لا يزال بإمكانه محاولة إنقاذ موقعه، وأنه لم يتم إغلاق جميع الأبواب في وجهه.

وفي 9 آب (أغسطس)، كتب فيصل رسالةً مفصلةً إلى والده حول الأحداث العاصفة التي وقعت في الأشهر القليلة الماضية والتي انتهت بمأساة ميسلون. فبدأ بالاعتراف بأن:

«حتَّم علينا واجبنا التَّحلي بالمرونة مع القوى العظمى بسبب أطماعها ونقاط ضعفنا. لكن ما منعنا من بلوغ هذه الغاية هما أمران: أولاً، المبادئ [التي أعلنها حسين] والتي كانت تعني

الرفض التام للتسوية والتساهل في أي قضيةٍ تمسُّ بالدعوة إلى استقلال الأراضي العربية. ثانياً، معارضة هؤلاء الشباب المتهورين المطالبين بالاستقلال بعناد لأي حلٍّ وسط، خاصةً مع الحكومة الفرنسية... كان بإمكاني أن أضرب هذه الأحزاب [الراديكالية] لكني خشيت حكم التاريخ عليّ. وكلّما كنت أصل إلى اتفاقٍ على بعض الأمور [مع القوى العظمى] بغضِّ النظر عن ظروفها المواتية، انتهى بي الأمر مُلاماً ومُداناً... كانت القوة الأجنبية الجشعة تنتظر ببساطة الفرصة المناسبة للانقضاض، حاشدةً قواتها والأمة [السورية] تكتفي بدور المراقب المذهول كما لو أن الأمر لم يكن له تداعياتٌ عليها. يجب أن أعترف مع الأسف أن الأمة تقول ولا تفعل... لقد أدخلنا التجنيد الإجباري لتأسيس جيشٍ مكوَّنٍ من 30 ألف جندي، لكن أعداد الفارِّين من الخدمة فاقت أعداد الذين خدموا. وقد تهرَّبت الأمة من دفع أي مساهماتٍ ماليةٍ في المجهود الحربي.

كتب فيصل أنه في ظل هذه الظروف المستحيلة، لم يكن لديه خيارٌ سوى البحث عن مخرجٍ سياسي من الكارثة الوشيكة. لكن غورو منعه من المضي في هذا المسعى. «لقد اعتبرتنا الدول الغربية، زُوراً، أمةً يمكنها الدفاع عن نفسها ومستعدَّةً لصراعٍ طويل، لكنني أدركتُ أننا لا نستطيع القتال لأكثر من ثلاثة أيام... على هذا الأساس، اضطررنا مُكرهين لقبول الإنذار [الفرنسي]... خاصةً أن الحكومة البريطانية أبلغتني أنها لن تتدخل ونصحتني بالتعامل مع الفرنسيين». وانتقل فيصل الآن إلى الحديث عن الدور المشين للأحزاب الراديكالية التي فعلت الكثير للحدِّ من أي فرصٍ للقتال كانت متاحةً أمام الحكومة العربية، فقد أشاعوا أجواءً فوضويّة من العنف وأعمال التخريب في العاصمة قبل يومٍ واحدٍ من موعد الإنذار. «بينما كان العدو على الأبواب، كانت مستودعات الأسلحة تُنهب وانتهى بنا الأمر نقاتل بعضنا. كانت الدهماء جاهزةً تحت الطلب وكان نداء الأحزاب المتطرفة وإطلاق النار مسموعين في كل مكان. لكن الحكومة أظهرت شجاعتها ونشرت وحدات المدافع الرشاشة عند التقاطعات الحسَّاسة. كانت حياتي وحياة الحكومة في خطرٍ حقيقي». ثم اشتكى فيصل بمرارةٍ من نفاق غورو. فقد ضربت أنباء الزحف الفرنسي نحو دمشق العاصمة كالصاعقة: «حتى أولئك الذين سعوا إلى عقد تسويةٍ مدركين لمواطن ضعفنا باتوا الآن مهتاجين وفضَّلوا الموت على الاستسلام. بدأ الناس بالتقدُّم بشكلٍ فوضوي نحو الجبهة وبدون أسلحة، ولم أستطع منعهم. لقد اكتفيت بالقول إننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا كما ينبغي ولكن لا يمكننا منع الناس من القتال أيضاً... كنتُ في خط الدفاع الثاني [في ميسلون] وشهدت ببالغ الأسى اندحار الأشخاص الذين فرُّوا من ساحة المعركة، وعرفت أن كل شيءٍ قد انتهى... عندها عدتُ إلى دمشق لمنع الفرنسيين من استغلال غيابي عن العاصمة والإعلان عن الإطاحة بي، لكن فقط بعد أن تأكدت من عدم وجود أسلحة لدينا وأنه ليس بإمكاننا نقل المعدات الثقيلة».

ثم وصف فيصل إقامته في منطقة درعا، حيث رأى بنفسه عزوف أهالي حوران عن القتال. على أي حال، كان فيصل يعلم أن «مسألة [الاستقلال العربي] لا يمكن كسبها بقوة السلاح ولكن بالوسائل السياسية فقط. عندها كنت مصمماً على المطالبة بحقوقنا أمام الاجتماعات السرية الدولية بدلاً من البقاء في جنوب سوريا في مناطق مثل عمَّان أو معان... ومع ذلك، فقد أرسلتُ الشريف محمد علي البديوي [أحد أقارب فيصل البعيدين] إلى عمَّان ليكون بمثابة نقطة تجمُّعٍ لنا»[10]. لقد كانت رسالةً صريحةً إلى حدٍّ لافتٍ، إذ لم يبيِّض فيصل صفحته ولم يحاول التملُّص من العواقب الوخيمة للكارثة السورية. كان ذلك جزءاً من التقييم الذاتي الصعب الذي كان فيصل يقوم به. وكما كتب عوني عبد الهادي في مذكراته عن هذه الفترة، «كان فيصل يُجري مراجعةً نقديةً لأفعاله في الماضي، مُظهراً ندمه على بعضها، ومُنتقداً علانيةً تصرفات الآخرين»[11].

كان فيصل بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الأموال، فقد غادر دمشق وهو لا يحمل سوى القليل منه، وكان مضطراً للاهتمام بحاشيته وتمويل رحلته إلى أوروبا. ولم يستطع أن يطلب أي صدقاتٍ من البريطانيين وكان يُحسن به إلا يفعل ذلك، حيث لم يكن هذا مقبولاً في ظل هذه الظروف. فأبرق إلى والده طلباً للمال، وردَّ عليه حسين بهفةٍ غير معتادة، إذ أرسل إليه 25 ألف جنيه إسترليني، حصل عليها فيصل في حيفا، لتغطية نفقاته الفورية والتحضير لرحلته إلى أوروبا.

بقي فيصل في حيفا حتى 18 آب، وكانت الأخبار الواردة من سوريا تحمل نسقاً موحداً من الإحباط، متحدثةً عن عمليات السلب التي يقوم بها الفرنسيون وخيانات الأنصار السابقين. كتب ساطع الحصري، الذي كان مع فيصل في حيفا، في روايته يوم ميسلون[*]: «تلقينا قدراً كبيراً من الأخبار، معظمها مزعجٌ للغاية، عن أعمال القمع التي يقوم بها الفرنسيين وتصرفات الخونة والعملاء المأجورين. كما حصلنا على تفاصيل الغرامات التي فرضها الفرنسيون على مناطق مختلفة من البلاد ونصوص أحكام الإعدام التي صدرت بحق العديد من القوميين من قبل المحاكم العسكرية. وتطالعنا مقالاتٌ في الصحف المأجورة في دمشق تنتقد بشدة الحكومة العربية وتثني على الفرنسيين. وقد أصدرت المحاكم العسكرية أحكاماً دون محاكمة، ولا حتى دعوةً إلى المحاكمة... كنا نلتقي كل يوم بعددٍ من اللاجئين [السياسيين] في حيفا»[12]. كان فيصل مكتئباً للغاية من الأخبار الواردة من سوريا وسلسلة أحكام الإعدام التي أصدرها الفرنسيون. وشملت قائمة المحكوم عليهم بعض أقرب معاونيه، مثل عوني عبد الهادي وأحمد قادري وإحسان الجابري[13]، (في الواقع، كانوا قد هربوا بالفعل من سوريا). قرر فيصل حينها أن يذهب في أقرب وقتٍ ممكن إلى سويسرا، حيث كان يجتمع مؤتمر السلام وحيث كان من المتوقع أن يذهب

(*) كتاب من 341 صفحة، نشره الحصري عام 1945، تحدّث فيه عن أهم الوقائع التاريخية التي مرّت بالعرب آنذاك، وأطماع فرنسا في سوريا والتنافس الدولي حول البلاد العربية. (المُراجع).

لويد جورج. ولكن نظراً لأن المرور عبر فرنسا كان مستحيلاً، كان عليه انتظار سفينةٍ تبحر إلى إيطاليا، ومن هناك سيتوجه بعد ذلك إلى سويسرا. كان فيصل مصمماً أيضاً على عدم الإبحار على متن أي سفينةٍ ترفع العلم الفرنسي أو البريطاني، فكانت أول رحلةٍ متاحة في 20 آب (أغسطس) من بورسعيد في مصر، متجهةً إلى نابولي في إيطاليا.

غادر القطار الذي يُقلُّ فيصل والوفد الصغير المرافق له والمتجه إلى مصر في صباح يوم 18 آب (أغسطس). وقبل مغادرته، أعطى فيصل العقيد ستانتون 1500 جنيه إسترليني لتغطية نفقاته. وكان في استقباله في محطة اللد على الساحل الفلسطيني المفوض السامي هربرت صموئيل ورونالد ستورز. وصف الأخير، في مذكراته، المشهد بالعبارات التالية: «ذهبت مع السير هربرت لأسلِّم على فيصل وزيد عندما مرّ قطار المنفى في اللد، حيث اعتلى مئةٌ من حرس الشرف من الرجال الأشدَّاء ظهور جيادهم لاستقباله. تمالك نفسه بوقارٍ وبعفَّة الإسلام النبيلة: فلم يطلق على الآلهة حقداً غاضباً \ ليبرر قلَّة حيلته، مع أنه كان يُغالب الدموع في عينيه وقد جُرِح في الصميم»[14]. وفي القنطرة على قناة السويس، استقبله عبد الملك الخطيب ممثل حكومة الحجاز في مصر. وأعطاه وباقي الوفد المرافق له جوازات سفر مملكة الحجاز لتسهيل عبورهم إلى أوروبا. كما نقل له الخطيب رسالةً من الحسين تضمنت تعليماتٍ لفيصل بعدم الذهاب إلى فرنسا وعدم مناقشة مسائل تتعلق بالسياسة العليا مع أي شخصٍ باستثناء الحكومة البريطانية، وأن أي مناقشات أو مفاوضات يجب أن تستند بالكامل إلى رسائل حسين ـ مكماهون. كما وجَّه الحسين اللَّوم إلى فيصل لإعلانه مملكةً مستقلةً وعدم قناعته بالبقاء ممثلاً له. وقد بنى حسين تعليقاته على أسسٍ زائفةٍ مفادها أن الحلفاء كانوا سيحترمون فيصل أكثر باعتبارهم قد اعترفوا بحسين مسبقاً كقوةٍ حليفة[15]. بعد أن غادر الخطيب، كان على فيصل ووفده المرافق انتظار قطارٍ آخر عبر قناة السويس لنقلهم إلى بورسعيد. وكان العديد من جماعته قد تركوه، لأنه ببساطة لم يكن لديه الأموال اللازمة لاصطحاب حاشيةٍ كبيرة. فقد استعفى أحمد قدري(*)، الذي كان يصحبه معه عادةً، لأنه كان شخصياً بحاجةٍ إلى المال واضطر إلى ممارسة مهنته الطبية في مصر لتغطية نفقاته. أما الآخرون الذين تخلَّفوا عنه، فقد تم تخصيص راتبٍ صغيرٍ لهم يتم تمويله من ميزانية الحكومة الحجازية لمصر. أما المجموعة الأخيرة التي اختارها فيصل لمرافقته إلى أوروبا فضمَت زيد، ونوري السعيد، وساطع الحصري، وإحسان الجابري، وتحسين قدري، المعاون الشخصي لفيصل. وبما أن الحكومة المصرية لم تعترف رسمياً بوضعه، فقد تُرك فيصل دون حراسةٍ في محطة القنطرة؛ هناك كان فيصل مُراقَباً وهو يجلس وحيداً فوق حقائبه منتظراً مغادرة قطاره[16]. وفي صباح يوم 20 آب (أغسطس)،

(*) أصبح طبيب فيصل الخاص، كان يصحبه في رحلاته المختلفة. (المُراجع).

استقلَّ هو ورفاقه في بور سعيد سفينة الشحن ستروبي، التي كان فيها غرفةٌ للركاب، متجهين إلى نابولي.

كانت الرحلة البحرية هادئةً، ووفَّرت متسعاً من الوقت للتفكير والتقييم. كتب ساطع الحصري في صحيفة يوم ميسلون واصفاً المحادثات مع فيصل.

«وفَّرت لنا الأيام الخمسة على متن السفينة أجواءً مريحةً تمكَّن الملك فيصل خلالها تحليل الماضي والتفكير في المستقبل. كما أتاحت لي أيضاً إجراء محادثاتٍ طويلةٍ معه ودراسة نفسيته. والحقيقة أن هذه الجلسات كانت استمراراً للمؤتمرات التي بدأت في حيفا. هناك كان الملك مشتَّتاً بين العديد من الأجانب وكذلك السوريين والفلسطينيين الذين كان عليه أن يقابلهم، وغالباً ما كانت محادثاتنا تنقطع ونادراً ما تكتمل. لكن، وعلى متن السفينة، كان المزاج الهادئ يفضي إلى التفكير المستمر... عند استعراضه للماضي، كشف الملك فيصل بعينٍ ناقدة عن الصواب والخطأ في سياساتنا ولم يتردد في التعبير عن أسفه واستيائه من تصرفات ومواقف بعض الأشخاص. لكن، وبالعموم، كانت أفكاره مركَّزةً على المستقبل وخططه لتدارك أخطاء الماضي، فقد أظهر اهتمامه بالمستقبل خاصةً خلال الأيام الأخيرة من الرحلة عندما كلَّفني بمهمةٍ جديدة... طلب مني الملك أن أذهب إلى اسطنبول وأجري اتصالاتٍ مع الكماليين لمعرفة مقدار المساعدة التي قد نتوقعها منهم في كفاحنا ضد الفرنسيين»[17].

وصل فيصل إلى نابولي في 25 آب (أغسطس)، وكانت خطته الفورية مكشوفةً، وهي الظهور أمام أعلى محافل الحلفاء ومواجهتهم شخصياً بوعودهم التي لم يتم الوفاء بها وإعادة عرض قضية الاستقلال العربي. لكنه كان قد فقد شرعيته ونفوذه اللذان كان يتمتع بهما كملكٍ على سوريا، ولم يكن على اتصالٍ رفيع المستوى مع البريطانيين، وقد قضى الفترة الفاصلة في فلسطين في استقبال الزوار والمهنئين أكثر من مناقشة مسائل السياسة العليا، فالمناقشات الجادة الوحيدة التي أجراها مع مسؤولٍ بريطاني كبير كانت مع هربرت صموئيل في محطة اللد. وكان صموئيل مهتماً فقط بالانتداب على فلسطين وتوسيع أراضيه لتشمل جنوب سوريا وشرق الأردن، عملياً[18]. فلم يكن لديه الكثير من الوقت أو الرغبة في دفع قضية فيصل أبعد من ضمان أن شرق الأردن لن يكون منصةً للتحريض ضد فرنسا. كان على فيصل أن يناور في هذه البيئة من السلطة المنهارة والآفاق الضيقة، فقد استحدث استراتيجيةً ذات شقين لمواجهة معضلته. الشقُّ الأول كان التواصل مع مصطفى كمال للبحث عن آفاق تحالفٍ عربي ـ تركي في حال أصبحت المقاومة المسلحة الواسعة ضد الطموحات الفرنسية والبريطانية ضروريةً، وكذلك لزيادة قيمة «الإزعاج» الذي يمكن أن يسببه للحلفاء. أما الجزء الثاني من استراتيجيته فقد كان التأثير قدر الإمكان على توجُّه السياسة البريطانية

في الشرق الأوسط، لا سيما الطريقة التي يديرون بها انتدابهم في بلاد ما بين النهرين وفلسطين وشرق الأردن.

كان فيصل قد كلّف ساطع الحصري بمهمة إقامة اتصالات مع الكماليين[*]. وكان هو نفسه قد أدلى بعددٍ من التصريحات المتعاطفة مع مقاومة الأتراك لاحتلال الحلفاء. وكان دائما يميز بدقةٍ بين أهداف الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية، وحق الأتراك في تقرير مصيرهم على أراضيهم. وفي سوريا، بطبيعة الحال، استنكرت الحكومة العربية عملياً استخدام خط سكة حديد حلب ـ الرياق من قبل القوات الفرنسية، ومن ثم، فقد دعمت بشكلٍ غير مباشر الجهود الحربية الكمالية في كيليكيا (قيليقيا). كان الحصري بالذات خياراً جيداً كمبعوثٍ للكماليين، فقد كان موظفاً عثمانياً مخلصاً، ويتحدث التركية أفضل من العربية، وعلى معرفةٍ ببعض اللاعبين البارزين في المعسكر الكمالي. استقل الحصري أول قاربٍ من إيطاليا إلى اسطنبول، والتقى سراً بعددٍ من الكماليين، وعاد بعد ذلك بوقت قصير إلى إيطاليا التي كانت بمثابة قاعدةٍ للقيادة الكمالية. لكن هذه الاجتماعات لم تسفر عن أي نتائج مهمة، ويرجع ذلك في جزءٍ منه إلى أن الكماليين كانوا يعتبرون البريطانيين وليس الفرنسيين أعداءهم اللدودين[**]، وفي جزءٍ آخر للاستياء المستمر من الثورة العربية[19]. وفي الواقع، فعند وصول فيصل إلى نابولي لأول مرة، أربكته إحدى وكالات الأنباء بوالده ونشرت خبر وصول الملك حسين إلى أوروبا. وقد التقطت النبأ المغلوط إحدى الصحف التركية، وهي صحيفة ييني غون، المملوكة لعضوٍ في الجمعية التركية الكبرى والذي كان مُقرَّباً من الكماليين[20]، ونشرت مقالا لاذعاً يدين الملك حسين ويتهمه بارتكاب أبشع الجرائم بحق الشعب المسلم، والسماح بسقوط الأراضي الإسلامية تحت الاحتلال الأجنبي. فقد كانت النقمة على الثورة العربية متأصلةً بعمق في الوجدان التركي، بغض النظر عما إذا كان المرء مدافعاً عن القضية العثمانية أو معارضاً لها.

(*) يُعرف أتباع القائد التركي مصطفى كمال آتاتورك بهذا الإسم إشارةً لتأثرهم بإصلاحاته، وهو يعبرّ عن الاثر البالغ الذي تركه الرجل في حركته. فهو «ابو الأتراك/ آتاتورك» وتضيف الكتابات العربية والأجنبية إلى حقبة حكمه وقوانينه ومبادئه تسمية «الكمالية». (المُراجع).

(**) إضطرت فرنسا إلى طلب الصلح من (الكماليين) على إثر الهزائم المتتالية التي تعرضت لها القوات اليونانية على يد الكماليين في الأناضول، وتحوّلت فرنسا إلى لاعبٍ أساسي لمغازلتهم، بهدف الحصول على المزيد من المكاسب الاقتصادية في تركيا الجديدة عن طريق التفاوض والمساومات وليس الحرب، وذلك على حساب بريطانيا. (المُراجع).

عالقاً في إيطاليا

غادر فيصل على الفور نابولي متوجهاً إلى روما، حيث استقل قطاراً إلى ميلانو وقطاراً من هناك متوجهاً شمالاً إلى سويسرا. وكان قد التقى لفترةٍ قصيرةٍ بمسؤول بالسفارة البريطانية في روما، الذي أعرب عن بعض القلق بشأن رحلته المقبلة. وكما يبدو فأنه قد تلقى تلميحاً من مسؤول السفارة بأنه يجب عليه إعادة النظر في رحلته إلى سويسرا، وهو سرعان ما تحول إلى طلبٍ قوي. وعندما اقترب قطار فيصل من الحدود السويسرية، استقبله الجنرال حداد باشا، ممثله في لندن، حاملاً له رسالةً شفويةً من الجنرال كلايتون، الذي كان قد التقى به في وزارة الخارجية، مفادها أن فيصل يجب أن يبقى في إيطاليا وألا يذهب إلى سويسرا. وقد أبلغ فيصل فيما بعد والده بما قاله له حداد. «ستكون الحكومة البريطانية ممتنةً للغاية إذا بقيت في شمال إيطاليا لعدة أسابيع أخرى، فهم ينصحونك بعدم الذهاب إلى سويسرا لأنها بلدٌ مليءٌ بالأجانب الفضوليين، وليس من المناسب أن تجد نفسك في مثل هذه البيئة. وفي الوقت نفسه، فهم لا يرغبون في رؤيتك في البلد نفسه وفي الوقت نفسه مع رئيس الوزراء البريطاني، لأنك إذا كنت متواجداً هناك، فلا شك أنك ستضطر إلى مقابلته، وهو غير مستعدٍّ في هذه المرحلة للنظر في مطالبك، وهذا قد يجعلك تندم على اجتماعك معه وتساورك الشكوك في نوايا الحكومة البريطانية تجاهك. وعلى هذا الأساس، تطلب منك الحكومة البريطانية الموافقة على تأجيل زيارتك حتى عودة رئيس الوزراء من هناك. وسيكون لدى الحكومة البريطانية المزيد من الوقت فيما بعد للنظر في قضيتك، وسيتم إبلاغك بالحضور إلى إنكلترا لإجراء المزيد من المناقشات»[21]. بيد أن هناك سبباً آخر كان وراء ثني فيصل عن الذهاب إلى سويسرا، وهو أن البريطانيين كانوا ولا بد قد شمّوا خبر محاولاته التواصل مع المقاومة التركية. ففي مذكرةٍ مؤرخة في 30 آب (أغسطس) 1920، ذكر اللورد هاردينج أنه أبلغ القائم بالأعمال الفرنسي في لندن «بأننا [البريطانيين] بذلنا قصارى جهدنا لمنع فيصل من القدوم إلى سويسرا، حيث سيكون من غير المُستحب أبداً أن يكون على اتصالٍ مع حزب تركيا الفتاة والشرائح الخائنة الأخرى»[22].

استجاب فيصل لرسالة حداد وغيَّر مسار رحلته إلى فاريزي، إحدى ضواحي ميلانو. ومكث هو والوفد المرافق له هناك لبضعة أيام ثم توجهوا إلى كومو شمال ميلانو بالقرب من الحدود السويسرية. وفي تلك الأثناء، كان مساعدو فيصل الذين بقوا في أوروبا لحضور مؤتمر السلام يبحثون عنه بجنون. كان رستم حيدر قد غادر باريس في 28 آب (أغسطس) إلى لوسيرن، حيث كان من المفترض أن يكون لويد جورج في إجازةٍ، برفقة جورج لطف الله، شقيق حبيب لطف الله الذي كان رئيس وفد الحجاز إلى مؤتمر باريس للسلام[23]. وعند وصولهم إلى الفندق الوطني في لوسيرن، اكتشفوا أن حاشية فيصل قد حجزوا غرفهم ثم ألغوا الحجز، فساد الارتباك حيث

لم يتمكن حيدر من تحديد مكان وجود فيصل، إلا أن مدير الفندق أطلعه في المساء على اسم إحسان الجابري، الذي كان يقيم في الفندق، والذي أخبره عن تغيير الخطط بعد اعتراض حداد لقطار فيصل. وأخيراً، وفي 1 أيلول (سبتمبر)، أرسل حداد برقيةً إلى جورج لطف الله يطلب منهم المضي قدماً إلى كومو حيث كان من المتوقع وصول فيصل في اليوم التالي[24]. تم الحجز لفيصل في فندق ميتروبول، وهو مبنىً قذر إلى حدٍّ ما في كومو، لكنه انتقل بعد ذلك إلى فندق فيلا ديستي في سيرنوبيو، على بحيرة كومو. أما حاشيته فقد بقوا في متروبول ولم يتبقى مع فيصل المزيد من المال ليعطيهم كي ينتقلوا إلى فندقٍ أكثر ملاءمةً، فكان على من يرغب في تغيير الفندق أن يتحمل فرق التكاليف بنفسه.

بقي فيصل مُحتجباً في شمال إيطاليا للأشهر الثلاثة التالية بانتظار آخر المستجدات من مؤتمر السلام، ومن الشرق الأدنى، ومن بريطانيا في المقام الأول، لتوضيح موقفه وإتاحة المجال له للتخطيط للأحداث اللاحقة. فهو لم ييأس تماماً من استعادة الأرض المفقودة في سوريا، وهذه المرة باللجوء إلى القانون الدولي. وأثناء وجوده في روما التقى بأستاذ القانون الدولي المعروف، البروفيسور بونفانتي من جامعة روما، حيث طلب منه إعداد حكمٍ قانوني بشأن القضية السورية وتصرفات الحكومة الفرنسية. ووعده فيصل بتزويد بونفانتي بجميع الوثائق والمعلومات اللازمة لمتابعة الإجراءات ضد الفرنسيين. قدم بونفانتي تقريره، الذي كان داعماً للقضية العربية، لكن فيصل لم يجد أي فرصةٍ لمتابعة توصياته[25]، فالاعتراف العلني من قبل الحكومة البريطانية بأفعال فرنسا في سوريا حال ببساطةٍ دون أي احتمالٍ لعودته إلى هناك.

كان الروتين اليومي في كومو مُملاً، وكان هناك مشاحناتٌ متكررة وغِيبةٌ بين أعضاء الوفد المرافق لفيصل. يسجل حيدر في يومياته الضجر المتزايد الذي كان يشعر به والشعور بالقنوط الذي حل على المجموعة. وفيصل نفسه تأثر بالسياق المثير للقلق، وفي مرحلةٍ ما أعلن أنه سيصبح بلشفياً ثورياً إذا أُجبر على العودة إلى الحجاز خالي الوفاض. «والدي يطلب مني العودة إلى الحجاز والاستقرار في الوجه. ما هي الفائدة من هذا؟ سأكون من بين كثيرين عالقين هناك مثل إخوتي. سيقال حينها إن الفكرة العربية هي حالةٌ ميؤوسٌ منها. رحيلي [للحجاز] سيضع حدّاً للفكرة العربية، على الأقل في الوقت الحالي... لكن وجودي هنا [في كومو] لا طائل منه. ماذا ينبغي عليَّ أن افعل؟ لا أعتقد أن البريطانيين سيفعلون أي شيءٍ في ظل الظروف الحالية. لم يبق لي شيءٌ سوى... العرب يقاتلون بشكل جيد إذا كانوا متأكدين من الدعم الأجنبي ولكن...؟»[26]. أبدى فيصل قلقه في برقيةٍ أرسلها إلى حداد في لندن: «أريدك أن تبذل قصارى جهدك لإخراجي من هذا المكان»[27].

يورد حيدر في مذكراته إلى أنه لا أحد يعلم أين يقف فيصل بالفعل، فهو لم يستطع مقابلة

ألنبي في مصر، وقد جاء إلى أوروبا دون اتفاقٍ مسبقٍ مع البريطانيين، وها هم جالسين في منتجعٍ على ضفاف البحيرة خارج الموسم، غير متأكدين تماماً مما يمكن توقعه. يذكر حيدر: «إن وجودنا اليومي بائس، ويود المرء أن يترك كل هذا ويغادر، لكن الشعور بالالتزام يبقينا هنا لتحمل هذا الملل. نحن نقيم في فندقٍ متواضعٍ حيث يتم سداد ثمن طعامنا وغرفنا [من قبل والد فيصل]، ولكن علينا دفع ثمن أي شيءٍ آخر ـ القهوة والشاي والبيرة (!) وغسيل الملابس. أما الآخرون [يشير على الأرجح إلى الأثرياء لطف الله] فهم يدخنون السيجار ويتجولون ببدلاتٍ جديدة... نحن معزولون عن أخبار العالم. نقرأ عنها في الصحف ولكن هذه لا تصل إلا بشكلٍ متقطع»[28].

حصلت معهم حوادث مزعجةٌ وأحداثٌ غريبةٌ أثناء إقامتهم في كومو. فعلى سبيل المثال، أقحمت امرأةٌ شقراء فاتنة نفسها بين الحاشية. وفيصل الذي بدا مفتوناً بها، تحدَّاها مباشرةً وسألها عما إذا كانت تتجسس لصالح أي شخص، فنفت المرأة أنها كانت جاسوسة، لكن فيصل رتَّب لها لقاءً مع شابٍ إيطالي مقيم في الفندق كان يشرب معها الكحول. وأثناء سُكرِها، أفشت له بأنها تعمل متخفيةً، ولكن في الوقت المناسب كان من المقرر استبدالها بعميلٍ أكثر احترافاً. كانت المرأة على الأرجح فنانةً محتالة. ففي الفترة نفسها، تمت سرقة مبلغ 175 جنيه إسترليني و6000 فرنك سويسري من غرفة فيصل، ولكن تم التغاضي عن المجوهرات الأكثر قيمةً بكثير والنقود الأخرى. وبلغت قيمتها أكثر من 15000 جنيه استرليني. وتم القبض على رجلٍ لكن شريكه هرب في سيارة[29].

وفي وسط هذا المعتزل القسري، قام وفدٌ من حركة الخلافة الهندية بقيادة مولانا محمد علي بزيارة فيصل في سيرنوبيو[30]، حيث كانت المجموعة في أوروبا للتأثير على الحلفاء حتى لا يلغوا الخلافة. وكان اجتماعاً مثيراً للفضول حيث دعمت قيادة حركة الخلافة بشكلٍ عام القضية العثمانية وكانت شديدة الانتقاد للثورة العربية.

بيد أن فيصل التقى بهم، من جانبٍ للحصول على دعمٍ من الجالية الهندية المسلمة الكبيرة ومن جانبٍ آخر لإبعاد اللوم عن الهاشميين لخرقهم ما كان يُفترض أنه جبهةٌ إسلاميةٌ موحدة خلال الحرب. كتب حيدر في مذكراته: «التقى وفدٌ هندي بقيادة [مولانا] محمد علي ومرافقيه بجلالة الملك وتبع ذلك نقاشٌ طويلٌ حول المحاور القديمة وهي، الحاجة إلى تعاون المسلمين، وتجاوز الضغينة بين العرب والترك... ضرورة اعتراف العرب بالخلافة. فردَّ [فيصل] عليهم أنه يجب على المسلمين العمل معاً فعلاً، لكن الدعوة بالتوفيق للخليفة [بعد أداء شعائر الصلاة] لم تنقطع إلى ان أفرغ الأتراك خزائن المسجد النبوي في المدينة المنورة. وكان والده [حسين] قد حذرهم من القيام بذلك. فجلالة الملك الهاشمي [الحسين] لا يطمع بالخلافة وهذا أمرٌ

يقرِّره المسلمون، والأتراك الآن هم من يتجنب مساعدة العرب. ثم أضاف فيصل خلافاً للعادة: إن الأنباء التي تتحدث عن أن هناك مفاوضاتٌ [بين العرب] والأتراك وجمال صحيحة ولكن... يجب أن يتم عقد مؤتمرٍ لجميع المسلمين سواء في مكة أو المدينة خلال موسم الحج المقبل. «وبحسب حيدر، كانت النقاشات حادَّةً، وتم تبادل كلماتٍ قاسية لم تلِق بفيصل. «سأل محمد علي [فيصل] إذا كان صحيحاً أنه قبل فكرة الانتداب، فأجابه فيصل أنها كذبة، فلو كان قد قبل بالانتداب لما حدثت إراقةٌ للدماء. ثم قال محمد علي إنهم كانوا يتمنون أن تكون كل بلاد العرب ملاذاً للمسلمين من الحرمان الذي مارسه الأجانب ضدهم. لكن، وللأسف، عندما كان السيد حسن [محمود الحسن، وهو أحد الزعماء الهنود المسلمين المهمين] في مكة، اعتقله الشريف [حسين] وسلَّمه إلى البريطانيين[31]. وقد ترك هذا انطباعاً سيئاً بين المسلمين الهنود.» ومع انتهاء الاجتماع بهذه الملاحظة اللَّاذعة، لم يكن فيصل في حالةٍ مزاجيةٍ تسمح له باستضافة زواره، فتناولوا العشاء بمفردهم في فندق فيلا ديستي، حيث دفع جورج لطف الله فاتورتهم.

ولوجود متَّسعٍ من الوقت لديه، كتب فيصل مذكرتين طويلتين ومهمتين، واحدةٌ إلى والده والأخرى إلى لويد جورج. أما الرسالة الموجهة إلى لويد جورج فقد كتبها في وقتٍ مبكرٍ من إقامته في كومو، وكانت بتاريخ 11 أيلول (سبتمبر) 1920، وكان الغرض منها عرض تفاصيل القضية العربية وعدالتها المترسِّخة والأحداث التي أدت إلى الانهيار في سوريا. وقد قصد من تلك الرسالة، التي نقلها الجنرال حداد باليد إلى لندن، أيضاً مواجهة الدعاية الفرنسية التي صوَّرته كمنافقٍ ومدفوعٍ برغبات سلالةٍ غير شرعية، وصوَّرت الحكومة العربية بأنها غير مؤهلةٍ وفوضوية وتعمل ضد مصالح الحلفاء. وقد صاغها بعباراتٍ تعكس شهامة ونُبل أسرته وعملها الدؤوب من أجل القضية العربية. إذ كان شرف عائلته وكرامتها على المحك بسبب الهزيمة في سوريا، حيث أن العرب خاضوا الحرب لأن والده هو من كان يقود القضية، وهو بدوره اعتمد على الوعود البريطانية. ثم أطلق فيصل إدانةً مفصَّلةً حول المخططات الفرنسية في سوريا والنوايا العدوانية للجنرال غورو. كان احتلال دمشق عملاً غير قانوني وقد تصرفت فرنسا كقوة احتلالٍ طوال الوقت. بيد أن بريطانيا كانت مختلفةً. «نحن [العرب] تفاوضنا مع البريطانيين وليس مع أحدٍ آخر. والوعود التي قُطعت لنا قدمها البريطانيون ولا أحد آخر... الأمر متروكٌ للبريطانيين فقط ليشهدوا على أنهم يفون بوعودهم.» ثم قال فيصل إنه كان يرغب في زيارة لندن كممثلٍ عن والده، حاملاً معه الإذن بمناقشة سلسلةٍ كاملةٍ من القضايا التي تؤثر على القضية العربية[32].

كانت الرسالة الموجهة إلى والده، بتاريخ 10 تشرين الثاني (نوفمبر) 1920، تحمل طابعاً أكثر تحليليةً ووصفاً. فإلى حدٍّ ما كانت ردّةَ فعلٍ من فيصل على رسالة والده، التي تم نقلها من خلال عبد الملك الخطيب، أن فيصل أخطأ بشكلٍ خطير بإعلانه مملكة سوريا.

لا أرغب في إلقاء اللوم على هذا الطرف أو ذاك، أو تحمُّل المسؤولية كاملةً على عاتقي أو إنكارها... أود فقط أن أقدم الحقيقة وأبحث في الأسباب الرئيسة التي أوصلتنا إلى هذه الحالة. أولاً، التحوُّل في السياسة البريطانية وتجاهلها للوعود التي قطعتها لجلالتكم. وقد كانت العوامل الأساسية التي دفعت السياسة البريطانية في هذا الاتجاه هي المطامع الفرنسية في سوريا وتركيز يهود العالم على فلسطين... ثانياً، إن الانقسام في الرأي في البلدان العربية سهَّل على الأجانب تقسيم قضيتنا والاستخفاف بها. ثالثاً، ولعُ السوريين بالكلام بدلاً من العمل. لقد علَّقنا آمالنا على أهل سوريا لأنهم كانوا الدعامة الأساسية للحركة القومية وهم الذين دفعونا إلى الانتفاضة [ضد العثمانيين]... كان من الممكن أن يكونوا [القوى الدافعة للحركة العربية] لو لم يبالغوا في تبجُّحهم وقاموا بواجبهم... ولكن مع الأسف الشديد كانت هذه التجربة مؤلمةً للغاية.

ثم استطرد فيصل بمرارةٍ ليصف مراوغاتهم، إذ أنهم لم يخدعوا أنفسهم وحسب فيما يتعلق بقدراتهم وشجاعتهم، بل خدعوه هو كذلك. كما لعبت الصحف دورها في إثارة الجمهور بشكلٍ غير مسؤول. «من السهل الدعوة إلى الحرب، لكن خوضها أمرٌ مختلفٌ تماماً... لقد شعرت أن الناس ككل لم يكونوا راغبين في الحرب... وعلمت أن الحقيقة ستكشف عن نفسها في اللحظة الحرجة وهذا ما كنت أخشاه... ولو لم تحدث [الثورة في] العراق لكانت [الهزيمة السورية] حلقةً مخزية... لكنها سمةٌ عربيةٌ لا ينبغي نسيانها... لن يستمر الوضع الحالي في سوريا على ما هو عليه ولا بد أن يكون هناك ردُّ فعلٍ عنيفٍ قريباً. إن التخلي عن أي أفكارٍ يائسةٍ والاستمرار في نضالنا هو أفضل قوة لدينا للمستقبل».

وتابع فيصل بالشكوى لوالده من تصرفات حبيب لطف الله، الذي كان قد أجرى عدة مقابلاتٍ صحفيةٍ في فرنسا، حيث خصَّ نفسه بدور ممثل الحسين في أوروبا. « لقد طلبت من جلالتك إلغاء أي سلطةٍ سابقةٍ كنت قد أعطيتها [لحبيب لطف الله] وأن تعينني صراحةً في هذا الدور لتبديد أي شائعاتٍ وسوء تفاهم. لقد وصل الأمر إلى النقطة التي قيل فيها في مصر إن ثقتكم بي قد اهتزت وأنكم أصبحتم تولونها الآن إلى حبيب لطف الله» [33]. وكان فيصل يدرك أيضاً أن الحكومة البريطانية قد سعت لإقناع الحسين بالتصديق على معاهدة فرساي. لكن حسين رفض بشدةٍ القيام بذلك، وأصرَّ على أن تفي بريطانيا أولاً بالتزاماتها تجاه العرب. بالإضافة إلى ذلك، فقد تغير موقفه تجاه البريطانيين بشكلٍ ملحوظ من التعاون إلى العرقلة، وقد لوحظ هذا التغيير بشكلٍ حاسمٍ في الإرساليات البريطانية. ففي رسالته، ناشد فيصل والده أن يعيد النظر في موقفه تجاه معاهدة فرساي بسبب المكاسب الجلية التي ستعود على دولة الحجاز من خلال عضويتها الرسمية في عصبة الأمم. وبطبيعة الحال فقد تناولت المادة 22 من معاهدة فرساي مسألة الانتداب، لكن كان بإمكان حسين التعبير عن تحفُّظاته على هذه المادة والإقرار في الوقت نفسه بالمعاهدة ككل، فموقفه الذي كان

يربط التوقيع على المعاهدة بوفاء بريطانيا بوعودها للعرب كان من المحتَّم أن يكون بلا طائلٍ، فضلاً عن أنه قد ينفِّر البريطانيين. ولعلَّ مناشدات فيصل لوالده قد تأثرت أيضاً بحاجته إلى أن يُظهِر للبريطانيين، في هذه الحالة على الأقل، أنه كان يعمل أيضاً لمصلحتهم. وبالإضافة إلى ذلك، فقد نصح فيصل والده بإقامة اتصالاتٍ مع البلاشفة الذين كانوا يتواصلون مع مسلمي الشرق. وقد قام زيد، الذي كان عائداً إلى مكة بإصرارٍ من والدهم، بنقل رسالة فيصل إلى الحسين. فقد أصبح فيصل شديد التعلق بزيد وآمن بقدراته ومزاياه. وكان قد طلب من والده السماح لزيد بالبقاء في أوروبا لإكمال دراسته في إحدى الجامعات البريطانية، وأن يقوم بتهيئته لمزيدٍ من المهام في خدمة أسرته والقضية العربية بشكل عام.

وأخيراً، كانت فترة انتظار فيصل في إيطاليا على وشك الانتهاء. ففي 21 تشرين الأول (أكتوبر)، أرسل فيصل رسالةً مع نوري السعيد إلى كرزون تفيد برغبته في زيارة لندن بصفةٍ خاصة إذا وجدت الحكومة البريطانية صعوبةً في استقباله رسمياً. وتمنَّى أن يلتقي بالملك جورج الخامس ويشكره شخصياً نيابة عن والده على الهدايا التي قدمها إلى الحسين. وفي تلك الأثناء، كان حسين قد عيّن رسمياً فيصل رئيساً لوفد الحجاز في أوروبا، مما سهَّل استقباله في لندن. وأصدر كرزون الذي أقرَّ بدور فيصل الجديد في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) تعليماته للقنصل العام البريطاني في ميلانو لإبلاغ فيصل بأن جورج الخامس كان في وضعٍ يسمح له باستقباله. لم يستطع فيصل المرور عبر فرنسا بسبب الموقف الفرنسي المعادي له. وكان عليه أن يخطط لعبور طريقٍ غير مباشر إلى إنكلترا يمر عبر النمسا وألمانيا ثم بلجيكا. وفي 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1920[*]، انطلق فيصل إلى إنكلترا مع وفده الصغير، ومرَّ موكبه عبر فيرونا ثم عبر ممر برينر إلى النمسا ومنها إلى ميونيخ. تم إخطار السلطات الألمانية بمرور موكب فيصل وتم تكليف الضابط الشاب بالخارجية، فريتز غروبا، بمرافقتهم. أصبح غروبا فيما بعد سفيراً في بغداد في ثلاثينيات القرن الماضي، وحقَّق شهرةً ـ وسمعةً سيئة ـ في دفاعه عن التعاون الوثيق بين العراق وألمانيا. يصف غروبا[**] في مذكراته رحلته عبر ألمانيا مع فيصل والوفد المرافق له والتي شهدت لحظاتٍ دراميةً عالية. فبشكلٍ غير متوقع، اضطر القطار إلى المرور عبر جزءٍ تحتله فرنسا من ألمانيا، واضطرَّ إلى التوقف لتفتيش عربات الركاب.

(*) عَلِق فيصل في إيطاليا مدة زمنية طويلة جداً، بلغت ما يقارب إثنى عشر إسبوعاً، امتدت من يوم وصوله نابولي بتاريخ 25 آب (أغسطس) حتى مغادرته الأراضي الإيطالية يوم 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1920. (المُراجع).

(**) عُيِّن فريتز غروبا قائماً بأعمال المفوضية الألمانية في بغداد سنة 1932، على إثر دخول العراق عصبة الأمم حتى سنة 1939، حين قُطعت العلاقات بين البلدين مع بدء الحرب العالمية الثانية. ثم عاد إلى العراق لثلاثة اسابيع فقط لدعم ما يُسمى «انتفاضة مايس» 1941. (المُراجع).

قمنا بإطفاء الأنوار في مقصورتينا. وكان الملك قلقاً بعض الشيء، فكان يسير إلى داخل العربة وخارجها. أما الأمير عادل أرسلان، الذي كان حكم الإعدام يلاحقه، حيث أصدره الفرنسيون عليه غيابياً بسبب نشاطه في سوريا ضدهم، فقد أمسك بندقيته بيده وصمَّام الأمان مغلقاً [قائلاً] «لن يأخذني الفرنسيون حياً. «وعندما وصلنا إلى هينيف، خرج الجنود الفرنسيون بخوذهم المعدنية وبنادقهم المتدلية على أكتافهم لحراسة القطار وتفتيشه. فقاموا بتفتيش المقصورات المختلفة لكنهم لم يفتشوا مقصورتنا لأن الأنوار كانت مطفأة. استغرق التوقف في هينيف حوالي 15 دقيقة ثم بدأ القطار رحلته مرةً أخرى. وصلنا إلى المنطقة البريطانية بعد فترة قصيرة، وتنفسنا جميعاً الصعداء. وبعد كولونيا، حيث تناولنا العشاء في أحد المطاعم، رافقت الملك إلى الحدود البلجيكية، وهناك خلع ساعته لونجين من يده وأعطاني إياها[34].

إيحاءاتٌ بمملكةٍ جديدة

لم يكن لدعوة كرزون لفيصل للحضور إلى لندن أي علاقةٍ بالسماح له بشكر جورج الخامس شخصياً على الهدايا التي قدمها إلى حسين. فقد كانت مسألةً مدروسةً بعناية وجاءت في وقتٍ كان البريطانيون يناقشون فيه بجديةٍ شكل حكومة انتدابهم في العراق. فمكتب الهند، الذي كان حينها مسؤولاً بشكلٍ مباشر عن إدارة العراق من خلال مكتبه المقيم في بغداد، لم يكن يتعاطى مع فكرة الاستقلال العربي أو الحكم الذاتي. ويذكر السير آرثر هيرتزل، رئيس الإدارة السياسية في مكتب الهند، متهكماً أن «[العرب] ليسوا أكثر كفاءةً على الإدارة بشكلٍ فردي أو جماعي من الهنود الحمر»[35]. بيد أن معارضة مكتب الهند الشديدة لأي حكومةٍ «محليةٍ» في العراق انتهت في أعقاب الثورة في العراق في صيف عام 1920. وأصبح من الأمور الملحة إيجاد حلٍّ سياسي للأزمة في البلاد من شأنه أن يوفر الحماية لمصالح بريطانيا ويلبي مطالب الضجيج الحاصل من أجل إقامة حكومةٍ محلية.

وصل فيصل والوفد المرافق له إلى إنكلترا في 1 كانون الأول (ديسمبر) 1920، على متن القطار المائي من أوستند إلى دوفر. وهناك استقبلهم كيناهان كورنواليس والجنرال حداد وفهمي المدرس، وتوجهوا إلى لندن حيث تم إنزالهم في فندق كلاريدج[36]. كان فيصل متخوفاً من اجتماعاته المقبلة في لندن، بعد أن بات متشككاً من نوايا كرزون الحقيقية. ففي النهاية، كانت الكارثة التي حلت به في سوريا تقع تحت أنظار كرزون في وزارة الخارجية، وشعر فيصل أن كرزون كان بإمكانه أن يدافع بحماسةٍ أكثر عن حكمه في دمشق، وكان بإمكانه أن يخفف، إن لم يوقف، التدمير الفرنسي لسوريا المستقلة. لكن في الواقع، كان كرزون مؤيداً كبيراً لفكرة استمرار التحالف البريطاني مع الهاشميين ليشمل جميع الأراضي التي كانت تحت الانتداب البريطاني.

كما كان يُكنُّ لفيصل أعلى درجات التقدير، ورفض إعطاء أي مصداقيةٍ للتهم الفرنسية فيما يتعلق بشخصية فيصل وازدواجيته. وفي مذكرةٍ إلى هاردينج، تجاهل كرزون المزاعم الفرنسية ضد فيصل. «لطالما أكدنا إلى الآن أن الفرنسيين كانوا مخطئين في نسبهم لفيصل الرغبة في التلاعب بنا ضدهم... كما نعلم، فقد أُجبر بضغطٍ من الرأي العام في سوريا على وضعنا في الخانة نفسها مع الفرنسيين في دعايته للاستقلال التام، لكن هذا كان من أجل التخلص منهم من سوريا... حتى لو ذهب إلى الحدّ الذي حثَّ فيه على إلغاء الانتدابين البريطاني والفرنسي، إلا أنه لم يفكر للحظةٍ لا هو ولا حزبه في الوقوف إلى جانب الفرنسيين ضدنا»[37]. لم يعترف كرزون بمملكة فيصل، ليس لأنه كان معارضاً للفكرة بطبيعته أو بسبب كراهيته له، بل لأنه أصرَّ على أن مكانة فيصل في سوريا لا يمكن تأكيدها إلا من خلال مؤتمر السلام وليس من خلال بعض الإجراءات أحادية الجانب. كان لويد جورج أيضاً من أنصار فيصل وكتب عنه بعباراتٍ مضيئةٍ في مذكراته. وبعد كارثة دمشق، لم يستطع لويد جورج أن يرى أي سببٍ يمنع فيصل من تولِّي عرش العراق.

لم يكن كرزون المدافع الوحيد عن فيصل في وزارة الخارجية. فقد كان وكيلا الوزارة الدائمان تشارلز هاردينج والسير آير كرو، اللذان حلَّا مكانه في تشرين الثاني (نوفمبر) 1920، من مؤيدي الهاشميين وكانا يشيدان بفيصل. كان تأثير لورنس محسوساً في جميع المستويات الدنيا لمؤسسة السياسة الخارجية، وكان تعاطفه مع فيصل واضحاً. فقد كتب لويس ماليت: «أود التأكيد على الأهمية التي توليها وزارة الخارجية لآراء العقيد لورنس، والتي تستند إلى معرفةٍ دقيقةٍ بالدول العربية، بما في ذلك بلاد ما بين النهرين... وله تأثيرٌ هائلٌ على فيصل»[38]. علاوةً على ذلك، كان اثنان ممن عرفوا فيصل وعملوا معه أثناء الثورة العربية وبعدها وهما، جيلبرت كلايتون وكيناهان كورنواليس، قد انضموا إلى وزارة الخارجية في صيف عام 1920 بصفةٍ مؤقتة. وقد تمكنوا ببساطة من تعزيز المجموعة التي تأثرت بآراء لورنس حول الهاشميين بشكلٍ عام وفيصل على وجه الخصوص. بالإضافة إلى ذلك، أصبح هوبير يونغ، بطل الحرب الحاصل على أوسمةٍ والذي كان مرتبطاً بجيش فيصل الشمالي، مسؤول مكتب وزارة الخارجية المقيم بشأن القضايا العربية، وكان هو أيضاً من أشد المعجبين بفيصل[39].

تمت دراسة اسم فيصل في بلاد ما بين النهرين بعد أيام قليلةٍ فقط من طرده من دمشق. فكتب ج. جاربيت، خبير وزارة الخارجية في بلاد ما بين النهرين، أنه «إذا كان الوفاق قادراً على تحمُّل الضغط فإن فيصل سيغدو أميراً كما نرغب»[40]، إذ كان مجلس الوزراء قد قرر في 3 آب (أغسطس) دعم فيصل ليؤدي دوراً في بلاد ما بين النهرين، لكنهم كانوا على درايةٍ بأن الفرنسيين سيعترضون بعنف، وكان لا بد من التعامل مع اعتراضهم بحذر. ففي 8 آب (أغسطس)، تواصل كرزون ولويد جورج مع الحكومة الفرنسية لمعرفة ما قد يظنونه إذا ما تم تنصيب

فيصل على عرش بلاد ما بين النهرين، وقد تم التوضيح لهما أن تنصيب فيصل ملكاً على بلاد ما بين النهرين سيعتبر «عملاً غير ودي». وقد ذكر السير إير كرو في 8 آب (أغسطس)، في أحد محاضر مناقشاته مع القائم بالأعمال الفرنسي في لندن، الهواجس العميقة، التي تقترب إلى حدِّ الكراهية، والتي كانت فرنسا الرسمية تُكنّها لفيصل[41]. وأمام هذا الموقف الفرنسي الحازم ضد فيصل، قرر مجلس الوزراء البريطاني في آب (أغسطس) 1920 إبقاء مسألة ترشيح فيصل لعرش بلاد ما بين النهرين معلقةً، إلى أن اجتمع الرأي العام في بلاد ما بين النهرين على ترشيحه وألغى الفرنسيون اعتراضاتهم.

كان لورنس قد ظهر من جديد بعد اختفائه المؤقت في ربيع عام 1920، حيث قاد حملةً عامةً لتوحيد جميع عمليات رسم السياسات في الشرق الأوسط في إدارةٍ واحد. كما أطلق حملةً لاذعة في الصحف ضد سياسات بريطانيا في بلاد ما بين النهرين، لا سيما إدارة أ. ت. ويلسون، التي حمَّلها مسؤولية تدهور الأوضاع الذي أدَّى إلى الثورة في العراق. بيد أنه، وفي سلسلةٍ من المقالات في صحف التايمز وسنداي تايمز والأوبزيرفر، وجَّه اهتمامه إلى الإشادة بفيصل ومحاسن حكم الشرق الأوسط عبر حلفاء ودودين بدلاً من الإدارة المباشرة التي يفضلها مكتب الهند، والتي أدت إلى هذه النتائج الكارثية في بلاد ما بين النهرين. ووصف فيصل بأنه مسكونٌ «بالوهج النبوي والبلاغة والحماسة والمعرفة». كان فيصل «نزيهاً ولبقاً ويعرف عن الحرب أكثر من أي عربيٍّ في الحجاز». لقد كان «معتدلاً يمنع المتهورين من إزعاجنا»، وكان «أكثر الرجال ديمقراطيةً». بيد أن الاتهامات الأكثر مماحكةً الصادرة عن ويلسون في بغداد وعن القائد العسكري البريطاني في بلاد ما بين النهرين، الجنرال أيلمر هالدين، بأن الثورة في العراق كانت في جانبٍ منها بتحريضٍ من فيصل أضرَّت بقضيته، ولكن لم يكن بالإمكان إثبات هذه الاتهامات بشكلٍ قاطع. وأفضل تعبيرٍ عن موقف وزارة الخارجية بشأن هذه المسألة قد ورد في أحد المحاضر التي كتبها يونغ حيث ذكر، «لا أعتقد أن فيصل مسؤولٌ بأي شكلٍ من الأشكال عن المشكلة... على الرغم من أنه ربما قد غضَّ الطَرف عنها»[42].

وباتت التوجهات المتصلِّبة بين كلٍّ من مكتب الهند ووزارة الخارجية بشأن إدارة الانتداب البريطاني في الشرق الأدنى ـ وخاصةً في العراق ـ عقبةً كأداء أمام صياغة موقفٍ مشتركٍ للحكومة البريطانية بشأن فيصل والشريفيين بصورةٍ عامة. فقد استعان مكتب الهند بريتشارد مارز، وهو أحد العاملين القدامى في بلاد ما بين النهرين وكان يعمل تحت قيادة ويلسون، وكذلك ن. ن. براي، الذي خدم في كلٍّ من بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية خلال الثورة. كان براي، الذي كُلِّف بالبحث في أسباب الثورة في بلاد ما بين النهرين، قد توصَّل إلى نتيجةٍ سلبيةٍ بشأن دور فيصل في إثارة الثورة: «يصعب وصف فيصل بالصديق... من المستحيل تصديق أن

فيصل كان جاهلاً بالعديد من الأنشطة المعادية لبريطانيا التي حدثت... لذلك كان متورطاً إما بشكلٍ نشطٍ أو سلبي»[43]. لكن براي ذهب إلى أبعد من ذلك في تحليله لأسباب الثورة من خلال نسبِها إلى مؤامرةٍ واسعة حيكت في موسكو وبرلين، مع مدلولاتٍ يغلب عليها الطابع الإسلامي العام والبلشفي. هذه التقارير ببساطة قسمت الرأي بشكلٍ أكبر بين مكتبي الخارجية والهند، حيث يسلِّم مستشاري كرزون أنفسهم «مرةً أخرى للتأثير المخدِّر لفيصل»، وفقاً لهيرتزل[44]، فمكتب الهند كان قد أقنع نفسه بأن فيصل كان وراء الاضطرابات في بلاد ما بين النهرين، بينما ألقت وزارة الخارجية باللوم على السياسات الرجعية لـ (أي تي ويلسون) في بغداد.

وصلت الأمور إلى ذروتها في اليوم الأخير من عام 1920، عندما واجه لويد جورج مسألة من سيتسلم موضوع صنع السياسات في الشرق الأوسط. فقد قرر مجلس الوزراء إنشاء قسمٍ جديد في مكتب المستعمرات يكون مسؤولاً بشكلٍ أساسي عن صنع السياسات في الشرق الأوسط. حيث سيتولى مكتب المستعمرات الآن إدارة شؤون بلاد ما بين النهرين وفلسطين. وفي اليوم التالي، عرض لويد جورج رأي مكتب المستعمرات على ونستون تشرشل(*). وكان فيصل بالكاد يدرك هذه الصراعات الحسَّاسة التي تحدث خلف الكواليس في وايتهول. لكنه لم يكن غافلاً عن الفرص التي قد تأتي في طريقه مع الأحداث التي كانت تحصل في بلاد ما بين النهرين، ولكن كان عليه أن يخطو بحذرٍ شديد، إذ لم يكن لديه سوى مؤشراتٍ غير مباشرةٍ وغير كافية للتوجهات في رسم السياسة البريطانية، كما كان حريصاً جداً على عدم تجاوز الحدود تحسباً لتعرض والده أو أخيه عبد الله لأي مكروه. وقد كان أول من طرح فكرة تواجده لتولي المُلك في بلاد الرافدين خلال لقائه في مصر في شهر آب (أغسطس) مع عبد الملك الخطيب. فبحسب إرساليةٍ من القيادة العامة في مصر، تُفيد بالمناقشات بين فيصل وعبد الملك، فقد ذُكر، «لقد سمع [فيصل] شائعاتٍ ملتبِسةٍ [عن العراق]... إذا كانت الحكومة البريطانية ترغب في ذهابه إلى هناك، فهو مستعدٌ إما بصفته حاكماً أو وصياً على عرش عبدالله. وأيّاً كان الخيار المطروح فلا بد أن يذهب على الفور من أجل وقف الاضطرابات الحاصلة في ذلك البلد»[45].

كتب مارس من مكتب الهند في محضره بتاريخ 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1920: «في هذه الأثناء، هناك أدلةٌ كافية على أن فيصل لديه تطلعاتٌ في بلاد ما بين النهرين. فوكيله في لندن، حدّاد، اتصل بمكتب الحربية التابع لوزارة الخارجية، وأخفق في مسعاه هناك، (هذا مقتطفٌ من محادثة مع الرائد [هوبرت] يونغ) بهدف الحصول على إذنٍ لأحد ممثلي فيصل لمخاطبة عائلات بلاد ما بين النهرين المنفية من سوريا قبل نقلهم من مصر إلى البصرة»[46]. وكان حداد

(*) جاء قرار نقل مسؤولية إدارة شؤون العراق وفلسطين إلى وزارة المستعمرات حسمًا للتنافس بينها وبين وزارة الهند التي حاولت مراراً ربطهما بها لا سيما الأول، الذي أرادت تحويله إلى إحدى محمياتها. (المُراجع).

قد التقى في وقتٍ سابقٍ مع العقيد فرانك بلفور في لندن، وأبلغه سراً أن «الأمير فيصل قد قرر الاهتمام بشكلٍ كبير بعرش بلاد ما بين النهرين، وهو ما سيعوضه خسارة عرشه في دمشق»[47]. لكن كانت هناك مؤشراتٌ أخرى، أكثر خصوصيةً، على استعداد فيصل لتولي عرش العراق. ففي يومياته بتاريخ 14 أيلول (سبتمبر) 1920، ذكر حيدر محادثةً جرت بينه وبين فيصل، «أخبرني ف [يفترض أنه فيصل] أنه يفضّل الموت على [حياةٍ لا صلة لها بـ] الحجاز. كان لا يزال يأمل في العراق لأنه كان يعتقد أن البريطانيين لا يريدون عبد الله. فإذا هدأت الأحداث الآن [كان العراق في خضم ثورة] فمن سيضمن مستقبله؟»[48].

لكن فيصل وصل إلى لندن وهو لا يزال غير متيقِّنٍ بشأن كيفية استقبال الحكومة البريطانية له. ففي رسالةٍ بتاريخ 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1920، موجهةٍ إلى زيد وقد كُتِبت بينما كان فيصل في طريقه إلى إنكلترا عبر ألمانيا، أعرب فيصل عن مخاوفه ولكن عن آماله أيضاً:

كل يومٍ يمرّ يقرِّب البعيد ويجعل قضيتنا أقوى وأكثر نجاحاً، لكن علينا أن نتحلى بالصبر والثبات وألا نضيِّع أي فرصةٍ، كبيرةً كانت أم صغيرة، ونغتنم كل ما في وسعنا ـ فالضعيف سيصبح أقوى، والأقوى سيصبح أكثر تقييداً. لا أعرف ما هي خطط الحكومة البريطانية تجاهي، وهل هي مستعدةٌ للتفاوض أم لا، لكنني لست يائساً. فإن هم قبلوا بالتفاوض فستكون رغبتي قد تحققت؛ وإذا لم يقبلوا، فسأناشد الرأي العام في بريطانيا وعصبة الأمم والمجتمع البريطاني. فالصحف الإنكليزية متعاطفةٌ معنا وسوف تجبر الحكومة، شاءت أم أبت، على التفاوض معنا. وإذا أخفق كل هذا، فسأكون حراً في فعل ما يجب عليّ فعله. فإذا أُوصِدَ بابٌ، فسيفتح الله لنا باباً آخر. وباختصار، فالفرصة سانحةٌ والتوقيت مناسبٌ، لكن التوفيق من عند الله[49].

هوامش الفصل الخامس عشر

1. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 323.
2. المرجع نفسه، ص 320 ـ 322.
3. المرجع نفسه، ص321.
4. المرجع نفسه، ص 323 ـ 324.
5. أحمد قدري، مرجع سابق، ص 276 ـ 77؛ أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 208.
6. رونالد ستورز، مرجع سابق، ص455. Storrs في رسالة إلى المنزل انعكست على حالة فيصل ولاحظ، «نحن جميعًا حزينون جدًا عليه، ولسنا متأكدين من أنه عومل بشكل عادل.» رونالد ستورز، مرجع سابق، ص. 455.
7. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 325 ـ 326.
8. المرجع نفسه، ص. 330.
9. المرجع نفسه.
10. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 141 ـ 143.
11. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص. 101.
12. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص. 85.
13. أحمد قدري، مرجع سابق، ص 277 ـ 278.
14. تتناقض هذه الرواية مع التعليق المؤذي والخاطئ الذي أدلى به صموئيل في مذكراته بأن شخصًا ما أخبره أن فيصل على وشك الانهيار، لأنه كان يعتقد أن حرس الشرف كان فريقًا معتقلًا. أنظر:

Herbert Samuel ‹Memoirs ‹Cresset Press ‹London ‹1945 ‹pp. 158–59.

15. محمد عزت دروزة، مرجع سابق، ص 570 ـ 71.
16. رونالد ستورز، مرجع سابق، ص. 456.
17. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 85 ـ 86.
18. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص. 334.
19. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 87 ـ 90. كان حلقة الاتصال الرئيسة للحصري مع الكماليين هو فريد باي، وزير المالية. كان فريد باي يكاد يرفض مبادرات الحصري. «لا

نعرف الموقف الحالي لمجموعة الحجاز الحاكمة تجاهنا [الكماليين]. ومع ذلك، نعتقد أن هذه الحكومة مستجيبة للغاية الآن للتأثير الإنجليزي».

20. المرجع نفسه، ص ص 90 ـ 92.

21. سليمان موسى، مرجع سابق، ص. 151.

22. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 344 ـ 345.

23. كان آل لطف الله من المؤيدين البارزين للقضية الهاشمية. كان والدهم حبيب لطف الله مسيحيًا أرثوذكسيًا سوريًا جمع ثروة في مصر. أصبح صديقاً ومستشاراً مالياً للحسين وأعطاه لقب أمير. كان أبناؤه الثلاثة، ميشال وحبيب جونيور وجورج، من المؤيدين النشطين للهاشميين. كان ميشال مستثمراً رئيسيًا لأموال الحسين، وأصبح حبيب الابن رئيسًا لوفد الحجاز في باريس، وكان جورج داعمًا ماليًا رئيسيًا لحزب الوحدة السورية الذي دعم فيصل في دمشق. ورث الإخوة الثلاثة لقب الأمير.

24. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 704–708.

25. أبو خلدون ساطع الحصري، مرجع سابق، ص 88 ـ 93.

26. رستم حيدر، مرجع سابق، ص. 716 وص 728 ـ 729.

27. FO to Kennard ،Rome Telegram No. 429 ؛FO 371 E11251 / 5040.

28. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 715 ـ 716.

29. المرجع نفسه، ص 719 ـ 720.

30. بدأت حركة الخلافة في الهند كدعوة لحماية هذه المؤسسة الموقرة من إلغائها المحتمل من قبل الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك، كانت الحركة أكثر ارتباطًا بالتنظيم السياسي لمسلمي الهند، وكانت أداةً يدعمها غاندي للعمل المشترك بين المسلمين والهندوس في النضال ضد الحكم البريطاني. كان الأخوان علي محمد وشوكت من الشخصيات المهمة في الحركة.

31. محمود الحسن كان شخصية دينية مسلمة هندية مهمة، مرتبطة بمدرسة دار العلوم في ديوباند. وكان معروفاً لدى أتباعه بشيخ الهند. أثناء وجوده في مكة للحج في ايلول (سبتمبر) 1915، اتصل بالمسؤولين الأتراك لمساعدة مجموعة من أتباعه في شن ثورة ضد البريطانيين في الهند. كان في مكة عندما اندلعت الثورة العربية. رفض التوقيع على فتوى لدعم الانتفاضة واعتقله حسين وسُلم إلى البريطانيين، الذين كانوا قد اشتموا خبر المؤامرة في وقتٍ سابق.

32. النص الكامل للرسالة موجود في أمين سعيد، مرجع سابق، المجلد. 2، ص 211 ـ 33. إنها رسالة طويلة جدًا، عشرون صفحة باللغة العربية، ومن غير المرجح أن يكون لويد جورج قد قرأها بالكامل. ومن الغريب أن لويد جورج لم يذكرها على الإطلاق في مذكراته. فيصل إلى لويد جورج، 11 سبتمبر 1920، FO 371، 5040 / E11500.

33. سليمان موسى، مرجع سابق، ص.148 ـ 157.

34. فريتز جروببا، مانر أوند ماخت إم أورينت، موسترشميت ـ فيرلاغ، جوتنجن، زيورخ، برلين، فرانكفورت، 1967، ص 173 ـ 175. ترجمه نجدت فتحي صفوت إلى اللغة العربية، ونسخه في كتابه، العراق في مذكّرات الدبلوماسيين الأجانب، مكتبة التحرير، بيروت، 1969، ص 130 ـ 133.

35. تيموثي ج.باريس، «سياسة الشرق الأوسط البريطانية ـ صنع بعد الحرب العالمية الأولى: لورنتيان

ومدارس ويلسونيان، المجلة التاريخية، المجلد. 41، العدد 3 (سبتمبر 1998)، ص. 779.

36. فهمي المدرس كاتب وصحفي عراقي. كان رئيس تحرير جريدة الزوراء الرسمية في بغداد في العهد العثماني، ودرّس الأدب العربي والشريعة الإسلامية في جامعة اسطنبول. كان من مؤسسي حزب العهد. انضم لفترة وجيزة إلى فيصل في دمشق، لكنه غادر في رحلات في أوروبا، حيث انتقل بين لندن وباريس ومدريد. وعاد إلى بغداد وشغل عدداً من المناصب الرسمية منها أمين غرفة لفيصل ومدير عام وزارة التربية والتعليم.

37. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص. 418.

38. Timothy J. Paris، op. المرجع نفسه، ص 777 ـ 78. بطبيعة الحال، لم يفكر مكتب الهند في قدرات لورانس. «لم يكن لدى (لورانس) عمليًا أي معرفة مباشرة ببلاد ما بين النهرين... كتب آرثر هيرتزل: [وخططه لبلاد ما بين النهرين] ليس فيها ما يثنى عليه».

39. حصل يونغ على وسام الخدمة المتميزة DSO عن الشجاعة خلال معركة مع الأتراك في Mezerib في أيلول (سبتمبر)1918.

40. Timothy J.، Paris، op. مرجع سابق، ص. 786.

41. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 337.

42. محضر، 16 يونيو 1920، 371 5227/FO، مقتبس في تيموثي ج.باريس، مرجع سابق، ص. 789.

43. محضر، 29 سبتمبر 1920، 936/L / P & S / 10، مقتبس في Timothy J. Paris، op، ص. 790.

44. محضر، 5 ديسمبر 1920، المرجع نفسه، مقتبس في: تيموثي ج. باريس، مرجع سابق، ص. 791.

45. FO 371، 5040 / E10953، «تقرير عن محادثة بين فيصل وعبد الملك الخطيب»، رقم الإرسال. 970، مقتبس في نور مصالحة، «الملك فيصل الأول ملك العراق: دراسة قيادته السياسية، 1921 ـ 1933». أطروحة دكتوراه، جامعة لندن، 1988.

46. Minute ،R. Marrs1920/10/178 ، IO L / P & SW / 1017 ،927/ October 1920.

47. تقرير عن محادثة بين العقيد فرانك بلفور والجنرال حداد، أيلول (سبتمبر) 1920. أوراق بلفور، أرشيف السودان، دورهام، صندوق 303. مقتبس من: بيتر سلوجليت، بريطانيا في العراق 1914 ـ 1932، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 2007، ص.. 63.

48. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 716 ـ 717.

49. سليمان موسى، مرجع سابق، ص ص 158 ـ 159.

الفصل السادس عشر: الملك المرتقب

كان فيصل يعلم أن وجوده في لندن، وهي زيارته الثالثة من نوعها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، سيكون مصيرياً لحياته السياسية في المستقبل. إذ أصبحت طموحاته في الاضطلاع بدورٍ قيادي في العراق أكثر وضوحاً الآن، معززةً بالانسياق الواضح للسياسة البريطانية لصالحه. فقد تم إخماد الثورة في العراق مع خسائر كبيرة في الأرواح، وأصبحت قضية كيفية وماهية من سيحكم البلاد تشغل بال الوايتهول الآن، وكذلك النتائج الفوضوية الأخرى التي نتجت عن تفكك الإمبراطورية العثمانية ومنها: حدود فلسطين، والبتُّ في مسألة أراضي شرق الأردن الواقعة بين الحجاز وسوريا وفلسطين اللتان تسيطر عليهما فرنسا، والعلاقات مع حسين، وصعود ابن سعود في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية. فالشيء الوحيد الذي بدا مستقراً هو فرض فرنسا الوحشي لهيمنتها على سوريا ولبنان.

ضاق البريطانيون ذرعاً من التكاليف الباهظة التي ينطوي عليها الحفاظ على جيشٍ كبير وإدارةٌ للاحتلال في الشرق الأوسط، فضلاً عن صعوبات تشكيل حكوماتٍ وتحالفاتٍ عمليةٍ من شأنها تأمين مصالحهم والوفاء بالتزاماتهم في زمن الحرب. ففي مثل هذه البيئة، بات مؤيدو «الحل الشريفي» للمأزق البريطاني أكثر وازدادوا إصراراً. أما أولئك الذين عارضوا هذه الفكرة ـ وخاصةً أولئك في مكتب الهند ـ فقد فقدوا اتزانهم باندلاع الثورة في العراق، مما أنهى فكرة أن العراق يمكن أن يُحكَم مباشرةً من لندن أو الهند. وقد تركَّزت طموحات ابن سعود على شبه الجزيرة العربية، وبالتالي فلا يمكن أن يكون الشريك الذي كانت تبحث عنه بريطانيا في إدارة مناطق انتدابها. كما لم يكن بإمكان البريطانيين الاعتماد على طيفٍ متنافرٍ من الحلفاء القبليين والموظفين المحليين وقادة الأقليات والوجهاء الحضريين الذين لا يُعتمد عليهم في كثيرٍ من الأحيان، والذين كانوا قد احتشدوا في العراق وشرق الأردن للقيام بهذه المهمة. فبدون حاجزٍ عازلٍ من الشريفيين، لن يكون هناك منطقةٌ وسطى بين البريطانيين والقوميين الراديكاليين الذين يمكن أن يجعلوا استقرار الحكم ضرباً من الخيال. وعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا قد اضطروا إلى تحمُّل هذه المخاطرة في فلسطين، حيث التزموا بتنفيذ بنود وعد بلفور في ظل معارضةٍ كبيرةٍ من قبل السكان العرب المحليين، إلا أن العراق، وبدرجةٍ أقل شرق الأردن، كانا شأناً آخر تماماً. ومع هذا السياق المضطرب، ولكن المواتٍ، أمكن لفيصل أن يميِّز طريقاً

يوصله إلى السلطة في العراق. لكن كان لا يزال هناك العديد من العقبات الهائلة التي كان عليه التغلب عليها، مثل: شكوك فرنسا العميقة حيال شخصه، وأطماع أخيه عبد الله في عرش العراق، وعدوانية والده حسين المتزايدة والتي أظهرها تجاه البريطانيين، والدعم المحدود له في العراق.

لندن من جديد

كانت المهمة الرسمية الأولى لفيصل، بصفته الممثل الشخصي لملك الحجاز، هي لقاء الملك جورج الخامس وتقديم الشكر له على هداياه والتقدير لدعمه للثورة العربية. وكانت وزارة الخارجية قد هيأته لعدم إثارة أي مواضيع حساسةٍ مع الملك، مثل خسارة سوريا، وعداء الفرنسيين، والوعود التي قُطعت للعرب خلال الحرب العالمية الأولى. كما طُلب منه عدم الإدلاء بأي تصريحاتٍ عامة للصحافة أو قبول أي بياناتٍ بشأن الأمور موضع الاهتمام ما لم تكن قد جاءت من كرزون نفسه. وفي لقائه مع جورج الخامس، التزم فيصل بالإرشادات التي أُعطيت له. لكن بدا أنه لم يُقدَّم لجورج أي نقاطٍ للنقاش حولها، وانطلق في عرضٍ مباشرٍ حول كافة الموضوعات المحظورة، الأمر الذي راق لفيصل كثيراً، وأضاف جورج أنه لا ينبغي على فيصل أن يقلق لأن البريطانيين يقفون وراءه بقوة[1]. وقد كان كرزون حاضراً في اللقاء، واستحضر فيصل لاحقاً محادثةً قصيرةً كان قد أجراها مع كرزون في ذلك الوقت[2]. لاحظ كرزون أن فيصل لم يكن يرتدي عباءته العربية، وهي العباءة التي كان يرتديها عادةً في المناسبات الرسمية، فسأله كرزون، «أين عباءتك المبهجة يا جلالة الملك؟» فأجاب فيصل: «لقد جرَّدتني من بلادي، سيادتك، لذلك خلعت» عباءتي!» فقال كرزون: «لا تقلق، فسترتدي أفضل منها». في تلك المرحلة، روى فيصل أنه صُدم فجأةً بما قاله كرزون. إذ بدا أنه يشير إلى أن البريطانيين كانوا يفكرون بجديةٍ في عرض عرش العراق عليه. ومن المستبعد جداً أن تكون هذه هي المرة الأولى التي تلقَّى فيها فيصل تلميحاً بأنه قد يعتلي العرش. بيد أنه كان تلميحاً شاملاً بما يكفي لأن يدلَّ على أنه أكثر من مجرد احتمال، وهو أمرٌ سيتطلب وجوده المستمر في لندن حتى تُكلَّل الأمور بالنجاح.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ من وصوله إلى لندن، انتقل فيصل من كلاريدج إلى الإقامة الطويلة الأجل في ساحة بيركلي بلندن. كانت إقامته في لندن طويلة وكان بحاجةٍ إلى أماكن أقل لفتاً للأنظار لعقد لقاءاته والاجتماع مع مستشاريه وأنصاره. كان لورنس وهوجارث اثنان من أوائل الأشخاص الذين التقاهما، وأطلعوه على التطورات في وايتهول لا سيما انعكاسات مهمة ونستون تشرشل الجديدة في مكتب المستعمرات. وكان لورنس قد التقى بالفعل تشرشل، الذي كان يحاول إقناعه بالانضمام إلى قسم الشرق الأوسط الجديد في مكتب المستعمرات. كان تشرشل، الذي تولَّى سابقاً منصب وزيراً للحربية، مسؤولاً عن الإشراف على جميع الترتيبات العسكرية في

الإمبراطورية، بما في ذلك الشرق الأوسط. وكانت لديه آراءٌ قويةٌ حول المنطقة وكيف يمكن للبريطانيين ضمان استمرار تفوقهم العسكري والسياسي. كما كان من أشدِّ أنصار الصهيونية ومُحبّاً للسامية بلا خجل. التقى لورنس بتشرشل في أوائل كانون الأول (ديسمبر)، ورغم أنه لم يكن متحمساً جداً لتسخير نفسه لوظيفةٍ مكتبية، إلا أنه وافق على مساعدة تشرشل في قسم الشرق الأوسط الجديد [3]. كانت إمكانية اعتلاء فيصل لعرش العراق في ذهن تشرشل بالفعل، لكنه أراد استنباط رد فعل فيصل إذا تحقق مثل هذا الاحتمال. وكان لورنس الشخص المثالي للتأكد من ذلك، وفي لقاءاته الأولى مع فيصل في 9 كانون الأول (ديسمبر) 1920، تم التطرق إلى هذه القضية بحذرٍ شديد. سجل حيدر في مذكراته: «تناولنا الغداء مع لورنس وهوجارث... يبدو من تصريحات لورنس أن بريطانيا ستتصرف في العراق. سأل [لورنس] سيدنا [فيصل] عن آرائه. لا شك في أنه [فيصل] في جوهره يريد هذا [المنصب] حتى لو أدى إلى صراع مع أسرته»[4].

جاء زوار آخرون لرؤية فيصل في الأسابيع الأخيرة من شهر كانون الأول (ديسمبر)، بما في ذلك مجموعةٌ من البرلمانيين البريطانيين، وقدَّم أحدهم لفيصل مخططاً مضحكاً، يُفترض أنه مُعتمدٌ من قانون أندرو بونار لو[*]، موقعة من قائد الحماية الملكية، لتحويل العراق إلى جائزةٍ تجاريةٍ تديرها شركةٌ مستأجرة على غرار شركة الهند الشرقية[5]، وزاره أيضاً حاكم حيفا السابق، العقيد إدوارد ألكسندر ستانتون، الذي أشرف على إقامة فيصل هناك في أب. كان قد تقاعد لأنه اصطدم مع المفوض السامي في فلسطين، هربرت صموئيل، حول مدى دعم الحكومة الفلسطينية للمشروع الصهيوني. فوفقاً لستانتون، كانت فلسطين غير قادرةٍ على دعم الهجرة اليهودية على نطاقٍ واسع[6].

كان الجنرال إدوارد بولفين، قائد القوات البريطانية، الذي دخل بيروت لأول مرةٍ في تشرين الأول (أكتوبر) 1918، أحد زوار فيصل الأخرين، حيث حضر مأدبة غداءٍ أقامها فيصل ضمَّت ضباطاً آخرين من الحلفاء. كان بولفين مُرائياً في مدح بسالة فيصل وإسهاماته العسكرية القيِّمة حيث كان الجناح الأيمن لألنبي في التقدم عبر فلسطين وسوريا. تأثَّر فيصل بشدةٍ بتصريحات بولفين، وخاطب التجمُّع، ليس كزعيمٍ سياسي ولكن كرفيقٍ في السلاح، «أنا محرجٌ في حضوركم لأنني أؤمن بقلبٍ نادمٍ أنني لم أفي بالتزاماتي تجاه شعبي وأرضي في الفترة الأخيرة. أنا لا أتحدث من الناحية السياسية ولكن من الناحية العسكرية. فبصفتي جندياً، أشعر بإحراجٍ شديدٍ [بشأن الكارثة السورية]، لكن كان عليَّ الاستماع إلى نصيحة أصدقائي [البريطانيين] وتجنُّب الخلاف

(*) أندرو بونار لو: زعيم حزب المحافظين، عمل وزيراً لشؤون المستعمرات ومستشاراً لوزير الخزانة ورئيساً للوزراء 1922 ـ 1923، استقال بسبب اعتلال صحته، فكان أقصرهم مدة (211 يوماً)، تابع إصلاح التعريفة الجمركية وعارض الحكم المحلي الأيرلندي، توفي بعد تركه الحكم بعدة شهور. (المُراجع).

مع أولئك الذين كانوا في السابق حلفاء لي ولأمتي [الفرنسيين]، وإلا لما كان من السهل على البلاد أن تقع تحت الحكم الفرنسي. فأنا لم أحمل السلاح ضد الفرنسيين ولم أسعى لمقاتلتهم لحظة واحدة. فإذا نظرتُ للأمر من منظورٍ عسكري فإن ضميري يؤنبني، أما إذا أخذته من منظورٍ سياسي، فأعتبر نفسي قد فعلتُ ما هو مطلوبٌ للمصلحة العامة. أقول هذا أمامكم لأنني قاتلت إلى جانبكم وعرفتكم وعرفتموني، والصداقة التي نشأت بيننا خلال سنوات الحرب الصعبة هي أقوى رابطةٍ يمكن للمرء أن يحققها» (7). وما من شكٍّ أن فيصل كان يأمل في أن تصل كلماته إلى الحكومة البريطانية وأن يقدِّروا اعتداله في سوريا من خلال عدم اختياره الاستمرار في محاربة الفرنسيين، لكنه أراد كذلك أن يدرك زوَّاره أن الفرنسيين لم يستطيعوا الهيمنة على سوريا بسبب افتقار العرب إلى الكفاءة العسكرية، بل بالأحرى، بسبب سوء التقدير الكارثي الذي جعل فيصل يعتمد على إقرارات البريطانيين بأنهم سيمنعون الفرنسيين من استخدام القوة.

كان الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان أيضاً يقوم بانتظامٍ بزيارة مقر فيصل خلال الأيام الأخيرة من عام 1920. وبالطبع، كان وايزمان مهتماً للغاية بشكل الحكومة التي كان من المقرر أن يتم تشكيلها في مناطق الانتداب، لا سيما تلك التي ستُشكل في شرق الأردن والتي من شأنها أن تؤثر على الحدود الإقليمية لفلسطين. وفي الوقت نفسه، كان يعتبر نفسه صديقاً لفيصل وكان يسعى، كلما أُتيحت له الفرصة، لاستعراض الجوانب الحميدة وحتى المفيدة للبرنامج الصهيوني بالنسبة للتطلعات العربية. وقد قام الوفد المرافق لفيصل بمجاراة هذه الزيارات، إذ لم يكن من المنطقي استعداء الزعيم الصهيوني علناً نظراً لتأثيره الكبير في وايتهول، لكنهم مع ذلك كانوا هم وفيصل متشككين للغاية إزاء تصريحات وايزمان حول حسن النوايا. وقد كتب حيدر في مذكراته معبِّراً عن شعور التشكيك بنوايا الصهيونية بعد عشاءٍ تم مع وايزمان: «أما بالنسبة لوايزمان والصهاينة فسياستهم سياسة مُداهنة وهم على الدوام ضد العرب، فسياستهم قريبةٌ من سياسة فرنسا. فهذه الأخيرة تعارض نهوض العرب في سوريا بسبب تخوفها من انتشار فكرة [الاستقلال] إلى [المستعمرات الفرنسية] في شمال إفريقيا، والصهاينة يعارضونه كذلك الأمر لخوفهم من انتشارها [فكرة الاستقلال] في فلسطين. فعلينا أن نكون حذرين منهم»(8).

في حفل عشاءٍ أقامه فيصل لوايزمان، حيث كان اللورد لوثيان (فيليب كير) مدعوًّاً إليه أيضاً، دار الحديث حول شخصية تي إي لورنس. كان كير السكرتير الخاص للويد جورج وكان قد حضر مؤتمر السلام. وكان كير نفسه من دعاة القضية الصهيونية وساعد وايزمان وزائير جابوتنسكي، المناضل الصهيوني المتشدِّد، في الحصول على دعم لويد جورج لإنشاء كتيبةٍ يهودية ووعد بلفور. سأل كير فيصل عن رأيه في لورنس، فتحدث عنه فيصل بشكلٍ جيد، قائلاً: «يمتلك (لورنس) أفقاً واسعاً، ويتصرف وفق ظروف واحتياجات الساعة، فهو لا يقيِّد نفسه بالأساليب

«الأوروبية» في فعل الأشياء. وإذا وجد نفسه في وضعٍ جديدٍ لا يسمح له بالتصرف بسهولةٍ وفقاً للطريقة التقليدية، فإنه يستخدم ذكائه الفطري على عكس العديد من الأوروبيين... إنه يقبل التحدي ولا يكلُّ أو يخسر بسهولة. كما أنه كان صادقاً في وعوده، الأمر الذي جعل العرب [البدو] يثقون به، فقد عاش معهم ولم يتعالى عليهم، ولهذا السبب فقد أحبوه»[9]. استغل فيصل فرصة وجود فيليب كير لسؤاله عن آفاق تشكيل حكومةٍ عربيةٍ محليةٍ في العراق، لكن كير لم ينجرَّ إلى هذا النقاش، واقتصر في حديثه على العموميات. إلا أن فيصل أصرَّ على دعوته لحكومةٍ عراقيةٍ محلية. «الوضع في العراق هادئٌ في الوقت الحالي ولكن هذا يرجع فقط إلى التغيير في سياسات [الحكومة البريطانية]. وسيكون الوضع أكثر هدوءً إذا تم انتخاب حكومةٍ وطنيةٍ كفوءة، فعندئذ سيتراجع هياج العامة بدرجةٍ كبيرة»[10].

لكن وزارة الخارجية كان لديها قضايا أخرى غير العراق لمناقشتها مع فيصل، وكان الوضع في شرق الأردن أشدُّها إلحاحاً. فعبد الله كان قد انتقل إلى بلدة معان التي تقع داخل الحجاز، ولكن على الحدود مع جنوب سوريا، ومن هناك كان يهدد بتشكيل جيشٍ لطرد الفرنسيين من سوريا. وقد أثارت التقارير حول نشاطاته قلقاً شديداً لدى كلٍّ من البريطانيين والفرنسيين، وباتت القضية عاملاً في زيادة التوترات الأنغلو ـ فرنسية، فقد كان لدى الفرنسيين بعض الشكوك في أن البريطانيين يعلمون بأفعال عبد الله، لا بل ويتغاضون عنها حتى. فقد كتب هربرت صموئيل إلى كرزون ما مفاده أن دي كايكس، مستشار غورو، يعتقد أن البريطانيين يسمحون لعبد الله بالاستعداد لمهاجمة الفرنسيين حتى ينشغل العرب بالفرنسيين بدلاً من توجيه انتباههم إلى البريطانيين في فلسطين[11]. وكان عبد الله يدلي بتصريحاتٍ عدائيةٍ حول استعادة سوريا بالتحالف مع مصطفى كمال في تركيا، لكنه في الحقيقة كان مهتماً بإثبات مطالبته بإمارةٍ محتملةٍ في شرق الأردن أكثر من اهتمامه بخوض حربٍ مع الفرنسيين. إلا أن الحكومة البريطانية تعاملت مع الأمر بجديةٍ وأكَّدت لفيصل ضرورة كبح جماح عبد الله والتوقف عن أي حديثٍ عن استعادة سوريا بقوة السلاح. فأرسل فيصل إلى والده ثلاث برقياتٍ سريعةٍ ومتلاحقة ما بين 7 و16 كانون الأول (ديسمبر)، يلتمس فيها من الحسين التوسط مباشرةً مع عبد الله لوقف شنِّ أي أعمالٍ عدائيةٍ ضد الفرنسيين. وأخبر فيصل حسين أن أي أعمال عدائية على حدود الحجاز مع سوريا ستعرِّض المفاوضات في لندن للخطر[12]. وقد تذيَّل اسم فيصل إحدى البرقيات التي كان نصها: «أسمع شائعاتٍ عن تحركاتٍ وأفعالٍ مناهضةٍ لفرنسا... أطلب منكم اتخاذ خطواتٍ فوريةٍ لمنع جميع التحركات العدائية من أي نوع ضد أيٍّ كان. ستؤدي إثارة المشاكل في شرق الأردن إلى إفساد مفاوضاتنا في لندن والتي ستسير على ما يرام ما لم يحدث ذلك. أتحمل المسؤولية الكاملة عن هذا البيان الذي أرجو إرساله على الفور إلى عبد الله»[13].

حققت الرسائل العاجلة غايتها المنشودة، وأوقف عبد الله تحركاته العدوانية. إلا أنه من المحتمل أيضاً أن فيصل كان يرى سراً أن هناك فائدةً من إثارة بعض القلاقل في شرق الأردن، سيما وأن ذلك سيعزز موقفه التفاوضي، لكنه لم يكن قادراً على إيصال هذه الآراء مباشرةً إلى والده أو أخيه إلا عبر رسائل يتم تسليمها باليد، إذ كانت جميع برقيات فيصل إلى حسين خاضعةً للاعتراض من قبل البريطانيين. وفي الواقع، فقد تعيَّن على فيصل في كثيرٍ من الأحيان أن يلجأ إلى الشفرات التي وفَّرتها له بريطانيا لإرسال رسائل حسَّاسةٍ إلى والده، وكان يعتبر أن اتصالاته مع حسين ستُقرأ من قبل البريطانيين لا محالة. ومن ثم، فإن المرء يجد اختلافاً ملحوظاً في النبرة والمحتوى عندما يقارن اتصالات فيصل مع والده من خلال البرقيات أو الرسائل، إذ يظهر أن البرقيات دائماً ما تحمل نبرةً مجامِلةً وغالباً ما يتم تقديمها بلغةٍ عربيةٍ جزلةٍ بعد ترجمتها من الإنكليزية، بيد أن رسائله تكون حسَّاسةً وتكشف الكثير عن مشاعره ونواياه الحقيقية.

ومن القضايا الأخرى التي كانت تؤرِّق البريطانيين الأوضاع في الحجاز ورفض الحسين التوقيع على معاهدة فرساي. فقد أراد حسين من جهته تأكيداً ملموساً على التزام البريطانيين ببنود اتفاق حسين ـ مكماهون كما يفهمه. كما أراد فيصل تأكيداً من والده أنه مفوَّضٌ بالفعل بمناقشة هذه القضايا مع البريطانيين، لكن حسين كان متردداً في منحه مثل هذا التفويض. وفي النهاية، أرسل الحسين إلى فيصل التفويض اللازم. ففي 19 كانون الأول (ديسمبر)، وقبل أيامٍ قليلةٍ من الموعد المحدد لأول محادثاتٍ جوهريةٍ مع وزارة الخارجية، تلقَّى فيصل التخويل اللازم من والده. وفي 23 كانون الأول (ديسمبر)، التقى فيصل، برفقة رستم حيدر والجنرال حداد، بالسير جون تيلي، الدبلوماسي الرفيع في وزارة الخارجية، مُمثلاً عن كرزون. وكان برفقته يونج وكورنواليس. وجرت المناقشات على أسسٍ ودِّيةٍ، مع تشديد تيلي على أن البريطانيين مصمِّمون على الوفاء بالتزاماتهم تجاه العرب من خلال إقامة حكوماتٍ عربيةٍ مستقلة، وتكرار فيصل لمطالب حسين باحترام نص وروح التبادلات مع مكماهون احتراماً كاملاً[14]. لم يكن فيصل في أفضل حالاته بحضور تيلي، فمما لا شك فيه أنه كان حانقاً من الادِّعاءات المتكرِّرة للبريطانيين بأنهم كانوا يفون بالتزاماتهم فعلياً تجاه العرب، فلم يستطع السيطرة على انفعالاته ليبكي في حضور تيلي، إذ كان يقاطعه في كثيرٍ من الأحيان ويمنعه من استكمال قضيته. وما زاد الطين بِلَّة هو شخصية تيلي الوادعة، فقد وصفه حيدر وكأنه كان يشعر بالنعاس طوال الوقت، وكان بالكاد مُلِمَّاً بالشؤون العربية، على الرغم من أنه كان يراجع الصحف الشرقية قبل إرسالها إلى كرزون[15].

المفاوضات السرية حول العراق

مع نهاية كانون الأول (ديسمبر) 1920، ازدادت بشكلٍ ملحوظ المقاربات من جانب الرسميين البريطانيين فيما يتعلق بإمكانية تولي فيصل لدورٍ قيادي في العراق. وبعيداً عن استطلاعات لورنس، طلب لويد جورج من فيليب كير استنباط آراء فيصل بشأن العراق، كما وأرسل كرزون يونغ إلى الغاية نفسها. وفي كلتا الحالتين، كان ردُ فيصل يحمل إصراراً شديداً ـ ولعل فيه نوعاً من المراوغة ـ بأنه لن يفكر في عرش العراق طالما أن شقيقه عبد الله قد ترشَح سلفاً لهذا المنصب. وفي الوقت نفسه ترك الموضوع مفتوحاً في حال انسحاب عبد الله واختيار الشعب العراقي له على عرش العراق عبر استفتاءٍ شعبي[16]. إلا انه وفي ليلة 7 ـ 8 كانون الثاني (يناير) 1921، تم التطرُق رسمياً لمسألة إمكانية تولِّي فيصل لعرش العراق. وقد طلب كرزون من كيناهان كورنواليس، الذي كان فيصل يعرفه ويثق به، أن يفاتح فيصل بالموضوع ويتأكد من موقفه، كصديقٍ أكثر من كونه مبعوثاً رسمياً. وكان كورنواليس قد تسلَّم من كرزون تعليماتٍ تفصيليةٍ مؤلفةٍ من خمس صفحات حول كيفية مفاتحة فيصل بهذه المسألة[17]. وحضر كورنواليس إلى شقة فيصل في ساحة بيركلي مساء 7 كانون الثاني (يناير)، لكن فيصل كان في المسرح، فانتظره كورنواليس إلى أن عاد حوالي منتصف الليل، حيث غاصا على الفور في نقاشٍ استمر لأربع ساعاتٍ حول العراق ومسائل أخرى. وقد ترك كورنواليس مذكرةً مفصلةً مكتوبةً بخط اليد، مكونةً أيضاً من خمس صفحات، حول الاجتماع.

استمع فيصل إلى تصريحات كورنواليس، لكنه في البداية كان يرفض رفضاً قاطعاً تقبُّل التفكير في احتمالات أن يصبح ملكاً في العراق، لأن عرش المملكة كان قد عُرض أساساً على عبد الله.

والدي في الحقيقة يريد أن يرسل عبد الله إلى العراق ولن يقبل بذلك [ترشيح فيصل للعرش]. إنه [حسين] والشعب بشكلٍ عام سيظنون أنني أعمل لنفسي بالتحالف مع البريطانيين وليس من أجل بلدي. لن أسعى لترشيح نفسي لأن شرفي أعزُّ عليّ من أن أكون ملكاً. لن أدع الناس يتهموني بالانتهازية، فلقد أحدثت ما يكفي من الشقاق بين المسلمين... لن أذهب إلى العراق إلا إذا رفضت الحكومة البريطانية ترشيح أخي عبد الله وطلبت مني تحمل تلك المسؤولية، وإذا كان شعب العراق يريدني. في هذه الحالة أعتقد أن والدي وعبد الله سيوافقان في ظل هذه الظروف، إذ لا أعتقد أنهما يستطيعان الوقوف ضد رغبات الشعب، لكنني لن أبادر، فقد طُردت من سوريا فكيف لي أن أقبل أن يقال عني إنني أطلب العرش على حساب أخي؟.

لكن مذكرة كورنواليس أظهرت أيضاً أن فيصل كان متشككاً في مستقبل عبد الله في العراق، فقد أفصح بأن موقفه بشأن قضية الانتداب قد يكون متفهِّماً، ولكن فقط لأنه يؤمن بحسن نوايا بريطانيا وروح العدالة التي تتمتع بها ولأنهم كانوا حلفاءه في زمن الحرب. بيد أن دعمه

لنظام الانتداب كان شديد التحوُّط. «لكن لا تتوقع مني الموافقة على شروط الانتداب قبل أن تسنح لي الفرصة للتحقق منه، إذ لا يمكنني الذهاب إلى العراق دون معرفة نوع الحكومة التي تتوخى بريطانيا إقامتها هناك. كما أنني بحاجةٍ للاقتناع بأن تأسيسها سوف يرتكز على روح العلاقة التي كانت تجمعنا في البداية [بداية الثورة العربية]، لأنني متأكدٌ من أنها ستكون كذلك في الواقع، لكن لا يمكنني قبول أي شيءٍ دون تبصُّر»[18]. ثم ختم فيصل بالإعلان أنه لا هو ولا عائلته كان لديهم أية مصالح أنانية، فقد كان همُّه الوحيد هو تعزيز قضية الاستقلال العربي وبناء علاقةٍ متينةٍ مع البريطانيين دون المساومة على كرامته الشخصية أو المبادئ التي يؤمن بها. وكانت رسالة كورنواليس واضحةً: فيصل لن يتآمر ضد عبد الله من أجل عرش العراق. لكن إذا ظل العرش بعيد المنال عن عبد الله ـ وهو ما بدا أنه احتمالٌ واقعي ـ فإنه سيقبل الترشُّح. وكان بالإمكان تفسير موقف فيصل من الانتداب على أنه قبولٌ به من حيث المبدأ، مما يفي بأحد الشروط البريطانية الأساسية لتقديم دعمها له في العراق، لكن موقفه أتاح له أيضاً حيزاً كافياً للتساؤل والاعتراض على شروط الانتداب حين كانت الظروف مواتية. وقد كان موقفه هذا انعكاساً للموقف الذي سيتخذه تدريجياً في المستقبل، وهو: قبول ما كان معروضاً عليه وما لم يكن قابلاً للتفاوض في ذلك الوقت، ثم العمل على انتزاع المزيد من التنازلات مع الوقت والجهد. لقد كان موقفاً «فيصلياً» نموذجياً من شأنه أن يولِّد قدراً كبيراً من الشكِّ والجدل فيما بعد حول نواياه الحقيقية. ولا بد أن فيصل قد بحث مع مستشاريه، على الأقل حيدر، الخطوط العريضة للمناقشات التي أجراها مع كورنواليس. فقد دوَّن الأخير في مذكراته: «قال [كورنواليس] إنه جاء لاستطلاع آراء [فيصل] حول الأحداث ولإعداد تقريرٍ شخصي إلى وزارة الخارجية، إذ لم تكن الحكومة [البريطانية] على علمٍ بهذه الزيارة (!)... وأبلغ الأمير فيصل بضرورة أن يرشِّح نفسه لتولي عرش العراق، لكن (فيصل) لم يقبل بذلك... من الواضح الآن أن الحكومة [البريطانية] تريد تنصيبه في العراق ولكن ضمن أسسٍ قانونيةٍ محددة»[19].

وفي اليوم نفسه الذي أنهى فيه كورنواليس زيارته لفيصل، في 8 كانون الثاني (يناير) 1921، انطلق فيصل إلى المنزل الريفي لإدوارد تورنور، إيرل وينترتون، على بعد خمسين ميلاً من لندن. وكان من بين الضيوف لورنس والنائبين المحافظين ويليام أورمسبي ـ جور ووالتر جينيس. كان وينترتون، وهو نبيلٌ أيرلندي، صديقاً شخصياً لفيصل وخدم مع الجيش الشمالي أثناء الزحف من العقبة إلى دمشق. وأمضى فيصل عطلة نهاية الأسبوع في منزل وينترتون، وهناك دار الحديث حول العراق، وقد تطرَّق وينترتون، الذي كان مُهيأً من جانب كرزون، إلى موضوع ترشُّح فيصل للعرش العراقي. فقد استذكر هذه الأحداث فيما بعد، «كان الملك فيصل رجلاً شجاعاً والأكثر موهبةً وجاذبيةً، وأحد أعظم السادة الذين قابلتهم في حياتي، لكنه كان مزاجياً مثل معظم

النوابغ. فلساعاتٍ، قدَّم نفس الإجابة على محاولاتنا الجماعية لإقناعه. لقد سئم من السياسة، وخاصةً السياسة الأوروبية، وفي الواقع من جميع الأوروبيين باستثناء الأصدقاء الشخصيين مثلنا. كان قد عومل معاملةً مشينةً في دمشق، فما السبب الذي سيدفعه للاعتقاد بأننا سنعامله بشكلٍ أفضل في بغداد؟ وفي النهاية وافق على طلبنا وقال إنه يعتقد أن العراق وبريطانيا يمكن وينبغي عليهما العمل معاً، وهذا سيكون هدفه الأسمى في منصبه الجديد»[20].

يصف كاتب سيرة وينترتون المناقشة التي استمرت لخمس ساعاتٍ بين فيصل ووينترتون والضيوف الآخرين وظلت حتى منتصف الليل. «أخيراً، وبعد ساعاتٍ طويلةٍ من النقاش، وافق فيصل على أن يصبح ملكاً على العراق... لم يكن إقناعه بالأمر السهل، فقد شعر بمرارةٍ عميقةٍ من الطريقة التي عومل بها من قبل البريطانيين والفرنسيين، وأدلى ببعض الملاحظات الجارحة حول الشخصية البريطانية بشكلٍ عام»[21]. أما كورنواليس، الذي كان أيضاً ضيفاً في منزل وينترتون الريفي في عطلة نهاية الأسبوع تلك، فقد طرح مرةً أخرى ضرورة أن يعترف كل من سيصبح ملكاً للعراق بشروط الانتداب ويقبلها. ورد فيصل قائلاً أنه «لا يمكنه قبول الانتداب ما لم يطَّلع على شروطه تماماً. [سأل فيصل] ما هو هذا الانتداب؟ إذا كان في مصلحة البلاد، فيمكننا مناقشته، لكن لا يمكنني قبوله دون تبصُّر»[22]. ولم يكن بالإمكان اعتبار أن الجلسات التي عُقدت في وقتٍ متأخر من الليل في منزل وينترتون الريفي تمثل الكلمة الأخيرة في قضية عرش العراق. إذ كان يجب انتظار التطورات الهائلة الأخرى التي ستحدث في لندن والشرق الأوسط، وكانت الأسابيع القليلة القادمة ستحدد هيكل نظام الدولة الذي تم وضعه ليحل محل الهيمنة العثمانية القديمة، وستخلق مستقبل فيصل والعراق والشرق الأوسط بأكمله.

نحو مؤتمر القاهرة

بحلول منتصف كانون الثاني (يناير)، أصبح من الواضح لفيصل أن لندن قد قررت ترشيحه رسمياً لعرش العراق. وفي 10 كانون الثاني (يناير)، التقى فيصل مع لورنس ووليام أورمسبي ـ جور ووالتر جينيس[23]. كان أورمسبي ـ جور صديقاً مقرباً لتشرشل، وجاء الاجتماع تماشياً مع المناقشات التي كان فيصل يجريها بانتظام مع وزارة الخارجية حول القضايا العربية. ودارت المحادثات هذه المرة حول التغييرات المتوقعة في القسم المسؤول عن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، فضلاً عن الإجراءات التي اضطر حسين لاتخاذها في الحجاز لتعزيز سيطرته وسلطته في ظل التحدي من ابن سعود، والأمر الذي لا كان لا يزال عالقاً حول الإدريسي في عسير. وأخيراً، تطرَّق لورنس إلى موضوع ترشيح فيصل للعرش العراقي، وأقنعه بضرورة تقديم اسمه للنظر فيه رسمياً. واصل فيصل الاعتراض، مُعلناً أن الحكومة البريطانية يجب أن ترتب للإعلان عن صلاحيته لعرش العراق[24]. وأبلغ لورنس في

وقتٍ لاحقٍ تشرشل عن الاجتماع، لكنه لم يستطع التأكيد فيما إذا كان فيصل سيقبل الترشُّح لتولي العرش إذا قدمت له الحكومة البريطانية عرضاً رسمياً.

في 13 كانون الثاني (يناير) 1921، التقى فيصل، برفقة اللواء حداد، مع كرزون في وزارة الخارجية، لكن المناقشات لم تتطرق إلى العراق. كان فيصل قلقاً جداً من التعديات الوهابية على الحجاز، والوضع الصعب الذي يمكن أن ينشأ إذا هاجم ابن سعود مكة أو المدينة. فقد انتصرت قوات حسين مؤخراً في المعركة ضد الوهابيين، لكن الخطر لا يزال قائماً. أراد فيصل أن يرسِّخ موقف الحكومة البريطانية، لأنه كان متشككاً للغاية بشأن تصرفات مكتب الهند، والتي بدا أنها داعمةٌ تماماً لطموحات ابن سعود[25]. ألقى كرزون المسؤولية على حسين، الذي أكدَّ أنه يهدد أمنه الخاص برفضه التوقيع على معاهدة فرساي. وطالب فيصل بتسليح القوات الحجازية وإعادة الدعم الذي كان يُدفع للحسين، لكن كرزون لم يدفعه له[26]. كانت الإعانات إحدى وظائف الحرب ولم يكن بإمكان حسين أن يتوقع استمرارها على السوية نفسها بعد انتهاء الحرب. غادر فيصل الاجتماع مستاءً للغاية، وقد هاله رغبة كرزون في رؤية الحجاز يرزح تحت ضغطٍ مستمرٍ من ابن سعود، وكان من الأفضل السيطرة على تصرفات الحسين[27]. كتب فيصل إلى كرزون رسالةً غاضبةً أشار فيها إلى الحالة المالية المتردية للحجاز والضغوط المستمرة من الوهابيين الذين ما زالوا يتلقون إعاناتٍ سخيةً من مكتب الهند. ورداً على هذه الرسالة جزئياً، طلب كرزون من السير رونالد ليندسي، أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية، مقابلة فيصل. وفضلاً عن مهامه الأخرى، كان ليندسي يحمل اللقب الاستثنائي كرئيسٍ للجنة المشتركة بين الإدارات حول البلشفية باعتبارها تهديداً على الإمبراطورية البريطانية.

وفي 20 كانون الثاني (يناير)، التقى فيصل مع ليندسي بصحبة حداد وحيدر، وكان ليندسي بصحبة يونغ وكورنواليس. كانت معرفة ليندسي بالشؤون العربية محدودةً، على الرغم من خبرته السابقة في الحكومة المصرية، ومن الواضح أنه لم يكن مستعداً للاجتماع. كانت شخصيته فظّة، مما جعله غير مُحبَّبٍ لفيصل، ووجده حيدر «للأسف جاهلاً بالقضايا [العربية]»[28]. وسرعان ما تحوَّل الاجتماع إلى مُشادَّةٍ كلامية. وأثار فيصل قضايا مراسلات الحسين ـ مكماهون والوعود التي قُطعت للعرب وكارثة سوريا وفلسطين والوضع في الحجاز. لم يكن ليندسي يمتلك أكثر من فهمٍ سطحي للسجل التاريخي، واستهل كل ملاحظاته بتكرار التعليمات التي أُمليت عليه. لم يستطع أن يناقش مع فيصل موضوع سوريا وفلسطين، وأنه يمكن معالجة الحجاز والقضايا الأخرى ذات الصلة بشكلٍ أفضل إذا وقّع الحسين على معاهدة فرساي. بيد أن الاجتماع الحاد قد أسفر عن نتيجةٍ غير مُتعمَّدة، قادت إلى سوء فهمٍ سيُستخدم لاحقاً ضد فيصل، فقد ادَّعى تشرشل في وقتٍ لاحقٍ أمام البرلمان أنه خلال الاجتماع مع ليندسي، أقرَّ فيصل بأن أراضي فلسطين بالتحديد

مستبعدةٌ من الوعود بدعم إقامة «مملكةٍ عربيةٍ» مستقلة والتي قدمتها بريطانيا إلى حسين خلال رسائله المتبادلة مع مكماهون. وفي واقع الامر، يُظهر محضر الاجتماع أن فيصل قبل فقط بإمكانية أن يكون هذا تفسير الحكومة البريطانية للتبادلات من حيث صلتها بفلسطين، دون أن يكون موافقاً عليها بالضرورة. وبات هذا اتهاماً أساسياً يوجِّهه بعض الكتاب القوميين المعادين للهاشميين إلى فيصل[29].

وخلال هذه الأيام بالذات تبلور ترشيح فيصل لعرش العراق[30]. ففي مناقشاتٍ لاحقةٍ مع عوني عبد الهادي، أشار فيصل إلى لقاءٍ «سري» جمعه مع كرزون، حيث تم التطرُّق معه إلى موضوع عرش العراق مباشرةً. ومن غير الواضح ما إذا كان هذا الاجتماع هو الاجتماع الذي عقده فيصل مع كرزون في 13 كانون الثاني (يناير)، أو ما إذا كان جلسةً أخرى سابقة خارج السجلات. وعلى أي حال، سرد فيصل هذا اللقاء على النحو الآتي:

تلقيتُ دعوةً في اليوم التالي للقاء اللورد كرزون في وزارة الخارجية. قال لي إنه ناقش الأمر (عرش العراق) مع الحكومة، واتفق مجلس الوزراء بأكمله على استحالة تنصيب عبد الله ملكاً على العراق. قال كرزون: أنت [فيصل] الوحيد المعروف للقوى الأوروبية وهم لا يعرفون شيئاً عن أخيك عبد الله. أناشدك أن تفكر بجديةٍ في هذا الأمر وألا تضيع الفرصة التي أتيحت لك». في هذه المرحلة، لم أستطع الرد على الفور على ما قاله اللورد كرزون، وكنتُ في مأزقٍ حقيقي. هل يجب أن أصرَّ على رفضي لقبول العرض وأن أبقى مصرّاً حتى النهاية، أم أقبل الحقائق على الأرض وأتعامل معها؟ الأمر كما تعلم يا عوني خطيرٌ ومعقد. هل كان يجب عليَّ رفض العرش وترك العراق ينجرف نحو مصيرٍ مجهول حتى يجد البريطانيون شخصاً آخر؟ فقد ألمح اللورد كرزون إلي أن هناك شخصاً آخر سيتولى العرش بكل سرور. [وبهذه الطريقة] ستفقد الأسرة الهاشمية كل ما كافحت من أجله في خدمة الدول العربية.

طلب فيصل من كرزون يوماً للتفكير في الأمر وإعطاء إجابته النهائية. «لم يغمض لي جفنٌ في تلك الليلة، وقضيت الليل كلَّه أفكر في هذه المسألة الخطيرة... وسألت نفسي هل أقبل عرش العراق مع أنه من حق أخي أم أرفض؟ إذا قبلته، فإن أخي سيعتبر الأمر ازدراءً بحقوقه. ومن جهةٍ أخرى قلتُ لنفسي إن رفضي للعرض سيؤدي إلى خسارة الهاشميين للعراق، واقصاءٌ للأسرة عن إمكانية خدمة القضية العربية. فقابلت اللورد كرزون مجدداً في اليوم الثالث وأخبرته بقبولي لما عُرض عليّ. والله أعلم أنني أردتُ فقط ما فيه صالح الأمة العربية كلها ولم أسعى لتحقيق مكاسب شخصية»[31].

بدأت معالم سياسة تشرشل الجديدة في الشرق الأوسط تتضح بحلول شباط (فبراير) 1921. وكانت تقوم على اعتبارين رئيسيين، الأول هو الحفاظ على السيادة البريطانية والسيطرة على

الشرق الأوسط من خلال فكرة الحكم غير المباشر بدلاً من الحكومة المباشرة. وهذا كان يعني عملياً دعم فيصل على عرش العراق، وعبد الله في شرق الأردن، والاعتماد على تحالفاتهما كأركانٍ أساسيةٍ للسياسة البريطانية. وبهذه الطريقة، سيتم الحفاظ على المصالح البريطانية عبر الأميرين الصديقين اللذين سيبقيان تابعين للمستشارين البريطانيين ومدينيَن لهم بالفضل. أما الاعتبار الثاني فقد كان مدفوعاً بالدرجة الأولى بالتكاليف، أي، كيف نحافظ على الاستقرار والأمن في العراق بدون النفقات الضخمة التي قد نتكبّدها من خلال الوجود العسكري الكبير. فقد كلفت الثورة في العراق الخزانة البريطانية ما يقرب من 40 مليون جنيه إسترليني ـ وهو مبلغٌ مهولٌ في عام 1920 ـ وأكثر بكثير مما أنفقته بريطانيا على دعم الثورة العربية. كانت احتمالات الحفاظ على جيشٍ كبيرٍ في العراق أمراً أدرك تشرشل أنه سيكون مصدراً للخلاف المستمر مع الخزانة، ولن يدعمه البرلمان والجمهور المنتقدين للأمر باطراد. كان الحل لدى تشرشل هو الاعتماد على سلاح الجو الملكي (RAF) لتوفير الأمن الضروري لإقامة دولةٍ قابلةٍ للحياة في العراق. اعتقد تشرشل أن عدداً قليلاً من القواعد ذات الموقع الاستراتيجي ستكون كافيةً لفرض السيطرة على جميع أنحاء البلاد، وقد وافقه هيو ترينشارد، رئيس هيئة الأركان الجوية، تماماً على الخطة. إذ يمكن إخضاع الثورات القبلية، وهي أكبر مصدرٍ للاضطرابات في العراق، من خلال القصف الجوي، ويمكن لسلاح الجو الملكي مراقبة خطوط الاتصالات والإمداد دون الحاجة إلى أعدادٍ كبيرةٍ من القوات البرية. ولوضع اللمسات الأخيرة على خطته الكبرى للشرق الأوسط، دعا تشرشل إلى اجتماعٍ في القاهرة لجميع الخبراء البريطانيين وكبار الإداريين المعنيين بالشؤون العربية.

تم إعداد الكثير من الأعمال التحضيرية لضمان وصول مؤتمر القاهرة إلى النتائج المرجوة. ولم يتبوأ تشرشل نفسه منصبه الجديد في مكتب المستعمرات حتى 14 شباط (فبراير) 1921. وقبل يومٍ من ذلك، كان قد وضع قائمة التعيينات الخاصة بقسم الشرق الأوسط الجديد. فتم تعيين جيه إي شوكبرج، وهو مسؤولٌ كبيرٌ من مكتب الهند، وكيلاً مساعداً دائم، ولورنس مستشاراً للشؤون العربية بعقدٍ لمدة عامٍ واحد، وترأس هوبرت يونج الفرع السياسي والإداري للقسم الجديد. كان لورنس هو المخطط الرئيسي لمؤتمر القاهرة. وعلى الرغم من القلق الذي أبداه بعض المسؤولين من أنه غير منضبطٍ ولا يصلح للصرامة البيروقراطية، إلا أن تشرشل منحه حريةً واسعةً في التصرف، وأخذ بنصيحته بشأن القضايا الرئيسة، لا سيما دعم ترشيح فيصل لعرش العراق. كان لورنس يلتقي بفيصل بانتظام خلال شهر شباط (فبراير)، ويطلعه على التطورات في مكتب المستعمرات والاستعدادات لمؤتمر القاهرة[32]. كان فيصل يزداد ثقةً بأن البريطانيين سيعترفون رسمياً بترشيحه لعرش العراق، وعلى الرغم من أنها لم تكن «صفقةً محسومةً» بعد، إلا أن متابعته لأصدقائه ومستشاريه عكست هذه الثقة بوضوح. ففي 4 شباط (فبراير)، كتب حيدر

في مذكراته أن «أميرنا [فيصل] شعر بهذا [الاقتراب من أن يصبح ملكاً على العراق] وكان متحيِّزاً للعراق، قائلاً إنه جرَّب السوريين ولا يريد التعامل معهم بعد الأن». وقد أفصح فيصل كذلك، وبتعجُّلٍ، عن أنه قد دعم الثورة في العراق. «قال أميرنا أن الثورة العراقية كان لها تأثيرٌ كبير وأنه [فيصل] قد أنفق 40 ألف جنيه إسترليني في دعمها»[33]. ومن الواضح أن فيصل قال هذا غامزاً من قناة المغازل للرأي القومي في العراق. وقد كان اعترافاً خطيراً، حتى لو أمام مساعديه الموثوقين، إذ أن البريطانيين لم يكونوا ليتسامحوا مع مثل هذا التصرف.

كان لقاء لورنس المصيري مع فيصل في 16 شباط (فبراير). «شرحت له [فيصل] أنني قبلت للتو منصباً في قسم الشرق الأوسط التابع لمكتب المستعمرات... ثم تحدثت عما قد يحدث في المستقبل القريب، مشيراً إلى احتمال عقد مؤتمرٍ في مصر... حيث ستُناقش فيه السياسات والدستور والشؤون المالية للمناطق العربية في غرب آسيا... كل هذه الأمور كانت تصبُّ في المصلحة المباشرة لسلالته، وخاصةً عائلته، واعتقدت أن المؤشرات التي بدت عليه تبرر كونه كان يأمل نسبياً في التوصل إلى تسويةٍ مُرضيةٍ لجميع الأطراف[34]. كان فيصل قد عاد لتوه من عطلة نهاية الأسبوع في تشاتسوورث هاوس، وهو ملكيةٌ كبيرةٌ تعود لدوق ديفونشاير. كان متأثراً كثيراً. وأخبر حيدر أنه التقى بشابٍ أرستقراطي [يُفترض أنه ابن الدوق]، «كان ملازماً في فلسطين و[قد] قاتل في الدردنيل. كانت ثروته تناهز ثروة الملوك وكان والده الحاكم العام لكندا، كان الابن الوحيد له. أخبر الشاب فيصل عن العدد الهائل من أقاربه الذين فُقدوا في الحرب. فقال له [فيصل] عندها: هل كان لأحدٍ من أغنيائنا أن يفعل الشيء ذاته؟ نحن نستحق أن يحكمنا الانتداب! فحين يرى المرء مثل هذه الأمور، يشعر بالصغر حقاً. هكذا تعيش وتُحكم الأمم الحقيقية. فلو امتلك أيٌّ من أثريائنا مثل هذه الثروة، لأقام الأرض ولم يُقعِدها كي يضمن عدم تجنيد أيٍّ من أفراد أسرته»[35].

عمل لورنس ويونغ على مسودة جدول أعمال مؤتمر القاهرة، وكان أبرز ما فيه خطة تقديم عرش العراق لفيصل. رأى لورنس في مهمته في قسم الشرق الأوسط وسيلةً لاستدراك الشعور الواضح بالخيانة الذي كان منتشراً على نطاقٍ واسعٍ في العالم العربي. فقد أدرك لورنس تمام الإدراك أن بريطانيا لم تفِ بوعودها للعرب، بغض النظر عن الكيفية التي زُيِّن للأمر من خلالها. وكان مؤتمر القاهرة وسيلةً للإثبات للعرب أنه على الرغم من الكارثة في سوريا، وفصل فلسطين عن بقية سوريا، والانتداب، فلا يزال هناك سبيلٌ للوحدة العربية والاستقلال. وقد قطع هذا السبيل عبر إنشاء حكوماتٍ شريفيةٍ في العراق وشرق الأردن كانت صديقةً لبريطانيا، والتي قد تشكِّل فيما بعد نواةً للدول المستقلة التي تلتفُّ حولها الدول العربية الأخرى في نهاية المطاف. ووافقت اللجنة المشتركة بين الإدارات لدى مكتب المستعمرات على جدول أعمال المؤتمر في

26 شباط (فبراير) بما يتماشى إلى حدٍّ بعيد مع الخطوط التي رسمها كلٌّ من لورنس ويونغ. كان لورنس مصمِّماً على ضرورة أن يحقق مؤتمر القاهرة هذه الغايات وراهن بمسيرته المهنية وسمعته على نتائجه، مُهدِّداً بالاستقالة إذا لم تتحقق أهدافه. فقد كتب إلى ويلفريد سكاوين بلانت المُسنّ عندما كان في طريقه إلى مصر قائلاً: «سأحصل على ما أريد أو أستقيل»[36].

أُفتُتِح مؤتمر القاهرة في 12 آذار (مارس) 1921 في فندق سميراميس. ودعا تشرشل جميع اللاعبين الرئيسيين في الشرق الأوسط، بمن فيهم المفوض السامي في بلاد ما بين النهرين، السير بيرسي كوكس، وسكرتيرته ومستشارته في المشرق، غيرترود بيل، وجميع كبار موظفي قسم الشرق الأوسط في مكتب المستعمرات. وحضر المؤتمر بالمجمل ما يقرب من أربعين مسؤولاً حيث عُقدت خلاله عشرات الجلسات. لكن قضية فيصل لتولي عرش العراق حسمت بسرعةٍ بعد اليوم الأول. وكسب لورنس أمام جميع المتشككين بشأن ترشيح فيصل، ليس أقلهم غيرترود بيل، التي لم تكن حتى الآن واثقةً مما إذا كان العراقيون سيقبلون غريباً كحاكمٍ عليهم. واستبعد المؤتمر فكرة إقامة نظام جمهوري في العراق، وهو الاقتراح الذي لم يحظ سوى بعددٍ قليلٍ من المؤيدين له من بين المسؤولين البريطانيين في البلاد، لا سيما سانت جون فيلبي. وفي الاجتماع الأول للجنة السياسية للمؤتمر في 12 آذار (مارس)، برئاسة ونستون تشرشل ومن بين أعضائها كوكس ويونغ وبيل ولورنس، تم النظر في مجموعةٍ من المرشحين لعرش العراق. ومنهم: نقيب بغداد[*] [37]. زعيم سلالة الكيلاني الدينية، الذي كان يرأس الحكومة العراقية المؤقتة حينها، وسيد طالب من البصرة[**] وهو زعيمٌ سياسي قوي، والشيخ خزعل زعيم عرب منطقة المحمرة في جنوب فارس، وابن سعود، وآغا خان، وبرهان الدين أمير السلالة العثمانية. وكل هؤلاء المرشحين كانوا ضعفاء بطريقةٍ أو بأخرى حسب المشاركين في المؤتمر.

ثم تحدث كوكس عن مناقب فيصل وخبرته، وسرعان ما أيّده لورنس في ذلك. وأُختتم الاجتماع بملحوظةٍ مفادها أنه «إذا قرر الأمير فيصل تقديم نفسه [كمرشَّحٍ لعرش العراق]، وكان مُفضَّلاً لدى الشعب العراقي، فإن حكومة جلالة الملك لن تضع أي عقبات أمام اختياره»[38]. كانت الصيغة التي كان لورنس قد وضعها للمسرحية التي تتوالى فصولها هي أن أتباع فيصل في العراق سيطالبون بتنصيبه ثم سيستجيب هو لهذه الدعوة، بدعمٍ من الحكومة البريطانية. فأرسل تشرشل برقيةً إلى لويد جورج، طالباً فيها من مجلس الوزراء الموافقة على ترشيح فيصل لعرش العراق، وهو الاسم الجديد لبلاد الرافدين الآن رسمياً. كتب تشرشل: «ستكون الصيغة على النحو الآتي: رداً على استفسارات أتباع أمير فيصل، فقد أعلنت الحكومة البريطانية أنها لن تضع

(*) المقصود هو عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد ورئيس أول حكومة عراقية في عهد الاحتلال. (المُراجع).
(**) طالب النقيب: نقيب أشراف البصرة 1871 ـ 1929. (المُراجع).

أي عقباتٍ في طريق ترشيحه كحاكم للعراق، وأنه إذا تم اختياره فسيحظى بالدعم. وعلى هذا، فسوف يتقدم فيصل على الفور إلى مكة، مروراً بمصر في طريقه. ولا نريد أي إعلانٍ، حتى ولو بمصطلحاتٍ حذِرة، عن تلك الصيغة إذا كان من الممكن تجنب ذلك حتى يصل فيصل إلى مكة والسير ب. كوكس إلى بغداد في منتصف نيسان (أبريل) تقريباً»[39].

ما من دليلٍ من السجلات المعاصرة أو من مذكرات وذكريات رفقاء فيصل في لندن على أن فيصل كان مُطَّلعاً على خفايا إدارة مرحلة «دعوته» إلى العراق. فلعل لورنس قد أطلعه بإيجازٍ على الخطوط العريضة لأجندة مؤتمر القاهرة وعزم الحكومة البريطانية على الوقوف بثباتٍ وراء ترشيحه بمجرد موافقة مجلس الوزراء على خطة ترشيحه ملكاً على العراق. لكن حيدر لم يقدم في مذكراته شديدة التدقيق أي تلميحٍ إلى أن فيصل كان على علمٍ بجدول أعمال المؤتمر، كما لم يلمِّح إليه في رسائله إلى والده أو إلى زيد خلال هذه الفترة. ففي رسالته المؤرخة في 1 آذار (مارس) 1921 إلى والده، يذكر فيصل مؤكِداً أنه قد تم التوصُّل إلى اتفاقٍ «على أساسٍ شبه رسمي... لتشكيل حكومةٍ عربيةٍ مستقلة في العراق ورفع الانتداب عن هذه الحكومة وتركها حرَّةً في التصرف على الصعيد الخارج»[40]. ولكن وفي فقرةٍ مستفيضةٍ من الرسالة نفسها، يعرض فيصل بالتفصيل لوالده الفرص التي قد تنشأ الآن بعد الضربات القاصمة التي وجهَّتها الأحداث في سوريا وتقسيم الأراضي العربية إلى القضية العربية، فالثورة في العراق، التي أدت إلى تحوُّلٍ جذري في السياسة البريطانية هناك، قد فتح الباب أمام احتمالاتٍ جديدة. «في السابق، كان من الممكن أن تدمِّر هذه النكسات آفاق الوحدة العربية بشكلٍ كامل. فالسياسة السابقة [للحلفاء] كانت تهدف إلى التقسيم والتجزئة، ليس فقط على صعيد الأراضي بل ومن حيث تأثيرها على الاقتصاد والتعليم والأخلاق [في الدول العربية]. لكن الله سبحانه وتعالى قد هزم مخططات القائمين على هذه السياسات، وصار للقضية الآن مسارٌ جديدٌ تسلكه، لكن المعارضة لا تزال قويةً وعلينا مواجهتها بالصبر والصدق «ثم استطرد فيصل لتبرير تشكيل حكومةٍ مستقلةٍ في العراق بحيث لا يمكنها في هذه المرحلة أن تتَّحد مع الحجاز أو مع سوريا. ففي الحالة الأولى، كان على الشعب العراقي نفسه أن يقرر ربط البلد بالحجاز. أما بالنسبة لسوريا، فإن الفرنسيين قد عارضوه وانتهجوا سبيلاً لفصل سوريا ولبنان عن سياقهما العربي على غرار ما فعلوه في الجزائر. بيد أن إقامة حكومةٍ مستقلةٍ في العراق سيوحِّد أراضي بلاد ما بين النهرين، ولا يمكن أن يكون هناك اعتراضٌ في المستقبل إذا ربطت الدولة العراقية المستقلة الجديدة نفسها بدولٍ عربيةٍ أخرى. فبدا وكأن فيصل يضع الخطوط العريضة لرؤياه للدولة العراقية الجديدة، تحت قيادته، لتكون بمثابة المحفِّز لتحقيق طموحات الوحدة العربية التي يجب تحقيقها من خلال الهاشميين.

كما سعى فيصل كذلك إلى نزع أي اعتراضٍ قد ينشأ من عائلته ضد ترشيحه لعرش العراق.

فهو لم يتخلَّ في الواقع عن مطالبته بالعرش السوري، لكنه صبَّ تركيزه الحالي على العراق لاعتباراتٍ سياسيةٍ محضة. ففرنسا لن تؤيد عودته إلى دمشق ولن تعتبره مقبولاً في أي موقع سلطة في جنوب سوريا [شرق الأردن]. وتنطبق الاعتبارات نفسها على زيد. فبدون أن يصرِّح بذلك فعلياً، أوحى فيصل بوضوحٍ إلى أن المرشّح الوحيد العملي لجنوب سوريا لا بد أن يكون عبد الله. فمع ترسيخ عبد الله في شرق الأردن، ستتعزز قضية الوحدة العربية كثيراً من خلال تنصيب الهاشميين في الدول العربية الرئيسة. لقد كانت مناشدةً صيغت بعناية تستجدي دعم والده له لتولي العرش العراقي، وكان من المفترض أن يكون لها التأثير المنشود[41]. فقد كرَّر فيصل رؤاه حول الأحداث في رسالته المؤرخة في 1 آذار (مارس) إلى شقيقه زيد. فمؤتمر القاهرة سيؤكد على السياسات التي تم التوصل إليها مسبقاً في لندن والحكومات الجديدة المقترحة في العراق وشرق الأردن ستعزز آفاق الوحدة العربية: «الوصول إلى دمشق وما وراءها سيكون الآن أسهل بكثير بعد تشكيل الحكومة في بغداد»[42].

في غضون ذلك، كان فيصل في الواقع يُعدُّ موقفه لمؤتمرٍ آخر كان يجتمع في لندن قبل مؤتمر القاهرة. فقد اجتمع الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان) في لندن في 22 شباط (فبراير) لمناقشة أمورٍ من بينها قضية فيصل وسوريا ومعاهدة السلام مع تركيا. وكان من المتوقع أن يحضر الاجتماع وفدٌ تركي. وكان فيصل قد كتب إلى لويد جورج في اليوم السابق مكرِّراً موقف والده من معاهدة سيفر، التي كان من المقرر أن تشكل أساساً للتسوية النهائية مع تركيا. وكان حسين قد رفض التوقيع على المعاهدة لأنها لا تلبي مطالب العرب ولا تشكل أساساً لضمان السلام في الشرق الأوسط. وقد طلب فيصل السماح لوفدٍ حجازي بحضور المداولات في لندن، حيث أن الحجاز من الناحية الفنية كان لا يزال في حالة حربٍ مع تركيا[43]. قدّم لويد جورج رسالة فيصل إلى الاجتماع، لكنه قوبل بمقاومةٍ شرسة من قبل رئيس الوزراء الفرنسي أريستيد بريان. وصرخ بريان أنه لا يمكن السماح لفيصل بمخاطبة الاجتماع بسبب عداءه المعلن لفرنسا ومسؤوليته المباشرة عن إراقة دماء الفرنسيين، فالوفد الفرنسي سيرفض ببساطةٍ الجلوس معه على الطاولة نفسها. حينها دافع لويد جورج بحماسةٍ عن فيصل ودوره الحاسم في الحملات العسكرية في ساحة الحرب في الشرق. وفي النهاية، وافق بريائد على أن يسلِّم الجنرال حداد مذكرة فيصل إلى المؤتمر. وفي 10 آذار (مارس)، قدم حداد ورقة فيصل إلى قادة الحلفاء المجتمعين، بحضور لويد جورج وبريان وكرزون، ولم تكن ورقته تتعدَّى سلسلة الشكاوى المألوفة بشأن الوعود الكاذبة والتقسيم غير الطبيعي للأراضي العربية، وتبريراً لرفض حسين التوقيع على معاهدتي فرساي وسيفر لأن كلا المعاهدتين أشارتا إلى مفهوم الانتداب غير المقبول.

التحضيرات للعراق

مهَّد مؤتمر القاهرة الطريق أمام فيصل للوصول إلى العرش العراقي، باستثناء ممانعة عددٍ قليلٍ من الرافضين، وعلى رأسهم المستشار الأمني لكوكس في بغداد، هاري سانت جون فيلبي. ومع ذلك، بقيت مسألة الفرنسيين وعدائهم العميق لفيصل، وكذلك عبد الله، المحتجب في عمّان وما زال يدعو لحشد أهالي جنوب سوريا لاستعادة تاج فيصل في دمشق. وكان برياند قد علم بإصرار بريطانيا على ترشيح فيصل لعرش العراق خلال اجتماع لندن للحلفاء في آذار (مارس). ولم يكن هناك الكثير مما يمكن للفرنسيين فعله لمنع وصول فيصل إلى العرش في العراق. ففي النهاية، كانت حجتهم الرئيسة في تأكيد سيطرتهم على سوريا وطرد فيصل تتمثل في أن المجال المخصص لهم بموجب الانتداب منحهم حقوقاً مطلقةً فعلياً، إلا أن بريطانيا كانت تتمتع بالامتيازات نفسها في العراق، ولم يكن باستطاعة الفرنسيين تقويض شرعية أي عملٍ أحادي الجانب اختار البريطانيون القيام به في منطقة سيطرتهم. لكن كان بإمكانهم الاحتجاج دبلوماسياً وتقديم أي حججٍ ممكنةٍ لمحاولة ثني البريطانيين عن تنفيذ قراراتهم. ففي 23 آذار (مارس) 1921، استقبل كرزون السفير الفرنسي في لندن، الذي شرع في إدانة فيصل لأفعاله المناهضة لفرنسا، وكرّر المزاعم بأن فيصل سعى للتآمر مع البريطانيين ضد فرنسا. كما قال أيضا إنه إذا أصبح فيصل حاكماً للعراق فسوف تفسر العامة في فرنسا ذلك على أنه تحركٌ مناهضٌ للفرنسيين بتشجيعٍ من الحكومة البريطانية. لكن كرزون لم يُعِر بالاً لأيٍّ من ذلك ورفض حجج السفير، إذ أن بريطانيا لم تُحرِّك ساكناً في مواجهة الإجراءات التي اتخذتها فرنسا في سوريا وتوقَّع أن يردَّ الفرنسيون بالمثل بشأن قضية العراق[44]. ثم التقى السفير الفرنسي بكرزون من جديد في 6 نيسان (أبريل). وهذه المرة عاد إلى فكرة أن فرنسا ستعتبر أن فيصل قد اختير ملكاً على العراق لمجرد مقوماته المناهضة لفرنسا. كانت حجةً سخيفةً ورفضها كرزون على الفور. فصرخ السفير الفرنسي منزعجاً بأن فرنسا ستعتبر فيصل على الدوام عدواً ولن تبعث له بأي إطراءٍ لدى عبوره من إنكلترا إلى الشرق الأوسط[45]. وقد أنهى هذا المحاولات الفرنسية الرسمية لإفشال ترشيح فيصل.

لم ينظر مؤتمر القاهرة بجديةٍ أبداً في احتمال أن يحكم عبد الله في العراق. فقد كان الإجماع على أن فيصل سيكون حاكماً أفضل بكثير، لكن مسألة ما ينبغي فعله معه بقيت عالقة. فعلى الرغم من أنه تم الاتفاق على أن يكون لمنطقة شرق الأردن وضعٌ سياسي مستقل، إلا أن وجود عبد الله في عمّان خلق أزمةً، فهل سيكون راضياً عن دورٍ في شرق الأردن يجعله يتنازل عن مزاعمه في العراق وعن مواقفه المتعلقة بتحرير سوريا؟ وإذا لم يكن كذلك، فكيف سيتعامل البريطانيون مع عناده، إذ أن الصراع المسلح معه كان غير وارد؟ وفي النهاية، تم إرسال لورنس

إلى عمّان كي يلتقي بعبد الله ويشرح له تفاصيل سياسات بريطانيا في المنطقة، بما في ذلك بالطبع دعم بريطانيا لفيصل ليكون ملكاً على العراق. ثم غادر لورنس مع عبد الله للقاء تشرشل في القدس. وهناك وافق عبد الله على التخلي عن أي مطالباتٍ بالعرش العراقي ووقفِ أي نشاطٍ معادٍ لفرنسا. وفي المقابل، مُنِح حكم إمارة شرق الأردن، وسيتلقى مساعدةً ماليةً وعسكريةً بريطانية. وكان من المفترض أن يكون الترتيب حالةً من الانتظار والترقب إلى أن يتمكن فيصل من ترسيخ شرعيته في العراق، وبعد ذلك يتم تثبيت عبد الله في وضعه الدائم.

بيد أن حقيقة تنازل عبد الله عن «حقوقه» في العراق أكثر تعقيداً من الوصف الوارد في المراسلات الرسمية. فقد كان عبد الله ساخطاً على قرار بريطانيا بدعم شقيقه فيصل، لكن لم يكن أمامه سوى تجرُّع المرارة التي لا بد وأنها كانت بطعم العلقم. لقد كان يحركه مزيجٌ من التنافس بين الأشقاء والغيرة والغضب الشديد بسبب فقدان ما يعتقد أنه حقه المشروع في حكم العراق. كان عوني عبد الهادي في عمّان خلال هذه الفترة كأحد مستشاري عبد الله الرئيسيين، ويستعيد في مذكراته فورة عبد الله عندما نمى إليه نبأ ترشيح فيصل لعرش العراق. وكان عوني قد سارع للقاء فيصل في مصر بينما كان في طريقه إلى الحجاز بعد مغادرته لندن. كان يحمل معه رسائل إلى فيصل من أخيه عبد الله. قرأ فيصل الرسائل بصوتٍ عالٍ ثم التفت إلى عوني وقال: أخي المسكين إنه لا يعرفني ويبدو أن والدي لا يعرفه. كان قد أمره بمقابلتي في بورسعيد [لكن عبد الله لم يحضر]. هو [عبد الله] يعتقد أنني قد اغتصبت منه عرش العراق، وأنني مزَّقت بيدي قرار أعضاء المؤتمر السوري العراقيين بتولية الأمير عبد الله ملكاً على العراق. لقد سمعت كل ما قاله عني، وكنت دائماً أقول «غفر الله له». ثم استطرد فيصل موجزاً مسار الأحداث في سوريا ثم أوروبا التي دفعته أخيراً نحو العرش العراقي. كان من الواضح أنه كان يتوقع من عبد الهادي أن يعيد نقل هذه الرؤية إلى عبد الله، وهو الذي كان مقتنعاً بما قد قاله فيصل بأنه لم يسعَ إلى إضعاف أخيه أو التواطؤ على العرش العراقي. وقد أخبر عبد الهادي فيصل: «ما فعلته جلالتك كان الصواب، فلو لم تقبل بالعرش العراقي، لكانت بريطانيا قد وجدت من يحل محلك ولن يكون أكثر من أداةٍ طيِّعةٍ في يديها»[46].

ثم هرع عبد الهادي عائداً إلى عمّان ليبلغ عبد الله بالمناقشات التي أجراها مع فيصل. «طلب مني الملك فيصل تقبيل يديك نيابة عنه... وطلب مني أن أخبركم بكل ما أعرفه عن موقف الحكومة البريطانية من عرش العراق، وممانعته [فيصل] الشخصية لترشيحه [لعرش العراق]، وإصراره على رفضه، ومطالبته بأنك أنت [عبد الله] من يجب أن يتولى العرش على أساس تزكيتك من قبل أعضاء المؤتمر السوري العراقيين. « ثم مضى عبد الهادي في تبرير أفعال فيصل أثناء وجوده في لندن، قائلاً إن فيصل لم يذهب إلى لندن سعياً وراء العرش العراقي بل

لتدبُّر حلٍّ منصفٍ لما حدث في سوريا، ولم يبرز موضوع العرش العراقي إلا لأن بريطانيا واجهت صعوباتٍ هائلةً في بسط سلطتها نتيجة ثورة 1920 في العراق. ثم طلب عبد الهادي من عبد الله تقبُّل ما حدث، لكن عبد الله كان متعنِّتاً في رفض تأييد هذا النوع من الحجج. «يا عوني، إنني أعرف أخي. وكان قد اعتلى فيما مضى عرش سوريا وأصبح رئيساً للدولة. فبعد ذلك، لن يهمه شيءٌ في الدنيا سوى اعتلاء عروشٍ أخرى، فشقيقي فيصل لا يختلف عن غيره من رؤساء الدول في هذه الأمور، فقد علَّمنا التاريخ أن من أصبح من العرب رئيساً للدولة، فإنه سيُصِّر على ديمومة هذا الوضع حتى لو أودى به إلى حتفه. ولهذا فضَّل أخي اعتلاء عرش العراق حتى لو كان هذا العرش من حق أخيه. فكل ما يسعني فعله هنا هو أن أطلب منه أن يرجو المغفرة من الله»[47]. لقد أخفى هجوم عبد الله على فيصل قدراً كبيراً من الغيرة مما حقق شقيقه.

أما آراء فيصل عن عبد الله فتمثَّلت في أنه كان ببساطةٍ هاوياً كسولاً. فقد أخبر عوني عبد الهادي بينما كان الأخير يستعد للانضمام إلى خدمة عبد الله قائلاً، «أريد أن أعطيك فكرةً عن خصال أخي لأن هذا قد يساعدك في عملك معه. فأخي رفيقٌ جيدٌ وجذَّابٌ وكلامه ممتعٌ ويستمتع بالمزاح والضحك. وهو متذوِّقٌ للشعر والأدب، وخاصةً الأدب القديم، ويستمتع بلعب الشطرنج ونكات أصدقائه. يحب ركوب الخيل والرماية على الأهداف التي يختارها، فأحياناً يرمي على قمة كومةٍ من الصخور، وأحياناً على تفاحةٍ يضعها على رأس أحد خدمه. أما بالنسبة للشؤون العامة، فنادراً ما يوليها أي اهتمام. وعدا ذلك، فإنه يصلِّي الصلوات الخمس اليومية بدقةٍ، ويؤدي جميع فروضه، حتى لو أذِن وقت الصلاة وهو في وسط الصحراء أو في مكانٍ مليءٍ بالغبار أو الأشواك أو الصخور أو في قصور الأجانب»[48]. لم تكن شهادةً كبيرةً عن سمات عبد الله كرجل دولة. فادِّعاءات فيصل الخاصة بالإيثار والتسليم بالمحتوم فيما يتعلق بعرش العراق معقولةٌ إلى حدٍّ معين، ولكن لكي تبدو صادقةً تماماً فإنها تحتاج إلى شخصٍ متجرِّدٍ من أي طموحٍ شخصي، وقد كان العديد من أصدقائه وأنصاره يرونه على هذا النحو. فقد كتب عبد الهادي لابنته بعد ذلك بوقتٍ طويل في عام 1959 حينما كان لديه ما يدعوه للتفكير في أحداث الماضي، فقال عن فيصل: «لم يكن فيصل نبياً معصوماً، أو شخصاً لا يتأثر بأهوائه، لكن يمكنني أن أؤكد أنه كان أشدُّ الناس إخلاصاً ممن عرفتهم في ولائه لأمته. لقد شاهدته يستغرق ساعاتٍ ناسياً تماماً أنه ملكٌ وكل ما كان يفكر فيه حينها هو واجبه الوطني»[49].

ومع اكتمال أعمال مؤتمر القاهرة، أرسل لورنس برقيةً إلى فيصل في لندن تقول: «سارت الأمور كما كان مأمولاً تماماً. يرجى التوجُّه إلى مكة في الحال عبر أسرع طريقٍ ممكن... سألتقي بك في الطريق وأشرح لك التفاصيل. قل فقط بأنك سترى والدك ولا تصرِّح بشيءٍ للصحافة مطلقاً»[50]. كانت برقية لورنس قد وصلت إلى فيصل قبل أن يتم إخطار مجلس الوزراء رسمياً

بالدعوة إلى فيصل للذهاب إلى الحجاز. لقد كشفت بوضوح عن ثقة لورنس (وتشرشل) بأن الأمر قد تم تسويته أخيراً لصالح فيصل. ففي 22 آذار (مارس) 1921، صادق مجلس الوزراء على قرارات مؤتمر القاهرة. وقد ورد في جزءٍ من محضر الاجتماع: «سيتم إخبار فيصل سراً أنه لم تعد هناك حاجةٌ لبقائه في إنكلترا، وأنه يجب أن يعود دون تأخيرٍ إلى مكة للتشاور مع والده، الذي يظهر من تقاريرنا الأخيرة أنه في حالةٍ ذهنيةٍ غير محبَّبة أكثر من المعتاد. سيتم إخبار فيصل أيضاً أنه إذا أصبح، بموافقة والده وشقيقه، مرشحاً لبلاد الرافدين وتم قبوله من قبل شعب ذلك البلد، فسوف نرحب باختيارهم، مع مراعاة الشرط المزدوج، وهو الاستعداد لقبول شروط الانتداب كما عُرِضت أمام عصبة الأمم، وأنه لن يستغل منصبه للتآمر على الفرنسيين أو مهاجمتهم... إذا تم استيفاء الشروط المذكورة أعلاه، فسيُعلن فيصل من مكة وفي الوقت المناسب عن رغبته في تقديم نفسه كمرشح، ويجب أن يوجه نداءه إلى شعب بلاد ما بين النهرين»[51].

غادر فيصل إنكلترا متوجهاً إلى بورسعيد في أوائل نيسان (أبريل)، منتشياً بوضوح بتحول الأحداث. طار لورنس، الذي كان مع تشرشل في القدس، إلى بورسعيد للقاء سفينة فيصل. وعقد الاثنان اجتماعاً سرياً طويلاً في 11 نيسان (أبريل)، حيث أطلع لورنس فيصل على نتائج مؤتمر القاهرة وناقش معه الخطوات التالية. كتب لورنس إلى تشرشل ليقول:

«أعرب فيصل عن تقديره للسياسة العامة المحددة ووعد ببذل كل ما في وسعه لإنجاح الجزء الخاص به منها، فهو سيضمن عدم مهاجمة الفرنسيين أو التآمر ضدهم... سيوافق على إقامة علاقاتٍ وديةٍ مع ابن سعود بشرط تحصين الحجاز ضد هجوم الوهابيين. ويعتقد أنه إذا مُنِح حرية التصرُّف في الأسابيع القليلة الأولى بعد رمضان في بغداد والمناطق المجاورة، فلا شكَّ في أنه سينجح في ترشحه... إنه يطلب مستشاراً بريطانياً ليكون ضمن طاقمه الشخصي. ولا ينبغي أن يكون أحد المسؤولين في حكومة بلاد ما بين النهرين لأسبابٍ عديدة، ولكن يجب أن يكون شخصاً ذا وزنٍ يمكن أن يثق في حكمه، كما يطلب أن يستعير العقيد كورنواليس من الحكومة المصرية لمرافقته إلى بلاد ما بين النهرين، وقد جعل هذا شرطاً لذهابه... إنه يعتبر شعب العراق غير مؤهلٍ بعد لحكومةٍ مسؤولة، وإذا تُرِك تحت رحمة الأهالي في كل شيء فستحلُّ كارثةٌ»[52].

بيد أن فيصل لم يكن مستعداً لقبول الشروط الدائمة للانتداب وآثارها المُذِلَّة من تبعيةٍ وحالةٍ استعمارية. وقال إنه في أول تصريح علني له بعد وصوله إلى العراق، سيعلن إنه ستتم إعادة التفاوض على شروط الانتداب بعد دخول القانون الأساسي العراقي، ودستوره عملياً، حيز التنفيذ وبعد إجراء مفاوضاتٍ مناسبة بين الحكومتين البريطانية والعراقية. ثم غادر فيصل إلى القاهرة، حيث أقام في فندق شيفيرد، في انتظار الوقت المناسب للمغادرة إلى السويس ومن ثم إلى جدة.

توافد سيلٌ من الزوار على مقرِّ فيصل في الفندق الذي يقيم فيه، بدءاً من مستشاريه وأنصاره من أيام دمشق، مثل عادل أرسلان وشكري القوتلي، إلى القيادات البارزة في الحركة القومية المصرية، مثل سعد زغلول وشكري يكن. كان فيصل متحيِّزاً للقيادة القومية المصرية، لكنه أصيب بخيبة أمل من ضيق الأفق لدى المصريين وقلة المعرفة أو الاهتمام بالشؤون العربية. وأثناء حفلات العشاء التي أقامها، كان معظم الضيوف يغادرون الطاولة وهم لا يزالون جائعين، حيث كان تدخين فيصل المستمر يعني أنه سيلتهم الطبق الأول بسرعةٍ ويترك المائدة ليلفَّ سجائره، ليقوم العاملين بتنظيف الطاولة، تاركين ضيوفه يتضورون جوعاً. ومعظم الذين يعرفون عادات فيصل كانوا يتناولون وجباتهم قبل الجلوس إلى مائدة العشاء عنده. وفي هذه اللقاءات عرض فيصل آراءه حول السلطة وفنّ السياسة وآفاقه في العراق. وأشار فيصل إلى عوني عبد الهادي قائلاً، «قبلتُ أن أترشَّح لعرش العراق على الرغم من علمي أن جميع أنواع الاتهامات ستوجه إليّ، سواء من العراق أو من الخارج، وبحسن أو سوء نية. لكنني شعرت أنني سأخون بلدي إذا اخترت أن أنام في سريري في الحجاز، خائفاً مما قد يقوله الناس، وأنا أدرك طوال الوقت أنه في قدرتي على خدمة بلدي. برأيي، فإن الخائن ليس فقط من يخون بلده عن قصد، بل أيضاً من يرفض خدمة بلده على الرغم من أنه في وسعه القيام بذلك»[53].

وقد قال، مشيراً إلى آفاقه في العراق، «إنني على ثقةٍ تامةٍ بأن جهودنا [في العراق] هذه المرة، وبعون الله تعالى، ستُكلَّل بالنجاح، ويمكننا أن نتجنب ما حلَّ بنا [في سوريا] نظراً لقلة خبرتنا في الأمور السياسية. لقد اعتاد السوريون على الإصرار على تحقيق كل الأهداف العربية على الفور، وهي وحدة كامل سوريا بما في ذلك سوريا ولبنان وفلسطين، والاستقلال التام لسوريا وإزالة جميع العقبات التي وقفت في طريق الاستقلال الفوري والكامل. لقد استفدنا من التجارب العظيمة التي مررنا بها في السياسة الدولية وفي [رسم] السياسات المناسبة، فالسياسة في رأيي ليست الإصرار على تحقيق كل ما يريد السياسي تحقيقه، بل هي تحقيق ما هو ممكن. والسياسي الحقيقي ليس من يعرف ما يريد، بل هو من يدرك حدود ما هو ممكن و[من يستطيع] تقبُّل هذه الحدود. فإذا كان غير قادرٍ على إدراك أقصى حدود ما يمكنه تحقيقه وتقبُّل ما هو دونه، فسيخسر بدرجةٍ أو بأخرى ما هو قادرٌ على المطالبة به، وإذا تجاهل الحدود القصوى لما هو ممكن، وطالب بأكثر مما يستطيع تحقيقه، فسيكون قد خسر كل شيء»[54].

ثم تابع فيصل الاجترار في السياسة: «أنا أؤمن بسياسة (خذ ثم اطلب)، فهذان التعبيران يختزلان كل فنون العمل السياسي المرن. بمعنىً آخر، خذ ما يتم تقديمه لك في الوقت الراهن ثم اتَّبع سياسةً مرنةً تتيح لك تلمُّس الطريق إلى الأمام خطوةً بخطوة حتى تتَّضح الرؤية أمامك تماماً ويصبح بإمكانك تحصيل حقٍّ آخر من حقوق بلدك... وبهذه الطريقة ستحصل على الاستقلال

التام لبلدك من خلال تجميع الحقوق والمطالبة بالممكن وأخذه. وهذه هي السياسة التي أُحبِّذ أن انتهجها في العراق. فالسوريون قد خسروا استقلال سوريا بإصرارهم على سياسة الكل أو لا شيء. أو بعبارةٍ أخرى، إما الاستقلال التام أو الخضوع التام، أو إما أن ينجو المريض أو يموت. وأنا لا أريد أن أحكم العراق ويدٌ أجنبيةٌ تتربَّصُ بي. فإذا كنت قد قبلتُ أن أحكم تحت هذه الوصاية الأجنبية، فذلك فقط لأنني سأعمل بلا كللٍ للتخلص من هذه الوصاية، ولنحيا أنا وشعب العراق في ظل حكومةٍ عربيةٍ نزيهة، وهذا لن يحدث ما لم نتَّبع سياسةً حكيمةً ومرنة، أو سياسة «خذ ثم اطلب»، حتى يتحقق النصر للعرب وتحقق البلاد استقلالها الموعود»[55].

في 21 نيسان (أبريل)، غادر فيصل القاهرة متوجِّهاً إلى السويس، ليرحل على متن السفينة التي نقلته إلى الحجاز. وفي السويس، أجرى لقاءً آخر غير معلن مع لورنس، لكن لم يُعرَف ما الذي حدث بينهما في ذلك الاجتماع. وبعد بضعة أيام غادر لورنس إلى إنكلترا، بعد أن أكمل مهمته في الشرق الأوسط. كان فيصل الآن آمناً في الترشُّح لعرش العراق، لكن مدى الدعم الذي سيُقدَّم له في العراق لم يتم اختباره وكان بحاجةٍ إلى دعم المقيمية البريطانية[*] في بغداد إذا أراد أن يكسب في ترشُّحه. كان فيصل قد أسَّس بالفعل نوعاً من رأس جسرٍ في بغداد، فجعفر العسكري، الذي كان قد عاد إلى العراق بعد سقوط دمشق، قد أصبح الآن وزيراً للدفاع في الحكومة العراقية المؤقتة، وكان قد حضر مؤتمر القاهرة بهذه الصفة[56]. وكان على اتصالٍ وثيق بفيصل وعلى علمٍ بقرارات المؤتمر، بما في ذلك تأسيس جيشٍ عراقي. وكان نوري السعيد موجوداً بالفعل في بغداد وينظِّم الأعمال التمهيدية لوصول فيصل المتوقع إلى العراق.

أبحر فيصل على متن قارب الخديوي، جانتو، ووصل إلى جدة في 25 نيسان (أبريل) 1921. كان من الواضح أن الحكومة المصرية قد شمّت رائحة شيءٍ يُحضَّرُ في العراق وأنه يجب عليهم إزالة كل العقبات من وجه الحاكم المستقبلي للبلد. كانت هذه الزيارة أبعدَ ما يكون عن زيارة فيصل السابقة لمصر، حين اضطرَّ إلى انتظار قطاره في القنطرة، بينما كان جالساً على حقائبه والحكومة المصرية تتجاهله. كان من الواضح أن فيصل كان متوجِّساً من طريقة استقبال والده له، لكن ما أدهشه أنه استُقبِلَ استقبال الأبطال، فقد رحَّب به حسين ترحيباً حارّاً وأقام حفل غداءٍ ضخم على شرفه بعد أن رَسَتْ سفينته في جدة[57]. ثم غادر فيصل إلى مكة، حيث بدأ هو ووالده بالتواصل مع قادة العراق مُقدِّمين فيصل ملكاً مرتقباً على العراق. ووجَّه حسين برقيةً الى نقيب بغداد، رئيس وزراء الحكومة المؤقتة تقول: «وكما أرى أن دعوتك [الفيصل] دعوةً وطنيةً حقيقية،

(*) تمّ تخصيص مبنىً خاص للمندوب السامي البريطاني، سُميت بـ(دائرة المندوب السامي)، ويُفضّل الكتّاب تسميتها اختصاراً بـ(المقيمية Residency)، والتي تجري فيها إدارة الشؤون الخارجية للعراق وأموره العسكرية، وتوجيه الوزارات الحكومية كافة، والتنسيق مع المستشارين البريطانيين المنتشرين فيها. (المُراجع).

فسأرسله إليك لمساعدتك في [إدارة] العراق. «كما أرسل فيصل رسالةً مماثلةً إلى النقيب وكذلك إلى سيد طالب، وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة تقول: «عندما كنت في أوروبا، ولفترةٍ طويلةٍ قبل ذلك، اتَّضح لي أن شعب العراق يريدني أن أشارك في إدارة شؤونه. وقد عدت الآن إلى مكة وتشاورت مع والدي، ووافق على أن أساعد أمتي وشعبها بأفضل ما أملك من قدرات. وإذا رغب شعب العراق في حضوري، فإنني على استعدادٍ للمجيء، وأتمنى من كل قلبي أن أتلقَّى العون من معاليكم وألا تبخلوا عليَّ بدعمكم ومشورتكم الأبوية»[58].

وفي 5 حزيران (يونيو)، تلقى فيصل برقيةً من الرائد مارشال، القنصل البريطاني في جدة، تُبلغه بأن الطَّراد نورثبروك سيصل إلى جدة وسيحمله هو ووفده المرافق مباشرةً إلى البصرة. وفي 12 حزيران (يونيو)، استقلَّ فيصل الطَّراد نورثبروك متوجِّهاً إلى البصرة. وكان على متنه مجموعةٌ من العراقيين البارزين الذين لجأوا إلى الحجاز بعد انهيار ثورة عام 1920، وهم عائدين الآن كجزءٍ من العفو الذي أعلنته السلطات البريطانية في العراق. وكان من بينهم الشخصية الدينية الشيعية السيد محمد الصدر ويوسف السويدي وعبد المحسن [محسن] أبو طبيخ وعلوان الياسري ورايح العطية وعلي جودت. وكان من مرافقي فيصل أيضاً مجموعته المقرَّبة من المستشارين، بمن فيهم رستم حيدر وتحسين قدري. وكان على متن الطَّراد نورثبروك أيضاً كورنواليس، مستشاره المُعيَّن حديثاً، وهو رجلٌ عملاق ورياضيٌّ متميز أثناء سنوات دراسته الجامعية. وقد كان موجوداً على سبيل الإعارة من الحكومة المصرية لمدة ثلاثة أشهر، لكنه في الواقع بقي في العراق لأكثر من عشرين عاماً، مع فترات انقطاعٍ قليلة. وكان آخر منصبٍ له في العراق سفيراً خلال الحرب العالمية الثانية. وقد كان يحظى بثقة فيصل وكان قناة الاتصال الموثوقة لديه في تعاملاته مع السلطات البريطانية. تبادل فيصل الرسائل مع نقيب بغداد أثناء وجوده على متن الطَّراد، وفي تغيُّرٍ تامٍّ لموقفه الحذر السابق من فيصل، أرسل له رسالةً فيَّاضةً بالإطراء الزائد[59].

وصل الطَّراد نورثبروك إلى البصرة في 23 حزيران (يونيو)، حيث اقترب منه زورقٌ آلي يرفع العلم البريطاني وعلى متنه وزير الدفاع جعفر العسكري ومستشار وزارة الداخلية سانت جون فيلبي. وكان على البرّ مئات الوجهاء من بغداد والبصرة ينتظرون تحية الملك الجديد المرتقب.

ولأول مرة نزل فيصل على الأراضي العراقية، وكانت بداية حلقةٍ أخرى استثنائيةٍ في حياته.

هوامش الفصل السادس عشر

1. إليزابيث بورغوين، غيرترود بيل من أوراقها الشخصية، 1914 ـ 1926، بين، لندن، 1961، ص. 245.
2. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 126 ـ 127.
3. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 641 ـ 642.
4. رستم حيدر، مرجع سابق، ص. 750.
5. المرجع نفسه، ص ص 751 ـ 752. في وقت لاحق، تم تنظيم العديد من الشركات البريطانية للقيام بمشاريع زراعية واسعة النطاق في العراق، لكنها تعمل ضمن قيود القانون العراقي.
6. المرجع نفسه، ص. 752.
7. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 751 ـ 752.
8. المرجع نفسه، ص 756 ـ 577.
9. المرجع نفسه، ص. 755.
10. المرجع نفسه، ص. 755.
11. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص. 411.
12. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 160 ـ 162.
13. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص 646.
14. وزارة الخارجية، مرجع سابق، المجلد. الرابع، ص 422 ـ 423.
15. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 757 ـ 758. في الليلة السابقة، دعا فيصل كورنواليس لتناول العشاء، حيث كان متعبًا بالقدر نفسه.
16. رستم حيدر، مرجع سابق، ص. 565.
17. FO 371/6349، الوثيقة E ـ 583، بتاريخ 7 يناير 1921.
18. المرجع نفسه.
19. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 765 ـ 666.
20. لورد وينترتون، أوامر اليوم، كاسيل، لندن، 1953، ص 101 ـ 102.
21. آلان إتش برودريك، بالقرب من العظمة: حياة إيرل وينترتون السادس، هاتشينسون، لندن، 1965، ص. 19.

22. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 766 ـ 677.

23. أصبح غينيس لورد موين، وكان وزيرًا مقيمًا في القاهرة خلال الجزء الأخير من الحرب العالمية الثانية. اغتيل في القاهرة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1944 على يد نشطاء الجماعة الإرهابية الصهيونية، عصابة شتيرن.

24. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 765 ـ 666.

25. المرجع نفسه، ص ص 768 ـ 769. يعتقد حيدر أن مكتب الهند، إلى جانب الصهاينة، دعموا أعمال ابن سعود بشكل أساسي لإضعاف الاندفاع نحو الوحدة العربية التي قد تهدد مصالحهم.

26. سليمان موسى، مرجع سابق. مرجع سابق، ص ص من 174 إلى 76؛ 371 FO/6371.

27. رستم حيدر، مرجع سابق، ص 769 ـ 770.

28. المرجع نفسه، ص ص 770 ـ 771.

29. أنظر، على سبيل المثال، أنيس الصايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، 1966.

30. حتى مكتب الحرب قد ظهر على المسرح. ففي مذكرة مكتوبة في 17 شباط (فبراير) 1921، 371 FO/6349، علقت هيأة الأركان العامة على ترشيح فيصل لـ «المملكة المقترحة لبلاد الرافدين»،

بالحديث مفصلاً عن الاعتراضات الفرنسية والتحذير من أن ذلك سيثار بين القادة العرب مثل ابن سعود. «...وبالمختصر، إذا أعلن فيصل ملكا لبلاد ما بين الرافدين، فهناك احتمال كبير لحريق هائل في كل الجزيرة العربية...». ولكن هناك الكثير من الفوائد على الأرض بالنسبة للاعتبارات الامبريالية، وقبوله لكل الأديان الموجودة في العراق، وتأثيره الثابت في الشرق الأوسط، وكراهيته للبلشفية. وختم التقرير بأنه «... ومع ذلك فإن الرأي هو للأركان العامة بأن الفوائد أكثر وزنا من المساوئ؛ وأن تنصيب فيصل ملكا لبلاد ما بين الرافدين ستكون له نتائج مفيدة»

31. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 127 ـ 128.

32. كان لديهم أيضاً الوقت لينغمس فيصل في اهتماماته الأدبية. تناول لورنس وفيصل طعام الغداء مع الروائي إي إم فورستر في فندق مايفير، وتعرف فيصل على الكاتب والشاعر من أصل يهودي عراقي، سيجفريد ساسون. مالكولم براون، محرر، رسائل تي إي لورانس، دينت وأولاده، لندن، 1988، ص. 256.

33. رستم حيدر، مرجع سابق. استشهد. ص 773 ـ 775.

34. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص. 645.

35. المرجع نفسه، ص ص 776 ـ 777.

36. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص ص 646 ـ 647.

37. عبد الرحمن الجيلاني، المعروف بنقيب الأشراف، سليل مباشر لعبد القادر الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية الصوفية في القرن الحادي عشر. كان نقيب الأشراف منصباً عثمانياً رسمياً يدل على الأولوية بين أولئك الذين يدّعون أنهم ينحدرون من النبي محمد. (المصطلح الشيعي المكافئ هو السيد). ولد النقيب عام 1845 في حي باب الشيخ ببغداد، بالقرب من ضريح الشيخ عبد القادر. درس العلوم الدينية التقليدية ولكنه كان أيضاً رجلاً ذا حساسية أدبية عالية، منغمسًا في مساعي نبيلة جديرة بنسبه. أصبح نقيب الأشراف بعد وفاة أخيه عام 1898. كانت أول مشاركة له في السياسة عندما أسس مع أشراف آخرين حزباً سياسياً في عام 1909، معارضةً لسياسات جمعية الاتحاد والترقي ودعمًا للسلطان عبد الحميد.

38. FO 371 6343/، محضر الاجتماع الأول للجنة السياسية، 12 مارس 1921.

39. المرجع نفسه، ص. 647 وص. 1118، الحاشية 17، ونستون تشرشل إلى لويد جورج، وثائق WSC 4 /2، ص 1389.

40. سليمان موسى، مصدر سابق، ص 195 ـ 200.

41. المرجع نفسه.

42. المرجع نفسه، ص ص 200–02.

43. سليمان موسى، مرجع سابق، ص 191 ـ 93.

44. FO 686 ،85/Curzon to Lord Hardinge23 ، March 1921.

45. FO 686 ،85/Curzon to Lord Hardinge (Paris)6 ، April 1921.

46. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص 127 ـ 128.

47. المرجع نفسه، ص 128 ـ 129.

48. المرجع نفسه، ص 134 ـ 135.

49. المرجع نفسه، ص. 101.

50. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص. 648.

51. FO 371 6343/، لويد جورج إلى تشرشل، 22 آذار (مارس 1921.

52. جيريمي ويلسون، مرجع سابق، ص. 615.

53. عوني عبد الهادي، مرجع سابق، ص. 132.

54. المرجع نفسه، ص 132 ـ 133.

55. المرجع نفسه، ص 133 ـ 135.

56. كان من بين الحاضرين الآخرين من بغداد في المؤتمر وزير المالية اليهودي في الحكومة العراقية المؤقتة، ساسون حسقيل. أدلى ساسون بملاحظة غير مناسبة لتشرشل مفادها أن العراق كان يحكمه أناس من الشمال، لكن هذه المرة سيحصل على رجل من الجنوب، فيصل. أجاب تشرشل أن الرجل من الجنوب سيساعده رجل من الشمال، كورنواليس. انزعج فيصل من ساسون لهذه الملاحظة التي لا تراعي الشعور ولم يعد مطمئنا له أبداً.

57. FO 404 E5784 / 46، أيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 50.

58. عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، المجلد. 1 ـ آفاق عربية ـ بغداد 1988 ـ ص. 40.

59 ـ 730 23117/2/CO؛ نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 54.

الجزء الرابع

بدايةٌ جديدة

العراق (1921 ـ 1933)

الفصل السابع عشر: من بلاد الرافدين إلى العراق

خارطة [6] التقسيمات الادارية للعراق في العهد العثماني



وصل فيصل إلى بلدٍ شهد سنواتٍ من الحرب والاضطرابات، إذ أن سنوات الحكم العثماني لم تكن قد صهرت الولايات الثلاث، بغداد والبصرة والموصل، في كيانٍ سياسي متماسك، فالخليط السكاني من العرب والأكراد والشيعة والسُنَّة وسكان المدن ورجال القبائل والفرق الكبيرة من اليهود والمسيحيين والفرس المقيمين، كانوا قد انفصلوا في معظمهم عن الحد الأدنى من الثوابت التي فرضها عليهم العثمانيون[1]. وقد أتت الجموع الإضافية إلى الخليط الموجود في البلاد عبر آلاف اللاجئين الآشوريين الذين فرُّوا من انتفاضتهم الفاشلة في شرق تركيا، حيث أعاد البريطانيون توطينهم في الأصقاع الشمالية للعراق. وقد كان البريطانيون يحتلُّون البلاد بجيشٍ قوامه أكثر من 100 ألف جندي، وكان من الصعب على هذه القوات الاضطلاع بمهمة محاربة العثمانيين، وعندما أُعلنت الهدنة، وجدت تلك القوات نفسها تسيطر فعلياً على مقاطعات بلاد ما بين النهرين الثلاثة السابقة. وبعد ذلك بوقت قصير، واجه البريطانيون انتفاضة قبليةً خطيرةً، بتشجيع من السلطة الدينية الشيعية في المدن المقدسة حيث عصفت بمعظم مناطق جنوب ووسط العراق. وقد سبق ذلك هياجٌ من جانب القوميين العرب في بعض البلدات العراقية الغربية بإيعازٍ وقيادةٍ من ضباطٍ عراقيين من جيش فيصل العربي عندما كانت الحكومة العربية في سوريا تنهار.

قدَّم البريطانيون كل ما لديهم من شعور بالأمان والنظام على الأرض، ووفقاً لتقدير الغالبية، فقد أدُّوا عملاً أفضل مما قام به العثمانيون في أي وقتٍ مضى. كما وضعوا أساسيات الإدارة، حيث قاموا بجمعها بحكم الضرورة، وكانوا الطرف الوحيد الذي استطاع أن يتحمل مسؤولية الحكومة مع انهيار النظام القديم. وكان البريطانيون قد روَّجوا لتشكيل حكومةٍ عراقية، من لونٍ سنِّي بالكامل ويترأسها نقيب بغداد الموقر، حيث حاولت إضفاء وجهٍ محليٍّ لما كان احتلالاً في الحقيقة. وأصدرت المراسيم والفرمانات الخاصة بها، لكن السلطة الحقيقية كانت بيد المفوض السامي.

على عكس تجربته في سوريا، لم يكن لدى فيصل سوى القليل من المعرفة المباشرة والثمينة عن أساليب العمل الداخلية في البلاد أو تواصلٍ مُسبقٍ مع شخصياتها القيادية. فالعراقيون الذين كان على معرفةٍ بهم هم الضباط السابقون في الجيش العثماني الذين انضموا إلى القضية العربية أثناء الحرب أو الذين انضموا لاحقاً إلى حكومته في دمشق، مع بضعة استثناءاتٍ قليلةٍ للغاية من مُحدثي النعمة المنحدرين من الطبقات الدنيا في المجتمع العراقي، والذين كان يُنظر إليهم بعين الريبة من قبل أعيان بغداد والموصل. كان المشهد السياسي مضطرباً للغاية وكانت التيارات المختلفة تتنافس على فرض نفسها. وقد تركت السنوات العثمانية رواسب قويةً من الولاء للسلطان، والآن وبعد أن تم تفكيك الإمبراطورية، تحوَّل هذا الولاء في جانبٍ منه إلى

الدولة الصاعدة في تركيا. فقد كانت الطبقات السنية القديمة البارزة تتقرَّب من البريطانيين أملاً في استعادة تفوُّقها في ظل النظام الجديد، وتوقَّع زعماء القبائل الذين ظلوا على ولائهم للبريطانيين خلال انتفاضة 1920 اعترافاً وتعويضاً عن موقفهم، بينما بقي الآخرون الذين انضموا إليها أو قادوها ينتظرون مصيراً مجهولاً في الدولة الجديدة. أما السلطة الدينية الشيعية فكانت ضاغِنة ومتزمِّتةً في معظمها في معارضتها للحكم البريطاني. وكان الأكراد، المتركِّزون في ولاية الموصل السابقة (مقاطعة عثمانية)، يأملون في انفراجٍ يضمن استقلالهم. أما الطبقة السياسية القومية أو القومية السرية المتنامية، والتي كان يوجهها السياسيون والأفندية الطامحون، فقد كانت تثبتُ وجودها عبر ضجيج المعارضة لهيمنة البريطانيين على البلاد. وكانت المجموعات الكبيرة من اليهود والمسيحيين في المناطق الحضرية، الأولى في بغداد والأخيرة في الموصل، حريصةً على ربط مستقبل العراق ببريطانيا، إذ كانت ترى في ذلك أفضل الضمانات لأمنها وازدهارها. بل كانت هناك نزعاتٌ إقليميةٌ انفصالية، حيث كانت شخصياتٌ بارزةٌ في ولاية البصرة تتزاحم لفصلها عن بقية العراق وإعلانها دولة منفصلةً متحالفةً مع بريطانيا، على غرار إمارتي الكويت والمحمَّرة.

كان على فيصل أن يتعامل مع هذا الخليط من الآراء والنزعات المتضاربة بما تحمله من انقساماتٍ عرقيةٍ وطائفيةٍ واجتماعية، في دولةٍ محتلةٍ خارجةٍ من قرونٍ من حكم إمبراطوريةٍ مترامية الأطراف، وأن يبني مجتمعاً سياسياً ودولةً لم يكن لهما وجودٌ من قبل. لقد كان تحدياً هائلاً، أكبر بكثير من محاولته الأولى الفاشلة لبناء دولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ في سوريا، لكنه هذه المرة حظي بدعم إحدى القوى العظمى التي كانت قد قررت أساساً أن إقامة مملكة العراق وعلى رأسها فيصل هو أفضل سبيلٍ للمضي قدماً في الحفاظ على نفوذها ومصالحها في البلاد. لكن كان لفيصل أفكاره الخاصة التي تضمنت بناء مؤسسات دولةٍ حديثةٍ ستحقق استقلالها، وكان لا بد من وضع هذه الأفكار في مواجهة مطالب القوة العظمى، التي، وبكل المقاييس، كانت قد احتفظت في العام 1921 بمعظم، إن لم يكن بكل، أوراق اللعبة في يدها.

بريطانيا وبلاد الرافدين والحرب

سبق اندلاع الحرب بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية في 3 آب (أغسطس) 1914 قرع طبول التعبئة التي سُمعت أصداؤها في جميع المدن الرئيسة في أقاليم بلاد الرافدين. فقد أعقب حملات التجنيد العثمانية الوحشية، المعروفة باسم سفربرلك، عمليات فرارٍ بالجملة من قبل المجندين العراقيين. وقد أعقب ذلك بدوره عملياتٌ انتقاميةٌ شديدة القسوة من جانب العثمانيين، لم يكن لها أثرٌ يذكر على رفع معنويات القوات المقاتلة. ففي النهاية، كانت قوات

الأناضول الصلبة والموالية بالمطلق هي من خاضت المعارك الطاحنة. وقد بلغ قوام القوات العثمانية في الولايات الثلاث بالكاد أربعة فرق، تم إرسال اثنتين منها على عجلٍ لتحصين جبهات سيناء، بينما تم إرسال فرقة بغداد إلى القوقاز. وكانت القوة الوحيدة المتبقية في البلاد لمواجهة أي حالةٍ طارئة هي الفرقة المتمركزة في البصرة، وكان تجهيزها مروّعاً، إذ كان لدى الجيش زورقٌ نهريٌّ مدرعٌ ضعيف، اسمه مرماريس، ولم يكن هناك سوى خريطةٍ واحدةٍ للبلد بالمقياس العسكري المناسب[2]. وكان البريطانيون قد جمعوا قوةً بحجم فرقةٍ في البحرين بقيادة الجنرال والتر سنكلير ديلامين واستعدوا لإنزالٍ بحري في ممر شط العرب المائي. كانت القيادة بإمرة حكومة الهند وكانت تُعرف رسمياً باسم قوة المشاة الهندية «IEF D». كان المقصود من الإنزال هو تأمين البصرة والرؤوس البحرية في الخليج، ولم تكن هناك خطةٌ لاحتلال كامل بلاد الرافدين. وبعد سلسلةٍ من المناوشات الصغيرة، تحركت قوات المشاة الهندية «IEF D»، تحت قيادة الجنرال باريت، نحو البصرة غير المحمية. وكان الجيش العثماني قد انسحب من المدينة باتجاه القرنة عند التقاء نهري دجلة والفرات، وفي غضون أسابيع قليلة هُزمت فلول القوات العثمانية في القرنة وتم أسر قائدهم.

وقد سبق سقوط البصرة دعوةٌ للجهاد في جميع أنحاء ولايات بلاد الرافدين، إذ أرسلت الحكومة العثمانية وفداً رفيع المستوى إلى المدن الشيعية ذات الأضرحة لإقناع المجتهدين (أطباء شرعيين من المسلمين الشيعة) لدعم المجهود الحربي العثماني، حيث لم يكن هذا وقتاً لمواصلة الخصومة بين طوائف الإسلام عندما كان الإسلام نفسه في خطرٍ من الغزو البريطاني. واتفق المجتهدون بقيادة آية الله العظمى كاظم اليزدي على أن الإسلام في خطرٍ ودعوا الشعب إلى النهوض ودعم المجهود الحربي. ونشأ جيشُ كبيرٌ من القبائل، بقيادة المجتهدين أنفسهم، وبعضهم في السبعينيات من عمره، وسار جنوباً لمساعدة القوات العثمانية في صدِّ الغزاة. وفي 12 نيسان (أبريل) 1915، شنَّت القوات العثمانية، بقيادة سليمان العسكري وبدعمٍ مما يقارب 50 ألف من رجال القبائل[*]، هجوماً على القوات البريطانية المتحصِّنة. واستمرت المعركة لثلاثة أيامٍ من القتال القريب الشرس، لكن القبائل اقتحمت في البداية ثم تبعتها الوحدات العثمانية النظامية[3] وتأرجحت كفَّة المعركة في الشعيبة، لكنها انتهت أخيراً بانتصارٍ بريطاني حاسم. ولم يستطع سليمان العسكري القائد الباسل تحمُّل عار الهزيمة فانتحر أمام مساعديه.

(*) إجتمعت أعدادٌ كبيرة من أبناء العشائر العراقية لمواجهة البريطانيين عند القرنة، لكن طول مدة الانتظار والركود العام في حركة العمليات العسكرية العثمانية أدت إلى تذمر المجاهدين، وشرع بعضهم بالعودة إلى ديارهم، وأخذ عددهم بالتناقص، حتى لم يبق منهم في 9 آذار (مارس) 1915 سوى حوالي 14.000، عند المنازلة الكبرى، بعد أن كانت أعدادهم المقدرة قبل ذلك حوالي 50 خمسين ألف. (المُراجع).

ومع تعزيز الموقف البريطاني في منطقة البصرة بالكامل، توغَّلت قوة المشاة شمالاً على طول نهر دجلة باتجاه العمارة والكوت، على بعد 250 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بغداد. واحتل الجنرال تشارلز تاونسند، الذي كان يقود القوات المتقدمة حينها، العمارة على نهر دجلة في 3 حزيران (يونيو) 1915، بعد سلسلةٍ من معارك القوارب النهرية. وبعد أن شجَّعته انتصاراته السهلة، تقدَّم إلى الكوت، التي سقطت في أيدي قواته في 25 أيلول (سبتمبر) 1915، وأصبحت بغداد الآن هدفاً لا يُقاوم. لكن قواته تم صدُها في معركة المدائن من قبل الجيش الخامس العثماني وتراجعت إلى الكوت حيث حوصرت. ومع نفاذ الإمدادات وتفشي الأمراض والوضع الميؤوس منه بشكلٍ متزايد، استسلم تاونسند للجيش العثماني في 29 نيسان (أبريل) 1916، وتم أسر ما يقرب من 11000 جندي من جنود الإمبراطورية البريطانية. كانت كارثةً عسكريةً كبيرة للبريطانيين. وتولَّت وزارة الحربية في لندن مسؤولية حرب بلاد الرافدين وتم إرسال قائدٍ جديد، هو الجنرال ستانلي مود، ليحلَّ محلّ الحرس القديم. كانت أوامره تقتضي بالاحتفاظ بالمكاسب في ولاية البصرة وحماية حقول النفط في بلاد فارس، وأيُّ تقدُّمٍ باتجاه الشمال كان لابد أن يكون مُصرَّحاً به بوضوح. لكن مود لم يكن مقتنعاً بممارسة لعبة الانتظار، فقد أراد سحق الجيش العثماني في بلاد الرافدين، ومحو عار كارثة الكوت، فكانت مسألة وقتٍ فقط قبل أن يشنَّ هجومه.

تدابير التصدي للغزو البريطاني لبلاد الرافدين

أثار التقدم البريطاني في بلاد الرافدين ردود فعلٍ متباينة بين شرائح مختلفةٍ من السكان. فسرعان ما تحوَّل الاندفاع الأولي لدعم القضية العثمانية بقيادة الطبقات الدينية إلى موقفٍ من الانتظار والترقُّب. وكانت قبائل جنوب بلاد الرافدين هي الأكثر تذبذباً في ولاءاتها حتى الآن، إذ كانت غالبية القبائل تنتمي إلى المذهب الشيعي، وتلك التي كانت مناطقها قريبةً من المزارات المقدَّسة تأثَّرت بشكلٍ مباشر بقرارات ومواقف المجتهدين. لكن القبائل كانت مهتمَّةً في المقام الأول بمصلحتها المادية ونفوذها، وكان شيوخها يكيلون بعنايةٍ حجم المكاسب التي قد يجنونها من العثمانيين أو البريطانيين كثمنٍ لدعمهم، إذ حوَّلت قبائل بأكملها دعمها للقضية العثمانية إلى موقفٍ محايد، ومن ثم إلى نهجٍ مؤيدٍ لبريطانيا، والعودة مرةً أخرى، اعتماداً على رجحان كفَّة الميزان العسكري المحلي لأحد الفرقاء والأموال وصكوك ملكية الأراضي والعتاد التي يمكنهم تقديمها لزعماء القبائل.

كانت المؤسسة الدينية السنية بصفةٍ عامةٍ مؤيدةً بقوةٍ للعثمانيين، حيث كان أغلبهم موظفين في الدولة وشاركوا الدولة العثمانية التفسير المتشدِّد للإسلام السني. أما السلطة الدينية

لدى الشيعة فقد كانت أمراً مختلفاً تماماً، إذ لقد أبعدت نفسها قدر الإمكان عن الحكومة العثمانية ولم تتعامل معها إلا في حالات الضرورة، وكانت الدولة العثمانية في أحسن الأحوال غير مباليةٍ بالشيعة. لكن، ولوهلةٍ قصيرةٍ، بعد انقلاب جمعية الاتحاد والتَّرقي CUP عام 1908 والوعد بالعودة إلى الحكم الدستوري في عام 1908، لمح الشيعة بارقة أملٍ في إزالة الحواجز القديمة ضدهم، حيث كان مجتهدو النجف مؤيدين على نطاقٍ واسعٍ لثورة 1908، بعد أن أدوا في السابق دوراً مهماً في الأحداث التي قادت إلى الثورة الدستورية عام 1906 في إيران. لكن الدولة العثمانية كانت متأهبةً على الصعيد المؤسساتي ضد الشيعة، ولم تؤثر الإصلاحات التي أدخلتها جمعية الاتحاد والترقي CUP إلا بصورةٍ هامشيةٍ على الطائفة الشيعية، فقد سُمح لهم بفتح مؤسساتهم التعليمية «الحديثة» الخاصة بهم، لكن لم يكن بإمكان أي شيعيٍّ أن يطمح عملياً إلى مهنةٍ عسكريةٍ أو بيروقراطيةٍ في الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، وعند اندلاع الحرب، قضى المجتهدون العرب في العراق لصالح الدفاع عن أراضي الإسلام من الغزو الأجنبي وأعلنوا الجهاد الدفاعي، وأولئك الذين لم يفعلوا ذلك كانوا في الغالب من أصلٍ فارسي[*] وتعذَّروا بعدم استعداد الناس للحرب[4].

لم يكن وجهاء السُنَّة في بغداد والموصل ملتزمين أو داعمين إلى حدٍّ بعيدٍ للعثمانيين حتى اقتراب الجيش البريطاني من بغداد. ففي السابق، أقامت العائلات الكبرى علاقاتً مصطنعةٍ ووثيقةٍ مع السلطان ولم تكن تلك العائلات متحمِّسةً كثيراً للثورة الدستورية أو جمعية الاتحاد والترقي CUP. إذ كان دعمهم للقضية العثمانية مرهوناً بشكوكهم في نية الجمعية CUP، لكنهم كانوا مندمجين بشكلٍ وثيقٍ جداً داخل هياكل الحكم العثماني لدرجةٍ تمنعهم من تأييد معارضةٍ نشطةٍ ضد العثمانيين، على الأقل أثناء اندلاع الحرب، إذ كانت الحركة القومية العربية في بلاد الرافدين ضعيفةً، وكان أتباعها المدنيون القلائل في بغداد، ومعظمهم من الموظفين والصحفيين الصغار، قد قاموا بمحاولةٍ عقيمةٍ للاتصال بالبريطانيين، ولكن تم منعهم من قبل نقيب بغداد عبد الرحمن الكيلاني[5].

لكن الضباط العراقيين في الجيش العثماني، وكلهم من المسلمين السُنَّة، كانوا مسألةً أخرى تماماً. فقد شكَّلوا عنصراً مهماً في الجيش العثماني[6] حيث جاء معظمهم من بيئاتٍ متوسطة واعتبروا أن العمل في الجيش العثماني هو سبيلٌ للارتقاء على المستويين الشخصي والمهني. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً منهم قد تم تنظيمهم قبل الحرب في جمعية العهد السرية، إلا أنهم ظلوا

(*) كان السيد محمد كاظم اليزدي والشيخ فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني (وهما ايرانيان) وغيرهما من أشهر العلماء الذين أفتوا وحثّوا الناس على الدفاع عن أرض العراق ضد القوات البريطانية الغازية إلى جانب العلماء العرب. (المُراجع).

في معظمهم موالين للقضية العثمانية. لكن مع تطوُّر الحرب وتضاعف الانتكاسات العثمانية، وجد عددٌ منهم طريقه إلى قوات الثورة العربية، إما عن طريق الفرار أو عبر نقلهم إلى الحجاز بعد قضاء فترةٍ في معسكرات أسرى الحرب البريطانية. ورغم ذلك، بقي معظمهم يشكِّكون بشدةٍ في الدوافع والمخططات البريطانية بشأن الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية. وقد أفسد هذا العامل العلاقة بين الضباط البريطانيين والعراقيين الذين انشقوا عن الثورة العربية.

رحَّب يهود ومسيحيو بلاد الرافدين عموماً باحتمالات هزيمة العثمانيين على يد الإمبراطورية البريطانية. فعلى الرغم من وعود المواطنة المشتركة التي أطلقتها عودة الحكم الدستوري والتمثيل المناسب في البرلمان العثماني، إلا أنه كان هناك اعتقادٌ شائعٌ بأن بُنى الإمبراطورية كانت إسلاميةً لا محالة. وبالإضافة إلى ذلك، وخلال الحرب، كان التجار اليهود في بغداد تحت الرقابة المستمرة فيما يخصُّ مسألتي الاحتكار والتربُّح، وكانوا يتعرضون للمضايقات بانتظامٍ للمساهمة في المجهود الحربي العثماني، وقد تم شنق العديد منهم علناً لتهرِّبهم من الخدمة العسكرية في الجيش العثماني. ولذلك فإن انتصار البريطانيين في الحرب كان أقرب إلى الخلاص بالنسبة لهم، إذ لم يكن هناك أدنى شكٍّ في أذهان الطائفتين اليهودية والمسيحية في بلاد الرافدين بأن الحكم البريطاني المباشر سيحمي مصالحهم بفعاليةٍ أكثر بكثير مما لو استمر الحكم العثماني[7].

كان هناك أيضاً قوىً إقليميةً لها دورها، إذ لطالما كان ميناء البصرة يتمتع بخليطٍ من السكان الأكثر انفتاحاً وعالميةً مقارنةً ببقية بلاد الرافدين. فكان المجتمع الكبير من التجار، بمصالحه التجارية الحيوية مع الهند، داعماً بشكلٍ طبيعيٍّ للبريطانيين. وفي الأول من كانون الثاني (يناير) 1915، أرسل ستةٌ من نخبة المواطنين في البصرة إلى الملك جورج الخامس تهنئةً بالعام الجديد ودعوا إلى جعلِ البصرة محميةً بريطانية. ولعلَّ حماسهم للحكم البريطاني قد عزَّزه الانحسار المؤقت لنفوذ الزعيم السياسي للبصرة، سيد طالب النقيب، وتشدُّده. فعند اندلاع الحرب، اتصل بالبريطانيين وعرض عليهم دعمه إذا تم تعيينه حاكماً للبصرة ومنحه راتباً كبيراً، لكن حكومة الهند لم تثق في مراوغاته المستمرة والتغيُّر في ولاءاته، وهندست عملية نفيه إلى الهند ليكون خارج ميدان الحرب[8].

سقوط بغداد

بعد معركة المدائن غير المحسومة واستسلام الجيش البريطاني في الكوت، ساد شعورٌ زائفٌ بالأمان لدى الأتراك في العراق. كان خليل باشا، والي ولاية بغداد والقائد العام للجيوش العثمانية في بلاد الرافدين، شخصيةً فاجرة، وكثيراً ما كان يتواجد في الملاهي الليلية وبصحبة البغايا[9].

وقد حدث سقوط الكوت خلال فترة ولايته، ونُسب إليه الفضل في الانتصار الذي لم يؤدِ فيه أي دور. أما نظيره البريطاني، الجنرال ستانلي مود، فقد أظهر سماتٍ مختلفةً للغاية. فقد كان حازماً، وعاملاً شرساً، ومتمسِّكاً بالتفاصيل[10]، وقد نقل مقره الأمامي إلى القرب من الكوت، وأعدَّ بعنايةٍ لهجومه. وبحلول كانون الأول (ديسمبر) 1916، كان مستعداً للزحف. واستمرت المعركة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، لكن مود كان قد جلب قوةً ساحقةً للضغط على الدفاعات العثمانية، فكان بإمكانه نشر سبعة فرقٍ، على عكس فرقة تاونسند. وكانت قوته النارية كذلك أكبر بما لا يقاس، وكان لديه عدة طائراتٍ تحت تصرفه للاستطلاع والقصف والتفجير.

بحلول شباط (فبراير) 1917، انهارت الخطوط العثمانية التي شكَّلت الدفاعات الأمامية لبغداد، وسلَّم خليل باشا بالمحتوم، وأمر بالإجلاء العام للبلدة. ونُقِلت المخازن والأسلحة والملفات والأثاث والمتفرقات للتواجد العثماني في بغداد شمالاً عبر جميع أشكال النقل، كالقطارات والبغال والشاحنات والعربات والنقل النهري، واختفت السلطة المركزية، وحلَّ مع غيابها البلاء على مدن بلاد الرافدين، حيث انحسر القانون والنظام، وتُرِكت بغداد وشقيقتها مدينة الكاظمية بأيدي اللصوص.

وفي 11 آذار (مارس) 1917، دخلت وحدات من الجيش البريطاني بغداد ورفَّرف العلم البريطاني من على برج الساعة الشهير في ساحة القشلة. فبعد ما يقرب من أربعة قرون، انتهى الحكم العثماني. وأعقب الانسحاب العثماني من بغداد إخلاء منطقة وسط الفرات إلى محيط الفلوجة والرمادي في الصحراء الغربية للعراق. وامتدت الخطوط العثمانية الجديدة حينها من سامراء شمال بغداد إلى الرمادي، لكن تم التخلي عن أي أفكارٍ لاستعادة بغداد في مواجهة الهيمنة الساحقة للبريطانيين.

إدارة العراق المحتل

كان وضع العراق المحتل مصدر قلقٍ للبريطانيين منذ أن لاحت بوادر الحرب مع الإمبراطورية العثمانية. وبحلول عام 1915، كانت حكومة الهند ومكتب الهند قد راهنوا بالفعل على مطالبهما بالمنطقة، وكان لديهما اعتقادٌ راسخٌ أن ولايتي البصرة وبغداد ستُحكمان مباشرةً من قبل الهند أو حتى أن يتم ضمُّهما إلى الراج[*]. لكن لندن كانت عازفةً عن تسوية مسألة مستقبل العراق بهذه الطريقة القطعية قبل التوصل إلى اتفاق سلامٍ عام. وبدلاً من ذلك، تم تشكيل لجنةٍ برئاسة

(*) تُطلق كلمة (الراج) على الحكم البريطاني في الهند الذي شمل عدداً من الولايات الهندية المستقلة إسمياً، لكنها تقع تحت حماية وإدارة ما يُسمى بـ (حكومة الهند) التابعة مباشرة لحكومة لندن، وكانت قبل عام 1858 تُدار من قبل (مجلس أو حكومة الشركة)، ويُقصد بها شركة الهند الشرقية الإنكليزية. (المُراجع).

اللورد كرزون في عام 1917 بعد وقتٍ قصير من سقوط بغداد وكُلِّفت بالإشراف المؤقت على البلاد. وضمَّت اللجنة السير مارك سايكس وكذلك السير آرثر هيرتزل من مكتب الهند. وتم إبلاغ نائب الملك في الهند صراحةً في مذكرةٍ بتاريخ 29 آذار (مارس) 1917 أن حكومة الهند لن يكون لها دورٌ في إدارة العراق، بل إن البلاد ستُحكَم بشكلٍ مباشرٍ من لندن في الوقت الراهن. وتم ترسيم حدود ولاية البصرة وكان من المتوقع أن تُدار كمحمية بريطانية. ومن ناحيةٍ أخرى، سيتم وضع ولاية بغداد تحت حمايةٍ أو وصايةٍ بريطانيةٍ غير مباشرة، ولكن بوجهٍ عربي. وقد اندرج هذا الترتيب تقريباً ضمن شروط اتفاقية سايكس بيكو. لكن كلّاً من مود وبيرسي كوكس، كبير المسؤولين السياسيين في بلاد الرافدين، عارضا التنفيذ الفوري لهذه القرارات ونصحا بأنه يجب أن يكون هناك حدٌّ أدنى من التوقُّف لنمط الحكومة الذي تم تشكيله في السنوات العثمانية.

برزت مسألة الحكومة العراقية إلى الواجهة بعد أسابيع قليلةٍ من الاستيلاء على بغداد، حيث كان مود وكوكس على خلاف. فلم يكن لدى مود ميلٌ كبيرٌ لتقاسم السلطة مع كبير موظفي الشؤون السياسية، ولم يرَ في أي حالٍ من الأحوال أي ميزةٍ تُذكر في إقامة أي سلطةٍ مدنية، مُفضِّلاً الإبقاء على الجيش، ما لم يكن هو نفسه، كحكمٍ نهائي في إدارة البلاد. وقد توسَّطت الحكومة البريطانية في النزاع وتم اللجوء إلى حلٍّ وسط، بحيث تبقى صلاحيات مود كما هي، لا ينازعه فيها أحد، لكن سيُعهد إلى كوكس الإدارة المدنية اليومية، ويقدِّم تقاريره إلى لندن عبر القائد العام. وقد ترك هذا مساحةً كافيةً لكوكس لجمع أساسيات إدارةٍ منفصلةٍ للعراق، والتي بدأ هو وخليفته، أ. ت. ويلسون، في بسطها تدريجياً. وقد توسَّعت سلطة الإدارة المدنية بشكلٍ كبير في أعقاب الوفاة المفاجئة للجنرال مود بمرض الكوليرا في تشرين الثاني (نوفمبر) 1917. وسمح تطور الإدارة المدنية القوية في العراق لكوكس ثم ويلسون بإبعاد العراق عن المخططات المختلفة، والتي انبثقت في معظمها عن الخطط الغامضة لمارك سايكس بإقامة «حكومةٍ عربيةٍ» لإدارة أراضي الشرق الأدنى المحتلة من الإمبراطورية العثمانية، وبات وضع العراق المنفصل عن بقية الشرق الأدنى حقيقةً راسخة.

وعلى نقيض الظروف الإشكالية في سوريا وفلسطين، سعى كوكس إلى خلق انطباعٍ بأن شعب العراق يرحب بالحكم البريطاني بشكلٍ إيجابي[11]، وفي مذكرةٍ وجَّهها إلى اللجنة الشرقية لمجلس الوزراء بعنوان «مستقبل بلاد الرافدين»، قدَّم تحليلاً تفصيلياً وخطة عملٍ لمستقبل العراق. كانت اهتمامات كوكس الرئيسة هي إزالة أي آثارٍ للحكم العثماني في البلاد واعتبار لواءي البصرة وبغداد واحدةً في الأساس. ويمكن بعد ذلك تطبيق النفوذ البريطاني بشكلٍ موحّد على أراضي العراق. فبدون هذه الوصاية لا يمكن للعراق أن يُحكم على النحو الواجب ولا يمكن استغلال موارده بنجاح. وقدَّم كوكس مقترحين لشكل هذه الحكومة، الأول بأن يكون الحكم

من خلال مفوضٍ سامي بريطاني يكون رؤساء الدوائر الحكومية، الذين يُفترض أنهم معيَّنون بريطانيون، تابعين له مباشرةً، والثاني هو تنصيب «حاكمٍ محليٍّ» صوري، مع منزلةٍ أقل من منزلة الملك. واستبعد فكرة أن يكون للشريف حسين أو أبنائه أي دورٍ في إدارة شؤون البلاد. «[الشريف حسين] هو شخصيةٌ لا وزن لها في العراق، وأبعد ما يكون عن محور الاهتمام». ومن ناحيةٍ أخرى، اقترح كوكس أن بإمكان نقيب بغداد الاضطلاع بهذا الدور.

ثم أوجز كوكس المجموعات الثلاث في البلاد التي يمكن لبريطانيا الاعتماد عليها لتسهيل إدارتها للعراق. الأولى هي طبقة وجهاء المناطق الحضرية في بغداد والبصرة، والمجموعة الثانية هي طبقات مُلَّاك الأراضي وزعماء القبائل البارزين، بالإضافة إلى ذلك، يجب على البريطانيين تشجيع وتعزيز الأقليات في العراق، وخاصةً اليهود، الذين من المفترض أن يكونوا أكثر قابليةً للعمل مع البريطانيين. وفي هذا الصدد، نصح كوكس بضرورة دعوة وايزمان، أو من ينوب عنه، إلى بغداد لتشجيع الجالية اليهودية على تقديم دعمها وتعاونها لإدارةٍ مدنيةٍ تقودها بريطانيا(12)، وسيكون هذا في الواقع أساس السياسة البريطانية اللاحقة في العراق. وقد وافقت اللجنة الشرقية رسمياً على مذكرة كوكس وفوَّضته بتنفيذها ضمن خطوطها العريضة. لكن مهمة تنفيذها وقعت على عاتق خليفته، أ. ت. ويلسون، حيث أُعيد انتداب كوكس في إيران في تموز (يوليو) 1918.

تم تعيين أرنولد تالبوت ويلسون، نائب كوكس، مفوضاً مدنياً بالإنابة لبلاد الرافدين في نيسان (أبريل) 1918، وكان لسياساته الإدارية ـ أو سوء الإدارة ـ تأثيرٌ عميقٌ على مجرى الأحداث في العراق خلال السنوات المضطربة بين عامي 1918 و1920. فقد كان ويلسون، وهو عقيدٌ في الجيش الهندي، ملتزماً بفكرة المهمة الإمبراطورية لبريطانيا وتأثيرها الحضاري على السكان المحليين. وكان أيضاً من أشد المؤمنين بفكرة «المسيحية المُحكمة» المفضَّلة للغاية لدى الإداريين الإمبراطوريين في أواخر العصر الفيكتوري. وكان العراق المختبر والموقع المثالي لنزعته الإمبراطورية. فنظراً لشكل علاقته الأبوي بشعب العراق، لم يكن يُبدي سوى الاستخفاف، بل والازدراء حتى، للنخب وقدرتها على حكم البلاد(13)، وقد عمل بنشاطٍ لإنشاء هيكلٍ إداري من شأنه تسهيل الحكم الإمبراطوري البريطاني.

كان من شأن ممانعة ويلسون لاستقلال بلاد الرافدين أن تضعه في مواجهة السياسات التي دعا إليها لورنس بتنصيب أبناء الشريف حسين على الأراضي العربية التي كانت تابعةً فيما مضى للإمبراطورية العثمانية(14)، ففي البداية رفض ويلسون فكرة «التسوية الشرفية»(*) للعراق(15)، لكنه

(*) بمعنى ترتيب أوضاع العراق بجعله تحت قيادة أحد أشراف الحجاز، بشرط أن يكون محمية أو دولة تحت الوصاية البريطانية. (المُراجع).

تراجع عن موقفه فيما بعد، وعرض عدداً من الترتيبات البديلة لحكم البلاد، بما في ذلك إمكانية اختيار أحد أبناء شريف مكة من بين ثلاثة مرشحين محتملين آخرين ليصبح الرئيس الفخري للبلاد[16]، كما أوصى مجلس الوزراء بإجراء استفتاءٍ شعبي لاستطلاع الرأي في البلاد. ولم يكن هناك من شكٍّ بأن الكلمة الأخيرة ستكون للمفوض السامي البريطاني، الذي توقع ويلسون أن يكون بيرسي كوكس. وفي الواقع، فقد عرض ويلسون البديل الخامس، وهو الحكم المباشر للبلاد لمدة خمس سنواتٍ على الأقل من قبل مفوضٍ سامٍ بريطاني، دون أن يكون هناك أميرٌ عربي أو رئيسٌ للدولة.

استفتاء العام 1918 ـ 1919

في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، فوَّض مجلس الوزراء ويلسون بتنظيم استفتاءٍ تدور صيغته حول ثلاثة أسئلةٍ أساسية: هل يدعم العراقيون إقامة دولةٍ عراقيةٍ واحدة من الموصل إلى الخليج تحت وصايةٍ بريطانية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يريدون عربياً على رأسها؟ فإذا وافقوا، فمن سيكون ذلك العربي؟ وقد أصدر ويلسون تعليماته للمسؤولين السياسيين المحليين في جميع المناطق لاستطلاع رأي الشخصيات القيادية في مناطقهم، إذ لم يكن هناك شكٌّ في إجراء استفتاءٍ عام. لكن السكان أُعتُبروا جاهلين وأميِّين، بحيث لم يكن لديهم أيُّ فهمٍ جاد للقضايا، فتم الاتصال فقط بالشيوخ ووجهاء المدن والشخصيات الدينية والطبقات المثقفة لاستطلاع آرائهم. وكان القصد من الاستفتاء إلى حدٍّ ما أن يعكس رأياً محلياً حقيقياً، لكن لم يكن من المسموح الطعن بمبدأ استمرار الهيمنة البريطانية. ومن المؤكد أن ويلسون استغل مناسبة الاستفتاء للدفع بمقترحاته الخاصة، وهي القبول الطوعي من جانب العامة بالحكم البريطاني المباشر والفصل الواضح لمستقبل العراق عن التيارات القومية التي كانت تؤثر حينها على البلاد العربية الأخرى.

نظَّم الاستفتاء نواب ويلسون السياسيين في جميع أنحاء العراق، وفي كثيرٍ من الحالات كان ويلسون نفسه يسافر إلى مدن ومناطق مختلفة للقاء القادة المحليين. وكان يتم التماس الآراء من خلال لقاءاتٍ مفتوحة، حيث يتم التعبير عنها بعد ذلك على شكل مضبطات، وهي بياناتٌ موقَّعةٌ تعبِّر عن موقف الموقِّعين عليها فيما يتعلق بالأسئلة التي أثارها الاستفتاء. وفي معظم المناطق القبلية في جنوب العراق، كان زعماء القبائل عُرضةً للضغط البريطاني، إذ كانوا يعتمدون على البريطانيين في مطالباتهم بالأراضي وحصولهم على الإعانات، وكان المسؤولون السياسيون المحليون في كثيرٍ من الأحيان على علاقةٍ وديةٍ مع شيوخ القبائل[17]، فكانت المضبطات التي تأتي من المدن القبلية الجنوبية مثل الناصرية والعمارة والديوانية والكوت والمسيب تؤيد بشكلٍ موحَّدٍ استمرار الحكم البريطاني، في الواقع هذا ما كان يعتبره المسؤولون السياسيون مناسباً

للعراق. وقد اقتصر ظهور المعارضة فقط على المدن التي تضم المزارات المقدَّسة والمراكز الحضرية. وليس من المستغرب أن المراكز الشيعية في النجف وكربلاء والكاظمية كانت في الغالب معاديةً لفكرة الوصاية الأجنبية. ففي النجف، دافع ويلسون بنفسه عن قضية الرقابة البريطانية على آيات الله العظمى(*)، مستخدماً اللغة الفارسية التي كان بارعاً فيها. وفي البداية جارى آية الله العظمى كاظم اليزدي الحكم البريطاني، «بما أن الشعب جاهل، وإذا فُرِض عليهم البيروقراطيون العرب فإن النتيجة ستكون الفوضى... لا يوجد شخصٌ واحدٌ يمكن أن يقبله الناس كأميرٍ عليهم»[18]، لكن سرعان ما انقسم الرأي وظهرت مضبطتان من النجف، واحدةٌ تدعم الحكم البريطاني والأخرى تطالب بدولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ يحكمها أمير. ومن ناحية أخرى، كانت كربلاء تقف بحزمٍ إلى جانب حكومةٍ عربيةٍ مستقلة يحكمها أحد أبناء الشريف حسين[19]، وكانت الأجواء في الكاظمية أكثر عداءً للحكم البريطاني، فهنا، أخذ أعيان البلدة وآيات الله من عائلتي الخالصي والصدر زمام المبادرة في رفض الحكم البريطاني والمطالبة بحكومةٍ عربيةٍ مستقلة، وطالبت المضبطة بتنصيب أحد أبناء الشريف حسين ملك مكة أميراً على البلاد، على أن يتم تقييد صلاحياته من قبل البرلمان.

لكن، ورغم ذلك، كانت بغداد هي التي ستختبر قيمة استفتاء ويلسون بحق، إذ كانت المدينة الرئيسة في البلاد ومركز المشاعر المعادية لبريطانيا. فهنا حيث يمكن للمثقفين حديثي النشأة في البلاد أن يتحدوا مع العلماء (رجال الدين المسلمين) وأبرز شخصيات الفكر المستقل للدفع من أجل رؤيتهم الخاصة لعراقٍ مستقل. حاول ويلسون استجلاب جمهورٍ غفيرٍ إلى مؤتمر بغداد للخروج بمضبطةٍ مواليةٍ لبريطانيا، لكنه فشل. وبقي اليهود والمسيحيون بعيدين عمَّا تمخَّض من ملتقياتٍ، وكان الإعلان الذي صدر بعد اجتماعين ملتهبين معادياً في نبرته لبريطانيا بصورةٍ قاطعة. «نحن أبناء الأمة العربية الإسلامية ونمثِّل طائفتي الشيعة والسُنَّة المسلمتين اللتين تقطنان بغداد وضواحيها، نقرر أن تكون الدولة الممتدة من شمال الموصل إلى الخليج [العربي] دولةً عربيةً واحدةً، يرأسها ملكٌ مسلمٌ، أحد أبناء الشريف حسين، ويكون ملتزماً بمجلسٍ تشريعيٍّ محليٍّ مقيمٍ ببغداد عاصمة العراق»[20]. وقد دفعت حدِّة المناهضة لبريطانيا في الإعلان عدداً من الأعيان وملَّاك الأراضي، الذين كانوا قلقين بشكلٍ واضحٍ من آثاره السلبية على مصالحهم الخاصة، إلى تقديم مضبطةٍ ذات صياغةٍ أكثر ملاءمةً للمفوض المدني بالنيابة.

لم يرحّب جميع العراقيين بالاستفتاء، إذ اعتقد العديد من الأعيان أن نشر قضايا السيادة

(*) آية الله العظمى: مصطلح دارج في بعض المجتمعات الشيعية ومعاهد الدراسات الدينية، يُطلق على مَن بلغ مرتبة عالية من الإجتهاد في الفقه، وله أتباع ومريدين. واعتادت الكتابات العربية تسميتهم بـ(علماء الدين). (المُراجع).

والحكومة في العلن من شأنه أن يحجب مشاعر الناس الحقيقية. واعتبر نقيب بغداد أنه تهوُّرٌ، ومصدرٌ لعدم الاستقرار والخلاف. وقد كانت فكرة أنَّ قوةً دوليةً محتلةً تطلب من العامة رأيها في الحكومة صادمةً، لا بل مثيرةً للسخرية، لدى الكثير من العراقيين[21]، فقد كانت نتائج الاستفتاء نفسها غامضةً، لكن تم التلاعب بها لتناسب النتائج التي أرادها ويلسون، إذ كان بالإمكان الاستفادة من اختيار المشاركين الذين تمت دعوتهم إلى جلسات الاستفتاء السرية، والحضور المخيف للمسؤولين السياسيين، والتصفية الانتقائية للآراء المُعبَّر عنها، والقلق الذي كان يشعر به الموقِّعون على المضبطة من أن الرأي المخالف سيصبح معروفاً لدى السلطات، لتلبية الأغراض التي سعى إليها ويلسون. وقد نجح ويلسون في إدارة العملية والنتائج لإقناع لندن بمدى اتساع نطاق الدعم للحكم البريطاني. لكن كان هناك جانبٌ أبشع من الاستفتاء. فقد قام ويلسون بترحيل المعارضين المعروفين للحكم البريطاني من بغداد، ورفض بصورةٍ مستعجلة الرأي الديني المُعبَّر عنه في المضبطات باعتباره لا يمثل الطبقات «المستنيرة». وفي الموصل، تم اعتبار الآراء الواردة في مضبطةٍ تحمل عشرين توقيعاً فقط انعكاساً دقيقاً لآراء جميع السكان المسلمين في المدينة. ولم يكن هناك شكٌّ في أن الكثيرين رأوا أن الحكم البريطاني المباشر ضروريٌّ للحفاظ على الأمن وإرساء أسس الإدارة المدنية، إذ كانت المشاعر المؤيدة لبريطانيا قويةً في مدينة البصرة وبين الأقليات. لكن هذا كان بعيداً كل البعد عن قبول حتمية استمرار الحكم البريطاني على دولةٍ جديدةٍ في العراق. فأُخمدت مشاعر الاستياء القبلية المتأججة عبر الإجماع الواضح للمشاعر بين شيوخ القبائل الموالين لبريطانيا، وتم تجاهل المخاوف الدينية، لا سيما بين المجتهدين الشيعة، من أن العراق سوف يسقط في أيدي قوةٍ غير مسلمة، واستُبعدت المشاعر القومية العربية على أنها تافهة أو غير ذات أهميةٍ، وتم إغفال التحركات الأولى للحركة الوطنية العراقية. إذ كان من الممكن لكل هذه التيارات المضادة أن تشكل تحدياً جدياً لآراء ويلسون، وبحلول منتصف عام 1919 كانت تتجمع لتنفجر بقوةٍ.

نشأة الحركة الوطنية العراقية

بات الخليط الملتوي من الوعود والادعاءات والتحالفات والمصالح والمطامع التي سيَّرت أفعال بريطانيا متشابكاً بشكلٍ متزايد. وكان يتعيَّن أن تلتزم عملية إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط في المقام الأول بالتحالف مع فرنسا وادعاءاتها في سوريا. وقد منح ذلك بريطانيا حرية التصرف بشكلٍ أساسي في العراق، بحيث يمكن معه إضافة ولاية الموصل بعد صفقة كليمنصو ولويد جورج، وتم تصنيف ولاية البصرة صراحةً على أنها أراضي تديرها بريطانيا بموجب اتفاقية سايكس بيكو، وفسّر الوايتهول مراسلات حسين ـ مكماهون على أنها تعطي مضموناً، إن لم يكن

شرعيةً، لمطالب بريطانيا بالهيمنة على بلاد رافدين. وكان كرزون نفسه مهتماً للغاية بإنشاء سلسلةٍ من الدول الصديقة في الشرق الأوسط تتداخل مع حدود الهند، كما كان من المستبعد أن تتخلى بريطانيا عن سيطرتها على العراق، خاصةً بعد نصرها المؤزَّر على العثمانيين [22]، لكن الإعلان الأنغلو ـ فرنسي رفع سقف التوقعات القومية في كل أنحاء الشرق العربي، ولم يكن العراق في منأىً من دعوات الاستقلال. وكان لا بد من التوفيق بين نية بريطانيا في حكم العراق، سواء بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، وبين المدِّ المتصاعد المطالب بالحكم الذاتي. فأتاح استفتاء ويلسون لبريطانيا إمكانية الخروج من هذه المتاهة المعقَّدة عبر الادعاء بأن التدخل البريطاني المستمر في شؤون العراق كان مطلباً شعبياً.

وبناءً على ذلك، أرسل مكتب الهند برقيةً إلى ويلسون في 14 شباط (فبراير) 1919 لإعداد دستورٍ للعراق من شأنه أن يفسح «المجال كاملاً للمكونات المختلفة من السكان ويعترف بالسمات الخاصة والخصوصيات المحلية وشملها ضمنه[!]». كان دستور ويلسون جاهزاً في غضون أسبوع وسافر بالطائرة إلى باريس ولندن لعرضه على حكومتيهما. وقد دعا بشكلٍ أساسي إلى إقامة حكمٍ بريطاني مباشر تحت إشراف مفوضٍ سامٍ، ودمج الموصل، بما في ذلك جنوب كردستان، والمناطق المتنازع عليها حول دير الزور في العراق. كما سيتم تقسيم البلاد إلى أربع ولايات، لكل منها نائبٌ للمفوض السامي، وستشكل كردستان منطقةً منفصلةً داخل العراق، وسيتم زرع المسؤولين البريطانيين عبر الهياكل الإدارية للبلاد، على الرغم من «منح العرب ذوي المنشأ والتعليم الجيدين مناصب ذات مسؤوليةٍ تنفيذيةٍ وإدارية منذ البداية»[24] أعطت الحكومة موافقتها على دستور ويلسون، ولكنها شطبت الموصل وأي إقليمٍ كردستاني يتمتع بالحكم الذاتي من مذكَّرته، إذ لم تكن الحكومة البريطانية مستعدةً بعد لتسوية قضية الولاية، على الرغم من أن ويلسون رأى أن إدراج الموصل في العراق أمرٌ جوهري لتنفيذ مقترحاته الدستورية. لكن وبحلول النصف الثاني من عام 1919، كانت الأحداث في العراق تتخذ منعطفاً غير متوقع على عكس تصورات ويلسون. ففي أيار (مايو) 1919، قام الأكراد بقيادة الشيخ محمود بالانتفاض واحتلوا مدينة السليمانية. وكانت تقارير الشرطة تصل إلى وزارة الخارجية حاملةً أنباءً عن تنامي المشاعر المعادية لبريطانيا، وقد تفاقمت بلا شك بسبب الأنباء التي تفيد بفرض انتدابٍ على العراق. كان موقف ويلسون الإمبراطوري العلني يزعج وزارة الخارجية، وبدأ الضغط يتصاعد لاستبداله.

إن الذين اختاروا الاستقلال بموجب العرائض المقدمة كانوا غير مسرورين بالتوقف عند حدود الاستفتاء، بل نظموا اجتماعاتٍ في المساجد للمطالبة بالاستقلال واعتُقل بعض قادتهم وتم نفيهم إلى الهند. ونشأ حزبان سرِّيان هما: «حرس الاستقلال»، وفرعٌ عراقي من حزب العهد، حيث نشطا فيما بعد بين صفوف الضباط العراقيين في دمشق[25]، وسرعان ما فقد حزب الحرس

على وجه الخصوص طابعه الأفندي والنخبوي، وبدأ في قبول المنتسبين علانيةً من جميع طبقات المجتمع وفئاته. كما اتسع انتشاره إلى المدن التي تضم المزارات المقدسة والأراضي القبلية. وظهر في هذه الفترة تشكيلٌ ثالثٌ يسعى إلى الاستقلال، وهو «جمعية الشبيبة الجعفرية»، الأكثر ارتباطاً بالشيعة. وخلال صيف وخريف عام 1919، ازداد الهياج في بغداد وأماكن أخرى ضد خطط الانتداب واحتمال أن يكون الاستقلال هدفاً بعيد المنال. وازدادت حدَّة المظاهرات والمسيرات ضد الانتداب، وتم لصق ملصقات تندد بالحكم البريطاني على جدران مدينة بغداد وسار تلاميذ المدارس وهم ينشدون: «وصايةٌ أو انتداب/ كلها تعني استعباد: وحياةٌ من الذُّل/ أبداً لن نقبل»[26].

أما في المدن التي تضم المزارات المقدسة، فقد دفعت غطرسة المسؤولين البريطانيين والقلق الشديد الناجم عن احتمال أن يفقد العراق هويته الإسلامية، بآية الله العظمى محمد تقي شيرازي من كربلاء لأن يبعث في نيسان (أبريل) 1919 برسالةٍ إلى المندوب الأمريكي في طهران يطلب فيها الدعم الأمريكي لإقامة دولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ في العراق. وفي الوقت نفسه، بعث آية الله العظمى الشيرازي ونظيره في المنزلة، آية الله العظمى أصفهاني(*)، برسالةٍ إلى الرئيس وودرو ويلسون يذكّره فيها بلطفٍ بنقاطه الأربع عشرة، ويذكر فيها أن «رغبة العراقيين والرأي السائد تتمثلان في أنه، طالما أنهم أمةٌ مسلمةٌ فينبغي أن [يتمتعوا] بالحريات القانونية وإقامة دولةٍ جديدةٍ مستقلةٍ تكون عربيةً ومسلمة بقيادة ملكٍ مسلمٍ ملتزمٍ بمجلسٍ وطني»[27]، وقد دفع ذلك السلطات البريطانية إلى ترحيل عدد من أتباع آية الله في كربلاء، الأمر الذي دفع بدوره بآيات الله العظمى إلى إرسال رسالةٍ إلى ويلسون، القائم بأعمال المفوض المدني، في آب (أغسطس) 1919، يتذمرون فيها من الإجراء البريطاني. فرد ويلسون بتبرير الإجراءات البريطانية، وإلقاء اللوم على المحرضين ومثيري الشغب[28].

كما انتشرت البلبلة والقلق في معاقل القبائل في وادي الفرات الأوسط. وقد كانت المنطقة غنيةً بالزراعة، وغدا العديد من زعماء القبائل من الأثرياء نتيجة زراعة الرز، فكانت لديهم الأموال اللازمة للانخراط في معترك السياسة القومية. أما القبائل المستقرة جزئياً في المنطقة، والملتزمة بشدةٍ بهويتها الشيعية وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلطة الدينية في المدن التي تضم المزارات المقدسة، فكانت لا تزال تحمل العديد من قيمهما البدوية السابقة، ليس أقلها الاهتمام المبالغ به بالشرف والنسب. وفي كثيرٍ من الأحيان كان يعوز الضباط السياسيون البريطانيون التي كانت

(*) وهما الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي (1840 ـ 1920) الذي اتخذ كربلاء المقدسة مقراً له بعد سامراء وتولى المرجعية بعد وفاة السيد محمد كاظم اليزدي سنة 1919، والشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة الأصفهاني (1850 ـ 1920) كبير مراجع النجف الأشرف.

تلك القبائل على احتكاكٍ بهم ضرورة مراعاة الحشمة والهيبة لشيوخ تلك القبائل، فقد تعرَّضت إحدى الشخصيات القبلية المعروفة، وهو سيد علوان الياسري، إلى معاملةٍ وقحةٍ من قبل ضابطٍ بريطاني متغطرس، مما حمل الياسري المغبون على كتم ضغينةٍ عميقةٍ ضد البريطانيين وأصبح عدوهم اللَّدود[29]. وخلال صيف وخريف عام 1919، قاد الياسري حملةً بين زعماء القبائل في المنطقة للثورة ضد البريطانيين. وبحلول نهاية العام، كان قد نجح في استقطاب عددٍ كبيرٍ ممن انقلبوا لصالح قضية الثورة، وأهمهم ابن عم الياسري الأكبر، سيد نور الياسري، وعبد الواحد الحاج سكر، الزعيم الأكبر لقبيلة فتلة.

لم يكن للثورة العربية صدىً كبيراً في العراق وقلةٌ من الأشخاص علموا بقيامها عندما بدأت[30]، وقد سعت السلطات العثمانية بطبيعة الحال إلى التقليل من شأنها، مُصوِّرةً إياها على أنها تمردٌ لا قيمة له، وسيتم إخماده قريباً، وأن الشريف حسين ليس سوى أداةٍ بيد بريطانيا. ومن المفارقات أن البريطانيين فشلوا أيضاً في استغلال أخبار الثورة العربية في دعايتهم في العراق ضد الأتراك. فقد كانت الحكومة الهندية تتجنب إثارة المشاعر بين المسلمين الهنود، ذلك أن الخلافة نفسها كانت تحت التهديد. وبحلول نهاية الحرب، كان الشعور العام هو أن الثورة العربية كانت عاملاً مساهماً في تدمير الإمبراطورية العثمانية وبالتالي حكم المسلمين، ولم يكن لديها الكثير من المؤيدين، ولفترةٍ طويلةٍ، لم يكن من الممكن فصل الثورة العربية، في ذهن أنصار الإمبراطورية، وحتى ذوي التوجهات الدينية في العراق، عن فكرة «الخيانات» العربية. وقد كان هذا مصطلحاً مُحتقَرَاً لدى الأتراك، وتُرجم حرفياً على أنه «العرب الخونة»، وهو ينطبق على كل أولئك الذين عارضوا الإمبراطورية أثناء الحرب. فبطبيعة الحال كان للثورة العربية أثرها الأكبر بين الضباط العراقيين في الإمبراطورية العثمانية. وحوّل هؤلاء الضباط القوميون والذين لطالما كانوا معادين لبريطانيا انتباههم إلى وطنهم من قاعدتهم في سوريا. وسيشكلون لاحقاً مكوناً آخر من مكونات التحالف غير المستقر الذي أدى إلى ثورة العراق عام 1920.

الشريف حسين وفيصل والعراقيون

كانت سوريا الدعامة الأساسية للقضية القومية العربية، فقد كان للعراق، وإن لم يكن هامشياً تماماً بالنسبة لطموحات القوميين العرب، سماته الخاصة. وعلى أية حال، فقد كان ترتيبه المستقبلي ذا أهميةٍ كبيرةٍ بالنسبة لبريطانيا، وتم الاعتراف بوضعه «الاستثنائي» في مراسلات حسين ـ مكماهون. وكانت الثورة العربية نفسها قد امتدَّت من الحجاز إلى سوريا بدلاً من العراق، وأدى إنشاء الدولة العربية المستقلة لاحقاً في سوريا إلى زيادة تركيز أذهان العرب على

سوريا. وقد ساعدت كل هذه الحقائق على طمس مدى العلاقات بين شرفاء مكة والتطورات في العراق في سنوات الحرب وبعدها مباشرة.

صادف فيصل عدداً قليلاً من البرلمانيين العراقيين الذين كانوا أعضاءً في المجلس العثماني، لكن يبدو أن أيّاً من تلك العلاقات لم تتطور لتصبح دائمةً بين فيصل وأولئك العراقيين في إسطنبول منذ تلك السنوات. ولم يكن للشريف حسين أيضاً اتصالٌ يُذكر مع الوجهاء العراقيين في السنوات التي سبقت الحرب، على الرغم من أن الحجّاج العراقيين تواصلوا معه خلال موسم الحج. فقد زاره عددٌ من آيات الله الفرس القياديين المقيمين في العراق، لكن هذه الدعوات كانت في الأساس دعوات مراسمٍ ومجاملة ولم تنطوي على الكثير من الأهمية السياسية. ولم يكن حسين يضمر أي ضغينةٍ تجاه مذهب المسلمين الشيعة، ورفض قبول أيٍّ من الممارسات التمييزية التي كان يعاني منها الحجاج الشيعة أثناء الحج. وقد دفع صعود ابن سعود وانحياز الوهابيين بشدةٍ ضد الشيعة الكثير من القادة الدينيين الشيعة في العراق إلى التأييد الضمني لشرفاء مكة ضد الخطر الوهابي.

لكن مع نهاية الحرب، أصبحت القضية الشريفية معروفةً على نطاقٍ أوسع ـ وأكثر شعبيةً ـ في العراق، وكذلك جهود فيصل في باريس في الدعوة إلى الاستقلال العربي. وفي نيسان (أبريل) 1919، التقى زعماء الثورة الثلاثة، السيد علوان، السيد نور الياسري، والشيخ عبد الواحد سراً مع آخرين في النجف، وناقشوا مسألة التواصل مع الشريف حسين في مكة ليطلبوا منه تنصيب أحد أبنائه ملكاً على العراق، وأبلغوه أنهم وقَعوا على التماساتٍ بهذا المعنى خلال استفتاء ويلسون وينشدون الآن دعمه لمواجهة المعارضة البريطانية لأهدافهم. وقاموا بتسمية محمد رضا الشبيبي، الشاب صاحب المستقبل الواعد في الفصاحة[*]، والذي شارك إلى جانب العثمانيين في معركة الشعيبة، لنقل رسالتهم إلى حسين. وقد أخذ معه بياناتٍ موقعةٍ من عشرات الشخصيات الدينية البارزة وزعماء العشائر والشباب القوميين، تؤكد جميعها التزامهم بالحكم المستقل في العراق تحت حكم أحد ابناء الحسين[31]. وتجنباً للسلطات البريطانية، التي شمّت خبراً عن مهمته، عبر الشبيبي الصحراء سالكاً الدروب البدوية من الزبير في جنوب العراق إلى مرتفعات شبه الجزيرة العربية. واستغرقت الرحلة المضنية شهراً حتى اكتملت. وفي وادي فاطمة، في طريقه إلى مكة، التقى الشبيبي بالأميرين علي، عبد الله وزيد، اللذين رتّبا له لقاء والدهم. وفي مكة قدم الشبيبي الالتماسات الموقّعة للحسين وعرض الوضع في العراق.

(*) كان مستقبل الشبيبي 1889 ـ 1965 حافلًا بالإنجازات العلمية بوصفه أديباً وشاعراً، وبالإسهامات السياسية لكونه تولّى فيما بعد مناصب مهمة مثل وزارة المعارف ورئاسة مجلسي الأعيان والنواب على مدد زمنية مختلفة. (المُراجع).

وردَّ حسين شخصياً على جميع الرسائل من العراق، وقدَّم رداً محبَّباً بشكلٍ خاص على آية الله العظمى محمد تقي شيرازي، الذي أسماه «الحبر الكامل»[32]، وقد تمت صياغة رسالته بعمومياتٍ غامضة، لكنها كانت لا تزال تدعم بشكلٍ واضحٍ مطالب الملتمسين.

كما أصدر حسين تعليماتٍ لفيصل، الذي كان حينها في باريس، بالدفاع عن قضية استقلال العراق في مؤتمر السلام[33]. ولاحظ الشبيبي مخاوف حسين المتزايدة بشأن مستقبل الأراضي العربية والإشارات الواضحة على خيبة أمله من الحلفاء. كما أذهله الارتباك والتهاون وسوء الإدارة التي اتسمت بها الدولة الحجازية المستقلة. أمضى الشبيبي أربعين يوماً في مكة، غادر بعدها إلى دمشق على متن قطارات سكة حديد الحجاز المدمَّرة جزئياً، وأمضى عدة أشهرٍ في الاجتماع مع المغتربين العراقيين، والتقى في مناسباتٍ عديدةٍ بفيصل وزيد في منزل فيصل في حي المهاجرين بدمشق. كان فيصل قد عاد حينها من باريس وأبلغ الشبيبي أن جميع الالتماسات التي أحضرها معه من العراق قد تم تقديمها في مؤتمر السلام من قبل وفد الحجاز. وبقي الشبيبي في دمشق لفترةٍ وحضر المؤتمر العراقي في 8 آذار (مارس) 1920، والذي عقد بالتزامن مع المؤتمر السوري الذي تم فيه إعلان الاستقلال.

المؤتمر العراقي في آذار (مارس) 1920

بعد سقوط دمشق، انقسم تنظيم العهد إلى مكوِّنين منفصلين عراقي وسوري. وعلى الرغم من أن هذا الانقسام كان نتيجة العداوات الشخصية بشكلٍ أساسي، إلا أنه كان هناك أيضاً اعترافٌ بين الضباط العراقيين الذين كانوا عماد التنظيم بأن احتمال قيام دولةٍ عربيةٍ موحدة من تحت أنقاض الإمبراطورية العثمانية كان بعيداً. فكانوا بحاجةٍ إلى تنظيم أنفسهم من أجل الدولة المستقلة التي كانت ستنشأ في العراق. وفي الوقت نفسه، بدأ العراقيون يتخطُّون مرحلة الترحيب بهم في سوريا، إذ كان هناك عداءٌ سوريٌّ متزايدٌ ضدهم، حيث كان يُنظر إليهم على أنهم أخذوا نصيباً غير متناسبٍ من وظائف الدولة العربية في دمشق. وفي كانون الثاني (يناير) 1919، بعث أربعةٌ من أعضاء حزب العهد العراقي، بالنيابة عن 385 ضابطاً وموظفاً عراقياً يعملون في سوريا والحجاز، برسالةٍ إلى الحكومة البريطانية يطالبون فيها بتشكيل دولةٍ عراقيةٍ دستوريةٍ مستقلة تحت إشراف أحد أبناء الملك حسين. وطالبوا بربط هذه الدولة بترتيبٍ كونفدرالي مع الدول العربية الأخرى المستقلة. كما تعهَّدوا بأن يكون هذا العراق متحالفاً مع «بريطانيا العظمى بمبادئها النبيلة والتي كانت مؤيدةً للعرب»[34]. ولم يتلق الموقعون أكثر من إشعارٍ مقتضب باستلام رسالتهم. وفي 23 نيسان (أبريل) 1919، أرسلوا برسالةٍ أخرى مماثلة إلى ضابط ارتباط الحلفاء في حلب، ليقوم بإرسالها من جانبه إلى

وزارة الخارجية. وهذه المرة حملت الرسالة توقيعاً إضافياً لجعفر العسكري الحاكم العسكري في حلب.

كان لهذه السلسلة من الرسائل تأثيرها المنشود على كرزون، الذي اعتبر أنه من الحصافة واللباقة الرد على الاستفسارات القلقة من هؤلاء الضباط «البغداديين»، فحبَّرت وزارة الخارجية رداً على الضباط، وكان من المقرر إرساله إليهم عم طريق أ. ت. ويلسون. إلا أن هذا الأخير اعترض بشدةٍ حتى على التكرُّم بالرد، إذ لم يعتبرهم أكثر من مجرد زمرةٍ قليلةٍ من الضباط الطموحين. أخذت وزارة الخارجية بملاحظات ويلسون المتهكِّمة في الاعتبار عندما أرسلت إلى الضباط رداً غير ملزمٍ فيما يتعلق بوضع العراق، حيث كان مجرد تكرارٍ للموقف البريطاني الرسمي بأن مصير العراق سيُحسم في معاهدة السلام النهائية. كما كان الضباط العراقيين في سوريا يبتعدون بشكلٍ متزايدٍ عن بريطانيا، بعد عددٍ من الحوادث التي أقنعتهم بأن لندن ليست جادةً في منح العراق الاستقلال. فطوال ربيع عام 1919 كانوا يطالبون بالعودة إلى العراق، لكن ويلسون كان مقتنعاً بأنهم كانوا وراء تصاعد الهيجان القومي في البلاد[35]. ومع ذلك، كان الضباط العراقيون متفقين في معظمهم على الدور القيادي الذي كان من المتوقع أن تلعبه بريطانيا هناك. ففي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، دعا ياسين الهاشمي، القومي القيادي، علانيةً إلى موقفٍ رئيسي للمستشارين البريطانيين في تطوير الدولة العراقية[36]، لكن ومع نهاية العام، تغير الوضع إلى الأسوأ. فبعد تجاهلهم من قبل وزارة الخارجية، وفي مواجهة إدارةٍ مدنيةٍ معاديةٍ في بغداد، وإغرائهم من قبل الهيجان القومي الكمالي، انقلب معظم الضباط العراقيين في سوريا على بريطانيا، وبدأوا في الدعوة إلى العمل العسكري والتخطيط له. وكانت منطقة دير الزور الحدودية المتنازع عليها[*] المكان الذي شجَّع فيه ضباط تنظيم العهد العراقيون لأول مرةٍ المعارضة المسلحة ضد السيطرة البريطانية وذلك في الأشهر الأولى من عام 1920. وكان فيصل، بالطبع، مدركاً لتغير المزاج بين الضباط العراقيين في سوريا، واجتهد للتأثير عليها بوسائل من شأنها تعزيز موقفه لدى البريطانيين. كما كان داعماً جداً لإعادة الضباط العراقيين بمجملهم من سوريا، فقد اعتبرهم أهم حلفاء القضية الشريفية في العراق، وأدرك أنهم يستطيعون تقوية حكم أخيه إذا ما نجح عبد الله في اعتلاء عرش بغداد[37].

(*) دير الزور: تقع شرق نهر الفرات على مقربة من الحدود العراقية، احتلها الجيش البريطاني وضمّها للعراق مطلع عام 1919، وبعد قيام ما يُعرف بـ(الحكومة الفيصلية) في دمشق سعى الضباط العراقيين من حزب العهد في دمشق إلى الإستيلاء عليها لجعلها قاعدة لتحرير العراق، لكن تسارع الاحداث وسقوط فيصل أدى إلى انسحاب البريطانيين منها وحلول القوات الفرنسية محلها، لتقع منذ ذلك الوقت تحت الانتداب الفرنسي لسوريا. (المُراجع).

شجَّع تحوُّل الضباط العراقيين في سوريا نحو مزيدٍ من الراديكالية جمعية العهد على عقد مؤتمر العراق في آذار (مارس) 1920، والدعوة علانيةً لاستقلاله. وتم ترتيب افتتاح المؤتمر العراقي في أوائل آذار (مارس) في دمشق، بحيث يتزامن مع المؤتمر السوري. وقد حظي بمباركة فيصل، لأنه كان يعتقد أنه سيعزز موقفه المتزعزع في سوريا، بالإضافة إلى تنصيب عبد الله ملكاً على العراق، وقد يؤدي ذلك إلى نزع فتيل الخلاف العائلي الخطير المحتمل على عرش سوريا، حيث كان يحقُّ لعبد الله المطالبة به بحكم أنه الأخ الأكبر. ومهّدت جمعية العهد الأرضية بعنايةٍ لمثل هذا المؤتمر، حيث هندست منشوراتٍ موقعةً من وجهاءٍ عراقيين في بغداد والموصل، وأوفدت قيادتها لتمثيلهم في مؤتمرٍ يعقده التنظيم. تم اختيار تسعةٍ وعشرين عراقياً كانوا في سوريا آنذاك لتمثيل الرأي العراقي. سبعةٌ منهم كانوا ضباطاً سابقين في الجيش العثماني والباقي من الكتَّاب والمحامين والتجار المقيمين في سوريا. وكانوا جميعاً من الطائفة السنية، باستثناء محمد رضا الشبيبي، الذي انضم إلى المؤتمر باعتباره الشيعي الوحيد. وكان الشخص الوحيد في المؤتمر الذي كان على اتصالٍ بالمعارضة المتنامية ضد الحكم البريطاني في المناطق القبلية في جنوب العراق والذي كان له علاقةٌ بالسلطة الدينية الشيعية. افتتح المؤتمر توفيق السويدي، المحامي البغدادي الذي تدرب في فرنسا. ووافق المؤتمر بالإجماع على بيانٍ دعا إلى استقلال العراق «من شمال ولاية الموصل إلى الخليج [العربي]. كما دعا البيان إلى أن يكون عبد الله الملك الدستوري للعراق وزيد نائبه، وقام «بحلِّ» الاحتلال العسكري البريطاني ودعا إلى حكومةٍ وطنيةٍ مسؤولة. وعلى سبيل الاحتياط، جدد الإعلان التأكيد، «باسم الأمة العربية في العراق» على الالتزام تجاه حلفاء العراق وأصدقائه (على الأرجح بريطانيا).

لكن الأحداث على الأرض كانت تخرج عن نطاق السيطرة. فقد طالب الضباط العراقيون في سوريا فيصل باتخاذ إجراءاتٍ لمواجهة البريطانيين في العراق. ففي النهاية، لقد حاربوا الأتراك لتحرير الأراضي العربية، وليس لاستبدال مجموعةٍ من المحتلين بأخرى. وافق فيصل على مضض على دعم فتح جبهةٍ ضد البريطانيين في منطقة الموصل، وقدم خمسة آلاف جنيه إسترليني، وهو مبلغٌ زهيد، للمساعدة في تسليح الكتيبة العراقية في دير الزور. دخلت مجموعة مداهمةٍ بقيادة جميل المدفعي العراق إلى محيط الموصل، بدعمٍ من رجال عشائر شُمَر والدليم، وأعضاء من جمعية العهد في الموصل، وهاجمت خطوط الاتصال البريطانية، وفي 4 حزيران (يونيو) 1920 احتلت بلدة تلعفر على طريق الموصل. ولكن سرعان ما استعاد البريطانيون المدينة وتراجع الطرف المهاجم إلى سوريا. ما إن حدث هذا حتى أطاح جيش غورو بصرح الحكومة العربية برمَته. وبسبب نقص الأموال والدعم العسكري، تركَّز الضباط العراقيون القلائل المتبقون في قرية الرقة شمال سوريا، لكن جهودهم لمواجهة البريطانيين من هذه القاعدة كان محكومٌ عليها بالفشل. وتفكَّك جيب الرقة في غضون أسابيع قليلة.

ثورة العام 1920

شكَّلت ثورة عام 1920 حدثاً أساسياً في تاريخ العراق، وهي إحدى التجارب القليلة المؤسِّسة التي يتفق عليها معظم سكان العراق. ففي أوجه، غطّت الثورة، التي كانت مزيجاً من الانتفاضات القبلية المسلحة والعصيان المدني في المدن، أجزاءً كبيرةً من وادي الفرات الأوسط والمدن المقدسة وبغداد. وتطلّب الأمر التزاماتٍ عسكريةً وماليةً كبيرةً من جانب البريطانيين لإخماده. وقد كُتب الكثير عن الثورة من قبل الكتّاب والمؤرخين العراقيين وغير العراقيين(*)، وأدت دوراً رئيسياً في صعود فيصل إلى العرش العراقي، وقلبت موازين القوى داخل البلاد، وحوَّلت السياسة البريطانية نحو الحكم غير المباشر، وشكَّلت روايةً مؤثِّرةً عن المقاومة والنضال، استغلها المعارضون والقوميون الراديكاليون لاحقاً.

طوال ربيع عام 1920، انتشر الاستياء والضيق في بغداد بين الطبقات المتعلمة والإدارية فيما يتعلق بتداعيات الحكم البريطاني. فقد أكَّد قرار انتداب بريطانيا على العراق الذي اتُّخذ في مؤتمر سان ريمو في نيسان (أبريل) 1920 ببساطةٍ لهذه الفئات الدور الثانوي الذي كانت ستؤديه في الدولة العراقية الجديدة. وفي أيار (مايو) 1920، وبالتزامن مع صيام شهر رمضان، انعقدت اجتماعاتٌ حاشدةٌ في جميع أنحاء بغداد بهدف التنديد بالانتداب والمطالبة بالاستقلال. وكانت السمة المستجدة لهذه الاجتماعات هي الدرجة غير المسبوقة من التعاون بين الطائفتين الشيعية والسنية، التي عقد أبناؤها اجتماعاتٍ مشتركةً في مساجدهم ودور العبادة الخاصة بهم. وقد جمعت هذه اللقاءات بين الاحتفالات السنية الشائعة بعيد المولد النبوي وطقوس الحداد الشيعية على استشهاد الإمام الحسين، حفيد النبي. ولعب حزب حراس الاستقلال الدور الأكبر في تنظيم هذه الاجتماعات والإشراف عليها. وأثناء تجمعٍ كبيرٍ بالتحديد في مسجد حيدرخانة في أواخر أيار (مايو) 1920، تم اختيار وفدٍ من خمسة عشر شخصاً لتمثيل الحشد أمام السلطات البريطانية. وافق ويلسون على مقابلة الوفد، ونتيجةً لذلك أزال جميع القيود المفروضة على عقد اللقاءات الجماهيرية، فانتشرت مثل هذه الاجتماعات طوال شهر حزيران (يونيو) 1920. وتنافس الشعراء والخطباء والسياسيون وحتى الأعيان (وإن كان على مضض) لإقناع الحشود بحماستهم الوطنية. وتم الاحتفاء خاصةً برجل الدين والشاعر الضرير محمد مهدي البصير لخطبه الحماسية، وأُطلق عليه لقب «ميرابو العراق»[38]. تزايد قلق البريطانيون من صخب وانتشار هذه التجمعات الحاشدة. كتبت غيرترود بيل، كبيرة مستشاري ويلسون السياسيين، إلى والدها في 1 حزيران (يونيو) 1920: «نحن في خضم الهياج العنيف ونشعر بالقلق... المتطرفون هنا [لهم]

(*) من المؤلفين البارزين الذين كتبوا في (ثورة العشرين) عبد الله الفياض وعبد الرزاق الحسني ووميض جمال عمر نظمي وعبد الشهيد الياسري والمستشرق الروسي ل. ن. كوتلوف وغيرهم. (المُراجع).

ذراعٌ يستخدمونها. لقد تبنوا نهجاً يصعب محاربته في حد ذاته، وهو الاتحاد بين الشيعة والسُنَّة، وحدة الإسلام. وهم يديرونه بكل ما يلزم»[39].

ومن كربلاء، كان ابن آية الله العظمى الشيرازي، محمد رضا، يساعد بنشاطٍ في انتشار الدعاية المناهضة لبريطانيا ويحضّ القبائل على المشاركة في شنّ تمردٍ. وقد وقف آية الله العظمى نفسه علناً إلى جانب الهياج في بغداد، وأرسل وفوداً إلى العاصمة للإبلاغ عن التطورات هناك. كما كتب رسالةً إلى فيصل في دمشق، يشيد فيها بعمله في سبيل الوحدة العربية، «ينبوع الوحدة الإسلامية»، ويطلب مساعدته ضد البريطانيين في العراق، «أنت تدرك بالتأكيد الاضطهاد الذي يعاني منه الشعب العراقي في كل لحظة... وقد وصل هذا الاضطهاد إلى مستوياتٍ لا تطاق». ثم دعا فيصل إلى لفت انتباه الصحافة العالمية والحكومات الأوروبية والأمريكية إلى محنة الشعب العراقي[40]. ونُظِّمت لقاءاتٌ في كربلاء والنجف برعاية آية الله العظمى لاختيار وفودٍ لعرض قضيتهم على السلطات البريطانية.

ونظراً لقلقه المتزايد من مسار الأحداث المتصاعدة، أرسل ويلسون قوةً كبيرةً في نهاية حزيران (يونيو) 1920 إلى كربلاء لاعتقال قادة الهياج في منطقة الفرات الأوسط، وعلى رأسهم محمد رضا، وتم ترحيلهم جميعاً إلى جزيرة هنجام على رأس خليج البصرة[*]. اعتقد ويلسون أنه من خلال هذه الإجراءات الصارمة سينتفي خطر حدوث المزيد من الاضطرابات، لكن ما حصل كان العكس. إذ انتشرت أنباء اعتقال نجل آية الله العظمى انتشار النار في الهشيم، وبتوجيهٍ من آية الله العظمى نفسه، حصل اجتماعٌ سريٌّ كبيرٌ بين القبائل في مدينة المشخاب وسط الفرات. وتصدَّر الاجتماع عدويّ بريطانيا القديمين السيد علوان الياسري والشيخ عبد الواحد [آل سكر]. ثم تم إرسال وفدٍ إلى الرائد نوربيري، كبير المسؤولين السياسيين في وادي الفرات الأوسط، للمطالبة بالإفراج عن محمد رضا. لجأ نوربيري إلى المراوغة، كما فعل غيره من المسؤولين السياسيين البريطانيين الذين تواصلت معهم وفودٌ قبلية للمطالبة بإطلاق سراحه وتمسُّك بريطانيا بوعودها باستقلال العراق. وفي بلدة الرميثة، اعتقل المسؤول السياسي البريطاني المحلي أحد الشخصيات القبلية الثانوية، وهو شعلان أبو الجون، زعيم قبيلة الظوالم أحد أفرع قبيلة بني حجيم، واحتجزه في سجن البلدية. وتم إخراجه من السجن من قبل رجال قبيلته مع انتشار الفوضى العامة في المدينة، وعند عودته إلى منطقته القبلية، علم شعلان أنه لا عودة إلى الوراء وأطلق نداءً لانتفاضةٍ عامة. وفي 1 تموز (يوليو) 1920، حوصرت بلدة الرميثة

(*) خليج البصرة: هي تسمية تاريخية تُطلق أحياناً على الخليج العربي، كانت شائعة في الوثائق العائدة إلى العهد العثماني وما قبله على نطاقٍ أضيق، لارتباط الملاحة والتجارة وخطوط المواصلات الدولية آنذاك عبر هذه المدينة. (المُراجع).

من قبل القوات القبلية، وتم تدمير رتل إغاثةٍ بشكلٍ كبير من قبل رجال القبائل. عرف السير أيلمر هالدين، الضابط المسؤول عن القوات البريطانية في العراق، أنه ربما يواجه انتفاضةً قبليةً عامة وأرسل تلغرافاً إلى لندن للحصول على تعزيزاتٍ عاجلة. وقد كان لديه ما يقرب من 60.000 جندي تحت إمرته، منهم 56000 من الهنود، وكان العديد من هؤلاء مسلمين، وبالتالي قد يترددون في سحق انتفاضةٍ مُستَلهمةٌ جزئياً من الدين. لكن لم يكن بالإمكان إرسال أي تعزيزاتٍ إليه قبل نهاية تموز (يوليو) على أقرب تقدير.

ولما يقرب من أسبوعين، وبسبب الخصومات القبلية العميقة والخوف من عواقب امتلاكه لقوةٍ كبيرة، لم تنضم أي قبائل أخرى في المنطقة إلى شعلان في انتفاضته. وحاول آية الله العظمى شيرازي، القلِق من أن تردد القبائل الأخرى قد يترك قبيلة الظوالم تواجه مصيرها، بدء محادثاتٍ مع ويلسون لتسوية حصار الرميثة بشكلٍ سلمي، لكن ويلسون لم يُعِر أي اهتمامٍ لذلك، فأصدر آية الله العظمى فتوى تجيز مقاومة البريطانيين بالقوة إذا لزم الأمر لاستعادة الحقوق المشروعة للعراقيين[41]، ورفعت قبيلة آل فتلة تحت قيادة الشيخ عبد الواحد علم الثورة في 13 تموز (يوليو) 1920، وفرضت قبائل أخرى انضمت إلى الثورة حصاراً على بلدة أبو صخير، حيث كان ما يقرب من مائتي جندي يعسكرون هناك، لكن سُمح لهم بالانسحاب سالمين من المدينة. بيد أن الهدنة بين القبائل الثائرة والبريطانيين لم تدم طويلاً، فبحلول نهاية تموز (يوليو)، كان وادي وسط الفرات بأكمله في خضم انتفاضةٍ قبليةٍ واسعة النطاق، وسقطت بلدة الكفيل في أيدي رجال القبائل الثائرين، وتعرَّضت الديوانية، وهي محطةٌ رئيسةٌ على السكة الحديدية وقاعدةٌ عسكريةٌ رئيسيةٌ للبريطانيين في منطقة وسط الفرات، للتهديد. وفي الرارنجية، حقق الثائرون انتصاراً شهيراً على قوةٍ بريطانيةٍ كبيرة.

لكن الهزيمة الكارثية لقوات العشائر التي حاولت الاستيلاء على بلدة الحِلَّة المهمة، والقصف المتواصل لمواقعهم من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني لجم إلى حدٍّ كبير زخم تمردهم. وبحلول شهر آب (أغسطس) 1920، استعاد البريطانيون، المدعومون بفرقتين هنديتين، زمام المبادرة في وادي الفرات الأوسط واستردوا بلدة المسيب والسدّة في الهندية، وهم الآن على أهبة الاستعداد لتأكيد سيطرتهم على مركز الثورة، مدينة كربلاء المقدسة. ولمحاسن الصدف بالنسبة للبريطانيين، توفي آية الله العظمى الشيرازي، الزعيم الروحي والسياسي للثورة، في 17 أب (أغسطس)، متأثراً إلى حدٍّ كبير بموكب النعوش للمحاربين القبليين القتلى وهي في طريقها إلى مكان دفنهم في كربلاء[*]. وعندئذٍ تم ترشيح آية الله العظمى الأصفهاني [فتح الله

(*) يتم الدفن في الأعم الأغلب في مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف تشرفاً بجوار مرقد سيد الأوصياء، لكن البعض قد يخرج عن هذه العادة التي سار عليها عامة الشيعة في العراق فيتخذ كربلاء مدفناً له. (المُراجع).

شيخ الشريعة] في النجف بالتزكية العامة ليكون خليفته. وأصدر الأصفهاني بياناً وعظياً دعا فيه الشعب إلى مواصلة انتفاضته، لكنه سمح أيضاً ببدء محادثات الهدنة مع ويلسون. وكان الأخير قد بعث إلى الأصفهاني برسائل جسٍّ نبضٍ حول إمكانية عقد سلام، وحملت الطائرات البريطانية هذا النداء للمتمردين من خلال إلقاء منشوراتٍ من الجو على مساحةٍ واسعةٍ تحمل رسالة ويلسون[42].

لكن الثورة استمرت، إذ لم يكن هناك إجماعٌ حول صدق دعوات ويلسون للسلام. كما أرسل الثائرون نداءً إلى القوى الكبرى وعصبة الأمم لعرض قضيتهم[43]. لكن الثورة لم تحقق قطّ الزخم الواسع اللازم لديمومته أبعد من الصيف. فقد وقفت الشخصيات القبلية الرئيسة إلى جانب البريطانيين طوال الوقت، ولم تشارك العشائر على طول نهر دجلة في الانتفاضة على الإطلاق، وكذلك لم يشارك الأفنديون والمتحمسون في بغداد الذين تدفقوا في وقتٍ سابقٍ على المساجد مطالبين بإنهاء الوصاية البريطانية. وعلى الرغم من وجود انتفاضاتٍ قبليةٍ متفرقةٍ في منطقة ديالى، شمال شرق بغداد، إلا أنها كانت قصيرة الأمد وتم قمعها بسرعة.

وفي غرب بغداد، قام الشيخ ضاري من قبيلة الزوبعة بقتل العقيد ليتشمان، المسؤول السياسي البريطاني عن المنطقة الغربية من العراق، ولكن هنا أيضاً لم تدم الثورة طويلاً، فسرعان ما استعادت القوات البريطانية مدينة الفلوجة، بؤرة الثورة في الغربية. وقد ساعدهم إلى حدٍّ كبيرٍ موقف الزعماء البارزين لعشيرتي الدليم وعنزة في منع انتفاضة الضاري من الانتشار، حيث تُركت القبائل الثائرة في منطقة الفرات لوحدها، وبدأوا يعانون من نقص الأموال والذخيرة، وتكبَّدوا خسائر كبيرةً في القتال. كما كان لدعوات ويلسون للتهدئة تأثيرها في تقسيم صفوف الثائرين، حيث شكَّك البعض من جدوى مواصلة القتال في مواجهة مصاعب جمَّة. وبحلول خريف عام 1920، تلاشت الثورة، لكن البريطانيين كانوا قد دفعوا ثمناً باهظاً لانتصارهم، حيث راح ما يقرب من 2500 جندي من جنود الإمبراطورية البريطانية بين قتيلٍ وجريحٍ ومفقود أثناء القتال، وكلَّفت الثورة وزارة الخزانة ما يقرب من 40 مليون جنيه إسترليني، وهو مبلغٌ ضخمٌ في ذلك الوقت. لكن خسائر القبائل كانت أعلى، حيث قُتل أو جرح ما يقرب من 8500 شخص خلال الانتفاضة[44].

كانت الانتفاضة بمثابة المسمار الأخير في نعش السياسة التي سعت إلى تحويل العراق إلى محميةٍ تحكمها بريطانيا بشكلٍ مباشر. واستحوذت فكرة «حكومةٍ عربيةٍ»، يُديرها موظفون مدنيون معيَّنون محلياً، ولو تمت تزكيتهم من قبل البريطانيين، على وايتهول بالكامل. وسيكون النفوذ البريطاني الآن غير مباشرٍ وشكلي، وسُيمارس خفيةً من خلال مفوضٍ سامٍ، وسيكون العراق مُلزَماً بشروط الانتداب، لكن وهم الاستقلال مع جزءٍ موضوعيٍّ منه سيستمر دون أن يُعرِّض

مصالح بريطانيا لخطرٍ جدِّي. وستظل بريطانيا تمثل العراق على الصعيد الدولي، وهو شرطٌ من شروط الانتداب. وستحتفظ بريطانيا بقواتها المتبقية في العراق لأغراض الأمن الداخلي والدفاع الخارجي، وستراقب الشؤون المالية للبلاد. وعدا ذلك «فالحكومة العربية» حرَّةٌ في التصرف بما يخدم مصالحها. وقد تمت مناقشة هذه السياسة والاتفاق عليها خلال أشهر الصيف بينما كانت الثورة مستعرة، ووقع الأمر على عاتق بيرسي كوكس لوضع السياسة الجديدة موضع التنفيذ[45]. وكلَّف مكتب الهند ويلسون بتحضير البلاد لاستقبال كوكس كمفوضٍ سامٍ جديد، حيث فقد ويلسون مصداقيته عملياً، وغادر العراق، وبعد ذلك ترك الوظيفة الحكومية بالكامل. وبعد فترةٍ طويلةٍ من المشاورات في لندن، وصل كوكس إلى بغداد في 11 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1920. وبعد يومٍ من وصوله، شرع بالتحرُّك لتشكيل «حكومة عربية»، وعرض رئاسة الوزراء على النقيب المبجل في بغداد عبد الرحمن الكيلاني، فشكَّل النقيب حكومته الأولى في 23 تشرين الأول (أكتوبر) 1920، وضمَّت ثمانية وزراء، بمن فيهم الوجيه اليهودي ساسون أفندي حسقيل كوزيرٍ للمالية[46]، وصديق فيصل القديم جعفر العسكري كوزيرٍ للدفاع وشيعيٍّ وحيد كوزيرٍ للتعليم[*]. كانت الحكومة الجديدة تعتمد كلياً على البريطانيين من أجل الأموال والأمن والخبرة والمشورة. وكانت هذه الحكومة هي من بدأت بالمبادرات الرسمية تجاه فيصل، ولكن ليس قبل أن يتم تمهيد الأرضية بعنايةٍ في لندن والقاهرة، وفي بغداد من قبل كوكس.

(*) هو السيد محمد مهدي بن حسن آل بحر العلوم، شغل منصب وزير المعارف والصحة العمومية للمدة من 22 شباط 1921 حتى 23 آب 1921. اعتزل السياسة بعد ذلك حتى توفي سنة 1933. (المُراجع).

هوامش الفصل السابع عشر

1. قُدّر عدد سكان العراق في عام 1920 بنحو 2،849،000 نسمة. غالبية السكان (56%) كانوا من العرب الشيعة، بينما شكّل الأكراد والعرب السنة حوالي 18% من السكان لكل منهما. أما البقية فكانوا من اليهود والمسيحيين واليزيديين والفرس والمندائيين. الملخص الإحصائي للعديد من مناطق السيطرة والمحافظات البريطانية في الخارج من 1907 ـ 1921، العدد 56، HMSO، لندن، 1921.

2. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، المجلد. 4، بغداد، بدون تاريخ، ص 83.

3. إيه جي باركر، حرب العراق الأولى 1914 ـ 1918: حملة بلاد ما بين النهرين البريطانية، إنجما بوكس، نيويورك، 2009، ص 39 ـ 55. قامت مجموعة من جنود الأناضول بربطِ رُكَبِهم معًا لمنع أنفسهم من الهروب وقاتلوا حتى النهاية.

4. غسان عطية، العراق: نشأت الدولة، لام للنشر، لندن، 1988، ص 252 ـ 253.

5. المرجع نفسه، ص 132 ـ 134.

6. كان هناك ما يقرب من 1500 عراقي يدرسون في الكليات الحربية العثمانية عام 1914. غسان عطية، مرجع سابق، ص. 134.

7. المرجع نفسه، ص 131.

8. المرجع نفسه، ص 92 ـ 95، و124 ـ 28. وكذلك سليمان فيضي، مذكّرات سليمان الفيضي: في غمرة النضال، دار القلم، بيروت 1974.

9. رفيقته المفضلة كانت عاهرة تحمل اسم الفيلم. اشتهر أنه قال لها، «أنا القائد على العراق ـ لكنك أنتي تقومين بقيادتي!» عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، المجلد. 8، المكتبة الحيدرية، قم، 2004، ص 291 ـ 301.

10. أ. ج. باركر، مرجع سابق، ص 261.

11. غسان عطية، مرجع سابق، ص 214 ـ 217.

12. FO 371 /3387/142404. الضميمة ـ «مستقبل بلاد ما بين النهرين» للسير بيرسي كوكس، لندن، 22 نيسان (أبريل) ١٩١٨. أنظر أيضاً غسان عطية، مرجع سابق، ص 220، الحاشية 26.

13. جون مارلو، أواخر العصر الفيكتوري: حياة السير أرنولد تالبوت ويلسون، كريست، لندن، 1967.

14. اشتمل اقتراح لورنس المبكر، كما يُذكر، على تقسيم العراق إلى دولتين: بغداد وبلاد ما بين النهرين السفلى، مع الملك عبد الله؛ ويكون زيد أميراً في الموصل.

15. فيليب إيرلند، العراق: دراسة في التنمية السياسية، جوناثان كيب، لندن، 1937، ص 157.

16. ويضم أحد وجهاء الموصل، وهادي باشا العمري، وعضو من أسرة السلطان في مصر، وأحد أبناء شريف مكة ونقيب الأشراف في بغداد عبد الرحمن الكيلاني.

17. فيليب إيرلند، مرجع سابق، ص 166 ـ 167.

18. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 5، ص 69.

19. المرجع نفسه، ص ص 75 ـ 76. هناك أمراء آخرون ممن يحترمون وجهاء كربلاء، بما فيهم أحد سلالة قاجار وأمير عثماني.

20. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد5، ص 79 ـ 84؛ فيليب إيرلند، مرجع سابق، ص 170 ـ 171.

21. المرجع نفسه، ص ص 88 ـ 90.

22. كان لكرزون دور فعال في صياغة معاهدة 1919 بين بريطانيا وبلاد فارس.

23. فيليب ايرلندا، مرجع سابق، ص 180 ـ 181.

24. المرجع نفسه، ص182.

25. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 5، ص 92 ـ 94. وبطريقة فريدة أمسك الفريقان بخناق بعضهما البعض.

26. المرجع نفسه، ص 102.

27. المرجع نفسه، ص ص من 104 ـ 105.

28. المرجع نفسه، ص ص 106 ـ 108.

29. ضمّت قبائل الفرات من مجموعة كبيرة من السادة من نسل النبي محمد. كان السادة ضرورة مهمة في المجتمع القبلي، وكانوا في الخطوط الأمامية في تسوية الخلافات القبلية ومنعها من التحول إلى حرب شاملة. لقد كانوا أيضاً رابطًا مهمًا بين القبائل والتسلسل الهرمي الديني في مدن الضريح.

30. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 4، ص 298 ـ 299.

31. علي عبد شناوه، محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي ـ حتى عام 1932، دار كوفان للنشر، لندن، 1995، ص 126 ـ 128.

32. المرجع نفسه، ص 129.

33. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد 5، ص 123.

34. غسان عطية، مرجع سابق، ص 378 ـ 379. وقّع الرسالة ناجي السويدي ومولد مخلص وثابت عبد النور وناجي الأصيل.

35. المرجع نفسه، ص 386.

36. أوراق المكتب العربي، السلسلة ج، الوثيقة رقم 19 / 10/SY. مذكرة بقلم غيرترود بيل، «سوريا عام 1919»، تشرين الثاني (نوفمبر) 1919.

37. غسان عطية، مرجع سابق، ص 386.

38. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 5، ص. 189.

39. إليزابيث بورغوين، مرجع سابق، المجلد. 2، ص. 137.

40. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 5، ص 199 ـ 200. بقيت الرسالة دون تسليم لأن الساعي المختار للمهمة، الشيخ باقر الشبيبي، لم يتمكن من السفر إلى دمشق بسبب اندلاع القتال في منطقة الفرات الأوسط.

41 ـ وهناك بعض الخلاف حول التوقيت الدقيق للفتوى لأنها غير مؤرخة. وعلى الأرجح، تم إصدارها بعد أن رفض ويلسون مقابلة مبعوثي آية الله العظمى. كما تجاهل ويلسون بشكل مدروس نداءً آخر من آية الله شيخ الشريعة الأصفهاني، من أجل التهدئة.

42. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 5، ص 331.

43. لم يتم تسليم النداء أبدًا لأن المبعوث الذي كان سيحمله إلى مختلف المفوضيات في إيران أُصيب بالذعر وأخفاه. وتم استرجاعه في وقت لاحق، بعد فوات الأوان، ولم يعد له أي فائدة.

44. غسان عطية، مرجع سابق، ص 443؛ آيلمر هالدين، التمرد في بلاد ما بين النهرين 1920، بلاكوود وأولاده، لندن، 1922، ص 331.

45. المرجع نفسه، ص ص 457 ـ 464.

46. ساسون، المولود في بغداد عام 1860، سليل عائلة يهودية عريقة ومرموقة في بغداد. كان والده الحاخام الأكبر لبغداد. درس في مدرسة اللاينس اليهودية في بغداد، ثم درس الحقوق في اسطنبول وبرلين ولندن. عاد إلى بغداد عام 1885، حيث عُيِّن مترجمًا لولاية بغداد، وهو منصب مهم أتاح له الوصول إلى القنصليات الأجنبية. كان ساسون بارعًا في العديد من اللغات، بما في ذلك العربية والعبرية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وفي وقت لاحق كان رئيسًا لمصلحة النهر العثماني في العراق، ثم عضوًا في أول برلمان عثماني بعد ثورة 1908، ممثلاً عن بغداد. واستمر نائباً في اسطنبول طوال الحرب، وعاد إلى العراق في بداية عام 1920. وشغل خمس مرات وزيراً للمالية في عهد فيصل، ثم ترأس لاحقاً لجنة المالية والاقتصاد في البرلمان. توفي في باريس في آب 1932. كتب تأبينه الشاعر معروف الرصافي. كانت الافتتاحية كالاتي:

نعى البرق من باريس ساسون

فاغتدت ببغداد أم المجد تبكي وتندب

وختام القصيدة:

إلا لا تقل قد مات ساسون

بل فقل تغوَّر من أفق المكارم كوكب

الفصل الثامن عشر: ملك العراق

وصل فيصل إلى العراق والبلاد تتأرجح بشكلٍ خطيرٍ بين مطالب البريطانيين والدعوات لاستقلال العراق. لقد كان موقعه صعباً وغير مريح ليحكم من خلاله، لكن لم يكن هناك بديلٌ مقبول، فلو كان هو البطل المتصلِّبُ في مسألة الاستقلال الفوري، لما كانت لديه فرصةٌ للوصول إلى السلطة. حيث كانت بريطانيا ستعترض على تعيينه، وهذا ما كان سيحدث، ولو أنه جعل من نفسه أداةً بيد بريطانيا، لكانت مصداقيته قد تحطمت لدى الطرف الذي يدعو إلى الاستقلال. فكان لا بد له أن يسير على خطٍّ رفيعٍ بين هذين القطبين، اي البقاء وفياً لتحالفه مع بريطانيا دون المساومة على هدفه في استقلال العراق. وهذا التوتر ما سوف يميز سنواته التي قضاها في العراق بدرجاتٍ متفاوتة. فقد حقق البريطانيون انتصاراً باهظ الثمن على الثائرين، وكان الثمن هو التخلي عن أي اقتراحٍ يجعل من العراق مستعمرةً بريطانيةً مباشرة، فكان لابد من إيجاد صيغةٍ من شأنها أن تضمن المصالح الاستراتيجية لبريطانيا وتقدِّم للبلاد سبيلاً معقولاً للاستقلال. وفي الوقت نفسه، قد تمثل حكومةٌ قوميةٌ معتدلة بقيادة فيصل حاجزاً ضد الراديكاليين وحصناً ضد انتشار المفاهيم البلشفية والكمالية في العراق، إذ كان التهديد البلشفي هو الشغل الشاغل لوزارة الخارجية في ذلك الوقت[1].

لم تكن شعبية فيصل في العراق قد اختُبِرت بعد، إذ أدى الإعلان عن وصوله الوشيك إلى العراق إلى انشغال الأذهان بذلك، وأشارت تقارير الاستخبارات البريطانية في ذلك الوقت عموماً إلى اهتمامٍ مُشجِّعٍ بترشيحه. لكن وبينما كان يستعد للنزول من نورثبروك، كان فيصل متخوفاً من الترحيب الذي سيلقاه من السكان الذين لم يكن على تواصلٍ معهم إلا ما ندر أو لم يكن يعرفهم معرفةً مباشرة. وحتى البريطانيين، الذين يُفترض أنهم مهندسو ترشيح فيصل، لم يكونوا متأكدين من النجاح المحتمل لمسعاهم. وقد كتبت غيرترود بيل إلى والدها في 23 حزيران (يونيو) 1921، يوم وصول فيصل. «لقد رمينا نردنا ـ وستُظهر الأيام القليلة المقبلة ما إذا كنا سنحظى بالرقم الرابح. يتوقع أتباعه [فيصل] أن يكون مجيئه علامةً على حفاوةٍ شعبيةٍ كبيرة. أدعو السماء أن يكون الأمر كذلك لأنه سيبسِّط الأمور كثيراً بالنسبة لنا. وحتى تحين تلك اللحظة، لا شكَّ في أن الأقطاب ينظرون إلى الأمر بقلق»[2].

كان البريطانيون قد بذلوا قصارى جهدهم لتقليل عدد المتنافسين الجدِّيين على عرش

العراق. وكان السيد طالب النقيب، وزير الداخلية السابق، قد بدأ في إعلان ترشيح نفسه علناً، لكن البريطانيين انزعجوا من سلوكه المتحذلق ونزعته العدوانية. وفي 16 نيسان (أبريل)، وأثناء عودته من حفل شاي في منزل الليدي كوكس، تم القبض عليه وترحيله إلى سيلان[*]، وبذلك تمت إزالة منافسٍ قوي وعديم الضمير لفيصل من المشهد بأمان. كان تأثير نفي السيد طالب المُهين على وجهاء بغداد المستائين، وخاصةً رئيس الوزراء عبد الرحمن النقيب، آنياً. وسرعان ما تغيرت نبرة عداءهم المتعمَّد لفيصل إلى نبرة قبول. كما بدأ المرشحون المحتملون الآخرون في التواني والانسحاب، فقد انقلب الشيخ خزعل من المحمرة من كونه مرشحاً إلى مؤيدٍ شرسٍ لفيصل، وصرَّح لغيرترود بيل أن «[فيصل] كان بالمطلق المرشح الأكثر ملائمةً منه شخصياً، ومن الآن فصاعداً سيكرس كل جهوده لدعمه!»[3]. وتدريجياً، برز شعورٌ متزايدٌ بحتمية اختيار فيصل ملكاً على العراق. وأصبح عبد الرحمن النقيب مؤيداً ثابتاً لفيصل، متأثراً بلا شك بمحادثاته المتكررة مع كوكس وبيل، اللذين أشارا إلى أن فيصل كان أيضاً المفضَّل لدى بريطانيا. وقد التأم الآن الحزب المعتدل المؤيد لفيصل ويمكنه الاعتماد على دعم عددٍ من الشخصيات البارزة وكذلك الصحف. وأصبح فيصل مرشحاً مقبولاً حتى بين الراديكاليين، إذ كانوا قد غضبوا سابقاً من خطاب تشرشل أمام البرلمان في 12 حزيران (يونيو)، قبل رحيل فيصل إلى العراق، والذي أعاد التأكيد على أن بريطانيا ستفرض حكومة انتدابٍ على العراق، لكنهم لم يكونوا بطبيعتهم مناهضين للملكية، حيث كانت نقطة الخلاف الرئيسة لديهم هي ضرورة عقد مؤتمرٍ وطني منتخب أولاً، حيث يتم فيه اختيار فيصل ملكاً دستورياً[4]. وقد عكست عدة صحفٍ بغدادية، مثل صحيفتي دجلة والاستقلال، وجهة النظر هذه[5].

وفي بغداد، تم اتخاذ الترتيبات على عجلٍ لضمان استقبال فيصل بالشكل المناسب. وكان مجلس الوزراء قد قرر في 16 حزيران (يونيو) الترحيب بفيصل رسمياً واستقباله كضيف على الحكومة. وقبل أيام قليلة من وصول نورثبروك، عقد عددٌ من أنصار فيصل في العراق، وعلى رأسهم ناجي السويدي[6]. مساعد حاكم حلب العسكري سابقاً، ومتصرف [حاكم] بغداد، تجمعاً كبيراً في السينما الملكية ببغداد، أقيم بعلم وموافقة المفوض السامي. وفي الاجتماع، دعا ناجي الحضور إلى تشكيل وفد ترحيبٍ من ستين شخصاً والسفر على نفقتهم الخاصة بالقطار إلى البصرة لاستقبال فيصل رسمياً[7]. وانضم إلى الوفد المرحِّب مسؤولان حكوميان هما وزير الدفاع جعفر العسكري وفيلبي. وكان هذا قراراً متعمداً من قبل كوكس لخلق انطباعٍ بالحياد، حيث كان فيلبي معروفاً بمعارضته لفيصل ومدافعاً عن إقامة نظام جمهوري في العراق. اعتقد كوكس أيضاً أن الانكشاف على سحر فيصل ومزاجه اللطيف قد يخفف من نزعة فيلبي الجمهورية بل ويجعله

(*) جزيرة كبيرة تقع جنوب الهند، هي سريلانكا حالياً. (المُراجع).

ينقلب لصالح قضيته. لكن فيلبي لم يكن ذلك الشخص الذي ينجرف بسهولةٍ مع ميوله وأهوائه، لا بل إنه في الواقع أدى دوراً خبيثاً في إفساد مراسم استقبال فيصل، فأينما توقف القطار في طريقه إلى البصرة، كان المسؤولون السياسيون المحليون، برفقة أعيان المنطقة، يتوافدون إلى القطار ويطلبون من فيلبي تعليماتٍ حول كيفية التصرف عندما يصل فيصل إلى مناطقهم. وكان فيلبي يخبرهم أن فيصل كان مجرد مرشحٍ لعرش العراق، ولم يصبح ملكاً بعد، وأن لهم الحرية في استقباله على النحو الذي يرونه مناسباً، إذ لم تكن قد صدرت تعليماتٌ خاصةٌ من المفوض السامي بهذا الشأن[8].

البصرة والرحلة الى بغداد

استقل فيصل الزورق البخاري من نورثبروك إلى الشاطئ، إلى جانب العشرات من المراكب النهرية الصغيرة وغيرها من الزوارق التي ترفع علم الثورة العربية. وعلى طول ضفة النهر كانت حشود المزارعين والعمال المحليين ينادون باسمه ترحيباً به. وأثناء نزوله في «حي العشار على طول مجرى شط العرب المائي، صادفته لافتاتٌ تحيِّي (الاتحاد العراقي) وتعلن (تحيا البصرة)». ولم يكن هذا يختلف كثيراً عن كونه تذكيراً ماكراً بالصراع الدائر وراء الكواليس بين المدافعين عن وضع الحكم الذاتي للبصرة وأولئك الذين يدعون إلى عراقٍ مركزين فقبل أسبوعٍ واحدٍ فقط من وصول فيصل، تم تقديم عريضةٍ تحمل توقيع 4500 شخص إلى المفوض السامي من قبل وفد البصرة. وطالب الوفد، ومعظمه من التجار وملاك الأراضي برئاسة الوجيه عبد اللطيف المنديل، ورغم عدم سعيه لاستقلال البصرة، بحكمٍ ذاتي واسع النطاق للولاية. فقد أحسن تجار البصرة صنعاً خلال الحرب، وسعوا إلى الحفاظ على ازدهارهم، الذي وازنوه بالبعد عن بغداد والحكم الذاتي، بناءً على علاقاتٍ متينةٍ مع البريطانيين[9]، لكن مقدمي العرائض لم يكونوا يمثلون بأي حالٍ من الأحوال الرأي العام في البصرة، وكان لدى كوكس تحفظاتٌ على مطالبهم ورفض دعمها بأدب.

أمضى فيصل يوماً واحداً فقط في البصرة، في منزل المتصرف [حاكم] أحمد الصانع. واستقبل صباح يوم مغادرته وفداً كبيراً من الوجهاء المحليين، حيث تم إلقاء القصائد والأناشيد على شرفه. وارتجل فيصل رداً مطولاً، خاض فيه بالحديث عن رغبته في خدمة بلده واتِّباع من يختاره الشعب ليكون حاكماً له[10]. وفي المساء، استقلَّ هو وحاشيته القطار الذي كان من المقرر أن ينقلهم إلى بغداد، وتوقفوا في معظم بلدات وادي الفرات الأدنى والأوسط. وفي سيارة فيصل الخاصة جلس مستشاره الشخصي كورنواليس وفيلبي، وأمضوا معظم وقتهم في مناقشة السياسة وشربوا الويسكي والصودا. كان فيصل، بالطبع، مدركاً لعداء فيلبي الشخصي للقضية الشريفية وميوله

الجمهورية، لكنه مع ذلك كان غاضباً من فظاظته. فثمَّة من يزعم أنه رد على سؤالٍ وجهَّه إليه فيصل حول فرص ترشيحه بالتالي: «إنه بالأحرى يعتمد على موقفك الخاص، فطالما أن الشعب عموماً يمتلك سياسة، فإنها تتلخص في كلمةٍ واحدة ـ الاستقلال، فقد قامت قيادة الثورة وحربه على تلك القضية وحدها، وتم إيقافه كردٍّ على موافقة الحكومة البريطانية على تغيير سياستها على أساس الاستقلال. أما الآن، فإذا كنت ستبني حملتك على حقيقة أنك المرشح المقبول لدى الحكومة البريطانية، فأعتقد أن فرصك ستكون ضعيفةٌ للغاية. ومن ناحيةٍ أخرى، فإذا أعلنت أنك تسعى للحصول على حق الاقتراع للشعب كداعمٍ لاستقلالهم التام، فأعتقد أن لديك فرصةً أفضل من أي شخصٍ آخر»[11]. وقد كذَّب آخرون ممن كانوا حاضرين أثناء المحادثة هذا الرد الجاف نوعاً ما، ولكنه كان متَّزناً، وذكروا أن فيلبي دعا فيصل إلى نظام حكمٍ جمهوري.

كان فيصل محتاراً ومرتبكاً من استقباله في البصرة، مع مزيجٍ من الحماس المنظم، وترحيبٍ رسميٍّ شكليٍّ ولكنه باردٌ، ودعواتٍ محليةٍ للحكم الذاتي. وازدادت حيرته وارتباكه عندما واجه انطباعاتٍ متناقضةٍ خلال رحلته في جنوب العراق. ففي الناصرية، المحطة الأولى، كان الوفد الرسمي صغيراً وشكلياً. وفي السماوة، تم استقباله بحرارةٍ أكثر من قبل مجموعاتٍ من الشيوخ ورجال القبائل المحليين، لكن الجمهور في الديوانية كان أصغر بكثير وأظهر القليل من الحماس[12]. وعند وصوله إلى الحلة، استُقبل بوفدٍ مرحِّبٍ مؤلفٍ من شخصين فقط، بيرترام توماس، نائب المسؤول الإداري المحلي ومساعد فيلبي، وعبد الرزاق شريف، المتصرف. وانفجر جعفر العسكري، وهو يشاهد هذا الاستقبال المهين، في وجه العمدة التعِس بسبب لامبالاته وعدم كفاءته التنظيمية، ولكن بالطبع لم يكن للمتصرف أي رأيٍّ في الأمر، إذ كانت مراسم الاستقبال من مسؤولية الضباط السياسيين، الذين هيأهم فيلبي لإظهار عدم اكتراثٍ مقصود لحضور فيصل. وعلي جودت، الذي رافق فيصل على متن نورثبروك، كان أيضاً في القطار معه. ويورد في مذكراته أن بيرترام توماس دخل غرفة انتظار فيصل وسأله بوقاحةٍ، «لماذا أتيت إلى العراق؟».

أجاب فيصل: ولماذا تسألني هذا؟

قال توماس، «لأن الشعب لا يريدك».

فقال فيصل: ولماذا تريد أن تتدخل بيني وبين شعبي؟

قال توماس: «فقط لإبلاغك».

فأجاب فيصل: «لا حاجة لي بمعلوماتك. وستعرف قريباً ما إذا كان الشعب يريدني أم لا». عند هذه الحدّ، غادر توماس الغرفة[13].

كانت الحلة نقطة ترجُّل فيصل خلال رحلته المهمة للغاية إلى المدن المقدسة، والتي لم يكن بإمكانه الوصول إليها إلا بالسيارة. وهناك، أقام هو والوفد المرافق له في منزل الشخصية المحلية المرموقة، السيد محمد علي القزويني. وتوافد عددٌ من الزوار إلى المنزل للترحيب بالأمير، في تناقضٍ واضحٍ مع الاستقبال الشعبي البائس الذي لقيه فيصل في محطة سكة حديد الحلة(14).

وفي اليوم التالي، 26 حزيران (يونيو)، غادر فيصل الحلة في موكبٍ إلى مدينتي النجف وكربلاء، تاركاً كورنواليس وفيلبي وراءه، حيث انتهى تأثير فيلبي السلبي على الرحلة بشكلٍ غير متوقع، فقد أُصيب بالملاريا بينما كان لا يزال في الحلة. وصل فيصل إلى النجف بزيِّه العربي الكامل، بما يرمز للشعب دون أدنى شكٍّ أن أهداف تمرد 1920 واستقلال العراق في ظل حكم ملكٍ عربي باتوا قاب قوسين أو أدنى من التحقُّق. ورافقه طيلة زيارته للنجف محمد رضا الشبيبي، مبعوثه ومبعوث الحكومة العربية في دمشق. حيث بات الشبيبي من أشد المدافعين عن فيصل بين قادة تمرد عام 1920(15). كان أول عملٍ قام به فيصل هو زيارة ضريح الإمام علي المهيب، الشخص الذي ينحدر منه جميع السادة، بمن فيهم شرفاء مكة. وتم تنظيم تجمعٍ كبير له في منزل السيد هادي النقيب حيث ألقى فيصل كلمةً مجَّد فيها بإنجازات الثورة العربية وتمرد العراق. ووقف باقر الشبيبي، شقيق محمد رضا، للترحيب به، «كنا ننتظر بفارغ الصبر زيارة ضيف العراق الكبير الأمير فيصل إلى معقل الثورة حيث نأمل أن تتحقق أهدافها الآن... ونسأل الله تعالى أن تتحقق أهداف جلالة الملك الحسين في استقلال الأراضي العربية ووحدة العرب كافةً». وفي المساء، أُقيمت لفيصل مأدبةٌ نظَّمها حارس المرقد، عباس الكليدار(*). وألقى فيصل كلمةً دعا فيها إلى إعادة إعمار البلاد وتنميتها. تلا ذلك خطابٌ حماسي ألقاه باقر الشبيبي [محمد باقر أخو محمد رضا الشبيبي] من جديد. لكن هذه المرة، اختار الشبيبي أسلوباً في التعبير غير موفَّق: «لقد ضحَّينا بالغالي والنفيس، فلا ينتظرنَّ أحدٌ منا تقديم ثمرة كفاحنا الطويل إلا لمن يُؤتَمن عليها ويغار على حماية استقلال البلاد وأهدافنا ومصالحنا الوطنية». وسواء كان الشبيبي يلمِّح بقصدٍ إلى فيصل أم لا، فهذا أمرٌ غير مهم. بيد أن فيصل اعتبر البيان إهانةً شخصيةً، وألقى ذلك بظلاله على ما كان حتى ذلك الحين زيارةً ناجحةً للنجف(16).

في 27 تموز (يوليو)، توجه فيصل بالسيارة إلى كربلاء. وهناك كان المتصرف [الحاكم]، وهو الهندي حامد خان، قد شدَّ الرحال في وقتٍ سابق إلى بغداد لأنه لم يكن يريد أن يكون حاضراً عند وصول فيصل إلى هناك، فمن الواضح أنه قد تأثر بنصائح فيلبي. لكن كوكس أعاده إلى كربلاء، حيث حاول بسرعةٍ تعويض غياب أيٍّ استقبالٍ رسميٍّ لفيصل. وزار فيصل في كربلاء

(*) كليدار: كلمة تركية الأصل معناها رئيس السدنة أو كبير الخدّام في العتبات المقدسة، وتعني حرفياً (حامل المفاتيح) وأطلق أيضاً على بعض الأسر لكثرة من يشتغل منها في هذا العمل. (المُراجع).

ضريحي الإمامين الحسين والعباس والتقى بشخصياتٍ دينيةٍ مختلفة. لكنها كانت زيارة مُحرجةً، ولم تكن ناجحةً تماماً، حيث بقي علماء المدينة في عزلتهم وبمنأىً عن زيارته بشكلٍ ملحوظ. ولدى عودته إلى الحلة، استُقبل بحماسٍ أكبر بكثيرٍ هذه المرة. فاحتشدت جموع الناس، ربما خجلاً من تحفُّظهم في المرة السابقة، في الشوارع، لتحيته وهم يهتفون، «أهلاً بالملك فيصل!»، وتقاطرت حشود الزوار إلى المنزل الذي كان يقيم فيه، وتنافس الشعراء فيما بينهم وهم يتغنُّون بمدحه[17]. وفي 29 حزيران (يونيو)، غادر قطار فيصل الحلة متوجهاً إلى بغداد. ومما لا شك فيه أن فيصل أصيب بخيبة أملٍ بسبب طريقة استقباله في الجنوب، حيث تعيش الأغلبية الشيعية في البلاد، ومن المؤكد أن قلة الحماس زادت من عدم اطمئنانه لوضعه ومكانته المتزعزعة باعتباره غريباً[18]. وقد ألقى باللوم علناً على فيلبي بسبب سوء استقباله، ولكن لا مناص من أن الشك بقي قائماً بأن السلطات البريطانية كانت وراء ذلك. ففي النهاية، وبدعوتهم له إلى العراق، كانوا هم المسؤولين أيضاً عن ضمان حرارة الترحيب به.

الوصول إلى بغداد

أيّاً كانت الهواجس التي شغلت بال فيصل حول حماسة استقباله في جنوب العراق، فسرعان ما تجاوزها بسبب الحشود الهائلة ومظاهر الدعم والمودة التي قوبل بها لدى وصوله إلى بغداد. كان من المفترض أن يصل قطاره في الصباح الباكر، لكنه تأخر حتى وقت متأخرٍ من بعد الظهر، ولم يكن لهذا إلا أن يزيد من ترقُّب وصوله، حيث انتشرت شائعاتٌ في بغداد بأن القطار قد أُوقف عمداً من قبل البريطانيين حتى تتفرق الحشود ويتم إسكات حفل استقباله[19]. لكن التأخير كان على الأرجح بسبب أعطالٍ على طول المسارات. ومهما كان الأمر، فقد ازداد عدد الحشود. كتبت غيرترود بيل إلى والدها حول أحداث ذلك اليوم، 29 حزيران (يونيو): «توجهنا أنا والعقيد جويس [المستشار العسكري السابق للجيش الشمالي] معاً في السيارة إلى المحطة... كانت البلدة كلها مزينةً بأقواس النصر والأعلام العربية ومليئةً بالناس، في الشارع، على أسطح المنازل، في كل مكان. وكانت هناك حشودٌ هائلةٌ في المحطة». ولدى عودتها إلى المحطة في وقت مبكرٍ من المساء، ذكرت بيل أن «المدينة كانت مزدحمةً بشكلٍ لا يصدق أكثر من ذي قبل ـ اعتقدت أنه لا يجب علينا العبور، لكننا فعلنا، ووصلنا لنجد المحطة بالمثل أكثر امتلاءً بالناس»[20]. كان يوماً حاراً بشكلٍ خاص في منتصف صيفٍ بغدادي، وهو حالةٌ من الطقس التي نادراً ما تشجع الحشود على الخروج، الأمر الذي لا بد أنه أضاف أهميةً أكبر لاستقبال فيصل.

وكان في استقبال فيصل المفوض السامي بيرسي كوكس، والضابط العام ـ القائد السير أيلمر هالدين، ووزير العدل، ممثلاً لرئيس الوزراء، ونفرٌ كبيرٌ من المسؤولين والأعيان. كتبت غيرترود

بيل: «وقف سيدي فيصل في العربة وكان يبدو مبهراً جداً في لباسه العربي الكامل، وهو يحيي حرس الشرف. صعد إليه السير بيرسي [كوكس] والسير أيلمر [هالدين] عند خروجه وأدّيا له تحيةً رسميةً رائعة، مع تصفيق الجميع، وسار أمام صف حرس الشرف يتفقده»[21]. وقد حضرت أيضاً وفودٌ من جميع ألوية العراق للترحيب به. ثم سار فيصل بسيارته عبر الشوارع المزخرفة وأقواس النصر إلى مسكنه. وقد تعرضت سيارته للهجوم في عدة نقاطٍ من قبل الحشود الغفيرة. كتب الشاعر محمد مهدي البصير، وأحد أبطال تمرد عام 1920، في روايته عن العصر، «استقبلته المدينة بصخبٍ شديد ولم تكن بغداد أبداً أكثر جاذبية بزخارفها الاحتفالية من ذلك الوقت. لقد أظهر الناس في ذلك اليوم محبتهم الحقيقية للأمير»[22].

لم تكن بغداد عاصمةً حقيقيةً منذ انهيار الإمبراطورية العباسية عام 1258م. لم يكن هناك سوى ثلاثة جسورٍ مثبَّتةٍ على قوارب وتقف مفتوحة الساقين فوق نهر دجلة. أما الشارع الرئيسي، الذي قطعه الأتراك خلال الحرب، كان لا يزال غير معبَّد. وعلى طول الطريق كانت هناك منازلٌ مهجورةٌ تم تقطيعها إلى نصفين وقطع أثاثٍ ملقاةٌ حولها. وعندما كانت تمطر، وقلما كان هذا يحدث، ولكن في كثيرٍ من الأحيان كانت أمطاراً غزيرة، تصبح الشوارع غير سالكةٍ. وعندها يصطَّف العتَّالون لنقل الناس على ظهورهم عبر الشوارع التي غمرتها المياه. كانت معظم المنازل في المدينة عبارةً عن مساكن مبنيةٍ بشكلٍ سيءٍ من الطين والطوب. أما العائلات الكبيرة في المدينة فقد كانت تعيش في منازل كبيرةٍ متناثرة، محتجبةً خلف أبوابٍ ثقيلةٍ تفتح على ممراتٍ ضيقة. لقد كان عالماً خاصاً حيث يترأس الأولياء في هذه العائلات، مرتدين جلابيب طويلة، وعماماتٍ على رؤوسهم، وملتحين بشكلٍ موحدٍ. أما أبناؤهم، الذين غالباً ما كانوا متأثرين جزئياً بالغرب بسبب تعليمهم العثماني الحديث، فقد كانوا يميلون إلى ارتداء البدلات والطرابيش. وكانت النساء معزولاتٍ ونادراً ما كنَّ يغامرن بالخروج من حيِّزهنّ الخاصة إلا للذهاب إلى الحمامات العامة.

لم تكن هناك مرافق عامة يمكن الحديث عنها. كانت الإنارة والصرف الصحي بدائية، وكان يجب نقل المياه إلى المنازل من النهر، على ظهور الحمير أو بالأيادي القاسية كالجلود، حيث يتم تخزينها في أوعيةٍ فخاريةٍ كبيرة. وكانت وسائل النقل العام بدائيةً، حيث كانت تعتمد على أسطولٍ من العربات القديمة التي يقودها سائقون سيئوا المزاج وبذيئو اللسان يرتدون قبعات العمال العراقيين، الشعراوية. أما الفنون والحرف المشهورة في بغداد فقد تلاشت، على الرغم من وجود نقاباتٍ للحرفيين في تجارة المجوهرات الفضة والنحاس. كانت عاصمة فيصل الجديدة مدينةً من العصور الوسطى بكل المقاييس مع القليل من الحداثة المتراكبة فوقها.

أقام فيصل في دار المشيرية، المقر الرسمي لحكّام بغداد العثمانيين السابقين. وقد كانت عبارةً عن جناحٍ ضمن مبنىً كبير يسمى القشلة، وهي جزءٌ من مجمع المباني الحكومية العثمانية المعروفة باسم (السراي)، على الضفة اليسرى لنهر دجلة. وكانت شقق فيصل تُطلُّ على النهر. وفي اليوم التالي لوصوله، قام شعراءٌ من الطراز العريق بزيارة الملك المستقبلي، ورحبوا به شعراً، وتنافسوا في مدح مناقبه. وقد قام شاعر العراق البارز في ذلك الوقت جميل صدقي الزهاوي بتأليف تحيةٍ شعريةٍ معروفةٍ جداً. يقول سطرها الأول: «جاءت تحييك هذا اليوم معلنةً أفراحها بك فانظر هذه الأمم»[*].

لم يضيع فيصل الوقت في التقرب من الطائفة الشيعية، تلك التي أربكه وأقلقه ترحيبها المتناقض به. ففي اليوم التالي، قام بزيارة بلدة الكاظمية ذات الأغلبية الشيعية، على بعد أميالٍ قليلةٍ شمال بغداد. وكانت الكاظمية مقر مزاري موسى الكاظم ومحمد الجواد المقدسين، وهما الإمامين السابع والتاسع للشيعة. كان استقباله حاراً وذُبحت الأغنام عند قدميه ترحيباً به. وأقام أعيان البلدة مأدبة عشاءٍ كبيرةٍ على شرفه، وصلى في مزار موسى الكاظم، واستُقبل فيما بعد في منزلي الزعيم الديني السيد محمد حسين الصدر[**] ووجيه الكاظمية عبد الحسين الجلبي. وفي 1 تموز (يوليو)، حضر فيصل صلاة الجمعة في المركز الرئيسي للإسلام السني في بغداد، مرقد الإمام حنيفة، أحد مؤسسي المذاهب الأربعة للإسلام السني. وقام في وقتٍ لاحقٍ بزيارة ضريح عبد القادر الكيلاني، مؤسس الطريقة القادرية الصوفية في القرن الحادي عشر، والذي كان سليله عبد الرحمن النقيب رئيس وزراء العراق حينها. وخرج حي الضريح بأكمله، وهو حي باب الشيخ، المزين بالورود، لتحيته. ثم زار فيصل منزل النقيب، واستقبله محمود، الابن الأكبر للنقيب، قائلاً: «إن عائلة النقيب، أيها أمير، هي يدك اليمنى، التي يمكنك استخدامها بالطريقة التي تشاؤها في خدمة الوطن»[23].

بعد أسابيع قليلة، انتقل فيصل إلى منزلٍ في حي الكسرة ببغداد، استأجرته وزارة الداخلية ليكون مقر إقامته الدائم. وكان المنزل ملكاً لتاجرٍ يهودي ثري من بغداد، يدعى ابن شعشوع[24].

(*) كان مطلع القصيدة هو: **إنا محيُّوك فاسلم أيها الملكُ ومصطفُوكَ لعرشٍ شاءه الفَلَك**. وهناك قصائد بالكامل لم ينشرها جميل صدقي الزهاوي في الديوان، بل في الجرائد العراقية القديمة الصادرة آنذاك، كقصائده في استقبال الملك فيصل ومدحه، ومنها قصيدته المشهورة هذه. يراجع: علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيروت، 1969، المجلد 6، ص 93. (المُراجع).

(**) المقصود هو: محمد بن حسن بن هادي الصدر (1882 ـ 1956) أحد أبرز أعلام الكاظمية، سياسي وطني عتيد، شارك في ثورة 1920 وكان من ضمن المنفيين إلى هنجام، وتولى مناصب رفيعة، منها وزارة المعارف ورئاسة مجلس الأعيان ورئاسة الوزراء. (المُراجع).

دعم البناء

كان فيصل يدرك جيداً التركيبة المعقدة للعراق، بخليطه من العشائر والسكان المتوطنين، وشيعته وسنته، وعربه، وكرده وتركمانه، وطيفٌ مذهلٌ من الطوائف الأصغر، من اليهود إلى المسيحيين، إلى اليزيدين والصابئة. كان العراق يمتلك أيضاً مجموعةً كبيرةً نسبياً من السكان الفرس المتوطنين، وخاصة في المدن المقدسة[*]، بالإضافة إلى الفارين والشاردين من الجيش العثماني السابق ومن جنسياتٍ مختلفة. كان التحدي الأكبر الذي واجهه فيصل في البداية هو ترسيخ شرعيته وغرس جذوره في البلاد. لكن لم يكن من الممكن القيام بذلك دون الحصول على قدرٍ يسيرٍ من الدعم من الشيعة. فقد كان عددهم يفوق عدد السكان الآخرين بهامشٍ ضئيل. وكان الشيعة ذوو الوعي السياسي مقسومين إلى مجموعاتٍ مختلفة. فكان بعضهم منخرطاً في الحركة القومية، بل وقادها حتى. كان موقفهم من فيصل يتسم بالترحيب الحذر، والاحترام لقيادته للثورة العربية وحكمه في سوريا. لكن ذلك الاحترام كان يشوبه القلق من أنه سيقع تحت النفوذ البريطاني وسيساوم على الأهداف القومية العزيزة المتمثلة في الاستقلال الكامل والسيادة أو سيعرضها للخطر.

كان معظم قادة تمرد 1920 من الشيعة الذين لجأوا إلى الحجاز على معرفةٍ مباشرةٍ بفيصل وكانوا يدعمون بشكلٍ عام ترشيحه. واستفاد فيصل من المناقشات الواسعة حول العراق التي أجراها معهم، والتي عمَّقت فهمه للقضايا الطائفية. وتحدث محمد رضا الشبيبي في رسالةٍ إلى السيد علوان الياسري عن هذا التفاعل بين فيصل وقادة الثورة. «ومن تلك الأمور التي تبعث على الارتياح... الاتفاقات التي قادتك لفيصل وقادته اليك. لا شك أنك أطلعته [فيصل] على آرائك ومخاوفك وأبلغته بتتابع الأحداث في العراق، وقدمت له نصائحك الثمينة وآرائك القيِّمة... وسيمنحه ذلك فهماً شاملاً ورؤىً ثاقبةً عن أحوال العراقيين وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم وممارساتهم وظروفهم الأخرى»[25]. لكن جماعة الشيعة في المنفى في مكة كانت قد انقسمت، مع جناحٍ يدعم فيصل ويرافقه إلى العراق في نورثبروك. وقد كان هذا الانقسام إلى حدٍّ ما من تصميم حسين الذي أظهر محاباةً فاضحةً بين المنفيين العراقيين. وضمت المجموعة المنشقة جعفر أبو التمن[**]، وهو شخصيةٌ قياديةٌ في حرس الاستقلال، وكان قد فرَّ إلى المدن المقدسة

(*) وفقاً لمعلومات وردت في الإحصائيات البريطانية سنة 1920، فإن النسبة المئوية لسكان العراق تتوزع كالآتي ـ علماً إنها ليست نهائية ـ: 52.4% مسلمون شيعة، 40.2% مسلمون سُنّة، 3.1% يهود، 2.8% مسيحيون، 1.5% ديانات أخرى.

(**) سياسي عراقي، ولد عام 1881 في عائلة من بغداد من قبيلة ربيعة، وكان قائد جمعية حرس الاستقلال المناوئة للاحتلال البريطاني في العراق عام 1919، وساهم في ثورة العشرين. (المترجمان).

بعد أن صدر بحقه أمرٌ بالترحيل من قبل أ. ت. ويلسون. وشقَّ أبو التمن طريقه لاحقاً إلى الحجاز بعد أن نجح البريطانيون في قمع تمرد عام 1920. ولم يكن هذا الجناح مستعداً لمنح فيصل ولاءه غير المشروط دون بعض التأكيدات على الطبيعة المحدودة للانتداب المقترح، وبقي في الحجاز حيث وصل إلى العراق فيما بعد عن طريقٍ مختلف[26].

كان العلماء هم المجموعة الأخرى ذات الأهمية السياسية التي كان على فيصل أن يتعامل معها. فقد كان مجتهدو الشيعة بخاصةٍ ينظرون بعين الريبة إلى تشابكاتهم مع السياسة، لكنهم مع ذلك قاموا بدورٍ قيادي في تمرد عام 1920. وأصبح بعض العلماء الأقل شأناً مسيَّسين إلى حدٍّ كبير، ولم تختلف أهدافهم في جوهرها عن تلك الأهداف للحركة القومية. وقد كان لدى فيصل خبرةٌ كافيةٌ في السياسة القبلية للتعامل مع الزعماء البارزين للقبائل الشيعية، لكنه كان لا يزال غير قادرٍ على إدارة الروابط القوية التي تربطهم بالمجتهدين البارزين في المدن ذات الأضرحة أو التأثير عليها. فقد كان جميع العراقيين في جيش فيصل من العرب (أو المُعَرَّبين) السُنَّة[*]، وكان ارتباطه بوجهاء الشيعة في العراق حديث النشأة جداً، إذ يعود تاريخه إلى الأيام الأخيرة من حكمه في سوريا. ولم يستطع رستم حيدر، أحد أقرب مستشاريه والشيعي من لبنان، سوى إعطاء فيصل توجيهاتٍ عامة حول السياسات التي يجب أن يتبناها مع شيعة العراق، فقد كان هو نفسه قومياً عربياً ملتزماً وعلمانياً للغاية في نظرته، ولم يكن قادراً على الارتباط بشكلٍ كاملٍ، على الأقل في عام 1921، بعالم الشيعة العراقيين المشحون دينياً.

كان بإمكان فيصل أن يعتمد على مساعدة ونصائح تلك الشخصيات العراقية الشيعية التي يمكن أن يثق بها، ولكن ليس أولئك الذين اتصل بهم مؤخراً فقط. لذلك كان عليه أن يعتمد بشكل أساسي على حدسه ومواهبه الفطرية، التي كانت، على أية حال، هائلةً جداً. فقد كان مدركاً تماماً للحساسيات الطائفية في العراق، وكان قد قرر بالفعل أنه بحاجةٍ إلى التواصل مع الشيعة. وقد كان تقدمه في جنوب العراق وتوقفه المتعمد عند المدن ذات المزارات المقدسة دليلاً على قلقه في هذا الصدد. ولعل الفتور الذي استقبله به المجتهدين قد أفزعه، لكنه لم يثنيه عن الاستمرار في إيجاد أرضيةٍ مشتركة معهم. وقد استفاد فيصل أيضاً من نسبه، إذ لم يكن هناك شك في سلالته المرموقة والتي يمكن أن تُنسب إلى الإمام الحسن، الابن الأكبر لعلي، وابن عم النبي وصهره وأول أئمة الشيعة. ومن المعروف أن آراء فيصل الدينية كانت ليبراليةً في ذلك الوقت. فعلى الرغم من أنه كان سنياً يتبع المذهب الحنفي شكلياً، إلا أنه لم يتبنى مواقف

(*) تمّ الترويج للقومية العربية أو العروبة على إنها فكر وثقافة أكثر من كونها انتماء عرقي، وإنها تستند إلى دعامتين، هما: اللغة العربية والتاريخ المشترك. وهذا مما ساهم في دفع الكثير من العراقيين غير العرب إلى الإنضواء تحت راية الدولة العراقية الجديدة ذات الصبغة العربية. (المُراجع).

عقائدية أو جامدة. وفي الواقع، فقد ذكرت تقارير الاستخبارات البريطانية عن تلك الفترة أنه كان هناك اعتقادٌ سائدٌ بأنه كان شيعياً منغلقاً![27]. فقد كان من أوائل الدعاة للتسامح بين الأديان والطوائف، وبالنسبة للشيعة، الذين خرجوا من قرونٌ من الحكم العثماني التي عانوا فيها من التجاهل والتهميش، لاقى هذا التغيير في الرؤية من قبل الحاكم ترحيباً.

لم يكن دعم فيصل لدى الطائفة السنية أعمق بكثير، لكن كان لديه قاعدةٌ طبيعيةٌ، على الرغم من صغرها، بين الضباط الشريفيين الذين خدموا في الجيش الشمالي وأولئك الذين رافقوه لاحقاً إلى دمشق. لكن كان يُنظر إلى هؤلاء الضباط بتحفُّظٍ وريبةٍ كبيرين من قبل النخب السنية التقليدية في العراق. وكانت الاتحادات القبلية السنية الرئيسة في الأجزاء الغربية والشمالية من البلاد تقف وراء البريطانيين بقوة، حيث كانوا ممولين لهم بكل المقاييس، وكان من المتوقع منهم أن يسلِّموا قيادهم للمفوض السامي. ومن ناحيةٍ أخرى، فقد هيمن على الحركة القومية سياسيون طموحون، معظمهم من طبقة الموظفين السابقين لدى العثمانيين. وفي ذلك الوقت لم تكن مصالحهم قد تبلورت بعد في موقفٍ مناهضٍ للملكية، فقد كانوا معنيين في المقام الأول بضمان عدم سيطرة البريطانيين على سياسة البلاد بالكامل، وأن يكون فيصل ملزماً ببنود الدستور. وقد تداخلت أهدافهم مع أهداف فيصل، الذي حالت فكرته عن الشرعية دون الخضوع للبريطانيين. كان فيصل مصمماً على أن تُحدَّد علاقته ببريطانيا من خلال معاهدةٍ، بدلاً من شروط الانتداب أحادية الجانب. وقد ترك ذلك نقيب بغداد وحيداً، وهو الذي نحَّى عداءه السابق لفيصل وفكرة الحكم الشريفي برمتها جانباً، مُفسحاً المجال فجأةً للقبول به. واضطر فيصل إلى تهدئة النقيب وإرساء أسس علاقة عملٍ سليمة معه، فقد كان شخصيةً عاقلةً وحكيمة، واختار مواقفه بعنايةٍ على أساس التصرف البراغماتي الذي يعترف بحقائق السلطة، ممزوجاً بتقديس المنصب الديني التقليدي الذي ورثه. فبات الآن ميالاً لفتح صفحةٍ جديدةٍ مع فيصل[28].

في 7 تموز (يوليو)، أقام النقيب مأدبةً كبيرةً في منزله تكريماً لفيصل. وقد اعتُبرت على نطاقٍ واسعٍ بأنها بادرة حسن نية وعرضٌ للسلام. كان الحي مزيناً بالورود، وعندما وصل فيصل إلى المنزل، كان النقيب هناك شخصياً للترحيب به، متكئاً بجسده الضعيف على طبيبه الشخصي. تعانق الاثنان ودخلا المنزل متشابكي الأيدي في تعبيرٍ عربيٍّ تقليدي عن صداقتهما. أخذ فيصل مكانه على رأس المجلس بين النقيب والمفوض السامي، وألقى الشاعر معروف الرصافي قصيدةً في مدح فيصل والنقيب. كان الرصافي، شاعراً لامعاً، لكنه كان شخصاً زئبقياً ومعقداً، قد حصل مؤخراً على وظيفةٍ سهلةٍ في الحكومة، وهو ما قد يفسر حماسته للسلطات المفترضة[29].

في 11 تموز (يوليو)، اجتمع مجلس الوزراء العراقي وأصدر بالإجماع قراراً طالب فيه بفيصل ملكاً على العراق، على أن تكون حكومته «دستوريةً وديمقراطيةً وتمثيليةً ومحددةً بموجب

القانون»[30]. وفي هذا الوقت، كان النقيب قد تحوَّل بالكامل لصالح قضية فيصل. وكان قرار مجلس الوزراء مدفوعاً بمناورة بيرسي كوكس خلف الكواليس، حيث كان قلقاً من أن المناخ المتزايد من الحماس غير المنضبط لفيصل قد يؤدي إلى إعلانه ملكاً بالتزكية من جانب المتطرفين، وهو انقلابٌ من شأنه أن يجذبهم إلى مركز السلطة ويخيِّم بظلاله على شرعية فيصل. كان كوكس قد أخَّر إصدار قانون الانتخابات الذي كان من شأنه أن يسمح بتأسيس جمعيةٍ تأسيسية، بدعوى الصعوبات التي ينطوي عليها تنظيم الانتخابات في المناطق الكردية في البلاد. على أي حال، كان الأمر سيستغرق عدة أشهرٍ قبل أن تجتمع الجمعية التأسيسية، مما يؤخِّر مسألة من يجب أن يحكم العراق. فأرسل كوكس خطاباً في 8 تموز (يوليو) إلى مجلس الوزراء، يوضح الأسباب التي تجعل من الاستفتاء أكثر ملاءمةً في ظل هذه الظروف. فكتب: «يبدو أن هناك طلباً متزايداً من جانب العامة لإتاحة فرصةٍ فوريةٍ لتقرير من سيكون الحاكم»[31]. أبلغ كوكس مجلس الوزراء أنه لا يمكنه الموافقة على قرارهم الذي يعرض على فيصل العرش إلا إذا تم تنظيم استفتاءٍ يؤكد رغبات الشعب. كان فيصل نفسه مؤيداً بشكلٍ ملحوظ لإجراء استفتاء، وكان حساساً بالقدر نفسه لفكرة أن حكمه يجب أن يقوم على أساس إقرارٍ شعبي. وجدت بيل فيصل في حالةٍ معنويةٍ عالية نتيجةً لقرار مجلس الوزراء ودعوات كوكس لإجراء استفتاء: «لقد وجدته متألقاً ـ لقد كانت زيارةً مختلفة تماماً عن زيارتي الأولى في الصباح الباكر في اليوم التالي لوصوله! لكنني أصررت بشغفٍ على ضرورة إجراء استفتاءٍ من خلال آلية وزارة الداخلية، والتي تمكنتُ من التأكيد له على أنها ما كان يريده السير بيرسي بالضبط... كان محجر عينه الضخم يحمل نظرة شخصٍ جذِلٍ ـ مليئاً بأعيان وشيوخ بغداد من جميع أنحاء البلاد»[32].

كانت حملة فيصل لحشد الدعم له تؤتي ثمارها، فخلال فترة الشهرين بين وصوله إلى العراق وتتويجه، حضر عدداً لا يحصى من المآدب والحفلات والملتقيات التي نُظِّمت على شرفه. وبعد يومٍ واحدٍ فقط من وصوله إلى بغداد، أقامت البلدية مأدبةً كبيرةً في حدائق مود، حضرها جميع كبار المسؤولين البريطانيين والشخصيات العراقية القيادية، ووقف الشاعر الزهاوي وتلا:

«لقد دعوناك ملكاً علينا ولن نقبل أحداً سواكَ».

هلَّل الجمهور له وطالبوه بتلاوة هذه السطور ثلاث مراتٍ[33] وقد كاد المُجَوِّد المحترف لمراثي الإمام الشهيد الحسين، أو الـ[روزخون]، أن يُبكي الجمهور. وقد تأثّرت بيل، مع أنها لم تكن تفهم كلماته، «تقدمت عندها إلى المساحة العشبية بين الطاولات، شيعيٌّ بجلبابٍ أبيض وعباءةٍ سوداء وعمامةٍ سوداء كبيرة ويردد قصيدةً لم أفهم منها كلمةً واحدةً... لكن مع ذلك كانت رائعةً. الشخص ذو الجلباب الطويل يُنشِد ويكرِّس الوقت بيدٍ مرفوعةٍ، والظلام المرصع بالنجوم وأشجار النخيل وراء الدائرة المضيئة ـ ينوِّمك مغناطيسياً»[34]. وقد شبَّهه شخصٌ آخر

بأبطال التاريخ العظام، واصفاً إياه بـ «نابليون العدنانيين» و«بسمارك القحطانيين». حيث كانت قبيلتي عدنان وقحطان القبيلتين الأسطوريتين المؤسستين للعرب. شكر فيصل المتحدثين، لكنه عاتبهم بلطف على مبالغتهم وغلوِّهم. كانت الخطابات التي لا تنقطع، من هنا وهناك، تشكل عبئاً كبيراً عليه. فأفضى لبيل قائلاً، «كنت أفعل كل ما بوسعي لتجنب الخطب في سوريا وأخشى أنها ستكون أسوأ بكثيرٍ هنا!»[35].

وإحدى الحوادث المهمةُ الأخرى وقعت في المدرسة الجعفرية، الواقعة في حي سوق الغزل في بغداد، وهي منطقةٌ ذات أغلبيةٍ شيعية. تأسست هذه المدرسة في عام 1906 من قبل وجهاء الشيعة البارزين في بغداد لتوفير تعليمٍ حديث لأطفال الشيعة الذين حُرموا من الالتحاق بمدارس الدولة العثمانية. وقد كانت محطَّ فخرٍ للطائفة الشيعية، فقد تعلم فيها عددٌ كبيرٌ من قادة الشيعة المستقبليين ـ مهنيين وتجار وسياسيين[*]. وكانت مكاناً مهماً ورمزياً لفيصل لزيارته. وبعد الجولات المعتادة من الخطب وإلقاء الأشعار وقف فيصل وقال: «أقسم بالله، والله أنني لم أقوم بهذه الخطوة في سبيل أي مكسبٍ دنيوي أو ثوابٍ مادي. لم أتصرف لأنني سعيت إلى الشهرة أو المكانة أو المنصب. ولم أنهض لا أنا ولا أبي ولا أي فردٍ من عائلتي لأننا كنا نطمع بأي شيءٍ، ولكن فقط لأننا قمنا بواجبنا طلباً لرحمة الله... أقسم بشرفي وبأرواح أجدادي [بيت النبي] أنه لولا إصرار أصدقائي والأمة العراقية لما فكرت في القدوم إلى العراق». عندها، وقف أحمد الشيخ داوود، وهو شخصيةٌ محليةٌ بارزة، وطالب بصوتٍ عالٍ الحضور بالولاء لفيصل كملك، فصاحوا بعده موافقين[36].

بعد أيامٍ قليلة، في 18 تموز (يوليو)، حضر فيصل مأدبةً أقامها الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية في بغداد، وهي جزءٌ كبيرٌ ومهمٌ تجارياً من مجتمع بغداد. كانت غيرترود بيل هناك وكتبت عن المناسبة، «علا التصفيق لفيصل عندما جئنا وجلسنا جميعاً في برنامجٍ مؤلفٍ من 13 خطاباً وأغنية تخللها تقديم عصير الليمون المثلج والقهوة والشاي والكعك والمثلجات! استغرق الأمر ساعتين تماماً، في حرارةٍ خانقة... الخطب في هذه المناسبة كلها خطاباتٌ مُعدَّةٌ مسبقاً... لكنها كانت مثيرةً للاهتمام لأن المرء عرف التوترات التي تكمن وراءها، وقلق اليهود من أن حكومةً عربيةً لا بد وأن تعني الفوضى، واطمئنانهم التدريجي، بسبب موقف فيصل الذي بدا مستنيراً»[37].

قدَّم الحاخام الأكبر لفيصل لفائف القانون في اسطواناتها الذهبية ومجلدةً بنسخةٍ من

(*) من أولئك الأعلام الذين تخرجوا من المدرسة المذكورة: جعفر حمندي، صادق البصّام، صالح جبر، عبد الأمير علاوي (والد المؤلف)، مصطفى جواد. (المُراجع).

التلمود. كما تم إعطاؤه لوحةً عليها نقوشٌ عبريةٌ تقول: «أعطه القوة يا رب، واقبل عمله، ودمّر قوة أعدائه حتى لا يقاومه أحد». وكان الشاعر الزهاوي المتواجد في كل مكان حاضراً أيضاً، حيث ألقى هذه المرة خطاباً حول ضرورة التآخي بين البشر. وردَّ فيصل مستشهدا بالروابط المشتركة التي يجب أن تربط كل العراقيين. «لا أريد أن أسمع عن المسلمين والمسيحيين واليهود، لأن العراق وطنٌ قومي، وهناك أمةٌ واحدةٌ هنا تسمى [الأمة] العراقية»(38).

وفي 30 تموز (يوليو)، جاء دور الجالية الكلدانية المسيحية لاستضافة فيصل. فألقى كلمةً، أكد فيها تسامحه مع جميع المذاهب والأديان: «لا أفرق بين مذهبٍ وأخر لأننا كلنا عراقيون... فليعلم الجميع أنه لا أقليات أو أغلبية على هذه البلاد، فالأقلية هي أغلبيةٌ والأغلبية أقلية». ثم استطرد متحدثاً عن النهضة التي يتطلع إليها في العراق. فهو سيقود البلاد في تطورٍ سريع بعد سبعمائة عامٍ تحت الوصاية الأجنبية. لكن «يجب إلا نستعجل ونخطئ، وألا ندع دمائنا الحارة ومشاعرنا القومية تغلي بسرعة». ثم أعرب عن دعمه للتحالف البريطاني، قائلاً إن هناك بريطانيون أكثر ولاءً للعراق من بعض العراقيين. ثم أضاف، بشكلٍ غير حذر، أنه قد يكون مخطئاً في تقييمه للبريطانيين، لكن لا ينبغي لأحدٍ أن يقف ضد سياسة التحالف والصداقة مع بريطانيا(39).

وكانت القبائل العربية السُنّية في غرب وشمال العراق، بقيادة علي سليمان من الدليم، هي التالية في استضافة فيصل. لقد كانوا متحالفين بقوةٍ مع البريطانيين وكانوا يسترشدون بالمقيمية. ومن المرجّح أن تكون دعوة فيصل بإيعازٍ من البريطانيين، في جانبٍ منها بلا شك لتذكيره بالقوة التي يمارسونها وراء الكواليس مع القبائل. حضرت غيرترود بيل، المقربة من علي سليمان، المأدبة التي أقيمت في الصحراء المفتوحة. وفي رسالةٍ إلى والدها بتاريخ 31 تموز (يوليو)، تصف بيل الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم والدليل الاستثنائي لتأثير بريطانيا على القبائل:

تحت الحافة شديدة الانحدار للصحراء السورية، تم رسم المقاتلين من قبيلة عنزة، كانوا فرساناً وراكبي جمال، يحملون الراية الضخمة للقبيلة. توقفنا لنحييها عند عبورنا بها. جاء علي سليمان، زعيم قبيلة الدليم وأحد أبرز الرجال في العراق، من الرمادي للقائنا. لقد كان مؤيداً لبريطانيا بقوةٍ وثبات... قُدنا بالسيارة إلى ضفة الفرات حيث نصب علي سليمان خيمةً ضخمةً يبلغ طولها حوالي 200 قدم مع منصةٍ في الطرف العلوي سقفها مصنوعٌ من قماش الخيم وجدرانها من الأغصان الخضراء النضرة. وفي الخارج، كان ركاب الإبل من قبيلة الدليم وفرسانها يأخذون أماكنهم، ويقوم زنجيٌ يمتطي ظهر جملٍ أبيض عملاق برفع رايتها. وإلى الجهة الداخلية من رجال القبائل اصطفت الخيمة بعمق 5 أو 6 من المنصة حتى النهاية. جلس فيصل على

الديوان العالي... كان فيصل في بلده مع الأناس الذين يعرفهم. لم أره بهذا التألق من قبل. كان يرتدي ثيابه البيضاء المعتادة مع عباءةٍ سوداء ناعمةٍ فوقها، وعَمرَةٍ بيضاء متدليةٍ وعقالٍ فضيٍّ يشدُّها. ثم بدأ في الكلام، منحنياً إلى الأمام على الطاولة الصغيرة أمامه، وجالساً وهو يرفع يده وينزلها على الطاولة للتأكيد على جمله. كان الناس في أقصى الخيمة بعيدين جداً بحيث لم يمكنهم سماعه؛ فدعاهم جميعاً وجلسوا على الأرض أسفل المنصة في صفوفٍ تتراوح بين 400 أو 500 رجل. تحدَّث بلغة الصحراء الفخمة، والرَّنَّانة، والمهيبة ـ لا توجد لغةٌ مثلها. تحدث كزعيمٍ قبلي لأتباعه، قائلاً: «لأربع سنواتٍ، لم أجد نفسي في مكانٍ مثل هذا أو مع مثل هذه الصُحبة» ـ يمكنك أن ترى كم كان يحب ذلك. ثم أخبرهم كيف كان للعراق أن يرتقي إلى مستوى مساعيهم وهو على رأسهم. «أيها العرب هل أنتم في سلامٍ مع بعضكم بعضاً؟» فصرخوا، «أجل، أجل، نحن في سلام». «ابتداءً من هذا اليوم ـ ما هو التاريخ؟ وما هي الساعة؟ فأجابه أحدهم. «ابتداءً من هذا اليوم 25 تموز (يوليو) (ذكر فقط التاريخ الهجري) ومن هذه الساعة من الصباح (كانت الساعة 11) أي رجلٍ منكم يرفع يده ضد رجلٍ آخر سيكون مسؤولاً أمامي ـ سأحكم بينكم. داعياً شيوخكم للاجتماع في المجلس. لي حقوقٌ عليكم بصفتي سيدكم. « فقاطعه رجلٌ أشيب اللحية قائلاً: «وحقوقنا». «ولديكم حقوقكم كرعايا ومن واجبي صونها. « واستمر الأمر، ورجال القبيلة يقاطعونه بالصراخ، «أجل، أجل»، «نحن راضون... نعم، والله. « كان ضرباً من التجمعات القبلية الكبيرة في أيام الجاهلية، قبل النبي، حيث كان الشعراء يلقون أبيات الشعر التي بقيت إلى يومنا هذا، وكان الناس يصرخون في نهاية كل عبارةٍ: صدقت، والله لقد صدقت».

حين انتهى الأمر، وقف فهد وعلي سليمان إلى جانبه وقالا: «نقسم لك بالولاء لأنك مقبولٌ لدى الحكومة البريطانية». فوجئ فيصل بعض الشيء، والتفت إليَّ سريعاً مبتسماً ثم أضاف: «لا أحد يستطيع أن يشكك في علاقاتي بالبريطانيين، لكن يتعين علينا تسوية شؤوننا بأنفسنا». نظر إليَّ مرةً أخرى، فمددّتُ يديّ المشبوكتين كرمزٍ لاتحاد الحكومتين العربية والبريطانية. لقد كانت لحظةً رائعة، فها هما هذان الرجلان الكبيران اللذان لعبا دورهما في تاريخ عصرهما، وكان فيصل بينهما أفضل ممثلٍ حيٍّ لسلالته ـ والرابط بيننا. وقام علي سليمان بإحضار شيوخه واحداً تلو الآخر، حوالي 40 أو 50 منهم. ووضعوا أيديهم في يد فيصل وأقسموا على الولاء[40].

وبغضِّ النظر عن البريق الذي أضفاه فيصل عليه، إلا أنه كان تصريحاً محرجاً بادر به اثنين من أقوى شيوخ غرب العراق حول اعتمادهم على البريطانيين وحسن نواياهم، وضرورة ضمان التزام بريطانيا أمام فيصل قبل أن يقوموا بدورهم بمنحه ولائهم. وقد كشف كذلك عن عدم ثقةٍ بنوع الحكومة التي كان فيصل سيقودها. فقد كانت قبائل الصحراء الغربية أكثر ارتياحاً للبريطانيين كونهم ممولين ومستشارين لهم من النخب المتمدنة والعلمانية التي اعتقدت أنها ستهيمن

على حكومة العراق المستقل. لقد عكس ذلك الانقسامات العميقة بين العرب البدو التقليديين والأساليب الدخيلة للحكومة «العصرية». عندما سأل الكاتب اللبناني أمين الريحاني فيصل لاحقاً، بعد وفاة غيرترود بيل، عن مدى صحة ذكريات بيل لهذه الأحداث، أجاب: «لقد كانت الآنسة بيل صادقةً بما كتبته، لكنها كانت مؤذيةً بما فعلته، رحمها الله»[41].

كانت العملية المعروفة باسم «البيعة»، أو منح الولاء الملزِم، هي الطريقة التقليدية التي يؤكد بها المسلمون ولاءهم للحاكم الجديد. أعطى فيصل هذا الإجراء الأهمية التي يستحقها، خاصةً مع الطوائف ذات العقلية الدينية. إذ يمكن أن يكون لالتزامٍ من هذا النوع لدى هذه الجماعات ثقلاً مساوياً، إن لم يكن أكثر، لعملية الاستفتاء الرسمية. فسعى فيصل بالتحديد إلى أخذ البيعة من الشخصيات الدينية المهمة التي وقفت بعيدةً عن مسألة ترشيحه، ولم يكن أيٌّ منها أكثر أهميةً في هذا الصدد من آية الله مهدي الخالصي من الكاظمية، وهو أحد آيات الله العرب البارزين في العراق، وإن لم يكن في الصف الأول كأحد المجتهدين. كان الخالصي قد اتخذ موقفاً قوياً ضد الثورة العربية، التي اعتبر أنها تقدِّم الدعم للكفار ضد دولةٍ مسلمة. كان ابن الخالصي، محمد مهدي، قوةً بحد ذاته، وكان أشدَّ عداءً لفيصل، فقد اعتبره متطفلاً وأستاذاً في الخداع. فبدأ فيصل فور وصوله إلى بغداد بالتودد إلى آية الله، وبعث إليه رسائل التحية سائلاً عن سلامته. كما زار المدرسة الخالصية، وهي أكاديميةٌ دينيةٌ مهمةٌ في الكاظمية، حيث التقى بآية الله. وحصل فيصل أخيراً على البيعة من الخالصي، التي نُشرت في الصحف المحلية في 13 تموز (يوليو) 1921، على الرغم من أنها لم تكن بالضبط ما سعى إليه. وجاء في جزء منها: الحمد لله الذي أظهر راية الحق لخلقه، ووهبهم النصر تحت قيادة من حاز الشرف والمنزلة، الملك الذي يجب طاعته، ولزاماً علينا أن نطيعه... جلالة الملك فيصل الأول... ونعجّل في مبايعته... نحن من رضينا بهذا الحكم وبايعناه في السر والعلن ليكون ملكاً على العراق».

لكن آية الله الخالصي ختم بيانه بشرطٍ للمبايعة وهو «شرط أن يتقيد كملكٍ للعراق [في صلاحياته] بجمعيةٍ تأسيسيةٍ منفصلةٍ عن سلطة الآخرين [البريطانيون]، ومستقلٍ إلى جانبه في قراراته وأحكامه»[42].

كان العرض العلني للبيعة المشروطة لآية الله ذا مغزىً عميق وأدى دوراً كبيراً في حشد الحركة القومية للتشكيك في تنصيب فيصل ملكاً قبل انتخاب الجمعية التأسيسية. وقبل يومين، في 11 تموز (يوليو)، قام أهالي الأعظمية، حيث يقع الضريح السني الرئيسي في بغداد، بإعطاء البيعة في تجمعٍ عام حضره أعيان المنطقة وزعماء العشائر في المناطق المحيطة، ولم يتم طرح مثل هذه الشروط المسبقة للبيعة في حالتهم. والطائفة اليهودية في الأعظمية، التي اجتمعت في منزلٍ آخر، أعطت كذلك بيعتها لفيصل[43].

من الصعب التبيُّن من مدى الشعبية الحقيقية لفيصل في العراق عشية الاستفتاء الذي كان يهدف إلى ترسيخ شرعيته. فقد قاد حملةً دؤوبة، قادته إلى الريف، وأراضي القبائل الصحراوية، وإلى البلدات الصغيرة في جنوب ووسط العراق. ومع ذلك، كان لا يزال دخيلاً لا يحظى بجمهورٍ طبيعيٍّ من الناخبين. كان دعمه واسعاً ولكنه سطحي؛ لكن لم يكن هناك من بديلٍ حقيقي، وهي حقيقةٌ يدركها حتى القوميون الراديكاليون. فمسار الثورة كان قد انتهى بفشلٍ ذريع، وكان المرشحون الآخرون للعرش مشتتين وغير نافعين بكل الأحوال، وكان الخيار الجمهوري مجرد تصوُّرٍ لدى عددٍ قليلٍ من المثقفين الحضريين، روَّج له فيلبي الواهم. (كان كوكس قد طلب استقالته بعد سلوكه غير البناء مع فيصل خلال رحلاته عبر جنوب العراق)[44].

ومما لا شك فيه أن سمات فيصل الشخصية، ومشيته الوقورة، وسلوكياته التي لا تشوبها شائبةٌ، والدبلوماسية الحذرة قد ساعدت على تحسين مكانته بين العراقيين، وكذلك البريطانيين. كتبت بيل: «ما يساعد في كل شيء هو أن شخصية فيصل تقطع ثلاثة أرباع الطريق». وقد أشاد تقريرٌ استخباراتي بريطاني في ذلك الوقت «بشخصيته وحنكته السياسية التي تركت انطباعاً رائعاً. فالتقدير الذي أظهره للوفود المحلية التي جاءت إلى بغداد للترحيب به، قد استحوذ على أصواتهم الانتخابية، وبات العديد من أشراف بغداد مستعدين بالفعل للتفكير في انتخابه ملكاً»[45]. لكن الحقيقة التي ظلت ماثلةً هي أن العامل الوحيد الأكثر أهميةً وراء دعم فيصل في البلاد، لا سيما بين نخبها السياسية والاجتماعية، كان الدعم الواضح من البريطانيين لترشيحه. لم يكن الأمر يتعلق «بفرض» فيصل على العراقيين، كما سيدَّعي القوميون الراديكاليون لاحقاً، بل بالأحرى هو أن معظم النخب العراقية كانت في حالةٍ من الرهبة من السير بيرسي كوكس، وكان لديهم احترامٌ كبير للقوة البريطانية. كان كوكس قد فرض سلطته على جميع فئات المجتمع العراقي. وكانت بيل تعدّه كبطل تقريباً، ولكن الكثير من العراقيين الذين تواصلوا معه ووقعوا تحت عبودية سلطته ووجوده السابق في القنصلية فعلوا الأمر ذاته[46].

كان الراديكاليون الذين عارضوا ترشيح فيصل عن طريق الاستفتاء مدفوعين إلى حدٍّ ما بمخاوف حقيقيةٍ حول استقلال البلاد، لكن الكثيرين منهم كانوا ببساطةٍ من الساعين وراء منصبٍ، بحيث يمكنهم، وقد فعلوا، تبديل ولاءاتهم عندما تحين الفرصة المناسبة. وأيّاً كانت دوافعهم، فقد كان للبيعة المشروطة للخالصي أثرٌ محفِّزٌ عليهم، وتجمعوا في سينما بغداد الملكية لسماع متصرف بغداد(*) يدعوهم لتأييد ترشيح فيصل. لكن الحضور أيَّدوا بصوتٍ عالٍ المطالب بأن

(*) منذ عهد مدحت باشا (1869 ـ 1872) تم تقسيم ولاية العراق ومقاطعتيه الرئيسيتين، بغداد والبصرة، الى متصرفيات (سناجق)، والمتصرفيات الى اقضية ونواح. وحينما أُحتل العراق أبقى البريطانيون التقسيم الاداري الجاري مع تحويرات بسيطة، لذا أصبحت السناجق ألوية، ويُطلق على حكّامها متصرفين ومفردها متصرف. (المُراجع).

تكون حكومة فيصل مستقلةً عن جميع القوى الأجنبية، وأن يدعو فيصل إلى جمعيةٍ تأسيسية في غضون ثلاثة أشهرٍ من تتويجه. أثارت حادثة السينما غضب كوكس وأقال المتصرف [حاكم] سيء الحظ من منصبه[47]. وقد وقع حادثٌ مماثل في الكاظمية في منزل السيد محمد الصدر ذي التوجه السياسي، وسليل عائلة الصدر الدينية القوية. وكان الصدر قد دعا عدداً كبيراً من الوجهاء ورجال الدين للنظر في توقيع عريضةٍ تدعو فيصل للتنديد بالانتداب المقترح. فتسلَّل أحد الحاضرين ليخبر فيصل أن هناك مؤامرةً تُحاك ضده في منزل الصدر، فأرسل فيصل أحد مساعديه لإحضار الصدر إلى مقره، وأخبره بعباراتٍ لا لبس فيها أنه [فيصل] ملكٌ من الناحية العملية وأنه لن يتسامح مع الأعمال غير المواتية ومع ما يُخِلُّ بالسلم العام[48].

الاستفتاء

تم تنظيم الاستفتاء لتقييم الرأي العام حول تنصيب فيصل كملكٍ على مدى أسبوعين تقريباً، وبدأ في نهاية تموز (يوليو) 1921. وقد استند إلى التماس آراء شريحةٍ واسعةٍ من أفراد الشعب، بدءاً من المسؤولين المحليين (ومستشاروهم البريطانيين)، والأعيان والشخصيات البارزة في بغداد والمحافظات (الألوية)، وتضمن ترتيب اجتماعاتٍ، يرأسها بشكلٍ أساسي مسؤولون بريطانيون أو حكوميون موثوقون، حيث يعلن فيها ممثلون مختارون عن آرائهم. وسيتم تقديم هذه البيانات أمام لجنة الانتخابات التي ستصوغها في مضبطات أو عرائض. وقد تم مسبقاً تحديد وطباعة نماذج هذه المضبطات، ولم يُسمح بأي تحريفٍ في صياغتها[49]. ولم تكن العملية مختلفةً كثيراً عن استفتاء ويلسون السابق. وقد سُمح بإضافة الملاحق إلى المضبطات، للتشجيع، في المقام الأول، على إدراج البيانات لصالح الدعم البريطاني ونظام الانتداب. وقد بذل كوكس وإدارته كل جهدٍ لضمان تحقيق النتيجة المرجوة. لكن كان هناك ما يكفي من الانشقاقات والتحفظات لجعل نتائج العملية موضع خلاف. فقد رفض آية الله الخالصي وغيره من زعماء الشيعة النموذج الرسمي للمضبطة، وتم توزيع نسخةٍ معدَّلة من النموذج على نطاقٍ واسعٍ في بغداد، تدعو فيصل إلى أن يكون ملكاً دستورياً، ومستقلاً عن أي نفوذٍ أجنبي وخاضعاً لجمعيةٍ تأسيسية. وكان هناك عددٌ أكبر من هذه المضبطات في بغداد غير تلك المصرح بها رسمياً.

وفي لواء كركوك، حيث الكثير من السكان التركمان والأكراد، كانت الآراء كما ورد في المضبطات الرسمية ضد فيصل، ولكن فقط بهامشٍ ضئيل. وفي السليمانية، وهي منطقة ذات أغلبية كردية، لم يجرِ أي استفتاء. وفي الموصل، تضمنت المضبطات ملاحق تطالب فيصل باحترام حقوق الأكراد والمسيحيين. وفي البصرة، امتنع الموقعون على المضبطات عن دعمهم

إلى أن يتم الضمان لهم على أن الانتداب البريطاني سيستمر وأن دعوة البصرة إلى الحكم الذاتي سيتم النظر فيها. لكن في أماكن أخرى، تم إجراء الاستفتاء وفقاً للخطة. وفي المناطق القبلية في غرب العراق ووادي الفرات الأوسط ودجلة الأدنى، كانت العديد من المضبطات تتضمن ملاحق تجعل دعمها لفيصل مشروطاً باستمرار الانتداب البريطاني. وفي المدن التي تضم المزارات المقدسة وهي النجف وكربلاء، تم التوقيع على الأنموذج الرسمي للمضبطات دون أي ملاحق.

كان الاستفتاء مشوياً بالعيوب بكل تأكيد، لكنه لم يكن غير ممثلٍ بالمطلق للرأي العام في ظل الظروف والأوضاع السائدة في صيف عام 1921. وقد سعى المسؤولون البريطانيون إلى تمثيل نتائجه على أنها تدفقٌ للدعم الشعبي لفيصل، حيث تحدثت بيل عن أن انتخابه كان بالإجماع مع استثناءٍ واحد (كركوك)، وهو ما كان صحيحاً من الناحية الفنية، إلا أنه تغاضى عن الملاحق المشروطة القادمة من بغداد وأماكن أخرى. وأعلنت وزارة الداخلية أن 96% من «الناخبين» وافقوا على انتخاب فيصل ملكاً على العراق. لكن الاستفتاء لم يكن المهزلة التي ادَّعى بعض الكتَّاب القوميين فيما بعد أنها ستكون. فلقد عكس إلى حدٍّ كبير آراء الطبقات القيادية في العراق، والتي انجذبت إلى فيصل من خلال صفاته وشخصيته، وكذلك من خلال التقييم الواقعي لاستمرارية السيطرة البريطانية. إذ أرادت الأغلبية أن تقف على الجانب الصحيح مع المفوض السامي. وكان هناك أيضاً غموضٌ مدروسٌ فيما يتعلق بالانتداب، وما إذا كان سيتم إلغاؤه بالفعل بموجب المعاهدة المقترحة التي كان فيصل يصرُّ عليها بديلاً عنه. إنها نقطةٌ خلافيةٌ حول ما إذا كانت النتيجة ستكون مختلفةً فيما لو تم انتخاب جمعيةٍ تأسيسيةٍ قبل إجراء الاستفتاء، فمن المؤكد أنها كانت ستواجه الحقيقة الملموسة حول نية بريطانيا تطبيق نظام الانتداب، حيث كان من الممكن حينها تقويض المزاج السائد للدعم الواسع، وليس الضحل، لفيصل بكل بساطةٍ.

كان فيصل يدرك حقيقة أنه مدينٌ بانتخابه ملكاً على العراق للمناورات البريطانية. وفي الوقت نفسه، كان ينوي متابعة أجندته الخاصة. فكانت مصالحه وطموحاته السياسية تعني أنه كان عليه أن يولي الاهتمام اللازم لنداءات كلٍّ من السلطة الدينية الشيعية والجماعات القومية، فكلاهما يطالب بإضعاف، بل وحتى فكِّ، ارتباطات العراق ببريطانيا. وبصفته ملكاً، سيكون لديه مكانةٌ أكثر موثوقيةً يمكنه من خلالها تحقيق التوازن بين هذه المصالح المتنافسة، وكان يتطلع إلى إصدار بيانٍ واضح حول موقفه ومسؤولياته كملك، بالإضافة إلى إعلان تصريحٍ مقنعٍ بشأن استبدال الانتداب بمعاهدةٍ بين دولتين ذات سيادة[50]. كان فيصل قد طرح الموضوع مع لورنس في بورسعيد، واعتقد أن لديه تأكيداتٌ من تشرشل أن هذا ما سيكون بالفعل. لذلك شعر بالذهول عندما علم أن تشرشل قد أرسل برقيةً إلى المفوض السامي يوعز إليه فيها بأن يعلن

فيصل، لدى تولِّيه العرش، أن «حكمه يعتمد على استمرار دعمنا ومساعدتنا الحصرية». كما أراد تشرشل أيضاً تأكيداً صريحاً من فيصل بأنه «قبل بالانتداب وأنه يجب أن يتعامل معه إلى أن يتم استبداله بعلاقةٍ من نوعٍ أخر»[51].

احتجَّ فيصل على الفور وهدد بالانسحاب إذا لم يتم تعديل تعليمات تشرشل. وأوضح لكوكس أنه قبل بالترشح لعرش العراق على اعتبار أنه سيتم استبدال الانتداب بمعاهدة تحالفٍ بين البلدين. إذ كان من الأهمية بمكان الحفاظ على هيبته ومكانته؛ إذ لا يمكن لأي ملكٍ أن يكسب احترام شعبه إذا استهلَّ حكمه بالإعلان عن تبعيته لحلفائه علناً. وقد كان فيصل قلقاً بالقدر نفسه من أن مطالب تشرشل تنذر بتغييرٍ في مواقف بريطانيا تجاهه شخصياً وتجاه الطريقة التي يجب أن تُدار بها البلاد. كان يعتبر أنه سيكون له ولحكومته الكلمة الأخيرة في الأمور الداخلية، وأن ينظر الناس إلى توليه العرش على أنه خطوةٌ مهمةٌ نحو تحقيق هدف الاستقلال الكامل. فتجادل مع كوكس بأنه من مصلحة بريطانيا تقوية شخصه وأن موقفه لا ينبغي أن يُظهر أي علاماتٍ سافرةٍ على التبعية. فقال لكوكس: «أنا وحكومة جلالته في المركب نفسه فإما أن نغرق أو نبحر سوياً. وباختياركم لي، يجب أن تعاملونني كواحدٍ منكم، وإذا كنت ترغب في أن أنجح وتنجح سياستك فمن الحماقة أن تلعنني باستمرار في نظر العامة بجعلي دميةً بشكلٍ واضح»[52]. أيَّد كوكس نفسه بقوةٍ موقف فيصل، ومن خلال الوساطة البارعة نجح في إقناع تشرشل بتغيير تعليماته، كما تراجع فيصل عبر الموافقة على تأجيل تحديد مهامه إلى تاريخٍ لاحق[53]. ومع تفادي أزمةٍ كاملة، أمكن لفيصل والمفوض السامي الاتفاق على تاريخ التتويج، الذي تم تحديده في 23 آب (أغسطس) 1921.

التتويج

كان التاريخ، الذي اختاره فيصل شخصياً، ذا أهميةٍ رمزيةٍ كبيرة، إذ يصادف 18 ذو الحجة بالتقويم الهجري، وهو يوم الغدير، حيث يعتبره الشيعة يوماً احتفالياً حين قام النبي بتسمية الإمام علي كخليفةٍ له في وادي غدير خم، حسب معتقداتهم. أراد فيصل تذكير الشيعة بنَسبه باعتباره سليلاً مباشراً للإمام علي. مما أعطى بريقاً إسلامياً لحكمه. وأقيم حفل التتويج في ساحة القشلة قرب برج الساعة، حيث تم وضع منصةٍ لفيصل والوفد المرافق له، كما تم إحضار كرسيٍّ مميز ذو ظهرٍ عالٍ ليجلس عليه.

وصفت بيل الوضع في رسالةٍ إلى والدها بتاريخ 28 آب (أغسطس) 1921.

جرى التتويج في السادسة من صباح يوم الثلاثاء، بترتيبٍ رائعٍ، حيث نُصبت منصةٌ بارتفاع حوالي 2 قدمٍ و6 بوصة في وسط فناء سيراي الكبير، وخلفها المقرُّ الذي سيشغله فيصل، وهو

عبارةٌ عن غرف استقبالٍ حكوميةٍ كبيرة. وفي الأمام كانوا يجلس في مجموعات كلٌّ من الإنكليز والمسؤولين العرب وسكان المدن والوزراء والنواب المحليين وعددهم 1500 شخص.

وفي السادسة تماماً رأينا فيصل بالزي الرسمي، والسير بيرسي بالزي الدبلوماسي الأبيض مع كل أوسمته ونجومه. ينزل السير أيلمر وكورنواليس ومساعديهم الشخصيين على درج السراي قادمين من مقرِّ فيصل وهم يخطون متقدمين على الممر الطويل المفروش بالسجاد أمام حرس الشرف (الدورستز، بدوا رائعين) وهكذا وصولاً إلى المنصة... وقفنا جميعاً أثناء دخولهم وجلسنا عندما أخذوا أماكنهم على المنصة.

بدا فيصل وقوراً جداً ولكنه مرتبكٌ كثيراً ـ لقد كانت لحظةً مثيرة. نظر على طول الصف الأمامي وأتت عيناه بعيني وألقيت عليه تحيةً صغيرة. ثم وقف سعيد حسين [أفنان، سكرتير مجلس الوزراء] وقرأ بيان السير بيرسي الذي أعلن فيه انتخاب فيصل ملكاً بنسبة 96% من قبل شعب بلاد الرافدين [ثم هتف] يحيا الملك! حيث وقفنا وحييَّناه. كان العلم الوطني يرفرف على سارية العلم بجانبه وعزفت الفرقة «حفظ الله الملك» ـ إذ لم يكن لديهم نشيدٌ وطني بعد. أعقب ذلك إطلاق المدفعية 21 طلقةً تحيةً للملك... لقد كان أمراً رائعاً أن نرى كل العراق، من الشمال إلى الجنوب مجتمعين معاً. إنها المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك في التاريخ[54].

ثم وقف فيصل وقرأ خطاباً طويلاً، حيَّا فيه شهداء «النهضة العربية»، مازجاً ببراعةٍ بين الثورة العربية وتمرد 1920. لكنه أشاد أيضاً بالبريطانيين وأكَّد التزامه بالتحالف البريطاني وأهميته في إعادة إحياء العراق. وعند وصوله إلى نهاية خطابه، وعد بأن تكون مهمته الأولى كملك هي ترتيب انتخابات الجمعية التأسيسية[55].

لم تستغرق مراسم التتويج وقتاً طويلاً. وذهبت بيل إلى مقرها حيث استقبلت مجموعةً من الزوار. كان علي سليمان، الزعيم البارز لقبيلة الدليم، في تعليقاته على الأحداث، مغرماً بكوكس أكثر منه بفيصل. «كان السير بيرسي كوكس مثل القمر بينهم، وكان وجهه مثل السماء». وقد أظهر ذلك أين يكمن ولائه الحقيقي. وانفرد فيصل في مقره المتواضع. وفي 25 آب (أغسطس)، وبناءً على اقتراح السيد محمد الصدر، قام بزيارة ضريح الإمام موسى بن جعفر في الكاظمية، حيث تم تنظيم احتفالاتٍ له في الفناء الأمامي للضريح، وتم تقديم سيفٍ مرصَّعٍ بالذهب له. وقف الشاعر رشيد العشمي لإلقاء قصيدةٍ بدا أنها أغضبت فيصل. وجاء في سطورها الافتتاحية:

يا لابس التاج في بغداد هُنّيت به إذا كنت لاستقلاله جيتا

فزنهُ بالعدل والعدل الأعم ولا تُرصّع لزينته دراً وياقوتا[56].[*]

(*) تمّ الرجوع إلى المصدر باللغة العربية لضبط الأبيات. يُنظر: علي الوردي، المصدر السابق، المجلد 6، ص 120 ـ 121. (المُراجع).

لكن متاعب فيصل كانت بالكاد قد بدأت. فقد وصل إلى العراق قبل شهرين فقط. وخلال هذه الفترة الزمنية القصيرة جداً، تمكن من ترك بصمةٍ لوجوده وتأثيره على البلاد، وساعده إلى حدٍّ كبير ثقل الدعم البريطاني لترشيحه. لكن شخصيته وطبيعته لعبتا أيضاً دوراً مهماً في التأكيد إلى حدٍّ كبير للنخب المتشككة أو غير المبالية أنه كان خياراً مرضياً، وبالنسبة للبعض، كان خياراً ملهماً لقيادة البلاد. كان فيصل يدرك أن الطريق أمامه محفوفٌ بالمشاكل المعقدة والقضايا التي قد يكون من الصعب التوفيق بينها، ناهيك عن حلّها. فقد كان ولاء مواطنيه الجدد للمملكة الجديدة أمراً ضرورياً، ولكن قدرته على إدارة مطالب الجماعات المختلفة التي تتنافس لتحديد شكل وتوجه الدولة ببراعةٍ كان أمراً مهماً أيضاً. فقد تأكدت مكانته الآن، وبات اسمه يردُ في خطبة الجمعة إلى جانب الخليفة العثماني(*). لقد كان ملك العراق بلا منازع، لكنه لم يكن بارزاً بعد في البلاد. وسيتعين تحقيق هذا بصعوبةٍ على مدى السنوات القليلة المقبلة حيث قام ببناء قاعدة سلطته ونفوذه بشقِّ الأنفس، وسحب المزيد والمزيد من القوة من البريطانيين لتوسيع نطاق استقلال العراق. وستعتمد طريقة أداءه أثناء عهده، وكيفية تقدُّم العراق كدولةٍ مستقلةٍ، كلياً على نتيجة هذا الصراع المديد.

(*) كانت الخطبة آنذاك ما زالت تُعقد للخليفة محمد السادس (1918 ـ 1922) الذي هُزمت الدولة العثمانية أمام الحلفاء في أوائل عهده. (المُراجع).

هوامش الفصل الثامن عشر

1. FO371 / 4179، مذكرة بقلم إيرل كرزون، «ملاحظة تحذير حول الشرق الأوسط». عبد المجيد كامل التكريتي، الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة، دار الشئون الثقافية، بغداد، 1991، ص 88 ـ 91.
2. رسائل غيرترود بيل، 23 حزيران (يونيو) 1921، أرشيف غيرترود بيل، مكتبة جامعة نيوكاسل.
3. المرجع نفسه.
4. محمد مظفر الأعظمي، مرجع سابق.
5. حسين جميل، العراق شهادة سياسية 1908 ـ 1930، دار اللام، لندن 1987، ص 65 ـ 67.
6. ولد ناجي السويدي في بغداد عام 1882 لعائلة سُنّية عريقة. درس على يد رجل الدين السني المعروف محمد شكري الألوسي قبل مغادرته لدراسة القانون في اسطنبول. شغل عدة مناصب قضائية في الدولة العثمانية، قبل التحاقه بالخدمة الإدارية وترقيته إلى منصب المفتش الأول بوزارة الداخلية. انضم إلى حكومة فيصل في سوريا، وشغل منصب نائب الحاكم العسكري في حلب. عاد إلى بغداد عام 1921، وعُين وزيراً للعدل في حكومة النقيب الثانية. شغل عدة مناصب وزارية في عهد فيصل، وأصبح أخيرًا رئيسًا للوزراء في عام 1929. وشارك في حكومة رشيد عالي قصيرة العمر المؤيدة للمحور كوزير للمالية. اعتقله البريطانيون عام 1941 ونُفي إلى جنوب إفريقيا، حيث احتُجز مع عراقيين آخرين في سجن مفتوح. توفي في سالزبوري، روديسيا (زيمبابوي الآن)، في آب (أغسطس) 1942. كان شخصاً متأنقاً بشدة، وكان معروفًا بحنكته القانونية وبلاغته. سافر على نطاق واسع، حتى أنه زار الاتحاد السوفيتي الوليد في عام 1923. وصفته بيل بأنه «زلق مثل ثعبان البحر، لكنه ذكي».
7. جريدة العراق 18 حزيران (يونيو) 1921.
8. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 86.
9. كان المنديل قد طالب بمجلس تشريعي منفصل للبصرة، وجيش منفصل وجهاز شرطة، وسلطة جباية الضرائب الخاصة بها. ومع ذلك، أشار أيضاً إلى استعداده لقبول فيصل ملكًا مشتركًا للبصرة والأجزاء المتبقية من العراق. أنظر غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 23 حزيران (يونيو) 1921.
10. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 86 ـ 87.
11. إليزابيث مونرو، لحظة بريطانيا في الشرق الأوسط 1914 ـ 1956، مطبعة جونز هوبكنز، بالتيمور، 1963، ص 99 ـ 100.

12. فيليب إيرلند، مرجع سابق، ص 327 ـ 328.
13. علي جودت، مرجع سابق، ص ص من 144 ـ 146. انتقم علي جودت من توماس. في عام 1924، أثناء عمله وزيراً للداخلية، عمل جودت على ضمان عدم تجديد عقد عمل توماس.
14. المرجع نفسه، ص 144.
15. علي عبد شناوه، مرجع سابق، ص 166 ـ 67. كما انضم الشبيبي إلى ركب فيصل إلى بغداد.
16. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 89 ـ 90.
17. المرجع نفسه، ص 90.
18. نور مصالحة، مرجع سابق، ص 56.
19. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد 6، ص 91.
20. غيرترود بيل، مرجع سابق، خطاب 30 يونيو 1921.
21. المرجع نفسه.
22. محمد مهدي البصير، تاريخ القادية العراقية، دار اللام، لندن، 1988، ص 180.
23. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 93.
24. غازي دحام فهد المرسومي، البلاط الملكي في العراق ودوره في الحياة السياسية 1921 ـ 1933، الدار العربية للموسوعة، بيروت، 2002، ص 19 ـ 20.
25. علي عبد شناوه، مرجع سابق، ص ص 165 ـ 166.
26. خالد عابد محسن، المهنة السياسية لجعفر أبو التمن، أطروحة دكتوراه، مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن، 1983، ص 141 ـ 146.
27. CO 730/41687/3، Intelligence Report، 1 July 1921، No. 16، Secret. وأيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص 58.
28. وقد أفضى النقيب إلى غيرترود بيل بان التغير الذي حدث معه تجاه فيصل قد تحدد بصورة رئيسية بوجهة النظر البريطانية الداعمة لترشيحه لمنصب الملك. كان النقيب على الدوام يستشير برسي كوكس ولم يعمل أبداً ضد رغباته أو رغبات الحكومة البريطانية. ولكن الصحيح أيضاً هو أن النقيب وجد أن فيصل مناسب لمنصب الملك.
29 ـ جريدة العراق 9 تموز 1921. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 96 ـ 97.
30. فيليب ايرلند، مرجع سابق، ص 331.
31. المرجع نفسه، ص 331.

32. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 16 تموز (يوليو) 1921.
33. جريدة العراق 2 تموز(يوليو) 1921.
34. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 2 تموز (يوليو) 1921.
35. المرجع نفسه.
36. صحيفة العراق، 11 تموز (يوليو) 1921. بعد يومين قدمت صحيفة دجلة الوطنية رواية مختلفة

للحادثة، حيث قالت أن الحضور لم يتجاوب مع هتافات داوود. وقد أدى ذلك إلى خلاف طويل لما حدث، لكن رواية صحيفة العراق هو أقرب للحقيقة وقد أكد ذلك التقارير الاستخباراتية. أنظر علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 101 ـ 102.

37. غيرترود بيل، مرجع سابق، خطاب 20 يوليو 1921.
38. جريدة العراق، 16 تموز (يوليو) 1921. جريدة دجلة، بطريقتها الاستفزازية المعتادة، شوّهت رد فيصل وأظهرت أنه منحاز للأقليات الدينية. وسرعان ما اكتسبت الصحيفة شهرة في مجال التقارير الكيدية ضد فيصل وأنصاره. أنظر علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 101 ـ 102.
39. علاء جاسم محمد، الملك فيصل الأول: حياته ودوره السياسي في الثورة العربية الكبرى وسورية والعراق، 1883 ـ 1933، الجامعة المستنصرية، بغداد، بدون تاريخ. ص 151 ـ 152.
40. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 31 تموز (يوليو) 1921.
41. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 92 ـ 93.
42. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 109 ـ 10.
43. المرجع نفسه، ص 111.
44. حل طومسون محل فيلبي، مستشاراً في وزارة المالية العراقية. ثم غادر فيلبي لقضاء إجازة لمدة ثلاثة أشهر في إيران، وبعد عودته إلى بغداد عُرض عليه منصب المقيم البريطاني في عمان. هناك، دخل أيضاً في مشاجرات مع المفوض السامي، وترك الخدمة الحكومية البريطانية أخيرًا. غادر إلى جدة، حيث أسس شركة لاستيراد السيارات، وأصبح مستشارًا وصديقًا للملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية. اعتنق الإسلام عام 1930 وعُرف بالحاج عبد الله فيلبي. غادر السعودية بعد أن تشاجر مع خليفة عبد العزيز، سعود. توفي عام 1960. أما ابنه كيم فهو يعتبر الرجل الثالث في فضيحة التجسس التي هزت بريطانيا في الستينات من القرن العشرين.

45. CO 730/41687/3، Intelligence Report، 1 July 1921، مقتبس في نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 59 ـ ولكن كانت هناك أيضاً تقارير مخالفة. فكتب القنصل الأمريكي أن «ترشيحه لا يحظى بشعبية كبيرة»، وأرجع ذلك إلى مناخ التخوف والخوف الذي غرسه البريطانيون لأي شخص يعارض ترشيح فيصل. نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 61.

46. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 7 يوليو (تموز) 1921.

47. عبد الرزاق الحسني مرجع سابق، المجلد. 1، ص. 51.

48. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 114 ـ 115.

49 ـ إن فكرة المضبطات كوسيلة لاستمالة الرأي العام ليست فكرة غريبة. وهي نفس نظام اختيار المرشحين الذي أطلقته سلطة الائتلاف المؤقتة في العراق خلال تشرين الثاني (نوفمبر) 2003 بعد اجتياح واحتلال العراق، من أجل معرفة الآراء قبل تسلم السلطة. وقد تم وضعها جانباً نتيجة المعارضة الواسعة من القيادة الدينية في النجف والساسة العراقيين القياديين.

50. CO 730/40185/4، بغداد إلى جنوب / جنوب للمستعمرات، 10 أغسطس 1921، برقية 376.

51. CO 730/38478/3، تشرشل، لندن، كوكس، بغداد، 9 آب (أغسطس) 1921، برقية 304.

52. CO 730/41449/4، كوكس، بغداد، إلى تشرشل، لندن، 6 آب (أغسطس) 1921، برقية 396.

53. نور مصالحة، مرجع سابق، ص 65 ـ 67.

54. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 21 آب (أغسطس) 1921.

55. عبد الرزاق الحسني مرجع سابق، المجلد. 1، ص 66 ـ 68.

56. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 120 ـ 21. ثم لجأ الشاعر إلى منزل السيد محمد الصدر خوفاً من الاعتقال. ومن المفارقات أنه ألقى على صحيفة دجلة البغدادية قصيدة أخرى نشرتها. والقصيدة كلها مديح لفيصل. ويبدو أنه كتب قصيدتين، واحدة لقراءتها علناً والثانية من أجل نشرها.

الفصل التاسع عشر: فيصل وكوكس ونشوء المعارضة

تم تنصيب فيصل الآن ملكاً على العراق عبر مجموعة ظروفٍ استثنائية، فقد شهد على الثورة ضد العثمانيين، والحكم الهشّ في سوريا، والهزيمة على يد الفرنسيين، مع احتمالات نفيٍ طويلٍ ورديء. لقد خاض تغيراتٍ كبيرةً خلال هذه الفترة. ففي الثامنة والثلاثين من عمره كان قد أصبح رجل دولةٍ متمرس، علَّمته المحن والخيبات، وكان يجلس على العرش كشخصٍ ناضجٍ وفطِن. أما الثابت الوحيد في السنوات القليلة الماضية فكان تحالفه مع البريطانيين، فقد زودوه بالعتاد والموارد الحيوية لمحاربة الأتراك، ومنحوه غطاء دبلوماسياً في باريس وطوال مواجهاته مع الفرنسيين، وهندسوا عملية ترشيحه لتاج العراق. ولم يرغب فيصل في شيءٍ أكثر من ترسيخ هذه العلاقات من خلال معاهدةٍ رسمية مع أكبر قوةٍ في الشرق الأوسط. لكن فكرته عن شكل تلك المعاهدة تتعارض مع ما قد يتوقعه حلفاءه. فقد شعر، بصفته ملكاً، أنه يجب عليه أن يحكم، ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يسحب من البريطانيين، تدريجياً ولكن بالتأكيد، السلطات التي ينسبونها لأنفسهم بوصفهم فاتحين للعراق وكقوة انتدابٍ أقرتها عصبة الأمم. ولعل البريطانيون لم يعتبروه مجرد دميةٍ في مخططهم للسيطرة على البلاد، لكن تشرشل اقترب جداً من ذلك عندما طلب من فيصل علناً الاعتراف بتبعيته للمفوض السامي. وهنا لاح في الأفق احتمال أن ينفتح صدعٌ لا يمكن رأبه بين تفسير فيصل للمعاهدة كعلامةٍ بارزةٍ تشير إلى الاستقلال، والفهم البريطاني للمعاهدة على أنها مجرد مرادفٍ، أو تمويهٍ، للانتداب. كان تنصيب فيصل كملكٍ من شأنه أن يمنح بريطانيا الأساس القانوني لتوقيع معاهدةٍ معه، لأنه سيتصرف بصفته رئيساً للدولة. واعتقد العراقيون الواعون سياسياً أن المعاهدة ستحل محل نظام الانتداب المقيت بدلالاته التي توحي بعنصرٍ صبياني يسترشد بقوةٍ خيِّرةٍ لكنها صارمةٌ ومتحضرة. فالمعاهدة تُبرَم بين دولتين سياديتين، وبالنسبة لكلتيهما هي مرادفٌ للاستقلال. وقد كان هذا التباين الجوهري في وجهات النظر هو ما سيميز عهد فيصل وما يكمن تحته من جذورٍ للنزاعات بينه وبين البريطانيين.

كان لدى فيصل أيضاً قضايا أخرى للتعامل معها. فلم يكن العراق دولةً قوميةً تشكلت على مدى فترةٍ طويلةٍ من التاريخ مع عرق مشتركٍ وثقافة دينية وسياسية مشتركة، حيث تم رسم حدودها بشكلٍ مصطنع وكان فيها سكانٌ غير متجانسين ومتنافرين بشكلٍ أساسي. وكان النظام

السياسي المقترح للبلاد يستند بالكامل على النماذج الغربية للحكومة التمثيلية، من انتخاباتٍ وبرلماناتٍ ودساتير. وكانت التجارب التأسيسية للعراقيين تتألف من حكوماتٍ استبداديةٍ معزولة، بما في ذلك الفترة العثمانية القصيرة للحكومة البرلمانية. وقد استندت السلطة الشرعية أكثر إلى الأنماط التقليدية للواجبات والالتزامات للأعيان وملاك الأراضي وشيوخ القبائل والشخصيات الدينية. وكان على فيصل أن ينشئ إطاراً لدولةٍ حديثةٍ في سياقٍ انهار فيه النظام القديم، ولكن روابط الالتزام العميقة كانت لا تزال تحتفظ بسيطرتها على شريحةٍ كبيرةٍ من السكان. فهو لم يكن من السكان الأصليين للبلاد، وقد جعل الوجود البريطاني الماثل مثل هذه المهمة صعبةً بشكل مضاعف. لكن لم يكن لدى فيصل رغبةٌ في بناء دولةٍ على القالب التقليدي من الإقليمية الراسخة على أساس نظام السلالة الإسلامية. فقد قبل بأشكال الدولة الحديثة، ولو دعته الحاجة إلى استخدام لغة القومية العربية الحديثة كأحد الأدوات التي من شأنها أن توحد بلاده. لكنه ادعى أيضاً الشرعية من سلالته الشريفية ولم يُطِق عزل الطبقات التقليدية أو التطاول على الروابط التي توحّد طوائف العراق مع بعضها. فهو لم يكن مصطفى كمال الذي سيبني بشراسةٍ عالماً جديداً شجاعاً على الدمار الكامل للنظام القديم. وفي الوقت نفسه، فقد شارك معظم العراقيين تطلعاتهم في التخلص من نظام الانتداب وتخليص البلاد من الطوق الخانقة للقوة الغربية. لقد احتاج إلى القوة والشرعية ليحكم بكفاءة ويمنع انزلاق البلاد إلى الاضطراب والفوضى، وكان عليه باستمرار المناورة بين هذه القوى المتصارعة مع إبقاء عينيه على هدفه، وهي عمليةٌ صعبةٌ في ظل ظروفٍ أكثر اعتدالاً، ولكنها صعبةٌ بشكلٍ خاص في ظل الظروف الحالية في العراق. وقد أدت مناوراته ـ مع البريطانيين والقادة السياسيين والدينيين والاجتماعيين العراقيين ـ إلى استثارة الحيرة والغضب والارتباك بخصوص نواياه الحقيقية.

السير بيرسي كوكس

قبل أن يتمكن فيصل في البدء بفرض سلطته على البلاد، كان عليه أن يتصدى للحضور الطاغي للسير بيرسي كوكس، وهو الشخص الذي جسَّد قوة بريطانيا وسطوتها في العراق. التحق كوكس بمدرسة هارو ولاحقاً بساندهيرست، التي تلقى منها تعليمه في عام 1884. وغادر إنكلترا إلى الهند بعد ذلك بفترةٍ وجيزةٍ وصعد الدرجة الأولى من سلَّم حياته المهنية الطويلة في خدمة الإمبراطورية البريطانية، وشغل مناصب مهمةً تدريجياً في عُمان والإمارات المتصالحة. وفي نهاية فترة ولايته في الخليج، يمكن القول بحقّ أن كوكس شدَّ عصب الوجود الإمبراطوري البريطاني في المنطقة. وعند اندلاع الحرب بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية، أصبح كوكس كبير الضباط السياسيين للجيش البريطاني في بلاد الرافدين، وهو المنصب الذي شغله حتى عام

1918 عندما تم تعيينه سفيراً لبريطانيا في طهران. وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1920، عاد إلى العراق كمفوضٍ بريطاني سامٍ[1].

كان لدى كوكس تحضيراتٌ مطوَّلةٌ لآخر منصبٍ له وأكثره صعوبةً. لقد كان رجلاً صبوراً وحازماً وبصيراً، وربما كانت معرفته بالشؤون العربية أكبر من معرفة أي شخصٍ آخر، بما في ذلك لورنس. كان لديه أيضاً موهبةٌ قلَّ نظيرها على استشعار دوافع الأشخاص من ثقافةٍ مختلفةٍ جذرياً، ولكنه يصبح عنيفاً وصارماً عندما تكون المصالح الحيوية لبريطانيا على المحك. تحدث نعي التايمز عن كوكس عن «طاقته الثابتة والخالية من الانفعالات والمنهجية التي واجه بها كل مشكلة متتالية. وفوق كل شيء، كان مستوى الدقة لديه مرتفعاً بشكل مذهل»[2]. وقد اجتذب ولاء العديد من الأشخاص الموهوبين، وكان اختياره لنوابه ومستشاريه من وحي إلهامه. كان محبوباً جداً من قبل العراقيين العاديين، الذين رأوه لطيفاً وحكيماً ومتسامحاً، وأطلق العديد من الأهالي على أطفالهم اسم «كوكوز»، وهو تشويهٌ عراقي لكنيته. أما السياسيون العراقيون وزعماء العشائر الذين دعموا الوجود البريطاني فغالباً ما كان يرهبونه، في حين أن المعارضة نسبت إليه كل أساليب الدهاء الخارق والتحايل ببراعة.

الأمر الأول الذي كان على الملك الجديد أن يتصدى له هو تعيين رئيس وزراءٍ ومجلس وزراءٍ جديدين. فقد كان النقيب قد قدم استقالته بعد تتويج فيصل، وبينما كان كوكس يريد إعادة تعيين هذا الرجل الموثوق به، سعى فيصل إلى مرشحٍ مختلف، شخصٍ غير مدينٍ بالفضل للبريطانيين. طلب فيصل من أحد قادة تمرد 1920، الشيخ عبد الواحد سكر، التقرب من رجال الدين في النجف وطلب مساعدتهم في اختيار الحكومة الجديدة، والتقى بكبار آيات الله ونقل إليهم «النوايا الإسلامية الحسنة» لفيصل. عهد آيات الله لفيصل بمهمة اختيار مجلس الوزراء، لكنهم حذروه من عدم اختيار رئيس وزراءٍ معروف بالتزامه الديني، وأن يكون واعياً خاصةً لاختيار وزير الداخلية[3]. فهذا الأخير، بطبيعة الحال، كان له سلطةٌ على جميع الحكومات الإقليمية والمحلية. ووافق فيصل على إعادة تسمية النقيب، وأوصى بناجي السويدي لمنصب وزير الداخلية. لكن كوكس لم يوافق على ترشيح ناجي، إذ لم يكن يثق به تماماً بسبب دوره في تمرد 1920، واعتقد أنه مستقلٌ جداً ليتسلم هذه الوظيفة. وبدلاً من ذلك، اقترح توفيق الخالدي، لكن فيصل رفضه كونه قريبٌ جداً من الأتراك. استمرت المشاحنة بين فيصل وكوكس لمدة ثلاثة أسابيع، حيث هدد فيصل بالمغادرة إلى لندن لوضع الأمر أمام رؤساء كوكس. لكن بيل وكورنواليس أقنعا فيصل بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى لندن، لأن ذلك سيرسل إشاراتٍ خطيرةً داخل العراق حول خلافاته مع كوكس التي لا يمكن التوفيق بينها. وأخيراً تم الاتفاق على المرشح التوافقي، حاج أحمد رمزي، الضابط المسؤول عن التجنيد في الجيش. وتم اختيار

ناجي السويدي لوزارة العدل. والشيعي الوحيد فقط الذي تم اختياره في مجلس الوزراء وزيراً للتربية والتعليم [المعارف] كان رجل الدين عبد الكريم الجزائري. وقد كانت علامةً مقلقةً على أن حكومات فيصل ستكون تحت سيطرة العرب السُنّة، الذين كانوا ضباطاً وموظفين عثمانيين سابقين. حتى أن الجزائري رفض التعيين، وكان لابد من إيجاد شيعي آخر لوزارة التربية والتعليم، فكان هبة الله [الدين] الشهرستاني من كربلاء.

تعزيز التحالفات

بدأت المحادثات حول المعاهدة بين فيصل والسير بيرسي كوكس في تشرين الأول (أكتوبر) 1921. وكان هوبير يونغ، من مكتب المستعمرات، حاضراً أيضاً في المناقشات. وانهارت المفاوضات في وقتٍ مشؤوم، حيث كانت التوترات تتصاعد مع تركيا، وكانت القوى القومية بقيادة مصطفى كمال، المندفعة من انتصاراتها على الجيش اليوناني الغازي، تزيد من ضغطها على شمال العراق. وأصبحت معاهدة سيفر، التي لم يوقعها الأتراك، حبراً على ورق. وكان مصطفى كمال يجدد مطالبه بشمال العراق ويواصل دعم المرشح التركي السابق للعرش العراقي أحمد السنوسي من ليبيا. وكان السنوسي قد أرسل عدداً من المبعوثين إلى قبائل الفرات لحثِّهم على التمرد على فيصل والبريطانيين باسم الإسلام(4). كان كوكس خائفاً حقاً من أن يبدأ الأتراك الأعمال العدائية لاستعادة ولاية الموصل، حيث كان لا يزال هناك رأيٌ وازنٌ داخل العراق عبَّرت عنه القوى الموالية للعثمانيين والقوى الإسلامية لصالح التحالف مع تركيا، إن لم يكن حكمها، وكان فيض البهجة في العراق بالانتصارات التركية على اليونانيين يشير إلى ذلك. كان البغداديون يناقشون علانيةً إمكانية تحرُّك الجيش التركي إلى بغداد. ولمواجهة تصاعد المشاعر المؤيدة لتركيا في شمال العراق إلى حدٍّ ما، انطلق فيصل، في 9 تشرين الأول (أكتوبر) 1921، في جولةٍ في المناطق الشمالية ومدينة الموصل. كانت جولته ناجحة إلى أبعد الحدود. فقد استقبلته الجماهير بحماسةٍ حيثما توقف، بما في ذلك بلدة سامراء، حيث زار مقامات الإمامين العاشر والحادي عشر للشيعة. وبدا أن الزيارة قد حشدت مؤيديه بين المسؤولين المحليين والأعيان، وساعدت على إخماد المشاعر المؤيدة لتركيا في الولاية(5).

الأمر الآخر الذي أثار قلق فيصل عندما بدأ المفاوضات حول المعاهدة هو وضع كردستان. لقد ترك البريطانيون هذا الأمر غامضاً عن عمد، وهو الموقف الذي كان له العديد من المدافعين عنه في مؤتمر القاهرة، فقد كان هناك شعورٌ قويٌّ بأنه لا ينبغي إخضاع كردستان لحكومةٍ عربيةٍ في بغداد. فعلى أقل تقدير، كان هناك اعتقادٌ أن المناطق ذات الأغلبية الكردية يجب أن يكون لها شكلٌ من أشكال الحكم الذاتي المحلي وأن تُدار بالكامل من قبل مسؤولين أكراد. لكن تم

تقديم حجة أيضاً لكون الأكراد يشكلون منطقة عازلة بين العراق وتركيا الناهضة. لم يكن لدى فيصل أي وسيلة للتأثير على نتيجة المناقشات التي تؤثر على الأكراد. كان عليه أيضاً الاعتماد على القوة العسكرية البريطانية لتعزيز دولته ودرء أي تهديدات لسلامتها. كان هذا موقفاً غير مريح للغاية بالنسبة له، ودفع به للتصميم على بناء قدراته العسكرية في أقرب فرصة.

كان هناك سببٌ آخر لقلق فيصل البالغ بشأن وضع ولاية الموصل والأراضي الناطقة باللغة الكردية في العراق[*]، فغياب هذه الأراضي ذات الغالبية السنية عن حدوده من شأنه أن يحوِّل العراق إلى دولةٍ ذات أغلبيةٍ شيعيةٍ ساحقة، مما يثير قضايا ملتبسة بشأن قابلية البقاء على المدى الطويل لملَكيةٍ دخيلةٍ تعتمد بشكلٍ كبيرٍ على العناصر العربية السنية وتحكم دولةً ذات أغلبيةٍ شيعية. لم يكن هذا موقفاً طائفياً إلى حدٍّ كبير، بل كان حساباً مجرداً فيما يتعلق بإمكانية قيام عراقٍ بأغلبيةٍ ساحقةٍ من الشيعة ولكن تحكمه النخبة العربية السنية. كانت مواقف فيصل تجاه الشيعة معقدةً ومتوازنةً بدقة. فلم يكن لديه تحيُّزاتٌ طائفية ولم يكن مهتماً بالتحديد بالتفصيلات العقائدية التي تكمن وراء الانقسامات الطائفية في الإسلام. كان يعلم أن المسؤولين البريطانيين كانوا بشكلٍ عام معادين للشيعة، وخاصة لقيادتهم الدينية التي يحملونها المسؤولية عن تمرد عام 1920. تشير بيل في رسائلها إلى الكراهية، بل وحتى الازدراء، الذي كان لدى البريطانيين تجاه الشيعة. كان واضحاً أين يكمن تعاطفها، فهي تقول: النقيب اللطيف الذي كان ميالاً إلى البريطانيين، على نقيض المتعصبين للإسلام الشيعي. وقد أصابت التحيزات العثمانية القديمة ضد الشيعة جزءاً كبيراً من الضباط والموظفين السُنَّة حصرياً، الذين رأوا في المملكة الجديدة استمراراً للمكانة المميزة التي كانوا يتمتعون بها في أيام العثمانيين. تكتب بيل في رسالةٍ إلى والدها كيف أن عبد المجيد الشاوي، متصرف بغداد صرَّح لها بعفويةٍ وبساطة أنه يكره الشيعة.

لكن في تلك الأيام الأولى لدولة العراق الجديدة، كان فيصل يحاول بذل قصارى جهده لزيادة وجود الشيعة في جميع أنحاء الإدارات، لكنه تعثَّر في مسعاه، لأن قلةً قليلةً منهم كانت لديهم مؤهلات عصرية. فبعد مناقشات مع مستشاريه، لا سيما رستم حيدر، السكرتير الخاص لفيصل يومها، تم الاتفاق على بذل كل الجهود لزيادة عدد الشيعة في كلية الحقوق التي أعيد افتتاحها حديثاً. ويذكر توفيق السويدي[6] الذي عُيِّن رئيساً لكلية الحقوق في تشرين الثاني (نوفمبر) 1921 في مذكراته أنه أعطى تعليماتٍ، بإصرارٍ من فيصل، بقبول مؤهلات المدارس الشيعية

(*) كانت الموصل في العهد العثماني تضم جميع مناطق كردستان، ومنذ النصف الأول من القرن السابع عشر، أصبحت ولاية قائمة بذاتها، وطرأت عليها بعض التعديلات حتى اتخذت شكلها الاداري النهائي سنة 1879، حين أصبحت تضم سنجقي (كركوك والسليمانية)، فضلاً عن سنجق الموصل نفسه. (المُراجع).

بدلاً من شهادات الثانوية العادية. وأحد الأمثلة الأخرى على وصول فيصل إلى الشيعة في الأيام الأولى من حكمه هو اهتمامه بطقوسهم في محرم، والتي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين. وفي عام 1921، حلَّ شهر محرم في 4 أيلول (سبتمبر)، بعد أسبوعين من تتويج فيصل، حيث قام بتمويل عددٍ من المواكب وحضر العديد من جلسات إحياء الذكرى، وتم رفع العلم العراقي الجديد، الذي يرتكز جزئياً على علم الثورة العربية، في هذه المواكب لأول مرة[7].

حتى بعد الإعلان غير المجدي للبيعة المشروطة لآية الله الخالصي، واصل فيصل البحث عن سبلٍ للعمل معه وتبديد عدم تعاطفه الواضح مع النظام الجديد. جاء الاختبار المبكر لسياسة فيصل تجاه الخالص بعد فترةٍ وجيزةٍ من توليه العرش. فقد سعى الخالصي إلى تعيين أحد مرشحيه ليكون حاكم منطقة سامراء، وهي بلدةٌ ذات أغلبيةٍ سنية تضم أحد المواقع الدينية الشيعية الرئيسة. كان الخالصي قد اختار هندياً مقيماً في الكاظمية لهذه الوظيفة، وسعى لإقناع فيصل بقبول تعيينه. كان فيصل يقلِّب هذه المسألة في ذهنه عندما زاره علي بازركان، أحد زعماء تمرد 1920 وصديق للملك حسين. يذكر بازركان في مذكراته ما حدث بعد ذلك:

ذهبتُ ذات يوم لزيارة الملك فيصل الأول في قصر شعشوع، فقد اعتدت زيارته بدون موعدٍ مسبق. رأيته في غرفته وهو يتناول الشاي، وعندما لاحظني قال: انظر علي، وسلمني رسالة من الإمام مهدي الخالصي إلى الملك فيصل يطلب منه فيها تعيين ميرزا محمد الهندي، المستشار السياسي لنائب حاكم الكاظمية، لمنصب متصرف سامراء للخدمات التي قدمها للمسلمين. ثم علَّق جلالته على الرسالة. «ماذا سيقول الناس إذا قمت بتعيين مواطنٍ هندي لهذا المنصب؟ هل قمت بتمردك ضد الإنكليز لكي تُعين هنوداً في مناصب بالدولة؟ إلا يوجد أحدٌ في العراق يصلح لهذه الوظيفة؟» ثم ابتسم جلالته وقال لي: «إذا كان بإمكانك تغيير موقف الشيخ مهدي الخالصي فيما يتعلق بتعيين هذا الهندي، فسوف أكون مديناً لك».

عندها زار بازركان الخالصي لإقناعه بتغيير رأيه والبحث عن مرشحٍ عراقي لهذا المنصب. وأخيراً رضخ الأخير عندما اقترح بازركان كردياً عراقياً، هو جلال بابان، للمنصب، ثم كتب الخالصي رسالةً أخرى إلى فيصل يسحب فيها ترشيح الهندي، ويطلب منه هذه المرة اختيار بابان. قبل فيصل بسرور، وقال لبازركان إنه أنقذه من معضلةٍ لا يُحسد عليها، فإما قبول ترشيح الخالصي السابق للهندي، ويتم انتقاده من قبل العراقيين، أو برفض المرشح وكسب عداوة الخالصي[8].

وفي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) 1921، زار فيصل النجف وكربلاء مرةً أخرى. فقد ذهب لزيارة معاقل القبائل في وادي الفرات، حيث جرى استقباله بحرارة. وقد استغل فيصل هذه الزيارات لتعزيز موقفه مع المفوض السامي وفيما يخص المناقشات الجارية بشأن المعاهدة.

وقد أخبر كوكس أن المجتهدين الشيعة كانوا مستعدين لدعمه كعاهلٍ إسلامي، لكن ليس إذا كان مجرد أداةٍ للسياسة البريطانية.

الغارات الوهابية

بيد أن فيصل والشيعة كان لهما عدوٌّ مشترك. ففي 11 آذار (مارس) 1922، هاجمت مجموعةٌ كبيرةٌ من الإخوان الوهابيين المتعصبين بقيادة فيصل الدويش القبائل العراقية التي كانت ترعى مواشيها في الصحراء جنوب الناصرية. أتت فرق الغزاة إلى العراق من أرض ابن سعود في نجد، وكان الهجوم على الرعاة وعائلاتهم مُهلكاً، فقد قتل الإخوان ما يقرب من سبعمائة شخصٍ وأخذت المجموعة المغيرة أعداداً كبيرة من الماشية[9]. كان هناك ردُّ فعلٍ فوري وشديد على الحادث، وبشكلٍ ملحوظ بين قبائل وادي الفرات. كان العداء بين الوهابيين والشيعة طويل الأمد، ويعود إلى القرن الثامن عشر عندما هاجم الوهابيون كربلاء وقتلوا الآلاف من سكانها. وانتشر الذعر الذي أحدثته هذه الغارة الجديدة على نطاقٍ واسع، وسرى الحديث بين الناس عن غزوٍ وهابيٍّ للعراق يذبح الشيعة ويدمر مزاراتهم المقدسة.

كان الوهابيون ألدَّ أعداء الهاشميين. وقد كانوا على أهبة الاستعداد، بعد معركة (تربة) الكارثية على حدود الحجاز المنكمشة، لإسقاط مملكة الحسين. شعر فيصل بالسخط والإهانة شخصياً لدى حدوث الغارة. وأصبح أكثر قلقاً عندما كان جاء رد كوكس على هذا الانتهاك السافر للأراضي العراقية فاتراً في أحسن أحواله. كان كوكس قد تردَّد لأن سلاح الجو الملكي فقد طائرةً بينما كان يستكشف منطقة الغارة. وكانت قوة الردع البريطانية في العراق تعتمد على سلاح الجو الملكي البريطاني، ولم يكن كوكس مستعداً للمخاطرة بمزيدٍ من الخسائر دون تعليماتٍ محددة من لندن. لكن العراقيين رأوا تردد كوكس من منظورٍ مختلف، كجزءٍ من خطةٍ مدروسة لإبقاء العراق ضعيفاً وغير متوازن، ومن ثم تأكيد الحاجة إلى الانتداب البريطاني وبريطانيا باعتبارها الضامن النهائي لأمن العراق. ففي النهاية، ألم يكن كوكس صديقاً لابن سعود، وهل كان سيتصرف هذا الأخير بهذه الطريقة الصفيقة دون رضا بريطانيا؟ وقد زاد الحادث من عزم فيصل على بناء قدراته المسلحة، ودفعه إلى تسريع تطوير الجيش العراقي وتسليح القبائل الجنوبية ذات الأغلبية الشيعية. وفي ذلك الوقت، كان فيصل قد جذب إليه قادة القبائل الرئيسيين في تمرد 1920، بمن فيهم عبد الواحد سكر، وشعلان أبو الجون، والحسين [محسن] أبو طبيخ، وعلوان الياسري. وكانوا جميعاً يطالبون بالسلاح لمواجهة التهديد الوهابي. فأرسل فيصل مذكرةً إلى مجلس الوزراء في 27 آذار (مارس) 1922، يحثُّها على زيادة مخصصات الميزانية لوزارة الدفاع، لكن مجلس الوزراء انقسم بشأن هذه المسألة، حيث رفض حليف فيصل المفترض

ناجي السويدي دعم الطلب، مدّعيا أن الغارة الوهابية لا علاقة لها بالعراق وأنها جزءٌ من الصراع الوهابي الهاشمي على السيادة على شبه الجزيرة العربية. وفي كل الأحوال، فقد كانت بريطانيا مسؤولةً عن الدفاع عن العراق ضد التهديدات الخارجية. وأيَّد أربعة وزراءٍ آخرين موقف ناجي ورفضوا الطلب، الأمر الذي أثار استياء وزير الدفاع جعفر العسكري. ولم يكن لدى فيصل أدنى شك في أن المقيمية كانت وراء تعنت الوزراء[10].

في غضون ذلك، تلقَّى كوكس اعتذاراً متأخراً من ابن سعود بشأن الغارة، مدَّعياً أن فيصل الدويش تصرف دون موافقته أو علمه، لكنه لم يكن كافياً لتهدئة الرأي العام داخل العراق. وألقت بعثة لتقصي الحقائق أوفدها مجلس الوزراء إلى مكان الغارة المسؤولية عن الفشل في توقُّع أو مواجهة الغارة مباشرةً على الحكومة، لا سيما الوزراء الذين رفضوا قبول زيادة مخصصات الدفاع. ونجم عن ذلك حملة صحفية ضد الوزراء (وبالاستدلال أولئك الذين كانوا من ورائهم، إلا وهي المقيمية)، بقيادة جريدة الاستقلال. وفي 31 آذار (مارس) 1922، قدم الوزراء المتمردون استقالتهم من مجلس الوزراء، وقبلها فيصل على الفور[11].

غضب كوكس من قرار فيصل الذي اتخذه دون استشارته، وبعث برقيةً إلى تشرشل في لندن يتذمر فيها من تصرفات فيصل المتهورة وانعكاساتها على مكانة الوزراء المستقيلين داخل طوائفهم[12]، ورد تشرشل على نحوٍ مماثل، معرباً عن استغرابه من تصرف فيصل دون استشارة المفوض السامي. ورداً على ذلك، ذهب كوكس إلى حد إثارة مسألة تنازل فيصل عن العرش إذا استمر في قراراته أحادية الجانب. «ليس من سياسة حكومة جلالة الملك ولا من نزعتي الشخصية كسر هيبته كملكٍ وإلزامه بالتنازل عن طريق إجباره على القيام بأعمال طائشةٍ أو متسرعة، وهو ما قام به دون استشارة، ولكن إذا أظهر توجهاً لا مبرر له في هذا الاتجاه فسياستي هي أن أطلب منه أن يستعفي من منصبه وأن يوضح الأسباب»[13]. ولا بد أن ما حفَّز لجوء كوكس المفاجئ لتهديد فيصل بـ «التنازل» عن العرش هي الشكوك الكامنة حول قابلية تطويعه. لكن هذا كان مجرد نذيرٍ للأزمات القادمة بين القصر والمقيمية، حيث حاول فيصل توسيع حيِّز المناورة لديه بينما سعى البريطانيون إلى قصر أفعاله على تلك التي يمكنهم السيطرة عليها أو توجيهها. وبالطبع، لقيت محاولات فيصل لتوسيع صلاحياته ترحيباً واسع النطاق من قبل المعارضة القومية، التي لم تكترث بشأن المخاطر التي قد يرتبه هذا على الموقف العام لفيصل.

مؤتمر كربلاء

كان المجتهدون البارزون في النجف، وهم آيات الله العظمى أبو الحسن الأصفهاني(*) وميرزا حسين النائيني، قلقين للغاية بشأن غارة الإخوان. وقرروا عقد مؤتمرٍ في كربلاء يضم شخصيات عشائرية بارزة ووجهاء حضريين لمناقشة الرد على التوغلات الوهابية. كما أن رد فعل بريطانيا المتأخر على الغارة يمكن أن يمنح أولئك الذين حضروا المؤتمر الفرصة لتعزيز رأيهم المناهض للانتداب. كما دعا آيات الله العظمى آية الله مهدي الخالصي[14] ليُرسل دعوات إلى 1500 شخص لحضور المؤتمر، وفي 8 نيسان (أبريل)، انطلق من الكاظمية إلى كربلاء برفقة أكثر من 20 ألف(**) من أتباعه[15]، واجتمع حينها جميع آيات الله العراقيين الرئيسيين في كربلاء باستثناء آية الله العظمى النائيني. فقد انسحب ورفض حضور المؤتمر لسببٍ غير مفهوم.

وهناك أدلةٌ قويةٌ على تنظيم مؤتمر كربلاء بدعمٍ من فيصل من وراء الكواليس. وتعزو تقارير الاستخبارات البريطانية ذلك إلى جهوده للتقرُّب من رجال الدين الشيعة ولعب الدور الرئيسي في تنسيق القوات المناهضة للانتداب[16]. سعى فيصل أيضاً إلى إثارة غضب الجمهور على غارة الإخوان لصالحه من خلال تذكيرهم بعداء عائلته الطويل تجاه الوهابيين. وبهذه الطريقة، فإن مصداقيته مع الناس كمعارضٍ مؤكد للوهابيين ستعزز شعبيته في البلاد. ووجه الخالصي دعوة رسمية لفيصل لحضور المؤتمر، ولكن على الرغم من أنه كان ينوي الحضور شخصياً، إلا أن ضغوط المقيمية عليه حتى لا يفعل ذلك عنت أنه كان مضطراً إلى إعادة النظر. فأرسل توفيق الخالدي، وزير الداخلية الجديد، وكذلك نوري السعيد، الذي كان يثق به أكثر، لتمثيله. وسيمارس الأثنان كذلك تأثيراً معتدلاً على المؤتمر[17] الذي ازداد حينها حجماً ونطاقاً. فقد كان قادة الطائفة العربية السنية، بتنظيمٍ من الشيخ عبد الوهاب النقيب، قد التقوا في تكية الخالدية (مركز صوفي مهم في بغداد)، وكانوا يدرسون أيضاً موقفهم من التوغل الوهابي. واتفق جميع الحاضرين في المؤتمر على أن الوهابيين كانوا إرهابيون، ويشكلون خطراً قاتلاً على الإسلام، وأن من واجبهم دعم المؤتمر في كربلاء[18]، وأصدروا فتوى حينها تجيز الحرب ضد الوهابيين، وانضم المئات إلى النقيب وعلماء سنة آخرين في موكب إلى كربلاء، ووصلت مجموعةٌ كبيرةٌ أخرى من الوفود إلى كربلاء من شمال العراق، بينهم عددٌ من الضباط الشريفيين بقيادة مولود مخلص، ووجهاء

(*) توفي شيخ الشريعة الأصفهاني بتاريخ 18 كانون الاول (ديسمبر) 1920م. (المُراجع).

(**) يبدو إن هذا العدد الكبير من الأتباع جاءوا إلى كربلاء لأكثر من هدف، أحدها حضور المؤتمر، والآخر هو إحياء ذكرى مولد الإمام (محمد بن الحسن) ع الإمام الثاني عشر للشيعة الإمامية، وتأدية مراسيم زيارة الإمام الحسين ع التي هي من ضمن شعائرها. وقد حرص منظمو المؤتمر على أن يتوافق يوم عقد المؤتمر نفسه مع أيام الذكرى أو بعدها بقليل، إذ ستشهد حضوراً جماهيرياً غفيراً. (المُراجع).

وشيوخ عشائر من منطقة الموصل. لقد كان مثالاً رائعاً على التعاون بين الطوائف والأقاليم على هدفٍ مشتركٍ لوقف الغارات الوهابية على العراق، وفي الوقت نفسه للتعبير عن موقفٍ من قضية الانتداب.

افتُتح المؤتمر في 9 نيسان (أبريل) 1922. وكان ما يقرب من 200000 شخص قد توافدوا إلى كربلاء، حريصين على دعم المؤتمر والحضور عند اعلان قراراته. وتمت صياغة العرائض لتعميمها والتوقيع عليها من أكبر مجموعةٍ ممكنة. وبعد ديباجةٍ طويلةٍ شجبت التوغلات الوهابية، جاء في البيان: «لقد اتحدنا على قضيةٍ مشتركة بما يخدم مصلحة أمتنا والدفاع عن أماكننا وأضرحتنا المقدسة»... سوف ندافع ونحارب الإخوان الإرهابيين بدعمٍ من جيش ملكنا، انطلاقاً من التزامنا بعرش ملكنا العظيم فيصل الأول، والعمل بأوامره بشأن كيفية مكافحة وقتال الإخوان العدميين... وتنظيم الإيرادات لملكنا [لهذا الغرض].» وكان المؤتمر ظاهرياً إقرارً مدوِّياً بموقف فيصل وتشجيعاً له على الاستمرار في مطالبته بتعزيز القدرات الدفاعية للعراق. لكن الأمر لم يكن مجرد كلامٍ وتصريحات. فقد أشارت الاستخبارات البريطانية إلى تشكيل وحدةٍ سرية لاختراق الجيش واغتيال شيوخ موالين لبريطانيا وضباط بريطانيين[19].

في 13 نيسان (أبريل) 1921 أرسل فيصل برقية شكرٍ إلى الوفود قرأها جعفر أبو التمن الذي كان قد عاد إلى العراق في خريف عام 1920 وجاء في جزءٍ من البيان «لقد سمعنا عن لقائكم التاريخي الذي تجلت فيه المشاعر النبيلة والوطنية الصادقة والحكمة ونشكركم على ولائكم»[20]. كان أبو التمن شخصاً لامعاً في المعارضة القومية للانتداب البريطاني، وكان يؤيد بشدة الحد من النفوذ البريطاني وتقليص عدد المستشارين البريطانيين في الحكومة. وقد قام بجولةٍ في العديد من الدول الإسلامية لحشد الدعم للقضية القومية. وعلى الرغم من أنه لم يكن معارضاً لفيصل بشكل أساسي، إلا أنه كان قلقاً للغاية من زمرة الضباط والمسؤولين السوريين الذين كانوا يحيطون بفيصل، والذين كان يعتقد أنهم يساومون على وحدة المقاومة العراقية ضد الانتداب البريطاني[21]. كانت المقيمية حذرةً للغاية من هذا السياسي الصاعد، ولم تكن متحمسةً بالتحديد عندما فاز بمقعدٍ في بلدية بغداد بأغلبيةٍ كبيرة. ومع ذلك، فقد كان مقدراً له أن يصبح شخصيةً سياسيةً رئيسية طوال فترة حكم فيصل.

كان أبو التمن قد أدى دوراً كبيراً في التوفيق بين مواقف أولئك الذين سعوا لاتخاذ إجراءاتٍ فورية ضد الإخوان وأولئك الذين كانوا أكثر حذراً في نهجهم وأكثر إدراكاً لحقائق القوة. فلم يكن الأخيرين مستعدين لمواجهة المقيمية أو رفض محاولاتها لانتزاع اعتذارٍ من ابن سعود، أو حتى لبعض الإجراءات التأديبية ضد الإخوان. وكان أبو التمن قد دعا في الواقع إلى عقد مؤتمرٍ في كربلاء لإعطاء فيصل الوسائل اللازمة لتقوية موقفه وإفساح المجال للعمل المستقل. وقد تأثر

فيصل إلى حدٍّ كبير باستعداد أبو التمن للدفاع عن موقف الملك والبحث عن أرضية مشتركة بين مختلف الفصائل في كربلاء. فتغاضى عن تحفظات أبو التمن السابقة تجاهه، وطلب منه أن يكون وزيراً للتجارة، بدلاً من عبد اللطيف المنديل. لكن سرعان ما قامت المقيمية بموازنة تعيين أبو التمن من خلال دعم ترشيح عبد المحسن السعدون المعروف بسياساته الموالية لبريطانيا لمنصب وزير العدل.

كما كانت المقيمية عاقدة العزم على تقويض مؤتمر كربلاء وأية قراراتٍ تنبثق عنه. وقد وصفه كوكس بأنه «طائشٌ وخطير»، واعتقد أن البلاشفة والكماليين كانوا وراءه سراً. ورفض عدد من زعماء القبائل الموالين لبريطانيا الحضور، بمن فيهم علي سليمان من قبيلة الدليم. ورفض آخرون ممن حضروا، مثل عدّاي الجريان من قبيلة البو سلطان ومراد الخليل من قبيلة الجبور، التوقيع على العرائض. وفي اجتماعٍ لاحقٍ عُقد في الحلة أصدروا بياناً مضاداً يدين مشاركة القادة الدينيين في الشؤون السياسية ويؤكد التزامهم بالانتداب البريطاني. وأقاموا اتصالات مع علي سليمان الذي وافق على مقابلتهم في بغداد تمهيداً لزيارة كوكس. فنصحهم كوكس بحكمة بعدم تنظيم البيان المضاد، حيث ستراه العامة على أنه وثيقةٌ مستلهمةٌ من المقيمية، مما سيقوض مصداقيته. وبدلاً من ذلك، اقترح أن يقابلوا فيصل ويوضحوا له المخاطر الكامنة في اتباع طريق الراديكاليين.

زار علي سليمان، برفقة أربعين من زعماء القبائل، فيصل في 22 نيسان (أبريل) 1922. وذكَّروه بعباراتٍ لا لبس فيها أن قسم الولاء له كان مشروطاً بقبوله لنصيحة المقيمية. وفي اليوم التالي، زار زعماء القبائل النقيب، الذي حثّهم، خلافاً لنصيحة كوكس، على نشر بيانهم. كان النقيب قلقاً للغاية من مؤتمر كربلاء، وظن أن فيصل قد يقع في فخٍ هندسه له الراديكاليون والشيعة. كانت المضبطة المضادة المقترحة مليئةً بالشتائم والاتهامات الموجهة لمنظمي مؤتمر كربلاء. «بعد أن اطَّلعنا [زعماء القبائل الموالية لبريطانيا] على الورقة التي طُلب منا التوقيع عليها، وجدنا أن المطالب المُدرجة لا قيمة لها للحكومة أو الدولة... ولاحظنا أنه وراء الكواليس كانت نوايا من كانوا يطلبون توقيعنا ضارةٌ بمصالح الحكومة العراقية وستجلب الكوارث والمتاعب لهذا البلد كما حدث من قبل [نتيجة تمرد 1920]. فنحن منذ البداية بايعنا جلالة الملك فيصل بسبلٍ وشروط كانت معروفةً للجميع، ولن تتغير أبداً، وهذا ما دفعنا لرفض التوقيع على الورقة التي تقلقنا من أجل سلامة هذا البلد وكرامة حكومته». ثم ذهبوا إلى طرح قائمة مطالبهم الخاصة، والتي تضمنت الاعتماد على بريطانيا للحصول على المساعدة والمشورة، ودعم الانتداب واستبدال وزراء الحكومة بأشخاصٍ معروفين للقبائل[22]. ومن جديد، عندما قدم زعماء القبائل مسودة مشروعهم إلى كوكس، نصحهم بشدةٍ بعدم نشره، لأنه سيشجع على الانشقاقات بين صفوفهم.

بعد بضعة أشهرٍ فقط من عهده، عكست الأزمة بشأن مؤتمر كربلاء الحبل الرفيع الذي كان على فيصل أن يسير عليه والقوى المتصارعة العديدة التي كان عليه أن ينفُذ من خلالها إذا كان سيصل إلى هدفه. فإذا ما تم شدُّه إلى أحد الاتجاهات، فسيضطر على الأرجح إلى تعديل موقفه أو إعادة النظر فيه حتى لا يعزل لاعباً أو جمهوراً معارضاً قوياً. كان مؤتمر كربلاء فرصةً للقوميين المتطرفين والمجتهدين الشيعة المناهضين للانتداب لحشد قواتهم بذريعة وقف غارات الإخوان. كما كان المجتهدون قلقين من الاتجاه الذي تتطور فيه الدولة العراقية، وعملياً، استمرار الحكم من قبل مؤسسةٍ سُنّيةٍ في ظل نظامٍ جديد. فالملك يمكن أن يكون حليفاً مهماً في مسعاهم، ولكن مرةً أخرى لم يكن واضحاً بالنسبة لهم إلى أي مدى يمكن إغواء فيصل أو دفعه ليصبح متعاوناً معهم. فقد كان لا يزال قيمةً غير معروفةٍ ولا يمكن أن يُتوقع منه واقعياً أن ينأى بنفسه تماماً عن المقيمية. وبدوره احتاج فيصل إلى تلميع مصداقيته القومية (وغير الطائفية) لكي يوطِّئ لموقعه كقوةٍ مستقلة.

ولكن كان لابد من ضبط المدى الذي يمكن أن يصل إليه كحليفٍ للقوات المعادية لبريطانيا حتى لا يؤدي ذلك إلى قطيعةٍ لا يمكن تداركها مع البريطانيين، فقد كانوا سادة الموقف، عسكرياً ومالياً على الأقل. وكان رجال القبائل الموالون لبريطانيا (والنقيب) قلقين قبل كل شيء من فقدانهم للسلطة أو المكانة في النظام الجديد. لكن كان عليهم أيضاً أن يتعاملوا مع القوة المتنامية للقصر والملك، الذي يدين بتاجه لرغبة بريطانيا بدعم ترشيحه. كانت المقيمية مهتمةً بألا يتجاوز فيصل حدوده ويصبح مرتبطاً بقضية المتطرفين. فلم يكن بالإمكان تصور أن تقيم المقيمية أي تسويةٍ مع هذه القوى. فقد كان فيصل حليفاً مهماً للبريطانيين في مسعاهم لتحقيق نظامٍ سياسي مستقر وآمن من شأنه أن يكون له السمات المميزة للاستقلال ولكنه مع ذلك سيكون مرتبطاً بحكام السلطة المطلقة في البلاد، أي هم أنفسهم. وكان على المقيمية أن تكيِّف ردودها في تعاملاته المبكرة مع فيصل كلما حاول بسط سلطته أو ممارستها. فهي لم تعترض عندما عيّن فيصل أحد أتباعه المخلصين، علي جودت، في منصب حاكم الحلة في تشرين الأول (أكتوبر) 1921. وكانت المهمة الرئيسة لعلي جودت هناك، والتي أداها بشكلٍ جيد، هي استقطاب قبائل المنطقة والزعماء الدينيين لقضية فيصل. لكنها منعته فعلياً من بسط سلطته في كربلاء عندما أقال عبد الحميد أسد خان المعيّن من قبل بريطانيا واستبدله بمرشحه. وقبل أن يتولى رجل فيصل منصبه، أرسل كوكس فرقةً صغيرةً لإعادته قسراً إلى بغداد. وقد تم حل التوترات التي تلت ذلك بين كوكس والملك فقط عندما تم الاتفاق على مرشحٍ توافقي هو عبد العزيز القصاب[23].

كانت أزمة كربلاء أول اختبارٍ في مملكة العراق الجديدة فيما يتعلق بالكيفية التي ستعمل

بها هذه القوات على رصِّ صفوفها وحل تناقضاتها وصراعاتها. فلم يكن بإمكان المقيمية إيقاف المؤتمر، لكنها يمكن أن تخفف من نتائجه أو تعرقلها. وكانت معضلة فيصل هي في كيفية الاستفادة من المؤتمر وبياناته الداعمة لسياساته في الحكم والدفاع، دون استعداء المقيمية والجمهور المهم الموالي لبريطانيا من زعماء القبائل المؤثرين. فبعد فترةٍ وجيزةٍ من المؤتمر، بدأ فيصل في إجراء تعديلاتٍ مع المقيمية. فقد استشعر أن قرارات المؤتمر قد يُساء تفسيرها من قبل البريطانيين وأن دعمه لقرارات المؤتمر ـ رغم صياغتها في العموميات ـ قد يخلق انقساماً بينه وبين المقيمية. وكان كوكس مدركاً لمعضلة فيصل، لكنه بالطبع رآها في المقام الأول من منظور المصالح البريطانية. ففي سلسلةٍ من البرقيات إلى لندن في أواخر نيسان (أبريل) 1922، تحدث كوكس عن قلق فيصل من أن علاقته ببريطانيا قد تكون متوترةً بشدة، وأنه يرغب في تنقية الأجواء من خلال إعادة تأكيد تحالفه مع بريطانيا. وقد اعترف فيصل بارتكاب عددٍ من الأخطاء، لكنه تصرف بدافع القلق من أن القيود المالية والبشرية المفروضة على البريطانيين قد تكون حدَّت من التزامهم بالدفاع عن العراق. كما اعترف فيصل للمفوض السامي بأنه قد استخف بنطاق ومدى الرأي المعتدل، مشيراً على الأرجح إلى الالتماس المقدم من الشيوخ الموالين لبريطانيا، وأنه يجب اعتباره، فيصل، من بين المؤيدين الراسخين للدور البريطاني في العراق[24]. لكن يبقى مدى صدقية هذا الشعور وحجم الرياء فيه مسألة تخمين. فقد كان فيصل يعتقد بلا شك أن العراق لا يمكن أن يستمر بدون الدعم البريطاني، لكنه كان يؤمن بالقدر نفسه بضرورة ضمان استقلال العراق وبأنه سيقيم جميع التحالفات اللازمة لتحقيق هذه الغاية. ولطالما كان التأرجح والمراوغة اللتان يستتبعهما هذا حتماً سمةً من سمات سياسات فيصل، حتى في باريس وسوريا، وأعطى أولئك الذين أرادوا من حكامهم أو حلفائهم أن يكونوا بسيطين ومباشرين في القول والفعل سبباً للتذمر من «ازدواجيته» الشهيرة.

المفاوضات حول المعاهدة الأنغلو عراقية لعام 1922

لم تمنع هواجس كوكس المتعلقة بمؤتمر كربلاء إياه من معالجة المشاكل الناجمة عن التوغلات الوهابية. وما من دليلٍ على أن البريطانيين تآمروا مع ابن سعود لخلق أزمةٍ لم يتمكن أحد من حلّها سواهم. بعد أسابيع قليلة من اختتام مؤتمر كربلاء، بادر كوكس بعقد اجتماعٍ بين ممثلين عن ابن سعود والحكومة العراقية لترسيم الحدود بين العراق ودولة ابن سعود النجدية. والتقى الوفدان في المحمرة على شط العرب. وتم التوقيع على معاهدة بين الطرفين في 5 أيار (مايو) 1922، والمعروفة باسم معاهدة المحمرة. لكن ابن سعود رفض قبول المعاهدة، وألقى باللوم على ممثله لتنازله كثيراً. واشتكى بصوتٍ عالٍ للكاتب اللبناني الزائر أمين الريحاني من

تخلي البريطانيين عنه، وهو صديقهم الحقيقي، لصالح الهاشميين. وافق كوكس على إعادة النظر في بنود المعاهدة ورتب للقاء ابن سعود شخصياً، وهذه المرة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية في العقير. وطالب ابن سعود بأن تكون الحدود بين العراق ودولته نهر الفرات. كان كوكس غاضباً من عناده وانفجر في غضبٍ غير معهود، مما أدى إلى انهيار ابن سعود تماماً وأعلن بصوتٍ عالٍ، وهو وعلى وشك البكاء، ولاءه لبريطانيا وكوكس على وجه الخصوص[25]. وتخلّى عن إصراره على أن تكون الحدود على ضفاف النهر، ثم تمت تسوية الحدود بين العراق ودولة نجد (وبعد ذلك الدولة التي خلفتها المملكة العربية السعودية)، حيث استولى العراق على معظم الأراضي التي سعى إليها، ودُفعت الحدود بعيداً إلى جنوب نهر الفرات[*]. وكان فيصل على اطلاعٍ دائم على المفاوضات، وكان من الواضح أنه مهتمٌ بشأن ترسيم الحدود النهائية، لكنه لم يستطع التأثير على النتيجة النهائية للمفاوضات. إذ يعود الفضل في هذه النتيجة المفيدة للدولة الوليدة بالكامل إلى كوكس.

كان هناك محنةٌ أخرى تنتظر فيصل في العملية المضنية التي أدت إلى المعاهدة الأنغلو ـ عراقية لعام 1922. فلم تكن بداية العملية مشجّعة، حيث أعلن النائب البريطاني إتش إيه إل فيشر، الذي كان أيضاً مندوب بريطانيا في عصبة الأمم، بشكلٍ غير متوقع في جنيف في 17 تشرين الثاني (نوفمبر) 1921 أن المعاهدة كانت مجرد اسمٍ آخر للانتداب[26]. جاء تصريح فيشر مدفوعاً بشكلٍ أساسي باحتياجات بريطانيا للبقاء متماشيةً علناً مع فرنسا، التي أشارت إلى انتدابها في سوريا ولبنان بعباراتٍ شاملةٍ أكثر بكثير مما فعلت المملكة المتحدة. لكن الرأي القومي في بغداد ثار ساخطاً. وكان فيصل، الذي كان في حاجةٍ إلى المعاهدة لتعزيز موقعه داخل البلاد والإشارة إلى بعض الخطوات الإيجابية نحو الاستقلال، منزعجاً للغاية عندما رأى المسودة الأولى للمعاهدة. كتبت بيل، تعليقاً على رد الفعل في بغداد على تصريحات فيشر: «إن كلمة «انتداب» لها نفس التأثير هنا مثل كلمة «محمية» في مصر. لقد أثار إعلان فيشر إعصاراً طفيفاً، وحتى فيصل اندهش... لقد فهم أن الانتداب كان يجب إسقاطه وعاد للظهور بشكلٍ آخر»[27]. كما اعتقد العديد من المسؤولين البريطانيين في بغداد أنه يجب إسقاط الانتداب. وأدرك كوكس بنفسه حساسية الأمر وطلب من مكتب المستعمرات التوقف عن استخدام المصطلح والامتناع عن الإشارة إليه في اتصالاتهم مع فيصل. ومع ذلك، لم تكن لندن مستعدةً لإلغاء مبدأ الانتداب. وعندما رأى فيصل المسودة المؤقتة للمعاهدة في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1921، غضب

(*) كانت الحدود الجديدة منطقية ومبنية على أساس موضوعي، يأخذ بالحسبان حقائق التاريخ والجغرافية، ويستند إلى أن عشائر القاطنة هناك ذات ولاءات سياسية سابقة لولاية العراق في العهد العثماني، ويشمل ذلك آبار تلك المنطقة القريبة والبعيدة عن نهر الفرات جنوباً. (المُراجع).

غضباً شديداً... وسأل لماذا... يجب أن تستند معاهدته معنا إلى مسودة انتدابٍ لم تتم الموافقة عليها من قبل أحد»[28].

كانت مسودة المعاهدة وثيقةً واسعة النطاق حددت العلاقات بين بريطانيا باعتبارها قوة الإنتداب والملك فيصل نيابةً عن الحكومة العراقية. أبرزت العديد من المواد ببساطة نظيراتها في وثيقة التفويض، وكان الفحوى العام للمسودة هو ترسيخ تفوق بريطانيا في العراق في جميع مجالات الدولة والحكومة تقريباً. فأشارت المادة الثالثة إلى حق بريطانيا في فحص ممثلي العراق في الخارج والموافقة على وجود دبلوماسيين أجانب في العراق. وتحدثت المادة 8 عن إنشاء نظامٍ قضائي لحماية مصالح الأجانب. والمادة 12 تحدثت عن حرية النشاط التبشيري. وتم إدخال مادةٍ خاصة، المادة 4، لتحديد منصب المفوض السامي، الذي سيُمنح صلاحياتٍ رسميةٍ كمستشارٍ لملك العراق، وكان الملك ملزماً بموجب المعاهدة أن يسترشد بنصائحه. وكانت هناك اتفاقياتٌ فرعية تتعلق بتعيين مسؤولين ومستشارين بريطانيين في جميع الوزارات العراقية، بما في ذلك الدفاع والعدل والداخلية والمالية والأشغال العامة. ودعت الاتفاقية العسكرية التابعة للمادة السابعة إلى أن تكون القدرات الدفاعية للعراق على أساس الخطوط التي وافقت عليها بريطانيا، حيث ستبقى القوات البريطانية في العراق، وسيُمنح قائدها وظيفةً مزدوجة هي المفتش العام للقوات العراقية. وكان من المقرر أن تكون المعاهدة ساريةً لمدة عشرين عاماً. ولم تُستخدم كلمة «تفويض» مطلقاً، لكن المعاهدة عكست جميع الأجزاء الأساسية لوثيقة الانتداب.

يجب النظر إلى مسودة المعاهدة، وهي في أحسن الأحوال شكلٌ معدَّلٌ للسيطرة الاستعمارية، في سياق الأوقات والظروف التي كانت تمر بها البلد. فحتى القوميون المتشددون أدركوا أن قطع الحبل السري مع بريطانيا على الفور كان أمراً غير عملي. فلم تكن بريطانيا لتتخلى ببساطة عن تفوقها في البلاد، وهو ما اكتسبته عبر الحرب وبتكلفةٍ بشريةٍ وماليةٍ هائلة. ولكن كانت هناك أيضاً رغبةٌ حقيقيةٌ في استعادة الكرامة والعزَّة الوطنية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في أعقاب الاستقلال الحقيقي، وليس ذلك الخاضع علناً لمصالح بريطانيا. قدّم كوكس مسودة المعاهدة إلى فيصل على أنها مجرد مسودةٍ من شأنها أن تخضع لمزيد من المناقشات. وأرسل مكتب المستعمرات الرائد هوبرت يونغ في 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1921 للمساعدة في المحادثات، وبدأت عملية المفاوضات الصعبة بشكلٍ جدي في كانون الأول (ديسمبر) 1921. وخلال الأشهر القليلة التالية، استمرت المناقشات في سريةٍ تامة تقريباً بين القصر والمقيمية ومجلس الوزراء. وفي كل مرة كان يُجري فيها فيصل تعديلاتٍ أو تعليقات على مواد المسودة، كان من الضروري استئناف عملية إعادة الوثيقة إلى المقيمية ومجلس الوزراء. كانت عمليةً شاقةً لم يجدها فيصل

ولا كوكس سهلة. فاشتكى كوكس إلى لندن من التوتر، وفي إشارةٍ إلى اعتراضات وتعديلات فيصل المستمرة، ذهب إلى أبعد من ذلك: «نظراً لاستحالة تبني أي سياسةٍ مكلفةٍ في العراق، يبدو أنه من الأكثر حكمةً، نظراً لموقف دافعي الضرائب البريطانيين، ضمان النوايا الحسنة للعراقيين من خلال إعطائهم ما يريدون بدلاً من تبني سياسة من المحتمل أن يكون لها تأثيرٌ معاكس»[29]. كان كوكس في الواقع يدعو إلى أن تتوصل بريطانيا إلى اتفاقٍ مع فيصل يمكنه أن يتعايش معه، والتخلي عن فكرة معاهدةٍ تدخلية من شأنها أن تؤكد سيطرة بريطانيا على البلاد. لكن تشرشل لم يكن ليؤيد هذا التغيير في التوجه، حيث كان الانتداب هو الدعوى القانونية الوحيدة لبريطانيا لتحظى بمكانةٍ خاصةٍ في العراق ويجب أن تعكس المعاهدة هذه الحقيقة.

ومن ناحيةٍ أخرى، كان لدى فيصل فهمٌ مختلفٌ تماماً للانتداب ووظيفته، مستمداً ذلك مما كان يعتقد أنه اتفاقياته مع تشرشل. وأسرَّ لأمين الريحاني أن تشرشل قدم له، قبل مؤتمر القاهرة، وعوداً واسعة النطاق. «لقد قدم لي تشرشل وعدين وهما: أنه سيتخلى عن الانتداب، وأنه سيعترف باستقلال العراق. وقد قدّم لنا الآن معاهدةً مليئةً بالإشارات إلى الانتداب وعصبة الأمم. إذا كنا سنخضع لانتداب، فما المغزى والفائدة من المعاهدة؟ وإذا كانت معاهدةً، فلماذا تتضمن انتداباً؟ لا داعي للإشارة إلى أن أحدهما ليس ضرورياً ولا مفيداً. نحن مصممون على التمسك بما وعدنا به السيد تشرشل، وهذا ما يريده العراقيون، المعتدلون منهم والمتطرفون. وما زلت آمل أن يفي بوعوده. وإلا فإن الوضع صعبٌ يا صديقي، صعبٌ للغاية»[30].

كان فيصل أيضاً مدركاً للديون العميقة من الالتزامات تجاه البريطانيين، وكان بحاجةٍ إلى موازنة هذا الدَين مع وعود بريطانيا له. وكان بإمكانه فقط دفع البريطانيين حتى هذا الحد. قال للريحاني:

إذا بدأت بالبحث عن حليف للعراق الآن، فأين أجده؟ في فرنسا؟ الفرنسيون هم أعدائي. في تركيا؟ الحرب بيننا وبين تركيا لم تنته بعد [إشارةً إلى مزاعم مصطفى كمال بشأن العراق]. في بلاد فارس؟ تزيد الحكومة الفارسية من مشاكلنا ومخاوفنا من خلال تدخلها المستمر في شؤون الشيعة في العراق. أين أجد الحليف؟ في نجد؟ لا تزال خطط ابن سعود عدوانيةً أكثر منها سلميةً. إنهم يشكلون خطراً علينا بالقدر نفسه كما يشكلون عليه. إلا ترى أننا محاطون بالأعداء وليس لنا أصدقاء سوى البريطانيين؟[31]. هذه هي الحقيقة يا صديقي، وإذا قبلتها وحاولت تعديلها نحو الأفضل، فأنا متهمٌ بالانحياز لبريطانيا وخدمة مصالحها. أما بالنسبة للبريطانيين؟ فكان الله في عوننا! إنهم يطلبون مني التوقيع على معاهدةٍ تمنعني من تشكيل حكومةٍ قويةٍ ووطنية، وهي معاهدة لن تسمح لنا حتى بالوفاء بالتزاماتنا. خذ الجيش كمثال، فنحن نريد جيشاً وطنياً قوياً. لكن أحداً لن ينضم إلى الجيش إذا كانت البلاد تحت الانتداب، فالبيِّنة واضحةٌ. سيقول العراقيون: إذا بقي البريطانيون في العراق فليدافعوا عنه بجيوشهم. وهذا صحيح ومنطقيٌّ أيضاً[32].

يصف الريحاني فيصل في تلك الأيام بأنه يتحدث إليه «بنبرةٍ هادئةٍ متماسكة ولكن مليئة بالحكمة. لاحظت قوتها حتى وهو يتحدث بهدوء، وفطنتها عندما يتوقف عن الكلام وفي حركاته وإيماءاته. خلع خاتمه ولعب بها لتهدئة أعصابه. وفي كل مرةٍ يذكر فيها اسم تشرشل، كانت هناك علاماتٌ واضحةٌ للانفعال عليه. خلع سيدارته ووضعها بجانبه على الطاولة»[33].

من الواضح أن الريحاني كان مفتوناً بفيصل. ففي وقتٍ مبكرٍ من حكم فيصل، قبل أن تأتي ويلات الحكم في العراق على عافيته وتشيخه قبل الأوان، وصفه الريحاني وهو يخلع سيدارته:

كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيته فيها حاسر الرأس... عندما نظرت إلى وجهه، أتذكر ما قاله رجلٌ فرنسي ذات مرة، أنه يشبه المسيح. كان الشعر فوق جبينه العالي اللامع كثيفاً بدون بقعٍ رمادية. كان وجهه صافياً ومتفتحاً ومليئاً بالمعاني. بدت العيون أكبر مما كانت عليه في الواقع، بعيدة النظر ومليئة بالنور. كان فمه يخون غضبه وخيباته، في حين أن عظام وجنتيه المحدبتين ذكرتني بتجاويف وجه أبراهام لنكولن. أضافت اللحية وقاراً إلى وقعِهِ وإرثه النبيل... فهل من الغريب إذن أن يكون لفيصل هذه الخاصية السحرية التي لم يعرفها سوى قلةٌ ممن عرفوه ـ وحتى ممن لم يعرفوه ـ فلم يتمكنوا من الهرب من حضوره ووقعه الآسر... حتى السير بيرسي كوكس، ذلك الرجل الإنكليزي المتغطرس، احترم فيصل وقدَّره لكنه اتخذ احتياطاته بإغلاق قلبه كلما كان في حضرته حتى لا يتغلغل سحر فيصل فيه... كانت خلافاته مع فيصل سياسيةً بالكامل، وترك السحر والفتنة لتفعل فعلها؟ الآنسة بيل، التي توجه طاقتها إلى عملها في ساعات يقظتها، تنمِّق رسائلها إلى والدتها... باختصار، كان الخلاف حول المعاهدة بين فيصل والسير بيرسي كوكس خلافاً بين من يتمتع بقلبٍ ذكي ومن لا قلب لذكائه»[34].

استمرت المفاوضات حول المعاهدة في سريةٍ تامةٍ حتى أيار (مايو) 1922، عندما زعم تشرشل، في بيانٍ أمام لمجلس العموم، أن فيصل وحكومته لم يخطروا بريطانيا أبداً برفض الشعب العراقي فكرة الانتداب. وورد ذلك في صحافة بغداد، وعمَّ صخبٌ على الفور. حيث كان هذا أول مؤشرٍ على أن فرض الانتداب كان لا يزال احتمالاً حقيقياً. وفي 28 أيار (مايو) 1922، تم عقد تجمعٍ عامٍ نظمته المعارضة القومية في مسجد الوزير، بالقرب من المكاتب الحكومية في ساحة القشلة. وتزامن التاريخ مع اليوم الأول من عيد المسلمين بعد صيام رمضان. وفي وقتٍ لاحقٍ من اليوم، انعقد الاجتماع مرةً أخرى في مسجد حيدرخانة، حيث انتخب حشدٌ كبيرٌ ستة ممثلين لتقديم احتجاجاتهم ضد بيان تشرشل. وضم المندوبون الشيخ محمد الخالصي ومحمد الصدر ومحمد مهدي البصير وياسين الهاشمي وحمدي الباجه جي[35]، وتوجه المندوبون، ووراءهم الحشد، إلى المقر الرسمي لفيصل، لكنه لم يكن هناك. ووافق على رؤيتهم في منزله الخاص في اليوم التالي[36].

انسحب الهاشمي، العائد مؤخراً من دمشق وكان تحت فترةٍ تدريبيةٍ مع البريطانيين، خارجاً من الاجتماع مع الملك. وخرج الخمسة وهم يشعرون بأن الملك أيّد مفهومهم بأن شعب العراق بأكمله يرفض الانتداب ويسعى إلى الاستقلال الكامل للعراق. وعندما قاموا بكتابة برقيةٍ لهذا الغرض، ليتم إرسالها إلى العواصم في جميع أنحاء العالم، رفض مكتب التلغراف إرسال البرقيات دون موافقةٍ صريحةٍ من فيصل. وكونه قد وقع في مأزقٍ بين مطالب المندوبين وسخط البريطانيين، قام فيصل بالمماطلة، لكنه قرر في النهاية منع إرسال البرقيات. محمد الخالصي، الذي كان عدائياً تجاه فيصل أساساً، رأى في هذا مثالاً آخر على مكره وتعامله المزدوج. لكن فيصل كان يتعرض لضغوطٍ متزايدةٍ من البريطانيين، وهي حقيقةٌ غابت بلا شك عن الخالصي والراديكاليين الآخرين. فقد ازداد غضب تشرشل من مراوغات فيصل، وذهب إلى حد الكتابة لكوكس أن «قبول حجة فيصل نفسها مراراً وتكراراً لا جدوى منه نظراً للالتزامات الدولية والمشكلة التي تنطوي على احتمالات النفقات الإضافية التي تنشأ في العراق. أنا متأكدٌ من أن مجلس الوزراء سيأمر بالإجلاء الفوري، ولا ينبغي أن يتوهم فيصل هذا الأمر، إذ سيكون عليه البحث طويلاً عن عرشٍ ثالث»[37]. أخذ فيصل تهديدات تشرشل على محمل الجد. وكتب إلى كوكس في أوائل أيار (مايو) 1922، «أستطيع أن أخبرك على وجه اليقين بحجم الأخطار والأضرار التي سأتعرض لها أنا وبلدي والتي ستنجم عن التخلي المفاجئ وغير الطبيعي [عن العراق]... لم أتوقع مثل هذا الشيء منك على الإطلاق»[38].

أصبح عمل فيصل المتوازن أكثر صعوبةً من أي وقت مضى. كان قد أخبر المفوض السامي أنه غير مستعدٍ للتوقيع على المعاهدة وأنه سيفوض تلك المسؤولية إلى النقيب. لكن تضافر الأحداث التي توجت بمؤتمر كربلاء واستقالة الوزراء أثار تساؤلات جدية في المقيمية البريطانية ولندن حول نواياه الحقيقية وموثوقيته كحليف. بدأت لهجة البيانات الرسمية بين لندن وبغداد عند مناقشة دوافع فيصل وشخصيته تتغير خلال هذه الفترة. كانت هناك إشارةٌ بالإحباط من أن حليف بريطانيا السابق قد لا ينصاع دائماً أو يلعب الدور الذي حددته له. حتى غيرترود بيل، التي كان احترامها لفيصل يقترب من عبادة الأبطال، أصبحت غاضبة بشكلٍ ملحوظ من التقلبات والانعطافات المفاجئة لفيصل. ففي رسالةٍ إلى والدها بتاريخ 4 حزيران (يونيو) 1922، أوشكت من وصفه بأنه مزدوج. «فيصل واحدٌ من أكثر البشر المحبوبين لكنه يفتقر إلى قوة الشخصية بشكلٍ مثيرٍ للدهشة. فمع مُثله العليا، سيسافر في كل لحظةٍ متجاوزاً كل العقبات الوضيعة ـ لقد ربط عربته بالنجوم، ولكنها مربوطةٌ بذلك الحبل الطويل الذي يتشابك في كل أجَمَةٍ. لا يمكنك فعل أي شيءٍ معه إلا من خلال التعاطف الشخصي الجَمّ ـ ليس من الصعب منحه ذلك، ولكن يجب على المرء أن يتذكر أنه يتمايل مع كل نَفَس»[39]. ولكن مع انحسار الأزمة، تغيرت لهجة

بيل، ومن الصعب عدم استنتاج أن مكانة فيصل بالنسبة لها كانت ترتفع وتنحدر حسبما كان يتصرف وفقاً للسياسات والمطالب البريطانية. ففي وقتٍ لاحقٍ من ذلك الشهر، كتبت بيل رسالةً أخرى إلى والدها:

في اليوم التالي ذهبت لتناول الشاي مع الملك وأجريت واحدةً من أكثر المحادثات إثارةً للاهتمام على الإطلاق. بدأنا بخصوص ياسين [الهاشمي] حيث قلت إنني انجذبت إليه ولكني اعتقدت أنني لم أشعر بأني أفهمه. وقال جلالته أن هذا هو بالضبط ما يشعر به ـ لم يفهم ياسين مطلقاً، ثم عدنا إلى الحكاية الكاملة لمؤتمر باريس، مع اقتناع فيصل التدريجي بأننا سنسلمه إلى رحمة الفرنسيين... ثم تحطَّم آماله المتجددة التي أحياها الوفد الأمريكي ـ كرين وزميله ـ من جديدٍ بشطب تقريرهما بالكامل. وأخيراً، تصميمه على المضي قدماً مع الفرنسيين قدر استطاعته وبكل الأحوال بحيث يؤسِّس ويرسِّخ حكومةً عربيةً بحيث حتى لو غاب عن موقعه فمن الصعب طمسها، ليتم لويُ ذراعه من جانب المتهورين من طرفه وتصلُّب الفرنسيين. وشعور عائلته طوال الوقت بالغيرة الشديدة منه، بحيث لم تقدم له يد العون أبداً ـ فيتشبث بذيل ثيابنا المتهالك. جلست أستمع باهتمامٍ وأنا أحبس أنفاسي ـ لقد كانت مساهمةً في التاريخ وأنا أدوِّنها بإسهاب ـ لكن ما لا يمكنني استنساخه هو الحالة النفسية التي كنت فيها. فلو كان بإمكانك رؤيته لخمس دقائق، لكنت فهمت ما أعني ـ فوجهه يتقلَّص ويتلهف بين ثنايا منديله الأبيض، عاكساً كل تحوُّلٍ في تفكيره مع التغيُّر المدهش في ملامحه؛ تلك العيون اللامعة لشخصٍ مثالي، يسكن الحزن وخيبة الأمل أعماقها لكنها لا تحمل لوماً أو عتاباً. شعرتُ وهو يروي تلك الحكاية المأساوية ـ لأنها ليست أقل من مأساويةٍ، على الرغم من أننا لم نكن بعد، ولله الحمد، في آخر فصلٍ منها ـ أنه لا يوجد قدرٌ من الصبر والتسامح الذي قد يُطلب منا ممارسته تجاهه الآن أكثر مما كان يستحقه على أيدينا. وإذا كنا سنعطي الحكم بصورة نهائية، إذا حدث ذلك... فسيكون فيصل يومها في أعلى المراتب[40].

الانزعاج البريطاني من فيصل قابلته معارضة القوميين. فقد تم تكذيب تصريحاته المتكررة عن دعم بعض مواقف القوميين عندما اضطر لاحقاً إلى التصرف، وفي الغالب تحت ضغطٍ بريطاني، لإلغاء تداعيات تلك المواقف. فاستمالة بعض قادتهم، مثل أبو التمن، وإشراكهم في الحكومة لم يهدئ الراديكاليين الذين استمروا في النظر إلى فيصل بتوجُّسٍ كبير. وصف الريحاني معضلة فيصل جيداً: «لم يكن الناس قادرين على فهم موقف فيصل في تلك الأيام. ولم يكن البريطانيون ولا العراقيون منصفين معه. قال البريطانيون إن فيصل انقلب عليهم بعد تتويجه؛ بينما زعم القوميون أن فيصل عمل لصالح البريطانيين وكان يخدم مصلحتهم. في الحقيقة لم يكن الملك فيصل أيّاً من الإثنين. فمن ناحيةٍ، أراد أن يحافظ على تاجه؛ ومن ناحيةٍ أخرى

[سعى] لإلزام البريطانيين بالوفاء بوعودهم»[41]. وفي غمرة هذه الأحداث العاصفة، وجد فيصل وقتاً للقاء إحدى الشخصيات المهمة التي أتت لزيارته، اللورد أبسلي. كان أبسلي رئيساً لصحيفة مورنينغ بوست Morning Post، إحدى الصحف البريطانية الرائدة لدى حزب المحافظين. كما كان من أشد المعارضين للمشروع الصهيوني في فلسطين. ورحبت الصحافة المحلية بوجوده في العراق، ودُعي لحضور اجتماعٍ مع قادة المعارضة في الكاظمية. كتبت بيل إلى والدها في 8 حزيران (يونيو) 1922 بخصوص زيارة أبسلي:

في محادثته مع الملك كان مثيراً للإعجاب حقاً... لقد تحدثنا حول مسألة الانتداب برمتها بمودَّةٍ تامة. حدَّد اللورد أ. الأسباب التي من أجلها كان علينا اللجوء إلى الانتداب ـ وسيلةٌ للحصول على موافقة الدول على معاهدتنا، بإقناع الأمة البريطانية بأننا قبلنا تحمُّل المسؤولية وعلينا الوفاء بها وما إلى ذلك. سأل الملك عما إذا كان يرى أي اعتراضٍ على تقديم شكوى مشتركة من جانبنا ومن جانب العرب إلى عصبة الأمم ضد علاقة الانتداب بمجرد أن تصبح المعاهدة حقيقةً واقعة. فقال اللورد أ، على العكس، فمورنينغ بوست ستفعل كل ما في وسعها لمساعدتنا، لكن يجب عليهم إقرار المعاهدة أولاً، وإلا فإن جميع أعدائنا في أوروبا سيعلنون أن الأمة العربية لا تريدنا. وافق الملك بحماس وأضفتُ أنه برنامجٌ يجب أن نكون قادرين خلاله الاعتماد على مساعدتهم... في النهاية، قال اللورد أبسلي، وهو دبلوماسيٌ رفيع المستوى حقاً، إنه يريد الآن أن يتطرق إلى أمرٍ خطيرٍ حقاً. أنصت الجميع ـ فقال، أجل، شيءٌ مهم للغاية ـ متى سيكون لديكم فريق بولو؟ ابتهج الجميع. وأكد له جعفر [العسكري] بشغف أن الجيش العراقي كان يشكل فريقاً، بينما قال الملك إنه يفهم أن لعبة الجولف أكثر فائدةً في المفاوضات السياسية ـ ولكن بعد إعادة التفكير لم يكن ليظن أنه يمكن أن يتحمل لعب الجولف مع السيد لويد جورج[42].

التمهيد لأزمة

ارتفعت وتيرة الحملة المناهضة للانتداب في حزيران (يونيو) 1922. وتلقى مجلس الوزراء مسودة المعاهدة في 22 حزيران (يونيو)، ليبدأ عمليةً شاقةً من المداولات الداخلية. وكان فيصل قد أرسل عدة رسائل سريةٍ إلى مجلس الوزراء، طالباً منهم تضمين شرطٍ في مسودة المعاهدة من شأنه أن يُنكر الانتداب على وجه التحديد. وافق خمسةٌ من الوزراء، لكن ساسون والسعدون وقفوا بحزم دعماً للبريطانيين[43]، وجلس النقيب في صمتٍ طوال الوقت. أصر أبو التمن على أن هذه المسألة يجب أن تُناقش فقط من قبل الجمعية التأسيسية. وتسربت مداولات مجلس الوزراء، وفي 24 حزيران (يونيو)، أغلقت المتاجر والأسواق في بغداد احتجاجاً على ذلك. وسارت المواكب التي شارك فيها مختلف أصحاب المهن والنقابات نحو منزل النقيب. وبالكاد تكرَّم النقيب الأرستقراطي

باستقبالهم، مشككاً في حقهم في التحدث نيابةً عن أي أحد، وقال غاضباً: «ومن أنتم لتدَّعوا أنكم تتحدثون باسم البلاد؟ أنا زعيم هذا البلد وأنا أكثر درايةً باحتياجات البلد وغاياته. عودوا إلى منازلكم وأعمالكم»، فغادر المحتجون خجلين[44]. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم زار النقيب وفدٌ برئاسة آية الله مهدي الخالصي، سعياً للتأثير عليه ومن منطلقٍ إسلامي لدعم الحملة المناهضة للانتداب. فاحتج النقيب على طرح مسألة ولائه للإسلام، وادَّعى أنه الآن يقترب من فراش الموت، فلن يفعل شيئاً ساوم به على نزاهته. لكن شهيته المفرطة كذَّبت احتجاجاته بحجة الضعف، فأثناء إحدى الولائم لاحقاً، ذكر ابن الخالصي أن النقيب أكل أكثر من أربعة أشخاصٍ مجتمعين.

كان ضغط المقيمية على الحكومة بلا هوادةٍ. ففي 25 تموز (يوليو)، وافق مجلس الوزراء على مسودة المعاهدة[45]، لكن النقيب نجح في إدخال شرط أن يتم التصديق على المعاهدة من قبل الجمعية التأسيسية المستقبلية، ورفض التراجع عن قراره حتى عندما حاول كوكس إقناعه بالتخلي عن البند. وفي اليوم التالي، عندما علمت بغداد والكاظمية بقرار مجلس الوزراء، بات الجو مشحوناً للغاية. فأعلن كوكس على الملأ أنه استفسر من القنصلية البريطانية في بوشهر عن عدد السجناء الذين يمكن أن تستوعبهم جزيرة هنجام، في خطوةٍ غير خفية لإخافة المعارضة. وتم إطلاق حملةٍ صحفيةٍ ضد المعاهدة، حيث ذكرت المخابرات البريطانية أن فيصل هو من كان يموّلها. وواصل فيصل ممارسة الضغط على الوزراء لتعديل موقفهم من المعاهدة وكانت لديه تحفُّظاتٌ على اللغة المستخدمة في النسخة العربية من المعاهدة. لقد كان تكتيكاً اعتُمِد لكسب الوقت إلى أن يزداد الضغط الشعبي إلى الحد الذي قد يعيد فيه البريطانيون النظر في شروط المعاهدة. كما أرسل فيصل أربعةً من أنصاره، وعلى رأسهم نوري السعيد، إلى النجف لجمع التوقيعات التي تندد بالمعاهدة.

أثَّرت حيل فيصل بشكلٍ طبيعي على علاقته بكوكس وبدأ الأخير في اتهام فيصل علناً بالازدواجية في التعامل. كانت بيل مصدومةً بالقدر نفسه من سلوك فيصل، الذي رأت أنه قوادةٌ متهورة للمتطرفين. وفي نوبة غضب، قررت قطع أي اتصالٍ مع الملك، لكنها تراجعت بعد احتجاجاتٍ قويةٍ من أصدقائها. وبحلول آب، كان الوضع يخرج عن السيطرة بسرعة. كانت الشائعات تسري بسرعةٍ وكثافة بأن قادة تمرد 1920 كانوا على وشك الانتفاضة مرةً أخرى. وفي 12 آب (أغسطس)، نزل حشدٌ كبيرٌ من الناس، قيل إن عددهم أكثر من 300 ألف في النجف، للاحتفال ظاهرياً بمهرجان الغدير[*]، فأرسل فيصل أقرب مساعديه، بقيادة علي جودت، إلى

(*) يندرج هذا الحشد الجماهيري ضمن نشاطات شعبية لإحياء واقعة بيعة (غدير خم) وزيارة مرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف كل عام لتجديد العهد معه. وقد وافقت ذكراها (18 ذي الحجة) يوم 12 آب (أغسطس) 1922م. (المُراجع).

النجف لتقديم دعم فيصل للتجمع. وكان الملك يعتمد بشكلٍ متزايدٍ على رجاله للتحايل على المسؤولين البريطانيين والشيوخ الموالين لبريطانيا. فتم إرسال ياسين الهاشمي إلى الناصرية متصرفاً [حاكماً] لها، وكان هو وآخرون مرتبطين مباشرةً بالقصر ويتلقون تعليماتهم من فيصل بدلاً من رئيسهم الاسمي، وزير الداخلية، توفيق الخالدي، الذي تم تكليفه بالحفاظ على النظام في وادي الفرات، لكنه قدم استقالته، مشيراً إلى استحالة القيام بعمله بينما كان الملك يقدم دعمه للمتطرفين والمتظاهرين. وأرسلت الحكومة، متعاطفةً مع الوزير المستقيل، مذكرةً إلى فيصل تطالبه علناً بتأكيد دعمه للحكومة. فردَّ فيصل أنه لا يرى أي سببٍ لتغيير سياساته، مما يعني أنه يرغب في رؤية استقالة الحكومة. استقال جميع الوزراء تقريباً، لكن النقيب، بدعمٍ من كوكس، طلب من الملك إعادة النظر في موقفه. لكن فيصل لم يتزحزح عن موقفه، مما دفع بالنقيب نفسه إلى الاستقالة، وإسقاط الحكومة بأكملها. فأصبح الوضع حرجاً. تحدث تقريرٌ استخباراتي عن تدهور الأوضاع داخل البلاد: «خلال الأيام العشرة الماضية، كانت هناك بوادر تفككٍ في البلاد بسبب عدم وجود غايةٍ مشتركةٍ لدى الحكومة وما يترتب على ذلك من عدم تطابقٍ في الأسلوب الذي يتبعه المسؤولون الحكوميون في إدارة الشؤون تحت ضغطٍ من المتطرفين، وكان السبب الرئيس وراء الخلاف قد نشأ عن المعاهدة»[46].

كان فيصل يُلقي تحدّياً جدياً أمام كوكس. فقد أدى دعمه للقوات المناهضة للانتداب وهندسته لاستقالة الحكومة إلى إثارة غضب كوكس بشدة. وفي برقيةٍ إلى لندن في نهاية تموز (يوليو)، كتب كوكس، «لقد وجدت صعوبةً في الوثوق به. فإذا كان من الممكن إيجاد حلٍّ للمشكلة الحالية، فإن الأمل الوحيد هو أن يفتح صفحةً جديدةً ويلعب اللعبة»[47]. وفي رسالةٍ أخرى، علَّق كوكس على شخصية فيصل قائلاً: «إنه بالطبع ليس لديه الشجاعة الأخلاقية لإعطاء شعبه زمام المبادرة بدلاً من التصريح الضعيف بموقفه كملك»[48]. وتحدث كورنواليس بإسهابٍ أكثر عن شخصية فيصل خلال أيام آب (أغسطس) الصعبة هذه. «أعتقد أن شخصيته هي المُلامة أكثر من أي شيء آخر... أعتقد أن طبيعته غير مستقرةٍ للغاية بحيث لا يتمكن أي شخصٍ من النجاح في إبقائه ضمن الحدود بأي حال من الأحوال»[49]. ومن اللافت للنظر كيف أن المسؤولين البريطانيين، عندما واجهوا عناد فيصل فيما يتعلق بالانتداب، لم يروا سوى «ضعفٍ» و«عدم استقرارٍ» في شخصيته. إنه إلى حدٍّ بعيد انعكاسٌ لخيبة أملهم، أو صدمتهم، أن حارسهم المفترض لم يكن راغباً في لعب لعبتهم دون قيدٍ أو شرط.

ومع ذلك، فقد كانت مناورات فيصل تقترب من التهور. حيث كان تشجيع المعارضة التي قد تتدهور إلى الخروج عن القانون وحتى التمرد خطوةً أبعد من اللازم ويمكن أن ترتد ضده وضد العرش. إذ كانت سيطرته على المعارضة محدودةً ولم يكن له قاعدةً شعبيةً واسعة ولا

سلطةً مستقلة تمنحه منبراً قوياً يمكن من خلاله قيادة المعارضة وتوجيهها. وكان هناك الكثير من القادة من السكان الأصليين الذين لديهم قواعد لسلطتهم وأجنداتهم الخاصة، بحيث لن يسلموا قيادة التحرك إلى فيصل عن طيب خاطر. فتحدي كوكس محلياً يمكن أن يُساء فهمه في لندن ويجري تحويله إلى موقفٍ حازمٍ مناهضٍ لبريطانيا يمكن من خلاله استخلاص استنتاجاتٍ غير مرغوبٍ فيها عنه. وفي الواقع، كانت لندن تفكر بجديةٍ بردٍّ قاسٍ على اصطفاف فيصل مع القوميين، بما في ذلك التنازل القسري وتسليم عرش العراق إلى عبد الله أو حتى النقيب[50]. كما قد يحزم البريطانيون أمتعتهم ويغادرون، متخلِّين عن الحفاظ على الأمن والقانون والنظام للعراقيين غير المجهزين. ومع اقتراب الذكرى السنوية لتتويج فيصل، كان يواجه وضعاً متدهوراً وربما نفوراً قاتلاً من كفيله الخارجي الوحيد، البريطاني. فقد تتكرر كارثة سوريا الآن في العراق إذا استمر هذا الوضع بلا رادع. وشعر نوري السعيد أن على فيصل أن يتراجع، وأبلغه بذلك ـ أنه يفقد ثقة بريطانيا وأن سياساته تؤدي إلى كارثة. لكن فيصل ما زال يرفض تغيير توجهه. ووصلت الأمور إلى ذروتها في 23 آب (أغسطس) 1922، بعد عامٍ واحدٍ بالضبط من تنصيبه.

وقبل أيامٍ قليلة، كان فيصل قد أرسل رسالةً إلى كوكس حذر فيها من التصاعد وتنصَّل من أي مسؤوليةٍ عنه. وأخبر كوكس إما أنه يجب أن يتحمل مسؤولية إدارة الدولة أو أنه يجب أن تُترك له حرية التصرف للقيام بذلك. وصاغ كوكس رداً قوياً، ألقى فيه باللوم على فيصل حقيقةً بتدهور الأحداث، لكنه لم يرسله لئلا يشوّه الذكرى القادمة لتبوئه العرش. وكانت مجموعات المعارضة قد نظمت نفسها مؤخراً في حزبين سياسيين، حزب النهضة والحزب الوطني، وكلاهما بقيادة شخصياتٍ سياسيةٍ شيعية من بغداد. وشارك في رئاسة «النهضة» أمين الجرجفجي وعبد الرسول كبّة. وفي رئاسة الحزب الوطني جعفر أبو التمن، ويؤيده آية الله مهدي الخالصي. والطرف الثالث، الحزب الحر كان بقيادة نجل النقيب وكان داعماً على نطاقٍ واسع للبريطانيين، وكان أحد الداعمين الرئيسيين له زعيم القبلي علي سليمان من الدليم[51]. نظم حزبا المعارضة اجتماعاً مشتركاً في 20 آب (أغسطس)، برئاسة محمد الصدر، طالب فيه بالقضاء على النفوذ البريطاني، ووقف المفاوضات حول المعاهدة حتى انتخاب جمعيةٍ تأسيسية، وتشكيل مجلسٍ للوزراء من العناصر «الوطنية» (المعارضة على الأرجح). كما دعوا إلى مظاهرةٍ عامة في ذكرى تولي الملك، يقدمون خلالها مطالبهم المشتركة للملك.

في اليوم المحدد، وعندما كان الملك يستقبل المهنئين في مقره الرسمي في القشلة، نزل المتظاهرون البالغ عددهم حوالي عشرة آلاف، إلى الساحة المواجهة للمكاتب الملكية. وقد ألقيت الخطابات من قبل قادة المعارضة ومنهم الشاعر الكفيف الشيخ محمد مهدي البصير. وبينما كان البصير يتحدث، كان كوكس، برفقة غيرترود بيل وآخرين، يصعدون الدرج المؤدي إلى

مقر الملك حيث كان يستقبل الزوار. فصاح أحد المتظاهرين، ويدعى حسون صانع الأجبان[52]: «تسقط بريطانيا. يسقط الاستعمار!» ردد الحشد الهتاف، مما أثار غضب كوكس الكبير. وواصل صعود الدرج إلى حضرة الملك وسلم عليه وغادر. تعرض كوكس لإهانة شديدةٍ من قبل فورة الحشد، ورأى فيها اليد الخفية لحاشية الملك، وخاصةً حاجبه المناهض لبريطانيا، فهمي المدرس. وفي تقريره إلى لندن حول الحادث، ادعى كوكس أن الوفد المرافق للملك قد رتَّب عن عمد أن يكون المتظاهرون في ساحة القشلة قبل وصول كوكس، وأن يقوم البصير بإلقاء خطابٍ مناهضٍ لبريطانيا يهدف إلى إثارة الحشود[53]. وفي اليوم التالي، أرسل سكرتير كوكس خطاباً شديد اللهجة إلى فيصل يطالبه بالاعتذار عن السلوك المهين الذي تعرض له كوكس، وطرد المدرس، واتخاذ إجراءاتٍ تأديبية ضد المحرضين على التظاهرة. فيصل، الذي كان منفعلاً من تصرفات المتظاهرين في اليوم السابق، قام بطرد المدرس على الفور، وأمر رستم حيدر بكتابة اعتذارٍ شامل لكوكس[54].

مرض فيصل وتولِّي كوكس للمسؤولية

بعد يومٍ من ذكرى توليه العرش، في 24 أب (أغسطس)، شعر فيصل بآلامٍ حادةٍ في البطن، فتم استدعاء الأطباء، بمن فيهم كبير الجراحين في المستشفى الملكي نويل براهام، وطبيب الملك الخاص العقيد معلوف، وهاري سيندرسون، وهو طبيبٌ شاب ملحق بالمستشفى العام. لم يكن معلوف مستعداً لقبول تشخيص سيندرسون لالتهاب الزائدة الدودية، لكن براهام أكد ذلك[55]. ففي أوائل العشرينات من القرن الماضي، كان التهاب الزائدة الدودية مرضاً خطيراً للغاية ويتطلب جراحة فورية. وأي تأخيرٍ يمكن أن يكون قاتلاً. فتم إبلاغ فيصل بضرورة العمل الجراحي و«قبل القرار بهدوء، وحتى مع ارتياحٍ واضح»[56]. تم تحديد موعد العملية في 25 أب، وسيجريها نويل براهام، وتم اختيار غرفةٍ في قصر الملك كغرفة عمليات. أما كوكس، فعند سماعه أن فيصل سيخضع لعمليةٍ جراحية، طالب برؤيته أولاً وأبلغ سيندرسون أنه سيكون في القصر في الصباح الباكر. تدهورت حالة فيصل بين عشية وضحاها، ولم تتحسن حالته العقلية حيث استشار معلوف حشداً من الأطباء العراقيين المدربين في الغالب من قبل العثمانيين، إلا أن كثيراً منهم توصلوا إلى تشخيصٍ مختلف. (عزا سيندرسون تشخيصهم المتناقض إلى رهاب الأجانب بدلاً من الرأي الطبي). لكن الأطباء البريطانيون استقروا على رأي، واجتمع طاقم غرفة العمليات لإجراء الجراحة. كان من المقرر أن يساعد براهام جراحٌ آخر في المستشفى الملكي وهو جي إس وودمان.

قبل بدء العملية، دخل كوكس وكورنواليس غرفة فيصل للحديث معه. تم إجراء المحادثة على انفراد. وهناك روايتان لما حدث لاحقاً، روايةٌ من أمين الريحاني كما رواها له فيصل؛ وروايةٌ

من فيليب جريفز، كاتب سيرة كوكس، حسب روايات كورنواليس له. رواية الريحاني للأحداث هي كالآتي:

في الغد الذي أعقب ذكرى تولي فيصل، حيث كان محاطاً بالأطباء والممرضات وأجهزتهم الجراحية، وصل المندوب السامي بيرسي كوكس، وأخرج أمراً من جيبه وقدّمه لفيصل لتوقيعه. كان أمراً باعتقال سبعةٍ من قيادات المعارضة ونفيهم من العراق. قرأه الملك وهو مستلقي يهز رأسه. وشرح كوكس سبب تبرير هذا الأمر، لكن الملك لم يقل شيئاً. اقترب أحد الأطباء البريطانيين من كوكس وقال: «هذا ليس الوقت المناسب لمثل هذه الأمور أيها المفوض». أجابه كوكس: «المسألة ملحةٌ لتأمين القانون والنظام. البلد في خطر». فأجابه الطبيب: «أجِّله حتى تنتهي العملية، فمن الضروري إنقاذ حياة الملك، وعلينا أن نبدأ الآن. «خاطب الملك كوكس، والأمر في يده، «خلال لحظاتٍ قليلة سأكون بين أيدي هؤلاء الأطباء، وقد لا أعود إلى الحياة. فهل تطلب مني سيد بيرسي أن يكون أخر عملٍ أقوم به في حياتي هو توقيع هذا الأمر؟ هل تتوقع مني قبل موتي نفي هؤلاء الناس، أهل هذه البلاد، من بلادهم؟ والله، هذا غير ممكن، غير ممكن. «قال ذلك وهو يعيد الأمر إلى المفوض السامي الذي وضعه في جيبه وغادر غرفة العمليات دون أن ينبس ببنت شفة[57].

تُقدم رواية جريفز مزيداً من التفاصيل حول المشاجرة بين كوكس وفيصل. وبحسب جريفز، فقد وصف كوكس لفيصل حساسية الموقف، وأخبره أنهم، البريطانيون، وصلوا معه إلى مفترق طرق. وحثّ فيصل على التخلي عن المتطرفين والانحياز إلى جانب البريطانيين، وإلا فإنه سيتعيّن عليه مواجهة عواقب التحالف مع ما أسماه كوكس بالأقلية المدمرة. ثم حثّ كوكس فيصل على الموافقة على اعتقال قادة المعارضة السبعة، فرفض فيصل قائلاً إن مثل هذا العمل سيؤدي إلى انتفاضةٍ عامة، وأنه لن يذهب إلى موته وضميره يعذبه على القيام بهذا الأمر. واصل كوكس وفيصل جدالهما حتى تدخَّل الجراح وأصرَّ على وضع فيصل على طاولة العمليات[58].

جرت العملية على مرأى من حراس فيصل الشخصيين المدججين بالسلاح والعبيد والمرافقين، الذين جاءوا معه من الحجاز. كان هناك العديد من الأطباء العراقيين في الغرفة لمراقبة الإجراءات، ولا شك أن البعض منهم كان سينقَّضُ على الجراحين إذا كان هناك تشخيصٌ خاطئ. وكما قال سيندرسون، «فرصنا في النجاة بدت بعيدةً جداً إذا حدث خطأٌ ما لدرجة أنها أصبحت موضوع تهكُّمٍ مرحٍ يخفي مشاعرنا بالتوتر مع اقتراب ساعة الصفر». وقد ثبت أن الجراحين البريطانيين على حق. «لكن ما إن تم إزالة الزائدة الدودية المريضة وكشف طرفها الغنغريني حتى انسل غير المصدقين بعيداً. واستقال العقيد معلوف وغادر إلى مصر بعد يومين»[59]. كانت عملية فيصل في آخر لحظة، فبضع ساعاتٍ أو أيامٍ من التأخير كان من الممكن أن تؤدي لانفجار الزائدة

الدودية وحصول عواقب مميتة. أصبح سيندرسون فيما بعد الطبيب الشخصي الفعلي للأسرة المالكة. وظلت حالة فيصل طي الكتمان عن العامة وتناثرت شائعاتٌ بأنه يتظاهر بالمرض من أجل تسليم شؤون البلاد إلى البريطانيين. واستمر محمد الخالصي الساخط في الإصرار لسنوات على أن فيصل كان يتظاهر وحسب، وهذا مثالٌ آخر على مكره وفجوره[60].

تماثل الملك للشفاء بسرعةٍ، ولكن مرَّ أكثر من شهرٍ قبل أن يتمكن من تولي مهامه العادية. كان من أوائل الأعمال التي قام بها بعد شفائه منح جراحه البريطاني أوسمةً حجازيةً، حيث لم يكن قد تم صكُّ مثلها في العراق بعد. قضى فيصل الأسبوع الأخير من نقاهته في ملكيته الجديدة بالقرب من خانقين، بالقرب من الحدود الايرانية[61]. في هذه الأثناء، استغل كوكس بالكامل مرض الملك وتولى الأمور بنفسه. وبذريعة عجز فيصل وغياب حكومةٍ عاملة، أعلن نفسه الرئيس التنفيذي للسلطة في البلاد وتولى السلطة الكاملة. وفي 26 آب، وجه كوكس بياناً طويلاً إلى «كل شعب العراق»، مليئاً بالوعود والنفاق، وأعلن أنه تولى السلطات التنفيذية كاملةً. وأتبع ذلك، وفي تعاقبٍ سريع، بإغلاق حزبي المعارضة وحظر صحيفتي المعارضة الرئيسيتين «المفيد» و«الرافدين». واعتقل ثلاثةً من قيادات المعارضة بينهم الكفيف الشيخ محمد مهدي البصير ورئيسي حزب النهضة كبة وجرجفجي في منازلهم. وعندما ذهب أبو التمن وحمدي الباججي إلى مقر إدارة المباحث الجنائية للاحتجاج على هذه الإجراءات، تم اعتقالهما أيضاً. وفي الإجمالي، تم نفي سبعةٍ من قادة المعارضة إلى جزيرة هنجام على رأس خليج البصرة. واختفى عددٌ قليلٌ من قادة المعارضة الآخرين أو شقوا طريقهم إلى إيران. كما طرد كوكس علي جودت من منصبه كمتصرف حافظٍ للحلة وأقال عدة متصرفين موالين لفيصل أو للمعارضة. كما أرسل سلاح الجو الملكي البريطاني للقيام ببعض الغارات الروتينية في استعراضٍ للقوة فوق القبائل المتمردة في وادي الفرات. وفي 28 آب (أغسطس) قام كوكس بتحركه ضد المعارضة الدينية. فأرسل ضابطاً معاوناً وهو مسلمٌ هندي واسمه محمد حسين خان الكابولي، إلى الكاظمية إلى منزلي آية الله حسن الصدر، والد محمد الصدر، وآية الله مهدي الخالصي، محذراً إياهم من أن ابنيهما، المحمدين، عليهما مغادرة العراق في غضون أربعٍ وعشرين ساعة. وإذا لم يفعلوا ذلك، فسيتخذ كوكس إجراءاتٍ ضد آياتي الله نفسيهما. فغادر نجلا آيتي الله، اللذين اعتبرهما كوكس رأس حربة المعارضة، بالقطار إلى إيران في اليوم التالي.

حظيت تكتيكات الصدمة التي اتبعها كوكس بقبولٍ واسعٍ من قبل أولئك العراقيين الذين كانوا يُعتبرون أصدقاء وحلفاء لبريطانيا. وشهد حزب الحر، حزب الكيلاني، توسعاً هائلاً في عضويته، وتوافد السياسيون المترددون على المقيمية وعلى غيرترود بيل، مقدمين دعمهم وتهنئتهم. زار ياسين الهاشمي العنيد والمتكتم بيل، ويبدو أنه أسرها بطاقته وحضوره الجذاب، حيث دعته

رجل القدر. وأشاد ياسين بمسودة المعاهدة. وتذمر من مراوغات فيصل وألقى باللوم على البريطانيين لعدم قيامهم بما يكفي للسيطرة عليه. لكن لاحقاً، غيرت بيل وجهة نظرها تجاه ياسين بعد أن صادفت رسالةً بعث بها إلى أحد مؤيديه يشتم فيها البريطانيين، ويطلق عليهم اسم الظالمين والمحتلين[62].

عندما بدأ فيصل فترة النقاهة، كان مستقبله السياسي محلَّ نقاشٍ بين المقيمية البريطانية في بغداد ومكتب المستعمرات. كتب كوكس في رسالته بتاريخ 27 آب (أغسطس) إلى تشرشل، «من الواضح من ناحيةٍ أنه إذا نأى بنفسه عن الإجراءات التي اتخذتها، فيجب على أحدنا أن يتنحى عن المشهد. ومن ناحيةً أخرى، إذا وافق علانيةً على أفعالي، فإن هذا الإجراء سيضعه نظرياً في صفنا... لديه الآن فرصةٌ أخيرة لتغيير موقفه، والظهور إلى جانبنا علانيةً من خلال الإعلان العام أن الخطوات التي اتخذها المفوض السامي تحظى بموافقته ودعمه». ثم واصل كوكس في محاولة أخرى لفك شيفرة شخصية فيصل: «لا يبدو لي أنه يمتلك أياً من الصفات الضرورية التي تجعله ملكاً صالحاً. إنه ضعيف أخلاقياً وغير مستقر. يعطي كلمته ويتملص من الوفاء بها بالقدر نفسه من الاستعداد. إنه داهيةٌ ودسَّاسٌ بارع وحكم سيءٌ للغاية على الرجال... إنه يطمح بمساعدة حاشيته إلى أن يصبح مستبداً لا يُقاوم»[63]. كان الهدف من تحليل كوكس لنقاط الضعف الشخصية المفترضة لفيصل هو الحدُّ من سلطاته وتقليل تأثير حاشيته وتحويله إلى ملكٍ دستوريٍّ سهل الانقياد. كانت رسالة كوكس تنطوي على تبجُّحٍ جزئياً، حيث كان البريطانيون لا يزالون بحاجةٍ للعمل مع فيصل. وكانت سياستهم تجاه العراق برمَّتها قائمةٌ على سيطرةٍ غير مباشرة، تُمارَس من خلال تحالفٍ مع الملك. وكان التراجع عن هذه السياسة بمثابة تراجعٍ كارثيٍّ ومهينٍ لبريطانيا عن موقفٍ راهن عليه الكثير من اللاعبين بسمعتهم وحياتهم المهنية.

لم يكن تشرشل ميّالاً كذلك لفرض رحيل فيصل، على الرغم من مخاوفه بشأن ليونته. فوافق على الخطوط العريضة لسياسات كوكس تجاه فيصل، والعمل معه كشخصيةٍ تائبة بدلاً من السعي لإزاحته من ملكية العراق. وأرسل برقيةً إلى كوكس في 29 آب (أغسطس) 1922، «يجب أن نوضِّح له [فيصل] أننا لن نسمح لعناده بتدمير سياستنا بأكملها... لقد تم إحضاره إلى العراق ليس ليلعب دور المستبد ولكن للاستقرار كملكٍ دستوريٍّ رصين وصديقٍ لنا»[64]. وتوقّع تشرشل في برقيةٍ لاحقة أن فيصل سيفقد تاجه للمرة الثانية إذا أجبر البريطانيين على الانسحاب من شبه الجزيرة العربية وتركوها تحت رحمة ابن سعود.

زار كوكس الملك في 10 أيلول (سبتمبر) 1922 خلال فترة نقاهته، مسلحاً بدعم لندن لأفعاله وسياساته، وأخبره بعباراتٍ لا لبس فيها أن الحكومة البريطانية لن تؤيد أي تأخيرات أخرى لتوقيع المعاهدة ولن تقبل مداعبته للمعارضة. ويجب عليه أن ينأى بنفسه عن أفعاله السابقة وأن يُظهر

دعمه لقرارات كوكس. وأنه لا يستطع إلا الرد بأنه اتخذ الإجراءات التي قام بها لأنه لا يوجد إطارٌ دستوري يمكنه العمل من خلاله، وأن الحكومة كانت هيأةً منقسمة. وأنه بمجرد وضع معاهدةٍ ودستور، سيكون عندئذٍ قادراً على التصرف وفقاً لشروطهما. ثم سلّم كوكس لفيصل مسودة خطابٍ نصه: «الآن بعد أن شاءت العناية الإلهية أن استرد صحتي وسمح لي مستشارَيَّ الطبيين بالتعامل مع شؤون الدولة، أشعر أن من واجبي قبل تولي مقاليد الأمور أن أتقدم لسعادتكم بخالص شكري وأعبر لكم عن تقديري للسياسة السريعة والتدابير اللازمة التي اتخذتموها بصفتكم ممثلاً لحكومة جلالة الملك من أجل الحفاظ على المصلحة العامة وحفظ النظام والسلام خلال تلك المصادفة الفجائية لمرضي المفاجئ والفترة الفاصلة بين استقالة حكومةٍ وتشكيل حكومةٍ أخرى». وقّع فيصل على الرسالة، ووافق على تشكيل حكومةٍ أخرى برئاسة النقيب. وقد انتزع بعض التنازلات من كوكس، لا سيما أن تعيين النقيب سيكون لفترةٍ قصيرة، لأن فيصل رأى النقيب مديناً بالفضل للمصالح البريطانية ولا يزال غير متأكدٍ من مدى ولائه للملك.

أقنع فيصل كوكس كذلك بأنه يجب أن يكون له مطلق الحرية في ترشيح كبير أمنائه وحاجبه، وألا يترك اختيارهم لمجلس الوزراء، الذي اقترحه كوكس سابقاً. وفي 13 تشرين الأول (أكتوبر) نُشرت المعاهدة في بغداد حاملةً توقيع الملك، وأصدر فيصل بياناً للشعب، وأشاد بالمعاهدة لأنها كانت، كما هي، قائمةٌ على المصلحة المشتركة بين العراق وبريطانيا، ووعد بأنها ستعود بفوائد كبيرةٍ على العراق. لقد كان انقلاباً ضرورياً في الموقف من جانب فيصل. ولم يكن هناك شكٌّ في أنه كان يستطيع أن يحافظ على موقفه الملتبس، بالنظر إلى أن لندن قد واجهته بتحدٍّ لا لبس فيه. وكان يمكن أن تكون معركةً غير متكافئة، فقد كان عليه أن يعيد تأكيد تحالفه مع البريطانيين إذا ما أراد لحكمه الهش أن يستمر. وأي استمرارٍ لسياساته في تشجيع المعارضة المناهضة للانتداب محكومٌ عليه بالفشل الآن. فالمعارضة قد دُحِرت ونُفي قادتها وأُغلقت صحفها. وكان فيصل مصمماً على إلا يفقد تاجه مرةً أخرى. لقد اقترب من ذلك كثيراً في آب (أغسطس) 1922. وكان عليه الآن تغيير تكتيكاته بشكلٍ ملحوظ، لكن هدفه ظل كما هو.

وكما كان الحال في سوريا، فعندما أصبحت خطوط القتال واضحة المعالم، اختبأت المعارضة الأكثر صخباً. يروي فيصل حادثةً معبرةً للريحاني، متأمّلاً في تلك الأوقات الصعبة. «اعتاد الناس قبل مرضي أن يأتوا إليَّ بحماسٍ كبير معلنين: «ارفع العلم، نحن رجالك، وسوف نضحي بحياتنا من أجلك!»... ثم استذكر قصة أحد هؤلاء الفدائيين [الغيورين الذين يضحون بأنفسهم] الذي كان من أعظم قادة المعارضة وأعلاهم صوتاً، لكنه اختفى قبل أن يبدأ كوكس في نفي قادة المعارضة. وكان قد عاد مؤخراً وجاء ليهنئ الملك على سلامته. سأله الملك: «وماذا فعلت مع البريطانيين؟ أجاب الرجل على الفور، ودون تردد: «قالوا لنا إنهم قد نفوك، لذلك التزمنا الصمت»[65].

هوامش الفصل التاسع عشر

1. معظم المعلومات عن حياة كوكس مستمدة من سيرته الذاتية الرسمية: فيليب جريفز، حياة السير بيرسي كوكس، هاتشينسون، لندن وملبورن، 1941.
2. التايمز، 22 شباط (فبراير) 1937.
3. وثائق القصر الملكي، ملف 11 / K، وثيقة رقم 264، مقتبسة في علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 121 ـ 22.
4. FO371، 6347 / E12643، كوكس، بغداد إلى تشرشل، لندن، 28 أكتوبر 1921. أيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص 74.
5. عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق. المجلد. 1، ص 77.
6. أنظر توفيق السويدي، مذكّراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، 2011، ص 76 ـ 77. ينحدر توفيق السويدي من عائلة بغدادية عربية سُنّية بارزة تعود أصولها إلى الخلفاء العباسيين. ولد في بغداد عام 1892 وأكمل تعليمه القانوني في اسطنبول قبل أن يلتحق بدراسات متقدمة في جامعة السوربون. حضر في اجتماعات المؤتمر العربي في باريس عام 1913. كما ترأس المؤتمر العراقي الذي عقد في دمشق عام 1920، حيث رشح عبد الله ملكًا على العراق. شغل مناصب عليا في حكومة فيصل، وترقى إلى منصب رئيس البرلمان العراقي في السنوات الأخيرة من حكم فيصل. وفي وقت لاحق، شغل عدة مناصب وزارية وأصبح رئيساً للوزراء لأول مرة عام 1946. وكان من أشد المؤيدين للنظام الملكي والتحالف الغربي حتى الإطاحة به عام 1958. توفي في بيروت عام 1968.
7. عندما تم رفع العلم لأول مرة في هذه المواكب، تم حمله جنبًا إلى جنب مع رايات أعداد الإمام الحسين. ومن بين كل الناس، لاحظ ساطع الحصري ذلك وأمر أن يسير صاحب العلم الجديد إلى جانب أتباع الإمام الحسين. لم يكن فيصل على علم بما كان يحدث، لكنه وافق مُرحباً عندما عُرض الأمر عليه. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 128 ـ 130.
8. علي بازركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، مطبعة أسعد، بغداد، 1954، ص 177 ـ 179. تبيّن أن بابان كان اختيارًا ممتازًا وأصبح معروفًا باهتمامه برفاهية وسلامة الحجاج الزائرين.
9. عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد. 1، ص 80 ـ 82. كانت خلفية الغارة معقدة، حيث اشتملت على رغبة ابن سعود في انتزاع الزكاة من القبائل العراقية، ونزاعًا مع شيخ عشيرة متهم بالاختلاس، وقد لجأ وقبيلته إلى ابن سعود. وأصبح هذا الشيخ في طليعة جماعة الإخوان المسلحين.

10. وثائق القصر الملكي، ملف رقم T / 4 / 5A، وثيقة 60.

11 ـ كان من بينهم ساسون أفندي [حسقيل]، وزير المالية، الموالي بشدة لبريطانيا. ومع ذلك، لم يقبل فيصل استقالته.

12. كان معنياً بشكل خاص بفقدان ماء وجه عبد اللطيف المنديل من البصرة، المعروف بميوله المؤيدة للسعودية.

13. HC 16782/21/CO 730. من بغداد إلى SS للمستعمرات، 7 أبريل 1922؛ أيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص 86.

14. محمد مهدي البصير، مرجع سابق، ص 202 ـ 203.

15. إن البرقيات الأصلية للخالصي لدعوة القادة والوجهاء تم احتجازها في مكتب التلغراف بأوامر من المفوضية. وبعد ثلاثة أيام وبضغط من الرأي العام أبدوا مرونة وأرسلوا البرقيات. محمد مهدي البصير، مرجع سابق، ص 203.

16 .CO 730.1922 /21724/21، 15 أبريل

17. نور مصالحة، مرجع سابق، ص 87.

18. الاستقلال، 6 نيسان (أبريل) 1922. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 144.

19. خالد عابد محسن، مرجع سابق، ص. 161، الحاشية 63، نقلاً عن 25338/35/CO 730، 28 أبريل 1922.

20 ـ جريدة دجلة بتاريخ 16 نيسان (أبريل) 1922.

21. خالد عابد محسن، مرجع سابق، ص 152 ـ 155.

22. تم العثور على هذا الالتماس في أوراق القصر الملكي، غير مؤرخ وغير موقع. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص. 151، الحاشية 73.

23. عبد العزيز القصّاب، من ذكرياتي، اصدارات عويدات، بيروت، 1962، ص 217.

24. 7770/FO 371، 29 أبريل 1922.

25. فيليب جريفز، حياة السير بيرسي كوكس، هاتشينسون، لندن، 1941، ص 322 ـ 323.

26. فيليب ايرلند، مرجع سابق، ص 340.

27. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة في 4 كانون الأول (ديسمبر)، 1921.

28. CO 730 ،37877/23/High Commissioner to SS for Colonies4 ، December 1921.

29. CO 730 ،10151/20/High Commissioner to SS for Colonies27 ، February 1922.

30. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص. 126.

31 ـ ويضيف الريحاني أن كل هؤلاء الأعداء أصبحوا فيما بعد أصدقاء للعراق بفضل دبلوماسية فيصل.

32. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 126 ـ 127.

33. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 127 ـ 128. كانت السيدارة نوعًا من أغطية الرأس، قدّمها وروّج لها فيصل، وكانت تُعرف أيضاً باسم الفيصلية. تم ارتداؤها على نطاق واسع في العراق في عشرينيات القرن الماضي وحتى الأربعينيات. كان من المفترض أن تحل محل الطربوش العثماني، وتجنب الرأس الحاسر. كان يُنظر إلى القبعة على أنها أوروبية للغاية بينما كانت للسيدارة فضيلة كونها متحفظة ومميزة. كان نوعًا من القبعة الأمامية والخلفية التي يرتديها الجيش.

34. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص. 128.

35. ولد محمد الصدر في عائلة الصدر المشهورة بتعليمها الديني في الكاظمية في 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1883. والده السيد حسن الصدر كان مجتهدًا معروفًا. درس محمد الصدر في مدارس النجف الأشرف، وأصبح من قيادات الحركة الوطنية الوليدة، مما ساعد على تشكيل حزب أولياء الاستقلال، وأصبح رئيساً له. شارك في ثورة 1920، وهرب إلى القاهرة ثم جدة. عاد إلى العراق مع فيصل في حزيران (يونيو) 1921. ونُفي لاحقًا إلى إيران، لكنه عاد ليصبح عضوًا في مجلس الشيوخ الذي ترأسه لفترة طويلة. تولى رئاسة الوزراء مرة واحدة عام 1948. وتوفي في نيسان (أبريل) 1956.

أما حمدي الباجه جي فقد وُلد عام 1886 سليل عائلة البغدادي المعروفة. التحق بالكلية الإدارية في اسطنبول وتخرج منها عام 1905. شغل عدة مناصب إدارية في العراق العثماني، لكنه كان مقرباً من الحركة القومية العربية وانضم إلى جمعية العهد. تم نفيه إلى جزيرة هنجام في عام 1922 نتيجة لتحركاته القومية. وبعد عودته إلى العراق عام 1923، أصبح عضوًا في البرلمان وتقلّد مناصب وزارية مختلفة في عشرينيات القرن الماضي وما بعدها. وفي عام 1944 شكل أول حكومة له كرئيس للوزراء. توفي عام 1948.

36. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد 6، ص 164.

37. CO 730 ،18047/21/Churchill to Cox20 ، April 1922.

38. 730 15491/20/CO، فيصل إلى كوكس، 9 آيار (مايو) 1922. أيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 84.

39. غيرترود بيل، مرجع سابق، خطاب 4 حزيران (يونيو) 1922.
40. المرجع نفسه، الرسالة المؤرخة 22 حزيران (يونيو) 1922.
41. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 125.
42. غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 8 حزيران (يونيو) 1922.
43. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 173 ـ 74؛ CO 730/23/37397، HC إلى SS للمستعمرات، 28 يوليو 1922.
44. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 138.
45. غيَّب أبو التمن نفسه عن اجتماع الوزارة ثم استقال. غضب النقيب بسبب عدم التزامه وقبل استقالته. وربما كان فيصل هو من حرّض على استقالته.
46. CO 730 ،45283/24/Intelligence Report15 ، August 1922.
47. CO 730/23/37397، 29 تموز (يوليو) 1922. HC، بغداد إلى SS للمستعمرات.
48. CO 730/24/41134، كوكس، بغداد إلى SS للمستعمرات، 29 تموز (يوليو) 1922.
49. CO 730/24/43046، برقية رقم 608، خاصة، ملخص لموقف كورنواليس في إرسال من كوكس، بغداد إلى القوات الخاصة للمستعمرات، 28 آب (أغسطس) 1922.
50. CO 730/23/37397، من تشرشل إلى كوكس، 3 آب (أغسطس) 1922.
51 ـ واستفادت جميع الأحزاب من قانون سُنَّ أخيراً يجيز تشكيل أحزاب سياسية.
52. كان حسون يدير بقالة وكان معروفاً بحماسته في طقوس محرم.
53. يروي أمين الريحاني الحادثة بطريقة مختلفة تمامًا، حيث اعتلى المدرس المنصة لإلقاء خطاب ناري، متناسيًا دوره الرسمي كخادم للملك. ومع ذلك، لم يتم دعم هذه الرواية من قبل مصادر عراقية أو بريطانية أخرى.
54. ألقى المدرس في وقتٍ لاحق باللوم على رستم حيدر لفصله، واتهمه بالعمل سراً مع البريطانيين. خيري العمري، شخصيات عراقية، آفاق العربية، بغداد 1957، ص 55.
55. السير هاري سيندرسون باشا، ألف ليلة وليلة، Hodder & Stoughton، لندن، 1973، ص 66 ـ 67. وكان الطبيب العراقي، صائب شوكت، حاضرًا أيضاً، وأشار إلى أن التشخيص الصحيح يعود له وليس لسيندرسون. زعم شوكت أن التشخيص المبكر لسندرسون كان الملاريا. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص. 190.
56. هاري سيندرسون، مرجع سابق، ص 67.
57. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص 118 ـ 119.

58. فيليب جريفز، مرجع سابق، ص 317.

59. هاري سيندرسون، مرجع سابق، ص 68.

60. علي الوردي، مرجع سابق، المجلد. 6، ص 193 ـ 194.

61. هاري سيندرسون، مرجع سابق، ص 69.

62. قام مؤيد ياسين السابق بتسليم الوثيقة إلى رئيس الأمن العام، في إشارة إلى مكمن ولائه الحقيقي.

63. CO 730/24/43045، HC بغداد إلى SS للمستعمرات، 27 آب (أغسطس) 1922، برقية 607.

64. CO 730/24/43045، SS للمستعمرات إلى HC بغداد، 27 آب (أغسطس) 1922، برقية 492.

65. أمين الريحاني، مرجع سابق، ص ص 122 ـ 123.

الفصل العشرون: ثورة آيات الله

بعد تجاوزه الأزمة التي كادت تكلفه عرشه، اتبع فيصل نمطاً من التعامل مع بريطانيا أصبح السمة المميزة لحكمه في العراق. فقد كان نادراً ما يُشير إلى الانتداب، وتعامل معه بتجاهل، وكأنه غير موجود، فقد كان الانتداب، بالنسبة له، مجرد وصمة عار سيتم إزالتها في الوقت المناسب. وكان دواءً مرّاً، لا بد من ابتلاعه، بالنظر إلى أن بريطانيا مصممة على ضمان حقوقها في العراق بشكل قانوني. وقد قام ببذل قصارى جهده لتحدي المشروع البريطاني، بحماقة وطيش في كثير من الأحيان، ولكن في نهاية المطاف لم تتمكن التركيبة غير المستقرة من القوى المحلية المعارضة للمعاهدة من الاستمرار في مقاومتها. فيما تحطمت مناورات فيصل المعقدة أمام التصميم البريطاني الثابت على تأكيد العلاقات التعاقدية. كانت تلك المعركة قد انتهت الآن وتعلم فيصل درساً قيماً. كان شغله الدائم هو التحقيق والاختبار، على أمل أن يشكل حدود الحالة البريطانية في العراق، لكنه لم يستطع تجاهل قوة بريطانيا أو فهمها لمصالحها الأمنية الخاصة. ومع ذلك، كان بإمكانه الضغط نحو تقييد نفوذ البريطانيين في سياق زيادة سلطته، محلياً في البداية ثم دولياً.

لقد كان من العبث محاولة تحدي سلطة بريطانيا بشكل مباشر، ما لم يتم تمهيد الأرضية بعناية بشكل مسبق. وإلا فسيتم التصدي لهذه المحاولة، مما يهدد الغايات التي كان فيصل يرجوها. والأمر الأكثر أهمية كان التزام البريطانيين بوعودهم لدعم قبول العراق في عصبة الأمم، كدولة مستقلة ذات سيادة، في أقصر فترة ممكنة.

كما أسهمت الأزمة في خلق فهم أفضل من قبل فيصل للمشهد المحلي والسياسي والاجتماعي المعقد في العراق. فالحركة المناهضة للمعاهدة كانت تستند إلى أرضية مشتركة ضيقة للغاية وهي مقاومة الحكم البريطاني، ولكن كانت هناك انقسامات عميقة داخل المجموعات العديدة التي كانت تتألف منها المعارضة. فقد كانت السلطة الدينية الشيعية تعارض بشدة أي صيغة غير إسلامية للحكم، لكن آيات الله العظام أنفسهم في النجف وكربلاء كانوا منقسمين بشأن المدى الذي ينبغي أن يدعوا فيه إلى مقاومة النظام الناشئ. حتى أن البعض كان يُفضّل الحكم الملكي، باعتباره الأكثر ملاءمة لدولة إسلامية[1]. وكان الجناح الذي يقوده آية الله مهدي الخالصي مسيساً بشدة، ويرفض أي شكل من أشكال الوصاية الأجنبية. لقد كان هذا الجناح هو الذي سعى

إلى تجاوز الانقسامات الطائفية نوعاً ما، وبناء قضية مشتركة مع مكونات أخرى من المعارضة. كما كان هذا الجناح أيضاً هو الأكثر غموضاً فيما يتعلق بحكم الملك الهاشمي، وكان هناك عداء عميق تجاه فيصل نفسه من جانب محمد الخالصي، نجل آية الله.

كما كانت المجموعات القبلية تعاني من انقسامات شديدة. فقد كانت قبائل غرب وشمال غرب العراق، بقيادة علي سليمان، لا تخجل من إظهار ولائها لبريطانيا، كحال عدد من نظرائهم في المناطق الجنوبية من البلاد. كما كان موقفهم من الملك يعتمد على ما يراه البريطانيون أو يخبرونهم به. ومع ذلك، يبدو أن زعماء القبائل التي قامت بثورة عام 1920 في وسط وادي الفرات قد تصالحوا مع النظام الجديد وانجذبوا نحو فيصل باعتباره أفضل فرصة لهم لتحقيق التقدم. ومن الغريب أن القبائل الجنوبية الأخرى رأت في البريطانيين حماةً لهم من زعماء القبائل الشرسين الذين كانوا يستولون على أفضل الأراضي الزراعية لتحقيق مكاسب شخصية. وكان قادتهم متحالفين مع الحكومة والطبقة السياسية الناشئة التي كانت لديها القدرة على منحهم هذه الأراضي التي تم الاستيلاء عليها.

لم تكن السلطة الدينية السُنّية، التي كانت أضعف بكثير لأنها تاريخياً كانت تعتمد على الدولة العثمانية، قد حسمت موقفها. وكان أفضل خيار أمامها هو إقامة سلطة سُنّية لا جدال فيها في بغداد، يمكن لأعضائها أن يستمدوا منها سلطتهم وامتيازاتهم. أما الوجهاء السُنّة في المدن، وهم الفئة الأكثر استفادة من الإمبراطورية العثمانية، فقد أصبحوا الآن تائهين، وأيدوا الانتداب بشكل كبير في انتظار تطور النظام السياسي. قلة قليلة انضمت إلى الجماعات العربية السُنّية القومية التي كانت تطالب بإنهاء الحكم البريطاني. ففي نهاية الأمر، فإن قادة هذه المجموعات، الذين أتوا خلفيات متواضعة، لم يكونوا جديرين بجذب أبناء العائلات الكبيرة في الموصل وبغداد. فقد كان الأفندية القوميون المقيمون في المدن ينحدرون بشكل أساسي من المهن والحرف الجديدة: المحامون والصحفيون والموظفون. وهم وإن كانوا يطالبون بالاستقلال مدفوعين بحس قومي صادق، لكنهم كانوا أيضاً باحثين جائعين عن منصب، يتنافسون على مواقع السلطة والنفوذ في الدولة الجديدة. كان فيصل إما العدو اللدود الذي فرضته الدول الأجنبية عليه، أو الحليف الذي يمكن أن يقودهم إلى أرض الاستقلال الموعودة ـ أو الوظائف.

وأخيراً كانت هناك القضايا الإقليمية، الداخلية والخارجية، العالقة والتي كان حلها مسألة حيوية لهوية العراق: فهناك الدعوات المتصاعدة لنيل الحكم الذاتي، وصولاً إلى الاستقلال، في البصرة؛ والوضع الغامض لكردستان. والسيطرة على ولاية الموصل السابقة. ففي كردستان اندلعت انتفاضة خطيرة بقيادة الشيخ محمود برزنجي، والذي أعلن نفسه ملكاً، ولم يكن يطالب بأقل

من الاستقلال التام. وكانت المطالبات الكمالية(*) بشمال العراق ضاغطة، وبدأت تتجسد الآن في شكل غارات مسلحة أكثر تواتراً على تلك المناطق. كما شكّلت نجاحات الكماليين ضد الغزاة اليونانيين حافزاً قوياً لجمهور عريض داخل العراق ممن كانوا يُفضّلون عودة الحكم العثماني. قد يكون لكل من هذه الاهتمامات الإقليمية تأثير عميق على شكل البلد الذي كان سيصبح العراق، وعلى خليط سكانه وفرصه في الاستقرار والبقاء. كما واجه فيصل أيضاً سلطة فرنسية معادية في سوريا والتهديد الذي يشكله الوهابيون في نجد. أما إيران، التي خرجت للتو من فوضى الثورة والحرب، فقد كان موقفها تجاه الدولة الجديدة يتسم بحذر شديد، نظراً لوجود خلافات حول الحدود بين البلدين ومعاملة الرعايا الفرس في العراق. أما جنوباً، فكانت مملكة الحسين في الحجاز تترنّح في ظل تهديدات ابن سعود، وتحت وطأة سوء الإدارة والأزمة المالية المستمرة التي ضربت حكومتها. لم تكن تلك بالبيئة المواتية لبناء دولة حديثة، أو لتحدي علاقات العراق مع داعمه العسكري والدبلوماسي الوحيد، بريطانيا.

تم تشكيل حكومة جديدة برئاسة النقيب في 2 تشرين الأول (أكتوبر) 1922، حيث تولى السعدون فيها وزارة الداخلية ذات الأهمية الخاصة. على الرغم من أن النقيب قد وقّع على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية، إلا أن الوثيقة لا تزال بحاجة إلى التصديق عليها من قبل المجلس التأسيسي. كما سيكلف المجلس بالمصادقة على الدستور العراقي، ما يسمى بالقانون الأساسي. في 20 تشرين الأول (أكتوبر)، صدرت الأوامر إلى حكام الألوية للتحضير لانتخابات المجلس التأسيسي. لكن المتاعب كانت بانتظار فيصل عند الزاوية.

لم تنجح إجراءات كوكس الصارمة ضد المعارضة في احتوائها بشكل نهائي. وبدلاً من ذلك، انتقلت القيادة العامة للحركة المناهضة للمعاهدة الآن إلى مجتهدي الكاظمية والنجف. من المعتاد أن يتصدى كبار المجتهدين لقضايا الساعة بالرد على أسئلة أتباعهم الذين يطلبون الإرشاد الديني والاستجابة والموقف المناسب لمثل هذه الأمور. في بعض الأحيان يتم تأطير الأسئلة نفسها من قبل أتباع المجتهد للحصول على فتوى أو حكم ليتم نشرها بعد ذلك. وعادة ما تكون الإجابات موجزة بعبارات مقتضبة تركز على الأساس الفقهي لإجابات المجتهد. في 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1922، وجهت مجموعة من أتباع آيات الله العظمى في النجف وأتباع آية الله الخالصي رسالة إليهم تطالبهم بتأكيد فتواهم بتحريم أي مشاركة في أي انتخابات للجمعية التأسيسية. استجاب كل من آيات الله العظمى بطريقته الخاصة، لكنهم اتحدوا جميعاً في التأكيد على تحريمهم المطلق للمشاركة في مثل هذه الانتخابات. لقد اعتبروا جميعهم المشاركة، أو

(*) نسبة إلى تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك. (المترجم)

المساعدة في مثل هذه الانتخابات، من أفظع أعمال الحرابة: «إعلان الحرب على الله ورسوله»[2]. وذهب بعض آيات الله إلى أبعد من ذلك. وأعلن آية الله العظمى الأصفهاني أن من شاركوا في الانتخابات مرتدّون[*]، يجب على زوجاتهم هجرهم فوراً. وانتشرت الفتاوى على نطاق واسع، وحفّزت لقيام احتجاجات في الشارع ضد الانتخابات المقبلة.

لم يكتفِ آية الله الخالصي بمهاجمة الشرعية الدينية للانتخابات، بل شنّ هجوماً على البريطانيين وعلى من اعتبرهم عملاء لهم في الحزب الحر الذي يترأسه ابن النقيب[3]. وفي حالة من التنسيق غير المسبوقة، أصدر جميع مجتهدي الكاظمية تقريباً، وبعضهم من خصوم الخالصي، فتاوى متشابهة الصياغة. وكان الخالصي حينها قد بدأ بمهاجمة فيصل شخصياً، متهماً إياه بخيانة التعهدات التي قطعها له عند وصوله إلى العراق لأول مرة. وقال الخالصي لمجموعة كبيرة اجتمعت في حوزته العلمية: «لقد بايعنا فيصل ليصبح ملكا على العراق ولكن بشروط. وها قد أخل بهذه الشروط، وبالتالي لم تعد البيعة التي منحناه إياه نحن والشعب العراقي قائمة»[4].

عبد المحسن السعدون

شكّلت تصريحات الخالصي إهانة واضحة لفيصل، إلا أن النقيب أصيب بالذعر من موجة الاحتجاجات المتصاعدة التي غالباً ما استهدفته شخصياً. حتى أن بعض المنشورات اتهمته بالردة، وهي إهانة خطيرة توجه إلى رجل تقي كان يترأس جماعة دينية. ربما كان النقيب يخفي تطلعه للبقاء في المنصب ـ فقد كتبت بيل أن «النقيب لن يغادر منصبه إلا إذا تم حمله وقدميه إلى الأمام» ـ لكن حجم التأييد له كان يتضاءل. لم يكن فيصل يكن إعجاباً خاصاً بالنقيب، وشن حملة لإضعافه[5]. كما أراد البريطانيون شخصية أقوى وأكثر نشاطاً في المنصب قادرة على تنفيذ أوامرهم، وكان السعدون هو الشخص الذي يبحثون عنه. استقال النقيب بعقلانية، وفي 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1922، أصبح السعدون رئيساً للوزراء. التزمت المقيمية البريطانية الصمت بشكل مثير للريبة بشأن الصعوبات التي واجهها النقيب، الأمر الذي يشير إلى أنه في الواقع قد تم التخلي عنه. أراد فيصل أن يكلف مساعده المقرب جعفر العسكري بتشكيل الحكومة الجديدة، لكن مكتب المقيم قد منع ترشيحه، لأنه اعتبر أنه شخص ضعيف.

كان عبد المحسن سليل عائلة السعدون المتنفذة، أمراء قبائل المنتفق في جنوب العراق[6]. كان آل السعدون يتوارثون الإمارة، ويحكمون كعرب سُنّة، وعلى غير العادة، العشائر ذات الغالبية

(*) المرتدّ أشد من الكافر في عدد من المذاهب الإسلامية، فهو يُستتاب، أي يُعرض عليه الاقلاع عن أفكاره والعودة إلى دينه، فإن لم يرجع إلى الإسلام، يُقتل. (المُراجع).

الشيعية. غالباً ما اصطدمت قوتهم وطموحاتهم بالسلطات العثمانية، وتضاءلت سلطتهم اعتماداً على قوة الدولة العثمانية في فترات تاريخية معينة. ولد عبد المحسن السعدون عام 1879 في الناصرية بجنوب العراق، وكان من المستفيدين من السياسة العثمانية لتعليم أبناء شيوخ القبائل المهمين في مدارس اسطنبول الحديثة. ومن ثم التحق لاحقاً بالكلية العسكرية في إسطنبول وتخرج منها برتبة ملازم، لكن خدمته في الجيش لم تمتد طويلاً، واستقال بعد ثورة حزب الاتحاد والترقي. وأُنتخب مرتين لعضوية البرلمان العثماني كنائب عن منطقتي العمارة والمنتفق في العراق، لكنه كغيره من البرلمانيين العرب الذي ينتمون إلى المناطق القبلية، اختار الصمت في المناقشات البرلمانية. فقد كانوا يؤيدون بشكل عام سلطة الدولة الدائمة ولم ينحرفوا عن سياساتها أو تعليماتها بشأن كيفية التصويت عند انقسام البرلمان. بقي السعدون في اسطنبول طوال سنوات الحرب ولم يعرف عنه أي مواقف مناهضة للعثمانيين. وفي الواقع كما لم يكن مهتماً على الإطلاق بالحركات القومية العربية الوليدة في تلك الفترة. غادر السعدون الذي كان يتبع نمط الحياة والحديث التركي والمتزوج من تركية، اسطنبول متوجهاً إلى العراق في تشرين الثاني (نوفمبر) 1921، مباشرة بعد تدهور الأوضاع في العاصمة العثمانية إلى معارك بين فصائل متحاربة وحلّ البرلمان نفسه في عام 1919. وعادت العديد، من العائلات العراقية التركية التي بقيت في اسطنبول خلال الحرب، إلى ديارهم بعد استقرار الأوضاع في العراق[7].

كان السعدون شخصاً هادئاً، وكئيباً، ومتواضعاً ومنفتحاً على كافة أطياف الشعب العراقي وعلى خصومه السياسيين. حتى أن طبيعته المتسامحة شملت أولئك الذين سعوا إلى إلحاق الأذى الجسدي به. فعندما قام أحدهم بمهاجمته بسكين في عام 1926 وكاد يقتله، كان رده هو العفو عن قاتله المحتمل ومراعاة أسرته المحاصرة[8]. ولكن كان لديه أيضاً جانب صلب وحازم. وكان متشككاً في وطنية العراقيين، معتقداً أن الأمر سيستغرق وقتاً قبل أن يتحولوا إلى شعب واحد. وعندما يضاف ذلك إلى أعداء العراق الخارجيين، وهم كثر، ونقص الموارد المحلية، كان السعدون يعتقد أنه لا خيار أمام البلاد سوى التعاون الكامل مع البريطانيين. وعلى العكس من نظرائه السياسيين وخصومه، لم يخفِ السعدون تقييماته الحقيقية وراء واجهة من التبجح القومي. فأعلن صراحة التزامه بالتحالف البريطاني. وكان أيضاً محصناً من سحر فيصل، ولم يكن يشعر بالرهبة من مكانته أو حضوره.

بدأ السعدون العمل على تنظيم انتخابات المجلس التأسيسي، إلا أن العملية نفسها كانت ستواجه مشاكل جدية. ظاهرياً، كان من المفترض أن تكون الانتخابات حرة ونزيهة، لكن التعليمات صدرت إلى حكام الألوية للتخطيط لاختيار المرشحين الذين سيدعمون التصديق على المعاهدة. وكان فيصل على علم بهذه التعليمات السرية ودعمها بلا شك[9]. ومع ذلك، فإن فتاوى

المجتهدين الشيعة، والتي بدأت تلقى الدعم من قبل عدد من الشخصيات الدينية السنية[10]، كان لها تأثيرها على مدى استعداد الناس للمشاركة في الانتخابات. العملية نفسها، وهي عملية معقدة تتكون من مرحلتين، كادت المرحلة الأولى، التي تشمل انتخاب لجان إشرافية، أن تتعطل. فاستقالت اللجان في المدن المقدسة بعد نشر الفتاوى. وفي ألوية أخرى، أفاد المحافظون بأنه تم التخلي عن العملية لأن الناخبين امتنعوا عن ترشيح أنفسهم للجان الإشرافية. الأمر ببساطة هو أن الغالبية العظمى من الشيعة كانت تمتنع عن المشاركة في الانتخابات. حتى في بغداد، التي كان يقطنها غالبية من السُنَّة واليهود والمسيحيين، انهارت العملية، ولم يكتمل النصاب القانوني لانتخاب اللجنة الإشرافية. كما دعا الزعماء الدينيون المسيحيون في الموصل رعاياهم على مقاطعة الانتخابات[11].

شكّل تعطل العملية الانتخابية معضلة خطيرة لفيصل. فمن ناحية، كان ملتزماً بانتخاب جمعية تأسيسية التي كانت المنصة الضرورية لإضفاء سمة الشرعية والقبول الشعبي على كل من المعاهدة والإطار الدستوري لحكمه. ومن ناحية أخرى، لم يكن فيصل مستعداً في هذه المرحلة للدخول في مواجهة مباشرة مع المراجع الدينية الشيعية، وذلك خشية أن يؤدي ذلك إلى نفور الشيعة وكذلك خوفه من أن مثل هذه الخطوة قد تؤدي إلى أعمال عنف وانتفاضة جديدة. فحاول استرضاء المجتهدين من خلال تعيين الشخصية المعتدلة والتوافقية (علي جودت) متصرفاً لكربلاء، ولكن دون أن يكون لهذا تأثير يذكر. كما كان فيصل يعمل أيضاً على إضعاف سلطة آيات الله عبر السعي لإبعاد شيوخ القبائل عن أحضان المجتهدين. وفي رسالة إلى كوكس بتاريخ 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1922، يقول فيصل: «أنا على ثقة تامة من أننا إذا نجحنا في كسب هؤلاء الشيوخ وعزلهم عن العلماء الذين يعتقدون أنهم يدينون لهم بطاعة عمياء، فسوف نحصل على غايتنا بالفوز بالانتخابات والمصادقة على المعاهدة ومن دون مشاكل»[12]. وفي رسالة سرية إلى فيصل، بدا كوكس أنه يوافق على هذا النهج وأبدى استعداده للقاء الشيخ عبد الواحد آل سكر، أحد الشخصيات الرئيسة في ثورة 1920[13]، كما كانت هناك عوامل أخرى وراء ضعف الحماس المنتشر نحو الانتخابات، لا سيما الاعتقاد السائد بأن السجلات الانتخابية ستُستخدم في فرض التجنيد الإجباري. علاوة على ذلك، فقد كان التهديد التركي للعراق يتصاعد بشدة بحلول نهاية عام 1922، مما أثار الشكوك لدى الكثيرين من أن دولة العراق، التي هي قيد التكوين، قد تكون كياناً سريع الزوال سيطيح به الجيش التركي العائد[14].

ومع المقاطعة الواسعة للانتخابات والحاجة إلى الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية ضد الهجمات التركية المحتملة، كان فيصل يرى أنه من الحكمة عدم الضغط من أجل إجراء انتخابات مبكرة. وكانت الظروف في بريطانيا بنهاية عام 1922 تشهد تحولات تتطلب توخي الحذر. فقد

سقطت حكومة لويد جورج في تشرين الأول (أكتوبر) 1922، ومعها تشرشل كوزير للمستعمرات. وأرجأت الحكومة الجديدة التي ترأسها «بونار لو» التصديق على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية، ومما لا شك فيه أن قرارها بتأجيل التصديق قد تأثر بحملة صحفية صاخبة شككت في إنفاق بريطانيا الكبير في الحفاظ على وجودها في العراق والمطالبة بالانسحاب الفوري من البلاد. وفي منتصف كانون الثاني (يناير) 1923، تم استدعاء كوكس إلى لندن للتشاور مع وزير الدولة الجديد لشؤون المستعمرات، دوق ديفونشاير. وبقي بدلاً منه القائم بأعمال المفوض السامي السير هنري دوبس.

التهديد التركي

حقق مصطفى كمال سلسلة انتصارات ساحقة ضد الغزاة اليونانيين، وأستعاد مدينة سميرنا (إزمير) في أيلول (سبتمبر) 1922. وبدأت جيوشه بالزحف نحو مضيق الدردنيل، الذي كان محتلاً من قبل القوات الأنغلو ـ فرنسية حينها. ولاحت في الأفق بوادر حرب جديدة، إلا أن الرأي العام في بريطانيا وفي دول الكومونويلث كان يعارض بشدة البدء بالأعمال العدائية ضد مصطفى كمال. فتم إعلان هدنة بين القوات التركية والبريطانية في المنطقة، والتي مهدت الطريق فعلياً لمعاهدة جديدة مع تركيا، لتحل محل معاهدة سيفر غير الموقعة والتي لم تعد قائمة الآن. أدت هذه الحادثة، المعروفة باسم أزمة تشاناك، دوراً مباشراً في إسقاط حكومة لويد جورج. وفي الوقت نفسه عززت بشكل كبير من قوة مصطفى كمال، وأعطته الوسائل للضغط من أجل مطالبة تركيا بشمال العراق.

بدأ الأتراك في حشد قواتهم على حدود ولاية الموصل السابقة، في حالة تأهب للهجوم عليها، وربما الزحف وصولاً إلى بغداد حيث دقت أجراس الإنذار. كانت انتصارات الأتراك تحظى بشعبية كبيرة بين العراقيين، وكان هناك قلق حقيقي لدى قيادة الجيش العراقي المهزوزة من أن مصطفى كمال سيحوّل اهتمامه الآن ليس فقط لاستعادة ولاية الموصل ولكن العراق بأسره. لم يكن الجيش العراقي في وضع يسمح له بصد أي غزو من الشمال. وكان لدى فيصل المخاوف ذاتها وطلب من المفوض السامي تأكيداً بأن بريطانيا ستدافع عن العراق ضد أي غزو تركي[15]. كما قام بتمرير قائمة من المتعاطفين المعروفين مع القضية التركية إلى المقيمية البريطانية تمهيداً ترحيلهم. في الوقت نفسه، سعى لاستغلال الأزمة كفرصة سانحة لجعل البلاد تلتف حوله في مواجهة الضغوط الخارجية. فأرسل شقيقه زيد إلى الموصل في كانون الثاني (يناير) 1923 ليؤجج المشاعر القومية العربية في لواء فيه عدد كبير من السكان الأكراد والتركمان.

بحلول كانون الثاني (يناير) 1923 بدا الغزو التركي لشمال العراق وشيكاً. وكان الجيش التركي

قد فرض التجنيد الإجباري في سهول شمال سوريا وجنوب تركيا. كما قام الأتراك بتخزين كميات كبيرة من المواد الغذائية وطلبوا أكثر من ألفي قارب نهري. وشنّت القوات التركية هجمات على مواقع عسكرية بريطانية في المناطق الحدودية بين العراق وسوريا وعلى مهبط للطائرات عند بلدة زاخو الحدودية الكردية.

كتبت غيرترود بيل بخوف في يومياتها في 30 كانون الثاني (يناير) 1923 عن قدوم الأتراك. التقت بفيصل بعد ظهر ذلك اليوم. ودار الحوار مع فيصل حول ضرورة تجنب الحرب، ولكن وفي حال وصلت الأمور إلى هذا الحد، فإنه سيضحي بحياته دفاعاً عن البلاد. «اليوم، استدعاني جلالة الملك لتناول الشاي. لقد كان شجاعاً وجسوراً للغاية، لكنه كان متلهفاً، بطبيعة الحال، على معرفة ما إذا كنا مستعدين، كملاذ أخير، للدفاع عن بلاده، أو ما إذا كنا نريد ترك أمر الدفاع عنها عليه وحده. وقال أنه سيقبل بالاستفتاء إذا لزم الأمر، بشرط أن يشمل أيضاً المناطق ذات الغالبية العربية التي يسيطر عليها الأتراك الآن، مثل نصيبين وماردين، وأنه ينبغي سحب القوات المسلحة من كلا الجانبين بينما تشرف دولة محايدة على الاستفتاء. إلا أنه طلب منا أيضاً تقوية موقفه من خلال التخلي عن الانتداب، وان يكون موقفنا مستنداً إلى المعاهدة وحدها. وفي حال عدم قبول هذا الاقتراح، وفي حال كانت القوات البريطانية في خطر في الموصل... وإذا انسحبنا وتركنا العرب للدفاع عن أنفسهم، فسيذهب بنفسه إلى الحدود وسيضحي بحياته في المعركة الأخيرة»[16].

كان تأثير بيل في صياغة سياسة العراق يتراجع، ومع رحيل كوكس كان مقدراً له المزيد من التراجع. كان القائم بأعمال المفوض السامي، السير هنري دوبس، أقل اهتماماً بنصائحها مما كان عليه كوكس، على الرغم من أن بيل كانت تشيد بصفات دوبس. كما لم يعد فيصل بحاجة إلى توجيهاتها حيث أصبح أكثر إلماماً ببيئته، لكنه استمر في استقبالها كصديقة وكمراقب مطلع على المشهد السياسي العراقي. وكانت لا تزال مسؤولة عن تجميع التقارير الاستخباراتية الأسبوعية لمكتب المستعمرات، وكذلك كتابة التقارير السنوية للحكومة البريطانية التي تلخص الأحداث في العراق. لكنها استُبعدت تدريجياً من الشؤون السياسية، سواء من قبل المقيم أو القصر، الأمر الذي أزعجها بشدة.

استندت الدعاية التركية في العراق إلى المبادئ الدينية التي مفادها أن العراق كدولة مسلمة يجب أن يدعم إخوانه في الدين الأتراك، بدلاً من البريطانيين «الكفار». وكان هذا من المفارقات، بالنظر إلى ميول مصطفى كمال العلمانية تماماً ومحاولاته اللاحقة لاقتلاع موروث تركيا الإسلامي. ومع ذلك، فقد لقيت الدعاية التركية صدى قوياً في العراق وجذبت الفئات المتدينة التي لم تكن تهتم بالانتماءات القومية أو تقبل فكرة الدولة القومية تماماً. وأصدر المجتهدون فتوى نُشرت

على بوابات العتبة المقدسة في الكاظمية تحرِّم الدفاع عن البلاد في حال حدوث غزو تركي، الأمر الذي عُدّ تحدياً سافراً للحكومة والقصر وللمقيم.

أراد كورنواليس، بصفته مستشاراً لوزارة الداخلية، اعتقال المجتهدين المخالفين وترحيلهم باعتبارهم من الرعايا الفرس. إلا أن فيصل كان يتوخى الحذر. وكان لا يزال يأمل في إبقاء الخطوط مفتوحة مع المجتهدين، وخاصة آية الله مهدي الخالصي، أعلاهم صوتاً وأشدهم حماساً في معارضته للانتداب[17]. وكتبت بيل إلى والدها لتعبر عن سخطها فيما يتعلق بموقف فيصل المتساهل اتجاه آيات الله في مواجهة التهديد التركي:

في هذه الأثناء كان الملك (وهذا سري للغاية) يحاول الوصول إلى رجال الدين الشيعة ـ وهو أمر خاطئ للغاية ويناقض نصائح جميع أصدقائه المقربين، بمن فيهم رئيس وزرائه. فقد كانوا يلعبون لعبة أعمق من أن يعرف كيف يلعبها. وهذا الصباح تم إصدار فتوى تمنع الدفاع عن «العراق ضد الأتراك في مسجد الكاظمية» السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما الذي ينبغي على حكومة العراق فعله الآن؟ لقد تحدثت للتو مع السيد كورنواليس حول هذا الموضوع. ويعتقد أن عليهم ترحيل المجتهدين الموقعين على الفتوى إلى بلاد فارس ـ فهم جميعاً رعايا ايرانيين. بشكل عام، أميل إلى الاعتقاد بأنه سيتعين عليهم اتخاذ هذه الخطوة أو المضي قدماً نحو الانهيار، لكن يظل هذا القرار خطير للغاية. لو أن الملك ترك الأمور وشأنها وتجاهل المجتهدين! حتى الآن أتساءل عما إذا كان سيعترف بأنه قد هزم. مع اقتراب شهر رمضان، مع ما يثيره من حماس ديني ـ حسناً، علينا أن نسير في طريق وعر. قد تكون الأيام القليلة المقبلة حاسمة[18].

وقد شملت سياسة فيصل في استيعاب المعارضة، في هذا الوقت العصيب، المبعدين إلى جزيرة هنجام[*]. وكان فيصل قد ناقش قضية المبعدين مع كوكس قبل سفر الأخير إلى البحرين، حيث كان من المقرر أن يلتقي بابن سعود. وتم الاتفاق على السماح للمبعدين بالعودة إلى العراق إذا قدموا تعهدات خطية بأنهم يدعمون سياسات الملك فيما يتعلق بالمعاهدة الأنغلو ـ عراقية. وبعد عودته من لقائه مع ابن سعود، قام كوكس بزيارة جزيرة هنجام ووضع اللمسات الأخيرة على ترتيبات عودتهم.

كانت هنجام جزيرة جرداء أقام البريطانيون فيها محطة تقوية للتلغراف ومستودع للفحم. كانت المنازل الوحيدة في الجزيرة عبارة عن أكواخ للعمال في مستودع الفحم. وكانت هذه المساكن، المحاطة بالأسلاك الشائكة، تستخدم لإيواء المبعدين العراقيين خلال فترة وجودهم في المنفى. حيث كانوا يمضون وقتهم بالتنزه على الشاطئ خلال ساعات الصباح الباكر وفي

(*) جزيرة إيرانية في خليج هرمز. (المترجم)

المساء، عندما تكون الحرارة أكثر احتمالاً، تحت حراسة الجنود الهنود. لم يُسمح لهم بالتواصل مع أحد أو الحصول على أي مواد للقراءة[19]. ولدى وصول كوكس، كان المبعدون، باستثناء جعفر أبو التمن، قد سئموا الحياة في الجزيرة فوافقوا جميعهم على تقديم التعهدات الموقعة وعادوا إلى العراق في شباط (فبراير) 1923. وظل أبو التمن هو الساكن الوحيد لجزيرة هنجام، حتى سُمح له هو أيضاً بالعودة إلى العراق في أيار (مايو) 1923، بالرغم من رفضه تقديم أي تعهد. كان فيصل قلقاً من أن يصبح أبو التمن نقطة استقطاب للمعارضة الوطنية ورمزاً للمقاومة، على غرار سعد زغلول في مصر[20].

بحلول نيسان (أبريل) 1923، تراجعت المخاوف من الغزو التركي إلى حد كبير. وكان البريطانيون قد نجحوا في طرد القوات التركية من المناطق المحيطة بمدينة رواندوز شمال العراق، حيث أدت حملات القصف الممنهج لسلاح الجو الملكي البريطاني ضد المواقع التركية دوراً كبيراً في صد القوات التركية. وكان لابد من النظر إلى التقدم التركي في العراق في السياق الأوسع للمفاوضات الجارية في لوزان بين الحلفاء والحكومة الوطنية التركية فيما يتعلق بالحدود النهائية لتركيا. كان الأتراك يصرون على أن تكون ولاية الموصل بأكملها جزءاً من جمهورية تركيا الجديدة[*]. ومع ذلك، فإن درجة تورط بريطانيا في العراق لا تزال مثار قلق كبير لدى الرأي العام البريطاني، ولم يكن هناك أي تهاون في الحملة الصحفية، التي تقودها صحيفتي Daily Mail (الديلي ميل) وDaily Express (ديلي إكسبرس) البريطانيتين، للمطالبة بالجلاء عن العراق «وبالانسحاب الكامل»[21].

أعلن رئيس الوزراء السابق هربرت أسكويث في البرلمان في 20 شباط (فبراير) 1923 أن بريطانيا ليس لها مصالح حيوية في العراق، ويجب أن تنسحب على الفور. تصاعدت حدة الاحتجاجات عندما تم الكشف عن تكاليف الإبقاء على الوجود البريطاني في العراق للبرلمان. وأصدر بونار لو قراراً بتشكيل لجنة خاصة لتقييم التزامات بريطانيا في العراق. وتوصلت اللجنة إلى معارضة الانسحاب البريطاني الفوري، لان ذلك سيؤدي إلى انهيار «المملكة العربية في بغداد» وسقوطها بيد تركيا. سيكون من الخطير جداً السماح لتركيا بتهديد خطوط الاتصال بين بريطانيا والهند والعمل على استقطاب مسلمي الهند.

كان كوكس يحضر مداولات مجلس الوزراء التي تناولت قضية العراق طوال ربيع عام 1923. لم يكن بمقدور بريطانيا «الجلاء» عن العراق كما كانت الصحافة تطالب، وبالتأكيد ليس قبل ترسيم

(*) كانت ولاية الموصل في أواخر العهد العثماني تضم كركوك والسليمانية وأربيل ومدينة الموصل ومناطقها جميعاً، كتلعفر وسهل نينوى وغيرها. (المُراجع).

الحدود التركية العراقية. لكن ما يمكن فعله لتهدئة الصحافة المعادية إلى حد ما هو تقليص فترة المعاهدة الأنغلو ـ عراقية من عشرين عاماً إلى أربعة أعوام. وبناءً على ذلك، عاد كوكس إلى بغداد في 31 آذار (مارس) 1923، حاملاً معه «بروتوكول» معدل للاتفاقية ليقلص مدتها إلى أربع سنوات. كان هذا التطور نعمة كبيرة لفيصل الذي أشاد به، باعتباره انتصاراً كبيراً على طريق تقليص النفوذ البريطاني وتحقيق الاستقلال التام. وطالب البروتوكول بانضمام العراق إلى عصبة الأمم بعد انتهاء السنوات الأربع وبعد التوصل إلى تسوية نهائية مع تركيا. ومن ثم يتم إنهاء المعاهدة بالكامل. وفي 4 أيار (مايو) 1923، أصدر فيصل إعلاناً حماسياً للشعب العراقي. واستهل البيان قائلا: «بفضل الله وروح نبيه، تمكنت حكومتنا من اتخاذ خطوة كبيرة في تحقيق آمال الأمة». ومضى فيصل يشيد ببريطانيا كحليف مخلص وأساسي. ودعا الشعب إلى دعمه ودعم الحكومة، وشدد على أن الطريق بات مفتوحاً أمام دخول العراق إلى العصبة كدولة مستقلة[22]. كان الأمر الأكثر أهمية هو المضي في انتخابات المجلس التأسيسي وإصدار القانون الأساسي (دستور البلاد).

استئناف الانتخابات

كان فيصل يدفع بقوة نحو استئناف الانتخابات المتوقفة. وباشر برحلة طويلة وشاقة إلى جميع مناطق العراق الرئيسة، بما في ذلك الموصل والسليمانية والكوت والعمارة والبصرة وبلدات وادي الفرات الأوسط. وبدأ رحلته إلى الجنوب بالإبحار عبر نهر دجلة من بغداد في قارب نهري تابع لأسطول رجل الأعمال عبد القادر الخضري. وكان برفقة فيصل وزير العدل ناجي السويدي ورستم حيدر وآخرين. لكن كان هناك هدف آخر لرحلته، خاصة إلى المناطق الجنوبية. فقد كان آية الله الخالصي يستعد لإعادة إصدار الفتوى التي تحرم أي مشاركة في الانتخابات، وهو ما قد يطيح بالعملية الانتخابية بأكملها ومعها إدعاءات فيصل بأن العراق الآن يسير على طريق واضح نحو الاستقلال. أراد فيصل كسب ثقة الشخصيات القبلية البارزة في ثورة 1920 بما يتعلق بالانتخابات، وإقناعهم بأن البروتوكول كان إنجازاً كبيراً للبلاد. فدعمهم لن يؤدي إلى توسيع قاعدة المشاركة في الانتخابات فحسب، بل سيعزز شرعيتها أيضاً. كما يمكن لزعماء القبائل أن يؤدوا دوراً في سد الفجوة بين الحكومة والقادة الدينيين، الذين كانوا مصرين على رفضهم للانتخابات. لقيت طروحات فيصل بأن أفضل طريقة للمضي قدماً هي إجراء الانتخابات وسنّ القانون الأساسي قبولاً من جميع زعماء القبائل الذين التقى بهم تقريباً[23]. فيما ذكر السيد محسن أبو طبيخ، وهو الوحيد الذي أصر على التمسك بموقفه، أنه لا يستطيع الخروج عن الفتوى التي تحرم المشاركة في الانتخابات، ولكنه سيساعد في إيجاد أرضية مشتركة بين أحكام الفتوى وسياسات الحكومة[24].

وقام الملك بعد ذلك بإقناع كل من علوان الياسري وكاطع العوادي بزيارة آية الله مهدي الخالصي في محاولة لإقناعه بسحب الفتوى. إلا أن آية الله اتهمهم بالكفر. وفي وقت لاحق، وبعد أن رحل شيوخ العشائر عن آية الله لزيارة مرقد الإمام موسى الكاظم، حوصر الياسري وتم التعدي عليه من قبل حشد من الناس بتحريض من الخالصي. اضطر الياسري إلى الفرار من المكان بشكل مخزي.

وفي 17 أيار (مايو)، تم وضع منشورات على الأبواب الرئيسة لمرقد الإمام الكاظم، لتذكير الناس بالفتوى السابقة، بتحريم المشاركة في الانتخابات. حملت المنشورات توقيع حزب غير معروف يُدعى (الحزب المخلّص)، وهو جبهة تضم المجتهدين المعارضين. ذكرت المنشورات بأن «الحكومة تحاول خداع الناس ببروتوكول المعاهدة، وتبذل كل ما في وسعها لإجراء الانتخابات ومن ثم الدوس على فتوى المجتهدين. لذا احذروا أيها الناس ولا تنخدعوا»[25].

في 30 أيار (مايو) 1923، أعاد آيات الله العظمى التأكيد على فتواهم السابقة التي تحرم المشاركة في الانتخابات. وردا على استفسار من «أحد المؤمنين» بخصوص جواز المشاركة بالانتخابات، رد المجتهدون جميعا بتأكيد تحريمهم السابق. وقد ذهب آية الله الخالصي، كما كان معتاداً، إلى أبعد من ذلك بقوله إن المشاركة في الانتخابات كانت بمثابة «الردة» و«تعتبر بمستوى الشرك بالله».

أثار موقف آيات الله غضب «المقيمية البريطانية» و«السعدون». والاخير على وجه الخصوص دفع باتجاه المواجهة، وأطلقت الصحافة الموالية للحكومة حملة لتشويه سمعة المجتهدين. كان موقفها هو أن آيات الله كانوا رعايا ايرانيين وكأجانب لا يحق لهم التدخل في السياسة الداخلية في العراق[26]. وبالرغم من أن عدداً من آيات الله كانوا بالفعل من أصل ايراني، إلا أن العديد منهم، مثل آل الخالصي، كانوا في الواقع من العرب الذين يحملون الجنسية الفارسية. لقد حصلوا على هذه الوضعية أساساً لتجنب التجنيد في العهد العثماني. ومع ذلك، فإن الجنسية الايرانية لآيات الله كانت نقطة ضعفهم واستخدمها السعدون وحكومته للتحضير لاعتقالهم وترحيلهم.

في 17 حزيران (يونيو)، وبينما كان فيصل لا يزال ضمن جولته في جنوب البلاد، قرر مجلس الوزراء المضي قدماً وإجراء الانتخابات بعد عودة فيصل إلى بغداد. كما قرر معاقبة المعارضة بترحيل المجتهدين الثائرين من حملة الجنسية الايرانية ومحاكمة من يحملون الجنسية العراقية. وقبل ذلك بأيام قليلة، تم إضافة تعديلات على القانون الجنائي منحت الحكومة سلطة ترحيل المجرمين الأجانب.

لم يكن من الواضح ما إذا كان فيصل سيوافق على مثل هذه الإجراءات شديدة القسوة. ولا شك أنه كان على استعداد لزيادة الضغط على المجتهدين في حال كانوا متعنتين، وأثناء قيامه

بجولة في البصرة، قام بالتنديد بالمجتهدين الذين وقفوا ضد الانتخابات والمعادين للقضية العربية. وقال فيصل في كلمة ألقاها نيابة عنه ناجي السويدي، «إن الحكومة ستتخذ كافة الإجراءات القانونية ضد الأعمال الرامية إعاقة تحقيق الأمة لسيادتها البرلمانية. «وأشار فيصل في كلمة ألقاها في الحلة إلى إجراءات ستتخذ بحق من تآمر على مصالح الوطن «والقضية العربية»[27]. ولكن، كما أثبتت تصرفاته اللاحقة، كان يفضل اتباع نهج أقل تصادمية مع القيادات الدينية الشيعية.

في 21 حزيران (يونيو)، بدأت الحكومة في تنفيذ سياستها بشكل جدي. فقام رجال شرطة يرتدون ملابس مدنية باعتقال أحد أبناء شقيق آية الله الخالصي، بينما كان يقوم بتعليق منشورات تندد بالانتخابات على الباب الرئيسي لمرقد الإمام الكاظم. وبعد الاستجواب، اعترف الجاني، الشيخ علي تقي، بأن جميع المنشورات كانت تُطبع في حوزة الخالصي. أثناء حدوث ذلك، تم اعتقال أحد أبناء الخالصي، الشيخ حسن الخالصي، من قبل شرطي يرتدي الزي الرسمي لنشره منشورات غير مصرح بها. بدأ الشيخ حسن يصيح في المارة أنه يتعرض للاعتداء. فقام الحشد بجر الشرطي إلى فناء المرقد. وأشهر الشيخ حسن سكيناً وهدد بقتله، لكن في خضم المشاجرة تمكن الشرطي من الفرار[28]. كانت هذه إشارة كافية للشرطة للقبض على اثنين من أبناء الخالصي، وابن أخيه وشخص رابع، هو سليمان القطيفي، أحد المقربين من الخالصي. شجعت ردود الفعل الضعيفة على هذه الاعتقالات، الحكومة لتضع نصب عينيها على آية الله نفسه. في 26 حزيران (يونيو) صدر قرار بالقبض عليه.

رحيل آيات الله

لم يكن فيصل يكنّ حباً كبيراً لآية الله الخالصي. فقد قام بتحريض الشعب ضد الانتخابات، وها هو الآن يوجه فوهات بنادقه نحو فيصل. اشتهر آية الله بورعه وصلابة مواقفه. وكان فيصل سيوافق على نفي الخالصي، لو لا أنه كان يخشى عواقبه المحتملة. كان دوبس، الذي أصبح المفوض السامي في أيار (مايو) 1923، قلقاً بالقدر نفسه بشأن آثار ترحيل الخالصي. ومع ذلك، كان السعدون مقتنعاً بأن الحكومة قادرة على ترحيل آية الله، وأن الشرطة قادرة على احتواء أي رد فعل سلبي. قبل أن ينطلق فيصل في جولته الجنوبية، التي جرى توقيتها بحيث يتزامن غيابه صدفة مع الاعتقالات في بغداد، اتفق مع السعدون على شيفرة تشير إلى موافقته على الإجراءات التي ستتخذ ضد الخالصي. كانت الكلمة التي تشير إلى آية الله هي «دجاجة». بعد وصوله إلى البصرة، بدا وكأن فيصل قد قرر عدم نفيه. أرسل إلى السعدون برقية مشفرة نصها «اترك الدجاج وشأنه»، مشيراً إلى أنه يجب على الحكومة عدم اعتقال الخالصي. ومع ذلك، كان

السعدون عازماً على المضي قدماً في خططه، وكذلك المستشارون البريطانيون الذين أرادوا إبعاد آية الله عن الطريق[29].

أرسل السعدون برقية إلى فيصل يؤكد فيها أن أنشطة الخالصي وأنصاره تهدد مصداقية الدولة وأنه لا بديل عن إبعاده[30]. أعطى فيصل موافقته. ورد ببرقية: «إذا كان مثل هذا التصرف تجاه الشيخ [آية الله الخالصي] ضرورياً، فأنا أتمنى أن يتم ذلك بأقصى درجات اللباقة وبطريقة لا تمس كرامته الشخصية أو تسبب الكرب والخوف لعائلته». وفي برقية لاحقة، استبق فيصل رد الفعل العكسي الذي قد تسبب به هذه الخطوة بين آيات الله العظمى في النجف: «لديك تفويض كامل لاتخاذ الإجراءات المناسبة للحفاظ على أمن وهيبة الحكومة في بغداد والكاظمية. يجب أن يكون لديك خطة عمل محكمة. بعد [حملة الاعتقالات] في الكاظمية، أبلغوا المجتهدين في النجف عبر حاكم [قائمقام] النجف بكل ما حدث مع الخالصي... واطلب منهم الحفاظ على الهدوء والاستمرار في أداء واجباتهم الدينية. وأبلغهم مدى أسف الحكومة لاضطرارها لاتخاذ مثل هذه الإجراءات في ضوء الإجراءات السلمية التي كانت قد اتخذتها حتى الآن. أعلنوا عن هذه القرارات في الصحافة في الوقت المناسب»[31]. بعد أيام قليلة، وفي 25 حزيران (يونيو) 1923، أصدرت الحكومة بياناً اتهمت فيه المجتهدين المعارضين «أولئك الغرباء المتدخلين» بخداع الرأي العام والقيام بتصرفات تخالف الدين، وتدنس حرمة العتبات المقدسة.

في ليلة 26 حزيران (يونيو)، تم القبض على آية الله الخالصي في منزله، حيث لم يبد أي مقاومة. تم وضعه في عربة من عربات الدرجة الأولى في قطار خاص نقله مع أربعة من أفراد عائلته الذين تم اعتقالهم في وقت سابق، إلى البصرة. حيث مكث هناك في قصر آغا جعفر، قطب الشحن[*] المحلي، ومن دون قصد تم وضعه، في غرفة حارة وبلا تهوية، لكن سرعان ما تم تلافي الأمر، وفي 30 حزيران (يونيو) وُضع على متن باخرة متجهة إلى بومباي. وكان على متن السفينة رئيس الشرطة أحمد الراوي مع اثنين من عبيد فيصل، وهما سالم وبرجس. كانت تعليماتهم هي رعاية الشيخ وأصحابه حتى وصول السفينة إلى بومباي.

في بومباي، استقل الخالصي سفينة أخرى متجهة إلى لندن عبر عدن. تم منحه هو ومرافقيه تذاكر من الدرجة الأولى وتم تزويدهم بأموال وفيرة لتغطية نفقات رحلتهم. وصلت المجموعة إلى عدن، ومع قدوم موسم الحج قرر الخالصي وجماعته الذهاب لأداء الفريضة. فشقوا طريقهم إلى جدة على متن آخر سفن الحج التي تغادر عدن. وكان آية الله قد أُستقبل استقبالاً كبيراً في

(*) من كبار شخصيات البصرة التجارية والاجتماعية وملاّك الاراضي، شيّد قصراً على ضفة شط العرب عام 1902، يُعد من التحف المعمارية. (المُراجع).

جدة، حيث أرسل الملك حسين مبعوثاً لاستقباله. وكان من المقرر أن يكون ضيف الملك طوال موسم الحج. وفي نهاية الحج قبل الخالصي دعوة الحكومة الإيرانية للذهاب إلى إيران، ووصل إلى هناك في أواخر تموز (يوليو) 1923.

الآن، وبالنظر لكونه عدو عنيد لفيصل، فقد تمت معاملته بأقصى درجات اللباقة والاحترام طوال فترة نفيه الأولى، ويرجع ذلك بشكل واضح إلى التعليمات التي أعطاها فيصل ليس فقط للمسؤولين العراقيين ولكن أيضاً تم نقلها عبر البريطانيين إلى جميع مسؤوليهم في الموانئ التي سيزورها آية الله.

تم ترتيب لقاء بين الخالصي والملك حسين الذي عامل الضيف بمراعاة مبالغ فيها، واصفاً إياه بـ «فضيلة الشيخ». وخلال لقائه مع حسين، لاحظ الخالصي وجود فتى يبلغ من العمر أحد عشر عاماً، أطلق عليه حسين لقب «عون»، مختبئاً وراء الستائر. عندما علم أن الصبي هو غازي ابن فيصل، سأل الخالصي بطبيعة الحال لماذا خاطبه جده على هذا النحو. كان رد الحسين أن الإمام الشهيد الحسين، قد زاره في الحلم وقال له أنه إذا كان لفيصل ولد، فينبغي أن يطلق عليه عون. لكن عائلة فيصل أرادت تسمية الصبي غازي، الذي يعني اسمه الفاتح، تكريماً لانتصارات فيصل على الإدريسي في عسير. تم التوصل إلى حل وسط، بحيث أطلق على الطفل اسم غازي تقديراً لانتصارات والده، بينما كان حسين يخاطب الصبي دائماً باسم «عون!»[(32)].

عندما وصلت أنباء إبعاد آية الله الخالصي عن العراق إلى أهالي الكاظمية، بدأ المتظاهرون يتجمعون في باحة المرقد. وفي بغداد، تم إغلاق سوق النحاسين[(*)] احتجاجاً على ذلك. لكن الإجراءات الصارمة التي اتخذها المسؤولون الحكوميون ضد أصحاب المحلات والتجار المضربين سرعان ما أجهضت حركة الاحتجاج في مهدها. كما أدت محاولات حشد كبار رجال الدين في الكاظمية ضد ترحيل الخالصي إلى نتائج عكسية. فقد كان لآية الله العديد من الأعداء، بما في ذلك المجتهد البارز في المدينة الذي أعلن أن الخالصي لقي ما يستحقه نتيجة تدخله المستمر في السياسة.

إلا أن الوضع في النجف كان مختلفاً تماماً، فقد قام المتظاهرون هناك بإغلاق المدينة وأعلن آيات الله العظمى تعاطفهم مع الخالصي. فقد رأوا في ترحيله إهانة واعتداء غير مقبول على كرامة المجتهدين وسلطتهم. وأعلنوا بشكل درامي بأنهم، هم أيضا، سوف يغادرون العراق احتجاجاً على إجراءات الحكومة. كانت قمة الهرم الديني للشيعة تستعد الآن لمغادرة البلاد. ومن الواضح أن النية كانت حشد أتباعهم في موجة احتجاجات عارمة ضد إجراءات الحكومة.

(*) ويعرف لدى العراقيين بسوق الصفافير. (المترجمان).

توجه آيات الله، بقيادة المجتهدين الأصفهاني والنائيني، إلى كربلاء استعداداً لمغادرتهم العراق. وانضم إلى حاشيتهم أعداد كبيرة من طلاب المدارس الدينية ورجال الدين الشبان. وحاول متصرف كربلاء التفاهم معهم وإقناعهم بالعودة إلى النجف لكن دون جدوى. وبعد أن فشل في ثنيهم عن موقفهم المتعنت، تلقى تعليمات صارمة لتسهيل مغادرة جميع حاملي الجنسية الايرانية، ومنع رحيل رجال الدينيين العراقيين. في 1 تموز (يوليو) 1923، توجه موكب مكون ما يقرب من 25 من كبار المراجع الدينية الشيعية في العالم، تحت حراسة الشرطة، إلى محطة القطار الرئيسة بالقرب من بغداد حيث استقلوا قطاراً خاصاً متجهاً إلى إيران[33]. وعلى الرغم من اعتراضات القنصل الايراني في بغداد على سوء المعاملة التي تلقاها المجتهدين، إلا أن الحقيقة هي أنهم عوملوا بكامل الاحترام الذي يليق بمكانتهم. ورداً على ذلك، ذكرت الحكومة أنها لم تأمر بترحيلهم، لكنها ببساطة استجابت لمطالبهم بمغادرة البلاد، وقدمت لهم التسهيلات اللازمة. ولا يمكن مقارنة حالتهم بترحيل آية الله الخالصي بأي شكل.

عندما وقعت هذه الأحداث الجسيمة، كان فيصل يوشك على الانتهاء من جولته في الجنوب. وفي مصادفة لافتة، كان قطاره يغادر البصرة متوجهاً إلى مدن الفرات عندما كان القطار الذي يحمل الخالصي يدخل محطة البصرة. وفي وقت لاحق ادعى أحد شهود العيان على الحدث أن ركاب قطار الخالصي كانوا يرون بوضوح عربة الملك، التي كانت مضاءة جيداً[34].

وعندما وصل فيصل إلى مدينة الديوانية في 28 حزيران (يونيو) 1923، كان الخالصي يحلّ، رغماً عنه، كضيف في قصر آغا جعفر في البصرة، وكان آيات الله العظمى يستعدون لمغادرة البلاد. كانت ردة الفعل الشعبية على هذه الأحداث في مدن وادي الفرات الأدنى والأوسط، المعقل القبلي الداعم لآيات الله العظمى، خافتةً على غير العادة. فلم تندلع أي مظاهرات من أي نوع إلا في مدينة الحلة. حيث حاول ممثل محلي لأحد آيات الله العظمى هناك تنظيم مظاهرة، لكن جهوده باءت بالفشل. وببساطة قام المتصرف بنفيه إلى بغداد[35]. وبدأت الكفة تميل لصالح الطرف الآخر. فمع الانتصار الواضح للحكومة والملك في المواجهة مع آيات الله، هرع زعماء القبائل في الديوانية لإظهار تأييدهم لفيصل. وأوردت صحيفة العراق خبر استقبال فيصل من قبل عشائر وادي الفرات وزعماء ثورة 1920. «التقى شيوخ وزعماء العشائر بجلالة الملك في فترة بعد الظهر وتعهدوا بالولاء المطلق لسياسات جلالته وطاعتهم لأوامره. كما أبدوا استعدادهم لسحق أي فكرة أو مؤامرة تهدد المصالح القومية العليا والقومية العربية... وأنهم لن يحتملوا أي تأجيل إضافي للانتخابات، ولو ليوم واحد»[36].

من الآثار الجانبية المقلقة لنفي آيات الله كان سيل المقالات الصحفية والتعليقات التي تدين آيات الله وتحديهم للحكومة. فقد كانت الدعاية الحكومية، التي تمحورت حول جنسية آيات الله

الايرانية والترابط بين مصالح العراق ومصالح «الأمة العربية» تحمل نفحة من التعصب الطائفي والقومي والعرقي. وقد ذهبت بعيداً من خلال تنديدها بأشخاص المجتهدين الشيعة البارزين ودوافعهم وكفاءاتهم. ففي العديد من المقالات التي نشرتها جريدة العراق الموالية للحكومة، كانت فكرة الوحدة الإسلامية، التي يفترض أنها الهدف السياسي لآيات الله، تتعارض بشكل سلبي مع مبادئ القومية. «لقد عاش هؤلاء الدخلاء (آيات الله المعارضون) لسنوات تحت سماء العراق العربية... لكنهم لم يدّخروا جهداً في تقويضه متسترين بستار الدين والوحدة الدينية». وتابع الكاتب: «إنني على يقين من أن هؤلاء الناس لم يكن لهم غرض سوى إلحاق الضرر بالحركة العربية المباركة، وهم بسلوكهم هذا أصبحوا خونة للوطن الذي وجدوا الرخاء في حماه... وكان غايتهم هي خدمة إحدى القوى الأجنبية التي كانت السبب الرئيسي وراء تدمير الدولة العربية [الإمبراطورية العباسية] وعاصمتها المزدهرة [بغداد][37]. العراق والقومية العربية، من رجال الدين الأشرار المرتبطين بالدم بإيران الحاقدة، من قوى الظلام المتمثلة في المتدينين».

وسيتكرر استخدام هذه الأفكار عن وجود «طابور خامس» يتآمر ضد مصالح العراق والقومية العربية، ورجال دين أشرار تربطهم روابط الدم بإيران الشريرة، وقوى ظلام ممثلة بعناصر دينية تقاتل لتدمير أسس الحضارة والتقدم والحداثة، عبر تاريخ العراق الحديث، والتي كانت نشأتها في هذه الأزمة.

كان فيصل مدركاً للخطر الكامن في هذه الأفكار على المدى الطويل، لكونه يضع القيادة الدينية للشيعة، الذين يشكلون غالبية دولته، بأكملها في خانة الغرباء الظلاميون. كان فيصل يريد مواجهة جهود آيات الله لعرقلة خططه أو تخريبها، ولكن ليس إلى الحد الذي قد يعاني فيه الشيعة من الاغتراب الكامل عن حكمه.

دخل آيات الله العظمى إيران في 7 تموز (يوليو) 1923 وبدأوا بشنّ حملة ضد الحكومة العراقية، وضد فيصل تحديداً. وأعلنوا على الملأ أنهم لن يعودوا إلى العراق ما لم يتنحى فيصل عن الحكم. وبدا أن موقفهم المناهض لفيصل يلقى الدعم من خلال العريضة موقعة من أربعمائة شخصية عراقية تناشد الخليفة العثماني الضعيف «تخليص العراق من الأجانب ومن فيصل ووالده، الذين جاؤوا للسيطرة على المسلمين بالقتال في صفوف الحلفاء وبتفريق المسلمين تحت عباءة القومية العربية الأمر الذي يخالف ما أمر به الله»[38].

وفي إيران، تسبب تواجد آيات الله المنفيين بالكثير من القلاقل. فقد اعتقد عامة الشعب أن طردهم تم بناء على أوامر بريطانية، الأمر الذي زاد من حدة الهياج في إيران ضد النفوذ البريطاني على حكومتهم. فسافر السفير البريطاني في إيران، السير بيرسي لورين، إلى بغداد في آب (أغسطس) لإقناع الحكومة العراقية بإعادتهم، لكن السعدون لم يصغ إليه. فقد كان

السعدون يعتقد أن الحكومة قد حققت نصراً كبيراً ولم يكن مستعداً للسماح لهم بالعودة. كما التقى لورين بفيصل بحضور دوبس وكورنواليس والسعدون. كان الملك متقبلاً لفكرة عودة آيات الله. فقد شعر أنه بعد خروجهم غير الرسمي، فمن المرجح أن يكون آيات الله مستعدين للقبول بشروط الحكومة بعدم التدخل في السياسة. عرف فيصل أن تبجح آيات الله سوف يتلاشى مع مرور الوقت لأنهم سيشعرون بفقدان نفوذهم نتيجة لغيابهم الطويل عن قاعدتهم المادية والمالية في العراق. كما أن آيات الله العظمى في إيران، بمرور الوقت، سيضيقون ذرعاً بهؤلاء المنافسين الأقوياء القادمين من العراق الذين قد يسعون لجذب أنصارهم[39]. علاوة على ذلك، كان فيصل يدرك الحاجة إلى إعادة بناء مكانته لدى المجتمع الشيعي، وعودة آيات الله، من دون أن يتدخلوا في السياسة، سيشكل عنصراً هاماً في هذه الاستراتيجية. لذلك تم الاتفاق بين فيصل ودوبس والسعدون على إعادة فتح موضوع عودة آيات الله إلى العراق بعد انتخابات المجلس التأسيسي.

ومع ذلك، بدأ فيصل بإجراء اتصالات سرية مع آيات الله المنفيين في إيران من دون علم السعدون أو المقيمية البريطانية. كان آيات الله قد دخلوا في صراع مع الحكومة الإيرانية في عهد رضا خان، والذي اتبع سياسات تحديث على نطاق واسع، الأمر الذي أثار قلق آيات الله. أثناء غيابهم عن العراق، كان آية الله العظمى الآخر الذي بقي في العراق، السيد محمد فيروز آبادي، يتولى زمام الأمور مما خفف من وطأة غياب آيات الله عن الواجبات الدينية والتعليمية لحوزات النجف. تم تبادل الرسائل بين فيصل وآيات الله في إيران، والتي تم الإشارة إلى مضمونها عندما استولت إدارة استخبارات سلاح الجو الملكي البريطاني في العراق على مجموعة من الوثائق. فقد كتب بيل في رسالة بتاريخ 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1923:

اعترضت استخبارات سلاح الجو الملكي البريطاني في البريد مجموعة من الرسائل الشديدة الأهمية من المجتهدين في بلاد فارس إلى وكلائهم هنا، تشير تلك الرسائل إلى أن جلالته (فيصل) قد وعد بالإطاحة بحكومة محسن السعدون، وتشكيل وزارة شيعية برئيس وزراء شيعي، كما تعهد بإعادة المجتهدين ورفض المعاهدة. وهم وإن لم يثقوا بوعوده إلا أنهم أرفقوا برسائلهم فتوى موقعة ومختومة بإلغاء التحريم المفروض على الانتخابات بناء على تنفيذ جلالته التعهدات المذكورة أعلاه. وكان من المفترض أن تعرض هذه الفتوى عليه وألا يتم نشرها حتى يقوم بما هو مطلوب منه. لا يمكننا التفكير في الكيفية التي توصلوا بها إلى الثقة بإرسال هذه الرسائل عبر البريد؛ فهم حتى الآن كان يرسلون كل رسائلهم باليد عن طريق الرسل. لقد علمنا بأمر هذه الرسائل، بعد وصولها، من أعوان الشرطة، لكنها ليست حوزتنا فعلياً.

لقد قررنا، بعد مشاورات طويلة، أن على السير هنري أن يرفعها إلى جلالة الملك، وان

ينوه بأنه، على الرغم من أن جلالة الملك كان قد أخبر صاحب المعالي (السعدون) أنه سيُبقي المجتهدين في اللعبة، فقد تمادى بشكل خطير ومنحهم سلاحاً ليستخدموه ضده. لقد تعاطى جلالته مع الأمر بمرح شديد، قائلاً إنهم قد بالغوا في عروضه، وأنه الآن يمكنه تركهم بأمان ليتحملوا عواقب أفعاله وأنه سيوقف المفاوضات معهم. هذا كل شيء[40].

تسببت هذه الواقعة بنشوء توترات كبيرة بين فيصل والسعدون، لكن ستكون هناك حاجة لمزيد من النقاشات قبل تمهيد الطريق لعودة آيات الله.

العقبات النهائية

كانت آخر عقبة محلية جدية أمام استئناف الانتخابات هي الوضع في شمال شرق العراق: مناطق جنوب كردستان الواقعة تحت الإدارة البريطانية. كانت هذا المسألة أيضاً متشابكة مع السياسة البريطانية الشاملة تجاه تركيا الصاعدة. كانت معاهدة سيفر لعام 1920، ومعها الوعد بكردستان مستقلة، حبراً على ورق بعد النجاحات العسكرية لمصطفى كمال. أصبح الصلح مع تركيا الآن «ذا أهمية قصوى»، كما قال تشرشل أمام البرلمان في وقت سابق. وفي مؤتمر لوزان مع تركيا، الذي بدأ في تشرين الثاني (نوفمبر) 1922 خلال حكومة لويد جورج، واجه المفاوضون مشكلة ولاية الموصل المستعصية. كانت تركيا تطالب بالولاية [اللواء] بأكملها تقريباً، بينما سعت بريطانيا إلى ترسيم الحدود بين العراق وتركيا على الحدود الشمالية للولاية السابقة. لكن كبادرة تجاه تركيا، كان البريطانيون مستعدين لإسقاط المواد في معاهدة سيفر البائدة التي دعت إلى استقلال كردستان. لكن على الأرض، في جنوب كردستان، كانت كل من تركيا وبريطانيا تناوران لتحقيق مكاسب.

أثّرت الدعاية التركية على سكان المنطقة، تاركة الأعيان ورؤساء القبائل الموالين لبريطانيا «في حالة من الذعر الشديد»[41]، واعتبر الزعيم القومي الشيخ محمود، من معقله في مدينة السليمانية، أن الفرصة سانحة فقاد انتفاضة ضد البريطانيين في آذار (مارس) 1923[42]، فقام سلاح الجو الملكي بقصف المدينة، مما أجبره على التراجع إلى المعاقل الجبلية في المنطقة، لكن المدينة نفسها ظلت تحت سيطرة أتباعه. كان الشيخ محمود يتآمر مع الجنرال التركي أوزد أمير، الذي كانت قواته تحتل بلدة رواندوز، واستعدا لانتفاضة عامة تشمل شنّ هجوم على المدن الرئيسة في أربيل وكركوك[43]. ردّ سلاح الجو الملكي بشنّ حملة قصف مكثفة على القبائل المؤيدة للانتفاضة ووحدات أوزد أمير، فانهار التمرد الناشئ، وفي 9 أيار (مايو) 1923 احتلت القوات البريطانية والعراقية مدينة السليمانية.

بحلول صيف عام 1923، كان إقليم كردستان الجنوبي خليط من الوحدات الإدارية

والمطالبات المتضاربة، والتي لا يزال وضعها النهائي غير محدد. كانت الحكومة قد اقتطعت من منطقة أربيل لواءً جديداً، وطلب البريطانيون من مجلس مدينة السليمانية أن يُحكم المدينة كلواء منفصل. وافق أعضاء المجلس، بشرط أن يبقي البريطانيون على وجودهم العسكري في المنطقة. لكن البريطانيين الذين كانوا يتعرضون لضغوط شديدة لم يتمكنوا من تقديم مثل هذا الضمان وسحبوا قواتهم، وبعد ذلك استقال مجلس المدينة وعاد الشيخ محمود إليها. كان وجوده مسموحاً به هناك طالما أنه لا يسعى إلى بسط سلطته خارج الحدود الضيقة للسليمانية والمنطقة المحيطة بها.

كانت السياسة البريطانية تتمثل في إبقاء المناطق الكردية مرتبطة بشكل فضفاض بحكومة بغداد. ومن ناحية أخرى، أراد فيصل وحكومته ربط الألوية الشمالية بالحكومة المركزية وإنشاء دولة موحدة ومركزية. في كانون الأول (ديسمبر) 1922، كان كوكس قد أقنع فيصل بقبول الإعلان الأنغلو ـ عراقي المشترك الذي أعطى الأكراد حقوقاً ترقى إلى مستوى الاستقلال. اعترض فيصل قبل الموافقة على الإعلان، لكن كوكس أكد له سراً أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال انفصالاً سياسياً أو اقتصادياً عن العراق. على أي حال، لم يكن العراق قادراً على فرض سلطته في المناطق الكردية دون دعم بريطاني، وكان البريطانيون يبقون على احتمالية كردستان مستقلة، كورقة للمساومة في لوزان وللضغط على الحكومة العراقية.

كان فيصل قلقاً من اندلاع تمرد قومي آخر في السليمانية، مما يعرض الوضع المستقبلي لولاية الموصل للخطر ويشجّع عصبة الأمم على تسليمها إلى تركيا. لذلك كانت سياسة المصالحة تجاه المطالب الكردية بالحكم الذاتي الثقافي والسياسي شرطاً مسبقاً لمشاركة الدوائر الكردية في انتخابات المجلس التأسيسي. وبناءً عليه، أصدر مجلس الوزراء قراراً في 11 تموز (يوليو) يؤكد أن الحكومة المركزية لن تعيّن مسؤولين عرباً في المناطق الكردية باستثناء الوظائف الفنية. كما تعهدت الحكومة بعدم إجبار سكان المنطقة الكردية على استخدام اللغة العربية في مراسلاتهم الرسمية، وأكدت أنها ستحافظ على حقوق السكان والمجموعات الدينية والمدنية في هذه المناطق. أسهمت هذه الإجراءات في طمأنة معظم مناطق جنوب كردستان، باستثناء السليمانية، ومهدت الطريق لسكان المنطقة للمشاركة في انتخابات المجلس التأسيسي.

بعد أن تم تمهيد الطريق لاستئناف الانتخابات، اجتمع مجلس الوزراء في 3 تموز (يوليو) 1923 في القصر الملكي، برئاسة فيصل، للموافقة على المضي قدماً في الانتخابات. لكن وراء هذا الإجماع الظاهري على إجراء الانتخابات، كان هناك صراع على السلطة يشتعل بين فيصل ورئيس وزرائه، السعدون، المدعوم بقوة من قبل المقيمية البريطانية. وستشكل تركيبة المجلس عاملاً حاسماً في معادلات القوة في العراق، وكان فيصل عازماً على أن يكون لحلفائه وأنصاره مكانة بارزة داخل

المجلس. كما كان مصير المعاهدة الأنغلو عراقية على المحك، والتي كان لا بد من التصديق عليها من قبل المجلس الجديد. بدأ فيصل في التخطيط لتحركاته لضمان حسن سير العملية الانتخابية.

وانقسمت أحزاب المعارضة الرئيسة حول موقفها من الانتخابات. فحزب النهضة كان قد قرر مقاطعة الانتخابات بشكل كامل، وبينما نأى الحزب الوطني بنفسه، من حيث المبدأ، فقد شارك بعض من قادته بصفتهم الفردية. أما الحزب الحر، التابع للنقيب والموالي لبريطانيا فقد أيّد الانتخابات في البداية، إلا أنه عاد وانسحب بعد ذلك وقام بحلّ نفسه على خلفية قضية تسجيل رجال القبائل على لوائح الناخبين. وكانت حركة المقاطعة التي قادها المجتهدون بشكل أساسي قد تلاشت وسارت الانتخابات بسلاسة نسبية، حتى داخل معاقل الشيعة في المراقد المقدسة. ففي النجف، فشلت حركة احتجاجية ناشئة بقيادة الطبقات الدينية في الانطلاق، بعد أن نجح المتصرف الجديد مولود مخلص في تهدئة المعارضين، مما سمح بمواصلة العملية الانتخابية بشكل طبيعي.

كانت العملية الانتخابية مكونة من مرحلتين، حيث يقوم الناخبين الأساسيين، وجميعهم من الذكور البالغين فوق سن الحادية والعشرين، بانتخاب مجموعة من الناخبين الثانويين الذين سيختارون بعد ذلك أعضاء المجلس التأسيسي. كان فيصل قد نصّب حلفاءه كمتصرفين وكمديري مقاطعات، حيث ألقوا بثقلهم وراء المرشحين الأفراد الذين يدعمهم الملك. لم يقتصر الأمر على المرشحين الذين يدينون بالولاء لفيصل فحسب، بل شملوا أيضاً المرشحين المناهضين للمعاهدة الذين أراد فيصل رؤيتهم في المجلس. أراد فيصل أيضاً استعادة بعض المصداقية مع المجتمع الشيعي بعد ترحيل الخالصي ونفي آيات الله العظمى. ولم تقتصر استراتيجيته على مجرد إحباط تمرير المعاهدة الأنغلو ـ عراقية، بل على يحظى بقاعدة صلبة داخل البرلمان لمواجهة البريطانيين والضغط عليهم لقبول التعديلات على المعاهدة. كما عمل البريطانيون، بالطبع، على توجيه الانتخابات لصالح المرشحين الذين سيضمنون أغلبية مؤيدة للمعاهدة في المجلس.

وصلت الأمور إلى ذروتها عندما اتهم دوبس، في رسالة إلى كورنواليس في 31 آب (أغسطس)، فيصل بالتآمر مع المعارضة للحصول على الأغلبية في المجلس الجديد. أنكر فيصل هذه المزاعم وأكد أنه يبذل كل ما في وسعه لضمان إجراء الانتخابات في جميع أنحاء البلاد بطريقة منظمة[44]، لكن المقيمية البريطانية لم تقتنع بتأكيدات فيصل. وأعلن مقال نشرته صحيفة «بغداد تايمز»، الناطقة بلسان المقيمية البريطانية أنه إذا لم يتم التصديق على المعاهدة، فسيتعيّن على البريطانيين الانسحاب، مع ما يحمله هذا من عواقب وخيمة على العراق. وتبعتها صحيفة «العراق» الموالية للحكومة بمقال في السياق نفسه، وفي 25 أيلول (سبتمبر) وخلال مقابلة مع نفس الصحيفة، حذّر السعدون من أن العراق سيكون في موقف حرج إذا تم رفض المعاهدة. واضطر فيصل إلى إظهار دعمه الصريح للمرشحين المؤيدين للمعاهدة.

في أوائل تشرين الأول (أكتوبر) 1923، قام بزيارة إلى الموصل بصحبة مستشار وزارة الداخلية، كيناهان كورنواليس، وعدد من وزرائه، حيث قلب تدخله الميزان لصالح المرشحين المؤيدين للمعاهدة[45]، إلا أن هناك أسباب أخرى كانت وراء زيارة فيصل إلى الموصل. فقد تصاعدت التوترات بين الآشوريين الذين أعاد البريطانيون توطينهم في شمال العراق وسكان المناطق الشمالية. كانت هناك بالفعل قرى آشورية قديمة في منطقة الموصل، لكن تدفق أعداد كبيرة من الآشوريين الذين أعيد توطينهم حديثاً أثر على توازن هذه المنطقة متعددة الأعراق. فقد كادت مشاجرة بين أفراد من القوات الآشورية، الملحقة بالجيش البريطاني، والسكان المحليين في الموصل، أن تؤدي إلى انفجار الوضع في المدينة. وكتب فيصل إلى حكومة السعدون بشأن الاستياء المتزايد من السكان المحليين من وجود القوات الآشورية في المدينة، وحذر بشدة من كارثة قادمة إذا لم يتم فعل شيء لتهدئة مخاوف السكان: «قلوب سكان الموصل مليئة بالحنق والاستياء. المسألة الآشورية في غاية الخطورة. إنها نار ملتهبة. لهذا السبب قمت بتأجيل عودتي إلى أن أحسم الأمر بشكل نهائي، عن طريق فرض مغادرة القوات الآشورية للموصل. أنا مصمم على نقل مقراتهم، لأنني أستطيع رؤية الكارثة القادمة بأم عيني. وأكبر مأزق هو أن هذه الجماعات المسلحة تخضع لقيادة ضباط بريطانيين. وفي حال حدوث شيء ما فهل ستتحمل بريطانيا سقوط ضحايا وخاصة بين ضباطها؟» أخذ السعدون هذا الأمر بجدية واتفق مع المقيمية البريطانية على وقف إعادة توطين المزيد من الآشوريين في شمال العراق إلا بموافقة حكومية محددة.

أسهمت الإجراءات الصارمة التي اتخذها السعدون ضد المجتهدين ودفاعه العلني عن التحالف مع بريطانيا في جعله الشخص المفضل لدى المقيمية البريطانية. وكان دوبس، على وجه الخصوص، منحازاً بشدة للسعدون وكان يرى فيه كل فضائل العرب البدو. إلا أن فيصل كان يعتبر السعدون أحد العقبات التي تواجه سلطته، ومنافساً لمكانته المتنامية في البلاد، والشخص القادر نظرياً على أن يحتل المكانة الرفيعة التي يحتلها فيصل لدى البريطانيين. كما أنه كان منزعجاً من سياسات السعدون، خاصة فيما يتعلق بالمجتهدين الشيعة. كان السعدون مصراً على منع عودتهم إلى العراق بينما كان فيصل يجري مفاوضات نشطة حول شروط عودتهم. ومن الممكن أن يكون فيصل في هذه المفاوضات السرية قد وعد المجتهدين بأنه سيستبدل حكومة السعدون[46].

سعى فيصل إلى الظهور بمظهر النزيه والمحايد بين الطوائف، وإلى إزالة أي ملمح يشير إلى موافقته على نفي المجتهدين كانت من منطلق طائفي. وفي الواقع، كان قد طلب من السعدون ترحيل عدد من الشخصيات السنية الذين يبدون ولاءاً شديداً لتركيا، لكن السعدون رفض بشدة هذه المحاولة الواضحة من قبل فيصل للظهور بمظهر المحايد[47].

بحلول خريف عام 1923، كان فيصل قد قرر عزل السعدون من منصب رئيس الوزراء. ووجه رسالة إلى مجلس الوزراء يشكو فيها من عدم فاعلية الحكومة في تحسين الأوضاع الاقتصادية للبلاد ومن قيامها برفع الضرائب إلى مستويات مرهقة[48]. أعرب السعدون عن استيائه العميق من اللهجة الاتهامية التي صيغت بها الرسالة، وطالب بأن يتم سحبها. تظاهر الملك بالاعتذار، إلا أن ضغوطه على السعدون استمرت. حاول السعدون الانتقام برفضه ذكر اسم فيصل في صلاة الجمعة في مساجد بغداد، الأمر الذي أثار غضب فيصل، ليس لأنه أعطى الخليفة العثماني مكانة في العراق لا تتناسب مع أهميته الحقيقية في اسطنبول فقط. (كان مصطفى كمال قد جعل الخليفة ـ السلطان شبه عاجز في ذلك الوقت)[49]، بل لأنه أيضاً نفى ضمنياً أن يكون لنسب فيصل الشريف أي سلطة روحية. في 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1923، مضى الملك في خطته لعزل السعدون. فاستقال السعدون وحلّ محله رجل الملك، جعفر العسكري.

بحلول نهاية عام 1923، كان فيصل قد قضى أكثر من عام في الحكم. وكان قد تخلى عن تردده لتحل محله الثقة وحتى الجرأة في معالجته للمشكلات المعقدة التي لا تعد ولا تحصى التي انهالت عليه. وهو وإن كان لا يزال يرتكب الأخطاء ويبالغ في تقدير إمكانياته، ولكن هذه العيوب بدأ يحل محلها الحس الدقيق والفهم الأعمق لمتاهات السياسة والمجتمع العراقيان. وكان يحقق تقدماً أقل ما يقال فيه أنه رائع بالنسبة لشخص غريب ليس لديه خبرة سابقة في البلاد. كان قد انغمس في أدق تفاصيل الشؤون الداخلية للعراق، وكان يعمل على تطوير دور القصر باعتباره مركزاً هائلاً وأساسياً للسلطة.

كان النفوذ البريطاني في العراق ما يزال ملحوظاً، لكن فيصل كان كافح ليتحرر من تبعيته الخانقة. كان يعيش في المنزل نفسه الذي منحته له الحكومة عندما وصل لأول مرة إلى العراق. حيث كان قصره الخاص لا يزال في المراحل الأولى من البناء. وأصبحت أمانة القصر الآن تشغل مبنى في حي الوزيرية شمال بغداد. لقد كان المنزل متواضعاً لدرجة أن وفداً سورياً زائراً سأل فيصل عن السبب في عدم قيامه ببناء قصر يناسب منصبه. فأجاب فيصل: «جئت إلى هنا لبناء مملكة وليس قصراً»[50]، وكان قد طلب من وزارة المالية تخصيص مبلغ إضافي قدره 50 ألف روبية[51] لميزانية القصر لتأثيث سكرتارية القصر وإنارة الشوارع في محيطه، لكن الوزارة رفضت تلبية طلبه. واقترحوا أن تستخدم أمانة القصر أثاث الأمانة القديم البالي بدلاً من ذلك[52].

حاول فيصل، لمدة عام تقريباً، عدم الذهاب إلى خارج العراق. فقد قام برحلة واحدة فقط خارج العراق خلال هذه الفترة، لزيارة شقيقه عبد الله في شرق الأردن في تموز (يوليو) 1923. وكانت أسرته لاتزال في الحجاز، لكنه كان يمهد لهم السبيل للانضمام إليه في العراق، وكان أحمد

الراوي، مدير الشرطة الذي رافق آية الله الخالصي في المحطة الأولى من منفاه، مكلفاً بترتيب سفر حُزيمة زوجة فيصل إلى العراق مع ابنه غازي وبناته.

كان فيصل قد أحضر معه عدداً من الحجازيين إلى العراق، لكن أكثرهم كانوا من الخدم، وليس من المستشارين أو أهل الثقة. كان رستم حيدر، الذي أصبح رئيس الديوان الملكي، أقرب مستشاريه وصديقه منذ أن كان في سوريا، وكان لا يزال يعتمد على دعم هؤلاء الضباط العراقيين الذين يمكن تسميتهم على نطاق واسع بـ«الشريفيين». لكنهم كانوا يطورون قواعد قوتهم الخاصة وباتوا، الآن وبعد أن عادوا إلى وطنهم، مدفوعين بطموحاتهم شخصية. كما تم التحقق من دعمهم لفيصل من خلال المطالب التي قدمتها لهم المقيمية البريطانية. وكان عليهم أن يسيروا على خط رفيع بين القصر والمقيمية والمعارضة.

كان فيصل يستمتع بصحبة النساء، وكَثُرت الشائعات حول علاقاته المزعومة مع النساء الغربيات في بغداد. ألمحت بيل إلى إحدى هذه العلاقات، حيث ترددت شائعات عن أن السيدة صفوت كانت عشيقة الملك. واقترحت بيل على الملك أن يتزوج ابنة العشيقة. «السيدة صفوت تشتهر عموماً بأنها عشيقة الملك! لديها ابنة فاتنة، وتتحدث الفرنسية بطلاقة وتعزف على البيانو بشكل رائع، أثناء غناءها لألحان تركية صغيرة غريبة. أنا حقاً لا أفهم ما الذي قد يمنع جلالة الملك من أن يتزوج من الفتاة. وهم إنْ كان ليس من عادتهم أن يجمعوا بين زوجتين في وقت واحد، ولكن عبد الله فعلها، وفي النهاية لا يمكنك القول إن لدى فيصل زوجة، لأن الملك حسين لن يسمح لها بمغادرة مكة. سيكون من الأفضل له أن يكون له زوجة وعائلة هنا»[53]. استمرت الشائعات المتعلقة بالحياة الخاصة لفيصل في الانتشار، بالرغم من أنه لم يتم إثبات أي منها على الإطلاق.

أتاحت الحفلات والفعاليات، التي كانت تقيمها المقيمية، الفرصة لفيصل للاختلاط بالأجانب سواءً من المقيمين أو الزوار، ولكن في اللقاءات الخاصة، التي غالباً ما كانت تعقد في القصر أو في منزل غيرترود بيل، كان فيصل قادراً على قضاء لحظات من الاسترخاء. وكانت بيل مفتونة بفيصل في تلك الأيام الأولى، ولكن لم يكن هناك أي تلميح إلى أي علاقة غير لائقة في مراسلات بيل، بخلاف الافتتان الذي تلاشى مع مرور الوقت. أحب فيصل آراء بيل واحترمها، لكنها لم تكن تستحق لقب صانعة الملوك الذي أُلحق بها لاحقاً. كان كوكس ومن ثم دوبس هم من كان يفرض السياسات بحزم ويتخذ القرارات. وعندما يكون فيصل في حفلات بيل أو في منزله، كان يلجأ إلى لعب الورق للاسترخاء. لقد اكتسب هذه العادات بعد الحرب وأصبح لاعباً ماهراً في البريدج والـ (chemin ـ de ـ fer). تذكر بيل في رسائلها بشكل متكرر أن الملك كان يلعب البريدج مقابل رهانات صغيرة. وغالباً ما كان شركاء فيصل في لعبة البريدج هم من السيدات الإنكليزيات المقيمات في بغداد، وزوجات كبار المسؤولين والضباط المنتدبين في العراق.

كما كان فيصل معتاداً على الخروج في رحلات لصيد الحجل والطيور البرية الأخرى، وغالباً ما كانت هذه الرحلات بصحبة الضباط البريطانيين. فقد كان العراق محطة لتوقف أسراب كبيرة من الطيور المهاجرة. وفي السنوات اللاحقة، بدأ بصيد فرائس أكبر مثل الخنازير البرية والغزلان. لقد كان يجيد الرماية وغالباً ما أقام مبارزات في الرماية مع اثنين من رفاقه في الصيد، تحسين قدري وكيناهان كورنواليس. لكن شغف فيصل بالخيول كان هو الذي ملأ معظم أوقات فراغه. كان يحضر بانتظام سباقات بغداد ويشاهد مباريات البولو(*) التي قام البريطانيون بتعريف الجيش العراقي عليها. لم يكن فيصل مجرد هاوٍ عندما يتعلق الأمر بالفروسية، وكان مرجعاً حقيقياً بما يتعلق بالخيول العربية. وقد تجلت معرفته وخبرته بوضوح خلال زيارة قام بها الشيخ [السيد] محسن أبو طبيخ(**)، الذي عاد من منفاه المؤقت في سوريا في خريف عام 1923. كان الشيخ قد قام بزيارة مجاملة لفيصل وأحضر معه ابنه ذو الأحد عشر ربيعاً. يتذكر مشكور، نجل الشيخ، هذه الحادثة بعد عقود من الزمن:

رافقت والدي في زيارة للملك فيصل الأول... كان والدي قد أحضر معه كهدية جواداً من سلالة معروفة من الخيول تعرف باسم «الصقلاوية». كان للحصان لون رمادي غريب ولكنه كان نقياً... كان الملك مقيماً في قصر «شعشوع» (المنزل الذي تم استئجاره ليكون مقر إقامته الخاصة عند قدومه إلى بغداد)... استقبلنا الملك بلباسه العربي... صافح والدي، فيما قمت أنا بتقبيل يده ورد هو بتقبيلي مرتين. سألني عن عمري ودراستي... وقال لي إنني في نفس عمر ابنه غازي وشجعني على متابعة دراستي. أخبره والدي أنه أحضر له هدية حصان أصيل من سلالة صافية ونادرة... خرجنا إلى الحديقة لرؤية الحصان وعندما رآه الملك أعجب بالفرس كثيراً وكان سعيداً جداً لأن الملك كان حجة في الخيول الأصيلة، والتفت إلى والدي وسأل عن نسب الحصان. ثم قال الملك على ما أذكر، «لم يسبق لي أن رأيت أجمل من هذا الحصان، سواء في اللون أو الهيأة». ثم بدأ يتفحص الحصان بعين الخبير، فحص جسده وقدميه وحوافره، وفتح فم الحصان ليتأكد من عمره من أسنانه. ثم قال: «سأمتطي دائماً هذا الحصان فقط، إنها أفضل هدية تلقيتها على الإطلاق».

يمضي الكاتب في تفصيل كرم فيصل. فقد منح سائس الحصان مكافأة نقدية كبيرة وعباءة. وفيما بعد، وضع فيصل يده في جيبه وأهدى لابن الشيخ ساعة ذهبية، هذه هدية جعلت الفتى يشعر بالنشوة[54].

(*) لُعبة بولو تمُارس على ظهور الخيل بين فريقين، يستخدمون مطارق طويلة مرنة، لقيادة كرة خشبية على أرض العشب وبين قائمتين للهدف. (المُراجع).

(**) يُطلق لقب (السيد) في وسط وجنوب العراق على الافراد المنحدرين من سلالة النبي الأعظم محمد (ص) من جهة ابنته فاطمة الزهراء ع ومنهم أبو طبيخ. (المُراجع).

هوامش الفصل العشرون

1. في إيران، جرى تنصيب رضا خان كشاه بعد فوضى الثورة الدستورية والحرب العالمية الأولى يرجع جزئياً إلى دعم آيات الله العظمى للحكم الملكي. أنظر: أنظر: هوما كاتوزيان، الدولة والمجتمع في إيران، آ.ب توريس 2000.

2 ـ وثائق السكرتارية الملكية، الملف 3 رقم 70، أنظر أيضاً: علي الوردي، المجلد 6، مرجع سابق، ص. 202

3 ـ وثائق السكرتارية الملكية، الملف 115، الوثيقة 1.

4 ـ محمد مهدي كبة، مذكراتي في ثمين الحدث، منشورات دار الطليعة، بيروت 1965، ص. 26–27.

5 ـ 2050 730/25/59936 تقرير الاستخبارات 5 تشرين الثاني 1922.

6 ـ لطفي جعفر فرج عبد الله، عبد المحسن السعدون، دوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر، مكتبة اليقظة العربية، بغداد 1998.

7 ـ المرجع نفسه، ص. 46 ـ 47

8 ـ مير البصري، مرجع سابق، ص. 71 ـ 72.

9 ـ مكتب المستعمرات 730/25/57534 تقرير الاستخبارات 1 تشرين الأول 1922.

10 ـ مكتب المستعمرات 730/26/59936 تقرير الاستخبارات 15 تشرين الثاني 1922. أيضاً: محمد مظفر هاشم الأدهمي، المظاهر السياسية للبرلمان العراقي وعمليات الانتخاب 1920 ـ 1932، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة.

11 ـ محمد مظفر الأدهمي، مرجع سابق، ص. 56. أيضاً محمد مظفر هاشم الأدهمي، المجلس التأسيسي العراقي، دراسة تاريخية سياسية، جامعة بغداد، بغداد 1972.

12 ـ نور مصالحة، مرجع سابق، ص 111، حاشية 33.

13 ـ ملفات القصر الملكي 2 / 6/د، رسالة من كوكس إلى فيصل، 2 كانون الثاني 1923؛ مقتبس في: محمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص ص 342 ـ 343. كوكس، الرجل العملي، طلب أيضاً من فيصل أن يؤكد أن [عبد الواحد] سكر قد أوفى بجميع التزاماته الضريبية لوزارة المالية!.

14 ـ فيليب آيرلند، مرجع سابق، ص 393.

15 ـ مكتب المستعمرات 730/25/57534 تقرير الاستخبارات، رقم 21، تاريخ 1 تشرين الثاني 1922.

16. المرجع نفسه.

17 ـ علي الوردي، مرجع سابق، ص ص 214 ـ 215. كما ترددت شائعات عن أن آية الله الخالصي على اتصال بعملاء الكماليين في العراق.

18 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة بتاريخ 12 نيسان (أبريل) 1923.

19 ـ البصير، مرجع سابق، ص. 224 ـ 225.

20 ـ كان زغلول مؤسس حزب الوفد وقائد المعارضة ضد البريطانيين في مصر. كما تم اعتقاله وترحيله من قبلهم، ولكن إلى جزيرة مالطا المفيدة للصحة.

21 ـ فيليب آيرلندا، مرجع سابق، ص. 377.

22 ـ البصير، مرجع سابق، ص. 255 ـ 256.

23 ـ الاجتماعات مع زعماء العشائر نظمها علي جودت وعُقدت في الديوانية. حضر اللقاء عبد الواحد آل سكر، محسن أبو طبيخ، كاطع العوادي، شعلان أبو الجون.

24 ـ علي الوردي، مرجع سابق، الجزس 6، ص ص 215 ـ 216.

25 ـ محمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص ص 320 ـ 321.

26 ـ على سبيل المثال، طالبت صحيفة العاصمة الحكومة باتخاذ إجراءات صارمة ضد الدخلاء الأجانب الذين لا علاقة لهم بالعراق. صحيفة العاصمة، 14 حزيران (يونيو) 1923.

27 ـ عبد الرزاق الحسني، المجلد 1، مرجع سابق، ص. 169

28 ـ محمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص. 321 ـ 323

29 ـ فيليب آيرلند، مرجع سابق، ص. 392

30 ـ لطفي جعفر فرج عبد الله، مرجع سابق، ص. 90

31 ـ علي الوردي، المجلد 6، ص. 222 ـ 223

32 ـ المصدر نفسه، ص. 245

33 ـ المصدر نفسه، المجلد 6، ص. 228 ـ 229

34 ـ صحيفة الحوادث، 11 نيسان ص. 130

35 ـ ناجي شوكت، سيرة وذكريات، مطبعة سلمان الأدهمي، بغداد، 1974 ص. 68 ـ 73

36 ـ صحيفة العراق، 30 حزيران 192

37 ـ صحيفة العراق، 5 تموز 1923 و10 تموز 1923.

38 ـ حنا بطاطو، الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق، مطبعة جامعة برينستون 1982، ص. 323. تم تنظيم الالتماس من قبل الحزب الوطني، لكن أحد قادته الرئيسيين، وهو جعفر أبو التمن، لم يوقع عليها.

39. في الواقع حدث شيء مشابه لهذا بعد وقت قصير من وصول آيات الله إلى إيران. كان الصراع الأول بين مهدي الخالصي وآيات الله العظمى في العراق. رفض الخالصي قبول عودة آيات الله العظمى إلى العراق. غادر قم حيث كان يقيم آيات الله، إلى مشهد في خراسان البعيدة. هناك تمت معاملته بشكل جيد في البداية، لكنه دخل في صراع مع المجتهدين حول دعمه لرضا خان وإجراءاته التحديثية. تصاعدت المظاهرات ضد وجوده في خراسان من قبل منافسيه، مما جعل مهدي الخالصي يشعر بالمرارة الشديدة من المعاملة التي تلقاها. توفي في خراسان في 5 نيسان (أبريل) 1925. حضر جنازته الآلاف من أتباعه. وكان استقبال خبر وفاته في العراق بكثير من الحزن، وسار الآلاف من الشيعة والسنة في موكب حزين. وكانت الحشود تنوح وتقول: «ووردت أنباء وفاته في العراق ببالغ الأسى، وخرج آلاف الشيعة والسنة في مسيرة حداد».

40 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة في 29 تشرين الأول (نوفمبر) 1923.

41 ـ س.ج ادموند، الكرد والأتراك والعرب، مطبعة جامعة أوكسفورد، أوكسفورد. ص. 317

42 ـ كان الشيخ محمود قد أُعتقل من قبل البريطانيين في الكويت لنشاطه القومي، لكنه عاد إلى السليمانية كحاكم في أيلول (سبتمبر) 1922. وكان مجلس المدينة المحلي قد التمس من البريطانيين إعادته، لأنه هو الوحيد القادر على حفظ القانون والنظام في المنطقة. وافق البريطانيون، الذين يفتقرون إلى الموارد اللازمة لإدارة المنطقة بشكل مباشر، على شرط أن يعطي الشيخ محمود تعهداً كتابياً بعدم الانخراط في أي أنشطة تخريبية ضدهم أو ضد الحكومة العراقية.

43. وكان الشيخ محمود في رسالة مُرسلة إلى أوزد أمير «يتعهد بأنه سيعيش ويموت في خدمة الأتراك. أنظر: غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة في 12 آذار(مارس) 1923.

44 ـ محمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص 81.

45 ـ المرجع نفسه، ص ص 82 ـ 83.

46. يبدو أن الرسائل التي تم الحصول عليها والتي تحدثت عنها بيل تدل على أن هذا هو الحال بالفعل.

47 ـ نور مصالحة، مرجع سابق، ص 119.

48 ـ عبد الرزاق الحسني، المجلد 1، مرجع سابق، ص. 187. الرسالة المؤرخة في 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1923. هي موقعة فعلياً من رستم حيدر الذي يشغل منصب رئيس البلاط آنذاك.

49. في شباط (فبراير) 1924، تم التخلي عن هذا الادعاء عندما ألغى مصطفى كمال الخلافة. بعد ذلك التاريخ، وتمت تلاوة اسمي الحسين وفيصل في صلاة الجمعة.

50 ـ غازي دحام المرسومي، مرجع سابق، ص 21.

51. كانت الروبية الهندية هي العملة القانونية في العراق لمعظم فترة الانتداب.

52. يبدو أن هذا هو رد شخص تدرب في محيط رديء لوكالة حكومية بريطانية في ذلك الوقت.

53 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 22 كانون الأول (ديسمبر) 1923.

54 ـ السيد أحمد أبو طبيخ، السيد محسن أبو طبيخ سيرة وتاريخ، بغداد، تمت طباعتها ـ شخصياً، 2005، ص ص. 172 ـ 174.

الفصل الحادي والعشرون: برلمانات، ومعاهدات، ودساتير

أتاحت استقالة حكومة السعدون الفرصة لفيصل لتشكيل الحكومة الجديدة وفق التوجهات التي يريدها. شكّلت حقيقة إسقاطه لحكومة السعدون وتنصيب مرشحه إلى السلطة انعكاساً لثقته المتزايدة بنفسه ولترسيخ قاعدة سلطته في العراق. كتب دوبس إلى لندن بخصوص صعود مكانة فيصل. «على الرغم من تقلب مزاجه الذي يدعو للقلق، فإنه (فيصل) هو المسيطر والناس يعتادون على حكمه بسهولة، كما أن جاذبيته الشخصية تكسبه المزيد من الأتباع. وعليه، قبل كل شيء، أن يحذر من الادعاءات التي تصفه بأنه ملك دمية تدعمه حرابنا. ويمكنه أن يأمل في أن يضرب جذوره في الأرض من خلال التصرف باستقلالية»[1].

وكانت المقيمية البريطانية تتماشى مع تحركات فيصل لكونها لم تهدد الهدف الرئيسي المتمثل في ضمان انتخاب جمعية تصادق على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية. وعلى الرغم من عيوب جعفر العسكري، إلا أنه لم يكن جزءاً من المعارضة. فقد كان رجل الملك ومن المحبذين للتحالف مع بريطانيا. كما كان فيصل يثق به ثقة كاملة. وكتب فيصل عنه: «سوف يمضي جعفر معي دائماً؛ ولن يتخلى عني. ولن يتركني حتى يوم وفاتي»[2]. نصح فيصل، في رسالته التوجيهية، العسكري «بعدم إظهار الكثير من الانفعال أو بالإفراط في الثقة. واختر دائماً الطريق الوسط؛ لأن العارف لا يكشف علمه للآخرين دائماً»[3].

كما أتاح اختيار جعفر العسكري، أحد كبار ضباط فيصل خلال الثورة العربية، للضباط الشريفيين البارزين الوصول إلى السلطة في الحكومة الجديدة. تم ضم نوري السعيد وعلي جودت إلى الحكومة. أراد فيصل أيضاً توسيع تمثيل الشيعة في الحكومة الجديدة، وبإلحاح منه تم ضم وزيرين من الشيعة إلى حكومة العسكري، أحدهما للمالية والآخر للتعليم[*] كان لهذا الأمر تأثيره المباشر على المجتمع الشيعي. كما تم دعوة وفد من الشخصيات الشيعية إلى القصر بعد ذلك بوقت قصير. وعلى الرغم من أنهم كانوا يفضلون تكليف شخصية شيعية لمنصب رئيس الوزراء، إلا أنهم أشادوا بالإجراءات التي اتخذها فيصل وأعربوا عن ولائهم للملك[4].

(*) عبد المحسن شلاش (1882 ـ 1948) وزيراً للمالية، ومحمد حسن أبو المحاسن (1876 ـ 1925) وزيراً للمعارف «التربية». (المُراجع).

قام فيصل، بعد أسبوعين، بزيارة إلى العتبات المقدسة، حيث تم استقباله بحماس. كانت علاقته مع الشيعة في طريقها إلى التحسّن. حتى إنه كان يتدخل، لصالحهم، في أمور لم تكن من الناحية الفنية ضمن نطاق صلاحياته. وتشير غيرترود بيل إلى واقعة قام فيها فيصل بإلغاء قرار محكمة لم يكن لصالح أحد الخصوم الشيعة. «لكن كيف يمكن منع الملك من التدخل في الإدارة ـ هذه هي المشكلة. كانت هناك واقعة رهيبة اليوم. (وهذا الأمر سري كلياً) لقد تبين أن هناك أمر صادر عن جلالة الملك، ألغى بموجبه قراراً صادراً عن المحكمة الابتدائية، ومؤيد من محكمة الاستئناف. كانت القضية عبارة عن دعوى شيعية ضد البهائيين حول ملكية أحد المنازل. لقد كانت قضية معقدة، يكمن وراءها التعصب الديني وقد وقف جلالته إلى جانب الشيعة، الذي يتلاعب بهم. أيدت الحكومة موقف صاحب الجلالة، فجعفر (العسكري) لن يكون من النوع الذي سيعارضه في يوم من الأيام. لقد كانت حالة واضحة لتجاوز السلطة التنفيذية للسلطة القضائية وقد قام السير هنري باتخاذ موقف شديد وحازم. وأشار إلى أنه في حالة حدوث مثل هذه الأمور ستفقد المحاكم مصداقيتها ويصبح من المستحيل إلغاء الامتيازات. وأصرّ على أن يقوم الملك بسحب أمره وقد تعهد الملك بالقيام بذلك»[5].

كان جعفر العسكري شخصية لطيفة ومحبوبة. وكان يحظى بشعبية لدى كافة فئات الشعب، وكثيراً ما كان يستخدم التعابير والمفردات الشائعة في اللهجة العراقية العامية، حتى أثناء مخاطبته للبرلمان. لقد كانت طريقة جيدة لإقناع الناس بوجهة نظره. وكان قد اكتسب المزيد من الوزن، منذ أيام الثورة العربية، ومال نحو البدانة. وكان يعشق الطعام العراقي، وكثيراً ما رآه أصدقاءه، أثناء خدمته كسفير في لندن، في مطبخ السفارة وهو منهمك في إعداد البامية، وهي طبقه المفضّل[6]. وكان ذهنه حاضراً، وحسّه الفكاهي طاغٍ. كما كان جيداً في اللغات، ويتحدث الإنكليزية والفرنسية والألمانية. وكان يحب أن يتعلم وأن يطور من نفسه. فعند عودته إلى العراق، التحق بكلية الحقوق، وكان يجلس في الفصل بجانب طلاب كانوا بنصف عمره. وعندما كان سفيراً في لندن، انضم إلى الرابطة المهنية للمحامين[*] وأصبح محامياً بعضوية كاملة[7]. كان أحد كبار المدافعين عن الحملة التي قام بها فيصل لاستبدال الطربوش الذي يعود للعهد العثماني بالسيدارة الفيصلية، وكان يحتفظ بمخزون من الفيصليات لتوزيعها على أي شخص يريد استبدال طربوشه بغطاء رأس أكثر ملاءمة للنظام الجديد.

(*) في الأصل الإنكليزي (inns of court) وهي الجمعيات المهنية المسؤولة عن تدريب المحامين في المملكة المتحدة. (المترجمان).

استكمال الانتخابات

كان من أولى مهام الحكومة الجديدة هو إنجاز انتخابات المجلس التأسيسي. فقامت وزارة الداخلية بإصدار التعليمات لجميع المفتشين الإداريين في الألوية بإرسال قائمة بالمرشحين الداعمين لخط الحكومة. ثم قام كورنواليس، مستشار الوزارة، بتشذيب القائمة وجمعها قبل أن يتم توزيعها على مفتشي الألوية كقائمة بالأسماء المضمونة التي يجب دعمها(8)، وكانت المقيمية قد وافقت على فكرة التي طرحها الملك حول ضرورة تواجد عدد من الشخصيات ذات توجه واضح نحو المعارضة داخل المجلس، طالما أنها لن تشكل الأغلبية. حيث تم إدراج عدد من الشيوخ المعارضين للمعاهدة، مثل عبد الواحد آل سكر وشعلان أبو الجون، بناءً على إصرار فيصل، لكن في جميع الاحتمالات، بالرغم من أنه كان من المرجّح أن يتم انتخابهم على أي حال. وبالتالي، كانت القائمة النهائية للمرشحين، الذين طُلب من المفتشين الإداريين الترويج لها، جهداً مشتركاً من جانب المقيمية والملك ورئيس الوزراء(9).

إلا أنه على نطاق أبعد من ذلك، كان مسار علاقات فيصل مع البريطانيين يتأثر بشكل كبير بانتخاب أول حكومة عمالية في بريطانيا في كانون الثاني (يناير) 1924 بقيادة رامزي ماكدونالد. وأصبح النقابي، جيمس («جيمي») توماس، وزيراً للمستعمرات، وبالتالي كان مسؤولاً عن السياسة والانتداب في العراق. فانتشرت الشائعات في بغداد بأن البريطانيين كانوا على وشك الانسحاب من البلاد. كان فيصل يدرك جيداً التأثير الكارثي لانسحاب بريطاني متسرع على حقوق العراق بولاية الموصل. فبدون تواجد القوات البريطانية على الأرض وفي الجو، فمن المرجح أن تفرض تركيا سيطرتها على الموصل. كتب فيصل إلى دوبس يطلب منه توضيح موقف حكومة حزب العمل من هذه المسألة الحيوية. شكّلت هذه التطورات المربكة لفيصل حافزاً إضافياً للدعوة إلى إجراء الجولة الأخيرة من انتخابات المجلس التأسيسي في أقرب وقت ممكن. إن تمرير المعاهدة الأنغلو ـ عراقية من قبل سلطة عراقية شرعية من شأنه أن يساعد في تأمين دعم بريطانيا للحدود الشمالية للعراق(10).

في 25 شباط (فبراير) 1924، بدأت انتخابات الناخبين الثانويين. وجرت الانتخابات بسلاسة في جميع المناطق باستثناء منطقة الموصل المضطربة. فقد خططت المعارضة في الموصل للمقاطعة، بسبب نقل أحد أبرز رجالها إلى بغداد. أسفرت الحصيلة النهائية للانتخابات عن فوز أربعة وسبعين مرشحاً بعضوية المجلس، المكوّن من مائة مقعد، من أصل ثمانية وتسعين مرشحاً للحكومة، إلا أن العديد من الفائزين ضمن القائمة الحكومية كانوا من المحسوبين على المعارضة. كتب دوبس تقييماً فظاً لنتائج الانتخابات. «من الناحية العملية، تواجد جميع الوطنيين المتقدمين (المعارضة) على قائمة المرشحين المدعومين من قبل الحكومة، وبالتالي

قدّمت الحكومة دليلاً آخر على رغبتها الحمقاء في اتقاء غضب المعارضة وأن تحظى بشعبية لدى الجميع»[11].

كان من الواضح وقوع عمليات تزوير في الانتخابات، إلا انها كانت على نطاق محدود. حتى وإن جرت عملية التصويت بشكل عادل وحر بالكامل، فلن تؤدي إلى نتائج مختلفة بشكل كبير. وكان معظم الذين تم انتخابهم من ملّاك الأراضي والتجار ومن أبناء العائلات المرموقة. وكان ستة من الأعضاء من المحامين؛ في حين كان ستة آخرون من الضباط الذين خدموا مع فيصل في سوريا أو انضموا إلى الثورة العربية. ومن هؤلاء النجم الصاعد ياسين الهاشمي الذي عُلّقت عليه آمال كبيرة. فيما كان أربعة منهم أعضاء في المجلس العثماني. وكان حوالي ثلث أعضاء المجلس من زعماء القبائل. كانت التقديرات تشير إلى أن الحكومة ستضمن أغلبية لتمرير المعاهدة الأنغلو ـ عراقية، لا تقل عن ستين عضواً.

انعقد المجلس التأسيسي في 27 آذار (مارس) 1924 في أجواء احتفالية. ورفعت الأعلام على المباني وأُطلق سراح السجناء أو خُففت أحكامهم. كان الطريق المؤدي إلى مبنى المجلس مزدحماً بالمتفرجين وتلاميذ المدارس. وكان فيصل قد دعا جميع الأعضاء المنتخبين إلى مأدبة في قصره في اليوم السابق لانعقاد المجلس، حيث أدوا أمامه يمين الولاء.

في اليوم المحدد، ركب فيصل سيارة مكشوفة، مرتدياً لباسه العربي التقليدي ومتقلداً سيفاً ذهبياً مهيباً. وما أن أطلّ على الجماهير حتى انطلقت الهتافات لتحييه. وقد لقي خطابه الافتتاحي الاستحسان. وكتبت بيل عن تلك اللحظة التاريخية: «ألقى الملك، مرتدياً زيه العربي، كلمة رائعة. كان متوتراً جداً... [لكن] تم استقباله بحماس».

ركز خطاب فيصل على أن هناك ثلاثة مسائل جوهرية أمام المجلس: التصديق على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية؛ إقرار القانون الأساسي؛ وسنّ قانون انتخابي. وأشار فيصل إلى دور المجلس في المساعدة على ترسيخ حدود البلاد. «اني أريد أن أوجّه أنظاركم إلى المعاهدة العراقية ـ البريطانية، محصول جهادنا السياسي في أحوال متباينة، وتحت مؤثرات شتى، مدة سنتين، حتى وضعت على ما ترونها عند عرضها عليكم من قبل الحكومة، مع بيان ما ينبغي بصددها، وبصدد سياستها الخارجية، وكيف أن ابرامها لازم، بما يتوقف عليه من حل مسائل حياتية، بمعاونة الحكومة البريطانية وجمعية الأمم، فعلى هذه المعاهدة تتوقف حسن سمعتنا في أداني الأرض وأقاصيها، ودخولنا في مصاف الأمم والحكومات المستقلة، غير مضطرين إلى تعريض كياننا القومي إلى مشكلات وتهلكات حربية». وأكد فيصل على الالتزام بمبدأ الشورى والحوار: «ان أحكام الاسلام مؤسسة على الشورى، وأعظم ما ارتكبته الطوائف الإسلامية من الخطيئات حيادها عن قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)، ويترتب على كل مسلم يعلم ما يأمر به دينه، حاكماً

كان أو محكوماً، أن يؤيد هذا الحكم الإلهي (الحكم بالشورى)، ومن تكاسل عنه، فقد خالف أمر الله»[12]. من المؤكد أن التزام فيصل بالشورى وبالعملية الديمقراطية كان صادقاً في ذلك الوقت، لكنه منحه حرية كبيرة باستغلال مواقف المجلس المعارضة لمطالب المقيمية.

بعد خطاب الملك، كان على المجلس أن ينتخب رئيساً له. وكان عبد المحسن السعدون مرشّح المقيمية. وكان فيصل قد وافق على ذلك مقابل استقالة السعدون من منصب رئيس الوزراء. كان البريطانيون قد قاموا بالفعل بحشد شيوخ القبائل للتصويت للسعدون. كان الشيوخ بغاية الحماس لإثبات ولائهم من خلال الإعلان عن تصويتهم لصالح السعدون على الملأ[13]، لكن سرعان ما ستدرك المقيمية البريطانية تقلب الولاءات القبلية. كما انتخب المجلس كل من داوود الحيدري، وهو كردي من أربيل والمساعد السابق للسلطان عبد الحميد، وياسين الهاشمي نواباً للرئيس. كان انتخاب ياسين مفاجأة غير مرغوب فيها لـ «المقيمية البريطانية». كان ياسين قد ترشّح ضد السعدون لمنصب رئيس المجلس، دون أن يحصل على غالبية الأصوات. كتبت عنه بيل، التي غيّرت وجهة نظرها حول الهاشمي تماماً، باعتباره «رأس الأفعى».

عودة آيات الله العظمى

كان النواب الشيعة يتوقعون أن ينتخب المجلس واحداً منهم، وهو السيد علوان الياسري، لمنصب نائب الرئيس. وكان فيصل شخصياً سيرحب بمثل هذه النتيجة، خاصة أن سياسة المصالحة مع الشيعة بدأت تؤتي ثمارها. فقد أعاد فتح قنوات الاتصال مع آيات الله المنفيين ودعا عدداً من الشخصيات القومية على إثارة قضية رجال الدين المنفيين علناً لخلق حالة ضاغطة تدفع دوبس لإعادة النظر في الأمر. بدأت الرسائل في الظهور في الصحافة القومية تشكر الحكومة الجديدة على نيتها المفترضة بالسماح لآيات الله بالعودة. توصل فيصل بحلول شباط (فبراير) 1924، إلى اتفاق مع دوبس يمهّد الطريق لعودة آيات الله العظمى. إلا أن دوبس ظل متمسكاً بموقفه تجاه آية الله مهدي الخالصي، ولم يقبل بعودته.

نصّت الشروط المفروضة على آيات الله العظمى على أن يؤكدوا لفيصل خطياً أنهم سيتوقفون عن التدخل في شؤون البلاد السياسية. كما كانت الرغبة في عودة آيات الله مدفوعة بعوامل أخرى. فقد أدت الأزمة بين إيران والعراق نتيجة الإبعاد الجماعي لكبار الشخصيات الدينية إلى مشاكل مالية خطيرة للحكومة العراقية. فقد تراجع تدفق الحجاج الإيرانيين إلى حدٍ كبير، وأصبحت الظروف الاقتصادية في مدن العتبات المقدسة مزرية. كما كانت هناك خسائر كبيرة في عائدات السكك الحديدية العراقية التي كانت تتأتى من نقل الحجاج. ومع ذلك، لم يكن فيصل يرغب في عودة آيات الله إلى العراق قبل انعقاد المجلس التأسيسي. فقد تتسبب عودتهم

السابقة لأوانها في حدوث اضطرابات وتنتقص من أهمية مراسم افتتاح المجلس. لحسن الحظ، ووفقاً لحسابات فيصل ودوبس فالمحادثات مع آيات الله العظمى لن تصل إلى أي نتيجة نهائية قبل ستة أسابيع على الأقل، أي بعد تاريخ افتتاح المجلس التأسيسي بمدة طويلة[14]. وفي حال ظهر آيات الله العظمى على الحدود الإيرانية والعراقية قبل أن يقدموا تعهداتهم، سيتم رفض دخولهم ببساطة.

كان فيصل قد بدأ مفاوضاتٍ جادة مع آيات الله العظمى من أجل عودتهم إلى العراق، لكن سرعان ما بدأت تظهر العقبات. فآيات الله قد رفضوا العودة إلى العراق إلا برفقة آية الله الخالصي. فقد قالوا إن التخلي عن زميلهم سيكون هو أمر مخزي. إلا أن فيصل ظل مصراً على موقفه بعدم السماح بعودة الخالصي. فما كان من آيات الله إلا أن رضخوا ووافقوا على مقابلة ممثل فيصل في المفاوضات، وهو عالم دين يُدعى السيد باقر وحيد العين، والذي سافر إلى إيران في 1 آذار (مارس) 1924، بصحبة اثنين من كبار رجال الدين، سعياً لإقناع آيات الله العظمى بالتوقيع على رسائل التعهد والعودة إلى العراق. وقد قام رئيس الوزراء الإيراني، رضا خان، الذي كان حريصاً على عودة آيات الله العظمى إلى العراق، بتقديم المساعدة خلال عملية التفاوض مع آيات الله العظمى[15].

أكدت الرسائل التي كتبها آيات الله العظمى إلى فيصل بشكل قاطع أنهم لن يعاودوا الانخراط في القضايا السياسية. وقال آية الله الأصفهاني: «نتعهد بعدم التدخل في الشؤون السياسية، وبالامتناع عن التدخل حتى لو طلب منا ذلك من قبل العراقيين لن نشارك... وجلالة الملك هو المسؤول عن تلبية احتياجات الشعب وتوجيهه... إن دعم الملك الهاشمي هو أحد مبادئنا الإسلامية وفقاً لديننا الإسلامي، وتوثيق الروابط بين إيران والعراق هو أيضاً جزء من واجباتنا الدينية»[16]. لا ينبغي النظر إلى هذا التصريح اللافت على أنه مجرد خضوع أعلى مرجعية دينية لدى المسلمين الشيعة لحكم فيصل. بل كإقرار حاسم أن عالم السياسة ليس بالمكان المناسب لآيات الله العظمى. مع ما قد يحمله هذا الأمر من إساءة إلى مكانة رجال الدين وتقويض لقدرتهم على توجيه أتباعهم والتأثير عليهم.

في 21 نيسان (أبريل) 1924، وصل آيات الله العظمى وحاشيتهم إلى بلدة خانقين الحدودية، حيث جرى لقاء رسمياً بوزراء الحكومة وغيرهم من كبار المسؤولين. وقام قطار خاص بنقلهم إلى بغداد، حيث التقوا بوزراء آخرين وممثل فيصل، صفوت العوا. أراد فيصل، انطلاقاً من روح تصالحية صادقة، تكريم عودتهم وعدم إظهار أي تقليل من مكانتهم بعد موافقتهم على شروطه[17].

بعد إلغاء الخلافة في أوائل آذار (مارس) 1924 على يد مصطفى كمال، أتيحت الفرصة

لفيصل أيضاً لصقل مؤهلاته الإسلامية. فقد طرح الشريف حسين، الذي شعر بخيبة أمل متزايدة من ثمار ثورته ضد العثمانيين، ومع ترنّح مملكته الحجازية، نفسه كخليفة جديد. كان في زيارة لابنه عبد الله في شرق الأردن عندما تم الإعلان عن إلغاء الخلافة. فقامت مجموعة من الشخصيات الدينية الفلسطينية والسورية بمبايعة الشريف حسين رسمياً بالخلافة في قرية الشونة في شرق الأردن. لكن خلافة حسين المزعومة لم تكن مطلباً عاماً للمسلمين، وكانت مكانة الحسين كخليفة قصيرة الأجل وغير ذات شأن في نهاية المطاف[18]. ومع ذلك، فقد كان للحدث شيء من الأهمية في ذلك الوقت. ففي العراق، تم تدفقت على فيصل برقيات التهنئة والتأييد لوالده، بما في ذلك، وهنا المفاجئة، رسائل من علماء مدن العتبات الشيعية المقدسة[19]. ردّ فيصل على هذه البرقيات بالشكر والتقدير، لكنه لم يكن مقتنعاً باستدامة الوضع الجديد لوالده. كان يدرك جيداً عزلة والده والصعوبات المتزايدة التي يواجهها ـ مع البريطانيين ومع ابن سعود ودولته المنهارة في الحجاز.

كتبت بيل إلى والدها في 12 آذار (مارس) 1924، توضح بالتفصيل رد فعل فيصل على هذا الخبر. «صباح يوم السبت تلقيت اتصالاً من القصر ليخبرني أن الملك (فيصل) قد تلقى برقيات من إخوته ومن اثنين من كبار الشخصيات الفلسطينية يعلنون فيها أن والده قد تم تنصيبه خليفة، وبينما كنت على وشك مغادرة المنزل، جاءت الأخبار من رويترز، بأن الأتراك قد ألغوا منصب الخليفة، فقمت بالاتصال بالقصر على الفور لأنقل لهم الأخبار. «طلب فيصل من بيل أن تتوجه إلى القصر مباشرة. «كان الملك هادئاً للغاية، وكان متأثراً بعمق ولكنه يتصرف بعقلانية شديدة. قال إنه من واجب كل مسلم صالح أن يجد خليفة جديداً. لم يكن ينوي فرض والده أو أي شخص آخر على الشعب العراقي، لكنه كان ينوي استدعاء رجال الدين والأعيان للتشاور معهم»[20].

تصاعد المعارضة للمعاهدة الأنغلو ـ عراقية

كانت المقيمية مخطئة في اعتقادها أن الانتخابات قد أفرزت مجلساً طيّعاً بأغلبية يمكن الاعتماد عليها لتمرير المعاهدة بسرعة. فسرعان ما ظهرت الاعتراضات على إقرار المعاهدة فور انعقاد المجلس. وارتفعت أصوات تنادي بعدم التصديق على المعاهدة، إلا من خلال استفتاء عام. والغريب في الأمر أن هؤلاء كان يقودهم سياسي من المفترض أنه معتدل وهو ناجي السويدي. وخارج المجلس، دعا عدد من المحامين للمطالبة إلى عقد اجتماع عام، بحيث يُتاح لخبراء القانون بأن أن يدلوا بآرائهم ودعوا المجلس إلى الأخذ بمقترحاتهم بعين الاعتبار. وكانت بيل قاسية في وصفها لهم بـأنهم «محامون أوغاد يفتقدون للخبرة»[21]. وسرعان ما تحوّل هذا

التجمع إلى تجمع قومي، حيث صدحت الأغاني الوطنية والشعارات المناهضة للمعاهدة. تم دفع بيل للإشارة إلى أن هذا الحدث قد تم بتحريض غير معلن من قبل ياسين الهاشمي بهدف إشعال نيران هو الوحيد القادر على إطفاءها. كان ياسين قد انتخب للتو رئيساً للجنة خاصة شكلتها الجمعية لدراسة المعاهدة ورفع تقرير حول ما توصلت إليه. ولقد تعهد لفيصل بأنه سيقدم تقريراً إيجابياً، لكن ياسين كان يتخذ مواقف مختلفة باختلاف الأشخاص الذي يلتقيهم. فقد كان موقفه الحقيقي من المعاهدة مجهولاً إلا له فقط، واستخدم اللجنة كمنصة لخدمة توجهاته الخاصة. فقد كان مصمماً على تقويض حكومة العسكري وإظهارها كحكومة ضعيفة وغير كفؤة، وغير قادرة على قيادة البلاد في الأوقات العصيبة.

استمر التحريض ضد المعاهدة خارج المجلس. وكان هناك مؤسستان تم تأسيسهما بدعم من فيصل، وهما نادي الإصلاح والمعهد العلمي، وكانا يقودان الحملة المناهضة للمعاهدة بين المثقفين. كما تم حشد الأطفال والنساء. فقد قامت النساء ذوات الإرادة القوية بمواجهة شيوخ القبائل في المجلس واتهامهم بإهانة أهلهم عبر بيع البلاد للأجانب. كما وقف الأطفال خارج منازل أعضاء المجلس، وعند خروجهم كانوا يناشدوهم للتصويت ضد التصديق على المعاهدة[22]. لكن التحريض ضد المعاهدة اتخذ أحياناً أشكالاً أكثر عنفاً. ففي 20 نيسان (أبريل) 1924، كاد اثنان من الشيوخ البارزين المؤيدين للمعاهدة أن يلقيا حتفهما بوابل من الرصاص أُطلق عليهما من قبل مجموعة من القتلة. فيما لجأ آخرون إلى قصر فيصل خوفاً من احتمال تعرضهم للاغتيال. وقام الشيخ القبلي المناهض للمعاهدة، سالم الخيون، بإدخال رجاله المسلحين إلى قاعة المجلس لإرهاب الشيوخ المؤيدين للمعاهدة. وحتى لا يتم التعرض له، دخل نوري السعيد، المؤيد للمعاهدة، إلى القاعة حاملاً قنبلة يدوية لتهديد أعضاء المجلس المناهضين للمعاهدة.

وسرعان ما أبدى شيوخ القبائل الذين كان يفترض أنهم حجر الأساس في الكتلة الداعمة للبريطانيين في المجلس مواقف متذبذبة بمجرد انتخابهم. لقد تعهدوا لفيصل وللمقيمية بأنهم سيدعمون المعاهدة. ومع ذلك، وبعد فترة وجيزة من انعقاد المجلس، انقسم تكتل الأغلبية، طالباً من فيصل أن يتضمن القانون الأساسي بشكل خاص عدداً من الامتيازات للقبائل[23]. ويشمل ذلك استمرار العمل بالقوانين القبلية الخاصة التي وضعتها بريطانيا، والتي صدرت عام 1918، والتي سمحت بحلّ النزاعات القبلية في إطار قانوني منفصل. وعلى الرغم من أن هذه القوانين كانت مصممة لمراعاة الطبيعة الخاصة للعادات والحقوق القبلية، إلا أنها كانت تهدف أيضاً إلى تقريب القبائل من السلطات البريطانية. كان تعريف المجتمع العراقي من خلال ثنائية الحضرية ـ العشائرية من ثوابت التفكير الرسمي البريطاني، حيث كان يتم التفريق بين الشخصية غير المتعاطفة والمتقلبة للأفندي العصري نوعاً ما (الحضري) وبين رجل القبيلة النبيل بفضائله

التقليدية. من الواضح أن المسؤولين البريطانيين فضّلوا رجال القبائل على سكان المدن. وعلى الرغم من تعلّق فيصل بالأساليب والتقاليد القبلية، إلا أنه كان عصرياً حازماً، وكانت طباعه تتعارض مع تقوية السلطات القبلية. ووفقاً للعادة العثمانية بإنشاء مدارس خاصة لأبناء زعماء القبائل، سعى فيصل إلى إنشاء مدرسة مماثلة في العراق لتعريفهم بأساليب الحياة الحديثة. لكنه تخلى عن هذا المخطط بالذات عندما عارضه ساطع الحصري، مدير وزارة التربية والتعليم، الذي كان يفضل سياسة تعليم موحدة ومركزية بالكامل للبلاد[24].

واقترنت الاضطرابات خارج المجلس باضطرابات متصاعدة داخله، كما اضطرت الحكومة إلى إحضار مفرزة من الشرطة لتأمين المنطقة المحيطة بالمجلس، وأوقفت عدداً من منشورات المعارضة[25]. وكانت تصرفات ياسين الهاشمي غامضة، فظاهرياً كان يشجع المعارضة، وفي الوقت نفسه كان يؤكد في نقاشاته الخاصة، كرجل دولة، أنه لا خيار أمام العراق سوى المصادقة على المعاهدة. يقدّم علي جودت، عضو المجلس، وجهة نظر مختلفة حول الغموض الذي شاب مواقف ياسين الهاشمي خلال هذه الفترة، وصلتِها بموقف فيصل الحقيقي. يقول علي جودت في مذكراته: «كنت اتصل بزعماء المعارضة من اعضاء المجلس، وعلى رأسهم ياسين الهاشمي، وانظِّم اتصالاتهم بالملك، واقرِّب بين وجهات نظرهم للاتفاق على ما هو صالح للدولة، وما يساعد على تحقيق اهدافها الوطنية... وقد كنا متفقين مع الملك وزعماء المعارضة على إن نستفيد قدر الإمكان من وضع المعارضة لتخفيف وطأة بعض المواد في المعاهدة وذلك في أثناء المذاكرة في بنودها وقبل أن تقدم الى المجلس وحتى بعد تقديمها اليه ومناقشتها فيه»[26].

لم يكن دور فيصل في هذه التقلبات السياسية المعقدة خافياً عن دوبس. فقد كتب إلى مكتب المستعمرات أن «الملك مسؤول بشكل مباشر عن الصعوبات الحالية، كما هو الحال في معظم الحالات، وأنا واثق من أنه لو تُرك الأمر للناخبين، لما تم انتخاب هؤلاء المتطرفين على الإطلاق»[27]. كان من الواضح أن دوبس يشير إلى إصرار فيصل على دعم عدد من قادة المعارضة في الانتخابات لمنح المصداقية للمجلس. كان الجناح التابع للملك، ممثلاً بالضباط الشريفيين وموظفي القصر، لا يزال ضعيفاً للغاية ولا تتوفر لديه الرغبة للعمل كقوة مستقلة بين شيوخ القبائل والأفندية الحضريين وقلة من الوجهاء في المجلس. استند البريطانيون على وجه الخصوص إلى نفور بعض زعماء القبائل من حاشية الملك، حيث زعموا أن تغير موقف هؤلاء الشيوخ فيما يتعلق بالمعاهدة كان بدافع الاستياء من حكم فيصل أكثر من رفضهم للسيطرة البريطانية[28].

كان دوبس، سراً، رافضاً للعملية برمتها ـ واصفاً النواب العراقيين بـ«العرب الجهلاء» ـ وكان مستعداً حتى للتخلي عن البلاد في حال تفاقمت الأمور أكثر. وقد ناقش، على غير العادة، الأمور السياسية في رسالة إلى والدته بتاريخ 1 أيار (مايو) 1924.

نحن نمر بأزمة سياسية متواصلة، فالمجلس الذي انتخب ليصادق على المعاهدة يتهرب، مع الحكومة العراقية، من مسؤولية التصديق ولا أعرف في الوقت الحالي ما إذا كانت ستنتهي الأمر بقرار من الحكومة البريطانية بالجلاء أم لا. لقد كانت فكرة عبثية بالطبع أن ندعو مجلساً من العرب الجهلة ونضع على عاتقهم مناقشة معاهدة معقدة. لكن هذه كانت أوامر رسمية من حكومة لويد جورج وعصبة الأمم وكان لا بد من تنفيذها. بعد تقديم شروحات كاملة بشأن المعاهدة، حافظت على وضعية اللامبالاة المطلقة، لأنني لو أبديت حرصاً مبالغاً على إقرارها، فإنهم سيعتقدون أن الحكومة البريطانية كانت تتوق للبقاء هنا بأي ثمن. من الصعب جداً إقناع مجلس الوزراء باتخاذ أي قرار، نظراً لوجود العديد من الأشياء الأخرى التي عليهم القيام بها، على الرغم من أنني سبق وكتبت برقية مطولة تنبأت فيها بما حدث بالضبط واستعرضت جميع البدائل التي يمكننا اعتمادها في حال عدم تصديق المجلس على المعاهدة. فأظن أنني سأضطر، إذا استمرت الأمور في هذا المسار الخاطئ، إلى الانتظار هنا حتى تم جلاءنا الكامل عن البلاد. أما إذا سارت الأمور على ما يرام، فسأخذ إجازة لمدة شهرين اعتباراً من 20 تموز (يوليو) أو ما يقرب من ذلك[29].

في أوائل أيار (مايو) 1924 وفي ظل هذه المشاكل المتصاعدة، عرض العسكري تقديم استقالته. فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن كل المشاكل كانت بتحريض من ياسين الهاشمي بهدف تشويه سمعة الحكومة وتقديم نفسه على أنه البديل الوحيد المعقول. استشار فيصل دوبس ودعا ياسين الهاشمي لتشكيل حكومة جديدة. سعى ياسين للحصول على مهلة مدتها أربع وعشرين ساعة، طلب خلالها من دوبس تعديل عدد من المواد التي اعتبرها مهينة في المعاهدة الأنغلو ـ عراقية. وعندما قوبلت طلباته برفض قاطع من دوبس، انسحب ياسين من النقاش، إلا أنه أكد لفيصل أن اللجنة المكلفة بمراجعة المعاهدة التي يرأسها ستقرأها. وعلى هذا الأساس وافق العسكري على الاستمرار في رئاسة الحكومة. وتوقعت بيل، التي وقعت مرة أخرى تحت تأثير الكاريزما التي يتمتع بها ياسين، أن المعاهدة سيتم تمريرها نتيجة إصرار ياسين. ولكن هذا لم يحدث.

في 20 أيار (مايو) 1924، أوصت اللجنة المشكلة لمراجعة المعاهدة في تقرير مطوّل برفضها لأنها لا تضمن الاستقلال الكامل للعراق. كما رفضت تحديداً، البنود التي دعت إلى رقابة بريطانية مستمرة على ميزانية العراق، وطالبت بتقليص كبير لوظائف المستشارين البريطانيين. كما طالبت بضرورة تمتع العراق بحرية نشر قواته العسكرية واستخدام منشآته اللاسلكية والتلغراف بحرية[30]. في 29 أيار (مايو)، نظمت المعارضة مظاهرات كبيرة بالتزامن مع مداولات المجلس النهائية حول المعاهدة. كان مبنى المجلس نفسه محاطاً بحشود غاضبة، وتم استخدام الذخيرة الحية لتفريق هذه الحشود.

تم تأجيل الجلسة حتى 31 أيار (مايو) ومن ثم مرة أخرى إلى 2 حزيران (يونيو). في ذلك اليوم، حضر دوبس، برفقة كورنواليس، أمام الجمعية في محاولة لتغيير آراء النواب المعارضين ولكن من دون جدوى. وأشار دوبس إلى المفاوضات بين بريطانيا وتركيا بشأن قضية الموصل وحذّر النواب من أن الأتراك يشعرون بالاستياء نتيجة إحجام المجلس عن المصادقة على المعاهدة. وأصبح موقف الأتراك من الموصل أكثر رسوخاً نتيجة لذلك، وكان العراق عرضة لخسارة ولاية الموصل[31]. ومع تصاعد التوترات في المجلس وفي شوارع بغداد، بدت حظوظ تمرير المعاهدة قاتمة. ازدادت الضغوط على فيصل، ليس أقلها من قبل دوبس ومكتب المستعمرات. وسعى فيصل إلى انتزاع بعض التنازلات من دوبس بخصوص إمكانية تعديل المعاهدة بعد المصادقة عليها. أبلغ دوبس الملك أن الحكومة البريطانية لن تقبل أي تعديلات على المعاهدة بعد التصديق عليها. إذا لم يتم كسر الجمود، فسيواجه فيصل تكراراً لهزيمة عام 1922.

كانت المقيمية البريطانية تواجه الآن احتمال انهيار سياستها تجاه العراق. واقترح دوبس على مكتب المستعمرات أنه يجب أن يتم تفويضه للضغط على فيصل لحلّ المجلس في حال رفض المصادقة على المعاهدة. عندها سيشكل فيصل حكومة جديدة تتوافق مع السياسة البريطانية. إذا رفض فيصل هذه المطالب أو لم يكن قادراً على تلبيتها، فسيضطر إلى التنازل عن العرش وستحكم بريطانيا البلاد بشكل مباشر[32]، وستمنح الجمعية مهلة حتى 10 حزيران (يونيو) للتصديق على المعاهدة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيتم وضع خطة دوبس للطوارئ موضع التنفيذ.

أصبح موقف فيصل حرجاً. فمن ناحية، كان يعلم أن المعاهدة كانت ضرورية لأنها تنظم العلاقات الأنغلو ـ عراقية وتضع معايير الانتداب، ولكن في الوقت نفسه، كانت العديد من شروط المعاهدة قاسية وستبطئ مسار العراق نحو تحقيق الاستقلال الكامل. كما كان يدرك أنه إذا فرض معاهدة لا تحظى بشعبية على شعبه في بداية عهده، فسيجد صعوبة في حشد الدعم الشعبي لحكمه. كان لابد من النظر إلى المعاهدة على أنها محطة على الطريق نحو مزيد من الحرية، وكإجراء ضروري سياسياً يتعيّن على العراقيين تحمله، ولكن لفترة مؤقتة فقط. في 9 حزيران (يونيو) 1924، وقبل بضع ساعات على إنذار دوبس الأخير، طلب فيصل من الجمعية تأجيل مناقشاتها وإرسال ثلاثة ممثلين عن كل لواء في المجلس لمقابلته في القصر بعد ظهر ذلك اليوم. وعندما اجتمع النواب خاطبهم فيصل بعبارات واضحة:

ولما قرأت المعاهدة واتفاقياتها شعرت ما شعر به المجلس وشعرت به الأمة، إلا أني لا أخفي عنكم شيئاً ولا أريد أن اكتم ما يكنّه صدري. أرى أن موقف البلاد في خطر فلا يجب أن نسير وراء العواطف بل يجب أن تحكم العقل... وأنتم المسؤولون فانا أرفع عني المسؤولية وألقيها عليكم...

أنا لا أقول لكم اقبلوا المعاهدة أو ارفضوها، انما اقول اعملوا ما ترونه الأنفع لمصلحة البلاد فان أردتم رفضها فلا تتركوا فيصلا» معلقاً بين السماء والأرض، بل أوجدوا لنا طريقة غير المعاهدة، وأنتم ترون اننا في حاجة إلى مال ورجال لنحارب الاتراك ونقاوم الانتداب البريطاني ونقف ازاء الايرانيين وغيرهم فانا أمامكم في ميدان الحرب والسياسة، وماضيي معلوم، فلا تضيعوا ما في يدكم[33].

كانت لهذه دلالة واضحة هي أن فيصل كان يعتبر المعاهدة شرّاً لا بد منه، لكن يمكن تجاوز آثارها الضارة بمرور الوقت.

اجتمع المجلس في 10 حزيران (يونيو) لاتخاذ موقف نهائي بشأن المعاهدة. تم إخبار جميع الممثلين بأن وقت استعراض العضلات قد انتهى. وتم إسكات الأصوات المعارضة بشكل ملحوظ، لكن كان ما يزال بعض الأمل في إيجاد خيار ثالث بين التصديق على المعاهدة ورفضها[34]، وتم طرح اقتراح لتأجيل الجلسة وطلب فيصل من دوبس مهلة ليوم آخر. انفجر دوبس غاضباً رافضاً أي تمديد. كتبت بيل: «لم يسبق لي أن رأيت أي شخصاً غاضباً بهذا الشكل، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، جاء اتصال من القصر يسأل عما إذا كان سيمنحهم مهلة ليوم واحد. لم يوافق دوبس على منحه المهلة، وطالب الملك بحلّ المجلس عند منتصف الليل، إذا تعذر عقد الجلسة في فترة ما بعد الظهر، وعلى أي حال سيأتي في الساعة الرابعة ويخبر الملك بما يدور في ذهنه»[35]. وكانت قد صدرت تعليمات، في اليوم السابق، إلى جميع المستشارين البريطانيين للوزارات بأن الحكم المباشر أصبح الآن احتمالاً جدياً، وكانت الحكومة البريطانية قد أبلغت عصبة الأمم بالفعل أنها قد تضطر إلى اقتراح صيغة بديلة للحكم في العراق. حاول فيصل إعادة المجلس إلى الانعقاد بعد ظهر اليوم العاشر من الشهر، لكن النصاب القانوني لم يكتمل. وصل دوبس إلى القصر حاملاً رسالة باللغة العربية غير موقعة تطالب الملك بحلّ المجلس. أمر فيصل رئيس الوزراء ورئيس المجلس، السعدون، باستدعاء المجلس قبل منتصف الليل بوقت كاف. ووصفت بيل الاندفاع المحموم في اللحظة الأخيرة لجمع النواب. « لم يكن جعفر [العسكري] حتى الساعة 8:30 مساءً يظن أنه يمكن أن يكتمل النصاب. كان معظم المعارضين قد ابتعدوا عن قصد من أجل تحقيق هذه الغاية. ذهب رستم حيدر رئيس ديوان الملك إلى نادي العراق بعد الثامنة بقليل ووجد الكثير منهم، رؤوف الجادرجي وناجي السويدي وآخرين، يتسكعون ويثرثرون. سألهم لماذا لم يكونوا في المجلس. حاول ناجي أن يسخر من الأمر بالقول إن كل هذا هراء ـ لن يكون هناك اجتماع قطعاً. أجاب رستم: «كل ما يمكنني قوله هو أنكم إذا لم تتوصلوا إلى قرار قبل منتصف الليل، فسيتم حل المجلس». مرة أخرى حاول ناجي ورؤوف إظهار عد التصديق، لكن في غضون 5 دقائق كانوا جميعاً يتسللون إلى المجلس للتصويت ضد المعاهدة.

أعطى جعفر أوامر للشرطة ـ التي يرأسها شقيقه ـ لركوب سيارات الأجرة، والذهاب لإحضار النواب من منازلهم. في الساعة 10:30، كان لديه نصاب مكون من 69 نائباً، فيما كان النصاب القانوني هو 51»[36]، وقد قامت الشرطة «بجرّ أحد الأعضاء من سريره، ودفعت به إلى سيارة، دون أن يعرف ما إذا كان ذاهباً إلى منصة الإعدام أو إلى مكان آخر، وعندما وصل إلى المجلس كان في حالة من الذهول والخوف تمنعه من الإدلاء بصوته!»

أخبر دوبس المجلس أن أي تأجيل آخر سيعتبر تصويتاً ضد المعاهدة. وتم رفض جميع اقتراحات التأجيل، كما تم رفض اقتراح المعارضة الذي دعا إلى تضمين التعديلات التي أوصت بها لجنة المعاهدة في المعاهدة النهائية قبل التصديق. ثم تم تقديم اقتراح الحكومة، والذي يوصي بأن يقوم فيصل بالتصديق على المعاهدة، وأن يقوم، فور التصديق عليها، بفتح حوار مع الحكومة البريطانية حول التعديلات التي اقترحتها لجنة المعاهدة. تم تمرير القرار بأغلبية 37 صوتاً مقابل 24 صوتاً وامتناع ثمانية عن التصويت. وأضيف إلى المعاهدة بند تحذيري تعتبر بموجبه المعاهدة باطلة في حال فشلت بريطانيا في ضمان بقاء الموصل مع العراق.

تم تفادي الأزمة بشأن المعاهدة. إلا أن المعاهدة التي اعتبرت جائرة وقاسية قوبلت برد فعل خامل بشكل مفاجيء. وتحدثت الصحف عن لامبالاة عامة الشعب إزاء تمرير المعاهدة، وعن اختفاء البلطجية والشبان المسلحين بالسكاكين من الشوارع، والذين احتلوا مكانة بارزة في المظاهرات ضدها[37]. كان من المدهش بالقدر نفسه غياب أي رد فعل من قبل مكتب المستعمرات عند إخباره بالمصادقة المعاهدة. هذه الحقيقة التي تم الاعتراف ببساطة بعد أسبوع من الحدث. لم يكن هناك كلمات شكر أو تقدير لـدوبس، الأمر الذي أزعجه كثيراً.

السير هنري دوبس

لقد أسهمت الضغوط الحثيثة التي مارسها دوبس واستعداده للذهاب إلى أقصى الحدود، بإقناع فيصل والعديد من النواب بأنه لا جدوى من التأجيل. لقد كان السير هنري دوبس متمرساً في منصب المفوض السامي. وُلِد هنري دوبس عام 1871 لعائلة من أصول إنكليزية وإيرلندية، وتلقى تعليمه في وينشستر ثم كلية براسينوس في أكسفورد. التحق بالخدمة المدنية في الهند عام 1892 وتم تعيينه لاحقاً كسكرتير خاص لنائب الحاكم في المقاطعات المتحدة[38]. كما شغل عدة مناصب في الهند قبل التحاقه بالبعثة البريطانية في كابول في عام 1904. حيث كان دوبس يقدم المشورة للحاكم الأفغاني، أمير حبيب الله خلال مفاوضاته مع الروس. عاد دوبس إلى الهند عام 1906 حيث شغل عدة مناصب إدارية، وخاصة في مقاطعة بلوشستان. وستكون لتجربته في التعامل مع قبائل المنطقة هناك أهمية كبيرة عند قدومه لاحقاً إلى العراق.

عند اندلاع الحرب، تم انتداب دوبس للعمل لدى كبير المسؤولين السياسيين في قوات الاستطلاع الهندية في بلاد الرافدين، بيرسي كوكس. وفي كانون الثاني (يناير) 1915 وصل دوبس إلى بلاد الرافدين ككبير الموظفين لدى كوكس. كانت مهمته الرئيسة هي العمل كمفوض الإيرادات ومقره الرئيسي في البصرة. لم تكن هذه المرة الأولى التي يحتك فيها دوبس مع ما كان يسمى آنذاك «بلاد العرب التركية». فقد قام بزيارة بغداد عام 1902 وقام بتقصي حقول النفط المتاخمة للحدود الايرانية ـ العثمانية في قصر شيرين. في الواقع، كان من المقرر أن يكون القنصل العام في بغداد عندما اندلعت الحرب.

كان دوبس ميالاً للعرب ومتحمساً لأداء مهمته. كتب دوبس إلى والدته في شباط (فبراير) 1915 من مقره في البصرة، قائلاً:

«لم أتقن اللغة العربية جيداً حتى الآن، وعلي الاعتماد على المترجمين إلى حد كبير لكي أتعامل مع العرب، على الرغم من أنني احتفظ بشيء مما تعلمته في رحلتي الاستكشافية إلى نهر الفرات في عام 1903. العرب متفوقون على الهنود في الأسلوب والحضارة، فهم رجال مستقلون وطيبون ولديهم أفكار عظيمة حول الضيافة ونوع من الفروسية الخاصة بهم. وهم يعيشون في بيوت فاخرة من الطوب. يسمع المرء حكايات كثيرة عن الفساد الأتراك وانعدام كفاءتهم. لكن لدي، رغم ذلك، شك مؤسف في أن العرب هم أسعد حالاً في ظل حكمهم (الأتراك) مما سيكونون تحت حكمنا عندما سنقوم بري صحراء بلاد الرافدين وتنظيم كل شيء ونستنفر الجميع وعدم السماح بالقذارات أو التراخي وعندما نخضعهم لصرامة سجلاتنا. لذا فإنني أعتبر أن إرسالي إلى هنا بمثابة تدبير إلهي للمساعدة في إرساء الأسس وكفرصة لمواجهة الإجراءات الروتينية المفرطة منذ البداية. إذا تمّت الأمور وفق طريقتي، فسيتم القيام بكل شيء لإحياء حضارة عربية حقيقية، وسيتم تعيين مسارات إدارة الوضع بحيث لا يؤدي زيادة الازدهار إلى حالة من الاضمحلال الروحي وزوال التقاليد المحلية الأصيلة»[39].

وسرعان ما توسعت مهام دوبس كمفوض للإيرادات لتشمل الإدارات المالية الحساسة الأخرى والتي أصبحت تحت سيطرة البريطانيين مع تقدم قواتهم إلى العراق. وشملت هذه المؤسسات الدينية، وأراضي الدولة، والجمارك والضرائب، والإدارة المالية للسلطات المحلية والمؤسسات التعليمية. لقد كانت مهمة ضخمة قام بها دوبس بفعالية ولكن على حساب صحّته. في آب (أغسطس) 1916، ونتيجة للعمل الشاق الذي تتطلبه طبيعة وظيفته وللمناخ غير الصحي كان لا بد من نقله إلى الهند.

استمر في تقلّد مناصب رفيعة في الهند، وحصل على لقب فارس نظيراً لخدماته. عاد دوبس إلى العراق في كانون الأول (ديسمبر) 1922 ليشغل منصب مستشار المفوض السامي الذي أُنشأ

حديثاً، وكان من المتوقع أن يخلف السير بيرسي كوكس. كان كوكس قد أوضح لرؤسائه أنه يريد يتولى المنصب لمدة ثلاث سنوات فقط، أو حتى تشكيل حكومة وطنية في العراق، وكان دوبس هو خليفته المفضّل.

استعد كوكس لمغادرة العراق بعد توقيع بروتوكول المعاهدة الأنغلو ـ عراقية في 30 نيسان (أبريل) 1923، وفي الشهر التالي خلف دوبس كوكس كمفوض سام. وقد قال كوكس لاحقاً، مشيداً باستحقاق دوبس للمنصب: «أنها من المرات القليلة التي يكون فيها المسؤول المحال على التقاعد سعيداً بأن يخلفه، كما في هذه الحالة، الرفيق الذي طالما تمنى أن يخلفه»[40].

كان دوبس رجلاً طويل القامة متين البنية، وكان سريع الغضب ويخفي شخصيته الحقيقية خلف مظهر جدي. وهناك الكثير الأمثلة على نوبات غضبته. وكان معروفاً بأنه كان يرمي المخابر على الموظفين الذين يغضبونه. تتذكر بيل إحدى نوبات غضب دوبس في ربيع عام 1924 في رسالة إلى والدها بتاريخ 1 نيسان (أبريل) 1924. «أوه، يجب أن أخبركم بقصة غريبة عن دوبس وزوجته. يُقال إن السير هنري قد أعطى البستاني بعض البذور ليقوم بزرعها في أحواض صغيرة، ولكن عندما نبتت البذور ترك البستاني الطيور تأكلها فغضب السير هنري كثيراً لدرجة أنه قام برمي الأحواض أسفل الدرج وكسرها على الحصى في الأسفل. ثم جاءت السيدة دوبس من خلفه وقالت: «معك حق يا هنري. إذا لم يكن المفوض السامي يستطيع فعل ما يحبه، فمن يستطيع؟ « كانت القصة قريبة إلى الواقع لدرجة أني سألتها، وقد تذكرت مقولتك المأثورة، عما إذا كان هذا قد حدث بالفعل. فأجابت بجدية: «لا». «هنري كسر الأحواض قبل مجيئي. لكن ما أقوله دائماً هو أن هنري له الحق في ضرب البستاني كل صباح أحد. إنها تسليته الوحيدة»[41]. ومع ذلك، كان معظم الذين عرفوه ينظرون إليه كرجل محترم ولطيف. وكانت غيرترود بيل تحمل وجهة نظر إيجابية عنه، على الرغم من أن دوبس قد أحضر معه سكرتيرته المستشرقة، الكابتن فيفيان هولت، بدلاً من الاحتفاظ بها. عملت هولت كمترجمة وسكرتيرة ومسؤولة العلاقات العامة.

القانون الأساسي وصلاحيات الملك

كان البند التالي على أجندة فيصل، مع إقرار المعاهدة الأنغلو عراقية، هو دستور البلاد أو القانون الأساسي، الذي سيحدد طبيعة الدولة، بالإضافة إلى سلطات الملك. كان الدستور يحظى بأهمية كبيرة لدى فيصل، وبدأ العمل على صياغة مسودته منذ العام 1922.

كان الهدف الرئيس لفيصل هو ضمان أن تكون سلطاته هي المهيمنة في البلاد، وأنه سيحظى بصلاحية تعطيل قرارات السلطة التشريعية بالإضافة إلى تعيين وزراء حكومته. لم يكن فيصل من دعاة الملكية الدستورية ذات الصلاحيات الرمزية والخاضعة للمسؤولين المنتخبين. كان هذا النمط

من الملكية، في الواقع، غريباً حتى على القوميين الراديكاليين، الذين كانوا يتوقعون أن يحظى الملك بسلطات واسعة. لقد أدرك فيصل أهمية العملية الانتخابية وضرورة وجود مجالس تشريعية منتخبة لتعكس التيارات السياسية في البلاد، لكنه لن يقبل بأن سلطاته أقل من سلطة السياسيين، الذين كان يعتبر أن معظمهم انتهازيين وتسيّرهم مصالحهم الضيقة. قد يكون مضطراً لأن يتعامل معهم، وأن يستجيب لطلباتهم في حالات معينة، إلا أن أفضل السبل لتحديث العراق يمكن أن تتحقق من خلال ملك قويّ الإرادة وحازم، وليس بواسطة حفنة من السياسيين الجدليين. لقد رأى ما حدث في سوريا، حيث كان يلقي باللوم في انهيار نظامه جزئياً على السياسيين المتخاصمين والانتهازيين وتصرفاتهم المتطرفة وغير المسؤولة. ظهر حكّام، في جميع أنحاء الشرق، مدفوعين بميول ديكتاتورية. لم يكونوا قد استولوا بعد على السلطة بالكامل في دول مثل تركيا وإيران وأفغانستان، لكنهم جميعاً أسهموا في خلق النظرة السائد في تلك الفترة بأن إخراج بلادهم من التخلف لا يمكن تحقيقه إلا بالحكم ذو القبضة الحديدية. لم يكن فيصل من طينة هؤلاء الحكّام نفسها. فميوله الاستبدادية لم تكن نتاج لخلفيته العسكرية، بل كانت مرتبطة بتراثه الشريفي وسلطته الطبيعية. إحساسه بأن نسبه ومآثره وحسه السياسية يمنحه أسبقية على السياسيين. وكان فيصل في الوقت نفسه، مدركاً تماماً للتنوع في العراق الأمر الذي جعله يضفي شيئاً من الاعتدال على خططه، دون أن يتخلى عنها، لبناء دولة مركزية وتوحيدها معاً لتحقيق الغاية الجديدة.

فقد تم التصديق على الدستور بسرعة ملحوظة، مقارنة بالجهود التي بذلت للتصديق على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية. ولقد أوضح دوبس أنه لا يمكن أن يتضمن الدستور موادَ أو أحكاماً تتعارض مع المعاهدة الأنغلو ـ عراقية[42]. وقبلت المعارضة في المجلس بهذه القيود المحدودة، المتعلقة بشكل أساسي بتوظيف المستشارين الأجانب في الحكومة العراقية. فيما قام اثنان من أعضاء المجلس بمحاولة فاشلة لحرمان الملك من الحق في ترشيح أعضاء لمجلس الشيوخ المقترح في العراق. وتقدموا باقتراح بأنه ينبغي انتخابهم، لكن اقتراحهم قوبل بالرفض. لم يكن لدى فيصل مشكلة في استخدام أساليبه الخاصة في لإقناع أعضاء البرلمان المتذبذبين للحصول على ما يريد، بما في ذلك تقديم الوعود بمناصب مستقبلية في الحكومة أو مجلس الشيوخ[43].

تلاقت رغبة فيصل في ترسيخ سلطات ملكية واسعة النطاق في دستور البلاد مع رغبة بريطانيا. تم التعبير عن السلطة التي احتفظت بها بريطانيا لنفسها في المعاهدة الأنغلو ـ عراقية من خلال اعتبار المفوض السامي كمستشار للملك. ولا يمكن للمفوض السامي، من خلال هذا الدور، أن يمارس نفوذه ما لم يحظى الملك بسلطات دستورية واسعة. لذلك كان من مصلحة بريطانيا الجلية أن يمنح الدستور سلطات واسعة للملك. في الواقع، فقد تم التعبير عن العلاقة التعاقدية مع العراق رسمياً، من خلال شخص الملك كطرف موقع. يتجلى هذا الموقف السياسي

من خلال المراسلات الرسمية بين لندن والمقيمية. ففي رسالة كوكس إلى تشرشل بتاريخ 4 كانون الأول (ديسمبر) 1921، كتب كوكس: «كلما زادت السلطات الممنوحة للملك، كان من الأسهل على المفوض السامي التأثير على مسار الأحداث». كما سجلت محاضر قسم الشرق الأوسط بتاريخ 31 آذار (مارس) 1923 هذا الموقف. «كان من الضروري صياغة الدستور بحيث يمكننا من السيطرة على البرلمان العراقي من خلال الملك لضمان الوفاء بالعلاقات التعاقدية»[44].

كرّس الدستور العراق كملكية دستورية وراثية، حيث الملك هو رأس الدولة. ومنح الملك سلطة الإشراف على عملية التشريع برمتها، كإقرار القوانين وإصدارها، والإشراف على تنفيذها. ويحق للملك أن يدعو إلى انعقاد المجلس، وافتتاح جلساته، أو تأجيلها، أو تعليقها، أو حلّ المجلس. كما يمكنه اختيار رئيس الوزراء والوزراء وقبول استقالتهم. وكان مخولاً لتعيين وفصل أي مسؤول. كما كان الملك هو القائد العام للقوات المسلحة، ويمتلك صلاحية إعلان الحرب وإعلان الأحكام العرفية.

بإمكان فيصل الآن أن يبني سلطته وقاعدة دعمه على هذه الامتيازات الملكية الكاسحة. لكن يتوجب عليه أيضاً التعامل مع الصلاحيات التي يحتفظ بها المفوض السامي. الأمر الذي ستسبب بحالة من التوتر، ستصبح السمة البارزة لعهد فيصل من الآن فصاعداً: لم يكن الأمر صراعاً للحصول على الصلاحيات، فهذه الصلاحيات أصبحت مكرسة دستورياً، بل في ممارسة هذه الصلاحيات في مواجهة مقاومة المندوب السامي. كان على فيصل أيضاً أن يخطط للظروف التي كانت فيها نصيحة المفوض السامي غير محبذة أو غير مقبولة.

تم حلّ المجلس في 2 آب (أغسطس) 1924 بعد إقراره للمعاهدة الأنغلو ـ عراقية والدستور وقانون الانتخابات. وفي اليوم نفسه الذي استقالت فيه حكومة العسكري قام الملك، بعد التشاور مع دوبس، بتكليف ياسين الهاشمي برئاسة الوزراء. لقد اتسم سلوك ياسين خلال المصادقة المضنية للمعاهدة الأنغلو ـ عراقية متناقضاً. ففي حين قام هو بالتصويت ضد المعاهدة، فقد نصح أنصاره بالتصويت لصالحها، وقد لامته عدة صحف بسبب غموض مواقفه المدروس. لكن حضوره كان طاغياً وترشيحه لمنصب رئيس الوزراء كان حتمياً. أراده فيصل تحت «مظلة» الحزب الحاكم، ووافق دوبس، الذي كان يشكك في ولاءات ياسين، أخيراً على قرار فيصل. عيّن ياسين نفسه وزيراً للخارجية ووزيراً للدفاع. إلا أن فيصل الراغب في الحفاظ على سيطرة فعالة على الجيش، قام باستخدام صلاحياته كقائد أعلى، لإحداث منصب نائب القائد، الذي عهد به إلى حليفه المقرب نوري السعيد. ففيصل لن يسمح لهذه المؤسسة الرئيسة بأن تصبح ألعوبة في يد السياسيين.

كان فيصل الآن في سنته الثالثة على العرش. كان دوره كملك يتنامى، وبنفس القدر من الأهمية، كان رعاياه يعتادون على تواجده كملك عليهم[45]، وقد بدا أن تأثيره يمتد خارج العراق

أيضاً. فقد كان زعماء القبائل من الحجاز وجنوب سوريا الذين يسعون لمواجهة التهديد الوهابي لمناطقهم التقليدية، والسياسيين القوميين الفارين من الاستبداد الفرنسي في بلاد الشام، وزعماء حركة الخلافة الهندية(*) شقوا طريقهم جميعا إلى فيصل. وأصبحت بغداد نقطة جذب للعرب والمسلمين الذين كانوا يسعون للحصول على دعم فيصل المادي والمالي لقضاياهم. وكانت بيل قد رأت فيصل مصادفة، خلال مباريات البولو، محاطاً بزعماء القبائل من نجد. «رأيت الملك بعد الظهر في بطولة البولو العربية. ولا بد لي من القول أنه كان في غاية السعادة؛ فقد كان يرتدي أجمل ملابسه العربية وكان يؤدي دور ملك العرب بأرقى صوره. كان محاطاً بشيوخ قبائل نجد الذين هربوا من ابن سعود ولجأوا إلى فيصل، الأمر الذي يرضي الأخير كثيراً!»[46]. وصفت بيل واقعة أخرى، عندما كانت في زيارة لفيصل لتناول الشاي في فترة بعد الظهر، حيث صادفت الثعلب العجوز نوري الشعلان أمير قبيلة الروَلة.

«كنت أتناول الشاي مع صاحب الجلالة بعد ظهر ذلك اليوم حيث كانت الأجواء شرقية جميلة. وكان (الملك) يجلس في حديقته بالقرب من إحدى النوافير بزيه العربي الكامل، الأبيض والذهبي الذي يميز أمراء مكة. وجلس إلى جواره، على حافة النافورة الحجرية، ثلاثة من كبار شيوخ البادية. نوري الشعلان، ذو الملامح المتجهمة والعبوسة، مرتدياً كوفية حمراء وقد غطا بها، كعادته، فمه وذقنه. وعجيل الياور، بجسده الضخم، ويداه الطويلتان الناعمتان اللتان تمسكان بسبحة من العنبر ووجهه المشرق بابتسامة هادئة ولطيفة؛ وعلي سليمان، الشيخ الفلاح القوي الذي تمتد سلطته من الفلوجة على طول نهر الفرات إلى الحدود. وقد أحاطت بهم أمواج من زهور القطيفة، الذهبية والبرتقالية، التي انتشرت في أحواض الحديقة وفوق النافورة، ويعلوها الأقحوان الأبيض والأصفر، لتتماهى مع ملابس الملك البيضاء والذهبية. كما كانت الشمس وقد مالت نحو الغروب ترسل أشعة طويلة ناعمة بين شجيرات الصفصاف والنخيل، لتضفي بريقاً على الأزهار الذهبية والبرتقالية والبيضاء. ـ وكان الحديث يتناول الصحراء وصراعاتها الدنيوية. كان نوري يحاول إقناع الملك بمساعدته على استعادة الجوف، التي استولى عليها ابن سعود. كان الملك يمازح نوري، الذي لم يكن يَكُنّ له أي مشاعر حب، لأنه يتبع أي شخص يدفع له، قائلاَ: «لمن تدين بولائك يا نوري؟ في حال أردت الحصول على جواز سفر هل تذهب إلى الفرنسيين أم إلى سيدي عبد الله أم لمن؟ أم أن الجمل هو جواز سفرك أم سيفك ورماحك؟» امتقع وجه نوري وشدّ الكوفية الحمراء حول فمه»[47].

كان فيصل لايزال محافظاً على مهارته في التعامل مع شيوخ القبائل.

(*) حركة الخلافة: هي حركة ظهرت في الهند في الفترة ما بين 1919–1924 م تسعى لتقديم الدعم للخليفة العثماني. قاد الحركة الشقيقان محمد علي وشوكت علي. (المترجم)

هوامش الفصل الحادي والعشرون

1 ـ مكتب المستعمرات 730/57/17213 تاريخ 10 كانون الثاني 1924. من المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات

2 ـ خيري العمري، مرجع سابق، ص. 105

3 ـ المرجع نفسه، ص. 106

ـ 4 مكتب المستعمرات 730/43/60035 تقرير الاستخبارات 1 كانون الأول 1923

5 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 13 شباط 1924

6 ـ خيري العمري، مرجع سابق، ص 109 ـ 111.

7 ـ خيري العمري، مرجع سابق، ص 109 ـ 111.

8 ـ من مستشار وزارة الداخلية إلى كل المفتشين الإداريين، 8 شباط 1924، (مذكرة سرية جداً) رقم SO/41 الملف SB/28، سري. موجودة في وزارة الداخلية بغداد. أيضاً الأدهمي، المجلس التأسيسي، مرجع سابق، ص. 87. الحاشية 229.

9 ـ محمد مظفر الأدهمي، المظاهر السياسية للبرلمان العراقي مرجع سابق، ص 89 ـ 90.

10 ـ مكتب المستعمرات 731/57/3931 مذكرة حول الشؤون الداخلية العراقية وضعتها غيرترود بيل. أيضاً: نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 124

11 ـ الأدهمي، المظاهر السياسية للبرلمان العراقي، مرجع سابق، ص. 92. الحاشية 43

12 ـ عبد الرزاق الحسني، المجلد 1، مرجع سابق، ص. 214 ـ 215

13 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 1 نيسان 1924

14 ـ محمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص. 561

15 ـ علي الوردي، المجلد 6، مرجع سابق، ص. 260

16 ـ وثائق الأرشيف الملكي، بغداد: المسلسل 3، الوثيقة 55؛ والوردي، المجلد 6، مرجع سابق، ص 263، الحاشية 16

17 ـ قبل أسابيع قليلة، عاد السيد محمد الصدر، المنفي بسبب تحريضه على الانتخابات، إلى العراق. يبدو أن الصدر قد غيّر وجهات نظره السياسية تماماً أثناء وجوده في المنفى، وأصبح مؤيداً وإيجابياً تجاه خط الحكومة. ومن ناحية أخرى، لم يُسمح للشيخ محمد مهدي الخالصي، نجل مهدي الخالصي، بالعودة رسمياً حتى عام 1949. وبقي في إيران باستثناء فترة عودة قصيرة فاشلة إلى العراق في نيسان (أبريل) 1932، والتي يكد يأتي حتى طُرد

مرة أخرى. عانى كثيراً على يد الحكومة الإيرانية. وعند عودته إلى العراق في عام 1949، لقي استقبالاً جيداً في البداية، ولكن تم التخلي عنه تدريجياً من قبل أنصاره السابقين.

18 ـ إن مسلمي الهند هم بصورة عامة ضد أن يكون حسين خليفة، وكذلك ابن سعود والوهابيين، والملك فؤاد في مصر. وقد تم وصف هذه الحادثة بصورة جيدة في: جاشوا تيتيلباوم، مرجع سابق، ص 241 ـ 248.

19 ـ عبد الرزاق الحسني، المجلد 1، مرجع سابق، ص 198 ـ 199. وجاشوا تيتيلباوم، مرجع سابق، ص. 245 والحاشية 68

20 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 12 آذار 1924

21 ـ المرجع نفسه، رسالة 24 نيسان 1924

22 ـ علي الوردي، المجلد 6، مرجع سابق، ص 277 ـ 278.

23 ـ المرجع نفسه.

24 ـ ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، المجلد 1، منشورات دار الطليعة، بيروت 1967، ص. 147

25 ـ علي جودت الأيوبي، ذكريات، مرجع سابق، ص. 172

26 ـ المرجع نفسه، ص ص 172 ـ 173.

27 ـ مكتب المستعمرات 730/58/22744 من المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات 11 أيار (مايو) 1924.

28 ـ مكتب المستعمرات 730/59/18924 من المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات 17 نيسان 1924.

29 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 1 أيار (مايو) 1924، تحية إلى آن وهنري ويلكس.

30 ـ مكتب المستعمرات 730/59/26329. ومحمد مظفر الأدهمي، المجلس...، مرجع سابق، ص. 112 والحاشية 64.

31 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء 1، ص ص 226 ـ 227. وكان السير بيرسي كوكس يقود الوفد البريطاني إلى اسطنبول للتفاوض مع الأتراك بشأن قضية الموصل..

32 ـ مكتب المستعمرات 730/59/24298 من المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات 2 حزيران 1924.

33 ـ عبد الرزاق الحسني، المجلد 1، مرجع سابق، ص 220 ـ 222؛ علي الوردي، المجلد 6، مرجع سابق، ص 291 ـ 292.

34 ـ محمد مظفر الأدهمي، المظاهر السياسية...، مرجع سابق، ص 129 ـ 130.

35 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 11 حزيران (يونيو) 1924.

36 ـ المرجع نفسه، رسالة 18 حزيران (يونيو) 1924.

37 ـ صحيفة الأوقات البغدادية، 12 حزيران (يونيو) 1924.

38 ـ نعي: السير هنري كونوي دوبس، مجلة الجمعية الأسيوية المركزية الملكية، المجلد 21، العدد 4 لعام 1934، ص 708 ـ 716. تم توقيع النعي من قبل P.Z.C. وA.T.W. وهما دون شك آ.ت ويلسون وبرسي كوكس.

39 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري كونوي دوبس، رسالة 14 شباط (فبراير) 1915، تحية إلى آن وهنري ويلكس.

40 ـ نعي: السير هنري كونوي دوبس، مرجع سابق، ص. 712

41 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 1 نيسان (أبريل) 1924.

42 ـ محمد مظفر الأدهمي، المظاهر السياسية...، مرجع سابق، ص. 141 الحاشية 171.

43 ـ وزارة الخارجية 371/7806/10/00 تاريخ 24 تموز (يوليو) 1924، رسالة سرية من نائب المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات. أيضاً: نور مصالحة، مرجع سابق، ص 134 ـ 135.

44 ـ مكتب المستعمرات 730/23/10606 محضر اجتماع دائرة الشرق الأوسط، 31 أذار (مارس)،1923. أيضاً: نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 135 ـ 136 الحاشية 152 ـ 153.

45 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 11 كانون الأول (ديسمبر) 1923.

46 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 13 شباط (فبراير).1924

47 ـ غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 6 كانون الأول (ديسمبر).

الفصل الثاني والعشرون: النفط وقضية الموصل

شكّلت كل من المعاهدة الأنغلو ـ عراقية، والدستور وقانون الانتخابات الإطار المؤسساتي لمملكة فيصل، طوال فترة الانتداب على الأقل. لكن هناك عامل حاسم آخر يلوح في الأفق الآن، طرح مسألة شكل الدولة العراقية حرفياً. فقد كان ما يقرب من ثلث مملكة فيصل لا يزال محل نزاع. فالسيادة على منطقة الموصل العثمانية السابقة بأكملها محل نزاع مع الدولة التركية الجديدة. كانت المنطقة تحت السيطرة العسكرية البريطانية، وكان للعراق سلطة أمر واقع على المنطقة، لكن فيصل لا يزال بحاجة إلى موافقة رسمية من عصبة الأمم لدمج هذه المنطقة الكبيرة مع العراق. ومع ذلك، فإن «قضية» الموصل لم تكن مجرد مسألة ضم مساحة كبيرة من الأرض إلى العراق، على الرغم من أنها كانت أرضاً مأهولة بالسكان وثرية. كانت احتمالات اكتشاف واستغلال الموارد النفطية الكبيرة واقعية للغاية، مما سيمنح موارد الدولة العراقية الجديدة المالية غير المستقرة دفعة حيوية. كما كان لها أهمية كبيرة في توازن القوى داخل البلاد وطبيعة الشعب الذي سيحكمه فيصل.

كانت الغالبية العظمى من سكان الولاية من المسلمين السُنّة، وإذا تم دمج ولاية الموصل في العراق، فهذا سيؤدي إلى إضعاف الغالبية الساحقة من الشيعة في باقي مناطق العراق. لم يكن واقعاً غريباً أن تكون الأغلبية الشيعية في العراق، محكومة من قبل ملك غريب عن البلاد ويستند في حكمه على النخبة الحاكمة من العرب السُنَّة. على العكس من ذلك، ستجلب الولاية إلى العراق مجموعة مختلطة من العرب والأكراد والكلدان والآشوريين والتركمان، مما يؤدي إلى إدخال عنصر كبير غير عربي إلى مملكة فيصل. ومن المؤكد أن مهمة قيام وحدة وطنية متماسكة بين هؤلاء السكان المتنوعين ستكون أكثر إشكالية. الأكراد على وجه الخصوص سيكونون مترددين في إلحاقهم بدولة ذات صبغة قومية عربية واضحة.

كانت غاية فيصل أن يحوّل هؤلاء السكان المتنوعين إلى أمة، لكنه كان محاصراً بمجموعة متناقضة من السياسات. فمن ناحية، كان متسامحاً بطبعه وعامل طوائف البلاد المتنوعة بقدر من الاحترام والمساواة. كان مشروع فيصل يتجاوز الولاءات والهويات الطائفية من خلال صياغة وعي وطني، يؤكد على الروابط المشتركة للأمة. يجب أن يكون ولاء سكان أرض العراق قبل كل شيء للدولة القومية الإقليمية للعراق. لقد كان يؤكد باستمرار على ضرورة قبول التنوع في البلاد

والاعتراف به، وسعى إلى الوقوف على الحياد بين كافة الطوائف والأديان والأعراق. كان هذا هو موقفه الدائم. لكنه كان مرتبطاً أيضاً بزمرة صغيرة من الضباط والموظفين العرب السُنّة الذين شكلوا قاعدة سلطته في العراق. لم يروا الأمور دائماً من المنظور الحميد نفسه. ولأنهم كانوا يدركون إن التركيبة السكانية ليست لصالحهم، فقد خططوا لترسيخ سلطتهم كطبقة عن طريق السياسات المتشددة، والترهيب، ونشر خطاب قومي عربي متشدد. كان فيصل يدرك هذا اللغز. لقد كان هو نفسه من المدافعين عن الفكرة القومية، ولم يتنازل أبداً عن أمله في كونفدرالية عربية واسعة، تحت قيادته، أو على الأقل قيادة عائلته. يمكن لقوة قيادته التوفيق بين هذا الخليط من الأهداف والمخططات المتضاربة، ولكن مع تزايد إلحاح قضية الموصل، تُركت هذه التفاصيل الدقيقة جانباً. كان أكثر ما يهمه هو دمج ولاية الموصل لتقديم التعريف النهائي لحدود العراق وتعزيز سلطته على هذه الدولة.

قضية الموصل

لم يكن فيصل، حتى في أيامه الأولى في العراق، غافلاً عن الأهمية الحيوية للموصل بالنسبة لحكمه. وأول زيارة قام بها خارج بغداد، بعد جلوسه على العرش، كانت إلى الموصل. وقد ألقى فيصل كلمة أمام وفد من أهالي الموصل، ذكّرهم فيها بأهمية وحدتهم وإصرارهم لتحقيق انضمام الولاية إلى العراق[1]. كما قام بأرسال شقيقه زيد للشد من عزيمة الأهالي في مواجهة التوغلات التركية المستمرة في الولاية. وقد رد فيصل، خلال زيارته الثانية للمدينة في أيار (مايو) 1923، على الادعاءات التركية بشأن الولاية، مشيراً إلى أن الولاية «انفصلت عنها [الجمهورية التركية] نهائياً ولا عودة إلى الماضي»[2]. كما ذكَّر الأتراك بأن ادعاءاتهم يمكن أن تُقابل بادعاءات عراقية مضادة بشأن ولايات ديار بكر وأورفا وماردين التركية التي تضم عدداً كبيراً من السكان الأكراد والعرب[3].

شمل النزاع في الموصل أراضي تبلغ مساحتها 35 ألف ميل مربع ويبلغ عدد سكانها قرابة 900 ألف نسمة. وقد أيّدت معاهدة سيفر التي لم تتم المصادقة عليها، إلى حد كبير، مطالبة العراق بهذه الأراضي. لم تتمكن معاهدة لوزان البديلة بين الحلفاء والأتراك من التوصل إلى اتفاق يحسم مصير الإقليم. ومع ذلك، فقد تم الاتفاق على استمرار الوضع العسكري الراهن، وإحالة الأمر إلى عصبة الأمم إذا لم تتمكن بريطانيا وتركيا من التوصل إلى اتفاق بشأن الموصل في غضون تسعة أشهر من التصديق على المعاهدة. وفي 6 آب (أغسطس) 1924، أحالت بريطانيا الأمر رسمياً إلى عصبة الأمم لاتخاذ قرار بشأنه[4]. وكان الجيش التركي قد عبر الحدود العراقية، وعلى الرغم من تصدي سلاح الجو الملكي البريطاني له، إلا أنه خلّف الكثير من الدمار، لا سيما في القرى التي يقطنها الآشوريون.

أقرت عصبة الأمم في أيلول (سبتمبر) 1924، تشكيل لجنة تحقيق فنية لاستقصاء الواقع على الأرض. ترأس اللجنة، المؤلفة من ثلاثة أشخاص، دبلوماسي سويدي، هو كارل أينر دي ويرسن، وضمت الكونت بال دي تيليكي، رئيس وزراء مجري سابق وعالم جغرافيا بارز، وضابط بلجيكي متقاعد هو العقيد ألبرت باوليس. كما وضعت العصبة أيضاً حدوداً مؤقتة إلى الجنوب قليلاً من الحدود الشمالية للولاية العثمانية (ما سمي «خط بروكسل»)، لحين التوصل إلى حل نهائي للمسألة. بدأت اللجنة استعداداتها لزيارة العراق، ووصلت بغداد في منتصف كانون الثاني (يناير) عام 1925. وهناك انضم إليها المساعدون وخبراء من كلا الطرفين. ضم فريق الخبراء الأتراك اثنان من العراقيين السابقين، أحدهما تركماني من عائلة النفطجي والآخر كردي، صهر المتمرد الشيخ محمود، الأمر الذي أثار غضب العراقيين ووصفتهما الصحافة في بغداد بأنهما خونة[5].

قام فيصل في كانون الأول (ديسمبر) 1924 بجولة شملت جميع المدن الرئيسة في شمال العراق: الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية، مستبقاً زيارة لجنة التحقيق المتوقعة. وكان برفقته القيادي الكردي البارز إبراهيم الحيدري، وهو رجل دين، وكان يشغل حينها منصب وزير الأوقاف، والتركماني صبيح نشأت، وهو من أعيان كركوك ووزير سابق[6]. كانت نتائج هذه الزيارة جيدة بشكل عام. كان الوجهاء التركمان في كركوك يدعمون بشكل عام ضم المنطقة إلى العراق. وكان فيصل قد عرض على عددٍ منهم مناصب رئيسية في حكومة الولاية وفي مجلس الشيوخ. كان الأكراد أكثر غموضاً، لكن فيصل تمكن من حشد دعم المنافسين التقليديين للشيخ محمود. إلا أن فيصل وجد أنصاره الأكثر حماسة في مدينة الموصل، حيث يتواجد أكبر تجمع للناطقين باللغة العربية. كانت هناك رغبة حقيقية لدى معظم السكان العرب للانضمام إلى الدولة العراقية الجديدة، وزيارة فيصل شدّت من عزيمتهم. وكتب متصرف الموصل عبد العزيز القصاب في مذكراته أن زيارة فيصل «تركت انطباعا ممتازاً لدى سكان الولاية وقياداتها ووجهاءها. وشجعت المترددون والقلقون. عرض الكثيرون القتال من أجل الهوية العربية للموصل، وأن ينظموا عرائض ومذكرات للجنة [التحقيق] تطالب الأتراك بوقف خططهم لـ «تتريك» الولاية؛ وهذا من شأنه أن يستدعي إبقاء الولاية داخل عراق موحد»[7].

وصلت اللجنة إلى بغداد في 16 كانون الثاني (يناير) 1925. وتم استضافتهم في قصر فيصل مع شخصيات سياسية واجتماعية بارزة أخرى في البلاد ومع مسؤولين من المقيمية. وقام فيصل، في وقتٍ لاحق، بتقديم مذكرته الخاصة حول أهمية ولاية الموصل لمستقبل العراق للجنة. حيث كتب فيصل بعد استعراض التقدم الذي أحرزه العراق منذ نهاية الحرب، وخططه الخاصة لتنمية البلاد، «إن قيام حكومة عراقية دائمة وترسيخها يعتمد على الحفاظ على الوضع الراهن. من المستحيل أن تعيش حكومة في بغداد إذا انفصلت الموصل عنها وخضعت لسيطرة حكومة

أخرى. أنا أعتبر أن الموصل بالنسبة للعراق بمثابة الرأس للجسد»[8]. بقيت اللجنة في بغداد لبضعة أيام فقط. وشهدت بغداد في تلك الأيام العديد من المظاهرات في الشوارع، شارك في بعضها تلاميذ مدارس حشدتهم الحكومة لهذا الغرض، المطالبة بضم الموصل إلى العراق[9].

ثم توجهت اللجنة إلى الموصل، حيث بقيت قرابة الشهرين، وأجرت تحقيقات جدية في الأوضاع الحقيقية في الولاية وتقييم آراء أهلها. وقد قامت اللجنة بعملها وأخذت الإفادات وقامت بالمقابلات في جلسات سرية، نظراً إلى حالة الهياج في الرأي العام في الموصل وخشية حدوث اضطرابات. نظّم نوري السعيد نائب قائد الجيش العراقي، عرضاً عسكرياً كبيراً في المدينة، حضرته حشود غفيرة، هتفت لفيصل وللموصل العراقية[10].

كانت مواقف أهالي الولاية، على عكس ما هو الحال في مدينة الموصل، متباينة بتباين انتماءات سكانها. فقد سعى بعض التجار العرب إلى إعادة التواصل مع تركيا، بسبب المنافع التجارية الواضحة؛ فيما كان المتدينون، من ناحية أخرى، مذعورين من سياسات مصطفى كمال العلمانية، وكانوا يميلون إلى العراق أكثر. كانت الأقليات، وخاصة الآشوريون، تفضل العراق على أساس أنه سيظل تحت النفوذ البريطاني. أما الأكراد فقد انقسموا بين مؤيد للاستقلال، ومن توقعوا استمرار السيطرة البريطانية على العراق، وأولئك الذين تكيفوا واستفادوا من حكم فيصل. كانت الأغلبية محتملة لصالح الاتحاد مع العراق، لكن بشرط استمرار دور لبريطانيا في إدارة البلاد. وقد كتب دوبس إلى مكتب المستعمرات في شباط (فبراير) 1925 قائلاً إنه يتوقع أن تصدر اللجنة حكمها لصالح الاتحاد مع العراق، إذا أمكن حماية حقوق الأقليات. ويمكن ضمان ذلك إذا تم تمديد الانتداب البريطاني لفترة أطول[11].

كان فيصل يتابع عن كثب على تقدم تحقيقات اللجنة من خلال مساعديه والمتصرف القصاب. وكان الأخير يكتب له بانتظام عن كافة التطورات المهمة. وقد كتب صبيح نشأت، الذي بقي في الموصل بعد زيارة فيصل في كانون الأول (ديسمبر)، إلى الحكومة في 16 شباط (فبراير) 1925 أن «رئيس اللجنة أبلغه الخبر السار بأن الولاية ستبقى في أيدي العراقيين»[12].

غادرت اللجنة العراق في 19 آذار (مارس) 1925 متوجهة إلى جنيف، حيث كان من المقرر أن تستعد لعرض ما توصلت إليه. أرسل فيصل إليهم برقية وداع، معرباً عن اعتقاده بأنهم سيؤكدون مطالب العراق العادلة «التي تستند إليها سلامة مملكتنا الفتية وسعادة شعبنا في المستقبل»[13]. وكان فيصل واثقاً من أن اللجنة سوف تحكم لصالح العراق. وفي خطاب ألقاه أمام مجلس الأمة في 16 تموز (يوليو) 1925، تحدث فيصل عن «سعادته وامتنانه لما أبداه الشعب [العراقي] عموماً وأهالي الولايات الشمالية على وجه الخصوص، من فخرهم الوطني والتزامهم بعراق موحّد، وليس أقلها عندما كانت اللجنة الدولية تقوم بعملها معهم»[14].

السياسة النفطية

كان البريطانيون والقوى الأوروبية الأخرى على علم باحتمال وجود احتياطيات كبيرة من النفط في ولايات العراق الشمالية، حتى قبل اندلاع الحرب. إلا أن شركة البترول التركية (TPC)، التي كانت تستحوذ على امتيازات التنقيب عن النفط وتطويره منذ العهد العثماني، لم تكن قد بدأت بعد أي أعمال استكشاف جادة لهذه الاحتياطيات. وكان كُرزون قد نفى، في خطابٍ ألقاه أمام مؤتمر لوزان عام 1923، بشكل قاطع أن موقف الحكومة البريطانية من قضية الموصل مرتبط بأي شكل من الأشكال بمسألة النفط. وكان تصريحه لم يكن إلا خداعاً. فقد كانت وزارتي البحرية والخارجية على علم من احتياطيات النفط هذه منذ فترة طويلة، وعلى الرغم من وجود فائض في إنتاج النفط في العالم في عام 1925، إلا أن من المحتمل أن تكون للاحتياطيات الموجودة في العراق أهمية استراتيجية هائلة بالنسبة لبريطانيا. قد لا تكون مسألة وجود النفط تخيم بشكل كبير على المفاوضات المطولة حول الموصل، لكنها بالتأكيد كانت موجودة في الخلفية.

خلال مفاوضات سان ريمو التي تم خلالها انتداب كل من العراق وسوريا وفلسطين، عُرض على العراق خيار الحصول على 20% من رأس مال شركة البترول التركية (TPC). أرادت بريطانيا استخدام هذا الخيار كأداة خلال المفاوضات مع الأتراك، حيث يعرض العراق التنازل عن هذا الخيار مقابل تخلي تركيا عن مطالبها بالموصل. لكن لم يتم استخدام هذه الورقة. في النهاية، نظراً لفشل مؤتمر لوزان في التوصل إلى اتفاق بشأن مسألة الموصل. ومع ذلك، فقد قامت الحكومة العراقية بإحياء القضية مع شركة البترول التركية (TPC)، التي قاومت بشدة منح العراق حصة في الشركة، مفضلةً دفع إتاوة عن أي عائدات نفطية مستقبلية، بدلاً من جعل العراق شريكاً مهماً في رأس المال، ويحق له بالتالي مراجعة عمليات الشركة وإدارتها. علاوة على ذلك، طالب العراق بدفع الإتاوات بالذهب بدلاً من الجنيه الاسترليني أو أي عملة أخرى.

كما قام العراق بطرح مطالب أخرى، إلا أن شركة النفط رفضت النظر فيها، مثل فرض رسوم استيراد على المعدات التي تحتاجها الشركة، والمطالبة بحقوق استكشاف جميع الأراضي الواقعة خارج النطاق الضيق للحقول التي كانت شركة البترول التركية (TPC) أنشأتها بالفعل. وقد تم تعليق المفاوضات بين العراق وشركة البترول التركية (TPC) بين أيار (مايو) 1924 وشباط (فبراير) 1925 بسبب تمسك كلا الطرفين بمواقفهما بقوة.

إلى جانب مواجهة قضايا الامتياز النفطي، كانت حكومة ياسين الهاشمي تواجه أزمة اقتصادية كبيرة. فقد كان محصول عام 1924 سيئاً للغاية وعانت الحكومة من انخفاض كبير في إيراداتها المالية. وسادت ظروف أقرب إلى المجاعة في أجزاء عدة من البلاد، بما في ذلك الحافظات

الشمالية. كما كان هناك أيضاً موضوع الدين العام العثماني، الذي كان على العراق أن يتحمل جزءاً من تكلفته. وكان يتم العمل على حساب تفاصيل حصة العراق من الدين في اسطنبول في خريف عام 1924، ولكن أياً كان الرقم النهائي، فسيتوجب على العراق سداده[15]. كما كان التزام الحكومة ببناء جيش قوي، وهو أحد اهتمامات فيصل الرئيسة، يستنزف المالية العامة[16]. وبحلول نهاية عام 1924، كانت البلاد تواجه احتمال الإفلاس. فقام فيصل بمناشدة المقيمية البريطانية لإعفاء العراق من أي التزامات تتعلق بالديون العثمانية. وكان فيصل يرى أنه نظراً لكون الفرنسيون حاملي السندات العثمانيين الرئيسيين، فيجب أن يكونوا مستعدين أيضاً لتحمل جزء من العبء من خلال الحصول على خصم على سنداتهم. وفي إشارة تضامنية مع المأزق المالي للبلاد، طلب فيصل من ياسين الهاشمي خفض ميزانية الأسرة المالكة، التي بلغت حينها 780 ألف روبية هندية أو حوالي 55 ألف جنيه إسترليني. رفض ياسين الهاشمي ذلك رفضاً قاطعاً، وظلت ميزانية الأسرة المالكة ثابتة على هذا المستوى لعدد من السنوات.

أجبرت المقيمية، في ظل هذه الظروف المالية والاقتصادية الصعبة، الحكومة العراقية المترددة على إعادة فتح المحادثات مع TPC. كان فيصل مدركاً تماماً، وربما أكثر من حكومته، الحاجة إلى التوصل إلى حل بشأن هذه المسألة. فقد يؤثر تفاقم مشكلة الامتياز على القرارات النهائية للجنة التحقيق بشأن مسألة حدود الموصل. في الوقت نفسه، كانت الحاجة إلى وجود بريطانيا كمدافع قوي عن القضية العراقية ضرورية للتأثير على قرار اللجنة. في الواقع، حذّر الكونت تيليكي من أنه يجب حل قضية امتياز النفط في أسرع وقت ممكن، وأن يتخلى العراق عن إصراره على الحصول على 20% من أسهم TPC. نجحت الضغوط المشتركة من فيصل والمقيمية في النهاية، ووافقت الحكومة على اتفاقية النفط مع TPC في 14 آذار (مارس) 1925، مما دفع اثنين من أعضائها إلى الاستقالة احتجاجاً[17]. كما تنازلت الحكومة عن مطلبها في الحصول على 20% من أسهم TPC، لكنها تمكنت من انتزاع بعض الامتيازات المهمة من TPC، بما في ذلك دفع الإتاوات ذهباً. إلا أن المصادقة على منح الامتياز لم تتم إلا في العام التالي، بعد تسوية نزاع الموصل. إلا أن قرار الحكومة أزال القضايا العالقة التي كانت تعيق الإصدار النهائي للدستور. وفي 21 آذار (مارس) 1925، وقّع فيصل على أول دستور للعراق، باستخدام قلم ذهبي صنع خصيصاً لهذه المناسبة، وسط أجواء احتفالية واسعة النطاق. كما مهّد ذلك الطريق لإجراء الجولة الثانية من الانتخابات البرلمانية الجديدة.

كان البرلمان الجديد يميل بشدة نحو المرشحين الحكوميين الذين اختارهم فيصل ورئيس الوزراء الهاشمي، ووافق عليهم، مع تعديلات طفيفة، مستشار وزارة الداخلية كورنواليس. كانت هناك اتهامات واسعة النطاق بالتزوير لصالح مرشحين حكوميين، وخاصة في المناطق الشيعية.

أجريت الانتخابات في 8 حزيران (يونيو) 1925 دون منغصات. ومن بين ثمانية وثمانين نائباً في المجلس، كان هناك ستة وسبعون مرشحاً للحكومة. في حين فشل الحزبان الرئيسيان المنظمان، وهما حزب النهضة الذي أُعيد تشكيله، والذي كان أغلبية أعضاؤه الساحقة من الشيعة، وحزب الأمة، في الحصول على أي مقعد[18]. واستخدم فيصل صلاحياته الملكية في 7 تموز (يوليو) لاختيار مجلس الشيوخ المكون من سبعة عشر عضواً، خمسة منهم فقط من الشيعة.

قبل أسبوعين استقالت حكومة الهاشمي نتيجة الخلافات الداخلية التي ازداد ضعفها باستقالة الوزيرين بسبب امتياز TPC. ومع ذلك، فقد حققت حكومة ياسين التي استمرت لمدة عام عدداً من الإنجازات البارزة. فقد تم إطلاق مخطط تجريف مهم في مصب شط العرب وتم توقيع اتفاقية تجارية مع سوريا الخاضعة للسيطرة الفرنسية. لكن مجلس الوزراء انهار بعد الخلاف حول امتياز TPC. كلف فيصل عبد المحسن السعدون بتشكيل حكومة جديدة. كان هناك عدد قليل من السياسيين الآخرين المستحقين الذين يحظون بالمكانة والسلطة اللازمتين لإدارة الشؤون اليومية للبلاد. ضمّت حكومة السعدون المجموعة المعتادة من السياسيين العرب السُنّة، وكثير منهم لم يكونوا على ودٍّ مع فيصل.

مرض فيصل

تسببت لامبالاة فيصل بصحته بتدهور حالته في ربيع عام 1925. ومع أن عملية الزائدة الدودية التي أجراها تكللت بالنجاح، وبدا أنه كان في حالة جيدة، ولكنه بدأ يخسر وزنه بشكل متسارع وكبير في أوائل عام 1925، وبدأ يعاني من ضعف الشهية ومن عسر الهضم والإرهاق الجسدي والعقلي. وعندما حان موعد إلقاء خطاب العرش في افتتاح البرلمان في منتصف تموز (يوليو)، كان وزنه قد تراجع إلى أربعة وأربعين كيلوغراماً، وكان جسده النحيل أشبه بهيكل عظمي. لم تظهر الاختبارات والفحوصات الطبية أي نتيجة، ولم يكن أمام أطبائه، وعلى رأسهم هاري سيندرسون، من خيار سوى التوصية بالذهاب لتلقي العلاج في أوروبا. قاوم فيصل النصيحة، لأنها تعني مغادرة العراق في لحظة حرجة. حيث كان البرلمان الجديد في حالة انعقاد، ومسألة الموصل ما زالت عالقة في جنيف تنتظر الحسم. كما كانت الحكومة غير راغبة بغيابه. فقد كان ياسين الهاشمي، الذي كان لا يزال رئيساً للوزراء عندما أثيرت المسألة، يرى بأنه يمكن علاج فيصل في العراق. من جانب آخر، كان دوبس يرى ضرورة مغادرة فيصل لتلقي العلاج في الخارج، وكان يعتقد أن فيصل مصاب بالسرطان، وقد قام بالفعل بإرسال برقية إلى مكتب المستعمرات تتضمن شكوكه هذه[19]. أقر فيصل، أخيراً، أن حالته كانت خطيرة وتستدعي الذهاب لأوروبا لتلقي العلاج. لم يبد رئيس الوزراء الجديد السعدون أي اعتراضات، وتم اتخاذ

الاستعدادات اللازمة لمغادرة فيصل في أوائل آب (أغسطس) 1925. حيث تم استدعاء الأمير زيد، الذي كان يتابع دراسته في جامعة أكسفورد، إلى بغداد لتولي مهامه كوصي على العرش خلال فترة غياب فيصل.

دعا فيصل في ليلة رحيله، 4 آب (أغسطس) 1925، جميع أعضاء مجلسي الشيوخ والأمة والحكومة لتناول العشاء في قصره. حيث أعرب عن أسفه الشديد لاضطراره إلى مغادرة البلاد في هذا المرحلة، إلا حالته الصحية تتدهور وتحتاج إلى العلاج. كما ذكّرهم بأن نتائج لجنة التحقيق في الموصل ستصدر قريباً. «سيكون تقرير [اللجنة] طويلاً ومفصلاً ولهذا السبب أشعر بالقلق من أن يخطئ البعض في قراءته. لكن يجب أن تكونوا واثقين تماماً بأن حقوق العراق ستُصان». ومن ثم تابع مشيراً إلى مسألة تمديد المعاهدة الأنغلو ـ عراقية كأحد متطلبات لجنة التحقيق. وحاول فيصل تبديد القلق والذعر الذي قد يثيره طرح مثل هذا الموضوع لدى مستمعيه، لكنه كان يدرك تمام الإدراك أن هذا الأمر سيتسبب بمشاكل لا تنتهي عند الإعلان عنه. كان احتمال حدوث مواجهة أخرى بين المقيمية والقصر والبرلمان والحكومة وشيكاً للغاية[20].

اجتاز موكب فيصل الصحراء إلى سوريا ثم إلى بيروت. من بيروت، كان عليه أن يستقل السفينة «إس إس كورديليري» التي ستقوم بنقله إلى أوروبا. كان بإمكان فيصل، بالطبع، السفر جواً إلى مصر عبر فلسطين، إلا أنه شعر أنه صحته لم تكن تحتمل السفر إلى مصر ثم أوروبا. إلا أن الطريق الصحراوي بحد ذاته لم يكن خالياً من المشاكل. كان على الموكب أن يتبع خطوط سير حافلات شركة النقل الشرقية التي تعبر الصحراء من بغداد إلى دمشق ـ المعروفة شعبياً باسم «نيرن»، على اسم مؤسسيها، الأخوين الأسكتلنديين الرائدين ـ كما أن الظروف الأمنية لم تكن جيدة في سوريا، والتي كانت آنذاك في خضم انتفاضة كبرى قام بها الدروز في البلاد. فكان على الموكب أن يتجنب المرور بدمشق. قامت المدرعات البريطانية بمرافقة فيصل حتى تدمر في سوريا، وبعد ذلك كان على الفرنسيين، الذين لم يكونوا على وفاق مع فيصل، مرافقته إلى بيروت عبر حمص. وعند وصوله إلى بيروت، اكتشف الوفد المرافق لفيصل أن الغرف الفاخرة، التي يُفترض أنها كانت مخصصة له على متن السفينة، غير متوفرة. فاكتفى فيصل بالغرف العادية على سطح السفينة الرئيسي، فقام قبطان السفينة المهذب بعزل الغرف عن بقية الكبائن.

كانت أول محطة للسفينة هي ميناء يافا، فقام الحاكم المدني لمدينة القدس السير رونالد ستورز ومجموعة من الوجهاء الفلسطينيين بالصعود على متن السفينة للترحيب بالملك. وضم الوفد الزائر مؤرخ «الصحوة العربية» الشهير جورج أنطونيوس الذي أشاد بفيصل في كتاباته. لم تكن الظروف في آخر مرة التقى فيها ستورز بفيصل سعيدة، حيث أُجبر فيصل على مغادرة سوريا في صيف عام 1920. حالت الحالة الصحية لفيصل، التي أُضيف إليها إصابته بدوار البحر

نتيجة الأمواج العاتية، دون أن يمضي الكثير من الوقت مع الوفد. كانت المحطة الثانية للسفينة في الإسكندرية، حيث جرى استقبال حافل لفيصل، من قبل حشد من المتحمسين الذي تمنوا له الشفاء. كتب الدكتور سيندرسون، الذي رافق فيصل إلى أوروبا: «ملأت الهتافات والصيحات المرحبة الأجواء قبل أن ترسو السفينة بفترة طويلة، وما أن رست السفينة، حتى اجتاح عددٌ لا يُحصى من المؤيدين الممرات وأصبح الحفاظ على النظام صعباً للغاية»[21].

تسببت الرحلة الطويلة إلى مرسيليا بإنهاك فيصل ولم يكن في حالة تسمح له بالبقاء في باريس لعدة أيام كما كان مخططاً. وبرر البيان الصحفي مغادرته المفاجئة إلى لندن، أنه «نظراً للمشاكل التي يعاني منها في الجهاز الهضمي، فقد ارتأى مستشاره الطبي ضرورة التوجه مباشرة إلى لندن» ولم يكد فيصل يصل ويستقر به الحال في فندق هايد بارك، حتى تدفق الصحفيون والزوار، والفضوليون إلى الفندق. كانت الأخبار حول تدهور الحالة الصحية لفيصل قد انتشرت، مما شجع الجميع على إبداء النصح بوصفات علاجية. فقد أعرب وفد من مسجد «ووكينغ» عن شكوكهم في فعالية العلاج الذي كان يتلقاه الملك، واقترحوا عليه أن يخضع للعلاج بالطب التقليدي[22]، فيما أوصى اللورد هيدلي، أول عضو مسلم في البرلمان، بعلاج خاص به. وتدفقت الرسائل عبر البريد: من الذين يتمنون له الشفاء، ومن الساعين للحصول على حظوة الملك، والدجالين، بما في ذلك علماء السحر والتنجيم الذين ادعوا أنهم يستطيعون علاجه عن طريق «وضع الأيدي». لكن سيندرسون انفرد بعلاج فيصل. وبعد سلسلة من الاختبارات المعقدة، تم تشخيص حالته على أنها غير اعتيادية من الزحار الأميبي، ولكن بعد أن تم قلع عدد من أسنان فيصل نتيجة التشخيص الخاطئ لحالته على أنها إنتان فموي. شعر سيندرسون بارتياح كبير لكون الزحار الأميبي مرضاً قابلاً للعلاج. وكتب سيندرسون: «لقد كان خبراً رائعاً بالنسبة لي، وبصدفة غريبة، أرسل الملك لي بعد ساعة أو ساعتين وسألني: بصفتي صديقاً: أخبرني فيما إذا كنت سأشفى. بعد أن أجبت بالتأكيد بالإيجاب، أجاب جلالة الملك: ليس لدي خوف من الموت، لكن لدي الكثير لأفعله من أجل بلدي قبل أن أموت. إذا كنت تعتقد أنه من غير المحتمل أن أتحسن، فأخبرني الآن حتى أتمكن من تسريع برنامج حياتي»[23].

استمر علاج فيصل على مدى بضعة أسابيع. وانتقل في أواخر أيلول (سبتمبر) 1925، من فندق هايد بارك إلى منزل في بوابة الأمراء في منطقة كنسينغتون في لندن، تعود ملكيته لرجل الأعمال، اليهودي العراقي الثري اليعازر صالح قدوري. وقد تحسنت حالته الصحية خلال فترة نقاهته بشكل جيد، إلا أن ارتباطاته المسائية كانت لا تزال تصيبه بالإرهاق. كما لم يتخلى عن عادته بالتدخين بشراهة، الأمر الذي جعل أطبائه يخفون السجائر التي يحبها كلما استطاعوا ذلك. وقام بتلبية دعوة من غيرترود بيل، التي كانت حينها تقضي إجازتها في إنكلترا. ومع تحسن

حالته، تلقى دعوة من وزير المستعمرات الجديد، ليو أمري، في 29 أيلول (سبتمبر) 1925. وقد قام أمري بتسجيل مجريات الاجتماع في يومياته: «بدا فيصل في أفضل حالٍ بالنسبة لشخص تم خلع أسنانه، كما كان بغاية الامتنان للمساعدة التي تمكنت من تقديمها في قضية الموصل. أخبرته أن بإمكانه العودة ليمنح شعبه المزيد من الشجاعة [24]. أثار فيصل أيضاً موضوع مملكة أخيه الملك علي في الحجاز التي كانت في طريقها للانهيار، لكونه كان محاصراً ومكتظاً في جدة وفي ضائقة مالية شديدة. كان علي يتوقع أن تتدفق عليه الأموال على الفور نتيجة لخطته لمنح الامتيازات الخاصة بميناء جدة وسكة حديد الحجاز إلى شركة بريطانية. وكان فيصل قد التقى أمري في وقت سابق عندما كان الأخير في مهمة لتقصي الحقائق في العراق في آذار (مارس) ونيسان (أبريل) من العام 1925، للاطلاع على جاهزية القوات البريطانية والوضع في الموصل. كان أمري شديد الإعجاب بفيصل وسيذكر لاحقاً لقاءاته معه:

بالطبع، كانت المرة الأولى التي أمثل فيها بين يدي جلالة الملك فيصل[25] في قصره الذي يبعد مسافة قصيرة عن بغداد، حيث أجريت معه لاحقاً عدداً من المحادثات. وكانت أحد أكثر المحادثات إثارة للاهتمام هي عندما قدمت له، وبناء على رغبته، وصفاً كاملاً للحقوق التي يتمتع بها الملك الدستوري بما يتعلق بوزرائه، ومدى الصلاحيات التي تخوله الاطلاع وتقديم المشورة بما يتعلق بصياغة السياسات، وليس مجرد إصدار القرارات الباتة والجافة. بغض النظر عن الموقف الدستوري الدقيق الذي تم تكييفه مع ظروف العراق، كان فيصل ملكاً على كل شبر. وقد تجلى نسبه الشريف، الذي يرجع إلى النبي، في وسامة ملامحه، وفي كل إيماءاته، وفي سلوكه الراقي. وقد روى صديقه المخلص ومستشاره لورنس القصص عن شجاعته في الحرب. لم يكن لدى الكثير ليتعلمه بصفته متقناً لفنون الحكم بمعناها الضيق، ولم تكن الفترة التي قضاها في البلاط العثماني، أو بين الفصائل السياسية في العالم العربي، دون جدوى. لكنه كان يتمتع أيضاً بحنكة سياسية حقيقية[26].

فاصل منشط مع لورنس والعودة إلى الوطن

قام اللورد وينترتون، وكيل وزارة الخارجية لشؤون الهند، بدعوة فيصل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزله الريفي في مقاطعة سَري، في متنزه شلينغل «القديم جداً، والذي لم يحظى بالاهتمام»، بحسب وصف لورنس القاسي[27]. حضر لورنس إلى مقر إقامة فيصل في كينسينغتون، قبيل مغادرته برفقة حاشيته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ولم يسمح البواب للورنس، الذي كان يرتدي الزي الاعتيادي لطياري سلاح الجو الملكي البريطاني، بالدخول. فما كان من لورنس إلا أن بادر بالجلوس على العتبات، وعندها سعى البواب القَلِق إلى تحسين قدري، مساعد فيصل،

الذي تعرف إلى لورنس وسمح له بالدخول. كان لورنس قد تخلى عن أي اهتمام أو مشاركة في شؤون الشرق الأوسط، وكان يستمتع بهويته السرية المزيفة كجندي برتبة متدنية في سلاح الجو الملكي البريطاني. سجل سيندرسون، الذي كان حاضراً، فيما بعد كيف استقبل فيصل لورنس. «استقبل الملك لورنس بحرارة. فهما لم يلتقيا منذ آخر زيارة لجلالة الملك إلى أوروبا، وسأل الملك، ساخراً، رئيس أركانه السابق عن سبب تخفيض رتبته». كانت إجازة لورنس تنتهي بحلول المساء إلا أن الملك أقنعه بمرافقته إلى سَري بعد أن أمذن له فيصل رحلة العودة إلى لندن في سيارته الخاصة. كان سيندرسون يرى أن لورنس يعاني من الاضطراب النفسي الذي يترافق مع العبقرية، واستشهد بانتقادات إي تي ويلسون اللاذعة للورنس بسبب «عدم إطلاق لحيته، وشغفه بالتأنق والتقاط الصور بملابس طويلة». ولكن الأهم من ذلك، أن سيندرسون قد لاحظ أن فيصل نادراً ما كان يتحدث عن لورنس. «كان من النادر أن يشير فيصل إلى لورنس، وعندما يفعل كان دائماً ما يصفه بـالمسكين»[28]. من الواضح أن فيصل يعتقد أيضاً أن التصرفات الغريبة التي يقوم بها لورنس تخفي وراءها شخصية معقدة ومعذبة.

واظب فيصل على زيارة لورنس في كل زيارة يقوم بها إلى إنكلترا. ولم يستطع لورنس أبداً التخلص من فكرة أنه كان المسؤول الوحيد عن صعود فيصل في سلّم المجد. وكان موقفه المتعالي هذا، الذي يتخفى وراء مشاعر الفخر بتلميذه النجيب، يتجلى بوضوح مزعج في مراسلات لورنس مع شارلوت شو[*]. ففي صيف عام 1927 زار فيصل لندن واجتمع مع آل شاو. أرسلت شارلوت إلى لورنس انطباعاتها عن فيصل، فأجابها: «أنا سعيد للغاية لأنك أحببته. فقد كان لفترة طويلة مجرد بطتي السوداء. وأنا أبتهج سراً عندما يتقدم شبراً آخر للأمام في طريقه». وفي الرسالة نفسها ردّ لورنس على شائعة مفادها أنه قد يقتنع بمغادرة سلاح الجو الملكي ليصبح مستشاراً لفيصل في العراق: «لا أعتقد أنه يريدني بجانبه حقاً. حتى ألطف رجل على وجه الأرض لا يمكنه إلا أن يشعر بالحرج أمام شخص يدين له بالكثير. فيصل مدين لي بحصوله على دمشق أولاً وعلى عرش بغداد ثانياً. كما أنه يدين لي، بين هاتين، بكل ما تعلمه من فنون الحكم وشؤونه. وعندما أكون، بكل ما اتمتع به من قدرات، بجانبه كمستشار فهذا سيحط من قدره كملك: خاصة بالنسبة لملك ليس دستورياً بالكامل. غالباً ما يضطر فيصل إلى قيادة شعبه... ومنذ عام 1921، وتحت إشراف فيصل، قام العراق بالكثير من المحاولات الجيدة ولم يسقط. لكنني لا أعتقد أن الأمور تسير بشكل جيد بعد»[29].

ربما تساءل لورنس عن السبب الذي يدفع الملك فيصل لتغيير طريقه ليزور شخص قد

(*) كان الكاتب المسرحي الشهير برنارد شو (1856 ـ 1950) وزوجته شارلوت شو أصدقاءً للورنس، وقد طُبعت مراسلاته التفصيلية معهما في كتابٍ مستقل. (المُراجع).

لا يشعر بالراحة معه. لقد كان صادقاً في حبه لفيصل، لكنه الحب الذي دائماً ما يشوبه فخر المربية بنجاح ربيبها المفضل. كتب لورنس إلى شارلوت شو: « إنه أحد أفضل الأشخاص الذين قابلتهم»:

لقد أثارت اهتمامي ملاحظتك حول مثابرته. فهو عنيد وضعيف. وقد تلتقي هاتين الصفتين معاً. فمن السهل أن تجعله يغير رأيه: وما أن تتاح له الفرصة فسوف يميل إلى الرجوع إليه. لذلك وصفه الفرنسيون بأنه غادر... كما انه يتمتع برقي ولطف كبيرين، وهو شخص عطوف للغاية، وكرمه مع أصدقائه يفوق الحد، كما انه متسامح مع أعدائه، وعلى درجة كبير من الصدق والذكاء: ولديه حس دعابة غريب. وعلى الرغم من أنني أفترض أن هذه الصفات تستتر حالياً خلف مظهره الملكي... فإنني أتمنى لو كنتِ قد عرفته كما عرفته عندما كان فيصل فقط. أحد أكثر البشر جاذبية الذين قابلتهم على الإطلاق... إنكِ تعلمين، دون أن أخبرك، كم أحببته... وفي الوقت نفسه، يعمل فيصل على خدمة أبناء جلدته وهذا ما لم يقم به أي عربي على مدى مئات السنين. إني فخور به: لقد كان لي الشرف أن أساعده في الوصول إلى السلطة هناك، وجعله من الشخصيات التي تُذكر كتب القراءة المدرسية باللغة الإنكليزية[30].

كان لورنس يفُضّل لو ظل صديقه فيصل نقياً وبعيداً عن المفاسد الدنيوية. كانت الصورة التي يحتفظ بها لفيصل في ذهنه صورته في حرب الصحراء، وليس فيصل الذي يقود عملية تحديث العرب، هذه المهمة المزعجة والتي قد تكون عبثية. بعد فترة وجيزة من وفاة فيصل، كتب لورنس: «إنني أنظر إلى موته بشيء من الارتياح ـ كمن يرى سفينة جميلة المظهر لكنها ليست صالحة للإبحار تدخل الميناء مع أن الأحوال الجوية سيئة. لقد خرج منها، سالماً»[31].

كان للأسابيع الأخيرة لفيصل في لندن نصيبها من المنغصات. فقد وافق فيصل، بناء على فكرة غير مدروسة إلى حدٍ ما بأنه يجب أن يرضي مؤسسة بيفربروك الصحفية ذات النفوذ الكبير، وخاصة صحيفة ديلي إكسبرس، على إجراء مقابلة مطولة مع أحد مراسليها. كانت الصحيفة تشنّ هجوماً متواصلاً على سياسة الحكومة البريطانية تجاه العراق، وكثيراً ما دعت في الماضي إلى انسحاب بريطانيا من العراق. كما نظّمت مؤسسة بيفربروك حملة لدعم إلحاق ولاية الموصل بتركيا. فشلت حيلة استرضاء مؤسسة بيفربروك فشلاً ذريعاً. فقد أعدّ المراسل، بعد أن أمضى قرابة الساعة مع الملك، تقريراً حول مكان وجود فيصل الغامض واختفائه عن الأنظار، وجرى نشره تحت عناوين صادمة. وُصف فيصل بأنه «ملك تعيس يجلس على عرش دمية، غريب عن البلد الذي يحكمه، هذا البلد الذي أنشئ بخطأ سياسي وهو يبحث عن خطأ آخر لإنقاذه من الفشل المحتوم. يبتسم الملك فيصل، لأنه لا يخلو من الشجاعة، لكنني أنظر إليه دائماً في معتكفه اللندني الهادئ كشخصية تراجيدية واقعة في براثن أحداث بالغة الخطورة لا حول

له إزاءها». أثارت المقالة غضب فيصل إلا انه قرر التعامل معها كجزء من الصراعات السياسية المستمرة حول التزامات بريطانيا في العراق[32]. ولم تنجلي الكآبة التي أصابت فيصل إلا عندما أكد له وزير المستعمرات أميري، خلال مأدبة عشاء وداعية في مقر إقامته دعي إليها شخصيات سياسية بارزة، أنه لن يتم تسليم الموصل إلى تركيا.

غادر فيصل إنكلترا في 9 تشرين الأول (أكتوبر) 1925، متوجهاً إلى فرنسا. حيث التقى وزير الخارجية الفرنسي بريان في باريس، حيث مكث قرابة أسبوعين. لقد شهد موقف فرنسا من فيصل تحولاً جذرياً من العداء الصريح إلى أن تستعين وزارة الخارجية الفرنسية برأيه حول التعاطي مع الأزمة في سوريا. وكانت سلطات الانتداب الفرنسي قد حرّضت على شنّ حملة صحفية شرسة في سوريا ضد فيصل في منتصف عام 1922، كما قامت بتزويد إيران بالسلاح بهدف خلق مشاكل حدودية مع العراق[33]، لكن الظروف تغيرت الآن. لقد واجه الانتداب الفرنسي في سوريا الكثير من المشاكل منذ البداية، وكانت سياساتها العدوانية هناك تتناقض مع الأسلوب البريطاني الأقل تعالياً وتعجرفاً في ممارسة السلطة في العراق.

وقد سادت في دمشق حالة من تأنيب الضمير بشأن المملكة الضائعة في سوريا، وبالأخص لدى العناصر التي ناهضت فيصل سابقاً. وكان نوري السعيد قد زار دمشق في شباط (فبراير) 1924 في طريقه إلى عمّان لاستقبال الملك حسين. حيث التقى في دمشق بعدد من القادة السياسيين الذين عارضوا فيصل عام 1920. وكما كتبت غيرترود بيل لاحقاً عن هذه الاجتماعات، «كان الأشخاص الذين دعاهم نوري جميعهم ممن عارضوا فيصل في عام 1920. وقد قال جميع الحاضرين أمام الضابط الفرنسي [الذي كان برفقة نوري السعيد]: «نحن نأكل من لحمنا؛ وإذا استمر هذا الحال، سنكون في عداد الأموات العام المقبل. قال نوري [للضابط الفرنسي]: لا يسعني إلا التفكير في أن إخراج فيصل كان خطأ جسيماً، الخطأ من جانبكم. أجابه الضابط الفرنسي: بالطبع هو كذلك. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟»[34].

وأثناء رحلة العودة، توقف نوري في بيروت، حيث التقى المندوب السامي الفرنسي في بلاد الشام في ذلك الوقت، الجنرال ماكسيم ويغان. الذي اشتكى بمرارة إلى نوري من المشاكل التي تكتنف حكم سوريا. «ما العمل؟ لا توجد تجارة. لا يوجد شيء. نحن ننفق الملايين بدون مقابل... أجابه نوري: من المؤسف أنكم قد قمتم بطرد فيصل. رد ويغان: «هل تعتقد أنني لا أعلم ذلك؟ لقد كان خطأ فادحاً. لكنني لست مسؤولاً عن ذلك. لقد جرى هذا قبل أن آتي إلى هنا»[35]. لقد كان هذا اعترافاً لافتاً.

بحلول صيف عام 1925، كانت الثورة التي انطلقت من جبل الدروز قد وصلت إلى دمشق. وبينما كان فيصل في باريس، تسلل الثائرون إلى دمشق، وأمر المفوض السامي الفرنسي الجديد

في بلاد الشام، الجنرال موريس ساراي، بقصف واسع النطاق للمدينة استمر لمدة 24 ساعة. وبعد أن تلاشى الدخان، كان جزء كبير من المدينة قد تعرض للتدمير. كما كانت هناك خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وتم إدانة القصف الفرنسي على المستوى الدولي باعتباره وحشياً وعشوائياً. في الواقع، رفضت عصبة الأمم قبول تقرير فرنسا لعام 1925 عن انتدابها في سوريا لأنها لم تغطي فترة الثورة[36]. ومع ذلك، ظل فيصل متحفظاً من الناحية الدبلوماسية عن تقديم أي حلّ للأزمة السورية. كان يعلم أن الفرنسيين يعيدون النظر في سياستهم تجاه سوريا، وكثرت الشائعات بأنهم ربما يفكرون في العودة إلى النظام الملكي كحل لمأزقهم[37]. إلا ان أي حركة غير محسوبة قد تأتي بنتائج عكسية. وبدلاً من ذلك، كان يؤكد لبريان مراراً وتكراراً على صداقته، مدركاً أن فرنسا كانت الآن حريصة جداً على ضمان حسن نواياه. حضر فيصل أثناء وجوده في باريس، جلسة مجلس النواب، وكان مستمتعاً جداً برؤية مشاهد الهرج والمرج التي صاحبت النقاشات حول الأزمة السورية. وعلّق قائلاً: «كم يبدو المجلس في العراق هادئاً مقارنة بهذا!»[38]. وكانت الأخبار قد وصلت إلى باريس عن تنازل آخر شاه من الأسرة القاجارية عن العرش الإيراني فقال الملك: «كان هذا حتمياً»، وأضاف «لقد تنبأت بأن رضا خان سيكون على العرش قبل نهاية العام»[39].

أمضى فيصل بضعة أيام في الريفيرا، حيث أقام في قصر أصدقائه المصريين، الأمير والأميرة إبراهيم حلمي، في سيمييه، بالقرب من نيس. أراد فيصل أيضاً مقابلة آخر خليفة عثماني، عبد المجيد، الذي كان يعيش في ظروف صعبة أيضاً في سيمييه. كان الوضع المادي لعبد المجيد [الثاني 1868 ـ 1944] مزرياً تماماً، لولا الدعم المالي الذي كان يتلقاه من نظام(*) حيدر آباد وغيره من المحسنين من الهنود المسلمين. لقد أصبح الآن رجلاً عجوزاً وقد تفاقم ضعفه نتيجة بنيته الهزيلة. وقد قام بزيارة فيصل مرتدياً بدلته الرسمية النهارية والطربوش، ويرافقه نجله وولي عهده الأمير فاروق. كان اللقاء متعباً ومؤلماً للخليفة العجوز. فالمقارنة بين وضعه الحالي البائس مع ما كان عليه في السابق، دفعته للبكاء وظل يبكي إلى أن غادر. كما قام فيصل بزيارة آخر السلاطين العثمانيين السلطان وحيد الدين الذي كان يقيم في سان ريمو. على عكس قريبه عبد المجيد، كان السلطان السابق يعيش حياة فخمة في فيلا مهيبة وكان أكثر نجاحاً في التأقلم مع حياة المنفى.

تماثل فيصل للشفاء بشكل كامل الآن وبدأ بالاستعداد لرحلة العودة إلى العراق. غادر فيصل الريفيرا على متن قطار الشرق السريع إلى البندقية، حيث استقل السفينة التي نقلته إلى

(*) نظام أو نظام الملك: هو لقب ملوك دولة حيدر أباد في الهند. (المترجم)

الإسكندرية، والتي وصل إليها في 9 تشرين الثاني (نوفمبر) 1925. وكان قد تجمع حشد هائل على رصيف الميناء لتحية الملك. فشعبيته الهائلة في مصر والشام لم تتراجع. وبعد ذلك توجه إلى القاهرة، حيث مكث فيصل هناك لمدة يومين قبل الانطلاق في رحلة بالطائرة إلى العراق. حلقت طائرة فيكرز فيرنون فوق صحراء سيناء إلى فلسطين، وقرب البحر الميت بدأت الأحوال الجوية تسوء. ترنحت الطائرة الصغيرة وسط اضطرابات جوية شديدة وهبطت بالقرب من عمّان بعد تجربة مروعة لجميع ركابها. أمضى فيصل يوماً مع شقيقه عبد الله قبل أن يتوجه إلى بغداد. وهناك كان باستقباله، في قاعدة الهنيدي الجوية جنوب بغداد(*)، حشد كبير من المرحّبين، بما في ذلك السعدون ودوبس، ودخل فيصل، في موكب مكون من مئتي سيارة، بغداد وسط هتافات الحشود الكبيرة. وعندما رأى سيندرسون، الذي رافق فيصل طوال فترة العلاج والنقاهة، هذه الحشود والأعباء المفروضة على فيصل، اندفع ليقرأ أبيات للشاعر شيلي(**) عن متاعب الملوك: «الملوك كالنجوم. يشرقون ويأفلون، ويحظون بتبجيل العالم، لكنهم لا يحظون بالراحة»[40].

المعاهدة الإنكليزية العراقية الجديدة

طوال الفترة التي أمضاها فيصل في أوروبا، كانت عصبة الأمم تدرس تقرير وتوصيات لجنة التحقيق حول الموصل. وقد خلصت اللجنة إلى رفض فكرة تقسيم أراضي الولاية وقبول الحقائق والأرقام التي قدّمها البريطانيون حول سكان المقاطعة ومزيجهم العرقي. وقد أوصت اللجنة بأن تظل المقاطعة بأكملها موحّدة مع العراق باستثناء منطقة صغيرة في الجزء الشمالي منها، والتي كان الآشوريون يأملون أن تكون أساس منطقتهم المتمتعة بالحكم الذاتي، ولكن بشرطين هامين. فنظراً لـ «ظروف العراق التي لا تزال غير مستقرة»، أوصت اللجنة بضرورة بقاء العراق تحت الانتداب لمدة خمسٍ وعشرين عاماً أخرى. وكان فيصل على علم بهذا الشرط المسبق قبل نشره على العلن بوقت طويل، ومن المحتمل أنه قد قبل به كثمن مقابل بقاء ولاية الموصل[41]. وكان الشرط الثاني هو أن يحظى الشعب الكردي في الولاية بقدر من الحكم الذاتي، مع توظيف الأكراد المحليين في المناطق الكردية والاعتراف بلغتهم كلغة رسمية في التعليم والثقافة والإدارة والمحاكم. لا شك أن النتائج التي توصلت إليها اللجنة، التي كانت تدعم بشكل كبير القضية العراقية، كانت قد تأثرت جزئياً بنفوذ بريطانيا داخل هيئات عصبة الأمم، وكان من مصلحة بريطانيا الواضحة أن تسيطر على تلك المنطقة كدولة واقعة تحت نفوذها. كما كانت

(*) قاعدة جوية (معسكر الرشيد حالياً)، والتي تمّ السكن في بعض أنحائها عشوائياً وتصفيتها بعد عام 2003. (المُراجع).

(**) بيرسي شيلي: أحد كبار شعراء المدرسة الرومانسية في بريطانيا. (المترجم)

النتائج تعكس أيضاً رغبات قطاع واسع من سكان المنطقة. فقد كان الأكراد يميلون إلى أن يجربوا حظهم ضمن دولة ضعيفة في ظل الانتداب البريطاني أكثر من ميلهم للنظام التركي القومي المتشدد الذي كان يُظهر بالفعل عدم تسامح كبير تجاه الأقليات العرقية، وخاصة الأكراد. كانت المجموعات الأخرى غير العربية أيضاً تؤيد العيش في ظل حكومة يشرف عليها البريطانيون. في النهاية، كانت المشاعر القومية الإسلامية والمصالح التجارية للطبقات التجارية العربية غير كافية لقلب ميزان السكان العرب لصالح استمرار الارتباط بتركيا. وأخذ فيصل الآن على عاتقه مهمة ضمان سرعة تمرير المعاهدة الإنكليزية ـ العراقية الجديدة، وهو الشرط المسبق لضم ولاية الموصل إلى العراق. ومع ذلك، كان لا بد أن يلقى تمديد مدة الانتداب لمدة خمسة وعشرين عاماً التي طالبت به اللجنة، معارضة شديدة. وكان فيصل قد أوضح للمقيمية أنه لن يتم قبول تمديد مدة المعاهدة إلا إذا كانت هناك أحكام محددة فيها من شأنها أن تسمح بإجراء مراجعات دورية لتقدم العراق. في هذه المراجعات التي تتم كل أربع سنوات، سيتم تحديد ما إذا كان العراق مؤهلاً للانضمام إلى عصبة الأمم. وقال فيصل إنه سيكون من الصعب خلاف ذلك تمرير معاهدة إنكليزية عراقية جديدة بدون احتجاجات من قبل القوميين واضطرابات المحتملة[42].

صادقت عصبة الأمم رسمياً على نتائج لجنة التحقيق في 16 كانون الأول (ديسمبر) 1925. وبعد يومين قدّم القائم بأعمال المفوض السامي في بغداد، برنارد بورديلون، لفيصل رسالة فحواها أن العراق يجب أن يُصادق على مسودة المعاهدة الإنكليزية العراقية في أقرب وقت ممكن، لأن المعاهدة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن للعراق من خلالها أن يضمن محافظته الشمالية[43]. وكان فيصل قد كتب إلى ليو آمري في 26 كانون الأول (ديسمبر)، مكرراً موقفه بأن مسودة المعاهدة التي تنص على تمديد مدة الانتداب إلى خمس وعشرين عاماً لن تكون مقبولة إلا في حال إجراء تعديلات عليها تسمح بإجراء المراجعات الدورية التي كان يطالب بها. بالإضافة إلى ذلك، طالب فيصل بإجراء تعديلات في الملاحق المالية والعسكرية لمشروع المعاهدة.

لم تكن حكومة السعدون متأكدة من الموقف الواجب اتخاذه إزاء تمديد الانتداب لمدة خمسٍ وعشرين عاماً. فقدّم السعدون استقالته، الأمر الذي تطلب من فيصل أن يلجأ إلى استخدام جميع قدراته لوقف انهيار الحكومة[44]. رفضت وزارة المستعمرات مطالب فيصل بتعديل الملاحق المالية والعسكرية للمعاهدة ـ التي تشكل قلب السيطرة الإدارية البريطانية على أجهزة الدولة العراقية ـ لكنها وافقت على طلب إجراء مراجعات لتقدم العراق كل أربع سنوات، بهدف أن يكون البلد مؤهلاً للانضمام إلى عصبة الأمم. كان هذا أفضل ما يمكن الحصول عليه في ظل هذه الظروف.

تم طرح مشروع المعاهدة المعدل على طاولة مجلس الوزراء في 13 كانون الثاني (يناير)

مارس 1926 حيث تم تمريره. كان الأمر متروكاً الآن للبرلمان للموافقة على الصيغة النهائية. مكتب الاستعمار مزيداً من الضغط على فيصل وحكومته لضمان سرعة الموافقة على المعاهدة من قبل البرلمان. وكان من المقرر أن يجتمع البرلمان البريطاني في 2 شباط (فبراير) 1926 وتوقع مكتب المستعمرات أن يتم التصديق على المعاهدة بحلول ذلك التاريخ. مرة أخرى، تم تأجيل مصير الموصل وانضمامها إلى العراق باعتباره الثمن الذي قد يدفعه العراق في حال لم تتم الموافقة على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية الجديدة في الوقت المناسب[45]. لكن المجلس وافق على المعاهدة في 18 كانون الثاني (يناير). فقد صوت ثمانية وخمسون نائباً من أصل ثمانية وثمانين نائباً لصالح المعاهدة فيما امتنع تسعة عشر نائباً عن التصويت، معظمهم من المرتبطين بياسين الهاشمي. لقد تم إجهاض المعارضة البرلمانية المتوقعة من خلال مناشدات السعدون بأن مصير ولاية الموصل معلّق، ومن خلال سيطرة الحكومة على عدد كبير من النواب[46]. كانت الصحافة العراقية غاضبة من السرعة التي تم بها تمرير المعاهدة، وألقت اللوم مباشرة على السعدون. ومع ذلك، كان ليو آمري ووزارة المستعمرات بغاية الرضا عن النتيجة، ومُنح السعدون لاحقاً وسام الفروسية لجهوده.

لقي قرار عصبة الأمم بمنح الموصل للعراق انتقاداتٌ حادة في الصحافة التركية، وصلت إلى درجة اعتبار شنّ الحرب على الموصل احتمالاً حقيقياً. لكن الحكمة هي التي اتنصرت في البرلمان، ووافق الأتراك أخيراً على ترسيم الحدود مع العراق، تماشياً مع قرار عصبة الأمم. وكان العامل الإضافي الذي شجّع الأتراك على الموافقة أنهم سيحصلون على 10% من صافي الإيرادات التي سيحصل عليها العراق من شركة البترول التركية طوال السنوات الخمس والعشرين القادمة. تم التوقيع على معاهدة ثلاثية إنكليزية ـ تركية ـ عراقية في 5 حزيران (يونيو) 1926، والتي اعتمدت قرارات عصبة الأمم كأساس لترسيم الحدود بين العراق وتركيا. قام فيصل بتفويض نوري السعيد لتوقيع المعاهدة نيابة عنه، وصادق عليها البرلمان في 18 تموز (يوليو). لقد انقضى التهديد الذي تشكله الجمهورية الكمالية الجديدة في تركيا على دولة العراق غير المستقرة. لقد تم الآن تسوية مسألة حدود مملكة فيصل بشكل نهائي، وأصبحت منطقة الموصل بالغة الأهمية الآن بأمان داخل حدودها. يمكن لفيصل الآن أن يركز طاقاته على توسيع سلطته داخل البلاد والتقليل من السيطرة البريطانية على إدارتها. وكان السبيل لتحقيق بذلك هو من خلال ضمان دخول العراق السريع إلى عصبة الأمم، باستغلال البند داخل المعاهدة الأنغلو ـ عراقية لعام 1926 والذي ينص على: الالتزام بإجراء مراجعة لتقدم العراق كل أربع سنوات كمؤشر على اهليته.

فيصل وانهيار مملكة الحجاز

طغى التهديد الوهابي المتصاعد لمملكة الحسين الحجازية على علاقات فيصل الصعبة مع والده. فتوطيد سيطرة الوهابيين على شبه الجزيرة العربية من شأنه أن يقوي قبضة ابن سعود وقد يكون له تداعيات خطيرة على استقرار حكمه في العراق. وعلى الرغم من «شدة عناد والده الذي أكسبه نفور رعاياه وعداء جيرانه»[47]، فقد مارس فيصل ضغوطاً شديدة على البريطانيين لكسب دعمهم للحجاز. وبحلول منتصف عام 1924، كان حكم الشريف حسين في مهب الريح. كان التجار ووجهاء الحجاز قد انقلبوا ضده، نتيجة سياساته المتقلبة والمتخبطة. وسادت الفوضى في جميع أنحاء البلاد. كما كان الوضع المالي للدولة مروعاً، وقد تدهورت قدراتها العسكرية بشكل كبير. وكان موقف معظم القبائل، التي تشكل ركيزة القوات الحجازية، في الصراع الحاسم مع الوهابيين إما محايداً أو متذبذباً. فعل فيصل ما في وسعه لمساعدة والده. وخصّصت حكومة ياسين الهاشمي مبلغ 15000 روبية لإغاثة اللاجئين الحجازيين، والذي تم تحويله لاحقاً، من قبل الشريف حسين، لاستخدامه لأغراض عسكرية. وقد أثار هذا استنكار «المقيمية البريطانية»، الأمر الذي أدى بدوره إلى قيام فيصل بالدفاع عن تصرفات حكومته بشراسة. إلا أن كل هذا لم يكن له أي تأثير على الصراع الدامي الدائر في الحجاز[48]. لم يكن بمقدور فيصل إلا أن يؤدي دور المتفرج بينما كانت العواصف تجتمع لتهدد بتدمير الأسرة الشريفية في معقلها التاريخي.

سعت بريطانيا لتنظيم مؤتمر في الكويت لترسيم الحدود النهائية للحجاز ونجد وشرق الأردن لكن مساعيها ذهبت أدراج الرياح. كان هناك الكثير من عدم الثقة بين أطراف الصراع، وتفاقمت حالة انعدام الثقة هذه نتيجة إعلان الشريف حسين نفسه خليفة للمسلمين، الأمر الذي لقي صدى سيئاً للغاية لدى ابن سعود. كان جيش وهابي كبير يتقدم من الرياض باتجاه الطائف التي سقطت في أوائل أيلول (سبتمبر) 1924 وسط مجازر مروعة. وكانت مكة نفسها مهددة، وكان فشل الهجوم المضاد من قبل الأمير علي لاستعادة الطائف إشارة إلى بداية النهاية. وفي 4 تشرين الأول (أكتوبر) 1924، «تنازل الشريف حسين، بضغط من أعيان الحجاز، عن العرش لصالح ابنه علي. وبعد عشرة أيام، غادر علي وجيشه المدمر مكة إلى جدة. وفي اليوم نفسه، غادر حسين جدة متوجهاً إلى العقبة. وكانت هذه نهاية مملكة الحجاز. صمد علي في جدة قرابة عام، بلا مال وبجيش متفكك عملياً. واستسلمت المدينة لابن سعود في 5 كانون الأول (ديسمبر) 1925، وفي 19 كانون الأول (ديسمبر)، تنازل علي عن العرش، وغادر جدة على متن السفينة HMS Clematis

متوجهاً إلى عدن. وهكذا انتهى الحكم الشريفي على الحجاز وأقدس مدينتين في الإسلام والذي استمر قرابة ألف عام(*).

كانت تبعات الكارثة التي أصابت مملكة الحجاز تدقّ الآن على أبواب فيصل. فقد بدأ نزوح الأسرة الشريفية في مكة المكرمة وأقاربهم وحاشيتهم. وكانت محطتا اللجوء لهؤلاء التعساء هما إمارة عبد الله في شرقي الأردن، والمحطة الأهم، مملكة فيصل في العراق، لكونها الدولة الأكبر والأغنى من حيث الموارد. كان غازي نجل فيصل الوحيد هو أول الواصلين، بعد ان بقي إلى جانب جده إلى أن وافق الشريف حسين على التحاقه بوالده في بغداد. ذهب وفد برئاسة السعدون إلى عمّان لإحضار الأمير الشاب في أيلول (سبتمبر) 1924. وكان فيصل مسروراً بقدوم ابنه. كتبت بيل لوالدها عن وصول غازي إلى بغداد: «الحدث الكبير الذي حدث يوم الأحد كان وصول الأمير غازي، الابن الوحيد للملك. هو صغير جداً بالنسبة لعمره. لديه وجه والده الرقيق والطويل وأسلوبه الساحر، وأكثر ما يلفت الانتباه في شخصيته هو الاعتداد الخجول بالنفس»(49). كما كتبت بيل، التي اهتمت شخصياً بتنشئة غازي، إلى والدها عن حالته المزرية وعن قرب وصول بقية أفراد عائلة فيصل المباشرة. «لقد عانى من الإهمال إلى حدٍ كبير حيث كان بيد العبيد والنساء الجاهلات. أتوقع أن يخرج نساء العائلة من حياته الآن، بعد الانفصال في مكة. هناك ابنتان ـ لا بد أن إحداهما قد بلغت الثامنة عشرة تقريباً. [كانت هناك بالطبع ابنة ثالثة لكنها كانت معاقة ولم يكن أحد يتحدث عنها]. على أية حال، فإن وجود غازي سيحدث فرقاً كبيراً بالنسبة لفيصل. كان من الجميل أن أراهما في ذلك اليوم، بينما كنت جالسةً في حديقة جلالة الملك، وهما ذاهبان للصلاة جنباً إلى جنب عند آذان المغرب»(50).

كان الملك فيصل يحب ولده غازي، لكن مع مرور الوقت ازداد قلقه من أن غازي قد لا يكون على مستوى مهمة إدارة البلاد. في الواقع، ساورت الملك فيصل شكوك بأن غازي قد يكون مختلاً عقلياً. يتذكر ساطع الحصري عندما طلب منه الملك القدوم إلى القصر لأمر عاجل. وما أن وصل إلى هناك، حتى رأى الحصري فيصل منهاراً على كرسي في نهاية الغرفة. أشار إلى الحصري ليجلس بجانبه وظل صامتاً لبعض الوقت. ثم بدأ بالكلام متمتماً باسم «غازي» بشكل متكرر. خمّن الحصري ما كان يدور في ذهن فيصل. كان الذين أشرفوا على تعليم غازي في الحجاز قد أخبروا فيصل أنه بطيء التعلم. بدأ الحديث مع الحصري بقوله: «تعرف يا ساطع، أنني أحب

(*) طال الحكم الفعلي الشريفي حوالي أكثر من 8 قرون. ويمكن القول أن البداية كانت منذ أن تصدّت جماعة من سلالة الإمام الحسن بن علي ع لنقابة الأشراف في مكة من نحو 968م، لكن بدأ حكمهم فعلياً منذ 1201م من خلال آل قتادة بن إدريس الحسني لمدينتي مكة والمدينة المنورة، واستمروا في سلسلة متوالية دون انقطاع حتى عام 1925م. (المُراجع).

أسرتي وأحب ابني غازي وأحب أن أؤسس أسرة مالكة. لكني أحب أمتي أكثر من أسرتي ومن غازي... إذا كان الأمر حقيقة كذلك [فيما يتعلق بصعوبات التعلم لدى غازي]، وإذا كان غازي لا يتصف بالذكاء اللازم لولي العهد والملك... فأنا لن أتردد في العمل بما يحتمه علي الواجب الوطني. سأجمع مجلس الأمة وسأقول: إني أجعل الأمة في حل من ولاية عهد، وأترك لها الحرية التامة في تقرير ما يجب عمله في هذا الشأن... قال ذلك بصوت مختنق ولكنه حازم ثم كرر: أحب ابني، لكني أحب أمتي أكثر من ابني... فعلي أن أقوم بواجبي نحوها، قبل كل شيء». تأثر الحصري بكلام فيصل وقدم بعض النصائح المطمئنة حول حالة غازي، على الرغم من أنه التقى غازي مرة واحدة فقط من قبل. وفيما كان الحصري يغادر، كرر فيصل هواجسه: « أعرف يا ساطع، أنك رجل صريح وتقول ما تعتقد به دون مواربة... غير أني أرجو منك إلا تخرج عن ديدنك هذا في هذه المسألة. لا تفكر بي. لا تفكر بغازي. فكّر بالأمة، فكر بالوطن» [(51)]. ربما كان غازي بطيء التعلم، إلا أنه، وبالرغم من عناده وسرعة غضبه، كان يعاني من الارتباك أكثر من كونه يعاني الاختلال. كان ذو شخصية ساحرة أيضاً، وعندما بلغ مرحلة النضج انغمس في عشقه للسيارات السريعة وأسلوب الحياة السريع. تخلى عن الحياة المقيتة في مدرسته البريطانية الحكومية التي تتسم بالصرامة والانعزال، وعاد إلى العراق ليختلط بالضباط والجنود. وكان يتمتع بشعبية كبيرة بينهم، وذاع صيته بوصفه قومياً ومعادياً لبريطانيا. وتوفي عام 1939، مخموراً، في حادث سيارة مروع.

شكّل احتمال قدوم الشريف حسين المنفي إلى بغداد مشكلة أخرى. فلم يكن فيصل ولا البريطانيون يرغبون في رؤية الرجل العجوز في العراق. وكتبت بيل: «أصلي حتى لا يلجأ الحسين إلى هنا؛ سيكون مركزاً لكل أنواع الأذى لفيصل، ولبريطانيا»[(52)].

وبدأت تنتشر شائعات حول السماح للشريف حسين بالقدوم إلى البصرة، بشرط إلا يقوم بأي دور سياسي. حتى أن فيصل لمّح لفكرة دعوة المجتهدين الشيعة لإعلان الجهاد ضد الاحتلال الوهابي لمكة، نيابة عن الشريف حسين. لكن الشريف حسين انتقل، في النهاية، إلى العقبة إلى أن تم نقله من قبل البريطانيين إلى مكان أكثر أماناً في قبرص. وبحلول عام 1931، كانت صحة الشريف حسين تتدهور وسعى للحصول على إذن من البريطانيين للسماح له بمغادرة قبرص. وجاءت الموافقة من وزارة المستعمرات على نقله إلى منزل عبد الله في عمّان. سافر فيصل وعبد الله إلى قبرص للترتيب لنقل الملك السابق إلى عمّان. توفي الشريف حسين بعد بضعة أشهر، ودُفن في مقبرة المسجد الأقصى في القدس[(53)].

لم يكن فيصل متحمساً لقدوم نساء الأسرة من مكة. فقد كانت علاقته بزوجته حُزيمة جيدة، في أحسن الأحوال، إلا أنها كانت تفتقر إلى العاطفة. لقد كان بعيداً عن عائلته لفترات طويلة

جداً، ولم يكن لديه حياة عائلية تستحق التذكر. ومع ذلك، كان وصولهم إلى بغداد أمراً لا مفر منه بعد تسليم مكة ووصلوا إلى بغداد كما كان مقرراً في 16 كانون الأول (ديسمبر). وقد كتبت بيل: «وصلت الملكة [حُزيمة] وأفراد العائلة ـ من دون الملك حسين ـ بالأمس. لم ألتق بأي منهم ولكني اتصلت هذا الصباح، كما يقتضي الواجب، للسؤال عنهم... أعتقد أن الملك يشعر بالضيق من قدومهم، لكن بما أنه سيغيب لأسبوع آخر، فالأوقات العصيبة لم تأتي بعد»[54]. تولت بيل مهمة ترتيب مراسم استقبال الملكة وغيرها من المراسم الأخرى، وكانت بيل في البداية معجبة بالملكة حزيمة. إلا أن خجل حزيمة ورقتها الظاهريان كانا يخفيان جانباً من شخصيتها، يتسم بالكثير من المكر والغيرة والحقد، وسرعان ما أصبحت عدو بيل اللدود.

تجنبت بيل بالتصريح بآرائها حول الملكة حزيمة في رسائلها، لأنها اعتبرت أن آرائها الحقيقية عن الملكة قد يكون لها آثار سيئة على فيصل. ومع ذلك، فإن العداء بين المرأتين يتجلى بوضوح في الرسائل الخاصة للسير هنري دوبس إلى زوجته. فقد كانت حزيمة تعتقد أن غيرترود بيل كانت تخطط لتزويج الملك فيصل بفتاة من عائلة صفوت. وقد كتب دوبس: «جيرترود منزعجة جداً لأن الملكة منعت السيدة صفوت من دخول القصر مرة أخرى منعاً باتاً. وكان من المخطط إحضار ابنتهما الكبرى من سوريا ووضعها بجوار فيصل وبهذا يتم القضاء على خطط زواج فيصل في مهدها»[55]. إلا أن الملكة كانت تشعر بالغيرة من بيل أيضاً ومن قربها من الملك واطلاعها على أحواله. كتب دوبس في رسالة إلى زوجته بتاريخ 4 حزيران (يونيو) 1925: «أُصيب فيصل بانهيار عصبي و... اضطر للعودة إلى المنزل. وهذا ناجم عن خلافات عائلية. فبعد أن منعت الملكة السيدة صفوت من المجيء إلى منزلهم بطريقة فظّة، اتهمت عائلة صفوت بعض خادمات الملكة بأنهن يقمن علاقات مع عناصر من الحرس، وكانت الملكة قد دخلت في مشادات غاضبة مع فيصل أدت إلى انهيار كامل في أعصابه. كما كان دخل في مشادات مع غازي الصغير بسبب صبي أسود من الخدم تم إبعاده. بالمجمل لم يكن فيصل سعيداً أبداً. وتسعى جيرترود إلى التوصل إلى حل إلا أنني أخشى من غيرة الملكة منها لأن فيصل قد قام بتقبيل جيرترود على خديها بالأمس»[56]. كما كتب دوبس في رسالة أخرى لزوجته: «كان الملك يمضي بعض الوقت في أملاكه لتجنب غيرة الملكة وتذمرها. إن جيرترود الآن تكن مشاعر الكره للملكة وتشجب تصرفاتها وتعتقد أنها شخص لا يُطاق»[57]. ويبدو أن فيصل نفسه مستاء من سلوك زوجته.

وكان من بين من توجهوا إلى بغداد الملك علي، الملك السابق للحجاز. كان علي مقرباً إلى فيصل أكثر منه إلى عبد الله، ولذلك كان من الطبيعي أن يختار بغداد بدلاً من عمّان لتكون منفاه. وكان فيصل أيضاً يثق به ويستشيره في شؤون الدولة[58]. إلا أن الأخذ بمشورته من عدمه كانت مسألة أخرى، لكن فيصل كان يكن احتراماً كبيراً لأخيه الأكبر. كان بحاجة إلى وجود أخيه

في العراق ليكون وصياً على العرش عندما يسافر إلى الخارج. ذهبت بيل لزيارة علي وفيصل في 26 كانون الثاني (يناير) 1926. وكتبت إلى والدها عن هذه الزيارة: «بالأمس ذهبت لرؤية الملك والملك السابق علي، وهو شخصية جذابة للغاية ومثيرة للعطف... ويمكنني القول إنه خلق لحياة من التأمل، ليس للحرب والسياسة»[59]. وبعد بضعة أشهر، وصلت بقية الأسرة الشريفية الممتدة إلى بغداد. كتبت بيل في 16 حزيران (يونيو) 1926 في إحدى رسائلها الأخيرة قبل وفاتها، أتوقع أنه سيتعين علي تخصيص بعض الوقت في فترة بعد الظهر لزيارة أقارب الملك من النساء اللواتي وصلن من عمّان بصحبة جيش من الخدم ـ أي جدته، وعدد غير معروف من العمات وزوجة علي وثلاثة أطفال. لا أعرف أين أو كيف سيتم إيواءهم وتأمين سبل العيش لهم ـ كل ما أعرفه، على الأقل، هو أنه لم يتم تأمين عيشهم على حساب جلالة الملك. فيبدو أنه يقدم الدعم للأسرة بأكملها باستثناء والده وشقيقه عبد الله»[60].

بعد أيام قليلة كانت بيل ترافق فيصل لزيارة المجموعة التي وصلت مؤخراً. «لقد وجدت فيصل بصحبة علي وذهبنا جميعاً لرؤية الجدة العجوز التي تبلغ من العمر 90 عاماً أو نحو ذلك وكانت تحتضر من آثار رحلتها من عمّان. كانت مستلقية على فراش على الأرض، وكانت شبه عاجزة عن الكلام، المسكينة. وكانت زوجة علي امرأة لطيفة ولكن نظراً لكونها نشأت في القسطنطينية فهي نادراً ما تتحدث العربية. هناك فتاتان تبلغان من العمر حوالي 17 و18 عاماً، جميلتان جداً، وصبي لطيف المظهر يبلغ من العمر 16 عاماً، وفتاتان صغيرتان أخريان تبلغان من العمر 4 أو 5 سنوات. لم يرهم الملك منذ ما يقرب من عامين. كنت أتمنى لو كان لديهم أي شيء ليعيشوا فيه غير قائمة فيصل المدنية»[61].

كان هناك آخرون من غير الحجازيين، حفنة من الشخصيات التي توجهت إلى العراق بعد سقوط حكم الشريف حسين، وكان على فيصل أن يؤمّن معيشتهم بطريقة ما. كان بعضهم منفيين سياسيين من سوريا، ممن غادروا بعد الاحتلال الفرنسي لبلادهم. استقبلهم فيصل جميعاً، لكن لم يكن لأي منهم نهاية مؤثرة ومأساوية أكثر من الرمز الوطني أحمد مريود. تصف بيل ما حدث له بعد ذلك.

«كان هناك رجل يُدعى أحمد مريود، وهو ومن ملّاك الأراضي الأثرياء للغاية وكان يتمتع بحماس وطني كبير. حيث قام بمهاجمة قوات غورو (عام 1922على ما أظن) ثم فرّ بعد ذلك إلى عمّان أولاً، ثم إلى مكة. وبعد طرد حسين جاء إلى هنا وأسكنه الملك في مزرعته في خانقين ـ أبعد ما يمكن عن الحدود السورية. لم يعترض الفرنسيون على ذلك وتجاهل المفوض السامي البريطاني الأمر. لقد كنت أزور الرجل كثيراً في خانقين وكنت أحبه وأحترمه، كما كان

المرء سيحب غاريبالدي(*) ويحترمه. لقد كان وطنياً حقيقياً. في النهاية، ولاختصار قصته الطويلة، تسلسل عائداً إلى سوريا حيث بدأ في قيادة الفرق الدرزية. حيث ألقى الفرنسيون القبض عليه وعلى شقيقه وأعدموهما رمياً بالرصاص(**)، وقد يكون لهم كل الحق في ذلك. لكنهم بعد ذلك أخذوا جثتهما إلى دمشق وجردوهما من ثيابهما وطافوا بها لساعات في الشوارع على ظهور الحمير. إنه عمل من شأنه أن يحول أكثر الناس اعتدالاً إلى أشد القوميين تطرفاً ـ إلا توافقني الرأي؟ أعرف العديد من القصص الأخرى من النوع نفسه، لكني لم أعرف الضحايا شخصياً. كيف يمكن للسوريين أن يغفروا ذلك؟»[62].

(*) جوزيبي غاريبالدي (1807 ـ 1882): بطل حرب الاستقلال الإيطالية. (المترجمان).

(**) لم يُعدم، بل جمعت فرنسا جيشاً عرمرماً ضده، وهاجمت بلدته شرق الجولان، فلم يخشاها واشتبك معها في معركة غير متكافئة، كانت نتيجتها مقتله وولده والعشرات من رفاقه في 21 آيار (مايو) 1926. (المُراجع).

هوامش الفصل الثاني والعشرون

1 ـ فيصل ابن الحسين، من خطبه...، مرجع سابق، ص. 235

2 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 1، ص. 168

3 ـ صحيفة العراق، 30 أيار 1923.

4 ـ كوينسي رايت، الخلاف على الموصل، المجلة الامريكية للقانون الدولي، المجلد 20 رقم 3، تاريخ 3 تموز 1926 ص. 453 ـ 464.

5 ـ ستيفن هيمسلي لونكريك، العراق بين 1900 ـ 1950، مطبعة حسام، 1988، ص. 152 ـ 154. وعبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، ص. 27

6 ـ مكتب المستعمرات 730/63/745 تقرير الاستخبارات 25 كانون الأول 1924.

7 ـ عبد العزيز القصّاب، مرجع سابق، ص. 248. كذلك ادّعى القصّاب بأنه هو الذي نظَّم الإضراب في الموصل لصالح ضمّها إلى العراق، وأن ذلك تم بموجب تعليمات فيصل.

8 ـ عبد المجيد كامل التكريتي، مرجع سابق، ص. 193 ـ 195، نور مصالحة ص. 144

9 ـ عبد الأمير علاوي، تجارب وذكريات، إعداد علي آ علاوي، دار المكارم، لندن 2000، ص 66، حاشية 9. إن الشعارات التي كانت تردد ضمن بيت الشعر التالي:

آه يا موصل، أنت مقام الفخر والكرامة إن من لا يدافع عنك مصيره الإهانة.

وعبد الأمير علاوي الذي أصبح فيما بعد طبيباً ووزيراً في الحكومة، كان عام 1925 طالباً ممن شاركوا في هذه الإضرابات. وقد دعى لونكريك، المؤرخ المعروف في العراق وضابط منطقة، هذه

الإضرابات «...بالحمقاء والاستفزازية». إنها تقدم مفهومين مختلفين تماماً للحادثة نفسها.

10 ـ مكتب المستعمرات 730/73/12195 تقرير الاستخبارات، 5 أذار 1925 رقم 5، الفقرة 106. أيضاً مصالحة، مرجع سابق، ص. 14.

11 ـ بيتر سلوجليت، مرجع سابق، ص. 84 ـ 85.

12 ـ وثائق البلاط الملكي، «الخلاف على الموصل»، رقم TWA/4/1 ـ 912. أيضاً: التكريتي، مرجع سابق، ص. 196، الحاشية 26.

13 ـ صحيفة العراق، 25 أذار 1925.

14 ـ التكريتي، مرجع سابق، ص. 196 الحاشية 39.

15 ـ تقرير خاص عن تقدم العراق 1920 ـ 1931. التقارير السنوية من الحكومة جلالته إلى مجلس عصبة الأمم، لندن 1931، ص. 127

16 ـ مكتب المستعمرات 730/76/3206 تقرير الاستخبارات، 9 تموز 1925 رقم 14، لونكريك، مرجع سابق، ص. 205

17 ـ إنهما رشيد عالي الكيلاني ومحمد رضا الشبيبي.

18 ـ الأدهمي، المظاهر السياسية...، مرجع سابق، ص. 174 ـ 180.

19 ـ سندرسون، مرجع سابق، ص. 78 ـ 79.

20 ـ الحسني، مرجع سابق، المجلد 2 ص. 12 ـ 13.

21 ـ سندرسون، مرجع سابق، ص. 79 ـ 80.

22 ـ المرجع نفسه، ص. 81.

23 ـ المرجع نفسه، ص. 83.

24 ـ يوميات ليو آمري، المجلد 1: 1896 ـ 1929، إعداد جون بارنيس وديفيد نيكلسون، هاتشنسون، لندن 1980، ص. 418

25 ـ كان آمري يستخدم بصورة مضللة ألفاظاً مختلفة لاسم فيصل ويدعوه أحيانا فيصول وفيصال وما شابه.

26 ـ ل.س.آمري، حياتي السياسية، المجلد 2، الحرب والسلم 1914 ـ 1929، هاتشينسون، لندن 1953، ص. 308 ـ 309

27 ـ ويلسون، مرجع سابق، ص. 765

28 ـ سندرسون، مرجع سابق، ص. 84 ـ 85

29 ـ ويلسون، مرجع سابق، ص. 806

30 ـ المرجع نفسه، ص. 807

31 ـ المرجع نفسه، ص. 911، لقد قابل فيصل لورانس عدة مرات خلال زياراته الأخيرة إلى لندن، في حزيران 1933، ودعاه للعشاء بمقر إقامته في فندق هايد بارك. أنظر: أيضاً ك.سكوت، الصورة الشخصية للفنان، جون موري، لندن 1949، ص. 295 ـ 296

32 ـ المرجع نفسه، ص 86 ـ 87.

33 ـ التكريتي، مرجع سابق، ص. 222

34 ـ إليزابيث برغوين، مرجع سابق، ص. 332

35 ـ إليزابيث برغوين، مرجع سابق، ص. 33

36 ـ جويس لافارتي ميللر، الثورة السورية عام 1925، المجلة العالمية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 8، رقم 4، تشرين الأول 1977، ص ص 545 ـ 563.

37 ـ عرض ويفاغد على نوري السعيد إمكانية تنصيب علي ملكاً على سورية. إليزابيث برغويند، مرجع سابق، ص. 332 ـ 333

38 ـ سندرسون، مرجع سابق، ص. 90

39 ـ المرجع نفسه، ص. 89 ـ 90

40 ـ المرجع نفسه، ص 115.

41 ـ في رسالة إلى زوجته في 6 آب 1925 كتب دوبس: «ستَرَين تقرير لجنة الحدود قبل أن تصلك هذه الرسالة. لقد اقترحت من دون حماس كبير انتداباً لمدة 25 عاماً بإشراف عصبة الأمم (وأعتقد أنه سيكون للبريطانيين)، أو إعادة الموصل إلى تركيا. كان فيصل مسروراً تماماً لفكرة 25 عاماً، ولكنني أخبرته بأن لدي شك فيما إذا كان البريطانيون سيقبلون بذلك...». أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس، رسالة 6 آب 1925؛ تحية إلى آن وهنري ويلكس

42 ـ مكتب المستعمرات 730/78/46164 تقرير الاستخبارات، 1 تشرين الأول 1925، مقتبس في: لطفي جعفر فرج عبد الله، عبد المحسن السعدون...، مرجع سابق، ص. 188 ـ 193

43 ـ رسالة من المفوض السامي إلى فيصل، 18 كانون الأول 1925، أرشيف القصر الملكي ج 9/1926/ مقتبس في: كتاب لطفي جعفر فرج عبد الله، عبد المحسن السعدون، مرجع سابق، ص. 197

44 ـ المرجع نفسه، ص. 197 ـ 210

45 ـ المرجع نفسه.

46 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2، ص. 36 ـ 44. كتب السعدون رسالة طويلة وبارعة لرئيس مجلس النواب، يعرض فيها قضية قبول المعاهدة بصيغتها الحالية رغم النقص الواضح

فيها.

47 ـ تيتيلباوم، مرجع سابق، ص. 196 ـ 197. ووزارة الخارجية 371/7713/13/412

من المفوض السامي في العراق إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات، رقم 364 23 أيار.1922

48 ـ سامي عبد الحافظ القيسي، ياسين الهاشمي...، مرجع سابق، ص. 269 ـ 270، الحاشية 101 ـ 102.

49 ـ برغيون، مرجع سابق، ص. 355

50 ـ برغيون، مرجع سابق، ص. 356

51 ـ ساطع الحصري، صفحات من الماضي القريب، دار العلم للملايين، بيروت 1948، ص. 20 ـ 22

52 ـ إليزابيث برغيون، مرجع سابق، ص. 355

53 ـ وبحسب الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسني، فقد كان هو من اقترح دفن الحسين في المسجد الأقصى، بجانب مولانا محمد علي، أحد مؤسسي حركة الخلافة الهندية، ومؤيد قوي للمؤتمر الإسلامي في القدس لعام 1931. أنظر: فيليب مطر، مفتي القدس: الحاج أمين الحسيني والحركة الوطنية الفلسطينية»، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 1988، ص 57.

54 ـ إليزابيث برغيون، مرجع سابق، ص. 359

55 ـ أوراق غير منشورة للسير هنري دوبس. رسالة 14 أيار 1925؛ تحية إلى آن وهنري ويلكس.

56 ـ أوراق غير منشورة للسير هنري دوبس. رسالة 4 حزيران 1925، تحية إلى آن وهنري ويلكس.

57 ـ أوراق غير منشورة للسير هنري دوبس. رسالة 18 حزيران 1926؛ تحية إلى آن وهنري ويلكس.

58 ـ تتذكر الأميرة بديعة ابنة علي المناسبات العديدة في طفولتها، عندما كان فيصل وعلي يغلقان على نفسيهما لساعات متتالية، إذ اعتاد فيصل على زيارة منزلهما بانتظام يوم الخميس في بغداد. كانت هي وأختها في حالة من الرهبة من عمهم، وكانوا ينظرون إليه بتبجيل كبير. كما تذكر بديعة آراء فيصل التقليدية فيما يتعلق بنساء العائلة المالكة. على سبيل المثال، رفض قبول ارتداءهم للملابس الغربية العصرية. Interviews conducted by the author with Princess Badiy»a in London, April/May 2012.

59 ـ إليزابيث برغيون، مرجع سابق، ص. 383

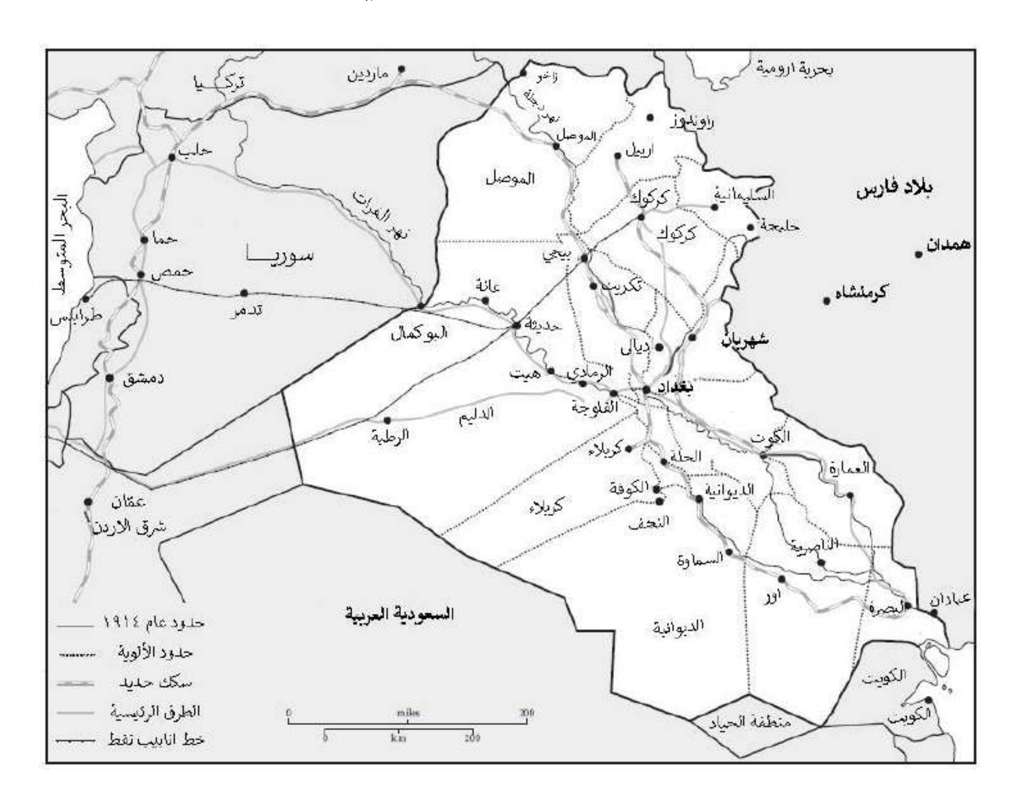
60 ـ إليزابيث برغيون، مرجع سابق، ص. 390

61 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 23 حزيران 1926

62 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 16 حزيران 1926

الفصل الثالث والعشرون: النضال في سبيل التحرر

خارطة [7] المملكة العراقية



لقد شكّل تأمين الحدود الشمالية للعراق وضم ولاية الموصل نجاحاً كبيراً لفيصل وحكمه للعراق. لقد كان في غاية السعادة بالمعاهدة التركية، وقد بدا عليه ذلك. فقد كتبت بيل: «أتى الملك، هذه الليلة، لتناول العشاء ولعب البريدج، كما حضر كل من كين [كورنواليس] ورستم حيدر، رئيس ديوان جلالة الملك، لمقابلته. كان الملك منفرج الأسارير بسبب المعاهدة مع تركيا. لقد كان ذلك تحول مذهل في موقفهم»[1]. كانت جهود فيصل الآن منصبة نحو التخلص من الانتداب وتحقيق الاستقلال غير المشروط للعراق. كان التصديق على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية لعام 1926 هو الأداة التي كان فيصل يأمل من خلالها في التحرر من السيطرة البريطانية على

العراق. كانت المادة 3 قد فتحت من المعاهدة إمكانية مراجعة تقدم العراق في فترات زمنية مدتها أربع سنوات. كما أنها تبطل الآثار السلبية لتمديد مدة الانتداب لخمس وعشرين سنة أخرى. وكانت وزارة المستعمرات أساساً قد وافقت على شرط المراجعة كل أربع سنوات، لمنح فيصل بعض التنازلات التي تتيح له تفادي الانتقادات الداخلية بشأن المعاهدة. لكن فيصل كان مصمماً على استخدامه لفتح باب المفاوضات على الفور من أجل الحصول على الاستقلال الكامل، في وقت مبكر من عام 1927 إن أمكن.

غادر فيصل إلى أوروبا في 30 حزيران (يونيو) 1926، كان أن أحد أهداف الرحلة قضاء إجازة للاستشفاء في الحمامات الحرارية في فيشي في فرنسا. كما سعى إلى الاطلاع شخصياً على موقف وزارة المستعمرات فيما يتعلق بإعادة فتح المفاوضات بشأن استقلال العراق. كتبت بيل عن رحلة فيصل: «سيغادر جلالة الملك الأسبوع المقبل لتلقي العلاج في «ويشي» ـ لا يمكن للعرب نطق حرف V. ومن المحتمل أن يقوم بزيارة إلى إنكلترا لكنني أعتقد أنه من المرجح أن يذهب ابنه [غازي] إلى فيشي. إنه يبدو بصحة جيدة للغاية وهو سعيد جداً بحل الصعوبات المتعلقة بتركيا، لكن لا يوجد لديه الكثير ليفعله في الصيف ووزراؤه سعداء لأنه سيكون بعيداً»[2]. قامت بيل بزيارة فيصل قبل أيام قليلة رحيله. «ذهبتُ لتناول الشاي معه يوم الاثنين ولوداعه... «سيكون علي هو الوصي أثناء غيابه. أعطاني فيصل تمثال نصفي من البرونز له من تصميم فيو غلينشن[3] لوضعه في المتحف. سأضعه في الغرفة العربية الكبيرة. إنه ليس سيئاً ومهيباً، ولكنه لا يشبهه تمام الشبه»[4]. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأى فيها فيصل غيرترود بيل. وبعد أقل من أسبوعين ماتت.

وفاة غيرترود بيل

تراجعت مشاركة غيرترود بيل، في عامها الأخير في العراق، في الشؤون السياسية والإدارية للبلاد، وانصب اهتمامها في تأسيس وإدارة أول متحف في العراق. وبالرغم من أنها استمرت في تقديم مشورتها بما يتعلق بالشأن السياسي، إلا أن نفوذها انحسر. ولم يعد فيصل يلجأ إلى معرفتها السياسية التي لا شك فيها. ومع ذلك، فقد ظلّت موضع ثقته للحصول على المشورة والتوجيه بكل ما يتعلق بشؤون أسرته. وكان فيصل قد أسرّ لها أنه لن يحضر عائلته إلى العراق حتى يشعر بأنه في وضع مستقر هناك. لقد كان الكارثة التي حلّت به في سوريا والآثار الوخيمة التي خلفتها على أسرته ماتزال ماثلة في ذهنه. كان قد التحق به عدد كبير من أفراد الأسرة الهاشمية إلى سوريا في أوائل عام 1920، بما في ذلك عائلة شقيقه علي. لكن ما إن استقر بهم المقام حتى أمرهم فيصل بالمغادرة إلى المدينة المنورة هرباً من آثار الأزمة الوشيكة مع فرنسا[5].

ولكن مع انهيار مملكة الحجاز، حيث يقيم معظم أفراد العائلة، والظروف الأكثر استقراراً في العراق، وافق فيصل على إحضار عائلته إلى العراق. كان لدى فيصل، إضافة إلى قصره الرئيسي في بغداد، فيلا كبيرة مخصصة لإقامة عائلته في الحارثية، التي كانت حينها منطقة شبه ريفية على بعد عدة أميال خارج بغداد. هناك حيث كانت تقيم حزيمة وبقية أفراد عائلته. في نهاية يوم العمل الذي يقضيه في قصره الرسمي، كان فيصل يقود سيارته إلى الحارثية حيث يقضي الليل مع أسرته.

كان فيصل مدركاً لعدم قدرته على تجاوز التقاليد بما يتعلق بطريقة التعامل مع نسائه. فقد التزمت حزيمة بارتداء البردة ولم تكن تظهر في المناسبات المختلطة. لذلك كان هناك استحالة في اتباع الأسلوب الغربي في البلاط الملكي. كلّف فيصل غيرترود بيل برعاية أسرته وإعدادهم للقيام بأدوارهم في البلاط. وكتبت بيل، «أرسل الملك لي يوم الاثنين لمناقشة الترتيبات التي يجب اتخاذها بخصوص شؤون الاسرة الملكية. كنت سعيدةً جداً باستشارته لي نظراً لوجود بعض المزالق الرهيبة في المستقبل»[6]. تولّت بيل مسؤولية أزياء الملكة، بالإضافة إلى أزياء بنات فيصل وابنه غازي. كان فيصل يدرك أن ابنه غازي يجب أن يألف أسلوب واللباس الأوروبي. كان فيصل نفسه يرتدي الزي الأوروبي بشكل أساسي، وكانت مهمة بيل جعل غازي يرتدي النمط نفسه. وكان غازي من المواظبين على زيارة منزل بيل، التي غمرته باهتمامها وقدمت له الهدايا من الألعاب التي جلبتها من متاجر لندن. كانت بيل أيضاً هي من اقترحت أن يتلقى غازي تعليمه في مدرسة هارو العامة، وهو عامل إضافي وراء نفور الملكة المتزايد من بيل وكرهها لها. فقد كانت شديدة التعلق بابنها واستاءت بشدة من رحيله إلى إنكلترا.

ظلت بيل، على الرغم من تراجع دورها السياسي، مقتنعة بصوابية قرارها بدعم فيصل ليكون الملك. فبعد عودتها من رحلة إلى شرق الأردن، كانت بيل مصدومة من مؤهلات عبد الله الضعيفة مقارنة بشقيقه فيصل: «وكما لا يبدو عبد الله الشخص الذي يمكن اعتباره حليف جيد عندما يتعلق الأمر بالقتال. فهو يجمع ما بين الخمول والنظرة الضيقة والمتعصبة... لم يكن قادراً على أن يخفي غيرته من أخيه فيصل في أحاديثه. والمسألة كلها ترجع إلى استياءه من كونه وجد نفسه أميراً في عمّان بينما فيصل ملكاً في بغداد».

كتبت بيل، بعد إحدى حفلات الشاي مع فيصل: « لقد عُدْت مقتنعة أننا كنا الدولة العربية الوحيدة التي تسير في الطريق الصحيح، وإن فشلنا هنا ستكون بمثابة النهاية للتطلعات العربية. لقد كان [فيصل] الأكثر عطفاً وجاذبية. أنا سعيدة لأنه هو وليس عبد الله! قد تكون هناك صعوبات في التعامل مع مخلوق شديد الحساسية والعصبية، لكن حيويته الرائعة وسعة أفقه المذهلة تعوض عن كل شيء»[7].

ونظراً لتقلص مهامها في المقيمية، فقد كرست بيل المزيد من وقتها لتطوير متحف العراق والحفاظ على تراثه الأثري الغني. في الواقع، كانت فكرة فيصل أن ترأس بيل دائرة الآثار التي تم تأسيسها حديثاً، بعد أن أقنعته بالحاجة إلى قانون خاص للحفاظ على كنوز العراق الأثرية وتنظيم عمليات التنقيب عن الآثار. كان فيصل نفسه قد اهتم كثيراً بعمليات التنقيب الجارية في العراق خلال فترة حكمه. وقد زار مواقع التنقيب في بابل ونينوى، وقام بزيارة جوية خاصة إلى جنوب البلاد لمشاهدة الحفريات في أور واكتشاف الزقورة الشهيرة[8]، وكان من بين مهام بيل الأخيرة دعوة فيصل رسمياً إلى افتتاح الغرفة البابلية الحجرية بالمتحف، قبل أسابيع قليلة من مغادرته المخطط لها إلى أوروبا في صيف عام 1926.

كانت بيل شخصية انعزالية على الرغم من كونها محاطة بحشد من المعجبين والمعارف. وأصيبت بحالة متفاقمة من الكآبة نتيجة لشعورها بالوحدة ومشاعرها المعقدة تجاه كيناهان كورنواليس، صديق فيصل القديم ومستشاره. أصبحت بيل أكثر تعلقاً بكورنواليس بعد انفصاله عن زوجته على الرغم من فارق السن بينهما. سواء كان ذلك حباً من طرف واحد أو مجرد اعجاب، فإن كورنواليس لم يقابلها بالمشاعر نفسها. عادت بيل إلى المنزل في 11 تموز (يوليو) 1926، بعد ممارستها للسباحة كعادتها وقد أُنهكت نتيجة لارتفاع درجة الحرارة، ذهبت بيل إلى سريرها. وفي صباح اليوم التالي، تم العثور عليها ميتة في سريرها وبجانبها زجاجة من حبوب «ديال»، المهدئ القوي. تنص شهادة الوفاة على سبب الوفاة هو التسمم بعقار «ديال». لا يمكن تحديد ما إذا كانت قد انتحرت أو تناولت جرعة زائدة عن طريق الخطأ. لم تكن رسائلها في الأسابيع القليلة الماضية من حياتها كئيبة بالضرورة، لكنها أشارت إلى أنها لم تعد تخشى الموت.

حدثت الوفاة بينما كان فيصل في أوروبا. أمر فيصل شقيقه علي، الذي كان يقوم بمهامه كوصي، باتخاذ الإجراءات الرسمية لدفنها، وأمر علي بجنازة عسكرية. تجمعت حشود كبيرة أثناء مرور نعشها في شوارع بغداد في طريقه إلى مثواها الأخير في المقبرة البريطانية خارج بغداد. تصدر الموكب الملك علي ورئيس الوزراء السعدون والمفوض السامي. جاء المشيعون من كل حدبٍ وصوب. حتى الصحافة القومية العراقية نعتها[9]. وأمر فيصل بتخصيص جناح في المتحف العراقي لها. كانت وفاتها بمثابة وفاة شخص كان له دور فعّال في تشكيل سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط وتأسيس مملكة العراق. وقد ظلت وفية لفيصل حتى النهاية.

تركيز السلطة

عاد فيصل إلى العراق في تشرين الأول (أكتوبر) 1926، عازماً على عزل السعدون من منصبه ووضع بصمته على الحكومة الجديدة. جعل وجود السعدون على رأس السلطة، مع صلاته الوثيقة بالمقيمية، من مساعي فيصل نحو الاستقلال أكثر صعوبة. جاءت فرصة دفع السعدون نحو الاستقالة عندما حان موعد انتخاب رئيسٍ لمجلس الأمة. وقف فيصل إلى جانب مرشح المعارضة رشيد عالي ضد مرشح السعدون، وعندما فاز الأول فسّر السعدون هزيمته على أنها تصويت بحجب الثقة. لذلك قدّم استقالته. ودون مزيد من اللغط ودون استشارة المقيمية، قبل فيصل استقالة السعدون. وضغطت المقيمية، التي يرأسها القائم بأعمال المفوض السامي برنارد بورديلون، على لندن لحمل فيصل على التراجع عن قبوله استقالة السعدون. وكانت «المقيمية» قد أيّدت مطالب السعدون بإجراء انتخابات برلمانية جديدة، حيث كانت توقعاته أن يستعيد حزبه الأغلبية. ومع ذلك، نصح وزارة المستعمرات بورديلون بعدم التورط فيما اعتبرته أنه قضية داخلية بحتة وترك فيصل للتعامل مع هذه المهمة[10]. رشّح فيصل مساعده الموثوق جعفر العسكري لتشكيل حكومته الثانية. توجّه العسكري، الذي عاد إلى لندن على رأس المفوضية العراقية، الآن إلى بغداد لتشكيل حكومته. شُكلت الحكومة في 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1926، مع الإبقاء على عدد من الوزراء من حكومة السعدون. كما ضمّت الحكومة نوري السعيد في منصب وزير الدفاع المهم. مع وجود العسكري كرئيس للوزراء، كان فيصل يتحكم بقوة في الكواليس ويمكن أن يبدأ مناوراته المعقدة لتحقيق الاستقلال من البريطانيين الذي سعى إليه بفارغ الصبر. لكنه كان لا يزال عليه أن يتعامل مع الوجود المهيمن للمقيمية البريطانية ـ وخلفها قوة الإمبراطورية البريطانية ـ وعدم رغبتها في التخلي عن قدر كبير من السلطة دون قتال.

كان فيصل بطبيعته رجلاً قلقاً ولا يستطيع البقاء في قصره لفترة طويلة من الزمن. فكان يخرج، كلما سنحت له الفرصة، بصحبة مستشاريه المقربين لتقصي أوضاع الأقاليم. أتاح هذا، بالطبع، الفرصة للتواصل المباشر مع أهالي تلك المناطق النائية، بالإضافة إلى فهم عميق لأنماط الإدارة هناك.

خلال النصف الأول من عام 1927 كان فيصل في حالة حركة دائمة. ففي كانون الثاني (يناير) من ذلك العام قام برحلة إلى منطقة الفرات الأوسط والمدن المقدسة. وفي نيسان (أبريل) ذهب إلى كركوك لتدشين أول آبار للنفط، ثم قام بزيارة ريف الموصل لتفقد جهود محاربة وباء الجراد الذي ضرب المنطقة. وفي شهر أيار (مايو) ذهب إلى البصرة لتقصي وضع الإقليم بشكل عام. واستطاع أن يطوّر فهماً عميقاً لقضايا ومهام الحكومة على مستوى الأقاليم والمستوى الوطني؛ مما منحه ثقة أكبر لمتابعة خطته وتوسيع سلطاته. وهو الآن في طريقه لفرض سلطته

على حكومة البلاد. فقد دبّر عزل اثنين من الحاكمين [المتصرفين]، هما ناجي شوكت وجميل العزاوي، واستبدالهما بمرشحين أكثر ولاءً له. لم تكن التبريرات التي قدمها فيصل لهذه الإجراءات مقنعة تماماً، حيث كان يُنظر بشكل عام إلى المتصرفين أنهما يتسمان بالشرف والكفاءة. ومع ذلك، فقد كان ناجي شوكت جمهورياً مُعلناً، ويؤوي المؤيدين للكمالية وتركيا.

إلا أن التصرف الذي أحدث ضجة كبيرة على الصعيد المحلي، كان تدخل فيصل في إدارة الوقف الديني القادري. فبعد وفاة النقيب، الذي لم يكن من المؤيدين للملك فيصل، في حزيران (يونيو) 1927، وكان ينفرد برئاسة الطريقة القادرية، التي تستحوذ على ممتلكات واسعة تدر عليها عائدات كبيرة، أراد فيصل أن يقلص من سلطة مكتب النقيب، الذي كان قد حدّ من صلاحياته في الأيام الأولى لحكمه، الأمر الذي يقع وقف خارج نطاق سلطته. كما ان وجود أي شخصية قوية أخرى على رأس الطريقة سيشكل تهديداً لسلطة فيصل، إن لم يكن بشكل مباشر فعلى الأقل سيؤثر على ولاء قطاع مهم من طبقة الوجهاء العرب السُنَّة. قام فيصل بتشكيل لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص من عائلة الكيلاني الأوسع، التي تتوارث قيادة الطريقة، لإدارة مكتب الأوقاف، بدلاً من أن يكون هناك شخص واحد مسؤول. لكن الابن الأكبر للنقيب عارض بشدة هذا الإجراء، الذي كان من شأنه أن يجرد عائلته من السيطرة على أوقاف الطريقة. وسعى للحصول على دعم المقيمية في محاولة لضمان بقاء المكتب تحت سيطرة فرد واحد من عائلته المباشرة، وهو نفسه.

لم يكن فيصل نفسه مهتماً بجمع ثروة شخصية كبيرة، إلا انه كان يتغاضى عن الانتهاكات الجسيمة التي كان يرتكبها مساعدوه والمقربون منه بهدف الإثراء الشخصي. وقد تجلّى ذلك أساساً على شكل عمليات نقل غير مشروعة لملكية الأراضي الزراعية التابعة للدولة إلى سياسيين أفراد أو لعائلاتهم. كانت الأراضي الزراعية أساس اقتصاد العراق، وكانت السيطرة على العقارات تمنح أصحابها السلطة والهيبة والثروة. شارك تقريباً جميع الضباط الشريفيين والمسؤولين العثمانيين السابقين في هذه المخططات. أصبح بعض هؤلاء الضباط والمسؤولين، الذين لم يكن لديهم أي مصدر للدخل سوى رواتبهم الحكومية، من كبار ملاك الأراضي، متّحدين مع سلطة طبقة ملاك الأرض القائمة. أيّد فيصل هذه التحركات، جزئياً لتكوين طبقة جديدة من ملاك الأراضي التي من شأنها أن تكون داعمة لحكمه، لكن استيلاءهم على الأرض انعكس عليه بشكل سيء وأثار الشعور بالقلق الذي أصبح منتشراً في البلاد.

كان ردُّ المقيمية عنيفاً على تحركات فيصل واعتبرتها محاولات للانحراف، في تصورها لدوره كملك دستوري مطواع. نتج عن ذلك سيل من البرقيات من المقيمية إلى وزارة المستعمرات، يشكون فيها من استيلاء فيصل على السلطة. كتب دوبس في حزيران (يونيو) 1927: «لقد أدى

سعي الملك فيصل لفرض سلطته الاستبدادية إلى نفور قطاعات مهمة من سكان العراق، ودفعهم إلى الرغبة في العودة إلى الإدارة البريطانية»[11]. كان دوبس يخفي المزيد من الغضب من تصرفات فيصل، الأمر الذي جعله يطرح مسالة إجبار فيصل على التنازل عن العرش.

«لقد عاد فيصل إلى إثارة المتاعب مرة أخرى، حيث أقال بشكل تعسّفي كبار المسؤولين في الدولة (المتصرفين) دون أن يرتكبوا أي أخطاء من أجل وضع مرشحيه الخاصين، المخلصين له شخصياً، الأمر الذي قوّض الثقة بالتسلسل الهرمي الرسمي بأكمله ووضع الإدارة في حالة من الارتباك. لقد قمت بإرسال برقية إلى أمري بأنني مضطر للتدخل وأصر على إعادتهم إلى مناصبهم، ولو أدى ذلك إلى أن يتنازل فيصل عن العرش؛ كما ذكرت له أن فيصل قد عاد إلى مواقفه القديمة السيئة التي كان قد اتخذها مع السير بيرسي كوكس قبل أن تأتيه نوبة الزائدة الدودية في نيسان (أبريل) 1922 والتي ألقت به في الفراش وأنقذت الموقف؛ لكن لا يمكننا أن نتوقع من العناية الإلهية نوبة ثانية من التهاب الزائدة الدودية. أنا في انتظار رد أمري. واظن أنه سيكون منزعجاً إلى حد ما. لكن لا يمكن فعل أي شيء آخر. يعود السبب في ذلك كله إلى أن فيصل غاضب من تأخر الحكومة البريطانية في تقرير ما إذا كانت ستدخله إلى عصبة الأمم أم لا وتمزق جميع المعاهدات والاتفاقيات الحالية. بالضبط كما حدث في عام 1922 عندما كان ونستون تشرشل يؤجل رده حول ما إذا كان سيصر على «الانتداب» للعراق أم لا. سوف أقابل فيصل صباح الغد وأتحدث معه مطولاً. لكنني أشعر أنه يسعى للتملص مني»[12].

لم يكن دوبس يشير فقط إلى تدخل فيصل في إدارة البلاد، ولكن أيضاً إلى مسألة ذات أهمية أكبر بكثير بالنسبة لوزارة المستعمرات وهي قضية التجنيد الإجباري.

أزمة التجنيد الإجباري

كان العامل الرئيس في ترسيخ حكم فيصل في البلاد وتطوير هويتها الوطنية هو تطوير آليات الدولة المركزية وإنشاء جيش قوي. فقد كان من الضروري وجود جيش كبير للدفاع عن حدود البلاد غير المستقرة، وفرض قدر من الاستقرار في بلد مجزأ ومنقسم في كثير من الأحيان، ولمواجهة أي تحديات داخلية لسلطة الدولة. كان قيام أركان الدولة والجيش ضرورياً أيضاً لحلفاء فيصل من الضباط والمسؤولين العثمانيين السابقين لتوطيد سلطتهم. ونظراً لغياب قاعدة واسعة لحكمهم فلم يكون بمقدورهم الاعتماد على أي مصدر مستقل آخر للدعم. ولم يكونوا جزءاً من العائلات التاريخية البارزة، ولم يكن لديهم أي جذور في العائلات القبلية أو الدينية أو التجارية، كما لم يكن بمقدورهم تعزيز قبضتهم الهشة على السلطة في العراق، والتي كانت ناتجة عن قربهم من المقيمية أو القصر، إلا من خلال هيمنتهم على آلية الحكومة والجيش. كان توسيع

الجيش مهماً أيضاً، من وجهة نظر فيصل، لسحب ذريعة بريطانيا بأن انتدابها كان مبرراً نظراً لحاجة العراق إلى بريطانيا للدفاع عنها. كان على البريطانيين، حسب الحجة نفسها، ضمان إدارة البلاد بطريقة لا تعرض جيشهم للخطر. أرسل العسكري مشروع قانون التجنيد الإجباري إلى رئيس مجلس الأمة في 7 حزيران (يونيو) 1927، مؤكداً أنه يمكن تنفيذه بالحد الأدنى من التكاليف الإضافية[13]، وهذا الأمر كان يؤخذ بعين الاعتبار نظراً للضائقة المادية التي يمر بها العراق.

كانت خطة فيصل تتمثل في زيادة حجم الجيش البالغ 7000 إلى 20.000، والأمر اللافت كان موافقة المفتش العام البريطاني المعيّن حديثاً للجيش العراقي، اللواء آرثر كروفورد دالي، على الخطة. إلا أن المقيمية البريطانية ووزارة المستعمرات عارضتا الاقتراح بشدة. كان دوبس يرى أن تلك مجرد خطة مكشوفة من جانب فيصل وأنصاره، وخاصة نوري السعيد، لخلق الوسائل اللازمة لإقامة حكم استبدادي في العراق. وقد كتب دوبس إلى وزارة المستعمرات في تقريره عن الأوضاع في العراق: «ليس هناك أدنى شك في أن نوري باشا أراد حقاً جيشاً بهذا الحجم بغرض تمكينه في وقت ما في المستقبل من القيام بانقلاب لصالح فيصل وإعلانه ملكاً مطلقاً، حيث كان كل من فيصل ونوري يتذمران باستمرار من القيود الدستورية»[14]. وذهب بورديلون إلى أبعد من ذلك وتحدث عن أحلام فيصل في بناء إمبراطورية عربية جديدة بواسطة جيشه الضخم.

كما أن هناك عوامل أخرى كامنة وراء رفض البريطانيين للتجنيد الإجباري. فحقيقة الأمر أن المجندين سيكونون من أبناء القبائل وسكان المناطق الريفية. الذين قد يقاومون بشدة إجبارهم على الخدمة في الجيش. ومن المؤكد أن رجال القبائل المسلحين سيقاومون مثل هذه الإجراءات، وربما بالقوة، مما يهدد الجهود الحثيثة التي بذلتها بريطانيا لجعل القبائل إحدى ركائز سيطرتهم غير المباشرة ومنخفضة التكلفة. كما أن سكان كردستان سينفرون من إخضاعهم للتجنيد الإجباري. بالإضافة إلى ذلك، فإن السكان الشيعة في جنوب البلاد، الذين قاوموا عدداً لا يحصى من حملات التجنيد العثماني، سيقاومونها بالتأكيد من قبل هذه الدولة التي اعتبرها الكثيرون غير مبالية بل ومعادية لهم. في الواقع، عندما تم تقديم مشروع قانون التجنيد في حزيران (يونيو) 1927، استقال وزير التربية والتعليم السيد عبد المهدي[المنتفجي]، وهو شخصية شيعية بارزة، احتجاجاً على ذلك. كما ازدادت حدة المشاعر المناهضة للتجنيد الإجباري في المناطق الشيعية طوال صيف عام 1927، الأمر الذي صُبّ في صالح المقيمية في اختبار صراع الإرادات مع فيصل.

كان فيصل يسعى إلى تجنب ردود الفعل العنيفة ضد التجنيد الإجباري في معاقل الشيعة. فقام بجولة في مناطق الشيعة في أيلول (سبتمبر) 1927، والتقى بالعديد من زعماء القبائل

والمجتهدين، الذين حافظوا على التزامهم لفيصل بعدم الانخراط في السياسة وكانوا حذرين في الرد على ما طرحه، وتمسّكوا بعدم تقديم أي التزامات، لكنهم حذروا بشكل خاص من التجنيد الإجباري. وذهبت جهود فيصل هباءً. فقد منح وحدات الجيش أسماء لها صدى لدى الشيعة، ولكن دون تأثير يذكر. وعلى الرغم من أن الشيعة شكلوا الكتلة الأكبر بين الجنود، فإن الضباط كانوا بالكامل من الضباط العرب السُنَّة. وفي نظر الشيعة العاديين، لم يكن الجيش أكثر من أداة بيد الزمرة الحاكمة في بغداد. تفاقمت الاحتجاجات المناهضة للتجنيد الإجباري واجتذبت مجموعات أخرى. فقد هددت قبائل بأكملها على طول نهر دجلة والبصرة بمغادرة العراق أو الحصول على الجنسية الايرانية أو النجدية لتجنب التجنيد. كما حذرت مجموعة من زعماء العشائر الشيعة في بيان لها من أن التجنيد الإجباري ما هو إلا وسيلة أخرى لقمع طائفتهم[15]. كانت موجة الاحتجاجات أكبر من أن يتغلب عليها فيصل، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1927 أجّلت الحكومة مشروع قانون التجنيد الإجباري حتى إشعار آخر. وماتت القضية ولم تطرح مرة أخرى إلا في أواخر عهد فيصل بعد الاستقلال. لقد كان درساً مفيداً لفيصل إلا يتعدى حدوده، وإشارة إليه بأن نظامه يفقد شعبيته بسرعة بين الناس.

قضية النصولي والاضطرابات الطائفية

كانت الانقسامات الطائفية التي ظهرت في حملة مناهضة التجنيد إشارة للإحساس العميق بالظلم الذي يكمن وراء مواقف الشيعة تجاه الدولة. فقد ذهبت الأغلبية الساحقة من المناصب المهمة في الدولة الجديدة إلى طبقة الضباط والأعيان من العرب السُنَّة، ولم يكن استياء الشيعة من ظلم النظام الجديد بعيداً عن السطح. وكان فيصل مدركاً لهذا الظلم ويدرك الحاجة إلى تحسين هذه الحالة. فكان دعمه لجامعة آل البيت للتعليم العالي، التي تأسست عام 1924، يهدف بصورة خاصة لتعزيز المصالحة بين الطوائف. وكان من المقرر أن تقوم الجامعة بتدريس المواد العلمية والدينية على حدٍ سواء، وسُميت على اسم بيت الرسول الكريم للتأكيد على طبيعتها الجامعة. وكان يرأس الجامعة كبير أمناء فيصل السابق فهمي المدرس، لكنها لم تحصل على الدعم المتوقع سواء من المجتهدين الشيعة أو الحكومة. كان حضورها باهتاً، وعانت من ضعف التمويل والكادر، وأغلقت في عام 1930[16].

كان فيصل يقوم بزيارات منتظمة للمناطق الشيعية، وخاصة العتبات المقدسة، وأبقى على قنوات التواصل مفتوحة مع زعماء الطائفة. وقد قام شخصياً بالتشجيع على إنشاء نظم إدارة المياه والري في بلدات العتبات المقدسة وبلدات وادي الفرات الأوسط، وقام بتدشينها. من المؤكد أن فيصل لم ينجرف خلف التوترات الطائفية السائدة في العراق، ولم ينحاز بوعي إلى أي

طرف في الانقسام الطائفي. كان يعلم أن خططه لبناء هوية وطنية متماسكة لا يمكن أن تتحقق أبداً إذا شعر غالبية السكان بالاغتراب عن حكومتهم. لقد دافع عن توظيف الشيعة في الحكومة، وفي كثير من الأحيان ضد رغبات وزرائه. ومع ذلك، لم يكن هناك شك في أنه كان هناك عدد قليل جداً من الشيعة المؤهلين لشغل المناصب الحكومية الرئيسة. كان تأثير المؤسسة الدينية على تعليم الشيعة لا يزال ملحوظاً في عشرينيات القرن الماضي، وحذر المجتهدون عموماً المتدينين من إرسال أطفالهم إلى المدارس الحكومية. لكن هذه العوامل لا تنفي التمييز العميق الذي كان موجوداً في جهاز الدولة ضد الشيعة، والذي تضخّم نتيجة العداء الذي كان يكنّه العديد من القادة العرب السُنَّة لتقاليد الشيعة وعقائدهم. وبحلول بداية عام 1927، كان استياء الشيعة المتزايد قد وصل إلى حد الانفجار. وأُتيحت الفرصة لهذا الانفجار فيما عُرف بقضية النصولي التي وقعت في كانون الثاني (يناير) 1927.

أنيس زكريا النصولي هو عربي سني من لبنان ينحدر من عائلة تجارية في بيروت. تخرّج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1924، وكان كاتباً في التاريخ العربي والإسلامي في المجلات الأدبية في تلك الفترة. تم تعيين النصولي من قبل المدير العام للتربية، ساطع الحصري، للعمل كمدرس في مدرسة بغداد الثانوية المركزية. كان الحصري قد أحضر معه أيضاً ثلاثة آخرين من الخريجين حديثاً من سوريا وفلسطين للعمل في المدارس الثانوية في بغداد، وكانوا جميعاً مصبوبين في قالب أيديولوجية الحصري القومية العربية. أصبح النصولي مدرساً للتاريخ في المدرسة الثانوية المركزية وألّف كتاباً جدلياً بعنوان «الدولة الأموية في الشام»، والذي طُبع في عام 1926 من قبل دار نشر محلية لعامة القراء، ولكن كان من المفترض أيضاً أن يتم توزيعه على تلاميذ المدارس من قبل الحكومة. وقد تضمن الكتاب تمجيداً بالخليفة معاوية المكروه من قبل الشيعة، كما استخف بالإمام علي، الشخصية الموقرة لدى المسلمين الشيعة. وكاد أن يدّعي أن الإمام الشهيد الحسين هو متمرد على السلطة الشرعية. كان الكتاب مُهدى لورثة العصر الأموية[17]. وزّع النصولي كتابه على طلابه، فما لبث أن ارتفعت الأصوات بين أبناء الطائفة الشيعية وظهرت مطالب بفصل النصولي.

أمر السيد عبد المهدي وزير التربية والتعليم بإقالة النصولي ومنع تدريس كتابه. فما كان من زملاء النصولي، الذين أحضرهم الحصري من بلاد الشام، إلا أن كتبوا رسالة شديدة اللهجة إلى وزير التربية والتعليم، اتهموه فيها بأنه يرأس إحدى محاكم التفتيش واحتجوا على فصل النصولي. وسرعان ما تبع ذلك إضراب عام لطلاب وطالبات المدارس الثانوية في كلية إعداد المعلمين، للمطالبة بإعادة النصولي. ثم خرجت مظاهرة طلابية كبيرة باتجاه وزارة التربية والتعليم بقيادة طلاب المدرسة الثانوية المركزية. (كان أحد القادة طالباً قدّم عرضاً أمام الملك في وقت سابق

لمسرحية «عطيل» لشكسبير). اشتبك المتظاهرون مع الشرطة لفترة وجيزة ثم تفرقوا. وخرجت مظاهرات مضادة تندد بالنصولي في بلدات وسط الفرات وجنوب البلاد. حدث استقطاب خطير في الرأي. أوصت لجنة تحقيق التي شكلها وزير التربية والتعليم بوقف عدد من المتظاهرين من طلاب المرحلة الثانوية وإنهاء خدمات المعلمين الذين استقدمهم الحصري. أعاد فيصل الطلاب الموقوفين إلى مدراسهم بعد فترة، وبعد وفاة فيصل أُعيد المعلمون الآخرون أيضاً إلى العراق ورُدّوا إلى وظائفهم.

كشفت قضية النصولي عن عمق الانقسامات الطائفية في العراق. فأن يتم نشر وتوزيع كتاب يضرّ بالعلاقات بين الطوائف على أطفال المدارس هو دليل على عدم اكتراث النخبة الجديدة بمشاعر الطائفة الشيعية. وفي الوقت نفسه، استند ردّ أولئك الذين دعموا النصولي، وليس أقلّهم طلابه، على حرية التعبير والحق في نشر الآراء المثيرة للجدل. لم يكن فيصل مشتركاً بشكل مباشر في إدارة الأزمة، لكن القضية أثّرت على رأيه في حكمة خطة ساطع الحصري التربوية القومية العربية. كتب محمد مهدي الجواهري، الشاعر العراقي الشهير الذي كان يعمل في مكتب مراسم القصر في ذلك الوقت، عن تدهور العلاقة بين فيصل والحصري. «ولم يكن بين الملك فيصل وساطع ما ينم عن علاقة متينة، فالملك كان غير راضٍ عنه، ولم يكن ليستقبله خلافاً للمقربين اليه. وفي خلال فترة بقائي في البلاط لأكثر من ثلاث سنوات لم أره يدخل على الملك إلا مرة واحدة، ولخمس دقائق. فقد كان فيصل غاضباً عليه، اذ بينما كان الملك يحاول انقاذ العراق من سموم الطائفية، كان ساطع يسهم في تأجيج جمراتها المحرِّقات»[18].

كان فيصل يدعم صيغة معتدلة وشاملة من القومية العربية، يمكن بناء إجماع حولها، ويمكن أن تشكّل مظلة مشتركة، تتلاشى في ظلّها الاختلافات بين الطوائف. لكن ما كان الحصري يطرحه هو أيديولوجيا قومية علمانية أكثر تشدداً، مستمدة بشكل كبير من النماذج الأوروبية في القرن التاسع عشر والتي تصل إلى حدود العنصرية التي تضرب بعرض الحائط جميع الولاءات التقليدية. كما أنه سيوفّر غطاءً مناسباً لإدامة حكم النخبة العسكرية البيروقراطية، التي كانت طموحاتها تحت السيطرة جزئياً من خلال شخصية فيصل واعتداله. إلا أن هيمنتهم على الدولة ستزداد بشكل ملحوظ بعد وفاته، وسيتم تنفيذ برنامج الحصري التعليمي.

بحلول صيف عام 1927، ستبلغ التوترات في المجتمع الشيعي ذروتها. كان هناك عدد من الحوادث، بصرف النظر عن حادثة النصولي، التي أدت إلى تأجيج مشاعر الشيعة. فقد تم حرمان حزب النهضة الشيعي البارز من الحصول على ترخيص لإصدار صحيفة، في حين طبّقت الحكومة آلية لتقييم الإيرادات، أثّرت بشكل غير متناسب على صغار شيوخ الشيعة وكتلة المزارعين الريفيين في الجنوب. وتفاقم استياء الشيعة عند إحياء ذكرى محرم التي حلّت في بداية تموز

(يوليو) 1927. حيث تجمع حشد كبير في اليوم العاشر من الشهر، عاشوراء، في الكاظمية، حيث وصلت المشاعر إلى ذروتها. وبعيداً عن الشعارات والهتافات الدينية المعتادة، كان الحشد يهتف أيضاً بشعارات مناهضة للحكومة وشخص الملك. أطلقت مفرزة قوامها ما يقرب من ألف جندي بقيادة ضابط معروف بالولاء لنوري السعيد، والتي كانت هناك ظاهرياً لضمان الحفاظ على النظام، أعيرة نارية لصدّ المتظاهرين. كان تواجد القوات غير مرغوب فيه، حيث كانت مسيرات إحياء الذكرى مستمرة لعدة أيام دون وقوع أي حوادث[19]، وقُتل في الاشتباكات التي أعقبت ذلك، ثلاثة مدنيين وجُرح عدد كبير من المعزين[20]، واتهم زعماء الشيعة الحكومة بتعمد افتعال الحادثة لتبرير قمع المعارضة. في المقابل، ألقت الحكومة باللوم في الاضطرابات على المعارضة الشيعية بهدف تقويض الحكومة.

ردّ فيصل على هذه الأزمة الطائفية المتفاقمة بالعمل بسرعة لنزع فتيل التوترات. أحبط محاولات الحكومة لتبرأة الضابط الذي قاد مفرزة الجيش في الكاظمية. وأيد تشكيل لجنة تحقيق مستقلة من ثلاثة أشخاص تشمل شخصية شيعية بارزة، هي جعفر حمندي، حاكم قضاء الكاظمية، وقاضٍ ومسؤول بريطاني. كما طالب فيصل بضرورة معاقبة الجناة من عناصر الكتيبة، وأنه ينبغي العفو عن المتظاهرين، الذين استفزهم إطلاق النار من قبل عناصر الجيش. كما عرض دفع تعويضات لضحايا الاضطرابات من ماله الخاص. عندما وجدت لجنة التحقيق أن الضابط المسؤول لم يكن مسؤولاً بشكل مباشر عن الاضطرابات، ولكنه مع ذلك كان مهملاً في واجباته، أمر فيصل بمحاكمته أمام المحكمة العسكرية. غضب الضباط من تعرض أحدهم لهذه المحنة، لكن فيصل كان مصرّاً. لقد كان هذا ثمناً زهيداً يجب دفعه لمنع المزيد من اغتراب الطائفة الشيعية عن حكمه. لكن غضب الشيعة من تصرفات الجيش كان لا يزال متّقداً، والتعويضات التي قدمها فيصل للضحايا تم رفضها في البداية. ولولا تدخل السيد محمد الصدر، والذي كان مؤيد قوي لفيصل وصلة الوصل الرئيسة بينه وبين الطائفة الشيعية، لما وافق أهالي الضحايا أخيراً على العرض.

كان لنهج فيصل التصالحي مع الشيعة جانب آخر. فقد كان يشعر بالقلق من أن الشيعة، في إطار مساعيهم لتحقيق الإنصاف، سيعملون على التقرب من المقيمية البريطانية. وهذا من شأنه أن يمنح المقيمية البريطانية حليفاً جديداً قوياً في صراعهم مع فيصل على الاستقلال وسلطاته الشخصية. كانت هناك بالفعل أرضية مشتركة بين «المقيمية البريطانية» والطائفة الشيعية فيما يتعلق بمعارضة التجنيد الإجباري. كما كانت المقيمية تبلغ لندن بالتدفق المستمر للزوار الشيعة الذين كانوا يطالبون البريطانيين بالتدخل بشكل مباشر أكثر في شؤون البلاد لوقف ما اعتبروه تجاوزات من جانب الحكومة ضد طائفتهم[21].

ولمزيد من تهدئة الرأي العام الشيعي، عمل فيصل بسرعة على تعيين وزيرين من الشيعة في الحكومة(*)، وأقنع مجلس الوزراء بالحاجة إلى تخصيص أموال لتجفيف الأهوار حول مدينة كربلاء المقدسة. فلم يكن بوسع فيصل أن يحتمل أي حالة اضطراب في أوساط الشيعة قد تُضعِف موقفه قبيل زيارته المخطط لها إلى أوروبا، واحتمال بدء المحادثات حول تعديل المعاهدة الأنغلو ـ عراقية. وانتزع فيصل من نواب الشيعة ووجهاءهم خلال اجتماعهم معهم في القصر، تعهداً بعدم الانخراط في أي مشاكل سياسية أثناء غيابه.

كانت الإجراءات التي اتخذها فيصل تنطلق من مخاوف حقيقية حول ضرورة معالجة مظالم الشيعة. لكن طبيعته المعتدلة وفطرته السليمة كانت تقابلها الانقسامات الطائفية العميقة وهياكل السلطة المتنامية في بغداد. لقد فضّل هؤلاء بشدة النخب العربية السُنّية التي كان حكمه قائماً عليها جزئياً، على الأقل لفترة من الوقت.

المعاهدة مرة أخرى

لم تكن علاقات فيصل مع دوبس سهلة على الإطلاق. فقد كان دوبس يعتقد أن على فيصل الالتزام بدوره كملك دستوري، وكان مستاءً بشدة من جهود فيصل للتهرب من التزامه بالتشاور مع المفوض السامي كما نصّت المعاهدة. لقد فهم دوبس أن الالتزامات الواردة في نصوص المعاهدة تعني ضمنياً أن تتم عملية التشاور بصورة منتظمة، حيث يلتزم فيصل بتوصيات المقيمية، بينما بحسب تفسير فيصل فإن لديه حيزاً واسعاً من حرية صنع القرار، أنه ملتزم بأخذ مشورة المفوض السامي فقط في الأمور ذات الأهمية القصوى. كان دوبس منزعجاً أيضاً من استقصاء فيصل المستمر عن حدود سلطاته الشخصية وجهوده لدعم قاعدة سلطته المحلية. انعكس قلق دوبس في نبرة الرسائل التي أرسلها إلى رؤسائه، والتي غالباً ما صورّت فيصل على أنه متآمر ومعتوه. كما سخر دوبس سراً من محاولات فيصل رفع عبء الانتداب عن البلاد، وسخر من قناعة فيصل بأنه يمكن أن يضعف موقف الحكومة البريطانية من خلال تصوراته الشخصية. كتب دوبس إلى زوجته في رسالة مؤرخة في 27 أيار (مايو) 1927:

فيصل حقاً شقي وأحمق للغاية وسأتحدث إليه غداً بأقصى ما امتلك من صرامة وسأحذره من المزالق التي يتجه نحوها. فقد استقالت وزارة جعفر بناءً على أوامره كدليل على الاستياء

(*) جرت تلك الاحداث خلال عهد حكومة جعفر العسكري الثانية، التي كانت تضم في الأصل وزيراً شيعياً واحداً هو عبد المهدي المنتفجي لوزارة المعارف «التربية والتعليم». وفي 6 آب (أغسطس) 1927 جرى تعديل وزاري بإضافة ثلاثة وزراء، إثنين منهما شيعيان، هما: عبد الحسين الجلبي للزراعة والري وعلوان الياسري للإشغال والمواصلات. (المُراجع).

من تأخر الحكومة البريطانية في الوفاء بوعدها بإدخال العراق إلى عصبة الأمم العام المقبل، والمسألة هي الآن أن فيصل قد قرر الذهاب إلى لندن معي على الفور وبصحبة اثنان من وزرائه للتفاوض بشكل مباشر مع الملك جورج والحكومة البريطانية على اتفاقية جديدة في زمن قياسي والعودة إلى بغداد ليظهر لشعبه بمظهر المخلّص. إنه غاضب من تأخر موافقة الحكومة البريطانية على انضمامه إلى العصبة وإبرام معاهدة جديدة، لأنه يرى أن الأيام تمر بسرعة ويعلم أن الوزراء البريطانيين سوف يذهبون قريباً لقضاء عطلاتهم الصيفية ومن ثم فإن فرصته في جذب الانتباه قد تتلاشى هذا العام. إنه صعب الإقناع، صبياني ومشاكس. لقد تمكنت من منعه من الدعوة إلى احتجاج عام ضد تأخر الحكومة البريطانية وأخبرته أن ذلك سيمنعهم حتى من السعي لضمه إلى العصبة. لقد تمكنت من منعه لبضعة أيام فقط وقمت بإرسال برقية إلى آمري لأخبره بالوقائع وتقديم مسودة لرسالة شديدة اللهجة أوصي بإرسالها إليه. لا أعرف ما إذا كنت سأتمكن من منعه حتى وصول الرد[22].

كانت وزارة المستعمرات على دراية بالعلاقة المتدهورة بين الاثنين، وقامت بمحاولات لتهدئة الموقف من خلال منح دوبس إجازة طويلة استمرت حتى صيف عام 1927. كما تم دعوة فيصل بدوره إلى لندن لمناقشة المراجعة المحتملة للمعاهدة. وبالتالي، سيكون كلا الطرفين بعيداً عن العراق لفترة طويلة، وهو ما كان يُعتقد أنه سيساعد على تحسين علاقة العمل بين المقيمية والحكومة.

غادر فيصل إلى أوروبا في 6 آب (أغسطس) 1927 من أجل لمتابعة برنامجه العلاجي المنتظم بالحرارة، كما كان يتوقع أن تتم دعوته إلى لندن للتفاوض بشأن تعديلات متواضعة على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية. توقف فيصل، في طريقه إلى أوروبا، في قبرص لزيارة والده. كان الشريف حسين يفضل كثيراً أن يذهب إلى فلسطين أو شرق الأردن بعد مغادرته الحجاز، إلا أن البريطانيين لم يوافقوا على أي منهما. لكن حسين رفض النفي إلى أي مكان في أوروبا، ووافق على قبرص فقط بعد أن عُرضت عليه خريطة أقنعته بأن قبرص جزء من آسيا جغرافياً. استقل حسين السفينة الحربية دلهي من العقبة متجهاً إلى قبرص في 18 حزيران (يونيو) 1925. كان رونالد ستورز قد أصبح الحاكم العام لقبرص وأمّن للملك السابق فيلا صغيرة. كان الشريف حسين يمضي وقته هناك في قراءة القرآن وتربية بعض الخيول العربية. ومن المفارقات أن قامت الحكومة البريطانية بتفويض ستورز ليقدم للشريف حسين، وسام فارس من رتبة الحمام، بعد فترة طويلة من تجريد حسين من كل نفوذه وسلطته وفقدان مملكته. أقيم الحفل في مكتبة قبرص العامة[23]. وكان بعض الخبثاء قد نشروا شائعات بأن الشريف حسين قد اصطحب عند مغادرته الحجاز ملايين من الجنيهات المنهوبة من الإعانات البريطانية للثورة العربية. لكن

بالرغم من أن الشريف حسين لم يكن يشتكي من العوز إلا أنه لم يمتلك يوماً ثروة كبيرة. أمضى فيصل الوقت مع حسين في إحدى المنتجعات في جبال ترودوس حيث انغمس فيصل في جولات من الجولف والكروكيه. كما التقى بستورز وأخبره أنه في حال ماطل البريطانيون بإجراء التعديلات على المعاهدة التي كان فيصل يسعى إليها، فإنه سيتنازل عن العرش[24].

من قبرص، انتقل فيصل إلى فرنسا والينابيع الحارة في بلدة «إيكس ليبان». حيث قامت وزارة المستعمرات بإرسال السير جون شوكبيرج من قسم الشرق الأوسط في أوائل أيلول (سبتمبر) 1927، لإجراء محادثات أولية قبل دعوة فيصل رسمياً إلى لندن. وحضر رئيس المفوضية العراقية في لندن مزاحم الباجه جي. وكان على فيصل أن ينتظر قرابة شهرين في إيكس، قبل أن تصل الدعوة إلى لندن. في 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1927، غادر فيصل إيكس إلى لندن.

لم يكن في نية وزارة المستعمرات تلبية تطلعات فيصل بأن تسمح بريطانيا للعراق بدخول عصبة الأمم عام 1928. وكان فيصل قد تلقى تحذيرات كافية قبل وصوله إلى لندن ليكون على علم بأن هذا لم يكن مطروحاً على طاولة المفاوضات. ومع ذلك ما قد يوافق عليه البريطانيون كان إمكانية حصول العراق على الاستقلال والعضوية في عصبة الأمم بحلول عام 1932. بالنسبة للبريطانيين، كان العراق بمثابة جائزة لم يكونوا مستعدين للتنازل عنها بسرعة، إلا أنهم لم يتمكنوا أيضاً من تحديد مصلحتهم المباشرة من التواجد في العراق. لقد بذلت بريطانيا من الدماء والأموال ما أضفى على وجودها درجة من الشرعية. ومن الواضح أن مسألة الحفاظ على أمن طرق الإمداد الإمبراطورية والاتصالات من خلال سيطرتهم على العراق كانت مهمة، ولكن كان من الممكن إدارتها دون الحاجة إلى هذه العلاقة شبه الاستعمارية. الآن وقد أصبحوا هناك، كان البريطانيون مدفوعين بمنطق وجودهم. ووفقاً للبريطانيين، فإنهم كانوا هناك لحماية حقوق الأقليات، والوفاء بالالتزامات الدولية كقوة انتداب، ولمنع غزو البلاد من قبل جيرانها العدوانيين، وللحفاظ على السلام مع القبائل، ولوقف تمرد «رجال الدين الموجَّهين من الفرس»، ولمنع الاستيلاء على السلطة من قبل طغمة صغيرة، ولضمان عدم وقوع أي ثروة نفطية مستقبلية في أيدي غير صديقة، وما إلى ذلك. كان بإمكانهم ذكر قائمة طويلة من الأسباب التي قد تبدو وجيهة لتبرير استمرار وجودهم في البلاد. كان على فيصل أن يخاطب كل واحد منهم، ويقنع محاوريه بأن الاستقلال لن يؤثر مادياً على مصالحهم.

كان أفضل ما لدى فيصل من حجج في النهاية هي الحجة الأخلاقية: أن العراق لا يمكن أن يظل إلى أجل غير مسمى في وضع الاعتماد الجزئي على قوة أجنبية، وأن البلد مستعد لتحمل مسؤولية شؤونه الخاصة. لكن الحجج الأخلاقية لا تؤثر بالضرورة على القوى الكبرى. فهذه هي حدودها. كان عليه أن يقيم دعواه بناءً على قدرته على تقليص أو هدم غابة الحجج المضادة

التي سيتم اقتراحها. لقد كانت مهمة شاقة لكنها ضرورية، والذي زاد من صعوبة الأمر العداء الذي أظهرته له المقيمية، وخاصة من قبل المفوض السامي. ففي رسالة معبرة، تكشف الكثير عن مواقف دوبس الحقيقية تجاه فيصل ونظرته الضيقة الأفق للسلطة، كتب دوبس لزوجته:

أنا الآن في أزمة حقيقية، فقد وعدني فيصل بأنه لن يلغي أوامر طرد الطلاب الذين شاركوا في أعمال الشغب والاعتداء على الشرطة أثناء إحدى المظاهرات السياسية، الآن وقد فعلها دون استشارتي؛ على الأرجح علينا الآن «التعامل» مع مظاهرات متزايدة من قبل تلاميذ المدارس كما هو الحال في مصر. أنا غاضب جداً وقد كتبت إلى وزارة المستعمرات لأقول إن فيصل عاجز وماكر وسأخبره أنني فعلت ذلك. سيجعله هذ مرتبكاً كثيراً، لأنه من المحتمل أن يعيق انضمامه إلى عصبة الأمم، وبعد أن رسمت صورة جميلة جداً لنظامه. لكنني أعتقد أنني يجب أن أعمل على شعارات آرثر رامزي المتمثلة في nemo me impune lacessit and oderint dum metuant (لا أحد يؤذيني دون أن يتأذى ودعهم يكرهونني طالما أنهم يخشونني)[25].

كان دوبس، في رسالة أخرى إلى زوجته، حاسماً بمعارضته المتزايدة لفيصل، وهدد بالرحيل إذا استمرت المواجهة. «يبدو أنني أنجرف إلى مواجهة مع فيصل والعراقيين الذين يعرقلون ويماطلون في كل شيء. أشعر أنني على وشك استنفاذ الفترة التي أكون فيها ذو فائدة»[26].

هواجس المقيمية البريطانية بشأن فيصل وتكتيكاته شقّت طريقها إلى وزارة المستعمرات. وكانت المفاوضات بين فيصل ووزارة المستعمرات قد بدأت في فندق هايد بارك بلندن. ففي الاجتماع الأول تلقى فيصل مذكرة انتقدت بشدة تدخله في الشؤون الداخلية ودوره في تشجيع المشاعر المعادية لبريطانيا في البلاد. كما حثت المذكرة فيصل على التصرف كملك دستوري ـ وهو أحد أوجه امتعاض دوبس ـ وترك إدارة البلاد للحكومة (التي تعمل، بالطبع، بمشورة مجموعة من المسؤولين البريطانيين المعارين). وتابعت المذكرة لتشير بأسلوب يخلو من اللباقة إلى أنه إذا لم يصلح فيصل أساليبه، فسوف يفقد الدعم البريطاني الأمر الذي يعرض حكمه للخطر[27]. فيما استمرت المناقشات الجادة حول المذكرة في وزارة المستعمرات، كان فيصل يدافع بقوة عن أفعاله وكرر التزامه القوي بالتحالف مع بريطانيا.

ومن ثم وضعت المذكرة جانبا وبدأت المفاوضات بشأن مراجعة المعاهدة في تشرين الثاني (نوفمبر). كانت الخطة هي أن يتفاوض دوبس في الأمر مباشرة مع رئيس الوزراء جعفر العسكري، مع استشارة فيصل الذي بقي في الخلفية. إلا أن فيصل تولى المفاوضات بشكل مباشر. فمع تقديره لولاء العسكري وصداقته، إلا أنه كانت لديه شكوك حول كفاءته وشعر أنه لم يكن على مستوى هذه المهمة[28]. وكانت أهداف فيصل قد تغيرت. كان يعلم أن البريطانيين لن يتنازلوا بمسألة استقلال العراق قبل عام 1928. وبدلاً من ذلك، سعى الآن لإلغاء حق المفوض السامي

في تقديم المشورة للملك. كان فيصل يدرك أن بريطانيا قد اعترفت بالفعل باستقلال ابن سعود الكامل في المعاهدة التي توصلوا إليها قبل وصول فيصل إلى لندن. ومع ذلك، كانت السلطات المتبقية للمفوض السامي دعامة رئيسية للسيطرة البريطانية على إدارة العراق. كما تعززت وجهة النظر البريطانية من خلال التقارير المنحازة الصادرة عن المقيمية البريطانية في بغداد والتي زعمت أن عامة الناس سينزعجون من انسحاب بريطانيا، وأن البلاد ستصبح غير مستقرة. كان دوبس حاضراً وكتب إلى زوجته في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1927 بشأن المفاوضات: «أن الأمر محبط. ففيصل يُصر على بند نص على أن العراق «مستقل استقلالاً تاماً» في حين أن أوستن تشامبرلين لن يوافق على كلمة «تاماً» الأمر الذي تسبب في انهيار المفاوضات. المسألة برمتها سخيفة، كما أسميها، لأن بقية المعاهدة المقترحة تظهر أن الاستقلال لم يكن كاملاً ولا يهم ما إذا كان العراق يطلق على نفسه اسم مستقل استقلالاً تاماً أم لا... أخشى أننا مقبلون على أوقات عصيبة في العراق، مظاهرات وتحركات وكل ما تبقى، وبالطبع الآن لن أحصل على أي مساعدة من فيصل. لا ينبغي أن أتفاجأ إذا اضطررت في النهاية إلى الرجوع إلى الأحكام العرفية لأنني أتوقع أنه بعد أن فشلت في الحصول على معاهدة جديدة، لن يتولى أي عراقي منصب وزير. لقد أخبرت الحكومة البريطانية في مذكرة أنه يجب عليهم الاحتفاظ بجميع القوات البريطانية الموجودة حالياً في العراق وألا يتوقعوا تقليلها كما كانوا يأملون. من المحتمل أنهم سيقولون إن عليهم تعيين مفوض سامٍ آخر. إذا أرادوا ذلك، سأكون سعيداً بالذهاب والعيش في المنزل بجوار قلمي»[29].

سرعان ما أصبح واضحاً لفيصل أن البريطانيين لن يوافقوا إلا على تعديلات شكلية على المعاهدة وتراجع عن مطالبه. التغييرات التي وافق البريطانيون أخيراً عليها كانت قبولها بالاعتراف بأن العراق هو «دولة مستقلة ذات سيادة»، لكن هذا لا يعني شيئاً دون إزالة حق الفيتو الذي يتمتع به المفوض السامي أو دعم طلب العراق للحصول على عضوية كاملة في عصبة الأمم. وعلى الرغم من خيبة أمله الواضحة، سعى فيصل لإظهار هذه النتيجة بأفضل ما يمكن.

غادر فيصل لندن في 5 كانون الأول (ديسمبر) 1927، بعد أن ظل بعيداً لأكثر من أربعة أشهر، وهو في حد ذاته غياب مطول أثار غضب المعارضة ومجلس الأمة في بغداد[30]. وقبل مغادرته، كتب إلى جعفر العسكري، الذي تم استدعاؤه إلى لندن للتوقيع على المعاهدة الجديدة، وهي رسالة خاصة عبّر فيها عن أسباب موافقته على التخلي عن مطالبه بالاستقلال الكامل والفوري[31]، حيث قام باستعراض مباحثاته مع وزير الخارجية، أوستن تشامبرلين، ومع تشرشل، الذي كان يشغل منصب وزير الخزانة. لقد شعروا أنه لا يجب أن يعود إلى العراق خالي الوفاض، وأقنعوه بمواصلة المباحثات بعد أن هددهم بقطعها. حيث كتب فيصل حينها: ما من شك يا جعفر أن

هذا الاتفاق ليس ما سعينا إليه. صحيح أننا أردنا أكثر مما حصلنا عليه، لكن ما الذي كان بوسعنا فعله أكثر؟ كافحنا حتى النهاية ولم يبق لنا شيء سوى مواصلة القتال. لقد تمكنا من تغيير المعاهدة بطريقة لم يتوقعها أحد في نيسان (أبريل)؛ لكن الأمة تجهل للأسف ما حققناه وبدلاً من دعمنا يحاربوننا... حتى لو لم نعد بالاستقلال التام [الذي أردناه]، فقد حققنا تعديلات مهمة في حدود سلطاتنا. لا أحد يستطيع أن يتهمنا بعدم بذل كل جهودنا لتحقيق هذه الغاية»[32].

حظي توقيع المعاهدة الجديدة القليل وشبه المعدوم من الاهتمام ببغداد. فالمكاسب التي تحدّث عنها فيصل لم تكن كافية لإرضاء المعارضة، وحتى أعضاء مجلس الوزراء أصيبوا بخيبة أمل من الإنجازات الضئيلة. اهتزت حكومة العسكري نفسها جراء استقالة ياسين الهاشمي ورشيد عالي في أواخر كانون الأول (ديسمبر) 1927.

كانت الحكومة قد فقدت مصداقيتها بالفعل لدى الطائفة الشيعية، بسبب الأزمات المتتالية حول النصولي والتجنيد الإجباري واضطرابات الكاظمية، ولم تعد أداة مفيدة لفيصل، وعندما قدّم جعفر العسكري استقالته في 8 كانون الثاني (يناير) 1928، قبلها فيصل بسرعة.

انتهى العام بشكل سيء بالنسبة لفيصل، لقد أصيب بخيبة أمل واضحة لعدم تحقيقه الاختراق الذي سعى من أجله، الأمر الذي أساء لسمعته في البلاد. كان الشيعة مستاؤون من عدم اكتراث الحكومة بهم، وصاعدت الأصوات المعارضة القومية في حملاتها ضد التحالف مع بريطانيا. أصبحت المقيمية، ودوبس على وجه الخصوص، مرتابة من فيصل ومناوراته. كما أصبح دوبس أيضاً منهكاً ومرهقاً بشكل متزايد من عمله في العراق، وعبّر عن هذا بعبارات لا لبس فيها في رسائله الخاصة. كما انتشرت مشاعر الاستياء تجاه بفيصل إلى العديد من المستشارين البريطانيين العاملين في العراق.

«لا أعتقد أنني شخص يصعب التعامل معه. لكن الحقيقة هي أن الظروف الخاصة للخدمة هنا تذهب بعقول الكثيرين ممن يأتون إلى هنا. إنهم جميعاً «مستشارون» وكل شيء غامض بدون أي إجراءات أو تقاليد واضحة والجميع يعتقد أن لديه مجالاً رائعاً من المواد الخام للتجربة غير المقيدة ولاختبار نظرياته الخاصة. إنهم لا يتحملون الانتقاد والتدقيق ويعتقد كل منهم أن لديه حقاً غير مقيد بأن أدعمه ضد حكومة العراق عندما لا يتفق معهم العراقيون، وفي المقابل ليس لدي الحق في معارضتهم عندما لا أتفق معهم. لقد عانى السير بيرسي كوكس من هذا أكثر مما عانيت منه لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن الإدارة، واضطرَ إلى النظر في الخلافات والاختلافات بين المستشارين البريطانيين فاغراً فاهه. حتى يقع حادث ما أو غيره وعندها لابد من إجلاء أشخاص مثل فيلبي على عجل. وبالرغم من كل ذلك لم أعد متأكداً فيما إذا كان دوري في هذا البلد قد انتهى. أنا هنا منذ 4 سنوات ونصف وأصبحت أساليبي قديمة. وبدأ فيصل ووزراؤه

ينظرون إلي على أنني رجل عجوز في البحر لا يمكنهم التخلص منه وأعتقد أن رجلاً مثل السير جيلبرت كلايتون يناسبهم بشكل أفضل. لا أعتقد أنني أود أن أرى برنارد [بورديلون، القائم بأعمال المفوض السامي] يخلفني، فهو ميال لوجهة نظر الديلي ميل»(*) (33).

بحلول بداية عام 1928، لم يعد فيصل ودوبس قادرين على تحمل بعضهما.

(*) مؤيد للحملة التي قامت بها صحيفة الديلي ميل للمطالبة بجلاء القوات البريطانية الكامل والفوري من العراق. (المترجم)

هوامش الفصل الثالث والعشرون

1 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 6 حزيران 1926.

2 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 23 حزيران 1926.

3 ـ الليدي فيودورا غلايشن نحاتة بريطانية، وقريبة الملكة فيكتوريا. قامت بنحت تمثال نصفي لفيصل خلال إقامته في لندن عام 1920.

4 ـ أرشيف غيرترود بيل، مرجع سابق، رسالة 30 حزيران 1926.

5 ـ عبد الهادي الخماسي، الأمير عبد الله، 1939 ـ 1958، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2001، ص. 33 ـ 34.

6 ـ رسالة غيرترود بيل مقتبسة في كتاب جورجينا هاويل «ابنة الصحراء: حياة غيرترود بيل

7 ـ المميزة» ماكميلان، لندن 2006، ص. 430 ـ 431.

8 ـ إرسكين، مرجع سابق، 202 ـ 203.

9 ـ وكتبت صحيفة العالم العربي تكريماً: «إن الوطنية المخلصة والحقيقية، والبعد عن كل رغبة لتحقيق مكاسب شخصية، والحماس لمصالح بلدها، كل هذا ميّز خدمة هذه المرأة النبيلة التي لا تُضاهى... وجعل منها قدوة لكل رجال العراق...». أيضاً هـ.ف وينستون: غيرترود بيل، كتب كوارتر، نيويورك 1978، ص. 262

10 ـ مكتب المستعمرات 730/96/20549 تاريخ 3 تشرين الثاني 1926

11 ـ مذكرة حول الوضع الداخلي في العراق للمفوض السامي، 27 حزيران 1927. وزارة الخارجية 371 / 3220 / 12259.

12 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 24 حزيران 1927؛ بإذن من آن وهنري ويلكس

13 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، ص. 104 ـ 108

14 ـ مذكرة حول الوضع الداخلي في العراق للمفوض السامي، 27 حزيران 1927، ص. 233 ـ 250

15 ـ مقتبس من نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 175

16 ـ انقلب فهمي المدرس بشدة ضد فيصل بعد إغلاق المعهد. وكتب عدة مقالات ملتهبة ضد فيصل، مما دفع الملك إلى طلب تأنيبه. جرت ملاحقته وحُكم عليه ستة أشهر، ولكن لم يُنفذ به الحكم. وكان أول شخص يرفض حضور جنازة فيصل. كان نوري السعيد يكره فهمي بصورة خاصة وأبعده لفترة إلى السليمانية. وعند عودته إلى بغداد أصبح متوحداً ولديه أوهام جنون العظمة، وهو يدمدم طوال الوقت عن خيانة البريطانيين الذين يقفون وراء كل الشرور في العالم.

17 ـ كانت قضية النصولي هي قضية عاطفية في العراق آنذاك، وقد تركت انطباعات مؤثرة على عددٍ من الأشخاص الذين كانوا طلاباً في تلك الفترة. وقد جرى تغطيتها بصورة جيدة في مذكرات ساطع الحصري، مرجع سابق، المجلد 1، ص. 557 ـ 575، ومذكرات حسين جميل، مرجع سابق، ص. 183 ـ 203، وعبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2 ص. 88 ـ 90. كما غطّتها تقارير الاستخبارات لسلاح الجو الملكي ومراسلات المفوضية.

18 ـ محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي، الجزء 10، دار الرافدين، دمشق 1988، ص. 170

19 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2، ص. 109 ـ 110. كان قائد الوحدة هو محي الدين السهروردي.

20 ـ تقرير الاستخبارات 31 تموز (يوليو) 1927، رقم 15، وزارة الخارجية 371/3421/12264

21 ـ المرجع نفسه.

22 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 27 أيار(مايو) 1927، بإذن من آن وهنري ويلكس

23 ـ رونالد ستورز، مرجع سابق، ص. 526 ـ 527.

24 ـ مكتب المستعمرات 730/120/40299، ستورز، من قبرص إلى أور سباي غور، لندن ـ 10 اب 1927

25 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 15 نيسان (أبريل) 1927، بإذن من آن وهنري ويلكس

26 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 13 أيار (مايو) 1927، بإذن من آن وهنري ويلكس

27 ـ مذكرة 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1927 لمكتب المستعمرات والحسني، المجلد 2، مرجع سابق، ص. 134 ـ 135. ونور مصالحة، مرجع سابق، ص 192.

28 ـ مكتب المستعمرات 730/120/40299/135، مذكرة هنري دوبس حول محادثة مع الملك فيصل في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1927.

29 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1927، بإذن من آن وهنري ويلكس. من الواضح آن دوبس كان مُتعباً ومتلهفاً للتقاعد في هذه المرحلة.

30 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2، ص 118 ـ 120.

31 ـ وكان العسكري قد وصل إلى الإسكندرية في طريق عودته إلى العراق عندما استدعاه فيصل إلى لندن. وصل لندن في 12 كانون الأول (ديسمبر) 1927 ووقع المعاهدة الجديدة في 14 كانون الأول (ديسمبر) 1927.

32 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2، ص 136 ـ 137.

33 ـ أوراق لم تنشر هنري دوبس، رسالة 20 أيار (مايو) 1927، بإذن من آن وهنري ويلكس.

الفصل الرابع والعشرون: نحو الاستقلال

عاد فيصل إلى بغداد حاملاً معه معاهدة جديدة لا طائل من ورائها، ليواجه حكومة متداعية واستياءً واسع النطاق من حكمه. وقد لقيت المعاهدة عند عرضها لأول مرة على البرلمان العراقي صدى أقل ما يقال عنه كان فاتراً. فقد وقف أحد نواب المعارضة، محمد باقر الشبيبي، متهماً الحكومة بخداع الأمة كما اتهم فيصل بالذهاب في رحلة استجمام طويلة[1]. كان لابد من تشكيل حكومة جديدة ولم يكن أمام فيصل خيار سوى الرضوخ لعودة عبد المحسن السعدون، الشخصية المفضلة لدى المقيمية البريطانية. كان بإمكان فيصل، من بعض النواحي، أن يحوّل تعيين منافسه الأبرز، السعدون، لصالحه. كما يمكنه دائماً، إذا لزم الأمر، أن ينأى بنفسه عن أيٍ من سياسات السعدون التي لا تحظى بالشعبية من خلال الادعاء بأن السعدون قد فرضه عليه البريطانيون. كان السعدون مكروهاً للغاية من قبل الشيعة، الذين كان يلقون عليه باللوم في نفي المجتهدين عام 1923، ولم يطرأ أي تغير في شعبيته لديهم عندما شكّل حكومته، التي ضمّت اثنين من الشيعة فقط من أصل ثمانية وزراء، الأمر الذي يمثل إجحافاً آخر في تمثيل هذه الطائفة في المناصب العليا للسلطة التنفيذية في البلاد، حيث كان الزعماء الشيعة يتوقعون أربعة وزراء على الأقل. كان السعدون نفسه من بين الذين استخفوا بمعاهدة 1927، التي كانت جعجعة دون طحن، وان المفاوضات كانت مجرد استجابة لإلحاح فيصل للتوصل إلى شيء ملموس يثبت أن العراق يتجه نحو الاستقلال.

لكن ما أن تم اختيار السعدون كرئيس للوزراء حتى بدأ فيصل، الذي تحالف مع المعارضين السياسيين للسعدون، بالتخطيط لإسقاطه. الاختبار الأول كان مطالبة السعدون بحلّ مجلس الأمة وإجراء انتخابات جديدة تسفر عن برلمان جديد. ونظراً لكون السعدون المسؤول عن عمل الحكومة، وبدعم من المقيمية، كان فيصل يخشى من أن يتم التلاعب بالانتخابات، بحيث يتم انتخاب مجلس مليء بأتباع السعدون. إلا أن «المقيمية» وقفت بحزم إلى جانب السعدون، وأصرّت على إجراء انتخابات لمجلس الأمة الجديد. لجأ فيصل إلى ما يتمتع به من صفات البراغماتية والعملية في مواجهة ما لا مفر منه. فقام بتشكيل تحالف ضمني مع المعارضة القومية وزعماء الشيعة الساخطين لمنع اكتساح المجلس الجديد من قبل السعدون وأنصاره.

منحت العملية الانتخابية التي استمرت قرابة خمسة أشهر، ولا تزال قائمة على نظام الناخبين الابتدائي والثانوي، فيصل وقتاً كافياً لمحاولة التأثير على النتيجة وترك بصمته على البرلمان الجديد.

لم يكن فيصل مدفوعاً فقط بالاعتبارات التكتيكية لمنع زعيم سياسي منافس من الحصول على المزيد من السلطة. كانت فرضية السعدون حينها هي أن التحالف مع البريطانيين لم يكن ضرورياً فحسب، بل كان مدعوماً من قبل عامة الناس الذين ينتابهم القلق من عواقب الاستقلال السريع. كانت هذه الحجة التي لطالما استخدمتها المقيمية مع لندن لدحض مزاعم فيصل بأن الأمة برمتها تنادي بالاستقلال الفوري[2]. كان لدى البريطانيين فكرة تخدم مصالحهم بأن الدعوة إلى الاستقلال كانت من عمل مجموعة صغيرة من المتطرفين والقوميين في المناطق الحضرية، ولم يكن لها صدى في باقي أجزاء البلاد.

سارت الانتخابات لمصلحة السعدون. حيث ضمّ المجلس الجديد ثمانية وثمانين نائباً من أنصار السعدون والمنضوين تحت حزبه الحاكم الذي استعاد الأغلبية. ومع ذلك، كانت نتائج الانتخابات مجرد انتكاسة مؤقتة لفيصل. فقد طوّر فيصل في السنوات التي انقضت منذ تنصيبه ملكاً، قدراته كلاعب ماهر في السياسة الداخلية، وأنشأ «حزب القصر (خاصاً بالقصر) ـ وهو عبارة عن مجموعة من الشخصيات البارزة والمؤثرة التي غالباً ما تغير تركيبتها ولكنها تدين بالولاء له وحده وتسعى لتعزيز مركزه في البلاد. أصبح نوري السعيد الذراع الأيمن للملك بما يتعلق بشؤون السياسة الداخلية بلا منازع. وبالرغم من ان السعدون قد عيّن نفسه وزيراً للدفاع، لكن نوري ظل نائباً لقائد الجيش العراقي. المنصب الذي منحه موقعاً مهماً استخدمه لتعزيز سيطرته، وعبره، سيطرة فيصل على الجيش. كما لم يكن نوري يتورع عن استخدام مساعدين موثوق بهم من بين ضباط الجيش للقيام بمهام قذرة من الترهيب والعنف ضد خصومه وخصوم الملك.

تأسيس البلاط

شهد مكتب فيصل، سكرتارية القصر أو البلاط، نمواً كبيراً من حيث الحجم والأهمية منذ وصول فيصل منفرداً، قبل أن يتعرف على المكان ومعتمداً بشكل مفرط على المستشارين البريطانيين ومجموعة صغيرة من المساعدين. وعندما فاض نهر دجلة بشكل مدمر في ربيع عام 1926، اضطر فيصل إلى التخلي عن مبنى البلاط المتواضع الذي غمرته المياه. وانتقل طاقم البلاط بأكمله، مع الملك، إلى قصر تعود ملكيته إلى مناحيم دانيال، وهو تاجر يهودي ثري من أعيان بغداد. ومما فاقم من آثار الفيضان المدمر، قيام المسؤول عن فتح مزرعة الملك لبوابات

الفيضان بشكل غير ملائم في محيط بغداد(*). بعد الطوفان، عاد البلاط إلى مقره السابق، لكن فيصل بقي في قصر دانيال إلى أن تم إيجاد مقر خاص مناسب له في كلية الفنون والحرف العثمانية السابقة، أو ما تثعرف بالصنايع. ظلت الصنايع مقراً لإقامة فيصل طوال فترة حكمه، فكان مقر إقامة فيصل الخاص في الصنائع، بينما كانت سكرتارية القصر في مكان آخر. بعد استقلال العراق عام 1932، حصل فيصل أخيراً على موافقة مجلس الوزراء للحصول على أموال كافية لبناء مبنى جديد للبلاط. إلا أن الخلافات حول شراء الأراضي وعدم كفاية مخصصات الميزانية للمشروع أدت إلى تأخير مسألة مقر البلاط حتى وفاة فيصل. فقضى فيصل فترة حكمه بأكملها إما في مبان غير لائقة أو في منازل وقصور مستأجرة لأثرياء من بغداد[3].

كان المسؤولون الأوائل في البلاط هم بشكل أساسي أصدقاء فيصل وحلفائه منذ أن كان في سوريا. كان رستم حيدر أول رئيس للديوان الملكي. وكانت مهمته الأساسية هي العمل كوسيط رسمي بين الملك ومؤسسات الدولة. وكان تحسين قدري المساعد الشخصي لفيصل. وكان معلمه السابق صفوت العوا مكلفاً بإدارة أملاك الملك الخاصة. وكان حيدر الأكثر نفوذاً بين مستشاريه. فقد كان رجلاً موهوباً ويتمتع بذكاء استثنائي، كما كان يتمتع بسعة إطلاع وبخبرة ومعرفة واسعة بالعالم الغربي. ولم يكن يسعى وراء جمع الثروات؛ فعاش في بيت متواضع وفّرته له وزارة الأوقاف، ولم يكن له دخل سوى راتبه. كما كان ولاءه لفيصل مطلقاً، وبادله فيصل الثقة. فكان يكتب خطابات فيصل، كما كان فيصل يستشيره في شؤون الدولة كافة. وكان فيصل يعتمد على حيدر إلى حد أنه كلما انتهى من إلقاء خطاب، كان يلتفت إليه ليعرف من خلال تعابير وجهه فيما إذا كان قد ألقى الخطاب كما يجب[4]. ولم يكن فيصل يخفي اتكاله عليه فقال عن علاقته بمستشاره الموثوق: «إن من واجب الملك الاهتمام بشعبه. إذا فاتني شيء فلدي حيدر. لم أشعر أبداً أنه تجاهل أي مسألة سياسية مهمة، ولم أضيّع لحظة واحدة بالإشراف عليه»[5].

ولم تخلو السنوات السبع التي قضاها حيدر رئيساً للديوان من المشاكل. فقربه الملك والحيوية التي كانت تستجيب بها الدوائر الحكومية والوزراء على استفساراته وطلباته جعلته محط الحسد. ومع ذلك، فلم تكن أصوله اللبنانية هي الورقة التي استخدمها خصومه، بل كانت هويته الشيعية هي الورقة التي تمسّك بها أعداؤه، وعلى الرغم من أن حيدر كان علمانياً تماماً وذو توجه غربي. إلا أنه كثيراً ما أُتهم بتقديم نصائح منحازة لفيصل، عملت على الترويج لقضية

(*) كان هناك سدة ترابية على الضفة الشرقية من دجلة لحماية بغداد من الفيضان، لكن في 7 نيسان (أبريل) 1926 أراد مدير المزرعة الملكية في الوزيرية وسط العاصمة إرواء المزرعة، ففتح ثغرة صغيرة فيها، فانبثق الماء بقوة وكسر السدة وأغرق المنطقة، وتسربت المياه الى بغداد القديمة. وقُدّم المدير الى المحكمة، فقضت بفرض غرامة كبيرة عليه لم يستطع دفعها، فأوقف وأُطلق سراحه بعد حين. (المُراجع).

الشيعة، لكن هذه التهم كانت تنهار أمام الفحص الدقيق. كان حيدر يدرك ـ وكذلك فيصل ـ المظلومية التي وقعت على الشيعة في تطور دولة العراق، وأدرك كلاهما أنه يجب تحسين الوضع من أجل المصلحة الوطنية. لم يكن قادراً على تقديم مشورة تتعارض مع ميول فيصل الخاصة وفهمه للوضع الطائفي[6]. وعلى كل حال كان تأثير الحملة العلنية ضده، والتي قادها عدد من السياسيين العرب السُنّة، على فيصل ضئيلاً. وكتب فيصل في رسالة خاصة إلى شاه إيران في نيسان (أبريل) 1929، حملها حيدر بصفته مبعوثاً له، أن حامل الرسالة كان يتمتع «بأقصى قدر من المصداقية والثقة» [7]. واستمر حيدر في منصبه حتى تشرين الأول (أكتوبر) 1930 عندما تم تعيينه وزيراً للمالية، ليكون بمثابة عيون فيصل وآذانه في مجلس الوزراء. وقد منحته السنوات التسع التي قضاها مستشاراً ومقرباً لفيصل معرفة وتأثيراً لا مثيل له على مسائل الدولة الحساسة.

استبدل فيصل حيدر كرئيس للديوان بلبناني آخر هو عبد الله الحاج. ومع ذلك، كانت فترة ولاية الحاج بمثابة إجراء مؤقت ومن ثم استبدله فيصل، في حزيران (يونيو) 1932، بالسياسي المخضرم وزعيم المعارضة رشيد عالي. وكانت خطوة غير متوقعة ومثيرة للجدل. أصبح فيصل حذراً من قوة نوري السعيد المتزايدة في السنوات الأخيرة من حكمه، وأراد موازنة سلطة نوري من خلال الاقتراب من السياسيين الذين عارضوه. قد يكون رشيد عالي مديناً بعض الشيء بتعيينه كرئيس للديوان لمعلم فيصل السابق والذي أصبح الآن مسؤولاً عن العقارات الملكية، صفوت العوا. كان صفوت صديقاً مقرباً لرشيد عالي، وأدى دوراً هاماً في تقريبه من الملك. كان تعيينه بمثابة وضع أحد المشاكسين السياسيين في منصب رفيع يمكّنه من أن يعيق علاقة القصر بالبريطانيين وكذلك مع رئيس الوزراء. لكن فترة رشيد عالي انقطعت عندما عيّنه الملك رئيساً للوزراء. ثم سقط منصب رئيس الديوان في يد علي جودت خلال الأشهر الستة الأخيرة من حكم فيصل.

لم تكن إدارة شؤون القصر بالمسألة المهمة. ولم يكن مقرها أكثر من سلسلة من الغرف الشبيهة بالأكواخ، ترتبط ببعضها البعض بواسطة ممرات مغطاة. وكانت باحاته وأشجار النخيل فيه تضاء بمصابيح ملونة، كلما أقيمت حفلة مسائية هناك. وخلال هذه الحفلات، كان يمكن رؤية فيصل وهو يلعب البريدج، بغية تجنب المحادثات المملة مع المسؤولين البريطانيين والعراقيين. وغالباً ما «كان يكسب» مبلغاً صغيراً، ويغادر المائدة، ويودع الحاضرين ويمضي[8]. لم يكن الديوان يضم في البداية ما يزيد عن ثلاثة موظفين دائمين، وزاد العدد، لكنه لم يتجاوز العشرة مع نهاية حكم فيصل.

كما كان للملك مكتب مراسم، ترأسه في البداية فهمي المدرس، ومن ثم زعيم الموصل

البارز خير الدين العمري. وتم توظيف خمسة من أبناء العائلات العراقية البارزة في قسم المراسم بالقصر. وقد تأسس المكتب في مارس 1922، وكان الهدف منه في البداية تنظيم الحشود الفوضوية التي كانت تنهال على فيصل وتطلب، أحياناً، مقابلته. خصص فيصل يومين في الأسبوع، الأحد والأربعاء، وغالباً في الصباح والمساء، للقاء الناس والاطلاع على همومهم الفردية. كان اهتمامه منصباً على عامة الشعب الأمر الذي جعله قريباً من المواطنين العاديين[9]. لم يكن فيصل يلقي بالاً لقواعد البروتوكول، وقد أجمع كل من التقاه على دماثته وتواضعه ولطفه[10]، وكان الحد الأدنى من القواعد يفرض على الزوار البقاء واقفين في حضرته، وأن يقوموا بتقبيل يده عند المغادرة، وهو تقليد شائع عند العرب في ذلك الوقت.

ومع ذلك، تم انتهاك هذه القواعد في كثير من الأحيان. ففي إحدى المرات كان الدبلوماسي طالب مشتاق، والذي كان قومياً متحمساً في شبابه، عائداً إلى بغداد في عطلة من مقر عمله في أنقرة. وكان الأمير زيد، سفير العراق في تركيا آنذاك، قد كلفه بتسليم رسالة من الأمير إلى الملك فيصل. حصل مشتاق على مقابلة مع جلالة الملك وتلقى من مسؤول المراسم تعليمات بشأن النقاط الثلاث في آداب البلاط. ثم رافق مسؤول المراسم مشتاق إلى حضرة الملك وانسحب خارج الغرفة. كتب مشتاق: «سلمت الملك بانحناءة من رأسي».

«مد الملك يده ليحييني فصافحته باحترام ولطف. كان هذا أول خرق للقواعد التي أخبرني بها مسؤول المراسم. ثم سلمت الملك رسالة من الأمير [زيد]. بعد أن أخذ الرسالة جلس فيصل على الأريكة وأشار إلي للجلوس بجانبه. كان هذا هو الخرق الثاني للتعليمات. ثم سألني عن صحة زيد... ثم أمطرني بكل أنواع الأسئلة المتعلقة بتركيا: تقدمها في التحديث والإصلاح التربوي. تنميتها الاجتماعية؛ ظروفها السياسية. التصرفات العسكرية وما إلى ذلك وهلم جراً. لقد كان اختباراً صعباً للغاية. أجبته بالطريقة التي كان من الممكن أن يقوم بها التلميذ الذي يعد الأيام للامتحان بقراءة جميع الكتب المتاحة له. شعرت أن أجوبتي أقنعت الملك لأنه أصرّ على النقاش ولم يترك أمراً لم يسألني عنه. كان الملك يومئ برأسه كلما وافق على إجابتي. استمر هذا الاستجواب لمدة 45 دقيقة. كان هذا ثالث خرق للتعليمات التي تلقيتها من مسؤول المراسم. ثم وقف جلالته ليشير إلى أن الاجتماع قد انتهى. وقفت بدوري وأحنيت رأسي وشرعت في مغادرة الغرفة[11].

كان فيصل مدمن عمل حقيقي. فكان يتواجد في مكتبه الساعة 7 صباحاً خلال الصيف وفي الساعة 8 صباحاً خلال الشتاء، وغالباً ما كان يصل قبل رؤساء الأقسام. وكان يعمل حتى أثناء تناول وجبته أو قضاء أوقات فراغه. نادراً ما كان يأكل بمفرده، ويخلط وجباته بمناقشات حول مواضيع الساعة[12]. يتذكر الريحاني إحدى المرات عندما تمت دعوته لتناول العشاء في منزل فيصل. عند

وصوله في المساء رأى الملك يرتدي دشداشة رمادية ويقرأ المستندات التي كانت تغطي الطاولة أمامه. قال الريحاني: «يبدو أنه لا نهاية لعملك يا جلالة الملك». قال فيصل: «كل يوم لدينا ما يكفي من العمل لمدة يومين». فرد الريحاني «هل هذا يعني أنه عليك العمل في الليل؟». قال فيصل: «إذا لزم الأمر، لكن المتوسط هو عشر ساعات وأحياناً اثنتي عشرة ساعة في اليوم». صاح الريحاني قائلاً: «هذا مخالف لقوانين العمل». قال فيصل: «إذن عليك أن تلوم الوقت لعدم احترامه لقواعد العمل»، وسرعان ما سأل الريحاني:» وما رأيك في الحكومة البلشفية؟»[13].

الملك والشعراء

من بين الأشخاص الذين أُتيحت لهم الفرصة للتعرف على أسلوب الملك فيصل عن كثب كان أحد موظفي مكتب المراسم ويدعى محمد مهدي الجواهري، والذي سيذيع صيته لاحقاً ليس فقط كأهم شاعر عراقي بل كأهم شعراء العالم العربي في القرن العشرين. كان الجواهري الذي ينتمي إلى عائلة عربية بارزة في النجف، قد وصل إلى مكتب مراسم القصر بطريقة استثنائية لا يمكن تخيلها. فقد كان الشاعر الشاب المعجزة، الذي كان يعمل مدرساً في بلدته الأصلية، قد كتب بعض الأبيات خلال إجازته التي قضاها في إيران، والتي يعبر من خلالها إعجابه بإيران وبمناظرها الطبيعية. فقام المدير العام في وزارة التربية والتعليم ساطع الحصري باستخدام هذه الأبيات ضده لإقالته من منصبه. فظاهرياً فالجواهري، من خلال نظمه قصيدة تشيد بإيران، يطعن في العراق والعروبة، ويظهر ميله الواضح لإيران وثقافتها. احتج الجواهري، بالطبع، على هذه التهمة السخيفة وعلى إقالته المجحفة، وأصبحت القضية قضية رأي عام في العراق عام 1927. وانقسمت الآراء واصطف الناس ضد بعضهم البعض على أسس طائفية بحتة، فأُتهم الحصري وأعوانه بنشر النزعة الطائفية والعداء للشيعة في وزارة التربية والتعليم، وأُتهم الجواهري بغموض انتمائه القومي وكما أُتهم بجريمة الشعوبية الرهيبة، أو التحيّز لإيران. وعندما بدا أن هذا الصراع ينقلب على الحصري، مع موافقة الجواهري على الاستقالة بدلاً من طرده بشكل مهين، اعتكف الحصري في منزله لمدة شهر[14].

كان فيصل يتابع التطورات في قضية الجواهري، نظراً لاحتمال أن تكون سبباً في اندلاع صراع طائفي. وقد روى وزير المالية آنذاك عبد المحسن شلاش صديق عائلة الجواهري للشاعر الشاب دفاعه عنه لدى الملك: «كنت مع الملك فيصل وكان الحديث يدور حول قضيتك التي أصبحت هي قضية العراق كله. قلت لجلالة الملك: يا جلالة الملك، إن عائلة الجواهري وموقفها الوطني معروفان لكم، وجذور العائلة في العراق تمتد لأكثر من 400 عام»[15]، وكان فيصل في الواقع يستعد لنزع فتيل الأزمة بتعيين الجواهري في مكتب مراسم القصر.

أثناء زيارته للسيد محمد الصدر، صلة الوصل الرئيسة بين فيصل والقيادة الشيعية، فوجئ الجواهري باقتراح الصدر بأن يقوم الاثنان بزيارة للملك فيصل. توجه الاثنان إلى مكتب الملك حيث استقبلهما فيصل على الفور. كان الصدر من القلائل الذين استطاعوا الدخول على الملك دون سابق إنذار. وكتب الجواهري في مذكراته: «استقبل الملك الصدر كما كانت عادته بأقصى درجات اللطف والاحترام». «لم يكن هناك شك في أن الملك كان على علم بقضيتي والخلاف الذي تسببت فيه». في الواقع كان فيصل يقيّم الشاعر ويتأكد فيما إذا كان مناسباً للعمل في القصر. بعد أسبوع، التقى الجواهري مرة أخرى بالصدر، الذي سأله عما إذا كان مستعداً لمقابلة الملك مرة أخرى. وهرع الجواهري إلى القصر بأجمل العباءات التقليدية، وهناك التقى الملك الذي هنّأه بوظيفته الجديدة في طاقم مكتب المراسم. «هذا الموقع، يا محمد، هو جسر يمكنك استخدامه للعبور [إلى مهنة أكثر ديمومة]»[16].

لم يكن الجواهري من المتملقين الذي يتقربون ممن هم في السلطة. فقد قام بتأليف أبيات ينتقد فيها الملك فيصل، لكنه الآن، وقد بات يعمل بالقرب منه في القصر، فقد أجرى مراجعة جذرية حول وجهة نظره بالملك. فلم يكن قصر فيصل يتسم بما تتسم به القصور الملكية الأخرى من الأبهة أو المراسم أو الفخامة. وقد كتب الجواهري: «لكلمة «البلاط» رنين ووقع، بيد أن الملك فيصل، أكبر ملك في البلاد العربية آنذاك، كان يحيا في بلاط ليس له من ذلك إلا الاسم. فهو كناية عن غرفة بسيطة لا تختلف بشيء عن ألف غرفة مثلها، غرفة بطاولة عريضة وطويلة بعض الشيء وسجادة مؤنقة وثلاثة أو أربعة مقاعد، وعارية من كل شيء آخر، فالزوار لا يزيدون عن عدد المقاعد تلك في المرة الواحدة، فلا وفود هناك، ولا اجتماعات، إلا في قاعة مخصصة لذلك. «وكانت اللوحة الوحيدة التي تزين جدرانها عبارة عن لوحة زيتية لفيصل والكاتب الفرنسي أناتول فرانس[17]. وكان ما يدعى بالبلاط مكون من المكتب الخاص للملك، محاطاً بست غرف متجاورة لموظفي سكرتارية القصر. وهذا هو كل البلاط. ولم يكن استثناءً أن أشاهد انا بالذات الملك فيصل ينظف منضدته بنفسه بتواضع جم مستخدماً مكشّة من ريش»[18]. من المؤكد أن الملك فيصل لم يكن يأنف العمل اليدوي. حيث شوهد في مناسبة أخرى وهو ينقل الأثاث بنفسه، بعد أن غادر العمال القصر مبكراً بسبب صيام رمضان[19].

لقد حظي فيصل بإعجاب الشاعر وبعد فترة اقترح عليه أن ينتقل من مكتب المراسم ويتولى مسؤولية إعداد خلاصة الصحف اليومية للملك. كما اصطحبه في زياراته للعتبات المقدسة وجنوب البلاد، حيث شهد الجواهري موكب من شيوخ العشائر يطالبون الملك بدعم الثقافة الزراعية في المنطقة. كان لفيصل اهتمام شخصي بإحياء أنظمة الري في المنطقة، مكرراً شعاره الشهير، «لا مشروع قبل الغراف [مشروع ري رئيس في الجنوب]».

ومع ذلك، فإن قصائد الشاعر لم تتوقف عن التسبب بالمشاكل للملك. فقد لاقى افتتاح أول مدرسة للبنات في النجف عام 1929 مقاومة شديدة من قبل الجماعات الدينية والتقليدية في هذه المدينة المحافظة. وبمناسبة افتتاح المدرسة، كتب الجواهري أبياتاً لاذعة تهاجم هذه الجماعات في قصيدة بعنوان «الرجعيون». وصدرت القصيدة تحت اسم مستعار في الصحف واندلعت ضجة وصلت الى اذان الملك. واجه فيصل الشاعر بالضرر الذي سببه له. «هل تعلم كم تلقيت من المكالمات والبرقيات، التي يقول اصحابها، هذه هي أفعال ابنك محمد، الذي يعمل عندك وفي ظلك، وكل ذلك وأنت تعلم كم يسبب لي هذا من حراجة شديدة»، رد الجواهري على أنه لن يتخلى عن شعره من أجل وظيفته، ولكنه لا يريد أن يتسبب بأي حرج للملك. وعرض على الملك تقديم استقالته. فقال فيصل «لا، لا، يا محمد، عُد إلى مكانك»[20]. إن تساهل فيصل فيما يتعلق بالشاعر المشاكس يرجع جزئياً إلى إعجابه بالشعر وإحساسه بأن الجواهري كان شاعراً موهوباً بشكل استثنائي، على الرغم من أنه يتمتع بشخصية ذات أسلوب لاذع وقاس.

وفي مناسبة أخرى كتب الجواهري قصيدة بعنوان «جربيني» نشرت تحت اسم مستعار على الصفحة الأولى من جريدة العراق. وقد تضمنت القصيدة إيحاءات معادية للدين، لكن هذه المرة لم يكن فيصل هو الذي شعر بالإهانة بل شقيقه علي. كان فيصل مدركاً تماماً لمشاعر أخيه الدينية وأن قصيدة الجواهري ستزعجه. كما كان ذلك مؤشراً على كيفية إدراك فيصل لضرورة الحفاظ على كرامة أخيه وسمعته كشخص متدين. قال فيصل للجواهري «تلقيت اتصالاً من أخي الملك علي، وأنا أحترمه كما تعلم لأنه أكبر مني وهو رجل متدين. لقد كان غاضباً جداً. قال لي أن أقرأ الجريدة لأرى ما فعله «ابنك محمد [الجواهري]». لهذا السبب اتصلت بك. كل ما أطلبه هو أن تزور أخي وتعتذر له. «قام الجواهري بما طلب منه، لكن لم يكن لديه نية لتغيير مساره في كتابة الشعر الاستفزازي.

وترك الجواهري خدمة فيصل بعد ثلاث سنوات. على الرغم من أنه كان يبحث عن وظيفة في مجال الصحافة، فقد كاد فيصل أن يقنعه بالحصول على منحة حكومية في فرنسا لمواصلة تعليمه العالي. كما طلب الملك من الجواهري مساعدة الحكومة في تسمية مرشحين مناسبين للمنح الدراسية من شباب وادي الفرات الأوسط ومدن العتبات المقدسة[21]. وفي مذكراته التي كتبها بعد ستين عاماً سيبين الجواهري رأيه في الملك فيصل على أنه «كان أول ملك عربي بحق للعراق، لكنه كان أكثر مما يستحقه ومما يتحمله المجتمع العراقي آنذاك... لقد حمل الملك أعباء العراق أكثر مما ينبغي، فالعراق بلد أرهق حكّامه ومحكوميه عبر تاريخه. أعتقد أن فيصل كان لائقاً لأن يكون ملكاً على سوريا، البلد الذي كان ينادي من أجله، لكن ليس على العراق[22].

كان فيصل مدركاً لأهمية كبار شعراء العراق في وضع الأجندة الثقافية والترويج له ولحكمه ما من شأنه أن يكون له وقع كبير لدى الجمهور. يمكن لبعض الأبيات المختارة من المديح أو

الهجاء أن يكون لها كبير الأثر في مجتمع كان لا يزال أمياً بشكل أساسي وشديد التأثر بقوة وصور قصيدة جيدة النظم. كان جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي أعظم شاعرَين عراقيين معاصرين في عهد فيصل، وكان التنافس شديد بينهما. كان الزهاوي قد ترك بصمته بالفعل من خلال مدحه ليس فقط الملك وحكمه ولكن أيضاً للسير بيرسي كوكس. وكان فيصل يريده أن يكون شاعر البلاط لكن الزهاوي رفض. من ناحية أخرى، تراجعت حظوظ الرصافي بشكل حاد، الأمر الذي سيدفعه لتأليف أبيات لاذعة ضد الملك، سيتم تداولها على نطاق واسع. في إحدى القصائد الفظيعة كسر الرصافي كل حدود اللياقة وصوّر فيصل على أنه يكتفي بعدِّ الايام ليقبض راتبه الكبير. مع ذلك، فإن الضغينة التي كان الرصافي يكنّها للملك قد تم إصلاحها في النهاية. فمن خلال تدخل الزعيم التونسي المنفي عبد العزيز الثعالبي الذي كان آنذاك في العراق، وافق فيصل على استقبال الرصافي. كان الثعالبي قد تعرف على فيصل خلال مؤتمر باريس للسلام، حيث كان يدافع عن استقلال تونس عن فرنسا. سأل فيصل الرصافي مباشرة، أثناء استقباله للشاعر الساخط والزعيم التونسي: هل أنا إذن الشخص الذي يعدد أياماً ويقبض راتباً؟ وها أنا مثقل بكل أنواع المشاكل والتحديات واهتمامات أمة بأكملها[23]. كان فيصل رحيماً مع الرصافي وغفر له إهانته. بل وخصص له راتباً قدره 500 روبية، وهو مبلغ معتبر في ذلك الوقت. فتحت الأبواب أمام الرصافي وأصبح نائباً في البرلمان العراقي.

امتد اهتمام فيصل بالشعر والأدب إلى ما وراء العالم الناطق بالعربية. فقد علم بأن الشاعر البنغالي الهندي الكبير والحائز على جائزة نوبل رابندرانات طاغور كان يقوم بجولة في إيران في ربيع عام 1932، فأرسل فيصل لطاغور مبعوثاً شخصياً لدعوته إلى العراق. لم يرغب فيصل في لقاء الشاعر فحسب، بل أراد أيضاً وضع بغداد على خريطة الشخصيات الثقافية العالمية. في 21 أيار (مايو) 1932، قامت لجنة استقبال رسمية برئاسة الشاعر الزهاوي باستقبال طاغور على الحدود مع إيران واصطحبته إلى بغداد. ثم دعا فيصل طاغور إلى القصر، حيث قدمه إلى الشخصيات البارزة في الحياة السياسية والثقافية في العراق. وصف طاغور فيصل بأنه شخص متواضع للغاية وبسيط في أسلوب معيشته. كما وجده واسع الاطلاع وشديد الاهتمام بالشعر. وفي المساء، أقام فيصل مأدبة عشاء على شرف الشاعر، قام خلالها طاغور بتحية «أحد أعظم قادة العالم الذين صنعوا التاريخ». ثم تلا قصيدة كتبها خصيصاً لهذه المناسبة:

حلّ الليل/ وأطفأ المصابيح/ في ركنك الضيق المظلم/ المليء بالدخان/ ولأن نور الفجر قد ظهر في الشرق/ دع نوره يهمس لنا جميعاً/ جميع المسافرين على نفس المسار/ نحو الحج(*)

(*) ألقى طاغور القصيدة اعلاه باللغتين الإنجليزية والبنغالية، كونه شاعر وموسيقي هندي من أصل بنغالي، وتواجد معه مترجمان لتعريب شعره. (المُراجع).

قدّم طاغور لفيصل، قبل مغادرته العراق بعد زيارة استمرت عشرة أيام، كهدية إحدى لوحاته الزيتية قد كتبت القصيدة عليها[24].

الشؤون المالية للملك

تحسّنت ظروف فيصل المتدهورة خلال السنوات التي قضاها في سوريا وفي حالة القفر السياسي إلى حد ما عندما وصل إلى العراق. كانت الأصول التابعة للتاج، والتي كان يديرها صفوت العوا، في البداية تبلغ ما قيمته 8500 روبية، لكن فيصل زادها بشراء أربع عقارات زراعية كبيرة، معظمها أراضي قاحلة بحاجة إلى الاستثمار والتطوير. كان فيصل مهتماً بشكل كبير بأمور التنمية الزراعية في العراق وبذل قدراً كبيراً من الجهد في مزارعه الخاصة. وكان يعبّر عن التزامه بتحديث الزراعة من خلال غرس الأشجار خلال الاحتفالات العامة، كلما سنحت الفرصة. كما ضمن خطاباته بملاحظات حول ضرورة تنشيط وتطوير القطاع الزراعي في العراق. وأيّد بشدة إنشاء أول كلية زراعية عام 1926 وإنشاء وزارة للزراعة عام 1927. ورعى بشكل مباشر تأسيس الجمعية الزراعية الملكية، التي ضمت مسؤولين حكوميين وملاك الأراضي وممثلين عن المجتمع الريفي. كما كان قارئاً نهماً للكتب والمنشورات الإرشادية حول هذا الموضوع، وكانت حديقة الورود الخاصة به في قصره في الحارثية تعتبر الأفضل في الشرق الأوسط[25].

كانت أولى خطوات فيصل في التنمية الزراعية هي استحواذه على أرض بالقرب من بغداد على نهر دجلة تُعرف باسم «مزرعة الألبان». كانت ملكيتها تعود للدولة، ولم يتضح مصدر المال الذي اشتراها بها فيصل. وعلى الأرجح أنه اقترضها. تمت إضافة عقار آخر إلى عقاراته في عام 1923، لكن قطعة الأرض هذه تضررت بشدة بسبب فيضان نهر دجلة في ذلك العام. وقد ضاع قدر كبير من الاستثمار الذي قام به فيصل في العقار بسبب غمره بالكامل بسبب الفيضان. والعقار الدائم الثاني الذي حصل عليه فيصل كان في منطقة خانقين. ثم أضاف فيصل مزارع أخرى إلى عقاراته في عهده، معظمها أراضٍ مستأجرة. كما حصل الملك السابق علي على عقار كبير في منطقة الكوت بشرق العراق من قبل الحكومة، والتي كان يديرها نيابة عنه مديرو مزارع فيصل.

شغلت إدارة وتطوير المزارع جزءاً كبيراً من وقت فيصل الذي لم ينشغل فيه بشؤون الدولة. كان فيصل مهتماً بشكل خاص بزراعة المحاصيل المعدة للتصدير، وتم تخصيص معظم أراضي مزارعه لزراعة الحبوب والقطن. وكان من أوائل من أدخلوا زراعة القطن التي أنتجت أنسجة عالية الجودة. وقد خُصصت مزرعته في خانقين تحديداً لزراعة القطن. كان القطن ذو جودة عالية ووجد له أسواقاً جاهزة في إنكلترا[26]. كما قام بتعيين خبير متخصص في زراعة القطن من

بريطانيا في ضيعة خانقين. كما قام بتعيين خبراء زراعيين من مصر لتحسين إنتاجية مزارعه[27]. كان فيصل مفتوناً بأحدث التقنيات والهندسة، وقد تبنى بسرعة العمليات والتقنيات الزراعية الجديدة. وفي كثير من الأحيان كانت الأدوات المستخدمة هي الأولى من نوعها التي يتم إدخالها إلى العراق، كما كان الحال عندما اشترى حاصدات أمريكية. كما تحدث بفخر عن أسماء المضخات النابضة في مزرعته إلى مراسل صحيفة «لندن ديلي هيرالد»، الذي كان يجري معه مقابلة في منزله في الحارثية. قال للمراسل بحماس: «ما تسمعه هو آلة «غاز بيندي». هناك المئات من هذه المضخات في جميع أنحاء العراق»[28]. ما كانت عقارات فيصل تفتقر إليه من حيث الحجم عوّضته من حيث الإنتاجية والابتكار. ومع ذلك، كان دخل فيصل الزراعي متقلباً ويعتمد على أسعار السلع العالمية. ومع انهيار أسعار السلع الزراعية في بداية الكساد الكبير، انخفض العائد بشكل كبير.

كان التوسع في ممتلكاته يتم بشكل عشوائي في اغلب الأحيان، ولم تكن جميع الابتكارات المستخدمة لها ما يبررها من الناحية الاقتصادية. عند وفاته، كانت ممتلكات الملك مدينة بحوالي 30 ألف جنيه إسترليني، وهو مبلغ كبير في تلك الفترة (كانت العملة العراقية تعادل الجنيه الإسترليني)[*]. وكان الدَين يعود بشكل أساسي إلى فرع البنك العثماني في بغداد ومضموناً برهون عقارية على العقارات. وفيصل نفسه كان مديناً للبنك. لم يكن شخص مسرفاً بطبيعته، وقد علّمته سنوات العوز في سوريا والمنفى قيمة المال، لكن التزاماته كملك كانت كثيرة ولأنواع عديدة من الناس. كتب علي جودت، آخر رؤساء الديوان في عهد الملك فيصل، في مذكراته: «لقد عانى الملك فيصل من أعباء ديون ثقيلة، معظمها ديون للبنك العثماني. كان هذا نتيجة المساعدات التي قدمها للمحتاجين، وما ساهم به للجمعيات والمؤسسات الخيرية من جيبه الخاص. ولم تستطع الحكومة أن تعرض عليه أي مساعدة بسبب قيود الميزانية الخاصة بها. لقد اعتاد أن ينفق كما ينبغي لملك عربي وكمؤسس لدولة عربية حديثة. كان عليه أن يلتزم بهذه القواعد وبالتالي تحمل الديون الشخصية[29].

كان لفيصل التزامات شخصية تجاوزت العديد من الحدود. كان عليه أن يغطي من جيبه الخاص تبرعاته الخيرية للمجتمع والمؤسسات التعليمية. كما قدّم الدعم للمدارس التابعة للطوائف الشيعية والمسيحية واليهودية والأرمنية، وكذلك المدارس المرتبطة بالمؤسسات الدينية السنية. تضمنت سجلات رواتبه رواتب لأرامل من خدموه في سوريا، وأنصاره في العالم العربي الذين مروا بأوقات عصيبة، بالإضافة إلى زعماء قبائل بدوية على طول حدود العراق مع سوريا

(*) صدر الدينار العراقي في مطابع بريطانيا عام 1932، وتعززت قوته بربطه بالجنيه الإسترليني على وفق ما يُسمى بالسعر التعادلي لغاية عام 1959. (المُراجع).

ونجد. كان عليه أيضاً إعالة أسرته الممتدة. وقد زاد عددهم مع وصول الملك السابق علي وعائلته وكذلك أسرهم. كما كان عدد من الأشراف أيضاً على قوائم رواتب فيصل بالإضافة إلى كبار الشخصيات الدينية ووجهاء الحجاز الذين تم طردهم. في العام الأخير من حكمه، بلغت الرواتب والأجور والمكافآت التي كان يغطيها فيصل من جيبه الخاص ما يقرب من 750 ألف دينار عراقي، وهو مبلغ لا يستهان به[30]. ذهب الجزء الأكبر منها لدعم الأشراف والمنفيين الحجازيين، وكذلك شيوخ القبائل. كانت مصادر دخل فيصل الرئيسة هي راتبه الحكومي البالغ 52 ألف دينار عراقي[*]، بالإضافة إلى عائدات الزراعة وإيرادات الإيجارات التي لا تزال تأتي إليه من العقارات في الحجاز[31]. تعهدت الحكومة البريطانية، مع ابن سعود، بحماية ممتلكات أشراف مكة، وأنه لن يتم مصادرتها بعد رحيل الملكين السابقين حسين وعلي. وتسلم فيصل الدخل المستحق له من هذه العقارات من وكيله في الحجاز محمد ناصيف. وعلى الرغم من هذه المصادر المتنوعة للدخل، ونمط حياة فيصل وأسرته المعتدل وغير المتكلف، كان هناك عجز مستمر في ميزانيته الشخصية. ووصلت موارده المالية المتضائلة إلى نقطة لم يتمكن فيها من تحمل سعر 1000 جنيه إسترليني لشراء الصورتين اللتين رسمهما له الفنانان أوغسطس جون وفيليب دي لازلو[32].

فيصل وعامة الشعب

جاء فيصل إلى العراق غريباً عن الحياة الاجتماعية والثقافية في البلاد. كان بإمكانه أن يحكم بسهولة من خلال قصر اتصالاته على الطبقة السياسية في العراق ونخبه الاجتماعية والدينية والقبلية. ولكن بدلاً من تبني وضعية الملك المترفع والمنعزل عن شعبه، انغمس في محاولة فهم عادات دولته الجديدة. بعد أسابيع قليلة من وصوله إلى العراق، التقى بالعراقيين المتعلمين للوقوف على آرائهم بشأن أوضاع البلاد. فقد استقبل عالم الدين المبجل، محمود شكري الألوسي، زعيم الحركة الإسلامية الحداثية في العراق. وتم التماس آراء الشعراء والكتاب من قبل القصر. وكان فيصل يراهن على قدرتهم على تأطير الرأي العام وسعى إلى جذبهم إلى جانبه، من خلال العطايا المالية وغيرها من الحوافز. كما عمل على رعاية الأندية الثقافية، مثل نادي الإرشاد، الذي تأسس في بغداد في عشرينيات القرن الماضي. بدأ فيصل، في عام 1924، باستقبال الفنانين

(*) كان الدينار العراقي ذا قيمة شرائية عالية إلى حدٍ بعيد، إلى درجة إن المصروف الشهري لعائلة الملك فيصل الأول جميعها مع الخدم يساوي حوالي 120 ديناراً. مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن الأرقام المذكورة اعلاه قد تكون محسوبة بعملة أخرى؛ إذ كانت رواتب أفراد العائلة المالكة في العراق كلها تُدفع بالروبية الهندية بوصفها العملة الرسمية الوحيدة والتي تعادل الواحدة منها 75 فلساً، طوال المدة بين عامي (1920 ـ 1932). وبحساب الأرقام اعلاه (52 ألف) يكون راتب الملك فيصل بالدينار العراقي حوالي 693 ديناراً فقط. (المُراجع).

والخطاطين في القصر. فتم تكليف الخطاط الشهير عباس حلمي البغدادي بعدة مهام من قبل الملك فيصل. كما تم استقبال الموسيقيين والفنانين في القصر. وقدّمت فرقة مسرحية مصرية، هي فرقة فاطمة رشدي، عرضاً في حدائق القصر أمام جمهور كبير من كبار الشخصيات، بالإضافة فرقة رقص شركسية. كما أقام الملحن والمغني المصري الكبير محمد عبد الوهاب حفلاً موسيقياً كبيراً في نيسان (أبريل) 1932، بمناسبة افتتاح معرض بغداد الصناعي والزراعي الأول. حيث قام عبد الوهاب بتلحين وغناء قصيدة كتبها الشاعر المصري الكبير أحمد شوقي تكريماً لفيصل. وكانت ذات أثر كبير على الحضور. وشبّهت القصيدة فيصل بحكام بغداد العظماء وأشادت بعمله الحضاري[33].

كان المعلمون من الفئات التي أدرك فيصل أهمية تشجيعها ورعايتها. فقام بجولات منتظمة على مدارس العاصمة، بما في ذلك المدارس الدينية اليهودية والمسيحية، وكثيراً ما كان تفقّد المدارس على جدول أعماله خلال زياراته للأقاليم. وعادة ما كان يرافقه رستم حيدر وغالباً ما يأمره الملك باتخاذ خطوات فورية لتحسين حالة أو أخرى في المدارس التي زارها. التقى فيصل بمجموعة كبيرة من المعلمين والمعلمات في القصر في اجتماع عُقد خصيصاً في نيسان (أبريل) 1932، وخاطبهم فيصل قائلاً: «تأكد من أن العمل الذي تقومون به أكبر من عمل الملك وأعظم من عمل الوزير. لا يمكن أن يكون أي عمل يتعلق بمستقبل البلد بأهمية عملكم نفسها»[34]. كان فيصل يحضر صلاة الجمعة بانتظام، مما أتاح له فرصة لقاء عامة الشعب. على الرغم من أنه لم يكن يظهر تدينه على العلن، إلا أن فيصل كان لديه إيمان غريزي بالإسلام وبصحة القرآن. وقد أُصيب بالذعر عندما ذكر مسؤول بريطاني ذات مرة أن القرآن يحتوي على مائتي كلمة أجنبية، مما يشير ضمنياً إلى أنه ربما لم يكن وحياً مباشراً من الله. كان هذا بمثابة التجديف لفيصل[35]. وبالرغم من اعتزازه بنسبه، إلا أنه لا يصل إلى درجة إدعاء صلة خاصة أو أنه يتلقى إلهام مباشر من النبي محمد. وفي إحدى المرات وأثناء مغادرته المسجد بعد الصلاة، عاتب فيصل أخاه علي ادعائه أنه رأى النبي. قال له فيصل: «حافظ على إيمانك بالله وحده»[36]. كما أنه ظل بعيداً عن التأثر بالاعتبارات الطائفية، حتى في مسائل العقيدة أو اللاهوت. وقد كتب الريحاني: «كان لعقيدته جوانب عديدة تعكس بوضوح جميع المذاهب الإسلامية المختلفة. كنت أشعر عندما أتحدث معه أن إيمانه الديني يقوم على أسس غير متحيزة، مما جعله يحترم جميع ديانات العالم... كانت عقلانيته واعتداله تجسيداً للحكمة الأسمى؛ وكان لتسامحه واتساع أفقه دلالات على المحبة والصدق»[37]. وإضافة إلى دعمه الصريح للمؤسسات الدينية للطوائف الرئيسة، فقد دعم فيصل إعادة بناء المواقع والمزارات الصوفية المهجورة، مثل تكية الطريقة الشاذلية في الموصل. الأمر الذي منحه مكانة طيبة لدى الطرق الصوفية الرئيسة التي كانت نشطة في شمال

البلاد وفي كردستان[38]. كما سمح فيصل للمبشرين الأجانب بالعمل في العراق دون الكثير من العوائق، طالما أنهم لم يتمادوا في نشاطهم التبشيري. كما افتتح اليسوعيون من كلية بوسطن في الولايات المتحدة، خلال فترة حكمه، أول أكاديمية عراقية على النمط الغربي، كلية بغداد، والتي أصبحت المدرسة الثانوية الرئيسة، والتي خرجت أجيال من النخبة العراقية الجديدة.

ولكونه يتبع المذهب الحنفي من الإسلام السني، فقد كان يصلي صلاة الجمعة في أحد المساجد السنية الرئيسة في بغداد بشكل دائم. وعلى الرغم من أن تواصله مع الناس كان عابراً، إلا أنه كان يستجيب دائماً لسيل العرائض التي تقدم له أو لمساعديه. ووصف المؤرخ الاجتماعي الشاب آنذاك، عباس بغدادي[*]، كشاهد عيان مشهد فيصل وهو يحضر صلاة الجمعة في إحدى هذه المناسبات. «بعد عامين أو ثلاثة [من وصول فيصل] كنت أذهب مع آخرين من أصدقائي الشبان إلى المسجد الذي اختاره فيصل لأداء صلاة الجمعة. هناك شاهدناه بملابسه العربية وحذائه الأسود. أخيراً، تقرر إقامة صلاة الجمعة من الآن فصاعداً في مسجد سراي بالقرب من ساحة القشلة. كنت أذهب بعد ظهر كل يوم جمعة إلى هذا المسجد لرؤية الحرس الملكي بملابسهم الحمراء الرائعة وقائدهم العملاق. قاد فيصل سيارته الصالون الحمراء المفتوحة من طراز فيات، التي تحتوي على حاجز زجاجي بينه وبين سائقه. أعتقد أن السائق كان هندياً يرتدي طربوشاً أحمر. بعد أن قام الحرس الملكي بتحية الملك، انتظرنا في الخارج حتى غادر فيصل المسجد وركب سيارته مبتعداً»[39]. اعتاد فيصل على الاكتفاء بمساعد واحد يجلس بجانب السائق أو كان في كثير من الأحيان يقود السيارة بنفسه.

لكن طريقة التواصل المباشرة مع عامة الناس كانت خلال اليومين الذين خصصهما لهذا الغرض أسبوعياً. وفي إحدى المرات دفع تزاحم الناس عند بوابة القصر سعياً لرؤية الملك برئيس الوزراء السعدون والذي كان هناك بمهمة رسمية، ليصيح بصوت عالٍ: «ألقوا بهؤلاء الناس إلى الخارج ليذهبوا إلى من تدفع لهم الحكومة ليكونوا وسطاء لهم عند الملك. أعطوا الملك استراحة وتخلصوا منهم!»[40]. وغالباً ما تجاوزت سهولة الوصول إلى فيصل القيود المعتادة. وكانت الرسائل ذات الطابع الشخصي تصل إلى القصر لتطلب تدخل فيصل في بعض المشاكل العائلية أو غيرها من المشاكل: زوجات يشتكين من أزواجهن وأولياء أمور يشتكون من أطفالهم وأشخاص يطلبون مساعدته في عودة الأزواج الهاربين، وما إلى ذلك. كما تلقّى فيصل رسائل كشفت عن مخالفات وزارية أو سوء إدارة، مما أعطته مصدراً مهماً للمعلومات عن سلوك حكومته[41]. كما

(*) ترك الكاتب والمحامي عباس بغدادي (1913 ـ 2007م) كتاباً واحداً هو (بغداد في العشرينات)، اتبع فيه اسلوب التاريخ الشفاهي عن أحوال العاصمة الاجتماعية وشوارعها ومحلّاتها السكنية وشخصياتها البارزة وأهم احداثها. (المُراجع).

كانت الرسائل من الباحثين عن عمل كثيرة، وكثير منها قادم من لبنانيين وفلسطينيين وسوريين ومصريين يطلبون أي وظيفة متاحة في العراق. حتى أن البعض طلب من فيصل منحه الجنسية العراقية. كان معظمهم مدفوعين للبحث عن وظائف في العراق، أو للانتقال هناك، بسبب الإحساس السائد في الأراضي العربية بأن نظاماً جديداً واعداً في عهد فيصل كان قيد الإنشاء في العراق[42].

كانت رحلاته المنتظمة إلى الألوية أيضاً فرصة لفيصل لاستطلاع آراء ومخاوف السكان خارج العاصمة. كما جاءت عرائض من البلدات والمدن للمطالبة بتدخل فيصل في شؤونها البلدية ـ في تحديد المواعيد أو إقالة المسؤولين غير الأكفاء أو الفاسدين، أو في تقديم الدعم للمباني وأعمال الطرق. وكان فيصل يستضيف بانتظام الوفود الزائرة من الألوية التي كان يستقبلها في كثير من الأحيان ممثلو القصر في محطة سكة حديد بغداد، الأمر الذي يعزز من إحساسهم بالكرامة والأهمية. كما أدى فيصل دوراً رئيسياً في حل الخلافات الصراعات القبلية، خاصة في منطقة وادي الفرات الأوسط. حيث كان لديه مسؤول مراسم خاص مكلف تحديداً بالتنسيق مع القبائل. كان العديد من زعماء القبائل ينظرون إلى فيصل على أنه فوق التجاذبات القبلية، وكانوا يرحبون بمساعيه الحميدة لتسوية النزاعات بين القبائل. ومن الأمثلة على ذلك عندما نجح فيصل في التغلب على النفور المتنامي بين بعض زعماء قبائل ثورة 1920. بدا البريطانيون من خلال رسائلهم مرتابين من هذه المحاولات، لأنها كانت تتم في كثير من الأحيان في الخفاء، ورأوا أنها علامات على تدخل فيصل وتآمره.

كانت طاقة فيصل دائما ما تتضاعف عند حدوث كارثة طبيعية أو بشرية. كما قام بزيارة المناطق المتضررة من الفيضان الكبير في بغداد عام 1926، كما أشرف بنفسه على جهود مكافحة وباء الجراد في إحدى المرات. وفي حالة أخرى، تعرضت قرية كرمليس، الواقعة في منطقة زراعية خصبة وغالبية سكانها من المسحيين، لحريق أسفر عن خسارتها لكامل مخزونها من الحبوب. فقام فيصل استجابةً لنداء رئيس أساقفة الكلدان، بالدعوة إلى حملة كبيرة لجمع التبرعات للمساعدة في تعويض الضحايا. وكان القادة الدينيون للطوائف الصغيرة الأخرى على تواصل منتظم مع فيصل، بما في ذلك كبار الحاخامات في بغداد والموصل. كما اشتكى رجال الدين السُنّة، ومعظمهم من العاملين بأجر في وزارة الأوقاف، من قلة رواتبهم. واشتكى البعض من رؤسائهم الذين طالتهم اتهامات بالقيام بتصرفات لا تليق برجال الدين كتناول الخمور، وطالبوا فيصل باستبدالهم. كما طالب كبار رجال الدين الشيعة فيصل بالتدخل للتخفيف من حكم الإعدام في إحدى القضايا المهمة، التي أُدين فيها الجاني، بقتل شرطي واثنين آخرين خلال ثورة عام 1920، ووافق فيصل على الطلب. وخفف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد.

الصحافة

كان فيصل قارئاً نهماً للصحف. وكانت ترسل إليه نسخ من صحيفة الأهرام الصادرة في القاهرة، وهي الصحيفة اليومية الأكثر موثوقية باللغة العربية، بانتظام منذ أن كان في العقبة عام 1917. واستمر إرسالها إليه في سوريا ثم العراق[43]. كان روتين فيصل اليومي يتلخص في تصفح الصحف بعد الاستيقاظ، وبعدها فقط ينصرف للتعامل مع المراسلات والأوراق الرسمية. كما تم إعداد مقتطفات من الصحف والمجلات ليطلع عليها بشكل منتظم. وكان طاقم الصحافة أول من التقاهم فيصل بعد تتويجه. كان مدركاً تماماً لقوة الصحافة في تشكيل انطباعات الجماهير عن مواقفه وسياساته. ولم تكن تجربته مع الصحافة بتلك التجربة السعيدة على الإطلاق منذ مؤتمر باريس للسلام. فقد حمل فيصل وطاقم القصر في العراق على كاهلهم مهمة إدارة التغطيات الصحفية، من خلال توجيه الصحافة إذا لزم الأمر. ولم تكن العملية سهلة على الإطلاق. فقد تزايدت أعداد الصحف والمجلات في العراق بشكل كبير، وشملت جميع أطياف الرأي. لم يكن الكثير منهم أفضل بكثير الصحف الصفراء، التي لم يكن هم مالكيها الأساسي هو انتشار الصحيفة أو الحصول على الإعلانات، ولكن في ابتزاز الأشخاص ذوي النفوذ بمختلف أشكال الابتزاز. ومع ذلك، فقد تم إدارة عدد قليل من الصحف وفقاً لمعايير صحفية معقولة. تم تأسيس العديد من الصحف لتعكس آراء سياسيين أو أحزاب سياسية معينة. وبالتالي، يمكن للمعارضة السياسية الاعتماد على عدد من الصحف لنقل رسائلها ومواقفها. وكان البريطانيون بطبيعة الحال مدركين تماماً للضرر الذي يمكن أن تحدثه الصحف من حيث التشكيك في سياساتهم وقراراتهم أو مهاجمتها، وغالباً ما كان مجلس الوزراء يتعرض لضغوط من قبل المقيمية لإغلاق أو فرض غرامات على الصحف التي تحدثت ضد السياسات البريطانية في العراق وأماكن أخرى في الشرق الأوسط.

كانت علاقة القصر بالصحافة مشحونة منذ البداية. فقد اضطر فيصل، بعد أشهر قليلة من توليه العرش، إلى استدعاء رؤساء تحرير الصحف الذين هاجموا بشدة السياسات الفرنسية في المنطقة. وحذرهم من أن الهجمات المتعمدة على الفرنسيين قد تعرض علاقات العراق بهذه القوة المهمة للخطر. وفي تموز (يوليو) 1922، طلب فيصل من وزير الداخلية منع الصحف من نشر أي مقالات عن القصر، أو مقابلات وتصريحات من الملك، قبل أن يتم التحقق منها من قبل أمانته[44]. كما ضغط على الحكومة للتحرك ضد الصحف التي اعتبرها تسيء استخدام حرية الصحافة. وكانت المجلات الساخرة والمجلات الأدبية مصدر قلق خاص للقصر، نظراً لعدم رصانة تقاريرها التي تسيء في كثير من الأحيان للسياسيين الأفراد والشخصيات الاجتماعية. ولم يكن فيصل، في مثل هذه الحالات، مدفوعاً كثيراً بالتهجمات الشخصية التي

تطاله ـ والتي كانت نادرة جداً وخافتة ـ ولكن بالأحرى بسبب خشونة اللغة العامة والأذى الذي قد تسببه للذين يشكلون أهدافاً للمجلات الساخرة. وفي إحدى المرات، طلب فيصل من مجلس الوزراء اتخاذ إجراءٍ ضد صحيفة الاستقلال التي استخدمت لغة التشهير ضد رجال الدين[45]. وفي حالة أخرى طالب بفرض غرامة على صحيفة لاستخدامها لغة غير لائقة عند الكتابة عن وزراء سابقين. من ناحية أخرى، غالباً ما لجأ أصحاب الصحف إلى التقاضي مع فيصل كلما تم إغلاق صحفهم لخرقها قوانين الصحافة وتغطيتهم لسياسات المقيمية أو سياسات الحكومة.

لا يمكن إنكار حساسية فيصل الشديدة تجاه ما تكتبه الصحافة، وغالباً ما كان يبالغ في رد فعله. ولم يكن بالتأكيد نصيراً لفكرة حرية التعبير المطلقة أو حق الصحافة في تغطية القضايا والشخصيات بالطريقة التي يرونها مناسبة. وكانت قوانين الصحافة العراقية، التي يعود تاريخها إلى قانون الصحافة العثماني لعام 1909، تقيد حرية الصحافة. وعلى الرغم من هذه القيود، إلا أن الصحافة في العراق كانت صريحة وكانت باستمرار عرضة لمخاطر التغريم أو حتى الإغلاق. الاستثناء الوحيد كان صحيفة العراق. فالأمر كان يتطلب خطاً موالياً للحكومة ولبريطانيا بشكل عام. كان مالكها، رزوق غنام، الذي يتمتع بسهولة الوصول إلى فيصل وغالباً ما أجرى مقابلات طويلة معه، تعكس فكره وتنذر ببعض التغييرات المهمة في السياسة أو التوجهات. وفي إحدى المقابلات، كشف فيصل عن رأيه في الصحافة بشكل عام: «إنني أدرك التأثير الكبير الذي يمكن أن تحدثه الصحافة في تطور الدول... وفي تعزيز الوعي الوطني. لكن ينبغي على الصحافة، نظراً لانتشارها الواسع وتأثيرها الكبير، أن تعمل بوعي وحكمة. ومع اعترافي بجهود الصحافة المرحب بها في خدمة الأمة، إلا انها تتسرع في كثير من الأحيان إلى إصدار الأحكام»[46]. واتبع في مرحلة لاحقة من حكمه منهجاً أشد قسوة تجاه إساءة استخدام حرية الصحافة، حيث أصبحت الصحف في ذلك الوقت دائمة التهجّم على القصر وبعض موظفيه، خاصة على رستم حيدر. «أود أن أتوجه إلى الصحفيين باعتبارهم قادة رأي في البلاد. لأطلب منهم أن يخافوا الله في واجبهم المقدس، وألا يتاجروا بإرث البلاد لمجرد تحقيق الانتشار لصحفهم»[47]. مع وصول فترة حكم فيصل إلى نهايتها، كان فيصل من دعاة السيطرة على الصحافة ودعم تمرير قوانين تقيد حرية الصحافة، مما جعل من الحصول على ترخيص صحيفة أمراً في غاية التعقيد. وبالرغم من الإغلاق والغرامات المتكررة وحتى سجن الصحفيين، فقد شهدت فترة حكم فيصل ازدهاراً لمهنة الصحافة في العراق.

النيل من رؤساء الحكومات

كان فيصل على إطلاع تام على الأعمال التفصيلية لحكوماته، وكان البلاط لا يتوانى عن التدخل في مهام الحكومة. وكان من عادة فيصل أن يقوم بزيارات مفاجئة لكبار المسؤولين الحكوميين، أو الحضور، دون سابق إنذار، في العروض العسكرية أو المناسبات الرسمية. كان لعمليات التفتيش غير المعلنة هذه تأثير ممتاز على عامة الشعب[48]. وقد منح الدستور لفيصل صلاحيات استثنائية، لا سيما اختيار رئيس الوزراء، الذي لا يمكن تعيينه دون موافقة فيصل. كان على فيصل، بالطبع، أن يأخذ آراء المقيمية في الاعتبار، وقد تم التعبير عنها بقوة في كثير من الأحيان خاصة خلال فترة دوبس. وكان يتوجب على فيصل استشارة عدد من السياسيين قبل أن يتخذ قراره وأن يأخذ بالاعتبار في وضع المرشح في البرلمان، وما إذا كان بإمكانه كسب أصوات الأغلبية لصالحه. كان فيصل يوافق على اختيار الوزراء رافضاً بعض المرشحين كما كان يفرض بعض المرشحين على رئيس الوزراء. ونادراً ما كان فيصل يلقي بالاً لموقف أعضاء البرلمان. فقد كان على ثقة من أن حزب الحكومة سوف يلتزم في الغالب، بهدف التقرب منه ومن رئيس الوزراء المحتمل. وعلى الرغم من أن المجلس كان يمتلك السلطة المطلقة على مجلس الوزراء ويمكنه نظرياً أن يطالب بإقالة الحكومة، إلا أنه غالباً ما كان يحدث العكس، حيث كانت الحكومة تقوم بحلّ المجلس بما يتناسب مع احتياجات القادة السياسيين. كان التهديد بالحل قوة إضافية لم يتردد فيصل أبداً في استخدامها لإخضاع المجلس.

كما منح الدستور لفيصل سلطة التصديق على قرارات مجلس الوزراء. وقد أجبر هذا رئيس الوزراء في تلك الفترة على أخذ رأي فيصل في جميع القرارات أو الخطط المحتملة قبل عرضها على مجلس الوزراء. وبالتالي، كان نجاح أو فشل حكومات فيصل يتوقف بدرجة كبيرة على مدى رضاه عن سلوكها. استخدم فيصل، في وقتٍ لاحق من حكمه، البلاط كنقطة محورية لمناقشة القضايا ذات الأهمية الوطنية. ولم تكن الغاية من هذا إعاقة عمل الحكومة؛ بل عكس قدرة القصر على المبادرة وصياغة السياسات بشكل مستقل. كما تم خلال فترة حكمه تنظيم العديد من المؤتمرات الكبيرة حول مواضيع مهمة وتمت دعوة القادة السياسيين للبلاد والمفوض السامي إليها. وعقد أول مؤتمر وطني من هذا النوع في كانون الثاني (يناير) 1928، حيث نوقش موضوع الغارات الوهابية على العراق. وبعد شهر من ذلك المؤتمر عُقد مؤتمر آخر تناول الجهوزية العسكرية العراقية وحجم وتجهيز الجيش. وعقد المؤتمر الثالث في نيسان (أبريل) 1931، وتناول الأوضاع في كردستان وتجدد تمرد الشيخ محمود. وتلت ذلك مؤتمرات أخرى حول مستويات الضرائب الزراعية وعدالتها، وأخرى حول الدفاع والأمن القومي. أعطت هذه المؤتمرات فيصل الفرصة للضغط من أجل فرض حلوله وتوصياته على الحكومة والمقيمية.

من بين جميع رؤساء وزراء فيصل، كان عبد المحسن السعدون هو الأنجح في مقاومة ضغوط القصر وتهديداته، ويرجع ذلك إلى شخصيته من ناحية وبسبب القوة التي استمدها من دعم المقيمية له، من ناحية اخرى. وبعد فترة وجيزة من تولي السعدون رئاسة الوزراء للمرة الثالثة، هزت بغداد مظاهرات تندد بزيارة الصناعي والسياسي البريطاني البارز والمتعاطف مع الصهيونية السير ألفريد موند(*)، الذي أصبح لاحقاً بارون ميلشيت[49]. وكان لموند دور فعال في تأسيس شركة إمبريال للصناعات الكيماوية العملاقة. كما كان على اتصال منتظم مع قادة الجالية اليهودية العراقية، في محاولة للحصول على دعمهم للمشروع الصهيوني في فلسطين. وفي عام 1923، كتب إلى مناحيم دانيال، الذي يُحتمل أن يكون أغنى أعضاء الجالية اليهودية في بغداد وعضو مجلس الشيوخ، طالباً المساعدة في التحضير للزيارة المرتقبة لمسؤول في الصندوق القومي اليهودي. كان الصندوق فرعاً من المؤتمر الصهيوني الخامس لعام 1901 وتم تأسيسه لحيازة الأراضي في فلسطين وتطويرها[50]، وكان يهود العراق في عشرينيات القرن الماضي في أحسن الأحوال غير مبالين بالمشروع الصهيوني، على الأقل من حيث صلته بهم.

انتشر الخبر عن زيارة موند إلى العراق، وكان من المقرر أن يصل بغداد في أوائل شباط (فبراير) 1928 على متن حافلة نيرن الصحراوية من دمشق. فانطلقت مظاهرة احتجاجية كبيرة، في وسط بغداد، نظمها طلاب من المدرسة الثانوية المركزية وكلية الحقوق ومعهد إعداد المعلمين، وانضم إليها المدنيين العاديين والمارة. وكان هدف المتظاهرين قطع الطريق على موند ومنعه من دخول بغداد. غير أن الشرطة استقبلت حافلة موند في وقت سابق ورافقته إلى بغداد عبر طريق آخر. واشتبك المتظاهرون مع شرطة الخيالة الذين أرسلوا لمنع المسيرة من الخروج عن السيطرة. ووقع العديد من الجرحى دون أن يسقط قتلى. وقد اتهم تقرير استخباراتي أعده سكرتير المقيمية فيصل بشكل مباشر بالوقوف وراء المظاهرات. ربما كان فيصل يقف وراء منظمي التظاهرة، لكنها كانت بالأساس من عمل الأندية القومية العربية الغاضبة من السياسات البريطانية في فلسطين والمواجهات المتزايدة الخطورة بين العرب والمستوطنين اليهود في فلسطين. واعتبرت تقارير المخابرات دعم فيصل المزعوم للمتظاهرين كجزء من خطته لإضعاف حكومة السعدون[51]. وعلى غير العادة، صادق فيصل على عقوبة الجلد التي أوصت بها وزارة الداخلية لطلبة المرحلة الثانوية الذين تم القبض عليهم في الاضطرابات.

بعد فشل معاهدة عام 1927 في تقديم أي تنازلات بريطانية ذات مغزى لمطالب فيصل بالاستقلال، تمحورت أولوياته الآن حول تعديل البروتوكولات المالية والعسكرية التي شكّلت

(*) حدثت الزيارة في شباط (فبراير) 1928، وشملت عدداً من الأماكن في بغداد، التي منها المدارس اليهودية. (المُراجع).

سلطة بريطانيا الحقيقية في العراق. وكان من المقرر أن تنتهي صلاحيتها في منتصف عام 1928. وكان السعدون قد نأى بنفسه عن هذه الأمور الخلافية، وترك التفاوض لفيصل ومساعده المقرب نوري السعيد. تقدم فيصل بمطالب هامة لإجراء تعديلات في الاتفاقية العسكرية كانت بمثابة كسر للتبعية للبريطانيين. وتضمنت عدم خضوع الجيش العراقي للتفتيش والسيطرة من قبل البريطانيين، وسيتولى العراق السيطرة الكاملة على شؤونه الدفاعية الداخلية والخارجية. ومع ذلك، رفض ليو أمري ووزارة المستعمرات رفضاً قاطعاً مطالب فيصل بالسيطرة على الشؤون الدفاعية للعراق. أضيفت الآن إلى الحجج المعتادة حول تأمين خطوط الاتصال للإمبراطورية مسألة المصالح التجارية لبريطانيا في العراق، والتي توسعت بشكل كبير مع تطوير حقول نفط كركوك. وأبرق أمري إلى المقيمية البريطانية ليقول إن «المقترحات الجديدة تظهر تجاهلاً تاماً للحقائق المتعلقة بالوضع، بحيث لا تستطيع حكومة جلالة الملك مقاومة الاستنتاج بأن الملك فيصل ووزرائه يعانون من خداع الذات بشأن مسألة قدرة العراق على الاستغناء عن الدعم البريطاني»[52]. لم يكن بمقدور وزارة المستعمرات الاعتراف بأن معظم العراقيين منزعجون من احتمالية بقاء الوصاية البريطانية إلى أجل غير مسمى.

كشف دوبس، الصريح والمخلص في رسائله الرسمية، عن آرائه الحقيقية حول المأزق في رسائله الخاصة إلى زوجته. واعترف بأن بريطانيا هي قد تسببت جزئياً بهذه الأزمة «لأن الحكومة البريطانية في عام 1926 تعهدت بسحب جميع قواتها في عام 1928 واكتشفت الآن أنها لا تستطيع فعل ذلك»[53]. وفي رسالة أخرى، كان دوبس متوجساً من استخدام إنذار شبه أخير أرسله أمري لتسليمه إلى الحكومة.

سأكون مشغولاً جداً في حزم أمتعتي وإنهاء أعمالي، وربما أحاول تمرير اتفاقياتي الجديدة من خلال البرلمان العراقي. لأن هناك أزمة مرة أخرى. تلقيت برقية مشفرة هامة من السيد أمري بالأمس، طولها أكثر من 9 صفحات تتضمن الإنذار الذي سأوجهه إلى أي اعتراض من قبل الملك فيصل ووزرائه، إذا لم يقبلوا اتفاقنا العسكري. وهو بمثابة إعلان شبيه بالذي قدمناه في مصر ولا أعرف لما كل هذا، فهو يتضمن عملياً التخلي عن المعاهدة كواجهة والعودة إلى الانتداب المباشر. من المؤكد أنني سأقوم فقط بإيماءة إلى جيبي ولن أقدم الإنذار مطلقاً وأفترض أنهم سيستسلمون عند هذه الإيماءة. وإذا لم يفعلوا ذلك، فإن جيلبرت كلايتون [المفوض السامي القادم] سيطبق قانون القوة، على الرغم من أنني لا أعتقد أنه سيجد موقفاً صعباً كالذي تركه لي بيرسي كوكس. لكن من المحزن أن تشهد الأشهر الثلاثة الأخيرة لي هذا الاضطراب[54].

تم تضخيم المواجهة بين فيصل والبريطانيين من ناحية، وفيصل والسعدون من ناحية أخرى بسبب تنامي مخاوف الأخير بشأن مواقفه الموالية لبريطانيا. كان دائماً على حافة الهاوية من

مناورات فيصل والتحريض القومي ضده في الشوارع وفي الصحافة. وكان عناد بريطانيا بشأن إعادة التفاوض على الاتفاقات المالية والعسكرية مصدراً آخر للقلق بالنسبة له. الشلل الذي أصاب البلاد في عام 1928 نتيجة لهذه النزاعات التي لم يتم حلها أصبح معروفاً على نطاق واسع باسم الوضع الشاذ. لقد طوّر العراق نظاماً إدارياً حيث كان الوزراء والمسؤولون الحكوميون العراقيون مراقبون باستمرار، وموضع تشكيك من قبل مستشاريهم البريطانيين. تصاعدت التوترات التي نشأت نتيجة هذه المسؤولية المزدوجة حيث أصبح العراقيون أكثر اعتياداً على السلطة والإدارة. وكثرت التناقضات والشذوذ. أدارت الحكومة العراقية الموانئ والسكك الحديدية وكان عليها أن تغطي عجزها، لكنها لم تمتلكها بل كانت مملوكة من قبل البريطانيين. وبموجب البروتوكولات العسكرية، يمكن للعراق إعلان الأحكام العرفية، ولكن لا يمكنه إدارتها. وبالرغم من امتلاك العراق لجيش، لكنه لا يستطيع نشره بدون موافقة المفوض السامي. كان للأجانب حقوق خارج الحدود الإقليمية في العراق، لكن العراقيين لم يحظوا بمثل هذه الحقوق في المقابل. تحمّل العراقيون نصف موازنة المقيمية، لكن لم يكن هناك سيطرة عراقية على كيفية إنفاقها. وقد يتم إبطال قرارات الوزراء والمسؤولين، الذين يفترض أنهم مسؤولون وخاضعون للمساءلة أمام البرلمان، من قبل مستشاريهم[55]. وفي قمة هيكل المسؤولية المزدوجة هذا يقف فيصل والمقيمية. كان هذا الوضع غير مقبولٍ في نظر العراقيين، وكان قابلاً للانفجار.

أدرك دوبس هذا الوضع في وقت متأخر وحاول التخفيف من عناد وزارة المستعمرات، لكن دون جدوى. وقد تجلى موقف وزارة المستعمرات حول هذه المسألة في تعليقهم السلبي الوارد في التقرير الموجه إلى عصبة الأمم عن العراق في عام 1928. ووفقاً لوزارة المستعمرات، فإن المظالم المتعلقة بهيكل المسؤولية المزدوجة هي من صنع الخيال لا وجود لها «إلا في أذهان الوطنيين المتحمسين»[56]. بنهاية عام 1928، كان السعدون قد استنفد خياراته. وأمام يأسه وعدم قدرته على كسر حالة الجمود تقدم باستقالته في 21 كانون الأول (ديسمبر) 1928. وقد ألقى السعدون، خلال لقاءٍ له مع دوبس، باللوم على فيصل لكونه المسؤول المباشر عن المتاعب التي واجهها. وبحسب ما ذكر دوبس عن هذه المحادثة نقلاً عن السعدون «لقد كان الملك فيصل حقاً هو من جعل موقفه مستحيلاً. لقد قال جلالة الملك، خلال الأشهر الستة الماضية على الأقل، أن أي شخص يقبل بهذه الاتفاقيات من حيث المبدأ، (كما قدمه البريطانيون)، سيكون خائناً للبلد، والآن نشأ مثل هذا الشعور لدرجة أنه [السعدون] لم يستطع تحمله»[57]. ولم يكن هذا بعيداً عن الحقيقة، لأن فيصل كان يعمل ضد الحكومة منذ تشكيلها. كانت تكتيكاته المفضلة لتحسين موقفه التفاوضي مع البريطانيين تتمثل عادة في تصعيد الأمور وخلق أزمة. ولم تكن هذه الحالة مختلفة. فقد كان لدى فيصل القليل من الأدوات الأخرى التي يمكن بواسطتها إقناع

البريطانيين أو إجبارهم على تقديم تنازلات. وتعليقاً على المأزق الذي بدأ يتكشف، كتب دوبس إلى زوجته: «حسناً، أخشى أن الأزمة الكبرى قد وقعت أخيراً. لقد رفضت الحكومة العراقية أخيراً قبول الشروط البريطانية في الاتفاقيتين الجديدتين، وسأوجه نوعاً من الإنذار إلى الملك فيصل ورئيس الوزراء غداً لأقول إننا هنا وسنبقى هنا، وبشروط كذا وكذا. أفترض أن عبد المحسن [السعدون] سيستقيل ولا أعرف من سيحل محله إذا كان هناك أحد. إنه لأمر مؤسف أن تكون الأسابيع الخمسة الماضية مريرة وأن بدايات جيلبرت كلايتون ستكون مضطربة»[58].

واستمر المأزق ولم يلوح حل في الأفق. لم يكن أي سياسي جاد مستعداً للتقدم لتشكيل حكومة في مواجهة معارضة شعبية واسعة، وصحافة معادية، وملك عازم على استغلال الأزمة للضغط من أجل الحصول على تنازلات. بقي السعدون ليقوم بتصريف الأعمال حتى سنحت الفرصة لكسر الجمود مع وصول المفوض السامي الجديد السير جيلبرت كلايتون، في أوائل آذار (مارس) 1929، وهو صديق قديم لفيصل. لم يكن ذلك مبكراً جداً. أصبح دوبس منهكاً تماماً وساخطاً من العراق. كتب إلى زوجته: «إنه لأمر مزعج أن أضطر إلى إنهاء مدتي في مشاجرات حادة وأتمنى أن أكون قد قررت المغادرة الآن، على الرغم من الخسارة المالية»[59]. ذكر القائم بالأعمال الأمريكي في بغداد بشكل مبالغ فيه أن العلاقات بين فيصل ودوبس قد تدهورت إلى درجة أنهما «بالكاد يمكن أن يتحمل كل منهما رؤية الآخر»[60]. ولكن مع اقتراب موعد رحيل دوبس، اكتنف الهدوء العداء بين الاثنين ليصبح احتراماً متبادلاً. وأقام له فيصل عشاءً وداعياً ومنحه أعلى وسام عراقي، وهو الوسام الذي يحظى به الملك فقط. في الأسابيع الأخيرة التي قضاها في العراق، أُغرِق دوبس بالهدايا، لكنه كان متردداً في قبولها لأنها تتعارض مع السياسة الرسمية. لكن وزارة المستعمرات نصحته بقبولها، وإلا فإنها ستعتبر كإساءة. كتب إلى زوجته في إحدى رسائله الأخيرة من بغداد «الناس هنا طيبون للغاية ولبقون؛ ولكنني سعيد لأنني سأغادر. أشعر بأنني وصلت إلى سن التقاعد وأن المزيد من هذا العمل سيزعجني ويعكّر مزاجي. لقد أنهيت مسيرتي الرسمية ـ وفي النهاية لم أقدم الكثير»[61].

يتمتع جيلبرت كلايتون، المفوض السامي الجديد، بخبرة لا مثيل لها في الأوضاع في الشرق الأوسط العربي ومع الشخصيات الرئيسة، البريطانية والعربية، الذين أدوا دورهم في ولادة العالم العربي الحديث. كان لديه معرفة وثيقة بفيصل وشخصيته وصفاته، لم يكتسبها فقط خلال الثورة العربية، ولكن أيضاً من التطورات التي أعقبت الحرب والتي أدت إلى تنصيب فيصل ملكاً في العراق. كان كلايتون خريج الأكاديمية العسكرية الملكية في وولويتش. تم تكليفه بالعمل في سلاح المدفعية عام 1895، وبعد ذلك مباشرة تم إرساله إلى مصر. وعلى مدى الثلاثين عاماً التالية، مع فترات انقطاع قليلة، أمضى كلايتون حياته العملية في الشرق الأوسط، إما في مصر

أو السودان أو في فلسطين. وخلال الحرب كان كلايتون فعّالاً في تنظيم المكتب العربي في القاهرة وترأس وحدة الاستخبارات فيه. منح وصول كلايتون إلى بغداد فيصل فرصة جديدة لمحاولة كسر الجمود مع لندن. توقّع دوبس في خطاب موجه إلى زوجته أن وصول كلايتون قد يحسّن احتمالات التوصل إلى اتفاق بين لندن وبغداد وكتب: «قد يكون من الأسهل على الحكومة البريطانية أن تفسح المجال وتصلح الأمر مع العراقيين عندما يكون لديهم رجل جديد هنا». لكن دوبس تابع قائلاً: «في غضون ذلك، تصرف كلايتون بحماقة من خلال إجراء مقابلة مع صحيفة ريفري قال فيها: ثق بالعرب وسيثقون بك: وستكون سياستي هي عدم التدخل وعدم تقديم المشورة أبداً إلا عندما يُطلب مني ذلك»[62].

عرض فيصل على كلايتون مجموعة جديدة من المقترحات التي كانت ترتكز على التزام بريطانيا بدعم عضوية العراق في عصبة الأمم في عام 1932. وشملت الجوانب الأخرى لاقتراحه التخلي عن معاهدة 1927، وموافقة بريطانيا على عدم معارضة التجنيد الإجباري، والتعهد بتشجيع الاستثمارات البريطانية في الاقتصاد العراقي. دعم كلايتون مبادرة فيصل، وأرسل برقيات داعمة بقوة إلى وزارة الاستعمار. ومع ذلك، استمر آمري في الامتناع عن تقديم مثل هذا الالتزام. ولم تكن الخلافات مع لندن المناخ السياسي السيىء في بغداد لتشجع المرشحين المحتملين لرئاسة الوزراء على قبول تكليفهم. رفض السعدون طلب فيصل لتولي مقاليد الحكم مرة أخرى، وتم رفض نوري السعيد فعلياً من قبل المقيمية بسبب عداء السعدون الشخصي له.

في النهاية عرض فيصل على مضض الوظيفة على توفيق السويدي شقيق ناجي وصديق وحليف السعدون. كان فيصل متخوفاً من عائلة السويدي، وهي عائلة بغدادية عريقة وتتمتع بقاعدة نفوذ متنامية في البلاد. كان والد توفيق رئيساً لمجلس الشيوخ وشقيقه الآن رئيس اللجنة المالية للمجلس[63]. قلة هم الذين اعتقدوا أن حكومة السويدي لن تكون سوى حكومة مؤقتة. كما أنها كانت لا تحظى بشعبية كبيرة. ورأى القوميون في ذلك خيانة للجبهة الموحدة اللازمة لدفع البريطانيين لقبول الاستقلال غير المشروط للعراق. بدأ فيصل في طرح فكرة «حكومة وطنية» تجمع كل الشخصيات السياسية الرئيسة في البلاد، كبديل أفضل من حكومة السويدي. ووفقاً للتوقعات، قدّمت حكومة السويدي، التي عارضها القصر على جميع المستويات، استقالتها في نهاية آب (أغسطس) 1929.

ومع ذلك، كانت الأحداث تتحرك في اتجاه يعِد بتخفيف حدة المواجهة بين فيصل ولندن. عادت الانتخابات العامة البريطانية في أيار (مايو) 1929 لتنتج برلمان معلّق، لكن حزب العمال تمكن من تشكيل حكومة أقلية بدعم من الليبراليين. كان وزير المستعمرات الجديد هو اللورد باسفيلد، سيدني ويب سابقاً، المصلح الاشتراكي الشهير وأحد مؤسسي مدرسة لندن للاقتصاد.

وكرر كلايتون لوزير المستعمرات الجديد وجهات نظره بأن المصالح البريطانية ستُخدم على أفضل وجه إذا كانت هناك تنازلات قادمة من لندن فيما يتعلق بانضمام العراق إلى عصبة الأمم في مقابل تحديد واضح لمصالح بريطانيا في العراق. قد تشكل هذه أساساً لمعاهدة جديدة من شأنها حماية مصالح بريطانيا مع منح فيصل والقوميون ما يريدونه بشدة: الاستقلال والسيادة الكاملين. كما حثّ كلايتون لندن على التحرك بسرعة. كان التصور يتمثل في أن الوضع الهادئ نسبياً الذي كان سائداً في ذلك الوقت في العراق يخفي قلقاً متزايداً من المراوغات البريطانية، وأن الضغوط تتراكم مما قد يؤدي إلى انفجار. وفي رسالة بتاريخ 1 أيلول (سبتمبر) 1929، كتب كلايتون إلى وزير المستعمرات أن الوضع في العراق «يتدهور تدريجياً نتيجة للشك وعدم اليقين بشأن السياسة الحقيقية لحكومة جلالة الملك»[64]، كما طرح مسألة قيام انتفاضة أخرى، مشابهة لتلك التي اندلعت عام 1920، والتي لا يمكن السيطرة عليها إلا بمساعدة الشرطة والجيش العراقيين.

كان لمنشادات كلايتون التي لا تتوقف من أجل استقلال العراق والوضع المتغير في لندن تأثيرها في النهاية. كانت الحكومة البريطانية مستعدة الآن للتخلي عن معاهدة 1927 والتوصية دون قيد أو شرط بدخول العراق إلى عصبة الأمم في عام 1932. تم إرسال برقية مفصلة لهذا الغرض إلى كلايتون في 11 أيلول (سبتمبر) 1929. ومع ذلك، لم يرَ كلايتون أن جهوده تكافأ. انهار كلايتون في اليوم التالي لإرسال وزارة المستعمرات للأخبار السارة، بعد لعبة البولو، ومات فجأة. كان بالكاد يبلغ من العمر أربعٍ وخمسين عاماً. وحضر جنازته في اليوم التالي عدد كبير من المسؤولين والشخصيات العراقية. ودفن في المقبرة البريطانية ببغداد. كان الأمر متروكاً للمفوض السامي بالإنابة، الضابط الجوي القائد روبرت بروك ـ بوبهام، لإبلاغ فيصل بقرارات الحكومة في 14 أيلول (سبتمبر) 1929. كان فيصل سعيداً للغاية. فقد كان هذا تتويجاً لجهد طويل ومتواصل من جانبه لإجبار الحكومة البريطانية للعمل دون قيد أو شرط من أجل استقلال العراق والانضمام إلى عصبة الأمم.

انتحار السعدون

كان فيصل يدرك جيداً أن وعد بريطانيا بدعم انضمام العراق إلى العصبة لا يعني نهاية النفوذ البريطاني في العراق. وهو لم يطالب قط بفك ارتباط البلاد عن بريطانيا بالكامل: لم يكن هذا مرغوباً فيه ولا ممكناً. إن اعتماد العراق على الدعم البريطاني الاقتصادي والعسكري والدبلوماسي لا يمكن الاستغناء عنه، ولكن ما كان ممكناً هو نهاية تدخل المفوض السامي في الشؤون الداخلية للعراق والشعور بأن العراق في ظل الانتداب كان دولة عاجزة عن إدارة

شؤونها الخاصة. ولم يكن فيصل يشاطر وزرائه نفورهم من المستشارين البريطانيين المنتشرين في الحكومة والجيش. فقد أصبح العديد منهم، مثل كورنواليس، من مستشاريه الموثوقين. ومع ذلك، فإن حق النقض والأساليب التسلطية كانت في كثير من الأحيان مزرية. كانت تعبيراً آخر عن وضع العراق المحرج كدولة نصف حرة. منح إعلان الحكومة البريطانية في أيلول (سبتمبر) لفيصل الأساس المتين الأول لبناء طريق العراق نحو الاستقلال، وكان ينوي استغلاله بالكامل.

كان السعدون قد أخذ إجازة طويلة في لبنان في صيف عام 1929. بعد أن أرهقته أعباء المنصب والجدل والغيبة المستمرة داخل الطبقة السياسية العراقية، وكان متردداً في العودة إلى الحياة السياسية. لم يستطع وضعه كسياسي عراقي مفضل لدى المقيمية أن يخفي حقيقة أنه هو نفسه قد غيّر وجهات نظره بشأن الانتداب، ويسعى الآن إلى نقل منظَّم للسلطة غير المقيدة إلى الحكومة العراقية. لقد رحّب السعدون بالتأكيد بالتحول في السياسة البريطانية الذي تجلى في إعلان أيلول (سبتمبر). وعندما عرض عليه فيصل منصب رئيس الوزراء في 19 أيلول (سبتمبر) 1929 وافق، ولكن مع بعض التحفظات. كان متشككاً بشدة في الطبقة السياسية العراقية، وكان سئِماً من الأذى الذي قد يتسببون فيه لحكومته[65].

ومع ذلك، فقد تحسنت علاقاته مع فيصل، وشكّل حكومته الرابعة، مع العلم أن القصر سيكون إما داعماً أو محايداً في تعامله مع حكومته وسياساته. ولم تكن حكومة السعدون هي الائتلاف الوطني الذي سعى إليه فيصل، لكنها ضمت عدداً من السياسيين البارزين والشخصيات القوية، مثل ياسين الهاشمي في وزارة المالية، ونوري السعيد وزيراً للدفاع وناجي شوكت وزيراً للعدل. وبقي عدو السعدون اللدود رشيد عالي خارج الحكومة. كان لمجلس الوزراء أجندة طموحة، حيث لم تكن هناك حكومة فعالة منذ عدة أشهر عندما كان الخلاف بين فيصل ولندن مستمراً. وكان أهم بند بالطبع هو التحضير لمفاوضات مع بريطانيا حول معاهدة من شأنها أن تمهد الطريق لاستقلال العراق.

لكن السعدون كان ينهار ببطء من الداخل. كانت حياته العائلية بائسة، طغت عليها زوجته التركية الشريرة والعصبية. لقد فرضت أسلوب حياة تركي صارم على الأسرة، بما في ذلك استخدام اللغة التركية في المنزل. كان يشرب ويلعب الورق، وكثيراً ما كان يتحدث لأصدقائه المقربين عن استعداده للموت والتلميح إلى الانتحار [66]. كان السعدون ذو جلد رقيق لا يتحمل ضربات الصحافة التي صوّرته على أنه أداة بريطانية وخائن لبلده. كان يرى نفسه وطنياً حتى العظم، وأن سياساته المعتدلة والمتكيّفة ضرورية في ظل تخلف العراق. كانت الهجمات التي شنّتها الصحف بعد تشكيل حكومته الرابعة غير مسبوقة في عنفها. وكان الدعم الذي قدمه حزب الأغلبية [التقدم]، الذي ينتمي إليه، في المجلس لبرنامج حكومته فاتراً. وعندما ألقى فيصل

خطاب العرش بمناسبة تشكيل حكومة السعدون، لم يكن هناك سوى عدد قليل من همهمات الموافقة من نواب الأغلبية الحاكمة. وصلت الأمور إلى ذروتها في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1929. وشهدت جلسة المجلس المضطربة قيام المعارضة بمهاجمة السعدون وسياساته، في حين بدا نواب حزبه، حزب التقدم، مستسلمين من خلال صمتهم عن الدفاع عن زعيمهم. جلس السعدون بعد الظهر لكتابة استقالته. وعندما سمع فيصل بذلك أرسل مساعده صفوت العوا لمناشدته سحب استقالته. ورد السعدون على صفوت: «يا باشا! اذهب وأخبر مولاي أنه إذا أصرّ، فسوف أنتحر»[67].

في اليوم التالي، 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 1929، أقام فيصل حفلة وداع لكيناهان كورنواليس، الذي كان متوجهة إلى إنكلترا لقضاء إجازته. حضر السعدون الحفلة وكان منزعجاً بشدة من آراء كورنواليس بأنه لم يكن هناك تحول جوهري في السياسة البريطانية تجاه العراق. لم يكن من المحتمل أن يقوم كورنواليس عن عمد بتقليل أهمية إعلان 14 أيلول (سبتمبر)، وفي جميع الاحتمالات فإن تعليقاته كانت قد تشوهت عندما مرت في ذهن السعدون المهتاج والمضطرب. عند مغادرته الحفلة، تحدث السعدون مع فيصل عن حديثه مع كورنواليس وقال بشكل قاتم: «كل ما طلبناه من البريطانيين هو مجرد سراب وليس له مضمون في الواقع»[68]. السعدون كان قد قرر الانتحار.

في 13 تشرين الثاني (نوفمبر)، حضر السعدون جلسة عادية لمجلس الوزراء، وفي فترة ما بعد الظهر زار زميلاً مريضاً في مجلس الوزراء في منزله. ثم ذهب إلى ناديه للعب البوكر، حيث التقى بعدد من أنصار حزبه. أزعج سلوكه الغريب والمنعزل أصدقاءه، لكن أحداً لم يشك فيما يدور في ذهنه. ثم عاد السعدون إلى منزله عازماً على الفعل. انسحب إلى مكتبته، وكتب رسالة انتحاره، وانتقل إلى غرفة نومه. شعرت زوجته أن هناك شيئاً غير مريح، واندفعت إلى غرفة النوم لترى زوجها وهو يحمل مسدسه. ركضت نحوه وهي تصرخ «ماذا تفعل؟ إذا كنت تريد قتل شخص ما، اقتلني! قال: اتركيني وشأني وإلا سأقتلك. أمسكتُ بذراعه لكنه حاول التخلص من قبضتي. انتقل إلى الشرفة وأنا ممسكة بذراعه اليسرى، معتقدة أنني منعته من التسبب [بأي أذى]. لكن للأسف، كان مسدسه في جيبه الأيمن وكانت يده ممسكة به بقوة. أُغمي علي، وعندما أستعدت وعيي سمعت صوتاً عالياً لطلقات نارية يتردد على الشرفة. كانت إحدى ساقيه داخل غرفة النوم والأخرى في الشرفة. سقط على الفور»[69]. أطلق النار على قلبه.

أصبحت رسالة انتحار السعدون، المكتوبة بالتركية لابنه علي، الذي كان آنذاك طالباً في برمنغهام، واحدة من أكثر الوثائق إثارة للجدل في التاريخ العراقي الحديث. لقد كانت نتاج روح مكتئبة ومضطربة للغاية.

إلى ابني علي [قرة] عيني والعمود الذي يساندني. سامحني على الجريمة التي ارتكبتها. لأني أشعر بالاشمئزاز من هذه الحياة وقد يأست منها. لم أجد في حياتي أي فرح أو لذة أو شرف. الأمة تنتظر من يخدمها. والإنكليز لا يوافقون. ليس لدي من يدعمني. العراقيون الذين يطالبون بالاستقلال ضعفاء، ولا قوة لديهم، وبعيدون عن الاستقلال. إنهم غير قادرين على قبول النصح من الشرفاء أمثالي، فهم يعتقدون أنني خائن للبلد وعبد للإنكليز. ما أعظم هذه المصيبة! أنا شهيد لبلدي ومخلّص لها. لقد تحملت بصبر كل أنواع الشتائم والإهانات، وفقط من أجل هذه الأرض المباركة حيث عاش أجدادي وأسلافي في رخاء. إن نصيحتي الأخيرة لك يا بني هي: كن عطوفاً مع إخوتك الصغار الذين سيصبحون أيتاماً. احترم والدتك. كن مخلصاً لبلدك. كن مخلصاً تماماً للملك فيصل وورثته. سامحنى يا ولدي علي»[70].

وقد اكتشف الرسالة أول مسؤول كبير وصل إلى منزل السعدون بعد انتحاره، وزير الزراعة عبد العزيز القصاب. وحصلت الصحافة على الرسالة، ونُشرت نسخة محرفة منها بدا أنها تلقي باللوم على البريطانيين في انتحار السعدون. واشتكت «المقيمية البريطانية» بسخط إلى فيصل من الانطباع العام بأن السياسات البريطانية هي التي دفعت السعدون إلى انتحاره. قام فيصل بتصحيح هذا الوضع من خلال ضمان نشر الرسالة الأصلية بالكامل وتقديم نسخ من رسالة انتحار السعدون باللغتين التركية والعربية إلى المقيمية. ومع ذلك، ظل الشعور العام السائد بأن التعنت البريطاني والتعامل المزدوج هو ما دفع السعدون إلى الانتحار. فالسطور من رسالة الانتحار التي تقول «الأمة تنتظر من يخدمها. والإنكليز لا يوافقون» دخلت في قاموس العراق السياسي، بصيغتيها التركية والعربية، اختزالاً للغدر المستبد[71].

جاءت وفاة السعدون في وقت حرج بالنسبة لفيصل. على الرغم من أنه لم يكن صديقاً لفيصل، إلا أن السعدون أصبح قريباً منه سياسياً. ربما كان خروجه من المشهد السياسي قد أزال عقبة أمام صعود فيصل إلى السيطرة السياسية المطلقة، لكنها كانت أيضاً خسارة كبيرة له. كان السعدون يتمتع بالسلطة والمصداقية اللازمتين للإبحار في العملية المشحونة والمملة بلا شك نحو معاهدة جديدة مع بريطانيا بنجاح. وعرض فيصل على ناجي السويدي، الذي كان وزيراً للداخلية في حكومة السعدون، تولي رئاسة الحكومة. أبقى ناجي معظم الموظفين من حكومة السعدون، لكن بدون يد السعدون المعتدلة، اتخذت الحكومة الجديدة موقفاً عدائياً متهوراً تجاه البريطانيين وتجاه مستشاري بريطانيا في الحكومة. لقد ظنّ المتشددون في الحكومة، مثل ياسين الهاشمي، خطأً أن إعلان 14 أيلول (سبتمبر) يعتبر مؤشراً على سلطة بريطانيا المتراجعة في العراق. فقاموا بتأجيج التحريض ضد البريطانيين الذي تم إطلاقه بالفعل من خلال حملة

صحفية شرسة ضدهم، ومن خلال التفسير المشوّه للأسباب الكامنة وراء انتحار السعدون، والذي ألقى اللوم بالكامل على ازدواجية بريطانيا.

في أوقاتٍ سابقة، ربما كان مثل هذا التحريض لصالح فيصل من خلال الإشارة للبريطانيين إلى مدى انزعاج الجمهور من سياساتهم، ومن خلال تقديم وصفاته الخاصة كبديل مناسب. لكن الحملة التي قادها رئيس الوزراء وياسين وصلت إلى مستويات خطيرة من حيث اللهجة والمضمون. وطالب فيصل بإغلاق صحيفتين بسبب هجماتهما الشديدة على البريطانيين والمستشارين[72]. من المؤكد أن قوة بريطانيا لم تتضاءل إلى الحد الذي اعتقده المتشددون، وقد يتعرض الحفاظ على حسن نية المقيمية البريطانية في المفاوضات المقبلة للخطر، بسبب سياسة المواجهة غير الحكيمة. في الوقت نفسه، كان فيصل يرحّب بالمفوض السامي الجديد السير فرانسيس همفريز، الذي كان معروفاً بكونه من المؤيدين لمنح المزيد من السلطة للعراق. أصبح من الواضح بشكل متزايد أن حكومة ناجي السويدي لن تكون قادرة على التفاوض بشأن المعاهدة الحاسمة التي من شأنها أن تمهد طريق العراق نحو الاستقلال. كان ناجي السويدي يواجه أيضاً دعوات لاستقالته من المجلس، مدفوعة جزئياً بالتسوية غير المصرح بها للديون العثمانية من قبل وزير المالية ياسين الهاشمي. رأى ناجي الكتابة على الحائط وقدم استقالته في 9 آذار (مارس) 1930، بعد أربعة أشهر قليلة من تشكيل حكومته.

أصبح لفيصل الآن مطلق الحرية في تعيين رجله ووضع بصمته على المفاوضات من أجل معاهدة أنغلو ـ عراقية جديدة. فاختار نوري السعيد رئيساً جديداً للوزراء.

هوامش الفصل الرابع والعشرون

1 ـ وزارة الخارجية 371/E9/13037 تاريخ 21 كانون الأول (ديسمبر) 1927

2 ـ وزارة الخارجية 371/E2423/13037 تاريخ 25 نيسان (أبريل) 1928. تقرير الاستخبارات رقم 9، ومصالحة، مرجع سابق، ص. 202 والحاشية 16 ـ 18

3 ـ داغر، مرجع سابق، ص. 19، والمرسومي، مرجع سابق، ص. 25 ـ 26

4 ـ الأرشيف الملكي في بغداد، الملف رقم 76، رسالة من جعفر العسكري إلى رستم حيدر بتاريخ 7 أذار (مارس) 1929

5 ـ روفائيل بطي «في ذكرى رستم حيدر» صحيفة البلاد، بغداد 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1956 وتوفيق السويدي، وجوه عراقية عبر التاريخ، لندن 1987، ص. 135 ـ 137

6 ـ في مذكرة حول يوميات حيدر، فقد أجرى الدبلوماسي والمؤرخ نجدت فتحي صفوت مقابلة مع أحد كبار وجهاء العرب السُنّة، محمود صبحي الدفتري حول علمانية حيدر. كان جواب الدفتري «... لم يكن رستم حيدر علمانياً بالمعنى الضيق للكلمة، لكنه لم يفرق بين الناس على أساس الطائفة، وكذلك لم يكن متحيزاً لطائفته... إلا إن رستم حيدر كان مدركاً لضرورة تصحيح الوضع (عيوب الشيعة) بصورة تدريجية... لكن الكثير من الناس اتهموه بالعلمانية فقط لأنه وظّف أو دعم الشيعة...». حيدر، مرجع سابق، ص. 3

7 ـ الأرشيف الملكي، المجلد 1112، مستند 22، ص. 34 والمرسومي، مرجع سابق ص. 35

8 ـ دي غوري، ثلاثة ملوك في بغداد، آي بي توروس، لندن ونيويورك 2008، ص. 38. وصفه دي غوري، الذي كان معجباً جداً بالملك، بأنه «نحيف جداً وعظامه صغيرة وذا أكتاف ضيقة وأصابع ويد ويدين رفيعتين، ووجه طويل إلى حدٍ ما بجمال رائع وعيون عذبة واسعة كبيرة جذابة بشكل لا يقاوم تقريباً».

9 ـ أمين الريحاني، مرجع سابق، ص. 160

10 ـ إرسكين، مرجع سابق، ص. 226

11 ـ طالب مشتاق، أوراق أيامي 1900 ـ 1958 الجزء 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1968، ص. 215 ـ 217

12 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص. 205 ـ 207

13 ـ المرجع نفسه، ص. 226

14 ـ كتب كلٌ من الجواهري والحصري عن هذه الحلقة. ومع ذلك، كانت ذاكرة الحصري انتقائية،

وكانت رواية الجواهري المكتوبة بعد ظهور مذكرات الحصري أكثر وضوحاً في التفاصيل. محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي، الجزء الأول، دار الرافدين، دمشق، 1988، ص 141 ـ 67. أبو خلدون ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، المجلد 1، ص 588 ـ 602. في الواقع، كان الجواهري يحمل الجنسية الإيرانية في ذلك الوقت، لكن هذا لم يكن نادراً على الإطلاق بالنسبة للعديد من العائلات العربية الشيعية التي أصبحت رعايا لفارس لتجنب التجنيد العثماني.

15 ـ محمد مهدي الجواهري، مرجع سابق، ص. 165

16 ـ المرجع نفسه، ص 179 ـ 185

17 ـ المرجع نفسه، ص. 197

18 ـ المرجع نفسه، ص. 198

19 ـ دي غوري، مرجع سابق، ص. 41 ـ 42

20 ـ المرجع نفسه، ص. 211 ـ 213

21 ـ المرجع نفسه، ص. 241 ـ 244

22 ـ المرجع نفسه، ص. 192 ـ 205

23 ـ المرجع نفسه، ص. 233 ـ 240

24 ـ مقتطفات من كتاب طاغور عن رحلته في العراق وإيران، تعريب: حسين عبد الزهراء ماجد، 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 2010، «عندما زارنا طاغور العظيم».

25 ـ غازي دحام فهد المرسومي، مرجع سابق، ص. 99 ـ 112

26 ـ استخدم فيصل رفائيل الحكيم، تاجر عراقي مقيم في لندن، لتسويق القطن. يقوم الوكيل بإيداع عائدات المبيعات في حساب فيصل في البنك العثماني في لندن. وفي إحدى القضايا التي اعترض فيها الوكيل على مبالغ البيع، أحال فيصل النزاع إلى التحكيم الذي جرى لصالحه. الأرشيف الملكي، الملف 271، الوثيقة 13، ص. 22. أيضاً المرسومي، مرجع سابق، ص. 13.

27 ـ المرجع نفسه، ص. 118 ـ 127

28 ـ صحيفة صوت العراق، 22 أيار (مايو) 1930. أيضاً غازي دحام فهد المرسومي، مرجع سابق، ص. 127

29 ـ علي جودت الأيوبي، مرجع سابق، ص. 209

30 ـ الأرشيف الملكي، الملف 74، الموارد السرية، الوثيقة 1 ـ 3

31 ـ الأرشيف الملكي، الملف 43، ميزانية القصر، الوثيقة 8، الميزانية رقم 3 لعام 1933 ص. 15 ـ 16. وأيضاً غازي دحام فهد المرسومي، مرجع سابق، ص. 158

32 ـ الأرشيف الملكي، الملف 77، الوثيقة 68، ص. 89 ـ 90. والمرسومي، مرجع سابق، ص. 98

33 ـ أحمد شوقي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت 2008، المجلد 2، ص. 70

34 ـ المملكة العراقية، مديرية الإعلام، فيصل في خطبه...، مرجع سابق، ص. 318 ـ 319

35 ـ دي غوري، مرجع سابق، ص. 62 ـ 63

36 ـ أمين الريحاني، مرجع سابق، ص. 213

37 ـ المرجع نفسه، ص. 214

38 ـ الأرشيف الملكي، الملف 1224، الوثيقة 13، تاريخ 17 أيار (مايو) 1924

39 ـ عباس بغدادي، لئلا ننسى: بغداد في العشرينات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999، ص. 36 ـ 37. استبدل فيصل فيما بعد سائقه الهندي بسائق عراقي من سامراء.

40 ـ غازي دحام فهد المرسومي، مرجع سابق، ص. 169

41 ـ المرجع نفسه، ص. 173، الحاشية 4

42 ـ المرجع نفسه، ص. 177 ـ 179

43 ـ الأرشيف الملكي، الملف 121، الوثيقة 16، تاريخ 19 نيسان (أبريل) 1921، رسالة من محرري الأهرام إلى الأمير فيصل

44 ـ المرسومي، مرجع سابق، ص. 190 ـ 194

45 ـ المرجع نفسه، ص. 197

46 ـ صحيفة العراق، 6 شباط (فبراير) 1924

47 ـ المملكة العراقية، مديرية الاعلام، فيصل في خطبه...، مرجع سابق، ص. 296

48 ـ استخدم ألدوس هكسلي ألفريد موند كأساس لشخصيته المركبة مصطفى موند، المراقب العالمي المقيم لأوروبا الغربية، في روايته الديستوبية (عالم جديد شجاع).

49 ـ دي غوري، مرجع سابق، ص. 51

50 ـ حسين جميل، مرجع سابق، ص. 206

51 ـ سلاغليت، مرجع سابق، ص. 110 ـ 268؛ مايكل إيبل، النخبة والأفندية ونمو الوطنية

والعروبة الشاملة في العراق الهاشمي، 1921 ـ 1958. المجلة العالمية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 30، رقم 2، أيار (مايو) 1998 ص. 234

52 ـ وزارة الخارجية 371/E5169/13035، تاريخ 25 تشرين الأول (أكتوبر) 1928. من مكتب المستعمرات إلى المفوض السامي، بغداد

53 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1928، بإذن من آن وهنري ويلكس

54 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1928، بإذن من آن وهنري ويلكس

55 ـ فيليب أيرلند، مرجع سابق، ص. 368 ـ 369

56 ـ بيتر سلفليت، مرجع سابق، ص. 112

57 ـ وزارة الخارجية 371/E1131/13757 تاريخ 29 كانون الثاني (يناير) 1929. مذكرة دوبس حول المحادثات مع السعدون

58 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 29 كانون الاول (ديسمبر) 1928، بإذن من آن وهنري ويلكس

59 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 20 تشرين الأول(أكتوبر) 1928، بإذن من آن وهنري ويلكس

60 ـ نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 216

61 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 26 كانون الثاني(يناير) 1929، بإذن من آن وهنري ويلكس

62 ـ أوراق لم تنشر للسير هنري دوبس. رسالة 29 كانون الأول (ديسمبر) 1928، بإذن من آن وهنري ويلكس

63 ـ القائم بالأعمال الأمريكي في بغداد، 1 نيسان (أبريل) 1930، رسالة عاجلة رقم 128/50/g890؛ ونور مصالحة، مرجع سابق، ص. 221 ـ 222

64 ـ مكتب المستعمرات 730/148/68403/4؛ من المفوض السامي في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات 1 أيلول 1929

65 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 2، ص. 233 ـ 265

66 ـ لطفي جعفر فرج، مرجع سابق، ص. 340 ـ 348

67 ـ المرجع نفسه، ص. 348 ـ 351

68 ـ عبد العزيز القصّاب، مرجع سابق، ص. 281 ـ 282. ولم يتمكن القصّاب الذي كان وزيراً للزراعة في حكومة السعدون الاخيرة من حضور الحفلة بسبب الانفلونزا. وفي اليوم التالي، زاره السعدون في المساء للاستفسار عن حالته الصحية وأبلغه بما حدث في القصر في الليلة السابقة مع كورنواليس. خرج السعدون من منزله في هياج شديد قائلاً انه ذاهب إلى ناديه.

69 ـ لطفي جعفر فرج عبد الله، مرجع سابق، ص. 352 ـ 356. قال القصّاب، الذي كان أول مسؤول كبير هرع إلى منزل السعدون بعد انتحاره، إن جثة السعدون كانت ملقاة على سريره. ربما قامت زوجة السعدون بتجميل قصتها لإظهار ولائها الزوجي.

70 ـ لطفي جعفر فرج، مرجع سابق، ص. 375. كذلك قتل علي السعدون نفسه في وقت لاحق.

71 ـ قبل تسليم المذكرة إلى محرر صحيفة موثوق بها، تأكد القصّاب من أن وزراء الحكومة الآخرين الذين تجمعوا في منزل السعدون بعد انتحاره سيوقعون عليها لتأكيد صحتها. أعاد المحرر المذكرة إلى القصّاب، وأعطاها القصّاب لزوجة السعدون. بطريقةٍ ما، انتهت المذكرة بحيازة توفيق السويدي، وضاعت بعد نهب مكتبته ومكاتبه الخاصة في أعقاب ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 في العراق. كانت زوجة توفيق السويدي ابنة أخت السعدون.

72 ـ وزارة الخارجية 371/E6709/13760 تقرير الاستخبارات، 9 كانون الأول (ديسمبر) 1929، رقم 25، أيضاً نور مصالحة، مرجع سابق، ص 231 ـ 232.

الفصل الخامس والعشرون: الاستقلال أخيراً

فتح إعلان 14 أيلول (سبتمبر) أمام فيصل الطريق نحو الاستقلال وتأمين سلطته في العراق. لقد دفع بقوة لتعيين رئيس الوزراء لم يصبح فقط أهم داعم له، بل كان أيضاً شخصية هائلة في حد ذاته. كان نوري مصمماً بالقدره على التفاوض بشأن المعاهدة ذات الأهمية القصوى مع بريطانيا في أقرب وقت ممكن، وكان مستعداً لاستخدام القوة ضد كافة أشكال المعارضة المحلية إذا لزم الأمر. كان كل من فيصل ونوري الآن متشككين فيما إذا كانت الديمقراطية البرلمانية التي يهيمن عليها مجموعة من المشاكسين السياسيين المنقسمين يمكن أن توفر الدعامة لتوطيد العراق وتنميته. وكانا مستعدين للعمل ضمن أشكال النظام البرلماني التي دعا إليها الدستور، لكن خلافات السياسيين حول مزايا السلطة جعلت كل اقتراح أو مبادرة أو قرار اختباراً مطولاً للإرادات. أما المعارضة القومية، التي ادعت الدفاع عن الأهداف السياسية الفاضلة للديمقراطية الدستورية والاستقلال المطلق، كثيراً ما فقدت قادتها الرئيسيين لصالح فيصل بعد أن كان يغريهم بالمناصب. رآهم فيصل على حقيقتهم، وحافظ دائماً على الحد الأدنى من علاقة العمل معهم، في الوقت الذي كان فيه بحاجة إلى أحد قادتهم لتشكيل حكومة جديدة. كانت البراغماتية والمرونة كلمات سره، لكن فيصل أيضاً كان ينتهز الفرص عندما تلوح بالأفق. كانت المعاهدة الجديدة التي ستُبنى على إعلان 14 أيلول (سبتمبر) مجرد فرصة للسماح له بالهروب من قيود نظام الانتداب.

كان فيصل مراقباً وثيقاً للتطورات في البلدان المجاورة وفي أوروبا. وكان هناك نموذج جديد للحكم يتطور في جميع أنحاء المنطقة وفي أوروبا. لقد تخلص هذا النموذج من مظاهر الحكم الدستوري، وبدا في ذلك الوقت أنها طريقة أفضل لتنظيم المجتمعات المتخلفة وتطويرها. شاهد بسحر تطور الأنظمة القومية والاستبدادية في كل من تركيا وإيران. كان مصطفى كمال قد فرض بوحشية برنامج تحديث جذري على بلاده في فترة قصيرة جداً من خلال إجراءات شديدة القسوة كانت ضد جميع بقايا المجتمع والسلطة التقليدية. وفي إيران، كان رضا بهلوي، شاه إيران، يتبع مساراً مشابهاً، لكن في مجتمع مختلف تماماً عن مجتمع تركيا وبديناميكيات مختلفة. أبعد من ذلك، كان فيصل مفتوناً أيضاً بتجربة موسوليني في إيطاليا الفاشية. كل هذه التجارب العظيمة في الهندسة الاجتماعية كانت لها جاذبيتها عند النظر إليها من بعيد. لقد وعدوا بمسار سريع

ومؤكد للخروج من التخلف والتبعية، ووعدوا بحكومة فعالة وكفؤة غير مثقلة بمجموعة من السياسيين الذين يخدمون مصالحهم الذاتية والصحافة القوية والفاسدة.

في صيف عام 1930، كان فيصل قد زار روما ورأى المعالم الكبرى والمجمعات السكنية والمباني الحكومية والأعمال الهندسية التي تفخر بها حكومة موسوليني. ومن الواضح أن فيصل أُعجب بما رآه. وخلال الزيارة، استضاف موسوليني فيصل في مأدبة عشاء رسمية. دعا موسوليني خلال المأدبة، النحات الإيطالي الشهير بيترو كانونيكا، صديق وزير الخارجية الإيطالي دينو غراندي، وأجلسه بالقرب من فيصل. كان موسوليني قد أطلق حملة ثقافية في الشرق لتسليط الضوء على إنجازات ووعود إيطاليا الفاشية على عكس القوى الاستعمارية المحتضرة لبريطانيا وفرنسا. كانت منحوتات كانونيكا المهيبة عنصراً مهماً في هذه الإستراتيجية. فخلال العشاء، نقل كانونيكا الحديث إلى أعماله النحتية وأعلن، بموافقة موسوليني الواضحة، أنه يريد تزيين بغداد بأحد تماثيله. سيكون موضوعها الملك فيصل نفسه. وافق فيصل على اقتراح كانونيكا. ووصل النحات إلى بغداد في وقت لاحق من ذلك العام قادماً من أنقرة، حيث كان يعمل على صنع تمثال رخامي بطولي لمصطفى كمال، ليبدأ في صنع تمثاله الشهير فيصل وهو يمتطي الحصان[1].

كتب القائم بالأعمال الأمريكي في بغداد، ألكسندر سلون، وهو مراقب ماهر للمشهد السياسي العراقي، عن التغير في وجهات نظر فيصل. «لقد كان واضحاً منذ بعض الوقت أن الملك فيصل يعتقد أنه بمساعدة مجموعة صغيرة من الرجال البارزين، يمكنه أن يحكم العراق دون الكثير من الضرورة لأخذ الرأي العام بالاعتبار، المؤشرات تتزايد على أنه يستعد لذلك. الزيادة الأخيرة في قوات الجيش والشرطة هي إحدى المؤشرات على خططه. إنه يؤيد التجنيد الإجباري وقد يفرضه في أسرع وقت»[2]. وفي برقية سابقة إلى واشنطن، صرّح القائم بالأعمال صراحة أن فيصل أصبح معجباً بموسوليني. من الواضح تماماً أن فيصل بدأ في بتقليد موسوليني الذي التقى به في رحلته والذي أعجب بسياساته[3]. وقد تحدثت المقيمية، التي تتمتع بقدرة أفضل بكثير لتحليل آراء وسياسات فيصل والتعليق عليها، أيضاً عن رغبة فيصل ونوري في إقامة «استبداد في القصر». «هناك نوري باشا الباحث ربما عن نموذج مشابه لموسوليني ومصطفى كمال، وقد عقد العزم مع الملك فيصل على إقامة حكومة استبدادية في بغداد»[4]. لكنهم كانوا يعرفون أيضاً أن فيصل لم يكن لديه الصفات أو الرغبة في فرض أفكاره بالقوة، وقد تم تعديل تقييمهم لميول فيصل الاستبدادية بمعرفة طبيعته التصالحية بشكل أساسي.

كان اعتدال فيصل يُضرب به المثل، وكانت غرائزه تميل بشكل طبيعي تجاه الوسطية. ذات مرة، زاره صديقه الكاتب والمؤرخ اللبناني أمين الريحاني، حيث كان يقف أمام النحات كانونيكا. جذب الريحاني فيصل إلى محادثة حول الهوية والتحديث. فسأله فيصل: «هل يمكننا الحفاظ

على ثقافتنا يا أمين، وها نحن منغمسون في ثقافة الأوروبيين؟ وهل من الصواب أن ننדد بثقافتنا الوطنية ونتخذ كل سمات وثقافة الغرب؟» وكان سؤالاً بلاغياً، وردّ عليه الريحاني باستفزاز: «الخيار هو بين الرجعية الدينية وسياسة الصدمة لمصطفى كمال». وردّ فيصل:

لا رجال الدين ولا مصطفى كمال في رأيي. مدارسنا الدينية قديمة وقاحلة. إنها مدارس رجال دين ولرجال دين، وتستمر في الدوران في دوائر كما تفعل عمائم العلماء. لكننا ما زلنا نحتاجهم. إذا تخلينا عنها اليوم وعلّمنا أطفالنا العلوم الطبيعية فقط فسوف يتحولون إلى الإلحاد والمادية. يتعلم الطفل اليهودي أو المسيحي إيمانه في المنزل من قبل والدته التي تؤثر على إيمان الطفل بالله. لكن الأطفال المسلمين لا يتعلمون شيئاً في المنزل. أمهاتهم جاهلات. آباؤهم في العمل ومعظمهم من الأميين. فيأتي الطفل إلى مدرسة المسجد بعقل فارغ يملأه الإمام بالمعرفة الدينية السطحية ولكن أعدك بأننا سنصلح مدارسنا الدينية وسنشكّل كادراً من رجال الدين المطلعين بإذن الله. سيتعلم الطلاب أصول دينهم لكنهم سينغمسون في الروح العلمية للعصر. بهذه الطريقة سيكون لدينا طبقة من رجال الدين ذوي عقلية حديثة ويمكننا بعد ذلك الاستغناء عن تدريس الدين في المدارس الحكومية[5].

رفض فيصل حلّ مصطفى كمال، المتمثل في إغلاق المدارس الدينية وإجبار سكان الريف والتقليديين على اتباع الحداثة بالقوة.

ومع ذلك، أطلق تجربته مع حكومة شبه استبدادية. ولم يكن على استعداد للسماح للمعارضة الداخلية المزعجة بإفشال المفاوضات بشأن المعاهدة الحيوية الجديدة مع بريطانيا.

المعاهدة الإنكليزية العراقية لعام 1930 وتبعاتها

شكّل نوري حكومته في 23 آذار (مارس) 1930. وقد ضمّت الحكومة التي اختارها فيصل بنفسه، باستثناء الوزير الشيعي عبد الحسين الجلبي[*]، من ضباط شريفيين سابقين خدموا مع فيصل في الثورة العربية أو في سوريا. وتم استبعاد ياسين الهاشمي بشكل قاطع. كانت مؤهلات نوري السياسية من الدرجة التي لا يمكن اتهامه بالوقوع تحت التأثير أو التوجيه البريطاني. في الوقت نفسه، كانت مصداقيته لدى المقيمية عالية بما يكفي لضمان رضا المقيمية أيضاً عن تشكيلة حكومته. كان هناك أيضاً المندوب السامي الجديد السير فرانسيس همفريز، الذي نظر بشكل إيجابي إلى حكومة نوري. كان همفريز لاعب كريكيت معروف في شبابه، وكان نتاجاً للطريق المألوف الذي يبدأ من المدرسة العامة إلى أكسفورد إلى الجيش الهندي ثم إلى

(*) وزير المعارف أو«التربية» كما يعبرِّ عنها المؤلف. (المُراجع).

الخدمة السياسية في الهند وأفغانستان. وكان عازماً على إقامة علاقة عمل جيدة مع فيصل. كان أسلوب همفريز لطيفاً وكان يمتلك عقلاً تحليلياً ثاقباً. كان همفريز مدركاً لضرورة أن تعدل بريطانيا سياساتها الإمبريالية في عالم الثلاثينيات المتغير ومع صعود الحركات القومية. كما أقنعته تجاربه في أفغانستان، حيث شهد التمرد ضد الملك الإصلاحي أمان الله، بضرورة الاعتدال عند السعي للتغيير. وقد عكس ذلك في نهجه التوافقي وغير التصادمي في المفاوضات المتعلقة بالمعاهدة[6].

سرعان ما فتح فيصل ونوري مفاوضات مع البريطانيين. لقد كانت عملية خاضعة لرقابة مشددة مع القليل من المشاورات مع القادة السياسيين الآخرين. وفي غضون ثلاثة أشهر، تم إرسال مسودة المعاهدة الجديدة إلى لندن لوضع الصياغة القانونية النهائية. منحت المعاهدة فيصل معظم ما كان يريده: اعتراف بريطانيا باستقلال العراق الكامل. مسؤولية العراق في الحفاظ على النظام في الداخل والدفاع ضد التهديدات الخارجية. وانسحاب القوات البريطانية من العراق باستثناء قاعدتين جويتين متبقيتين ستُمنحان وضعاً خاصاً. ومع ذلك، سيكون العراق ملزماً بمعاهدة تحالف مدتها خمساً وعشرين عاماً مع بريطانيا، وسيُمنح السفير البريطاني في بغداد مكانة أعلى من سفراء الدول الأخرى. كما سيعمل العراق على منح الأفضلية لتوظيف مستشارين بريطانيين على المستشارين من دول أخرى. ووافق البريطانيون على تزويد الجيش العراقي بالمعدات والتدريب. نُشر نص المعاهدة في لندن في 18 تموز (يوليو)، وفي اليوم التالي نُشرت في صحف بغداد.

كانت المعاهدة مثالاً آخر على استراتيجية فيصل للاستفادة القصوى مما كان معروضاً وتأجيل القضايا الخلافية إلى أوقات لاحقة. لم يكن هناك شك في أن السلطة المتبقية لبريطانيا في العراق ومكانتها التفضيلية ستقض مضجع القوميين في بغداد. إلا أن سياسته المتمثلة في تقويض امتيازات القوة الإمبريالية قد آتت ثمارها. كان العراق في وضع أفضل بما لا يقاس من حيث درجة استقلاله السياسي مقارنة بالدول العربية الأخرى التي كانت تحت حكم الانتداب الفرنسي أو تلك التي كانت مستعمرات مباشرة. كان فيصل يؤمن بصدق بأن المعاهدة الإنكليزية ـ العراقية لعام 1930 واستقلال العراق الذي نتج عنها سيشكلان حافزاً قوياً للدول العربية الأخرى التي تحاول الخروج من نظام الانتداب والتبعية الاستعمارية، وأثبتت الوقائع أنه كان محقاً. كان الاتجاه السائد في الدول العربية الأخرى، وخاصة في بلاد الشام، هو مقارنة التقدم السياسي في العراق بشكل إيجابي مع متاعب تلك البلدان التي لا تزال تحت الحكم الفرنسي. وفي اعماق عقله كان فيصل بانتظار أن تلوح في الأفق الفرصة التي ستتاح للعراق ليأخذ زمام المبادرة في جرّ هذه الدول إلى الاتحاد العربي الكبير الذي وعدت به الثورة العربية. في الوقت نفسه،

كان فيصل مدركاً لضرورة التزام بريطانيا بالتنمية الاقتصادية للعراق وجاهزيته العسكرية. ومن المؤكد انه لم يكن معارضاً لإبقاء التحالف مع بريطانيا كحجر الزاوية فى السياسة الخارجية للعراق. كان إغراء تغيير التحالفات، على سبيل المثال تجاه إيطاليا الفاشية، عابراً، ولم يفكر فيصل بجدية بفكّ الارتباط مع بريطانيا لصالح قوة لم يجربها مثل إيطاليا.

لكن القوميين المتشددين في بغداد رفضوا هذه النظرة المتفائلة للمعاهدة وصعدوا من تحريضهم عليها[7]. كما انضم الأكراد، الذين انزعجوا من عدم وجود أي ذكر لظروف كردستان الخاصة في المعاهدة، إلى التحالف المناهض للمعاهدة. علاوة على ذلك، لا يمكن ضمان ولاء النواب في المجلس، الذين يدين بعضهم بالولاء لأعداء نوري السياسيين، للأغلبية المؤيدة للمعاهدة الجديدة. وبالتالي، كان من الضروري انتخاب برلمان جديد، بأغلبية مؤيدة للمعاهدة، في حال تمت المصادقة على برنامج فيصل. وقبل مغادرته إلى أوروبا في حزيران (يونيو) 1930، أمر فيصل علي، الوصي أثناء غيابه، بحلّ المجلس والدعوة إلى انتخابات جديدة. بدأ نوري العمل على ضمان حصول الحكومة على أغلبية لا جدال فيها. ولدى عودته إلى بغداد في 1 تشرين الأول (أكتوبر) 1930، بعد زيارة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، وافق فيصل على قائمة نوري للمرشحين الموالين للحكومة للانتخابات.

أدار نوري السعيد انتخابات 1930 بإحكام، ولم يترك شيئاً للصدفة. حيث تولّى منصب وزير الداخلية بالوكالة للإشراف على الانتخابات بشكل مباشر. وتعرضت المعارضة للمضايقة، وتعرّض رؤساء تحرير الصحف للتهديد، وتم مراقبة المعارضين المحتملين. كما تم استغلال قوانين الأراضي بحرية لرشوة الشيوخ الملتزمين بقطع أراضي للدولة، أو بدلاً من ذلك للتهديد بسحب منح الأراضي للمتمردين. فشلت محاولة مقاطعة الانتخابات، التي قادها الزعيم الشيعي ورئيس حزب الوطني المعارض، جعفر أبو التمن. وكان معاونوه في الحزب مصممين على المشاركة، وذلك من أجل مصلحتهم الشخصية بشكل أساسي. كان العديد منهم يفضلون أن يكونوا نواباً داخل البرلمان، وإن اضطروا للقيام بتسويات، بدلاً من البقاء خارجه الجلوس في الخارج بلا حول ولا قوة. ورفض مجتهدو النجف محاولة أبو التمن حشد دعمهم للمقاطعة. فلم يكن من مصلحتهم الدخول في الصراعات السياسية للساسة القوميين. فالدولة الوحيدة التي تهمهم والتي يمكنها تأمين مصالحهم هي دولة إسلامية، وكان من الصعب على العراق السير في هذا الاتجاه[8]. كتب أبو التمن إلى فيصل، يائساً، يشكو من تدخل الحكومة في الانتخابات ويطالب فيصل بحماية الدستور من خلال وقف تدخل نوري السافر في العملية الانتخابية. وكان رد فيصل قاطعاً. فالانتخابات كانت قانونية، والمشاكل كلها سببها أولئك الذين كانوا يسعون لتعطيلها. فقد كان يريد ويحتاج إلى برلمان مطيع. أُجريت الانتخابات في 20 تشرين الأول (أكتوبر)، وأسفرت

عن مجلس تمتعت فيه الحكومة بأغلبية ساحقة. تم انتخاب عدد قليل فقط من قادة المعارضة، مثل ياسين الهاشمي ورشيد عالي، بفارق ضئيل من الأصوات. في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1930، صوّت المجلس الجديد بأغلبيته المؤيدة للحكومة بشدة لصالح المعاهدة بهامش كبير.

ومع ذلك، كانت التيار المناهض للمعاهدة واسع النطاق. ومن المحتمل أنه لولا التدخل الوقح للحكومة في العملية الانتخابية، لما كان فيصل ونوري قادرين على إدارة المجلس الجديد، وكان من الصعب التصديق على المعاهدة. في الوقت نفسه، كانت الخيارات أمام فيصل محدودة. ولا يمكن إنهاء الانتداب من جانب واحد. وتطلبت المشاركة النشطة والاتفاق مع بريطانيا. لم يكن هناك «رأي دولي» يمكن لفيصل أن يطعن فيه في حالة عدم قبول بريطانيا للمفاوضات. كانت عصبة الأمم بالفعل تحت سيطرة القوى الاستعمارية الأوروبية، وفي حال حدوث أي شيء، فسوف تنحاز نحو الإبقاء على الانتداب. فقد كانت هناك مخاوف بشأن مستقبل الأقليات في ظل عراق مستقل. أرسل جعفر أبو التمن رسالة طويلة إلى عصبة الأمم احتجاجاً على شروط معاهدة 1930 والعملية الانتخابية، لكنه قوبل بلامبالاة باردة. عرف فيصل أيضاً أن القليل من قادة المعارضة كانوا في الواقع مدفوعين أساساً باعتبارات قومية. وكان الكثير منهم قد حولوا ولاءاتهم من المعارضة إلى الحكومة، كلما سنحت لهم فرصة تولي منصب حكومي رسمي. كان هناك قلة نادرة من الأشخاص من أمثال جعفر أبو التمن، الذي كان ملتزماً بنهج لا يقبل بأقل من القطع الكامل لـ «العلاقة الخاصة» مع بريطانيا. لقد عارض النفوذ البريطاني من البداية إلى النهاية، وكان يريد حقاً أن يرى حكومة عراقية قومية عربية / إسلامية. وغالباً ما أساء حلفاؤه السابقون استخدام وطنيته الصادقة، وغالباً ما كانوا يتخلون عنه عندما تتحقق مصالحهم[9]. عارض الشيعة العاديون في العراق معاهدة 1930 إلى حدٍ كبير، لأنهم كانوا يخشون أن تكون مقدمة للتجنيد الشامل، بينما كان الأكراد يخشون أن الاستقلال يعني أنهم سيخضعون لدولة قومية عربية مركزية بشكل صارخ. وقد أدت مظاهرة كبيرة مناهضة للمعاهدة في السليمانية في تشرين الأول (أكتوبر) 1930 إلى مقتل عدد من المتظاهرين[10].

لم يكن ميل فيصل إلى الاستبداد، الذي لاحظه الكثيرون بعد عودته من رحلته الأوروبية، نزعة شخصية. بل كانت بالأحرى رغبة في السيطرة على عملية التفاوض التي كانت نتيجتها ذات أهمية أساسية لمستقبل العراق. فإذا نجحت المعارضة، فستكون مفاوضات المعاهدة في مأزق لأنه من المؤكد أن البريطانيين سيرفضون التنازل الكامل عن مكانتهم وامتيازاتهم في البلاد. وسيكون المسرح مهيأً لمواجهة طويلة ومريرة مع بريطانيا، وقد تكون مصحوبة بعنف كبير. كان البديل مقبولاً أكثر ولكنه محفوف بالمخاطر أيضاً. فممارسة القمع على معارضة منقسمة يحمل معه مخاطره الخاصة. فقد يدفع المجموعات المتباينة التي تشكل المعارضة إلى تشكيل جبهة

مشتركة من شأنها أن تتحدى الحكومة في البرلمان والصحافة والشوارع. كانت مخاطر انقسام الآراء كبيرة وقد تسمم الحياة السياسية للبلاد لسنوات قادمة. في الوقت نفسه، لم يكن فيصل قادراً على تقديم السخاء المعتاد لإقناع قادة المعارضة أو رشوتهم للإذعان لسياساته. كان العراق والعالم يمرون بأزمة اقتصادية خطيرة(*) أثّرت بشكل خطير على المالية العامة للعراق.

وبينما كان فيصل يتحكم بشدة في تفاصيل المفاوضات، ترك نوري كواجهة عامة للمفاوضين العراقيين. وقد منحه ذلك مصداقية مستمرة، ومساحة للمناورة مع المعارضة عندما بدأ رد الفعل المحتوم. لكن فيصل لم يترك مجالاً للشك في أن المعاهدة كانت صفقة جيدة للعراق. وقال فيصل في كلمة ألقاها أمام ممثلين عن الالوية في تشرين الأول (أكتوبر) 1931: «أود أن أكرر لكم أن العراق بلد حر ومستقل لا سيّد عليه إلا إرادته. وليس لحليفتنا بريطانيا أي مطالب سوى طريق جوي. نعم بالفعل، ليس لبريطانيا أي مطالب أخرى منا، وفيما عدا ذلك نحن أحرار ومستقلون، وأطلب من الصحفيين من بينكم أن يعلنوا هذا بأحرف كبيرة، اذهب إلى أصدقائك وانقلوا لهم ما قلته ولا تخدعوا أنفسكم أو تخدعوا الشعب. أنا وبلادي أحرار. ليس لدينا شركاء في مشروعنا، وعندما ندخل عصبة الأمم فلا أحد يستطيع أن يفرض شيء علينا إلا الله»[11].

ومع ذلك، فإن ما اعتبره فيصل إنجازه الكبير جاء في أصعب الأوقات، حيث كان اقتصاد البلاد في حالة يرثى لها. فقد تراجع إنتاج الحبوب في العراق وانهارت أسعار السلع العالمية. وامتدت الاضطرابات إلى المناطق الريفية، وكان رجال القبائل منشغلين في تسليح أنفسهم. ولأول مرة، لم يقتصر الهجوم على حكومته فحسب، بل تعرض فيصل نفسه للهجوم الشخصي. تغاضى جعفر أبو التمن عن كراهيته العميقة لياسين الهاشمي، وعمل على توحيد حزبه، الحزب الوطني وحزب ياسين الهاشمي، حزب الإخاء، اللذان يُعتبران حزبا المعارضة الرئيسيان، في تجمع جديد. شكّل الحزبان تحالفاً مشتركاً في آذار (مارس) 1931هو الإخاء الوطني لمعارضة فالحكومة. وكانا عازمين على إسقاط الحكومة. استقال كل من ياسين الهاشمي ورشيد عالي من المجلس، مما فرض ضغوطاً أكبر على الحكومة.

كما تصاعدت الاضطرابات في وادي الفرات الأوسط. ونظراً لعدم تمكنه من معالجة الأسباب العميقة الكامنة وراء مظالم الشيعة، فقد سعى فيصل إلى تهدئة الهياج من خلال القيام بجولة شخصية في المدن الرئيسة في المنطقة. وفي 13 نيسان (أبريل) 1931 زار فيصل مدن الحلة والنجف وكربلاء برفقة شخصيتين شيعيتين هما السيد محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان الحالي

(*) شهد العالم أجمع ما يُعرف بـالكساد العظيم أو الأزمة الإقتصادية الكبرى (1929 ـ 1933)، حيث دفع التراجع الاقتصادي وانهيار السوق، بالتجارة العالمية للهبوط إلى ثلث مستواها مقارنة بالمدة السابقة. (المُراجع).

وعبد الحسين الجلبي أحد الوزيرين الشيعيين في مجلس الوزراء. لكن الرحلة لم تكلل بالنجاح. وخرجت مظاهرات في جميع البلدات التي زاروها تندد بسياسات حكومة نوري وقيودها على النشاط السياسي وحرية الصحافة. وفي الحلة، تلقى فيصل التماساً من المتظاهرين يطالبون فيه بالتعويض عن حملات القمع ويطلبون من فيصل سحب دعمه للمعاهدة. أما في النجف، فقد اقتحم المجتهد البارز، السيد باقر الحلي(*)، مجلس فيصل، وأدلى ببيان بخصوص مطالب الشيعة، وغادر فجأة دون سماع رد فيصل[12]. كانت سلطة فيصل ومكانته في الجنوب تنهار. وكان الحلّ الذي قدمه لتهدئة الشيعة هو تعيين أول حاكم شيعي على الإطلاق لإحدى الألوية، لكن كان هذا العرض ضئيلاً للغاية، بحيث لا يكون له أي تأثير خطير على حالة الاغتراب الخطيرة التي يعاني منها الشيعة. وفي تقرير عن الرحلة الفاشلة، علّق القائم بالأعمال الأمريكي على حالة السخط بين الشيعة: «ظهرت علامات الاضطرابات بين المجتمعات الشيعية على طول نهر الفرات الأدنى منذ بعض الوقت. في الواقع، لم يتصالح هؤلاء الشيعة تماماً مع حقيقة أنه خلال السنوات العشر الماضية كانت هناك حكومة في البلاد تمارس قدراً معيناً من الإشراف عليهم، كما أنهم غير راضين عن حقيقة أن الأعضاء العرب في الحكومة هم من المسلمين السُنَّة»[13].

الإضراب العام عام 1931

انطلقت الاضطرابات الاجتماعية مع تمرير ضريبة البلدية التي بدا أنها تؤثر على صغار التجار والحرفيين بشكل مفرط. وعلى الرغم من مناقشة الضريبة لبعض الوقت كوسيلة لتعزيز الميزانية العراقية التي تعاني من نقص مزمن في التمويل، إلا أن تمريرها إلى قانون في 2 حزيران (يونيو) 1931 أتاح الفرصة للمعارضة لاستغلال حالة السخط بين التجار. في 4 تموز (يوليو)، غادر فيصل برفقة نوري السعيد في زيارة دولة لتركيا، تلتها إجازته المعتادة للراحة والاستجمام في أوروبا. كما كان يخطط لاستطلاع عصبة الأمم لتحديد موعد محدد لدخول العراق إلى عصبة الأمم. وفي اليوم التالي تم تنظيم إضراب عام في بغداد. وقد قامت بتنظيمه نقابة التجار في بغداد وحظي باهتمام واسع. وأصبحت بغداد مدينة أشباح. حيث تم إغلاق جميع المتاجر والأسواق. كان على الناس في المدينة أن يتدافعوا للحصول على الطعام والضروريات الأخرى. كما شمل الإضراب جميع المرافق مثل الفنادق والمطاعم ودور السينما والنوادي وحتى الحانات تحت الأرض. واستمر لمدة اثني عشر يوماً، وانتشر إلى جميع المدن الرئيسة في العراق تقريباً، بما في ذلك البصرة، التي لطالما اشتهرت بهدوئها[14].

(*) محمد باقر الحلي (1894م ـ 1971م) أخذ علومه الدينية في النجف الأشرف، لكن غلبت عليه صفة الأدب والشعر، كان عضواً في مجلس الامة عن الحلة، وفي حزب الإخاء، ومعروفاً بعدائه للبريطانيين. (المُراجع).

اتخذت حكومة نوري بعض الاحتياطات ضد آثار الإضراب، لكنها فوجئت بحجمه ومدى الالتزام به. وأبرق فيصل لشقيقه علي، الذي كان يقوم بمهام الوصي في غيابه، لإبلاغ مجلس الوزراء للتعامل بحزم مع المضربين، ولكن من دون استخدام القوة. وفي غياب نوري، تم التعامل مع الإضراب من نائب رئيس الوزراء مزاحم الباجه جي، وهو شخصية مكروهة من قبل المعارضة، بعد أن انسحب من صفوفها للانضمام إلى الحكومة. ونزل أصحاب المتاجر والتجار المضربون إلى الشوارع في مسيرات صاخبة واشتبكوا مع الشرطة. وسرعان ما تبنى المتظاهرون شعارات المعارضة السياسية ومطالبها، واتخذ الإضراب العام طابعاً قبيحاً. وردّ مزاحم بقوة مفرطة واعتقل عشرات المتظاهرين وأمر الشرطة بضرب الحشود وإطلاق الذخيرة الحية لتفريقهم. كما اقترح على الوصي سجن قادة المعارضة، بل تجريد ياسين الهاشمي من جنسيته العراقية، وهو إجراء شديد القسوة[15]. أُصيب الوصي بالذعر وأرسل إلى فيصل في أنقرة برقية مزعجة مفادها أن الوضع في بغداد أصبح محفوفاً بالمخاطر، وبدأ يخرج عن سيطرة الحكومة. كما ناشد فيصل بأن يعود هو أو رئيس الحكومة، إذا لم يستطع العودة. أمر فيصل نوري بالعودة إلى بغداد على الفور. هدأ الوضع بعد أيام قليلة من وصوله. وسرعان ما تمكن من السيطرة على الأزمة، من خلال مزيج حكيم من التحركات التصالحية والإجراءات الحازمة، لكن الوضع كان خطيراً. كان على سلاح الجو الملكي البريطاني القيام بطلعات جوية فوق وادي الفرات لثني رجال القبائل عن المشاركة في الانتفاضة، وتحويل الإضراب العام إلى تمرد واسع النطاق. تراجعت شعبية فيصل، وانطلقت صيحات وسط الحشود المضربين للمطالبة بإقامة جمهورية وأن يكون ياسين الهاشمي رئيسها.

على الرغم من أن نوري قد دعم الإجراءات القاسية التي اتخذها مزاحم الباجه جي ضد المضربين، إلا أن مزاحم تُرك ليحمل عار العنف والفوضى التي أعقبت ذلك. فلم يكن يحظى بشعبية كبيرة لدى الجمهور وتراكم عليه الضغط من أجل الاستقالة من الحكومة. فاضطر لمغادرة الحكومة في تشرين الأول (أكتوبر) 1931، وقام نوري بإجراء تعديل وزاري، فأدخل ناجي شوكت المندوب في تركيا وزيراً للداخلية. أما فيصل فقد سعى إلى إرضاء مزاحم من خلال تعيينه في المفوضية العراقية في لندن، ولكن الفضيحة التي ظهرت في أيار (مايو) 1932 هددت بتلطيخ مكانة فيصل الشخصية. فقد تم، خلال الإضراب العام، تداول أربع رسائل مغفلة الاسم تتهم فيصل بإقامة علاقة مع زوجة رئيس بلدية بغداد، محمود صبحي الدفتري. كما زُعم أنها قامت بزيارات متكررة إلى قصر فيصل في الحارثية. وكان بين الدفتري نفسه ومزاحم عداوة مستحكمة. وكان مجلس بلدية بغداد بكامله قد استقال احتجاجاً على الإجراءات المناهضة للإضراب التي اتخذها مزاحم[16]. ورداً على ذلك، قام مزاحم بطرد الدفتري لعدم منع زملائه من الاستقالة. وتحدثت

الرسائل التشهيرية عن علاقات فيصل مع نساء أخريات من عائلات عراقية بارزة. كما اتهمت فيصل بشكل مباشر بالمحسوبية في التعيينات الحكومية واختلاس الأموال العامة، كما طالبت الرسائل بإلغاء النظام الملكي واستبداله بنظام جمهوري[17]. تم إجراء تحقيق رسمي في القضية، بقيادة الرائد ويلكنز، نائب المفتش العام للشرطة، بتشجيع من أعداء مزاحم السياسيين الكثر. وأشار تقرير الشرطة بشكل مباشر إلى تورط مزاحم في الفضيحة باعتباره مصدر الرسائل البذيئة، وطالب برفع الحصانة البرلمانية عنه، قبل أن توجه لائحة الاتهام. تقدم مزاحم باستقالته قبل أن يجرده المجلس من حصانته.

وأصرّ فيصل على محاكمة مزاحم بالرغم من توسلات حليفه السياسي نوري السعيد. لقد كان هذا نوعاً من الانتقام غير الملائم وغير المسبوق، سببه تيقّن فيصل من أن مزاحم كان وراء هذه الرسائل. وفي أثناء المحاكمة، تعارضت أقوال الشهود مع بعضهم البعض وتمت تبرئة مزاحم من التهم الموجهة إليه، لكن الضرر الذي لحق بسمعة فيصل وشخصه كان كبيراً. تابع عامة الناس أخبار الفضيحة والمحاكمة باهتمام، وظلت صفة زير النساء تلاحق فيصل بالرغم من عدم وجود ما يثبتها. كتب القائم بالأعمال الأمريكي إلى واشنطن عن تراجع شعبية الملك قائلاً: «لم يكن الملك فيصل يحظى بشعبية كبيرة بين الشعب العراقي ككل، وبالتالي فالكثير من افراد الشعب يشعرون أنه قد فُرض عليهم، عندما يظهر الملك فيصل في سيارته في إحدى شوارع بغداد، ولا يوجد ما يشير إلى أن أحداً يلاحظ وجوده. لقد رأيته يمر في الشارع عدة مرات، لكن الأشخاص الوحيدين الذين بدا أنهم ينتبهون لمروره كانوا من الأجانب، الذين كانوا يقفون ويرفعوا قبعاتهم. ومع ذلك، على الرغم من أن الملك لم يكن يحظى بشعبية كبيرة، إلا أنه لم يفقد الكثير من شعبيته حتى الأشهر الأخيرة. بقدر ما أستطيع أن أعرف أن هذا يرجع في معظمه إلى حقيقة أن قادة المعارضة كانوا يشنّون حملة متواصلة ضده»[18]. كانت الرسائل المسمومة بالتأكيد من عمل واحد أو أكثر من السياسيين المتآمرين في العراق، بهدف تقويض مكانة الملك بقضية أخلاقية. ففي مجتمع محافظ وتقليدي، كان للاتهامات من مثل الانحلال الأخلاقي والسلوك الفاحش وزناً كبيراً. لكن فيصل نفسه لم يكن ممن يتفاخرون بعلاقاتهم النسائية. كانت هناك شائعات عن علاقاته النسائية في أوروبا؛ وفي حال كان هذا صحيحاً، فقد كان يلفّها بأكبر قدر من السرية. لقد استمتع بزياراته إلى أوروبا، مما أتاح له الوقت والمساحة للاستمتاع بصحبة الأشخاص الذين لا يلتقي بهم عادة في بغداد. وكانت هناك ادعاءات بأن فيصل كان يتخفى تحت اسم «الأمير أسامة» خلال تلك الرحلات الأوروبية، لكن لم يتم تأكيد ذلك[19]. لم يكن فيصل منزّهاً عن مثل هذه الأمور، لكنه كان أيضاً يدرك ضرورة الحفاظ دائماً على صورته كشخص ذو أخلاق رفيعة. ولا يمكن، في العراق، تصور قيام العلاقات المفتوحة من النمط المذكور في رسائل التشهير.

كان الصدام بين فيصل ونوري بشأن التعامل مع قضية مزاحم يخفي مخاوف فيصل المتزايدة بشأن سلطة نوري. لم تكن الحكومة تحظى بشعبية كبيرة في البلاد بشكل عام، لكن فيصل ونوري نجحا في تقسيم المعارضة، وكما أن إجراءات نوري الصارمة دفعتها إلى حالة من انعدام الفعالية. ونمت مكانة نوري الدولية بعد رحلاته المتكررة إلى الدول العربية والأوروبية ولندن. وتعززت مكانته لدى المقيمية بشكل ملحوظ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحظى بالمكانة التي كانت للسعدون، إلا أن نوري على الرغم من ذلك كان له تأثير على المقيمية. نظر فيصل بارتياب إلى القوة المتزايدة لرئيس وزرائه الحازم، وكان بلا شك قلقاً من التهديد الذي قد يشكله على سلطته في البلاد. تصاعدت التوترات بين الاثنين، حيث اشتكى نوري للمقيمية من مضايقات فيصل المستمرة وتدخله في أعمال الحكومة. وقد نقل المفوض السامي بالإنابة هوبير يونغ إلى لندن ادعاءات نوري بأن فيصل كان يجعل حياته صعبة: «إن أصل الخلاف مع الملك فيصل [كما يزعم نوري] هو أن الأخير كان يسيء باستمرار استعمال منصبه لتأمين مصالح شخصية تافهة لنفسه ولحاشيته، كما اطلعني على عدد من حالات التهرب من الضرائب والرسوم الجمركية، ومنح المعاشات التقاعدية بشكل غير قانوني وما شابه، والتي لا يُتوقع من أي رئيس وزراء يحترم نفسه أن يتسامح معها»[20]. وكان لفيصل أيضا شكاوي بشأن نوري. حيث أخبر همفريز أن نوري باشا، خلافاً لنصيحة جلالة الملك [فيصل]، كان يعيّن في المناصب الإدارية رجالاً من انصاره لا يتمتعون بالكفاءة ولا بالنزاهة. كان هذا معروفاً لدى عامة الناس في الشارع، الأمر الذي أساء إلى سمعة نوري وأضرّ بإدارته. وعلى الرغم من النصائح التي قدمتها لنوري، إلا أنه رفض تغيير أساليبه[21].

ومع ذلك، فإن شكاوى نوري من تدخلات فيصل ونكرانه للجميل بدت وكأنها شكاوى من فقد حظوته. كان فيصل يتخذ بالفعل إجراءات لإعادة المعارضة إلى التيار السياسي السائد. لم تكن لديه غريزة الافتراس. فقد كان يتراجع عن تدمير خصومه السياسيين، حتى عندما تتاح له الفرصة بعد أن يخرج منتصراً من إحدى معارك فرض الإرادات. وعشية الاستقلال الرسمي للعراق، لم يكن فيصل حريصاً جداً على وجود معارضة معزولة تواجه رئيس وزراء مفرط الثقة. كانت طبيعته هي تصحيح حالة الخلل الجسيم التي قد تنشأ بين الشخصيات المختلفة في الطبقة السياسية النحيلة في العراق. وهذا من شأنه أن يمنحه الفرصة لتغيير مساره إذا لزم الأمر، والحفاظ على القصر باعتباره الحكم الأخير في صراعات السلطة المستمرة بين السياسيين البارزين.

وفي الصراع بين الملك ورئيس الوزراء، انحازت المقيمية إلى جانب رئيس الوزراء بطبيعة الحال. لأنها اعتقدت أنه من الأسهل عليها متابعة المصالح البريطانية مع رئيس وزراء مطيع أو متعاطف أكثر من فيصل. وكلما بدا فيصل للمقيمية على أنه متصلب أو غير راغب في الانصياع للمطالب البريطانية أو الوصفات السياسية، فإن الصفات المستخدمة لوصف فيصل في الرسائل

الرسمية تتخذ نبرة مهينة، بل وحتى تهديدية. وغالباً ما لجأ دوبس وكوكس قبله إلى إثارة شبح إجبار فيصل على التنازل عن العرش، والذي كان ضمن السلطة النظرية لبريطانيا. كان همفريز، في ظل الظروف المتغيرة في أوائل الثلاثينيات، أكثر حذراً. فكلما كانت تُرفض نصيحته، كان يثير احتمالات قيام احتجاجات شعبية تطالب فيصل بالاستقالة أو إجباره على التنحي. وبمجرد أن علمت المقيمية بنوايا فيصل لاستبدال نوري، حاول همفريز ثنيه عن هذا التصرف «المتهور» من خلال احتمالات فقدان فيصل عرشه نتيجة لذلك. «أقترح أن أخبر الملك أنه إذا عزل أفضل أصدقائه عن طريق مؤامرات القصر، فستكون مسألة وقت قبل أن يتم قص جناحيه من قبل بعض الحكومات المستقبلية، وفي الواقع قبل أن يُطرد من العرش تماماً. هناك مؤشرات على أنه أصبح يشعر بالغيرة من نوري ويريد إجباره على الاستقالة. إذا تعرض [نوري] للتحدي من قبل مؤامرات القصر، فسوف يفقد فيصل صديقه المخلص في البلاد ولم يبق لديه سوى القليل»[22]. لكن نوري ظل في تقدير فيصل السياسي الأكثر كفاءة وجدارة، ولم يغير الخلاف حول سلطاته وأفعاله. رأي فيصل عنه بشكل جدي. كان رئيس الوزراء الأطول خدمة في عهد فيصل، وحققت حكومته عدداً من الإنجازات، ليس أقلها التفاوض على معاهدة 1930 التي أدت إلى نهاية الانتداب.

تأمين الحدود: نجد

كانت الغارات الوهابية على جنوب العراق سمة مستمرة في عهد فيصل. أفسح هجوم عام 1922 المجال لغارات أصغر، لكنها زادت من حيث الحجم والإيقاع في خريف عام 1927. كان ابن سعود، الذي نصّب نفسه سلطاناً على نجد والحجاز بعد سقوط مملكة الحجاز الهاشمية، يحرّض ضمنياً على هذه الغارات على الرغم من ارتباطه بتحالف مع بريطانيا. حتى أن ابن سعود وقع اتفاقيتين حدوديتين مع العراق[*]، لكن تم تجاهلهما. كان رد فيصل هو محاولة تجميع قوة حدودية بدوية بقيادة قريبه الشريف شاكر لصد المعتدين وتنفيذ غارات مضادة في نجد. وقد رفض المفوض السامي هذا، لأنه كان من شأنه أن يجرّ سلاح الجو الملكي البريطاني إلى الصراع باعتباره المدافع النهائي عن حدود العراق. بطبيعة الحال، فقد أدى إحجام بريطانيا عن السماح بتوسع الجيش العراقي لمواجهة الغارات الوهابية إلى تغذية الشائعات في بغداد، بأن بريطانيا كانت تتعمد إعاقة تطوير الجيش العراقي لإدامة اعتماد العراق على سلاح الجو الملكي البريطاني.

وكان فيصل يسعى، مع قرب نهاية الانتداب وازدياد سلطاته، إلى إنهاء الصراع مع ابن سعود.

(*) هما معاهدة المحمرة بين العراق وسلطنة نجد، ومن بعدها برتوكول العقير (أُضيفت إليهما الكويت) الموقّعان في عام 1922 برعاية بريطانية. (المُراجع).

فقد كان دواءً مُراً لا بد من ابتلاعه، فالخلاف الهاشمي مع ابن سعود يرجع إلى القرن الثامن عشر، عند صعود الحركة الوهابية. بالإضافة إلى ذلك، كان وجود الأخ الأكبر لفيصل الذي يحظى باحترام كبير في بغداد، الملك السابق علي الحجاز، تذكيراً مؤثراً بخسارة الملك الشريف في الحجاز على يد ابن سعود. وكما كتب السياسي العراقي المخضرم ورئيس الوزراء مرات عديدة توفيق السويدي في مذكراته: «كان من الصعب على الملك فيصل التوفيق بين مشاعره كفرد من عائلة فقدت نفوذها في الحجاز، ومشاعره كملك. [كان الآن] مسؤولاً عن سياسة مختلفة تماماً عن سياسة والده أو أخيه الملك علي، الذي أُجبر على التخلي عن العرش. لكن من الواضح أن حكمة الملك فيصل الأول وقوة أعصابه تغلبتا على ما كان يسمعه باستمرار من شكاوى [حول ابن سعود] من أخيه... لقد عمل بصفته ملك العراق على تجاوز كل هذه المشاكل وكان مصمماً على لقاء ابن سعود لأنه كان من مصلحة العراق إقامة علاقات عمل جيدة معه»[23].

أُتيحت الفرصة في نهاية عام 1929، مع الحملة التي شنّها ابن سعود ضد الإخوان الوهابيين المنشقين بقيادة فيصل الدويش. حيث لجأ هذا الأخير، بعد تلقيه الهزيمة، إلى العراق. فبعث فيصل دعوة للقاء ابن سعود عبر المفوض السامي همفريز. لم يكن ابن سعود راغباً في عقد الاجتماع على الأراضي العراقية، كما لم يكن مستعداً للاجتماع في منطقة صحراوية محايدة بين البلدين. سعى همفريز لإنقاذ الموقف باقتراح عقد اللقاء على متن السفينة الحربية البريطانية، لوبين، التي كانت في مياه الخليج في ذلك الوقت. وافق الملكان، وفي 21 شباط (فبراير) 1930، توجه الملكان إلى السفينة التي كانت راسية بالقرب من مصب شط العرب.

بغض النظر عن المناكفات التي لا مفر منها ـ من سيصل أولاً، وحجم حاشية، وطول خطاب كل منهما ـ كان الملكان مرنين خلال الاجتماع. كتب طبيب فيصل، هاري سيندرسون، الذي كان حاضراً: «احتضنا بعضهما البعض على الطريقة العربية وتصافحا لمدة دقيقة كاملة، وتبادلوا التحيات القلبية مع التأكيد المتبادل على النتائج الايجابية التي ستنجم عن المباحثات. بعد ذلك مباشرة، تم نقل الطرفين، ويد كل منهما لا تزال في يد الآخر، إلى قاعة اجتماعات واسعة تم تجهيزها للمؤتمر» [24]. كان كل من فيصل وابن سعود راغباً في ترك خلافاتهما المريرة وراءهما لصالح أمن واستقرار الدولتين. سارت المفاوضات على قدمٍ وساق وبحلول نهاية اليوم تم التوصل إلى اتفاق بشأن مجموعة كبيرة من القضايا، الأمر الذي أدى إلى انزعاج واضح لمستشاري ابن سعود الأكثر حذراً. لقد كان اللقاء مثالاً رائعاً على براغماتية فيصل، بالإضافة إلى إحساسه بالواجب الذي تجاوز الاعتبارات الشخصية والعائلية. كما أوضح فيصل للريحاني سبب رغبته في تجاوز الماضي، «لو كان الخلاف شخصياً بيني وبين ابن سعود، وتقابلنا في ساحة المعركة وتقاتلنا، ومات أحدنا، وكانت هذا ينهي المشكلة، فليكن. لكن جرّ العرب لقتل العرب من

أجل مصالحنا الضيقة عندها لن يكون ذلك وصمة عار فقط بل معصية كبيرة لله. نحن الملوك والأشراف أمناء على مصالح البلاد العربية، وإن سعينا وراء مسار لا يخدم إلا مصالحنا الشخصية، عار ومعصية. وإذا غلبت المصلحة الشخصية للملك على وطنيته، فيحق للأمة أن تحاسبه، وفي الواقع عليها أن تفعل ذلك»[25].

أشاد ابن سعود بفيصل واستثناه بشكل واضح عند مقارنته بالهاشميين الآخرين. «أقسم بالله أني لا أكنّ لفيصل ذرة كراهية أو احتقار. وأنا لا أكنّ له إلا الحب والاحترام. لقد اتبعت قلبي عندما جئت إلى هذا المؤتمر [على متن لوبين]، وأسأل الله أن يوفّق الجميع لما فيه مصلحة الشعب العربي»[26]. وقال للكاتب الريحاني إنه يعتبر فيصل «صديقاً عظيماً ومخلصاً، وعربياً شريفاً يتحلى بأنبل الصفات، وقائداً حكيماً بارعاً»[27]. واستمر حسن النوايا بين الملكين حتى نهاية حياة فيصل. عندما زار فيصل نجل ابن سعود بغداد في صيف عام 1932، رحّب به الملك والحكومة، وأقام ضيفاً في قصر فيصل بالحارثية[28]. لا بد أن فيصل في أعماق قلبه كان يشعر بأنه في التحليل النهائي بأن عائلته، وعلى رأسهم والده وعبد الله، قد ارتكبا، أخطاء لا يمكن إصلاحها في تعاطيهم مع ابن سعود. لقد فقدوا مملكتهم، بل لقد فقدوا حقهم الموروث لصالح قائد أكثر قدرة وجاذبية وقوة.

تأمين الحدود: تركيا

كان من شأن حلّ قضية الموصل لصالح العراق أن يزيل عقبة كأداء من أمام تطبيع العلاقات بين البلدين. ومع ذلك، فقد ظلّت العلاقات رسمية وجافة، وكان هناك تيار خفي من القلق في العراق بشأن مدى ثبات تركيا على موقفها بالتخلي عن مطالبها بشأن الموصل. قام فيصل باتخاذ الخطوة الأولى لمحاولة تحسين العلاقات بين البلدين. فأثناء وجوده في لندن خلال المفاوضات الفاشلة حول معاهدة 1927، دعا فيصل السفير التركي في لندن، أحمد فريد بك، لتناول الشاي في فندق هايد بارك في 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1927. وتحدث فيصل في هذا الاجتماع عن أهمية تجاوز النزاعات القديمة وبناء علاقات طيبة بين الدولتين. وأعرب عن إعجابه بتركيا ومصطفى كمال. قال فيصل «أنا وجميع العراقيين أتابع التطور والثورة الحاصلين في تركيا بإعجاب كبير. فمن المستحيل عدم الإعجاب بإنجاز معالي مصطفى كمال باشا وأتمنى استمراره. يجب أن أعترف أنني لم أعتقد أنكم ستصلون إلى مثل هذه النتائج الرائعة في نضالكم الوطني. وتقدمكم في جميع المجالات تفوق على جميع التوقعات. نحن نراقب تطوركم بدهشة وسرور. أنتم بلا شك مثال يُحتذى لكل دول آسيا. لسوء الحظ، بما أن شعب العراق ليس متطوراً، لم نتمكن من القيام بالكثير [من إصلاحات التحديث] حتى الآن. ومع ذلك، فإن هدفنا النهائي هو أن تجاريكم في عملكم الرائع»[29].

قاوم مصطفى كمال في البداية أي تقارب شخصي مع فيصل، مدركاً الذكريات المؤلمة التي لا يزال من الممكن أن تثيرها الثورة العربية ضد العثمانيين في تركيا. لقد كان قلقاً بالتأكيد من أن الرأي العام المحلي، الذي لا يزال يترنّح من آثار الحرب العالمية الأولى، سوف يستاء من دعوة فيصل إلى تركيا، مع سمعة فيصل كقائد ميداني للثورة العربية، وإن المشاعر بشأن قضية الموصل، التي اعتبر الرأي العام التركي حلّها لصالح العراق «خسارة» لتركيا، قد تتأجج أيضاً بزيارة دولة لملك العراق. أخيراً، كان مصطفى كمال قلقاً من أن يتم طرح مسألة إلغاء الخلافة، الذي قوبل بمخاوف كبيرة في البلاد العربية، من قبل فيصل خلال زيارته الرسمية. ومع ذلك، رأى كمال الآن فرصة لقلب هذه القضايا لصالحه. أولاً، يمكن الآن تصوير فيصل على أنه رفيق نضال في مواجهة الوصاية الأجنبية، يستوحي من تجربة مصطفى كمال نفسه. كما يمكن إعادة النظر في مسألة إلغاء الخلافة على أنها نعمة للعلاقات العربية التركية في العصر الحديث، حيث تمت إزالة السلطة المعنوية التي كانت للخلفاء العثمانيين على العرب. ويمكن للعرب والأتراك الآن أن يلتقوا ببعضهم البعض على قدم المساواة، ولكلٍ منهم هويته القومية المنفصلة[30].

أرسل مصطفى كمال، بعد انتخابه للمرة الثانية لرئاسة تركيا في عام 1927، رسالة حسن نية إلى فيصل، إلى جانب قادة العالم الآخرين. وقد أعرب فيها لفيصل وللشعب العراقي عن أطيب تمنياته، وتحدث عن رغبته في إقامة أطيب العلاقات بين البلدين. وسرعان ما تبادل البلدان السفارات في عاصمتيهما. عيّن فيصل في البداية صبيح نشأت، الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني وكان معروفاً بعلاقته الوثيقة مع مصطفى كمال، كأول قنصل عام للعراق ثم سفيراً في تركيا. والتقى بالسفير التركي في بغداد في عددٍ من المناسبات، حيث عبّر عن احترامه وإعجابه بمصطفى كمال. أدى التحسن في العلاقات بين البلدين إلى قيام مصطفى كمال بتوجيه دعوة رسمية لفيصل لزيارة تركيا[31]. وكان فيصل يخطط للقيام بزيارته أثناء عودته من أوروبا، ولكنه غيّر مسار رحلته بعد ذلك، بحيث تم تحديد زيارته الرسمية في أوائل تموز (يوليو) 1931، في بداية جولته الأوروبية.

وصل فيصل وحاشيته بالطائرة إلى حلب، ثم إلى أنقرة بالقطار، ووصل والوفد المرافق له إلى محطة أنقرة في 2 تموز (يوليو) 1931. وكان في استقباله مصطفى كمال بصحبة القيادة المدنية والعسكرية التركية. غادر الزعيمان المحطة في سيارة مكشوفة وسط هتافات حماسية من الجماهير الغفيرة. وخلال العشاء الرسمي الذي أقامه مصطفى كمال في فندق بالاس أنقرة مساء ذلك اليوم، جلس فيصل بجوار الزعيم التركي وتجاذبا أطراف الحديث باللغة التركية التي يتقنها فيصل بطلاقة. حيث سأل مصطفى كمال فيصل عن انطباعاته الأولى عن المدينة. فصرح بأنه مندهش من تطور أنقرة وأنه يرغب في دعوة مصطفى كمال إلى بغداد بمجرد أن تكون

الظروف في المدينة مناسبة. ثم قال فيصل، «حسناً، يبدو أننا سنقضي الشتاء في بغداد والصيف في أنقرة من الآن فصاعداً». وأضاف مصطفى كمال: أنقرة واسطنبول».

وتجنب فيصل تصريحات مصطفى كمال بأن تركيا قد تنازلت عن الموصل للعراق، فأجاب: «لكنها، في المقابل، ربحت العراق كله. فشوارع بغداد تمتلئ اليوم بمحبي مصطفى كمال»، وكان فيصل مسروراً جداً بزيارته لأنقرة وما قُدم من كرم ضيافة وود. وقد تأثر بشكل خاص بخطب مصطفى كمال التحفيزية والتي جُمعت في كتاب. ونقلت الصحافة التركية عن فيصل قوله عن هذه الخطب: «تحفة لا تكتفي منها، وتنتابك الرغبة بمتابعة القراءة أكثر وتشعر بالحزن عند الانتهاء من قراءة الكتاب. فالمرء يتمنى لو أن الكتاب ليس له نهاية. وكنت أتمنى لو استمر في الحديث. في أقوال وكتابات وأفعال الرجال العظماء، هناك شعور لا نهاية له بالأمان والعظمة»[32].

تُوجت زيارة الدولة التي قام بها فيصل إلى أنقرة بسلسلة من الاتفاقيات المهمة حول التجارة والهجرة وتبادل السجناء. ثم ذهب إلى اسطنبول حيث قوبل بحشود كبيرة حماسية مماثلة. وقام بزيارة قصر السلطان عبد الحميد، دولما بهجة، هذه الزيارة التي أعادت له ذكريات مؤلمة رواها فيما بعد لأمين الريحاني:

«عندما كنا في الأستانة اعتدنا الذهاب مع والدنا لزيارة السلطان. دخلنا قاعة العرش مطأطأي الرؤوس وقدمنا أنفسنا للملك ثم قبّلنا يديه. ثم تراجعنا بضع خطوات ونحن لا نزال نواجه العرش، ووقفنا صامتين بانتباه. بعد ذلك غادرنا كما دخلنا، وقلوبنا تنبض خوفاً، والله خوفاً. لقد ولّت تلك الأيام! ذهب السلطان! قاتلنا الأتراك وانتصرنا عليهم. لقد عدت الآن إلى الاستانة كملك على العراق. وعندما دخلنا إلى حيدر باشا [محطة سكة حديد على الجانب الآسيوي من اسطنبول]، قادمين من أنقرة، كان هناك زورق بمحرك في انتظارنا عند الرصيف. كان قارب السلطان نفسه، وقد نُقلنا إلى غالاطة [أحد أحياء اسطنبول]. نزلنا في الجانب الأوروبي من اسطنبول وزرنا القصر، قصر دولما بهجة، وهو القصر نفسه الذي اعتدنا دخوله خائفين، بين صفوف الحراس، حتى نقف مثل العبيد أمام الملك. هذه المرة دخلناه بسلام. كانت الممرات والقاعات فارغة وهادئة بشكل مخيف. أما قاعة العرش فقد شعرت بفراغها وأنا أقف عند بابها. لكن العرش نفسه، العرش الخالي والمهجور، كان لا يزال هناك. هذه المرة اتخذت خطوات حازمة إلى الأمام، وصعدت إلى العرش وجلست عليه! لقد كنت سعيداً بحمد الله. الحمد لله سيد كل العروش، منشئها ومدمرها، وقلت لنفسي: لقد أجزاني الله اليوم[33].

تأمين الحدود: إيران

كانت الحدود مع إيران هي الأطول، وكانت مصدراً آخر للإزعاج. كان ترحيل الشيخ مهدي الخالصي ونفي آيات الله في أوائل حكم فيصل قد ألقى بظلاله على العلاقة المضطربة بالفعل. باستثناء الخلافات الحدودية، وخاصة ترسيم الحدود على طول شط العرب، فإن معظم الخلافات بين العراق وإيران كانت حول قضايا طائفية. كانت لدى المقيمية، إلى جانب عدد من السياسيين العرب السُنَّة، قناعة ثابتة بخبث نوايا «رجال الدين الشيعة» وسلطتهم على الجماهير وزعماء القبائل في جنوب العراق، وتدخلهم المزعج بالسياسة الداخلية العراقية. لم يكن فيصل يتفق قط مع النزعة العنصرية الصريحة لدى الجيل الجديد من القوميين العرب، ولم يعرّف الوطنية العراقية من حيث عدائها لإيران. ومع ذلك، كانت التجارة بين البلدين وحركة الحجاج والعائلات والتجار وحتى جثث الإيرانيين المتدينين الذين كان من المقرر دفنهم في المدن المقدسة في العراق عاملاً مهماً في العلاقات بينهما. كل هذه العناصر كانت تستدعي إقامة علاقات حسن الجوار بين البلدين، لكن إيران لم تعترف بسيادة العراق إلا بعد مرور ثمانية أعوام على تنصيب فيصل كملك. وبحلول ربيع عام 1932، كانت الجهود المبذولة لسد الفجوة بين البلدين قد أثمرت أخيراً. وكان فيصل قد أوفد رستم حيدر إلى طهران للمساعدة في المفاوضات وتمهيد الطريق لزيارة الدولة التي يقوم بها فيصل إلى إيران[34].

غادر الموكب الملكي بغداد متوجهاً إلى مزرعة فيصل بالقرب من خانقين على طول الحدود الإيرانية، حيث قضى الموكب ليلته قبل دخول إيران. وكان برفقة فيصل كلٌّ من نوري السعيد وسلفه رئيس الوزراء السابق ناجي السويدي. كما ضمّ الوفد المرافق أيضاً شقيق ناجي توفيق السويدي، سفير العراق في طهران، وهاري سيندرسون، طبيب الملك الخاص. توقف الموكب، في اليوم التالي من دخوله الأراضي الإيرانية، وعند أنقاض قصر الملكة الساسانية شيرين. كتب سيندرسون: «كنت، بطبيعة الحال، على علم باهتمام فيصل الكبير بآثار العراق، لكن لم يكن لدي أي فكرة عن أن لديه معرفة عميقة بالآثار الفارسية. أنا متأكد من أننا جميعاً فوجئنا عندما وقفنا أمام بعض الأعمدة المدمرة في طريقنا إلى همدان [في إيران]، حيث ألقى خطاباً مرتجلاً ومثقفاً باللغة الفارسية حول السلالة الساسانية، وقصة صعودها وسقوطها... كما تحدث فيصل بإعجاب عن فتوحات وإنجازات أردشير الأول والثاني وشابور الأول وكسرى الأول والثاني. لقد أشار بإيجاز إلى مئات السنين من الصراع المستمر تقريباً مع روما[35]، كما تحدث بطلاقة، باعتباره من سلالة النبي، عن الفتح الإسلامي الذي تلا وفاة محمد مباشرة»[36].

كان الشاه في استقبال فيصل عند وصوله إلى طهران، المكسوة بالزهور، والتي مهّدت شوارعها الوعرة خصيصاً لهذه المناسبة، وبدأت الاجتماعات والمآدب والحفلات التي استمرت

ثلاثة أيام. وفي إحدى هذه الفعاليات، قامت السفيرة السوفيتية، والتي كانت مغنية أوبرا بارعة، بإمتاع الحفل بأغانيها. ثم قامت بدعوة فيصل إلى الرقص، إلا أنه رفض دعوتها بكل تهذيب. كان للملكين شخصيتان متناقضتان: فيصل، من نسل النبي وسليل أشرف عائلات الجزيرة العربية. وضابط لواء القوزاق الايراني المتحفظ والشرس الذي شقّ طريقه للوصول إلى السلطة. كان فيصل ملكاً محاطاً بالقيود الدستورية وبطبقة سياسية منقسمة، بينما كان الشاه ملكاً مطلقاً، نشر الرعب والرهبة بين رعاياه وخدّامه. لم يكن فيصل، الذي كان يشك في نمط الملكية التي يمثلها الشاه، غافلاً عن هذا التناقض. كان فيصل مهذباً جداً لدرجة أنه لم يُظهر ذلك، لكنه كشف عن أفكاره على جلساته الخاصة. فقد كتب السفير البريطاني في طهران، ريجينالد هور، إلى وزارة الخارجية بخصوص انطباعات فيصل عن أبهة وعظمة البلاط البهلوي: «لم يكن الملك فيصل معجباً على الإطلاق بروعة البلاط الفارسي. فبعد أن كان لي شرف تناول العشاء مع جلالة الملك في طريقي إلى هنا، يمكنني القول بثقة أن التناقض بين أسلوب حياة الملكين واضح للغاية. في بغداد، تأثرت بالبساطة المعقولة لملك على بلد فقير. هنا، يبدو أن الملك فيصل قد كوّن انطباعاً سلبياً حول الأموال التي أُهدرت في بلدٍ فقير مثل بلده؛ فعلى سبيل المثال، وأثناء حديثه في قصر الشاه في سعد آباد، أعرب عن دهشته من النفقات الباهظة على منزل وحديقة كبيرين واللتين على ما يبدو لم يرهما أحد على الإطلاق[37].

تواصلت زيارة فيصل في طريق عودته إلى العراق عبر طريق بري أخذه خلال الأيام العشرة التالية على طول المحور الغربي لإيران، وصولاً إلى ميناء المحمرة في جنوب إيران على شط العرب. وتعليقاً على حجم مصفاة شركة النفط البريطانية في عبادان المجاورة، أشار فيصل إلى أنها «كانت صرحاً ضخماً ودائماً للخبرة والمشاريع البريطانية»[38]. من المحمرة، صعد فيصل على متن سفينة لعبور النهر إلى البصرة. تعرضت السفينة التي كانت تحمل وفد الاستقبال الرسمي من البصرة لثقب وامتلأت بالماء، وسقط كل من كان فيها من كبار الشخصيات في مياه الميناء. لم يكن لهذا الحادث المضحك أي تأثير على أجواء الاحتفالات الرسمية في البصرة والترحيب الصاخب الذي لقيه من قبل مواطني المدينة. عززت زيارة فيصل لإيران الروابط بين الشاه والملك، وقد أظهر رضا شاه المرعب اللين تجاه فيصل. وكتب توفيق السويدي في مذكراته: «كانت [زيارة فيصل] أشبه ببصيص نور في الظلام، وجذبت أنظار الناس إليها للتأكد من الحقيقة. بالنسبة للإيرانيين من جميع الأصناف، سواءً كانوا بسيطين أو متعلمين أو أقوياء، فقد وجدوا في شخص فيصل وحاشيته ممثلين لشعب على حدودهم الغربية ينبغي أن يتعرفوا عليه. كانت الروابط الشخصية بين الملك فيصل والشاه قوية للغاية... أصبح الملك البهلوي المتغطرس لطيفاً ومهذباً ودمثاً ومهتماً بشدة بالعراق والعراقيين وبما يثير قلقهم!»[39].

الانضمام إلى عصبة الأمم

لن تصبح المعاهدة البريطانية ـ العراقية لعام 1930، ومعها نهاية الانتداب، سارية المفعول إلا بعد انضمام العراق إلى عصبة الأمم. وكانت بريطانيا قد التزمت بالتوصية بانضمام العراق وأبلغت العصبة بقرارها القيام بذلك. وطلبت العصبة بدورها من بريطانيا تقديم تقرير عن التقدم المُحرَز في الانتداب خلال فترة 1921 ـ 1931، ومدى جاهزية العراق بموجب معايير الانتداب. تم عرض تقرير عن الانتداب الذي استمر لعشر سنوات إلى أعضاء العصبة في حزيران (يونيو) 1931، ومعه توصية بريطانيا تقرّ بأن العراق مؤهل للاستقلال. كان الفرنسيون قلقين بطبيعة الحال من أن يكون استقلال العراق محكّاً لمطالبة سوريا بالاستقلال، بالنظر إلى أن الانتداب الفرنسي في سوريا بدأ قبل عام من العراق وأن سوريا كانت بكل المقاييس دولة أكثر تقدماً من العراق. تم مناقشة التقرير بشكل موسع. وقد أُثيرت اعتراضات عديدة وطُلبت توضيحات بشأن جاهزية العراق، ودور المستشارين الأجانب، وكفاءة الحكومة العراقية، وقبل كل شيء مسألة حقوق الأقليات وحمايتها. ومع ذلك، وبحلول كانون الأول (ديسمبر) 1931، كان السير فرانسيس همفريز، الذي تولى القيادة في معالجة القضايا المثارة، قد تغلب من خلال دعمه الحماسي لقضية العراق على كل الشكوك وتكتيكات التأخير الفرنسية. أوصت اللجنة المكلفة بدراسة التقرير البريطاني بالموافقة على دخول العراق إلى عصبة الأمم، لكن بشروط. فقد طالبت اللجنة بإصدار إعلان رسمي وملزم من العراق يتعلق بمجموعة كاملة من الحقوق والحريات الدستورية والسياسية والقضائية والإنسانية والمدنية والمجتمعية. ولم يخالف أي جزء من البيان بأي شكل من الأشكال مواد الدستور العراقي. وأُبلغ العراق بأنه قد تم قبوله كدولة عضو في عصبة الأمم في 3 تشرين الأول (أكتوبر) 1932.

وما أن وصل القرار، حتى عمّت بغداد وباقي أجزاء البلاد مظاهر البهجة والاحتفالات. لم تتأثر صحافة المعارضة بانضمام العراق إلى العصبة، لكن انتقاداتها اللاذعة الحزينة لم تستطع إخفاء حالة البهجة في البلاد. وتم تحديد الاحتفالات الرسمية بعيد الاستقلال في 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1932، حيث جرت جميع الفعاليات الرئيسة بحضور فيصل. فقد التقى بوزراء الحكومة والمسؤولين الإقليميين، وحضر المسيرات والاستعراضات العسكرية للشباب والكشافة. كما ظهر فيصل، في وقت متأخر من بعد الظهر، في حدائق المجيدية ببغداد[*] لإلقاء كلمته الوداعية. والتي كانت مؤثرة وصادقة. تحدث فيصل عن الكفاح الطويل والشاق للوصول إلى هذا اليوم،

(*) تُسمى أيضاً متنزه أو (حدائق البلدية)، تقع على ضفة نهر دجلة في جانب الرصافة (مدينة الطب حالياً)، أُنشئت عليها أول مستشفى عام في بغداد، وأُفتتحت سنة 1901، تيمناً بالسلطان عبد المجيد الأول (1823 ـ 1861). (المُراجع).

وضرورة مضاعفة الجهود لبناء البلاد، لترجع إلى ما كانت عليه في العصور الماضية. كما شكر جهود بريطانيا في مساعدة ورعاية العراق في طلب انضمامه إلى عصبة الأمم[40]. بعد ذلك غادر حدائق المجيدية، تاركاً الجمهور في المساء مع الفنانين والأغاني والاحتفالات التي استمرت طوال الليل.

بعد ثلاثة أسابيع قدم نوري استقالته. كانت سياساته منسجمة مع فيصل أغلب الأحيان، كما أنه يدين بنجاحه إلى حد كبير إلى الدعم القوي الذي تلقاه من فيصل. وقد أقرّ فيصل بخدمات نوري التي لا تُقدر بثمن، وقدّم له أعلى وسام شرف في العراق، على الرغم من أن نوري قد تسبب بنفور المعارضة بسبب تكتيكاته القاسية وعدم رغبته في تحمل انتقادات جادة. لقد غدا رجل الدولة والسياسي الأبرز في العراق، لكن أعداءه كانوا كثراً، ولم يكن هناك ما هو أكثر شراسة من ياسين الهاشمي، الرجل القوي الآخر الذي أغضبه ابتعاده عن السلطة. كان على فيصل أن يضمن أن نجاح نوري لن يقلل من سلطة الملك وصلاحياته، لكن فيصل كان يدرك أيضاً أنه لا يستطيع تحمّل خسارة دعم نوري له. غادر الأخير، متخلياً عن أي شكل من أشكال التعاطي مع فيصل، على الرغم من أنه سرعان ما تغلب على استيائه. ومن ناحية أخرى، رأى فيصل في خلافاته مع نوري خلافاً سرعان ما يُنسى.

فهذه الخلافات كانت بحسب ما قال فيصل لهربرت يونغ: «مثل خلافات الزوج والزوجة. كان لديهم خلافات بين الحين والآخر ويجب عليهم التقليل من لقاءاتهما من وقت»[41].

هوامش الفصل الخامس والعشرون

1 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص. 230 ـ 231

2 ـ الكسندر سلون، من بغداد إلى واشنطن، 22 تموز 1932، الرسالة الدبلوماسية 890/211 g00/ سري/ 259؛ ونور مصالحة، مرجع سابق، ص. 235

3 ـ الكسندر سلون، من بغداد إلى واشنطن، 3 شباط 1932؛ ونور مصالحة، مرجع سابق، ص. 240

4 ـ مكتب المستعمرات 730/170/88369 من يونغ في بغداد إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات 14 آب 1931

5 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص. 233 ـ 234

6 ـ المرجع نفسه، ص. 184 ـ 185

7 ـ ستيفن هيمسلي لونكريك، مرجع سابق، ص. 183

8 ـ خالد عابد محسن، مرجع سابق، ص. 289

9 ـ والموضوع الوثيق الصلة هو إن مزاحم الباجه جي الذي كان في اللجنة التنفيذية للحزب الوطني لأبو التمن، استقال عندما عرض عليه نوري منصب وزاري.

10 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 70 ـ 72

11 ـ عبد المجيد كامل التكريتي، مرجع سابق، ص. 314 ـ 315

12 ـ المرجع نفسه، ص. 140 ـ 141

13 ـ القائم بالأعمال الأمريكي، من بغداد إلى واشنطن، 16 نيسان 1931، رسالة مستعجلة رقم 226، 145/890g.00؛ ونور مصالحة، مرجع سابق، ص. 247

14 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 146 ـ 149

15 ـ المرجع نفسه، ص. 150 ـ 151

16 ـ المرجع نفسه، ص. 159 ـ 161

17 ـ فهد مسلم الفجر، مزاحم الباجه جي ودوره في السياسة العراقية، 1890 ـ 1933. الدار العربية للموسوعات، بيروت 2004، ص. 187 ـ 203

18 ـ القائم بالأعمال الأمريكي، من بغداد إلى واشنطن، 3 حزيران 1932، رسالة عاجلة رقم 119

19 ـ دي غوري، مرجع سابق، ص. 86

20 ـ وزارة الخارجية 5950E/371/16049 من يونغ في بغداد إلى سيمون، لندن 3 تشرين الثاني 1932

21 ـ وزارة الخارجية 6230E/371/16032 من همفريز في بغداد إلى سيمون، لندن 17 تشرين الثاني 1932؛ ونور مصالحة، مرجع سابق، ص259.

22 ـ وزارة الخارجية 6230E/371/16903 ج. هول محضر اجتماع 9 حزيران 1933.

23 ـ توفيق السويدي، مذكراتي، مرجع سابق، ص 200.

24 ـ السير هاري سندرسون، مرجع سابق، ص. 120.

25 ـ أمين ريحاني، مرجع سابق، ص 220.

26 ـ المرجع نفسه، ص 221.

27 ـ المرجع نفسه، ص222.

28 ـ كادت زيارة الأمير السعودي أن تُلغى بسبب شائعات عن مؤامرة اغتيال ضده أثناء تواجده في العراق. ومع ذلك، وافق فيصل على المضي قدماً، لأن إلغاءه كان سيرسل إشارات خاطئة إلى ابن سعود.

29 ـ همر ايردن، القادة الأجانب الذين زاروا تركيا خلال حكم مصطفى كمال أتاتورك، صياغة وترجمة آلبر باهادير، مركز أتاتورك للأبحاث، ثقافة أتاتورك، معهد اللغات والتاريخ في أنقرة 2006.

30 ـ المرجع نفسه.

31 ـ المرجع نفسه.

32 ـ المرجع نفسه.

33 ـ أمين الريحاني، مرجع سابق، ص. 243 ـ 244

34 ـ توفيق السويدي، مذكراتي، مرجع سابق، ص. 200 ـ 202

35 ـ لابد أن فيصل كان يعني البيزنطيين. لإن الكلمة العربية للبيزنطيين هي «الروم».

36 ـ السير هاري سندرسون، مرجع سابق، ص. 128 ـ 129

37 ـ وزارة الخارجية 2519E/2154/34 رقم 225، من هور إلى جون سيمون طهران 19 أيار 1932

38 ـ السير هاري سندرسون، مرجع سابق، ص. 141

39 ـ توفيق السويدي، مرجع سابق، ص. 204 ـ 205

40 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 192 ـ 205؛ والكسندر سلون، من بغداد إلى وزير الدولة، واشنطن، 10 تشرين الأول 1932، دبلوماسية 294

41 ـ وزارة الخارجية 5950E/371/16049 من يونغ، بغداد إلى ج. سيمون لندن 3 تشرين الأول 1932، رسالة رقم 1060.

الفصل السادس والعشرون: النهاية المُفجعة

كانت المعارضة تنظر إلى الاستقلال الذي سعى إليه فيصل طويلاً، على أنه منقوص وغير كامل. فهذا الاستقلال وإن أخرج العراق من الوصاية البريطانية السافرة والمذلة، إلا أن ما ظلت تتمتع به بريطانيا من سلطة وامتيازات كانت لا تزال مهمة، بما يكفي، في الواقع، لإعطاء مصداقية لادعاءات المعارضة بأن العراق لا يزال مستعبداً للقوة العظمى. كان هناك ما يبرر هذا الرأي. كان استقلال العراق مشروطاً، بحيث لا يتعارض التوجه الاستراتيجي للعراق مع المصالح الحيوية لبريطانيا. ولم تكن هناك طريقة للتغاضي عن هذا الواقع. لكن فيصل لم يزعم، مثل الدكتور بأنغلوس في رواية فولتير(*)، أن كل شيء كان جيداً في أفضل العوالم الممكنة. كان مدركاً تماماً للشروط التي فرضتها بريطانيا على العراق عند موافقتها على المعاهدة الأنغلو ـ عراقية عام 1930. ومع ذلك، فقد اتبع وصفته البراغماتية المعتادة بقبول ما يمكن الاستحصال عليه إلى أقصى حد من خصمه، بدلاً من التمسك بالمطالب المستحيلة. كان يرى بنفسه أن تركيا وإيران قد تخلصتا بدرجات متفاوتة من سيطرة القوى الأجنبية، لكن العراق كان مختلفاً عن هذين البلدين. فالحرب التي خاضها مصطفى كمال من أجل الاستقلال منحته السلطة والقوة للسيطرة على بلاده بعيداً عن النفوذ الأجنبي. كما عمل رضا شاه بطريقته الخاصة على تحرير بلاده من التدخل الأجنبي. لكنه لم يكن مُثقلاً بنظام مرهق ومفروض عليه دولياً من الحماية والوصاية الأجنبية. استفاد الملك من تحرير العراق من إشراف بريطانيا على الشؤون الداخلية، ولكن الأهم من ذلك أنه أفاد الحلقة الضيقة من الطبقة السياسية من العرب السُنّة. ولهذا شارك قادة المعارضة مثل ياسين الهاشمي في احتفالات الاستقلال. لقد منحهم الوضع الجديد للعراق مطلق الحرية في متابعة صراعاتهم على السلطة والاستيلاء عليها دون الحاجة إلى أن يخشوا شيئاً. إلا أن المستفيد الأكبر من استقلال العراق، من وجهة نظر فيصل، سيكون الشعب العراقي نفسه. فهو سيوفّر لدولة ما زالت مجزأة وغير آمنة الإمكانية لرسم مستقبلها السياسي، دون قطع روابطها مع القوة الاستعمارية التي كان دعمها المستمر ضرورياً لاستقرار العراق وازدهاره.

كان فيصل، منذ وصوله إلى العراق عام 1921، مضطراً إلى خوض ثلاث معارك حاسمة على

(*) إحدى شخصيات رواية «كانديد أو التفاؤل» لفولتير. (المترجمان).

ثلاث جبهات مختلفة. الأولى شملت البريطانيين، وتهدف إلى توسيع الحيّز الممنوح للعراقيين بشكل عام، والملك على وجه الخصوص، لحكم البلاد. وكان لا بد من أن انتزاع السلطة من يد بريطانيا، والتي تبين أنها عملية مرهقة من التفاوض والتملّق والمواجهة والتآمر ضدها. الأمر الذي يتطلب الصبر والمثابرة والحكمة. كما اتسم سلوك فيصل تجاه البريطانيين بالإحباط والغضب وحتى اليأس. وقد تحدث المبعوثون البريطانيون أحياناً عن انفعالاته غير المنتظمة ونوبات غضبه المصطنعة. أعطت الانطباعات المتناقضة عن شخصيته، من خلال تقارير المسؤولين الذين يسعون وراء مصالحهم، ذخيرة كبيرة لأولئك الذين سعوا إلى التشكيك في صفاته أو أهدافه أو التقليل من شأنها. لكن لم يكن هناك شك في إصرار فيصل على قلب العلاقة مع بريطانيا، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير.

لم يكن لعراق عام 1932 أي علاقة بدولة 1921 الضعيفة والتي لم يكتمل تكوينها. وكانت الجبهة الثانية هي نضاله من أجل الهيمنة على الطبقة السياسية العربية السُنية الناشئة، والتي كانت بدورها ممزقة بالخلافات والخصومات. قام فيصل بقلب التحالفات داخل هذه الطبقة، لكنه حافظ دائماً على روابط حتى مع أكثرها نفوراً. كان لا بد من إبقاء طموحات هؤلاء القادة تحت السيطرة، وكانت استراتيجيته هي الحفاظ على القصر كنقطة مرجعية رئيسة لهم بدلاً من المقيمية، ومنعهم من الانتقال إلى، أو البقاء في حالة معارضة صريحة. لقد رعى الامتيازات الملكية واستغلها إلى أقصى حد لضمان تفوقه، وإن لم تكن هيمنته على الحياة السياسية في البلاد الكاملة. بحلول عام 1932، كان بلا شك الشخصية السياسية الأولى في البلاد، وأكثر من كونه الأول من بين المتساوين، ولكن أقل من مستبد صريح. لم يكن ذلك بالإنجاز العادي لشخص غريب ليس له جذور في الحياة الاجتماعية أو السياسية للبلاد.

كانت الجبهة الأخيرة وربما الأكثر إشكالية خلال فترة وجوده الذي استمر لأكثر من عقد من الزمان في العراق هو كيفية تطوير هوية وغاية مشتركة للبلد، للحفاظ على شرعيته وشرعية خلفاءه لدى الجماعات التي لا تعد ولا تحصى في البلاد. كانت هذه قضية ناضل فيصل من أجلها طوال حياته في العراق. وفي فترات معينة، كان يستاء من القادة الدينيين والمدنيين المهمين من الطائفة الشيعية، على سبيل المثال، أثناء الصراعات المريرة حول انتخابات الجمعية التأسيسية وطرد المجتهدين أو نفيهم. كان الأكراد أيضاً متشككين بشكل أساسي، بل ومعارضين بشكل مباشر، لشكل الدولة الموحدة الذي اقترحه فيصل، على الرغم من أن فيصل قد أدخل في إدارته عدداً متناسباً من الأكراد. كما كان زعماء العشائر متقلبين في دعمهم لحكمه، ونافسه السياسيون في بغداد للحصول على ولاءاتهم. حتى طبقات المثقفين المهنيين الناشئة والتي تدين بوجودها إلى مناصرة الملك القوية للتحديث والتعليم العالي، لكن هذا لم يمنعهم من التوجه نحو

نزعة قومية متطرفة والانجراف نحو عدم احترام الملكية، وصولاً للمطالبة بإقامة نظام جمهوري. ويمكن القول بعبارات واضحة بأن ما أبقى البلاد متحدة مادياً وسياسياً هو قوة وسطوة سلاح الجو الملكي البريطاني، وما وراءه من قوة استعمارية. لكن لا يُتوقع من البريطانيين صياغة رؤية وطنية للبلاد. كان على فيصل أن يتعامل مع معضلات حكم العراق.

مذكرة فيصل عام 1932

في وقتٍ ما بين خريف عام 1931 وشتاء عام 1932، كتب فيصل مذكرة رائعة من ثماني صفحات أرسلها إلى كبار السياسيين في البلاد لقراءتها والتعليق عليها[1]. وقد عرض فيصل في هذه المذكرة تأملاته في طبيعة الدولة التي يحكمها وصعوبات وآفاق صياغة هدف وطني مشترك. وتميزت المذكرة بنواحٍ عديدة، ليس فقط بمعالجتها المنهجية لمشاكل العراق، ولكن أيضاً كنافذة على تفكيره في مسائل ذات أهمية عميقة. لا توجد وثيقة أخرى مماثلة في التاريخ العربي الحديث ـ وقليل منها في أي مكان آخر، يشرح فيها الحاكم أفكاره العميقة حول ظروف بلاده وقضاياها التي كان يُفضّل تركها للمداولات الخاصة. قد يناقش القادة السياسيون وجهات نظرهم لاحقاً في مذكرات أو ذكريات عندما تكون تأثيرات بث هذه الآراء محدودة. لكن وثيقة فيصل هي محاولة منهجية للتصالح مع المشاكل الأساسية التي تواجه حاكم يُشرع في مسار التنمية الوطنية. لا يسع المرء إلا أن يتكهن لماذا سعى فيصل رسمياً للتعبير عن آرائه في شكل مكتوب، بدلاً من جلسات هادئة فردية مع مستشاريه ووزرائه. أفضل تفسير هو أنه أراد أن يترك أفكاره للأجيال القادمة وأن يبدد أي تكهنات بشأن دوافعه الحقيقية، كما أن توقيت المذكرة مهم أيضاً، فقد جاءت في وقت كان فيه الانتداب ينتهي، ويمكن لفيصل أن يتطلع إلى فترة يمكن فيها تنفيذ رؤيته للبلد دون النظر باستمرار من فوق كتفه إلى بريطانيا. لقد سعى بصدق إلى جذب الطبقة السياسية المتنوعة والمنقسمة في البلاد إلى الحوار من أجل صياغة رؤية وطنية للبلاد. أرسل المذكرة إلى طيف واسع من القادة، بغض النظر عما إذا كانوا مؤيدين للحكومة أو معارضين لها[2].

كتب فيصل على النحو الآتي: «كنتُ منذ زمن طويل، أحسُ بوجود افكار وآراء حول كيفية إدارة شؤون الدولة عند بعض وزرائي، ورجال ثقتي غير افكاري وآرائي. وكثيراً ما فكرتٌ في الاسباب الباعثة لذلك. في الاخير ظهر لي بأن ذلك كان ولم يزل ناشئاً من عدم وقوفهم تماماً على افكاري، وتصوراتي، ونظري في شؤون البلاد، وفي كيفية تشكيلها وتكوينها والسير بها. نظراً الى ما أراه من العوامل والمؤثرات المحيطة بها، والمواد الانشائية المتيسرة، وعوامل التخريب والهدم التي فيها، كالجهل واختلاف العناصر والاديان والمذاهب والميول والبيئات. لذلك رأيت

ُمن الضروري أن أفضي بأفكاري، وأشرح خطتي في مكافحة تلك الامراض وتكوين المملكة على اساس ثابت.

يصف فيصل العراق بأنه بلدٌ يفتقر إلى أساسيات الوحدة الاجتماعية المتماسكة، أي شعب يجمعه عرق مشترك ومجموعة من المعتقدات والدين. في هذه الحالة تتشتت إمكانات [العراق] وينقسم أهله على أنفسهم. لذلك يجب أن يتمتع السياسيون العراقيون بأعلى صفات الحكمة والكفاءة، وأن يكونوا محصّنين ضد الآراء الشخصية والطائفية والمتطرفة. كما يجب أن ينتهجوا سياسة العدالة والتوازن إلى جانب الحزم، فضلاً عن الاحترام الكبير لتقاليد الناس، وعدم الانجراف إلى سياسات رجعية أو متطرفة تؤدي إلى نتائج عكسية. ثم يمضي فيصل في تحديد الفئات السياسية العراقية المتضاربة: «الشبان المتجددون بما فيهم رجال الحكومة؛ المتعصبون والرجعيون، السُنَّة؛ والشيعة والأكراد، والأقليات غير المسلمة؛ والعشائر والشيوخ والسواد الاعظم الجاهل، المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة او محاكمة».

يحذّر فيصل من السعي الحثيث لتحقيق أهداف الحداثويين في الحكومة، المستعدين للتغلب على التقليديين على أسس زائفة بأن آراء المتعصبين كانت عديمة الفائدة في العصر الحديث. وكتب: «ان عدم المبالاة بالرأي بتاتاً مهماً كان حقيراً، خطيئة لا تُغتفر». لا تملك الحكومة القوة لفرض إرادتها على الجماهير و«علينا ان نسير بطريقة تجعل الامة مرتاحة، نوعاً ما، بعدم مخالفة تقاليدها». كما كان فيصل قلقاً للغاية من اختلال توازن القوة بين الحكومة والشعب. فالحكومة تمتلك 15000 بندقية في حين كان هناك 100000 بندقية في أيدي عامة الناس. «هذا النقص يجعلني اتبصر، وأدقق، وأدعو انظار رجال الدولة، ومديري دفة البلاد، للتعقل وعدم المغامرة».

يمضي فيصل بعد ذلك في وصف العراق فيما أصبح توصيفاً كلاسيكياً، وإن كان مثيراً للجدل.

«إن العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سُنّية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني. وهذه الحكومة تحكم قسماً كرديًا أكثريته جاهلة، بينه اشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونه للتخلص منها بدعوى انها ليست من عنصرهم، وهناك أكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصريًا الى نفس الحكومة، أي عربية إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكّنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه، والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم الى هذين المذهبين.. كل ذلك جعل ـ مع الاسف ـ هذه الاكثرية أو الاشخاص الذين لهم مطامع، الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق، والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويشوقون (أي يشجعون) هذه الاكثرية للتخلص من الحكم الذي يقولون بأنه سيئ جداً.. ولا ننكر ما لهؤلاء الدسّاسين من التأثير على الرأي البسيط الجاهل».

ثم يشرح فيصل بالتفصيل موقف الأقليات غير المسلمة التي شجعتها القوى الأجنبية على البقاء بمعزل عن الدولة للضغط عليها من أجل مزيد من الحكم الذاتي. كما أن تماسك الدولة مهدد من قبل العشائر، سواءً أكانت سنية أم شيعية أم أكراد، الذين يريدون البقاء مستقلين عن الدولة قدر الإمكان.

وفي مواجهة هذه المشاكل والقضايا التي لا تعد ولا تحصى، تُتهم الطبقة السياسية الحاكمة بأنها، بدورها، يهيمن عليها السُنّة، وغير متدينة، وعربية حصراً. وتتجاهل الطبقة الحاكمة الآثار المترتبة على هذه الصفات في خطرها. وهي تدفع باتجاه التحديث وتعتقد أنها أقوى من منتقديها. ثم يثير فيصل شبح اغتراب الشيعة والتهديدات التي قد يشكلها ذلك للدولة الجديدة. «ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة، وأنقل ما سمعته ألوف المرات، وسمعه غيري من الذين يلقون في أذهان أولئك المساكين البسطاء من الاقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم، ذلك أن الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسُني، فما الذي هو للشيعي؟ حتّى أيامه الدينية لا اعتبار لها... أقول هذا على سبيل المثال، وذلك للاختلافات الكُبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون. كما أن العقول البدوية، والنفوذ العشائري الذي للشيوخ، وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسّع نفوذ الحكومة، كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع والمظالم، تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم، وتعكّر صفو البلاد وسكونها، فإذا لم تُعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية، وحكيمة معاً ردحاً من الزمن، حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق وتتكون الوطنية الصادقة، وتحل محل التعصب المذهبي والديني، هذه الوطنية التي سوف لا تكون إلا بجهود متمادية، وبِسَوق مستمر من جانب الحكومة، بنزاهة كاملة، فالموقف خطير».

ثم يقدّم فيصل نقداً مدمراً لأوضاع العراق فيقول: وفي هذا الصدد اقول وقلبي ملآن أسى انه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية، خالية من اي فكرة وطنية، مشبعة بتقاليد واباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سمّاعون للسوء، ميّالون للفوضى، مستعدون دائماً للانتقاض على اي حكومة كانت، فنحن نريد ـ والحالة هذه ان نشكّل من هذه الكتل شعباً نهذبه، وندربه، ونعلمه، ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف، يجب ان يعلم ايضاً عظم الجهود التي يجب صرفها لإتمام هذا التكوين، وهذا التشكيل».

ويتناول الجزء الثاني من مذكرة فيصل الحلول التي اقترحها للتعامل مع هذا الظرف غير المقبول. لقد كانت مزيجاً معقداً من بناء سلطات الدولة المركزية، وخاصة قدراتها العسكرية، ووضع الدولة فوق التحيزات الطائفية مع احترام التنوع الديني والعرقي للبلاد، ووضع حدٍ للسلطات التنفيذية للحكومة المركزية. يعتقد فيصل أن الجيش يجب أن يكون لديه القدرة

على مواجهة حركات تمرد متزامنة في البلاد. «أما ما سأطلبه منه الان، هو ان يكون مستعداً لإخماد ثورتين تقعان (لا سمح الله) في آن واحد، في منطقتين بعيدتين عن بعضهما». وبعد أن يمتلك هذه الإمكانية، اقترح فيصل بعد ذلك إدخال التجنيد العام لبناء قوة الجيش، لمواجهة أي تحديات خارجية. كما أدرك فيصل أن المكون السني في طبقة الضباط في الجيش العراقي يجب أن يتغير. كان قد دفع في وقتٍ سابق لإنشاء مدرسة إعدادية خاصة لأبناء زعماء العشائر من الجنوب ذي الأغلبية الشيعية الساحقة لإعدادهم للالتحاق بالأكاديمية العسكرية، وكان دائماً مهتماً بشكل شخصي برؤية بعض التمثيل الشيعي على الأقل ضمن دفعة طلاب الضباط(3).

وفيما يتعلق بالموضوع الطائفي، يقترح فيصل سلسلة من الإجراءات التي من شأنها تقريب الشيعة من الدولة وزيادة فرصهم في المشاركة في الحكومة. يجب إلا تُظهر الحكومة أي انحياز طائفي، ويجب أن تهدف إلى توحيد التقويم الديني لطائفتي الإسلام. كما دعا إلى جهود تقودها الحكومة لتطوير العتبات المقدسة. ويجب على الحكومة «تعمير العتبات المقدسة، حتى يشعروا بأن الحكومة غير مهملة لتلك المقامات، التي هي مقدسة لدى الجميع، والتي هي كذلك من الآثار التاريخية التي تزين البلاد». أخيراً، يقترح فيصل إنشاء أوقاف خاصة للشيعة، بحيث لا يشعر قادتهم الدينيون أنهم تعرضوا للتمييز في تخصيص موارد الدولة والوظائف. وكان فيصل قد اقترح في وقتٍ سابق إنشاء كلية خاصة للإدارة لتحسين جودة الخدمة المدنية، وكذلك لجذب تمثيل طائفي وعرقي أفضل في المناصب العليا. مرة أخرى، قوبلت مقترحات فيصل بمقاومة من قبل شخصيات سياسية بارزة(4).

دعا فيصل، بما يتعلق بالسياسة التعليمية، إلى نظام يأخذ في الاعتبار احتياجات كل فئة اجتماعية مع تعزيز الانتماء للأمة. كان هذا يشكل تناقضاً واضحاً مع سياسات التعليم التي دعا إليها القوميون العرب المتطرفون، وخاصة مدير التعليم ساطع الحصري، الذي رغب في فرض نظام تعليمي موحّد مع تحيّز قومي عربي قوي. كتب فيصل: «أرجو ان تكون قضية المدرسة مطمئنة لكل سكان العراق، بأنهم سيشتركون فعلاً في خدمات الدولة، والاشتراك في خيرها وشرها مع اهل بغداد والموصل بصورة متساوية، وتزول تهمة (الحكومة السنية او العربية) كما يقول اصحاب الاغراض، من اكراد وشيعة». وتماشياً مع هذه السياسة التعليمية التوافقية، يدعو فيصل إلى قدر كبير من اللامركزية الإدارية. كان هذا غير متوقع في وقت كانت فيه التيارات الفكرية الحديثة تطالب جميعها بدولة مركزية قوية. «أقول بتحفظ: انه إذا أمكن اعطاء صلاحيات للألوية، شبيهة بمجالس الولايات في العهد العثماني، فسيكون ذلك من جملة اسباب تشويق سكان الالوية للاشتراك في الحكم» كما دفع فيصل إلى تقليص السلطات التنفيذية للدولة المركزية من خلال تعديل دستوري يفصل السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية.

كما عبّر فيصل، من خلال المذكرة، عن موقفه من الحريات والحقوق السياسية والديمقراطية. لقد كان رجلاً معتدلاً ومتفهماً، لكنه لم يكن معتاداً على المفاهيم الحديثة للديمقراطية. يعتقد فيصل أن الانقسام السياسي في العراق يجعل من الصعب فرض سلسلة كاملة من الحقوق الديمقراطية، دون أن يترتب على ذلك حدوث انقسامات وفوضى. فقد كان وجود مسؤول تنفيذي قوي ضرورياً لتوجيه البلاد واقتراح وتنفيذ الإصلاحات، لكن فيصل كان على استعداد لقبول الصحافة النشطة والمعارضة ما لم تنحرف إلى الممارسات الهدامة. «علينا ان لا ندع مجالاً للأحزاب (المصطنعة) والصحف والاشخاص، ليقوموا بانتقادات غير معقولة، وتشويه الحقائق، وتضليل الشعب، وعلينا ان نعطيهم مجالاً للنقد النزيه المعقول، وضمن الادب، ومن يقوم بأمر غير معقول يجب ان يعاقب بصرامــة». كما أصر أن «على موظفي الدولة أن يكونوا آلات مطيعة، ونافعة، حيث هم واسطة الاجــــراءات، ومن يحس منه انه يتداخل مع الاحزاب المعارضة، ان يحرّض ضد الدولة، يُنحّى عن عمله، وعليه ان يعلم انه موظف قبل كل شيء وخادم لأية حكومة كانت».

كما تتناول المذكرة قضايا اقتصادية ومالية مهمة. فقد دفع فيصل لإقرار قانون ملكية الأراضي الذي كان يهدف إلى حماية حقوق ووظائف ملّاك الأراضي والوكلاء والمزارعين. كان قلق فيصل من أن جوانب إعادة التوزيع المعتدلة للقانون ستخيف ملّاك الأراضي الكبار، وخاصة زعماء القبائل، وتدفعهم إلى الاعتقاد بأن الدولة تقف ضدهم. كانت قضية ملكية الأراضي والضرائب الزراعية محورية في الاقتصاد العراقي والمالية العامة. كما كانت أيضاً وسيلة يمكن من خلالها لزعماء القبائل وتجار المدينة والسياسيين الحصول على مساحات كبيرة من أراضي الدولة السابقة وتحويلها إلى إقطاعيات شخصية. ولم يكن النظام الجائر الذي تطور لاحقاً، مع تناقضاته الهائلة في الملكية الكبيرة وجوع الفلاحين إلى الأرض، من بين القضايا التي احتلت الواجهة في نهاية عهد فيصل[5].

نصّت مذكرة فيصل على دور الدولة في إطلاق الصناعات الرئيسة التي من شأنها أن تساعد في تنمية البلاد. على الرغم من عدم إيمانه بسيطرة الدولة غير المقيّدة على الاقتصاد، فقد أدرك فيصل أنه في بلد يعاني من ضعف قطاع الصناعات الحديثة وعدم كفاية رأس المال لدى القطاع الخاص، ويتوجب على الدولة أن تشرك نفسها في مشاريع التنمية الاقتصادية. كان فيصل قد دعم مشاريع البنية التحتية الكبيرة، لا سيما في مجال الري والسيطرة على الفيضانات، لكن ظروف الكساد الكبير أثّرت بشكل كبير على العراق. وكتب « أقول بكل اسف ان الزراعة أفلست في بلادنا، بالنظر لبعد مملكتنا عن الاسواق، لقد وضعنا الملايين لإنشاءات الري، ولكن ماذا نريد ان نعمل بالمحاصيل؟ اننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بأيدينا من منتوجات اراضينا،

فكيف بنا بعد اتمام هذه المشروعات العظيمة؟ هل القصد تشكيل اهرامات من تلك المحاصيل الخام والتفرج عليها؟ ماذا تكون فائدتنا منها إذا لم نتمكن من اخراجها الى الاسواق الاجنبية واستهلاكها في الداخل على الأقل؟ ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل ان نهيئ لها اسواقاً تستهلكها ونحن مضطرون الى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج».

دعا فيصل، وقد تأثر بالتجربة في تركيا وإيران، إلى سياسة الاستغناء عن المنتجات المستوردة والتي من شأنها ترسيخ الاستقلال الاقتصادي للعراق. «وعلينا ان نعاون المتشبثين من ابناء الوطن بصورة عملية فعّالة وعلينا ان نعطي الانحصارات لأبناء البلاد الى مدد معينة للذين فيهم روح التشبث. وإذا لم يظهر طالب أو راغب لإنشاء عمل صناعي ترى الحكومة انه مربح فعليها ان تقوم هي به ومن مالها الخاص أو مع رؤوس اموال وطنية إذا أمكن وإلا فأجنبية او كلاهما معاً». كما دعا إلى شكل مبكر من السياسة الصناعية المدعومة من الدولة. «على الحكومة ان تشكّل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف أنواعها كبيرة كانت أو صغيرة وتبدأ ببناء الاهم فالمهم وترشد الاهلين الى كيفية التشبث بالأعمال الصغرى وتقوم هي بالأعمال الكبرى إذا تعذر القيام بها من قبل الاهالي».

وكتب فيصل في الختام « انه لمن المحزن والمضحك والمبكي معاً ان نقوم بتشييد ابنية ضخمة بمصاريف باهظة وطرق معبدة بملايين الروبيات ولا ننسى الاختلاسات وتصرف اموال هذه الامة المسكينة التي لم تشاهد معملاً يصنع لها شيئاً من حاجاتها. وإني أحب أن أرى معملاً لنسيج القطن بدلاً من دار حكومة وأود ان أرى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي».

توفي فيصل بعد عام ونصف من كتابة المذكرة، فكانت لها ملامح وصية أخيرة وشهادة للأجيال القادمة حول رؤيته للوطن. إلا أنها لم تلق ما تستحق من اهتمام وانحدرت في غياهب النسيان. وعلى الرغم من ظهورها من وقت لآخر في نصوص بعض الأعمال التاريخية عن العراق، إلا أنها في حالات قليلة فقط لقيت ما تستحق من اهتمام. كما شعر قلة قليلة فقط من القادة السياسيين الذين وجّه إليهم فيصل المذكرة بضرورة الرد عليها. وحاول عبد الكريم الأزري الذي كان مساعداً لرئيس الديوان الملكي عام 1933. (وأصبح لاحقاً شخصية سياسية مهمة في العراق الملكي ووزيراً للمالية)، بعد وفاة فيصل، تجميع الردود من القادة السياسيين الذين وجه إليهم فيصل المذكرة، لكنه وجد اثنين فقط من الردود التفصيلية. كانا من ناجي السويدي وناجي شوكت[6]. وقد ذكرها بعض متلقي المذكرة في مذكراتهم، لكنهم لم يشيروا إلى ردودهم عليها. القادة الآخرون، مثل ياسين الهاشمي ورشيد عالي ونوري السعيد، لم يتركوا أي مذكرات، ومن ثم فإن ردودهم غير معروفة. وكان ردّ جعفر أبو التمن رداً لا معنى له من ثلاثة أو أربعة أسطر[7]. لقد كانت مؤامرة صمت مثيرة للفضول، وحتى شريرة، فيما يتعلق بواحدة من أهم الوثائق

السياسية في تاريخ العراق الحديث. لم يكن من الكسل أو النسيان هو دافع الغالبية التي لم ترد على فيصل، بل لأن المذكرة، التي جاءت من مثل هذا المصدر الموثوق، أثارت قضايا وأسئلة غير مريحة حول البلاد. من خلال الرد، كان سيُلزَم المستجيبون لاتخاذ موقف بشأن الأمور التي أثارها فيصل. لو اختلفوا مع المذكرة، لكانوا ينفون ما كان تقييماً واقعياً وموضوعياً لوقائع البلاد، وكانوا سيضطرون إلى طرح بديل معقول للقضايا التي يواجهها العراق.

فيصل والوحدة العربية

عززت معاهدة 1930 وانضمام العراق إلى عصبة الأمم من نفوذ فيصل في الشؤون الخارجية وفي المنطقة العربية بشكل كبير. وظل اهتمام فيصل بالشؤون العربية، الممتد من بلاد الشام وفلسطين والحجاز، حيوياً وثابتاً طوال عشرينيات القرن الماضي، لكنه كان مقيداً في قدرته على التأثير في الأحداث وصياغة السياسات بالوجود الطاغي لسلطات الانتداب البريطاني. لقد تم نقل الإدارة الفعلية للشؤون الخارجية للعراق إلى بريطانيا، مما جعل أيٍ من مبادرات فيصل في التعامل مع القضايا العربية متوقفة في نهاية المطاف على موافقة بريطانيا. الأمر الذي مما لا شك فيه قد أزعج فيصل. وبمجرد انتهاء الانتداب، انتهز فيصل بسرعة الفرصة التي أتاحها تحرير العراق من ظروف الانتداب ليضفي بصمته على المنطقة. لكن كان لا يزال يتعيّن عليه التعامل مع وقائع القوة في الشرق الأدنى وحقيقة أن بريطانيا وفرنسا كانتا إلى حدٍ بعيد القوتين المهيمنتين في المنطقة. فالانتداب البريطاني المضطرب لا يزال موجوداً في فلسطين، والفرنسيون يثبتون أقدامهم في سوريا ولبنان. بالإضافة إلى ذلك، أصبحت سياسات فيصل العربية مقيّدة الآن بعامل آخر: حقائق التركيبة العرقية والطائفية المعقدة في العراق والتوازن المحلي غير المستقر الذي يمكن أن تهدده السياسات والمغامرات الإقليمية المضللة بسهولة. وعلى وجه الخصوص، كان لا بد من ضبط فكرة الوحدة العربية بعناية للعب على النزعة العرقية لدى العرب الشيعة في العراق دون إثارة خوفهم الموازي من أن الوحدة مع الدول العربية ذات الأغلبية السنية في «الهلال الخصيب»[8] ستزيد من تقويض دورهم وموقعهم غير المستقر.

لن تكون رؤية فيصل العروبية، التي تمسّك بها بصدق، منطقية إلا إذا تجاوزت الانقسامات التاريخية بين الطوائف. ففي الحالات القصوى خلال الفترة العثمانية، على سبيل المثال، أُجبر الشيعة في العراق على التطلع نحو بلاد فارس من أجل تلقي العون والتوجيه. وكان فيصل قد شهد في قضية النصولي الآثار الضارة لشكل متهور من القومية العربية والمشاعر الطائفية التي يمكن أن يثيرها. لقد أدرك متأخراً التهديدات التي قد تشكلها الصيغ المتطرفة للقومية العربية في المدارس العراقية من خلال نظريات ساطع الحصري ومعاونيه على وحدة البلاد. لقد ألمح إلى

هذا الأمر في مذكرته عام 1932 عندما دعا إلى سياسة تعليمية تحترم خصوصيات كل مجتمع. إلا أن هذه المشكلة لم تكن لتزول. فقد كانت الأعداد الكبيرة من السوريين والفلسطينيين الذين تم توظيفهم في النظام التعليمي العراقي موضع استياء، ليس فقط بسبب أصولهم الأجنبية، ولكن أيضاً لأنهم روّجوا لنسخة من التاريخ العربي كانت مسيئة للشيعة[*] [9]. وفي عام 1933، قام عبد الرزاق الحسن بتوزيع كتيب شكّك من خلاله في الأصول العرقية لشيعة العراق واعتبرهم زنادقة وخاضعين لإيران. وكان ردّ فيصل أن سجن الكاتب واستنكر الكتيب في رسالة كتبها إلى المجتهد الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء. كانت قومية فيصل العربية مشروطة بحساسيته تجاه كل من الشيعة والأكراد، الذين شكلوا الأغلبية الساحقة في بلاده. إن الإحساس بأن طموحاته القومية مرتبطة بطريقة ما برغبته في إضعاف الأغلبية الشيعية/الكردية في العراق لا يصمد أمام التدقيق. ليس هناك شك في أنه رأى أن غلحاق ولاية الموصل في العراق يعزز قابلية استمرار دولته، لكن الموصل لم تجلب معها عدداً كبيراً من السكان العرب السُنّة فحسب، بل جلبت أيضاً عدداً كبيراً من السكان الأكراد والتركمان.

تُشكّل النزعة العروبية عند فيصل مزيجاً من الدوافع المعقدة، بما في ذلك الطموحات العائلية والشخصية، والاعتبارات الاقتصادية والاستراتيجية ـ بالإضافة إلى الإيمان بالفكرة نفسها. لم يتخلَّ فيصل عن مخططاته لإقامة الوحدة العربية، أو بشكل أكثر دقة الكونفدرالية العربية، نظراً للإشكاليات التي قد تثيرها بما يتعلق بالتوازن العرقي والطائفي في العراق. إن الفكرة القائلة بأن العراق قد يكون بمثابة محرك لنهضة عربية، على غرار الدور الذي لعبته بروسيا في توحيد ألمانيا، أو بيدمونت في إيطاليا، قد نمت في أوائل الثلاثينيات[10]. أعجب البريطانيون خلال المفاوضات حول معاهدة 1930 باهتمام الجانب العراقي بأثر المعاهدة على الدول العربية الأخرى، لا سيما سوريا. وأشار السير فرانسيس همفريز إلى أن الحكومة العراقية رأت أن الدولة العراقية المستقلة هي «الخطوة الأولى نحو الهدف البعيد المتمثل في الوحدة العربية»[11].

ولقد اتبع الرأي العام القومي العربي خارج العراق خطى المعارضة العراقية. فقد ابتهج القوميون العرب بالاستقلال الذي حققه العراق وقارنوه بشكل إيجابي مع عدم الاستقرار المتزايد في فلسطين الواقعة تحت الانتداب والصعوبات التي يواجهها الفرنسيون في سوريا. حيث كتب شكيب أرسلان في عام 1931، باعتباره الداعم للوحدة العربية الإسلامية: «لا يمكن للعراق، في الوقت الحاضر، أن يحقق أكثر مما حققه بالفعل في تأمين حقوقه... ولا يمكنه الحفاظ على حقوقه حتى تتأسس الوحدة العربية التي ندعو إليها»[12].

(*) هو كتاب: (الدولة الأموية في الشام) للمؤلف اللبناني والمدرّس في العراق أنيس زكريا النصولي، الذي أشار إليه المؤلف سابقاً. (المُراجع).

كما كان للوحدة الأكبر بين الدول العربية التي تم اقتطاعها من الإمبراطورية العثمانية معنى اقتصادياً. فقد أدى تقسيم الشرق الأدنى إلى تعطيل طرق التجارة التقليدية بشدة، خاصة على طول المحور الذي يمتد من حلب عبر الموصل إلى إيران. إن زيادة التدفقات التجارية لن يكون لها إلا تأثير إيجابي على المالية العامة الضئيلة للعراق. اهتم فيصل شخصياً بتطوير الطرق الصحراوية للسيارات التي تربط بغداد بدمشق وعمّان، وكان مدافعاً قوياً عن بناء خط أنابيب من حقول النفط في شمال العراق إلى ميناء حيفا في فلسطين[13]، كما ضغط على شركة نفط العراق، التي خلفت شركة النفط التركية، لبناء خط سكة حديد إلى جانب خط الأنابيب.

دفعت الثورة السورية عام 1925 الفرنسيين، على الأقل لبعض الوقت، للنظر في إمكانية تنصيب فيصل، أو أحد إخوته، ملكاً على سوريا. لكن هذه المقاربات، التي بلغت ذروتها خلال زيارة فيصل إلى فرنسا في خريف عام 1925، تراجعت عندما أعاد الفرنسيون تأكيد سيطرتهم على سوريا. كان الفرنسيون ينظرون إلى فيصل كقوة وسيطة مع القوميين في سوريا في أحسن الأحوال، لكن هذه المقاربات الأولية لم تمنع المقيمية في بغداد من تقديم تقارير مقلقة حول مؤامرات فيصل الانتقامية وطموحاته في استعادة العرش في سوريا. حيث كتب دوبس في حالة ذعر شديد: «سوف يمتلئ عقله المتحمس مرة أخرى بحلم استعادة مجد الإمبراطورية العربية المبكرة على الفور. وبتشجيعه سترتفع أشكال القومية العربية المتطرفة مرة أخرى هنا وفي سوريا، داعية إلى المودة، البكاء لبعضها البعض»[14]. وفي الواقع، أظهرت حكومة فيصل والسعدون ضبطاً ملحوظاً للنفس في مواجهة القوة الفرنسية الهائلة المستخدمة ضد الثائرين السوريين. إلى جانب لجنة تشكلت برعاية ياسين الهاشمي لتقديم الإغاثة لضحايا الانتفاضة السورية، لم يكن هناك الكثير مما فعله فيصل أو الحكومة لدفع فكرة استعادة الحكم الفيصلي في دمشق. حتى زيارة عبد الرحمن الشهبندر القومي السوري الموالي لفيصل إلى العراق عام 1925 لحشد الدعم لقضية الثائرين السوريين قوبلت بلامبالاة رسمية. كان فيصل مدركاً تماماً للعقبات التي يمكن أن يضعها البريطانيون في وجه أي مخطط لتعزيز مصالحه في سوريا، وكان يشك أيضاً في قدرة الثوار السوريين على التغلب على التفوق الفرنسي في سوريا، على المدى القصير على الأقل.

بقيت القضية السورية جامدة إلى أن حصل العراق على قدر من السيطرة على شؤونه بعد توقيع المعاهدة الأنغلو ـ عراقية عام 1930. وما أن شعر بأن المناخ قد تغيّر وأن فرنسا كانت تبحث عن مخرج معقول من مستنقعها السوري، بدأ فيصل بتقوية قاعدة دعمه في دمشق. ففي صيف عام 1931 أرسل ياسين الهاشمي إلى دمشق لتجنيد القيادي السوري البارز فارس الخوري لقضية استعادة الحكم الفيصلي في دمشق. كان الخوري زعيم الكتلة الوطنية، الجماعة

المعارضة السورية الرئيسة، وكان دعمه لفيصل ميزة كبيرة لحملة فيصل التي ما زالت مترنحة لتعزيز الوحدة العراقية السورية تحت رايته. في أيلول (سبتمبر) 1931 زار فيصل فرنسا، ظاهرياً للقيام بجولة في معرض المستعمرات، واحتفت به الحكومة، والتي تضمنت لقاء الرئيس وغداء مع وزير المستعمرات بول رينو. وقد شرب الأخير نخب فيصل «ملك العرب». لكن لقاء فيصل بوزير الخارجية الفرنسي لم يكن أقل تشجيعاً. اقترح بيرثيلو، الذي كان فيصل يعرفه منذ سنوات، أن السوريين سيكونون أحراراً في الاختيار بين الجمهورية والملكية عندما تتنازل فرنسا عن السلطة لحكومة وطنية سورية مستقلة. كما التقى فيصل في باريس بأنصاره السوريين، بمن فيهم فارس الخوري وإحسان الجابري. وكان شكيب أرسلان، المدافع عن الإسلاميين المنفيين والأمير الدرزي، حاضراً أيضاً. كان أرسلان، الذي كان مقر إقامته في جنيف، مؤيداً لا يعرف الكلل للإمبراطورية العثمانية، لكنه الآن ينظر إلى فيصل على أنه بطل الوحدة التي سعى إليها للأراضي العربية. حتى أنه دفع بقضية فيصل باعتبارها الخيار الصحيح ليكون ملكاً لسوريا مع ابن سعود[15]. أصبح أرسلان زائراً منتظماً لفيصل خلال خلواته الصيفية في أوروبا، أولاً في أنتيبس [مدينة ساحلية فرنسية على البحر المتوسط] عام 1930 ثم أثناء إقامة فيصل في سويسرا، عادةً في بيرن. كما استقبل فيصل على انفراد في شقته في جنيف[16]. في هذه الاجتماعات، نسّق فيصل الاستراتيجية مع هؤلاء القادة السوريين، وشجعهم على دفع الكتلة الوطنية إلى دعمه كملك لسوريا المستقلة، الموحدة مع العراق.

بعد عودته إلى بغداد قام فيصل بإرسال رستم حيدر إلى دمشق لحشد الدعم ولضمان وجود مجموعة مؤيدة للملكية في البرلمان السوري بعد انتخابات كانون الأول (ديسمبر) 1931 في البلاد، لكن الحدث الذي فشل فيه فيصل هو إنشاء أساس لحركة قوية لإحياء الملكية في سوريا، ويرجع ذلك إلى أن المعارضة السورية كانت في الأساس لصالح النظام الجمهوري من جانب، وبسبب الانقسام داخل الكتلة الوطنية من جانب آخر. كما لم يحظَ فيصل بالتزام عائلته الصادق باستعادة العرش السوري. كان أخوه عبد الله أيضاً عينه على العرش، وكان ينظر بقلق إلى أنشطة فيصل في باريس[17]. أيضاً، الآن، بعد أن بدا عرش سوريا، وإن لم يكن له وجود على أرض الواقع، وكأنه في متناول اليد، فهب ملوك عرب آخرون إلى المنافسة. فدفع خديوي مصر السابق، عباس حلمي باتجاه ترشيحه، كما فعل الملك فؤاد ملك مصر، ولفترة من الوقت تمت الإشارة إلى الأمير فيصل، نجل ابن سعود، كملك محتمل لسوريا.

لم يكن البريطانيون معنيون بمشاريع فيصل الوحدوية، وبعد فترة من المراوغة، اتخذت وزارة الخارجية موقفاً معارضاً بحزم للوحدة العراقية السورية، أو في الواقع أي وحدة من شأنها قلب أو تعديل تقسيم الشرق الأدنى العربي. وبالرغم من تظاهرها باللامبالاة تجاه عرض العرش

السوري على الملك السابق علي، كونها كانت مدركة تماماً أنه من غير المرجّح قيام فرنسا بذلك، إلا انها عارضت بشدة أي مشروع من شأنه أن يُدرج فلسطين ضمن أي صيغة وحدوية، والتي من شأنها أن تجهض سياسة بريطانيا بالالتزام بإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. كما كان جذب الدول الأصغر الواقعة تحت الحماية البريطانية، مثل الكويت، إلى المشاريع الوحدوية نتيجة قررت بريطانيا تفاديها[18]. وقد خلصت اللجنة الفرعية الدائمة لشؤون الشرق الأوسط التابعة لمجلس الوزراء البريطاني في 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1931 إلى أنه يجب على بريطانيا منع اتحاد العراق وسوريا وذكرت بوضوح أن أي محاولة من قبل فيصل للاستيلاء على تاج سوريا تتعارض مع المصالح البريطانية[19]. وفي تحليل أكثر غرابة لآفاق الوحدة العربية، خلصت وزارة الخارجية إلى أنه إذا تم دمج العراق وسوريا، فإن العراقيين سينجذبون نحو العيش في دمشق أو لبنان، وهما بيئتان أكثر صحة. فدمشق، بعد كل شيء، «مدينة أكثر سعادة من بغداد». بعد ذلك، سيتسرب النفوذ الفرنسي شرقاً إلى العراق، مما يعرض العلاقة بين العراق وبريطانيا للخطر![20]. لذلك كان من الأفضل إبقاء الشرق الأدنى العربي مقسماً إلى مناطق النفوذ التي انبثقت عن الحرب العالمية الأولى.

إلا أن فيصل مضى قدماً في مشاريعه الوحدوية الخاصة به. كانت تشبه بشكل ملحوظ ما أصبح يُعرف فيما بعد بمشروع توحيد «الهلال الخصيب»: العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين. وقد أوضح نوري السعيد خطط فيصل بشكل أفضل في مناقشة مع أحد موظفي وزارة المستعمرات في أيلول (سبتمبر) 1932. ففي هذه المحادثات، قال نوري أن هدف فيصل كان إنشاء اتحاد كونفدرالي من الدول العربية يشمل دول الهلال الخصيب الذي قد يُضاف إليه الحجاز بعد وفاة ابن سعود. كان فيصل واثقاً من أن مملكة ابن سعود ستتفكك بعد وفاته، وأن الحجاز سيعود بعد ذلك إلى الحظيرة الهاشمية. لم يُفصح فيصل عن طبيعة الحكومة التي ستكون لسوريا، لكن لم يكن لديه شك في أنها ستدور في فلك العراق. كما سيتم ضم شرق الأردن إلى العراق. وبدا الطريق أمام دولة عربية كونفدرالية، تحت قيادته، ممهداً. وكتب همفريز أن «هدفه (فيصل) ثابت، لكن من المرجح أن تتكيف الوسائل التي يتم من خلالها تحقيقه مع الاتجاه الذي تتخذه الأحداث الجارية»[21].

انعقد المؤتمر الإسلامي في القدس في كانون الأول (ديسمبر) 1931، لمناقشة الوضع المتدهور لعرب فلسطين. وقد شارك العراق فيه بفاعلية، وفي أعقابه دعا القوميون العرب، بقيادة حزب الاستقلال السوري، إلى عقد مؤتمر قومي عربي. اغتنم فيصل الفكرة ودفع لعقد المؤتمر في بغداد. والتقى باللجنة المنظمة للمؤتمر خلال زيارته إلى عمّان والقدس في أيلول (سبتمبر) 1932، وبدا أنه قد أثار إعجابهم بأفكاره حول الوحدة العراقية السورية[22]. وفي تشرين

الثاني (نوفمبر) 1932، أرسل ياسين الهاشمي إلى مدن عربية مختلفة من أجل حشد الدعم لخطته لعقد مؤتمر عربي في بغداد. أبلغ همفريز وزير الخارجية السير جون سيمون بالتفصيل عن خطط فيصل: «لا شك في أنه (فيصل) لا يزال يأمل ويعمل من أجل اتحاد وثيق تحت حكم أسرته في جميع الأراضي العربية في آسيا... لم يتوقف قط عن رعاية مؤيديه السوريين بعناية ولا عن البقاء على اتصال وثيق بالعناصر القومية في سوريا... خطته هي أن المؤتمر [العربي] يجب أن يحقق الوحدة بين العرب من خلال السعي وراء هدف مشترك واضح المعالم بدلاً من الفوضى الحالية في وجهات النظر المتضاربة... كما أن جلالة الملك يجاهر بأنه يعتقد أنه من خلال جمع عدد من ممثلي القادة العرب في بغداد، سيكون قادراً على إقناعهم بالبرهان بواقع الاستقلال الذي حققه العراق»[23]. وسرعان ما اتخذت بريطانيا موقفاً معارضاً لعقد المؤتمر، ومارس همفريز ضغوطاً لا هوادة فيها على فيصل للتخلي عن الفكرة.

أرسل همفريز برقية إلى لندن في 25 شباط (فبراير) 1933 مفادها أن فيصل قد تخلى عن فكرة عقد مؤتمر على الأقل حتى خريف ذلك العام. أثار همفريز احتمال أن تشعر فرنسا بالتهديد من مثل هذا الاجتماع. أراد فيصل بعض التأكيد على موقف بريطانيا الحقيقي من الوحدة العربية. كتب همفريز: «سألني أن أطلعه على الموقف العام لحكومة جلالة الملك تجاه نموذج الوحدة العربية، الذي كان يعني له الكثير. هل كان الموقف نفسه الذي تم شرحه له في عام 1921، أم أننا غيّرنا وجهات نظرنا منذ ذلك الحين؟». وسواء كان سؤال فيصل بهدف الخداع أو السخرية أو كان سؤاله صادقاً، إلا أنه كان يعلم أن توحيد جزء صغير من الأراضي العربية المجزأة سيتطلب صراعاً شاقاً.

واصل فيصل سعيه للحصول على الدعم البريطاني لمشاريعه الوحدوية من خلال مغازلة المصالح البريطانية، وكيف يمكن حمايتها على أفضل وجه من خلال استقطاب العراق لدول الشرق الأدنى المتباينة إلى تحالف متماسك مؤيد لبريطانيا. فأجرى خلال زيارته الرسمية لبريطانيا في تموز (يوليو) 1933، محادثات مع سيمون حول آفاق الوحدة العربية تحت قيادة العراق. واقترح طرح موضوع الانتداب الفرنسي في سوريا أمام عصبة الأمم والمطالبة بتحرير سوريا من السيطرة الفرنسية. وعندما أبدى البريطانيون مرة أخرى اعتراضهم على المؤتمر العربي المقترح، كان ردّ فيصل أنه «يولي أهمية للعمل مع حكومة جلالة الملك على سياسة من شأنها أن تقدم أملاً معقولاً لتحقيق تطلعات عربية أكثر بكثير من المؤتمر، وبعد الاتفاق على مثل هذه السياسة، سيستخدم كل ما لديه من نفوذ لمنع انعقاد المؤتمر في بغداد أو في أي مكان آخر»[24]. ولم يتلق فيصل أي رد من وزارة الخارجية فيما يتعلق بسياسات بريطانيا الحقيقية في المنطقة العربية، وتوفي فيصل بعد شهرين من آخر زيارة قام بها إلى بريطانيا.

فلسطين والحركة الصهيونية

كان فيصل، طوال فترة حكمه الأولى، حذراً في التعبير عن آرائه حول الوضع في فلسطين ومخاطر زيادة التوترات بين السكان العرب الفلسطينيين والمهاجرين اليهود. كما حافظ على علاقات ودية مع الجالية اليهودية الكبيرة في العراق، وكان لديه قنوات مفتوحة مع قادتهم السياسيين والتجاريين والدينيين. كان رأيه المؤكد أن الصهيونية لن تهتم كثيراً بيهود العراق. كانوا من السكان الأصليين للبلاد مثل سكانها العرب. لكن بحلول أواخر عشرينيات القرن الماضي، شهد المزاج السائد في العراق توتراً حاداً في أعقاب الأحداث في فلسطين. وكانت المظاهرات التي أعقبت زيارة السير ألفريد موند إحدى تجلياته، وبدأت المخاطر على الهوية العربية لفلسطين تثير قلق الأندية القومية والقادة السياسيين. وقام بعض الوزراء بمحاولات لتطهير بعض موظفيهم اليهود، لكن هذه المحاولات جوبهت بمعارضة من قبل فيصل. وجّه رستم حيدر مذكرة إلى الوزراء المعنيين، أبلغهم فيها باستياء فيصل من هذه الإجراءات وطالبهم بالتراجع عنها[25]. يمكن إرجاع نشأة الأنشطة المنظمة واسعة النطاق ضد الصهيونية في العراق إلى هذه التطورات. وفي بغداد ترأس سياسيون بارزون مثل ياسين الهاشمي وجعفر ابو التمن لجنة لدعم العرب الفلسطينيين. كما تم تنظيم مسيرة حاشدة في مسجد حيدر خانة، إحياءً لذكرى ثورة العام 1920، حيث أُلقيت خطابات تندد بوعد بلفور والسياسة البريطانية في فلسطين. وسرعان ما أصبح الوضع في فلسطين ومعاداة الصهيونية من القضايا الرئيسة التي حشدت الرأي العام القومي في جميع أنحاء الأراضي العربية، ولم يكن العراق استثناءً من ذلك. وشجع فيصل الاهتمام المتزايد بالقضايا الفلسطينية على أساس قناعة قومية من جانب، ولكن أيضاً كجزء من مناوراته السياسية المعقدة مع البريطانيين. وبدورها أبدت المقيمية البريطانية انزعاجها من تزايد المشاعر المعادية لبريطانيا في العراق نتيجة الأوضاع في فلسطين. فأمر فيصل ورئيس الوزراء آنذاك توفيق السويدي، تحت ضغط من المقيمية، بإغلاق صحيفتين نقلتا تقارير تحريضية عن الوضع في فلسطين. كما اقترح فيصل، خلال اجتماع مع القائم بأعمال المفوض السامي هوبرت يونغ في 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1929، أن الحكومة البريطانية قد ترغب في الاطلاع على آرائه حول الأزمة في فلسطين. من الواضح أنه كان قد حضّر أفكاره حول هذه المسألة. وعندما أعربت الحكومة البريطانية عن اهتمامها بآراء فيصل، كانت مذكرته جاهزة. كانت وجهة نظره الأكثر تفصيلاً ودراسةً حول المسألة الصهيونية والسياسات المناسبة لإدارة المواجهة المتزايدة بين السكان العرب واليهود في فلسطين.

كانت مذكرة فيصل على شكل رسالة من ثماني صفحات إلى يونج مؤرخة في 8 كانون الأول (ديسمبر) 1929[26]. وقد استهلها بعرض خيارين مفتوحين أمام البريطاني للتعامل مع الأزمة:

إما الاعتماد على استخدام القوة وتجاهل آراء السكان؛ أو «السعي لإرضاء السكان والأطراف المعنية والتوفيق قدر الإمكان بين مطالبهم. وسيكون هذا هو المسار المثالي». وسرعان ما نحّى المسار الأول، الذي ستترتب عليه تكاليف ضخمة وتنطوي على تمركز دائم لحامية عسكرية كبيرة في فلسطين. كان المسار الثاني هو الخيار الوحيد القابل للتطبيق، لكنه سيتطلب مراجعة التعهدات المقدمة للعرب واليهود فيما يتعلق بمطالبهم المتضاربة بفلسطين. وقد حدد التعهدات الممنوحة للعرب على أنها تلك التي أُعطيت للشريف حسين قبل الثورة العربية وأثنائها، وتلك المنصوص عليها في إعلان الحلفاء بعد الهدنة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1918. إن التعهد الممنوح لليهود والمضمّن في وعد بلفور هو مصدر الصراع. «أعتقد أنه لولا التعهد الذي قُطع للصهاينة، لم تكن هناك حاجة لمناقشة التعهدات المقدمة للعرب، لأن هؤلاء هم سكان الأرض الأصليون ولا يمكن أن يحمل إعلان عام 1918 أي سوء فهم أو حجة». ويتابع فيصل في إدانة ضمنية لمطالب الصهاينة الراديكاليين: «أما الصهاينة فهم يدّعون أن وعد بلفور يجعل من فلسطين وطناً قومياً لهم. وبينما يزعم الصهاينة ذلك، يعلنون، على الرغم من كونهم أقلية، أن الهدف من هذا التعهد هو إقامة حكومة يهودية بحتة لا يشارك فيها أي طرف آخر. ونجد أنهم لا يأخذون بعين الاعتبار أي عرق آخر حتى العرق الذي يشكل أغلبية ساحقة، والذي استقر في البلاد لمئات السنين ويملكون نفس الوعود المقدسة التي يدّعي الصهاينة أنفسهم أنها لديهم. إن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو العودة إلى «الوعد المسؤول عن خلق هذا الوضع المضطرب وتفسيره بطريقة تمكن من تحديد نطاقه وطريقة تفعيله». ثم يوضح فيصل فهمه لمعنى «(الوطن القومي اليهودي). كانت سياسة الحكومة البريطانية التي طالما صرحت بها هي أنها لم تكن تنوي طرد العرب، دفعة واحدة أو تدريجياً، من منازلهم واستبدالهم باليهود، بهدف إقامة حكومة يهودية بحتة في فلسطين، لكنهم كانوا يقصدون فقط إيجاد ملجأ لليهود... من أجل أن يجد أي يهودي إذا رغب في الملجأ مكاناً يمكن أن يحتمي ويسكن فيه». استند حل فيصل للأزمة في فلسطين على هذا الفهم الأساسي لمعنى وعد بلفور. بعد ذلك يجب على العرب التوقف عن المطالبة بإلغائه، ويجب على اليهود قبول هذا التعريف التقييدي النهائي لمعنى وطنهم القومي.

الحلول التي قدّمها فيصل تندرج بشكل رئيسي ضمن خططه الخاصة للوحدة العربية. الحل المثالي هو الضغط من أجل قيام دولة تجمع بين العراق وسوريا وفلسطين لتشكيل «الوطن القومي للجنس السامي، العربي واليهودي». واعترف بأن هذه النتيجة هي «بعيدة المدى ومعقدة (أو صعبة) ولكنها تستند إلى مبادئ سامية»، ومن ثم فهي تستحق الدراسة. الحل الثاني كان توحيد فلسطين مع شرق الأردن، وهو احتمال صعب أيضاً. والثالث، والأكثر واقعية، كان

تشكيل حكومة وطنية منتخبة في فلسطين، حيث يلتزم جميع الأطراف الصمت حيال وعد بلفور، مع حصة ثابتة للهجرة اليهودية محدودة بالقدرة الاستيعابية للبلاد.

كان رد فعل البريطانيين فاتراً في البداية، ثم تحول إلى رد فعل سلبي. لم يكن البريطانيون مستعدين للتخلي عن الانتداب على فلسطين. وتابع فيصل، من ناحية أخرى، بإصرار مقترحاته بشأن فلسطين وأثارها مرة أخرى مع الحكومة البريطانية خلال زيارته الرسمية لبريطانيا في تموز (يوليو) 1933. وسجّل السير فرانسيس همفريز، السفير البريطاني في بغداد في حينها، المحادثة التي أجراها معه فيصل في فندق هايد بارك، لندن في 13 تموز (يوليو) 1933. فقد أشار فيصل إلى «المد المتصاعد للهجرة اليهودية والتدهور المستمر للوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعرب». كما أعرب عن ثقته في أن عرب فلسطين سوف ينضمون إلى حكومة تمثيلية «بشرط أن يحصلوا على تمثيل مناسب وأن يتم وضع حد نهائي لتدفق الهجرة اليهودية». كان التحكم في الهجرة أمراً ضرورياً للغاية وفقاً لفيصل، «وإلا فسيتم إخراج العرب في المستقبل القريب من فلسطين أو تحويلهم إلى حالة عبودية اقتصادية واجتماعية». لقد كان تحذيراً تنبؤياً لما سيحدث بالفعل. كما أبدى فيصل حساسيته تجاه الاتهام بأن آراؤه بشأن فلسطين كانت ببساطة تخفي طموحاته في بسط حكمه ونفوذه. لقد أدرك أن علاقاته الودية مع بريطانيا ستكون صعبة إذا نشأ صراع جاد بين العرب واليهود. كما كان لفيصل بعض الكلمات القاسية فيما يتعلق باستئجار وبيع الأراضي العربية في شرق الأردن لليهود. لقد تورط شقيقه عبد الله في مخطط لبيع الأراضي للمستوطنين اليهود واستخدام العائدات لتوسيع ممتلكاته الخاصة. كان فيصل ساخطاً وشنّ هجوماً لاذعاً على أخيه. وكتب همفريز أنه خلال أحد الاجتماعات في 7 آذار (مارس) 1933 «عبّر فيصل عن مشاعره حول عبد الله بحدة غير معتادة، معلناً أنه [« عبد الله] جلب العار والهوان على عائلته وكل ذلك عدا الخراب على نفسه. إن مكانته تتراجع والاحترام الذي يتمتع به في بلده يتضاءل بسرعة»[27]. عرض فيصل على عبد الله أن يستأجر الأرض بنفسه. ودفع رد عبد الله فيصل إلى البكاء على حالة أخيه المؤسفة. وقد تذمر عبد الله من عجز فيصل في بلده، واضطراره لقبول مذلة الاعتراف بابن سعود كحاكم في وطنه الحجاز. كتب همفريز: «لقد وبخ عبد الله فيصل على خيانته للأسرة الهاشمية [بعقد التسوية مع ابن سعود]». منذ ذلك الحين، كان فيصل حريصاً على إثبات أنه كان على حق وأن عبد الله كان مخطئاً، وكان يحثه على الاعتراف بابن سعود ومواجهة ما لا مفر منه[28].

الحكومة الكارثية

كان اختيار فيصل ناجي شوكت ليحل مكان نوري رئيساً للوزارة خطوة مرحلية بأحسن الأحوال. لم يكن ناجي يحظى بدعم سياسي مستقل فقد قضى معظم حياته كموظف في مناصب الدولة العليا. وهو من مواليد الكوت بالعراق عام 1893. كان والده شوكت باشا، من أصل قوقازي، عضواً في مجلس النواب العثماني. كما أن ناجي نفسه كان ضابط احتياط في الجيش العثماني وحضر معارك الكوت عام 1915، وقد أسره الجيش البريطاني عندما دخل بغداد وأصبح أسير حرب في مخيم الهند، ومن هناك التحق بالثورة العربية. وعمل بعد عودته إلى العراق عام 1919 حاكماً لعدد من الأقاليم وفي أعمال إدارية طوال عقد العشرينات. كان رجل ذو مبادئ ومهذب ويعاني من صمم حاد جعل التواصل معه أمراً صعباً[29].

كانت حكومته تتكون من موظفين يشبهون حالته. لم يكن أحد يعتقد ولا حتى المفوض السامي أن حكومته سيكتب لها البقاء. ويبدو أن مهمتها الأولى كانت الأشراف على إجراء الانتخابات العامة من أجل تشكيل مجلس جديد يحل محل المجلس المليء بأزلام نوري السعيد. كما أن المجلس الجديد سيمنح فيصل الفرصة لإعادة المعارضة، وخاصة ياسين الهاشمي، للمشاركة في السلطة. شاركت أحزاب المعارضة في الانتخابات وهي على يقين أن القصر سيرحب هذه المرة بمرشحيهم. لقد قدّمت حكومة ناجي مجلساً من النوع الذي يسعى إليه فيصل. وفي 18 آذار (مارس) 1933 قدَّم ناجي استقالته كرئيس للوزارة، وكانت هذه أول وآخر مرة يترأس فيها الحكومة. كانت إنجازاتها ضعيفة، وأهمها جعل قيادة السيارات على الجانب الأيمن من الشارع بعد أن كان البريطانيون ألزموا العراقيين بقيادة السيارة على الجانب الأيسر!.

أما رئيس وزراء فيصل التالي فهو رشيد عالي. وقد سبق أن عُين رئيساً للديوان الملكي في حزيران (يونيو) 1922 ضمن تحرك يهدف في جانب منه إلى استيعاب شخصية معارضة ضمن فريق القصر، وكوسيلة للضغط على حكومة نوري. كان رشيد عالي مخطِطاً بارعاً وسياسياً طموحاً. ولم يكن ولاءه لفيصل، الذي يعبر عنه أحياناً بشكل مبالغ فيه، ليقف بوجه طموحه. ورغم أن والد رشيد كان عضواً في عائلة الكيلاني الشهيرة لكن والدته كانت من أسرة متواضعة. وهذه حقيقة لوّنت شخصيته وتصرفاته. كانت حكومته يهيمن عليها ياسين الهاشمي الذي عاد في منصب وزير المالية، وقد كان فيصل يريده أن يكون رئيس الوزارة التالي، ولكن ياسين رفض. وقد عيّن رشيد وبتوجيه من فيصل، نوري السعيد وزيراً للخارجية. كان فيصل يعتقد أن مهمة الوزارة، التي كانت نسخة معدلة عن «الائتلاف الوطني» هو ما يسعى إليه منذ زمن بعيد، وهي التركيز على الأمور الملحة المتعلقة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية. وكان فيصل يتصور أيضاً أن بنود

معاهدة 1930 لن تكون مطروحة للمزيد من النقاش. واعتقد بأنه إن لم يكن قد ضمن دعم المعارضة لبنود المعاهدة فقد ضمن على الأقل وقوفها على الحياد وإن على مضض.

لكن زعماء المعارضة السابقين الذين باتوا يتولون المناصب كانوا يلعبون لعبة مزدوجة خلف الستار. لقد نظّموا حملة لتقويض المعاهدة والمطالبة بمراجعة بنودها في حين كانوا يؤكدون علناً بأنهم ملتزمون بهذه البنود. كما أن معارضة المعاهدة تعززت من خلال تشكيل جماعة الأهالي، وهي مجموعة من المهنيين الشباب الذين ينتمون لعائلات معروفة. وقد أصدروا صحيفة الأهالي الواسعة الانتشار واتخذت خطاً معادياً[30].

كما بدأت الحكومة تصر على صلاحياته في مواجهة رغبات فيصل، كما حدث عندما ماطلت في الموافقة على تخصيص قطعة أرض لبناء سفارة بريطانية جديدة. لم يكن الجمع بين كل «الرجال الكبار» في السياسة العراقية في حكومة واحدة وصفة لعمل البناء، كما كان يعتقد فيصل. بل تحولت إلى وسيلة لسحب البساط من تحت القصر. كان فيصل، عشية زيارته المرتقبة إلى بريطانيا في حزيران (يونيو) 1933 بصفته ملكاً لمملكة مستقلة، يفكر ملياً في حكمة خيارات مجلس وزرائه.

كان فيصل حريصاً على ترسيخ مكانته الدولية كملك لدولة مستقلة، وكانت زيارة دولة بريطانيا هي أهم خطوة في هذا الاتجاه. ومع ذلك، جاءت الدعوة من بريطانيا متأخرة. وقد يكون قد تم الإسراع بتوجيه الدعوة التعجيل بعد سماع البريطانيين أن موسوليني اقترح أن يقوم فيصل بزيارة إلى روما في صيف عام 1933.

غادر فيصل إلى بريطانيا في 5 حزيران (يونيو) 1933، عن طريق عمّان في المحطة الأولى من رحلته. وكان برفقته حاشية كبيرة ضمت وزير الخارجية نوري السعيد ووزير الاقتصاد رستم حيدر وعلي جودت وتحسين قدري والطبيب الشخصي لفيصل هاري سيندرسون. كان برنامج زيارة فيصل الرسمية مكتظاً، تركز بشكل أساسي على المسائل الاقتصادية والتقنية. كان الخلاف هو وضع نظام السكك الحديدية العراقية، والظروف التي بموجبها ستنقل بريطانيا ملكيته إلى العراق. كان على فيصل أن يناقش إمكانية بناء خط سكة حديد بين بغداد وحيفا، وكان يسعى للحصول على قروض لتوسيع شبكة السكك الحديدية في العراق وبناء شبكة الري[31].

كانت الرحلة إلى عمّان جواً هادئة، ولكنها سرعان ما تعرضت لسوء الأحوال الجوية. وأصيب الوفد بأكمله بوعكة صحية شديدة. والرحلة التي تستغرق عادةً ثلاث ساعات ونصف امتدت لخمس ساعات. أمضى فيصل أربعة أيام في عمّان، وخلال تلك الفترة لاحظ سندرسون التفاعل بين الإخوة الثلاثة فيصل وعلي وعبد الله. لم يعتقد سيندرسون أن عبد الله كان مهتماً جداً بفن إدارة الدولة، وقد أحاط نفسه بخدم ليس لهم أهمية خاصة. وكان أسلوبه في الحوار

خطابياً، وكان يجادل في أي موضوع، وغالباً في المواضيع ذات الطبيعة الأدبية. تضمنت إحدى المجادلات مع فيصل المزايا الأدبية لأعظم شعراء بلاد فارس. اتفق كلاهما على أن عباءة أعظم شاعر فارسي تذهب إلى الفردوسي، لكن فيصل فضّل كثيراً الشعر الغنائي لحافظ [ابراهيم] على الترانيم الأخلاقية للسعدي، المفضل لدى عبد الله. ومن بين المواضيع الأخرى كان دور المرأة في المجتمعات الإسلامية. كان فيصل من المؤيدين بشدة لتحرير المرأة، بينما عبد الله، المخلص لغرائزه المحافظة، يعتقد أن المرأة مكانها المنزل[32].

رتب فيصل، خلال إقامته في عمّان، رحلة إلى القدس للقاء المندوب السامي في فلسطين وزيارة قبر والده. كتب سيندرسون أنه عندما اقترب موكب فيصل من ضواحي القدس، أوقفه حشد هائل «لم يقتصر فقط على الفلسطينيين بل ضم أيضاً العديد من السوريين. تلقى جلالة الملك (فيصل) استقبالا حاراً ومن حناجر الآلاف في انسجام تام انطلقت عبارة: فيصل، ملك العرب!... ورفعت اللافتات الأعلام مع تصاعد الحماس، واستغرق الأمر نصف ساعة كاملة قبل استعادة النظام وتمكن موكب السيارات من المضي قدماً. تم الإعلان عن الزيارة الملكية إلى القدس قبل مدة قصيرة جداً، ومع ذلك فقد علم بها آلاف الفلسطينيين والسوريين»[33]. كما التقت حشود ضخمة بفيصل وهو يقترب من الحرم في المسجد الأقصى. وتابع سيندرسون: «اضطر الموكب إلى التوقف بسبب احتشاد عدد أكبر للعرب المتحمسين بشدة أكثر من أي وقت مضى لإغلاق الطريق. كنت بالطبع مدركاً أن جلالة الملك يحظى بتقدير كبير جداً في جميع أنحاء الشرق الأوسط، لكن إظهاره بهذا الحجم فاجأني وأسعدني. وقد تأثر الملك بحجم الحشود وبحرارة استقباله لدرجة أنه عندما أدرك صرخات التحية الصاخبة، اختلطت الدموع بابتساماته»[34].

بعد إقامته في عمّان، سافر فيصل بالطائرة إلى القاهرة. حيث قام بزيارة مجاملة للملك فؤاد. تأثر فيصل بشكل إيجابي بحداثة المدينة والتحرر النسبي للمرأة المصرية. ثم استقل الوفد السفينة من الإسكندرية إلى نابولي في إيطاليا. وفي نابولي، انغمس فيصل في اهتمامه بعلم الآثار من خلال زيارة المعالم السياحية في مدينة بومبي. وفي طريقه إلى إنكلترا توقف في بروكسل، حيث زار الملك ألبرت ملك بلجيكا، رداً على زيارة خاصة قام بها ألبرت إلى العراق في ربيع عام 1930. ولدى وصوله إلى محطة فيكتوريا بلندن في 20 حزيران (يونيو) 1933 مستقلاً القطار من أوستند إلى دوفر، فوجئ فيصل بالأبهة والعظمة البريطانية بكامل حلتها. وكان باستقباله الملك جورج الخامس وأمير ويلز ودوق جلوستر. التقى دوق يورك بفيصل في دوفر وانتقل معه إلى لندن. خرج فيصل من القطار بملابس احتفالية رائعة، مرتدياً خوذة مضفرة. ثم انطلق في عربة مفتوحة مع الملك جورج عبر شوارع لندن المزدحمة إلى قصر باكنغهام.

ولقد كان هذا الاستقبال هو الأكثر إثارة للإعجاب الذي قدمته لندن لأي زائر دولة منذ سنوات. استمرت زيارة الدولة الرسمية على مدى الأيام الثلاثة المعتادة، وشملت جولات لا نهاية لها من الاجتماعات الرسمية ووجبات العشاء الرسمية والمآدب.

كان فيصل قد خطط لقضاء شهر آخر في بريطانيا بصفة خاصة، لكن هذه الأيام كانت مليئة بالزيارات والعروض والاحتفالات. زار المنشآت العسكرية، وحضر الألعاب البهلوانية الجوية في متحف القوى الجوية الملكية في مطار هيندون، ومهرجان في غرينيتش، ونهائيات بطولة ويمبلدون للتنس بصحبة الملك جورج الخامس، وقام برحلة إلى توركوي وتورباي لمشاهدة المناورات على متن سفينة HMS Renown. (كان مضيفه في توركاي هو الأدميرال السير ويليام جيمس، وابتهج فيصل عندما علم أنه كان الطفل الذي يُعرف باسم «الفقاعات»، والذي كانت صورته على العلامة التجارية الشهيرة لصابون Pears، والمنتشرة على نطاق واسع في العراق). ألقى فيصل خطاباً قصيراً على متن السفينة بلغة إنكليزية ركيكة. كان فيصل، في بغداد، يرغب في تحسين مهاراته اللغوية وتوظيف مدرس لبناني، هو السيد دباس، لمساعدته في النطق والإلقاء. وخلال هذه الرحلة، شعر بالثقة الكافية لإلقاء عدد من الخطب باللغة الإنكليزية. أمضى فيصل فيما بعد عشرة أيام في اسكتلندا، حيث قام بزيارة إدنبرة، ثم بعد ذلك بضعة أيام من الراحة والاستجمام في فندق جلين إيجلز في المرتفعات. كان في حاجة ماسة إلى هذا الاستراحة، وكان طبيبه، هاري سيندرسون، قلقاً بشأن صحته الجسدية. كما كتب سيندرسون عن هذا الفترة، «كانت شهيته ضعيفة؛ كان ينام بشكل سيء ويدخن كثيراً، وتوسّلت إليه أن يقلل من استهلاكه للسجائر. وعزا التجاوزات الأخيرة إلى استمرار الأخبار السيئة من العراق ووعد بخفض عددهم إلى النصف بمجرد انتهاء التوترات الآشورية القائمة في شمال البلاد»[35].

وبينما كان يحظى فيصل بالحفاوة في بريطانيا والتبجيل من قبل الصحافة، كان العراق على وشك الوقوع في أخطر أزمة منذ استقلاله ـ أزمة عجّلت بالتأكيد بوفاة فيصل المبكرة.

الازمة الآشورية

ينحدر معظم الآشوريين بالأصل من جبال هكاري بين العراق وتركيا، وقاموا بتمرد في العام 1915 ضد الخلافة العثمانية، حيث تم نفيهم بشكل جماعي الى إيران ومن ثم الى همدان في الجنوب، حيث أقاموا هناك علاقات مع القوات البريطانية. وفي العام 1920 قام البريطانيون بإعادة توطينهم في مخيمات ببعقوبة في العراق ومن ثم نقلهم الى منطقة الموصل، وفي منتصف عشرينيات القرن الماضي كان تعداد السكان الآشوريين في العراق حوالي أربعون ألف نسمة، ربعهم يرجع بأصله إلى العراق والباقي قد تم ترحيلهم من تركيا. وقد وجد الغالبية

العظمى من هؤلاء اللاجئين عمل في المدن الرئيسة في العراق او استقروا في قرى ذات غالبية آشورية داخل العراق. وقد بقي بضع مئات منهم فقط غير مستقرين. كما تم تجنيد المئات من الآشوريين في القوات المجندة العراقية، وهي وحدة دربها البريطانيون وقادوها، تأسست عام 1922 وهي مستقلة عن الجيش العراقي. فقد عرف الآشوريين بإمكانياتهم القتالية وقد غرس البريطانيون فيهم نزعة الانفصال وشعور العجرفة والتفوق على العرب[36]. وقد دونت بيل في يومياتها ان الضباط البريطانيين «كانوا دائما يذكرون عناصر القوات المجندة العراقية بأنهم جنود بريطانيين جيدين وليسوا من صغائر العرب القذرين»[37]. وكان استياء العراقيين العاديين من تعجرف وتباهي الجبايات شديداً.

فقد كانت القوات المجندة واجهة للهيمنة البريطانية ويقومون بحماية الشركات ذات الملكية البريطانية والسكك الحديدية وكما نشرت امام قواعد سلاح الجو الملكي البريطاني وتم توظيفهم كبلطجية. وقلة من الآشوريين حصلوا على الجنسية العراقية وكانوا مكترثين بالاندماج في العراق كإحدى أقلياته العديدة.

بعد التوقيع على الاتفاقية الإنغلو ـ العراقية تحرك الآشوريين من خلال قائدهم الديني والزمني البطريرك مار شمعون وعمّته الكبرى سورما خاتون، ملتمسين من عصبة الامم حمايتهم من الدولة العراقية الجديدة. وطلبت عصبة الأمم ضمانات من العراق فيما يتعلق بمعاملة الاقليات قبل قبول عضويتها

كانت الحكومة العراقية واضحة، وتم التأكيد صراحة على الحقوق الدينية والعرقية في التشريعات وفي البيانات والإعلانات الحكومية. لكن فيصل كان يدرك أيضاً أن ذريعة حماية حقوق الأقليات كانت أداةً تستخدم غالباً لإدامة السيطرة والتدخل الأجنبي. إلتقى فيصل بمار شمعون في آب (أغسطس) 1932 في العمادية في شمال البلاد، لثنيه عن السفر إلى جنيف والضغط من أجل التماسه. إلا أن مار شمعون أصرّ، وكان لديه الجرأة أيضاً لمطالبة فيصل بترتيب تزويده بجواز سفر خاص للسفر إلى جنيف لعرض القضية الآشورية، والتي كانت بمثابة انفصال عن البلاد[38]. لكنه عاد إلى العراق في كانون الثاني (يناير) 1933 خالي الوفاض. حيث تم نصح الآشوريين بالعمل من أجل حقوقهم من داخل الدولة العراقية الموحدة[39].

عشية رحيل فيصل إلى أوروبا، كان الوضع الآشوري لا يزال غير مستقر، وكانت التوترات تتصاعد في شمال البلاد بين الآشوريين والسكان المحليين. كان مار شمعون قد دُعي إلى بغداد في أواخر أيار (مايو) 1933 لمناقشة حلّ للقضايا العالقة. كانت الحكومة حساسة بشكل خاص لوضع البطريرك، حيث قدّمت له مقعداً في مجلس الشيوخ وراتباً جيداً. كما كانت مستعدة للاعتراف بسلطته الدينية على شعبه، لكن ليس سلطته الزمنية. احتاجت الحكومة إلى تعاونه

الفعال من أجل سياسة إعادة توطين الآشوريين، لكن في الواقع، هدد مار شمعون أولئك الذين تعاونوا مع الحكومة من شعبه، ورفض قصر سلطاته على المجال الديني[40]. وفي غضون ذلك، قام أحد أتباعه، وهو الضابط السابق في القوات المجندة يعقوب إسماعيل، بالانطلاق إلى الجبال بصحبة مائتي رجل، مطالبين بمقاومة الحكومة العراقية. ردّ قائد القوات العراقية في الشمال العقيد بكر صدقي بإعلان حالة الطوارئ دون إذن مسبق من الحكومة. كان صدقي، وهو ضابط كردي سابق في الجيش العثماني يبلغ من العمر 43 عاماً، رجلاً صلباً وسكّيراً ومقاتلاً، وكان لديه حسّ مبادرة قوي. وقد ذكر تقرير بريطاني عن صدقي: «كان مثال للفجور، في بلد تنتشر فيه جميع أنواع الرذيلة». كما كان أيضاً قائداً طموحاً وغير قابل للفساد وقوياً، اغتنم الفرصة عندما سنحت له. أدرك فيصل المخاطر التي ينطوي عليها وجود شخص بهذا الملف الشخصي مسؤولاً عن العمليات في الشمال. أخبر فيصل القائم بالأعمال البريطاني، جورج أوجيلفي فوربس، قبل مغادرته إلى أوروبا، أنه يعتزم عزل بكر صدقي عن القيادة، وعرض إيفاد رئيس الأركان طه الهاشمي ووزير الداخلية، حكمت سليمان إلى الموصل للمساعدة في نزع فتيل التوترات[41]. لكن بكر صدقي كان يحظى بشعبية بين ضباطه، وكذلك الخط المناهض للآشوريين الذي يتبناه.

قررت الحكومة العراقية، بدعم من المستشار البريطاني لوزارة الداخلية، احتجاز مار شمعون في بغداد في نزل جمعية الشبان المسيحيين إلى أن يوافق على إعطاء التطمينات المطلوبة للحكومة، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الأزمة. وسُمح له بالتنقل بحرية داخل بغداد، لكنه لم يستطع المغادرة إلى الموصل. وتعالت الأصوات الدولية بعد أنباء اعتقال مار شمعون، وشنّت الصحافة البريطانية هجوماً على استخفاف العراق بأقلياته. أرسل فيصل، الذي كان ضيفاً في قصر باكنغهام، على الفور برقية لمجلس الوزراء لإطلاق سراح مار شمعون[42]، وردّ رشيد عالي بالقول إن عودة مار شمعون إلى الشمال دون إعطاء التعهدات اللازمة للحكومة ستشجع المتمردين الآشوريين. كان فيصل غاضباً لأن الحكومة لم تتبع نصيحته، وأكد مجدداً موقفه بأن إطلاق سراح مار شمعون سيكسب المواقف الدولية، بينما يترك للحكومة خيار مواجهة المتمردين إذا تدهور الوضع أكثر[43]. ومع ذلك، أيّد مجلس الوزراء رئيس الوزراء في موقفه بإبقاء البطريرك رهن الاعتقال في بغداد. في هذا المنعطف، لا بد أن عدم استعداد مجلس الوزراء للاستجابة إلى توصيات فيصل قد أثار قلقه، لكنه لم يكن على استعداد لدفع قضيته إلى أبعد من ذلك. غادر إلى سويسرا لتلقي العلاج في منتصف تموز (يوليو) 1933، وكانت الأزمة محتدمة في العراق، وبدأت تشهد انعطافة إلى الأسوأ في 21 تموز (يوليو) عندما عبر ضابطان من القوات المجندة الحدود العراقية إلى سوريا الخاضعة للسيطرة الفرنسية مع عدة مئات من الرجال المسلحين. لقد اختفى جميع الآشوريين ممن هم في سنّ التجنيد من قراهم، وكان هناك حشد خطير للآشوريين

المسلحين على الجانب السوري من الحدود العراقية. ومن المحتمل أن يكون مار شمعون قد خطط لهذه الحركة وحرّض عليها، وقد دفع تهديد هؤلاء الآشوريين المسلحين بالعودة إلى العراق بكر صدقي لنقل القوات إلى الحدود لمنع عودة أيٍ من المسلحين الآشوريين. كما طلبت الحكومة من السلطات الفرنسية نزع سلاح الآشوريين، وامتثل الفرنسيون للطلب في البداية. ومع ذلك، ففي غضون أيام قليلة، أعاد الفرنسيون تسليح الآشوريين، الذين عبروا مرة أخرى إلى العراق في 4 آب (أغسطس) وهاجموا مواقع الجيش العراقي في ديربون، بالقرب من الحدود. وقد ألقى تقرير لاحق صادر عن الجنرال هيدلام القائم بأعمال المفتش العام البريطاني للجيش العراقي، باللوم مباشرة على الآشوريين، الذين قاموا عمداً بمهاجمة حامية الجيش العراقي[44].

كان فيصل في بيرن يراقب تصاعد الأحداث بقلقٍ واضح. وقد أرسل برقية إلى نجله غازي، الذي كان يشغل منصب الوصي على العرش لأول مرة، لإبلاغ مجلس الوزراء بعدم نزع سلاح أي من الآشوريين العائدين إلى العراق والذين أبدوا ندمهم. ورفض مجلس الوزراء توصية فيصل وحدثت مواجهة بين الحكومة والملك. لم يكن أمام فيصل خيار سوى قطع رحلته العلاجية والعودة إلى العراق. لقد كانت الرسائل التي تدعو إلى الاعتدال التي أرسلها إلى بغداد بتشجيع من البريطانيين، لكن البريطانيين الآن يضغطون عليه للعودة إلى بغداد للمشاركة في إدارة الأزمة مباشرة. كان فيصل واثقاً تماماً من قدرته على نزع فتيل الأزمة في غضون أيام قليلة، وأراد العودة إلى بغداد بأقل ضجة رسمية. وصل بغداد في 2 آب (أغسطس) 1933 برفقة نوري السعيد. وكان في استقباله في المطار غازي وأعضاء مجلس الوزراء، لكن لم يكن هناك إعلان رسمي عن وصوله.

كان الآشوريون قد استولوا على قاعدة ديربون لكن تم استعادتها فيما بعد. كانت هناك قصص موثوقة عن الفظائع التي ارتكبها الآشوريون ضد ضباط وأفراد الجيش العراقي. ورداً على ذلك أعدم بكر صدقي خمسة عشر سجيناً آشورياً أسرهم رجال القبائل الكردية ونزعوا أسلحتهم[45]. لكن الهجوم على موقع الجيش في ديربون صدم فيصل وأصاب الحكومة بالذعر. كان هناك خوف حقيقي من أن يشعل الآشوريون المسلحون، المدعومون سراً من الفرنسيين، شمال العراق بأكمله في تمرد لن يتمكن الجيش العراقي الناشئ من إخماده. إن هزيمة الجيش في ظل هذه الظروف ستقضي على وحدة الدولة العراقية. فمال موقف فيصل تجاه الآشوريين نحو التشدد. ولمدة يومين لم يأكل فيصل وكان يدخن كثيراً. حتى أنه تحدث عن التحرك شمالاً، وحشد قبائل شمّر والجبور وقبائل أخرى، لقيادة الهجوم المضاد ضد الآشوريين بنفسه. لم يكن قلقاً بشكل خاص بشأن الخسائر التي أعقبت ذلك من الرجال الآشوريين المتمردين، ولكن كان لابد من حماية القرى والنساء والأطفال[46].

قد يكون فيصل، من خلال حشد القوات الكردية غير المنضبطة وغير النظامية والقبائل العربية ضد الآشوريين، قد مهّد الطريق للتجاوزات التي أعقبت ذلك، والتي سرعان ما حدثت. في الواقع، فقد استعاد بكر صدقي زمام المبادرة بسرعة بعد حادثة الديربون ونجح في السيطرة على التمرد من خلال مزيج من القسوة والتصميم، فضلاً عن استخدام الطائرات العراقية للقصف، الأمر الذي أدى إلى تقليص رقعة التمرد. ومع ذلك، فقد تعمد تضليل الحكومة وفيصل بحقيقة الموقف من أجل جني المجد اللاحق الذي كان سيُنسب إليه لقمعه انتفاضة خطيرة. فبحسب جميع التقارير فقد هاجمت مفرزة من القوات العراقية بقيادة إسماعيل عباوي، خلال الأعمال الانتقامية اللاحقة بعد فشل التمرد، قرية السميل الآشورية. كانت القرية قد ازدحمت النازحين الآشوريين الفارين من أعمال النهب والفوضى التي صاحبت انهيار القانون والنظام في المنطقة. وفي 10 آب (أغسطس) 1933، تعرضت أطراف القرية للهجوم من قبل لصوص من القبائل العربية والكردية. في صباح اليوم التالي، جاء رجال طوحالا إلى القرية واندفعوا للانضمام إلى النهب الشامل. في هذه العملية، بدأت مفرزة الجيش، سواءً بشكل مستقل أو جنباً إلى جنب مع رجال القبائل، في القتل الممنهج للقرويين العزّل، ومعظمهم من الرجال. تم ذبح ثلاثمائة وخمسة رجال وأربع نساء وستة أطفال[47]. كانت حادثة مروعة أثارت تنديداً دولياً، ليس فقط للعراق ولكن أيضاً، بالاستدلال، على فيصل.

الاسابيع الاخيرة في العراق

لم يكن فيصل بأي حال من الأحوال مسؤولاً عن هذه الفظائع، إلا إن مذبحة السميل كانت وصمة عار لحكمه، لأنه لم يكبح جماح الغضب اللاإنساني. ولم يسبق لفيصل أن أظهر قبوله لممارسة العنف غير المبرر في حالات عسكرية، ناهيك عن استخدامه ضد المدنيين العزل. لم تكن هذه طباعه. ولكن ومن دون شك كان يرغب في خنق التمرد الآشوري لئلا يدمر مملكته في العراق. وبعد كارثة الديربون، واجه فيصل ما اعتقد أنه احتمال هزيمة الجيش العراقي على يد أعضاء سابقين مدربين جيداً من القوات المجندة. لقد بالغ بلا شك في رد فعله بجر رجال القبائل إلى الصراع إلى جانب القوات الحكومية. وقد أكد نوري السعيد نفسه للسفير البريطاني في بغداد في وقت لاحق من عام 1936 أنه «فيما يتعلق بقتل الآشوريين، كان الملك فيصل هو الجاني الرئيسي. ما تم فعله كان نتيجة لتوجيهاته. في ذلك الوقت كان نوري قد لجأ إلى السفارة البريطانية في أعقاب الانقلاب الذي دبره بكر صدقي. ما أشار إليه نوري هو أن فيصل لم يرغب في التراجع عن استخدام القوة ضد الآشوريين، فالمخاطر كانت كبيرة للغاية. لكن هذه لا يعني اتهامه بالمسؤولية المباشرة عن مجزرة السميل. لم يكن فيصل على علم بأن معظم المتمردين

الآشوريين قد استسلموا بحلول 9 آب (أغسطس) 1933[48]. عندما وصلت أنباء الفظائع إلى بغداد، طالبت السفارة البريطانية بوقف فوري لعمليات الجيش العراقي، وإجراء تحقيق في تفاصيل أحداث السميل ومعاقبة الضباط المسؤولين عنها. وافق فيصل على هذه المطالب. فمن الضروري إجراء تحقيق محايد لتهدئة الرأي العام الدولي وتجنّب التدخل لإجراء تحقيق من قبل عصبة الأمم. كما كان الرأي العام البريطاني مستثاراً بشكل كبير. لقد أولى رئيس أساقفة كانتربري كوزمو جوردون لانغ اهتماماً خاصاً بمصير الآشوريين. (في الواقع، أرسل رئيس أساقفة سابقاً بعثة أنجليكانية إلى الآشوريين في عام 1886، وبفضل هذه المهمة أصبح الآشوريون معروفين في أوروبا)، وكذلك فعل الملك جورج الخامس، الذي أبدى اهتماماً كبيراً بالأزمة المتصاعدة. كان السبب الكامن وراء الموقف البريطاني هو الاعتقاد شبه الجلي بأن فيصل هو الذي كان وراء الكوارث في الشمال. كان البريطانيون يعوّلون على فيصل لإعادة الأمور إلى نصابها، واعتبروا وجوده في بغداد ضرورياً لاستعادة مصداقية الحكومة وصرف الرأي العام في العراق عن تحميل البريطانيين أنفسهم مسؤولية الأزمة الآشورية.

وصل السخط الشعبي على المتمردين الآشوريين بعد هجومهم على الجيش إلى ذروته. كان هناك القليل من الشك فيما يتعلق بالطرف الذي يحمّله الجمهور المسؤولية عن هذه الأحداث: إنه البريطاني. وإلا فكيف يمكن للآشوريين، المدللون تحت حماية البريطانيين، أن يتمكنوا من شن هجوم على الجيش دون تواطؤ بريطاني؟ ألم يكن من مصلحة بريطانيا إظهار عجز الجيش والدولة العراقية في مواجهة التمرد الآشوري؟ أشعلت الشائعات غضب الجمهور: أن الآشوريين أجبروا جرحى القوات العراقية على أكل لحم رفاقهم القتلى، وأن تي إي لورنس كان في الشمال ينظم ويقود بنفسه التمرد ضد الدولة العراقية. أن ضباط المخابرات البريطانية كانوا يوجهون الآشوريين في كل خطوة على الطريق. كان الغوغاء يصرخون بالمطالبة بقتل مار شمعون وعمّته. وصدرت أوامر بترحيل كلاهما في 17 آب (أغسطس) وغادرا العراق نهائياً. حيث تم نقلهما إلى قبرص في رحلتين منفصلتين لسلاح الجو الملكي البريطاني. وافق فيصل سراً على منح مار شمعون راتباً قدره 65 جنيهاً إسترلينياً من جيبه الخاص. لم يكن فيصل بطل الساعة، بل الجيش العراقي وقائده في الشمال بكر صدقي. ونال ولي العهد غازي، الذي وقف علانية إلى جانب الجيش العراقي وبكر صدقي، إعجاب الجماهير.

لقد علِق فيصل في هذه الدوامات. لم يكن البريطانيون يظنون بأن مرضه خطير لهذه الدرجة. فعندما أبلغ نوري جورج أوجيلفي فوربس في 14 آب (أغسطس) أن فيصل مريض ويريد العودة إلى سويسرا لمواصلة علاجه، قوبل طلبه برفض سريع. أراد فيصل أن ينقله البريطانيين جواً إلى مصر، وبعد ذلك سيأخذ رحلة تجارية عادية، لكن وزارة الخارجية

أرادته أن يبقى في العراق على الأقل حتى عودة همفريز من الإجازة. في وقت سابق، التقى أوجيلفي فوربس بفيصل لمناقشة تنحية بكر صدقي، لكن فيصل اختصر الاجتماع، واشتكى من الإرهاق. كتب أوجيلفي ـ فوربس، مشككاً بشكل واضح بمرض فيصل، إلى وزارة الخارجية ببرود «سأستمر في ملاحقته بهذا الخصوص». أصبحت نبرة رسائل أوجيلفي ـ فوربس إلى لندن لاذعة، بل ومهينة بحق فيصل. كان أوجيلفي فوربس كاثوليكياً متشدداً وقد أثّرت مذبحة سميل عليه كثيراً. كان يعتقد أن فيصل كان يتظاهر بالمرض، هرباً من مسؤولية اتخاذ تدابير علاجية وغير شعبية. واتهم فيصل بـ «أنه يختبئ في جناح الحريم»، بينما هو فعليا لجأ إلى قصر الحارثية للاستراحة. وفي مناسبة أخرى، قام بزيارة فيصل الذي كان طريح الفراش وسخر من وضعه للكولونيا، وهي عادة شرقية شائعة لدرء الجراثيم. نصح جميع المستشارين الطبيين فيصل بالراحة الفورية في مناخ مناسب، لكن أوجيلفي فوربس لم يصدق أي كلمة. في الواقع، كان فيصل مريضاً بشكل خطير ومرهقاً. لكن فقط بعد عودة همفريز إلى بغداد في 23 آب (أغسطس) تغيرت نغمة البرقيات من سفارة بغداد. فقد كتب همفريز «لقد استشرت مسؤولين بريطانيين بارزين هنا حول استمرار إقامة الملك فيصل في بغداد وهم يرون أن صحته ستنهار على الأرجح تماماً ولن يكون قادراً على تحمل أعباء إعادة الإعمار والتشريع الذي ينتظره في الخريف. لذلك يجب أن أوافق على غيابه في الأول من أيلول (سبتمبر)»[49]. وكان العراقيون الآخرون، بمن فيهم جعفر العسكري، الوزير العراقي في لندن، يرون أيضاً أن فيصل بالغ في مرضه لتجنب البقاء في العراق. حيث كتب «إن رحيل الملك في هذه اللحظة سيكون بمثابة التنازل عن العرش... وفي حال غياب الملك، فقد يضيع الأمل الأخير في إقامة دولة العراق كأمة»[50].

كما أن الرأي العام كان يميل بشدة ضد فيصل. كان المفهوم السائد هو أن فيصل نصح بنهج معتدل فيما يتعلق بالآشوريين. قلّةٌ هم الذين عرفوا أنه قد تحول بشكل حاد بعد هجوم الديربون على الجيش العراقي. كان هناك أيضاً شعور بأن فيصل لم يكن ملتزماً تماماً بأعمال الجيش العراقي، وأنه سيتراجع تحت الضغط البريطاني ويعزل بكر صدقي عن القيادة. كان من المفارقات أن يُنظر إلى الجيش الذي علَّق عليه فيصل الكثير من الآمال على أنه الحامي البطولي للدولة دون الإشارة إلى الجهود التي بذلها فيصل في تشكيله. وفي 26 آب (أغسطس)، حضرت بغداد بأكملها للترحيب بوحدات الجيش التي شاركت في سحق التمرد الآشوري. وهتفت الحشود الهائجة للقوات وهتفت باسمي بكر صدقي وولي العهد غازي. كان هناك القليل من الهتافات لفيصل، حتى عندما تجمعت الحشود أمام القصر الملكي واستقبلهم فيصل من الشرفة[51]. بعد أيام قليلة، وصل بكر صدقي نفسه إلى بغداد. قيل أن 50000 حضروا للترحيب به في المطار.

وسار موكبه المظفّر في شوارع بغداد، وسار أمام القصر الملكي. وقف فيصل على شرفته لتحية الضابط المنتصر. كانت لحظة فاصلة بالنسبة لفيصل.

استعد فيصل لمغادرة العراق في 2 أيلول (سبتمبر) 1933. لم يكن هناك سوى خمسين شخصاً لتوديعه في مطار بغداد. لقد كان رجلاً مريضاً جداً، تلاحقه أحاديث لا أساس لها من الصحة حول «تنازله عن العرش»، مع جيش نما بشكل خطير ومتغطرس. كانت رسالته الأخيرة إلى الشعب العراقي عشية رحيله بمثابة تحذير من مصيره الوشيك. قال «لن أتوانى بخدمة شعبي وبلدي مهما كلفني ذلك».

نقلت طائرة فيصل إلى القاهرة، حيث أمضى يوماً قبل أن يسافر إلى سويسرا. وكان آخر من رآه في مصر الكاتب اللبناني والشخصية القومية العربية أسعد داغر. إلتقيا على شرفة الفندق المطلة على حدائق الأزبكية الشهيرة. كان داغر منخرطاً في الاستعدادات للمؤتمر العربي وكان قلقاً من أن العراق قد لا يقوم برعاية المؤتمر في النهاية. بدا فيصل متعباً ومضطرباً، لكنه ابتهج عندما قدّم له داغر بعض التشجيع على طريقة تعامله مع الأزمة الآشورية. تأثّر داغر بما قاله له فيصل في المقابل. «لا يمكننا أبداً قبول نوعية الحياة التي خططها لنا حلفاؤنا البريطانيون. نحن صبرنا حتى الآن فقط لضعفنا وحاجتنا. يمكن أن يستمر هذا الوضع حتى يندلع بركان الاستياء والغضب بداخلنا. أو نوحد مواقفنا ونوحد صفوفنا. وبهذه الطريقة، تتجلى إرادتنا وسيلاحظنا أصدقاؤنا وأعداؤنا على حدٍ سواء». وودّع داغر فيصل في محطة سكة حديد القاهرة، حيث كان من المقرر أن يستقل القطار إلى الإسكندرية، ومن ثم بالطائرة إلى أوروبا. واصل [فيصل] التحدث إلينا من نافذة عربته المفتوحة حتى بدأ القطار في التحرك. ثم شعرت بشعور لا أستطيع تفسيره. إغرورقت عيناي بالدموع وحدقت في ذلك الملك العظيم الحبيب بنظرة حب وأمل... لم أكن أعلم أن هذا سيكون وداعي الأخير»[52].

بعد ستة أيام، مات فيصل في فندق قصر بلفيو، في بيرن، سويسرا. كان مريضاً كما قيل.

هوامش الفصل السادس والعشرون

1 ـ النص الفعلي للمذكرة أُخذ من عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 315 ـ 321

2 ـ أرسلت المذكرة إلى نوري السعيد، وناجي شوكت، ورستم حيدر، جودت، وجميل مدفعي، وجعفر أبو التمن، ومحمد الصدر، وحكت سليمان، وغيرهم في الحكومة. أنظر عبد الكريم الأزري، مشكلات الحكم في العراق، طبعها بنفسه، لندن 1991، ص. 1

3 ـ عبد الكريم العزري، مرجع سابق، ص. 10 ـ 15

4 ـ المرجع نفسه، ص. 16 ـ 24.

5 ـ عبد الكريم الأزري، مرجع سابق، ص24 ـ 26. تعرض قانون حيازة الأراضي لعام 1932 لإساءة استخدام كبيرة من قبل زعماء القبائل وتجار المدن وكبار السياسيين حتى يتمكنوا من تجميع مساحات كبيرة من الأرض. كانت قضية الأرض إحدى الأسباب الرئيسة للاستياء والغضب خلال العهد الملكي، مما أدى إلى تغذية المعارضة الثورية لما اعتبره الكثيرون نظاماً إقطاعياً.

6 ـ كان رد السويدي هو رد سياسي ليبرالي مثالي إلى حدٍ ما. كانت إحدى مقترحاته هو إقامة امتيازات مقيدة، بحيث يمكن لكل مجتمع التصويت من خلال نوابه. ويتفق ناجي شوكت مع تقدير فيصل ومعظم حلوله. كلاهما، مع ذلك، تجنبا بجدية ذكر الانقسام الطائفي. أنظر ناجي شوكت، أوراق ناجي شوكت، مطبعة جامعة بغداد، 1977، ص. 76 ـ 87

7 ـ المرجع نفسه، ص. 361 ـ 363

8 ـ مصطلح مشترك بين العراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين.

9 ـ ي.ب مين، «العراق مذكرة» مجلة الجمعية الآسيوية المركزية الملكية، مجلد 20، العدد 3، تموز–1933، ص. 434

10 ـ يذكر الكاتب أسعد داغر، الذي كان يزور العراق بصورة مستمرة في أوائل الثلاثينات، في مذكراته بأن العراق كان يعرف بأنه «سفح جبال العرب» بالنسبة للوطنيين. أسعد داغر، مرجع سابق، ص. 186

11 ـ نور مصالحة، مرجع سابق، ص. 302

12 ـ نجيب البعيني، من أمير البيان شكيب أرسلان، دار المنهل، بيروت 1998 ص. 361 ـ 365. كان أرسلان يرد على مقالة صحيفة تنتقد المعاهدة الإنكليزية العراقية ـ

13 ـ قاوم فيصل فكرة مرور خط الأنابيب عبر الأراضي التي يسيطر عليها الفرنسيون، وذلك إذا

أخذنا بعين الاعتبار تاريخ علاقاته المضطربة مع فرنسا. أنظر: نور مصالحة، العروبة الشاملة ـ عند فيصل 1921 ـ 1933، دراسات الشرق الأوسط، المجلد 27 رقم 4، تشرين الأول 1991، ص. 679 ـ 693

14 ـ المرجع نفسه، ص 282

15 ـ خلدون الحصري، الملك فيصل والوحدة العربية، 1930 ـ 1933، مجلة التاريخ المعاصر، المجلد 10 رقم 2 (نيسان 1975) ص. 328 والحاشية 15

16 ـ وليام كيفلاند، الإسلام ضد الغرب: شكيب أرسلان والحملة من أجل الإسلام الوطني، مطبعة جامعة تكساس، أوستن 1985، ص. 133

17 ـ خلدون الحصري، الملك فيصل..، مرجع سابق، ص. 323 ـ 340

18 ـ أنظر نور مصالحة، العروبة الشاملة عند فيصل 1921 ـ 1933، دراسات الشرق الأوسط المجلد 27، رقم 4 (تشرين الأول 1991)، ص. 688 ـ 689

19 ـ الحصري، مرجع سابق، ص. 329 ـ 330

20 ـ المرجع نفسه، ص. 330 ـ 331

21 ـ وزارة الخارجية 371/16854، من همفريز في بغداد إلى وزارة الخارجية، لندن، 5 كانون الثاني 1933

22 ـ خلدون الحصري، مرجع سابق، ص. 333

23 ـ وزارة الخارجية 347 65/347/E من همفريز في بغداد إلى السير جون سيمون، 17 كانون الثاني 1933

24 ـ الحصري، مرجع سابق، ص. 337 ـ 338

25 ـ مكتب المستعمرات 730/138/68004/2 تاريخ 22 تشرين الثاني 1928، مذكرة رقم440 /آ

26 ـ مكتب المستعمرات 730/149/68478/49 من الملك فيصل بغداد إلى يونغ ـ 8 كانون الأول 1929

27 ـ وزارة الخارجية 371/16854 من همفريز في بغداد إلى السير آرثر واتشوب، القدس، 7 أذار 1933

28 ـ المرجع نفسه.

29 ـ أنظر مير البصري، مرجع سابق، ص. 141 ـ 145. في إحدى الحالات، شوهد زعيم عشيرة كردي يتجادل معه باللغة الكردية، وهي لغة لم يفهمها ناجي. وعندما سعى أحد المساعدين

لمقاطعة الزعيم، قال له ناجي: « «دعه إنها حالة أبكم يتحدث إلى أطرش!» خدم ناجي في عدة حكومات في الثلاثينيات وكان وزيراً للدفاع في حكومة رشيد عالي المنكوبة عام 1941، والتي أعلنت الحرب على بريطانيا. لجأ ناجي إلى إيطاليا طوال الفترة المتبقية من الحرب. اعتقلته القوات الأمريكية في شمال إيطاليا عام 1945 وسلّمته للحكومة العراقية. سُجن لمدة عامين ثم صدر عفو عنه عام 1948. تقاعد من السياسة وتوفي في بغداد عام 1980.

30 ـ كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي، منشورات الجمال، كولون، ألمانيا 2002، ص. 75

31 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 246 ـ 247

32 ـ السير هاري سندرسون، مرجع سابق، ص. 144

33 ـ فيليب مطر، مرجع سابق، ص. 146 ـ 147

34 ـ المرجع نفسه، ص. 147 ـ 148

35 ـ المرجع نفسه، 151 ـ 152

36 ـ ر.س ستارفورد، مأساة الآشوريين، مطبعة غياس (عدة طبعات) لندن 2006 ص. 70

37 ـ اليزابيث برغيون، مرجع سابق، ص. 318

38 ـ خلدون الحصري، القضية الآشورية عام 1933 [1] المجلة العالمية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 5، رقم 2 (نيسان 1974) ص. 161 ـ 176. الحقيقة أن مار شمعون قد أصدر وثيقة جواز عراقي خاص يسمح له بالسفر إلى سويسرا.

39 ـ خلدون الحصري، القضية الآشورية عام 1933 [1]، مرجع سابق، ص. 170 الحاشية 1.

40 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 265

41 ـ وزارة الخارجية 2952E/371/16882 من أدغيليفي فوربس، بغداد إلى سيمون، لندن ـ 24 أيار 1933.

42 ـ عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، المجلد 3، ص. 273

43 ـ المرجع نفسه، ص 274

44 ـ وزارة الخارجية 371/16891 تقرير البريجادير جنرال هوغو هيدلام، ـ 6 أيلول 1933

45 ـ خلدون الحصري، القضية الآشورية عام 1933 [1]، مرجع سابق، ص. 176

46 ـ المرجع نفسه، ص. 349

47 ـ هناك العديد من التساؤلات حول مجزرة سميل وأقلها إقناعاً ما صدر عن وزارة الداخلية

العراقية في 22 آب 1933 بأن سميل كانت مركز الفتنة، وقد حصل القتل بسبب الصدام بين القرويين المسلحين ورجال القبائل الغزاة. لم يكن للجيش دور في المجزرة أما ستافورد، فقد ادعى في عمله القريب من السلطة حول الأزمة الآشورية بأن المجزرة كان مخططاً لها، وأنها كانت متعمدة من قبل بكر صدقي ورجاله، من خلف ظهر الضباط البريطانيين الموجودين في الجيش العراقي. ولكنه أظهر دليلاً مادياً فقط. أما خلاصة كل الروايات فقد قدمها خلدون الحصري. القضية الآشورية عام 1933 ((2، مرجع سابق، ص. 344 ـ 360؛ كذلك قابل الحصري إسماعيل عباوي طوحالا قبل وفاته عام 1968

48 ـ وزارة الخارجية 4440E/371/16884 من أوغليفي فوربس، بغداد إلى وزارة ـ الخارجية، لندن، 9 آب 1933

49 ـ وزارة الخارجية 371/16889/E5182

50 ـ وزارة الخارجية 4721E/371/16881 مذكرة رندل، 16 آب 1933

51 ـ خلدون الحصري، القضية الآشورية عام 1933 [2]، مرجع سابق، ص. 352

52 ـ أسعد داغر، مرجع سابق، ص. 195 ـ 196

الخاتمة: فيصل العظيم

انتهت حياة فيصل مع وصوله إلى مرحلة النضج السياسي الكامل، وفي وقتٍ كان فيه العراق المستقل، بل والعالم العربي الأوسع، في حاجة ماسة إلى قيادته. يمكن إطلاق لقب «عظيم» بشكل ملائم على فيصل. فقد شعر معاصروه بشكل غريزي بغياب قائد عظيم عندما وصلتهم أخبار وفاته، وتخلل شعورهم بالخسارة الفادحة في تأملاتهم حوله في مذكراتهم وذكرياتهم. ساطع الحصري، الذي لم يكن عاطفياً ولا رجلاً يلفظ كلماته، قال بوضوح إن فيصل يستحق أن يُطلق عليه اسم فيصل العظيم.

كان يتمتع بجميع صفات القائد السياسي العظيم: الذكاء الحاد والمرونة والبراغماتية، والرغبة في التعلم والاستعداد للتكيف. كان فيصل متكيّفاً مع جميع أنواع الناس، من زعماء القبائل والبدو العاديين إلى الدبلوماسيين الأوروبيين ورجال الحاشية، ومن الجنرالات ونواب الإمبراطورية، إلى القوميين والمجتهدين العرب. كان الاعتدال والواقعية والتركيز المنفرد على الهدف النهائي هي السمات المميزة لتعاملات فيصل مع الأفراد والقبائل والأمم والإمبراطوريات. كان لدى فيصل أيضاً الدافع والحافز لمواجهة العقبات الهائلة التي كانت منتشرة في طريقه والتعافي من النكسات التي كان من الممكن أن تقضي على أي شخص آخر. كان بلا شك طموحاً ولكن طموحه لم يكن موجهاً لتحقيق مجد شخص أو عائلي بل لمجد الدول العربية التي خرجت من بقايا الإمبراطورية العثمانية. إن العرب يستحقون أن يكون لهم مكان بين الدول المتحضرة. وإذا لم يكن من الممكن تحقيق ذلك داخل الاتحاد العربي الواسع الذي تصوّره، فلا بد من أن يتم ذلك من خلال الدول الإقليمية التي فكك من خلالها الحلفاء الشرق الأدنى بدلاً من الإمبراطورية العثمانية الكبرى. كان جوهر آرائه الشخصية والسياسية هو تكريسه العميق لقضية النهضة العربية، والتي عبّر عنها تكريس مماثل لتحسين المملكة التي حكمها أخيراً: العراق. ومع اقتراب الذكرى المئوية لاندلاع الحرب العالمية الأولى، ذلك الحدث الكارثي الذي بدونه لا يمكن تخيل الشرق الأدنى الحديث، يستذكر المرء شخصية عظيمة أخرى تقاطعت حياتها مع سقوط الإمبراطوريات، والحريق العالمي وولادة الدول الجديدة. حياة فيصل تشبه بشكل ملحوظ حياة المحرر سيمون بوليفار. كلاهما وُلدا في نُخب المقاطعات النائية للإمبراطوريتين، العثمانية والإسبانية، على التوالي. حمل كلاهما السلاح ضد القوة الحضرية في خضم صراع عالمي، الحرب العالمية الأولى والحروب النابليونية. كلاهما قاد إنشاء دول جديدة. مات كلاهما بعيداً عن

بلديهما في سن مبكرة نسبياً: خمسين في حالة فيصل وسبعة وأربعين في حالة بوليفار. تشارك بوليفار وفيصل أيضاً مُثلاً وأهدافاً مشتركة، لا سيما وحدة أراضيهم المحررة في كيان سياسي كبير أو اتحاد. كلاهما كان عليهما التعامل مع الدول الرائدة التي كانت منقسمة بشدة: حسب العرق والطبقة في حالة بوليفار. حسب العرق والطائفة في حالة فيصل. كما أنهم يتشاركون في العديد من الخصائص الشخصية: الكرم؛ الشجاعة في مواجهة الأخطار والشخصية الساحرة. وخلال المعارك كان كلاهما في مقدمة قواتهما.

لكن هنا يختلف السرد. كانت ذكرى فيصل في أوجها فور وفاته ثم تلاشت ببطء. من ناحية أخرى، اختفى ذكر بوليفار بسرعة بعد وفاته، ولكن بعد ذلك تم إعادة إحيائه. ثم تم ترقيته إلى شخصية بطولية شبه أسطورية، وتم بناء عبادة حقيقية حوله. سُميت دولة باسمه (بوليفيا)، وألحقت دولة أخرى صفة البوليفارية بعنوانها الرسمي (فنزويلا). لكن لماذا هذه النتائج المتباينة مع التشابه الملحوظ بين القصتين؟

لا يمكن أن تكون عظمة القائد لا شك فيها، إلا إذا لم يكن هناك رواية مضادة معقولة ومستدامة. ما أضرّ بشكل كبير بفيصل كشخصية تاريخية من الدرجة الأولى أن عصره تميز بكفاحه المستمر للتحرر من قبضة بريطانيا الخانقة. إن تقسيم الشرق الأدنى، وفرض الانتداب، وإقامة إسرائيل، كلها عوامل فاعلة تم استخدامها لتقويض إنجازات فيصل، ولو عن طريق الاستدلال. ماذا تعني العظمة إذا قسّمت أراضيك وسلمتها لقوى أجنبية؟، إذا كان حليفك الرئيسي هو الذي زرع بذور عدم الاستقرار والصراع في منطقتك؟، لكن في الواقع، إن هذه الحقائق التي لا يمكن إنكارها، إذا وُضعت في سياقها، فإنها تضيف إلى عظمة فيصل بدلاً من أن تقلل منها. يتطلب الأمر قوة خارقة لتتمكن من السباحة نحو هدفك بينما هناك كرة وسلسلة مربوطة بإحدى ساقيك.

كان على فيصل أن يبذل جهداً هائلاً للنضال حتى ولو جزئياً من القيود المفروضة عليه، ونجح أخيراً في القيام بذلك، على الرغم من أن انتصاره كان مؤقتاً وقصير الأجل. ومن ناحية أخرى كان لدى بوليفار القليل من قيود فيصل، ولم يشكك أحد في سمعته كمحرر. ومع ذلك، فإن قيود فيصل لم تدفعه إلى التبعية أو اليأس أو التقاعس عن العمل، لقد دفعته إلى الأمام، حتى في النهاية، على حساب صحته. لم تُسمى دولة باسمه ولم يُطلق عليه لقب «المحرر». ومع ذلك، سيكون من الصعب العثور في التاريخ العربي الحديث على شخصية مماثلة، تجمع بين صفات القيادة ورجل الدولة مع فضائل الاعتدال والحكمة واللياقة الأساسية.

احتل تاريخ العراق المعاصر مساحةً مَنْظُورة من اهتمامات مركز الرافدين للحوار (R.C.D)، انطلاقاً من إيمانه أن دراسة ماضي الأمم والاطلاع على تجاربها الماضية الغنية يُسهم في إضافة خبرات تراكمية للجيل الحاضر، ويجعله أكثر قدرة على تشخيص أخطاء أسلافه واجتناب إعادتها أو تكرارها مستقبلاً، وفرز الأعداء عن الأصدقاء. كما إن الذاكرة لا تُقاس بحجمها وما فيها من زخم حافل من التراث الكمّي، بل بكيفية استحضارها وحُسن استثمارها بأسلوبٍ علمي، لحفظ الحقوق ولتقديم العظة والعبرة، بوصفهما مصدراً للإلهام والحصانة الاجتماعية التي تساعد الأجيال اللاحقة على التطلع نحو المستقبل الزاهر المبني على النضج والوعي. ومن هنا جاءت ترجمة وطباعة كتاب (فيصل الاول ملك العراق).

إن الكتاب الذي بين أيدينا يُقدّم توثيقاً شاملاً لحياة واحدٍ من أهم حكّام العراق طوال تاريخه على الإطلاق، بل يُعد من بين أبرز شخصيات الشرق الأوسط لحقبةٍ تاريخية حساسة، تمثلت في الثلث الأول من القرن العشرين، والتي أدت دوراً محورياً في صنع أحداثه الحاسمة ورسم الخطوط الأساسية للكثير من دوله القائمة اليوم، وفي مقدمتها العراق، إذ يُعد (فيصل) الشخص الأهم في تأسيس المملكة العراقية الحديثة عام 1921، وتشييد دعائمها وبناء أركانها، والكفاح من اجل إعطائها هويتها السياسية، وصولاً إلى تخليصها من براثن الاستعمار والوصاية الأجنبية، وتحقيق الاستقلال الناجز.




www.alrafidaincenter.com
info@alrafidaincenter.com
009647826222246
ص.ب. 252
العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغداد - الجادرية - تقاطع ساحة الحرية

ISBN 978-1-7747216-4-3

9 781774 721643 >